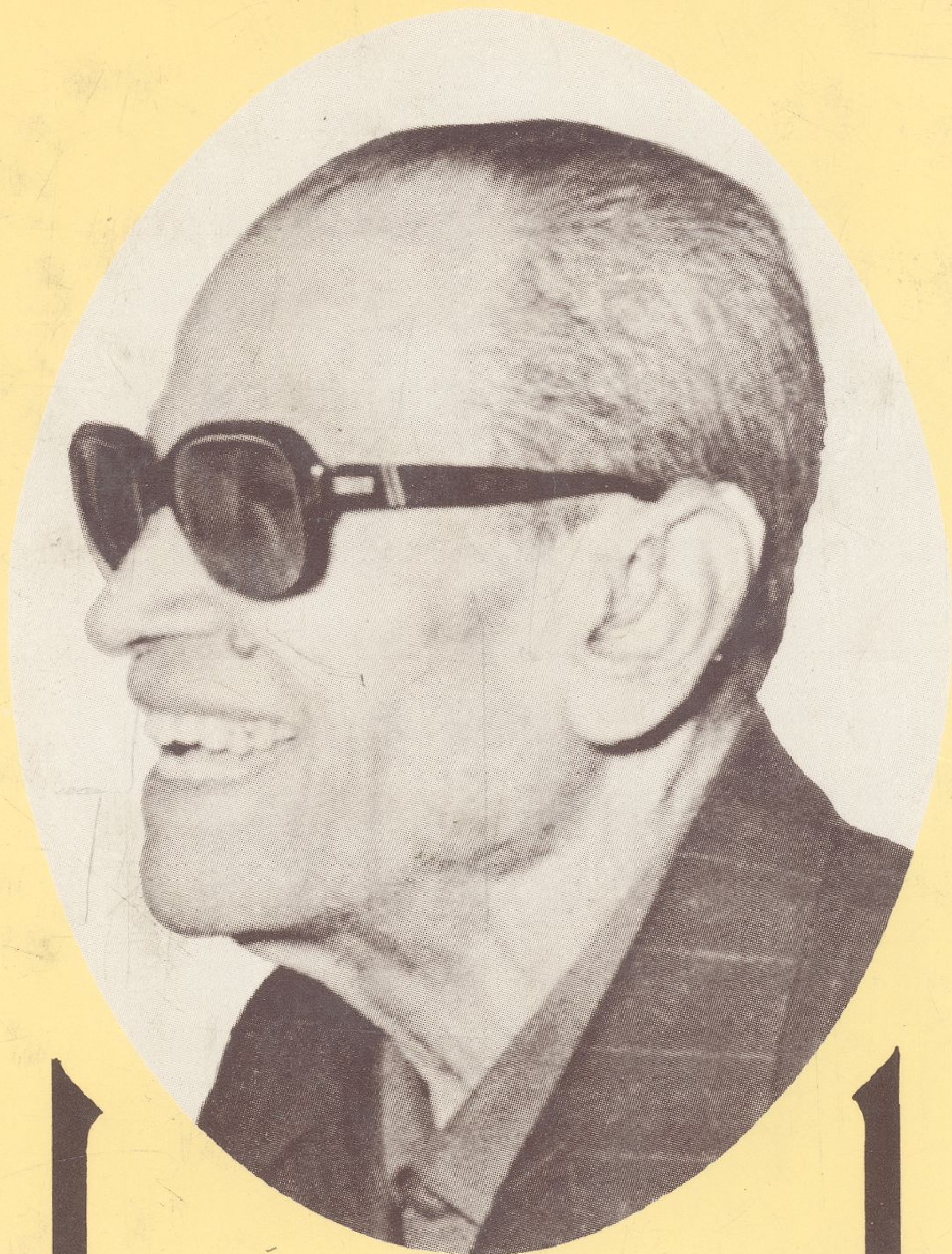
نجيب محفوظ



المؤلفات الكاملة

المجلد الثالث

بعد أن وضعت «مكتبة لبنان» في مُتناوَل القُرّاء العرب المجلّدين الأوّلَيْن من «المؤلّفات الكاملة» لعملاق القصّة العربيّة، الأديب الكبير، نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للآداب عن العام ١٩٨٨، يطيب لها أن تُقدّم المجلّد الثالث من هٰذه المؤلّفات.

وهي تتوجّه به إلى عُشّاق قِصصه ورواياته، وإلى الأدباء والمفكّرين وطُلّاب المعرفة ليتمتّعوا بقراءة ودراسة تِسْعٍ من رِواياته ومجموعاته، تُشكّل فيها رِواية «اللِّصّ والكلاب» نسيجًا جديدًا أو مَرحلةً جديدةً، ومجموعة «خمّارة القطّ الأسود» بِدايةَ مَرحلة أُخرى. ويَظلّ نجيب محفوظ - في كُلّ المَراحل - عالمًا لا يَتوقّف عَن التّدفّق والتّجدّد، ولا يَنقطع عَن التّفاعُل مع الحياة بعامّة، والحياة المصريّة بخاصّة، تفاعُلًا يَتّسم بالتّوهّج والنُّضج: تَفكيرًا وتَعبيرًا وفَنَّ أداءٍ ونَسْجٍ.

ومكتبة لبنان، بعملها هٰذا، تهدف إلى خدمة القُرّاء، الذين يتعاظم إقبالُهم على أدب نجيب محفوظ، يومًا بعد يوم، لما يجدون فيه من متعة الفنّ، ومن تصوير للإنسان دقيق وعميق وشامل، يَتزاوَج فيه ويَتعانَق اللّونُ المحلّيّ بالنَّزعة الإنسانيّة التي تَتَخطّى حواجز الجنس واللّغة والدين.

و«مكتبة لبنان» إذ تُقدِّم الكاتب الكبير في «المؤلّفات الكاملة» في حلّة رفيعة المُستوى، مُمتازة الطِّباعة، فائقة الإخراج، فلأنّها تصدر عن إيمان عميق بأنّ الجوهر الأصيل لا يجوز أن يُؤدّى إلّا بالشّكل اللائق به، حفاظًا على المُستوى الذي وصلت إليه، واحترامًا للكلمة، أداة التّواصُل بين الأديب والناس.

مكتبة لبنان
دائرة النشر

رقم الكتاب 01 R 160119

المؤلفاتُ الكامِلة

المجلّد الثالِث

مَكتبَة لبنَان
ساحَة رياض الصّلح - بَيروت
وكلاء وَموزّعون في جَميع أنحاء العَالَم

الطبعَة الأولى ١٩٩١
رقم الكتاب 01 R 160119
طُبع في لبنان

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

المؤلفات الكاملة

اللص والكلاب
بيت سيئ السمعة
السمان والخريف
الشحاذ
دنيا الله
ثرثرة فوق النيل
الطريق
ميرامار
خمارة القط الأسود

مكتبة لبنان

المحتويات

ص

اللص والكلاب

الفصل الأول

مرّة أخرى يتنفّس نسمة الحرّيّة، ولكنّ الجوّ غبار خانق وحرّ لا يطاق. وفي انتظاره وجد بدلته الزرقاء وحذاءه المطّاط، وسواهما لم يجد في انتظاره أحدًا. ها هي الدنيا تعود، وها هو باب السجن الأصمّ يبتعد منطويًا على الأسرار اليائسة. هٰذه الطرقات المثقلة بالشمس، وهٰذه السيّارات المجنونة، والعابرون والجالسون، والبيوت والدكاكين، ولا شفة تفترّ عن ابتسامة... وهو واحد، خسر الكثير، حتّى الأعوام الغالية خسر منها أربعة غدرًا، وسيقف عمّا قريب أمام الجميع متحدّيًا. آنَ للغضب أن ينفجر وأن يحرق، وللخونة أن ييأسوا حتّى الموت، وللخيانة أن تكفّر عن سحنتها الشائهة. نبويّة عليش، كيف انقلب الاسمان اسمًا واحدًا؟ أنتما تعملان لهٰذا اليوم ألف حساب، وقديمًا ظننتما أنّ باب السجن لن ينفتح، ولعلّكما تترقّبان في حذر، ولن أقع في الفخّ، ولكنّي سأنقضّ في الوقت المناسب كالقَدَر. وسناء إذا خطرت في النفس انجاب عنها الحرّ والغبار والبغضاء والكدر. وسطع الحنان فيها كالنقاء غبّ المطر. ماذا تعرف الصغيرة عن أبيها؟... لا شيء، كالطريق والمارّة والجوّ المنصهر. طوال أربعة أعوام لم تغب عن باله، وتدرّجت في النموّ وهي صورة غامضة، فهل يسمح الحظّ بمكان طيّب يصلح لتبادل الحبّ. ينعم في ظلّه بالسرور المظفّر، والخيانة ذكرى كريهة بائدة؟ استعِنْ بكلّ ما أوتيت من دهاء، ولتكن ضربتك قويّة كصبرك الطويل وراء الجدران، جاءكم مَن يغوص في الماء كالسمكة ويطير في الهواء كالصقر ويتسلّق الجدران كالفأر وينفذ من الأبواب كالرصاص. ترى بأيّ وجه يلقاك؟ كيف تتلاقى العينان؟ أنسيت يا عليش كيف كنت تتمسّح في ساقيّ كالكلب؟ ألم أعلّمك الوقوف على قدمين؟ ومَن الذي جعل من جامع الأعقاب رجلًا؟ ولم تَنس وحدك يا عليش ولٰكنّها نسيت أيضًا، تلك المرأة النابتة في طينة نتنة اسمها الخيانة. ومن خلال هٰذا الكدر المنتشر لا يبسم إلّا وجهكِ يا سناء، وعمّا قريب سأختبر مدى حظّي من لقياك، عندما أقطع هٰذا الشارع ذا البواكي العابسة، طريق الملاهي البائدة، الصاعد إلى غير رفعة، أشهد أنّي أكرهك. الخمّارات أغلقت أبوابها ولم يبق إلّا الحوارى التي تحاك فيها المؤامرات، والقدم تعبر من آن لآن نقرة مستقرّة في الطوار كالمكيدة، وضجيج عجلات الترام يكركر كالسبّ، ونداءات شتّى تختلط كأنّما تنبعث من نفايات الخضر، أشهد أنّي أكرهك. ونوافذ البيوت المغرية حتّى وهي خالية، والجدران المتجهّمة المقشّفة، وهٰذه العطفة الغريبة عطفة الصيرفي، الذكرى المظلمة، حيث سَرق السارق، وفي غمضة عين انطوى، الويل للخونة. في هٰذه العطفة ذاتها زحف الحصار كالثعبان ليطوّق الغافل، وقبل ذٰلك بعام خرجت من العطفة تحمل دقيق العيد والأخرى تتقدّمك حاملة سناء في قماطها، تلك الأيّام الرائعة التي لا يدري أحد مدى صدقها، فانطبعت آثار العيد والحبّ والأبوّة والجريمة فوق أديم واحد. وتراءت الجوامع الشاهقة، وطارت رأس القلعة في السماء الصافية، وانساب الطريق في الميدان، وتجلّت خضرة البستان تحت الأشعّة الحامية، وهبّت نسمة جافّة رغم القيظ منعشة، ميدان القلعة بكلّ ذكرياته المحرقة. وكان على الوجه الذي لفحته الشمس أن ينبسط وأن يصبّ ماء باردًا على جوفه المستعر كي يبدو مسالمًا أليفًا فيمثّل دوره المرسوم كما ينبغي. واجتاز وسط الميدان متّجهًا نحو سكّة الإمام. ومضى فيها يقترب من البيت ذي الأدوار الثلاثة في نهايتها وعلى مفرق عطفتين جانبيّتين يتفرّع إليهما الطريق الأوّل. في هٰذه الزورة البريئة سيكشف العدوّ عمّا أعدّه للّقاء، فادرس طريقك ومواقعه، وهٰذه

الدكاكين التي تشرئبّ منها الرءوس كالفيران المتوجّسة. وجاءه صوت من وراء يقول:

- سعيد مهران!... ألف نهار أبيض...

توقّف عن المسير حتّى أدركه الرجل فتصافحا وهما يغطّيان على انفعالاتهما الحقيقيّة بابتسامة باهتة. إذن بات للوغد أعوان، وسيرى قريبًا ما وراء هذا الاستقبال، ولعلّك تنظر من الشيش مستخفيًا كالنساء يا عليش.

- أشكرك يا معلّم بيّاظة...

ولحق بهما كثيرون من الدكاكين على الجانبين، وارتفعت حرارة التهاني، وسرعان ما وجد نفسه مطوّقًا من جميع الجهات بحشد من أصدقاء غريمه ولا شكّ، واستبقت الحناجر قائلة:

- الحمد لله على سلامتك...

- مبارك للأصدقاء والأحباب...

- قلنا من القلوب سيفرج عنه في عيد الثورة...

فقال وهو يتفحّصهم بعينيه اللوزيّتين العسليّتين:

- الشكر لله ولكم...

فربّت بيّاظة على منكبه قائلًا:

- تعال إلى الدكّان لنشرب الشربات!

فقال بهدوء:

- فيما بعد، عند العودة...

- العودة ؟!

وصاح أحد الرجال موجّهًا حنجرته إلى الدور الثاني من البيت:

- يا معلّم عليش!... يا معلّم عليش انزل هنّئ سعيد مهران !

لا داعي للتحذير يا خنفساء. إنّي قادم في ضوء النهار... وأعلم أنّكم تترقّبون... وعاد بيّاظة يتساءل:

- العودة من أين ؟

- لديّ حساب يجب أن أسوّيه...

فتساءل بوجه ممتعض:

- مع من ؟

- أنسيت أنّي أب؟... وأنّ ابنتي الصغيرة عند عليش ؟

- نعم، ولكلّ خلاف حلّ في الشرع...

وقال آخر:

- والتفاهم خير...

وثالث قال بنبرة المسالم:

- سعيد أنت قادم من السجن والعاقل من اتّعظ!

فقال وهو يداري حنقه المختنق:

- من قال إنّي جئت لغير التفاهم؟!

وفُتحت نافذة في الدور الثاني وأطلّ منها عليش فارتفعت الرءوس إليه في توتّر. وقبل أن تبدر كلمة خرج من باب البيت رجل طويل عريض، في جلباب مقلّم، ينتعل حذاء حكوميًّا فعرف سعيد فيه المخبر حسب الله. وسرعان ما تظاهر بالدهش وقال منفعلًا:

- ماذا دعا إلى إقلاقك وما جئت إلّا للتفاهم؟

فمضى نحوه مسرعًا وتحسّسه مفتّشًا عمّا يريب في صدره أو جيوبه، فعل ذلك بمهارة وخفّة ودربة وهو يقول:

- اسكت يا بن الثعلب، ماذا تريد ؟

- جئت للتفاهم على مستقبل ابنتي...

- أنت تعرف التفاهم!

- نعم، من أجل ابنتي...

- عندك المحكمة...

- سألجأ إليها عند اليأس!

وصاح عليش من أعلى:

- دعه يدخل، تفضّلوا...

اجمعهم حولك يا جبان. إنّما جئت أجسّ حصونك. وعند الأجل لا ينفع مخبر ولا جدار. ودخلوا حجرة الاستقبال فتفرّقوا فوق الكنب والمقاعد. وفُتحت النوافذ فاندفع الضوء والذباب، وتبدّت في البساط السماويّ نقط سود من أثر حروق. وحملق عليش من صورة كبيرة في الجدار معتمدًا بقبضتيه عصا غليظة. أمّا المخبر فقد جلس إلى جانب سعيد وراح يعبث بحبّات مسبحة. ودخل عليش سدرة في جلباب فضفاض منتفخ حول جسم برميليّ، رافعًا وجهًا مستديرًا ممتلئ اللغد تحت ذقن مربّعة وأنف غليظ محطّم العرنين. صافح سعيد متظاهرًا بالشجاعة وقال:

- حمدًا لله على سلامتك!

وسرعان ما تأزّم الجوّ بالصمت وتبودلت نظرات قلقة حتّى عاد عليش يقول وكأنّما يرغب في فتح صفحة جديدة:

ـ ما فات فات، وكلّ ما حصل يقع كلّ يوم، وقد تحدث أمور مؤسفة وتنهار صداقات قديمة، ولكن لا يعيب الرجل إلّا العيب!

بدا سعيد وهو يتابعه بعينيه البرّاقتين وجسمه النحيل القويّ كأنّه نمر يتربّص بفيل، ولم يسعه إلّا أن يردّد قوله:

ـ لا يعيب إلّا العيب...

وحدجته أعين كثيرة عقب ترديده وكفّت يد المخبر عن العبث بحبّات المسبحة فأدرك هو ما يجول بخاطرهم فقال مستدركًا:

ـ أوافقك على ما قلت حرفًا بحرف...

فقال المخبر بضجر:

ـ ادخلوا في الموضوع واعفونا من اللفّ...

فتساءل سعيد بسخرية خفيّة:

ـ من أيّ ناحية؟

ـ ناحية واحدة هي التي يجوز الكلام فيها وهي ابنتك!

وزوجتي وأموالي يا جرب الكلاب! الويل... الويل. أريد أن أتلقّى نظرة من عينيك. كي أحترم من الآن فصاعدًا الخنفساء والعقرب والدودة. سحقًا لمن يطرب لأنغام امرأة. لكنّه هزّ رأسه بالإيجاب، فقال أحد ماسحي الجوخ:

ـ بنتك في الحفظ والصون، مع أمّها، وشرعًا يجب أن تبقى مع أمّها بنت ستّة أعوام، وإن شئت أزورك بها كلّ أسبوع...

فرفع سعيد صوته متعمّدًا ليُسمع من الخارج:

ـ شرعًا هي حقّ لي لشتّى الملابسات والظروف...

فتساءل عليش في غلظة:

ـ ماذا تقصد ؟

ولكنّ المخبر عاجله قائلًا:

ـ لن يجيء من الكلام إلّا وجع الدماغ...

فقال عليش بيقين:

ـ لم أرتكب جريمة ولكنّها القسمة والنصيب، والواجب أيضًا، واجب المروءة دفعني إلى ما فعلت، ومن أجل البنت الصغيرة أيضًا!

واجب المروءة يا ابن الأفعى! الغدر والخيانة المزدوجة. المطرقة والفأس وحبل المشنقة. ولكن ما شكل سناء الآن؟ وقال بهدوء ما استطاع:

ـ لم أتركها في حاجة، كانت لديها أموالي، أموال طائلة...

فهتف المخبر:

ـ تقصد مسروقاتك؟! تلك التي أنكرتها في المحكمة!

ـ ليكن، ولكن أين ذهبت ؟!

فصاح عليش:

ـ ولا مليم! صدّقوني يا رجال، كانت الحال لا يُسَرّ بها عدوّ ولا حبيب، وحقًّا قمت بالواجب...

فتساءل سعيد في تحدٍّ:

ـ خبّرني كيف أمكنك أن تعيش في سعة وأن تنفق على الآخرين؟

فصاح عليش محتدًّا:

ـ هل أنت ربّنا حتّى تحاسبني؟

وقال رجل من ماسحي الجوخ:

ـ اخز الشيطان يا سعيد...

وقال المخبر:

ـ أنا عارفك وفاهمك، أنا خير من يقرأ داخل رأسك، ولكنّك ستهلك نفسك، لا تخرج عن موضوع البنت فهذا خير لك...

فتراجع سعيد باسمًا وهو يخفي عينيه في الأرض وقال باستسلام:

ـ بالحقّ نطقت يا حضرة المخبر...

ـ أنا عارفك وفاهمك ولكنّني سأماشيك احترامًا لهؤلاء الرجال، هاتوا البنت، أليس الأفضل أن نعرف رأيها أوّلًا؟

ـ كيف يا حضرة المخبر؟

ـ يا سعيد أنا فاهمك، أنت لا تريد البنت، ولا تستطيع أن تأويها، ولن تجد لنفسك مأوى إلّا بعد الجهد، ولكن من العدل والرحمة أن تراها، هاتوا البنت...

بل هاتوا أمّها. كم أرغب أن تلتقي العينان! كي أرى سرًّا من أسرار الجحيم. الفأس والمطرقة. وقام عليش ليجيء بها.

وعندما ترامى وقع الأقدام القادمة خفق قلب سعيد خفقة موجعة وتطلّع إلى الباب وهو يعضّ على باطن شفتيه. مسح تطلّع شيّق وحنان جارف جميع عواصف الحنق. وظهرت البنت بعينين داهشتين بين يدي الرجل، ظهرت بعد انتظار طال ألف سنة. وتبدّت في فستان أبيض أنيق وشبشب أبيض كشف عن أصابع قدميها المخضوبتين. وتطلّعت بوجه أسمر وشعر أسود مسبسب فوق الجبين فالتهمتها روحه. وجعلت تقلّب عينيها في الوجوه بغرابة، وفي وجهه خاصّة باستنكار شديد لشدّة تحديقه ولشعورها بأنّها تُدفع نحوه، وإذا بها تفرمل قدميها في البساط وتميل بجسمها إلى الوراء. لم ينزع منها عينيه ولكنّ قلبه انكسر، انكسر حتّى لم يبق فيه إلّا شعور بالضياع، كأنّها ليست بابنته، رغم العينين اللوزيّتين والوجه المستطيل والأنف الأقنى الطويل. ونداء الدم والروح ما شأنه؟ أم هو الآخر قد خان وغدر؟ وكيف له رغم ذٰلك كلّه بمقاومة هٰذه الرغبة الجامحة في ضمّها إلى صدره حتّى الفناء؟

وقال المخبر بضجر ودون اكتراث:

ـ أبوك يا شاطرة!

وقال عليش بوجه لا يبين عن شيء:

ـ سلّمي على بابا...

كالفأرة! ممّ تخاف! ألا تدري كم يحبّها! ومدّ نحوها يده ولكنّه بدل الكلام شرق فازدرد ريقه، وابتسم في رقّة وإغراء. وقالت سناء لا. وتحرّكت لتتسلّل راجعة لولا الرجل وراءها. وهتفت «ماما» فدفعها الرجل برقّة وهو يقول:

ـ سلّمي على بابا...

وتجلّت في الأعين نظرات اهتمام، وشماتة. وآمن سعيد بأنّ جَلْد السجن ليس بالقسوة التي كان يظنّها. وقال متوسّلًا:

ـ تعاليَ يا سناء...

ولم يعد يحتمل رفضها فقام نصف قومة ومال نحوها فهتفت:

ـ لا...

ـ أنا بابا.

فرفعت عينيها إلى عليش سدرة مستغربة فقال سعيد بإصرار:

ـ أنا بابا، أنا، تعاليَ...

فتأبّت واشتدّ ميلها إلى الوراء. جذبها نحوه بشيء من القوّة. صرخت. ضمّها إلى صدره فدافعته باكية. ومال نحوها ليلثم ـ رغم هزيمته ويأسه ـ فاها أو خدّها ولكنّ شفتيه لم تلثما إلّا ساعدها المتحرّك في عصبيّة غير راحمة.

ـ أنا بابا، لا تخافي، أنا بابا...

وأفعمت رائحة شعرها روحه بذكرى أمّها فتقبّضت أساريره. وازدادت البنت مدافعة وبكاء حتّى قال المخبر:

ـ على مهلك البنت لا تعرفك...

فتركها تجري يائسًا، ثمّ اعتدل في جلسته وهو يقول بغضب:

ـ سوف آخذها...

ومضت هنيهة صمت قبل أن يقول له بيّاظة:

ـ هدّئ نفسك أوّلًا...

فقال بإصرار:

ـ لا بدّ أن تعود إليّ...

فقال المخبر بحدّة:

ـ دع القرار للقاضي...

ثمّ التفت نحو عليش متسائلًا:

ـ نعم؟

ـ الأمر لا يخصّني في شيء ولكنّ أمّها لن تفرّط فيها إلّا بالشرع...

فقال المخبر:

ـ كما قلت أوّل الأمر، كلمة واحدة لا ثاني لها، وهي المحكمة!

وشعر سعيد بأنّه لو تمادى في الغضب لانفجر جنونه فتسلّط على مشاعره بقوّة غير طبيعيّة مذكّرًا نفسه بأشياء كاد ينساها، وقال بهدوء نسبيّ:

ـ نعم المحكمة!

فقال بيّاظة:

ـ والبنت كما ترى تعيش في رعاية وراحة. . .
وقال المخبر في لهجة لم تخلُ من سخرية:
ـ ابحث أوّلًا عن طريق مستقيم تأكل منه لقمتك. . .
رغم هٰذا بدا أنّه يسيطر على نفسه أكثر فأكثر حتّى قال:
ـ نعم، كلّ هٰذا حقّ، ولا داعي للأسف من ناحيتي، وسأعاود التفكير في الأمر كلّه، ولا شكّ أنّه خير أن أنسى الماضي وأن أبحث عن عمل حتّى أهيّئ للبنت مكانًا طيّبًا في الوقت المناسب.
وساد الصمت دهشة فتبودلت نظرات مصدِّقة وغير مصدِّقة، وكوّر المخبر قبضته على المسبحة متسائلًا:
ـ انتهينا؟
فقال سعيد:
ـ نعم، ولٰكنّي أريد كتبي. . .
ـ كتبك!؟
ـ نعم. . .
فصاح عليش:
ـ ضاع أكثرها بيد سناء وسأحضر لك ما بقي منها.
وغاب الرجل برهة ثمّ عاد حاملًا على يديه عامودًا متوسّطًا من الكتب، فوضعه وسط الحجرة. وقام سعيد إلى المجموعة فتناول كتابًا إثر آخر وهو يقول بأسف:
ـ ضاع أكثرها حقًّا. . .
وضحك المخبر متسائلًا:
ـ من أين لك هٰذا العِلْم؟
ثمّ وهو ينهض معلنًا انتهاء المقابلة:
ـ أكنت تسرق فيما تسرق الكتب؟
وابتسم الجميع ولٰكنّ سعيد أقبل يحمل الكتب دون أن يبتسم. . .

الفصل الثاني

نظر إلى الباب المفتوح، المفتوح دائمًا كما عهده من أقصى الزمن، وهو يقترب منه ضاربًا في طريق الجبل. مثوى ذكريات ورحمة في حيّ الدراسة القائم بين ذراعَي المقطّم. الأرض أطفال ورمال ودوابّ وهو من التعب والانفعال يلهث. وجرت عيناه وراء الصغيرات من البنات بلا ملل. وما أكثر الكسالى المستلقين في ظلّ الجبل بعيدًا عن الشمس المائلة! ووقف على عتبة الباب المفتوح قليلًا، ينظر ويتذكّر، ترى متى عبر هٰذه العتبة آخر مرّة؟ يا له من مسكن بسيط كالمساكن في عهد آدم. حوش كبير غير مسقوف في ركنه الأيسر نخلة عالية مقوّسة الهامة، وإلى اليمين من دهليز المدخل باب حجرة وحيدة مفتوح. لا باب مغلق في هٰذا المسكن العجيب. وخفق قلبه فأرجعه إلى عهد بعيد طريّ، طفولة وأحلام وحنان أب وأخيلة سماويّة. المهتزّون بالأناشيد يملئون الحوش والله في أعماق الصدور يتردّد. انظر واسمع وتعلّم وفتّح قلبك. . . هٰكذا كان يقول الأب. وفرحة كالجنّة بعثها الحلم والإيمان، وفرحة بالغناء والشاي الأخضر أيضًا. ترى كيف حالك يا شيخ عليّ يا جنيدي يا سيّد الأحياء؟ وترامى إليه صوت من داخل الحجرة وهو يختم الصلاة فابتسم سعيد ومرق من باب الحجرة حاملًا كتبه. هاك الشيخ متربّعًا على سجّادة الصلاة غارقًا في التمتمة. وهٰذه الحجرة القديمة لم يكد يتغيّر منها شيء. الحصر جُدّدت شكرًا للمريدين وما زال الفراش البسيط لصق الجدار الغربيّ، وشعاع الشمس المائلة ينسكب من كوّة عند قدميه، أمّا بقيّة الجدران فقد اختفى أسفلها وراء أرفف المجلّدات، ورائحة البخور المستقرّة كأنّما لم تتبخّر منذ عشرات الأعوام. تخفّف من حمله واقترب من الشيخ قائلًا:
ـ السلام عليكم يا سيّدي ومولاي!
أتمّ الشيخ تمتمته ثمّ رفع رأسه عن وجه نحيل فائض الحيويّة بيّن الإشراق تحفّ به لحية بيضاء كالهالة. وعلى الرأس طاقيّة بيضاء منغرزة في سوالف كثّة فضّيّة. حدجه بعين رأت الدنيا ثمانين عامًا ورأت الآخرة. عين لم تفقد جاذبيّتها ونفاذها وسحرها فلم يملك سعيد من أن يهوي على يده فيقبّلها وهو يدفع دمعة باطنيّة استقطرها من جوّ الذكريات والأب والأمل والسماء في الماضي البعيد.
ـ وعليكم السلام ورحمة الله. . .
هٰذا صوت زمان! ترى كيف كان صوت أبيه؟ كأنّما

يتذكّر صوت أبيه بعينيه فيرى وجهه وشفتيه وهما يتحرّكان ولكنّ الصوت انتهى. وأين المريدون، أين أهل الذكر، يا سيّدي محمّد على بابك! وتربّع أمامه على الحصيرة وهو يقول:

- أجلس دون استئذان لأنّي أذكر أنّك تحبّ ذٰلك!

شعر بأنّ الشيخ ابتسم من دون أن ترتسم على شفتيه الغارقتين في البياض ابتسامة. ترى هل تذكّره؟

- لا تؤاخذني، لا مكان لي في الدنيا إلّا بيتك...

ترك الشيخ رأسه يهوي في صدره وهو يقول بصوت هامس:

- أنت تقصد الجدران لا القلب...

فتنهّد سعيد، وبدا لحظة كأنّه لم يفهم شيئًا، ثمّ قال بصراحة ودون مبالاة:

- خرجت اليوم فقط من السجن...

فأغمض الشيخ عينيه متسائلًا:

- السجن!

- نعم، أنت لم ترني منذ أكثر من عشرة أعوام، وفي تلك الفترة من الزمن حدثت أمور غريبة، ولعلّك سمعت عنها من بعض مريديك الذين يعرفونني...

- لأنّني أسمع كثيرًا لا أكاد أسمع شيئًا...

- على أيّ حال لا أحبّ أن ألقاك متنكّرًا، لذلك أقول لك إنّني خرجت اليوم فقط من السجن...

فهزّ رأسه في بطء وهو يفتح عينيه قائلًا فيما يشبه الأسى:

- أنت لم تخرج من السجن...

فابتسم سعيد. كلمات العهد القديم تتردّد من جديد. حيث لكلّ لفظ معنى غير معناه. وقال:

- يا مولاي، كلّ سجن يهون إلّا سجن الحكومة... فرنا إليه بعين رائقة ثمّ تمتم:

- يقول إنّ كلّ سجن يهون إلّا سجن الحكومة...

فابتسم سعيد مرّة أخرى. كاد ييأس من التلاقي. ثمّ تساءل في حرارة:

- هل تذكّرتني؟

فغمغم الشيخ دون مبالاة:

- ولك الساعة التي أنت فيها!

ومع أنّه لم يشكّ في أنّه تذكّره إلّا أنّه تساءل مستزيدًا من الثقة:

- وأبي عمّ مهران الله يرحمه؟

- الله يرحمنا...

- ما أجمل الأيّام الماضية!

- قل ذٰلك إن استطعت عن الساعة...

- ولٰكن...

- الله يرحمنا!

- قلت إنّي خارج اليوم من السجن...

فهزّ رأسه في طرب مفاجئ قائلًا:

- وقال وهو على الخازوق باسمًا: جرت مشيئته بأن نلقاه هٰكذا...

- أبي كان يفهمك. كم أعرضت عنّي حتّى خلتك تطردني طردًا. ورجعت بقدميّ إلى جوّ البخور والقلق. هٰكذا يفعل موحش القلب الذي لا بيت له. وقال:

- مولاي، قصدتك في ساعة أنكرتني فيها ابنتي...

فقال الشيخ متأوّهًا:

- يضع سرّه في أصغر خلقه!

فقال جادًّا:

- قلت لنفسي إذا كان الله قد مدّ له العمر فسأجد الباب مفتوحًا...

فقال الشيخ بهدوء:

- وباب السماء كيف وجدته؟

- لٰكنّي لا أجد مكانًا في الأرض، وابنتي أنكرتني...

- ما أشبهها بك...

- كيف يا مولاي؟

- أنت طالب بيت لا جواب...

فأسند رأسه المفلفل إلى يده المعروقة الدكناء وقال:

- كان أبي يقصدك عند الكرب، وجدت نفسي...

فقاطعه بهدوء لا يخرج عنه:

- أنت تريد بيتًا ليس إلّا...

تضاعف شعوره بأنّه يعرفه، وقلق دونما سبب مفهوم، وقال:

- ليس بيتًا فحسب، أكثر من ذٰلك، أودّ أن أقول

اللّهمّ ارضَ عنّي. . .

فقال الشيخ كالمترنّم:

ـ قالت المرأة السماويّة «أما تستحي أن تطلب رضا مَن لست عنه براضٍ؟!».

وضجّ الخلاء في الخارج بنهيق حمار خُتم بحشرجة كالبكاء. وغنّى صوت لا حلاوة فيه «البخت والقسمة فين». كما ضبطه أبوه وهو يغنّي «حزّر فزّر» فلكمه برحمة وقال له «أهٰذه أغنية مناسبة ونحن في الطريق إلى الشيخ المبارك؟». وترنّح الأب وسط الذّكر، غابت عيناه، بحّ صوته، تصبّب عرقًا. وجلس عند النخلة يشاهد صفّي المريدين تحت ضوء الفانوس ويقضم دومة وينعم بسعادة عجيبة. وكان ذٰلك سابقًا لنزول أوّل قطرة حارقة من شراب الحبّ. وأغمض الشيخ عينيه فكأنّه نام. وألف هو المنظر والجوّ حتّى البخور لم يعد يشمّه. وطرأت فكرة بأنّ العادة أساس الكسل والملل والموت. وهي المسئولة عمّا عانى من خيانة وجحود وضياع جهد العمر سدى. وتساءل ليوقظه:

ـ ألا تزال تحيا الأذكار هنا؟

فلم يجبه. وساوره القلق فعاد يسأل:

ـ ألا ترحّب بي؟

ففتح الشيخ عينيه قائلًا:

ـ ضعف الطالب والمطلوب. . .

ـ لٰكنّك صاحب البيت!

فقال في مرح طارئ :

ـ صاحب البيت يرحّب بك، وهو يرحّب بكلّ مخلوق، وبكلّ شيء. . .

فابتسم سعيد متشجّعًا، فاستدرك الشيخ قائلًا:

ـ أمّا أنا فصاحب لا شيء. . .

وكان ضوء الشمس المرسوم على الحصيرة قد انسحب إلى الجدار فقال سعيد:

ـ على كلّ حال فهٰذا البيت بيتي، كما كان بيت أبي، وبيت كلّ قاصد، وأنت يا مولاي جدير بكلّ شكر. . .

فقال الشيخ:

ـ اللّهمّ إنّك تعلم عجزي عن مواضع شكرك فاشكر نفسك عنّي، هٰكذا قال بعض الشاكرين!

فقال سعيد برجاء:

ـ إنّي في حاجة إلى كلمة طيّبة. . .

فقال في عتاب حليم:

ـ لا تكذب. . .

وأحنى رأسه حتّى انتشرت لحيته على صدره وراح مستغرقًا. انتظر سعيد صابرًا، ثمّ تزحزح إلى الوراء ليسند ظهره إلى رفّ من رفوف الكتب، وجعل يتأمّل الشيخ الجميل. ولـمّا طال انتظاره سأله:

ـ هل من خدمة أؤدّيها لك؟

فلم يعنّ بالالتفات إلى قوله، ومضى زمن صامت وعينا سعيد تتابع طابورًا من النمل يزحف بخفّة بين ثنيات الحصيرة. وإذا بالشيخ يقول:

ـ خذ مصحفًا واقرأ. . .

ـ غادرت السجن اليوم ولم أتوضّأ. . .

ـ توضّأ واقرأ. . .

فقال بلهجة جديدة شاكية:

ـ أنكرتني ابنتي، وجفلت منّي كأنّي شيطان، ومن قبلها خانتني أمّها!

فعاد الشيخ يقول برقّة:

ـ توضّأ واقرأ. . .

ـ خانتني مع حقير من أتباعي، تلميذ كان يقف بين يديّ كالكلب، فطلبت الطلاق محتجّة بسجني، ثمّ تزوّجت منه. . .

ـ توضّأ واقرأ. . .

فقال بإصرار:

ـ ومالي، النقود والحليّ، استولى عليها، وبها صار معلّـمًا قدّ الدنيا، وجميع أنذال العطفة أصبحوا من رجاله. . .

ـ توضّأ واقرأ. . .

بعبوس وقد انتفخت عروق جبينه:

ـ لم يُقبض عليّ بتدبير البوليس، كلّا، كنت كعادتي واثقًا من النجاة، الكلب وشى بي، بالاتّفاق معها وشى بي، ثمّ تتابعت المصائب حتّى أنكرتني ابنتي. . .

فقال الشيخ بعتاب:

ـ توضّأ واقرأ «قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله»، واقرأ «واصطنعتك لنفسي» وردّد قول

القائل «المحبّة هي الموافقة أي الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عمّا زجر، والرضا بما حكم وقدّر».

ها هو أبي يسمع ويهزّ رأسه طربًا. ويرمقني باسمًا كأنّما يقول لي اسمع وتعلّم. وأنا سعيد وأودّ غفلة لأتسلّق النخلة. أو أرمي طوبة لأسقط بلحة. وأترنّم سرًا مع المنشدين. ومع العودة ذات مساء إلى بيت الطلبة بالجيزة رأيتها مقبلة تحمل سلّة. جميلة وجذّابة، طاوية هيكلها على جميع ما قدّر لي من هناء الجنّة وعذاب الجحيم. ماذا كان يعجبك من إنشاد المنشدين؟ لـمّا بدا لاح منار الهدى، ورأيت الهلال ووجه الحبيب. لكنّ الشمس لم تغرب بعد. آخر خيط ذهبيّ يتراجع من الكوّة. أمامي ليلة طويلة. هي أولى ليالي الحرّيّة. وحدي مع الحرّيّة. أو مع الشيخ الغائب في السماء. المردّد لكلمات لا يمكن أن يعيها مُقبل على النار. ولكن هل من مأوى آخر آوي إليه؟ . . .

الفصل الثالث

قلّب صفحات جريدة «الزهرة» حتّى عثر على ركن الأستاذ رءوف علوان. وراح يقرأ بشغف وهو لم يزل على مبعدة أذرع من بيت الشيخ عليّ الجنيدي حيث قضى ليلته. لكن من أيّ مداد يستمدّ رءوف علوان وحيه؟ ملاحظات عن موضة السيّدات، مكبّرات الصوت، ردّ على شكوى زوجة مجهولة! أفكار لذيذة حقًّا ولكن أين رءوف علوان؟ بيت الطلبة وتلك الأيّام العجيبة الماضية. الحماس الباهر الممثّل في صورة طالب ريفيّ رثّ الثياب كبير القلب. والقلم الصادق المشعّ. ترى ماذا حدث للدنيا؟ وماذا وراء هذه الأعاجيب والأسرار؟ وهل ثمّة أحداث وقعت كأحداث عطفة الصيرفي؟ حوادث نبويّة وعليش والبنت الصغيرة المحبوبة التي أنكرت أباها. عليّ أن أقابله. الشيخ أعطاني فراشًا فوق الحصيرة للنوم ولكنّي في حاجة إلى نقود. عليّ أن أبدأ الحياة من جديد يا أستاذ علوان. أنت لا تقلّ عظمة عن الشيخ عليّ، أنت أهمّ ما لديّ في هذه الحياة التي لا أمان لها. وتوقّف عن السير أمام مبنى جريدة الزهرة بميدان المعارف. ضخم حقًّا بحيث لا يسهل السطو عليه! وهذا الطابور من السيّارات المحدق به كحرّاس الجدران الرهيبة. وأصوات المطابع وراء قضبان البدروم كهينمة الراقدين في العنابر. ودخل ضمن تيّار الداخلين ثمّ وقف أمام مكتب الاستعلامات وسأل بصوته الغليظ النبرات:

ـ الأستاذ رءوف علوان؟

فرمقه الموظّف فيما يشبه الامتعاض لنظرة عينيه اللوزيّتين الجريئة لحدّ الوقاحة. وأجابه بجفاء:

ـ الدور الرابع . . .

قصد من توّه المصعد فوقف بين قوم بدا فيهم غريب المنظر ببدلته الزرقاء وحذائه المطّاط، وزاد من غرابته نظرته الحادّة الجريئة وأنفه الأقنى الطويل. ولمح بين الواقفين فتاة فلعن في سرّه نبويّة وعليش وتوعّدهما بالويل. وما إن انتهى إلى طرقة الدور الرابع حتّى مرق إلى حجرة السكرتير قبل أن يتمكّن الساعي من اعتراضه. وجد نفسه في حجرة كبيرة مستطيلة زجاجيّة الجدار المطلّ على الطريق، وليس بها موضع لجالس. وسمع السكرتير وهو يؤكّد لمتحدّث في التليفون أنّ الأستاذ رءوف مجتمع برئيس التحرير وأنّه لن يعود قبل ساعتين. شعر بأنّه غريب حقًّا، لكنّه وقف دون مبالاة، يحملق في الوجوه بوقاحة كأنّما يتحدّاهم. وقديمًا كان يرمق أمثالهم بعين تودّ ذبحهم، فما حال هؤلاء اليوم؟ أمّا رءوف فلن يصفو له هنا. وما هذا المكان بالملتقى المناسب للأصدقاء القدامى. ورءوف اليوم رجل عظيم فيما يبدو. عظيم جدًّا كهذه الحجرة. ولم يكن فيما مضى إلّا محرّرًا بمجلّة النذير، مجلّة منزوية بشارع محمّد عليّ. ولكنّها كانت صوتًا مدوّيًا للحرّيّة. ترى كيف أنت اليوم يا رءوف؟ هل تغيّر مثلك يا نبويّة؟ هل ينكرونني مثلك يا سناء؟ ولكن بعدًا لأفكار السوء. هو الصديق والأستاذ، وسيف الحرّيّة المسلول، وسيظلّ كذلك رغم العظمة المخيفة والمقالات الغريبة وسكرتاريّته الرفيعة. وإذا كانت هذه المجلّة لن تمكّنني من عناقك فعن دفتر التليفون سأعرف مسكنك. . .

افترش العشب النديّ عند كورنيش النيل بشارع النيل ومضى ينتظر. انتظر طويلًا على كثب من شجرة حجبت ضوء المصباح الكهربائيّ، تحت سماء غاب

عنها الهلال مبكّرًا تاركًا النجوم تومض في ظلمة رهيبة. وجرت نسمة رقيقة لطيفة مقطّرة من أنفاس الليل عقب نهار أحمر طغى فيه الصيف طغيانه. ولم تفارق عيناه الفيلّا رقم ١٨ لحظة واحدة، موليًا النيل ظهره شابكًا راحتيه حول ركبتيه. يا لها من فيلّا خالية من ثلاث جهات، والجهة الرابعة حديقة مترامية. وأشباح هذه الأشجار تتناجى حول جسد الفيلّا الأبيض، منظر قديم طالما شهد بالثراء وذكريات التاريخ. ولكن كيف؟ ما الوسيلة؟ وفي هذه المدّة القصيرة؟ حتّى اللصوص لا يحلمون بذلك. اعتدت في الماضي ألّا أنظر إلى فيلّا هكذا إلّا عند رسم خطّة للسطو عليها، فكيف آمل اليوم مودّة وراء فيلّا؟! رءوف علوان أنت لغز وعلى اللغز أن يتكلّم، أليس عجيبًا أن يكون علوان على وزن مهران؟! وأن يمتلك عليش تعب عمري كلّه بلعبة الكلاب؟

ووثب واقفًا عند توقّف سيّارة أمام باب الفيلّا. ولـمّا رأى البوّاب يفتح الباب على مصراعيه عَبَرَ الطريق بسرعة خاطفة ثمّ تصدّى للسيّارة منحنيًا قليلًا ليراه صاحبها، ولكنّ الرجل لم يعرفه في الظلام فهتف بصوته الغليظ القويّ:

ـ أستاذ رءوف... أنا سعيد مهران!

اقترب رأس الرجل من النافذة المفتوحة وهو يقول بصوت حلقيّ متّزن:

ـ سعيد!... أووه...

لم يستطع قراءة وجهه، لكنّه وجد في لهجته ما شجّعه، ومضت هنيهة صمت وجمود دون أن يفتح باب السيّارة، ثمّ فتح الباب وجاءه الصوت قائلًا:

ـ اركب...

بداية حسنة. رءوف علوان هو رءوف علوان بالرغم من السكرتاريّة الزجاجيّة والفيلّا العجيبة. وانحدرت السيّارة في ممشى كضلع القيثارة متّجهة نحو مدخل السلاملك.

ـ سعيد، كيف حالك يا رجل، ومتى خرجت؟

ـ أمس...

ـ أمس؟

ـ نعم؟ كان يجب أن أقصدك ولكنّي شُغلت بمسائل عاجلة، وكنت في حاجة إلى الراحة فبتُّ ليلتي عند الشيخ عليّ الجنيدي، أتذكره؟

فقال وهما يغادران السيّارة إلى بهو الاستقبال:

ـ أووه!... شيخ المرحوم والدك، شهدت حلقاته معك أكثر من مرّة...

ـ كانت مسلّية!

ـ وكان يعجبني غناء المنشدين.

وأضاء خادم النجفة فخطفت بصر سعيد بمصابيحها الصاعدة ونجومها وأهلّتها. وعلى ضوئها المنتشر تجلّت مرايا الأركان عاكسة الأضواء، وتبدّت التحف الثاوية على الحوامل المذهّبة كأنّما بُعثت من ظلمات التاريخ، وتهاويل السقف وزخارف الأبسطة والمقاعد الوثيرة والوسائد المستقرّة عند ملقى الأقدام. وأخيرًا استقرّ البصر على وجه الأستاذ الممتلئ المستدير، ذلك الوجه الذي طالما عشقه وحفظه عن ظهر قلب لطول ما أحدق فيه منصتًا. وبينا راح الخادم يفتح بابًا مطلًّا على الحديقة في الجدار الأيسر ويكشف عنه ستائره مضى وهو ينظر إلى الأستاذ ويلحظ الروائع مسترقًا. وسرعان ما جرى تيّار دسم مفعم بالعبير، واختلطت الأضواء بالشذا فأوشك رأسه أن يدور. وجهه امتلأ كوجه بقرة. وشيء خفيّ سرى في شخصه جعله ممتنعًا رغم طلاقة الوجه وحسن السلوك وابتسامة الثغر. وثمّة رائحة سحريّة لا تصدر إلّا عن دم أزرق رغم أنفه المائل إلى الفطس وفكّيه البارزين. وقلبه يخفق في إشفاق ويتساءل عن المقرّ إن انهدم الركن الوحيد الباقي. وجلس رءوف على كنبة قريبة من باب الفراندا وأشار إليه أن يجلس على مقعد وثير يمثّل جانبًا من ضلع لمربّع من المقاعد تطوّق عامودًا نورانيًّا شفّافًا موشّى بصور أسطوريّة، فجلس بلا تردّد وبلا مبالاة كعادته. ومدّ الأستاذ ساقيه الطويلتين متسائلًا:

ـ هل جئتني في الجريدة؟

ـ نعم ولكنّي اقتنعت بأنّها مكان غير مناسب للقاء!

فضحك عن أسنان اكتنف منابتها لون أسود ثمّ قال:

ـ الجريدة عبارة عن دوّامة لا تهدأ، وهل انتظرت هنا طويلًا؟

ـ عمر كامل!

فضحك رءوف مرّة أخرى وقال بلهجة ذات معنى:

ـ لا شكّ أنّك عرفت هٰذا الطريق من قبل؟!

فضحك سعيد أيضًا قائلًا:

ـ طبعًا، عرفت فيه زبائن لا يُنسى فضلهم، فيلّا فاضل باشا حسنين وقد خرجت من زيارتها بألف جنيه، وقرط ماسيّ نادر من فيلّا الممثّلة كواكب...

وجاء الخادم يدفع أمامه نضدًا قامت عليه زجاجة وكأسان، وجردل صغير أنيق بنفسجيّ اللون مليء ثلجًا، وطبق نضّد فوقه التفّاح على هيئة هرم، وصحاف فواتح شهيّة، وإبريق مياه فضّيّ. وأومأ الأستاذ للخادم فانسحب وراح يملأ بنفسه الكأسين ثمّ قدّم إحداهما إلى سعيد ورفع الأخرى قائلًا:

ـ صحّة الحرّيّة...

وأفرغ سعيد كأسه دفعة واحدة على حين تناول رءوف رشفة ثمّ سأله:

ـ وكيف حال بنتك؟ أوووه، نسيت أسألك لِمَ بتّ ليلتك عند الشيخ عليّ؟

إنّه لم يدرِ شيئًا ولٰكنّه ما زال يذكر أنّه أنجب بنتًا. وفي إيجاز بارد قاسٍ سرد له تاريخ مأساته حتّى قال:

ـ أمس زرت عطفة الصيرفي فوجدت مخبرًا في انتظاري كما توقّعت، وأنكرتني ابنتي وصرخت في وجهي...

وملأ كأسًا أخرى دون استئذان فقال رءوف:

ـ حكاية مؤسفة، أمّا بنتك فمعذورة، إنّها لا تتذكّرك، وسوف تعرفك وتحبّك...

ـ لم تعد لي ثقة في جنسها كلّه...

ـ هٰكذا أنت الآن، أمّا غدًا فمن يدري؟ ستغيّر رأيك بنفسك، وهٰذا هو حال الدنيا...

ورنّ جرس التليفون فقام رءوف إليه وتناول السمّاعة ثمّ أصغى قليلًا، وسرعان ما ابتهج وجهه بابتسامة عريضة، فرفعه ومضى به إلى الفراندا. تابعه سعيد من أوّل الأمر بعينيه الحادّتين. امرأة؟! هٰذه الابتسامة وهٰذه الرحلة إلى الظلام لا تكونان إلّا لامرأة. ترى أما زال أعزب؟ ها هما يجلسان جنبًا إلى جنب، يتبادلان الشراب والحديث، ولٰكنّ ثمّة شعورًا كالإحساس الخفيّ المنذر باكتشاف دمّل يوسوس له بأنّ معاودة هٰذا اللقاء شيء عسير حقًّا. لا يدري لماذا يطبق عليه. وهو يصدّقه كإنسان يعتمد كثيرًا على غرائزه الملهمة. إنّه اليوم من أهل الطريق الذي لم يعتد زيارته إلّا معتديًا. ولعلّه تورّط في الترحيب به مضطرًّا. ولعلّه تغيّر حقًّا فلم يبق من الشخص القديم إلّا ظلّ صورته. وجلجلت ضحكة في الفراندا فازداد تشاؤمًا. وتناول تفّاحة بهدوء ومضى يقضمها. ما حياته إلّا امتداد لأفكار هٰذا الرجل الضاحك في التليفون فإذا كان قد خانها فالويل له. وأخيرًا عاد رءوف علوان من الفراندا فوضع التليفون على حامله ثمّ جلس وهو يبدو راضيًا تمامًا:

ـ مباركة عليك الحرّيّة، هي كنز ثمين يعزّي عن فقد أيّ شيء مهما غلا...

فتناول قطعة من البسطرمة وهو يهزّ رأسه بالإيجاب ولٰكن دون اهتمام جدّيّ:

ـ وها أنت تخرج من السجن لتجد دنيا جديدة...

وملأ كأسين ومضى سعيد يلتهم ألوان الطعام بشراهة. وحانت منه نظرة إلى صاحبه فابتسم هٰذا بسرعة ليغطّي على نظرة امتعاض! أنت مجنون إن تصوّرت أنّه يرحّب بك من قلبه. ما هي إلّا مجاملة بنت حياء. ولن يلبث أن يتبخّر هٰذا الحياء. كلّ خيانة تهون إلّا هٰذه. يا للفراغ الذي سيلتهم الدنيا. ومدّ رءوف يده إلى علبة سجائر محلّاة بنقوش صينيّة في تجويف بالعامود المضيء فتناول سيجارة وهو يقول:

ـ يا عمّ سعيد، زال تمامًا جميع ما كان ينغّص علينا صفو الحياة...

فقال سعيد من فم مكتظّ:

ـ طالما هزّتنا الأنباء في السجن، من كان يحلم بشيء كهٰذا؟!

ثمّ وهو يحدجه بنظرة باسمة:

ـ لا حرب الآن!

ـ لتكن هدنة! ولكلّ جهاد ميدان...

وألقى سعيد نظرة فيما حوله قائلًا:

ـ وهٰذا البهو الرائع كالميدان...

وأسف على إفلات هٰذه الملاحظة. ولمح في عيني

صاحبه نظرة باردة. ألا يعرف لسانك ما الأدب!
وتساءل رءوف بهدوء غاضب:
- أيّ وجه شبه بين هٰذا البهو والميدان؟
فزاغ قائلًا:
- أقصد أنّه مثال للذوق الرفيع...
فضيّق رءوف عينيه امتعاضًا وقال بسخط واضح:
- المراوغة عبث، أفصح عمّا بنفسك، أنا أفهمك وأنت خير من يعرف ذٰلك!
فضحك سعيد متودّدًا وهو يقول:
- لم أقصد سوءًا على الإطلاق...
- يجب أن تذكر دائمًا أنّي أعيش بعرقي وكدّي...
- هٰذا ما لا شكّ فيه مطلقًا، بالله لا تغضب هٰكذا...

فراح يدخّن السيجارة بسرعة عصبيّة دون أن ينطق حتّى اضطرّ سعيد إلى التوقّف عن الأكل وقال بلهجة المعتذر:
- لم أتخلّص بعد من جوّ السجن فيلزمني وقت طويل حتّى أسترجع آداب الحديث والسلوك، ولا تنسَ أنّ رأسي ما زال دائرًا من أثر المقابلة الغريبة التي أنكرتني فيها ابنتي...

والظاهر أنّ رءوف أعرب عن عفوه برفع حاجبيه الصاعدة شعيراتها إلى أعلى، ولـمّا رأى عيني الرجل تنتقلان بين وجهه وبين الطعام كأنّما يستأذنه في معاودة الأكل قال بهدوئه السابق:
- كُلْ...

فهجم سعيد على بقايا الصحاف بلا تردّد ولا تأثّر بما كان حتّى مسحها. وعند ذاك قال رءوف ولعلّه رغب في إنهاء المقابلة:
- يجب أن يتغيّر الحال تمامًا، هل فكّرت في المستقبل؟
فقال سعيد وهو يشعل سيجارة:
- لم يسمح الماضي بعد بالتفكير في المستقبل...
- يخيّل إليّ أنّ النساء أكثر عددًا من الرجال فلا تكترث لخيانة امرأة، أمّا بنتك فستعرفك يومًا وتحبّك، المهمّ الآن أن تبحث لك عن عمل...

فقال وهو ينظر إلى تمثال إلٰه صينيّ بدا آية في الوقار والنعاس:
- تعلّمت في السجن الخياطة!
فتساءل الأستاذ في دهشة:
- أترغب في أن تفتح دكّان خيّاط؟
فقال بهدوء:
- بكلّ تأكيد كلّا...!
- ماذا إذن؟
فقال وهو يحدجه بنظرة وقحة:
- لم أتقن في حياتي إلّا حرفة واحدة...
فتساءل كالمنزعج:
- أترجع إلى اللصوصيّة؟
- هي مجزية جدًّا كما تعلم...
فصرخ بحدّة:
- كما تعلم! من أين لي أن أعلم؟!
فرمقه بدهشة قائلًا:
- لِمَ تغضب هٰكذا؟ قصدت أن أقول كما تعلم عن ماضيّ، أليس كذٰلك؟

وخفض رءوف عينيه كأنّما يقنع نفسه بقوله ولٰكن وضح أنّه لم يعد في الإمكان أن يعود وجهه إلى صفائه الطبيعيّ. وقال بلهجة مَن يرغب في الإجهاز على الحديث:
- سعيد، ليس اليوم كالأمس، كنت لصًّا وكنت صديقًا لي في ذات الوقت لأسباب أنت تعرفها، ولٰكنّ اليوم غيرَ الأمس، إذا عدت إلى اللصوصيّة فلن تكون إلّا لصًّا فحسب!

فانتتر واقفًا في عصبيّة وهو يواجه اليأس في صراحته القاسية، ولٰكنّه خنق انفعاله بإرادة من حديد فعاد إلى الجلوس وهو يقول بهدوء:
- اختر لي عملًا مناسبًا!
- أيّ عمل، تكلّم أنت وأنا مصغٍ إليك...
فقال بسخرية خفيّة في الأعماق:
- يسعدني أن أعمل صحفيًّا في جريدتك! أنا مثقّف، وتلميذ قديم لك، قرأت تلالًا من الكتب بإرشادك، وطالما شهدت لي بالنجابة...

فهزّ رءوف رأسه في ضجر حتّى لعب الضوء فوق شعره الأسود الغزير وقال:

ـ لا وقت للمزاح، أنت لم تمارس الكتابة قطّ، وأنت خرجت أمس فقط من السجن، وأنت تعبث وتضيّع وقتي بلا طائل. . .

فقال بامتعاض:

ـ إذن عليّ أن أختار عملاً حقيرًا؟

ـ لا عمل حقير على الإطلاق ما دام شريفًا. . .

غلبته المرارة بعد اليأس فلم يعد يبالي بشيء، وبسرعة جرى ببصره في أنحاء البهو الأنيق، ثمّ قال فيما يشبه التحدّي:

ـ ما أجمل أن ينصحنا الأغنياء بالفقر. . . !

فكان جوابه أن نظر في ساعته فقال سعيد برقّة:

ـ أنا واثق من أنّني أخذت من وقتك أكثر ممّا يجوز. . .

فقال رءوف بصراحة شمس يوليو:

ـ نعم فأنا مرهق بالعمل!

فوقف وهو يقول:

ـ أشكر لك الضيافة والعشاء ونبل الأخلاق. . .

وأخرج رءوف حافظة نقوده فأعطاه منها ورقتين من ذات الخمسة الجنيهات قائلاً:

ـ حتّى تفرج، ولا تؤاخذني إذا قلت لك إنّني مرهق بالعمل، وإنّه من النادر أن تجدني خاليًا كما وجدتني الليلة.

فتناول الجنيهات باسمًا وصافحه بحرارة، ثمّ قال بنبرة رجاء:

ـ ربّنا يتمّ نعمته عليك. . .

الفصل الرّابع

هٰذا هو رءوف علوان، الحقيقة العارية، جثّة عفنة لا يواريها تراب. أمّا الآخر فقد مضى كأمس أو كأوّل يوم في التاريخ أو كحبّ نبويّة أو كولاء عليش. أنت لا تنخدع بالمظاهر فالكلام الطيّب مكر والابتسامة شفة تتقلّص والجود حركة دفاع من أنامل اليد ولولا الحياء ما أذن لك بتجاوز العتبة. تخلقني ثمّ ترتدّ، تغيّر بكلّ بساطة فكرك بعد أن تجسّد في شخصي، كي أجد نفسي ضائعًا بلا أصل وبلا قيمة وبلا أمل، خيانة لئيمة لو اندكّ المقطّم عليها دكًّا ما شفيت نفسي. ترى أتقرّ بخيانتك ولو بينك وبين نفسك أم خدعتها كما تحاول خداع الآخرين؟ ألا يستيقظ ضميرك ولو في الظلام؟ أودّ أن أنفذ إلى ذاتك كما نفذت إلى بيت التحف والمرايا بيتك، ولٰكنّي لن أجد إلّا الخيانة. سأجد نبويّة في ثياب رءوف أو رءوف في ثياب نبويّة أو عليش سدرة مكانهما وستعترف لي الخيانة بأنّها أسمج رذيلة فوق الأرض. من وراء الظهر تبادلت الأعين نظرات مريبة قلقة مضطربة كتيّار الشهوة التي يحملها. . . كالقطّة الزاحفة على بطنها في هيئة الموت نحو عصفورة سادرة. وغلبت الانتهازيّة ثمالة الحياء والتردّد فقال عليش سدرة في ركن عطفة أو ربّما في بيتي «سأدلّ البوليس عليه لنتخلّص منه»، فسكتت أمّ البنت، سكت اللسان الذي طالما قال لي بكلّ سخاء أحبّك يا سيّد الرجال. هٰكذا وجدت نفسي محصورًا في عطفة الصيرفي ولم يكن الجنّ نفسه يستطيع أن يحاصرني، وانهالت عليّ اللكمات والصفعات. كذٰلك أنت يا رءوف، لا أدري أيّكما أخون من الآخر، ولٰكنّ ذنبك أفظع يا صاحب العقل والتاريخ، أتدفع بي إلى السجن وتثب أنت إلى قصر الأنوار والمرايا، أنسيت أقوالك المأثورة عن القصور والأكواخ؟ أمّا أنا فلا أنسى!

وبلغ جسر عبّاس فجلس على أريكة حجريّة وانتبه إلى الطريق لأوّل مرّة. وقال بصوت مسموع كأنّما يخاطب الظلام «خير البرّ عاجله، الساعة وقبل أن يفيق من دهشته!». لا سبيل إلى التردّد فمهنتك هي مهنتك، صالحة وعادلة، وبخاصّة عندما تطبق على فيلسوفها. وعندما أفرغ من تأديب الأوغاد فسأجد في الأرض متّسعًا للاختفاء. هل يمكن أن أمضي في الحياة بلا ماضٍ فأتناسى نبويّة وعليش ورءوف؟ لو استطعت لكنت أخفّ وزنًا وأضمن للراحة وأبعد عن حبل المشنقة ولٰكن هيهات أن يطيب العيش إلّا بتصفية الحساب. لن أنسى الماضي لسبب بسيط هو أنّه حاضر ـ لا ماضٍ ـ في نفسي. وستكون مغامرة الليلة ابتداء أفتتح به العمل، وستكون مغامرة دسمة. وجرى النيل كأمواج من الظلام تنغرس في جنباتها أسهم الضياء المنعكسة من مصابيح الشاطئ. وساد

صمت شامل مريح، ثمّ دنت النجوم من الأرض عندما اقترب الفجر. وقام عن مجلسه فتمطّى ثمّ سار على مقربة من الشاطئ نحو المكان الذي جاء منه. جعل يتقدّم على مهل متحاشيًا الأنوار الضئيلة الباقية حتّى هٰذه الساعة من الفجر، وتباطأ أكثر عندما لاح لعينيه القصر الخالي من نواحيه الثلاث. وراقب الطريق بحدّة. أرضه وأسوار القصور والشاطئ ثمّ استقرّت عيناه على القصر. بدا القصر مسدل الجفون تحرسه الأشجار من كلّ جانب كالأشباح. نامت الخيانة في هدوء بديع لا تستحقّه ألبتّة. مغامرة دسمة ستعطي ردًّا حاسمًا على خداع العمر كلّه. وعَبَرَ الطريق في خطوات طبيعيّة دون تلفّت أو حذر، ثمّ سار بحذاء السور في الشارع الجانبيّ وهو يتفحّص ما أمامه بعناية شديدة، فلمّا اطمأنّ إلى خلوّ المكان مال فجأة لصق السور منغرزًا في الياسمين والبنفسج وتوقّف عن أيّة حركة. إن يكن في القصر كلب ـ غير صاحبه ـ فسيملأ الدنيا نباحًا، ولٰكن لم تندّ عن الصمت همسة واحدة. يا رءوف... تلميذك قادم ليحمل عنك بعض متاع الدنيا. وتسلّق السور بخفّة وبأطراف محنّكة كأنّها أطراف قرد ولم تعقه الأغصان الكثيفة الملتفّة الغارقة في الأوراق والأزهار، ثمّ اعتمد على قبضتيه ورفع جسمه بقوّته الذاتيّة إلى ما فوق الأسنان المدبّبة وهبط به حتّى اشتبكت ساقاه بالأغصان في الداخل فلبد بها ريثما يستردّ أنفاسه، وليراقب الحديقة المكتظّة بالشجيرات والأشجار والظلمة. عليك أن تصعد إلى السطح ومنه تهبط إلى الداخل حتّى تعرف طريقك، لا آلة معك ولا بطّاريّة ولا فكرة سابقة عن المكان. لم تسبقك نبويّة إليه لتعمل غسّالة أو خادمة بعض الوقت فهي اليوم مشغولة بعليش سدرة. وقطّب بعنف ليطرد عنه هٰذه الأفكار، ونزل بحذر إلى الأرض، ثمّ زحف على أربع متّجهًا نحو جدار الفيلّا. ودار مع البناء متحسّسًا الحيطان حتّى عثر على ماسورة. وأخذ يتسلّق بمهارة البهلوان. وكان السطح مقصده غير أنّه مرّ بنافذة مفتوحة غير بعيدة منه، وفي الحال قرّر تجربتها. سدّد ساقه نحو النافذة حتّى انطرحت على حافتها، وشدّ أعصاب يديه متنقّلًا بهما فوق كورنيش الحائط حتّى استقرّ جميعه فوق حافة النافذة. وانزلق إلى الداخل فوجد نفسه في مكان حدس أنّه مطبخ. وضايقته كثافة الظلمة فجدّ باحثًا عن الباب، وكان يتوقّع ظلمة أكثف في الداخل، ولٰكنّه حلم بحافظة نقود رءوف أو بعض التحف، وكان عليه أن يتقدّم. تسلّل من الباب متلمّسًا الجدار بيديه، وقطع مسافة غير قصيرة وكثافة الظلام تكاد تصدّه، ثمّ أحسّ تيّارًا خفيفًا من الهواء يلفح وجهه. من أين يجيء الهواء؟ وانعطف مع انعطاف الجدار الأملس وتقدّم مادًّا ذراعه محرّكًا أصابعه حتّى لمست أسلاكًا بلّوريّة مسدلة محدثة وسوسة خفيفة انقبض لها قلبه. ستارة لا شكّ في ذٰلك، اقترب الآن من هدفه، واتّجه فكره نحو علبة الثقاب في جيبه دون أن يمدّ لها يدًا، وفتح بخفّة ثغرة دلف منها إلى الداخل، وضيّق ما بين ذراعيه ليعيد الستارة إلى وضعها الطبيعيّ دون صوت. وتقدّم خطوة فارتطم بمقعد أو بقائم ما لا يدريه، وتفادى منه وهو يرفع رأسه متلمّسًا نورًا خافتًا ساهرًا ـ وقد تعلّق أمله بالوصول إليه ـ ولٰكنّه رأى ظلامًا مطبقًا كالكابوس. وفكّر في إشعال عود ثقاب للحظة واحدة... وبغتة دهمه نور ساطع من كلّ ناحية. نور شديد انقضّ عليه كلكمة قاضية. انغلق جفناه بلا إرادة ولـمّا فتحهما رأى رءوف علوان على بعد ذراعين. على بعد ذراعين في روب طويل بدا فيه عملاقًا، ويده مدسوسة في جيبه مشدودة كأنّها تقبض على سلاح، هٰكذا ظنّ. ونظرة عينيه الباردة زادت قلبه المهزوم برودة، وانطباق شفتيه الناطق بالعداوة والكراهية. والصمت القاتل أثقل من سور السجن، والسجّان عبد ربّه سيقول هازئًا ما أسرع أن رجعت. وانطلق صوت نحاسيّ من وراء ظهره يتساءل:

ـ نادي البوليس؟

فالتفت وراءه فرأى ثلاثة من الخدم يقفون صفًّا غير أنّ رءوف خرج عن صمته قائلًا:

ـ اذهبوا خارجًا وانتظروا...

ولـمّا فتح الباب ثمّ أغلق وراءهم أدرك خطفًا أنّه باب خشبيّ ذو زخارف عربيّة محلّى الرأس بحكمة أو مَثَل أو آية من الصدف. وأرجع رأسه من التفاتته

ليتلقّى النظرات العابسة ويسمع صوته الخشن وهو يقول:

ـ من الغباء أن تجرّب ألاعيبك معي أنا، أنا فاهمك وحافظك عن ظهر قلب. . .

لم ينبس ومضى يفيق من ضربة المفاجأة ولكن على استسلام كاليأس وإن داخله شعور بأنّه لن يسلّم إلى القبضة التي أفلت منها أمس أو هكذا شعر. . .

ـ كنت في انتظارك، على أتمّ استعداد، بل ورسمت لك طريق السير، وددت لو يخطئ ظنّي، ولكن أيّ سوء ظنّ فيك يخطئ؟!

غضّ بصره لحظات فرأى ما تحت قدميه من مشمّع لامع ثمّ رفعها دون أن يحاول الخروج عن صمته.

ـ لا فائدة، لن تنتهي من حقارتك، وستموت حقيرًا، وخير ما أفعله أن أسلّمك إلى البوليس. . .

فاختلج جفناه وانفرجت شفتاه في عصبيّة، فتساءل رءوف بحدّة:

ـ ماذا جئت تريد؟

فغضّ بصره مرّة أخرى.

ـ أنت تفصح عن عداوتك، نسيت الإحسان وتركّزت في الحقد والحسد، إنّي أعرف أفكارك بقدر ما أعرف حركاتك. . .

وبصوت خافت وبعينين تختفيان في الأرض قال:

ـ رأسي دائر، ما زال دائرًا منذ خرجت من السجن. . .

ـ كذّاب، لا تحاول خداعي، أنت تتوهّم أنّي صرت واحدًا من الأغنياء الذين كنت أحمل عليهم، وعلى هذا الأساس أردت أن تعاملني. . .

ـ ليس الأمر كذلك. . .

ـ إذن لِمَ تسلّلت إلى بيتي؟ لِمَ تريد أن تسرقني؟

تردّد سعيد مليًّا ثمّ قال:

ـ لا أدري، لست في حالة طبيعيّة، وأنت لن تصدّقني!

ـ طبعًا، لأنّك تعلم أنّك كاذب، لم تقتنع بكلماتي الطيّبة، ثار حسدك وغرورك، اندفعت كالمجنون نفسه كما هي عادتك، ولك ما تشاء فستجد نفسك في السجن مرّة أخرى. . .

فقال في تسليم:

ـ اعذرني، ما زلت أعيش بعقليّة السجن وما قبله. . .

ـ لا عذر لك، أنا أقرأ أفكارك، قرأت كلّ جملة مرّت بعقلك، كلّ جملة، الصورة الكاملة التي تتصوّرني فيها، والآن آن لي أن أسلّمك للبوليس. . .

فمدّ يده كالرجاء قائلًا:

ـ كلّا. . .

ـ كلّا؟! ألا تستحقّه؟

ـ بلى، ولكن كلّا. . .

فنفخ غاضبًا وهو يقول:

ـ إن رأيتك مرّة أخرى فسأسحقك كحشرة. . .

وهمّ بالتحرّك في سبيل النجاة ولكنّه صاح به:

ـ أرجع النقود!

فجمد بصره دقيقة، ثمّ دسّ يده في جيبه فأخرج الورقتين فتناولهما الآخر قائلًا:

ـ لا تُرني وجهك مرّة أخرى. . .

عاد إلى شاطئ النيل وهو لا يصدّق أنّه نجا ولكنّ راحة النجاة تكدّرت بالهزيمة. وعجب تحت أنفاس الفجر الرطيبة كيف أنّه لم ينتبه إلى هويّة الحجرة التي ضُبط فيها وأنّه لم يكد يرى منها إلّا بابها المزخرف وأرضها الشمعيّة. واستسلم لرحمة الفجر النديّة متعزّيًا إلى حين عن كلّ شيء حتّى ضياع الورقتين، ثمّ رفع رأسه إلى السماء فهاله لمعان النجوم المتألّق في هذه الساعة من الفجر. . .

الفصل الخامس

حملق الرجال القليلون بأعين لا تصدّق، وقاموا قومة رجل واحد:

ـ يا أرض احفظي ما عليك!

ـ ليلة بيضا بالصلاة على النبيّ.

وأحدقوا به وعلى رأسهم معلّم القهوة وصبيّه وعانقوه وقبّلوا وجنتيه. وشدّ سعيد مهران على أيديهم واحدًا فواحدًا وهو يقول بامتنان:

ـ أشكرك يا معلّم طرزان، أشكركم يا إخوان. . .

ـ متى؟

ـ أوّل أمس.
ـ تفاءلنا خيرًا بأخبار العيد.
ـ الحمد لله.
ـ وبقيّة الجدعان؟
ـ بخير، وكلّ شيء بأوان!

ولبثوا يتبادلون الأخبار حتّى أخذه المعلّم إلى أريكته ورجاهم أن يعودوا إلى مجالسهم فعادت القهوة إلى هدوئها. لم يتغيّر شيء كأنّه تركها بالأمس. الحجرة المستديرة، النصبة النحاسيّة، الكراسي الخشبيّة ذات المقاعد من القشّ المفتول، الزبائن القلائل المعروفون الموزّعون في الأركان، يحتسون الشاي ويعقدون الصفقات. ومن خلال النافذة الكبيرة والباب لاح الخلاء شاملًا مترامیًا إلى غير نهاية، والظلام كثيفًا لا تخفّفه بارقة، والصمت مهيبًا عدا ضحكات متقطّعة يرمي بها الهواء من الخارج، وجرى تيّار جافّ منعش ما بين الباب والنافذة يحمل طابع الصحراء من القوّة والنقاء. تناول سعيد الشاي من الصبيّ ثمّ رفعه إلى فيه قبل أن يبرد. ومال نحو المعلّم متسائلًا:

ـ كيف حال الشغل؟

فلوى طرزان شفته السفلى في امتعاض وقال:

ـ ندر من يُعتمد عليه من الرجال!
ـ لِمَ كفى الله الشرّ؟
ـ تنابلة كأنّهم موظّفو الحكومة!

فندّت عنه نفخة ساخرة وقال:

ـ التنبل على أيّ حال خير من الخائن، بسبب خائن دخلت السجن يا معلّم طرزان.
ـ يا لطف الله!

فحدجه بنظرة نافذة متسائلًا:

ـ ألم تسمع بالخبر؟

فهزّ المعلّم رأسه في أسف ولاذ بصمت مبين، فهمس سعيد في أذنه:

ـ يلزمني مسدّس جيّد!

فقال طرزان بلا تردّد:

ـ تحت أمرك...

فربّت على منكبه شاكرًا ثمّ قال بشيء من الارتباك:

ـ لكن ليس...

فوضع أصبعه الغليظ على شفتيه قاطعًا كلامه في عتاب وهو يقول:

ـ لا عاش مَن أحوجك إلى اعتذار!

وأتى على ما في القدح في ارتياح، ثمّ قام ماضيًا إلى النافذة. وقف وراءها ناصبًا قامته النحيلة المفتولة المتوسّطة الطول فبسط الهواء جناحي جاكتّته كالشراع، ومدّ البصر إلى الخلاء المنتشر على الأرض المفعم بالظلام، فتبدّت النجوم في السماء الصافية كالرمال وكأنّ القهوة جزيرة في محيط أو طيّارة في سماء. وفي أسفل الهضبة التي تقوم عليها القهوة تحرّكت السجائر ـ كالنجوم ـ في أيدي الجالسين في الظلمة من روّاد الهواء الطلق، وعند الأفق الغربيّ لاحت أنوار العبّاسيّة بعيدة جدًّا يُشْعِر بُعْدها بمدى توغّل القهوة في الصحراء. وأطلّ من النافذة فصعدت إليه أصوات الجالسين حول الهضبة، النازحين إلى الصحراء طلبًا للهواء والراحة. وانحدر إليهم صبيّ القهوة حاملًا نارجيلة تتوهّج جمراتها ويتطاير منها الشرر مطقطقًا. واحتدم السمر تتخلّله الضحكات، وقال صوت يافع ملتذًّا بالحديث فيما بدا:

ـ دلّوني على مكان واحد في الأرض ينعم بالطمأنينة؟ فأجابه آخر متحدّيًا:

ـ هٰذا المجلس، ألا ينعم مجلسنا بالطمأنينة؟
ـ تقول «الآن» وهٰذه هي المأساة...!
ـ لِمَ نلعن القلق والمخاوف، ألا تعفينا في النهاية من التفكير في المستقبل؟
ـ إذن فأنت عدوّ للسلام والاستقرار!
ـ إذا كان حبل المشنقة حول عنقك فالطبيعيّ أن تخشى الاستقرار.
ـ هٰذه مسألة خاصّة يمكن معالجتها فيما بينك وبين عشماوي...
ـ أنتم تثرثرون في هناء لأنّكم في حمى الظلام والصحراء ولٰكنّكم لن تلبثوا أن تعودوا إلى المدينة فما الفائدة؟
ـ المأساة الحقيقيّة هي أنّ عدوّنا هو صديقنا في الوقت نفسه...
ـ أبدًا المأساة الحقيقيّة هي أنّ صديقنا هو

عدوّنا. . .

- بل أنّنا جبناء، لِمَ لا نعترف بهٰذا؟

- ربّما ولٰكن كيف تتأتّى لنا الشجاعة في هٰذا العصر؟

- الشجاعة هي الشجاعة.

- والموت هو الموت. . .

- الظلام والصحراء هي هٰذا كلّه!

يا له من سمر. ماذا يقصدون؟ لٰكنّك شعرت بأنّهم يعبّرون عن حالك على نحو ما. نعم على نحو غامض كأسرار هٰذا الليل. أنت أيضًا كانت لك يفاعة متوثّبة. والقلب سكران برحيق الحماس. والسلاح تحصل عليه للجهاد لا للاغتيال. وراء هٰذه الهضبة التي تقوم عليها القهوة كان فتية يتدرّبون على القتال بثياب رثّة وضمائر نقيّة. وساكن القصر رقم ١٩ على رأسهم. على رأسهم ويمرّن ويلقي بالحِكَم. المسدّس أهمّ من الرغيف يا سعيد مهران، المسدّس أهمّ من حلقة الذكر التي تجري إليها وراء أبيك. وذات مساء سألك «سعيد، ماذا يحتاج الفتى في هٰذا الوطن؟» ثمّ أجاب غير منتظر جوابك «إلى المسدّس والكتاب، المسدّس يتكفّل بالماضي والكتاب للمستقبل، تدرَّبْ واقرأ». ووجهه وهو يقهقه في بيت الطلبة قائلًا «سرقت؟. . . هل امتدّت يدك إلى السرقة حقًّا؟ برافو، كي يتخفّف المغتصبون من بعض ذنبهم، إنّه عمل مشروع يا سعيد، لا تشكّ في ذٰلك» وشهد هٰذا الخلاء مهارتك. قالوا إنّك الموت نفسه وإنّ طلقتك لا تخيب. وأغمض عينيه مستسلمًا للهواء النقيّ وإذا بيد توضع على كتفه فالتفت وراءه فرأى المعلّم طرزان مادًّا يده الأخرى بالمسدّس وهو يقول:

- نار على عدوّك بإذن الله. . .

فتناوله ومضى يتفحّصه ويختبره، ثمّ سأله:

- بكم يا معلّم؟

- هديّة!

- كلّا، كلّ ما أرجوه أن تمهلني إلى ميسرة. . .

- كم طلقة تحتاج؟

وعادا معًا متّجهين نحو أريكة المعلّم. وعندما مرّا بباب القهوة لعلعت في الخارج ضحكة أنثويّة فضحك المعلّم طرزان وقال:

- نور، ألا تذكرها؟

نظر سعيد إلى الظلام خارج الباب فلم ير شيئًا وتساءل:

- أما زالت تجيء إلى هنا؟

- من حين لآخر، ستفرح لرؤيتك. . .

- صايدة؟

- طبعًا، ولد ابن صاحب مصنع حلوى. . .

ولـمّا جلسا على الأريكة نادى المعلّم صبيّه وقال له:

- بصنعة لطافة قل لنور أن تأتي. . .

لتأتِ لِيرى ماذا فعل الزمان بها. التي عبثًا أرادت امتلاك قلبه. قلبك الذي كان ملكًا خالصًا للخائنة. وليس أقسى على القلب من أن يروم قلبًا أصمّ. عندما تخاطب البلابل حجرًا أو تداعب النسمة أسنانًا مدبّبة. حتّى هداياها إليه كان يهديها إلى نبويّة عليش. وربّت المسدّس وهو مستكنّ في جيبه وعضّ على أسنانه. وظهرت نور عند الباب غير متوقّعة للمفاجأة التي تنتظرها. فلمّا رأته توقّفت على بعد خطوات في ذهول. ونظر إليها باسمًا وفي إمعان. بدت أنحل ممّا كانت واختفى وجهها تمامًا تحت المساحيق الدسمة. ونطق بالإغراء فستان أبيض انطلقت منه الأذرع والسيقان بلا حرج وقد شُدّ حول جسدها كالمطّاط حتّى صرخ التهتّك، وعربد شعر رأسها القصير في تيّار الهواء. وسرعان ما هرعت إليه حتّى تلاقت الأيدي وهي تقول:

- حمدًا لله على سلامتك. . .

وضحكت ضحكة عصبيّة تداري بها تأثّرها، ثمّ اندسّت بينه وبين المعلّم طرزان.

- كيف حالك يا نور؟

فأجاب طرزان باسمًا:

- هي كما ترى نور ونورا!

وقالت المرأة:

- بخير، وأنت؟ صحّتك عال، لٰكن عينيك؟ أنا أعرفك وأنت غضبان!

فتساءل باسمًا:

ـ كيف؟

ـ لا أدري كيف أقول، نظرة محمرّة! وإنذار يتحرّك في شفتيك. . .

ضحك، ثمّ قال بأسف:

ـ سيأتي صاحبك ليأخذك. . .

فقالت وهي تهزّ رأسها لتزيح خصلة شعر عن عينيها:

ـ إنّه لا يعرف رأسه من رجليه!

ـ على أيّ حال فأنت مقيّدة به. . .

فرمته بنظرة ماكرة وهي تتساءل:

ـ أتحبّ أن أدفنه في الرمال؟

ـ ليس الليلة، سنلتقي فيما بعد. . .

ثمّ بشيء من الاهتمام:

ـ قيل إنّه لقطة؟

ـ نعم، وسنذهب بسيّارته إلى مدفن الشهيد فهو يحبّ الخلاء!

وتجلّت في عينيه نظرة اهتمام لم تخفَ عليها، وتساءل وكأنّما يحدّث نفسه:

ـ يحبّ الخلاء عند مدفن الشهيد؟

اضطرب جفناها، وازداد اضطرابها عندما التقت عيناهما، ثمّ تساءلت في عتاب:

ـ أرأيت أنّك لا تفكّر فيّ؟

وهو لا يكاد يلقي بالًا إلى عتابها:

ـ لِمَ ؟ أنت عزيزة جدًّا!

ـ بل أنت تفكّر في اللقطة!

فابتسم قائلًا:

ـ إنّه ضمن تفكيري فيك!

فقالت بقلق:

ـ إن انكشف أمري ضعت، أبوه قويّ وأهله كالنمل، هل أنت في حاجة إلى نقود؟

ـ في حاجة إلى السيّارة أشدّ!

وقام وهو يقرص خدّها برقّة ويقول:

ـ كوني طبيعيّة جدًّا، لن يحدث شيء ممّا تخافين، ولن تتّجه إليك الظنون، لست طفلًا، وسوف نلتقي بعد ذلك أكثر ممّا تتصوّرين. . .

الفصل السادس

تجنّب الطريق الملاصق للثكنات، واخترق الصحراء نحو مدفن الشهيد ليبلغه في أقصر وقت. وكان كأنّما يهتدي ببوصلة مركّبة في رأسه لسابق درايته بصحراء العبّاسيّة. وعندما لاحت له قبّة المدفن الضخمة تحت ضوء النجوم راحت عيناه تفتّشان عن المكان الذي تنزوي فيه السيّارة. ودار حول المدفن وهو يحدّ بصره ولا يعثر على ضالّته حتّى بلغ ضلعه الجنوبيّ فتراءى له شبح هيكلها راقدًا على بعد. مضى نحوها مصمّمًا، ثمّ ما لبث أن أحنى ظهره حتّى انخفض رأسه إلى مستوى ركبته. واقترب منها فوضح لأذنيه أنّ الصمت يتخلخل بهمسات مغرقة في السرّ. سيذعر قلب هانئ وتتبدّد مسرّة ولكن لا ذنب لك. الاختلال يطبق علينا مثل قبّة السماء. وقديمًا قال رءوف علوان إنّ نوايانا طيّبة ولكن ينقصنا النظام. واشتدّ اقترابه فيما يشبه الزحف حتّى قبضت راحته على مقبض الباب ونفحته حرارة النفثات. شدّ على المقبض وجذب الباب بقوّة هاتفًا:

ـ لا تتحرّك!

وانطلقت من عنف المفاجأة آهتان، ولاح له الرأسان وهما يتطلّعان إليه في فزع. لوّح بالمسدّس قائلًا بوحشيّة:

ـ سأطلق النار لأدنى حركة، اخرجا. . .

وجاءه صوت نور متوسّلًا:

ـ في عرضك. . .

وتساءل الآخر بصوت مختنق مبحوح كأنّه ينطلق خلال رمل وحصى:

ـ ماذا. . . ماذا تريد من فضلك؟

ـ اخرجا. . .

ألقت نور بجسمها إلى الخارج قابضة على ثيابها كومة واحدة. وتبعها الشابّ وهو يدسّ نفسه في بنطلونه متعثّرًا. ولم يمهله فقرّب منه المسدّس حتّى هتف بصوت باكٍ:

ـ لا. . . لا. . . لا تطلق. . .

فقال بصوت غليظ آمر:

ـ النقود!

ـ الجاكتة في الداخل. . .

فدفع نور إلى الداخل قائلًا:

ـ ادخلي أنت. . .

فدخلت متأوّهة من عنف الدفعة وهي تردّد:

ـ في عرضك اتركني!

ـ هاتي الجاكتة. . .

وتناولها منها، وبسرعة أخذ المحفظة ورماه بها آمرًا:

ـ عندك دقيقة لتنجو بحياتك!

انطلق الشابّ في الظلام كالشهاب. وارتمى هو داخل السيّارة بسرعة فائقة، وسرعان ما أدار المحرّك فاندفعت مدوّية. وأكملت ارتداء ثيابها وهي تقول:

ـ فزعت حقيقة كأن لم أكن أتوقّعك!

فقال والسيّارة تنطلق بسرعة مخيفة:

ـ بلّي ريقك. . .

فأعطته زجاجة تناول منها جرعة ثمّ ردّها إليها ففعلت مثله ثمّ قالت:

ـ ركبه سابت، مسكين!

ـ قلبك أبيض، أمّا أنا فلا أحبّ أصحاب المصانع. . .

فاعتدلت في جلستها وهي تقول بلهجة ذات معنى:

ـ الحقيقة أنّك لا تحبّ أحدًا!

ولم يجد رغبة في المغازلة فلم يردّ، وبدا أنّ السيّارة تتّجه نحو العبّاسيّة فتوسّلت إليه قائلة:

ـ سيروني معك!

وكان يفكّر في ذلك أيضًا فمال مع الطريق المتفرّع الذي يفضي في النهاية إلى الدراسة. وخفّف من السرعة قليلًا، ثمّ راح يقول:

ـ قصدت قهوة طرزان لأحصل على مسدّس ولأتّفق إن أمكن مع سائق تاكسي من زملائنا القدامى فانظري كيف رمى لي الحظّ بهٰذه السيّارة.

ـ ألا ترى أنّني نافعة دائمًا؟

ـ دائمًا، وكنت رائعة، لِمَ لا تشتغلين ممثّلة؟

ـ ولٰكنّي فزعت أوّل الأمر حقيقة. . .

ـ وبعد ذٰلك؟

ـ أرجو أن أكون قد أتقنت دوري حتّى لا يشكّ فيّ.

ـ لم يكن في رأسه عقل ليشكّ في أحد. . .

واتّجه رأسها نحوه ثمّ سألته:

ـ لِمَ تريد المسدّس والسيّارة؟

ـ لزوم العمل. . .

ـ يا خبر! متى خرجت من السجن؟

ـ أوّل أمس.

ـ وتعود إلى التفكير في ذٰلك؟

ـ هل يسهل عليك تغيير صنعتك؟

فلم تجبه ونظرت إلى الطريق المظلم الذي تلمع أرضه بضوء السيّارة وقد اقترب الجبل عند المنعطف كقطعة من الليل أشدّ كثافة، ثمّ قالت برقّة:

ـ أتدري كم حزنت عندما علمت بسجنك؟

ـ كم؟

بشيء من الحدّة:

ـ متى تكفّ عن السخرية؟

ـ لٰكنّي جادّ جدًّا وواثق من صدق قلبك. . .

ـ أمّا أنت فلا قلب لك. . .

ـ حجزوه في السجن كما تقضي التعليمات. . .

ـ أنت دخلت السجن بلا قلب. . .

لِمَ الإلحاح على حديث القلوب. اسألي الخائنة واسألي الكلاب واسألي البنت التي أنكرتني.

ـ سنوفّق يومًا في العثور عليه. . .

ـ وأين تبيت هٰذه الليلة؟. . . هل تدري زوجتك أين أنت؟

ـ لا أظنّ!

ـ هل أنت ذاهب إلى بيتك؟

ـ لا أظنّ، ليس الليلة على أيّ حال. . .

فقالت برجاء:

ـ تعال إلى بيتي. . .

ـ تسكنين وحدك؟

ـ شارع نجم الدين وراء قرافة باب النصر. . .

ـ رقمه؟

ـ البيت الوحيد في الشارع، تحته وكالة خيش، ووراءه القرافة. . .

ضحك سعيد قائلًا:

ـ يا له من موقع فريد!

فجارته في ضحكه ثمّ قالت:

ـ لا يعرفني هناك أحد، ولم يزرني فيه أحد، ستكون أوّل رجل يدخله، وشقّتي في أعلى دور. . .

وانتظرت كلمته ولكنّه شغل بمراقبة الطريق الذي ضاق عرضه ما بين الجبل وبين البيوت ابتداء من مسكن الشيخ عليّ الجنيدي، ثمّ أوقف السيّارة عند رأس الدراسة والتفت إليها قائلًا:

ـ هنا مكان مناسب لنزولك. . .

ـ ألا تأتي معي؟

ـ سآتي فيها بعد. . .

ـ أين تذهب في هذه الساعة من الليل؟

ـ اذهبي من فورك إلى القسم، واحكي لهم ما حدث بالحرف كأنّك لم تشاركي فيه، وأعطي لهم أوصافًا بعيدة عنّي كلّ البعد، أبيض سمين في خدّه الأيمن أثر جرح قديم، قولي إنّي خطفتك وسرقتك واعتديت عليك. . .

ـ اعتديت عليّ؟

فاستطرد جادًّا رغم ملاحظتها:

ـ وأنّ ذلك كان في صحراء زينهم، وأنّي قذفت بك خارجًا ثمّ هربت بالسيّارة. . .

ـ وهل تزورني حقًّا؟

ـ نعم، أعدك بهذا وعد رجل، هل تحسنين التمثيل في القسم كما فعلت في السيّارة؟

ـ إن شاء الله . . .

ـ مع السلامة. . .

ثمّ انطلق بالسيّارة.

الفصل السابع

قمّة النجاح أن يُقتلا معًا، نبويّة وعليش. وما فوق ذلك يُصفّى الحساب مع رءوف علوان، ثمّ الهرب، الهرب إلى الخارج إن أمكن. ولكن مَن يبقى لسناء؟ الشوكة المنغرزة في قلبي. أنت تندفع بأعصابك بلا عقل. عليك أن تنتظر طويلًا وتدبّر أمرك ثمّ تنقضّ كالحدأة. الآن لا فائدة من الانتظار. أنت مطارَد. منذ علم بالإفراج عنك وأنت مطارد. وبحادثة السيّارة ستشتدّ المطاردة. ومحفظة ابن صاحب المصنع لا تحوي إلّا جنيهات معدودات فهذا أيضًا من سوء الحظّ. وإن لم تضرب سريعًا انهار كلّ شيء. ولكن مَن يبقى لسناء؟ الشوكة المنغرزة في قلبي. المحبوبة رغم إنكارها لي. هل أترك أمّك الخائنة إكرامًا لك؟ أريد جوابًا في الحال. كان يحوم حول البيت القائم على مفرق ثلاث عطفات بحارة سكّة الإمام في ظلمة حالكة، والسيّارة تنتظر في نهاية الطريق من ناحية ميدان القلعة. أُغلقت الدكاكين وخلا الطريق، وظاهر أنّ أحدًا لم يكن يتوقّعه. في هذه الساعة يأوي كلّ مخلوق إلى جحره. لا ينتظر أن يدهمه أحد ليحاسبه. وربّما أعدّ عدّته ولكنّه ـ هو ـ لن ينثني عن عزمه. ولو عاشت سناء وحيدة العمر كلّه. ذلك أنّ الخيانة بشعة جدًّا يا أستاذ رءوف. وتطلّع إلى نوافذ البيت ويده قابضة على مسدّسه في جيبه. الخيانة بشعة يا عليش. ولكي تصفو الحياة للأحياء يجب اقتلاع الخبائث الإجراميّة من جذورها. واقترب من باب البيت ملاصقًا للجدار ثمّ دخل. وصعد السلّم في حذر شديد، وظلام دامس مارًّا بالدور الأوّل فالثاني ثمّ الثالث. ها هو الباب المغلق على أدنأ النوايا والشهوات. من سيفتح إذا طرق الباب؟ هل تجيء نبويّة؟ هل يكمن المخبر في مكان ما؟ النار تنتظر المجرمين. ولو اضطرّ إلى اقتحام الشقّة. لا بدّ أن يعمل، وأن يعمل في الحال، فحرام أن يتنفّس عليش سدرة يومًا كاملًا وسعيد مهران طليق. وستفوز بالهرب سالمًا. كما فزت عشرات المرّات. وكما تتسلّق العمارة في ثوانٍ، وكما تثب من الدور الثالث فتصل الأرض سالمًا، وكما تطير إذا شئت. وطَرق الباب يبدو ضروريًّا ولكنّه سيثير الريب، وبخاصّة في هذه الساعة، وستصوّت نبويّة حتّى تملأ الدنيا غبارًا، ويجيء الأنذال، ويظهر المخبر أيضًا. فلتحطّم الشرّاعة. هذه هي الفكرة التي كانت تدور في رأسه وهو قادم بالسيّارة من بعيد، ها هو يعود إليها أخيرًا. وأخرج مسدّسه، ووجّه منه ضربة إلى زجاج الشرّاعة من خلال القضبان الملتوية فتحطّم وتناثر محدثًا صوتًا كالصراخ المبحوح في صمت الليل. اقترب من الباب حتّى كاد يلتصق به، وصوّب مسدّسه إلى الداخل، وانتظر بقلب خافق وعين غائصة في ظلمة الردهة.

وترامى صوت يصيح «من؟». صوت رجل، صوت عليش سدرة، ميّزه رغم نبض الصدغ المدوّي. وفُتح باب في الناحية اليسرى فخرج منه ضوء خفيف، ثمّ لاح شبح رجل يتقدّم في حذر. ضغط سعيد على الزناد فانطلقت الرصاصة كصرخة عفريت في الليل. وصرخ الرجل بدوره وتهاوى فأدركه بأخرى قبل أن يستقرّ فوق الأرض. وانطلق صراخ حادّ مرتعب مستغيث بائس، صوات نبويّة فصاح بها «سيأتي دورك، لا مهرب منّي، أنا الشيطان نفسه». واستدار ليهرب، ومضى يثب فوق الدرجات بلا حرص حتّى بلغ بئر السلّم في ثوان. وقف يتنصّت لحظة ثمّ مرق من الباب، فسار على كثب من الجدار في هدوء. ثمّ سمع نوافذ وهي تفتح وأصواتًا وهي تتلاقى في تساؤل ونداءات غامضة، وبلغ موقف السيّارة عند رأس الطريق فجذب بابها ودخل. وعند ذاك لمح شرطيًّا قادمًا يجري من الميدان نحو عطفة سكّة الإمام فغاص في أرض السيّارة. وواصل الشرطيّ جريه نحو الصراخ فلبث في مكمنه حتّى اطمأنّ إلى بُعده من وقع قدميه ثمّ نهض في حذر شديد فجلس وراء عجلة القيادة وانطلق بالسيّارة دون إبطاء. ودار مع الميدان في سرعة طبيعيّة والضجّة تلاحق حواسّه. ولفّه ذهول شامل فساق السيّارة بلا وعي. القاتل. هناك رءوف علوان، الخائن الرفيع الممتاز، أهمّ في الواقع من سدرة وأخطر. القاتل، أنت من زمرة القتلة، جنسيّة جديدة، ومصير جديد، خطف أرواح خبيثة بعد خطف أشياء ثمينة. سيأتي دورك، لا مهرب منّي، أنا الشيطان نفسه. بفضل سناء وهبتك الحياة، لكنّي أحطتك بعقاب أشدّ من الموت، هو الخوف من الموت، الذعر الأبديّ، لن تذوقي للراحة طعمًا ما دمت حيًّا. انحدرت السيّارة في شارع محمّد عليّ وما زال يسوقها بلا وعي ولا فكرة عنده ألبتّة عن المكان الذي يقصده. الآن يردّد كثيرون اسم القاتل، فعلى القاتل أن يختفي، عليه أن يحذر ما أمكنه حبل المشنقة. لا تمكّن عشماوي من أن يسألك «ماذا تطلب؟» وعلى الحكومة أن تجود بهذا السؤال في مناسبة أفضل. وانتبه إلى نفسه فإذا بالسيّارة تقطع آخر شوط في شارع الجيش مندفعة نحو العبّاسيّة فانزعج لهذه العودة الغريبة إلى المكان الخطر. وضاعف من سرعتها حتّى بلغ منشية البكري في دقائق. ثمّ وقف عند أوّل شارع متفرّع من الطريق العامّ. وتركها في هدوء دون أن يلتفت يمنة أو يسرة. سار على مهل كأنّه يتريّض، وشعر بخمود، ثمّ بألم كأنّه ردّ فعل للمجهود العصبيّ الشديد الذي بذله. لا مأوى لك الساعة. ولا أيّ ساعة. نور؟ من المجازفة أن يذهب إليها الليلة بالذات، ليلة التحقيق والشبهات. والظلام يجب أن يمتدّ إلى الأبد...

الفصل الثامن

دفع باب مسكن الشيخ فأطاع دون مقاومة، دخل وردّه وراءه. وجد نفسه في الحوش غير المسقوف، ولاحت النخلة فارعة كأنّها ممتدّة في الفضاء حتّى النجوم الساهرة، فقال لنفسه يا له من مكان صالح للاختفاء! وحجرة الشيخ مفتوحة بالليل كما هي بالنهار وغارقة في الظلمة وكأنّها تنتظر أوبته فمضى إليها في هدوء. سمع الصوت يغمغم فلم يميّز من غمغمته إلّا «الله». واستمرّ يغمغم كأنّه لم يشعر أو لا يريد أن يشعر بدخوله. انزوى في ركن باليسار جنب كتبه، وانحطّ على الحصيرة ببدلته وحذائه المطّاط ومسدّسه، ثمّ مدّ ساقيه واستند إلى ذراعيه ملقيًا برأسه إلى الوراء في إعياء شديد. رأس كخليّة النحل، وأين المفرّ؟ تريد أن تستعيد سماع الطلق الناريّ، وصوات نبويّة، وأن تسعد بأنّك لم تسمع لسناء صرخة واحدة. ويحسن أن تقول للشيخ «السلام عليكم»، ولكنّ نبرات صوتك عاجزة. عجز مفاجئ كالغرق. وكنت تظنّ أنّك ستموت نومًا بمجرّد أن يمسّ جلدك الأرض! تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، متى ينام هذا الرجل الغريب؟ لكنّ الرجل الغريب ترنّم بصوت مرتفع نوعًا لأوّل مرّة:

الوجد عندي جحود — ما لم يكن عن شهودي

ثمّ قال بصوت خيّل إليه أنّه ملأ الحجرة «انفتحت عيون قلوبهم وانطبقت عيون رءوسهم». انتزع من آلامه ابتسامة وقال لنفسه: لذلك فهو لا يشعر بي.

ولكنّي أنا أيضًا لا أشعر بنفسي. وبغتة سبح الأذان فوق أمواج الليل الهادئة. وذكر ليلة قضاها مسهّدًا حتّى الأذان شوقًا إلى سعادة موعودة في النهار التالي لم يعد يذكر عنها شيئًا. ونهض عند سماعه الأذان هاتفًا بالخلاص من رقاد أليم فتطلّع من النافذة إلى زرقة الفجر وابتسامة المشرق وفرك يديه حبورًا بالسعادة الوشيكة التي لم يعد يذكر عنها شيئًا. لذلك فهو يحبّ الفجر للنعمة والزرقة والابتسامة والسعادة المنسيّة. وها هو الفجر مرّة أخرى ولكنّه من الإعياء لا يستطيع حراكًا ولا مسدّسه. وقام الشيخ للصلاة فأشعل المصباح، ولم يبدِ انتباهًا لوجوده. وفرش سجّادة الصلاة واتّخذ مكانه فوقها وإذا به يتساءل:

ـ ألا تصلّي الفجر؟

فلم يستطع جوابًا، إلى هذا الحدّ بلغ منه الإعياء. وأقام الشيخ الصلاة، وما لبث سعيد أن غاب عن الوجود. حلم بأنّه يُجلد في السجن رغم حسن سلوكه. وصرخ بلا كبرياء وبلا مقاومة في ذات الوقت. وحلم بأنّهم عقب الجلد مباشرة سقوه حليبًا. ورأى سناء الصغيرة تنهال بالسوط على رءوف علوان في بئر السلّم. وسمع قرآنًا يُتلى فأيقن أنّ شخصًا قد مات. ورأى نفسه في سيّارة مطارَدة عاجزة عن الانطلاق السريع لخلل طارئ في محرّكها واضطرّ إلى إطلاق النار في الجهات الأربع، ولكنّ رءوف علوان برز فجأة من الراديو المركّب في السيّارة فقبض على معصمه قبل أن يتمكّن من قتله وشدّ عليه بقوّة حتّى خطف منه المسدّس، عند ذلك هتف سعيد مهران: اقتلني إذا شئت ولكنّ ابنتي بريئة، لم تكن هي التي جلدتك بالسوط في بئر السلّم وإنّما أمّها، أمّها نبويّة وبإيعاز من عليش سدرة. ثمّ اندسّ في حلقة الذكر التي يتوسّطها الشيخ عليّ الجنيدي كي يغيب عن أعين مطارديه فأنكره الشيخ وسأله: من أنت وكيف وُجدت بيننا فأجابه بأنّه سعيد مهران ابن عمّ مهران مريده القديم وذكّره بالنخلة والدوم والأيّام الجميلة الماضية. فطالبه الشيخ ببطاقة الشخصيّة فعجب سعيد وقال إنّ المريد ليس في حاجة إلى بطاقة، وإنّه في المذهب يستوي المستقيم والخاطئ فقال له الشيخ إنّه يطالبه بالبطاقة ليتأكّد من أنّه من الخاطئين لأنّه لا يحبّ المستقيمين فقدّم له مسدّسه وقال له ثمّة قتيل وراء كلّ رصاصة في ماسورته ولكنّ الشيخ أصرّ على مطالبته بالبطاقة قائلًا إنّ تعليمات الحكومة لا تتساهل في ذلك فعجب سعيد مرّة أخرى وتساءل عن معنى تدخّل الحكومة في المذهب فقال الشيخ إنّ ذلك كلّه تمّ بناء على اقتراح للأستاذ الكبير رءوف علوان المرشّح لوظيفة شيخ المشايخ فعجب سعيد للمرّة الثالثة وقال إنّ رءوف بكلّ بساطة خائن ولا يفكّر إلّا في الجريمة فقال الشيخ إنّه لذلك رشّح للوظيفة الخطيرة ووعد بتقديم تفسير جديد للقرآن الشريف يتضمّن كافّة الاحتمالات التي يستفيد منها أيّ شخص في الدنيا تبعًا لقدرته الشرائيّة، وأنّ حصيلة ذلك من الأموال ستُستغلّ في إنشاء نوادٍ للسلاح ونوادٍ للصيد ونوادٍ للانتحار فقال سعيد: إنّه مستعدّ أن يعمل أمينًا للصندوق في إدارة التفسير الجديد وسيشهد رءوف علوان بأمانته كما ينبغي له مع تلميذ قديم من أنبه تلاميذه، وعند ذاك قرأ الشيخ سورة الفتح وعلّقت المصابيح بجذع النخلة وهتف المنشد يا آل مصر هنيئًا فالحسين لكم...

وفتح عينيه فرأى الدنيا حمراء ولا شيء فيها ولا معنى لها. ثمّ رأى الشيخ متربّعًا في هدوء يكتنفه البياض الناصع من الجلباب الفضفاض والطاقيّة واللحية، فلمّا ندّت عن سعيد حركة لدى استيقاظه نظر الشيخ إليه في هدوء أيضًا. وجلس سعيد في عجلة ورنا إلى الشيخ كالمعتذر، وفي الوقت نفسه دهمته الذكريات في سرعة اللهب. وقال الشيخ:

ـ نحن في العصر وأنت لم تذق طعامًا...

نظر سعيد إلى الكوّة ثمّ أعاد إلى الشيخ النظر وهو يتمتم في ذهول:

ـ العصر!

ـ نعم، قلت أدعه في نومه، وهداية الله تنزل في أيّ حال تريدها مشيئته...

وداخله القلق، ترى ألم يره أحد في نومه طوال النهار؟

ـ كنت أشعر في نومي بدخول أناس كثيرين...

ـ أنت لم تشعر بشيء، ومع ذلك فقد جاء واحد

بلقمة الغداء، وجاء آخر فكنس المكان وسقى الصبّارة والنخلة وفرش الحوش استعدادًا لاستقبال المحبّين!

فسأل باهتمام:

- متى يجيئون يا مولاي؟

- مع المغرب، متى جئت أنت؟

- مع الفجر...

وصمت مليًّا، ثمّ مسح الشيخ على لحيته وقال:

- أنت تعيس جدًّا يا بنيّ!

فتساءل في قلق:

- لمه؟

- نمت نومًا طويلًا ولٰكنّك لا تعرف الراحة، كطفل ملقى تحت نار الشمس، وقلبك المحترق يحنّ إلى الظلّ ولٰكن يمعن في السير تحت قذائف الشمس، ألم تتعلّم المشي بعد؟!

فقال سعيد وهو يدعك عينيه اللوزيّتين المحمرّتين:

- فكرة مزعجة أن يراك الآخرون وأنت نائم...

فقال الشيخ بلا اكتراث:

- من غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه...

ومرّ بيده بخفّة فوق جيب المسدّس وساءل نفسه ترى ماذا يصنع هٰذا الشيخ لو أنّه صوّب نحوه مسدّسه؟ متى يمكن أن يهتزّ هدوءه المثير؟ وعاد الشيخ يسأله:

- أنت جائع؟

- كلّا.

فقال وشبه ابتسامة تلوح في عينيه:

- إذا صحّ الافتقار إلى الله صحّ الغنى بالله...

- إذًا!

ثمّ بلهجة ساخرة:

- مولاي، ماذا كنت تفعل لو ابتليت بمثل زوجتي ولو أنكرتك كما أنكرتني ابنتي؟

فلاحت في العينين الصافيتين نظرة رثاء وقال:

- العبد لله لا يملكه مع الله سبب...

اقطع لسانك قبل أن يخونك ويعترف. أنت تودّ أن تعترف له بكلّ شيء. ولعلّه ليس في حاجة إلى ذٰلك، لعلّه رآك وأنت تطلق النار، لعلّه يرى أكثر من ذٰلك. وارتفع صوت تحت الكوّة ينادي بجريدة أبو الهول فقام بسرعة إلى الكوّة فناداه ثمّ مدّ يده بالقرش وعاد بالجريدة إلى مجلسه وقد نسي الشيخ تمامًا. التصقت عيناه بعنوان ضخم أسود «جريمة شنيعة بالقلعة!» وجرت عيناه على الأسطر بسرعة جنونيّة. ولم يفهم شيئًا. أهي جريمة أخرى؟ لٰكن ها هي صورته، ها هي صورة نبويّة، ها هي صورة عليش سدرة. فمن المضرّج في دمه؟ قصّته بارزة أمام عينيه، فضيحة مذاعة كالغبار الخماسينيّ، الرجل الذي خرج من السجن ليجد امرأته زوجة لأحد أتباعه، ولٰكن من المضرّج في دمه؟ إنّه لا يفهم شيئًا وينبغي أن يقرأ من جديد. ينبغي أن يعرف مَن المضرّج في دمه وكيف استقرّت رصاصته في صدره. القتيل رجل آخر يرى صورته لأوّل مرّة في حياته. اقرأ من جديد. لقد ترك عليش سدرة ونبويّة بيتهما في نفس اليوم الذي زارهما فيه بحضور المخبر والأعوان، وحلّت مكانهما في الشقّة أسرة جديدة، ولعلّها دفعت خلوّ رِجْل. الصوت الذي سمعه لم يكن صوت عليش سدرة. الصوات الذي سمعه لم يكن صوات نبويّة، الجسم الذي سقط كان جسم شعبان حسين العامل بمحلّ الخردوات بشارع محمّد عليّ. سعيد مهران جاء ليقتل زوجته وصاحبه القديم فقتل الساكن الجديد شعبان حسين. وشهد أحد جيران عليش بأنّه رأى سعيد مهران وهو يغادر البيت عقب ارتكاب الجريمة وأنّه نادى الشرطيّ ولٰكنّ صوته ضاع في الضجّة التي شملت الطريق كلّه. أيّ هزيمة جنونيّة. أيّ جريمة بلا جدوى، وسيطارده حبل المشنقة وعليش آمن، هٰذه هي الحقيقة كأنّها جوف قبر انكشف. وانتزع عينيه من الجريدة فرأى الشيخ عليّ الجنيدي ينظر إلى السماء من خلال الكوّة ويبتسم. ولسبب ما أخافته ابتسامته. ورغب في أن يقف أمام الكوّة ليمدّ بصره في خطّ نظر الشيخ لعلّه يرى في السماء ما جعله يبتسم. لٰكنّه لم ينفّذ رغبته. ليبتسم وليطّلع على مكنونه إذا شاء ولٰكن سيجيء المريدون عمّا قريب وربّما تعرّف عليه بعضهم ممّن رأوا صورته في الجريدة. آلاف وآلاف يتأمّلون صورته الآن بغرابة وخوف ولذّة بهيميّة خفيّة. قضي عليه بلا جدوى، مطارَد وسيظلّ مطارَدًا إلى آخر لحظة من حياته، وحيد

عليه أن يحذر حتّى صورته في المرآة، حيّ بلا حياة كجثّة محنّطة، سيجري من جُحر إلى جحر كفار يتهدّده السمّ والقطط وهراوات المشمئزّين، كلّ هٰذا وأعداؤه يمرحون. والتفت الشيخ نحوه وقال برقّة:

ـ أنت متعب، قم فاغسل وجهك. . .

فقال بضيق وهو يطوي الجريدة:

ـ سأذهب وأريحك من منظري. . .

فقال في مزيد من الرقّة:

ـ هٰذا مأواك. . .

ـ نعم، ولٰكن لِمَ لا يكون لي مأوى آخر؟

فقال وهو يطرق:

ـ لو كان آخر ما جئتني!

اذهب إلى الجبل حتّى يهبط الظلام. لا تغادره حتّى يهبط الظلام. تحاشَ الضوء ولُذْ بالظلام. تعب بلا فائدة. ذٰلك أنّك قتلت شعبان حسين. من أنت يا شعبان؟ أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني. هل لك أطفال؟ هل تصوّرت يومًا أن يقتلك إنسان لا تعرفه ولا يعرفك. هل تصوّرت أن تُقتل بلا سبب؟ أن تُقتل لأنّ نبويّة سليمان تزوّجت من عليش سدرة؟ وأن تُقتل خطأ ولا يُقتل عليش أو نبويّة أو رءوف صوابًا؟ وأنا القاتل لا أفهم شيئًا ولا الشيخ عليّ الجنيدي نفسه يستطيع أن يفهم. أردت أن أحلّ جانبًا من اللغز فكشفت عن لغز أغمض. وتنهّد بصوت مسموع.

وعاد الشيخ يقول:

ـ يا لك من مُتعبَ!

ـ ودنياك هي المُتعبة.

فقال الشيخ في رضى:

ـ نتغنّى بهٰذا أحيانًا.

ونهض، ثمّ قال وهو يهمّ بالذهاب:

ـ وداعًا يا مولاي. . .

فقال الشيخ كالمحتجّ:

ـ قول لا معنى له على أيّ وجه قلته، قل إلى اللقاء.

الفصل التاسع

يا له من ظلام! انقلِبْ خفّاشًا فهو أصلح لك.

وهٰذه الرائحة الدهنيّة المتسرّبة من باب شقّة ما في هٰذه الساعة من الليل! متى تعود نور وهل تعود بمفردها؟ هل يمكن أن أبقى في بيتها حتّى أُنسى؟ لعلّك تظنّ يا رءوف أنّك تخلّصت منّي إلى الأبد؟ بهٰذا المسدّس أستطيع أن أصنع أشياء جميلة على شرط ألّا يعاكسني القدر. وبه أيضًا أستطيع أن أوقظ النيام فهم أصل البلايا. هم خلقوا نبويّة وعليش ورءوف علوان. . .

وخيّل إليه أنّه سمع وقع أقدام صاعدة، ثمّ تأكّد من ذٰلك ونظر من فوق الدرابزين. فرأى نورًا خافتًا يتحرّك في بطء على الجدران نور عود ثقاب كما ظنّ. واقتربت الأقدام ثقيلة متمهّلة فقرّر أن ينبّهها إلى وجوده تفاديًا من مفاجأة مزعجة. وتنحنح فجاء صوتها يسأل في ارتياع:

ـ من؟

فأدلى برأسه إلى أقصى حدّ ممكن وقال هامسًا:

ـ سعيد مهران. . .

وأسرعت الأقدام في خفّة حتّى انتهت إلى مكانه وهي تلهث والعود يلفظ أنفاسه. وقبضت على عضده في انفعال، وبنبرة تنازعها الابتهاج وتقطّع الأنفاس قالت:

ـ أنت!. . . يا كسوفي. . . انتظرت طويلًا. . .؟

وفتحت الشقّة ثمّ دخلت جاذبة إيّاه من ذراعه. وأضاءت مصباحًا فظهر مدخل مستطيل صغير خالٍ من أيّ شيء. ومالت به إلى حجرة جانبيّة كشف مصباحها الكهربائيّ عن حجمها المتوسّط وأضلعها المربّعة، ثمّ سارعت إلى النافذة ففتحتها على مصراعيها لتلطّف من جوّها المختنق. وارتمى على إحدى الكنبتين المتقابلتين وهو يقول متشكّيًا:

ـ جئت عند منتصف الليل، ولبثت أنتظر حتّى شاب شعري. . .

فجلست على الكنبة الأخرى بعد أن أزاحت عنها أقمشة مفصّلة وكومًا من القصاصات وقالت:

ـ الحقّ أنّه لم يكن عندي أدنى أمل في أنّك ستجيء. . .

وتلاقت الأعين المتعبة، فابتسم ليداري تحجّر باطنه، وتساءل:

ـ حتّى بعد وعدي الصريح؟!

فابتسمت ابتسامة خفيفة ولم تجب، لكنّها قالت:

ـ أمس استجوبوني في القسم حتّى أزهقوا روحي، أين السيّارة؟

فقال وهو يخلع جاكتته ويرمي بها إلى جانبه كاشفًا عن قميص طحينيّ متلبّد بالعرق والغبار.

ـ قضت الحكمة بأن أتركها رغم حاجتي إليها، سيجدونها ويردّونها إلى صاحبها كما ينبغي لحكومة تتحيّز لبعض اللصوص دون البعض!

فسألته في قلق:

ـ ماذا فعلت بها أمس؟

ـ لا شيء ألبتّة في الحقيقة، وستعلمين كلّ شيء في حينه...

ونظر نحو النافذة وهو يتنفّس في عمق قائلًا:

ـ جهة بحريّة فيما أظنّ، هواء لطيف حقًّا...

ـ خلاء حتّى باب النصر، هنا القرافة...

فابتسم قائلًا:

ـ لذلك فهواؤها غير فاسد!

تنظر إليك بنهم. وأنت تمتعض ضجرًا. وبدل العزاء تتذكّر طعنة في الكبرياء. وقالت نور راجعة إلى أفكارها الأولى:

ـ انتظرت طويلًا على السلّم، أنا آسفة جدًّا...

فامتحنها بنظرة غامضة وهو يقول:

ـ سأنزل ضيفًا عندك لأجل طويل...

فارتفع رأسها ابتهاجًا وهي تقول:

ـ امكث طول العمر إن شئت...

فأومأ إلى النافذة وهو يقول باسمًا:

ـ حتّى أنتقل إلى الجيران!

وبدا أنّها لم تسمعه لتفكير لاح في عينيها ثمّ تساءلت:

ـ وأهلك ألا يسألون عنك؟

فأجاب وهو ينظر إلى حذائه المطّاط:

ـ لا أهل لي...

ـ أعني زوجتك؟

تعني الألم والجنون والرصاص الضائع. تريد اعترافًا مؤذيًا للكرامة. وستجد أنّ فتح القلب المغلق يزداد عسرًا. ولكن ما جدوى الكذب والجرائد تنعق بالفضيحة؟

ـ قلت لا أهل لي...

أنت تفكّرين في معنى القول. ويشرق وجهك بالسرور. وأنا أكره هذا السرور. وأرى الآن أنّ الذبول استقرّ تحت عينيك. وتساءلت:

ـ الطلاق؟

لوّح في ضجر قائلًا:

ـ طلّقت وأنا في السجن، ولندع هذا الحديث جانبًا.

فقالت بغضب:

ـ خنزيرة! مثلك يُنتظر ولو حُكم عليه بتأبيدة!

الماكرة. مثلي لا يحبّ الرثاء. احذري الرثاء. يا ضيعة الرصاص في الصدور البريئة!

ـ الحقّ أنّي أهملتها كثيرًا!

ـ على أيّ حال هي امرأة لا تستحقّك!

صدقت. ولا أيّ امرأة. لكنّها مفعمة حيويّة وأنت تترنّحين فوق الهاوية. نفخة واحدة ثمّ تنطفئين. وما لك في قلبي سوى الرثاء. وقال:

ـ لا يجوز أن يشعر بي أحد!

فقالت ضاحكة وكأنّها وثقت من امتلاكه إلى الأبد:

ـ أحطّك في عيني وأكحّل عليك!

ثمّ برجاء:

ـ هل فعلت شيئًا خطيرًا؟

هزّ منكبيه باستهانة، فقامت وهي تقول:

ـ سأعدّ لك مائدة، عندي طعام وشراب، أتذكر كم كنت جافًّا معي في الماضي؟

ـ لم يكن عندي وقت للحبّ...

فلحظته بعتاب وهي تقول:

ـ وهل يوجد ما هو أهمّ منه؟... وكنت أقول لنفسي لعلّ قلبه حجر، ومع ذلك فلم يحزن أحد على سجنك كما حزنت...

ـ لذلك لجأت إليك أنت!

فقالت بامتعاض:

ـ أنت لم تقابلني إلّا صدفة، ولعلّك كنت نسيتني تمامًا.

فقطّب عمدًا وهو يتساءل:

- أتظنّين أنّي لا أستطيع أن أجد مكانًا آخر؟

فأشفقت من غضبه، وأقبلت عليه فأحاطت خدّيه براحتيها وهي تقول معتذرة:

- نسيت أنّ العسكريّ يمنع زوّار الحديقة من معاكسة الأسد، آسفة، ولكن ما أسخن وجهك، وذقنك خشنة جدًّا، ما رأيك في دشّ بارد؟!

فأعرب عن ترحيبه بابتسامة.

- إلى الحمّام، وعندما تخرج ستجد المائدة مُعَدَّة، سنأكل في حجرة النوم فهي أجمل من هٰذه الحجرة وتطلّ مثلها على القرافة...

الفصل العاشر

ارتدى بدلة الضابط على سبيل التجربة فحدجته نور رافعة أيديها في تسليم وإن لم يكن شيء لا يمكن أن يهدّدها. مدينة الصمت والحقيقة. ملتقى النجاح والفشل والقاتل والقتيل. مجمع اللصوص والشرطة حيث يرقدون جنبًا إلى جنب في سلام لأوّل ولآخر مرّة. وشخير نور يبدو أنّه لن ينقطع إلّا حين تستيقظ عند الأصيل. وستبقى أنت في هٰذا السجن حتّى ينساك البوليس، ولٰكن هل ينساك البوليس حقًّا؟ وبقدر ما يخون الموت الأحياء فستذكر بالقبور الخيانة ثمّ تذكر بالخيانة نبويّة وعليش ورءوف. وأنت نفسك ميت منذ أطلقت الرصاصة العمياء، ولٰكن عليك أن تطلق مزيدًا من الرصاص.

وسمع تثاؤبًا كالتأوّه فتراجع عن شيش النافذة ملتفتًا نحو الفراش فرأى نور جالسة، شبه عارية، منكوشة الشعر تعيسة القسمات. نظرت إليه بارتياح وهي تقول:

- حلمت أنّك بعيد وأنّني أنتظرك كالمجنونة...

فقال في كآبة:

- هٰذا في الحلم، أمّا في الحقيقة فأنت التي ستذهبين بعيدًا وأنا الذي سأنتظر...

وذهبت إلى الحمّام ثمّ عادت وهي تجفّف رأسها ووجهها. وتابع يديها وهما تصوّران وجهها في صورة جديدة، بهيجة شابّة. هي - مثله - في الثلاثين ولٰكنّها تكذب علنًا لتبدو أصغر، وسخافات ورذائل لا حصر لها تمارس علنًا، وليست السرقة كذلك ويا للأسف.

وأوصلها حتّى الباب وهو يقول:

- لا تنسي الجرائد...

ومضى إلى حجرة الجلوس فاستلقى على كنبة. وحيد بكلّ معنى الكلمة حتّى كتبه منسيّة عند الشيخ عليّ الجنيدي. وتسلّى بالنظر إلى السقف الأبيض الباهت المعروق وكأنّه مرآة تعكس بساط الحجرة المنجرد. ومن خلال النافذة بدت سماء المغيب كدرة يدور بها سرب من الحمام من آن لآن. وجفولك يا سناء مؤلم حقًّا كمنظر القبر. ولا أدري إن كنّا سنلتقي مرّة أخرى، أين ومتى. ولن يخفق قلبك بحبّي في هٰذه الحياة المليئة بالرصاصات الطائشة. وكالرصاص تطيش رغائب كثيرة في الدنيا مخلّفة وراءها سلسلة من الحلقات المحزنة. ابتداء من الحلقة الأولى عند بيت الطلبة في طريق مديريّة الجيزة. لم يكن عليش سدرة إلّا شخصًا عابرًا لا قيمة له أمّا نبويّة فقد هزّت القلب حتّى اقتلعته من جذوره. ولو أنّ الخيانة الكامنة ظهرت في صفحة الوجه كما تظهر آثار الحمّيات الخبيثة لما تجلّى جمال في غير موضعه ولأعفيت قلوب كثيرة من عبث المكائد. والبقّال يقع دكّانه أمام بيت الطلبة وتجيء نبويّة حاملة السلطانيّة لتشتري ما تشاء في ثياب مهندمة بل تعدّ زينة وسط أمثالها من الخادمات لذٰلك عُرفت بخادمة الستّ التركيّة نسبة إلى تركيّة عجوز كانت تقيم بمفردها في بيت محاط بحديقة كبيرة في آخر الطريق وكانت غنيّة ومتكبّرة وتفرض على كلّ من يمتّ إليها بسبب أن يكون جميلًا وأنيقًا ونظيفًا فتبدّت نبويّة دائمًا ممشّطة الشعر منسابة الضفيرة حتّى العجز منتعلة شبشبًا يطوّق جلبابها حيويّة جسد ثائر وحتّى الأعين غير المسحورة أي أعين الآخرين وصفت جمالها بأنّه جمال فلّاحيّ لذيذ الطعم باستدارة الوجه الخمريّ والعينين العسليّتين والأنف القصير الممتلئ والفم المتشرّب بماء الحياة والدقّة الخضراء في الذقن كالخال وكان يقف عند باب بيت الطلبة عند الانتهاء من الخدمة ينظر نحو آخر الطريق الذي تجيء منه حتّى تلوح لعينيه القامة البديعة والمشية الحبيبة وتقترب

وتقترب باعثة باقترابها أجمل مشاعر الحياة كأنّها موسيقى عذبة تُستقبل بها حيث حلّت وتتبعها عيناك في نشوة الخمر وتندسّ معها بين عشرات الواقفات أمام البقّال وتغيب حينًا وتظهر حينًا وأنت تزداد غرامًا وسؤالًا ورغبة في عمل شيء أيّ شيء ولو كلمة أو إشارة أو تعويذة وتمضي هي أخيرًا في طريق العودة منذرة بالاختفاء بقيّة نهار وليلة كاملة فتصعد منك تنهيدة مريرة وتبوخ النشوة رويدًا وتخرس العصافير فوق أشجار الطريق وينتشر جوّ الخريف فجأة ثمّ مرّة تلحظ أنّ عودها يميس تحت نظراتك وأنّها تتيه دلالًا فلا تقف أنت عند حدّ وباندفاعك الطبيعيّ تسبقها في الطريق ثمّ تعترض سبيلها عند النخلة الوحيدة القائمة في نهاية الحقول بجرأة غريبة تعترض سبيلها حتّى ذهلت أو تظاهرت بالذهول وسألتك محتجّة من أنت فأجبت بدهشة من أنا أنت تسألين من أنا ألا تعرفين من أنا أنا صاحب العين التي يعرفها كلّ شبر في كائنك فقالت بحدّة أنا لا أحبّ قلّة الأدب فقلت ولا أنا أنا مثلك لا أحبّ قلّة الأدب وعلى العكس أحبّ الأدب والجمال والرقّة وكلّ أولئك هو أنت أنت ألا تعرفين الآن من أنا ولا بدّ أن أحمل عنك هذه السلّة وأوصلك حتّى باب البيت فقالت لست في حاجة إلى مساعدتك ولا تقف في طريقي مرّة أخرى وسارت فسرت إلى جانبها متشجّعًا بابتسامة خفيفة ضاعت في الاكفهرار المصطنع أحسست بها كما تحسّ بأوّل نسمة رقيقة متسلّلة في ليلة زامتة فقالت ارجع يجب أن ترجع ستّي تجلس في النافذة وستراك إذا تقدّمت أكثر من هذا خطوة واحدة. قلت أنا عنيد وإذا أردت أن أرجع فلنرجع معًا بضع خطوات ليس إلّا عند نخلتنا الوحيدة إذ لا بدّ أن أتكلّم، ولماذا لا أتكلّم هل أنا لا أملأ العين؟ وهزّت رأسها في عنف ولكنّها أبطأت في السير وغمغمت في احتجاج وغضب، ولكنّها أبطأت في السير وتقوّس عنقها كالقطّة المتنمّرة ولكنّها أبطأت في السير، فلم أعد أشكّ في أنّي وصلت وأنّ نبويّة لا تخلو من بعض مشاعري وأنّها مطّلعة تمامًا على تاريخ وقفاتي التنهّديّة عند بيت الطلبة، وأنّ نظرات الطريق ستتحوّل إلى أمور لها خطرها في حياتي وحياتها وحياة الدنيا جميعًا التي ستزداد بها عذًا؛ فقلت إلى غد وتوقّفت خشية عليها من لذع لسان تركيّ عجوز يقيم في شارع مديريّتنا كاللغز، ثمّ تراجعت إلى النخلة ومن فرحتي تسلّقتها بسرعة وقفزت من علوّ ثلاثة أمتار إلى أرض مزروعة جرجيرًا، ثمّ رجعت إلى بيت الطلبة وأنا أغنّي بصوتي الغليظ كأنّي ثور هزّه الطرب. وعندما دفعتك ظروف قهريّة إلى العمل في سرك الزيّات مضت بك الحياة من حيّ إلى حيّ ومن بلدة إلى بلدة، وخفت أن يصدق عليك المثل القائل: إنّ البعيد عن العين بعيد عن القلب، فقلت لها لنتزوّج على سنّة الله ورسوله وأنتما تقفان عند مشارف الجامعة التي لم تدخلها ظلمًا ودخلها كثير من الأغنياء؛ ولم يكن في الطريق ضوء ولا في السماء إلّا هلال غليظ استقرّ فوق الأفق؛ وابتهجت ونظرت إلى الأرض حتّى لمع جبينها الضيّق تحت شعاع الهلال فقلت إنّ عملي مربح ومستقبلي هائل ومسكني في الدراسة دور أرضيّ نظيف بطريق الجبل على مقربة من مسكن الشيخ عليّ الجنيدي، وستعرفين الشيخ المبارك عندما نتزوّج ويجب أن نتزوّج في أقرب وقت إكرامًا لحبّنا طويل العمر؛ وآن لك أن تتركي ستّك العجوز. فقالت أنا يتيمة وليس لي إلّا عمّة بسيدي الأربعين فقلت على بركة الله وقبّلتها أمام الهلال، والفرح من جماله عاش أحدوثة على كلّ لسان، والزيّات نقّطني بعشرة جنيهات وعليش سدرة من سروره بدا كأنّه صاحب الفرح ولعب دور الصديق الأمين، ولكن لم يكن صديقًا على الإطلاق وأعجب شيء أنّي خُدعت به وأنا الذكيّ الذي يخافه الجنّ الأحمر؛ كنت البطل وكان عابد البطل، يحبّني ويتملّقني ويتجنّب غضبي ويلتقط فتات العيش من كدّي وشطارتي وآمنت بأنّني لو أرسلته مع نبويّة إلى الصحراء التي تاه فيها سيّدنا موسى لظلّ يراني قائمًا بينه وبين نبويّة فلا يحيد عن الأدب؛ وهي كيف تميل إلى الكلب وتعرض عن الأسد ولكنّ القذارة مركّبة في طبعها قذارة تستحقّ القتل في الدنيا وفي الآخرة وعلى شرط ألّا يطيش الرصاص الأعمى فيصيب الأبرياء ويعمى عن الأوغاد والسفلة ويترك قلوبًا يمزّقها الألم ويحرقها الغضب ويعبث بها الجنون فتنسى كلّ شيء

طيّب في الحياة حتّى ليلة الدخلة، ولعب الصبيان في الحارة، والحبّ قبل الفساد، ومولد سناء ورؤية وجه سناء لأوّل مرّة، وسماع بكائها لأوّل مرّة، وحملها على الساعدين لأوّل مرّة، وابتساماتها التي لم أحصها وليتني أحصيتها أو صوّرتها وليتني أنسى فيما نسيت جفولها وصراخها الذي ردّدته أركان الأرض وجفّت بسببه الينابيع والنسائم وكافّة المشاعر الطيّبة في الوجود. وانتشر الظلام نَعَم انتشر الظلام في الحجرة وخارج النافذة وزاد صمت القبور صمتًا، ولا يمكن أن تضيء المصباح كي تبقى الشقّة كما تبقى عادة في أثناء غياب نور وستألف عيناك الظلام كما ألفت الوجوه الكريهة ولن تجد فرصة للسكر خشية أن تحدث حركة عنيفة أو ترفع صوتًا منكرًا إذ يجب أن تبقى الشقّة صامتة كالقبر، وحتّى الأموات أنفسهم لن يفطنوا لوجودك هنا والله وحده يعلم كيف تصبر على هٰذا السجن وإلى متى كما كان يعلم وحده أنّك ستقتل شعبان حسين لا عليش سدرة، ولا بدّ أن تخرج عاجلًا أو آجلًا للتجوّل في الليل ولو في الأماكن الآمنة ولٰكن فلنؤجّل ذٰلك إلى حين حتّى يُقتل البوليس تعبًا في البحث عن لا شيء ولنسأل الله ألّا يُدفن شعبان حسين في قبر من هٰذه القبور فإنّ هٰذه المنطقة القديمة لا تتحمّل ثقل المفارقات القاسية، واصبر اصبر حتّى تعود نور ولا تسأل متى تعود نور، وعليك أن تكابد الظلمة والصمت والوحدة ما دامت الدنيا لا تريد أن تغيّر من عاداتها السيّئة. ونور المسكينة كذٰلك فحبّها القديم لك ما هو إلّا عادة سيّئة وهو يرتطم بقلب قتله الألم والغضب وينفر من إقبالها كما ينفر من ذبولها ولا يدري حقًّا ماذا هو فاعل بها إلّا أن يشاربها نخب الضياع والأسى ويرثى لمحاولاتها الطيّبة اليائسة ولن ينسى في النهاية أنّها امرأة كما أنّ نبويّة امرأة الخائنة الجبانة سيقتلها الخوف على حياتها حتّى يلتفّ الحبل حول عنقك أو تستقرّ في قلبك رصاصة مجرمة ويشوّه البوليس سيرتك فينقطع ما بينك وبين سناء إلى الأبد حتّى حبّك لن تدري عن صدقه شيئًا كأنّه رصاصة طائشة وكذٰلك...

واختلس النوم سعيد مهران وحلم بعض الوقت ولم يدرك أنّه كان يحلم إلّا عند يقظته، عند وعيه لوجوده في الظلام والوحدة بشقّة نور بشارع نجم الدين وتأكّده من أنّ عليش سدرة لم يفاجئه في مخبئه ولم يطلق عليه الرصاص تباعًا. ولم يدر عن الوقت شيئًا سرعان ما سمع همس المفتاح في القفل وصفقة الباب وهو يغلق وشرّاعة باب الحجرة وهي تنضح بضوء المدخل. وظهرت نور باسمة حاملة لفّة كبيرة فأقبلت عليه تقبّله وهي تقول:

ـ وليمة! معي العجّاتي وتسباس ومانولي!

فقبّلها متسائلًا:

ـ شاربة؟

ـ لزوم العمل، سأستحمّ ثمّ أرجع، وإليك الجرائد...

وتابعها بعينيه حتّى ذهبت ثمّ انهمك في مراجعة الجرائد الصباحيّة والمسائيّة على السواء. لم يكن فيها جديد بالنسبة إليه ولٰكن ثمّة اهتمام بالجريمة والمجرم فاق ما كان يتوقّعه وبخاصّة ما نُشر في جريدة الزهرة، جريدة رءوف علوان، كتبت الجريدة في إسهاب مثير عن تاريخه في اللصوصيّة، وسلسلة المغامرات التي كشفت عنها محاكمته، وقصور الأغنياء التي سطا عليها، وعن شخصيّته، وجنونه الخفيّ، وجرأته الإجراميّة التي انتهت إلى سفك الدماء. يا للعناوين الكبيرة السوداء. آلاف وآلاف يناقشون الساعة جرائمه ويتندّرون بخيانة نبويّة له ويتراهنون على مصيره. إنّه محور الأخبار ورجل الساعة وقلبه ينقبض لذٰلك خوفًا وزهوًا. الانفعال يكاد يمزّق عروقه وعشرات الأفكار تتزاحم في رأسه في اللحظة الواحدة وتيّار مثل تيّار الخمر يغمر خياله فيؤمن بأنّه سيتمخّض عن أمر خطير لا يقلّ شأنًا عن الخلق أو النصر، فيودّ لو يتّصل بالناس ليعرب لهم عمّا يهزّ صدره في الصمت والوحدة، وليؤكّد لهم بأنّه سينتصر ولو بعد الموت. إنّه وحيد حيال الجميع ولٰكنّهم لا يعلمون، لم يفقهوا بعد حديث الصمت والوحدة، ولا يفطنون إلى أنّهم أيضًا لهم حديث صمت ووحدة، والمرآة التي تعكس صورهم باهتة مضلّلة فيتوهّمون أنّهم يرون قومًا غرباء.

وثبتت عيناه على صورة سناء في دهشة وتأثّر. وجرى

بصره على الصور جميعًا، صورته الوحشيّة وصورة نبويّة بدت كامرأة ساقطة، ثمّ عاد إلى سناء المبتسمة. أجل إنّها تبتسم، لأنّها لا تراه ولأنّها لا تدري شيئًا. وتفحّصها بكلّ قوّة ورغبة فدهمه شعور بأنّه عبث وأنّ الليل خارج النافذة يتنفّس حزنًا أصيلًا. وتمنّى في يأسه لو يستطيع الهرب بها إلى مكان لا يعرفه أحد. وأن يراها ولو كآخر طلب له في الدنيا قبل الشنق. وقام إلى الكنبة الأخرى ليلتقط المقصّ من بين قصاصات القماش المكوّمة ثمّ عاد ليقتطع الصورة بعناية من الجريدة. ولـمّا خرجت نور من الحمّام كانت نفسه قد هدأت نوعًا ما ونادته من حجرة النوم فمضى إليها وهو يعجب كيف أنّها حملت إليه جميع الأنباء وهي لا تدري عنها شيئًا. وتجلّى كرمها في المائدة التي أعدّتها فسال لعابه شوقًا إلى الطعام والشراب. وجلس إلى جانبها على كنبة مواجهة للفراش أمام الخوان الحافل، ولرضاه ربّت شعرها المبتلّ وهو يقول على سبيل التحيّة:

ـ أنت امرأة ولا كلّ النساء...

وعصبت شعرها بمنديل أحمر، وراحت تملأ الأكواب، مبتسمة طوال الوقت لقوله، مبدية عن لونها الأسمر الباهت بلا زواق، منتعشة بالحمّام كطعام متواضع لكنّه طازج، مطمئنّة في جلستها معتزّة بامتلاكه ولو إلى حين، فارتاح إلى ذٰلك كلّه دون حماس. وحدجته بنظرة ارتياب وقالت:

ـ أنت تقول هٰذا! أكاد أصدّق أحيانًا أنّ الرحمة قد تعرف قلوب رجال البوليس قبل أن تعرف قلبك...

ـ صدّقيني أنا سعيد بك.

ـ حقًّا؟

ـ نعم، رقّة قلبك لا يمكن أن تقاوَم.

ـ ألم أكن كذٰلك في الزمان الأوّل؟

هيهات أن ينسينا انتصار سهل هزيمة دامية. وقال:

ـ كنت وقتذاك بلا قلب...

ـ والآن؟

فتناول كوبه قائلًا:

ـ لنشرب ولنبتهج...

وأقبلا على الطعام والشراب بشهوة صادقة، حتّى سألته:

ـ كيف قضيت وقتك؟

فأجاب وهو يغمس ريشة في الطحينة:

ـ بين الظلمة والقبور، أليس لك أموات هنا؟

ـ أمواتي في قبور البلينا. رحمة الله على الجميع...

وصمتا فوضحت أصوات التمطّق واحتكاك الأكواب وطقطقة الصينيّة. وعاد سعيد يقول:

ـ سأطلب منك أن تشتري لي قماشًا يصلح لبدلة ضابط...

ـ ضابط؟

ـ ألا تدرين أنّني تعلّمت الخياطة في السجن؟

فتساءلت بنظرة قلقة:

ـ ولكن لم؟

ـ جاء دوري في الجهاديّة!

ـ ألا تفهم أنّي لا أريد أن أفقدك مرّة أخرى؟

فقال بثقة غريبة:

ـ لا تخافي عليّ لولا الغدر ما تمكّن البوليس منّي أبدًا...

تنهّدت في امتعاض فراح يقول من فم مكتظّ:

ـ أنت نفسك ألست عرضة للخطر؟

ثمّ وهو يبتسم:

ـ كأن يهاجمك قاطع طريق في الصحراء مثلًا؟

وضحكا معًا، ثمّ مالت نحوه فقبّلت شفتيه اللزجتين بشفتين لزجتين وقالت:

ـ الحقّ أنّنا لكي نعيش يجب ألّا نخاف شيئًا...

فتساءل وهو يومئ إلى النافذة بذقنه:

ـ حتّى الموت؟

ـ أعوذ بالله...

ثمّ باستهانة:

ـ وحتّى هٰذا أنساه عندما يجمعني الزمان بمن أحبّ...

أعجب بحرارة قلبها وقوّة إصراره، ولفتوره شعر نحوها بالرثاء والامتنان.

وكانت ثمّة فراشة تعانق المصباح العاري في تلك الساعة من الليل...

الفَصل الحَادي عَشر

لا يمرّ يوم دون أن تستقبل القرافة ضيوفًا جددًا. وكأن لم يبق من غاية إلّا أن تقبع وراء الشيش لترى الموت في نشاطه الدائب. والمشيّعون أحقّ بالرثاء. يذهبون في جموع باكية، ثمّ يعودون وهم يجفّفون الدموع ويتحادثون. وقوّة أقوى من الموت نفسه هي التي تقنعهم بالبقاء. هٰكذا دُفن الذاهبون من أهلك. عمّ مهران الكهل الطيّب بوّاب عمارة الطلبة. العمل والقناعة والأمانة. وقد اشتركت معه في الخدمة منذ الطفولة. ورغم البساطة والفقر كانت الأسرة تفوز في ختام يومها بجلسة هنيّة في الحجرة الأرضيّة بحوش العمارة، الرجل وامرأته يتحادثان والطفل يلعب. ولإيمانه بالله اعتنق الرضى، وكان الطلبة يحترمونه. ونزهته الوحيدة كانت في الحجّ إلى بيت الشيخ عليّ الجنيدي، وعن طريقه عرفت أنت بيت الشيخ. يا سعيد تعال معي، سأدلّك على رياضة هي خير من اللعب في الحقل، ستذوق لذّة العيش في جوّ البركة، بهٰذا يطمئنّ قلبك وطمأنينة القلب هي خير زاد في الدنيا. وتلقّاك الشيخ بنظرة عامرة بالحنان فأعجبت أيّما إعجاب بلحيته البيضاء، وقال يخاطب أباك «هٰذا ابنك الذي حدّثتني عنه، النجابة في عينيه، قلبه أبيض كقلبك، وستجده إن شاء الله من الطيّبين». والحقّ أنّك أحببت الشيخ عليّ الجنيدي جدًّا. فتنتك وضاءة وجهه وإشعاع المحبّة المنبثق من عينيه. كذٰلك أعجبتك الأنغام والأناشيد فلعبت بأوتار قلبك حتّى قبل أن يهذّبه الحبّ. وقال له عمّ مهران يومًا «علّم هٰذا الغلام ماذا يجب عليه أن يفعل» فأجاب الشيخ وهو يحنو عليه بنظرة «نحن نتعلّم من المهد إلى اللحد، ولٰكن يا سعيد ابدأ بأن تحاسب نفسك، وليكن في كلّ فعل يصدر عنك خير لإنسان»! واتّبعت قوله على قدر استطاعتك ولٰكنّك لم تحقّقه على أكمل وجه إلّا حين احترفت اللصوصيّة! وتتابعت أيّام كالأحلام ثمّ اختفى عمّ مهران الطيّب. اختفى الرجل على نحو لم يفهمه الغلام، وبدا الشيخ عليّ الجنيدي نفسه عاجزًا أمام اللغز. «يا بؤسك... يا بؤسنا... مات أبوك» هٰكذا صاحت أمّك وهي تصوّت وأنت تهزّ رأسك وتدعك عينيك لتفيق من النوم بعد أن أيقظك صراخها في الحجرة الأرضيّة بعمارة الطلبة. وبكيت فزعًا لأنّه لم يكن في وسعك أن تفعل شيئًا. ولٰكن تجلّت في تلك الليلة شهامة رءوف علوان الطالب بكلّيّة الحقوق. كان شهمًا في جميع الأحوال، وكنت تحبّه كما تحبّ الشيخ عليّ الجنيدي وأكثر، وهو الذي سعى فيما بعد إلى أن تحلّ مكان أبيك في خدمة العمارة، أو أن تحلّ أنت وأمّك في مكان أبيك وهو الأصدق، فنهضت بالمسئوليّة في سنّ مبكّرة. ثمّ اختفت أمّي. وكدت تهلك بسبب مرضها كما لا بدّ أن يذكر رءوف علوان. ويوم النزيف الذي لا ينسى، يوم طرت بها إلى أقرب مستشفى. مستشفى صابر الذي يقوم كالقلعة وسط حديقة غنّاء. وجدت نفسك أنت وأمّك في قاعة استقبال عند المدخل فخيمة بدرجة لم تجرِ لك في خيال، وبدا المكان كلّه وكأنّما يأمرك بالابتعاد ولٰكنّك كنت في مسيس الحاجة إلى إسعاف، إسعاف سريع. ودلّوه على الطبيب الشهير وهو خارج من غرفة فجرى إليه بجلبابه وصندله صائحًا «أمّي... الدم...» فتفحّصه الرجل بعينين زجاجيّتين مستنكرًا ومدّ بصره إلى حيث استلقت الأمّ على مقعد وثير بشوب كالسخام. وثمّة ممرّضة أجنبيّة كانت تراقب ما يجري عن كثب فبإزاء ذٰلك اكتفى بالاختفاء صامتًا. ورطنت الممرّضة بلغة لم يفهمها ولٰكنّه شعر بأنّها تشاركه بعض مأساته. وغضب غضبة رجل رغم حداثة سنّه. صاح محتجًّا لاعنًا. ورمى بمقعد إلى الأرض فأحدث دويًّا وتطايرت قشرة مسنده. وجاء خدم كثيرون، وما لبث أن وجد نفسه وأمّه وحيدين في الطريق المسقوف بالأغصان. وعقب شهر من الحادث ماتت الأمّ في قصر العيني. وطيلة احتضارها ظلّت قابضة على يدك وتأبى أن تحوّل عنك عينيها. غير أنّك في غضون شهر المرض سرقت، لأوّل مرّة، سرقت طالبًا ريفيًّا من نزلاء عمارة الطلبة. واتّهمك الطالب دون تحقيق وانهال عليك ضربًا حتّى جاء رءوف علوان فخلّصك من قبضته، وسوّى المسألة بلا مضاعفات. كنت إنسانًا حقًّا يا رءوف وفضلًا عن ذٰلك كنت أستاذي أيضًا. وحين خلا إليك قال لك بهدوء «لا تخف، الحقّ أنّي

أعتبر هذه السرقة عملًا مشروعًا!». ولكنّه استدرك محذّرًا «ولكنّك ستجد البوليس لك بالمرصاد». وقال لك أيضًا ساخرًا «ولن يتسامح القاضي معك مهما تكن بواعثك مقنعة فهو أيضًا يدافع عن نفسه». ثمّ تساءل بالسخرية نفسها «أليس عدلًا أنّ ما يؤخذ بالسرقة فبالسرقة يجب أن يُستردّ؟». ثمّ هتف غاضبًا «إنّي أتعلّم بعيدًا عن أهلي وأكابد كلّ يوم عذابًا وجوعًا وحرمانًا». أين ذهبت تلك الحِكَم يا رءوف؟ لعلّها ماتت كأبي وأمّي وأمانة زوجتي. ولم يكن بدّ من أن تهجر عمارة الطلبة سعيًا وراء الرزق في مكان آخر. وانتظرت عند النخلة الوحيدة في نهاية الحقل حتّى قدمت نبويّة فوثبت نحوها وقلت لها: لا تخافي، يجب أن أكلّمك، أنا ذاهب، سأجد عملًا أوفر ربحًا، وأنا أحبّك، لا تنسيني أبدًا، أنا أحبّك وسأحبّك دائمًا وسوف أثبت لك أنّي قادر على إسعادك وعلى فتح بيت محترم لك. وفي تلك الأيّام كانت الأحزان تُنسى والجروح تلتئم والأمل يحصد الصعاب، فيا أيّتها القبور الغارقة في الظلمة لا تسخري من ذكرياتي!

ونهض من استلقائه فجلس على الكنبة في الظلام وخاطب رءوف علوان كأنّه يراه أمامه قائلًا في سخرية:

ـ لو قبلتَ أن أعمل محرّرًا في جريدتك يا وغد لنشرت فيها ذكرياتنا المشتركة ولخسفت نورك الكاذب. . .

ثمّ تساءل بصوت مسموع:

ـ إلامَ أطيق أن أبقى في الظلام حتّى تعود نور قبيل الفجر؟

واستولت عليه بغتة رغبة لا تقاوم في أن يغادر البيت للقيام بجولة في الليل. وانهارت مقاومته كما ينهار بناء آيل للسقوط في ثوان. وفي دقائق كان يغادر البيت في حذر، فاتّجه نحو طريق المصانع، ومنه مال نحو الخلاء. وازداد بمغادرة المخبأ وعيًا بإحساس المطارَد. فشارك الفئران والثعابين مشاعرها حين تتسلّل. وحيد في الظلمة، تتربّص به المدينة التي تلوح أضواؤها في الأفق، ويتجرّع وحدته حتّى الثمالة، وجلس إلى جانب طرزان على أريكته ولم يكن بداخل القهوة إلّا رجل واحد من مهرّبي السلاح وصبيّ القهوة على حين ضجّ سفح الهضبة بالسمر. وسرعان ما جاءه صبيّ القهوة بالشاي، ثمّ مال طرزان نحوه هامسًا:

ـ لا تقم في مكان واحد أكثر من ليلة. . .

وقال المهرّب:

ـ اهرب إلى الصعيد. . .

فتساءل سعيد:

ـ لا أحد لي في الصعيد. . .

فعاد المهرّب يقول:

ـ كثيرون تحدّثوا عنك أمامي بإعجاب. . .

فتساءل طرزان بحنق:

ـ والبوليس هل يعجب به أيضًا؟

فضحك المهرّب حتّى اهتزّ جسمه هزّة غريبة كأنّه يمتطي جملًا مسرعًا، ثمّ قال:

ـ البوليس لا يعجبه العجب!

فتمتم سعيد:

ـ ولا الصيام في رجب. . .

فقال صبيّ القهوة بحماس:

ـ أيّ ضرر في سرقة الأغنياء!

فابتسم سعيد في ارتياح كأنّه تلقّى تحيّة في حفل تكريم ثمّ قال:

ـ الجرائد لسانها أطول من حبل المشنقة، وماذا ينفعك حبّ الناس إذا أبغضك البوليس؟

ونهض طرزان فجأة فاندفع نحو النافذة وأطلّ منها ملتفتًا يمنة ويسرة، ثمّ عاد وهو يقول باهتمام:

ـ خيّل إليّ أنّي رأيت وجهًا ينظر إلينا!

فالتمعت عينا سعيد، وردّد ناظريه بين النافذة والباب، وخرج الصبيّ مستطلعًا، على حين قال المهرّب:

ـ أنت ترى دائمًا أشياء لا وجود لها.

فهتف به طرزان:

ـ اسكت، أنت تظنّ أنّ حبل المشنقة لهو ولعب!

وغادر سعيد القهوة بيد قابضة على المسدّس في جيبه. ومضى في الخلاء وهو يتلفّت ويتنصّت في حذر وتصميم. وتضاعف إحساسه بالمطاردة والوحدة والقلق، وأدرك أنّه لا يمكن أن يستهين بكتلة الأعداء

المفعمة شهوة وخوفًا والتي لن يرتاح لها بال حتّى تراه جثّة هامدة. وعندما اقترب من البيت بشارع نجم الدين رأى النور في نافذة نور فداخله أوّل شعور بالراحة منذ غادر القهوة. ووجدها راقدة فهمّ بمداعبتها ولٰكنّه تبيّن في وجهها إعياء صارخًا، واحمرارًا في العينين لا يكون إلّا لعلّة. وجلس عند قدميها وهو يسأل:

ـ ما لك يا نور؟

فقالت بصوت ضعيف جدًّا:

ـ ميتة! تقايأت حتّى متّ...

ـ الخمر؟!

اغرورقت عيناها وهي تقول:

ـ طول عمري وأنا أشرب!

وكان يرى دمعها لأوّل مرّة فتأثّر وهو يسأل:

ـ إذن ما السبب؟

ـ ضربوني!

ـ البوليس؟

ـ شبّان لعلّهم طلبة وأنا أطالبهم بالحساب...

انحرف جانب فيه في رثاء وتمتم:

ـ اغسلي وجهك واشربي قليلًا من الماء...

ـ فيما بعد، أنا تعبانة جدًّا...

فتمتم غاضبًا:

ـ الكلاب!

وربّت ساقها إعرابًا عن رثائه فقالت وهي تشير إلى لفّة على الكنبة الأخرى:

ـ قماش البدلة!

فرقّت يده حنانًا وامتنانًا، وعادت وهي تقول كالمعتذرة:

ـ لن أروق في عينيك هٰذه الليلة...

ـ لا عليك، اغسلي وجهك ثمّ نامي...

وفصل بينهما الصمت، ونبح في مشارف القرافة كلب، وصعدت عن نور تنهّدة كالبخار، ثمّ ارتفع صوتها وهي تقول في حزن بالغ:

ـ قالت أمامك مستقبل كالورد...

فتساءل متعجّبًا:

ـ مَن؟

ـ ضاربة الودع، وقالت سيجيء الأمان والاطمئنان...

فنظر إلى سواد الليل المتراكم خارج النافذة، واستطردت وهي تقول:

ـ متى يجيء؟... الانتظار طال ولا فائدة، ولي صديقة أكبر منّي بأعوام تقول وتعيد القول إنّنا نصير عظامًا أو أسوأ من ذٰلك فحتّى الكلاب تعافنا...

وخيّل إليه أنّ الصوت المتكلّم نافذ من قبر فامتلأ شجنًا ولم يجد ما يقوله. وقالت هي:

ـ ضاربة الودع متى تَصْدقين؟ أين الأمان، أريد نومة مطمئنّة وصحوة هنيّة وجلسة وديعة، هل يتعذّر ذٰلك على رافع السماوات السبع؟!

كذٰلك أنت حلمت بهٰذه الحياة ورغم ذٰلك مرّت حياتك وكلّها تسلّق مواسير وقفز من الأسطح ومطاردة في الظلام ورصاصات طائشة تقتل الأبرياء. وقال لها واجمًا:

ـ أنت في حاجة إلى النوم...

ـ أنا في حاجة إلى الوعد، وعد ضاربة الودع، وسوف يأتي ذٰلك اليوم...

ـ حسن.

فقالت بحدّة:

ـ أنت تلاطفني كأنّني طفل...

ـ أبدًا...

ـ سوف يأتي حقًّا ذٰلك اليوم...

الفصل الثاني عشر

ارتدى بدلة الضابط على سبيل التجربة فحدجته نور بدهشة ولٰكنّها لم تلبث أن قالت في توسّل:

ـ كن حكيمًا، لم يعد في وسعي أن أفقدك...

فأشار إلى البدلة وهو يقول:

ـ عن حكمة صنعتها...

وتفحّص صورته في المرآة بعناية ثمّ قال ساخرًا:

ـ أظنّ من المناسب أن أقنع برتبة صاغ...

ولٰكنّها سمعت عن أسطورته في الليلة التالية مباشرة، ورأت عديدًا من صوره في مجلّة أسبوعيّة مع صاحب من صحابها العابرين. وانهارت أمامه في يأس

قائلة:

- قتلت! يا مصيبتي! ألم أتوسّل إليك؟

فلاطفها بيده قائلًا:

- حدث ذٰلك قبل أن نلتقي...

فزاغ بصرها، وقالت في شكّ ويأس:

- أنت لا تحبّني، أنا أعرف هٰذا، ولٰكن كان من الممكن أن نعيش معًا حتّى تحبّني!

- هٰذه الفرصة موجودة...

فقالت في يأس أرهب:

- لٰكنّك قتلت، ما الفائدة؟

فابتسم في اطمئنان وثقة وقال:

- ما أسهل أن نهرب معًا...

- ماذا ننتظر؟

- حتّى تهدأ الزوبعة...

فضربت الأرض بقدمها قائلة:

- سمعت أنّ الجنود يملأون مخارج القاهرة، كأنّك أوّل قاتل...!

الجرائد... الحرب الخفيّة!... ولٰكنّه قال في هدوء مصطنَع:

- سأهرب حين أقرّر الهرب وسترين...

وقبض على ضفيرتها كالغاضب وقال موبّخًا:

- ألا تعرفين من يكون سعيد مهران! الجرائد كلّها تتحدّث عنه، وأنت لا تؤمنين به، أصغي إليّ، سنعيش معًا إلى الأبد، وستَصْدق كلمة ضاربة الودَع!

ومضى في الليلة التالية إلى قهوة طرزان، هربًا من الوحدة وطلبًا للجديد من الأنباء. وما كاد يظهر عند مدخل القهوة حتّى بادره طرزان فذهب به إلى الخلاء بعيدًا ثمّ قال معتذرًا:

- لا تؤاخذني، حتّى قهوتي لم تعد بالمكان المأمون لك...

فقال سعيد واجمًا وإن أخفى الظلام وجومه:

- ظننت الزوبعة قد هدأت...

- إنّها تزداد كلّ يوم اشتعالًا بسبب الجرائد، اختفِ، ولٰكن لا تحاول الخروج من القاهرة الآن...

فتساءل سعيد في حنق:

- ألا تجد الجرائد موضوعًا غير سعيد مهران؟

- إنّها تقصّ على الناس أنباء غزواتك الماضية حتّى أثارت عليك المحافظة...

وهمّ بالذهاب فقال له طرزان وهو يودّعه:

- فلنتقابل بعيدًا عن القهوة إذا شئت...

وعاد إلى مخبئه في بيت نور. إلى الوحدة والظلمة والانتظار. وهتف بغضب:

- أنت يا رءوف وراء كلّ ذٰلك...

جميع الجرائد سكتت أو كادت إلّا جريدة الزهرة. ما زالت تنبش عن الماضي وتستفزّ البوليس. إنّها توشك أن تنادي ببطولته سعيًا وراء القضاء عليه. ولن يهدأ رءوف علوان حتّى يطوّق عنقه بحبل المشنقة. ومعه القانون والحديد والنار. وأنت هل لحياتك التالفة معنى إلّا أن تقضي على أعدائك. عليش سدرة مجهول المكان ورءوف علوان في قصر من حديد. ولٰكن ما معنى حياتك إن لم تؤدّب أعداءك؟ ولن تحول قوّة دون تأديب الكلاب. أجل لن تحول دون ذٰلك قوّة. وبصوت مسموع تساءل:

- رءوف علوان، خبّرني كيف يغيّر الدهر الناس على هٰذا النحو البشع؟!

الطالب الثائر. الثورة في شكل طالب. وصوتك القويّ يترامى إليّ عند قدمَي أبي في حوش العمارة قوّة توقظ النفس عن طريق الأذن. عن الأمراء والباشوات تتكلّم. وبقوّة السحر استحال السادة لصوصًا. وصورتك لا تُنسى وأنت تمشي وسط أقرانك في طريق المديريّة بالجلابيب الفضفاضة وتمصّون القصب. وصوتك يرتفع حتّى يغطّي الحقل وتسجد له النخلة تلك هي الروعة التي لم أجد لها نظيرًا ولا عند الشيخ الجنيدي. هٰكذا كنت يا رءوف. وبفضلك وحدك ألحقني أبي بالمدرسة. وعند إحراز النجاح ضحكت ضحكة عظيمة ولوالدي قلت «أرأيت؟... لم تكن تريد أن تعلّمه، انظر إلى عينيه، سيكون ممّن يقوّضون الأركان». وعلّمتني حبّ الكتاب وناقشتني كأنّي ندّ لك. وكنت بين المستمعين لك عند النخلة التي نبتت عند جذورها قصّة حبّي وكان الزمان ممّن يستمعون لك. الشعب... السرقة... النار المقدّسة. الثروة... الجوع... العدالة المذهلة. ويوم اعتُقلت

ارتفعت في نظري إلى السماء. وارتفعت أكثر يوم حميتني عند أوّل سرقة. ويوم ردّ حديثك عن السرقة إليّ كرامتي. ويوم قلت لي في حزن «سرقات فرديّة لا قيمة لها، لا بدّ من تنظيم!». ولم أكفّ عن القراءة والسرقة بعد ذلك. وكنت ترشدني إلى الأسماء الجديدة بالسرقة. ووجدت في السرقة مجدي وكرامتي. وأغدقت على أناس، كان من بينهم للأسف عليش سدرة. وبصوت غاضب قال في الحجرة المظلمة:

ـ أأنت حقًّا رءوف علوان صاحب القصر! أنت الثعبان الكامن وراء حملة الصحف؟! تودّ أن تقتلني كما كان الآخرون. وكما تودّ أن تقتل ضميرك. وكما تودّ أن تقتل الماضي. لكنّي لن أموت قبل أن أقتلك. أنت الخائن الأوّل. ما أعبث الحياة إن قُتلت غدًا جزاء قتل رجل لم أعرفه! فلكي يكون للحياة معنى وللموت معنى يجب أن أقتلك. لتكن آخر غضبة أطلقها على شرّ هٰذا العالم. وكلّ راقد في القرافة تحت النافذة يؤيّدني. ولأترك تفسير اللغز للشيخ عليّ الجنيدي...

وعند أذان الفجر سمع الباب وهو يُفتح. وجاءت نور حاملة الشواء والشراب والجرائد، وبدت مبسوطة شويّة كأنّما نسيت أشجان الأمس وأحزان أمس الأوّل. الدنيا بطعامها وشرابها وأخبارها. وقبّلته فقبّلها بامتنان، وبلا تكلّف لأوّل مرّة. ودّ ألّا تغيب عنه. وهي القلب الذي يودعه الحبّ قبل الموت. وفضّ سداد الزجاجة في مجلسهما المعتاد فملأ كوبًا ثمّ صبّه في جوفه نارًا. وسألته وهي ترنو إلى وجهه المتعب:

ـ لِمَ لَمْ تنم؟

وكان يتصفّح الجرائد فلم يجب فمضت تقول بإشفاق:

ـ الانتظار في الظلام عذاب...

فسألها وهو يرمي بالجرائد جانبًا:

ـ كيف الحال في الخارج؟

ـ كحاله كلّ يوم...

ونضّت عنها ثيابها إلّا قميصًا شفّافًا فسطعت أنفه رائحة بودرة ملبّدة بالعرق، ثمّ استطردت:

ـ ويتحدّث عنك ناس كأنّك عنترة ولكنّهم لا يدرون عذابنا...

فقال ببساطة:

ـ أكثريّة شعبنا لا تخاف اللصوص ولا تكرههم...

وتواصلت خمس دقائق في التهام الشواء ثمّ قال:

ـ ولكنّهم بالفطرة يكرهون الكلاب...

فقالت باسمة وهي تلعق أناملها:

ـ أنا أحبّ الكلاب...

ـ لا أعني هٰؤلاء...

ـ نعم، ولم يخلُ بيتي منها أبدًا حتّى شهدت موت آخر واحدة وبكيت كثيرًا فصمّمت ألّا أعاشرها مرّة أخرى...

فقال ساخرًا:

ـ ينبغي أن نتجنّب الحبّ إذا توعّدنا بالتعب...

ـ أنت لا تفهمني ولا تحبّني...

فقال برجاء:

ـ لا تكوني ظالمة، ألا ترين أنّ الدنيا كلّها ظالمة؟!

وأفرطت في الشراب حتّى دار رأسها واعترفت له بأنّ اسمها الحقيقيّ هو شلبيّة وقصّت عليه نوادر من عهد البلينا. الطفولة والمياه الراكدة والشباب والهرب. ثمّ قالت بخيلاء:

ـ وأبي كان عمدة...

فقال ببساطة:

ـ كان خادم العمدة!

قطّبت ولكنّه بادرها قائلًا:

ـ أنت التي قلت في الزمان الأوّل...

فضحكت كاشفة عن أسنان مغطّاة بالبقدونس وقالت:

ـ أقلت ذٰلك حقًّا؟

فقال بحدّة:

ـ ولذٰلك انقلب رءوف علوان خائنًا...

فحدجته بنظرة إنكار متسائلة:

ـ من رءوف علوان؟

فقال بسخط:

ـ لا تكذبي، إنّ من يعاني الظلمة والوحدة والانتظار لا يطيق الكذب...

الفصل الثالث عشر

عقب منتصف الليل اخترق سعيد الصحراء وفي الجانب الغربيّ من السماء شيء من القمر. وعلى مبعدة مائة متر من هضبة القهوة صفر ثلاثًا وراح ينتظر. لم يكن بدّ من أن يضرب ضربته أو يجنّ. وكان يأمل أن يجد عند طرزان الخبر. وما لبث أن جاء طرزان كموجة من الظلام فتعانقا ثمّ سأله:

ـ هل من جديد؟

فقال الرجل وهو يلهث بما يتناسب مع سمانته:

ـ أخيرًا جاء واحد منهم...

فتساءل سعيد بلهفة:

ـ من؟

فشدّ على يده قائلًا:

ـ المعلّم بيّاظة وهو الآن في القهوة يعقد صفقة...

ـ لم يضع الانتظار هباء، ماذا تعرف عن طريقه؟

ـ سيرجع من طريق الجبل...

ـ تشكر يا معلّم...

وابتعد مسرعًا نحو الشرق مهتديًا بالضوء الواني حتّى الغابة المحدقة بعيون المياه. وسار بحذاء ضلعها الجنوبيّ حتّى رأسها المدبّب الغائص في الرمال عند بدء الطريق المنحدر نحو الجبل. تـوارى وراء شجرة متربّصًا. وجرى هواء جافّ منعش فصدرت عن رقعة الغابة الصغيرة وشوشة، وترامى الخلاء كالفناء، ويده قابضة على المسدّس، يفكّر في الفرصة الممكنة، في الانقضاض على عدوّه غير المنتظر، ثمّ في بلوغ الهدف المضني، وأخيرًا في الهلاك كآخر مستقرّ. وقال بصوت لم تسمعه الأشجار الثملة بالهواء:

ـ عليش سدرة ثمّ رءوف علوان في ليلة واحدة، ثمّ ليكن ما يكون...

وتوثّب يصارع الانتظار ولكن لم يطل به الانتظار فما لبث أن لاح شبح يسرع في الظلام آتيًا من ناحية الهضبة نحو رأس الغابة. ولـمّا لم يعد بينه وبين بدء الطريق إلّا متر اندفع سعيد من مكمنه مصوّبًا نحوه مسدّسه هاتفًا:

ـ قف...

وتسمّر الشبح كأنّه تكهرب، وحملق في الرجل دون أن ينبس بكلمة، فقال سعيد:

ـ بيّاظة أنا أعرف أين كنت وماذا فعلت ومقدار ما تحمل من نقود...

فوضح تنفّس الشبح كالفحيح وندّت عن ذراعه حركة خفيفة متردّدة سرعان ما همدت، وغمغم:

ـ فلوس العيال!

فلطمه على وجهه لطمة زادت الليل سوادًا في عينيه وقال بنبرات منطلقة:

ـ ألم تعرفني يا بيّاظة الكلب؟!

فهتف بيّاظة:

ـ من؟... عرفت الصوت ولٰكنّي لم أصدّق... سعيد مهران؟!

ـ لا تتحرّك، ستُقتل عند أوّل حركة...

ـ أنت تقتلني! لِمَ؟ ليس بيننا عداوة!

فمدّ سعيد يده إلى صدره حتّى عثر على الكيس المثقل ثمّ انتزعه من مربطه بقوّة وهو يقول:

ـ هٰذه واحدة!

فهتف بيّاظة بجزع:

ـ هٰذا مالي، ولست عدوًّا لك...

ـ اخرس، لم آخذ كلّ ما أريد بعد...

ـ بيننا زمالة يجب أن تُحترم.

فحرّك المسدّس في يده وقال:

ـ إذا أردت النجاة بحياتك فخبّرني أين يقيم عليش سدرة؟

فقال الرجل بتوكيد:

ـ لا أعرف ولا أحد يعرف...

فلطمه لطمة أخرى أشدّ من الأولى وصاح بغضب:

ـ سأقتلك إن لم تدلّني على مكانه، ولن تستردّ نقودك حتّى أتأكّد من صدقك!

فقال الرجل بنبرة متألّمة:

ـ لا أعرف، أقسم لك أنّي لا أعرف...

ـ كذّاب!

ـ أحلف لك بالطلاق إن شئت!

ـ هل ذاب كما يذوب الملح؟

فقال بنبرة تستجدي تصديقه:

- لا أعرف ولا أحد يعرف، انتقل من شقّته عقب زيارتك له خوفًا من بطشك، انتقل إلى روض الفرج. . .

- عنوانه؟

- انتظر يا سعيد، بعد قتل شعبان حسين سافر ومعه أسرته دون أن يخبر أحدًا عن وجهته، كان مرتعبًا وكانت المرأة مرتعبة، ولا يدري أحد عنها شيئًا!

- بيّاظة!

- أحلف لك بالطلاق بالثلاثة!

فلطمه الثالثة فتأوّه وصاح بصوت ممزّق:

- لِمَ تضربني يا سعيد؟ ربّما يجحمه حيث يكون، أهو أخي أو أبي حتّى أموت بسببه؟. . .

وصدّقه في النهاية على رغمه. ويئس من العثور على غريمه. ولو لم تكن تطارده جريمة قتل لصبر وانتظر حتّى تحين الفرصة ولكنّ الرصاصة الطائشة أصابت أعزّ أمانيه. وإذا ببيّاظة يقول:

- أنت ظلمتني!

فلم ينبس فاستطرد الرجل:

- وفلوسي؟!

وتحسّس الرجل خدّيه الملتهبين ثمّ قال:

- أنا لم أسئ إليك فلا يحقّ لك أن تغتصب مالي، ولي عليك حقّ الزمالة!

فقال باحتقار:

- كنت ضمن أعوانه. . .

- كنت صديقه وشريكه ولا يعني هٰذا أن أكون عدوّك، ولا شأن لي بخيانته. . .

انتهى الصراع ولم يبق إلّا التراجع، وقال سعيد بصراحة:

- إنّي في حاجة إلى نقود. . .

فبادره بيّاظة:

- لك ما تشاء. . .

قنع سعيد بعشرة جنيهات. وذهب الرجل وهو لا يصدّق بالنجاة. ووجد سعيد نفسه كما بدأ وحيدًا في الخلاء وقد تجلّى ضوء القمر بوضوح أكثر وارتفعت مناجاة الأشجار. يبدو أنّ عليش سدرة قد أفلت من مخالب التأديب. نجا بخيانته ليزيد الخونة الآمنين واحدًا. أمّا أنت يا رءوف فالأمل الباقي في ألّا تضيع حياتي عبثًا. . .

الفصل الرّابع عشر

رجع إلى البيت ثمّ غادره ضابطًا برتبة صاغ والساعة تدور في الواحدة. اتّجه إلى شارع العبّاسيّة متجنّبًا أضواء المصابيح متّخذًا مشية طبيعيّة جدًّا بفضل قوّة أعصابه. واستقلّ تاكسي إلى جسر الجلاء، ومرّ في طريقه بأفراد من الشرطة فلم يرتح لمنظرهم بطبيعة الحال. وذهب إلى مرسى القوارب القريب من الجسر فاكترى قاربًا صغيرًا لمدّة ساعتين ومضى يجدّف جنوبًا صوب قصر رءوف علوان في هواء رطيب وتحت سماء صافية مرصّعة بالنجوم وتربيع القمر معلّق فوق أشجار الشاطئ. وكان يشعر بفورة نشاط عجيب وبأنّ حدثًا متفجّرًا سينطلق عمّا قريب من صدره. أقنع نفسه بأنّ نجاة عليش سدرة ليست هزيمة ما دام سيُنزل عقابه برءوف علوان، إذ إنّ رءوف هو رمز الخيانة التي ينضوي تحتها عليش ونبويّة وجميع الخونة في الأرض. وقال لرءوف علوان وهو يجدّف بقوّة: جاء وقت الحساب، ولو كان الحكم بيننا غير الشرطة لضمنت تأديبك أمام الناس جميعًا، الناس معي عدا اللصوص الحقيقيّين، وذٰلك ما يعزّيني عن الضياع الأبديّ. أنا روحك التي ضحّيت بها ولٰكن ينقصني التنظيم على حدّ تعبيرك، وأنا أفهم اليوم كثيرًا ممّا أُغلق عليّ فهمه من كلماتك القديمة، ومأساتي الحقيقيّة أنّني رغم تأييد الملايين أجدني ملقى في وحدة مظلمة بلا نصير، ضياع غير معقول ولن تزيل رصاصة عنه عدم معقوليّته ولٰكنّها ستكون احتجاجًا داميًا مناسبًا على أيّ حال، كي يطمئنّ الأحياء والأموات ولا يفقدون آخر أمل. ومال بالقارب نحو الشاطئ في نقطة تواجه القصر على وجه التقريب. وهبط منه إلى الأرض ثمّ جذبه بقوّة حتّى صار مقدّمه فوق السفح، ثمّ ارتقى المنحدر إلى الكورنيش مكتسبًا من بدلته الرسميّة ثقة وطمأنينة. لاح الطريق خاليًا ولا أثر لمخبر حول القصر فانبعث الارتياح في نفسه ولم يخلُ في الوقت نفسه من حنق. واكتنف الظلام القصر عدا مصباح الباب فتأكّد

لديه أنّ صاحب القصر لم يرجع بعد وأنّ ذٰلك سيعفيه من اقتحام البيت ويذلّل له أكثر من عقبة. وفي مشية طبيعيّة مضى إلى الشارع إلى يسار القصر فقطعه حتّى آخره ثمّ مال مع شارع الجيزة نحو الشارع الآخر إلى يمين القصر عائدًا منه إلى الكورنيش وهو يتفحّص المكان كلّه ببصر من حديد. ومضى نحو شجرة فلبد فيما يليها من رقعة محجوبة عن مصباح الطريق وراح ينتظر. واستقرّت عيناه على القصر طيلة الوقت عدا لحظات كان يريحهما بالنظر إلى سطح الماء المعتم، ودارت أفكاره أثناء ذٰلك حول خيانة رءوف، والخدعة التي حطّمت حياته، والضياع الذي يحدق به، والموت الذي يسدّ طريقه، وكيف أنّ كلّ أولٰئك جعل من موت رءوف أمرًا لا بدّ منه. وكان يتابع كلّ سيّارة قادمة وهو يتوثّب. وأخيرًا توقّفت سيّارة أمام باب القصر وراح البوّاب يفتح الباب على مصراعيه. وأسرع سعيد نحو الشارع إلى يسار القصر، سار ملاصقًا للسور، ثمّ توقّف عند نقطة محاذية للسلاملك حيث سيغادر الرجل سيّارته. وتهادت السيّارة في ممشى الحديقة حتّى وقفت أمام السلاملك. وأضيء المصباح فغمر النور المدخل كلّه. أخرج سعيد مسدّسه وصوّبه نحو الهدف. وفُتح باب السيّارة. نزل رءوف علوان. وصاح سعيد:

ـ رءوف!

انتبه الرجل إلى مصدر الصوت في دهشة فصاح سعيد:

ـ أنا سعيد مهران... خذ...

غير أنّه في نفس الوقت انطلقت نحوه من الحديقة رصاصة أصاب أزيزها صميم أذنه. حدث ذٰلك قبيل أن يطلق مسدّسه فاضطرب اضطرابًا مفاجئًا وهو يطلق النار. وانحنى بسرعة ليتفادى من الرصاص المتتابع. ولٰكنّه رفع رأسه في تصميم يائس وحذر وسدّد مسدّسه مرّة أخرى وأطلق رصاصة وأخرى في عجلة ولهوجة. وقع ذٰلك كلّه في ثوانٍ ثمّ انطلق يعدو بأقصى سرعة نحو شاطئ النيل فوثب نحو القارب. ودفعه إلى الماء، وفي الثانية التالية كان يجدّف بكلّ قوّته نحو الشاطئ الآخر. دار شعوره حول نفسه كالدوّامة، وانطلقت قواه من أعمق مكامنها مباشرة وبلا أدنى وعي، وخيّل إليه أنّ رصاصًا ينطلق، وأصواتًا تتجمّع، وأنّ بعض جسمه يذوب. وكانت المسافة بين الشاطئين في منطقة عبوره ضيّقة فسرعان ما بلغ الشاطئ. ووثب إليه تاركًا القارب للموج يفعل به ما يشاء. وصعد إلى أرض الشارع بيد قابضة على المسدّس في جيبه. ورغم ما شعر به من تشتّت فقد سار على مهل، وفي هدوء، لا يلتفت يمنة ولا يسرة. وتأكّد لديه أنّ أقدامًا تتدافع نحو الشاطئ، وأنّ أصواتًا تحتدم وتعلو فوق الجسر، واخترقت الجوّ الخامل صفّارة مجنونة. وتوقّع في كلّ لحظة أن يلحق به مطارد. وتأهّب للتمثيل بكافّة احتمالاته أو لدخول المعركة الأخيرة. ومرّ به تاكسي قبل أن يقع حادث فناداه، واستقلّه، وما كاد يتّخذ مجلسه حتّى شعر بألم حادّ ولٰكنّه رغم ذٰلك شعر بنعمة النجاة. وتسلّل إلى المسكن في ظلام حالك. واستلقى على الكنبة ببدلته الرسميّة. وعاوده الألم كاشفًا هٰذه المرّة عن مكانه فوق الركبة فامتدّت يده إليه فاستشعر سائلًا لزجًا. أووه... هل ارتطم بشيء؟ رصاصة؟ وراء السور أم وهو يجري؟ وتحسّس موضعه فرجح لديه أنّه مجرّد جرح سطحيّ، ولو كان رصاصة فقد احتكّت به ولم تنفذ فيه. وقام فخلع البدلة في الظلام وفتّش عن جلبابه فوق الكنبة فارتداه. وذرع الحجرة ليطمئنّ على رجله. قديمًا أنت قطعت شارع محمّد عليّ جريًا برصاصة مستقرّة لساعتها في ساقك. أنت قادر على فعل العجائب. وقد تفوز بالهرب أيضًا. أمّا الجرح فقليل من البنّ يضمّده. ولٰكن هل قُتل رءوف علوان؟ ومن الذي أطلق النار من الحديقة؟ حذار أن تكون أصبت ضعيفًا بريئًا آخر. ولٰكن لا بدّ أنّ رءوف علوان قد قُتل فيدك لا تخطئ. كما شهدت بذٰلك الصحراء وراء الهضبة. وسوف ترسل خطابًا إلى الصحف بعنوان «لماذا قتلت رءوف علوان». عند ذاك تستردّ الحياة معناها المفقود. فالرصاصة التي تقتل رءوف علوان تقتل في الوقت نفسه العبث. والدنيا بلا أخلاق ككون بلا جاذبيّة. ولست أطمع في أكثر من أن أموت موتًا له معنى.

وأقبلت نور في غاية من الإعياء محمّلة بالطيّبات،

وقبّلته كعادتها وانبسطت أساريرها لتلقي بتحيّة لقاء ولكنّ بصرها جمد فجأة على البنطلون فنحّت اللفّة على الكنبة هاتفة:

ـ دم!

ولحظ ذلك لأوّل مرّة فكشف عن رجله قائلًا:

ـ جرح بسيط نتيجة ارتطام بباب التاكسي.

فصاحت:

ـ أنت خرجت مرتديًا البدلة لسبب، أنت لن تقف عند حدّ، وسوف أموت كمدًا...

ـ قليل من البنّ يشفي هذا الجرح قبل طلوع الصبح...

ـ طلوع الروح! أنت تقتلني قتلًا، آه... متى يزول الكابوس؟!

ونشطت في نرفزة فكبست الجرح بالبنّ وعصبته بقصاصة من بقايا الفستان الذي كانت تخيطه، وظلّت طيلة الوقت تندب حظّها. وقال لها:

ـ خذي دشًّا فهذا أنفع لك...

فذهبت وهي تقول:

ـ أنت لا تدري النافع من الضارّ...

ولـمّا رجعت إلى مجلس حجرة النوم كان قد شرب ثلث الزجاجة فعاوده شيء من الاستقرار المريح، واستقبلها قائلًا:

ـ اشربي، أنا هنا في مكان آمن مطمئنّ لن تمتدّ إليه عين البوليس...

فقالت في نكد وهي تمشط شعرها المبتلّ:

ـ أنا تعيسة جدًّا...

فتساءل وهو يواصل الشراب:

ـ من يستطيع أن يحكم عن الغد؟

ـ عملنا!

ـ لا شيء، لا شيء مؤكّد إلّا قربك الذي لا غنى عنه.

ـ أنت تقول هذا!

ـ وأكثر، أنت جنّة وسط الرصاص الذي يجدّ ورائي...

وتنهّدت تنهّدة طويلة كمناجاة في الليل فقال:

ـ أنت طيّبة جدًّا، أحبّ أن أعترف بذلك...

ـ أنا تعيسة، لا أودّ إلّا أن تبقى في السلامة...

ـ ما تزال أمامنا فرصة...

ـ الهرب! فكّر في الهرب...

ـ نعم... ولكن لننتظر حتّى يغمض الكلب عينيه...

فقالت بحدّة:

ـ ولكنّك تخرج بلا مبالاة، تودّ أن تقتل زوجتك والرجل الآخر، ولن تقتلها ولكنّك ستلقي بنفسك في الهلاك...

ـ ماذا تسمعين في الخارج؟

ـ سائق تاكسي، دافع عنك بحرارة ولكنّه قال إنّك قتلت رجلًا ضعيفًا بريئًا...

ونفخ في غضب، وداري ألمه الطافح بشربة مليئة، وأشار لها لتشرب فرفعت الكوب إلى فيها، وتساءل:

ـ وماذا سمعت أيضًا؟

ـ في العوّامة التي سهرت فيها قال أحدهم عنك إنّك منبّه مسلٍّ في الملل الراكد...

ـ وأنت ماذا قلت؟

فلحظته بعتاب وقالت:

ـ ولا كلمة، أنا أحافظ عليك، أمّا أنت فلا تحافظ على نفسك، وأنت لا تحبّني ولكنّك أعزّ عليّ من النفس والحياة، وطول عمري لم أعرف السعادة إلّا بين يديك ولكنّك تفضّل الهلاك على حبّي...

وبكت والكوب في يدها فطوّقها بذراعه وهمس في أذنها:

ـ ستجدينني عند وعدي، سنهرب ونعيش معًا إلى الأبد...

الفصل الخامس عشر

يا للعناوين الضخمة والصور المثيرة كأنّه الحدث الأكبر الذي تتلقّفه الصحف. وسألوا رءوف علوان فأجاب أنّ سعيد مهران كان خادمًا في عمارة الطلبة على عهد إقامته بها، وأنّه كان يعطف عليه كثيرًا، وأنّه زاره بعد خروجه من السجن مستجديًا فأعطاه مالًا ليبدأ حياة جديدة ولكنّه حاول سرقة بيته في الليلة نفسها فقبض عليه وعنّفه ولكنّه أطلق سراحه رحمة به، وجاء

أخيرًا ليقتله! واتّهمته الصحف بالجنون. جنون العظمة والدم. لقد أفقدته خيانة زوجته عقله فهو يطلق النار بلا وعي. ولم يصب رءوف علوان ولٰكنّ البوّاب المسكين سقط. بريء ضعيف آخر.

وصاح سعيد وهو يقرأ الخبر:

ـ اللعنة!

الدويّ يقرع بقوّة صاروخيّة. وثمّة مكافأة ضخمة لمن يرشد إليه. ومقالات تحذّر الشعب من العطف عليه. أنت أهمّ ما في الحياة اليوم. وستظلّ كذٰلك حتّى تزهق روحك. إنّك مثار الخوف والإعجاب كالظاهرات الطبيعيّة الخارقة. وسيدين لك بالسرور كلّ من خنقه الملل. أمّا مسدّسك فالظاهر أنّه لا يقتل إلّا الأبرياء وستكون أنت آخر ضحيّة له. وتساءل بصوت جافّ:

ـ أهٰذا هو الجنون؟!

كنت دائمًا تطمح إلى زلزلة الكون من أساسه. حتّى وأنت مجرّد بهلوان. وغزواتك الظافرة للقصور كانت خمرًا يسكر بها رأسك الفخور. وكلمات رءوف التي آمنت بها وكفر بها قائلها أطاحت برأسك حتّى الموت.

ولبث وحيدًا في الليل، وكان في الزجاجة خمر فشربها حتّى آخر نقطة. ووقف في الظلام يطوّقه صمت المقابر ودار رأسه رويدًا. وشعر بأنّه يتغلّب على الصعاب ويستهين بالموت ويطرب لأنغام خفيّة. وقال مخاطبًا الظلام:

ـ رصاصة طائشة جعلت منّي رجل الساعة...!

ومضى إلى الشيش فنظر من خلاله إلى القرافة وقد رقدت القبور تحت ضوء القمر وقال:

ـ يا حضرات المستشارين اسمعوا لي جيّدًا فقد قرّرت الدفاع عن نفسي بنفسي...

ورجع إلى وسط الحجرة ثمّ نزع عنه جلبابه لشدّة الحرارة في الحجرة ولارتفاع الحرارة في جوفه من فعل الخمر. واختلج جرحه بالألم تحت العصابة فآمن بأنّه آخذ في الالتئام. وحملق في الظلام قائلًا:

ـ لست كغيري ممّن وقفوا قبلي في هٰذا القفص، إذ يجب أن يكون للثقافة عندكم اعتبار خاصّ. والواقع أنّه لا فرق بيني وبينكم إلّا أنّي داخل القفص وأنتم خارجه. وهو فرق عَرَضيّ لا أهمّيّة له ألبتّة، أمّا المضحك حقًّا فهو أنّ أستاذي الخطير ليس إلّا وغدًا خائنًا، ويحقّ لكم العجب، ولٰكن يحدث أن يكون السلك الموصل للكهرباء قذرًا ملطّخًا بإفرازات الذباب...

ومال نحو الكنبة فاستلقى عليها. وترامى إليه من بعيد نباح كلب. ولٰكن كيف تطمئنّ على قضائك وبينك وبينهم خصومة شخصيّة لا شأن لها بالصالح العامّ؟! إنّهم أقرباء للوغد ويفصل بينك وبينهم قرن من الزمان. وأنت تطالب بشهادة الضحيّة. وتؤكّد أنّ الخيانة باتت مؤامرة صامتة...

ـ أنا لم أقتل خادم رءوف علوان، كيف أقتل رجلًا لا أعرفه ولا يعرفني؟ إنّ خادم رءوف علوان قُتل لأنّه بكلّ بساطة خادم رءوف علوان، وأمس زارتني روحه فتواريت خجلًا ولٰكنّه قال لي ملايين هم الذين يُقتلون خطأ وبلا سبب...

ستتألّق هٰذه الكلمات وتتوّج بالبراءة. أنت واثق ممّا تقول. وفضلًا عن ذٰلك فهم يؤمنون في قرارة أنفسهم بأنّ مهنتك مشروعة، مهنة السادة في كلّ زمان ومكان، وأنّ القيم الزائفة حقًّا فهي التي تقدّر حياتك بالملاليم وموتك بألف جنيه. وقاضي اليسار يغمز لك بعينه فأبشر.

ـ سأطلب دائمًا رأس رءوف علوان ولو كآخر طلب من عشماوي، حتّى قبل رؤية ابنتي، وأنا مضطرّ إلى ألّا أعدّ العمر بأيّام لأنّ المطارَد يقتات بزمنه انفعالات تنهال عليه في وحدته كالمطر...

لن يكون الحكم أقسى من جفول سناء. قتلتك قبل المشنقة وعطف الملايين عليك عطف صامت عاجز كأماني الموت. ألا يغفرون للمسدّس خطأه وهو ربّهم الأعلى؟

ـ إنّ من يقتلني إنّما يقتل الملايين، أنا الحلم والأمل وفدية الجبناء، وأنا المثل والعزاء والدمع الذي يفضح صاحبه، والقول بأنّني مجنون ينبغي أن يشمل كافّة العاطفين فادرسوا أسباب هٰذه الظاهرة الجنونيّة واحكموا بما شئتم...

واشتدّ به الدوار فقضى بأنّه عظيم بكلّ معنى

الكلمة عظمة هائلة ولكنّها مجلّلة بالسواد عشيرة للمقابر ولكنّ عزّتها ستبقى بعد الموت. وجنونها تباركه القوّة السارية في جذور النبات وخلايا الحيوان وقلب الإنسان. وسرقه النوم فلم يدر كيف سرقه، ولم يفطن إلى أنّه نام حقًّا إلّا حين استيقظ على ضوء يغمر الحجرة. وفتح عينيه فرأى نور واقفة تنظر إليه من عينين ميتتين وقد تدلّت شفتها السفلى واحدودب ظهرها في قنوط، بدت مثالًا صادقًا لليأس والضياع. أدرك ما وراء ذلك في ثانية. لقد سمعت عن الجريمة الأخيرة فانكمشت أنفاسها.

ـ أنت أقسى ممّا أتصوّر، لا أفهمك، ولكن بالله اقتلني رحمة بي...

وجلس على الكنبة دون أن ينبس.

ـ أنت تفكّر في القتل لا في الهرب، وسوف تُقتل، هل تظنّ أنّك ستهزم الحكومة بجنودها الذين يملأون الشوارع؟

ـ اجلسي ولنتحدّث في هدوء...

ـ من أين لي الهدوء؟ وفيم نتحدّث؟ انتهى كلّ شيء، اقتلني رحمة بي...

فقال بهدوء رقيق:

ـ لا مسّك سوء أبدًا...

ـ لن أصدّق كلمة ممّا تقول، لماذا تقتل البوّابين؟

فهتف بحدّة:

ـ لم أقصد مسّه بسوء!

ـ والآخر؟ من هو رءوف علوان؟ ماذا بينك وبينه؟ أكانت له علاقة بزوجتك؟

فضحك ضحكة جافّة كالسعلة:

ـ فكرة مضحكة! ثمّة أسباب أخرى، إنّه خائن أيضًا ولكن من نوع آخر، لا أستطيع أن أفهمك كلّ شيء...

فقالت بغضب:

ـ ولكنّك تستطيع أن تعذّبني حتّى الموت...

ـ قلت اجلسي لنتحدّث في هدوء...

ـ أنت لا زلت تحبّ زوجتك، تلك الخائنة، ولكنّك تعذّبني أنا...

فقال متوجّعًا:

ـ نور لا تزيديني عذابًا، أنا في غاية من النكد...

وصمتت متأثّرة بتوجّعه الذي لم تره من قبل. ثمّ قالت بحزن شديد:

ـ إنّي أشعر بأنّ أعزّ ما في حياتي يحتضر...

ـ وَهْمٌ وخوف، أمّا المغامر مثلي فلا يعترف بالشدائد، سأذكّرك بذلك...

فتساءلت بلهجة ندب:

ـ متى؟

فقال مدّعيًا ثقة لا حدّ لها:

ـ أقرب ممّا تتصوّرين!

ومال نحوها فجذبها من يدها إليه، ولصق جبينها بجبينه حتّى امتلأ أنفه برائحة الخمر والعرق. ولم يتقزّز، بل قبّلها بحنان صادق...

الفصل السادس عشر

اقترب الفجر ونور لم تعد. أنهكه الانتظار والفكر حتّى شعر بضربات السهاد تنهال على جمجمته. وإذا بالظلمة الحارّة تنحسر عن تساؤل أحمر: هل يمكن أن تلعب المكافأة الموعودة بقلب نور؟ حقًّا تلوّث دمه بسوء الظنّ لآخر قطرة. والخيانة في عينيه أضحت كرائحة الغبار في اليوم الخماسينيّ. وكم ظنّ في الماضي أنّ نبويّة ملك يديه، ولعلّها في الواقع لم تحبّه قطّ حتّى على عهد النخلة الوحيدة في نهاية الحقل. ولكن رغم ذلك كلّه فنور لن تخونه، ولن تسلّمه إلى البوليس طمعًا في مكافأة، فقد ضجرت من المعاملات وتقدّم العمر وباتت تحنّ إلى عاطفة إنسانيّة خالصة. ينبغي أن يندم على سوء ظنّه، ولكن متى تعود نور؟ لقد اشتدّ بك الجوع والظمأ والانتظار. كحالك يوم وقفت تحت النخلة تنتظر. تنتظر نبويّة ونبويّة لا تجيء. وجعلت تحوم حول بيت العجوز التركيّة وأنت تقضم أظافرك، وكدت من اليأس أن تطرق الباب في طيش جنونيّ. أيّ هزّة فرح كانت تسكر جوارحك عند بزوغ طلعتها! هزّة شاملة متغلغلة مطربة مسكرة تشدّك من أطراف أصابعك إلى السماء السابعة. فيها الدمعة والضحكة والاندفاع والثقة الجامحة. ولكن لا تتذكّر عهد النخلة بعد ما انقضى وفصل بينك وبينه الدم

والرصاص والجنون. انظر ماذا أنت صانع بمرارة الانتظار في هٰذه الظلمة الحارّة القاتلة. يبدو أنّ نور لا تريد أن تعود، لا تريد أن تنقذه من عذاب الوحدة والظلمة والجوع والظمأ. ورغم كلّ شيء فقد نام وهو أيأس ما يكون من الندم. ولـمّا فتح عينيه رأى الشيش ينضح بنور النهار ووهج الحرّ يشتعل في الحجرة المغلقة. ووثب إلى أرض الحجرة في انزعاج ثمّ انتقل إلى حجرة النوم فوجدها كما تركتها المرأة أمس، ودار بالشقّة، كلّا، نور لم تعد. ترى أين باتت المرأة، وماذا منعها عن العودة؟ وإلامَ يُقضى عليه بهٰذا السجن المنفرد؟ وقرصه الجوع رغم قلقه وأفكاره فذهب إلى المطبخ فوجد في الصحاف كسرًا من الخبز وفتات لحم عالقة بالعظام وبعضًا من البقدونس فأتى عليها في نهم شديد وتمصمص العظام ككلب. وتقضّى النهار وهو يتساءل عن غيابها وهل تعود، يجلس حينًا ويتمشّى حينًا آخر. ولم يجد من تسلية إلّا في النظر من الشيش إلى القرافة، ومتابعة الجنازات، وعدّ القبور دون جدوى. وجاء المساء ولم تعد. لا يمكن أن يقع هٰذا بلا سبب. أين نور؟ مزّقه القلق والضيق والجوع. نور في مأزق بلا ريب. ولٰكن يجب أن تخلّص من مأزقها ثمّ تعود وإلّا فكيف تمضي به الحياة!

وغادر البيت عقب منتصف الليل دون أن يسمع همس حذائه أحد. وقطع الخلاء نحو قهوة طرزان. وعند موقفه المعتاد صفر ثلاثًا وانتظر حتّى جاءه المعلّم طرزان. وصافحه الرجل وهو يقول له:

ـ كن شديد الحذر، لا يخلو شبر من مخبر...

ـ أريد طعامًا!

ـ يا خبر أبيض! جوعان!

ـ نعم، لا تعجب لشيء يا معلّم!

ـ سأرسل الولد ليحضر لك الكباب، ولٰكن من الخطر حقًّا أن تخرج...

ـ تعرّضنا فيما مضى لأخطار أشدّ، أنا وأنت...

ـ كلّا، الهجمة الأخيرة قلبت عليك الدنيا...

ـ طول عمرها وهي مقلوبة...

ـ ولٰكن من النحس أن تهاجم رجلًا خطير الشأن...

وودّعه وانصرف. وبعد ساعة جاءه الطعام فالتهمه بعنف. وجلس فوق الرمال تحت قمر أوشك أن يكتمل. ونظر من بعيد إلى النور المنبثق من قهوة طرزان فوق الهضبة، وتخيّل مجمع السمّار والجالسين في الحجرة. حقًّا إنّه لا يحبّ الوحدة. وهو بين الناس يتضخّم كالعملاق ويمارس المودّة والرياسة والبطولة. وبغير ذٰلك لا يجد للحياة مذاقًا. ولٰكن نور هل عادت، هل تعود، هل يرجع إليها أو يرجع إلى الوحدة القاتلة؟! وقام فنفض الغبار عن بنطلونه، ومشى نحو الغابة ليعود من الطريق الذي يدور حول مدفن الشهيد من ناحيته الجنوبيّة. وعند الموقع الذي انقضّ فيه على بيّاظة انشقّت الأرض عن شبحين وثبا نحوه فجأة حتّى أحاطا به من الجانبين. قال أحدهما بلهجة ريفيّة ممدّنة:

ـ قف...

وهتف الآخر:

ـ بطاقة الشخصيّة!

وسلّط الأوّل على وجهه نور بطّاريّة فاحنى رأسه كأنّه يحمي عينيه وصاح بعنف غير متوقّع في الوقت نفسه:

ـ من أنتما؟... تكلّما...

دهش الرجلان للّهجة الآمرة ولٰكنّهما تبيّنا ملبسه على ضوء البطّاريّة وإذا بالأوّل يقول:

ـ لا مؤاخذة يا حضرة الضابط، لم نتبيّن شخصيّتك في ظلّ الغابة!

فصاح بعنف أشدّ:

ـ من أنتما؟

فقالا بعجلة ولهوجة:

ـ من قوّة الوايلي يا أفندم.

ومع أنّ البطّاريّة انطفأت إلّا أنّه قرأ في وجه الآخر شيئًا رابه. رآه يتمعّن فيه بقوّة. كأنّ شكًّا داخله. وخشي أن يفلت الزمام منه فبقوّة تصميم لا تعرف التردّد وجّه قبضتيه معًا إلى بطني الرجلين فترنّحا. وقبل أن يتمالكا نفسيهما انهال عليهما لكمًا في مواطن الضعف كالفكّ وأعلى البطن حتّى سقطا مغشيًّا عليهما، ثمّ انطلق في طريقه بأقصى سرعة. ولم يتّجه

نحو شارع نجم الدين حتّى وقف عند منعطفه مليًّا ليتأكّد من أنّ أحدًا لا يتبعه. ورجع إلى البيت فوجده خاليًا كما تركه. ووجد الوحشة والضيق والقلق في انتظاره. وخلع الجاكتة وارتمى على الكنبة في الظلام. وتساءل بصوت مسموع كئيب:

ـ نور، أين أنت؟

محال أن تكون بخير. هل قبض البوليس عليها؟ هل اعتدى عليها بعض الأوغاد؟ هي ليست على أيّ حال بخير. هو يؤمن بذلك بقلبه وغريزته. لن يرى نور مرّة أخرى. وخنقه اليأس خنقًا. ودهمه حزن شديد الضراوة. لا لأنّه سيفقد عمّا قريب مخبأه الآمن ولكن لأنّه فقد قلبًا وعطفًا وأنسًا. وتمثّلت لعينيه في الظلمة بابتسامتها ودعابتها وحبّها وتعاستها فانعصر قلبه. ودلّت حاله على أنّها كانت أشدّ تغلغلًا في نفسه ممّا تصوّر. وأنّها كانت جزءًا لا يصحّ أن يتجزّأ من حياته الممزّقة المترنّحة فوق الهاوية. وأغمض عينيه في الظلام واعترف اعترافًا صامتًا بأنّه يحبّها، وأنّه لا يتردّد في بذل النفس ليستردّها سالمة. ونفخ غاضبًا وهو يتساءل:

ـ هل تهتزّ شعرة في الوجود لضياعها؟

كلّا. حتّى نظرة الرثاء غير المجدية لن تحظى بها. امرأة بلا نصير في خضمّ الأمواج اللامبالية أو المعادية، وسناء ـ كذلك ـ قد تجد نفسها يومًا بلا قلب يهتمّ بها. وتقبّض قلبه في خوف وغضب فتناول مسدّسه ثمّ سدّده في الظلام كأنّما يحذر المجهول. وتأوّه من الأعماق في يأس. وهكذا طال به هذيان الصمت والظلام حتّى صرعه النوم في آخر الليل.

وفتح عينيه في ضوء النهار وسرعان ما تنبّه إلى أنّه استيقظ على يد تطرق الباب. نهض منزعجًا. ثمّ سار على أطراف أصابعه إلى مدخل الشقّة والطّرْق متواصل. وارتفع صوت امرأة مناديًا «يا ستّ نور... يا ستّ نور!» مَن المرأة وماذا تريد؟ ورجع إلى الحجرة ثمّ عاد بمسدّسه على سبيل الحيطة. وإذا بصوت رجل يقول: «لعلّها خرجت» فقالت المرأة: «في مثل هذا الوقت تكون في البيت، ولم تتأخّر من قبل في دفع الإيجار». إذن فهي صاحبة البيت. وطرقت المرأة الباب طرقة غاضبة ثمّ قالت «اليوم الخامس من الشهر ولن أصبر أكثر من ذلك!». وابتعدت هي والرجل وهما يتبادلان التعليق في لهجة وعيد.

وآمن سعيد بأنّ الحوادث تطارده كالبوليس. لن تصبر المرأة طويلًا على الانتظار، وسوف تقتحم الشقّة بوسيلة أو بأخرى، وخير ما يفعل هو أن يغادر الشقّة في أقرب فرصة ممكنة...

ولكن أين المفرّ؟

الفصل السابع عشر

عادت صاحبة البيت إلى طرق الباب عند العصر ثمّ عند المساء، ورجعت آخر مرّة وهي تقول «لا لا يا ستّ نور، لا بدّ لكلّ شيء من آخر».

وغادر البيت متسلّلًا عند منتصف الليل. وبالرغم من أنّه فقد الثقة في كلّ شيء إلّا أنّه مشى مشية طبيعيّة جدًّا ومتمهّلة كأنّما يترّيض. وخيّل إليه أكثر من مرّة أنّ المارّة والمتسكّعين ليسوا إلّا مخبرين فتوثّب لدخول آخر معركة يائسة. ولم يشكّ في أنّ البوليس يحتلّ منطقة طرزان كلّها بعد معركة أمس فمضى نحو طريق الجبل، وكان الجوع ينهش بطنه، ووجد نفسه يفكّر في مسكن الشيخ عليّ الجنيدي كمرفأ مؤقّت حتّى يتّسع له مجال التفكير والمغامرة. وتسلّل إلى فناء البيت الصامت، وعند ذاك فحسب تنبّه إلى أنّه نسي بدلته الرسميّة ـ بدلة الضابط ـ في حجرة الجلوس ببيت نور فغضب لذلك أيّما غضب، ولكنّه واصل سيره إلى حجرة الشيخ. ورأى الشيخ على ضوء المصباح متربّعًا في ركن المصلّى غارقًا في نجوى هامسة فذهب إلى جدار الحجرة حيث ترك كتبه وجلس في إعياء، واستمرّ الشيخ في نجواه فقال سعيد:

ـ مساء الخير يا مولاي...

فرفع الشيخ يده إلى رأسه ردًّا على تحيّته دون أن يقطع نجواه، فقال سعيد:

ـ مولاي، أنا جائع...

فخيّل إليه أنّه قطع النجوى ورنا إليه من عينين غائبتين ثمّ أومأ بذقنه إلى خوان قريب فرأى سعيد فوقه تينًا وخبزًا فنهض إليه دون تردّد ثمّ التهمه بنهم حتّى

أتى عليه، ووقف ينظر إلى الشيخ بعينين تنطقان بعدم شبعه، فسأله:

- أليس معك نقود؟

- بلى...

- اذهب واشترِ شيئًا تأكله.

فعاد إلى مجلسه صامتًا، وجعل الشيخ يتأمّله مليًّا، ثمّ سأله:

- متى يا ترى تستقرّ؟

- ليس على سطح هٰذه الأرض...

- لذٰلك فأنت جائع رغم نقودك...

- ليكن...

- أمّا أنا فكنت أردّد شعرًا عن الأحزان ولٰكن بقلب مبتهج...

- أنت شيخ سعيد...

ثمّ بغضب:

- هرب الأوغاد، كيف بعد ذٰلك أستقرُّ؟!

- كم عددهم؟

- ثلاثة...

- طوبى للدنيا إذا اقتصر أوغادها على ثلاثة...

- هم كثيرون ولٰكنّ غرمائي منهم ثلاثة...

- إذن لم يهرب أحد...

- لست مسئولًا عن الدنيا...

- أنت مسئول عن الدنيا والآخرة!

ونفخ لنفاد صبره فقال الشيخ:

- الصبر مقدّس تقدّس به الأشياء...

فقال سعيد بغمّ:

- بل المجرمون ينجون ويسقط الأبرياء...

فتساءل الشيخ وهو يتنهّد:

- متى تظفر بسكون القلب تحت جريان الحكم؟

فأجاب سعيد:

- عندما يكون الحكم عادلًا.

- هو عادل أبدًا...

فحرّك سعيد رأسه في غيظ مغمغمًا:

- هرب الأوغاد واأسفاه...

فابتسم الشيخ ولم ينبس، فقال سعيد بنبرة جديدة يمهّد بها لتغيير مجرى الحديث:

- سأنام ووجهي إلى الجدار، لا أودّ أن يراني أحد ممّن يزورونك، إنّي ألجأ إليك فاحفظني...

فقال الشيخ برحمة:

- التوكّل ترك الإيواء إلّا إلى الله...

فسأله بإشفاق:

- هل تتخلّى عنّي؟

- معاذ الله...

فتساءل في يأس:

- هل في وسعك بكلّ ما أوتيت من فضل أن تنقذني؟

- أنت تنقذ نفسك إن شئت...

فهمس سعيد لنفسه:

- أنا أقتل الآخرين...

ثمّ سأله بصوت مرتفع:

- هل تستطيع أن تقيم ظلّ شيء معوجّ؟

فقال الشيخ برقّة:

- أنا لا أهتمّ بالظلال!

وساد الصمت فدبّت الحياة خارج الكوّة التي يسيل منها القمر. ورتّل الشيخ بصوت هامس «إن هي إلّا فتنتك». وقال سعيد إنّ الشيخ سيجد دائمًا ما يقوله. وبيتك يا مولاي غير مأمون وإن تكن أنت الأمان نفسه. وعليّ أن أهرب مهما كلّفني الأمر. وأمّا أنتِ يا نور فلتحفظك الصدفة إن أعوزك العدل والرحمة. ولٰكن كيف نسيت البدلة الرسميّة؟ لففتَها مصمّمًا على أخذها معك فكيف نسيتَها في آخر لحظة؟ حقًّا فقدت جميل مزاياك بالسهاد والوحدة والظلمة والقلق. وقد يجدون في البدلة أوّل خيط يوصل إليك. وقد تشمّها الكلاب فتنتشر في جهات الأرض الأربع كي تكتمل المأساة التي يتسلّى بها قرّاء الصحف. وإذا بالشيخ يقول فيما يشبه الأسى:

- سألتك أن ترفع وجهك إلى السماء وها أنت تنذر بأنّك ستدفنه في الجدار!

فحدجه بحزن هاتفًا:

- وحديثي عن الأوغاد ألا تذكره؟

فقال بنبرة دسمة:

- واذكر ربّك إذا نسيت.

فغضّ بصره في كرب ثمّ ساءل نفسه كيف نسي البدلة، وعاودته أفكار السوء. أمّا الشيخ فقال وكأنّما يخاطب آخر:

ـ سئل «أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به هل يردّ من قَدَر الله؟» فأجاب «إنّه من قَدَر الله!».

ـ ماذا تعني؟

فقال وهو يتأوّه آسفًا:

ـ لم يكن أبوك ليغلق عليه قولي أبدًا!

فقال سعيد بشيء من الحدّة:

ـ من المؤسف أنّني لم أجد عندك طعامًا كافيًا، كما هو مؤسف أنّني نسيت البدلة، كذلك عقلي يتعذّر عليه فهمك، وسأدفن وجهي في الجدار، ولكنّي واثق من أنّني على حقّ...

فقال باسمًا في رثاء:

ـ قال سيّدي «إنّي لا أنظر في المرآة كلّ يوم مرارًا مخافة أن يكون قد اسودّ وجهي»!

ـ أنت؟!

ـ بل سيّدي نفسه!

فتساءل ساخرًا:

ـ فكيف ينظر الأوغاد في المرآة كلّ ساعة؟!

وحنى الشيخ رأسه وهو يرتّل «إن هي إلّا فتنتك». واغمض سعيد عينيه وهو يقول لنفسه «إنّي متعب حقًّا ولكن لن يهدأ لي بال حتّى أجيء بالبدلة».

الفصل الثامن عشر

وأذاب الإرهاق إرادته فنام رغم تصميمه على إحضار البدلة. واستيقظ قبيل الظهيرة فكان عليه أن ينتظر الليل. وفي أثناء ذلك رسم خطّة للهرب، ولكن كان عليه أيضًا أن ينتظر حينًا من الدهر حتّى يغمض البوليس عينه عن منطقة طرزان وهو قطب الخطّة. وبعد منتصف الليل ذهب إلى شارع نجم الدين فرأى ضوءًا في نافذة الشقّة. حملق في النافذة مذهولًا حتّى تأكّد ممّا يرى. ارتفعت دقّات قلبه حتّى أصمّت أذنيه. واكتسحته فرحة فاقتلعته من دنيا الكابوس. نور في الشقّة. أين كانت؟ سيعرف أسباب غيابها ولكنّها عادت. هي الآن تتساءل عن مكانه وتعاني لفحات الجحيم الذي احترق فيه. إنّ قلبه يؤكّد له عودتها، قلبه الذي لا يكذّبه قطّ. وهموم التشرّد ستتلاشى إلى حين وربّما إلى الأبد وسيحتويها بين ذراعيه بكلّ قوّة ويعترف لها من قلب ممزّق بالحبّ الأبديّ. وتسلّل إلى داخل البيت نشوان بالسعادة والنصر، ورقي في السلّم وهو يحلم بدرجات من النصر لا حدّ لها ولا حصر. سيهرب ويستقرّ طويلًا ثمّ يعود يومًا لينكّل بالأوغاد. واقترب من باب الشقّة وهو يلهث. أحبّك يا نور. بكلّ قلبي أحبّك، وأضعاف ما أعطيتني من حبّ، سأدفن في صدرك ضياعي وخيانة الأوغاد وجفول ابنتي. وطرق الباب. وفُتح الباب عن وجه رجل! رجل قصير في ملابسه الداخليّة تبخّر سعيد فلم يبق منه إلّا رماد. وحملق فيه الرجل بدهشة وهو يتساءل:

ـ من حضرتك؟

وسرعان ما حلّت محلّ النظرة المتسائلة نظرة شكّ وارتياع. أيقن سعيد أنّ الرجل سيعرفه. ودون تردّد سدّ فاه بيسراه ولكمه بالأخرى في بطنه. وتلقّاه بين يديه فأنامه على العتبة كيلا يحدث صوتًا. وفكّر في اقتحام الشقّة تنقيبًا عن البدلة ولكنّه لم يكن متأكّدًا من خلوّها. وإذا بصوت امرأة يتساءل من الداخل:

ـ من الطارق يا معلّم؟

وتحوّل عن موقفه يائسًا، فقطع السلّم وثبًا حتّى بلغ الطريق. وشقّ طريق المصانع إلى طريق الجبل. وهناك شكّ في أشباح تتحرّك فلبد عند أسفل جدار وانطرح على وجهه. ولم يستأنف سيره الحذر حتّى خلا الطريق من أيّ أثر لإنسان. وتسلّل مرّة أخرى إلى مسكن الشيخ قبيل الفجر، وكان الشيخ في ركنه يترقّب الأذان. وخلع بدلته وتمدّد فوق الحصيرة دافنًا وجهه في الجدار رغم يأسه من نوم قريب. وقال له الشيخ:

ـ نم فالنوم عبادة لأمثالك...

فلم ينبس، ونادى الشيخ بصوت خافت «الله». وظلّ مسهّدًا حتّى أذان الفجر، ثمّ ظلّ مسهّدًا حتّى ترامى صوت بيّاع اللبن. ولم يدرك أنّه نام إلّا عندما رقد فوق صدره كابوس. ولـمّا فتح عينيه رأى ضوء المصباح الواني منتشرًا في الحجرة كالضباب. إذن لم ينم إلّا ساعة على الأكثر. والتفت نحو فراش الشيخ

فوجده خاليًا، ورأى على كثب من كتبه المكوّمة شواء وتينًا وقلّة ماء. شكرًا لك يا مولاي ولكن متى جئت بهذا الطعام؟ وسمع خارج الحجرة أصواتًا فعجب لذلك، وزحف على أربع نحو الباب الموارب فنظر من زيقه فرأى لدهشته أهل الذكر يفترشون الحصر، كما رأى عاملًا يوقد الكلوب في أعلى الباب الخارجيّ. ربّاه إنّه المغيب لا السحر كما توهّم. وإذن فقد نام طيلة النهار وهو لا يدري. يا له من نوم عميق حقًّا. وأجّل التفكير في أيّ شيء حتّى يأكل فالتهم الطعام وشرب حتّى روي. وارتدى البدلة ثمّ أسند ظهره إلى كتبه ومدّ ساقيه إلى الأمام، وسرعان ما ازدحم رأسه بالبدلة الرسميّة المنسيّة والرجل الذي فتح له باب الشقّة وسناء ونور ورءوف ونبويّة وعليش والمخبرين وطرزان والسيّارة التي سيخترق بها الحصار، عصفت جميعًا برأسه. ليس الصبر في صالحك ولا التردّد. وبأيّ ثمن يجب أن تتّصل بطرزان الليلة ولو ذهبت إليه زحفًا فوق الرمال. غدًا سينطح البوليس الصخر ويركب الرعب الأوغاد. وسمع في الخارج يدًا تصفّق وإذا بأصوات الرجال تسكت، وجلال الصمت يسود. وردّد الشيخ عليّ الجنيدي ثلاثًا «الله» فردّد الآخرون النداء في نغمة وسمت في مخيّلته حركة الذكر الراقصة. الله... الله... الله، وازدادت النغمة سرعة وارتفاعًا ثمّ اختزالًا مع زيادة في السرعة كصوت قطار منطلق، وتواصلت دون انقطاع فترة غير قصيرة، ثمّ أخذ يداخلها الوهن رويدًا ثمّ التراخي في الإيقاع والبطء ثمّ ترنّحت وتهاوت في الصمت. وعند ذاك علا صوت رخيم مترنّمًا:

واحسرتي، ضاع الزمان، ولم أفز
منكم، أهيل مودّتي بلقاء
ومتى يؤمل راحة من عمره
يومان، يوم قلى، ويوم تناء

وارتفعت التأوّهات في الأركان، ثمّ ارتفع صوت آخر يترنّم:

وكفى غرامًا أن أبيت متيّمًا
شوقي أمامي والقضاء ورائي

وانتشرت التأوّهات مرّة أخرى. وتتابع الغناء حتّى صفّقت اليد داعية إلى الذكر من جديد، فتردّد اسم الله بغير انقطاع. واستسلم للسماع، وزحف الليل. ثمّ ركضت الذكريات كالسحب. تمايل عمّ مهران الأب مع الذاكرين وجلس الغلام عند النخلة يراقب المشهد بعينين مشدوهتين. وانبثقت من الظلمات أخيلة عن الخلود في كنف الرحمن. ومضت آمال باهرة نافضة عنها تراب النسيان. وتحت النخلة الوحيدة بشارع المديريّة ندّت همسات نديّة كأفراح الفجر. وتكلّمت سناء الصغيرة في حضنه بلغة فطريّة ساحرة. ثمّ هبّت أنفاس متّقدة من أعماق الجحيم توالت بعدها الضربات. وامتدّت أنغام المنشد وآهات الذاكرين. ومتى يؤمل راحة، وضاع الزمان ولم أفز، والقضاء ورائي. وهذا المسدّس المتوثّب في جيبي له شأن. لا بدّ أن ينتصر على الغدر والفساد. ولأوّل مرّة سيطارد اللص الكلاب.

وفرقع صوت مزعج تحت الكوّة وحاورته أصوات:

- يا خبر، الحيّ كلّه محاصر...
- ولا أيّام الحرب!
- سعيد مهران...

انكمش في تكهرب ويده تلتصق بمسدّسه، وتحفّزت فيه كلّ جارحة. وأجال في المكان نظرة زائغة. مكان مزدحم وفيه إغراء للمخبرين. يجب ألّا تسبقني الحوادث. إنّهم يتفحّصون الآن البدلة وهناك الكلاب. وأنت هنا عارٍ معرّض للأبصار. وإن يكن طريق الصحراء ملغّمًا فعلى خطوات يقع وادي الموت. وسأقاتل حتّى الموت. ونهض مصمّمًا مقتربًا من الباب. الجميع غارقون في الذكر والممرّ إلى الباب خالٍ. ومرق من الباب ومضى نحو الطريق. ومال يسرة وهو يسير في هدوء مصطنع ثمّ انحدر نحو طريق المقابر. الليل راسخ ولكنّ القمر لم يطلع والظلام جدار أسود يسدّ الطريق. وغاص وسط القبور في تيه من الفناء لا يهتدي بشيء. وتخبّط في سيره لا يدري إن كان يتقدّم أم يتأخّر. ومع أنّ بارقة أمل واحدة لم تومض إلّا أنّه طفح بحيويّة خارقة... وترامت إليه مع النسيم الدافئ ضوضاء. وتمنّى أن يختفي في قبر ولكنّه لم يكفّ عن السير. وكان يخشى الكلاب ولكن لم يكن في وسعه

حيلة ولا في طاقته أن يقف. وبعد مسير دقائق وجد نفسه في الصفّ الأخير من القبور ورأى أمامه منظرًا غير غريب. إنّه مدخل القرافة الشماليّ فيها يتّصل بشارع نجم الدين. أجل هٰذا هو شارع نجم الدين، وهٰذا هو البيت الوحيد القائم فيه، وهٰذه هي الشقّة، وها هي النافذة مفتوحة ينبعث منها نور. وأحدَّ البصر فرأى في النافذة امرأة، ها هو رأسها مطموس المعالم. ولٰكنّه يذكّره بنور. وخفق قلبه خفقة مزلزلة. هل عادت نور؟ أو أنّ عينيه تخدعانه كما خدعه قلبه بالأمس؟! بتٌّ لعبة في أيدي الخدع وهٰذا نذير بالنهاية. وإن تكن هي نور فما يريد إلّا أن ترعى سناء إذا حمّ القضاء. وقرّر أن يناديها على ما في ذٰلك من مخاطرة. وقبل أن يخرج الصوت من حلقه ترامى من بعد نباح كلاب، ثمّ تتابع في الصمت كالطلقات المتفجّرة. وتراجع في فزع. وأوغل بين القبور والنباح يشتدّ. وألصق ظهره بقبر ثمّ أشهر مسدّسه وهو يحملق في الظلام موقنًا بدنوّ الأجل. أخيرًا جاءت الكلاب وانقطع الأمل. ونجا الأوغاد ولو إلى حين. وقالت حياته كلمتها الأخيرة بأنّها عبث. ومن المستحيل تحديد مصدر النباح الذي ينطلق مع الهواء في كلّ موقع. ولا أمل في الهروب من الظلام بالجري في الظلام. نجا الأوغاد وحياتك عبث. واقتربت الضوضاء والنباح وقريبًا تتردّد أنفاس الحقد والتشفّي على وجهك. وحرّك مسدّسه في غضب والنباح يشتدّ ويقترب. وإذا بضوء ساطع باهر يغمر المنطقة في حركة دائرة فأغمض عينيه وارتمى أسفل القبر. وهتف صوت في ظفر:

ـ سلّم، لا فائدة من المقاومة...

وارتجّت الأرض بوقع الأقدام الثقيلة المطوّقة وانتشر الضوء كالشمس:

ـ سلّم يا سعيد...

اشتدّ التصاقه بالقبر متأهّبًا لإطلاق النار ودار رأسه في كلّ مكان. وصاح صوت وقور:

ـ سلّم، وأعدك بأنّك ستعامَل بإنسانيّة...

كإنسانيّة رءوف ونبويّة وعليش والكلاب!

ـ أنت محاصَر من جميع الجهات، القرافة كلّها محاصَرة، فكّر جيّدًا وسلّم نفسك...

واطمأنّ إلى أنّ تناثر القبور يحول دون رؤيته فلم يتحرّك وصمّم على الموت. وتساءل صوت في حزم:

ـ ألا ترى أنّه لا فائدة من المقاومة؟

وشعر باقتراب الصوت عمّا قبل فصاح مكرهًا:

ـ الويل لمن يقترب...

ـ حسن، ماذا تنوي؟ اختر بين الموت وبين الوقوف أمام العدالة.

فصرخ بازدراء:

ـ العدالة!

ـ أنت عنيد، أمامك دقيقة واحدة...

ورأت عيناه المعذّبتان بالخوف شبح الموت يشقّ الظلام. وجفلت سناء بلا أمل. وأحسّ حركة غادرة فاستشاط غضبًا وأطلق النار. وانهال الرصاص حوله فخرق أزيزه أذنيه، وتطاير نثار القبور. وأطلق الرصاص مرّة أخرى وقد ذهل عن كلّ شيء فانصبّ الرصاص كالمطر. وفي جنون صرخ:

ـ يا كلاب!

وواصل إطلاق النار في جميع الجهات.

وإذا بالضوء الصارخ ينطفئ بغتة فيسود الظلام. وإذا بالرصاص يسكت فيسود الصمت. وكفّ عن إطلاق النار بلا إرادة. وتغلغل الصمت في الدنيا جميعًا. وحلّت بالعالم حال من الغرابة المذهلة. وتساءل عن.... ولٰكن سرعان ما تلاشى التساؤل وموضوعه على السواء وبلا أدنى أمل. وظنّ أنّهم تراجعوا وذابوا في الليل. وأنّه لا بدّ قد انتصر. وتكاثف الظلام فلم يعد يرى شيئًا ولا أشباح القبور. لا شيء يريد أن يُرى. وغاص في الأعماق بلا نهاية. ولم يعرف لنفسه وضعًا ولا موضوعًا ولا غاية. وجاهد بكلّ قوّة ليسيطر على شيء ما، ليبذل مقاومة أخيرة. ليظفر عبثًا بذكرى مستعصية. وأخيرًا لم يجد بدًّا من الاستسلام فاستسلم بلا مبالاة .... بلا مبالاة...

السمان والخريف

- ١ -

وقف القطار ولٰكنّه لم يجد أحدًا في انتظاره. أين السكرتير؟ أين موظّفو المكتب؟ أين السعاة؟ وأجال بصره في المكان والناس بلا جدوى. ماذا جرى! هل دار رأس القاهرة تحت ضربة القنال الآثمة؟! وغادر موقفه عند مقدّمة العربة فسار حاملًا حقيبته الصغيرة نحو الخارج وهو يقطّب استياء، ثمّ ساوره قلق. وتفحّص الوجوه بدافع غريزيّ فوجدها تعكس انقباضًا مخيفًا، وتحرّكت في أعماقه غريزة تتنبّأ بالمخاوف. أهي مذبحة الأمس بالقنال أم أحزان جديدة تزحف؟ هل يسأل الناس عمّا وراءهم؟! ولم ينتظره أحد. ولا واحد من مكتبه شذّ عن هٰذا السلوك العجيب! يا لها من أيّام غريبة حقًّا. ولم تزل ذكريات القنال ناشبة في رأسه بكلّ حدّة. المشاهد الدامية. مذبحة رجال البوليس، البطولة العزلاء. ولم يزل صوت الشابّ الفدائيّ يخرق أذنه وهو يصيح غاضبًا:

- أين أنتم... أين الحكومة!... ألستم أنتم الذين أعلنتم الجهاد؟!

فقال في حرج شديد:

- بلى، ولهٰذا تجدني أمامك في هٰذا الخلاء...

فصرخ في غضب أشدّ:

- نريد سلاحًا، لِمَ تقتّرون علينا!

- اليد قصيرة، وموقف الحكومة دقيق...

- وموقفنا نحن!... وموقف الأهالي الذين خربت بيوتهم؟!

- أعلم ذٰلك، كلّنا نعلم ذٰلك، صبرًا، وسنبذل أقصى ما نستطيع...

- أم تقنعون بالفرجة؟!

يا لها من غضبة كالنار. ولٰكن ماذا في القاهرة؟...

لا عربة واحدة لتنقله. وفي ميدان المحطّة جماهير تجري في كلّ اتّجاه. الغضب يشتعل في الوجوه واللعنات تنصبّ على الإنجليز. الجوّ بارد والسماء متوارية خلف سحاب متجهّم والهواء ساكن لا حياة فيه. الدكاكين مغلقة كالحداد وعند الآفاق تصاعد دخان كثيف...

ماذا في القاهرة؟!

وتقدّم في حذر، وأشار إلى رجل يقترب ثمّ سأله:

- ماذا في البلد؟

فأجابه في ذهول:

- القيامة قامت...

فسأله في إلحاح:

- تعني مظاهرات احتجاج؟!

فهتف وهو يأخذ في الجري:

- أعني النار والخراب...

وواصل تقدّمه الحذر البطيء وهو يتفحّص ما حوله. وتساءل في دهش: «أين البوليس؟ أين الجيش؟». وفي شارع إبراهيم تجلّت حقيقة اليوم بصورة أبشع. خلا الميدان للغاضبين. انفجر مكنون اللاوعي كالبركان. صراخ جنونيّ كالعواء. انقضاض على أيّ قائم على الجانبين. بترول يراق. حرائق تشتعل. أبواب تُحطّم. بضائع تنتثر. تيّارات تندفع كالأمواج المتلاطمة. الجنون نفسه بلا رقيب. ها هي القاهرة تثور ولٰكنّها تثور على نفسها. إنّها تصبّ على ذاتها ما تودّ أن تصبّه على عدوّها. إنّها تنتحر. وتساءل في فزع ماذا وراء ذٰلك كلّه؟ واستفحل نشاط غريزته التي تتنبّأ بالمخاوف. وأيقن أنّ مأساة حقيقيّة سيُرفع عنها ستار الغد. ثمّة خطر يتهدّد صميم حياتنا. يتهدّدنا نحن لا الإنجليز. يتهدّد القاهرة والمعركة القائمة في القنال والحكومة ويتهدّده هو باعتباره جزءًا من هٰذه الحكومة. هٰذا الطوفان سيقتلع الحكومة والحزب وشخصه في النهاية. هيهات أن يعتصر هٰذا

الخوف من قلبه. هيهات أن يتناساه رغم دوّامة الجنون المحدقة به. كأنّها أقوى من الجنون والخراب والنار. وإنّه ليؤمن بغريزته بهٰذا إيمانًا قاتلًا. هي نذيره في أوقات الأزمات السياسيّة وقبيل الإقالات المتعدّدة التي أطاحت بحزبه عن كراسيّ الحكم المرّة تلو المرّة. لعلّها النهاية. وستكون نهاية مميتة لم تُسبق بمثيل لها من قبل.

ومضى يقترب من قلب المدينة في ذهول تامّ. صمّم على أن يطّلع على كلّ شيء. إنّه مسئول، ومهما يكن من ثانويّة مركزه نسبيًّا فهو مسئول ويجب أن يرى كلّ شيء بعينه، الضوضاء فوق كلّ احتمال كأنّ كلّ ذرّة في الأرض تصرخ. اللهيب ينطلق من كلّ موقع. إنّه يرقص في النوافذ، يقعقع في الأسقف، يصفر في الجدران، يطير في الجوّ والدخان يتربّع مكان السماء. رائحة الحريق تقتحم الأنوف كعصارة جهنّميّة من الخشب والأقمشة وزيوت شتّى. هتافات غامضة كأنّما تنبثق من الدخان، غلمان يخرّبون كلّ شيء في نشوة وبلا مبالاة. جدران تنهار مفجّرة رعدًا. الغضب المكتوم، اليأس المضغوط، الضيق المتكتّل، كلّ أولٰئك حطّم القمقم وانطلق كزوبعة من الشياطين. وقال لنفسه إنّ أشياء كثيرة يجب أن تحرق ولٰكن ليست القاهرة. أنتم لا تدرون ماذا تفعلون. إنّ فرقة كاملة من الإنجليز لتعجز عن إحداث عشر هٰذا الخراب، انتهت معركة القنال. خسرنا المعركة. قلبي المجرّب بالمحن لا يكذب. الحكومة بلا جنود والنار تجري بلا عقبة. هل تلتهم النيران المدينة الكبرى؟ هل يمسي ثلاثة ملايين من البشر بلا مأوى؟ هل ينعق الخراب والمرض والفوضى ويرجع الجيش البريطانيّ ليعيد الأمن إلى نصابه؟ هل ينسى الناس في محنة الخراب الاستقلال والوطنيّة والآمال العريضة! إنّ القلق يدبّ في جذور قلبه كالنمل وتسودّ الدنيا في عينيه اللتين زايلهما الطموح والمجد. وعند الأركان في الشوارع الرئيسيّة لبد رجال يحرّضون:

ـ احرق... خرّب... يحيا الوطن...

تفحّصهم باهتمام وحنق. ودّ لو يستطيع أن يقنعهم. ولم يمكّنه التيّار المتضارب من الوقوف قبالتهم لحظة. إنّهم وجوه غريبة لا هي من حزبه ولا من الأحزاب الأخر. إنّها وجوه غريبة تفوح منها رائحة الغدر، وخيّل إليه أنّ في الجوّ رائحة عفنة أشدّ كآبة من الدخان. وزفر مع اليأس والذهول غضبًا:

ـ احرق... خرّب... يحيا الوطن...

يا للأوغاد! هل تذهب دماء القنال هدرًا؟ وأرواح جنود البوليس وضبّاطهم؟ إنّ كلّ ما هو قيّم وجميل يبدو أنّه سيصير هباء. كيف السبيل إلى الوزارة ليقابل المسئولين؟ ليس في الطرقات إلّا حطام سيّارات، ليس في الجوّ إلّا حمرة قانية تحتدم تحت سواد. ماذا يقول للفدائيّ الغاضب لقلّة السلاح إذا اطّلع على هٰذا المشهد الغادر الدامي؟ ما عسى أن يقول لو سمع نداء المؤامرة؟

ـ احرق... خرّب... يحيا الوطن...

النار والخراب والدخان شعارات اليوم الفظيعة ولٰكنّ الخيانة اللابدة في الأركان أفظع. وتلاطمته أمواج الثائرين الجنونيّة فازدرد ريقه مرّات بمعطفه الرصاصيّ الطويل ولفظته وقد اختلّ توازنه واصطكّت بساقيه حقيبته وهو يشدّ على مقبضها بقوّة مستميتة. وتلاشت من رأسه نقاط التقرير الذي كان عليه أن يرفعه إلى الوزير عن سير المعركة ومطالب الفدائيّين. وفكّر في المستقبل على ضوء العاصمة المحترقة فلاح لعينيه كالدخان. وتذكّر وهو يميل إلى منعطف أقلّ وحشيّة حديث عضو الشيوخ المعمّم الذي قال معلّقًا على إلغاء المعاهدة:

ـ انتهينا والأمر لله!

وغضب وقتذاك وهو يجلس لصقه بالنادي وصاح:

ـ هٰكذا أنتم أيّها الشيوخ لا يهمّكم إلّا مصالحكم...

فقال له بتوكيد وبلهجة لم تخلُ من سخرية:

ـ هٰذه هي النهاية والأمر لله!

فارتفع صوته في حماس:

ـ ليس في كلّ ماضينا المجيد موقف كهٰذا!!

فعبث الشيخ بشاربه، وقال بحزن:

ـ بلى، كأيّام سعد، ولٰكنّها النهاية!

شيخ مجرِّب طوى عهد الحماس ولٰكن ها هي القاهرة تحترق، وهٰؤلاء الغادرون في الأركان ما

أكثرهم! واليد قصيرة إذا اقترنت ببصيرة فليسكر صاحبها بنقيع الأحزان حتّى يغرق. وفي الفضاء المكتظّ بشظايا الخراب تجسّد الحزن كأنّه وحش قتيل. ونال منه الإعياء فقرّر أن يشقّ الطريق إلى مسكنه. وخيّل إليه أنّ دهرًا طويلًا سيمضي كالسلحفاة قبل أن يلمح مشارف الدقّي.

- ٢ -

عند جثوم الليل ذهب إلى سراي شكري باشا عبد الحليم على مسيرة ربع ساعة من مسكنه بحيّ الدقّي. واستقبله الباشا في حجرة مكتبه فجلسا على مقعدين متقاربين. وبدا الباشا في المقعد الكبير شبه ضائع بجسمه النحيل القصير ولٰكنّ وجهه الصغير المستدير الناعم عكس اكفهرارًا مغلّفًا بهدوء الشيخوخة. وأعلنت بدلته الرماديّة الإنجليزيّة عن أناقة عريقة واستقام طربوشه الأحمر الفاتح على رأس لم يبق فوق سطحه شعرة واحدة. تبودلت كلمات الترحيب في عجلة دلّت على خطورة الموقف. وشعر عيسى بحرج أوّل الأمر لما علمه من تطلّع الباشا إلى الوزارة ولما تردّد من شهر أو أكثر عن ترشيحه لها في أوّل تعديل وزاريّ. وأفدح الخسائر ما أصاب الجانبين الشخصيّ والعامّ في وقت واحد. ترى كيف يفكّر هٰذا الشيخ الذي انتظر الوزارة طويلًا؟ هٰذا الشيخ الذي هبط نشاطه في مكتبه إلى الحدّ الأدنى، والذي لم يعد له من عمل حقيقيّ سوى نشاطه باللجنة الماليّة بمجلس الشيوخ. رثى له كما يرثي لنفسه، ورنا إليه بنظرة متردّدة كنوع من العزاء وهو يجلس على المقعد بقامته الرشيقة وقد استردّ وجهه - بعد الراحة في بيته - رونق الشباب رغم جريان الهمّ في تقاسيمه. وقال الباشا وهو يدير خاتم الزواج حول بنصره:

- سنؤرّخ بهٰذا اليوم طويلًا...

فقال عيسى متشوّقًا لمعرفة أيّ جديد:

- شهدت جانبًا منه، يا له من يوم أسود!...

وأحنى رأسه الكبير المستطيل حتّى ترامت صفحة شعره المجعّد أمام عيني الباشا ثمّ رفعه مقطّبًا ليتطلّع إليه بوجهه المثلّث الذي ينبسط عند الجبين ويضيق رويدًا حتّى يرتكز على ذقن مدبّب. وتساءل الباشا:

- إذن جئت والقاهرة تحترق؟

- نعم كانت الجحيم نفسه يا باشا...

- يا خسارة!... وكيف وجدت الحال هناك؟

- الشبّان في غاية من الحماس ولٰكنّهم في حاجة ماسّة إلى السلاح، أمّا مذبحة البوليس فقد هزّت القلوب هزًّا.

- معركة ظالمة مشئومة...

فقال عيسى بضيق:

- نعم، إنّنا نُدفع دفعًا نحو...

وتلاشت الكلمة الأخيرة بين شفتيه في إشفاق فتلاقت أعينهما في كآبة، وسأله الباشا:

- ماذا يقول الناس عنّا؟

- الروح الوطنيّة عالية جدًّا، أمّا أعداؤنا فيقولون إنّنا افتعلنا معركة لنشغل الناس بها عنّا.

فانحرف جانب فيه في احتقار قائلًا:

- سيجدون دائمًا ما يقولونه، أوغاد... أوغاد..

وبينهما قام خوان، وفوق الخوان إبريق مفضّض وطبق بسكوت فطلب الباشا إلى عيسى - دون كلفة - أن يملأ قدحين، وراحا يحتسيان بلا لذّة، وفي أثناء ذٰلك امتدّ بصر عيسى إلى صورة سعد زغلول المعلّقة في الجدار فوق المكتب الفخم إلى يمين مجلسهما. وقال عيسى:

- تصوّر سعادتك أنّني لم أستطع الاتّصال بوزيري حتّى الآن...

فربّت الباشا على شاربه الفضّيّ برقّة وقال:

- قل في هٰذا اليوم ما شئت، أين الوزير؟... لا أحد يدري، أين البوليس؟... لا أحد يدري، أين الجيش؟... لا أحد يدري، اختفى الأمن وزحف الشيطان...

- ترى هل ما زالت النار مشتعلة؟!

مدّ الباشا ساقيه حتّى طوّقتا أرجل الخوان الأبنوسيّة فاشتدّ لمعان حذائه الأسود تحت سمت النجفة البلّوريّة الرباعيّة الأذرع وحانت من عيسى التفاتة إلى المدفأة المركّبة في الجدار فأعجب بشفافيّة لهيبها الأحمر المتراقص وتذكّر المجوس. ثمّ سرعان ما استملح

الدفء الذي يهبه بجود، وجرت عيناه برشاقة على الأثاث الكلاسيكيّ المجلّل بالوقار والفخامة وأحزان الوداع فتذكّر مرثيّة أنطونيو فوق جثّة قيصر. أمّا شكري باشا عبد الحليم فأجابه في كسل متعمّد:

ـ آن للنار أن تنطفئ بعد أن أدّت الخدمة المطلوبة!

فالتمعت عينا الشابّ العسليّتان المستديرتان، ثمّ قال مستدرجًا محدّثه إلى المزيد:

ـ لعلّه الغضب الأهوج...

ابتسم الباشا عن طاقم نضيد وقال:

ـ كان غضب، وكان وراء الغضب حقد، أمّا الغضب فأهوج حقًّا، وأمّا الحقد فذو خطّة مرسومة.

ـ وكيف يقع هذا ونحن في الحكم؟

ضحك الباشا ضحكة جافّة مختزلة وقال:

ـ هذا اليوم كالليل المتراكم السحب، انتظر حتّى نعرف أين الرأس وأين القدم.

وتطاول عيسى في توتّر ثمّ زفر حتّى أرعش أهداب غطاء الخوان المخمليّ، ثمّ تمتم متسائلًا:

ـ الأحزاب؟؟

فانحرف إلى أسفل جانبا الفم الدقيق في ازدراء وقال:

ـ هي أضعف من أن تدبّر أمرًا!

ـ مَن إذن؟

تساءل وريبة ذات معنى تتجلّى في عينيه. فقال الباشا:

ـ الأمر ليس بالوضوح الذي تظنّه، قد تتسلّل من السراي تعليمات معيّنة، قد يمرح جواسيس الإنجليز ويعيثون فسادًا، ولكن يخيّل إليّ أنّ المدّ بدأ طبيعيًّا جدًّا ثمّ انتهز النهّازون الفرص...

وبغتة ثارت المخاوف الراسبة في أعماقه فزلزلت قلبه فتساءل:

ـ وماذا عن مصير المعركة؟

عاد الباشا إلى العبث بشاربه الفضّيّ، ورفع عينيه إلى السقف التي تضيء أركانه الأربعة أنوار متوارية وراء أجنحة مذهّبة ثمّ أعادها إلى وجه الشابّ وهما تعكسان غموضًا وكآبة دون أن ينبس، فقال عيسى مطاردًا القلق الذي يعذّبه:

ـ الويل لمن تسوّل له نفسه العبث بجهادنا!

فلم يبد الحماس في وجه الباشا ولا التفاؤل واكتفى بأن قال:

ـ هذا يوم خطير له ما بعده...

فقال عيسى بصوت فاتر منهزم:

ـ للمرّة الثانية في هذا اليوم أتذكّر قول الشيخ عبد التوّاب السلهوبي أثر المعاهدة: «انتهينا والأمر لله»...

فابتسم الباشا قائلًا:

ـ إنّنا لا ننتهي أبدًا، فقد نسقط ولكنّنا نعود أقوى ممّا كنّا...

ورنّ التليفون. وكان المتحدّث حرم الباشا من الدور الأعلى. وتجلّى الاهتمام في وجه الباشا إلى أقصى حدّ. وأعاد السمّاعة وهو يقول:

ـ أُعلنت الأحكام العرفيّة...

ومضت فترة ذهول حتّى قطعها عيسى مغمغمًا:

ـ لعلّها ضرورة للقبض على المجرمين...

لكنّه رأى الباشا غارقًا في التفكير الحزين فاستدرك متأسّفًا:

ـ أحكام عرفيّة في عهدنا!.. يا له من حدث مؤسف!

فقال الباشا:

ـ وهي لم تُعلن من أجل عهدنا!

ـ ٣ ـ

قال عيسى:

ـ صدر قرار بنقلي من وظيفة مدير مكتب الوزير إلى المحفوظات!

رفعت إليه أمّه وجهًا نحيلًا يشبه وجهه لدرجة كبيرة وبخاصّة في هيئته المثلّثة ولكنّه كثير الغضون، وللشيخوخة في عينيه وفمه وحبيه معاقل، ثمّ قالت:

ـ ليست المرّة الأولى، لا تحزن، ستعود إلى ما كنت وأحسن، وربّنا يصلح الحال.

كانا يقعدان في حجرة الجلوس ذات الشرفة المطلّة على شارع حليم بالدقّي. وكان زجاج الشرفة العريض مغلقًا دفعًا للبرد وأغصان صفصافة تصعد وتهبط خلفه في حركة وانية وامتدّت وراء ذلك السحب وتكاثفت

وتجهّمت كالسياسة. وكانت الوزارة قد أقيلت فأقصته الوزارة الجديدة فيمن أقصت من موظّفين عن الوظائف الرئيسيّة وبخاصّة من كانت لهم علاقة بمعركة القنال وتُعَدّ هذه الأحداث عاديّة أو شبه عاديّة عند الأمّ لكثرة حدوثها. وهي لا تصدمها صدمة اليأس لأنّها ألفت أن يعقب المدّ جزر في صالح ابنها المحبوب. ورغم شيخوختها وأمّيّتها فهي تتابع الحياة السياسيّة وتدرك من أمورها ما يسمح به موقف عيسى وما يؤثّر في حياته جذبًا ودفعًا. هي به فخور وتؤمن بكلّ كلمة يقولها، وتعجب بما حقّق من نجاح فاق الخيال، خيالها وخيال المرحوم والده الذي عاش ومات موظّفًا صغيرًا مغمورًا. عيسى يشقّ طريقه رغم شلّالات السياسة وزوابعها يغطس أحيانًا حتّى يُظَنّ به الغرق ولكنّه يقبّ محرزًا درجة جديدة من التفوّق. وهذا المسكن الجميل بالدقّي آية على نجاحه وصموده، وأثاثه متعة تبهر البصر، وفي مناسبات غير نادرة يشرّفه بالزيارة باشوات ووزراء. وتتساءل المرأة وأصابعها المتحجّرة تقدّس الله على حبّات المسبحة الحجازيّة: أما لهذه الحال من نهاية تستقرّ فيها على خير؟! وهل هي وليدة ظروف معقّدة عسيرة على الفهم أو هي إصابات نافذة لأعين شرّيرة؟!

وقال عيسى في فتور:

- من العجيب أنّنا لا نكاد نستقرّ في الحكم عامًا حتّى يُقذف بنا خارجه أربعًا، ونحن نحن الحكّام الشرعيّون ولا حكّام شرعيّين غيرنا في البلد...

فقالت بإيمان وإصرار:

- المهمّ الصحّة والعافية.

فابتسم ابتسامة ساخرة مريرة ولكنّه لم يشأ أن يعلن عن مرارته. وعلى العكس من ذلك قال بلهجة ذات دلالة:

- المهمّ أن أنتهز فرصة العزلة لأعنى بشئوني الخاصّة.

فاختلجت عيناها الكليلتان في اهتمام وقالت بارتياح صاف لأوّل مرّة:

- نعم. تعجبني. آن لك أن تتزوّج، فتاتك في الانتظار، وأبوها العظيم لم يضنّ بموافقته.

فضحك متسائلًا:

- ألم يكن الأجمل أن أتزوّج وأنا متمتّع بالجاه والسلطان؟!

فابتسمت عن طاقم لاح بريقه كياسمينة منسيّة في حديقة اقتلعت أشجارها وقالت:

- مركزك كبير، وهم يعلمون أنّك مرشّح لأعلى المناصب، وعليّ بك سليمان يفهم الأمور جيّدًا، ثمّ إنّه قريبك. وكان يحبّ المرحوم والدك أكثر من أيّ شيء في العالم.

هذا كلّه حقّ. عليّ بك سليمان ابن خال والده. وأسرته تمثّل الغصن المورق في شجرة أسرته الجرداء، غنيّ من سلالة غنيّة. ومستشار خطير فضلًا عن أنّه من رجال السراي. وعندما يدعم نفسه بمصاهرته سيجد في مرفئه استقرارًا إذا عبثت عواصف السياسة بقاربه. الخسائر التي تجيئه من الحزب أطول عمرًا من مكاسبه. وسلوى فتاة ممتازة حقًّا، لا وجه للمقارنة بينها وبين ابنة عمّه التي سعت أسرتها طويلًا لتزويجها منه. وأمّ سلوى امرأة ممتازة أيضًا وهي ميّالة للمحافظة على ندرة ذلك في طبقتها. ومن حسن حظّه أنّها حسنة الظنّ جدًّا بمستقبله حتّى تخيّلته وزيرًا أقرب ممّا يتصوّر. وعندما فاتحها في مطلب زواجه من كريمتها صارحته قائلة إنّها لا يهمّها المال ولكن يهمّها المركز، أوليست الدرجة الثانية امتيازًا حقيقيًّا لشابّ في الثلاثين من عمره؟ وهي لها تقدير خاصّ للشبّان المتعلّمين في الخارج، وهو وإن لم يتعلّم في الخارج إلّا أنّه خدم عامًا في سفارة لندن. وسافر ملحقًا بسكرتاريّة وفد المفاوضات. وطاب له أن يستحضر صورة سلوى بجمالها البلقانيّ المغري كالكريم شانتيي، واعتدّها منّة من الله أنّها ليست من فتيات النوادي ولا من معتنقات فلسفة العصر. وقال لوالدته:

- تصوّري أنّني لم أكن رأيتها منذ الصغر!

- هذا تقصير منك. انهماكك في العمل ليس بالعذر الكافي. فمن كان له قريب كعليّ بك سليمان وجب عليه أن يوثّق علاقته به...

- كنت ألقاه في الخارج. لم أكن أفكّر في الزواج...

وهو قد طلب يدها من والدها وليس له عن صورتها إلّا فكرة غامضة غاية الغموض، ولكنّه وجدها آية وسرعان ما أحبّها من كلّ قلبه. وتهيّأ لاختيار الألفاظ المناسبة للإفصاح عن عواطفه الجديدة أمام أمّه. ولكن دخلت أمّ شلبي لتعلن عن حضور حسن ابن عمّه لزيارته. وتجاذبت قلبه عواطف متناقضة ولكن غلب عليه النفور الخليق بمن يكابد حسرات الهزيمة.

وقد كان حسن علي الدبّاغ متطلّق الأسارير. ربعة متين البنيان. مربّع الرأس عميق الملامح، عريض الذقن، ويمتاز بعينين صافيتين ذكيّتين وأنف حادّ مدبّب. قبّل يد امرأة عمّه وصافح عيسى بحرارة لم تخفّف من نفوره ثمّ جلس إلى جانبه وهو يطلب الشاي. هو على وجه التقريب يماثل عيسى عمرًا، غير أنّه في الدرجة الخامسة على حين دفعت السياسة عيسى إلى الدرجة الثانية، ومع أنّه من حملة بكالوريوس التجارة إلّا أنّه لم يجد عملًا إلّا في القرعة العسكريّة. وسألته أمّ عيسى:

ـ كيف حالكم؟

ـ بخير، أمّي بخير وأختي بخير. . .

ازداد عيسى نفورًا عند ذكر الأخت لا لشيء كريه فيها ولكن لكونها أخت هذا الغريم والمنافس القديم. كانا متنافسين ومتلازمين وتبادلا عواطف حادّة مؤلمة. السياسة وحدها التي حسمت ما بينهما من أسباب التنازع فرفعت عيسى إلى مركزه المرموق على حين تدرّج حسن ببطء في طريقه الوعر. وفترت العلاقات بعض الشيء ورسبت العواطف في الأعماق ولكنّ حسن لم ينقطع عن ابن عمّه أبدًا بل تمنّى لو يزوّجه من أخته. ومن عجب أنّ حسن فكّر جادًّا في الذهاب إلى قريبه عليّ بك سليمان ليطلب منه يد ابنته عقب عيسى بأيّام. وضحك عيسى ازدراء عندما نمى إليه الخبر وقال لنفسه «رحم الله امرأ عرف قدر نفسه» ولكنّه كان يضمر له إعجابًا رغم نفوره منه لقوّة شخصيّته ووفرة ذكائه. وقال حسن بأريحيّة:

ـ سمعت عن نقلك إلى المحفوظات، لا تحزن، أنت رجل مخلوق للشدائد.

فدخلت الأمّ في الحديث قائلة بحماس:

ـ لا داعي للحزن، هذا ما أقوله دائمًا، وهؤلاء الناس لماذا يتركون الكبار وينتقمون من الأبناء!!

وتعقّد عيسى بمواساة حسن فقال باعتزاز:

ـ نحن قوم اعتدنا السجن والضرب فما أهون عقاب اليوم.

ومضى حسن يرشف الشاي في سعادة وهو يبتسم ويقول بلهجة تنذر بالهجوم:

ـ أنتم تسجنون وتضربون حقًّا ولكنّ الآخرين يتاجرون. . .

وأدرك عيسى من يعنيهم بقوله «الآخرين» فتحفّز لمعركة. وغادرت الأمّ الحجرة لتصلّي المغرب، وقال عيسى منذرًا:

ـ أنت تعلم بمنزلة الآخرين في نفسي فحذار!

فقال حسن بتحدٍّ باسم:

ـ إنّ كلّ شيء ينهار بسرعة، ومن الخير أن ندعه ينهار، هذا القديم كلّه يجب أن يجتثّ من جذوره!

فتساءل عيسى في حدّة:

ـ وقضيّتنا الوطنيّة من يبقى لها؟

ـ أتظنّ أنّ هؤلاء الشيوخ المخرّفين الفاسدين هم الذين سيحلّونها؟

ـ أنت لا تستطيع أن تراهم على حقيقتهم. . .

ـ الحقيقة أنّني أراهم على حقيقتهم. . .

ـ أنت تردّد باستمرار أقوال الصحف المعادية!

فقال بثقة مثيرة للحنق:

ـ أنا لا أومن إلّا بالواقع، وعلى الشباب أن يعتمد على نفسه!

فدارى عيسى حنقه قائلًا:

ـ دعوة هدم خطيرة، لولا الخونة لأوقفنا الملك عند حدوده الدستوريّة ولحقّقنا الاستقلال. . .

أتى حسن على القدح وابتسم بغية تلطيف الجوّ ثمّ قال برقّة:

ـ أنت رجل مخلص وإخلاصك يحملك على الولاء لأناس لا يستحقّون الولاء. صدّقني لقد عمّ الفساد، لا همّ لأحد من أصحاب السلطات اليوم إلّا الإثراء المحرّم، إنّنا نستنشق الفساد مع الهواء، فكيف تأمل

أن يخرج من المستنقع أمل حقيقيّ لنا؟!

وترامى إليهما صوت الأمّ وهي تكبّر، وخفّف عيسى من حدّته مراعاة للضيافة. ولم تكن قوّة تستطيع أن تحمله على التسليم بما يقول غريمه ولو معاندة له ولٰكن اجتاحه حزن عميق. الدنيا تتغيّر وآلهته يتفتّتون بين يديه. وحسن من جانبه غيّر الحديث فتكلّم عن خسائر الحريق وتقدير التعويضات وموقف الإنجليز والاعتقالات المستمرّة، ولٰكن ما لبث أن عاد يقول:

ـ دلّني على ركن واحد لم ينضح بالفساد؟

ما أبغض أفكاره! محنق حادّ مثير للكدر. وحادثة قديمة برزت في وعيه بلا مناسبة. وكان بصحبة أبيه في زيارة لبيت عليّ بك سليمان فوجد نفسه وحيدًا في حجرة السفرة، ولمح قطعة شيكولاتة في درج نصف مفتوح فدسّ يده فسرقها. حدث ذٰلك منذ حوالى ربع قرن فيا للذكرى! أمّا حسن فلا يكفّ عن الهجوم كعادته دائمًا فتبًّا له. وسأله بفتور:

ـ ماذا تريدون؟

ـ دمًا جديدًا طاهرًا.

ـ من أين؟

فضحك عن أسنان لؤلؤيّة صارخة بالصحّة والعافية وقال:

ـ البلد لم يمت بعد...

فتساءل عيسى بحدّة:

ـ دلّني على ركن يستحقّ الثقة غير حزبنا؟!

رماه بنظرة ساخرة دون أن ينبس. وعلا صوت العجوز في الخارج بسيل من الأدعية، فعاد عيسى يتساءل:

ـ ما العمل إذن؟

ـ نؤيّد الشيطان إذا تطوّع لإنقاذ السفينة.

ـ لٰكنّ الشيطان لا يتطوّع لإنقاذ شيء...

ونظر في غير اكتراث إلى السماء الغارقة في الدكنة ليريح قلبه من نظرات خصمه فقال حسن:

ـ يجب أن يذهب الإنجليز والملك والأحزاب وأن نبدأ من جديد.

فضحك عيسى في مرارة ثمّ قال:

ـ حريق القاهرة أثبت أنّ الخونة أقوى من الحكومة والشعب معًا.

ورجعت الأمّ وهي تقول:

ـ ألا يوجد حديث آخر؟!

بدا خدّاها محتقنين وشبه متورّمين. واتّخذت مجلسها السابق وهي تسأل حسن:

ـ وأنت متى تتزوّج؟

وتذكّر عيسى تقدّمه الجريء لخطبة سلوى فاشتدّ امتعاضه. فقير لٰكنّه جريء وطمع ولا شكّ في مالها كآخر وسيلة لانتشاله من متاعبه. أمّا حسن فأجاب:

ـ الأحداث الهامّة تقع فجأة وبلا سابق إنذار...

ـ وأمّك متى نراها؟

ـ آه مسكنكم بعيد عن روض الفرج ولٰكنّها ستجيء حتمًا.

ثمّ سأل عيسى وهو يتهيّأ للقيام:

ـ أين تذهب هٰذا المساء؟

فأجاب بتحدٍّ ولٰكن في هدوء:

ـ إلى النادي...

فنهض حسن وهو يقول:

ـ أستودعك الله... وإلى اللقاء...

ـ ٤ ـ

يوم الخطبة في قصر عليّ بك سليمان بهليوبوليس يوم يستحقّ الذكر. لم يكن ثمّة فاصل حقيقيّ بين الجنسين فقد احتلّا بهوين متّصلين بمدخل مشترك يعدّ في ذاته تحفة زخرفيّة. وأمّ عيسى وسلفتها أمّ حسن جلستا بين المدعوّات في البهو الأحمر، وجلس في البهو الأخضر ـ بين المدعوّين من الأهل والأقارب ـ أصدقاء عيسى الحميمون سمير عبد الباقي وعبّاس صديق وإبراهيم خيرت وابن عمّه حسن، على حين استقبل البهو الكبير المتّصل بالمدخل كبار المدعوّين من أصدقاء عليّ بك سليمان وجملتهم من رجال السراي أو من رجال القضاء، كذٰلك معارف عيسى من رجال الحزب. وانكمشت أمّ عيسى وسلفتها تحت غمرة الأنوار الساطعة. فهٰذه الدنيا لا ينتميان إليها بسبب. ورغم الفستان النفيس التي تزيّنت به أمّ عيسى، ورغم وقار الشيخوخة، ورغم ضعف الحواسّ وبخاصّة البصر

والسمع الذي أوهن انفعالها بالجوّ، رغم ذلك كلّه فقد لاذت بالانطواء ولم تحاول في مجلسها أن تمارس أيّ مظهر خليق بأمّ العريس. وعنيت سوسن هانم حرم عليّ بك بمؤانستها عناية خاصّة لتذهب عنها الوحشة فهي تحبّها من قديم أو مذ كانت عروسًا لعليّ بك سليمان، وحبّها للعجوز كان ضمن الأسباب التي جعلتها توافق على قبول عيسى. وسوسن هانم في أواسط الحلقة الخامسة ولكن لم يبق من جمالها إلّا مسحة بسبب مرض الكبد المزمن وسوء حالة الكلية، ولكنّ طولها وعرضها وبهاءها الفطريّ أورثتها مزايا باهرة لا تبيد. وجعلت تقول لأمّ عيسى في لطف بديع:

ـ لا تنسي أنّك في بيتك...

وهجم حسن على أصدقاء عيسى في مناقشة سياسيّة رغم معرفته البسيطة بهم. وتابعه عيسى من بعيد بعض الوقت وكان يظنّ أنّه سيحجم عن شهود الحفل فعجب لشأنه واقتنع بأنّه يستطيع أن يتحدّى الزمن نفسه إذا أراد. ولكنّ عيسى لم يستقرّ بمكان.

وخصّ مدعوّيه من الحزب بأخصّ مجاملاته. ولم يكن الجوّ في البهو الكبير يخلو من حرج فقد واجه رجال الحزب رجال السراي، ومع أنّ البعض ربطت بينهم مودّات قديمة إلّا أنّ الأغلبيّة من الطرفين تجاهلت بعضها البعض، ولعب عليّ بك سليمان دوره بكلّ لباقة ورحّب بالجميع على قدم المساواة رغم أنّه هو نفسه من رجال السراي. كان محاميًا وسطًا حتّى رشّحته السراي لوظيفة مستشار في إحدى الحركات القضائيّة ولم يُعرف بلون حزبيّ ثابت ولكنّه اكتسى بشتّى الألوان كقوس قزح ثمّ انضمّ إلى حزب الاتّحاد في الوقت المناسب وسار في الركب الملكيّ حتّى اعتلى أسمى مركز في القضاء، ومع أنّه يقترب من الستّين إلّا أنّه يتمتّع بصحّة وحيويّة نادرتين. طويل القامة في استقامة رياضيّة بديعة وعيناه السوداوان تحت حاجبيه الغزيرين الأسودين يهبانه جاذبيّة لا تقاوم. ودعم حياته في مطلعها بمصاهرة آل همّت ـ أسرة سوسن هانم ـ فمدّ رقعة أرضه وأصّل الأرستقراطيّة في ذرّيّته، وراح يضحك ويداعب مدعوّيه جميعًا قائلًا:

ـ مَن تفرّقهم السياسة فلتجمعهم الأفراح!

وهمس شكري باشا عبد الحليم في أذن عيسى:

ـ ألا ترى أنّ قريبك يعترف في دعابته بأنّ رجال الملك ـ والملك بالتالي ـ ليسوا فوق الأحزاب؟!

ومال الشيخ عبد الستّار السلهوبي برأسه نحوهما ليسمع الهمس في اللحظة المناسبة ثمّ ضحك ضحكة صامتة وهمس بدوره:

ـ إذن فلتكن الأحزاب فوق الملك!

ومدّ بصره في حذر إلى صورة الملك المعلّقة بالجدار الأوسط للبهو فابتسم عيسى قائلًا:

ـ لا تخف فإنّ اللعنات تنصبّ عليه في المقاهي جهرة...

ولكنّ مرارة السياسة ذابت في شربات الحفل. عيسى نفسه وهو مخلوق سياسيّ قبل كلّ شيء أسلم نفسه بكلّيّته إلى لذّة الوجدان. ازّيّن كأحسن ما يكون، وتجلّى وجهه ذو الهيئة المثلّثة في أنقى مظهر، وصفت عيناه المستديرتان. ولم تكن فرحته بمصاهرة المال والجاه لتذكر إلى فرحة قلبه بعروسه، وأمله الصادق في حياة هانئة حقًّا وغد مفعم بالمسرّات ومستقبل واعد بمجد حقيقيّ. وتناسى حريق القاهرة وإقالة الوزارة ونقله إلى المحفوظات والفتور المحزن الذي اجتاح الحماس الشعبيّ والتقاعس الذي طوّق الجهات الرسميّة نحو الأماني الوطنيّة والكآبة الدكناء التي خضّبت الآفاق رغم انتشاء الحياة بمباهج الربيع. وكان عليه ألّا يستقرّ في مكان أكثر ممّا يجب الأمر الذي وافق رأسه المشتّت بالانفعال. ومضى إلى سوسن هانم فتفقّدا البوفيه معًا وألقيا نظرة أخيرة على صورته المكتملة الزاخرة بالألوان. ثمّ قصد إلى البهو الأخضر فجلس بين أصدقائه الأعزّاء الذين ودّ لو يبقى بينهم حتّى تدعوه اللحظة الحاسمة. وقال إبراهيم خيرت وهو يسدّد النظر إلى البهو الأحمر:

ـ ما أكثر اللحوم البيضاء وما أجملها!...

فتساءل عبّاس صديق مازحًا:

ـ هل تقصد الحاجّة أمّ عيسى؟

ونظر عيسى إلى أمّه في فستانها النفيس المحتشم فارتاح إلى تفوّقها على أمّ حسن في الوقار رغم وسامة

الأخيرة. وشكا عبّاس صديق إليه حسن قائلًا:

ـ ابن عمّك أعنف من حريق القاهرة!

فضحك حسن طويلًا، وعاد عبّاس يقول له بنبرة الناصح:

ـ تزوّج أنت أيضًا وسوف تقتنع بأنّ الحزبيّة ليست أسوأ الأشياء...

وإذا بسمير عبد الباقي يقول:

ـ الحالة مضطربة جدًّا!

فأدرك الجميع أنّه يتكلّم في السياسة، وقال عيسى:

ـ هٰذا أمر محقّق...

فقال سمير بتوكيد:

ـ لكنّها مضطربة أكثر من الظاهر المعروف...

فقال حسن ساخرًا:

ـ ربّنا يكرمك...!

ـ يقال إنّ الملك سيستأجر جنودًا مرتزقة لأنّه لم يعد يثق بأحد!

فقال عبّاس صديق ضاحكًا:

ـ ليس أدلّ على سوء الحال من قول أحد الأحرار الدستوريّين إنّه يفضّل عودة الوفد على تفسّخ الوضع الراهن!

وقال حسن بإصرار:

ـ أسأل الله المزيد من الاضطراب والتفسّخ...

دعي عيسى إلى الداخل لإعلان الخطبة فتعلّقت به الأبصار وساد الصمت. وصمت حسن أثقل الصمت. وانطلقت زغرودة سمعها كلّ مَن في القصر. وطافت سلوى بين أمّها وخطيبها بجميع الحاضرين قبل أن تتّخذ مجلسها المجلّل بالورود في البهو الأحمر. جميلة حقًّا. عيون أبيها رُكّبت في وجه بدريّ شفّاف البياض. واقتبست من أمّها طولها الفارع البهيّ وعنقها الطويل النحيل ولٰكن انبعثت من عينيها نظرة رطيبة طيّبة توحي بالوداعة والخلوّ التامّ تقريبًا من الذكاء والحرارة. وجعلت تلتفت نحو أمّها بصفة مستمرّة كأنّما تستلهمها الإرشاد والمعونة أو أنّها تعاني في أعماقها بوادر أزمة الانفصال عنها في خوف وعدم ارتياح، أمّا فستانها فقد تحدّث المدعوّون عنه طويلًا...

وتواصل الحفل ففي جميع ما اكتظّ به البوفيه من الشطائر والحلوى والأشربة وأخذ المدعوّون في الانصراف محمّلين بعلب الحلوى، ثمّ خلت حجرة الجلوس المطلّة على شارع البارون بفراندا ضخمة للخطيبين وسوسن هانم. وانتشر الليل في جوّ ربيعيّ صافٍ، وامتدّت عمالقة الأشجار المحدقة بالبستان مترنّحة سابحة في أمواج الضوء الساطع المتدفّق من المصابيح الكهربائيّة وهبّت نسائم مرطّبة ببرودة حنونة منعشة.

وقال عيسى:

ـ إنّي اعتبر اليوم غاية سعادتي.

فهمست باسمة في حياء:

ـ أشكرك... وأرجو أن أعرب لك عن مشاعري عندما أجد الشجاعة الكافية.

وتفحّصتهما سوسن هانم بسعادة وهي تقول:

ـ ستتمّ سعادتنا بزواجكما في يوليه بإذن الله...

وتساءل عيسى متى يتاح له عناقها؟! وثمل بسعادة دسمة لحدّ القلق. وقال لنفسه إنّه يترسّم خطى عليّ بك سليمان. وسوف يفوز في النهاية بمركز كمركزه. ولم يكن ذاق الحبّ إلّا مرّة وهو تلميذ بالثانويّة. أحبّ يومذاك ممرّضة على محطّة الترام الصباحيّة واندفع بجنون. ولٰكنّ والده شكمه وروّضه. ها هو اليوم بعد مرور حياة غير قصيرة، وبعد أن امتحنته الدنيا بالسجن والضرب والمطاردة والرفع والخفض، ها هو يخطب بعد انقطاع عن رؤية خطيبته لا يقلّ عن عشرة أعوام، ولٰكنّه في الوقت نفسه عرف الحبّ وأترع برحيقه، وكان يقبض بيديه على سعادة مضمونة، وقال لها:

ـ أنت يا عزيزتي صورة من والدتك، ولذٰلك فخيالي عاجز عن تصوّر سعادتي.

فضحكت سوسن هانم قائلة:

ـ أرجو أن تذكر كلامك هٰذا للمستقبل فإنّه يقال إنّنا ـ الحموات ـ لا نسمع الكلام الجميل إلّا في هٰذه المناسبة.

وضحكت سلوى ضحكة رقيقة جدًّا فازداد عيسى سعادة وملكته فجأة رغبة في التباهي فسألها:

ـ ترى هل يضايقك العيش في الخارج لو دفعتنا الظروف مستقبلًا للعمل في السلك السياسيّ؟

فأجابت عنها أمّها قائلة:

ـ سلوى متخرّجة في المدرسة الألمانيّة.

فابتسم معلنًا عن ارتياحه، ثمّ غمغم:

ـ لتكن الحياة سعيدة، شهدنا في حياتنا آلامًا حقيقيّة فلتكن سعادتنا حقيقيّة أيضًا!...

ـ ٥ ـ

قال عيسى لسلوى:

ـ في حياتنا سرّ يجب أن تعرفيه...

وهما يجلسان في الفراندا المفعمة بعبير الورد والقرنفل، والمغيب يقترب نصف مسدل الجفنين، والشمس تسحب أهدابها من هامات القصور، والربيع يتنفّس شبابًا رائقًا. وهما في خلوة خلقها اختفاء سوسن هانم إلى حين، يشربان الليمون من دورق بلّوريّ على ترابيزة من القشّ الملوّن. وغمغمت سلوى متسائلة:

ـ سرّ؟!

فارتفع نصفه الأعلى ابتداء من حاجبيه المستقيمين كما يفعل وهو يتأهّب للحديث أو للخطابة ثمّ قال:

ـ نعم، تظنّين أنّني تقدّمت لخطبتك دون سابق رؤية، ولكنّني في الحقّ أحببتك حبًّا عظيمًا قبل عشرة أعوام، كنتِ وقتذاك في العاشرة وكنت أنا في العشرين، وكنّا نقيم في بيت والدتي بالوايليّة وأنتم كنتم في الهرم، وكان والدك ـ المحامي وقتذاك ـ على صلة وثيقة بأبي ويتبادلان الزيارة كثيرًا، وكنت جميلة جدًّا كما أنت اليوم فوقعت في غرامك، ألا تذكرين تلك الأيّام؟!

فتكتّمت ضحكة بالعضّ على باطن شفتها وقالت:

ـ قليلًا، أذكر أنّني رأيت صواريخ مولد النبيّ مرّة عندكم ولكنّي لا أذكر ذلك الغرام...

فضحك وهو يطوّح برأسه إلى الوراء في حركة خاصّة مقلّدًا دون قصد أحد باشوات الحزب وقال:

ـ ولا أحد يذكر، ولكنّ المرحوم والدي ضبطني مرّة وأنا أحدّق فيك بشغف وأخرى وأنا أقبّلك!

ـ لا!

ـ نعم... قبلة بريئة تناسب طفولتك...

ـ لكنّك لم تكن طفلًا...

ـ لكنّك كنت طفلة! ما علينا، قال لي والدي عند ذلك اجتهد وأنت تتزوّجها، كن شابًّا لائقًا بها وأنا أزوّجك منها! فسألته عن مدى اللياقة المطلوبة فقال لي إنّ عليّ بك سليمان قريبه وحبيبه ولكن يجب أن تحوز القبول عند سوسن هانم، وهي غنيّة لا تهمّها الثروة، ولكنّها تريد لكريمتها شابًّا ناجحًا، قاضيًا مثلًا، والحقّ أنّ كثيرين بهرهم صعودي السريع حتّى صرت من كبار الموظّفين بل ومن رجال السياسة في هذه السنّ المبكرة ولكنّ أحدًا لم يفطن إلى البواعث الحقيقيّة وراء ذلك النشاط الفذّ؟

فبسطت بحركة رشيقة مروحة عاجيّة صغيرة حتّى تكشف صفحتها عن صورة بطّة في الماء، وقالت في سخرية وديعة:

ـ هذا رغم أنّك لم تزرنا طوال عشرة أعوام!...

فقال جادًّا:

ـ لا تنسي أنّ والدك اختير مستشارًا بعد ذلك فعمل أعوامًا ما بين أسيوط والإسكندريّة، ولا تنسي انغماسي في السياسة بعد ذلك...

فقالت وهي تبتسم في دلال:

ـ وكيف عرفت أنّ العشرة الأعوام لم تصنع منّي شيئًا رديئًا؟

ـ قلبي! أنا أومن بشعور القلب، ولمّا رأيتك تضاعف إيماني به، وعليه فخطبتنا في ظاهرها تقليديّة ولكنّها تطوي في أعماقها قصّة حبّ وإن يكن حبًّا من جانب واحد...

وهمست وهي تنظر بعيدًا:

ـ على أيّ حال لم تعد كذلك!

ضمّ ذقنها بين أصابع يده وأدار وجهها بلطف ومال برأسه حتّى تلاقت شفتاه المشوّقتان بشفتيها الرقيقتين في نبضة متبادلة. وارتدّ وهو يبتسم في سعادة حقيقيّة. وراح ينظر إلى مجامع أصص الزهور في الفراندا بعينين غمرتها العاطفة كما يغمر الضباب زجاج النافذة. والقصّة بعد ذلك ليست اختلاقًا على طول الخطّ، طالما أعجب بجمالها في ذلك العهد البعيد. وهو وإن لم يكن

نسيها عشرة أعوام إلّا أنّه يحبّها الآن حبًّا حقيقيًّا فما الضير في سدّ الفجوة بكذبة بيضاء تشعّ حكمة وتضفي على علاقتهما جمالًا ساحرًا! ولكنّ المحبوبة لا تريد أن تنفصل عن أمّها كأنّ القابلة نسيت أن تقطع حبلها السرّيّ في حينه. وهو يتوجّس من ذٰلك خيفة أحيانًا ويتطلّع بإلحاح إلى اليوم الذي يتمّ له امتلاكها حقًّا، ونظرة الاسترشاد أو الاستئذان التي توليها إيّاها عند مقاطع الحديث تقلقه بعض الشيء. ولٰكنّ سعادته اكتسحت ذٰلك كلّه كما تكتسح الموجة العالية نفايات الساحل ثمّ تتركه أملس صافيًا. وفقرها المدقع في تجارب الحياة العاديّة أسعده. ولعلّه تملّق شعوره بالاستعلاء كما لذّه حنينها الدائم إلى الموسيقى واطّلاعها الغنيّ على الرحلات، وقال:

ـ حبّك كنز ثمين لا يقدّر بثمن، وعندما جئت لمقابلتك أوّل مرّة سألت الله أن أقع من نفسك موقعًا حسنًا...

ـ كنت أراك قبل ذٰلك في الصحف...

فقال بارتياح:

ـ لو توقّعت ذٰلك في حينه لاستعددت استعدادًا أكثر عناية للتصوير...

ـ هٰذا لا يهمّ ألبتّة، ولٰكن سمعت أيضًا عن «شقاوتك» في السياسة...

فضحك مطوّحًا برأسه إلى الوراء مرّة أخرى على طريقة ذٰلك الباشا وقال:

ـ ترى ما رأيك في ذٰلك؟!... أنا صديق عتيد لهراوات البوليس وزنزانات الأقسام والرفت والمطاردة. ترى ما رأيك في ذٰلك؟!

فعضّت باطن شفتيها مرّة أخرى وقالت:

ـ بابا يقول...

وسرعان ما قاطعها:

ـ لا داعي للاستشهاد ببابا في هٰذا الشأن، أنا أعرف مقدّمًا رأيه، فهو من رجال الجانب الآخر، وأنت لا تهتمّين إلّا بالموسيقى وكتب الرحلات؟!... عليك من الآن فصاعدًا أن تُعِدّي نفسك لدور زوجة الرجل السياسيّ بكلّ معنى الكلمة...

ورجعت سوسن هانم إلى الحجرة فوقفت أمامهما وهي تقول بلهجة من يفضي بنتيجة مسعى قام به:

ـ ليكن الأمر كما تشاء...

فوقف الشابّ ببدلته الشاركسكين الناصعة البياض وهو يقول:

ـ شكرًا يا هانم...

ثمّ جلسا وهو يستطرد:

ـ ليكن الزواج إذًا في أغسطس ثمّ نسافر إلى أوروبا بعد ذٰلك مباشرة...

وتلاقت النظرات في ارتياح. وغاب آخر شعاع من الشمس. وربّت عيسى على ركبتيه فجأة ثمّ قال مخاطبًا سوسن هانم:

ـ كنت أحادث سلوى عن غرامي بها منذ عشرة أعوام!

فرفعت المرأة حاجبيها دهشة وقالت لابنتها محذّرة:

ـ لا تصدّقي كلّ شيء يا سلوى، خطيبك سياسيّ وأنا أدرى بهٰؤلاء السياسيّين!

وأغرق ثلاثتهم في الضحك...

ـ ٦ ـ

كان عيسى يتناول فطوره حين توقّف الراديو عن إرساله المعتاد ليذيع بيان الجيش في صباح ٢٣ يوليو...

لم يفقه معنى ما تلقّته أذناه بادىء الأمر. ثمّ وثب من مجلسه ليحملق في الراديو وهو يلعق شفتيه. وترادفت الكلمات الغريبة لتصنع جملًا مذهلة سرعان ما تنفجر الدهشة عند استيعاب معانيها. ودار رأسه كمن يخرج بغتة من ظلمة عمياء إلى نور باهر. وراح يتساءل ما معنى هٰذا! ما معنى هٰذا؟!

ومضى إلى حجرة الجلوس فجلس إلى جانب أمّه وهو يقول:

ـ أنباء خطيرة جدًّا...

رفعت العجوز إليه عينيها الضعيفتين فقال:

ـ الجيش يتحدّى الملك!

وهضمت المرأة الخبر بعسر شديد ثمّ تساءلت:

ـ كأيّام عرابي باشا؟!

آه... كيف لم يرد هٰذا المعنى على ذهنه؟! حقًّا إنّه

في نهاية من الاضطراب. وتمتم:

ـ نعم، كأيّام عرابي...

فسألته بقلق:

ـ وهل تقوم الحرب؟

آه... ماذا سيقع حقًّا!؟ ليس في القاهرة الآن شخصيّة واحدة يمكن الرجوع إليها لاستقاء الأنباء. وإذا كان هو لم يقم في إجازة فما ذلك إلّا لأنّه أجّل إجازته لحين سفره إلى الخارج.

ـ كلّا، للجيش مطالب وسوف تتحقّق مطالبه، هٰذا كلّ ما في الأمر...

وسافر إلى الإسكندريّة. ها هو الطاغية يتلقّى صفعة فولاذيّة. لتكن صفعة بقوّة طغيانه. فلتكن قاضية. وليحترق باجترار آثامه. انظر إلى عواقب غيّك وحماقتك. ولٰكن أين تقف هٰذه الحركة؟! وما الدور الذي سيلعبه الحزب؟ الأمل أحيانًا يسكره، وأحيانًا يدوّخه إحساس كالذي يخالج الكلاب قبيل الزلازل. ووجد عبد الحليم باشا شكري في أثنيوس مرتديًا بدلة بيضاء من الحرير الطبيعيّ مغروزًا في عروة جاكتتها وردة حمراء قانية، وأمامه قدح من البيرة الاستوت لم يبق فيها إلّا رغوة كاليود، وقال له الباشا وهو يضيّق عينيه في فتور:

ـ دعك من مطالب الجيش، الحركة أكبر من ذٰلك، المطالب يمكن أن تتحقّق اليوم ثمّ يُشنق مقدّموها غدًا، كلّا يا أستاذ، ولٰكن من الصعب جدًّا التكهّن بما وراء ذلك...

ـ أليس عند سعادتك أخبار؟

ـ الحوادث أسرع من التنبّؤ، كان يجلس مكانك منذ ساعة مستر جودوين الصحفيّ الإنجليزيّ وقد أكّد لي أنّ الملك قد انتهى...

فاستكان للدهشة الطاغية دقيقة ثمّ تساءل:

ـ أليس لنا علاقة بهٰذا الأمر؟

ـ لا يمكن الجزم بشيء من هٰؤلاء الضبّاط؟ ولا تنس أنّ زعماءنا في الخارج.

ـ قد يكون لسفرهم علاقة بالحركة.

وأبى وجهه أن يتفاءل واكتفى بأن قال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ قد!

وأكثرا من الكلام وأعاداه دون أن يضيفا إليه جديدًا ولٰكنّه انقلب غاية في ذاته وجدا فيها متنفّسًا عن القلق.

وفي فيلّته بسيدي بشر استلقى عليّ بك سليمان على كرسيّ خيزران هزّاز، شاحب الوجه، مغضّن الجبين بعبوسة ثابتة، وفي عينيه نظرة مريضة خسرت جمالها الطبيعيّ وكبرياءها المأثور. ولـمّا رآه مقبلًا تطلّع إليه باهتمام شديد وسأله بلهفة:

ـ ما وراءك؟

وجلس عيسى وهو يشعر بثقل نظرات الرجل وزوجه وكريمته ثمّ قال بهدوء ظاهريّ واعتزاز خفيّ بما سيضيفه إلى الموقف من جديد:

ـ الملك انتهى.

وانطفأ آخر قبس في عيني الرجل، وألقى نظرة عليلة على البحر المعربد من خلال الشرفة، ثمّ تساءل:

ـ وأنت... أعني أنتم... هل أنتم موافقون؟

استمتع بلحظة اعتزاز كاذب تأرجحت فوق جرح أليم، وتمتم:

ـ الملك عدوّنا التقليديّ.

اعتدل البك في جلسته وسأله:

ـ هل للحزب علاقة بما يحدث؟

ودّ لو يستطيع أن يجيب بالإيجاب أمام الأعين المحدّقة ولٰكنّه قال وهو يداري تعاسته:

ـ لا أدري عن هٰذا شيئًا.

ـ لٰكنّك تستطيع أن تدري بلا شكّ.

ـ ولا أحد ممّن قابلتهم يدري، وزعماؤنا الحقيقيّون في الخارج كما تعلم سعادتك.

فنفخ الرجل بضيق شديد وقال:

ـ نسينا بسرعة درس عرابي وعمّا قليل سيزحف الإنجليز.

فتساءل عيسى قلقًا:

ـ هل من أنباء عن ذٰلك؟

فلوّح الرجل بيده ساخطًا على حين سألته سوسن هانم:

ـ الا يحسن أن نذهب إلى العزبة؟

فأجابها بفتور:

ـ لا أحد يدري ما هو الأحسن.

وانطلقت الأحداث حتّى غادر الملك البلاد، وشهد عيسى ذٰلك في الإسكندريّة ورأى بعينيه تحرّكات الجيش، كما رأى المظاهرات الصاخبة. وعانى طوال الوقت من عواطف متضاربة أطاحت به في دوّامة ما لها من قرار. شعر بفرحة كبرى عزّت على التصديق والتأمّل، وشفت صدره من آلام المقت المكبوت. ولٰكنّ هٰذه الفرحة لم تنطلق إلى ما لا نهاية، وإنّما ارتطمت بسحائب دكناء كدّرت بعض الشيء صفاءها. أهو ردّ الفعل الطبيعيّ لكلّ شعور عنيف! أم هو رثاء تجود به النفس المطمئنّة أمام جثّة غريمها الجبّار؟ أم إنّ تحقيق هدف من أهدافنا الكبرى يعني في الوقت ذاته زوال سبب من أسباب حماسنا للوجود؟ أم إنّه عزّ عليه أن يتحقّق هٰذا النصر الكبير من غير أن يكون لحزبه الفضل الأوّل فيه؟

وهٰكذا وجد زوّار عبد الحليم باشا شكري في قصره بزيزنيا. كانوا مزيجًا من السرور والوجوم والقلق. وراح الباشا يقول:

ـ سبحان مَن له الدوام.

وبطريقته الخطابيّة في الحديث قال الشيخ عبد الستّار السلهوبي عضو الشيوخ:

ـ انتهى فاروق ولٰكنّنا نريد أن نطمئنّ على أنفسنا.

وتمطّت موجة من الضحك العصبيّ الخالي من السرور الحقيقيّ غير أنّ عيسى تساءل وهو يجلس إلى جانب أصدقائه سمير عبد الباقي وعبّاس صديق وإبراهيم خيرت:

ـ ماذا عن المستقبل؟

فأجابه عبد الحليم باشا شكري متجاهلًا الغرض الحقيقيّ من السؤال:

ـ سيكون خيرًا من الماضي بلا ريب!

فقال له الشيخ عبد الستّار السلهوبي:

ـ لعلّه يسأل عن مستقبلنا نحن؟

فقال الباشا بوجه غير معبّر كما يجدر بسياسيّ عتيق:

ـ سيكون لنا دورنا بغير جدال.

واهتزّ جذع الشيخ عبد الستّار كالمقرئ في الفترات المتخلّلة للتلاوة ثمّ قال بعنف:

ـ هٰذه الحركة ليست في صالحنا... إنّي أشمّ الخطر على بُعد آلاف الأميال، يوم أُلغيت المعاهدة خسرنا الملك والإنجليز، واليوم سنخسر كلّ شيء.

فقال سمير عبد الباقي:

ـ نحن آخر من يتوقّع الخطر أو هٰذا ما ينبغي.

وقال إبراهيم خيرت:

ـ إنّ ما حدث اليوم هو ما كنّا نفعله لو ملكنا القوّة اللازمة.

فقال الشيخ عبد الستّار ساخرًا:

ـ ولٰكنّنا لم نفعله يا سي عمر!

وتجمّع الماضي في خيال عيسى كقبضة عنيفة مفعمة بالجلال والحزن. وحدّثه قلبه بأنّ ذٰلك الماضي يتبلور الآن في صورة فقّاعة لن تلبث أن تنفجر. وأنّ وجهًا جديدًا من الحياة يسفر عن صفحته رويدًا رويدًا حافلًا بالجدّة والغرابة. وأنّ بوسعه أن يتعرّف على هٰذا الوجه لأنّه سبق له أن لمحه هنا أو هناك، ولٰكن من أين لهٰذا الوجه أن يتعرّف عليه هو داخل الفقّاعة المتفجّرة؟ ثمّ استراحت عيناه عند صور فنّيّة معلّقة على الجدار فوق المدفأة الباردة، تعرض زنجيّة غليظة الشفتين جاحظة العينين في غير دمامة، تحدّق في وجهه بنظرة حسّيّة وقحة ناطقة بالإغراء والتحدّي...

ـ ٧ ـ

وشحن الجوّ باحتمالات شتّى متناقضة ولٰكنّها اتّفقت جميعًا على انتزاع الطمأنينة من نفسه فكابد حياته بأعصاب عارية، وبات تأجيل زواجه أمرًا محتومًا حتّى تستقرّ الأرض تحت قدميه وحتّى يستردّ حموه وعيه. وانتصبت علامات الاستفهام أمام عينيه وأعين أصحابه كالرايات السود على السواحل عند هياج البحر ومضغوا الشائعات كالعلقم. ثمّ علم أنّ حسن ابن عمّه اختير لوظيفة مهمّة وأنّ الباب انفتح أمامه إلى مراكز أهمّ وأخطر ممّا قطع بأنّه من أهل الدنيا الجديدة وقد صعقهُ الخبر أشدّ ممّا صعقته الأحداث، ولبث مدّة لا يدري كيف يبلغه أمّه ولٰكنّ العجوز لم تفهم الأمور

على حقيقتها وقالت ببلاهة:

ـ سيأتي دورك، لا تحزن، أنت تستحقّ كلّ خير.

وقال لنفسه ما أجمل أن يعيش الإنسان بعيدًا عن منطقة الوعي! ثمّ أعلن عن نظام التطهير. وقرأه بانتباه جنونيّ ومرارة ويأس. سيدركه الدمار الذي يحيق بالأحزاب والزعماء ستُقتلع الجذور التي تثبّته بأرضه جذرًا بعد جذر. وما أغرب ما يقع اليوم ممّا لم يكن يتخيّله أحد! ها هو صديقه إبراهيم خيرت المحامي وعضو مجلس النوّاب السابق يتحمّس للثورة بقلمه في أكثر من صحيفة كأنّه ضابط من رجالها! ويها لأمّ الأحزاب ـ وحزبه ضمنها طبعًا ـ والعهد البائد كأنّما لم يكن أحد رجاله. وعبّاس صديق آمن مطمئنّ غير مكترث للأحداث إذا وجد ظهرًا يحميه في العهد الجديد بل واصل طموحه إلى الترقّي بأمل أقوى ممّا كان. سمير عبد الباقي وحده الذي شاركه القلق والخوف والمصير، وهو شابّ نحيل رقيق قمحيّ البشرة تشعّ من عينيه الخضراوين نظرة حالمة فوجد عنده بعض العزاء، وسأله:

ـ كيف تتصوّر أن يكون مصيرنا؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة باهتة:

ـ الطرد أقلّ ما ينتظرنا.

فسأله بحلق جافّ:

ـ ما عسى أن نفعل؟

ـ معاش لا قيمة له ولٰكنّنا قد نجد عملًا في شركة.

ـ ترى هل يتيسّر لنا ذٰلك، وهل نجد الشجاعة لنبدأ من أوّل الطريق من جديد؟!

وهزّ الآخر رأسًا لا يُعَدّ الشيب نادرة في سواده وغمغم بلا روح:

ـ عسى أن تكذّب الأحداث ظنوننا.

وتراكمت الشكاوى في لجنة التطهير كالزبالة. وعلم عيسى أنّ كثيرًا منها يستهدف القضاء عليه. ولم يستغرب ذٰلك بطبيعة الحال فإنّ أعداءه من المسئولين في الوزارة أكثر من أصدقائه، وأضاف إليهم الحاقدين والحاسدين والذين يتطوّعون للشرّ عند أيّ مناسبة. بل من هٰؤلاء وأولٰئك مَن تحدّاه علنًا في الوزارة بلا سبب، ومَن عرّض به ساخرًا وجهًا لوجه، وحتّى بعض مرءوسيه استباح لنفسه الاستهانة به حتّى انقلبت الوزارة ركنًا من الجحيم.

ثمّ استدعي للمثول أمام لجنة التطهير. وكانت اللجنة تجلس وراء مائدة خضراء امتدّت في عرض الحجرة بمكتب المستشار القانونيّ للوزارة، واحتلّت السكرتارية الجناح الأيمن، على حين دعي هو للجلوس أمام الأعضاء في الناحية المقابلة من المائدة، لمح مكان صورة الملك أخرى تحمل اسم الله، ونقّل بصره بين الوجوه فعرف في ممثّل مجلس الدولة زميلًا قديمًا في لجنة الطلبة كاد يهلك معه يومًا في مظاهرة أمام بيت الأمّة فبلّ منظره ريقه ولٰكنّ الأعين جعلت تنظر إليه برزانة أو تلقي على الأضابير نظرات ولم يبد على أحد منهم أنّه زامله يومًا ما بالرغم من وجود مراقب المستخدمين ومدير الإدارة العامّة بينهم. وكان شخصه يهزّ كثيرين من أعضاء اللجنة في الماضي حتّى وحزبه خارج الحكم ولٰكن حلّت الحيدة الباردة محلّ العرفان والعاطفة وسرى في جوّ الحجرة الكبيرة العالية السقف ذات الجدران القاتمة المشبعة برائحة السجائر العطنة روح رهبة ثلجيّة، ومن خلال زجاج الباب المغلق انقضّت حدأة على الشرفة الخارجيّة ثمّ ارتفعت بسرعة خاطفة وهي تطلق صوتًا كالنواح.

وحدجه الرئيس بنظرة طويلة من نظّارته الكحليّة المذهّبة وقال:

ـ أرجو أن تطمئنّ كلّ الاطمئنان إلى عدالتنا فهي لا تبتغي إلّا وجه الحقّ وحده.

فقال بهدوء باسم ليستر يأسه:

ـ لا شكّ عندي في ذٰلك.

ـ وأحبّ أن تعلم أنّ المهمّة التي كُلّفنا بها غايتها المصلحة العامّة لا الانتقام ولا أيّ غرض آخر.

فقال وهو يهبط درجات جديدة في أحضان اليأس:

ـ لا شكّ عندي في ذٰلك أيضًا.

وصدرت إشارة إلى السكرتارية فتُليت العرائض تباعًا. بعضها موجّه من موظّفين والبعض الآخر من عمد. وانقلب صوت قارئ العرائض رتيبًا كملقّن الأموات، وأغمض عيسى عينيه ابتغاء تركيز أشدّ ولٰكنّ التُّهَم جميعًا انصبّت على تعيين العمد بالحزبيّة

والهدايا فتشتّت في التكرار تركيزه وذاب في الظلمة التي اختارها. ومن خلال ضباب أحمر انغرزت في أذنيه السهام ورغم الجهد المبذول للتركيز اعترضته الذاكرة بصورة قديمة جدًّا مخضلّة كأعشاب الطفولة اليانعة وهو عائد من ملعب كرة في الخلاء المحدق بالوايليّة في يوم انهلّ مطره كالسيل فلم يجد ما يحتمي به من انفعال السماء إلّا أسفل عربة زبالة. وتساءل عن معنى هٰذا كلّه. وفتح عينيه فرأى الوجوه وهي تتموّج، وللحظة قصيرة خيّل إليه أنّ فردة شارب المستشار اليسرى موصولة بفردة شارب ممثّل مجلس الدولة اليمنى، وسُئل عن رأيه. أيّ رأي؟! وقال بحدّة قاهرة:

ـ كلام فارغ، أريد دليلًا واحدًا.

وامتلأ قوّة ولٰكنّه سرعان ما باخ وتهاوى كورقة خضار ذابلة صفراء. قال الرئيس:

ـ كان الوزير يعتمد ترشيحاتك فأنت أوّل مسئول.

ـ كان ذٰلك ضمن واجباتي وقد أدّيته بما يرضي ضميري.

ـ هل من سبب غير الحزبيّة يمكن أن يفسّر لنا عزل وتعيين العمد؟

فقال وهو يحاول أن يسيطر على لهائه وتهدّجه:

ـ لتكن الحزبيّة هي السبب ألم تكن من مقوّمات حياتنا الماضية؟

ـ هل أنت مقتنع بصحّة تصرّفاتك؟

ـ أرى أنّها كانت طبيعيّة جدًّا.

فتساءل الرجل وهو يلعب بالباركر في يده:

ـ والهدايا؟!

فاندفع يقول بحدّة:

ـ قلت إنّه كلام فارغ. أريد دليلًا واحدًا.

وتُليت أسماء الشهود من العمد أنفسهم فهتف:

ـ ما قيمة الدسّ الوضيع؟

ثمّ استدعي موظّفون ممّن عملوا معه على فترات متتابعة فأدلوا بأقوالهم وعُرضت عليه توقيعات بخطّ يده لترقية موظّفين بصفة استثنائيّة ولأداء خدمات في الريّ والزراعة وبعضها يوصي بمجرمين ريفيّين ممّن تربطهم صلات الرعاية أو القربى بنوّاب سابقين. وامتدّ الوقت حتّى فقدت الأشياء ألوانها. وصاح بعصبيّة:

ـ دلّوني على موظّف واحد يستحقّ البقاء!

وتصدّى له عضو في اللجنة لم يعرفه من قبل فتكلّم بعنف عن واجبات الموظّف نحو الشعب ثمّ قال:

ـ الثورة صادقة العزم على تطهير الجهاز الحكوميّ من كافّة أنواع الفساد. وأؤكّد لك أنّ المستقبل لن يرى مصريًّا واحدًا مهضوم الحقّ، ولا مصريًّا واحدًا يؤثّر بأيّ لون من ألوان الخير أو الامتياز لانتمائه إلى فرد أو أسرة أو هيئة.

ونصحه شيء في أعماقه بألّا يتعرّض لمناقشة هٰذا العضو فلاذ بالصمت. واستمرّ التحقيق حتّى الرابعة مساء، ثمّ غادر اللجنة كعود جافّ مقصّف اخترمته دودة عاتية! واخترق إلى الدقّي طرقات غرقت ـ كقارّة أطلس ـ بجميع أبعادها وأحيائها وجمادها تحت أمواج ذاته الهائجة المتلاطمة حتّى لم يعد يرى أو يسمع أو يعي إلّا القلق الشيطانيّ بأشواكه الحادّة ومكره القاسي. وتساءلت الأمّ العجوز:

ـ لِمَ لا تحدّث في أمرك ابن عمّك وهو منهم؟!

لدغته وصيّتها فانفجرت في عينيه نظرة جنونيّة من الغضب.

ـ ٨ ـ

واستدعاه مراقب المستخدمين ليبلغه قرار إحالته إلى المعاش مع ضمّ سنتين إلى مدّة خدمته. وهو نفس المراقب الذي كتب مذكّرات ترقياته الاستثنائيّة التي توّجت بترقيته إلى الدرجة الثانية... ولعلّه ما زال يحتفظ بمشروع مذكّرة لترقيته إلى الدرجة الأولى كانت قد أُعدّت لرفعها إلى مجلس الوزراء قبيل إلغاء المعاهدة بأسبوع واحد ثمّ لم تحظ بفرصة لاعتمادها في غمار الأحداث التي أعقبت إلغاء المعاهدة، ولم يكن للرجل لون حزبيّ ولٰكنّه لم يشكّ لحظة في كراهيته له لتساويه معه في الدرجة رغم فارق السنّ الشاسع بينهما. وتأثّر المراقب بمأساة الموقف فانتهز خلوّ الحجرة من أيّ مستمع وقال له:

ـ لا يعلم إلّا الله مدى حزني يا أستاذ عيسى...

فشكره وهو على يقين من مدى كذبه فثمانية أعوام في معاشرة الموظّفين كافية جدًّا ليجيد ترجمة

مصطلحاتهم المحفوظة في المجاملات إلى معانيها الحقيقيّة. وها هو ملفّ خدمته مطروحًا على مكتبه، وها هو اسمه مخطوطًا على غلافه بالفارسيّ «عيسى إبراهيم الدبّاغ» فرآه بعين الخبال وهو يُلقى في الدفترخانه ليُقبر هنالك إلى الأبد بكلّ ما يسجّل في أوراقه من توقيعات تاريخيّة تشهد له بالامتياز وتبشّره بأسعد مستقبل. وسأل عن مقدار معاشه فأجاب المراقب:

ـ اثنا عشر جنيهًا ولٰكنّك ستقبض مرتّبك كاملًا لمدّة عامين...

وغادر الوزارة بعينين تحملقان في داخل رأسه. أيقن الآن أنّه قضي عليه بأن يعاني التاريخ في إحدى لحظات عنفه حين ينسى وهو يثب وثبة خطيرة مخلوقاته التي يحملها فوق ظهره فلا يبالي أيّها يبقى وأيّها يختلّ توازنه فيهوي. ومشى طويلًا في دفء الشمس دون هدف وفي غفلة تامّة عن الشوارع التي يخبط فيها. تذكّر البوديجا قهوته المختارة فمضى إليها. في مثل هٰذا الوقت من الظهيرة ليس ثمّة أمل في أن يجد في مجلسه أحدًا من أصدقائه فراح يحتسي الشاي وحيدًا وصورته في إحدى المرايا المصقولة تؤانسه رغم كآبة منظرها. ووجد الجماعة تلعب النرد وتتحمّس حتّى الجنون لما يجيء به الزهر، وجد فيها أصدق مثال للّامبالاة التي تلقّت بها الدنيا كارثته فتحوّل عنها وعن الغارقين في دخان النارجيلة إلى صورته الكئيبة. لو نطقت هٰذه الصورة لوجدت حقًّا من يفهمني. خبّرني ماذا فعلت، ولِمَ لَمْ تقرأ المستقبل إذ هو على بُعْد ساعات منك على حين تؤكّد أخبار وقعت فوق سطح الأرض منذ ملايين السنين. وهٰذا الوجه ذو الرأس الكبير والهيئة المثلّثة الذي مدحه أحد الشعراء فشبّهه بدلتا النيل، وهٰذا الوجه الذي كان مرشّحًا للصفحات الأولى من الصحف، ما باله يندثر كالديناصور عملاق الأساطير البائدة؟ وكالشاي الذي تحتسيه المقتلع من أرضه الطيّبة في سيلان ليستقرّ آخر الأمر في مجاري القاهرة. وإذا علوت بضعة آلاف من الأقدام في الفضاء فلن ترى فوق سطح الأرض حيًّا ولن تسمع صوتًا إذ يذوب كلّ شيء في حقارة رهيبة كونيّة. والماضي الضخم الذي ما زالت أنفاسه تتردّد على وجهك تقطع القرائن بأنّه سيتحلّل وشيكًا ويتعفّن ولن تبقى منه إلّا على رائحة كريهة.

وارتفع صوت يقول في عصبيّة:

ـ قلبي يحدّثني بأنّني سأجدك هنا...

وأقبل سمير عبد الباقي فجلس إلى جانبه بوجه شاحب ونظرة منكسرة كأنّما تطالعه من وراء قضبان. وفرح عيسى به فرحة جعلته يشدّ على يده بقوّة نابضة بالاستغاثة. وعاد سمير يؤكّد:

ـ قلبي يحدّثني بأنّني سأجدك هنا!

فضحك عيسى ضحكة عالية اختلج لها جفنا صاحب القهوة وراء طاولته ثمّ قال:

ـ ولن تجدني منذ اليوم إلّا هنا!

فرنا إليه بنظرة ميتة من عينيه الخضراوين وقال:

ـ وأنا كذٰلك اليوم، وقد غادرت الوزارة لآخر مرّة...

وتبادلا نظرة طويلة مغرورقة باليأس، ثمّ اجتاح عيسى مرح غريب لكنّه مريب غير أصيل كأنّه منبعث من خمر أو مخدّر وتساءل:

ـ وما العمل؟

ـ لدينا هدنة عامين بمرتّب كامل.

ـ وبعد ذٰلك!

ـ يمكن أن نجد عملًا في شركة.

فتساءل عيسى بارتياب:

ـ وأيّ شركة تجازف بقبولنا؟!

فقال سمير متنهّدًا:

ـ لا بدّ لكلّ مشكلة من حلّ...

ومضى في طريقه إلى مسكنه وهو ينظر إلى الناس بغرابة كأنّما يراهم لأوّل مرّة. وهم غرباء لا يمتّون إليه بسبب ولا يمتّ إليهم بسبب، وهو منفيّ منفيّ في مدينته الكبيرة، مطارَد بغير مطاردة، وعجب كيف انهارت الأرض تحت قدميه فجأة كأنّها نفخة من تراب، وكيف تقوّضت الأركان التي قاومت الدهر ربع قرن من الزمان... وألقى نظرة على وجه أمّه الذابل ثمّ دهمها بالخبر فوضعت راحتها فوق يافوخها كأنّما لتوقف الألم المتصاعد وتأوّهت متسائلة:

ـ لِمَ يفعلون بك ذلك يا بنيّ؟

من الخير أنّها لا تدري شيئًا. وراح يتجوّل في المسكن على مهل. يا له من مقام نفيس لا يمكن الاحتفاظ به بعد الآن. مرتّب عامين ورصيد في البنك من نفعات العمد. ولكن هل يكفيه ذلك إلّا عامين آخرين؟! وجميع هذه التحف التي تزيّن المدخل والاستقبال والمكتبة هي أيضًا «هدايا». أجل إنّ المذنبين أضعاف المطرودين ولكنّه مذنب وأصحابه مذنبون. أين الأيّام البعيدة الطاهرة أين!؟ أمّا الختام فهدايا محرّمة وفساد ثمّ الضياع المباغت وهو على عتبة المناصب العالية المؤدّية إلى كرسيّ الوزارة! وكيف تعيش في دنيا من الناسين والمتجاهلين والشامتين وقد طويت الأمجاد كأن لم تكن ونشرت الأخطاء كالأعلام؟!

وذهب عصرًا إلى فيلّا عليّ بك سليمان تحت سماء ملبّدة بالغيوم وقد عصفت بالجوّ ريح باردة أثارت غبار الأرض كالخماسين. وفكّر وهو يصعد السلّم المرمريّ العريض بأنّه لولا الحصانة القضائيّة لقُذف بعليّ بك سليمان إلى جانبه في الشارع.

وكان البك في الخارج وسوسن هانم في الفراش متوعّكة بنزلة برد ثمّ جاءت سلوى في روب من المخمل الأزرق سطع من طوقه وجهها كالضياء. وهو وجه على جماله شحيح التعبير فلم يستطع أن يقرأ في صفحته أثر الأحداث ولكنّ قلبه المكروب اهتزّ لمرآه ونبض فيه الشوق كلحن قلق. وقال لنفسه إنّها القيمة الوحيدة الباقية لي في الحياة. وتساءل في اللحظة التالية ترى هل هي «لي» حقًّا؟! ورغبة في حسم الوساوس قال بإيجاء مخيف:

ـ سلوى... أحالوني إلى المعاش...

اختلجت عيناها الجميلتان الخاملتان وهمست في ذهول:

ـ أنت؟!

فقال مسلّمًا أمره للمقادير:

ـ نعم أنا كما يقع للكثيرين في هذه الأيّام.

فحدجته باستغراب قائلة:

ـ ولكنّك لست كالآخرين!

فوخزه كطعنة في العين، وترنّح خياله منذعرًا بين التحف ورصيد البنك ثمّ قال:

ـ إنّهم ينتقمون منّا باسم التطهير.

امتدّ بصرها عفوًا إلى تمثال برونزيّ لفارس مغربيّ يمتطي جوادًا كأنّما تستلهمه الرأي ثمّ تمتمت:

ـ تصرُّف غير لائق!

فتشجّع قائلًا:

ـ سوف أجد عملًا خيرًا من وظيفتي...

وابتسمت كأنّما لتعتذر عن فتورها المتزايد وتساءلت:

ـ أين؟

وتساءل هو عن مدى حبّها وعمّا تضمره له الأيّام من غدر جديد ولعن في سرّه صورة رئيس لجنة التطهير التي اقتحمت خياله فجأة، ثمّ أجاب:

ـ في شركة أو في العمل الحرّ.

وبرز طرف لسانها ليرطّب شفتيها في حركة طبيعيّة وشت بنسيانها لنفسها فأدرك مدى الخيبة التي تعانيها وقال برجاء:

ـ دعيني أستمدّ القوّة منك!

فابتسم فوها وحده وغمغمت:

ـ أتمنّى لك النجاح...

فطرح يده على يدها المبسوطة فوق ذراع المقعد وقال فيما يشبه الهمس:

ـ الحزب يهزأ بأمثال هذه المشكلات بكلّ بساطة...

ـ نعم... نعم...

قد تكون فاترة الطبع ولكنّها تحبّه بلا ريب. وجاءه دافع قهّار ليضمّها إلى صدره فمال نحوها وطوّقها بذراعه، وعندما رشقته بنظرة مخمليّة واستسلم جذعها لذراعه تطايرت من كمده شرارة جنسيّة مباغتة فانكفأ بوجهه على وجهها ضاغطًا بشفتيه المتوثّبتين شفتيها الرقيقتين مذعنًا لتحريض شهوة طامحة للعزاء ولكنّها أوقفته براحة مبسوطة وأدارت وجهها لتتخلّص من هجمته فانفصلا وهما يلهثان. وانفصلا أكثر بصمت رهيب تبادلا فيه العتاب من ناحية والاعتذار من ناحية أخرى عن طريق قراءة الأفكار المحمومة ثمّ خرج

صوته من المعمعة كسيرًا وهو يقول:

ـ سلوى... أنا أحبّك... حياتي كلّها تتلخّص في شيء واحد هو أنت...

فربّتت على يده برقّة ورثاء فقال:

ـ يجب أن تتكلّمي...

فتنفّست بعمق لتستعيد توازنها ثمّ قالت:

ـ علينا أن نواجه الحياة بكلّ ما فيها...

وأصغى إلى عذوبة النغمة بارتياح عميق. وودّ أن يغيبا عن الدنيا في مكان مجهول إلى الأبد. مكان لا سياسة فيه ولا وظائف ولا ثورات ولا ماضي له.

وسألها بصوت مبتهج لأوّل مرّة:

ـ هل تهبينني الثقة والتشجيع؟

فقالت وهي تجفّف شفتيها بمنديلها:

ـ لك ما تريد وأكثر...

وجاءته رغبة جديدة في معانقتها ولٰكنّ صوت عليّ بك سليمان تردّد خارج الحجرة كأنّما يعلن عن مقدمه.

ـ ٩ ـ

أقبل البك نحوهما شبه مبتسم، ومكث معهما قليلًا، ثمّ دعا عيسى إلى الاجتماع به في حجرة مكتبه، وبدا جوّ الحجرة في شبه ظلام لبعدها عن الطريق ولشدّة اكفهرار الجوّ في الخارج فأضاء مصابيحها. وجعل عيسى ينظر إليه بعناية فقرأ في أعماق عينيه تجهّمًا فتساءل ترى ألهٰذا علاقة به أم أنّه العاقبة الحتميّة للأحداث؟ وحانت منه التفاتة إلى فوق. فرأى صورة للبك في التشريفة القضائيّة قد حلّت محلّ الصورة التقليديّة للملك.

وتساءل عليّ بك سليمان:

ـ كيف الأحوال؟

فتظاهر عيسى بالاستخفاف وهو يقول:

ـ سأبدأ من جديد؟

وقصّ عليه مأساته في كلمات من وجهة نظره فتفكّر الرجل قليلًا ثمّ قال:

ـ لن تجد الأمر سهلًا...

ـ أعلم ذٰلك ولٰكنّي غير يائس...

ولاحت في عيني البك نظرة جادّة لدرجة مثيرة ثمّ قال بنبرة الاعتراف:

ـ الحقّ أنّ الحكاية لم تكن مفاجأة لي!

ـ لعلّ رئيس اللجنة قد أبلغها سعادتك؟

ـ نعم.

ـ ألم يكن في الإمكان....

ـ كلّا، الرجل صديق حقًّا ولٰكنّ اللجنة أقوى من رئيسها والخوف قد ركب الجميع...

فقال بامتعاض:

ـ على أيّ حال ما فات فات، فلنفكّر في المستقبل...

ـ هٰذا خير ما نفعل...

فقال عيسى متحدّيًا المجهول:

ـ عن ذٰلك حادثت سلوى.

ـ سلوى؟!... هل أخبرتها حقًّا؟

ـ هٰذا طبيعيّ جدًّا...

بعد تردّد:

ـ بكلّ شيء؟!

فحدجه بنظرة مريبة وقال بشيء من الحدّة:

ـ طبعًا!

ـ وماذا قالت؟

فقال وهو يتوثّب في باطنه لجميع الاحتمالات:

ـ ما يُنتظر منها، فهي معي في الخير والشرّ على السواء!

نقر الرجل بأصبعه على الكساء البلّوريّ للمكتب ثمّ قال:

ـ أحبّ أن أكون صريحًا معك، الزواج الآن ليس من العقل في شيء!

ـ هٰذا حقّ الآن!

وهزّ الرجل رأسه كأنّما يخفي أكثر ممّا صرّح به، فقال عيسى ليسبر أغواره:

ـ ما أنا إلّا ضحيّة سياسيّة!

فرفع الرجل حاجبيه الغزيرين دونما إفصاح فراح الآخر يقول بغيظ:

ـ طالما كان لي الشرف بأن أكون كذٰلك...

وإذا بالبك يقول في ضجر:

ـ ولٰكنّ السياسة لم تكن هٰذه المرّة وحدها!

وتلاقت العينان في نظرة مزعجة فاجتاحت عيسى موجة عاتية من الغضب وتساءل بصوت متهدّج:

ـ مزيدًا من الشرح من فضلك؟!

فقال الآخر في امتعاض وحزن:

ـ أنت تعرف ما أعنيه يا عيسى...

فسأله بحدّة أسمعت أركان الحجرة الوقور:

ـ أبكَ شكّ من ناحيتي؟!

ـ لم أقل هٰذا...

ـ إذن ما تقصد؟

فقال وهو يقطّب استياء من حدّة لهجته:

ـ القرائن خطيرة...

فهتف:

ـ بل هي حقيرة لدرجة أنّه لا يمكن أن يهضمها إلّا عقل حقير!

ـ الظاهر أنّ أعصابك...

ـ أعصابي كالحديد وأنا أعني كلّ كلمة تفوّهت بها.

فاحتدّ الرجل قائلًا:

ـ إذا أثرت غضبي فسيكون أمرًا مؤسفًا حقًّا!

ولم يكن بقي له من أمل في سلوى أكثر من واحد في المائة فصاح بجنون:

ـ لا أبالي كيف يكون الأمر، وأيًّا كانت خطورة القرائن التي تذكرها فإنّني لم أكن يومًا انتهازيًّا ولم يكن للملك السابق فضل عليّ...

وهبّ الرجل واقفًا ووجهه يقطر غضبًا قانيًا، وأشار إلى الباب بذراع متشنّجة دون أن ينبس بكلمة. وهٰكذا غادر عيسى الحجرة.

ورغم ذٰلك كلّه قرّر ألّا يذعن لليأس قبل أن يستميت في الدفاع عن ركن العزاء الذي لم يتهدّم. يجب أن تكون الكلمة الأخيرة لسلوى دون غيرها. ولم يكن ينتظر الكثير من شخصيّتها ولا من حبّها ومع ذٰلك طلبها عصر اليوم التالي في التليفون، وقال لها بتوسّل:

ـ سلوى... يجب أن أقابلك فورًا...

وجاءه الجواب كالصفعة...

ـ ١٠ ـ

ـ لا مشكلة بلا حلّ!

هٰكذا تكلّم إبراهيم خيرت في ركنهم الخاصّ بالبوديجا. وهو لضآلة جسمه وقصر قامته قعد قريبًا من حافة الكرسيّ ليتمكّن من إيصال قدميه إلى الأرض ويعقد جبينه في مقدّمة رأسه الضخم ليضفي على شخصيّته جدّيّة تصدّ عنها الهازلين. وتكوّمت فوق كرسيّين متلاصقين معاطفهم وتقاربت رءوسهم في القهوة المزدحمة الصاخبة. وقال عيسى لنفسه إنّه ـ إبراهيم خيرت ـ يتكلّم عن المشاكل والحلول بطمأنينة لأنّ الزلازل لم تُحدث خسائر في أرضه، وهو محامٍ ناجح وقلم يتألّق في الصحف ومثله عبّاس صديق المستقرّ في وظيفته رغم أنّه كان أشدّ اغتيالًا منه لأموال الناس. ولٰكن لم يكن الحسد ولا الحنق ولا الغضب ليؤثّر في صداقتهم الوطيدة وزمالتهم السياسيّة القديمة، وتناول سمير عبد الباقي كبشة فول سودانيّ من طبق صغير ممتلئ وقال:

ـ كلام جميل، ولٰكن ها هي الأيّام تمضي دون أن نجد حلًّا حقيقيًّا!

ونظر عيسى إلى الرذاذ المتساقط في الخارج من زجاج النافذة وتساءل:

ـ وهل نبدأ من أوّل الطريق على الآلة الكاتبة؟

وراح عبّاس صديق يقرقر في النارجيلة وينفث الدخان كعضو في أوركسترا المدخّنين بالقهوة والدخان ينعقد حول المصابيح المدلّاة كالضباب وتأمّل عيسى الوجوه المتباينة التعابير على طول القهوة، المتراوحة بين الخمول عند الحالمين، والتركيز المحموم لدى اللاعبين، وتساءل في جزع لماذا قُدّر عليه أن يحارب التاريخ في موكبه المتدفّق منذ الأزل؟! وتطلّع من زجاج النافذة إلى الطريق السابح في المطر والضوء بنهم جنسيّ يفتّش عن امرأة مهرولة بمدخل عمارة مظلم، وقال:

ـ الشتاء جميل ولٰكنّ القاهرة غير مستعدّة له.

فقال إبراهيم خيرت مخاطبًا سمير عبد الباقي:

ـ لا تنسَ أنّ رجالنا منتشرون في مجالس إدارات الشركات.

ها هو يتكلّم عنهم فيقول «رجالنا» ويحمل في نفس

الوقت بقلمه على الأحزاب والحزبيّة ويطالب بمحو الماضي محوًا! ما أكثر القرف الذي يدعو إلى التقزّز! وهو نفسه عنصر هامّ من عناصر القرف. والاستثناء المثير للحيرة حقًّا هو ماضيه - وماضيهم - المضيء بالإيثار وشرف النفس! وسأله:

- خبّرني عن شعورك وأنت تقرأ مقالاتك في الصحف؟!

فقال إبراهيم خيرت في رزانة غير عابئ بابتسام الآخرين:

- أنا أتساءل لِمَ أراد الله لآدم أن يهبط إلى الأرض؟!

ورفع عبّاس صديق وجهه عن خرطوم النارجيلة وهو يجلس على كرسيّه ربعة بدينًا فاقع بياض الوجه جاحظ العينين برّاقهما لخدّ المرض أصلع يوحي منظره جملة بأنّه أكبر من عمره بعشرة أعوام على الأقلّ، وقال:

- سوف نشقى حتّى نراكما في وظيفتين كبيرتين بشركة محترمة...

وراح عيسى يحاول النفاذ إلى بواطن الآدميّين المتكتّلين في القهوة لغير ما سبب واضح. وجرى في الماضي ملايين السنين بين الدهشة والارتياع. ثمّ التفت نحو زجاج النافذة فرأى شحّاذًا واقفًا وراءه ليرمقهم بنظرة مستعطفة وقد انقطع المطر فقال لأصحابه:

- تصوّروا أنّ هٰؤلاء الآدميّين انحدروا في الأصل من السمك!

- لكنّ الأسماك ما زالت تزحم المحيطات بملايين الملايين...؟

فقال بفتور:

- وهٰذا هو سرّ مأساتنا الحقيقيّ...

وطرد الشحّاذ بإشارة من يده وعاد يقول:

- يعزّيني أحيانًا أن أرى نفسي كالمسيح أحمل خطايا أمّة من الخاطئين؟

فسأله عبّاس صديق:

- هل أنت متأكّد من معلوماتك التاريخيّة؟

فقال لنفسه إنّه تأكّد منها ساعة أغلقت التليفون في وجهه. وقال إبراهيم خيرت بتحريض:

- الليلة مناسبة جدًّا لشيء من البراندي...

وشرب سمير عبد الباقي قليلًا من الماء ليرطّب فاه الذي جفّ بطحن الفول السودانيّ وقال:

- حتّى على فرض أنّنا أخطأنا ألم يجدوا في ماضينا ما يشفع لنا؟!

وأغمض عيسى عينيه ليرى الماضي. فترة حيّة من نبض القلب. هدير المجد يخلد في الأسماع. وهراوات الجنود كالصواريخ، والحماس المهلك للأنفس. ثمّ الإغراء الموهن للهمم. وزحف الفتور كالمرض. ثمّ الزلزال دون نذير كلب. ونشدان العزاء عند قلب أجوف، ثمّ صرير التليفون كصوت العدم.

وقال سمير عبد الباقي أيضًا:

- كنّا طليعة ثورة فأصبحنا حطام ثورة!

فقال إبراهيم خيرت باهتمام وكأنّما يبرّر موقفه بصفة عامّة:

- أقول إنّه علينا أن نلحق بالركب...

فتجلّت نظرة حزينة في عيني سمير عبد الباقي الخضراوين وقال:

- قضي علينا بأن نموت مرّتين...

فأيّد عيسى رأيه قائلًا:

- هٰذا هو الواقع ولذلك فنحن نتغذّى بالسمك!

ورأوا ماسح الأحذية يدقّ صندوقه حيالهم فاختبأوا في الصمت حتّى ذهب. وضحك سمير عبد الباقي ضحكة عالية استدعت تساؤلهم فقال:

- أذكر أنّني أوشكت يومًا أن أدخل المدرسة الحربيّة!

فضحكوا معًا حتّى قال إبراهيم خيرت:

- ما رأيكم في أنّني أتفاءل عند اشتداد الظلمات؟!

فقال عيسى لنفسه ليس المعزّي كالثاكل. وغادر القهوة حوالى العاشرة مساء وهو يحبك المعطف حول جسمه. ونظر إلى السماء فرأى آلاف النجوم وهي تومض. وتنشّق في الجوّ الصافي عبير الشتاء غبّ المطر. وعكست الأرض المغسولة لونًا سنجابيًّا لامعًا، غير أنّ هواء باردًا لفح وجهه في هبّات متقطّعة منعشة كالدعابات القاسية، وعاوده الإحساس بالغرابة فمضى يطمئن نفسه بمرتّب العامين الكامل ورصيده في البنك

المحصّل من العمد.

وفي جروبي جلس إلى عبد الحليم باشا شكري والشيخ عبد الستّار السلهوبي الذي كان يهمس بآخر نكتة. وسألاه عن الأخبار بطريقة آليّة، وانتظر أن يفاتحه الباشا بنتيجة مسعاه في إيجاد عمل له ولٰكنّ الشيخ السلهوبي سأله متهكّمًا:

ـ ألا تزال فرحًا بإلغاء المعاهدة؟

فأدرك أنّ الشيخ قد أصيب حقًّا بعقدة المعاهدة الملغاة التي يرجع إليها في جميع الأرزاء التي نزلت بهم، وقال عبد الحليم شكري:

ـ الأحداث تنقضّ على زملائنا كالصواعق!

ثمّ تساءل في قلق:

ـ هل يجيء دورنا؟!

وراح عيسى يحتسي الشاي وهو يرمق الوجوه الرائقة بحسن التغذية، وإذا بعبد الحليم شكري يميل نحوه قائلًا:

ـ كلّ آتٍ قريب!

فاشتعل باطنه بالغضب وقال لنفسه: ما من أحد منهم إلّا وقد قصده قديمًا في خدمة قُضيت فما بالهم يتنكّرون له؟!

وندّت عن حسناء ضحكة بارعة كلحن جنسيّ وهو يغادر المحلّ. وفي الطريق دهمته الآلام التي هصرته حال إغلاق التليفون في وجهه فكاد رغم البرد ينصهر. وهو الذي أحبّها دون أن تثبت جدارتها بحبّه لحظة واحدة. كلاهما قَبِلَ صاحبه أوّل الأمر لمزايا تهمّه لا علاقة لها بالحبّ ولٰكنّه أحبّها بعد ذٰلك بصدق، أمّا هي فما أسرع أن أغلقت التليفون. ولعلّه من حسن الحظّ أنّه تلقّى ضربة القلب وهو فريسة لضربة السياسة فلم تستأثر به وحدها. وجعل ضيقه بكلّ شيء يستفحل حتّى لم يترك في النفس متّسعًا لأيّ قيمة. كيف توهم نفسك بأنّك تريد عملًا كما توهم الآخرين؟! العمل هو آخر ما تريد. فليعلم ذٰلك جميع السكارى. وابغِ قبل ذٰلك عشرات الحماقات. واستمتع بنقاهة أطول من الموت. وليكن ما يكون.

ـ ١١ ـ

وجاء حسن ابن عمّه لزيارته. وقال عيسى إنّ الذي تُقبل عليه الدنيا لا يزور أحدًا أدبرت عنه فلماذا جاء؟ وتذكّر عمّه فثار باطنه وتوثّب للتحدّي، غير أنّه استقبله بترحاب كلّفه جهدًا جهيدًا. ومذ جمعهما المركز شعر برغبة في الاختفاء كمجرم ولٰكنّه أطلق من ذاته المكدودة مرحًا مسرحيًّا... وتبدّت حيويّة حسن في أوجها وجرت في ملامحه البارزة الحسنة دماء الثقة والنجاح. لم يعد الناقد الحاقد المغلوب على أمره وعمّا قليل سيجود بمكارم عطفه! وثمّة شعور باطنيّ أثار اهتمام الأمّ بالزيارة فكفّت عن غمغمة التسبيح لتسمع كلّ كلمة تقال. وسأل حسن ـ وهو يتمطّق أثر حسوة شاي ـ عن الحال، فأجاب عيسى بضحكة ولم يقل شيئًا فعاد الآخر يسأل مرّة أخرى فقال:

ـ ألا ترى أنّي أعيش كالأعيان؟

فقال بجدّ:

ـ آن لك أن تعمل...

ورمشت الأمّ في أمل وأمّنت على قوله بحرارة فاغتاظ عيسى من اندفاعها وتساءل في ارتياب عن سرّ الزيارة وأقسم ألّا يقبل الزواج من بنت عمّه ولو مات جوعًا، ثمّ قال بثقة زائفة:

ـ لو أردت العمل لوجدته...

فسأله الآخر برزانة أخويّة:

ـ ولِمَ لَمْ ترده؟

ـ لأنّي أريد راحة طويلة، زهاء عامين أو أكثر!

ـ أنت تمزح بلا شكّ؟

ـ بل لا أجد داعيًا للعجلة...

ثمّ بامتعاض شديد:

ـ وبخاصّة وأنّ الخطبة قد فسخت...

فنظر حسن إلى الشجرة الجامدة وراء زجاج النافذة ليتجنّب عيني صاحبه ولم ينبس فسأله عيسى باهتمام:

ـ هل علمت بالخبر؟

فقال بلهجة دلّت على أنّه يخوض الحديث مكرهًا:

ـ نعم في مقابلة عابرة مع عليّ بك...

ثمّ مستدركًا بلهجة انتقاديّة:

ـ موقف يدعو إلى الأسف الشديد!

فقال عيسى بحدّة:

ـ لقد أعطيته درسًا لا ينسى. . . !

ـ استنتجت هٰذا في اللقاء العابر رغم أنّه لم يشر إليه بكلمة، ولٰكن دعنا من ذٰلك فلعلّ الخير فيما اختار الله. . .

ثمّ حدجه بنظرة وديّة وقال:

ـ ثمّة مكان لك في شركة محترمة!

فأعرب عن تساؤله بتقطيبة طارئة فقال حسن:

ـ شركة جديدة للإنتاج والتوزيع السينمائيّ، وقد اخترت أنا نائبًا للمدير، ولٰكنّنا في حاجة إلى مدير حسابات كفء. . .

وهتفت الأمّ:

ـ فيك الخير كلّ الخير يا حسن. . .

وقال عيسى لنفسه: وضحت الصورة، موظّف تحت رياسته وزوج لأخته ودون ذٰلك فليأتِ الموت إذا شاء. وقال بوضوح:

ـ إنّي أهنّئك وأشكرك. . .

ثمّ وهو يبتسم كالآسف:

ـ ولٰكنّي أعتذر. . .

فارتسمت الخيبة في الوجه الفيّاض بالحيويّة وتساءل:

ـ ألا تفكّر في الأمر؟

ـ أكرّر الشكر والاعتذار. . .

وردّد بصره بينه وبين الأمّ الذاهلة وقال:

ـ إنّها وظيفة محترمة جدًّا. . .

ـ بدليل أنّك اخترتها لي ولٰكنّني مصمّم على القيام بإجازة طويلة. . .

فتريّث قليلًا ثمّ قال:

ـ ليست مجرّد وظيفة ولٰكنّها في الوقت نفسه فرصة للاندماج في الحياة الجديدة إذ إنّ الغرض من تكوين الشركة هو خدمة أغراض الدولة!

فقال بتصميم:

ـ الراحة الآن أهمّ من أيّ غرض في الحياة. . .

من موظّف صغير إلى نائب مدير شركة! واشتدّ جنون رغبته في الإضراب عن العمل، وتوطّد نزوعه نحو تدمير نفسه. ووقف حيال محاولات الآخر بكلّ عناد حتّى اضطرّ هٰذا إلى أن ينصرف دون نتيجة، مخلّفًا في نفس عيسى مسرّة عمياء وإحساسًا وهميًّا بالانتصار.

وتأوّهت الأمّ قائلة:

ـ أنا لا أفهم شيئًا. . .

فقال ساخرًا:

ـ ولا أنا. . .

فقالت بمرارة:

ـ أنت لا تحبّ ابن عمّك. . .

ـ ولا هو يحبّني!

ـ لكنّه في الوقت المناسب لم ينس أصله!

ـ لا لوجه الله.

فقالت بإصرار:

ـ ولو، بنت عمّك خير من سلوى، هل نسيت؟! ليتك تفكّر في الأمر.

فقال بغموض وبصره معلّق بالسحب المتراصّة في الأفق من خلال أغصان الشجرة:

ـ إنّي أفكّر حقًّا في هجر القاهرة. . .

ـ ١٢ ـ

وصارع التردّد أشهرًا. ويومًا قال لأمّه:

ـ إنّي أفكّر حقًّا في السفر إلى الإسكندريّة. . .

وكانت الأمّ تزداد اعتيادًا لغرابة أطواره كما تزداد ذبولًا ونحولًا، فقالت بهدوء:

ـ ولٰكنّ الصيف انتهى. . .

ـ أريد الإقامة لا التصييف. . .

فاختلج جفناها قلقًا فاستطرد قائلًا:

ـ أعني لفترة من الزمن. . .

ـ أودّ أن أقيم في مكان لا يعرفني فيه أحد ولا أعرف فيه أحدًا.

فقالت في امتعاض شديد:

ـ حالك لا يعجبني، والإنسان يجب أن يواجه الصعوبات بصورة أخرى، وما زالت أمامك فرصة لم تَضِعْ عند ابن عمّك. . .

وعندما وجدت منه إصرارًا استعانت بأخواته الثلاث فسارعن إلى الدقّي. وهنّ جميعًا متزوّجات

ويحملن في وجوههنّ طابع الأسرة الممثّل في هيئة الوجه المثلّثة والأعين المستديرة وجميعهنّ يكننّ لعيسى حبًّا صادقًا لا لأنّه كان شخصيّة لامعة يعتززن بها فحسب ولكن أيضًا لأنّه صاحب الفضل الأوّل على أزواجهنّ في العلاوات والترقيات على عهد نفوذه. وأجمعن على المعارضة في سفره كما أجمعن على وجوب الموافقة على اقتراح ابن عمّه.

ـ ما معنى أن تقيم في بلد كالغريب؟

ـ ألا يكفي أن أجد في ذٰلك راحة؟

ـ ومستقبلك؟

فقال بحدّة:

ـ مستقبلي أصبح ماضيًا!

ـ بل أمامك فرصة لاستعادة كلّ ما فقدته!

ورفع يده يدعوهنّ إلى الكفّ بحركة حاسمة، ثمّ قال بهدوء:

ـ لا جدوى من هٰذا الكلام المعاد، المهمّ والجديد هو أنّني قرّرت الانتقال من هٰذا المسكن!

وبهتت الأمّ حزنًا فقال كالمعتذر:

ـ لم يعد من الحكمة أن أتحمّل نفقاته الباهظة...

ـ ألهٰذا علاقة برغبتك في السفر؟

فقال متجهّمًا:

ـ كلّا، إنّي أعتبر السفر علاجًا ضروريًّا...

فقالت الأمّ في توسّل:

ـ لا تشمت أعداءك بك، يمكنك ولا شكّ الاحتفاظ بمسكنك الجميل وكلّ مظاهر حياتك إذا أنت وافقت على ما عرضه عليك ابن عمّك...

فأغمض جفنيه دون كلام رافضًا الاستمرار في مناقشة عقيمة فقالت الأمّ بمرارة:

ـ أنت ابني وأنا أعرفك، أنت عنيد جدًّا، ودائمًا كنت عنيدًا، أنت تختار الكبرياء ولو كلّفك الكثير، ولم تكن تجد بعنادك عندنا إلّا المحبّة والتسامح ولٰكنّ الدنيا ليست أمّك ولا أخواتك!

فقال بإصرار وهو يهزّ منكبيه استهانة:

ـ سأفترض أنّني لم أسمع شيئًا...

فقالت بمزيد من التوسّل:

ـ يجب أن تمتثل أمر ربّنا ـ الملك ملكه يفعل به ما يشاء، والمستقبل بيده، وتستطيع أن تكون سعيدًا دون أن تكون وكيل وزارة أو وزيرًا...

حوّل عينيه إلى أخواته متسائلًا:

ـ أين يحسن أن تقيم الوالدة حتّى أرجع؟

وعدلن عن المناقشة، واقترحت كلّ واحدة منهنّ أن تقيم الأمّ عندها، ولٰكنّ الأمّ قالت:

ـ سأرجع إلى البيت القديم بالوايليّة.

وهتفت وهيبة وهي أبرّهنّ بأمّها:

ـ لن تقيمي وحدك أبدًا...

ـ أمّ شلبي لن تفارقني وآمل ألّا تنقطعن عن زيارتي...

وتذكّر عيسى البيت القديم الذي شهد مولدهم جميعًا. وبخاصّة حوشه الواسع وأرضه الرمليّة القاحلة. ولم يدر كيف يعرب عن استيائه ولٰكنّه سأل أمّه:

ـ أليس الأوفق أن تقيمي عند إحدى أخواتي؟

فقالت بعصبيّة:

ـ كلّا. أنا أيضًا عنيدة، ومن خير الجميع أن أعيش في البيت القديم.

وأكّدت كلّ أخت من بناتها أنّها ستسعد بإقامتها عندها ولٰكنّها لم تبالهنّ. وامتلأ إحساس عيسى بالمسكن الجميل الذي قال فيه كلمته الأخيرة. ونظر إلى الأشجار خارج الشرفة وهي تهتزّ في رقّة بالغة في إطار من جوّ الخريف الأبيض الموحي بالشجن وقال لنفسه «ألا لعنة الله على التاريخ».

وإذا بوهيبة تقول:

ـ البيت القديم غير صالح للسكنى لمن اعتاد الإقامة هنا!

وخيّل إلى عيسى وهو يرى خلجات جفنَي أمّه وشفتيها أنّها ستبكي ولٰكنّها قالت بصوت متهدّج:

ـ هو صالح تمامًا وفيه وُلدنا جميعًا...

ـ ١٣ ـ

جميع ما يحيط بنا يَعِدُ براحة كالموت. ومَن أضناه الألم خليق بأن يرحّب بالمُسكِّن وإن يكن سمًّا. وهٰذه الشقّة الصغيرة المفروشة دليل على أنّ الحضارة لا تخلو

أحيانًا من نقطة رحمة. وها هو البحر يترامى في عظمة كونيّة حتّى يغوص في الأفق ولٰكنّه يستمدّ من حلم أكتوبر حكمة ودماثة. وجدران الحجرات محلّاة بصورة الأسرة اليونانيّة صاحبة الشقّة وكلّما نظرت إلى الخارج رأيت الوجوه اليونانيّة في الشرفات والنوافذ وعلى قارعة الطريق، غريبًا في موطن غرباء، وتلك مزيّنة الإبراهيميّة، والمقهى المرصّع طواره بالأشجار وسوق الخضار بألوانه النضرة والحوانيت الأنيقة تحفل بالوجوه اليونانيّة وتتردّد في جنباتها ـ بعد زوال الموسم ـ لغتهم الأجنبيّة فخيّل إليك أنّك هاجرت حقًّا وتنهل من الغربة حتّى تسكر. وهٰؤلاء الأجانب الذين طالما أسأت بهم الظنّ أنت اليوم تحبّهم أكثر من مواطنيك وتلتمس عندهم العزاء، إذ إنّ جميعكم غرباء في بلد غريب. واختيار شقّة في الدور الثامن دليل آخر على الرغبة في الإمعان في السفر. وعن بُعْد ترى البحر من فوق قطاعات متلاحقة من الأبنية المنخفضة تمتدّ حتّى الكورنيش. ترى البحر وقد سحره أكتوبر فأخلد إلى أحلام اليقظة وترى أيضًا أسراب السمّان تتهاوى إلى مصير محتوم عقب رحلة شاقّة مليئة بالبطولة الخياليّة. القاهرة الآن ذكرى مغلّفة بالحزن. والوحدة تجربة مرّة ولٰكنّها ضروريّة لتجنّب النظر إلى الوجوه المثيرة للقلق والأرق... ومعالم المجد المحرّضة على الحسرة. جَرِّبِ الوحدة ورفقاء الوحدة ـ الراديو والكتاب والأحلام ـ وانظر هل يمكن أن تنسى لغة الكلام؟ وتتتابع اللحظات بلا ضابط يضبطها فأنت لا تعرف الوقت ولا تكاد تعرف اليوم ولذٰلك ترفع بصرك في دهشة نحو قرص الشمس الماسيّ الهادئ كما يبدو خلف سحب الخريف الصريحة. وها هي الحياة تغازلك رغم الكمد وكأنّك ترى الدنيا والناس لأوّل مرّة بعد أن أفقت من حمّى العراك والمطامع. وقيمتها الذاتيّة تتكشّف معلنة عن بهجة الإبداع ولم يكن مسير الشمس قبل ذٰلك إلّا بشيرًا بتقديم مذكّرة أو نذير بمقابلة السفير... وقد دفنتنا الأحداث ونحن أحياء وما هٰذه الآلام في الحقيقة إلّا أضغاث أحلام تحترق في رأس ميت عفن، أمّا في هٰذه الشقّة اليونانيّة فثمّة وحدة حقيقيّة وقلب نابض. وركن البوديجا لا يسلّي عنه القلب ولٰكن ما أقبح عواطفه المتناقضة فأنا أحبّها ـ عبّاس صديق وإبراهيم خيرت ـ وأبغضهما في آن، أحبّ جانبهما الذي عاش قبل الثورة وأكره وسائلهما التي عاشا بها بعد الثورة، وعندي الآن فرصة لتصفية هٰذه العقد الصفراء، والهموم كالجبال والعقل علاه الصدأ ولٰكنّ سبيل العزاء المحفوف بالحماقات ممهّد أمام مالك الحرام وأحلام يقظتك التي ينتهي فيها العذاب بالانتصار. ونظرة من عل إلى هٰذا الخلاء الذي لا يُحَدّ تهب النفس راحة ورفعة فوق كلّ شيء. ولِمَ يا ربّي لا تلهمنا ومضة عن معنى هٰذه الرحلة الشاقّة المخضّبة بالدماء؟ ولِمَ لا ينطبق هٰذا البحر الذي شهد الصراع منذ الأبديّة؟! ولِمَ تأكل هٰذه الأرض الأمّ أبناءها عند السماء؟ وكيف يكون للحجر دور في المسرحيّة، وللحشرة دور، وللمحكوم عليه في الجبل دور، وأنا لا دور لي؟

ومضى ذات صباح إلى جليم تلبية لرسالة تلقّاها من سمير عبد الباقي، لم يكن رآه منذ انتقاله إلى الإسكندريّة في منتصف سبتمبر ولم يكن رأى كازينو الفردوس منذ صيف ١٩٥١. وكان الساحل خاليًا والكازينو شبه خالٍ كحاله في الأيّام الأخيرة من أكتوبر. على عهد النفوذ كان يذهب إلى الفردوس في مجال من الخيلاء ترمقه الأعين باهتمام فيشقّ طريقه إلى مائدته المحجوزة بين أصدقاء وأعداء من الباشوات في تلك الدنيا الزائلة. والحفل الذي أقيم في الفردوس منذ عامين هل يمكن أن ينسى؟ الصوت الملائكيّ والبهجة الشاملة والهتافات المدوّية، ومجيئه هو في ركاب الزفّة ليشرب ويطرب ويسهر ولم يكن يرى على مدى الآفاق إلّا آمالًا واعدة بالفوز المبين.

وجلس بمجلسه القديم على يمين المدخل الجوّانيّ بين مقاعد شاغرة. وعلى مائدة متفرّقة بضعة من معمّري الباشوات الذين يستميتون في التصييف حتّى اللحظة الأخيرة، وثمّة امرأتان وحيدتان، عجوز وأخرى في منتصف العمر، وأحاط بالمكان سكون رهيب. واسترق إلى العجوز نظرة وقال لنفسه إنّ سلوى ستلقى نفس المصير في يوم من الأيّام. كالمجد والعزّة وشتّى الآمال. وأُعجب بانبساط الماء ودماثته وزرقته

الصافية كما أعجب بالسحب الحبالى بماء الورد الأبيض. وجاء سمير عبد الباقي في ميعاده فتعانقا بحرارة. وبدا سمير ناحلًا أكثر ممّا تركه ولكنّه أحسن صحّة وأصفى عينًا. وقال:

ـ جئت أنا وزوجتي لتعود أمّها وسنسافر غدًا...

فسأله عن ركن البوديجا فأجاب بأنّه لا جديد، ثمّ قال:

ـ أمّا أنا فبعت نصيبي في بيت قديم وشاركت خالي وهو تاجر أثاث، أنا في الواقع مدير أعماله وحساباته وشريك صغير له...

فهنّأه عيسى، وأخبره بأنّه لا رغبة له في العمل في الآونة الحاضرة، ونظر سمير فيما حوله في دهشة ثمّ قال:

ـ انظر إلى الإسكندريّة كم هي خياليّة!

ـ الدنيا كلّها خياليّة، ما هٰذا بيمينك؟

فناوله كتابًا قرأ على غلافه «الرسالة القشيريّة» ثمّ حدجه بنظرة متسائلة فقال سمير:

ـ ألم تسمع عن التصوّف؟

فضحك ضحكة مختزلة وقال:

ـ لم أعرف فيك اهتمامًا به من قبل!

ـ هٰذا صحيح ولكنّي سمعت أحمد باشا زهران وهو يتحدّث عنه بجدّيّة حقيقيّة، وقد أهداني في مناسبات مختلفة بعض الكتب عن الموضوع فوجدتني أبحث عنها في الأيّام الأخيرة...

وقال عيسى ووجهه لم يتخلّص بعد من ذيول ضحكته:

ـ وهل أنت جادّ فيه أو المسألة مجرّد تسلية؟!

فقال وهو يفرغ زجاجة الكوكاكولا في الكوب:

ـ أكثر من تسلية، فيه راحة حقيقيّة للقلب.

ثمّ بعد شربة أتت على نصف الكوب:

ـ وكونك لا تبحث عنه إلّا تحت ضغط ظروف معيّنة لا يجحد فضله فقد لا نذهب إلى أسوان شتاء إلّا لمعالجة مرض ولكنّ هٰذا لا يطعن في فائدة أسوان للمريض والصحيح على السواء...

فقال عيسى ساخرًا:

ـ ولٰكن يوجد ولا شكّ فارق بين أن نتصوّف حيال أزمة سياسيّة وبين أن نتصوّف لوجه الله والدنيا مقبلة علينا.

فابتسم سمير في صبر وتجلّت شفافية عينيه الخضراوين أصفى من السحب الناصعة البياض وقال:

ـ نعم ثمّة فارق ولٰكنّ العبرة بالنتيجة، وأحيانًا تدهمنا كارثة لتهدينا سواء السبيل!

ـ ولٰكنْ هَبِ الدنيا...

وانقطع عن الحديث فجأة ـ كأنّه عثر في الصمت ـ بسبب نظرة طويلة تبودلت بينه وبين المرأة النصف المصاحبة للعجوز، ثمّ رجع إلى صاحبه وقال لنفسه: لو سارت الأمور كما يشتهي لكانت سلوى زوجة له منذ عام على الأقلّ. لو؟! وسأل سمير:

ـ ما رأي التصوّف في حرف «لو»؟!

ولم يدرك سمير مرماه فأجاب هو:

ـ «لو» حرف لوعة يطمح بحماقة إلى توهّم القدرة على تغيير التاريخ.

فقال سمير ببساطة:

ـ من هٰذه الناحية فهو إنكار لإرادة الله المتجلّية في التاريخ من شأنه أن يضفي عليه عبثًا ولا معقوليّة...

سلوى لم تتزحزح من قلبك. رغم احتقارك لشخصيّتها. وقد يقرّر العقل مواصفات للمرأة المثاليّة ولٰكنّ الحبّ في صميمه سلوك لا معقول. كالموت وكالقدر وكالحظّ. وما أشبه سلوى بالدنيا في المعاملة، ولٰكنّك ستظلّ في حاجة إلى امرأة فهي مسكّن طيّب للآلام يفوق التصوّف على الأرجح. وتذكّر السؤال الذي قطعه فقال بنغمة اعتذار:

ـ هَبِ الدنيا وعدتنا مرّة أخرى بالوزارة فماذا تصنع بالتصوّف؟

فضحك سمير حتّى لمعت أسنانه النضيدة وقال:

ـ غير مستعصٍ أن أمارس الاثنين معًا، هٰكذا فعل أحمد باشا زهران أكثر من مرّة، وها أنا أجمع بين التصوّف والتجارة، وهو لا يُخمد النشاط ولٰكنّه ينقّيه من الشوائب...!

فقال عيسى بحزن:

ـ وهو على أيّ حال خير من الانتحار!

وأشرقت الشمس مقدار ثوانٍ ثمّ توارت. وسأله سمير عمّا ينوي أن يفعل فسأله بدوره:

- هل انتهينا حقًّا؟

فهزّ رأسه في حيرة قائلًا:

- هو الأرجح فليس الأمر كالانقلابات الماضية...

فسكت عيسى مليًّا كأنّما يصغي إلى الصمت الشامل ثمّ قال:

- ما أشبهنا بساحل الإسكندريّة في الخريف!

- لذلك أقول لك إنّه لا بدّ أن نعمل...

- ومع أيّ عمل سنتّخذه سنظلّ بلا عمل، لأنّنا بلا دور، وهذا سرّ إحساسنا بالنفي، كالزائدة الدوديّة...

ثمّ وهو يبتسم:

- ولا أخفي عليك أنّ لي تصوّفي الذي يشاغلني في الوحدة.

فتطلّع إليه باهتمام فقال الآخر ببساطة:

- إنّي أفكّر في احتراف الجريمة...

فضحك سمير طويلًا ثمّ قال:

- يا له من تصوّف بديع!

- غير أنّك لا تقتل فيه جسدك أنت ولكن أجساد الآخرين.

- أقترح عليك أن تنتقي نوعًا من الجرائم الجنسيّة...

وضحكا معًا حتّى قال سمير:

- نحمد الله فلا زالت لدينا القدرة على الضحك...

- وسنزداد ضحكًا كلّما رأينا التاريخ وهو يصنع لنا دون أن نشارك فيه كأنّنا الأغوات...

وهبّت نسمة لطيفة، وبدا الباشوات كالنيام ولغير ما سبب تذكّر أوّل خطبة له في بيت الأمّة وهو طالب بالجامعة. قال بأسى:

- تاريخنا نفسه مهدّد بالإبادة...

- التاريخ واسع الصدر، وسيدافع عن نفسه بعد انقراض المتخاصمين جميعًا...

ومرّ بهما مدير المحلّ الروميّ فابتسم إلى عيسى وسأله عن الصحّة وعن الحال فأدرك من توّه المغزى السياسيّ لسؤاله وقال باسمًا:

- هي كما ترى...

وعندما رجع إلى عمارته الشاهقة الارتفاع القريبة من محطّة الترام كان يجترّ حزنًا على فراق سمير. ولعن وهو يخوض عتمة المدخل الطويل سلوى. وقال لنفسه وهو يدخل إلى المصعد: «ما أحوجني إلى مُسكّن!».

- ١٤ -

وحده مع كأسه في الطرقة الشاحبة الضوء التي تصل بين معرض الحلوى في الخارج وصالة الرقص في الداخل بالتريانون الصغير. وعشرات من الآلات العازفة تبعث بالأنغام الراقصة والأجساد المتعانقة تتراقص في حركات خفيفة رشيقة تنفضّ بها عن ذواتها متاعب ضوء الشمس. وهؤلاء الحسان ينسبن إلى بيوت لا إلى الشوارع كما كان الحال قبل الحرب وفي أثنائها وقد أدرك هو جانبًا من ذلك التاريخ على عهدَي مراهقته وشبابه. أمّا النسوة فقد أثرين في زمان الحرب وترفّعن عن العرض الرخيص فاختفين من الميدان، وقال عيسى لنفسه «الميدان خالٍ اليوم لمن يروم عملًا سهلًا مريحًا من منبوذي السياسة!». وهزّته نغمة فتاق إلى الرقص الذي يجيده بدرجة لا بأس بها ولكن أين الحسناء؟ ونهل من الكونياك الذي يحبّه باعتدال، وشعر بأنّه في مخبإ فازداد طمأنينة وقال إنّ مدّخره من مال العمد سيمدّه بالضروريّ لارتكاب الحماقات الفاتنة، وقال أيضًا إنّه لولا إحساسنا المرضيّ بالمستقبل لما أزعجنا شيء! ولكنّه لم ينعم بوحدته في المخبإ طويلًا إذ ما لبث أن اقتحمه صوت مباغت قائلًا:

- ما رأيك في الدنيا؟

ارتعد لوقع المباغتة وأجال عينيه في الطرقة المقوّسة فلم ير أثرًا لإنسان. الصوت صوت كهل مخمور يغلي في درجة الهذيان ولكن أين هو؟! وإذا بالصوت يقول ضاحكًا:

- هل جرّبت الشرب في الظلام؟

ثمّة شجرة متوسّطة - طبيعيّة أو صناعيّة - في أصيص ضخم عند نهاية قوس الطرقة المفضي إلى محلّ الحلوى، وكان المحلّ فيما يلي الشجرة غارقًا في الظلمة

إذ يغلق أبوابه حوالى الثامنة مساء. واستنتج أنّ الرجل كان يجلس في الطرقة، ولسبب ما تزحزح بمقعده إلى الظلام حيث يمارس مزاحه السخيف. وأهمله وهو يلعنه في سرّه ولكنّ الآخر عاد يسأل دون أن يظهر في منطقة الضوء الخافت:

- هل جرّبت الشرب في الظلام؟

فتجنّب محادثته لعلّه يسكت ولكنّه قال:

- الشرب في الظلام يهبك قدرة على التركيز وهذا هو السبب في أنّني أفكّر في حال الدنيا، فهل هي سائرة حقًّا إلى الخراب؟

راح يشاهد الرقص - ولو بنصف انتباه - ويعجب بالوجوه والصدور والبشرات الورديّة، ولكنّ السكران لم يعتقه فقال:

- السؤال يهمّني حقًّا، فإذا كانت سائرة إلى الخراب فأنا أشرب الكونياك أمّا إن كان ثمّة أمل في النجاة فإنّي أفضّل الويسكي. وإن أكن في الحالتين أهلك نفسي لأنّي مصاب بثلاثة أمراض جليلة الشأن، ألا وهي الضغط والكبد والبواسير.

وعلى رغمه ابتسم. النشوة حلوة على أيّ حال. أمّا ما انقضّ على رءوس رجالنا من محن فأمر محزن حتّى الموت. وكأنّك تتلقّى على يافوخك أنقاض العالم القديم الذي يتقوّض. والأدهى من كلّ شيء أنّك وإن كرهت العهد الجديد بقلبك فإنّك لا تستطيع أن ترفضه بعقلك. لا أنت ولا مدّخرك من مال العمد!

- وليس الخراب بالشيء الجديد على العالم فإن يكن مكتوبًا على الجبين فمن الخير أن يعجّل...

فسأله وهو لا يدري تقريبًا:

- ولم تريده على أن يعجّل؟

فضحك ضحكة مقرقرة وقال:

- لأنّ خير البرّ عاجله...

ورثى عيسى إلى ضحايا التاريخ من قلب متأوّه، وأفرغ الشيالة ثمّ غادر المحلّ. وسار على مهل في شارع سعد زغلول، أحبّ شوارع الإسكندريّة إلى نفسه وبخاصّة بعد الثورة، إنّه شارعه الخاصّ على وجه ما، ويحبّ كثيرًا أن يقطعه ولو مرّة كلّ يوم جيئة وذهابًا، ليناجي فيض الذكريات. واقترب الوقت من نصف الليل وشاعت في الجوّ برودة رقيقة منعشة وبدا المجال كلّه ملفّعًا بالهجران. وألقى نظرة إلى ظهر التمثال المحدّق في البحر وطوّح برأسه إلى الوراء على طريقة الباشا الذي حلا له قديمًا محاكاته. واستقلّ الترام إلى الإبراهيميّة ثمّ ذهب إلى الكورنيش ليسلّي أعصابه بالمشي الوئيد. ووافقت ملاحة الجوّ خيال رأسه الدائر بالشراب، وومضت النجوم في الثغرات الواسعة بين السحاب، واستكان البحر كالنائم تحت الظلام. وعلى البعد امتدّ سياج من الأضواء الثابتة فوق مراكب الصيد، وخلا الطريق من الأحياء فعادت تلحّ صورة الهجران. وجلس على أريكة حجريّة ينعم بالصمت والحنان. إنّه لا يعود إلى مسكنه الخالي حتّى يقنعه النعاس. ومنذ قدومه إلى الإسكندريّة وهو يعيش غير خاضع لإنسان أو لعادة ولكنّه يطيع مطالب شخصه الطبيعيّة في حرّيّة مطلقة، فينام إذا حلّ سلطان النوم ويستيقظ إذا ملّ الرقاد، ويأكل عند الجوع ويخرج لدى الملل، هذه الحرّيّة التي لم ينعم بها من قبل. وشعر بشيء يلفت رأسه إلى اليسار. كان إغراء يراسل حاسّة أو أكثر من حواسّه. رأى شبحًا يتّجه من بعيد نحو مجلسه، وعندما اقتربت من ضوء المصباح العملاق وضحت معالمه، فتاة من بنات الليل. الفستان الكستور الرخيص والنظرة المقتحمة بلا أدنى تحفّظ أو كبرياء والانفراد المريب بالليل كلّ أولئك يقطع بأنّها من بنات الكورنيش. وتفحّصها وهي تمرّ أمامه في الممشى الضيّق الفاصل بين الأريكة وسور الكورنيش فوضح له شبابها ووسامة لا بأس بها في عارضها وابتذال نظراتها وجوّ التأهّب لتلبية الإشارة الذي يغلّفها كأنّها كلب مهجور يلتمس عابرًا ليتبعه. سارت حتّى بلغت الأريكة التالية ثمّ جلست عليها مسدّدة الوجه ناحيته. أتعس بنات الهوى درجة ولكن ما أشدّ انطواء الإسكندريّة على نفسها في غير أيّام المصيف حتّى لتبدو مغلقة الأبواب في وجه الغريب. وانبعث من أعماقه تأفّف ولكن في نبضة رغبة جنونيّة. من المحقّق أنّ الأستاذ مدير مكتب الوزير المتطلّع إلى الوزارة قد مات ولم يبق في هذه اللحظة إلّا ثمل منغرز في الوحدة والظلام تزحف غرائزه في الظلام كالحشرات

الليليّة وكأنّ دفعة قويّة نحو التمرّغ في التراب تنفخ في محرّكاته، ولوّح لها بذراعه كأقصى ما يمكن أن يجود في مغازلتها، ولوّح لها مرّة أخرى فقامت من مجلسها وجعلت تقترب منه حتّى توقّفت على بعد ذراع فأشار لها بالجلوس فجلست وهي تضحك ضحكة خافتة جدًّا كخرير الموج الهامس أسفل الكورنيش. تفرّس في وجهها فهالته طفولتها وسألها في دهشة:

ـ كم عمرك؟

فضحكت ولم تجب فأعاد السؤال باهتمام فقالت:

ـ خمّن.

ـ لعلّك في الخامسة عشرة!

قالت في مباهاة:

ـ لا، لست قاصرة على أيّ حال فاطمئنّ...

مائلة للبياض مستديرة الوجه ممتلئة الوجنتين ذات جسم صغير ممتلئ مقصوصة الشعر كغلام، ولم تكفّ عن العبث بأظافرها التي بهتت صبغتها:

ـ من أين أنت آتية في هٰذه الساعة؟

فأشارت إلى الوراء بميل قائلة:

ـ من القهوة.

لاحت القهوة لعينه بابًا مضاء يكتنفه الظلام والصمت فقال:

ـ لم أرها في سيري!

ـ يراها عادة من يقصدها.

ثمّ وهي تضحك:

ـ سيجارة؟

وأشعلا سيجارتين، ولم يجد شيئًا يقوله فهمس:

ـ بنا...

وسارا جنبًا إلى جنب في الطريق المتفرّع عن الكورنيش وتأبّطت ذراعه فعبس في الظلام. وتذكّر سلوى فاستفحلت عبوسته، وقال لنفسه «فليحتكموا إلى انتخابات حرّة إن كانوا صادقين!».

ـ ١٥ ـ

استيقظ حوالى الظهر فنظر إلى النائمة إلى جانبه باستغراب ثمّ سرعان ما أطبقت عليه ذكريات الليلة الماضية، وقال إنّه ما دام هنالك نسيان وعادة فكلّ شيء ممكن. وتفحّصها وهي شبه عارية بنظرة باردة وقلب خامد وازدراء لكلّ شيء. شفتاها ممتلئتان ومنفرجتان عن أسنان دقيقة مرسومة بعناية. وقد مال رأسها إلى كتفها الأيمن وفضح النوم حقيقة شعرها فبرز جفافه وخشونته وتمرّده. ومن التناقض الغريب حقًّا أن جمع كائنها بين أهداب مسترسلة فاتنة وبين كعبين متشقّقين كضفدعتين، وتزحزح إلى الأرض ثمّ ذهب إلى الحمّام ولدى عودته وجدها جالسة في الفراش وهي تتثاءب ثمّ رفعت إليه عينين ثقيلتين جميلتين فعزم على أن يتخلّص منها في أقرب فرصة، فقال:

ـ عندي ميعاد ويجب أن أذهب.

فحدجته بنظرة متردّدة ثمّ غادرت الغرفة. وفتح باب الشرفة فتدفّق هواء قويّ ولكنّه لطيف مشبع برائحة البحر ودفء الشمس الساطعة في كبد السماء. وراح يرتدي ملابسه وهو يرنو إلى البحر الذي دبّت فيه حركة مليئة بالاندفاع وانتشرت على مدى سطحه خطوط الرغاوى كأفواه ضاحكة. وطال الوقت وهي في الحمّام ـ كما ظنّ ـ فخرج إلى الصالة ليفتح الراديو فوجدها عاكفة على تنظيف البيت وترتيبه بهمّة عالية، فقال لها:

ـ أشكرك ولٰكن دعي هٰذا للبوّاب لأنّه آن لي أن أذهب...

فقالت ويداها لا تمسكان عن العمل:

ـ تفضّل...

ـ ولٰكن... متى ترتدين ملابسك؟

فجلست على مقعد كبير في الصالة وابتسمت.

ـ أنت كسلانة ولٰكن عندي موعد!

فسألته برقّة:

ـ أتقيم وحدك؟

ـ نعم... ولٰكن هيّا بنا!

فراحت تمشط شعرها وتقول بحياء حقيقيّ لأوّل مرّة:

ـ قلت لنفسي ربّما كان في حاجة إلى أنس وخدمة...

فقال بدهشة:

ـ شكرًا، لست في حاجة إلى شيء من هٰذا، أليس

لك بيت؟

ـ كلّا.

ـ أين كنت تعيشين؟

فقالت بهوان:

ـ عند صاحبة القهوة أحيانًا، وأحيانًا أبيت في القهوة!

ـ لكنّك تكسبين بلا شكّ...

ـ لا نجد عملًا في الشتاء وكان الصيف الماضي كالشتاء!

فقال بضجر:

ـ على أيّ حال ستجدين حلًّا في الخارج...

فوقفت في إذعان وقالت بصوت منخفض:

ـ لم أدّخر شيئًا للشتاء، وأنت في حاجة إلى خدمة!

وأتى إلحاحها بنتيجة عكسيّة فازداد عنادًا، غير أنّه سألها:

ـ لِمَ لا تهاجرين شتاء إلى القاهرة؟

فرمقته بنظرة دهشة كأنّ الفكرة ليست ممّا يخطر بالبال ببساطة:

ـ أنا من هنا...

ـ أليس لك أهل؟

ـ طبعًا ولكن لا يمكن الرجوع إليهم!

ـ ألا تخشين أن يراك أحد منهم؟

ـ هم في طنطا، أنا في الأصل من طنطا...

فقال في ضجر وكأنّما قد ندم على الاسترسال في الحديث:

ـ من فضلك، وقتي ضيّق...

ومضت إلى الحجرة لترتدي ملابسها. وقال لنفسه إنّ ثمّة أوجه شبه تجمع بينه وبين هذه البنت فكلاهما ملوّث وطريد. أمّا هي فقد تولّاها حال عبث لدى يأسها من استعطافه فنظرت إلى صورة للأسرة اليونانيّة بالجدار وسألته:

ـ عائلة حضرتك؟

فابتسم على رغمه وقال:

ـ أرأيت أنّك شيطانة؟!

فضحكت أكثر من المنتظر ثمّ سألته جادّة:

ـ من الإسكندريّة؟

ـ كلّا...

ـ إذن فأنت موظّف هنا؟!

ـ تقريبًا...

ـ تقريبًا؟!

فهتف بها:

ـ أنت وكيلة نيابة... هيّا...

وطلبت أجرتها فأعطاها وكانت دون ما قدّر بكثير فرَقّ لها لأوّل مرّة منذ استيقاظه. وغادرا الشقّة معًا ثمّ افترقا عند مدخل العمارة. وقصد من توّه مطعمًا ليشبع جوعه.

ودخل أوّل سينما صادفته ليمضي الفترة ما بين الثالثة والسادسة، ثمّ جلس في التريانون الكبير يشرب القهوة ويطالع جريدة المساء، وحوالى التاسعة مضى إلى مجلسه المعتم بطرقة التريانون الصغير. استمع إلى الموسيقى وتسلّى بمشاهدة الراقصينَ وشرب من الكونياك حتّى انتشى. وفي لحظة ما تمنّى لو يرتفع صوت رجل الأمس من وراء الشجر ليسبّ الدنيا. وقال مخاطبًا سمير عبد الباقي:

ـ أنا أيضًا طالب تصوُّف لا أنت وحدك...

وابتسم في رثاء. ثمّ قال مخاطبًا نفسه:

ـ لا تفكّر في المستقبل...

ـ أجل أنت ما زلت في شهر العسل ويلزمك فراغ طويل عريض.

ـ ولا تحزن لتفاهتك فهي تفاهة تاريخيّة...

وقبيل منتصف الليل بقليل غادر المحلّ. وهو يقترب من مدخل العمارة رأى البنت جالسة في القهوة اليونانيّة على أقرب كرسيّ من مدخل العمارة فحدّق في وجهها المبتسم في ترحيب بدهشة. ونهضت بخفّة لتلقاه أمام المدخل فتوقّف في حيرة فقالت في مرح:

ـ لم تتأخّر عن ميعادك!

وسبقته إلى الداخل فتردّد لحظة ثمّ تبعها متسائلًا:

ـ ماذا تفعلين؟

فقالت وهي تتأبّط ذراعه:

ـ كنت أنتظرك... وقلت لنفسي سيكون من حسن حظّي إذا جاء وحيدًا...

ورغم إدراكه القاسي للموقف ارتاح لتملّقها، وفي

المصعد سألها:

ـ ما اسمك؟

ـ ريري...

ضاحكًا:

ـ يبدو أنّه اسم طنطاويّ قحّ!

ـ هو كذلك في الإسكندريّة...

ثمّ بعد صمت قصير:

ـ قلبي يحدّثني بأنّك ستقبلني في ضيافتك...

ـ ١٦ ـ

وسمح لها بالإقامة في شقّته كما تمنّت. وأفهمها منذ اللحظة الأولى أنّه رجل حرّ وأنّ عليها أن تلتزم حدودها حتّى لو جاء كلّ ليلة بامرأة. وقالت له سمعًا وطاعة. ولم ينكر بعد ذلك أنّها أكسبت الشقّة أنسًا ونظافة وأطلقت في جوّها البارد أنفاسًا حارّة. وأنّها تبدّت في الثياب الجديدة التي ابتاعها لها مقبولة حقًّا. وبالغت دائمًا في العناية بمظهرها. ولعبت دورها بلباقة، وهو دور فوق مرتبة الخادمة ودون مرتبة السيّدة وتجنّبت أن تثقل عليه بأيّة صورة من الصور. وكانت تشاركه الطعام والتدخين والشراب ولم تطالبه فوق ذلك بمليم. ولم يشجّعها على التودّد العاطفيّ إليه ولا على استعمال التعبيرات العذبة وقال لها:

ـ أنا رجل سيّئ الظنّ بكلّ شيء، هكذا أصبحت، فاحذري أن تذكّريني بالكذب.

وعندما استحكم الشتاء وأمسى الجوّ كالغيب لا أمان له اضطرّ إلى قضاء الليالي الطوال معها في الشقّة يستمعان إلى الراديو، أو ينفرد هو بضع ساعات بالقراءة أو يريح النفس المكدودة بأحاديثها التافهة. وأسوأ ما يمرّ به معها أن تدهمه أحيانًا كمركز للهوان الذي تدهور إليه في الحياة وعند ذاك يتجنّبها ويتوثّب للإساءة إليها عند أوّل فرصة. وعند الإساءة ينقبض وجهها المستدير الممتلئ فيلحظ خفية الجهد الذي تبذله لشكم غضبها والتنفيس عن استعدادها العدوانيّ المكبوت المكتسَب من حياة الأرصفة بمعركة باطنيّة تفتضح آثارها في خدّيها وشفتيها ونظرتها وانقلاب سحنتها. ورغم أنّها كانت أمّيّة إلّا أنّها كانت على ثقافة في عالمي السينما والراديو فهي تحفظ أسماء وصور النجوم والكواكب كما تعرف الأفلام والأغاني والبرامج ولا تشبع من أحاديثها. وسألته:

ـ ألا تراني صالحة للسينما؟

فأجابها بأنّه لا خبرة له في هذا الميدان. وعجب للغرور البشريّ الذي يفوق قوّة الذرّة. وقصّت قصصًا عن نجوم وكواكب لا يدري من أين جاءتها لتثبت له أنّها جديرة بالأضواء وأنّ المسألة مسألة حظّ لا أكثر ولا أقلّ! وقال لها ضاحكًا:

ـ كان ينبغي أن تبحثي عن شقّة منتج أو مخرج لكي تشاركيه فيها!

ولأنّ ليل الشتاء طويل، ولأنّه يأبى أن ينام قبل الفجر. فقد علّمته ألوانًا من لعب الورق، وقامرته كثيرًا وربحت منه بعض النقود، وهي النقود الوحيدة التي استقرّت في جيبها منه، وخطر له أن يسأل نفسه مرّة ماذا تعرف البنت عن السياسة ـ السياسة التي ازدردته بطلًا ولفظته جثّة ـ فسألها عن أسماء وأحداث ولكنّها هزّت منكبيها ولم تعن بالإجابة. وعجب كيف يوجد مخلوق لا اكتراث له بدنيا السياسة وسألها ساخرًا:

ـ ماذا تعرفين عن الدستور؟

فلم تبن عيناها عن أيّ فهم. فعاد يسأل:

ـ ورأيك في الاستقلال؟

فلم تتغيّر نظرتها فأوضح كلامه قائلًا:

ـ أعني خروج الإنجليز!؟

فهتفت:

ـ آه. فليخرجوا إذا شئت، ولكنّي سمعت الكثير عن أيّامهم الحلوة. أبلتي صاحبة القهوة فتحت قهوتها من نقودهم.

وقال لنفسه إنّ استقلالها الحقيقيّ هو أن تتحرّر من الحاجة إليّ أنا وأمثالي.

وفتحت له قلبها فحدّثته عن ماضيها بصراحة غريبة:

ـ لي أمّ وخالة وأخوات، والرجل الوحيد الباقي لي عمّ في التسعين من عمره، لذلك لا أتوقّع الذبح.

وكانت شيطانة منذ الصغر. وقد مات أبوها وهي

في العاشرة فعجزت أمّها عن تأديبها وتهذيبها ولم تستطع صدّها عن الصبيان، ولم يُجْدِ معها الزجر ولا الضرب.

ـ وعشقت شابًّا وأنا دون البلوغ حتّى ضَربت القرية بي المثل.

ثمّ وقعت الواقعة كالمتوقّع.

ـ وضربتني أمّي. ولطمت خدّيها حتّى سقطت على الأرض كالميتة . . .

ثمّ هربت مع شابّ إلى الإسكندريّة حيث ذهب لإتمام تعليمه، وسرعان ما تخلّص منها بعد أشهر فوجدت نفسها وحيدة، ثمّ بدأت هٰذه الحياة. وقال باسمًا:

ـ أنت بنت صغيرة ولٰكنّك شيطانة كبيرة.

فقالت في مباهاة:

ـ وعشقني في الأزاريطة خواجا عجوز فاتّخذني خادمة في الظاهر، وكانت له امرأة عجوز قعيدة الفراش!

ـ لٰكنّك لم تحسني الانتفاع بالفرص كأبلتك صاحبة القهوة!

فقالت ببساطة:

ـ أنا لا أطلب إلّا الستر!

فضحك ضحكة عالية وقال لنفسه لعلّه من المفيد أن نصادف ما يقنعنا بأنّنا لسنا أيأس مخلوقات الله. وسألها:

ـ وما تنتظرين من المستقبل؟

فرفعت حاجبيها لحظات ثمّ غمغمت:

ـ ربّنا كبير.

ـ الظاهر أنّك متديّنة!

وابتسمت لنبرة السخرية في قوله ولاذت بالصمت فقال:

ـ لٰكنّك عفريتة باعترافك.

فأغرقت في الضحك وقالت:

ـ جاء وقت النوم وهو خير من إتعاب الرأس بلا فائدة.

وازداد إيمانًا بأوجه الشبه التي تجمعه بهٰذه البنت. وسلّم بأنّها ضرورة لا غنى عنها في وحدته وبخاصّة عندما فظعت الملمّات، فقد هوت المعاول على الزعماء وانقضّت المحاكمات فانقبض قلبه خوفًا كموزّع المخدّرات إذا دهمته أنباء القبض على المعلّمين الكبار، وأنكر الدنيا فلم يعد يعرفها. ولم يعد يدهش لأيّام الشتاء العاصفة حين يغلق البوغاز وتتطاير أمواج الغضب من البحر الصارخ فتجتاح الكورنيش، وتكفهرّ السحب كقطع الليل، ويشتدّ البرق كالصواريخ. وتنهلّ الأمطار ككائنات هاربة من غضب السماء، وبدت الغربة حمقاء عمياء ففاض حنينه إلى القاهرة، وإلى ركن البوديجا الدافئ، وقالت له:

ـ ترى أين أنت الآن؟ إنّك لست معي، ولا أنت في الدنيا كلّها!

فعاد الحضور إلى نظرته المتعبة من التسكّع في الغيب وابتسم في فتور دون أن ينبس، فقالت:

ـ وهٰكذا أنت منذ أيّام!

فقال في ضجر:

ـ نعم، أمّا أنت فلا تسمعين في الراديو إلّا الأغاني . . . !

فتساءلت في نبرة تطفّل مستحيية:

ـ أنت من الأعيان؟

فضحك ضحكة جافّة وقال:

ـ أو عاطل من العاطلين!

ـ أنت!؟ كلّا. ولٰكنّك سرّ من الأسرار!

ـ إنّهم يفشون الأسرار.

ـ خبّرني حتّى متى تبقى كما أنت؟

ـ دعيني أسألك نفس السؤال . . .

ـ أنا حياتي ليست بيدي . . .

ـ ولا أنا . . .

ثمّ وهو يبتسم:

ـ وعندما يأتي الربيع سيذهب كلانا إلى سبيله.

فقالت بحرارة غير متوقّعة:

ـ أنا لن أذهب حتّى تأمر بطردي.

لعنة الله على العواطف الكاذبة والصادقة على السواء. وأحدث تودّدها في نفسه أثرًا عكسيًّا أوشك أن ينقلب غضبًا فركّز انتباهه في أغنية تذاع، ثمّ أعلن المذيع عن برنامج اقتصاديّ تناقشه مجموعة من رجال

الاقتصاد سمع عند تعدّد أسمائهم اسم الأستاذ «حسن الدبّاغ» فسرعان ما وثب إلى الراديو فأغلقه. وسألته عن سرّ ضيقه فقال لها بحدّة:

ـ قلت إنّك لا تسمعين إلّا الأغاني!

وفي الأيّام الصافية من الشتاء كان يجوب الأماكن المحبوبة في شتّى الأنحاء بالإسكندريّة. ولم يصحبها معه ولا مرّة واحدة ولٰكنّه لم يمنعها من ممارستها حرّيّتها الكاملة في الحركة. وقرأ في عينيها رغبة في مصاحبته ولو خطوات على الكورنيش، ولٰكنّه كره مجرّد التفكير في تحقيقها، وسألته:

ـ ألا ترى أنّك تعاملني كما لو كنت...

فقاطعها بحزم:

ـ لا تفتّشي عن أسباب للنكد!

ثمّ رقّ لوجهها الذي تورّد في تأثّر واضح فداعب شعرها القصير وقال بلهجة حانية:

ـ لا تفتّشي عن أسباب للنكد...

ولم تعد تفصح عن مشاعرها بالكلمات ولٰكن بالجهد المبذول في خدمته ورعاية راحته. ولاقى جهدها بامتنان مشوب بسوء الظنّ. وقال إنّه عمّا قليل يولّي الشتاء فيحرَّر من هٰذه العلاقة التي اقتحمت عليه شقّته. حتّى سلوى لم يكد يبقى من تجربتها القاسية إلّا جرح سطحيّ لعلّه من الكبرياء لا من الحبّ. وأدرك أنّ الفراغ الذي تركته السياسة في قلبه سيحتاج في سدّه إلى مغامرات قد تشقّ على النفس. ثمّ أدهشه فيما تلا ذٰلك من أيّام أن يرى صحّة البنت وهي تسوء بشكل ملحوظ. أجل الشحوب والإعياء والفتور والسحنة المنفّرة. كيف يأتي هٰذا وهي تحظى بما لم تحلم به يومًا من الغذاء وراحة البال؟! وظنّ ما بها بردًا ولٰكنّه خلا في الحقيقة من أعراض البرد، ولازمها بإصرار أقلقه وشغله. وسألها:

ـ ماذا بك؟ هل سبق أن عانيت هٰذه الحال من قبل؟

أجابت بالنفي. وتهرّبت من ملاحقته، وإذا بها ترقد على الفراش في استسلام قهريّ. ووقف يتفحّصها بعينين قلقتين وضيق ثمّ قال:

ـ إذن يجب أن أدعو طبيبًا.

فلوّحت بيدها رفضًا وقالت:

ـ كلّا. مجرّد ضعف من الرطوبة...

واغرورقت عيناها فبدت طفلة بلا تجربة...

وساوره خوف لم يدر سببه فقال:

ـ لديك ما تقولينه بلا شكّ...

أغمضت عينيها في يأس ثمّ أشارت إلى بطنها ولم تنبس. ودقّ قلبه بعنف لم يجرّبه إلّا عند الابتلاء بخطير الأحداث التي هصرته. وانقلب خوفه ضيقًا خالصًا. الهرّة الماكرة قد وضح هدفها وصاح بها:

ـ حيّة سامّة، هٰذا جزاء إيوائي لك؟!

فولولت قائلة:

ـ لم أعرف إلّا بعد فوات الوقت...

ـ تدّعين السذاجة يا شيطانة؟!

ـ أبدًا ولٰكنّه وقع رغم الحذر.

ـ كذّابة، وحتّى لو صدّقتك فلِمَ لم تخبريني؟

ـ الخوف!... لم أستطع من الخوف!

فصاح:

ـ العفاريت تخاف مثيلاتك، وماذا تنتظرين!... متى تفعلين شيئًا؟

قالت بلهوجة وهي تشهق:

ـ لم أنس صديقة ماتت وهي تفعل ذٰلك...

ـ وإذن؟

واحتبس صوته من الغضب ثمّ صرخ:

ـ وإذن؟! أفصحي عن مكرك! اسمعي...

ثمّ وهو ينذرها بسبّابته:

ـ لا تريني وجهك، من الآن، وإلى الأبد!

فتوسّلت إليه قائلة:

ـ لم تضع الفرصة ولٰكن كن أحسن من ذٰلك...

فقال بإصرار جهنّميّ:

ـ الآن... الآن أنا فاهمك ولٰكن الآن وإلى الأبد.

ـ ١٧ ـ

اشتدّت وطأة الوحدة عليه فلم يعد يتحمّل الرجوع إلى الشقّة إلّا آخر الليل. ولٰكنّ خوفه من البنت فاق جميع عذاباته وجعل يتساءل ترى هل تتّخذ الخطوات التي تقذف به إلى صميم الفضيحة العلنيّة؟ هل يقف

قريبًا موقف الذلّ أمام النيابة؟ كما سيحلو التشهير به عند الصحف! وكم سيكون ذٰلك فرصة طيّبة للتشهير بالآخرين وبعهد بأكمله! وطوّقه القلق في وحدته كالبعوض في مستنقع. ولٰكن تتابعت الأيّام دون أن يتحقّق شيء من مخاوفه أو يجيئه من البنت تعب. وثمّة أسباب كثيرة أقنعته بوجوب العودة إلى القاهرة ولٰكنّه تشبّث بالبقاء في الإسكندريّة بلا سبب معقول، وكلّما اطمأنّ من ناحية البنت زاد تشبّثه بعذابه، ولم تعد العواصف تزعجه بقدر ما تفتنه، والوحدة تغازله بسحر غامض قاتل، أمّا جوّ الأجانب ذو العبير الغريب ففجّر في نفسه أحلامًا بالهجرة الأبديّة إلى قمم الجبال المنقوشة بالمراعي الخضر حيث ينقضي العمر بعيدًا عن الكدر. وأحبّ ميدان الرمل حبًّا جمًّا، فهو مسرح دائم لحاملات الأناقة والشعور الذهبيّة الملفّعات بمعاطف المطر. وكلّما جاء ترام انطلقت أسراب الحسن تبهج الخاطر وتسكر اللبّ وتعزف بسيقانها مختلف الألحان. ورآه ضابط بوليس وهو يحملق في حسناء ويهمّ بمتابعتها فالتقت عيناهما وابتسم الضابط فتراجع عيسى من فوره وهو يتفكّر ما كان له من رهبة في نفوس جميع الرتب من ضبّاط البوليس. واتّخذ وراء الزجاج مجلسًا في «على كيفك» المشرف على الميدان. وتيّار البشر يتلاطم بلا انقطاع فيعيش فيه ما شاء بلا ملل. الماضي المشحون بالطموح لم يسمح بجلسة كهٰذه وإن تكن جلسة منبوذ كالزبد الذي يخلّفه الموج فوق الساحل حتّى يجمعه عمّال البلديّة. وأين الأعزّاء الكبار الذين أُجبروا على الاختفاء ومتى تجفّ الدموع عليهم! واللهو في تلك الأيّام لم يؤخذ إلّا خطفًا وبلا تذوّق ودون علاقة إنسانيّة حقيقيّة، وعندما أذن الزمان بإنشاء علاقة إنسانيّة هبّ الإعصار فاجتاح كلّ قائم. وها هو الجوّ يكفهرّ وتبتلع قوّة مجهولة الضياء وتتكدّس السحب فيلوح الآدميّون الملوّنون كالأطياف. يا إسكندريّة الشتاء المتقلّبة كامرأة! وهبّ الهواء عنيفًا كأنباء السوء فحبكت الأيدي البضّة المعاطف وأغلق باعة الصحف معارضهم وأمسى الاحتماء بزجاج «على كيفك» واحتساء الشاي الساخن نعمة النعم. وجعجع الرعد فشرد القلب وهلّ المطر بقوّة ورشاقة حتّى وثق ما بين السماء والأرض بأسلاك مكهربة، وخلا الميدان وتكتّل البشر تحت مظلّات الأسمنت فبعث منظر تلاصقهم الدفء فارتاحت نفسه وطابت.

وسمع نحنحة خفيفة فالتفت إلى يساره فرأى ريري مستقرّة على كرسيّ لا يفصلها عنه سوى ترابيزة واحدة! حوّل رأسه إلى الميدان بسرعة ولٰكنّه لم يعد يرى إلّا صورتها في المعطف البرتقاليّ القديم في مزيج من أفكاره المضطربة، لقد التقت العينان لحظة قصيرة جدًّا ولٰكنّها مليئة بتعبير مأساويّ باسم. أهي تتبعه عن قصد أم رماه بها التسكّع وحده؟! وهل تنتهي الجلسة بسلام أو تنفجر في ذروة من الفضيحة؟ وهل تخلّصت من الشيء أو ما زالت مصرّة على الاحتفاظ به؟ وقرّر أن يغادر المكان ولٰكنّه انتبه إلى الميدان فرأى العاصفة تتمادى في هياجها وسلّم بأنّه سيظلّ حبيسًا داخل المحلّ على رغمه. وقرّر أيضًا أن يغادر الإسكندريّة في أوّل فرصة، غدًا لو أمكن، ثمّ تظاهر باللامبالاة وأسند خدّه إلى قبضته كالمتأمّل الحالم! وخطر له خاطر سيّئ جدًّا وهو أنّ حضورها ما هو إلّا جزء من خطّة متّفق عليها مع البوليس للقبض عليه. وأنّه آنّ له أن ينضمّ إلى ركب أبناء جيله البارزين الذين يقذف بهم تباعًا خارج الأسوار. وقد يسوق ذٰلك إلى ما هو أدهى إذ إنّه لا شكّ في أنّهم مطّلعون على رصيده في البنك وأنّهم قد يطلقون عليه هٰذا السؤال «من أين لك هٰذا؟» في أيّ لحظة. وما يدري إلّا والبنت تجلس إلى ترابيزته وهي تقول:

ـ قلت أدعو نفسي ما دام لا يريد أن يدعوني!

حدجها بنظرة جامدة تخفي وراءها ذعره ولم ينبس فقالت:

ـ لا تزعل، سنجلس معًا بعض الوقت كما يليق بالأصدقاء القدامى.

وقال لنفسه هٰذه هي الخطوة الأولى في المكيدة ولعلّ المتآمرين الآخرين يترقّبون. وصمّم على الدفاع عن نفسه حتّى الموت، فقال بصوت يسمعه القريبون منهما:

ـ عمّ تتحدّثين... أنا لا أفهم شيئًا!

فأخذت بتجاهله وانطفأت المداعبة في عينيها وتمتمت:

ـ أنت تقول هٰذا!

فبسط يسراه متظاهرًا بالحيرة فقالت بتعجّب:

ـ إذن فأنت لا تعرفني!

ـ أنا آسف جدًّا. لعلّك أخطأت في الشبه!

ولفّتها الخيبة بصورة محزنة، ثمّ أطبقت شفتيها في غضب أحال سحنتها نذيرًا بالشرّ حتّى توقّع كارثة أمام الجلوس ولٰكنّها قامت وهي تقول في سخرية وتحدٍّ:

ـ يخلق من الشبه أربعين...

وشعر لشدّة انفعاله بدوار. ولم يصدّق أنّ المعركة ستقف عند هٰذا الحدّ. وكلّما تذكّر سحنتها المنقلبة ارتعد وأيقن أنّها تخفي نَمِرَة تحت جلد البنت المرحة. ولبث في ذهوله لا يدري كم لبث حتّى انتبه إلى أنّ المطر قد كفّ عن الهطول وأنّ فرجة تتّسع في الأفق ينبثق منها شعاع وإن مغسول. ونهض بلا تردّد فارتدى معطفه ومضى دون أن يلتفت ناحيتها. وعندما رجع إلى العمارة بعد منتصف الليل وجد في انتظاره برقيّة مرسلة من العائلة لتنبئه بوفاة والدته.

ـ ١٨ ـ

تقرّر تشييع الجنازة من القبّة الفداويّة عصر اليوم التالي، وقد سبق عيسى إلى هناك ليستقبل المشيّعين فصادف وصوله قدوم حسن ابن عمّه في سيّارته المرسيدس، ولم يدهش للسيّارة بطبيعة الحال ولٰكنّ منظرها أثاره. وعجب للتحسّن الواضح الذي طرأ على صحّة ابن عمّه، والاستعلاء الذي شدّ قامته، والسيادة المطلقة من عينيه. وتصافحا ووقفا ينتظران تحت ظلّ شجرة، وجعل حسن يتفحّصه ويقول:

ـ ليست صحّتك كما كنت أنتظر!

فقال عيسى وهو يستعرض أحزانه في لفتة خاطفة:

ـ لعلّ الجوّ لم يناسبني...

فقال الشابّ بلهجة تقريريّة قاطعة:

ـ رحلة لا معنى لها ولٰكنّك رجل عنيد!

وقال عيسى إنّه لم يعدل بعد عن حلمه القديم في تزويجه من أخته. ثمّ جاء الأصدقاء سمير عبد الباقي وإبراهيم خيرت وعبّاس صديق وبعض الشيوخ والنوّاب السابقين. وجاءت أفواج من الناس لا حصر لهم لتعزية حسن فاكتظّ بهم السرادق على سعته. وكانت لحظة حرجة حين هبط عليّ سليمان من سيّارته. وقد استقبله حسن، ولم ير عيسى بدًّا من استقباله فتصافحا وتلقّى تعزيته دون أن يتبادلا نظرة واحدة. وتتابعت الخطوات التقليديّة واحدة بعد أخرى، ولم يخرج عيسى عن رزانته إلّا ساعة الدفن فاغرورقت عيناه رغم ما بذل من جهد صادق لضبط مشاعره. وقد أشرف على جميع الإجراءات بنفسه. ولم يستطع أن يقاوم الإغراء الأبديّ فألقى بنظرة طويلة إلى جوف القبر. وشعر برغبة في الخلوّ بنفسه ليقول لها أشياء هامّة، ثمّ وثب إلى مخيّلته موقف الوداع الأخير بينه وبين أمّه في البيت القديم وقد لثمت جبينه وقالت:

ـ افعل ما تشاء، وليحرسك المولى أينما تكون، أمّا أنا فسأحبس دموعي حتّى تذهب بالسلامة!

ولا يكاد يذكر تعابير وجهها لأنّه لم ينعم فيه بالنظر ولٰكن كانت يدها باردة منتفضة. وانتحى جانبًا عندما بدأت التلاوة الجماعيّة. وتبادل وأصحابه نظرات متعاطفة أكثر من مرّة. وسأل نفسه بتأنيب «لِمَ تحزن أكثر ممّا ينبغي؟». ثمّ قال لنفسه أيضًا بحماس مريح لم يخل من شماتة «هٰذا هو المصير الأخير. لكلّ مسكين ولكلّ جبّار. أجل ولكلّ جبّار!».

واقتصر العزاء في البيت ليلًا على الأهل والأصدقاء الثلاثة، أمّا عليّ سليمان فلم يحضر، وتجنّب عيسى الانتقال إلى الحريم كيلا يرى آل عمّه ولٰكنّه تساءل باهتمام هل حضرت سوسن هانم وسلوى! وفي الحجرة التي جمعته مع سمير وعبّاس وإبراهيم وحسن شهد صورة أقرب ما تكون إلى الفكاهة إذ لم يجرؤ أحد من أصدقائه على الإفصاح عن مشاعره السياسيّة في حضور حسن ولـمّا كانت السياسة جزءًا لا يمكن إهماله في أيّ اجتماع فلم يروا بدًّا من النفاق فنوّهوا بالأعمال التاريخيّة المذهلة كإلغاء النظام الملكيّ والقضاء على الإقطاع والجلاء، وبخاصّة الجلاء ذٰلك الحلم القديم، ولم يشترك عيسى في الحديث إلّا قليلًا لغلبة الإعياء عليه ولشعوره بالفراغ والحزن. وداري سخريته من الموقف بالتظاهر بالإصغاء إلى تلاوة القرآن المنبعثة من

الصالة حيث تربّع مقرئ من الدرجة الثالثة. وقال لنفسه إنّ حسن بات ركنًا خطيرًا يعمل له ألف حساب. ألا يبدو هٰذا مضحكًا؟! واستسلم للشعور العجيب بأنّ أمّه لم تمت أو أنّها لا تزال حيّة بطريقة ما أو أنّ روحها لم تغادر البيت بعد. ثمّ ذكر بدهشة حلم الجلاء القديم وكيف أصغى إلى أنباء إعلانه بارتياح فاتر مشوب بالغيظ لا لشيء إلّا لأنّه لم يتحقّق على يد حزبه. وما تمالك أن قال:

ـ الحقيقة أنّ الجلاء ثمرة للماضي!

ولم يعلّق أحد من الأصدقاء بكلمة على حين نشط حسن للبرهنة على فساد هٰذه الفكرة، وإذا بإبراهيم خيرت يقول:

ـ الحقيقة أنّ جميع ثوراتنا القديمة ثورات بلا نتائج حاسمة، ثمّ جاءت هٰذه الثورة لتحقّق رسالات الثورات القديمة بالإضافة إلى أهدافها الذاتيّة...

وتواصل الحديث حتّى خلا البيت. وحين مضى ليوصل ابن عمّه إلى الباب الخارجيّ توقّف فجأة ثمّ ابتسم إليه في تودّد قائلًا:

ـ كان سفرك خطأ ويجب أن تعيد النظر في موقفك...

فابتسم عيسى بلا أدنى رغبة في الحديث فعاد الآخر يقول:

ـ خبّرني عن أمل واحد من آمالك الماضية لا يتحقّق اليوم... فيجب أن تلحق بالقطار...

وهزّ رأسه هزّة غامضة، ثمّ تصافحا وحسن يقول:

ـ عندما تغيّر رأيك ستجدني رهن إشارتك...

فشكره عيسى بنبرة امتنان واضحة. والحقّ أنّه تأثّر كثيرًا لحسن مجاملته ولكنّه أبى أن يفكّر في زحزحة الجدار الذي يصدّه عنه. وكثيرًا ما يسلّم بمنطق خصمه ويعترف بهزيمته الخفيّة أمامه، ولٰكن كلّما ازداد عقله اقتناعًا غاص قلبه في الامتعاض الآسن. وخلا بعد ذٰلك بأمّ شلبي التي حيّت مقدمه بالبكاء على الراحلة. انتظر حتّى سكتت ثمّ سألها:

ـ كيف كان حالها؟

فقالت وهي تجفّف عينيها:

ـ لم ترقد يومًا واحدًا.

ـ إذن فجأة؟

ـ نعم، وبين يديّ من حسن الحظّ...

ـ هل كانت تطول وحدتها بالبيت؟

ـ أبدًا، كلّ يوم كانت تزورها ستّ من أخواتك.

ـ الليلة ألم تحضر سوسن هانم؟

ـ نعم يا سيّدي حضرت.

وبعد تردّد قصير سألها:

ـ وسلوى؟

ـ لم تحضر يا سيّدي.

ورمشت بعينيها ثمّ استطردت:

ـ كتبوا كتابها على سي حسن ابن عمّك.

انتفضت عيناه المتعبتان في نظرة يقظة دهشة ثمّ تساءل:

ـ سلوى وحسن؟

ـ نعم يا سيّدي...

ـ متى؟

ـ في الشهر الماضي...

مدّ ساقيه بلا مبالاة. وألقى برأسه على مسند المقعد فرأى السقف القديم الباهت القائم على أعمدة أفقيّة، ثمّ استقرّت عيناه على برص كبير في أعلى الجدار تراءى في وضعه الجامد كالمصلوب.

ـ ١٩ ـ

في جوّ يونيه المشبع بالدفء يحلو المجلس على طوار البوديجا وبخاصّة عندما يحمل المساء نسمة لطيفة. وقد يسود الصمت عند مرور حسناء ولٰكنّهم لا يشبعون بحال من حديث السياسة. وبالرغم من المركز الذي يشغله عبّاس صديق في الحكومة والمكانة التي يحتلّها إبراهيم خيرت كمحامٍ وكاتب من كتّاب الثورة فإنّ موقفهما لم يختلف في شيء عن موقف عيسى أو حتّى سمير عبد الباقي الجانح إلى الهدوء، وقد لخّص إبراهيم خيرت شعورهم العامّ بكلمة من كلماته إذ قال:

ـ تكون في فمك وتقسم لغيرك...

وطَبَعَهم الاستسلام بطابعه ولٰكنّ الأمل في معجزة ليست في الحسبان لم يمت، ومن أتفه الأحداث يتلقّفون

أحيانًا ما يبعث في موات نفوسهم نفضة حياة غامضة. ومن عجب أنّ إبراهيم خيرت وعبّاس صديق يثبتان بصورة مستمرّة أنّهما أشدّ تذمّرًا من عيسى نفسه وقد قال لهما ضاحكًا:

ـ أنت كاتب كبير وأنت موظّف كبير فماذا تريدان؟

فقال عبّاس بصوته الرنّان المنسجم تمامًا مع جحوظ عينيه وبريقهما:

ـ الحالة الخاصّة مستكنّة ولا شكّ ولكنّها لا تتغيّر من النظرة العامّة...

وقال إبراهيم خيرت:

ـ الحقيقة أنّه لا قيمة لإنسان اليوم مهما علا شأنه، نحن بلد الفقاقيع...

فقال عبّاس:

ـ كنت وأنا في الدرجة السادسة لا غير في حكم وزارة بأكملها.

وقال سمير عبد الباقي باستسلام مريح:

ـ لم يعد يهمّني شيء ألبتّة!

ـ يمكن أن يعتبر موقفك أشدّ تطرّفًا منّا جميعًا!

فسارع إلى إصلاح رأيه قائلًا:

ـ أعني لم تعد تعذّبني الحسرة على ما فات، وأحيانًا أدعو لهم بالتوفيق، ولا تهمّني غربتي لأنّني اخترتها...

فداعبه عيسى قائلًا:

ـ قل إنّها فرضت عليك...

ـ ولكنّني اخترتها في نفس الوقت، ولتكن مشيئة الله...

وربّت إبراهيم على كتف عيسى قائلًا:

ـ وأنت لِمَ لا تتكلّم؟ ألا جديد عندك؟

فقال عيسى ببساطة:

ـ علّقت منذ أيّام إعلانًا على باب بيت المرحومة الوالدة «للبيع».

ـ بيت قديم لكنّه صقع!

فقال عيسى بسرور:

ـ سيمكّنني نصيبي منه من أن أعيش حياة الأعيان التي أحياها أطول مدّة ممكنة...

ـ هل تجدها حياة موفّقة؟

ـ لعلّ فيها الشفاء من انقسام الشخصيّة الذي أعانيه...

فتساءل عبّاس صديق:

ـ مرض جديد!؟

فقال عيسى بعد تأمّل:

ـ الحقيقة أنّ عقلي يقتنع أحيانًا بالثورة ولكنّ قلبي دائمًا مع الماضي، والمسألة هل يمكن التوفيق بين عقلي وقلبي؟!

فقال إبراهيم خيرت:

ـ المسألة ليست مسألة مبادئ يقتنع بها العقل ولكنّ العلاقة بين الحاكم والمحكوم تتقرّر بطريقة خفيّة كما في الحبّ، ويمكن أن نقول إنّ أظفر الحكّام بقلوب المحكومين هو أعظمهم احترامًا لإنسانيّتهم، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!

فقال عيسى بحزن:

ـ ولذلك فحتّى ولو حظيت بعشرات الأعمال فسوف أظلّ بلا عمل...

فقال عبّاس صديق:

ـ أهو العقل أم القلب الذي يتكلّم؟!

فقال سمير عبد الباقي باسمًا:

ـ للقلب «عندنا» معنى مختلف كلّ الاختلاف...

تساءل عيسى:

ـ لم نضحك والحياة مأساة بكلّ معنى الكلمة؟

فقال إبراهيم خيرت:

ـ نحن نعتبر الموت ذروة المأساة، ومع ذلك فموت الأحياء أفظع ألف مرّة من موت الأموات...

فضحك عبّاس صديق ضحكة كالفرقعة وقال:

ـ ما أنسب أن يسوقنا الحديث عن الموت إلى حديث الذرّة مثلًا!

فقال عيسى ولم يكن قد خرج تمامًا من حزنه المفاجئ:

ـ التهديد بالذرّة من شأنه أن يخفّف من متاعب الحياة، أعني حياتنا...

فتساءل عبّاس صديق في سخرية:

ـ والحضارة؟ ألا تخشى على الحضارة؟

ـ من حسن الحظّ أنّنا لم ندخل الحضارة بعد فما خوفنا من البلل؟

فقال إبراهيم خيرت:

ـ ليكن عهد كعهد الطوفان ليطهّر العالم...

فسأله عبّاس صديق:

ـ هل سمعت عن ذلك من مصدر مسئول؟

فقال سمير عبد الباقي:

ـ فلنعترف بأنّه لولا الموت لما كان للحياة قيمة...

ـ ما أكثر الكلام عن الموت...

وتذكّر عيسى موت أمّه وزواج سلوى من حسن والقسوة التي عامل بها ريري. وقال لنفسه إنّ السمر مع هؤلاء الأصدقاء تسلية شاقّة أمّا حديث حسن فإنّه يزيد انقسام شخصيّته حدّة. ومال سمير نحوه قائلًا:

ـ مشكلتك تُعتبر يسيرة بالقياس إلى مشكلة العالم، أنت يلزمك عمل وزوجة...

فقال عيسى دون مناسبة ظاهرة:

ـ لذلك فأنا أحبّ أفلام الرعب...

فقال عبّاس صديق:

ـ عيب هذه الأفلام أنّها خياليّة...

فقال عيسى:

ـ بل عيبها أنّها واقعيّة أكثر ممّا يجب...

وانطلقت صفّارة الأمان خطأ واستمرّ انطلاقها نصف دقيقة. وقال عيسى إنّه سيجد نفسه في النهاية باحثًا عن عمل وعن امرأة، ولكنّ ذلك لن يقع حتّى يسلّم بالهزيمة ويخرج نهائيًّا من التاريخ.

ـ ٢٠ ـ

حياة آخر الليل حادّة اللذّة ولكنّها لا تدوم فضلًا عن فداحة ثمنها. وللأريزونا جمال خاصّ عند منتصف الليل، فالرقص يدور مع حسناوات من أمم شتّى، والشراب ممزوج بندى الفجر، ثمّ إنّك تستطيع أن تقتنع بالكذب. وفي الحديقة الخلفيّة لا يوجد إلّا العشق والعشّاق وضوء القمر أو ضوء النجوم، والنقود لا قيمة لها ألبتّة والعواطف تهرق بلا حساب، وقال إنّه لا جديد في الصورة، غير أنّه يمارس أكاذيبه في الحياة اليوميّة في جوّ شديد الجفاف أمّا هنا فهي تمتزج مع الأغاني في جوّ من الطرب، وسلوى قد عرفت التفاهة ولكنّها لم تعرف الطرب. وخطر له أن يسأل صديقته الإيطاليّة في الحديقة:

ـ أنت طوّفت بلادًا كثيرة فما رأيك في الناس؟

وكانت متعة الحواسّ الخمس فأجابت:

ـ أنا ألقاهم عادة عندما يكون السرور مطلبهم فهم طيّبون جدًّا.

ـ ولكنّ ذلك كلّه كذب!؟

ـ في الأقلّ فهم يرغبون فيّ بصدق؟

ـ مجرّد انفعال عابر.

ـ وهكذا كلّ شيء!

فضحك، وتردّد قليلًا، ثمّ قال:

ـ ولكن حتّى هذا الانفعال العابر لا تجدينه في نفسك؟

فقالت في دعابة:

ـ إذن فأنت لا تصدّق أنّني أحبّك؟

فسألها باهتمام:

ـ كيف لم يتأتّ لمثلك أن تنعم بالاستقرار؟

فغنّت أغنية إيطاليّة. ومرّت به لحظة تأثّر بجمالها فحزن لامتهانه ولكنّه قال إنّ قيمًا ثمينة غير الجمال تلقى نفس المصير كالحرّيّة والآدميّة وحتّى الدين يتاجر به أناس بلا حياء، وإنّها في الحقيقة مأساة واحدة، وهو نفسه وقع في نفس العبث في ماضيه فهضم ألوانًا من الفساد وشارك فيه. ولا يزال رصيده في البنك شاهدًا على ذلك، فلِمَ لا يسود النقاء؟ وما الذي حال دون ذلك طوال القرون؟ وهل يوجد في مكان ما من الأرض إنسان يعيش بلا خوف ولا رذائل؟

وجعل يتسلّى بتعقّب الفتيات في شوارع القاهرة، وبخاصّة الصغيرات منهنّ كأنّ قوّة تدفعه إلى منابع السذاجة، ولكنّها لم تكن إلّا رحلات عابثة غامضة وبلا نتائج، وكلّما اشتدّت العواصف السياسيّة وأطاحت بمعنى أو برَجُل من ماضيه ترنّح من هول الصدمة حتّى تمنّى يومًا لو كان للمصريّين ـ كما لغيرهم ـ جالية في أمريكا الجنوبيّة ليهاجر إليها. وقال ساخطًا إنّ المصريّين زواحف لا طيور. وراوده حلم بتغيير جذريّ في حياته. ولكنّه لم يكن يفعل سوى العبث. وقد شكا إلى صديقه سمير عبد الباقي فقال له:

ـ أين شراعك؟... أنت زورق بلا شراع!

وعند الرابعة من مساء يوم جاء سمسار الوايليّة وهو يقول:

ـ بعضهم يرغب في مشاهدة البيت...

ودخلت سيّدتان، عجوز في السبعين وابنتها ـ من الشبه بينها استنتج ذلك ـ في الأربعين أو دون ذلك بقليل، تقدّمهما من حجرة إلى حجرة وهو يجيب على أسئلتهما، وكانت العجوز نحيلة بيضاء البشرة رماديّة العينين ذات جفون ثقال ونظرة تدلّ على الخبرة والثقة بالنفس، أمّا ابنتها فمتوسّطة الطول ممتلئة الجسم والوجه ولها عينا بقرة وهدوؤها. وقد لاحظ دهشتهما من التناقض الواضح بين قِدَم البيت وفخامة الأثاث وعصريّته فضايقه ذلك وأهاج إحساسه الراسخ بالمطاردة. وبعد أن ألقيا نظرة على الحوش الكبير دعاهما إلى الجلوس في حجرة الاستقبال وقدّم لهما القهوة. وشهد المجلس السمسار بجلبابه الأبيض ورأسه العاري وهو يتفحّص الجميع بعينيه الضيّقتين ويقول:

ـ البيت عبارة عن مساحة كبيرة تصلح لإقامة عمارة على ناصيتين، ميدان الكومي وشارع الجلال بحريّة غربيّة، موقع نادر المثال، والحيّ فيما حوله يتجدّد بسرعة كما رأيتما فخمس عمارات جديدة تشيّد في وقت واحد وهو ما يزيد من قيمته...

فقالت الابنة التي وضح لعيسى سواد عينيها وفخامة ملبسها:

ـ ولكنّ البيت قديم جدًّا ولا يصلح للسكنى...

فقال عيسى:

ـ طبيعيّ أنّ الذي يشتري بيتًا كهذا البيت لا يشتريه للسكنى ولكن للبناء كما قال الحاجّ حسنين، والأرض صقع، والبيع بأجر المثل ويمكن حضرتك أن تسألي عنه بنفسك!

فقال الحاجّ حسنين:

ـ هذا عن الحاضر أمّا المستقبل فالحيّ كلّه مضمون وما من حيّ في الدنيا مثله في موقعه أو ازدحامه بالسكّان أو مواصلاته الكثيرة...

وسألت الابنة عيسى عن المساحة بصوت حلقيّ مليء كوجهها ولكنّه مثير في الوقت نفسه، وقد كوّن عنها فكرة أوّليّة بأنّها امرأة جديرة بالاحترام لفخامة مظهرها، وقد تُشتهى أيضًا لفترة ما. وأجاب:

ـ ألف متر مربّع ولعلّ الحاجّ أبلغكما بالثمن المطلوب...

فتساءلت العجوز:

ـ عشرة آلاف جنيه؟! أين تجد القادر على دفع هذا المبلغ؟

فأشار عيسى إليها ضاحكًا وهو يقول:

ـ هنا أجده...

وقال الحاجّ حسنين بتوكيد:

ـ فرصة لا تجود الدنيا بمثلها مرّتين والله شهيد...

ورفض عيسى أن يخفّض من الثمن قرشًا واحدًا. واستمرّت المساومة طويلًا ولكنّها كانت تصطدم بإصراره، وفي أثناء ذلك تبادل عيسى والابنة نظرات غير تجاريّة على سبيل الاستطلاع فغلب على ظنّه أنّها غير متزوّجة. وقال لنفسه إنّها غنيّة ومقبولة: أجل ليست من الطراز الذي يحبّه ولا السنّ التي تناسبه ولكنّها غنيّة وهادئة وعلى خُلُق فيما بدا له. ولم تكن إلّا خواطر عابرة من وحي المجلس ولكن خيّل إليه أنّ العجوز تتابع خواطره.

وانتهت الجلسة بلا تراجع من ناحيته ولا قبول من ناحيتها...

ـ ٢١ ـ

ونصحه السمسار بأن يتساهل بعض الشيء ولكنّه رفض بعناد لحاجته الماسّة إلى تأمين مستقبله. ولسوف يضمن ـ إذا قبض نصيبه من ثمن البيت ـ مستوى من المعيشة كمستواه الحاليّ لعشرة أعوام على الأقلّ وقد تتفتّح له أبواب عمل مناسب في أثناء هذه الفترة الطويلة. ولم تعارض موقفه أخت من أخواته الثلاث وتركن له مطلق الحرّيّة في القبول أو الرفض ومضت أيّام حتّى أدركه الجزع ولكنّ السمسار جاءه ليزفّ إليه بشرى قبول السيّدة للثمن المطلوب، ومن ثرثرة السمسار عرف أنّ عنايات هانم أرملة مأمور بوليس ولكنّ الثروة ورثتها عن أبيها، وأنّ ابنتها قدريّة هي

وحيدتها مطلّقة منذ خمس سنوات ولم تنجب أطفالًا. وقد مضى إلى زيارة السيّدة في مسكنها بعمارة تمتلكها بميدان السكاكيني ودلّ أثاث المسكن الكلاسيكيّ الفاخر على عراقة حقيقيّة في الجاه وتمّ الاتّفاق على الإجراءات في جلسة وديّة وقال عيسى بلباقة وهو يشير إلى صورة المرحوم:

ـ أنا أعرف المرحوم، سمعت عنه أوّل عهدي بالعمل، ما أقنعني بشهامته ووطنيّته.

وأحدث كلامه أثرًا طيّبًا جدًّا في نفس المرأتين... ودعته عنايات هانم للبقاء بعض الوقت. وما لبث أن جاءت خادم بالشاي والحلوى الفاخرة، وأعربت العجوز عن سعادتها إذ مكّنتها المصادفات من استضافة شخص من المعجبين بالمرحوم ولكنّ عيسى لم يأنس منها أريحيّة تبرّر هٰذا الكرم وحدس أنّ الدعوة موجّهة لحساب الابنة التي جلست في هدوء تملأ فراغ المقعد بجدارة وترمقه بين حين وآخر بنظرة ناعسة. وقالت عنايات:

ـ وأيّام الخدمة بالأقاليم لا تُنسى، أيّام مليئة بالخير، ونال المرحوم تقدير سعد زغلول فنقله إلى الداخليّة عام ١٩٢٣ ولكنّه تعرّض لأسوإ أنواع المعاملات في عهود الانقلاب...

ثمّ أثنت على صدق فراسته واستشهدت على ذٰلك قائلة:

ـ عندما تقدّم زوج قدريّة لخطبتها أعرب المرحوم عن عدم ارتياحه له، ولكنّي تشبّثت به فكنت المسئولة عن سوء حظّ ابنتي!

تلقّى عيسى الكرة بارتياح ثمّ تساءل:

ـ ترى كيف كان ذٰلك؟

ـ كان من أسرة ولكنّه ذو خلق منحرف، ابنتي طيّبة وستّ بيت وكريمة الأخلاق فلم تقبل بطبيعة الحال أن يجعل من بيتها خمّارة وملعبًا للقمار!

فتأسّف عيسى قائلًا:

ـ يا للحظّ السيّئ، ولكن ربّنا يعوّض صبرها خيرًا.

ومضى وقت غير قصير في ثرثرة هادئة، وجعل عيسى يتساءل عن مدى قدرته على استساغة امرأة كقدريّة يمكن أن يعتبرها نوعًا من التأمين مدى الحياة وسوف يجدها بلا ريب حظًّا طيّبًا إذا قُدّرت على ضوء ما عاناه من تقلّب الدهر. وعندما غادر البيت اطمأنّ إلى أنّه قد استأثر باهتمام المرأتين لدرجة لا بأس بها، وقال لنفسه في غير قليل من الأسى: قدريّة في حاجة إلى رجل وأنا في حاجة إلى امرأة. ورسم خطّة للتحرّي عن قدريّة كالعادة.

وقرّرت التحرّيات أنّها تزوّجت ثلاث مرّات لا مرّة واحدة، الأولى لم تستغرق إلّا أشهرًا إذ كُتب كتابها على قريب لوالدها وقبل أن تتمّ الدخلة وضح لهم طمعه في مالها ونفعيّته المفضوحة فحمله أبوها على تطليقها. والثانية استهلكت أربعة أعوام أو خمسة. ولم تقبل الأمّ أن تهبها من مالها شيئًا رغم مطالبة الزوج بذٰلك وإلحاحه عليه لاقتناعها بأنّه يستطيع أن ينهض بمسئوليّاته دون مساعدة منها وأنّ مطالبه غير معقولة وناطقة بسوء نيّة فانتهى النزاع بالطلاق. والثالثة استمرّت أعوامًا ستّة وبشّرت بالدوام وبخاصّة بعد أن غيّرت الأمّ سياستها وأغدقت على ابنتها من مالها ما كفاها وأكثر ولكنّ الزوج كان يرغب في إنجاب أطفال، ولم تسعفه قدريّة في ذٰلك ولا وعدت به قياسًا على حياتها الزوجيّة السابقة فتزوّج الرجل سرًّا، ثمّ انكشف سرّه فاعترى الحياة تنغيص لم يستطع تحمّله إلى ما لانهاية فكان الطلاق الثالث.

هٰذه هي قصّة قدريّة، غير أنّ عيسى لم يعرضها بتفاصيلها في ركن البوديجا ولكنّه قال:

ـ امرأة لا بأس بها ترغب في الزواج منّي!

فتحوّلت إليه الأعين كأنّها بوصلات تنجذب إلى قطب، فقال بارتياح ممزوج بزهو:

ـ من أسرة عريقة وغنيّة...!

فقال عبّاس صديق بصوته الرنّان كأنّما يعلن الخبر على الملإ:

ـ الصفة الأخيرة هي المطلوبة!

وقال إبراهيم خيرت باسمًا ليداري انفعالًا بالحسد:

ـ مبارك، من الخير أن نرمّم بيتنا الآيل للسقوط بفعل أعاصير السياسة!

واغتاظ عيسى من هٰذه الملاحظة فردّها قائلًا:

ـ وبخاصّة وأنّني لا قلم لي أستغلّه في التقرّب من الأعداء!

وضحكوا جميعًا. وانهالت عليه الأسئلة من كلّ لون، وجعل يجيب بحذر حتّى تراكمت أكاذيبه. ولم يفض بذات نفسه إلّا لسمير عبد الباقي وهما يسيران منفردينِ بشارع سليمان باشا، صارحه بالحقيقة بلا رتوش فسأله سمير:

ـ ألا يهمّك إنجاب الذرّيّة؟

فأجاب بامتعاض:

ـ يهمّني أن أجد رفيقًا في وحدتي. وهٰذه امرأة لا بأس بها مستعدّة لأن تقبلني بعيبي فلِمَ لا أقبلها بعيبها؟ وأين هي الفتاة الكريمة التي ترضى بي بحالتي الراهنة؟!...

وزار عنايات هانم ليطلب يد قدريّة فوجد منها استعدادًا طيّبًا لقبوله، وقال:

ـ سأصدقك القول فإنّ الكذب هو عدوّ الزواج، لي رصيد في البنك لا بأس به ومنه نصيبي من البيت الذي آلَ اليك، ولي أيضًا معاش صغير، وليس لي عمل في الوقت الحاضر ولٰكن من الممكن أن أجد عملًا محترمًا في المستقبل، وقد أُخرجت من الحكومة لا لسبب يمسّ الشرف ولٰكن للتعصّب السياسيّ الأعمى، ولم يكن من الممكن أن يبقي العهد الحاضر على شخص مثلي يعدّه في غاية الخطورة!

فقالت العجوز:

ـ جميل... جميل، نحن لا تهمّنا الثروة، ولا نفضّل العمل إلّا لأنّ الفراغ غير مستحبّ، ولا أشكّ في شرفك فقد قاسى المرحوم زوجي كما تقاسي، وقلبي يحدّثني بأنّك ستكون خير زوج لابنتي.

ولم تفاتحه عن زيجات ابنتها المتعاقبة ولا عن عقمها، فارتاح لذٰلك إذ إنّه رأى أنّ إطلاعه على عيوب العروس مقدّمًا لن يترك له فرصة في المستقبل لتمثيل دور الزوج المخلص الذي خاب أمله وهو دور مهمّ جدًّا لتعزيز مكانته وسيطرته...!

ـ ٢٢ ـ

وسافر إلى رأس البرّ لقضاء شهر العسل في عشّة عنايات هانم، ونمت العلاقات بين الأطراف الثلاثة على وجه يبشّر بالخير. وقد أراد أن يكون منذ البدء «رجلًا» بمعنى الكلمة فلم يَلِنْ في موقف يندم عليه مستقبلًا. ولذٰلك رفض أن يقيم في مسكن الأمّ كما اقترحت وأصرّ على السكن مع زوجه بعيدًا في الدقّي، حيّ الذكريات التي لا تُنسى. وصارح الأمّ بشجاعة غريبة ـ على حدّ وصفها لها ـ بأنّهما ـ هو وزوجه ـ يجب أن يتمتّعا بمالها في حياتها ليدعوا لها بقلب خالص بطول العمر! كان يقف وراء مطالبه حتّى تنفّذ بحذافيرها وهو يقول لنفسه إنّ الذي أضاع حزبه الجبّار لم يكن سوى التساهل في أواخر عمره الحافل بالعناد والإصرار!

وكان يرى رأس البرّ لأوّل مرّة في حياته فأعجب بطابعها الخاصّ الجامع لمحاسن المدينة والريف والساحل، وفتنة ملتقى النيل والبحر، والهدوء الشامل كحلم سعيد، والوجوه النضرة، والهواء اللذيذ الجافّ الذي يستبيح عصمة البيوت من جدرانها المضيافة، ولم يجد أحدًا من أصدقائه في المصيف فوهب وقته كلّه لأسرته. وصادف الزواج توفيقًا بديعًا وشعر بأنّه سيطر على زوجه بقوّة واقتدار، ولأوّل مرّة آلمته البطالة إذ وجد الحياة في البيت تدور على محور غير محوره، وأنّ شخصيّته وحبّ زوجه له ومجاراة حماته لرغبته، كلّ أولٰئك لم يدفع عنه ذٰلك الإحساس المؤلم. وقديمًا كان يمارس حياة الأعيان أمام الناس بماله، اليوم تتعلّق الأبصار بزوجه وأموالها ولن يصدّق أحد أنّه سيواصل إلى الأبد حياته المرفّهة بنصيبه في البيت المباع أو بمعاشه. وجعل يداري أفكاره بالتظاهر بالبساطة والثقة والضحكات العالية، ولٰكنّه أيقن أنّ حياته لن تدوم على هٰذا المنوال، وأنّ عليه أن يستثير همّته النائمة ليبدأ عملًا حرًّا جديرًا به.

وأكملت المعاشرة معرفته بزوجته فقد تكشّفت له عن أستاذة في المائدة والملبس سواء من ناحية الذوق أو الصنعة، فأتخمته بألوان الطعام التي تقدّمها وبخاصّة الحلوى التي تتفنّن في تأليفها. وهي أكولة لحدّ الإفراط وتغري من يؤاكلها بالإفراط كذٰلك. وهي مسلّية جدًّا لإتقانها الألعاب البريئة كالنرد والكونكان ومولعة

بالسينما والمسرح الفكاهيّ وإن يكن تعليمها الابتدائيّ قد مُحي من ذاكرتها تقريبًا ولم يبق لها منه إلّا قدرة ضعيفة على القراءة أو كتابة رسالة ركيكة. وهي امرأة بكلّ معنى الكلمة، متأجّجة العواطف فلم تدع له مجالًا للشكوى من هٰذه الناحية، غير أنّه توجّس خوفًا من توثّبها إلى ازدراده كلّما أمكن ذٰلك، ورغبتها غير الواعية في أن تجعل منه زوجًا وأبًا وابنًا في آنٍ. ولعلّ لذٰلك صلة بتطلّعها الدافق الحزين إلى الأطفال، وإعرابها عن مشاعرها المكبوتة بالسهوم والنظرة القلقة والحركات العصبيّة الطارئة التي لا تنسجم مع كيانها الملِيء الرزين. وقال عيسى لنفسه إنّ التعاسة تبدو قاسمًا مشتركًا أعظم بين الناس جميعًا فما أحقر المظاهر، وتساءل عن السرّ الخفيّ المسئول عن هٰذا العبث. وقال أيضًا إنّه من حسن الحظّ أنّنا نستطيع أن نخفي أفكارنا عن الآخرين، وترى أيّ أفكار عنه تدور في رأسها الصغير الغزير الشعر؟ وهل تزعجها ـ مثلًا ـ الأسباب الحقيقيّة التي أوجبت فصله من وظيفته؟!

وتذكّر سلوى والجرح الذي حفرته في قلبه فازداد تنغيصًا، وتذكّر ريري أيضًا فقطّب بمرارة ودهمته لحظة سوداويّة فشعر بتفاهته إلى غير حدّ. ولذٰلك ذكر كيف كانت تزلزل الوزارة وهو يغادر صباحًا السيّارة الشيفروليه الحكوميّة، وذكر أيضًا يوم أراد أن يرشّح نفسه في دائرة الوايلي فنصحه عبد الحليم باشا شكري بتأجيل ذٰلك إلى انتخابات قادمة لاعتقاده بأنّه سيرشّح عمّا قريب وكيلًا للوزارة!

وفاجأه الراديو يومًا بقرار تأميم شركة قناة السويس! ارتفعت حرارة اهتمامه الخامد لدرجة الغليان. لهث في لهفة كأيّام زمان. وما لبث أن أغرقه مدّ الحماس الذي اجتاح الجميع. وافتقد بألم شديد الأصدقاء الغائبين لحاجته إلى تبادل الرأي معهم. واعترف بذهول أنّه عمل كبير حقًّا لدرجة أنّه لا يصدَّق. بذٰلك أقرّ عقله. أمّا قلبه فغاص في صدره كالمريض وأكله الحسد. إنّه ينذعر كلّما قامت قمّة في الحاضر تضاهي القمم التاريخيّة التي يعيش على ذكراها. وشعر بألم التمزّق في منطقة الجذب والشدّ الفاصلة بين شطري شخصيّته المنقسمة. وتساءل عن العواقب. وحاول أن يسأل نفسه عن موقفه بين هٰذه العواقب وسرعان ما هرب من معركته الداخليّة بإشراك زوجه وأمّها في الحدث ولٰكنّه لم يجد له صدى في نفسيهما فهرع إلى الفريجدير ليتناول بضع كاسات مريحة!

وعاد إلى القاهرة في منتصف سبتمبر متخم الحواسّ قد زاد وزنه زيادة ملحوظة. وكان يمرّ أمام بيته القديم وهو في طريقه إلى مسكنه الجديد بالدقّي فتنثال عليه الذكريات الحزينة. وراح يتبادل الزيارات مع أصحابه وقد كان لكلّ منهم زوجة شابّة متعلّمة ولٰكنّ قدريّة احتلّت بينهم مكانًا مرموقًا لجاهها ومالها. ولـمّا سأله سمير عبد الباقي:

ـ وكيف وجدت الزواج؟

أجاب بعد تأمّل دبلوماسيّ:

ـ عال، ولٰكن؟!

ـ ولٰكن؟!

ـ ولٰكن أشكّ في أنّ إنسانًا يهضمه بلا عمل وبلا أطفال.

وهجم اليهود على سينا، بذٰلك لطمته الصحف ذات صباح وزلزله الخبر. وجالس الراديو يتابع الأنباء بانتباه منصهر. انفعل بالنبإ لحدّ الهذيان. ودار رأسه بالأفكار حتّى أصابه الدوار. أجل تأرجح مصير الثورة في الميزان ولٰكن انفجر شعوره الوطنيّ فطغى على كلّ شيء. غضب الغضبة الجديرة بالوطنيّ القديم الذي كاد يدركه الموت. الوطنيّ القديم الذي تعذّب بالرغم من تلوّثه من أجل مصر. تشبّثت قدماه بحافة الهاوية التي تهدّد وطنه بالضياع. وأبعد عن ذكره الثورة ومصيرها ليحتفظ بمشاعره في أوج انفعالها. ومحا بقوّة إرادته المشاعر المتناقضة التي تدبّ تحت تيّار وعيه المتدفّق. وحانت منه التفاتة إلى زوجه فهاله عدم اكتراثها وانكبابها على روتين حياتها اليوميّة. ولم تخرج عن ذٰلك إلّا حين تساءلت بازدراء:

ـ حرب وغارات مرّة أخرى!؟

ورأى الأمر دعابة فأحبّ أن يعابثها ليروّح عن نفسه، قال:

ـ أنت مهتمّة جدًّا بإعداد الطعام، خبّريني عن حال الدنيا لو فعل كلّ إنسان مثلك؟

فقالت ببساطة:

ـ كانت تبطل الحروب؟

فضحك رغم همّه وغمّه وقال مدفوعًا بالرغبة في الدعابة:

ـ أنت يا قدريّة لا تهتمّين بالشئون العامّة، أعني الناس والوطن. . .

ـ حسبي اهتمامي بك وببيتك!

ـ ألا تحبّين مصر؟

ـ طبعًا.

ـ ألا تودّين أن ينتصر جيشنا؟

ـ طبعًا ليعود الأمان إلينا. . .

ـ ولٰكن ألا تحبّين أن تشغلي عقلك به؟

ـ عندي ما يكفيني من المشاغل. . .

ـ خبّريني عن مشاعرك لو كان مقصد اليهود أن يستولوا على أملاك الستّ الوالدة؟

فضحكت قائلة:

ـ يا خبر أسود! وهل قتلنا قتيلًا؟!

ووجد في ذٰلك كلّه مزاحًا يخفّف من حدّة مشاعره المتوتّرة، ورغم تجهّم اليوم ذهبا لزيارة عنايات هانم في السكاكيني فتناولا عندها الغداء ثمّ غادرا البيت قبيل المغرب. ووقفا في الميدان يتصيّدان تاكسي عندما انطلقت زمّارة الإنذار. وشدّت بيدها على ذراعه وهمست بصوت متهدّج:

ـ لنرجع. . .

عادا إلى العمارة، وهما يرقيان السلّم انطلق مدفع مضادّ فارتعدت كما دقّ قلبه بعنف. واجتمعوا في حجرة مغلقة الشيش، وراحت عنايات هانم تقول محتجّة:

ـ ضاع العمر من حرب لحرب، صفّارات إنذار وقنابل مدافع وقنابل طيّارات، ألا يحسن أن نبحث لنا عن مأوى غير هٰذه الأرض؟!

ولبثوا في الظلام بحلوق جافّة. ودوّت أربعة مدافع متباعدة، وعادت الأمّ تقول:

ـ سيدخل هٰذا الجيل الجنّة بغير حساب!

وساءل عيسى نفسه في حيرة حقيقيّة كيف تجرّأ اليهود على مهاجمة مصر بعد أن صنعت لنفسها جيشًا قويًّا بكلّ معنى الكلمة!؟

ـ ٢٣ ـ

وهرع إلى البوديجا مساء اليوم التالي ممتلئ الرأس بأخبار الصحف المطمئنة والمشجّعة. وتقاربت رءوسهم حول مائدة على الطوار في جوّ بديع حقًّا. تلاصقت أنفسهم بفعل قوّة حارّة عميقة يؤرّقها الشعور بالخطر والأمل. وجعل إبراهيم خيرت يشبّ بقامته القصيرة وهو يتساءل في انفعال:

ـ أتحسبون أنّ إسرائيل تقدم على هٰذه الخطوة وحدها؟

وتبادلوا نظرات غريبة نطقت فيها بواطنهم كأنّما تذهلهم سكرة، فعاد إبراهيم خيرت يقول:

ـ وراء إسرائيل تلبد فرنسا وإنجلترا وأمريكا!

وتساءل عيسى في جزع كيف يحدّد موقفه وسط هٰذه العواصف من الأفكار والعواطف؟!

وقال سمير عبد الباقي:

ـ يبدو أنّ جيشنا سيقضي عليها قبل أن يعلن حلفاؤها عن أنفسهم. . .

ندّت ضحكات ساخرة وكان المساء يهبط بالهدوء والخفاء وأخفض إبراهيم خيرت من صوته وهو يقول:

ـ الآن وضح الأمر فهي النهاية!

وتشرّبت قلوبهم المعنى المقصود بفرحة عصبيّة لم تخل عند البعض من شعور بالإثم. ورفع عبّاس صديق فاه عن النارجيلة وقال وعيناه الجاحظتان تلمعان بشدّة:

ـ هم أيضًا وراءهم من يسندهم!

فقال إبراهيم خيرت بازدراء:

ـ لا يوجد مجنون يفكّر جادًّا في إشعال حرب عالميّة من أجل نقطة لا تكاد تُرى فوق خريطة العالم.

وجد عيسى في مشاعرهم تعبيرًا سافرًا عن جانب من نفسه فقرّر أن ينطق الجانب الآخر، فقال:

ـ أتودّون حقًّا أن يهزمنا اليهود؟

فقال إبراهيم خيرت:

ـ سوف تكون هزيمة سطحيّة تخلّصنا من جيش الاحتلال الجديد ثمّ تجبر إسرائيل على التراجع وربّما

الاكتفاء بالاستيلاء على سينا وعقد صلح مع العرب، ثمّ تتدخّل إنجلترا وفرنسا لتسوية المسائل المعلّقة بالشرق الأوسط وإعادة الحالة في مصر إلى طبيعتها.

فتساءل عيسى:

ـ ألا يعني هٰذا الرجوع إلى النفوذ الغربيّ؟!

ـ هو على أيّ حال خير ممّا نحن فيه...

وقال عيسى وكأنّما يخاطب نفسه:

ـ أيّ مصيدة وقعنا فيها! إنّه التخبّط والتمزّق والعذاب، إمّا نخون الوطن أو نخون أنفسنا، ولٰكنّ الهزيمة في هٰذه المعركة تعني بالنسبة لي شيئًا هو أفظع من الموت...

فقال عبّاس صديق:

ـ أنت رومانتيكيّ جدًّا...

وقال إبراهيم خيرت:

ـ علام تحزن؟ لم يبق ما نحزن عليه. وفي نظر الميت تُعَدّ أيّ حياة خيرًا من الموت...

فقال عيسى:

ـ أحيانًا أقول لنفسي: إنّ الموت أهون من الرجوع إلى الوراء، وأحيانًا أقول لنفسي: لئن نبقى بلا دَور في بلد له دور خير من أن يكون لنا دور في بلد لا دور له...

فقال إبراهيم خيرت باسمًا:

ـ إنّك باعترافك منقسم الشخصيّة، ونحن لا يهمّنا رأي القسم المتكلّم وحسبنا رأي القسم الصامت.

وضحكوا عاليًا والليل يجثم. ثمّ التفت إبراهيم خيرت إلى سمير عبد الباقي بنظرة تحثّه على الخروج من صمته فقال:

ـ أودّ أن يعيش كلّ مواطن متمتّعًا بالكرامة البشريّة.

فقال إبراهيم خيرت:

ـ إذن فأنت من رأينا؟

فقال باختصار:

ـ كلمتي تحمل معنى أعمق!

ـ إذن فأنت تعارض رأينا؟

فعاد يقول:

ـ كلمتي تحمل معنى أعمق!

وغاص عيسى في نفسه القلقة. يجب أن ينصره شطره المتكلّم على شطره الصامت، وأن يحتقر المهاجين بلا حياء إعرابًا عن احتقاره لشطره الصامت. ماذا أدّى بنا إلى هٰذه الحال المحزنة حقًّا؟ وألا من سبيل إلى نسيان الهزائم الشخصيّة؟ إنّ المرض متفشٍّ في الوطن. ودوّت صفّارة الإنذار كأنّها جدار انقضّ عليهم بغتة. واختفى النور من الدنيا. وشملت الطريق حركة فرار في الظلام. واقترح سمير أن يدخلوا القهوة ولٰكنّ الفكرة لم تلق تشجيعًا من أحد. وتذكّر عيسى زوجته في وحدتها بالدقّي مع أمّ شلبي فأشفق عليها. وإذا بأصوات انفجارات بعيدة تتتابع بغزارة فبعثت الرعب في نفوسهم. وفي لحظة قصيرة أسرعوا إلى ركنهم الشتويّ داخل المقهى. ثمّ توالى الضرب البعيد في نظام مخيف. واختلطت التخمينات عن الأماكن التي ينهال عليها، شبرا؟ مصر الجديدة؟ حلوان؟

ـ من أين لليهود بهٰذه القوّة؟

ـ وأين طيّاراتنا ؟!

ولم يتوقّف الضرب ممّا قطع بقيام غارة حقيقيّة لعلّ البلاد لم تشهد مثلها طيلة أيّام الحرب العالميّة فاضطربت الأعصاب أيّما اضطراب. وجاء رجل من الخارج مهرولًا وهو يقول بصوت سمعته القهوة المظلمة:

ـ طيّارات بريطانيّة التي تقذف بالقنابل!

فهتفت عشرات الحناجر:

ـ غير معقول!

فأكّد الخبر قائلًا:

ـ سمعت هٰذا من محطّة الشرق الأدنى.

وانفجرت التعليقات في شبه هلوسة. ثمّ سكت الضرب. ومضت دقائق توقّع في صمت ورهبة. ثمّ انطلقت صفّارة الأمان واستردّوا أنفسهم من قبضة التوتّر وتبادلوا في الضوء العائد نظرات ذابلة كأنّها ترى بعد نعاس طويل. وفاضلوا بين البقاء والذهاب ولٰكنّ صفّارة الإنذار لم تمهلهم طويلًا فعادت تعوي من جديد. وما لبثت الانفجارات أن تتابعت حتّى همس إبراهيم خيرت:

ـ الظاهر أنّ النهاية أقرب ممّا نتصوّر.

فهمس سمير عبد الباقي:
ـ ادع الله ألّا نكون ضمن النهاية!
وبعد ساعة من العذاب انطلقت صفّارة الأمان فسرعان ما غادروا القهوة. واستقلّوا سيّارة إبراهيم خيرت. وما كادت السيّارة تصل إلى جسر أبي العلاء حتّى دوّت زمّارة الإنذار الثالثة فتوقّفت السيّارة قرب الطوار. ولم يكن هنالك مخبأ فقد فضّلوا البقاء في السيّارة. وقال إبراهيم خيرت وهو يضحك ضحكة عصبيّة:
ـ يجب أن نعيش إذ إنّ أسعار حياتنا آخذة في الصعود!
وبعد حوالى الساعة انطلقت صفّارة الأمان فأسرعت الفورد بهم عبر الجسر، ثمّ عبرت جسر الزمالك مائلة إلى شارع النيل، وعند أوّله دوّت صفّارة الإنذار الرابعة فوقفت السيّارة لصق أرض فضاء.
وتوالى الضرب بشدّة، وقال عيسى ليطمئن نفسه:
ـ لعلّهم يضربون الأهداف!
فقال سمير في إشفاق:
ـ وربّما جاء دور الضرب الأعمى!
فقال عبّاس صديق بصوت كأنّما قد أصيب بشظيّة:
ـ إنّ ضرب المدنيّين مسئوليّة خطيرة قبل العالم!
فقال إبراهيم خيرت:
ـ جميل جدًّا أن نطمئن أنفسنا!
ودوّت صفّارة الأمان بعد نصف ساعة فانطلقت السيّارة بأقصى سرعة لعلّها توصلهم قبل أن تدركهم الصفّارة التالية...

ـ ٢٤ ـ

سماء القاهرة معبر للطيّارات ليل نهار. وأعجب شيء أنّ الحياة اليوميّة واصلت مألوفها في البيت والديوان والدكّان والسوق بالرغم من أنّ أزير الطيّارات لا ينقطع، ولا تسكت الانفجارات. وردّدت الخواطر أنّ القنابل لا تسقط جزافًا ولكنّ همسات كثيرة جرت بأنباء الضحايا. ولم يغيّر الناس من سلوكهم المألوف ولكنّ الموت أطلّ عليهم من نافذة قريبة وتطايرت نذره إلى آذانهم فاقتحم الأفكار والقلوب. وانقلبت القاهرة إلى معسكر واخترقت شوارعها قوافل من العربات المصفّحة واللوريّات فغرقت الحياة العاديّة في بحر من الظنون والهواجس.
وانتقلت عنايات هانم لتعيش مع ابنتها في الدقّي حتّى تستقرّ الأمور. وفي الليل بدت الدنيا كما كانت تبدو قبل التاريخ، فانكمشوا في البيت حول الراديو، يستمدّون الريّ لجفاف حلوقهم من أصوات المذيعين والأناشيد الوطنيّة.
وباتت الانفجارات والمدافع المضادّة كنداء الباعة حتّى زاغ بصر الأمّ العجوز وبهت لون عينيها، وقبضت راحتها على المسبحة كأنّها مانعة صواعق. ولم تكن قدريّة دون أمّها تهافتًا، ولم تنفعها بدانتها، أمّا عيناها الناعستان فقد تولّى عنها جلال الخمول. ومناقشات هيئة الأمم ومجلس الأمن تنفذ من الراديو كالهواء للمختنق. وأساطير بور سعيد تتلى والقلوب تتوجّع.
وفي حال من أحوال الذعر تساءلت قدريّة:
ـ هل نحن كفء للإنجليز والفرنسيّين؟
فأجاب عيسى بوجوم:
ـ بور سعيد تقوم والعالم ثائر!
ـ هم يتكلّمون ونحن نُضرب!
ـ نعم، وما العمل؟
فهتفت بنرفزة:
ـ لكن لا بدّ أنّه يوجد حلّ، أيّ حلّ، وإلّا تحطّمت أعصابي...
وأعصابه أيضًا على أبواب التلف. الحزن والظلام والسجن. وألهمه الظلام بالاندفاع نحو أمل النصر. أشياء كثيرة ذابت في الظلمة فنسي الماضي والمستقبل وتركّز في نشدان النصر. ولعلّ تعذّر مغادرة البيت ليلًا أتاح له فرصة أكبر لتأمّل الموقف وللتشبّع بالخطر، والحنين للنصر، وإسكات شطره الخفيّ، فتحرّك في أعماقه نبع للحماس أوشك أن يدفعه إلى التضحية. وعند تسكّعه نهارًا قرأ في مئات الوجوه مشاعر كالتي تشدّه إلى الحياة رغم الغبار والفناء وشائعات الأنانيّة. أمسى كالغريق لا يفكّر إلّا في النجاة، وخيّل إليه أنّ الحاجز القائم بينه وبين الثورة يذوب بسرعة لم تخطر ببال من قبل.

وزاره إبراهيم خيرت عصر يوم في طريقه إلى مكتبه في المدينة. بدا شديد الثقة بنفسه، جادًا، وقال:

ـ إن هي إلّا ساعات ثمّ تنتهي المأساة!

فحدجه بنظرة ذاهلة من عينيه المستديرتين فقال الآخر مقطّبًا بدافع من إحساس بالسيادة:

ـ بعض رجالنا يقابلون المسئولين في هٰذه اللحظة ليقنعوهم بالتسليم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!

خيّل إليه أنّه يرى موكب المندوب السامي كما كان يراه في الماضي، وتساءل:

ـ ماذا سيبقى ليمكن إنقاذه؟

ـ لا تُغالِ في التشاؤم...

ثمّ استدرك حانقًا:

ـ أتعس الناس الذين يستوي لديهم الموت والحياة...

فقال عيسى في غمّ:

ـ كأشباح الكابوس...

فقال إبراهيم خيرت بحدّة:

ـ نحن في حال تهون معها الهزيمة...

ـ سنتعب كثيرًا إذا حاولنا إحصاء متاعب البشر، وإنّي لأتساءل هل الحياة صالحة حقًّا للبشر؟

فهزّ إبراهيم خيرت منكبيه في استهانة فعاد الآخر يقول:

ـ ربّما كان التعلّق بالحياة رغم آلامها نوعًا من الحماقة، ولٰكن ما دمنا أحياء فيجب أن نحارب كافّة السخافات بلا توانٍ...

فسأله إبراهيم خيرت:

ـ خبّرني هل تغيّرت حقًّا؟

فلم يجب بحرف، ودلّت تقلّصات وجهه على منتهى القرف.

ولٰكن بارتفاع الأزمة إلى ذروتها اندفعت إلى دوّامتها عوامل جديدة. العالم أصدر قراره، وتوالت الإنذارات، وأُجبر العدوّ على ازدراد كبريائه والإذعان لواقع لا قِبَل له به، وانفجرت فرحة أقوى من أيّ قنبلة.

ورجعت إلى ركن البوديجا الحياة فاجتمع الصحاب. ابتسامة باهتة ونظرة خامدة عمياء لا ترى مستقبلًا. وقال إبراهيم خيرت متهكّمًا:

ـ ثمّة أمل في أن يزيد وزننا كالمحكوم عليهم بالإعدام!

ولوّح عبّاس صديق بخرطوم النارجيلة قائلًا:

ـ هٰذا حظّ أندر مليون مرّة من ربح الصفر في الروليت...

وحتّى سمير عبد الباقي لم تخل عينه الخضراء من خيبة في أعماقها. الأعجب من ذٰلك أنّ عيسى نفسه ـ بعد أن ابتلّ ريقه بالنصر ـ فسرعان ما تهاوى في فتور عميق كتلٍّ من رماد. انقلب فكره إلى ذاته، وغاص مرّة أخرى في الظلمات...

ـ ٢٥ ـ

لكلّ إنسان عمل وهو بلا عمل. ولكلّ زوج ذرّيّة وهو بلا ذرّيّة. ولكلّ مواطن مستقرّ وهو منفيّ في وطنه. وماذا بعد الدورات الهروبيّة المعادة؟ تسكّع في الصباح ما بين قهوة وقهوة، ومجلس البوديجا مساء المركز في الاجترار، وزيارات مملّة في محيط الأسرة... ماذا بعد الدورات الهروبيّة المعادة؟! ويعاني آلامًا قاسية، ووحشة ومللًا، ويتساءل في جزع إلامَ تمتدّ هٰذه الحياة الكئيبة؟!

ها هو جالس يتشمّس وراء زجاج النافذة في جوّ قارص البرودة بلا عمل وبلا أمل. وها هي قدريّة عاكفة على قطعة من الكانفاه، لم تعد تبدّد له وحشة، وبشعر مشعّث وقسمات منتفخة أعلنت عن إهمال مألوف، وقد ازدادت شحمًا ولحمًا، ونطق وجهها الطبيعيّ بتنكّره الحاسم لرواء الشباب.

واستردّ نظرات الأسى من وجهها ليتصفّح الجرائد ويقرأ العناوين، إذ لم يعد يهتمّ بالاطّلاع على الأخبار، ثمّ استسلم لحديث النفس. وما أكثر ما حدّث نفسه في الأعوام الأخيرة. ليست قدريّة بالزوجة المطلوبة، وستظلّ حسرته على سلوى حيّة في القلب رغم موت حبّها، ولولا الخمر ما طاق الاستسلام إلى ذراعَي قدريّة ولولا اليأس ما احتمل التعريضات التي تطوّقه بسبب ثروتها، وهو نفسه يتألّم كثيرًا كلّما تذكّر أنّها تنفق مالها على بيتها وأنّه لا ينفق مليّمًا من معاشه إلّا على

نفسه، وحتّى رصيده لم تنتفع به حياته الزوجيّة شيئًا، فماذا تعني هٰذه البلطجة؟!

ويومًا أثبتت له أنّها تفكّر فيا وراء المائدة والكانفاه، قالت:

ـ عيسى، أنت تشرد كثيرًا وتلوح في وجهك الكآبة أحيانًا، وأنا أتألّم لذلك جدًّا.

فأبدى أسفه لتألّمها وقال:

ـ أنا بخير فلا تهتمّي لذٰلك.

ـ ولٰكن هناك أسبابًا تسيء إلى الرجل.

ـ مثال ذٰلك؟

ـ أن يكون بلا عمل وهو قادر عليه.

فابتسم وهو متضايق جدًّا وقال:

ـ لعلّه يضايقك أن تجدي زوجك عاطلًا!

فقالت بتوكيد:

ـ أنا لا يهمّني إلّا أثر ذٰلك عليك أنت.

ـ وماذا تقترحين أن أعمل؟

ـ أنت أدرى يا عزيزي...

فقال ببساطة:

ـ لا توجد وظيفة خالية.

وضحكا بلا روح ألبتّة ولٰكنّها عادت تقول برجاء:

ـ فكّر في ذٰلك جدّيًّا، أرجوك...

وقال لنفسه إنّها على حقّ، وإنّ رأسها البليد لا يخلو أحيانًا من فكرة صائبة، وهو نفسه يؤمن بضرورة العمل ولٰكن ما بال همّته خائرة؟... هل أصاب إرادته مرض؟... لم لا يفتح مكتبًا أو حتّى يشارك في مكتب؟!

كان يفكّر في العمل ولٰكنّه يعيش بلا عمل وبلا إقدام جدّيّ على الخطوة المطلوبة. وكان على درجة من الطمأنينة برصيده ثمّ زاد من طمأنينته زواجه الدسم، وفضلًا عن ذٰلك فإنّ معاشه يتكفّل بنثريّات حياته اليوميّة فأذعن للكسل والكبرياء، وتعزّز نفوره الأبديّ من أن يبدأ من أوّل الخطّ. وجرى وراء التسلية بأيّ سبيل سواء في البيت أو الخارج في رأس البرّ أو الإسكندريّة ولم ينتبه باهتمام إلى مرور الأيّام.

وقال له سمير عبد الباقي:

ـ وزنك يزيد باستمرار فانتبه لنفسك.

حقًّا إنّه يُكثر من الطعام والحلوى منه بصفة خاصّة ولا تخلو وجبة له من كأس أو كأسين، وقال:

ـ أعلم ذٰلك، وسيقول الناس إنّ زوجتي تعلفني بسخاء...

فقال سمير بحياء:

ـ لم أفكّر إلّا في صحّتك...

ـ نعم، ولٰكنّي أقرأ أحيانًا في أعين كثيرين...

فقال سمير مقطّبًا:

ـ أنت وحدك المسئول عن ذٰلك بكسلك، وإنّي أتساءل في دهشة أين عيسى زمان الذي كان يغادر الوزارة بعد منتصف الليل من كلّ يوم تقريبًا، فضلًا عن نشاطه المأثور في الحزب والنادي؟

وأعلن المعلن يومًا عن غزو الفضاء وافتتاح عصر جديد. استيقظ من سباته ودبّ الاهتمام في روحه الخامدة. وعاد يقرأ الجريدة بشغف ويستمع إلى الراديو بيقظة. ووجد في ركن البوديجا حديثًا غير حديث الحسرات السياسيّة ومضغ الشائعات.

وعلّق عبّاس صديق على ذٰلك قائلًا:

ـ ما أجمل أن تطالعنا الصحف كلّ صباح بإثارة كهٰذه!

وقال إبراهيم خيرت بحقد:

ـ هٰذا بشير بأفول نجم الساسة فلينزلوا عن مكانتهم للعلماء وليذهبوا في داهية.

وقال سمير عبد الباقي:

ـ آن لنا أن ننظر برجاء من جديد إلى السماء!

ورفع عيسى رأسه إلى سقف الحجرة كأنّه يتطلّع إلى السماء، وتخيّل الكواكب والنجوم برغبة طفل في الهرب الخياليّ الساحر، ثمّ تمتم:

ـ ما أجمل أن نهجر الأرض إلى الأبد.

ثمّ شاكيًا:

ـ الأرض أمست مملّة لدرجة المرض!

وتساءل ألا يمكن أن يؤكّد انتسابه إلى الإنسان ويتناسى انتسابه الجبريّ إلى هٰذا الوطن؟!

وجمعهم الصيف على غير عادة في رأس البرّ حتّى

عبّاس صديق مدمن الإسكندريّة. وأعدّ إبراهيم خيرت في عشّته غرفة للقمار والشراب كانوا يرجعون إليها بعد الرياضة المألوفة على شاطئ النيل. ثمّ انضمّ إليهم الشيخ عبد التوّاب السلهوبي الذي تصادف وجوده بالمصيف. وانزلقت رجل عيسى إلى البوكر بسهولة جدًّا، وبسبب القمار وما يدفع إليه من سهر حتّى الفجر نشب أوّل خلاف جدّيّ بينه وبين قدريّة. ووجدها عند الخلاف عنيدة كالبغل ولكنّه لم يبالها وأصرّ على سلوكه باستهتار. وعندما اتّخذ مجلسه على المائدة سأله إبراهيم خيرت وهو يملأ له كأسه من الكونياك:

ـ كيف حال الشئون الداخليّة؟

فأجاب باقتضاب:

ـ قطران!

فقال عبّاس صديق:

ـ زوجاتنا أكثر تسامحًا من قدريّة هانم فالرقابة يجب أن تتوقّف بعض الشيء في منفى جميل كرأس البرّ. . .

ونظر عيسى في ورقه فبهره منظر زوج الآس فدخل الدور بقلب قويّ، ثمّ واتاه الحظّ بزوج ثمانية فربح ستّين قرشًا حتّى قال الشيخ عبد التوّاب السلهوبي باسمًا:

ـ واظب على الربح تتحسّن شئونك الداخليّة!

ولكنّ عبّاس صديق تداركه قائلًا:

ـ حرمه لا يهمّها المال. . .

ومع أنّ الملاحظة بدرت تلقائيّة إلّا أنّ عيسى تألّم لها كثيرًا وبخاصّة وأنّه كان بصفة عامّة سيّئ الحظّ على المائدة حتّى اضطرّ إلى سحب مائة جنيه من فرع البنك لتعويض خسارته.

وسأل إبراهيم الشيخ السلهوبي عن عبد الحليم باشا شكري فأجاب:

ـ سافر إلى الخارج في الوقت المناسب وبالعذر المناسب، ولن يعود طبعًا.

فقال سمير عبد الباقي:

ـ الخارج ليس أفضل من الداخل وما أشبه صفحة السياسة الخارجيّة بصفحة الوفيات!

فقال عبّاس صديق:

ـ إذن فالعالم مهدّد بالفناء حقًّا. . .

فقال عيسى وهو يوزّع الورق:

ـ هو مهدّد بالفناء سواء بالحرب أو بالسلم!

فقال الشيخ السلهوبي ضاحكًا:

ـ أنت لا تتفلسف إلّا عندما تتدهور روحك إلى الحضيض فلعلّ طوفان حظّك أن ينحسر. . .

فلمّا خسر عيسى الدور رغم حوزه ثلاث عشرات قال للشيخ متغيّظًا:

ـ كلمة منك تنحس بلدًا. . .

فقال السلهوبي ضاحكًا:

ـ كلام فارغ، ها أنا ألاحق العهد الحاضر بكلماتي المباركة منذ مولده فماذا حصل له؟!

وانهمك في اللعب بمجامع روحه. واستمتع بالحرارة والحماس والأمل والاندماج في حيويّة فاترة. ونسي كلّ شيء حتّى التاريخ نفسه ونحسه، وعايش اللذّة في جنونها، وتجمّع على المائدة مبلغ لا يقلّ عن سبعة جنيهات. وتعلّق أمله بفردة آس. وسحب ورقة فإذا الآس يضحك بين يديه بوجهه الأحمر. فول آس. ولكنّ إبراهيم خيرت رمى بكاريه كالصاعقة. وسرت تقلّصات عدّة في جهازه العصبيّ. كيوم أعلن حلّ الأحزاب. وتساءل ماذا تصنع زوجه في هٰذه اللحظة؟ هل يدور الكلام بينها وبين أمّها؟ لعلّ العجوز تقول لها رضينا بالهمّ والهمّ لا يرضى بنا. وستقول أيضًا عاطل ومرفوت لسوء السمعة ولا يحمد ربّنا. الويل لها إذا تحدّته. امرأة مزواجة وعاقر. بحكم الطبيعة هي عاقر وبحكم السنّ. أنسيت أنّك تكبرينني بعشرة أعوام على الأقلّ!

وانتبه من غيبوبته إلى حديث يستطرد فيه الشيخ السلهوبي قائلًا:

ـ لذلك فنحن في عصر مبادئ كالحال أيّام الصراع بين الديانات الكبرى!

فتساءل سمير عبد الباقي:

ـ والأمم الصغيرة أيّ أمل لها في الحياة إن لم تختلف الأمم الكبرى؟

فقال الشيخ بيقين:

ـ الذرّة هي الطوفان، فإمّا توجّه حقيقيّ لله ذي

الجلال وإمّا الهلاك المبين!

وحاول عيسى أن يتذكّر متى ارتطم بهٰذه الفكرة، فكرة الطوفان من قبل؟ ثمّ أهمل التذكّر حين وجد بين يديه كاريه عشرات! توثّب لتعويض خسارة الليل الطويل. وفتح بخمسة وعشرين قرشًا ليجرّهم إلى الاشتراك في الدور. ولٰكنّهم انسحبوا تباعًا لعقم الورق بين أيديهم. ودار رأسه. ثمّ كشف عن الكاريه السعيد. وصارح إبراهيم خيرت:

ـ حظّك في الربح أسوأ منه في الخسارة!

وقال الشيخ السلهوبي:

ـ أنت سعيد في الحبّ بلا شكّ...

وأوشك أن يثور. وقال لنفسه إنّ القمار يتحوّل في النهاية إلى حمّى مميتة. وبدأ يعمل حسابًا للأزمة التي تتربّص له في البيت. وكفّ الجميع عن اللعب والفجر يقترب...

وتساءل عبّاس صديق وهو ينهض قائمًا:

ـ ما طعم رأس البرّ بلا قمار؟

وخرج عيسى إلى الطريق كشمعة لم يبق منها إلّا عقب فتيلة. وسار عبّاس صديق وسمير عبد الباقي في طريق ومضى هو بصحبة الشيخ عبد التوّاب في طريق آخر. وهبّ هواء مشبع بالطلّ في صمت خاشع... وتردّدت أنفاس النوم السعيد في ظلمة لا ضوء فيها إلّا ضوء النجوم وهلال آخر الشهر الصاعد. ومن بعيد رجّع الأفق هدير البحر.

وتأوّه الشيخ عبد التوّاب متثائبًا وهو يهتف «الله» ثمّ غمغم:

ـ ما أجمل هٰذه الساعة!

فضحك عيسى قائلًا:

ـ وخاصّة للرابحين!

فضحك الشيخ قائلًا:

ـ لقد خرجت من السهرة لا عليّ ولا لي، عبّاس صديق هو نار الله الموقدة...

ثمّ بعد هنيهة صمت:

ـ أنت مقامر خطير يا عيسى!

فقال بنبرة ذات معنى:

ـ لقد خسرنا رغم الكاريه الذي كان في يدنا...

وأدرك ما يعنيه فقال بحزن:

ـ هٰذا هو حال الدنيا، هل نستحقّ ما حاق بنا؟ فلنسلّم بأنّ لنا أخطاءنا ولٰكن من يخلو من الأخطاء؟ وكيف نسينا هٰذا الشعب المارق؟ كيف نسي الذين عاملوه معاملة الأمّ الرءوم لابنها الوحيد؟

وفاض الحزن بعيسى، وسلست إرادة كبريائه فاستجابت نفسه لرغبة طارئة في الاعتراف فقال:

ـ كنّا حزب المثل الأعلى، حزب التضحية والفداء، حزب النزاهة المطلقة، حزب «كلّا ثمّ كلّا» أمام كافّة المغريات والتهديدات، كنّا كذٰلك حتّى قبيل ١٩٣٦، فكيف أدركت روحنا الطاهرة الشيخوخة؟ كيف تدهورنا رويدًا رويدًا حتّى فقدنا جميل مزايانا؟ وها نحن نقلّب أيدينا في الظلام يملؤنا الشجن والشعور بالإثم، فواحسرتاه...!

فقال الشيخ بإصرار:

ـ كنّا خير الجميع حتّى آخر لحظة.

فقال بقسوة موجّهة في الحقيقة إلى ذاته:

ـ هٰذا حكم نسبيّ لا ترتضيه طبائع الأشياء، ولا تقتنع به الأمم المتوثّبة للحياة، فواحسرتاه!

وودّعه عند منعطف، وجعل ينظر إليه وهو يسير متمهّلًا والهواء ينفخ في جبّته الفضفاضة. وقال لنفسه بحزن: بدأ حياته بالاعتقال في طنطا، قبض عليه الجنود الاستراليّون وهو يهتف: «يحيا الوطن... يحيا سعد» ثمّ انتهى عام ١٩٤٢ بالاتّجار في الوظائف الخالية، كما انتهيت أنا بالرصيد رقم ٣٣١٢٣ ببنك مصر...

وأجال بصره في الكون، الهلال الصاعد في أبهى رواء والنجوم المتألّقة واللانهائيّة المسيطرة على كلّ شيء، ثمّ تساءل بصوت مسموع «خبّرني يا سيّدي ما معنى هٰذا كلّه؟ خبّرني فقد احتار دليلي!».

وضغط على جرس الباب فرنّ بقوّة في صمت الليل، وانتظر مليًّا ثمّ أعاد الكرّة. وانتظر ثمّ أعاد. وضغط على الجرس بإصرار مستمرّ ودون توقّف ولا مجيب.

وقال بحنق إنّها قرّرت ألّا تفتح له الباب!

وضرب الأرض بقدمه ثمّ ولّى الباب ظهره وذهب.

- ٢٧ -

بات ليلته عند إبراهيم خيرت، ثمّ استأجر في اليوم التالي حجرة بفندق جراند أوتيل على النيل. وعقب أسبوع اضطرّ إلى سحب مائة جنيه أخرى لتغطية خسائره المتتابعة ولمواجهة تكاليف الحياة اليوميّة. وذهبت زوجة إبراهيم خيرت بإيعاز من زوجها لزيارة قدريّة للاعتذار لها عن الدور غير المقصود الذي لعبه إبراهيم في نزاعها مع زوجها، ثمّ حاولت الإصلاح ولكنّها لم تلق استجابة... وتمادى عيسى في القمار بلا أدنى تقدير للعواقب. وقاطع سمير السهرة تقزّزًا من حال التدهور التي آلَ إليها صاحبه، وقال له سمير يومًا:

- يجب أن تعيد النظر في موقفك كلّه...

كانا يجلسان في كازينو سبرانو أمام البحر عند الظهيرة، وهو الوقت الذي يستيقظ فيه عادة. وكان عيسى يتابع بعينيه المستديرتين جموع السابحات. وأهمل التعليق على صاحبه مستسلمًا للذّة المتابعة ولـمّا كرّر الآخر قوله قال عيسى بنبرة اشتياق:

- كم أودّ أن أمارس تجربة لم تتح لي في وقتها وهي أن أغازل فتاة جميلة وأتعرّف بها ثمّ أخطبها وفي أثناء ذٰلك نتبادل الهدايا والمكالمات التليفونيّة والمواعيد...

فسأله سمير:

- أتريد حقًّا أن تتزوّج مرّة أخرى؟

فنظر إلى سحابة تسير ببطء راسمة صورة جمل ثمّ تساءل:

- انظر إلى هٰذه السحابة وخبّرني أمن الجائز أن تكون حياتنا قد خُلقت كما خلقت هٰذه الصورة؟

فابتسم سمير قائلًا:

- حتّى هٰذه الصورة الزائلة حتميّة ونتيجة لمئات من عوامل الجوّ والطبيعة، ولٰكن خبّرني أتريد أن تتزوّج؟

فضحك عيسى وأكمل الاسباتس وهو يقول:

- خاطرة حلم ليس إلّا، ما بال المتصوّفين يصدّقون كلّ شيء؟

فقال سمير بضجر:

- إذن لنتحدّث عن موقفك.

فقال بنبرة الروح نفسها:

- تصوّر أنّني قابلت وأنا قادم من الفندق سامي باشا عبد الرحمٰن الحرّ الدستوريّ القديم، أنا شخصيًّا شعرت نحوه بعطف ما لانتسابه معي إلى الجيل الزائل، وتصافحنا ووقفنا نتكلّم، ومن عجب أن قال لي في ختام حديثه «لولا سعد زغلول ما وصلنا إلى هٰذه الحال!».

وضحك سمير بقوّة لفتت إليهما عشرات الأعين حولهما. وإذا بعيسى يقول بنبرة جديدة:

- أكبر خازوق شربته هو مؤخّر الصداق، العجوز الداهية بعيدة النظر!

فقال سمير بأسف:

- قدريّة هانم ستّ معقولة جدًّا يا عيسى، أنت في حالة قمار جنونيّة.

فنفخ عيسى بضيق متمتمًا:

- الملل أجارك الله!

فربّت سمير على يده قائلًا:

- العمل... العمل، نصيحتي الأولى والأخيرة لك...

وفي أوّل السهرة الليليّة وعيسى منهمك في اللعب جاءه سمير يدعوه للقيام معه لأمر هامّ عاجل... وأراد عيسى أن يتجاهل الدعوة ويستمرّ في اللعب ولٰكنّ سمير انتزعه من المائدة رغم احتجاجه الصاخب، والاحتجاج الصامت المحدق به.

وفي عشّة سمير وجد نفسه أمام إحسان زوجة سمير وقدريّة زوجته التي جلست على مقعد كبير خافضة الرأس. ورحّبت به إحسان وأجلسته إلى جانبها على كنبة طويلة شبه مستديرة كثيرة الزخارف وهي تقول:

- نحن نشكر لك تفضّلك بالحضور.

ثمّ وهي تشير إلى قدريّة ضاحكة:

- أقدّم لك قدريّة هانم، صديقة عزيزة وحرم رجل عظيم من المفقودين في الحرب!

وتجهّم وجه عيسى، واحمرّ وجه قدريّة وابتلّت رموش عينيها، ولـمّا لاحظ سمير ذٰلك قال:

- علامة طيّبة تبشّر بالخير، ما قولك؟

ولم تكفّ الألسنة عن الكلام لحظة واحدة وقالت إحسان:

ـ لكلّ مشكلة حلّ بلا جدال...

وخاطب سمير قدريّة وهو يبتسم:

ـ الأمور تعالَج برفق، زوجك رجل عنيد، وقد تعرّض فيما مضى لألوان من الإرهاب والتعذيب ولٰكنّه لم يتحوّل عن رأي...

وتساءلت قدريّة:

ـ هل ترضيكم هٰذه الحال؟... تكلّموا...

وقدّمت صينيّة فضّيّة بقوالب الكاساتا وفطائر بلديّة من السوق فكانت هدنة استمتعوا فيها بأكلة ظريفة...

وقال سمير:

ـ الحقّ أنّ جميع البشر في حاجة إلى جرعات من التصوّف، وبغير ذٰلك لا تصفو الحياة...

فقال عيسى:

ـ نحن في حاجة إلى أن نعود للحياة مرارًا حتّى نتقنها...

فقالت قدريّة وكانت تخاطبه لأوّل مرّة:

ـ أرجو ألّا تؤجّل حسن معاملتك لي إلى حياة أخرى...

فقال سمير وهو يمسح بطرف منديل مبلّل بالماء نقطة من الفراولة الذائبة سقطت على ثنية بنطلونه عند الركبة:

ـ لنتكلّم عن المستقبل، أرجوكم.

فقالت قدريّة:

ـ أنا مؤمنة بأنّه لن ينقذه شيء من متاعبه سوى العمل، وفي سبيل ذٰلك أنا مستعدّة لأيّ تضحية!

فقال سمير:

ـ أوافقك كلّ الموافقة، ولٰكن حتّى ينفّذ هٰذه الفكرة الوجيهة يجب أن يبتعد عن رأس البرّ، حسبكما منها شهر أغسطس فاذهبا إلى الإسكندريّة لإتمام التصييف هناك، هٰذا ضروريّ جدًّا وعاجل...

فقالت قدريّة:

ـ سنسافر غدًا إذا وافق على ذٰلك...

وقال سمير وهو يوصلهما إلى باب العشّة الخارجيّ:

ـ وسوف تجد في الإسكندريّة متّسعًا للتفكير، ولدى عودتك إلى القاهرة في أكتوبر تبدأ العمل فورًا...

سارا جنبًا إلى جنب في طريق شبه خال ونصف القمر مرشوق فوق الأفق كابتسامة كونيّة في سماء صافية. وخطر له خاطر وهو أنّ هٰذا الجمال المنتشر في نظامه البديع ما هو إلّا قوّة مجهولة ساخرة تجبر الإنسان على الشعور بحدّة تعاسته وفوضاها.

وغمغمت قدريّة:

ـ اكتشفت أنّ عندي ضغط دم، وأنت السبب!

ـ حقًّا؟!

ـ نعم، كشف عليّ دكتور وكتب لي دواء ورجيمًا وسترى ذٰلك بنفسك!

وربّت على ظهرها قائلًا برقّة بالغة:

ـ ستشفين سريعًا بإذن الله...

وشعر بأنّه لا يتقدّم خطوة في طريق السعادة...

زواج بلا حبّ، حياة بلا أمل، ومهما وفّق إلى عمل فسيظلّ بلا عمل.

ـ ٢٨ ـ

سافرا إلى الإسكندريّة وحدهما، وبقيت الأمّ في رأس البرّ. وأقاما أيّامًا في فندق اللوفر حتّى عثر عيسى على شقّة في سيدي جابر بالدور السابع من عمارة مطلّة على البحر، وكان المصيف على وشك الوداع، حفّ به صخب الشباب، واستقبلت السماء أسراب السحائب البيضاء، وتهيّأ الجوّ للهدوء والتأمّل. وقدريّة بدت سعيدة حقًّا رغم توعّكها، وواظبت على العلاج والرجيم على ولعها المأثور بالطعام وقالت إذا كان ذٰلك سيخفّف من وزنها فبها ونعمت. وتحمّس عيسى للمشي وتجنّب الدهنيّات ما أمكن ليستردّ رشاقته، واتّفق الرأي بينهما على أن يشرع في العمل حال عودته إلى القاهرة. وقد استقرّ الرأي على فتح مكتب وإن لم يبدِ ارتياحه لذٰلك. قال:

ـ شدّ ما أتمنّى حياة أخرى...

فحملقت بعينيها البقريّتين في وجهه متسائلة فبادر يقول:

ـ لا تقلقي، هٰذا مجرّد حلم، أودّ أن أعيش في الريف بعيدًا عن القاهرة فلا أراها إلّا في المناسبات، وأن أقضي نهاري في عملي بالحقل وليلي في شرفة مطلّة

على الفضاء والصمت. . .

فقالت بقلق:

ـ ولٰكن لا علاقة لنا بالريف. . .

ـ إنّه مجرّد حلم. . .

ومرّت الأيّام في ضجر، ولم يجنِ من الشواطئ شبه الخالية إلّا الوحشة وبخاصّة وأنّ قدريّة آثرت البقاء في البيت أكثر الوقت بسبب صحّتها. وكان يمشي حتّى تكلّ قدماه ويجلس إذا جلس في فردوس جليم تعلّقًا بالذكريات. وقال لنفسه إنّ عصره قد انتهى وإنّه لن يندمج في الحياة مرّة أخرى بنفس الحال التي كان عليها من قبل، وإنّه يرتبط بامرأة ليسرقها لا ليحبّها. وتساءل متى يندثر العالم؟ وتساءل أيضًا ألا توجد أفكار من نوع آخر تفتح للصدر الحياة. . .

ووجد أمامه رجلًا من قرّاء الكفّ في زيّ هنديّ، يحدّق في وجهه بعينين برّاقتين وهو بمجلسه التقليديّ بالفردوس. وبسط للرجل كفّه فسحب هٰذا مقعدًا وجلس أمامه وعكف في الحال على قراءة خطوط راحته، وراح ينتظر صوت الغيب في استسلام باسم، وارتفع صوت الرجل قائلًا:

ـ عمرك طويل وستنجو من مرض خطير. . .

ثمّ بعد تأمّل:

ـ وستتزوّج مرّتين وتنجب ذرّيّة. . .

فانتبه باهتمام فاستطرد الرجل قائلًا:

ـ وفي حياتك تقلّبات كثيرة ولٰكن لا خوف عليك بفضل إرادتك الحديديّة، ولٰكنّك ستتعرّض لخطر الغرق في البحر!

ـ البحر؟!

ـ هٰكذا يقول الكفّ، وأنت رجل طموح بلا هوادة وستجد دائمًا رزقك موفورًا ولٰكنّ عصبيّتك تفسد عليك صفو حياتك في كثير من الأحايين. . .

وقام الرجل وهو يحني له رأسه تحيّة. وعندما همّ بالابتعاد سأله بلا وعي:

ـ وما المخرج؟

فالتفت إليه الرجل متسائلًا فاستسخف عيسى نفسه ولوّح له بيده شاكرًا. . .

وعند المساء مضى يتمشّى على الكورنيش حتّى بلغ كامب شيزار. وعند سلسلة من المقاهي والدكاكين ملتصقة بطول الطوار في مهرجان من الأنوار وقعت عيناه على وجه ريري! توقّف عن السير على الكورنيش وهو يحدّ بصره بانتباه الخائف فتوكّد لديه أنّها ريري دون غيرها. جلست على كرسيّ المديرة أو المالكة وراء صندوق الماركات بمحلّ صغير لبيع الدندرمة وشطائر الفول والطعميّة، وأسند ظهره إلى سور الكورنيش في موضع بعيد عن الضوء وراح يمعن النظر في وجهها بدهشة وهو لا يخلو من ضيق لذكرى سلوكه معها الذي دهمه بقسوة ونبوّة عن الذوق. ريري. . . ريري دون غيرها. . . ولٰكنّها لم تعد البنت الصغيرة، كلّا، إنّها امرأة بكلّ معنى الكلمة، وذات شخصيّة يستشعرها النادل الذي يتحرّك باستمرار بالطلبات بينها وبين الزبائن، امرأة جادّة ومديرة حقًّا. ومن عجب أن تمشّى بهٰذه الناحية طوال عشرين يومًا متتابعة دون أن يلتفت إلى هٰذا المحلّ الصغير الذي قرأ اسمه الآن بوضوح «خذ واشكر». وفي المرّات القلائل التي صيّف فيها في الإسكندريّة كان يتذكّرها ويخاف فكرة مقابلتها سواء وحده أو مع زوجه وأصدقائه ولٰكنّه لم ير لها أثرًا حتّى ظنّها قد رحلت عن البلدة أو عن الدنيا جميعًا. وكيف تأتّى لها أن تجلس هٰذا المجلس، وهل خمسة أعوام تكفي ـ بلا حرب عالميّة ـ لبلوغ هٰذه الدرجة؟ لا شكّ أنّ أبلتها في الإبراهيميّة تحسدها على هٰذا التقدّم السريع الذي لا تحلم به قريناتها! وقف في شبه الظلام لا يحوّل عنها عينيه، ويستحضر في ذهنه علاقتهما القديمة التي طويت في زوايا النسيان إلى الأبد، ويتعجّب من زيف العلاقات البشريّة. وقال إنّنا نجرّب الموت ـ ونحن لا ندري ـ مرّات ومرّات في أثناء حياتنا قبل أن يدركنا الموت النهائيّ. وما أشبه ريري في مجلسها بالمحلّ بالنادي السعديّ حين يمرّ أمامه أحيانًا أو ببيت الأمّة، جميعها حيوات قضي عليها بالموت المبكّر ولا يجنى منها إلّا الحسرات.

ودخلت المحلّ امرأة في هيئة الخدم ممسكة بيمناها بنتًا صغيرة ثمّ اتّجهت إلى ريري تحادثها باهتمام على حين وثبت الصغيرة إلى حجر ريري وراحت تعبث بعقد يطوّق عنقها بألفة واطمئنان. وعند ذاك خطر له

خاطر دقّ له قلبه حتّى غطّى على هدير البحر وراء ظهره. وتصلّب جسده وتركّز في الصغيرة حتّى فقد الوعي بما حوله، ولٰكن لا... لا... لِمَ تدور أفكاره في هٰذا المدار؟! أيّ وهم سخيف ومخيف معًا! ووجه الصغيرة متوجّه إلى أمّها فلم يره. وقال لنفسه قد تمرّ اللحظة بسلام وسيضحك من نفسه طويلًا فيما بعد ولٰكن قد تُزلزل الأرض وتخرب كلّ قائم. إذن فليهرب. لن يعود إلى كامب شيزار. لن يعود إلى الإسكندريّة. ولٰكنّه لم يتزحزح عن موقفه ذرّة واحدة. كيف دهمته هٰذه الأفكار السخيفة؟!

وتخلّصت ريري من البنت فقبّلتها وأنزلتها إلى الأرض فتناولت الخادم يدها ومضت بها خارج المحلّ مائلة إلى شارع جانبيّ يصعد إلى الداخل. وبدل أن يهرب عَبَرَ الطريق نحو الشارع الجانبيّ وهو يوسع خطاه حتّى كاد أن يلحق بالخادم والصغيرة. وارتفع صوت البنت بكلمات غير مفهومة أو لم يفهم منها سوى كلمة «شيكولاطة» في نبرة كزقزقة العصافير ووقفا أمام دكّان لبيع الحلوى واللعب عند منعطف الطريق المقاطع فاتّخذ مكانه إلى جانبها تحت ضوء ساطع وطلب علبة سجائر وراح يلتهم وجه البنت بغرابة ونهم. ألا يستوي هٰذا الوجه على هيئة مثلّث؟ والعينان المستديرتان؟ إنّ ملامح من أمّه وأخواته الثلاث يختلطن في صفحته. ويغبن ثمّ يظهرن. أهو وَهْم؟... أهو الخوف؟... أهي الحقيقة؟... إنّه يكاد يسقط إعياء! خفق بسرعة باعثًا موجات من الدهشة والتقزّز والرهبة والحزن، والحنان والرغبة في الموت...

وذهبت بها الخادم إلى عمارة قائمة أمام الدكّان في جانب الطريق الآخر فظلّ يُتبعهما عينيه حتّى اختفتا. ونظر إلى السماء وهو يتنفّس بصعوبة ثمّ تمتم «الرحمة... الرحمة...».

- ٢٩ -

وجلس في قهوة النسر وهي المجاورة لمحلّ ريري متجنّبًا مجال عينيها. وأسف كثيرًا لأنّه لم يحدّث الخادم ولا الصغيرة ولم يخرج لحظة عن الشلل الذي دهمه. ثمّ أليست الطفلة لطيفة ونشيطة وخفيفة وسنّها متوافق جدًّا مع ذٰلك التاريخ المحزن؟ وما عسى أن يفعل الآن؟ لا يجوز أن يؤجّل الجواب، ماضيه يزداد مقتًا وما أبغض فكرة الرجوع إلى قدريّة. وقد عدل بصفة حاسمة عن التفكير في الهرب. ولقد اعتاد أن يهرب مرّات في اليوم الواحد ولٰكنّه لن يهرب أمام هٰذه الحقيقة الجديدة التي اجتاحت مستنقع حياته الراكدة فتفجّر عن ينابيع حارّة. لعلّها دعوة أخيرة يائسة إلى حياة ذات معنى. معنى في حياة أعياه أن يجد لها معنى. لن يهرب، وليس في مقدوره أن يهرب وسيواجه الحقيقة بوجه متحدٍّ، وبأيّ ثمن، أجل بأيّ ثمن، وسيرحّب بذٰلك أيّما ترحيب. ولن يعجز قدريّة أن تجد لها رجلًا آخر ليعيش في كنفها، حقّ أنّها تستحقّ العطف ولٰكنّ حياته الكاذبة معها لا تستحقّ عطفًا. عبث أن يواصل حياة كاذبة يجترّ فيها أوهامًا ماضية ولا مستقبل لها. إنّ قلبه لا يخفق بحبّ شيء وها هي فرصة سانحة لكي يخفق حتّى الموت، والبنت ابنته، وسيعرف اليقين بعد دقائق، ولن يقضي عليها باليتم الذي قضى التاريخ به عليه. وسوف تنفجر بها في حياته قنبلة من التعليقات والأقاويل والظنون، ويمسي مضغة في الأفواه، لٰكنّه سيصمد للمحنة، ويتألّم، ويكفر، ثمّ يحيا، وأخيرًا سيجد للحياة معنى. وإذا تيسّر له أن ينضمّ إلى أسرته الحقيقيّة فسيبقى في الإسكندريّة ويستثمر ماله في المحلّ الصغير ويبدأ حياة جديدة. افترس الخجل والكبرياء والعناد وواجه الحياة بشجاعة.

انتظر حتّى فات الليل منتصفه، وخلا الكورنيش أو كاد، وولّى الجالسون، وآنس في محلّ ريري حركة شاملة تنذر بالنهاية فغادر مجلسه إلى الشارع الجانبيّ الصاعد إلى الداخل ووقف عند المنعطف المواجه للعمارة. وظهر شبح في أوّل الطريق الصاعدة، ها هي ريري قادمة. وتقدّم خطوة إلى ما تحت المصباح لتتجلّى معالمه. واقتربت منه ولٰكنّها لم تلقِ إلى الواقف بالًا. لم تعد تعبأ بالمتسكّعين وهٰذا حسن جدًّا. وعندما شرعت في المرور به قال بصوت رقيق متهدّج:

- ريري!

التفتت نحوه متوقّفة عن السير وهي تتساءل:

ـ مَن؟

اقترب منها خطوة وهي تتفحّصه دون أن يبين في وجهها أيّ انفعال حتّى قال في قلق:

ـ أنا عيسى.

تبدو حقًّا قويّة ومحتشمة وجذّابة. ولا شكّ أنّها تذكّرته فهٰكذا تقول الدهشة والتقطيب واختلاج الشفتين والتقزّز. وهمّت بالسير فاعترض سبيلها فهتفت بغضب:

ـ مَن أنت؟... وماذا تريد؟

ـ أنا عيسى كما تعلمين!

فقالت بحدّة وهي تعاني شتّى الانفعالات:

ـ أنا لا أعرفك...

فقال بحرارة:

ـ بل تعرفينني... لا داعي للإنكار؟

ثمّ مستدركًا بنفس الحرارة:

ـ لا أمل عندي في قبول أيّ عذر ولٰكن لدينا ما نتحدّث عنه...

ـ أنا لا أعرفك ودعني أمرّ...

فقال يائسًا:

ـ يجب أن نتحدّث، هٰذا أمر لا بدّ منه، وأنا أتعس ممّا تتصوّرين!

فقالت بغضب:

ـ اذهب... اختفِ... هٰذا خير ما تفعل...

ـ ولٰكنّي أكاد أجنّ، مَن الطفلة يا ريري؟!

ـ أيّ طفلة!

ـ الطفلة التي جلست على حجرك منذ ساعات ثمّ دخلت هٰذه العمارة مع خادمتها، رأيتك مصادفة، ثمّ رأيتها. وتبعتها حتّى دخلت العمارة. أؤكّد لك أنّني أتعس ممّا تتصوّرين...

فقالت بإصرار:

ـ لا أدري شيئًا عمّا تتحدّث عنه. اذهب، فهٰذا خير ما تفعل.

ـ إنّي أكاد أجنّ، يجب أن تتكلّمي، هي ابنتي يا ريري. يجب أن تتكلّمي...

فصاحت به في الشارع الصامت:

ـ ابعد عن وجهي، أنت أعمى ومجنون، ويجب أن تختفي...

ـ ولٰكنّ قلبي حدّثني بكلّ شيء...

ـ إنّه كذّاب مثلك، هٰذا كلّ ما في الأمر...

ـ لا بدّ أن تتكلّمي، الجنون يعصف برأسي، أنا أعلم مدى نذالتي ولٰكن يجب أن تتكلّمي، قولي إنّ البنت هي ابنتي...

ـ ليس عندي ما أقوله لك سوى أن تذهب وأن تختفي...

ـ أنا أعلم أنّني أستحقّ عذاب الجحيم، ولٰكن لديّ فرصة لصنع شيء طيّب فلا تضيّعيها عليّ...

فصاحت به كالزوبعة:

ـ اذهب ولا تُرني وجهك...

ـ ريري، أصغي إليّ، ألا ترين أنّني سأطالبك بالكلام ولو متّ موتًا...

ـ ٣٠ ـ

رجع إلى مسكنه قبيل الفجر بعد أن هام على وجهه طويلًا في الكورنيش ولا ثاني له. لم يسمع هدير البحر ولم ير نجمًا واحدًا. ووجد قدريّة ساهرة في انتظاره على غاية من القلق والاستياء. أوشك أن يعترف لها بكلّ شيء، ولو كان آنس من ريري بادرة تشجيع واحدة لاعترف، لٰكنّه لم ير بدًّا من أن يقول لها إنّ مقاومة عادته السيّئة تدفعه إلى التسكّع على الكورنيش حتّى الفجر. وقال لنفسه وهو يستلقي على الفراش: اللعنة... اللعنة... يجب أن تقتلع هٰذه الحياة الكاذبة من جذورها، إمّا حياة جديدة أو لا مناص من الردّة إلى القمار والكونياك وأحاديث العجائز بركن البوديجا.

وفي مساء اليوم التالي صحبها كارهًا إلى سينما ريو ثمّ تناولا العشاء في تافرنا ثمّ أوصلها إلى البيت ثمّ مضى وهو يقول:

ـ نامي يا عزيزتي واشبعي نومًا ودعيني أعالج نفسي...

وحام طويلًا حول محلّ ريري وأمام العمارة لعلّه يرى الطفلة ولٰكنّه لم يوفّق فجلس في قهوة النسر.

ورغم فشل الأمس داعبه أمل غامض كنشوة اليأس فاعتقد أنّ كافّة مشاكل العالم ستُحلّ الليلة بلا عناء. ونظر إلى السماء المتوارية وراء ظلمات السحب وقال إنّ الخريف في الإسكندريّة روح من أرواح الجنّة وهو مغسِّل لجميع الأحزان. وإنّ جميع الأحزان ما هي إلّا أوهام وإنّ الموت هو حارس السعادة الأبديّ وقال لنفسه بصوت مهموس:

ـ ما أجمل أن يسكر بلا خمر. . .

وإذا بماسح أحذية يقف أمامه وهو يرمقه بنظرة استجداء. وقرأ في نظرته أكثر من معنى فأشار إليه أن يجلس ثمّ سلّم إليه قدميه. وأراد أن يتأكّد من ظنّه على سبيل التسلية فسأله:

ـ هل توجد شقّة خالية؟

فابتسم قائلًا:

ـ في هذا الوقت الشقق أكثر من الهمّ على القلب. . .

ـ أقصد غرفة خالية؟

ـ في بنسيون؟

ـ أفضّل أن تكون في عائلة. . .

ـ العائلات أيضًا أكثر من الهمّ على القلب. . .!

وضحك عيسى في ارتياح، وإذا بخاطر يخطر فأشار نحو محلّ ريري متسائلًا:

ـ ماذا عن صاحبة «خذ واشكر»؟!

فتغيّرت سحنة الرجل وقال بلهجة جادّة:

ـ لا. . . لا. . . هٰذه ستّ بمعنى الكلمة.

فحدجه بنظرة كأنّما تقول له «اطلع!» فقال الرجل:

ـ لا تضع وقتك. . . أنا لا شأن لي بها. . .

ـ أنت لم تفهمني فنظرة واحدة إليها تقنع بما تقول، ولها طفلة لطيفة جدًّا. . .

ـ نعم، نعمات، بنت حلال!

فابتسم عيسى متظاهرًا بعدم الاكتراث ثمّ تساءل:

ـ ولكنّ أحدًا لا يرى أباها أليست الستّ متزوّجة؟

ـ طبعًا. . . وزوجها هو صاحب المحلّ.

ـ وماله لا يدير محلّه بنفسه؟

قال الرجل بعد تردّد:

ـ في السجن ولا مؤاخذة!

ـ لأيّ سبب؟

ـ مخدّرات. . . مظلوم والله. . .

ـ ربّما يفرج عنه ولٰكن أنت متأكّد أنّه والد الطفلة؟

فلمعت في عينيه نظرة حذر وقال:

ـ طبعًا!

فقال عيسى بجرأة وثبات:

ـ كلّا. . .

ثمّ وهو يضحك:

ـ أنت تعرف الحقيقة وتنكرها أو أنّني أعرف أكثر منك. . .

ـ ماذا تعرف؟

ـ أحبّ أن أسمع منك وإلّا فكيف سنتعامل معًا ما دمت تبدأ بالكذب عليّ!

فقال باستسلام وهو يشبع الحذاء بالورنيش:

ـ يقال إنّه كتبها باسمه في شهادة الميلاد الرجل الطيّب!

ـ ولٰكن لِمَ؟

ـ عجوز وطيّب ولا ولد له وأحبّ الستّ وتزوّجها على سنّة الله ورسوله!

فقال عيسى وهو يزدرد ريقه بصعوبة:

ـ رجل طيّب حقًّا ولا يستحقّ السجن. . .

ـ ولذٰلك فهي تعمل مكانه وتنتظره بصبر وإخلاص.

ـ يستحقّ ذٰلك وأكثر. . .

وأعطاه عشرة قروش، وأمّله خيرًا فيما سيأتي من أيّام. . .

وانتظر عقب منتصف الليل تحت المصباح، ولـمّا لمحته وهي آتية قطّبت في غضب وابتعدت عن موقفه ولٰكنّه قال لها بتوسّل:

ـ أنا منتظر ومعذّب ولا بدّ أن نتكلّم. . .

وسارت دون أن تحيّيه فاعترض طريقها قائلًا:

ـ هي ابنتي، قولي لي ذٰلك على الأقلّ. . .

قالت بحدّة:

ـ سأنادي البوليس!

ـ هي ابنتي! عرفت الحقيقة كلّها. . .

ـ سأنادي البوليس، ألا تسمع؟

ـ بل نادي الرحمة والصفح.

فهدّدته بسبّابتها قائلة:

ـ أنت تستحقّ الحرق لا الصفح...

ـ لنبحث عن طريقة لننسى الماضي كلّه.

ـ نسيته كلّه فاختفِ معه...

ـ اسمعي يا ريري، أنت تنتظرين عبثًا، ستنالين حرّيّتك ثمّ...

فقاطعته صارخة:

ـ يا لك من وغد كما كنت دائمًا، لا تتصوّر الخير أبدًا.

تقبّض وجهه من الألم ثمّ أنَّ قائلًا:

ـ الواقع أنّني في غاية من العذاب...

فقالت بحدّة قاسية:

ـ لا شأن لي بعذابك...

ـ البنت ابنتي ولا علاقة لها بالرجل الذي في السجن...

قلّبت عينيها في وجهه بدهشة ثمّ سرعان ما استردّت قوّتها وهي تقول:

ـ هي ابنته، تبنّاها بأخلاقه فملكها إلى الأبد، وأنا مثلها...

اشتدّ تقبّض وجهه فقالت منذرة:

ـ احذر أن تلقاني بعد الآن، إنّي أحذّرك...

ـ يا ريري أنت تغلقين باب الرحمة...

ـ أنت الذي أغلقته فاذهب...

قال بنبرة باكية:

ـ ابنتي...

فصرخت وهي تندفع في سبيلها:

ـ لست أبًا، أنت جبان ولا يمكن أن تكون أبًا...

ـ ٣١ ـ

وقف متواريًا وراء ضلع كابين بساحل كامب شيزار يسترق النظر إلى أسرته الطبيعيّة، كانت ريري تجلس تحت مظلّة شابكة ذراعيها على صدرها وعلى بعد أمتار منها عكفت نعمات الصغيرة على الرمال تحفر حفرة بدأب واهتمام. والصباح كان صحوًا والشمس تغمر القلّة المتفرّقة على الساحل، شمس ناعمة ملاطفة أضاءت جوًّا منعشًا. توارى عن عينيها حتّى لا تظنّ بمقدمه الظنون، وذابت روحه في نظرته المركّزة على الطفلة يودّ أن يقبّلها قبلة حارّة ثمّ يذهب إلى الأبد. جسمها صغير لكنّه متناسق. ويرسم هيئة امرأة بصورة مصغّرة. وساقاها الملوّنتان بالشمس وفخذها وشعرها المرسل المبتلّ الأهداب وضلعاها البارزان العاريان ولبس البحر النصف برتقاليّ وانهماكها الشديد، والخوف من ناحية أمّها ولكنّ الحياة قد خلقت من هاتين الصفتين المرذولتين مخلوقة جذّابة مفعمة بالصحّة والهناء. هكذا اقتضت إرادة القوّة الخفيّة وهكذا انهارت العراقيل أمام الوثبة الأبديّة الغامضة. هذه الصغيرة شاهِدٌ على سخف كثير من المخاوف، شاهِد الطبيعة عندما تضرب لنا المثل على إمكان التغلّب على المفاسد. الآن ألا تستطيع أن تقلّد الطبيعة ولو مرّة؟ ألا تستطيع أن تخلق من أحزانك وخسائرك وهزائمك نصرًا ولو بسيطًا؟ وما هو بالنادر ولا بالجديد فهذا البحر الذي احتفظ بصورته ملايين السنين قد شهد أمثلة على ذلك لا حصر لها، كذلك هذه السماء الزرقاء الصافية.

وأخيرًا خرج من مكمنه نحو الطفلة غير مبالٍ بقومة ريري المتحفّزة، وهوى نحوها فطبع على خدّها ـ رغم انزعاجها للمباغتة ـ قبلة حارّة طويلة ثمّ ذهب مغمغمًا «الوداع» ولم يلتفت وراءه مرّة واحدة.

وعندما جاء وقت الغداء لم يجد رغبة في الرجوع إلى البيت فتناول غداءه في «على كيفك». وذهب إلى سينما الساعة الثالثة، ثمّ دخل سينما أخرى الساعة السادسة، ثمّ عاد إلى «على كيفك» ليتناول العشاء ويشرب الكونياك. وطال المجلس فانتشى رأسه بنفثات الخمر وهو يتسلّى بالنظر والأحلام. وقبيل منتصف الليل رأى شخصًا قادمًا نحو المطعم جذب انتباهه فيما يشبه الصدمة الكهربائيّة. فارع الطول مفتول العضل داكن السمرة، يرتدي بنطلونًا وماديًا وقميصًا أبيض يكشف عن ساعديه، وبين أصبعي يسراه وردة حمراء. اقترب بخطوات قويّة رشيقة تلمع في عينيه نظرة جريئة نافذة. التقت عيناهما وهو يدخل المحلّ فحدجه القادم بنظرة قويّة أدرك منها أنّه تذكّره ثمّ حوّل عنه وجهه

المستطيل المتناسق وهو يكاد يبتسم ثمّ مضى نحو ركن عصير الفاكهة، هو هو دون غيره، أيّام الحرب الكالحة، ليلة قبض على الشابّ فشهد هو التحقيق معه ـ بصفته الرسميّة والحزبيّة ـ حتّى مطلع الفجر. وكان الشابّ جريئًا وعنيفًا ولم ينته التحقيق معه إلى إدانة ولْكنّه أُرسل إلى المعتقل ولبث فيه حتّى إقالة الوزارة. ترى ماذا يفعل الآن؟ وهل يحظى في العهد الجديد بمنزلة سامية؟ أم لا يزال ثائرًا؟ ولِمَ يبتسم؟ ومن المؤكّد أنّه تذكّره فهل يتوقّع من ناحيته مفاجأة سيّئة؟ وقرّر أن يطرده عن خاطره ولْكنّه التفت نحو ركن الفاكهة بدافع لم يستطع مقاومته فرآه واقفًا متّجهًا إلى داخل المحلّ قابضًا على كوب من عصير المانجو، ويرنو إليه بنظرة استطلاع وتأمّل وفي عينيه شبه ابتسامة ساخرة. وأعاد رأسه إلى الخارج وهو من الضيق في غاية، وكأنّ الماضي من خلال هٰذه النظرة يطارده. وما لبث أن قام ثمّ غادر المحلّ ماضيًا إلى الكورنيش رأسًا. ولم يخطر له أن يعود إلى البيت، بل وخيّل إليه أنّه لم يعد له بيت على الإطلاق، ومال بعد مشية غير قصيرة إلى الميدان ثمّ جلس على أريكة تحت تمثال سعد زغلول. أغلب الأرائك خالية، والهواء البارد في غير قسوة يتجوّل في الرحبة الفسيحة لاعبًا بالنخيل، والنجوم تومض في القبّة الهائلة، والليل راسخ كالأبديّة، ولم يكن قد نجا بعد من ذكريات الشابّ الناشبة في مخيّلته ولْكنّه صمّم على أن يرسم للمستقبل خطّة. ولم يكد يستغرق في أحلامه حتّى شعر بشخص يجلس إلى جانبه فالتفت نحوه في غيظ مكبوت فرأى الشابّ المقتحم. واضطرب في خوف، وقال إنّه لا شكّ قد تبعه خطوة فخطوة وإنّه يضمر له شرًّا! وتوثّب للدفاع ولْكنّه خجل في ذات الوقت من فكرة الانسحاب. وجاءه صوت حلقيّ يقول في لطف:

ـ مساء الخير يا أستاذ عيسى، أو صباح الخير فقد انتصف الليل منذ دقائق!

رمقه بنظرة باردة على ضوء غير قريب وقال:

ـ صباح الخير، من حضرتك؟!

ـ لا شكّ أنّك تذكرني!

فقال عيسى مصطنعًا الدهشة:

ـ آسف جدًّا، من حضرتك؟!

فضحك ضحكة كأنّها تقول «أنت عارف وأنا عارف» ثمّ قال:

ـ الخصم هو آخر مَن تنسى!

ـ لا أفهم شيئًا!

ـ بل تذكر التحقيق الذي استمرّ حتّى الصبح، واعتقالي بعد ذلك، حتّى أنتم كنتم تعتقلون الأحرار ويا للأسف!...

فقال عيسى بنبرة متقهقرة:

ـ لا أدري عمّا تتحدّث بالضبط ولْكنّي أذكر أيّام الحرب بلا شكّ كما أذكر ظروفها القاسية التي اضطرّتنا كثيرًا إلى ما نكره...

ـ هٰذا هو الاعتذار التقليديّ، ما علينا، ما فات فات.

ولم يعلّق عيسى بكلمة ونظر إلى الأمام معلنًا رغبته في الانفصال لعلّ الآخر يذهب أو يتركه في سلام ولْكنّه عاد يقول برقّة:

ـ وتغيّرت الدنيا، لا تظنّني شامتًا، أبدًا والله، بل إنّني في كثير من الأحيان لا أخلو من عطف...

فقاطعه قائلًا بشيء من الحدّة:

ـ لست في حاجة إلى عطفك...

ـ لا تغضب، ولا تسئ فهم تطفّلي عليك، إنّني أرغب مخلصًا في تبادل الرأي...

ـ عن أيّ شيء؟

ـ الدنيا مِن حولنا؟

وشعر عيسى بأنّه ما زال ثملًا ولْكنّه قال:

ـ لم يعد يهمّني شيء...

فقال الشابّ بدهشة:

ـ أمّا أنا ففي الطرف الآخر، كلّ شيء يهمّني وأفكّر في كلّ شيء...

ـ فلتطب لك الدنيا كما تشاء...

ـ أليس هذا بخير من الجلوس في الظلام تحت تمثال سعد زغلول؟!

ـ هٰكذا هي تطيب لي فلا تشغل بالك بأمري...

ـ أنت لم تقرّر بعد أن تفتح قلبك لي...

ـ ولِمَ ذٰلك! ألا ترى أنّ الدنيا كلّها مملّة؟

ـ ليس عندي وقت للملل!

ـ ماذا تفعل إذن؟

ـ أعابث المتاعب التي ألفتها وأنظر إلى الأمام بوجه مبتسم، بوجه مبتسم رغم كلّ شيء، حتّى ظُنّ بي البله...

ـ وما الذي يدعوك إلى الابتسام؟

فقال الشابّ بلهجة أكثر جدّيّة:

ـ أحلام عجيبة، ما رأيك في أن نختار مكانًا أنسب للحديث؟

فقال عيسى بسرعة:

ـ آسف، الحقّ أنّي شربت كأسين وأرغب في الراحة...

فقال الآخر بأسف:

ـ أنت تودّ أن تجلس في الظلام تحت تمثال سعد زغلول.

ولم يجب عيسى بكلمة فقام الآخر وهو يقول:

ـ أنت لا ترغب في حديثي فلا يجوز أن أزعجك أكثر من ذلك...

وتحوّل عنه ماضيًا نحو المدينة.

وتابعه بعينيه وهو يبتعد. يا له من شابّ غريب! ترى ماذا يفعل اليوم؟ وهل رحمته المتاعب؟ ولماذا ينظر إلى الأمام بوجه مبتسم؟

وظلّ يتابعه بعينيه حتّى بلغ آخر الميدان. لم يكن سيّئ النيّة كما توهّم، ولم يقصده بسوء، فلِمَ لم يشجّعه على الحديث؟ ألم يكن من الممكن أن يستعين به على مغالبة الملل في هذه الساعة من الليل؟ وألم يكن من المحتمل أن يجرّهما الحديث إلى شيء مشترك تطيب به السهرة؟

ورآه وهو يختفي متّجهًا نحو شارع صفيّة زغلول. وقال لنفسه أستطيع أن ألحق به على شرط ألّا أضيّع ثانية في التردّد.

وانتفض قائمًا في نشوة حماس مفاجئة، ومضى في طريق الشابّ بخطى واسعة، تاركًا وراء ظهره مجلسه الغارق في الوحدة والظلام...

دنیا الله

دنيا الله[1]

دبّت الحياة في إدارة السكرتاريّة بدخول عمّ إبراهيم الفرّاش. فتح النوافذ واحدة بعد أخرى، ومضى يكنس أرض الحجرة الواسعة بلبّ شارد ودون اكتراث. واهتزّ رأسه بانتظام وبطء، وتحرّك شدقاه كأنّما يلوك شيئًا. فقلقت تبعًا لذلك منابت الشعر الأبيض في ذقنه وعارضَيْه، أمّا صلعته فلم تكن بها شعرة واحدة. وعاد إلى المكاتب ينفض عنها الغبار ويرتّب الملفّات والأدوات، ثمّ ألقى على الحجرة ـ الإدارة ـ نظرة شاملة، ثمّ نقل بصره بين المكاتب وكأنّما يرى شخوص أصحابها، فلاحَ الارتياح في وجهه حينًا والامتعاض حينًا ومرّة ابتسم، ثمّ ذهب وهو يقول لنفسه: «الآن نذهب لإحضار الفطور».

وكان السيّد أحمد كاتب المحفوظات أوّل مَن حضر، جاء بكاهل ينوء بخمسين عامًا ووجه نقش على صفحته امتعاض ثابت كأنّه سجلّ لقرف الزمن. وتبعه السيّد مصطفى الكاتب على الآلة الكاتبة الذي يضحك كثيرًا لكنّه ضحك متوتّر يداري به همومه اليوميّة. ثمّ جاء سمير أو الرجل الغامض كما يدعى في الإدارة، والجنديّ الذي ينمّ تطلّق أساريره على أنّه لم يخرج من نعمة الطفولة. ودخل يتبختر السيّد مصطفى، أنيقًا ذهبيّ الخاتم والساعة ودبّوس الكرافتّة، ولحق به حمام رقيقًا نحيفًا منطويًا على نفسه.

وأخيرًا حضر سيادة مدير الإدارة، الأستاذ كامل، محوطًا بهالة من وقار، وفي يده مسبحة. وضجّت الإدارة بالأصوات وخشخشة الأوراق. ولكنّ أحدًا لم يشرع في عمل، حتّى المدير انهمك في مكالمة تليفونيّة، وانطلقت صفحات الجرائد في الجوّ كالأعلام. وقال لطفي وهو يتابع الأخبار بعينيه:

ـ ستكون السنة نهاية العالم..

وعلا صوت المدير وهو يقول متهلّلًا في التليفون:

ـ وهل يخفى القمر؟

وتساءل سمير:

ـ لماذا نشقى بالزواج والأبناء، ها هو شابّ يقتل أباه تحت بصر أمّه!

كذلك تساءل أحمد بصوت متحشرج:

ـ ما فائدة كتابة روشتّة إذا كان الدواء غير موجود بالسوق!

ولبث الجنديّ يرمي ببصره من مجلسه إلى عيادة دكتور في العمارة المواجهة يرصد ظهور ممرّضة ألمانيّة شقراء في النافذة ثمّ عاد لطفي يقول مؤكّدًا:

ـ صدّقوني، نهاية العالم أقرب ممّا تتصوّرون...

ووضع المدير يده على السمّاعة وقال لحمام آمرًا:

ـ جهّز الملفّ ١ ـ ٣/١٣٠ عام..

ثمّ عاد إلى المحادثة الشائقة فلم يرفع حمام رأسه

عن الجريدة وهمس بين أسنانه «داهية في أمّك!». وإذا بعمّ إبراهيم يعود بصينيّة ممتلئة. وراح يوزّع سندوتشات الفول والطعميّة والجبن والحلاوة الطحينيّة. وطحنت الأفواه الطعام وتجاوب التمطّق في الأركان ولم تتحوّل الأعين عن أعمدة الصحف. ووقف عمّ إبراهيم عند مدخل الإدارة يرقب الآكلينَ بنظرة غريبة من عينيه الذابلتين حتّى هتف به أحمد بصوت يعترضه الطعام:

ـ كشف الماهيّات يا عمّ إبراهيم.

فذهب الرجل. وبعد ساعة من الوقت دخل الحجرة بائع الكرفتّات والروائح العطريّة الذي يزور الإدارة عادة في أوّل الشهر. ومرّ بالمكاتب عارضًا بضاعته فأقبل الموظّفون يتفحّصونها وأخذ بعضهم ما يحتاجه منها، وغادر الرجل الحجرة على أن يعود إليها بعد قبض الماهيّات، وبعد ساعة أخرى جاء بيّاع السمن ليجمع الأقسام المستحقّة، ولٰكنّ مصطفى قال له بلهجة ذات معنى وهو يضحك:

ـ انتظر حتّى يرجع عمّ إبراهيم. .

فوقف الرجل عند الباب وشفتاه تتحرّكان بتلاوة مستمرّة. وكانت الآلة الكاتبة تنقر بنشاط، على حين انتقل سمير إلى المدير ليعرض أوراقًا هامّة. ودخلت الشمس لأوّل مرّة من النافذة المطلّة على الميدان. وما زال الجنديّ يختلس النظرات إلى نافذة العيادة. ونادى المدير عمّ إبراهيم لأمر فذكّره مصطفى بأنّه لم يرجع بعد من الخزينة، وعند ذاك تساءل أحمد رافعًا رأسه عن الملفّات:

ـ الرجل تأخّر! لماذا تأخّر الرجل؟!

وذهب بيّاع السمن ليمرّ بالإدارات الأخر ثمّ يعود. وهبّ أحمد إلى خارج الحجرة ونظر يمنة ويسرة في الطرقة ثمّ عاد وهو يقول:

ـ لا أثر له، ماذا أخّره، الرجل المخرّف!

ولـمّا مرّت ساعة ثالثة فقد أحمد صبره فقام وهو يعلن بصوت مسموع أنّه ذاهب إلى الخزينة للبحث عن الرجل. ثمّ عاد بوجه طافح بالغيظ وهو يقول:

ـ أخذ الكشف منذ ساعة كاملة، فأين ذهب المجنون؟

فسأله لطفي:

ـ هل قبض مرتّبه؟

فأجاب محتدًّا:

ـ نعم، قالوا لي ذٰلك عند شبّاك صرف الخدم السايرة. .

ـ لعلّه ذهب يتسوّق!

ـ قبل أن يسلّمنا الماهيّات؟!

ـ لا تستبعد ذٰلك، إنّه يأتي كلّ يوم بجديد. .

وارتسم الاستياء على الوجوه، وقطّب المدير ـ وهو درجة رابعة قديم ـ وساد صمت قصير ما لبث أن قطعه مصطفى بضحكة من ضحكاته ثمّ قال:

ـ تصوّروا أنّه سُرق في الطريق!

فندّت ضحكات فاترة، فاترة جدًّا، كأنّها تأوّهات متنكّرة، غير أنّ لطفي قال:

ـ أو وقع له حادث!

ولـمّا آنس في الوجوه استياء استدرك قائلًا:

ـ ما يدوس عمّ إبراهيم اليوم فإنّما يدوس إدارة كاملة. . .

فقال أحمد بحدّة:

ـ إلّا مَن وراءه خزينة خاصّة!

وارتاح الجميع إلى قوله تشفّيًا غير أنّ المدير نقر على مكتبه بقلمه الباركر المهدى إليه في مناسبة سعيدة، داعيًا الإدارة إلى ضبط النفس، وكان في الحقيقة يداري قلقه المتزايد، ولٰكنّ الجنديّ تساءل رغم ذٰلك:

ـ ماذا يحدث للنقود في هٰذه الأحوال؟

ـ كحال السرقة؟

ولم يضحك أحد فعاد الجنديّ يتساءل:

ـ في حال الحوادث؟

ـ قد تُسرق في الزحمة، وقد يتحفّظ عليها في قسم البوليس حتّى تتّضح الحقائق، ومُتْ يا حمار!

ولٰكن بدا أنّ مملكة الضحك قد جدبت تمامًا. بدت الوجوه كالحة ومضى الوقت أثقل من المرض. وتساءل صوت «على وجه مَن أصبحنا اليوم؟». وذهب أحمد يبحث عن عمّ إبراهيم في المراقبة كلّها ثمّ عاد بوجه ناطق بخيبة مسعاه. وفكّر المدير في المشكلة الغريبة التي لم تدر لأحد في بال. إنّه يأبى أن يصدّق.

سيظهر الرجل المجنون فجأة عند الباب. ستنهال عليه الشتائم وسينتحل كافّة الأعذار. وإلّا فما العمل؟. لطفي وراءه زوجة غنيّة، وسمير وَغْد معروف ولْكنّ ثمّة مساكين مثل أحمد قد يقضي عليهم الحادث!. وعاد بيّاع السمن، وقبل أن يفتح فاه صاح به المدير:

- انتظر، القيامة لم تقم، ونحن في إدارة حكوميّة لا في سوق...

فتراجع الرجل مذهولًا، وزار الإدارة موظّفون من المراقبة يستطلعون الأحوال، وهمّ بعضهم بالمداعبة ولْكنّهم وجدوا جوًّا مكفهرًّا فتلاشت الدعابات في حلوقهم، وتجسّد القلق وكفّ الجميع عن العمل. وتأوّه أحمد قائلًا:

- قلبي يحدّثني بأنّ المسألة جدّ! ضعنا يا جماعة...

ثمّ هبّ واقفًا وهو يقول: «سأسأل عنه بوّاب الوزارة». واختفى مهرولًا. ثمّ عاد وهو يصيح بصوت ثائر:

- البوّاب يؤكّد أنّه رآه يغادر الوزارة حوالى التاسعة صباحًا!

ثمّ بصوت مختنق:

- أفظع من كارثة، لا يمكن أن يبيع حياته بمائة وخمسين جنيهًا أو مائتين، حادث؟! من يدري، هٰذا الشهر لن نعرف له نهاية يا ربّ السماوات!

وشعر لطفي بأنّ بعض الأنظار تتّجه نحوه من حين لحين فقال منقبض القلب:

- إنّها أفظع من كارثة، لعلّكم تتساءلون ماذا يهمّني أنا! والحقّ أنّ زوجتي الغنيّة لا تنفق مليّمًا واحدًا من مالها...

وانصبّت عليه في السرّ عشرات اللعنات، ولم يعره أحد التفاتًا. وتأوّه أحمد قائلًا:

- أتصدّقون بالله؟ والله الذي لا إلٰه إلّاه إنّي من اليوم الثاني في الشهر أذهب وأجيء وليس في جيبي مليم واحد، لا قهوة ولا شاي ولا سيجارة ولا استعمال لأيّ نوع من المواصلات، أولاد في الثانويّ وأولاد في الجامعة ودَين كبير بسبب الأدوية، وماذا يمكن أن أفعل يا إلٰه الكون؟!

ولـمّا جاوزت الساعة الواحدة وقف مدير الإدارة بوجه كئيب، وابتعد عن مكتبه وهو يقول:

- لا بدّ من إبلاغ المراقب العامّ.

واستمع المراقب العامّ إلى القصّة في امتعاض ظاهر، ثمّ تساءل:

- ألا يجوز أن يرجع رغم الظنون؟

- الحقّ أنّي يائس تمامًا من ذٰلك، الساعة تدور في الثانية...

فقال المراقب العامّ بلهجة منتقدة:

- أنت تعلم أنّ تصرّفكم خاطئ ومخالف للتعليمات...

فانجحر المدير في صمت يائس مليًّا ثمّ تمتم:

- جميع الإدارات تفعل ذٰلك...

- ولو! الخطأ لا يبرّر الخطأ، اكتب لي مذكّرة لأرفعها لوكيل الوزارة.

ولٰكنّ المدير لم يتحوّل عن موقفه وقال:

- الجميع في أشدّ الحاجة إلى مرتّباتهم، هٰذه حالة لم تسبق بمثيل...

- وماذا تريدني أن أفعل؟

- نحن لم نتسلّم المرتّبات ولم نوقّع في الكشف...

- لا يمكن إنكار الواقعة، ولا التهرّب من المسئوليّة...

وتكاثف الصمت وبدا المدير كرجل ضائع، وضاق المراقب به فتشاغل بالنظر في أوراق على مكتبه. حتّى تحوّل المدير عن موقفه ومضى نحو الباب في خطوات ثقيلة جدًّا. وقبيل خروجه جاءه صوت المراقب وهو يقول في جفاء:

- أبلغوا البوليس...

انتقلت إدارة السكرتاريّة إلى نقطة البوليس. وشقّوا طريقهم إلى حجرة الضابط بين نسوة جالسات القرفصاء، تتقدمهنّ شرذمة من رجال متعاركين مخضّبين بالدماء يسوقهم عسكريّ، على حين تعالى من وراء باب مغلق صراخ أليم واستغاثات. وأفضى السيّد كامل المدير إلى الضابط بالحكاية من أوّلها إلى آخرها. وقال عن عمّ إبراهيم إنّه فرّاش في الخامسة والخمسين، دخل خدمة الوزارة وهو في العاشرة عاملًا بالمطبعة، ثمّ نُقل فرّاشًا لتطاوله على رئيسه، وأجره

الأصليّ ستّة جنيهات. وقال عنه موظّفو السكرتاريّة إنّه كان طيّبًا وإن يكن به شذوذ محتمل كأن يشرد أحيانًا حتّى وهو يحدّثك أو يتدخّل في ما لا يعنيه أو يتطوّع بذكر ملاحظات عامّة في السياسة دون مناسبة، وعن مسكنه قيل إنّه يقيم بالبيت رقم ١١١ بدرب الحلّة، ولم يسبق له أن سرق أو أتى ما يستوجب الشكّ في ذمّته. وقال الضابط بعد تحرير المحضر إنّ النقطة ستتأكّد أوّلًا أنّه ليس ضحيّة لحادث من الحوادث ثمّ يتّخذ البحث مجراه. ولم يجد الموظّفون بدًّا من الانصراف فغادروا النقطة كالمساطيل من الذهول. واختلطت أصواتهم وهم يتبادلون التشكّي والتساؤل عمّا يمكن عمله إزاء مسئوليّاتهم الخطيرة التي تنتظرهم في البيوت. وشملتهم رغبة واحدة في أن يبقوا معًا حتّى يجدوا لمشكلتهم حلًّا. غير أنّهم اضطرّوا في النهاية إلى التفرّق فمضى كلّ إلى حال سبيله. عاد مدير الإدارة إلى بيته ولا أمل له إلّا في البوكر أو الكونكان. وقصد مصطفى الكاتب على الآلة الكاتبة محلّ رهونات بباب الشعريّة اعتاد في الأزمات أن يقترض منه بربح فاحش. أمّا لطفي فكانت زوجته تتكفّل بنفقات البيت ولٰكن كان عليه أن يبتدع حيلة ليأخذ منها مصروفه الشهريّ. الجنديّ ـ وهو شابّ أعزب ويعيش في كنف أبيه ـ قرّر أن يقول لوالده «تقبّلني هٰذا الشهر وكأنّني ما زلت طالبًا». حمام كان عليه أن يُقنع زوجته المشتركة في جمعيّة توفير من الجيران بالمطالبة بنصيبها المخصّص للكساء لإنفاقه في البيت مهما كلّفه ذٰلك من سباب وعراك وبكاء. سمير بدا أمره هيّنًا نوعًا، فما إن خلا إلى نفسه حتّى قال: «لولا الرشوة لوجدت نفسي في مأزق لا مخرج منه!». بقي أحمد كاتب المحفوظات الذي ظنّ الزملاء أنّ النهار لن يطلع عليه. مضى يتخبّط في الطريق بلا أدنى وعي لما حوله من أناس ومركبات. ودخل مسكنه متأوّهًا أزرق الوجه فارتمى على أوّل مقعد وأغمض العينين. وأقبلت عليه الوليّة برائحة المطبخ متسائلة في انزعاج:

ـ مالك؟

ـ لا مرتّب لنا هٰذا الشهر!

فقالت بدهشة:

ـ لِمَ كفى الله الشرّ؟! عمّ إبراهيم جاء بمرتّبك في أوّل النهار!

وثب الرجل قائمًا كغريق وجد آخر الأمر متنفّسًا على حين ذهبت الوليّة وجاءت بلفّة من الأوراق الماليّة وجد فيها مرتّبه كاملًا!. استخفّه الطرب لحدّ الجنون فبسط يديه وهتف من الأعماق: «الله يكرمك يا عمّ إبراهيم... الله يجبر بخاطرك يا عمّ إبراهيم».

* * *

وكبس البوليس بيت عمّ إبراهيم بدرب الحلّة. وكان المسكن عبارة عن حجرة أرضيّة بحَوْش بيت قديم تهدّم سوره أو كاد. ولم يكن بالحجرة إلّا مرتبة متهرّئة وحصيرة وكانون وحلّة وطبق صاج وامرأة عجوز عوراء تبيّن أنّها زوجته، ولـمّا سُئلت عن زوجها أجابت بأنّه في الوزارة. ثمّ أكّدت أنّها لا تعرف شيئًا عن اختفائه، ولم يكن له من ثياب إلّا جلباب ففتّشوه فعثروا على قطعة حشيش صغيرة. وعادت القوّة بالمرأة إلى قسم البوليس، وقالت المرأة إنّها لا تدري شيئًا عن هربه أو عن السرقة المتّهم بها. وبكت طويلًا وانتهرت طويلًا. وقالت عن حياتها المشتركة إنّه كان في مطلع الحياة زوجًا طيّبًا وإنّها أنجبا أبناء. من هٰؤلاء الأبناء عامل يعمل في منطقة القنال منقطع الصلة بهم منذ سنوات. وآخر قُتل في حادثة ترام وهو في العاشرة. وبنت تزوّجت من عامل بناء ذهب بها إلى أقصى الصعيد فاختفت من حياتهم كأخيها بالقنال. واعترفت بأنّ عمّ إبراهيم تغيّر تغيّرًا خطيرًا في حياته في الأشهر الأخيرة، وبعد أن بلغ أعقل العمر، إذ ترامت إليها أنباء عن تعلّقه ببائعة ناصيب عند قهوة فؤاد، وأنّ تلك الأنباء سبّبت أكثر من عراك بينهما على مرأى من حارة الحلّة كلّها.

انقضّ المخبرون على قهوة فؤاد ثمّ رجعوا إلى القسم بمجموعة غريبة من جامعي الأعقاب بين الطفولة والمراهقة، كما جاءوا ببعض ماسحي الأحذية. وتذكّروا جميعًا عمّ إبراهيم عند سماع أوصافه. قالوا إنّه كان يجلس في الأشهر الأخيرة في آخر كرسي في الممرّ المتفرّع عن الطريق العامّ، يحتسي القهوة ويرنو إلى الإنجليزيّة! بائعة ناصيب في السابعة عشرة ذات

خصلات ذهبيّة وعينين زرقاوين، كانت في الأصل جامعة أعقاب كذلك، واعترفوا جميعًا على وجه التقريب بأنّهم كانوا على علاقات خاصّة بها، وأنّ ذلك كان كذلك حتّى مع بعض روّاد القهوة من ذوي النفوس الحلوة المتواضعة! وكان عمّ إبراهيم شديد الاهتمام بها. رآها مرّة وهو عابر سبيل. ولمّا أدرك أنّها من معالم قهوة فؤاد اتّخذ مجلسه في نهاية الممرّ لمشاهدتها كلّ مساء، وكان يدعوها ليبتاع ورقة ناصيب في الظاهر، وليبقيها أطول مدّة ممكنة معه في حقيقة الأمر. وفطنت الفتاة من أوّل الأمر إلى ولعه بها فأفشت سرّه إليهم، فراحوا يتجسّسون عليه يومًا بعد يوم متّخذين إيّاه مزحة ودعابة وهو غافل عنهم بهيامه. ويومًا أخبرتهم بأنّ الرجل يرغب في الزواج منها! وأنّه يعدها بحياة سعيدة خالية من هموم العناء والتشرّد. وضحكوا طويلًا. اعتدّوها نكتة لأنّ فكرة الزواج لا تطرق لهم بالًا من ناحية، ولأنّ الرجل أبعد ما يكون عن صورة العريس كما يتخيّلونها من ناحية أخرى. وقال أحدهم ساخرًا:

ـ إنّه يبدو كأحدنا!

فقالت بتيه:

ـ بل هو رجل غنيّ...

وضحكوا كرّة أخرى. لكنّ الفتاة انقطعت عن المجيء إلى القهوة واختفت من مظانّها جميعًا!

وعلى العموم اطمأنّ البوليس إلى أنّه قبض على طرف الخيط. لكنّه لم يكن يعلم أنّ الطرف الآخر في أبي قير. أجل كان عمّ إبراهيم في أبي قير. كان يجلس جلسة مريحة على الشاطئ يراوح النظر بين البحر وبين ياسمينة التي تطايرت خصلاتها الذهبيّة في مهبّ النسائم. وبدا حليق الذقن مستور الصلعة تحت طاقيّة بيضاء كالحليب وعكست بشرته رواء. وارتدت ياسمينة فستانًا أنيقًا وتجلّت نضارتها كالماء المقطّر. جلسة عائليّة سعيدة مريحة راضية وإن لم يخلُ هواء أبريل من لسعة برد. والمكان شبه خالٍ، لا أحد من المصيّفين جاء، وأصحاب البيوت من اليونانيّين بعيدون عن الشاطئ. والحبّ يرفرف راقصًا حول الجلسة الجميلة. وتجلّت في عيني عمّ إبراهيم نظرة تشوّف ودهشة كأنّه يستقبل العالم لأوّل مرّة في طفولة بريئة، فما رأى بحرًا من قبل، بل إنّه لم يجاوز أعتاب القاهرة طيلة حياته، لذلك بهره البحر المصطخب. والساحل المترامي، والسماء الملفّعة بالسحب البيضاء في صفاء الورد. ومضى يصغي إلى الهدير المتقطّع وهو يبتسم ابتسامة فرحة سعيدة لا تفارق شفتيه. بدا أنّه انطلق من أغلال الهموم وأنّه يحلّق في حلم، وأنّه يستمتع بأنغام الحبّ الشجيّة التي تردّدها أعماقه النشوى، أمّا الفتاة فتمدّدت أمامه في استرخاء واكتنفها صمت راكد حتّى ثقلت جفونها بما يشي بالملل. وكان السيّد لطفي الموظّف بالسكرتاريّة هو الذي عرّفه دون قصد بأبي قير. كان يصيّف كلّ عام في ذلك المصيف ويحكي عن جماله وهدوئه وأسماكه للزملاء قبل السفر وعقب العودة، فامتلأ خيال عمّ إبراهيم بالمصيف، ثمّ عرف أخيرًا سبيله إليه. وجاءه مزوّدًا بما يحتاجه شهر العسل من ثياب وأدوات زينة وهدايا ولوازم المزاج والكيف. وكان يومه كلّه ينقضي بين الحجرة المفروشة التي اكتراها وبين الساحل، لا شاغل له إلّا الحبّ والمشاهدة والتدخين والأكل والشرب والأحاديث. وأنفق في أسبوع ما لم ينفقه من قبل في عام، ولم تكن المحبوبة تكفّ عن الطلب، وما أسرع ما كان يلبّي طلباتها، وكانت غريبة الأطوار فحتّى الخمر والمخدّرات طالبت بها. وكانت صريحة إلى حدّ الإيذاء فسألته مرّة:

ـ من أين لك بالنقود؟

فقال ضاحكًا:

ـ أنا من الأعيان...

فقالت بارتياب وقد ضرّجت الخمر وجنتيها:

ـ أنا فاهمة...!

ـ الله يسامحك...!

وضحكت ضحكة بلهاء وهي تقول:

ـ ليس فيك إلّا أربع أسنان، واحدة فوق وثلاث تحت...

وضحك متسامحًا. ربّما حام حوله كدر، ولكنّه كان مصمّمًا على السعادة، السعادة التي يدرك أكثر من غيره كم هي زائلة. لم يكن يطمع في أكثر من الاحتفاظ بما

نال من سعادة إلى حين، وألّا يقع القبض عليه قبل أن تنهار دعائم سعادته انهيارها الطبيعيّ بإنفاق آخر ملّيم ممّا يملك. لذلك أصرّ على السعادة رغم ما يبدو من محبوبته من مشاكسة. وتاقت نفسها إلى رؤية الإسكندريّة لكنّه رفض بإصرار فعادت تقول بمكر موروث عن الأرصفة:

ـ قلت لك فاهمة!

فكان جوابه أن ابتاع لها حلية لطيفة، ووضع بين يديها فاكهة وشرابًا وسجائر محرّمة، وقبّل خدّها المتورّد وابتسم لها في حنان قائلًا:

ـ انظري إلى البحر والسماء، واسعدي بما بين يديك، وليكن ريقك شهدًا...

أراد لها أن تسعد كما يسعد. وكان من قبل يسير مطرق الرأس لا يرى من الدنيا إلّا التراب والطين. أو لا يرى إلّا شواغله وهمومه، أمّا هنا فرأى ما لم يكن يراه. رأى الفجر في طلعته السحريّة والغروب في عجائب ألوانه التي تنساب عن الشفق. ورأى النجوم الساهرة والقمر الساطع والآفاق اللامتناهية. رأى ذٰلك كلّه بقوّة الحبّ الخالقة حتّى عجب كيف يوجد بعد ذٰلك النكد...

وفي أوائل يونيه ظهرت على الساحل أوّل أسرة جاءت مبكّرة للتصييف فانقبض قلب عمّ إبراهيم وشعر بدنوّ الشقاء كالأجل. ستُوَلّي السعادة قريبًا وإلى الأبد. وزاده ذٰلك إصرارًا على السعادة المتاحة فأشعل سجائره تباعًا. ويومًا كان عند البقّال فلمح في آخر الطريق السيّد لطفي الموظّف بالسكرتاريّة بصحبة سمسار من سماسرة المساكن. سقط قلبه خوفًا فمضى مسرعًا إلى عطفة جانبيّة، ثمّ تسلّل منها إلى حجرته. جاء لطفي ليؤجّر مسكنًا لشهرَي يوليه وأغسطس كعادته كلّ صيف. وما هي إلّا أسابيع حتّى يجوب الشاطئ بالطول والعرض ولا يبقى له هو مكان. إنّ يد الخيبة تطرق بابه ولن يجد له مكانًا. سينقضي الحلم مثل هٰذه السحابة المسرعة، وستغادره محبوبته كزفيره. محبوبته التي يحبّها رغم تململها وحدّتها ولسانها المفلفل. أجل يحبّها، ويشكر لها ما وهبته من سعادة ونفخت فيه من روح الشباب. فليسامحها الله وليسعدها الله.

ووجد نفسه في حجرته منفردًا فراح يعدّ ما تبقّى من النقود ثمّ لفّها حول صدره. وسمع حركة عند الباب فالتفت نحوه فرآها قادمة. تساءل ترى هل رأته؟ وقرأ في عينيها نظرة ماكرة. لذٰلك طار النوم من عينيه عندما استلقى إلى جانبها على الفراش. ومضى الليل في أرق وفكر. وسمع صوتًا حنونًا في أعماقه يقول له: «أوهبها النقود وسرّحها». فقال له: «لم تزل لي أيّام». فقال له «أوهبها النقود وسرّحها». الطفلة الجميلة المشرّدة مَن أبوها... مَن أمّها؟.

قالت له مرّة بكلّ بساطة:

ـ لا أحد لي في الدنيا...

كذٰلك هوا وأحسّ بشيء يلمسه كثعبان في الظلام. تركّز إحساسه في يدها المتلصّصة. تسعى إلى سرقته. ألذٰلك بالغت في إنهاكه الماكرة حتّى يغرق في النوم! يا للتعاسة! وقبض على يدها. ندّت عنها شهقة في الظلام ثمّ ساد الصمت. وتساءل بحزن:

ـ لمَ؟

ثمّ معاتبًا:

ـ متى رفضت لك طلبًا؟

وهوت على يده فعضّتها بوحشيّة حتّى تأوّه ودفعها بقوّة. كانت أوّل حركة قاسية تبدر منه نحوها. ووثب إلى مفتاح الكهرباء فأضاء الحجرة. نظر أوّل ما نظر إلى معصمه الملطّخ بالدم. وقال:

ـ صغيرة وبك هٰذا الشرّ كلّه!

رمقته بنظرة مستخزية لحظة ثمّ ولّته ظهرها. وتساءل:

ـ كيف تسعين إلى سرقة مالك؟

فقطّبت تقطيبة نمّت عن حنق وضيق لكنّها لم تنبس فعاد يقول:

ـ لا مطمع لي في أكثر ممّا نلت...

وضحك ضحكة مريرة وقال:

ـ ليجزك الله عنّي خير الجزاء...

وفي الصباح أعطاها أكثر ما تبقّى لديه من مال وحَزَمَ متاعها ووصّلها إلى المحطّة...

ومن ثمّ أقفرت أبو قير. وتغيّر الحال رويدًا وتقاطر المصيّفون. وانتقل إلى الإسكندريّة ليهيم على وجهه

دون مبالاة. ومرّة وجد نفسه أمام جامع أبي العبّاس فدخل. صلّى ركعتين تحيّة للمسجد ثمّ جلس موليًا وجهه نحو الجدار. كان يعاني حزنًا جليلًا ويأسًا رائعًا. وناجى ربّه همسًا: «لا يمكن أن يرضيك ما حصل لي ولا ما يحصل في كلّ مكان. صغيرة وجميلة وشرّيرة أيرضيك هٰذا! وأبنائي أين هم... أيرضيك هٰذا؟! وأشعر وأنا بين الملايين بوحدة قاتلة... أيرضيك هٰذا؟.» وأجهش في البكاء. ولّما أخذ يبتعد عن الجامع فاجأه صوت ينادي «عمّ إبراهيم» فالتفت مندهشًا بلا إرادة فرأى جبّارًا يتقدّم منه في ظفر وتشفٍّ فأدرك من منظره أنّه مخبر فتوقّف مستسلمًا. قبض الرجل على منكبيه وهو يقول:

ـ أتعبتنا في البحث عنك... الله يتعبك...

ولـمّا وجده ـ وهو يسوقه أمامه ـ مستسلمًا محمرّ العينين قال:

ـ تقدر تقول لي ماذا دفعك إلى تلك الفعلة وأنت في هٰذا العمر!؟

ـ الله...

ندّت عنه كالتنهّدة...

جوار الله

دقّ جرس الباب الخارجيّ ففتحت الخادم الشرّاعة فرأت رجلًا يرتدي جلبابًا، عاري الرأس، غريب الوجه، كانت بلا ريب تراه لأوّل مرّة، فطالعته بنظرة متسائلة، وإذا به يسأل:

ـ بيت سي عبد العظيم شلبي الموظّف بالمساحة؟

وجاء عبد العظيم على صوت الرجل، متمهّل المشية في جلبابه الفضفاض مغطّى الرأس بطاقيّة اتّقاء للبرد، فنظر إلى القادم باستطلاع كما فعلت الخادم من قبل ثمّ سأله عمّا يريد، فقال الرجل:

ـ لا مؤاخذة. أرسلني الحاجّ مصطفى الدرديري السمسار بالدرب الأحمر لأخبرك بأنّ الستّ عمّتكم مريضة جدًّا ويلزم الحضور...

فانفعل عبد العظيم باهتمام شديد وتساءل:

ـ ماذا حصل لها؟

ـ لا أعرف يا سيّدي، وأنا قلت لحضرتك ما كلّفني به الحاجّ.

ودعاه إلى الدخول من قبيل المجاملة فشكر وذهب. وتحوّل عبد العظيم إلى الداخل فوجد أخته تفيدة واقفة تنصت فقال لها:

ـ استعدّي للذهاب إلى بيت نظيرة، الظاهر أنّها ستودّع...

وعبد العظيم يقيم في هٰذا البيت بشارع شبين الكوم بحدائق القبّة هو وزوجته وأولاده الخمسة وأخته الكبرى تفيدة وهي عانس في الخمسين، وكان والده في الأصل من الدرب الأحمر ولٰكنّه انتقل إلى حدائق القبّة منذ أربعين عامًا وعبد العظيم طفل في الخامسة. وانقطعت الأسباب رويدًا بين الدرب الأحمر وحدائق القبّة فيما عدا زيارات الستّ نظيرة لهم من حين لآخر، وهي في الحقيقة عمّة أبيه لا عمّته هو وفي الثمانين من عمرها، عانس مثل تفيدة، تعيش وحيدة، وتملك بيتًا مكوّنًا من أربعة أدوار، عُرفت بغرابة الأطوار وحدّة الطبع. واكتظّ رأس عبد العظيم بذكريات قديمة عمّا كان يدور في بيته حول ثروة عمّة أبيه، وانصهر ذٰلك كلّه لحدّ الاحتراق في خياله بنهم رجل لم يمارس طيلة حياته أيّ نوع من أنواع الامتلاك. رجل طال به الأمد في الدرجة الخامسة، وتقوّس ظهره تحت أعباء الواجبات، ولم يورثه أبوه إلّا عبئًا ثقيلًا هو أخته تفيدة. ودأبت الستّ نظيرة على زيارتهم حتّى تجرّأ يومًا على أن يطلب منها قرضًا صغيرًا فانقطعت عن زيارتهم. عجوز وبخيلة! تمتلك بيتًا من أربعة أدوار إيراده الشهريّ لا يقلّ عن عشرة جنيهات. لٰكنّها وحيدة رغم أنّها تعيش في بيئة أهلها القديمة. ومقيمة في حجرة وحيدة فوق سطح بيتها بين الدجاج والغسيل. ولا علاقة طيّبة بأحد تؤنس وحشتها إذ ضربت حول نفسها سياجًا من سوء الظنّ والتوجّس. وتساءل الرجل وهو يرتدي ملابسه: ترى هل جاء الفرج أخيرًا؟!

وقالت تفيدة وهما يسيران جنبًا إلى جنب في شارع شبين الكوم:

ـ ستترك ثروة من غير شكّ...

ـ سيُعرف كلّ شيء عمّا قليل...

ـ والبيت أيضًا، ترى هل يسهل علينا تحصيل الإيجار؟ إنّ أهل الأحياء البلديّة قوم مُتعِبون!

فابتسم عبد العظيم لعلمه بأنّه من صميم هٰؤلاء القوم المُتعِبين، وقال:

ـ أراكِ تتحدّثين عنها كما لو كانت قد ماتت...

فامتعضت تفيدة وتورّد وجهها النحيل الشاحب العاطل من الجمال وغمغمت فيما يشبه الحياء:

ـ الأعمار بيد الله وحده...

ولـمّا أخذا يشقّان سبيلهما في الدرب الأحمر طالعهما الحيّ القديم بوجه يغشاه البلى والذبول. بدا مكتظًّا بالناس والحيوان والمركبات. وذكرت تفيدة صباها بقوّة مؤثّرة، ورجع عبد العظيم إلى ملعب الطفولة فنطق كلّ شيء من حيوان وجماد بلغة القلب. وبدا البيت طويلًا على غير المألوف في الحيّ كلّه، وبرزت المشربيّات كالأحلام، وتناثرت أمام المدخل أكوام من الأتربة والحجارة على حين تمدّدت بجوار الجدار جثّة قطّ على حال تعافها النفس. ورقيا في السلّم، وهو سلّم عالي الدرجات، حتّى لهث عبد العظيم، وعندما بلغ الدور الثالث قالت تفيدة:

ـ هنا ولدنا، أنت وأنا، وعلى هذه البسطة كانت تغنّي الفلّاحات «البحر زاد» في موسم الفيضان.

ووجد عبد العظيم ذكرى أخرى في الدرابزين الذي كان يتزحلق عليه فأوشك أن يحكيها لكنّ رغبته في ذٰلك فترت فجأة فلم يخرج عن صمته. ووقفا عند عتبة السطح حتّى يستردّا أنفاسهما المبهورة. يا له من سطح غُطّي تمامًا بالأتربة وروث الدجاج وقطع الأحجار المتناثرة، وامتدّت في فراغه فوق ارتفاع القامة حبال الغسيل. وفي الناحية المطلّة على الطريق قامت الحجرة الوحيدة، متسلّخة الطلاء، باهتة الباب فطرقه ثمّ دفعه ودخل تتبعه أخته. هاله منظر النسوة المتلاصقات من شدّة الزحمة، منهنّ الجالسات على كنبة ومقعدينِ قديمينِ، والباقيات افترشْنَ الأرض، أمّا السرير ذو العمد السوداء والناموسيّة المربوطة من الوسط كالبالون فقد بدا بالراقدة عليه وحيدًا منعزلًا رغم الزحام. ولم يظهر من نظيرة إلّا ثلثا وجهها الشاحب على حين أخفى الغطاء جسمها حتّى الذقن، والمنديل البنّيّ رأسها وجبينها حتّى الحاجبينِ. والتقت الأبصار عند القادمين. حدجتها باستطلاع واهتمام، وندّت على رغم الحرص همسات. وسرعان ما أخلي المقعدان. واتّجه عبد العظيم وأخته نحو المقعدينِ وهو يرفع يده تحيّة ويتلقّى في نفس الوقت عشرات التحيّات، وشعر بشيء من الاستعلاء لا يُعَدّ على أيّ حال شيئًا إذا قيس بما شعرت به أخته. كان على علم تامّ بتأثير بذلته في النسوة، وكذٰلك معطف أخته الذي دفع آخر قسط من ثمنه منذ أشهر قلائل. ولم يخفّف من غلوائهما انتسابهما آخر الأمر إلى هٰذا الحيّ. غير أنّ ذٰلك كلّه لم يدم إلّا ثوانٍ، إذ ما كادا يستقرّان على المقعدينِ حتّى تركّز منهما البصر في الراقدة فوق الفراش المنعزل. هٰذه هي العمّة نظيرة. طالما عملت لهٰذا اليوم ألف حساب. وكان كلّما خاطبها أحد في شأن من شئون المال قالت بحدّة: «سأموت قريبًا وترثونني» وثمّة انحراف في جانب الفم يثير الجزع، واستطالة في الذقن المدبّب مع هبوط ملحوظ في اتّجاه الفم الفارغ. أمّا العارض الذابل فما أشبهه بعارض أبيهما عند احتضاره. وعند ذاك تردّد عن قلبيهما نَفَس كالرثاء مفعم بالشجن، ومالت تفيدة نحو أقرب امرأة إليها وسألتها عمّا أصاب العمّة فأجاب أكثر من صوت في اختلاط وتسابق: «مسكينة كما ترينها!». «ولٰكن ربّنا قادر على كلّ شيء». «جئنا فوجدناها كما ترين»، وهزّت تفيدة رأسها كأنّما ظفرت بالجواب المطلوب، يا لهٰؤلاء النسوة، ما أكثرهنّ! كأنّهنّ يجلسن في مسلك التنفّس. ساكنات البيت أو من الجيران ولعلّ فيهنّ قريبات لهما. في هٰذا الحيّ أقارب لهما يسمعان عنهم ولا يعرفانهم ما عدا الحاجّ مصطفى الذي يزورهما في بعض المواسم وهو قريب لأمّهما لا لأبيهما. متى وكيف يمكن أن تخلو الحجرة من هٰذه القناطير من اللحم الآدميّ ذي الرائحة المقلقة للأعصاب. وأجال عبد العظيم عينيه في الحجرة التي لا يذكر متى رآها آخر

مرّة ولا كم كان عمره وقتها. الحقّ أنّها حجرة واسعة، فستقيّة اللون، يتدلّى من سقفها مصباح كبير آن له أن ينطفئ، وتطلّ بنافذة على الطريق وبأخرى على السطح، وقد أغلقتا بإحكام اتّقاءً للبرد القارص، وغطّيت ببساط باهت منجرد انحسرت أطرافه عن حصيرة مفروشة تحته، وثمّة صِوانٌ قديم عكست مرآته الوجوه الكالحة، وصندوق مزركش الغطاء استكانَ تحت السرير، وترابيزة حمّلت بموقد كحوليّ وكنجة قهوة. لكن أين ختم العمّة؟... وأين نقودها؟... أين نقودها بصفة خاصّة؟... وإلّا فمن أين له بنفقات الدفن والمأتم؟... وتطلّع قليلًا إلى صورة البسملة في إطار فضّيّ معلّقة بالجدار المواجه للفراش، ثمّ عاد يتساءل ترى أين توجد نقودها؟ وشعر بأنّ الحجرة رغم برودة الشتاء تفور بروائح المطبخ والعرق وصنان الأطفال. وانزعج انزعاجًا خاصًّا لتطلّع الأنظار إليه، تكاد تمضغه مضغًا، ولم تكن تخلو من إكبار ولٰكنّه كان يعلم من ناحية أخرى بأنّه لا يملك حتّى آخر الشهر سوى النقود اللازمة للسجائر والمواصلات.

وتساءل:

ـ ألم يكشف عليها طبيب؟

وقبل أن يتحرّك لسان للإجابة فُتح الباب وامتلأ فراغه بشخص جديد. كان ربعة، يرتدي معطفًا غليظًا فوق جلباب مقلّم، ملفوف العنق بكوفيّة مغطّى الرأس بطربوش طويل، وسرعان ما ارتطمت الأصوات وهي تحيّيه قائلة:

ـ أهلًا بالحاجّ مصطفى ...

ردّ الباب ودخل دون أن يردّ تحيّة لٰكن ما إن وقع بصره على عبد العظيم وتفيدة حتّى تهلّل وجهه وأقبل عليهما مصافحًا بحرارة وهو يقول:

ـ أهلًا وسهلًا، قضى ربّنا ألّا يرى بعضنا البعض إلّا كلّ حين ومين...

ولمّا فرغ من المجاملات المعهودة تراجع إلى حافة الفراش وجلس عليها بتؤدة وحرص خشية أن يصيب الراقدة بأيّ اهتزاز. وآنس من وجه الأخ تطلّعًا إلى معرفة كلّ شيء عن العمّة نظيرة فأنشأ يقول:

ـ كان الله في عونها، لآخر لحظة حافظت على نشاطها اليوميّ المعهود، وحتّى هٰذا السلّم المرتفع المخيف لم يكن ليحول بينها وبين الخروج كلّ يوم إلى السوق، وكم رجوتها أن تستعين على وحدتها بخادمة ولٰكنّها... على أيّ حال أنت تعرف كلّ شيء عن هٰذا الموضوع، واليوم خرجت للتسوّق كالعادة، قابلتها عند عمّ حسين البقّال وتبادلنا الدعابات، ثمّ عادت تسير على مهل، ولـمّا صعدت إلى الدور الرابع وقفت تُحادِث ستّ حميدة (وأشار إلى امرأة مكوّمة في الركن) ثمّ مضت تصعد الدرجات الباقية، ولـمّا بلغت باب السطح ندّ عنها أنين موجع، فهرعت إليها ستّ حميدة...

وقاطعته ستّ حميدة قائلة:

ـ لم أكن وحدي! كانت معي أمّ نرجس، وكانت ستّ خيريّة فوق السطح تطعم الدجاج!

ابتسم الحاجّ مصطفى ابتسامة غامضة وقال:

ـ هرعن إليها، لٰكنّها أبت أن تستسلم، أبت أن يسندها أحد، حاولت بجهد أن تتمّ رحلتها وحدها، وجعلت تقول «لا شيء... لا شيء»... وما لبثت أن سقطت بين أيديهنّ! وحملنها إلى حجرتها وأنمنها على الفراش، ثمّ أرسلن في استدعائي من القهوة، جئت مسرعًا، ولـمّا اطّلعت على الحال عدت إلى الخارج ثمّ رجعت بصحبة طبيب حيّنا، رجل طيّب عجوز لا كأطبّاء هٰذه الأيّام، وكشف عليها باهتمام كبير، استعمل السمّاعة وأجهزة أخرى، ثمّ مال عليّ قائلًا: «النقطة»... ووعد بالحضور مرّة أخرى، ولم يأخذ نظير هٰذا كلّه سوى خمسين قرشًا!

جعلت تفيدة تفكّر في مقاطعة ستّ حميدة وما ذكر الحاجّ من أتعاب الطبيب. أمّا عبد العظيم فاستغرقه التفكير في الحال التي سقطت بها العمّة نظيرة. ما أشبهها بموت أبيه، وموت جدّه من قبل، ولعلّ حينه إذا ما حان أن يجيء على نفس الحال. يا لها من ميتة سريعة لا يدري أحد عنها شيئًا. وثبّت عينيه على الوجه الشاحب ذي الفم المنحرف وتساءل: ترى هل تتألّم الآن؟ هل تودّ الاستغاثة فلا تستطيع، أو أنّها غائبة عن الوجود كلّه؟... وهي امرأة في الثمانين، كذٰلك مضى جدّه في نفس السنّ، أمّا أبوه فمات في

الستّين دون زيادة، وعلى ذٰلك فلا قاعدة هنالك يركن إليها، والأمر لا يعدو أن يكون طيشًا وعبثًا. وتمتمت تفيدة:

ـ يمكن ربّنا يأخذ بيدها. . .

فرفع الحاجّ مصطفى حاجبيه الكثيفين بشكل غير عاديّ وقال:

ـ ربّنا قادر على كلّ شيء. . .

لكنّ نظرة عينيه أكّدت ما ينقض قوله من أساسه. ولاذوا بالصمت مليًّا. وكاد الصمت يستقرّ بالحجرة كلّها لولا كلمات ندّت من امرأة أو أخرى بقصد المجاملة والمداهنة، وجميعها توجّه نحو الراقدة، مثل «الله يأخذ بيدها» و«كانت طيّبة وأميرة» و«وجودها بيننا خير وبركة»، فابتسم باطن عبد العظيم لسابق علمه بما بين عمّته وبينهنّ من مشاحنات ونقار دائم، وكان الحاجّ مصطفى أعلم بذٰلك غير أنّه كان أجرأ من قريبه فتساءل فجأة بصوت مرتفع:

ـ اليوم الثالث من الشهر فهل حصّلت ستّ نظيرة إيجار الشقق؟

وقلّب عينيه في الوجوه الواجمة حتّى ارتفع صوت قائلًا:

ـ أنا أعطيتها الأجرة والله شهيد!

وإذا بسيل من التوكيدات ينهمر. كلّ واحدة أكّدت أنّها دفعت الإيجار مستشهدة بزميلة أخرى أو بمناسبة لم يشهدها أحد، فقال عبد العظيم:

ـ طبعًا، ممكن الإيصالات!

فقالت امرأة:

ـ نحن نتعامل معها بلا عقود ولا إيصالات ولٰكن ليس في ذمّتنا ملّيم واحد. . .

وقالت أخرى:

ـ ومعلوم أيضًا أنّها لم تكن لتسكت عن متأخّرة في الدفع!

فقال الحاجّ مصطفى منذرًا:

ـ سأدعو على الكاذبة.

فقال أكثر من صوت:

ـ ادعُ، وبيننا وبينك ربّنا. . .

وكان الشكّ قويًّا ولٰكن لم يكن لدى أحد حيلة فرفع الحاجّ مصطفى يديه ناظرًا إلى فوق وقال:

ـ أنت أعلم بكلّ شيء، حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل.

ثمّ نظر إليهنّ قائلًا:

ـ والآن تفضّلن مشكورات حتّى ندبّر أمورنا. . .

ومضت الجالسات يقمن ويغادرن الحجرة، واحدة في أثر أخرى، حتّى لم يبق إلّا امرأتان على الكنبة، واحدة عجوز والأخرى شابّة في العشرين، فابتسم الحاجّ مصطفى وقال مخاطبًا عبد العظيم:

ـ أراهن على أنّك لا تعرف هاتين السيّدتين! على أيّ حال هما قريبتاك، الستّ بنت أخت نظيرة، وهٰذه ابنتها.

تبودلت نظرات باسمة في فتور، وتوتّرت أعصاب عبد العظيم وتفيدة بقلق وعدم ارتياح، واندفعت تفيدة قائلة:

ـ نريد أن نطمئنّ على أشياء عمّتي!

فقال الحاجّ مصطفى:

ـ لا أحد يدري عنها شيئًا، ولٰكن يحسن بنا أن نفتّش المكان. . .

وقام ـ والأعين تلاحقه ـ إلى الصوان ففتحه ولٰكنّه لم يجد به سوى بعض الفساتين البسيطة والثياب الداخليّة. وعاد إلى السرير فأخرج الصندوق من تحته وفتحه فوجد به أواني نحاسيّة وموقد غاز وأطباق وعلبة سمن وزجاجة زيت وكيس ملح، وسرعان ما أغلقه وأعاده إلى موضعه. . . ونظر إلى تفيدة قائلًا:

ـ يحسن بك يا ستّ تفيدة أن تفتّشي صدرها. . .

فجفلت تفيدة وهي تبادل أخاها نظرات الحرج ولٰكنّ الحاجّ مصطفى قال:

ـ يا جماعة إنّها مصابة بنقطة، يعني الشلل، ألا تعرفان ما يعنيه هٰذا وبخاصّة في مثل سنّها؟!

فقالت تفيدة بإشفاق:

ـ الأعمار بيد الله، وربّما أفاقت وعلمت بما فعلنا. . .

فقال الحاجّ مصطفى بعفويّة عجيبة:

ـ أقطع ذراعي إن طلع عليها الصبح!. . .

ثمّ بلهجة المعتذر:

ـ يجب أن نتدبّر أمرنا. . . .

وقامت تفيدة في شيء من التردّد فمضت إلى الفراش، ثمّ أدخلت يدًا مرتعشة إلى صدر عمّتها وأخرجت ما وجدته، أحجبة وعلبة سجائر ولفافة غليظة، ثمّ أعادت الغطاء كما كان وعادت إلى مقعدها. وتناول الحاجّ مصطفى اللفافة وراح يفكّها تحت الأعين المحملقة. وتمخّض البحث عن كيس صغير وورقة مطويّة، بسطها الحاج بعناية وإذا بالعجوز تصيح:

ـ دفتر توفير... دفتر توفير وحياة ربّنا في سماه...

فحدجتها تفيدة بغضب، ومضى الحاجّ مصطفى يقرّ صفحات الدفتر حتّى قال:

ـ مائة وخمسون جنيهًا في البريد...!

فردّدت العجوز:

ـ مائة وخمسون جنيهًا!... ربّنا كريم... ربّنا كريم!...

فحدجتها الأعين بنظرات ساخطة حتّى أطبقت شفتيها، غير أنّ شعور عبد العظيم بالارتياح كان أضعاف شعوره بالحنق على العجوز. وتحوّل الحاجّ مصطفى إلى الكيس الصغير فأفرغ ما فيه على الفراش فإذا فيه مبلغ سبعة قروش! تبادلوا نظرات حائرة، وهتفت تفيدة:

ـ سبعة قروش! أين إذن إيجار البيت؟!

فقالت العجوز:

ـ جئنا متأخّرين للأسف...

وقال عبد العظيم:

ـ إمّا أنّ الإيجار لم يُدفع وإمّا أنّه سُرق...

فهزّ الحاجّ مصطفى رأسه متأسّفًا وهو يقول:

ـ آه من النسوان! حسبنا الله، لا حيلة لنا، وما فات فات!

فقالت تفيدة:

ـ ومن يدري فلعلّها كانت تملك أشياء أخر.

ـ لعلّها، كلام لا طائل تحته، حسبكم العمارة ونقود البريد...

فقال عبد العظيم بقلق وبلهجة شفّت عن مخاوفه:

ـ لٰكنّنا نحتاج إلى نفقات عاجلة...

فقال الحاجّ مصطفى بصراحته المعهودة:

ـ نعم فللمأتم تكاليفه، لٰكنّ ربّنا موجود، وأنا تحت أمركم!

فاطمأنّ عبد العظيم وأعرب عن شكره بابتسامة وغمغمة. وهمّت العجوز أن تتكلّم لٰكنّ الباب فتح ودخل رجل قصير نحيل ذو نظّارة سميكة، وسنّ جاوزت الستّين فقام الحاجّ مصطفى وهو يقول:

ـ أهلًا بالدكتور!

واتّجه الطبيب إلى الفراش فوضع عليه حقيبته، وراح يفحص الراقدة، أزاح جفنها محملقًا إلى عينيها، وجسّ النبض، ثمّ أخرج من حقيبته السمّاعة وألصقها بالصدر فوق القلب، ثمّ استمع إلى دقّاته، ثمّ أعادها إلى الحقيبة وأغلقها، وبسط فوقها ورقة وكتب على عجل بعض الكلمات وهو يقول:

ـ هٰذه الحُقَن لازمة...

وألقى نظرة على الموجودين قائلًا:

ـ السلّم متعب!

وابتسم ابتسامة لا معنى لها ثمّ حمل الحقيبة ومضى والحاجّ مصطفى في أثره حتّى غيّبهما الباب. وما لبث الحاجّ أن رجع وهو يقول بلهجة ذات معنى:

ـ قال لي نشتري الحقن حقنة فحقنة لا دفعة واحدة!

ونظر في عينَي عبد العظيم فأدرك هٰذا أنّهم قد لا يحتاجون إلى الحقنة الثانية!

ومدّ بصره إلى الراقدة كأنّما يلقي عليها نظرة الوداع. ومهما يكن من أمر فلا ينبغي لهٰذه الجلسة أن تطول في هٰذا الجوّ البارد. يا لها من حجرة قامت في خلاء يصفعها هواء الشتاء البارد في كلّ جانب. وها هو الأصيل يغشى كلّ شيء، وزفيف الريح يشتدّ في الخارج، والبرودة تسري في الأطراف. وما زال هٰذا الوجه الشاحب يذكّره باحتضار أبيه فيثير أشجانه. وقُرْب هٰذه العجوز منه يؤلمه كأنّه حجر مغروس في جنبه. ومضى الوقت في صمت ثقيل حتّى فتح الباب وترامى صوت ينادي على الحاجّ مصطفى فهتف به هٰذا:

ـ ادخل يا عليش!

فدخل قزم يحمل لفّة ضخمة أكبر من حجمه

فتناولها الحاجّ ثمّ وضعها على الفراش عند قدمي الراقدة، وذهب القزم وردّ الباب وراءه دون أن ينبس أو يلتفت إلى أحد.

وتلاقت الأبصار عند اللفّة فقال الحاجّ مصطفى بصوت انخفض قليلًا عن درجته المألوفة:

ـ لا مؤاخذة... هٰذا هو الكفن ولوازمه...

وعكست الأعين جفولًا كأنّهم ينظرون إلى ثعبان فهزّ الحاجّ رأسه وقال:

ـ وحّدوا الله، ما نحن إلّا أموات أبناء أموات، وأنا أعلم من أوّل الأمر أنّ كلّ شيء سينتهي في ساعات، وغرضي الكرامة والستر!

لم يعقّب أحد بكلمة فواصَلَ الرجل حديثه بلهجة من يلقي بتعليمات نهائيّة:

ـ رتّبت كلّ شيء برويّة، والأعمال بالنيّات، فإذا قضى الله قضاءه سأحضر المغسّلة، ثمّ نكفّنها وندفنها ولو آخر النهار، أليس إكرام الميت دفنه؟ وأنت يا عبد العظيم أفندي لا تحبّ وجع الدماغ ولا الكلام الفارغ، بعد ذٰلك نجيء بمقرئ فيقرأ سورتين هنا في حجرتها، ثمّ فيما بعد نتحاسب، والدار أمان... وهٰذا أكرم للمرحومة....!

وانتبه من توّه إلى أنها لم تصر بعد «مرحومة» فارتبك لحظة واحدة ثمّ صحّح نفسه قائلًا:

ـ لا مؤاخذة أعني ستّ نظيرة، أستغفر الله العظيم...

ازداد عبد العظيم اطمئنانًا بهٰذا الكلام، فهو رجل لا خبرة له تذكر في هٰذه الشئون فضلًا عن كسله المكتسب من الروتين الحكوميّ الذي غرق فيه زهرة عمره، وتذكّر في ارتياح أنّ بعض النقود المتوفّرة في البريد تفي بالنفقات جميعًا حتّى مع إدخال المبالغات المرتقبة من ناحية الحاجّ مصطفى في الحساب! وهو رجل ـ الحاجّ ـ لن يضيره تأجيل الحساب حتّى تتمّ إجراءات إثبات الوراثة المعقّدة... واستقرّ الصمت مليًّا فالتمسوا فيه شيئًا من الاستجمام. واتّجهت الأنظار صوب الراقدة، كأنّما تسألها عن متى يشرعون في العمل بعد أن تمّ الاتّفاق على كلّ شيء. واشتدّ الإحساس بالبرد فلذٰلك تقرفصت العجوز ابتغاء الدفء، والتصقت بها ابنتها، وإذا بالعجوز تخرق الصمت قائلة كأنّها تخاطب ابنتها:

ـ والله لك قسمة يا درّيّة في ميراث كبير على آخر الزمَن...

واشتعل انتباه عبد العظيم وأخته بعنف. وعكست عيناهما حنقًا كالوهج على حين هزّ الحاجّ رأسه فيما يشبه الأسف. وتساءلت تفيدة بحدّة:

ـ من أين عرفت هٰذا؟

فقالت العجوز بعناد:

ـ هي خالة أمّي وكلّ شيء في الورق!

ولم تقنع العجوز بالكلام فقامت إلى النافذة المطلّة على الطريق ففتحتها غير مبالية بالهواء البارد الذي اندفع إلى الداخل كالسياط، ثمّ نادت بصوت مرتفع:

ـ يا شيخ عويس... يا شيخ عويس...

وفتحت نافذة البيت المواجه لهم عن وجه كهل متلفّع بعباءة مغطّى الرأس بطاقيّة صوفيّة. نظر إليها وهو يتساءل:

ـ مالك يا ستّ نفيسة!

فقالت وهي تحبك الملاءة حول جسدها النحيل خوفًا من البرد:

ـ ربّنا يكرمك، لا تؤاخذني، لٰكنّي في حاجة إلى رأيك، إذا ماتت واحدة بلا ذرّيّة ألا ترثها بنت بنت أختها؟

فدهش الرجل وقال:

ـ وهل هٰذه المسائل ممّا يحلّ من النوافذ، تعالي إلى المكتب أو شرّفي البيت...

فقالت بتوسّل:

ـ وحياتك وحياة أولادك إلّا ما أخبرتني...

فتساءل الرجل:

ـ هل الستّ نظيرة لا سمح الله...؟!

وأشار بيده إشارة تعرب عن الانتهاء. لٰكنّها قالت:

ـ كلّا يا سيّدنا الشيخ، ولٰكنّي أحبّ أن أعرف رأيك...

فتراجع الرجل إلى الداخل مقطّبًا وهو يقول:

ـ يا ستّ نفيسة لكلّ شيء وقته...

ونهض الحاجّ مصطفى فأزاحها عن النافذة ثمّ

أغلقها وهو يقول:

ـ عودي إلى الكنبة ووحّدي الله . . .

وتمتم عبد العظيم وهو يكظم غيظه:

ـ البرد سيقتلنا والمريضة في حالة خطيرة. . .

وقالت تفيدة في صوت متهدّج:

ـ لم يعد في الدنيا ذوق. . .

فرجعت المرأة إلى مجلسها وهي تقول بجفاء وتحدٍّ:

ـ حَيْلَك يا ستّ هانم إنّها لا تعرف لها أهلًا غيرنا، أمّا أنتم فلم تحضروا إلّا عند الوفاة!

وأشار الحاجّ إلى تفيدة متوسّلًا أن تسكت وخاطب نفيسة قائلًا:

ـ يا ستّ نفيسة ما معنى هٰذا كلّه! هه، إن كان لك حقّ فما من قوّة تمنعه عنك، أليس في البلد محاكِم وقوانين؟ وعبد العظيم أفندي رجل موظّف محترم، وكذٰلك الستّ أخته فلا لزوم للكلام الفارغ. . .

وهمّت العجوز بالكلام ولٰكنّه نهرها بحزم فأطبقت شفتيها، وسكت كلّ شيء فلم يعد يسمع إلّا عويل الريح في الخارج ولغط بعض المارّة في الطريق، وأنفاس الحاجّ مصطفى المحشرجة.

وشعر عبد العظيم بهواء بارد يتسرّب إلى قدميه قادمًا من عقب الباب فانكمشت أصابعه في الحذاء، وأخذ جوّ الحجرة بمرور الوقت يشحب ثمّ يغمق رويدًا مؤذنًا بالمغيب، وركبهم اليأس، حتّى الحاجّ مصطفى أشعل المصباح وهو يقول: «ما زال في العمر بقيّة، وحتّى إذا وافى الأجل اليوم فلا بدّ من الانتظار إلى الغد». وتساءل عبد العظيم: «هل قضي عليهم بالبقاء في هٰذه الحجرة الكئيبة، وعلى مقربة من هٰذه العجوز الوقحة طيلة ليل الشتاء البارد؟»، ولم يعد مصطفى إلى مجلسه ولٰكنّه زرّر معطفه استعدادًا للذهاب ثمّ قال:

ـ لا لزوم لي الآن، أنا ذاهب إلى بيتي فاستدعوني إذا حصل شيء.

ومضى تاركًا عبد العظيم لمزيد من الكآبة والضيق. نظر إلى العمّة بوجوم وكانت راقدة في غير ما اكتراث لشيء في الوجود، أيّ شيء في الوجود. واشتدّ هبوب الريح حتّى انقلبت زئيرًا وتجسّدت الكآبة كالجدران القائمة. وشعر عبد العظيم بحنان عارم إلى مجلسه في البيت على كثب من الراديو بين زوجه وأولاده، إلى صخب الأولاد وشقاوتهم وتعلّقهم العجيب به، وحملت الريح فيما حملت صوتًا يغنّي في الراديو:

يا امّه القمر ع الباب

فحاول أن ينسى فيه ألمه. ومرّ الوقت أثقل من الخوف. وجثم الليل وأفصحت طقطقة الكنبة والمقعدين على تململ الجالسينَ. وما لبث أن مال رأس العجوز إلى مسند الكنبة وراحت تشخر شخيرًا ضاعف من البلوى، وتمتم عبد العظيم:

ـ كيف يمكن أن يمضي هٰذا الليل الطويل؟

فقالت تفيدة بعطف:

ـ ارجع إلى البيت. . .

فقال بلهفة:

ـ تعالي معي. . .

ـ هبها ماتت. . . أثناء غيابنا، فماذا يقول الناس؟!

فأبى أن يذهب وحده، وبدا أنّ المريضة هي الوحيدة التي ترقد في سلام، ومضى الليل بعدد ذرّات رمال الدنيا، واضطرّ الأخ وأخته إلى الانتقال إلى الكنبة التماسًا لمجلس أطرى وتمهيدًا لنعاس متقطّع متعب على مرمى أنفاس الموت المتردّدة. ولم يجد الرجل ما يتسلّى به سوى التفكير في الميراث المنتظر. في نصيبه من مال البريد، ومن إيراد البيت الشهريّ الذي لا يقلّ عن عشرة جنيهات، ألا يضمن على الأقلّ مقدار علاوتين شهريّتين؟ لعلّه يتمكّن من شراء معطف فما يجوز أن يلقى الشتاء كلّ عام بلا معطف في مثل هٰذه السنّ، ولعلّه يستطيع أن يرفّه عن أسرته بشيء من الفاكهة الممتازة من حين لآخر، أو بنوع من الطيور ولو مرّة في الشهر، لا شكّ أنّ الحياة ستكون أجمل ممّا كانت حتّى الآن. وغلبه النوم وهو يناجي أحلامه.

واستيقظ هو وأخته في الصباح الباكر بجسدين متوعّكين في أكثر من موضع. واقتربت تفيدة من فراش العمّة وانحنت فوقها متفحّصة ثمّ عادت إلى أخيها وهي تقول:

ـ ينبغي أن نذهب إلى البيت ولو لبضع ساعات. . .

فقالت ستّ نفيسة التي ظنّاها نائمة:

ـ تذهبان وترجعان بالسلامة. . .

فتلقّت مجاملة العجوز كأنّها بودرة عفريت رُشّت في قفاها، وذهبا معًا واجمين. وفي الطريق قال عبد العظيم لأخته:

ـ لي صديق محامٍ سيحلّ لي ألغاز الميراث في أقرب وقت. . .

وعادا قبيل الظهر بقليل، وأرهفا السمع وهما يقتربان من البيت ولكنّهما لم يسمعا شيئًا ممّا كانا يتوقّعان. كلّ شيء هادئ في البيت. والدجاج يتمشّى فوق السطح في غبطة ظاهرة ويميل برأسه إلى الوراء لينظر إلى القادمين. ووجدا في الحجرة العجوز وابنتها والحاجّ مصطفى والفِراش المنعزل الصامت حاملًا العمّة المصابة وكفنها المكوّم عند القدمين. سلّما ثمّ اتّخذا مجلسيهما على المقعدين كالأمس وهما يكابدان إحساسًا بالخيبة وخوفًا من أن يتكرّر عذاب الليلة الماضية. وخيّل إليهما أنّ الحاجّ مصطفى همّ بالكلام لكنّه عدل عنه. ماذا كان يريد أن يقول؟ لعلّه يشعر بما يشعر به أيّ سمسار انكشف خداعه! والحقّ أنّ الحياة لا يمكن أن تحتمل على هٰذا النحو الأليم من الانتظار فوق مقعد خشبيّ على كثب من كفن. وكم من مشلول عاش دهرًا طويلًا! وربّما وجبت عليهم خدمة المريض زمنًا، لا يدري مداه أحد. وقال الحاجّ مصطفى بلهجة ذات معنى:

ـ نحن نشتري الحقن حقنة بعد حقنة!

ألا خيبة الله! أنت وطبيبك نفسه! ولم يعلّق عبد العظيم لا بكلمة ولا بنظرة. وراح الحاجّ يقصّ القصص عن الشلل والمشلولين. جدّكما مثلًا مات بمجرّد إصابته. أبوكما لم يلبث إلّا ساعات. وصاحب العمارة في أوّل الطريق سقط في القهوة ولفظ أنفاسه قبل أن يجد من ينقله إلى البيت. وعشرات غيرهم أيْ نعم عشرات. وما لبث أن قام قائلًا:

ـ استدعوني إذا جدّ جديد. . .

وغادر الحجرة، وعقب ذهابه مباشرة أقبلت مجموعة من الجارات فاستحسن عبد العظيم أن يذهب أيضًا. مضى إلى قهوة بالأزهر، ثمّ تناول غداءه عند العاجاتي وعاد إلى الحجرة فوجد الحال كما تركه. ولبث دقائق ثمّ مضى مرّة أخرى إلى القهوة فبقي بها حتّى المساء فعاد إلى الحجرة بأمل جديد ولٰكنّه وجد الحال كما تركه. وقالت له تفيدة بحزم:

ـ لن تستطيع المبيت هنا ليلة أخرى، ارجع إلى البيت وسأبقى أنا. . .

غمغم بشيء لم يتبيّنه أحد ثمّ ذهب. رجع إلى أسرته، واطمأنّ في مجلسه أمام الراديو بين الأولاد، وتأرجح قلبه بين الطرب وبين عواطف الأبوّة الأصيلة العميقة التي يلهمها كلّ ولد بطريقته الخاصّة. وعمّقت تجربة الليلة الماضية من مسرّته بالمجلس كأنّما هو عائد إليه من مرض أو سجن. وسألته زوجته:

ـ أليس من الواجب أن أذهب معك غدًا؟

فقال بجدّ:

ـ لا داعي لذهابك مطلقًا!

ومضى مع الصباح إلى الدرب الأحمر، وكان كلّ شيء كما توقّع، يجري على مألوفه، وضحك الحاجّ مصطفى ضحكة فاترة وقال وهو يشير إلى العمّة:

ـ كعادتها دائمًا، ربّنا يلطف بها، كانت رغم كلّ شيء ظريفة!

ثمّ قصّ عليهم كيف أنّها رغبت أخيرًا في إجراء بعض الإصلاحات في دورة المياه فكلّفته بالقيام باللازم، وكيف واظبت على مراجعة حسابه قبل الإذن بالشروع في العمل الذي لم يتمّ، وكيف لم تُخْفِ سوء ظنّها بكلّ رقم، ثمّ كيف قالت بكلّ بساطة: «يا مصطفى، أنت كلّك ضلال كالمرحومة أمّك». وضحك الرجل ضحكة عالية لٰكنّه اضطرّ إلى قطعها على صوت تفيدة وهي تهتف:

ـ انظروا. . .

اتّجهت الأنظار نحو العمّة فرأوا الغطاء وكأنّه يتحرّك، يقبّ قليلًا فوق يدها اليسرى. اقترب الحاجّ مصطفى من الفراش وأزاح الغطاء قليلًا فبدت يسراها وهي تتحرّك. ارتفعت قليلًا، وانبسطت راحتها ثمّ انقبضت، ثمّ استكنّت فوق الصدر، حملق الرجل في الراقدة بذهول، ثمّ أعاد الغطاء إلى سابق وضعه وعاد إلى مجلسه. وتوتّر الصمت كالشلل. ترى أيّ قوّة خفيّة تعبث بهم وتعذّبهم؟! ألم تكن الحياة محتملة رغم كافّة

متاعبها؟... ماذا رمى بهما إلى هٰذه التجربة؟ وقالت تفيدة بحدّة:

ـ ضعوا الكفن تحت السرير...

فرفع الحاجّ حاجبيه الكثيفين في حيرة ولم ينبس ولم يتحرّك، فعادت تفيدة تقول:

ـ رأسي سيتكسّر من قلّة النوم.

فنظر عبد العظيم نحو الحاجّ وقال:

ـ لنذهب الآن ثمّ نعود عصرًا...

وشجّعهما الحاجّ بهزّة من رأسه فغادرا الحجرة على الفور، وقالت تفيدة وهما يقطعان الغوريّة:

ـ هٰذا حرام من أوّله إلى آخره، والله يعاقبنا...

قال عبد العظيم بعصبيّة:

ـ ماذا فعلنا؟... البغل وحده الذي أكّد أوّل يوم أنّها ستدفن قبل هبوط الليل...

ـ الحقّ أنّي كرهت كلّ شيء، كرهت نفسي يا أخي...

ـ لا اعتراض على مشيئة الله...

ثمّ بلهجة متطوّرة إلى الهدوء وكانا يقتربان من شارع الأزهر:

ـ اذهبي إلى البيت وسأذهب إلى المصلحة...

وقفا في المحطّة ينتظران الترام. وحانت من عبد العظيم نظرة نحو مدخل الغوريّة فرأى الحاجّ مصطفى يهرول نحوهما. وقف أمامهما وهو يلهث ثمّ قال:

ـ الحمد لله على أن أدركتك قبل أن تركب...

ثمّ مواصلًا كلامه بعد لحظات استراحة:

ـ البقيّة في حياتك...

ألجمت الدهشة لسانيهما. وتدفّق إلى نفسهما خليط من المشاعر، الخوف والحزن والارتياح والخجل. ورجعوا جميعًا، وتفيدة تتسائل:

ـ ظننت أنّها... ربّاه... كيف حدث هٰذا؟

فقال الحاجّ مصطفى وكان لا يزال يلهث:

ـ كما يحدث عادة، لا غريب في الأمر، سعلت قليلًا، وبدا أنّها تحاول أن تتكلّم، ثمّ شهقت شهقة خفيفة، وخرج السرّ الإلٰهيّ...

وترامى إليهم من ناحية البيت صوات جماعيّ!... وقع في نفوسهم موقعًا غريبًا ولٰكنّه أحدث تأثيرًا غير منتظر فجاش صدر عبد العظيم بالانفعال وأجهشت تفيدة في البكاء. وعندما اقتربت من السطح ولولت صائحة: «يا عيني يا عمّتي... يا عيني يا عمّتي!».

وجرى كلّ شيء كما رتّب الحاجّ مصطفى من قبل فخرجت الجنازة قبل الظهر، وسار فيها جمع غفير من أهل الحيّ سواء للمجاملة أم ابتغاء الثواب. وتراءى الشيخ عويس المحامي وهو يسير بين المشيّعين فشقّ الحاجّ مصطفى سبيله إليه ولزمه حتّى صُلّي على الفقيدة في الجامع. ولـمّا استأنفت الجنازة سيرها إلى باب النصر بالبقيّة القليلة من المشيّعين عاد الحاجّ إلى جانب عبد العظيم شلبي ولكزه بكوعه قائلًا في همس:

ـ لن يشارككما أحد...

فسأله عبد العظيم بلهفة:

ـ أقال ذٰلك؟

ـ تقريبًا. المسألة تحتاج إلى مراجعة طبعًا ولٰكن اطمئنّ!

فدارى عبد العظيم فرحته بقناع من الجدّ وتمتم:

ـ نحن راضون بما قسم الله به...

وانتهت الجنازة إلى المدفن القديم، فأنزل النعش على كثب من القبر وجلس المشيّعون في الحوش غير المسقوف على كراسي من الخيزران. ومضى عبد العظيم إلى القبر المفتوح ووقف عند رأسه مذعنًا لرغبة غامضة أقوى من الخوف الذي لم يصدّه، كان القبر ذا منامتين، واحدة للرجال والأخرى للنساء فأرسل طرفه الحائر نحو منامة الرجال. رآهم صفًّا متراميًا إلى الداخل، على رأسهم أبوه الذي استدلّ عليه بموضعه ويلون كفنه الكمّونيّ المقلّم، تلاه أخوه، ثمّ جدّه. وثقل قلبه جدًّا، وضغط الانقباض على أضلعه ضغطًا غير محتمل. لٰكنّ عينيه تحجّرتا فلم تذرفا دمعة واحدة. وامتلأت خياشيمه برائحة ترابيّة نافذة كأنّما تصدر عن الفناء نفسه. ومرّت لحظة مات فيها كلّ شيء فلم يعد لأمر قيمة ولا معنى. وشعر بيد توضع على كتفه فالتفت فرأى الحاجّ وهو يشير إليه أن يتخلّى عن مكانه للدافنين، وسرعان ما تراجع. وبدأ العمل فحُمل الجثمان ليودع مقرّه الأخير. وانبعثت آيات من صوت كئيب كأنّما تنبعث من خزانة للأحزان. وبدأ

التلقين في رتابة مخوفة مضجرة، ألقته حناجر أشباح شائهة، فحلّت به جملة ألغاز الأبد. وقال عبد العظيم لنفسه: يا لها من أسئلة ولكن كيف يتاح الجواب لمنفرد بظلمة القبر!... وتتابعت الأصوات في رتابتها تنفث كآبة كالغبار، وفي الحوش تردّد صوت السقّاء البائس وهو يجول بين الجالسين بإبريقه دون أمل. وطار فكر عبد العظيم فجأة إلى ابنه البكريّ فعاهد الله على أن يُجري له جراحة لاستئصال اللوزتين كما نصح بذلك طبيب الوحدة المدرسيّة، فهذا خير على أيّ حال من أن يتهدّده روماتيزم القلب فيما بعد، وعاهد ربّه أيضًا على الإقلاع ما أمكن عن الموادّ الدهنيّة كما أشار عليه الطبيب منذ عام بغضّ النظر عن الثروة المنتظرة. وتلاحقت الأصوات في سرعة موحية بنهاية الحفل فحنّ قلبه إلى البيت والأولاد بقوّة وجد فيها العزاء عمّا ساوره من قلق. وتابع الحاجّ مصطفى وهو يساوم التربيّ وينفح السقّاء بشيء من الجود، وكذلك المقرئين، وارتفع صوته الجهير وهو يزجر الطامعين بغلظة. وآمن بأنّ ذلك الرجل سيخرج من المولد بغنيمة طيّبة ولكنّه كان مقتنعًا كذلك بأنّه لولا خدماته لغرق في الارتباك والخسران حتّى أذنيه، ومضى المشيّعون ينصرفون حتّى لم يبق إلّا الحاجّ مصطفى وعبد العظيم، وكانت الشمس تسطع في سماء خلت تقريبًا من السحب فبثّت في الجوّ دفئًا مليحًا فدعا الحاجّ مصطفى صاحبه إلى الجلوس على دكّة عند طرف المدفن ليستريحا قليلًا. وتردّد عبد العظيم عن قبول الدعوة مقلّبًا عينيه في الخلاء المكتظّ بالقبور إلى ما لا نهاية أمام الدكّة وفيما حولها ولكنّ الحاجّ تعلّق بذراعه وقال متوسّلًا:

ـ لم أجلس منذ الصباح ولا ثانية، دقائق معدودات ثمّ نذهب...

وجلس الحاجّ فجلس عبد العظيم وهو كاره، بدا كأنّه يعجب من كثرة القبور حوله فأراد الآخر أن ينتزعه من كآبة المنظر فقال:

ـ غلبني التعب المتراكم، وأمامنا مشوار ليس بالقصير، وأنت رجل ظريف تُستحبّ معاشرته، بالله خبّرني ماذا نويت أن تفعل.

فتساءل عبد العظيم بدوره:

ـ فيمَ؟

فلوّح الآخر كأنّما يشير إلى القبور وقال:

ـ في كلّ شيء، أعني الأمور الجديدة التي تتطلّب أسرع الحلول، طبعًا عليك أن تشرع فورًا في إجراءات إثبات الوراثة، وقبل ذلك علينا أن نستشير المحامي بصفة رسميّة، بعد ذلك تصبح أنت والستّ أختك المالكين ـ وحدكما إن شاء الله ـ للبيت ونقود البريد...

فهزّ عبد العظيم رأسه بالإيجاب ولكنّه حسب للمجهود ألف حساب. وقرّب الآخر فمه من أذنه كأنّما يخشى أن يسمعه مَن في القبور وقال:

ـ الحقّ أنّ المتاعب ستبدأ بعد ذلك...

ـ المتاعب قبل ذلك...

ـ أتظنّ هذا؟! ماذا تعرف عن مهمّة أصحاب البيوت؟

فقال عبد العظيم بقلق:

ـ لا أدري، هل ثمّة شيء خلاف تحصيل الإيجار في أوّل الشهر؟

ـ وكيف يحصَّل الإيجار في أوّل الشهر؟

فابتسم عبد العظيم في حيرة دون أن ينبس، فقال الحاجّ:

ـ واحد يدفع وعشرة يتهرّبون، هذا يجب أن تمهله أسبوعًا، وذلك وقعت له مصيبة ويطلب التأجيل إلى الشهر القادم، وثالث لن تجده في مسكنه أبدًا، ورابع وخامس، أنت لا تعرف أهل حيّنا ولا سكّان هذا البيت بصفة خاصّة، الله يرحم عمّتك، كانت مجاهدة عظيمة، ولكن أنت، الموظّف المحترم، المؤدّب المهذّب، ماذا تستطيع أن تفعل؟

فقال عبد العظيم وهو يشعر بأنّ جدارًا يرتفع أمامه ليخفي عن عينيه أحلامه العسليّة:

ـ في البلد قانون.

ـ إذن فلتلزم نقطة البوليس ولتسكن في مكتب محام...

ـ الدنيا ما تزال بخير...

فقال الآخر بتوكيد:

ـ البيت كالعروس الجديدة، مرّة ترجع إليك لأنّ

زوجها ضربها، ومرّة لأنّ حماتها شتمتها، ومرّة لأنّ المصروف غير كافٍ، صدّقني أنّ هٰذا هو حال البيت، الحنفيّات خربت، دورة المياه انسدّت، السلّم تشقّق، وهٰذا هو وجع الدماغ الأصليّ.

تجهّم وجه عبد العظيم وشعر بضيق شديد، ورمق صاحبه بنظرة استياء ثمّ سأله:

ـ ماذا تقصد؟

فقال الحاجّ بصراحة مذهلة:

ـ بِعْهُ!

فقطّب عبد العظيم مستنكرًا ولٰكنّ الآخر قال:

ـ أنا رجل صريح، لا أخفي عنك أنّ البيع مفيد لي، كلّ بيع أو شراء في حيّنا مفيد لي، ولٰكنّ هٰذه الصفقة مفيدة أكثر لك أنت، هٰذا هو المهمّ، أنا لا أكذب عليك فأقول إنّي أراعي مصلحتك، الحقّ أنّي أجري وراء مصلحتي، ولٰكنّها في هٰذه الحال مصلحتك أيضًا، ستأخذ ألفًا أو ألفًا وخمسمائة، إن شاء الله ألفين، وستستغلّهما استغلالًا أحسن وبعيدًا عن وجع الدماغ...

فكّر عبد العظيم في الأمر باهتمام جدّيّ، لٰكنّه تمتم متظاهرًا بالجزع:

ـ يا لها من خسارة!

ـ أبدًا وحياتك! سيكون المبلغ بين يديك، بما فيه نصيب أختك، لن تجد معارضة من ناحيتها أبدًا، فيمكن أن تستغلّه باسمك وباسمها، وهي وحيدة، لا أحد لها في الدنيا سواك، وسيؤول كلّ المال إليك وإلى أولادك من بعدك!

فقال عبد العظيم:

ـ سيكون حقّها كلّه تحت تصرّفها...

ـ طبعًا... طبعًا، أنت لا تفهمني يا سي عبد العظيم!

وأخفى عبد العظيم عينيه عن صاحبه وعن القبور بالنظر إلى الأرض، مبلغ كبير بلا شكّ. وطالما أكرم. تفيدة فهي لن تعارضه ولن تحاسبه. وأولاده ما هم إلّا أولادها. وثمّة وجوه كثيرة للاستغلال بلا شكّ. الحقّ أنّ الفكرة طيّبة. وغمغم في حذر:

ـ سأفكّر في الأمر...

فقال الحاجّ مصطفى بارتياح:

ـ فكّر على مهلك، وإذا قرّرت البيع فأحضر بنفسك أيّ سمسار كما تشاء حتّى تقبل عن رضى الثمن المعروض ولك عليّ بعد ذٰلك أن أجد لها شاريًا بنفس الثمن، والأقربون أَوْلى بالمعروف!

الفكرة وجيهة، وسوف يشاور أصدقاءه. والبيع على أيّ حال خير من مناكفة المستأجرينَ، ورعاية بيت قديم من عهد نوح، وقال:

ـ اتّفقنا يا حاجّ من ناحية المبدإ...

فلوّح الحاجّ مصطفى بذراعه كأنّما يقول «اتّفقنا» فانطلقت ذراعه في الهواء كشاهد من آلاف الشواهد القائمة حوله فوق القبور، ورأى عبد العظيم ذٰلك المنظر فانقبض صدره... وقام وهو يقول برجاء:

ـ آن لنا أن نذهب.

الجامع في الدَّرب

حان موعد درس العصر ولٰكن لم يوجد بالجامع إلّا مستمع واحد. ولم يكن هٰذا بالأمر الجديد على الشيخ عبد ربّه الإمام، فمنذ التحاقه بخدمة الجامع وهو لا يجد مستمعًا لدرسه إلّا عمّ حسنين بيّاع عصير القصب، ولذٰلك دأب المؤذّن والخادم على الانضمام إلى الرجل احترامًا للدرس ومجاملةً للإمام. وحقّ للشيخ عبد ربّه أن يستاء لذٰلك، لٰكنّه كان اعتاده مع الزمن، ولعلّه كان يتوقّع ما هو أفظع يوم تقرّر نقله إلى هٰذا الجامع الرابض على باب الفساد، يومذاك غضِب، وسعى إلى إلغاء النقل أو تعديله، ولٰكنّه اضطرّ إلى تنفيذه على رغمه، ولاقى بسبب ذٰلك ما لاقى من تهكّم الخصوم، ومزاح الأصدقاء. أين يمكن أن يجد مستمعًا لدرسه؟! أبجامعٍ يقوم عند ملتقى دربينِ، درب الفساد الشهير، ودرب آخر بمثابة مباءة للقوّادين والبرمجيّة وموزّعي المخدّرات ويبدو أنّه لا يوجد رجل صالح أو حتّى رجل عاديّ في الحيّ كلّه إلّا عمّ حسنين بيّاع العصير. ولبث دهرًا يفزع كلّما امتدّ بصره إلى

داخل هٰذا الدرب أو ذاك، وكأنّما كان يخشى إذا تنفّس أن تتسرّب إلى صدره جراثيم الدعارة والجريمة. على ذٰلك كلّه واظب على إلقاء درسه مواظبة عمّ حسنين على الحضور، حتّى قال للرجل يومًا بلهجة التشجيع:

ـ بهٰذا الاجتهاد ستصير عمّا قريب إمامًا يُرجع إليه!

فابتسم العجوز في حياء وقال:

ـ عِلْم الله لا حدود له...

وكان درس اليوم عن نقاء السريرة بصفته عماد الإخلاص وأسّ المعاملة الشريفة بين المرء ونفسه وبينه وبين الناس إلى أنّه خير ما يستقبل به الإنسان يومه، وأصغى عمّ حسنين بانتباه كعادته، وكان قليل السؤال إلّا أن يكون ذٰلك عن معنى آية أو استيضاح لشأن من شئون الفرائض. وفي ذٰلك الوقت من اليوم ـ العصر ـ يستهلّ الدرب حياته. كان الدرب يُرى بكامله من نافذة الجامع القبليّة، ضيّقًا متعرّجًا في بعض أجزائه طويلًا تقوم على جانبيه أبواب البيوت البالية والمقاهي، ولمنظره وقع غريب مثير للغرائز. في العصر تدبّ في الدرب حركة استعداد كأنّه يتمطّى مستيقظًا من سبات. الأرض ترشّ بالجرادل. الأبواب تفتح وتطرق طرقات غريبة. المقاعد تنتظم في القهوات. نسوة في النوافذ يتزيّنّ ويتبادلن الأحاديث. ضحكات متهتّكة تلعلع في الجوّ. البخور يحترق في الدهاليز. ولم يخل الأمر من امرأة تبكي فتحثّها المعلّمة على التعزّي كيلا يضيع الرزق كما ضاع الفقيد، وأخرى تضحك ضحكة هستيريّة لأنّها لم تنس بعد مصرع زميلتها وهي قاعدة إلى جانبها، وقال صوت غليظ مستنكرًا:

ـ حتّى الخواجات! حتّى الخواجات يا هوه! خواجا يضحك على فردوس! يبتزّ منها مائة جنيه ويهجرها!

وثمّة أصوات تتمرّن على أداء أغنيات مبتذلة فاحشة، وفي نهاية الدرب بدأت معركة بالكلام وانتهت بالكراسي، ثمّ خرجت لبلبة لتجلس أمام باب أوّل بيت، وأشعل أوّل فانوس، وشعر كلّ بأنّ الدرب عمّا قليل سيستقبل الحياة...

وذات يوم دُعي الشيخ عبد ربّه بإشارة تليفونيّة إلى مقابلة المراقب العامّ للشئون الدينيّة. وقيل له إنّها دعوة عامّة للأئمّة، ولم يكن ذٰلك بالأمر غير المألوف وخاصّة للظروف التي سبقت الدعوة. ومع ذٰلك تساءل الرجل عمّا وراء الدعوة بشيء من القلق، كيف لا والمراقب شخصيّة خطيرة، تستمدّ خطورتها من قرابة لموظّف كبير ملعون الاسم على كلّ لسان، موظّف يجيء بالوزراء ويذهب بهم، ويعبث بكافّة المقدّسات الشعبيّة، سيكونون بين يديه خير ممثّلين للضياع وستذروهم رياح الغضب لأقلّ هفوة. وبَسْمَلَ الشيخ، وتأهّب للاجتماع بخير ما لديه، فارتدى جبّة سوداء وقفطانًا شبه جديد وقلوظ العمامة ثمّ ذهب متوكّلًا على الله. وجد الطرقة أمام مكتب المراقب شديدة الزحام كأنّها على حدّ تعبيره يوم الحشر. وجعل الأئمّة يتبادلون الخواطر ويتساءلون عمّا وراء الاجتماع من أمور. ففُتح الباب الكبير وأذن لهم بالدخول فدخلوا تباعًا إلى الحجرة الواسعة حتّى اكتظّت بهم. واستقبلهم المراقب بوجه وقور يشعّ رهبة، استمع كالكاره إلى مقطوعات المديح التي انهالت عليه وهو يداري ابتسامة غامضة، ثمّ ساد الصمت واشتدّ التطلّع على حين أخذ هو يقلّب عينيه في الوجوه، وحيّاهم تحيّة مقتضبة. وأعلن ثقته في أنّهم سيكونون عند حسن الظنّ بهم. وأشار إلى الصورة المعلّقة فوق رأسه وقال:

ـ واجبنا نحوه ونحو أسرته العليّة هو ما دعا إلى هٰذا الاجتماع...

انقبضت صدور كثيرة دون أن يزايل البشر وجوه أصحابها. وقال المراقب:

ـ إنّ العلاقة الوطيدة التي تربطكم به فوق الكلام، إنّها مودّة تاريخيّة متبادلة...

أشرقت الوجوه بالتأييد لتداري توعّك القلوب، وواصل الرجل الحديث قائلًا:

ـ وحيال الأزمة التي تجتاح البلاد يطالبكم الإخلاص بالعمل...

اشتدّ اضطراب القلوب في مسرحها الخفيّ:

ـ بصّروا الشعب بالحقائق!، اهتكوا أستار الدجّالين ومثيري الشغب، كي يستقرّ الأمر لصاحب الأمر...

وصال المراقب وجال مستنفدًا هٰذه المعاني، ثمّ

تساءل وهو يتفحّص الوجوه إن كان ثمّة ملاحظات يراد أن تقال! غشي المكان الصمت حتّى انبرى إمام جريء فأكّد أنّ المراقب أفصحَ عن مكنون القلوب وأنّه لولا الخوف من خرق التعليمات لسارعوا من أنفسهم إلى ما دعاهم إليه من واجب! وانجابَ القلق عن الشيخ عبد ربّه مذ بدأ المراقب حديثه. أدرك لتوّه أنّهم لم يُدعوا لأيّ نوع من المحاسبة أو التحقيق، بل إنّ السلطة تسعى إليهم هٰذه المرّة باسطة يدها، ومن يدري فلعلّه يعقب ذٰلك إجراء جدّيّ لتحسين حالهم فيما يتعلّق بالمرتّبات والمعاشات. غير أنّه سرعان ما ارتدّ إلى القلق كما ترتدّ الموجة المنبسطة على الساحل الرمليّ الصافي إلى الزبد. أدرك بوضوح ما يراد بهم وما سوف يجد نفسه مضطرًّا إلى قوله في خطبة الجمعة ممّا يأباه ضميره ويمقته الناس. ولم يشكّ في أنّ الكثير يشاركونه مشاعره ويعانون أزمته. ولكنّ السبيل فيما يبدو مسدود في وجوه الجميع. وعاد إلى الجامع وهو يُعمل فكره في همومه الجديدة.

* * *

وكان شلضم البرجميّ المعروف بالحيّ مجتمعًا بأعوانه في خمّارة «أهلًا وسهلًا» على مبعدة أمتار من الجامع. بدا غاضبًا كالنار وكلّما شرب قدحًا من النبيذ الأسود ازدادت النار اشتعالًا. وقال بصوت كالخوار:

ـ البنت نبويّة المجنونة تحبّ الولد الرقيع حسّان، لا شكّ عندي في ذٰلك...

فقال له صاحب يبغي تهدئته:

ـ لعلّه زبون، مجرّد زبون لا أكثر ولا أقلّ...

فدقّ شلضم الترابيزة بقبضة من حديد تناثر لها الترمس والفول السودانيّ وقال بوحشيّة:

ـ لا... إنّه يأخذ ولا يعطي، أعرف ذٰلك كما أعرف أنّ طعنة خنجري قاتلة، وهو لا يدفع مليّمًا واحدًا بينما يتلقّى الهدايا أشكالًا وأنواعًا!

فأعلنت الوجوه التقزّز والازدراء، وأفصحت الأعين المخمورة عن التأهّب والامتثال فقال:

ـ الرقيع يجيء عادة حينما ترقص الأفعى، انتظروا مجيئه، ثمّ اشتبكوا في معركة، وعليّ الباقي...

وجرعوا الأقداح وأعينهم تعكس شرّ النوايا...

وعقب صلاة العشاء زار الشيخ عبد ربّه إمامان من زملاء الدراسة يدعى أحدهما خالد والآخر مبارك. جلسا إلى جانبه متجهّمين، وأخبراه بأنّ بعض الأئمّة قد فُصلوا من وظائفهم لامتناعهم عن الاشتراك في الحملة المدبّرة، وقال خالد متذمّرًا:

ـ لِمَ تخلق دور العبادة للمهاترات السياسيّة وتأييد الطغاة؟

فشعر عبد ربّه بأنّ حديث صاحبه ينكأ جرحه وتساءل:

ـ أتريد أن تتضوّر جوعًا؟

فساد صمت ثقيل، وأبى الشيخ أن يعلن هزيمته فتظاهر بأنّه سيعمل عن اقتناع ليحافظ على كرامته أمامهما فقال:

ـ ما يظنّه البعض مهاترات قد يكون هو الحقّ بعينه...

ودهش خالد لانقلاب الشيخ فزهد في المناقشة، أمّا مبارك فقال باندفاع مأثور عنه:

ـ سنقتل مبدأ إسلاميًّا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

فغضب عبد ربّه عليه كما يغضب ضميره الذي يعذّبه وقال:

ـ بل سنُحيي مبدأ إسلاميًّا هو الدعوة إلى طاعة الله ورسوله وأولي الأمر...

فتساءل مبارك في استنكار شديد:

ـ أهٰؤلاء من تعدّهم أُولي الأمر؟!

فتحدّاه عبد ربّه متسائلًا:

ـ خبّرني هل تمتنع عن إلقاء الخطبة؟

قام مبارك متسخّطًا ثمّ غادر المكان وما لبث أن غادره خالد، ولعنهما الشيخ كما يلعن نفسه الثائرة...

* * *

وقبيل منتصف الليل امتلأ حوش البيت السابع إلى اليمين بالسكارى. جلسوا على مقاعد خشبيّة متحلّقين دائرة من الأرض الرمليّة سلّط عليها ضوء كلوب، وانسابت في جنباتها نبويّة وهي ترقص في قميص نوم ورديّ. وتلعب في يمناها نبّوتًا مكتسيًا بخيط حلزونيّ مرصّع بالورد. وصفّقت الأكفّ على الواحدة،

وتصاعدت من الأفواه المخمورة تأوّهات بهيميّة. واندسّ البرمجيّة في الأركان يتربّصون على حين لَبَدَ شلضم في بئر السلّم مركّز العينين على مدخل البيت، وإذا بحسّان يدخل مصفّف الشعر متألّق الثغر، فالتهمته نظرات شلضم الناريّة. وقف حسّان ينظر إلى نبويّة حتّى انتبهت إليه فحيّته بابتسامة عريضة وحركة لعوب من بطنها الراقص وغمزة عين.

عند ذاك تسلطن حسّان فمضى إلى مقعد خالٍ وجلس. وغلى الدم في عروق شلضم حتّى تقلّصت أطرافه ثمّ أطلق صفيرًا خفيفًا، وفي الحال اشتبك اثنان من أعوانه في معركة مفتعلة. وتداخل الآخرون فاشتدّت المعركة وترامت حتّى قام السكارى مذهولين وأخذوا يتدافعون نحو الباب. وطار مقعد نحو الفانوس فهشّمه فانقضّ الظلام على المكان كالكابوس، واختلط الصراخ بوقع الأقدام وارتفع الصوت وفي غمار الزوبعة الدائرة في الظلمة شقّ الضجيج صراخ امرأة وما لبثت أن أعقبها على الأثر تأوّهات رجل من الأعماق. وسرعان ما خلا الحوش الراكد تحت مثار الغبار إلّا من جثّتين مطروحتين في الظلمة الصامتة.

وكان اليوم التالي هو الجمعة. ولمّا حان وقت الصلاة ازدحم الجامع بالمصلّين على غير المألوف كلّ يوم، إذ إنّ صلاة الجمعة تجذب إليه أناسًا من الأطراف البعيدة كالخازندار والعتبة، وتُلي القرآن ثمّ وقف الشيخ عبد ربّه لإلقاء الخطبة. وبدا أنّ المصلّين فوجئوا بالخطبة السياسيّة مفاجأة لم تخطر على بال. تلقّت آذانهم متململة الجمل المسجوعة عن الطاعة وواجب الولاء بارتياب وحنق. وما إن حملت الخطبة على الذين يغرّرون بالشعب ويدعونه إلى التمرّد خدمة لمصالحهم الشخصيّة حتّى سرت في المسجد همهمة، وأصوات احتجاج وسخط، واعترض البعض بأصوات مرتفعة، وسبّ آخرون الإمام! عند ذاك انقضّ المخبرون المندسّون بين المصلّين على غلاة المعارضين وساقوهم إلى الخارج وسط ضجّة هائلة من الاحتجاجات والغضب.

وغادر المسجد كثيرون. ولكنّ الإمام دعا الباقين إلى الصلاة، وكانت صلاة حزينة تعلوها الكآبة...

* * *

في أثناء ذٰلك كانت حجرة بالبيت الثاني على اليسار من الدرب تضمّ سمارة وزبونًا جديدًا، جلست سمارة على حافة السرير نصف عارية، وتناولت خيارة من قدح مملوء إلى نصفه بالماء وراحت تأكلها. وعلى كرسي أمام الفراش جلس الزبون خالعًا جاكتته وهو يجرع الكونياك من الزجاجة. جالت عيناه في الحجرة العارية بنظرة غائبة حتّى استقرّت على سمارة فأدنى الزجاجة من فيها فتناولت شربة ثمّ أعادها. وقرعت التلاوة الآتية من الجامع أذنيه، فارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة لا تكاد ترى، ونظر إلى الأرض، وتمتم في امتعاض:

- لماذا يبنون جامعًا في هٰذا المكان... هل ضاقت بهم الدنيا؟

فقالت سمارة دون أن تتوقّف عن قضم الخيارة:

- هٰذا المكان من الدنيا مثل بقيّة الأماكن...

فجرع مقدار كأسين، وأحدّ بصره وهو يتفحّص وجهها وقال:

- ألا تخافين الله؟

- ربّنا يتوب علينا...

فضحك ضحكة مسترخية، وتناول خيارة فدسّها في فيه. وفي تلك اللحظة كان عبد ربّه يلقي خطبته فمضى يتابعه برأس متأرجح، ثمّ ابتسم ساخرًا وهو يقول:

- المنافق!... اسمعي ما يقول المنافق!

وجالت عيناه في الحجرة حتّى استقرّتا على صورة لسعد زغلول قد بهتت من القدم، فتساءل وهو يشير إليها:

- هل تعرفين هٰذا؟

- ومن لا يعرفه؟

فأفرغ بقيّة الزجاجة في جوفه وقال بلسان ثقيل:

- سمارة وطنيّة وشيخ منافق!

فقالت متنهّدة:

- يا بَخْته! بكلمتين يربح الذهب، ونحن لا نستحقّ قرشًا إلّا بعرق جسمنا كلّه...

فقال ممعنًا في السخرية:

ـ ثمّة رجال محترمون لا يختلفون عنك في شيء ولٰكن مَن يجد الشجاعة ليقول ذٰلك؟

ـ وقاتل نبويّة معروف للجميع ولٰكن من يجد الشجاعة ليشهد بذٰلك؟

فهزّ رأسه أسفًا وقال:

ـ نبويّة!... المسكينة!... مَن قاتلها؟

ـ شلضم الله يجحمه...

ـ يا ساتر يا ربّ، الشاهد عليه شهيد، من حسن الحظّ أنّنا لسنا المذنبين وحدنا في هٰذا البلد...

فقالت بضجر حادّ:

ـ لٰكنّك تضيّع الوقت في الكلام...!

* * *

وصمّم الشيخ عبد ربّه على استغلال ما وقع له في الجامع لصالحه فحرّر شكوى إلى الوزارة ضمّنها ما وجّه من اعتداء عليه بسبب خطبته «الوطنيّة»، وسعى إلى نشر الحادث في بعض الصحف بصورة مبالغ فيها وبخاصّة تدخُّل رجال البوليس للدفاع عنه والقبض على المعتدين. وبات عظيم الأمل في أن تنظر الوزارة إلى تحسين حالته بعين الاهتمام. غير أنّه عندما حان وقت درس العصر لم يجد مستمعًا على الإطلاق. ورمى بصره من الباب إلى دكّان العصير فرأى الرجل منهمكًا في عمله فظنّ أنّه نسي الدرس، فاقترب من الباب ونادى بصوت باسم:

ـ الدرس يا عمّ حسنين.

والتفت الرجل على الصوت بلا إرادة لٰكنّه سرعان ما أبعد رأسه في تصميم وبحركة نبذ حاسمة، وخجل عبد ربّه، وندم على ما بدر منه من نداء، وتراجع وهو يلعنه ألف لعنة.

وحين الفجر صعد المؤذّن إلى أعلى المئذنة في ليل ساجٍ رطيب، وبَدْر ساطع، وسكون مؤثّر، وأذّن هاتفًا «الله أكبر». وفي لحظات الاستعداد لمواصلة الأذان انطلقت صفّارة الإنذار في عوائها المتقطّع الرهيب فدقّ قلبه دقّة عنيفة لوقع المفاجأة. واستعاذ بالله وهو يتمالك أعصابه واستعدّ من جديد لمواصلة الأذان حالما تتوقّف الصفّارة عن العواء، إذ إنّ الإنذار بغارة بات عادة ليليّة تمرّ بسلام منذ أعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء. وهتف من الأعماق «لا إلٰه إلّا الله». وغنّاها بصوت لا بأس به. وإذا بانفجار يدوّي مرعدًا ارتجّت له الأرض فغاص صوته في أعماقه، وتجمّد في موقعه وأطرافه ترتعش وعيناه تحملقان في الأفق البعيد حيث لاح لهيب أحمر. وتراجع إلى الباب مقتلعًا قدميه من الأرض ومضى يهبط السلّم بركبتين مخلخلتين. وبلغ أرض الجامع في ظلام دامس فاتّجه نحو الإمام والخادم مستدلًّا عليهما بتهامسهما، ثمّ قال بصوت متهدّج:

ـ غارة جديدة يا جماعة... كيف العمل؟

فقال الإمام بنبرة مبحوحة:

ـ المخبأ بعيد، ولعلّه اكتظّ بكلّ مَن هبّ ودبّ، والجامع متين البنيان وهو خير ملجإ...

وجلسوا في ركن وسرعان ما انطلقت أفواههم بالتلاوة. وترامت من الخارج أصوات شتّى... وَقْع أقدام مسرعة، نداءات، تعليقات مضطربة، صرير أبواب وهي تفتح أو تغلق. ومرّة أخرى انصبّت على الأرض قذائف متلاحقة فزلزلت الأعصاب وخرست القلوب، وصاح خادم المسجد:

ـ الأولاد في البيت، بيت قديم يا سيّدنا!

فقال الإمام بصوت متحشرج:

ـ ربّنا موجود... لا تتحرّك من مكانك...

واندفعت مجموعة من الناس إلى داخل الجامع وبعضهم يقول:

ـ هٰذا آمن مكان...

فقال صوت غليظ:

ـ إنّه ضرب حقيقيّ لا كالليالي الماضية...

فانقبض قلب الإمام لدى سماعه الصوت. هٰذا الوحش الآدميّ، أليس وجوده بنذير شرّ؟ وجاءت جماعة جديدة أكثف من الأولى، وندّت عنها أصوات نسائيّة غير غريبة عن الشيخ. وهتف صوت قائلًا:

ـ طارت الخمر من رأسي...

وأفلت من الإمام زمامه فهبّ واقفًا وهو يصيح بعصبيّة:

ـ اذهبوا إلى المخبإ، احترموا بيوت الله، اذهبوا جميعًا...

فصاح به رجل:

ـ اسكت يا سيّدنا. . .

وارتفعت ضحكة ساخرة غير أنّ انفجارًا شديدًا دوّى حتّى صكّ الآذان فضجّ الجامع بالصراخ، وامتلأ الإمام رعبًا فصاح بجنون كأنّما يخاطب القنابل نفسها:

ـ اذهبوا. . . لا تدنّسوا بيوت الله. . .

فهتفت امرأة:

ـ يا عيب الشوم!

فصرخ الإمام:

ـ اذهبوا عليكم لعنة الله. . .

فاحتدّت المرأة قائلة:

ـ إنّه بيت الله لا بيت أبيك!

وصاح الصوت الغليظ:

ـ اسكت يا سيّدنا وإلّا كتمت أنفاسك. . .

وانتشرت التعليقات الحادّة والسخريات اللاذعة حتّى همس المؤذّن في أذن الإمام:

ـ أستحلفك بالله أن تسكت. . .

فقال عبد ربّه بتعثّر مَن يجد مشقّة في النطق:

ـ أترضى أن يكون الجامع مأوًى لهؤلاء؟!

فقال المؤذّن بتوسّل:

ـ ليس لديهم غيره، أنسيت أنّه حيّ قديم قد يتهاوى باللكمات لا بالقنابل. . .

فضرب الإمام راحته بقبضته وقال:

ـ هيهات أن يرتاح قلبي لاجتماع كلّ هؤلاء الأشرار في مكان واحد، إنّ الله لا يجمعهم في مكان واحد إلّا لأمر. . .

وانفجرت قنبلة فخيّل إلى حواسّهم الملتهبة أنّها انفجرت في ميدان الخازندار، والتمع لها بريق خاطف في فراغ الجامع كشف عن أشباح مرتعدة لحظة قبل أن تبتلعها الظلمة العمياء مرّة أخرى، فأطلقت الحناجر عواءً مزعجًا، وصوّتت النساء، والشيخ عبد ربّه نفسه صرخ وهو لا يدري. وتطايرت أعصابه فاندفع يهرول نحو باب الجامع، وجرى خادم المسجد خلفه يحاول منعه لكنّه دفعه بقوّة متشنّجة وهو يصيح:

ـ اتبعاني قبل أن تهلكا. . .

مرق من الباب وهو يقول مرتعدًا:

ـ لم يجمعهم الله في مكان واحد إلّا لأمر. . .

ومضى مهرولًا يخوض ظلامًا دامسًا، واستمرّت الغارة بعد ذلك عشر دقائق تساقطت في أثنائها أربع قنابل. وشمل الصمت المدينة مقدار ربع ساعة أخرى ثمّ انطلقت صفّارة الأمان. . .

ومضت الظلمة ترقّ أمام البكرة الوانية، ثمّ تبدّت طلائع الصباح في مثل حلاوة النجاة.

لكنّ الشيخ عبد ربّه لم يعثر على جثّته إلّا عند الشروق. . .

مَوْعِـــدٌ

أسعد ما في هذا اليوم هو هذا الوقت من الليل. انتهت متاعب الواجبات، استقرّ كلّ شيء في موضعه على أحسن حال، حتّى المطبخ بات أنيقًا نظيفًا كأنّه معروض للبيع، الخادم آوت إلى غرفتها لتنام، لم يبق إلّا جلسة مريحة طويلة يبهجها الحبّ العائليّ حول الراديو المردّد لشتّى المسرّات. ولولو الصغيرة لا تنام، لا تودّ أن تنام، ولا أن تكفّ عن اللعب والشقاوة، ولكنّ هذا السيّد، هذا الزوج السعيد، ما باله! لولو العزيزة لا تدع لها فرصة للتفكير إنّها ترمي بنفسها عليها بلا نذير، فترتطم الرأس بالرأس، أو تنشب الأظافر الصغيرة بالجلد أو الرقبة، وكافّة المساحيق لا تنجح في إخفاء آثار هذه الأظافر الصغيرة، بنت لم تجاوز الثالثة ولكنّها عفريتة بكلّ معنى الكلمة، وكانت هي جديرة بأن تكون أسعد الناس بها لولا ما يبدو على الأب من تغيّر حقيقيّ، وها هي تختلس النظرات إليه رغم موقفها الدفاعيّ الدائم من لولو. وها هو غارق في المقعد الكبير مطروح الرأس إلى الوراء ينظر إلى السقف تارة، وتارة إلى الراديو من فوق الزجاجة الذهبيّة السائل القائمة على ترابيزة أمامه. معهم لكنّه ليس معهم. في بعض رحلاته التجاريّة كان أقرب إليهم ممّا هو الآن. ماذا غيّره؟. . . ماذا طرأ عليه؟! وقلبها يحسّ بالمخاوف وهي بعيدة ولذلك فهو لم يذق الراحة منذ. . . منذ كم من الوقت؟!. يا إلهي شدّ ما

يبدو الوقت قصيرًا أحيانًا إذا قيس بالأرقام على حين تتمزّق الأعصاب من طوله تمزّقًا. وما هٰذه العادة الوحشيّة الجديدة! إنه يجلس هذه الجلسة لا ليحادثها ولا ليلاعب لولو ولٰكن ليشرب الخمر. ويمعن في الشراب ليلة بعد أخرى، ويفرط في التدخين فدائمًا تتلوّى حول رأسه سحاباته الشاحبة، ألا ما أفظع هٰذا كلّه! ويضاعف من الحسرة أنّه مثال تغبط عليه في حسن المعاشرة والنجاح في الحياة. كهربائيّ محترم وصاحب دكّان لبيع الأدوات الكهربائيّة وإصلاحها، ولم يكن يضايقها أن يذهب إلى القهوة الخديويّة كلّ مساء ليلعب الطاولة ساعة أو ساعتين ثمّ يعود إلى بيته حاملًا ما لذّ وطاب من حلوى أو فاكهة، يعود إليها، وإلى لولو، فيُحْيي جلسة عائليّة دافئة بالمحبّة والمسرّة، هٰكذا مضت حياتها الزوجيّة القصيرة السعيدة، إلى ما رصّعت به لياليها من سهرات لطيفة في بيوت الأسرة أو في السينما وما يستتبع ذٰلك عادة من تعليقات أو مناقشات تزيد الحياة بهجة وحيويّة، وأمّا الخلافات التي كانت تتسرّب بعض الأحيان إلى حياتها فلم تبلغ درجة خطيرة قطّ، ولم يحدث أن تركت أثرًا حتّى الصباح. ترى هل ينطوي ذٰلك كلّه في ذمّة التاريخ؟ هل... يا هٰذه الطفلة الصغيرة التي لا تتعب من الشقاوة أبدًا... إنّها تحمل على أبيها لٰكنّها سرعان ما تصدّ عنه لفتور استجابته واستسلامه دون دفاع مثير، حتّى الكأس التي أراقتها عند تعلّقها بالترابيزة لم تغضبه.

ـ يا عزيزي، لماذا تشرب هٰكذا؟

ليته ينفعل أو حتّى يغضب في سبيل أن يبوح بمكنونه:

ـ لا ضرر في ذٰلك...

ـ لٰكنّه ضارّ بلا شكّ!

ـ لا تصدّقي ما يقال...

ولم يمهلها لتتكلّم فقال باسمًا:

ـ مللت التسكّع في الخارج، وأنا سعيد هٰكذا بين زوجتي وابنتي!

ـ لٰكنّك تبقى معنا لتشرب!

ـ بل أستكمل هنائي بشيء من الشراب ليبعث الراحة في القلب...

يحاول أن يبدو طبيعيًّا ولٰكنّها تراه بقلبها لا بعينيها، وقلبها كرماد في مهبّ الريح.

ـ وماذا يُتعب قلبك؟

ـ لعلّها متاعب العمل وأنا لا أسمح لها بأن تفسد جلستنا الطيّبة...

هٰكذا الأسئلة والأجوبة كلّ مرة، ويبقى لها العذاب الصامت الذي يجدّ عبثًا في البحث عن مبرّر لوجوده. وتلوح في عينيه نظرة غريبة يرمق بها لولو. نظرة تذوب حنانًا ورقّة. نظرة تقبّل وتعانق وتسفح الدمع. فكيف لا ترتعد رعبًا!

ـ ألا يحسن بك أن تنام في الوقت الذي اعتدت أن تنام فيه؟

ـ لماذا ننام؟

ضحكت ضحكة فاترة وحدجته بنظرة ارتياب:

ـ أنت ولا شكّ تسخر منّي...

ـ معاذ الله...

ـ الحقّ أنّك تعذّبني...

ـ لا سامحني الله إن فعلت...

وربّتت خدّه برقّة:

ـ كلّ شيء على ما يرام؟

ـ نعم...

ـ لا شيء يضايقك...؟

ـ مطلقًا...

ثمّ قال برجاء:

ـ لا تقلقي نفسك بلا سبب، أؤكّد لك أنّه لا يوجد في حياتنا ما يدعو إلى القلق، ها أنا أجلس سعيدًا في أسرتي الصغيرة، أشرب أحيانًا، وأحيانًا أقرأ، ماذا يقلق في ذٰلك؟!

لم تكن القراءة هواية له، كان يلقي نظرة عجلى على الجريدة، وتقرأ هي صفحة ثمّ تتركها فتتلقّاها لولو ثمّ لا تتركها إلّا كومة من مزق، لٰكنّه يقرأ الآن كتبًا، وأيّ كتب؟ على حافة العالَم، الحاسّة السادسة. عالَم الأرواح.

ـ أتحلم بأن تكون شيخ طريقة؟!

ـ هل عندك فكرة عن هٰذه الأشياء؟

ـ حسبي ما وجدته في الدين. . .

ـ هٰذا صحيح. . .

ـ فلماذا تقرأ هٰذا كلّه؟

ـ حبّ استطلاع وتسلية. . .

حاولتْ كثيرًا أن تقنع نفسها بأنّ كلّ شيء طبيعيّ وأنّ أوهامها هي غير الطبيعيّة، لٰكنّها كانت كمن يتجاهل إنذارات دمار خفيّ.

ـ خبّرني كيف حال صحّتك؟

ـ عال!

ـ والعمل؟! لا تُخْفِ عنّي شيئًا فأنا شريكة حياتك. . .

ـ ليس في الإمكان خير ممّا كان!

ـ كيف أعرف سرّك؟

وربّت على خدّها وقبّلها. كما كان يفعل في الليالي السعيدة الخالية. ما أشدّ الفرق بين الحالينِ. إنّه يمثّل ولا يستطيع أن يخفي أنّه يمثّل.

ـ لا جديد طرأ عليك؟

ـ عدا شيء من الإرهاق!

ـ ما رأيك في السفر ولو أسبوع!

ـ فكرة وجيهة ولٰكن لا داعي للعجلة كما تتوهّمين. . .

وحانت منها التفاتة إلى المرآة فلمحته وهو يهمّ بالكلام بحال تدلّ على أنّه استسلم للاعتراف. استصرخته في الأعماق أن يفعل، دعت ربّها أن يأمره بالكلام. لٰكنّه استرخى دفعة واحدة بسرعة تثير الحنق. وراح يقرأ.

ـ عدت كما كنت أعزب.

ـ أنا؟

ـ كأنّ لا شريك لك، عش وحدك، سأحزن حتّى الموت!

ـ ألا يتعب الإنسان أحيانًا؟

ـ ماذا عن رجل يشرب الخمر ويقرأ كتب الأرواح؟

ـ الخمر أيضًا مشروب روحيّ، هٰكذا يسمّونها!

ـ نضب معيني من الضحك. . .

ـ سوف تضحكين من نفسك عندما تتأكّدين من ضلال أوهامك. . .

ـ قلبي لا يكذّبني قطّ.

وقال لنفسه ما أصدق قلبها، إنّما تنطق عن قلب صادق وا أسفاه، قلب ملؤه خوف حقيقيّ، قلب يكابد إرهاصات أحزانه ووحدته الآتية. وهو يتعذّب أيضًا عذابًا مضاعفًا لنفسه ولها. وقلبه ينصهر ويتطاير شررًا وسيتلاشى في الفراغ. وأفكاره تحوم بجنون حول انحلال المادّة وتَشَعْشُع الضوء وانتشار الرماد وتبدُّد الهواء. لعلّه كان من الأرحم أن يجد مهربًا بعيدًا عن بيته، أن يشرب في حانة من الحانات، بعيدًا عن الجلسة السعيدة التي يتشكّل فيها جسده في ثلاثة أجساد حارّة محبوبة. ولٰكنّ حنينه القاسي وأشواقه الملتهبة ويأسه العميق منعته من الهرب وشدّته إلى مثواه الحنون، بل يودّ أحيانًا لو يغلق دكّانه ليجلس طوال وقته مع زوجته وطفلته، عصمت ولولو، وأن يقبّلهما حتّى يكلّ فوه، أن يضمّهما إلى صدره حتّى يخذله ساعداه، أن يغرقهما بدموعه، وأن يستحمّ بدموعهما. وكان بودّه أن يمثّل دوره بمهارة يخدع بها امرأته ولٰكن كان ذٰلك فوق طاقته، فهو يقرأ ويشرب ويختلس إليها النظر، يتحمّل نظراتها المعذّبة بصبر، حابسًا دمعه، شاذًّا على إرادته، ويصرّ على ذٰلك وهو يشعر بأنّ كلّ شيء يخصّه هباء. الأبوّة هباء، الحبّ هباء، الزوجيّة هباء. ويرى كلّ معنى وهو يتلاشى في النسيان والضياع. وهو في الحقيقة لا شيء يبكي لا شيئًا، البكاء نفسه لا حقيقيّ كالقراءة، كالخمر، كهٰذه الأنغام الصادرة عن الراديو تنعى الحياة كلّها. لِمَ لا يجذبها إليه ويفضي إليها بكلّ سرّه؟ ولٰكن أيّ فائدة ترجى من ذٰلك إلّا أن تزيد من تعقيد الأمور واختلاطها وقسوتها ووحشتها؟ ولِمَ يحوّل جلسة المساء إلى مأتم والغناء إلى حداد. لن يؤخّر ذٰلك ولن يقدّم، ولٰكنّه سيهدم الأسرة هدمًا. أجل إنّ وحدته تزداد عمقًا ويأسًا، لٰكنّه لم يذعن للجبن والأنانيّة، فعلى الأقلّ عصمت لم تفقد الأمل، وها هي لولو تلعب وتغنّي وتخربش. إنّها الوحيدة التي تبدو جديرة بالحياة. تحياها ببساطة وبلا معنى ولا تفكير. وهي الوحيدة أيضًا التي لا تعرف الموت ولا اليأس ويبدو كلّ شيء لعينيها العسليّتين خالدًا سعيدًا خاضعًا. حتّى

المنغِّصات البسيطة التي تطرأ على بحبوحتها لا تبقى إلّا لحظات. قد تتوارى وراء باب صارخة باكية ثمّ سرعان ما تظهر باسمة الثغر ولـمّا تجفّ دموعها وفي عينيها نذر مشروعات جديدة للشقاوة والعفرتة. وعصمت لا تدري شيئًا عن لياليه، فهي تجالسه حتّى يحين موعد النوم، ولـمّا تظنّ أنّه استسلم للنوم تطوي جفونها على أحزانها، لكنّه في الحقيقة لا يغمض له جفن، ويظلّ محملقًا في الظلام وخلايا رأسه تحترق بالأفكار المحمومة. وهيهات أن يدري أحد شيئًا عن أحاديث الظلام، عن رعب الظلام... تطمس معالم كلّ شيءٍ إلّا الموت وحده يرى بلا ضوء. وهو كالظلام لا شيء يؤخّره عن ميعاده. وإذا جال بالخاطر فقَدَ كلّ شيء معناه وقيمته وحقيقته، ويتساءل وهو يكاد يحسّ تردّد أنفاس زوجته ما العمل؟ ماذا يطلب من الحياة في الأيّام الباقية؟ ويجيء الجواب، كلّ شيء، ويجيء الجواب: لا شيء، وهنا يستوي كلّ شيء ولا شيء. ولكنّ النفس تأبى التسليم وتخشى الفراغ فتتعلّق بالأحلام يرى أنّه لم يعد زوجًا ولا أبًا. إنّه طليق يجوب الآفاق. فوق طيّارة تحلّق في الفضاء، في سفينة تمخر عباب المحيطات، على مركبات لا حصر لها ولا عدد. ينطلق من غابة إلى بحيرة، ومن جبل إلى سهل، يخوض الرياض والرمال والمدن، يجوب مناطق حارّة ينصهر بها الحديد، وبقاعًا متجمّدة تتجمّد فيها النيران، ويرى من الناس أشكالًا وألوانًا. إنّ ذلك كلّه لا يطرد شبح الموت ولا يؤخّره ولكنّه يحوّل الأيّام الباقية إلى رحلة شائقة ومشاهد عجيبة وتسلية ساحرة. أو يرى نفسه جاريًا وراء نوازعه، يتقلّب بين أنواع الشهوات العاتية، وينعم بكلّ طيّب، وينتشي بكلّ مذهل، ويمتّع غرائزه بالمغامرات والإثارة والعربدة بل وبالانفعالات الرهيبة والعدوان العنيف، لكنّها تظلّ أحلامًا لأنّ الموت نفسه لم يستطع أن ينسيه أنّه زوج وأنّه أب وأنّه بالتالي إنسان. لذلك تتبدّد الأحلام ويبقى له السهاد، بل ويواصل عمله في الدكّان، ويثوب مشتاقًا إلى جلسته العائليّة المحبوبة، ولكن لم يجد مفرًّا من الشراب، ومن مطالعة كتب الأرواح، سعيًا وراء طمأنينة ولو تكن وهميّة، وسلام ولو على غير أساس. حتّى إيمانه الراسخ انهزم أمام الموت. ليس للشعر كثافة الموت وثقله. وهو يكاد يراه ويلمسه. وفظاعة التجربة حملته على دفن السرّ في أعماقه، على الانفراد به وحده، وعلى كتمانه عن امرأته تعيسة الحظّ، فلتبْقَ في قلق هو على أيّ حال أهون من اليأس، ولتمرح لولو في جوٍّ خالٍ من الحقيقة الرهيبة.

وذهب إلى قهوة ماتاتيا على غير عادة. كان اليوم عطلة الأحد، والوقت عصرًا، والفصل خريفًا، فاتّخذ مجلسًا عند رأس المنعطف تحت البواكي. وقلّب عينيه في تطلّع المنتظر حتّى رأى رجلًا ريفيًّا معمّمًا يُقبل نحوه في عباءة سوداء. كان يشبهه إلى حدّ كبير فتعانقا ثمّ جلسا حول المائدة والقادم يقول:

ـ كيف حالك يا جمعة؟ وما الحكاية؟ لِمَ بالله ضربت لي موعدًا في القهوة؟!

فقال جمعة وهو يبتسم في ارتباك:

ـ أتعبتك يا أخي، أنا آسف جدًّا...

ـ ليس المجيء من القناطر بالأمر الشاقّ ولكن ماذا تعني مقابلتنا في القهوة؟

وفكّر جمعة قليلًا فيما ينبغي أن يقول، وكان الآخر يتفحّصه بعناية فلم يمهله حتّى يتكلّم وقال:

ـ خلاف عائليّ! يقطعني ربّنا إن لم يكن الأمر كذلك، ماذا عن امرأتك؟

فقال جمعة بصوت شاحب:

ـ عصمت بخير، لا خلاف بيننا على الإطلاق!

ـ غريبة! ولماذا لم تدعني إلى بيتك؟

ـ أريد أن أنفرد بك.

ـ بعيدًا عن بيتك!

ـ بعيدًا عن كلّ شيء!

وعاد يتفحّصه مليًّا ثمّ قال بقلق:

ـ جمعة... أنت لست على ما يرام!

فصمت جمعة. فعاد الأخ يقول بجزع:

ـ خبّر أخاك عمّا بك...

رفع إليه عينيه الذابلتين، وقال:

ـ أخي، أنا في مسيس الحاجة إليك، سأعترف لك بكلّ شيء، ويجب أن تصدّقني، الحقّ أنّي سأموت في خلال أشهر قلائل!

تجمّدت قسمات الشيخ وعكست عيناه جميع صيغ الدهشة، ثمّ غمغم:

ـ ماذا قلت!. مريض؟ كيف عرفت هٰذا؟ هل ذهبت إلى طبيب؟

قال جمعة بهدوء نسبيّ بعد أن أزاح الاعتراف عن صدره همًّا ثقيلًا:

ـ شرعت في التأمين على حياتي...

ـ وبعد؟

ـ رُفض الطلب، ذهبت إلى عدد وفير من الأطبّاء، إنّي على يقين الآن من خطورة الحال...

فندّت عن الأخ ضحكة هازئة وقال:

ـ لا أحد يمكن أن يكون على يقين من ذٰلك إلّا الله...

فقال جمعة بفتور:

ـ طبعًا... طبعًا، إنّه فوق كلّ شيء، ولٰكنّي على يقين من حالي...

ـ كلام فارغ، أستطيع أن أحكي لك ألف حكاية تثبت أنّ كلام الأطبّاء ما هو إلّا هراء...

فقال متنهّدًا:

ـ وأستطيع أن أحكي لك ألفًا أخر تؤكّد العكس.

واستقرّ صمت ثقيل. وجاء ماسح أحذية يدقّ صندوقه ولٰكن سرعان ما صرف، وهبّت نسمة رطيبة تحت البواكي على حين بدت العتبة كأنّها تدور إلى الأبد مع المركبات والناس، ثمّ قال الأخ بصوت عميق:

ـ يجب أن تقتلع من رأسك هٰذه الأفكار السود، هي مرضك الوحيد، وإذا أردت أن تطمئنّ حقًّا على نفسك فسافر معي إلى القناطر لتزور شيخًا عجيبًا يقصده الأطبّاء أنفسهم في الشدائد!

فقال جمعة في بلاهة:

ـ نعم...

ـ أراك تشكّ في ما قلت!

فاعتدل جمعة في جلسته وقال:

ـ فلنؤجّل هٰذا إلى حين، إنّما دعوتك لأمور هامّة وعاجلة...

ـ لٰكنّي لا أحبّ لك أن تعايش أفكارك المدمّرة...

ـ لندع هٰذا الحديث جانبًا، الآن خذني على قدّ عقلي وأصغ إليّ...

فتمتم الأخ بمرارة:

ـ نعم...!

فقال جمعة بإشفاق ووجوم:

ـ عصمت ولولو...

ـ عارف، عارف أنّك ستتحدّث عنهما...

وهمّ بالاعتراض ولٰكنّ جمعة أشار إليه بالسكوت وقال:

ـ لي شريك في الدكّان وهو رجل طيّب مثلك ولٰكنّ العمل سيتطلّب منك رعاية، ولا بدّ لي من الاطمئنان على مستقبل أسرتي، أنا آسف أن أحمّلك مسئوليّات جديدة في الحياة ولٰكن لا حيلة لي، ثمّ إنّ لي نقودًا في البنك فلن أتركهما.

ـ تتركهما!

ـ خذني على قدّ عقلي من فضلك، لن تحتاجا إلى نقود ولٰكنّهما ستكونان دائمًا في حاجة إلى رعايتك...

ندّت عن الأخ ضحكة أعرب بها عن استهانته أو عن تظاهره بذٰلك. وشرع في الكلام ولٰكن أوقفه خروج سنجة الترام من السلك الكهربيّ محدثة أزيزًا حادًّا وتوهّجًا خاطفًا فأخذ لحظة ثمّ قال:

ـ ها أنا أجاريك في أوهامك ما دمت تريد أن آخذك على قدّ عقلك، أتحسب أنّني في حاجة إلى هٰذه الوصيّة! يا لك من طفل، أنت أعلم الناس بمكانتك عندي، فاطمئنّ إليّ كلّ الاطمئنان، والآن وقد صارحتك فأرحني بدورك، لا بدّ من سفرك إلى البلد ولو لأسبوع...

ـ بكلّ سرور، في بحر أسبوع على الأكثر ستجدني عندك إن شاء الله، والآن هيّا بنا إلى البيت...

ولٰكنّ الأخ كان يعاني من الحديث اضطرابًا باطنيًّا فانصدّت نفسه عن كلّ شيء، وأبى إلّا أن يعود من فوره إلى المحطّة، وأصرّ على ذٰلك. وأراد أن يوصله ولٰكنّ الآخر قرّر أن ينتهز فرصة وجوده في القاهرة ليقوم ببعض زيارات هامّة قبل السفر فتوادعا أمام القهوة، ومضى الشيخ إلى الناحية الأخرى من العتبة، واتّجه جمعة رأسًا إلى محطّة الأوتوبيس. واستقلّ سيّارة

فدارت به دورتها ولٰكنّها اضطرّت إلى التوقّف عند الأزبكيّة أمام زحام اعترض الطريق. . . ونظر جمعة فرأى جمعًا حاشدًا ـ وآخذًا في التزايد أكثر فأكثر ـ حول سيّارة متوقّفة. أدرك لتوّه أنّ حادثة وقعت. وأجال عينيه في الجمع المحتشد لكنّه جفل من إمعان النظر فحوّل رأسه بعيدًا. وما لبث الأوتوبيس أن تفادى من الزحام فشقّ سبيله إلى ميدان الأوبرا.

وكان في الجمع المحتشد حول الحادثة مسّاح أحذية، وكان ينظر إلى الجثّة الممدّدة أمام السيّارة بتفحّص ودهشة، ثمّ قال بصوت مرتفع لمن حوله:

ـ أنا رأيت هٰذا الشيخ منذ نصف ساعة فقط، كان يجلس في قهوة ماتاتيا مع واحد أفندي. . .

قَاتِــل

ما المخرج من هٰذه الوكسة؟!

منذ خروجه من السجن وهو يعيش متسوّلًا، قرش من هنا وقرش من هناك، بلا عمل، وبلا أمل. وهو ليس بأوّل سجن، ولا آخر سجن فيما يبدو، ولٰكنّ الدنيا مصمّمة هٰذه المرّة على مقاطعته، رفضه كلّ دكّان عرض نفسه عليه، وأعرض عنه كلّ رجل مأمول، حتّى تجّار المخدّرات أبوا أن يمنحوه ثقتهم. وتمضي الأيّام يومًا بعد يوم وهو يتدهور ويجنّ. ويجلس في القهوة إذا هدّه إعياء، طمعًا في معرفة قديمة، ولٰكنّه ينسى حيث جلس، لا يكلّمه أحد، ولا يقرب منه نادل، وتلاحقه نظرات المعلّم المتعفّصة، حتّى يرقّ له قلب الصبيّ فيجيئه خلسة بشيء من نفايات المعسّل المحروق، وغرق في الأحلام كما لم يغرق من قبل. أطعمة الخلفاء وحسان الحريم وبحور الشراب وجبال السطل، واسترجع أخيلة القصص التي كانت ترويها الربابة في قهوة خان جعفر منذ ربع قرن أو يزيد. . . . وهوّم برأس متلبّد الشعر، وليس على الجسد المتورّم بالأقذار إلّا جلباب متهرّئ كالخيش تعشّش فيه حشرات شتّى، وكان يسكن في جحر بدرب دعبس بالحسينيّة حجرة في حوش ربع قديم، حيث ترقد أمّه الضريرة نصف مشلولة، وهي عجوز تعيش على صدقات الفقراء من الجيران، هناك يأوي آخر الليل، وتمضي الأيّام وهو لا يلتفت إليها أمّا هي فلا تشعر له بوجود ولعلّها لم تعد تذكره على الإطلاق، ولٰكنّه لا يكفّ عن مغازلة الأحلام، الأميرة والبحر وجبل وبحبوحة عيش لا يحسن تصوّرها ولو في الخيال، وتساءل كثيرًا عن المخرج من وكسته، أين يذهب وماذا يفعل؛ وهو ذو الماضي الحافل بالأعمال. اشتغل شيّالًا، وموزّع مخدّرات، ولصًّا، أمّا العراك فبسببه دخل السجن أوّل مرّة، واستوفى الأربعين من عمره دون أن يهن له عضل، وكان بوسعه أن يقتلع بيتًا من أساسه، ولٰكنّه لا يأكل لقمة إلّا حسنة لوجه الله، وهٰذه ثالث مرّة ينطلق فيها بعد سجن ولٰكنّه لم يجد الدنيا من قبل مغلقة الأبواب كما يجدها هٰذه المرّة حتّى لتحدّثه هواتف نفسه اليائسة أحيانًا بأن يعود إلى السجن ليستقرّ فيه بقيّة العمر. وقبيل خروجه من السجن أوّل مرّة مات ابنه في مستشفى الحمّيات، وحينما كان في السجن آخر مرة اختفت زوجته، لا يدري أين ذهبت ولا مع من هربت، وقليل من النساء مَن يسعهنّ الإخلاص لزوج هوايته السجن، ترى ما هي المعجزة التي يمكن أن تجعل منه هارون «الرشيديّ»؟ إنّ رأسه يدور من نشوة الأحلام الكاذبة. والدنيا فيما يظهر لم تعد بحاجة إلى العضلات القويّة. ولٰكن هل ضاع حقًّا وانتهى؟!

وكان يسير في الزحام شبه نائم عندما ناداه صوت قويّ قائلًا:

ـ ولد يا بيومي. . .

انتبه بعنف نحو الصوت كأنّما يستجيب للسعة سوط، ثمّ وثب نحو صاحبه بابتسامة وهو يبتسم ابتسامة عريضة تودّدًا وتذلّلًا، ها هو إنسان يناديه أخيرًا. وهوى على يده ليلثمها وهو يقول:

ـ أهلًا وسهلًا بالحسيب. . . أهلًا بالمعلّم عليّ ركن سيّد حيّنا كلّه. . .

فسحب المعلّم عليّ يده بخشونة وقال وهو يحبك جبّته:

ـ دعك من التواشيح يا بن الذينَ، لعلّك تتحسّر

الآن على السجن وأيّامه الحلوة.

فقال بيومي في ملق:

- لولا وجود أمثالك في الدنيا لتحسّرت فعلًا....

- ها أنت تعود إلى التواشيح!

وأشار إليه أن يتبعه، ثمّ مضى إلى كارتة فاستقلّها والآخر في أثره وهو لا يصدّق. وحرّك المعلّم اللجام فانطلقت الفرس إلى طريق الجبل في خلاء وأمن. وأدرك بيومي أنّه مقبل على شيء كبير فلا يمكن أن يحلّ في هٰذا المقام لغير ما سبب. وكانت الكارتة تنطلق في سرعة هادئة مستعرضة جناح الجبل المتجهّم، مثيرة وراءها ذيلًا من الغبار. وكان المعلّم عليّ ركن يلقي ناظريه إلى الأفق، مقطّبًا، مشدود عضلات الوجه، ثمّ تساءل بلا اكتراث:

- هل تقتل الحاجّ عبد الصمد الحباني؟!

استطال وجه بيومي من الدهشة وتمتم:

- أقتل!

فقال الآخر ببرود:

- نعم يا بن القديمة...

يتكلّم بكلّ استهانة وأقلّ ما يعنيه تفاهة الثمن.

- القتل شيء لم أجرّبه.

فشدّ اللجام وهو يقول ببرود:

- اذهب مع السلامة...

لم يتحرّك ولٰكنّه تساءل بوجه متجهّم:

- لحسابك يا سيّد الناس؟

فأرخى اللجام وهو يداري ابتسامة قاسية ثمّ قال:

- لحسابي أو لحساب المعلّم الكبير، ماذا يهمّك؟

المعلّم الكبير! الدهل محمود! صاحب وكالة الخيش وكبير تجّار الكيف! إنّه يبالغ هٰذه المرّة في إبعاد الشبهة عن نفسه وعن رجاله وقد أحسن الماكر الاختيار!

- أنا خادم المعلّم الكبير وخادمك...

- دعنا من الثرثرة، هل تقتله؟

فضحك بيومي ضحكة كالزفرة وقال:

- في الجنّة ونعيمها!

- الله يجحّمه ويجحّمك...

واعتبر بيومي الدعوة نوعًا من المودّة فضحك، أمّا المعلّم عليّ فتساءل بخبث:

- لعلّك لم تر النقود منذ خرجت من السجن؟

- ولا قبل ذٰلك...

- خمسون جنيهًا.

- خمسون!

- كلمة واحدة...

- ولٰكنّه قتل!

- يا ابن القديمة أنا لا أساوم...

وهو يحاول ضبط انفعاله:

- سأحتاج إلى نقود كثيرة. لا تنس أمّي العجوز...

- أمّك!

وقهقه عاليًا وهو يستخرج من جيبه ورقة من ذات الخمسة الجنيهات ومدّ بها يده قائلًا:

- عربون...

فهتف بيومي وهو يلتهمها بعينيه:

- لا، وشرفك يا سيّد الناس...

فحدجه المعلّم بنظرة قاسية فتخاذل قائلًا:

- ليكن العربون عشرة جنيهات...

- أتشكّ فينا يا ابن المجنونة...؟

- أبدًا يا معلّم، ولٰكنّها قد تكون كلّ نصيبي من الدنيا...

- متى تقتله؟

فكّر بيومي مليًّا بسرعة ويقظة ثمّ قال:

- أمهلني أسبوعًا.. السبت القادم...

- خبرك أسود...

- يا سيّد الناس أنا مضطرّ إلى هجر الحسينيّة كيلا أثير شبهة حولي، ويجب أن أتدبّر الأمر وأرسم الخطّة، ولا بدّ أن أعيش هٰذا الأسبوع عيشة هنيّة فقد يكون آخر أسبوع لي في الحياة...

وأخرج المعلّم ورقة أخرى من ذات الخمسة، ومدّ بالورقتين يده وهو يتساءل:

- أتعلم ماذا ينتظرك لو ماطلت أو تأخّرت؟

فقال بيومي ضاحكًا وهو يطوي الورقتين:

- لا أراك الله!

فشدّ اللجام حتّى توقّفت الكارتة وهو يقول:

- مع السلامة.. لا تقترب ناحيتي أو ناحية أحد منّا

لأيّ سبب...

وثب إلى الأرض على حين مضت الكارتة بصاحبها، وقف ينظر إليها متوقّعًا أن يلتفت الرجل وراءه فيلوّح له تحيّة ولٰكنّه لم يلتفت، وضغط بيده على الورقتين وكلّ شيء يدور. رغم الفتونة والمجدعة لم تقبض يده على جنيه بالكامل إلّا في ما ندر. لٰكنّه أيضًا لم يقتل. ضرب وسرق ولٰكنّه لم يقتل. لم يقتل وإن تكن ضربته قاتلة. وهو يحبّ الحياة وإن بدت أحيانًا أمقت من الموت ولا يحبّ المشنقة. ولٰكن أيّ جدوى من التفكير وهو سيُقتل إن لم يَقتل. فليكن حذرًا أشدّ الحذر، وليرسم خطوه بأناة. ومهما تكن احتمالات الغد فإنّه يدّخر له أيضًا أربعين جنيهًا. مبلغ لم يجر له في حسبان. وقد يساعده المعلّم الدهل في الاتّجار به فتتحقّق الأحلام. وأعلن في القهوة أنّه سيهاجر من الحسينيّة سعيًا وراء الرزق، فقال له كلّ من سمعه: «مع ألف سلامة» في أصوات عالية وشت بارتياحهم للتخلّص منه، فذهب وهو يقول لنفسه: لذلك فأنتم تستحقّون القتل. وقصد حمّام السوق، دخله هبابًا وخرج منه إنسانًا. وابتاع جلبابًا ولاسة وثيابًا داخليّة ومركوبًا لأنّه لم يجد حذاء جاهزًا يتّسع لقدميه الغليظتين، وجلس في محلّ سيّدهم الحاتي يأكل بنهم حتّى أذهل النادل، وطلب كلّ شيء فقال لنفسه ليت ذٰلك يدوم بلا قتل. ولم يكن يعرف الحاجّ عبد الصمد الحباني أيّ نوع من المعرفة، غاية ما في الأمر أنّه لمحه مرّات في حياته بلا تركيز ولا اهتمام. عليه الآن أن يعرف كلّ شيء عنه وبخاصّة الضروريّ لإنجاز مهمّته. اهتدى إلى بيته الكبير القديم بدرب الجماميز فدرس موقعه والطرق المؤدّية إليه. وحام مرّات حول وكالته بالـمَبْيَضَة. وتفحّص الرجل عن كثب حتّى انطبعت صورته في ذهنه وبخاصّة وجهه الممتلئ المتألّق بالحيويّة وأناقته السابغة على جبّته وقفطانه. والتقت عيناهما مرّة فسرعان ما غضّ الطرف وزاغ عنه كالمطارَد. وتساءل ترى ما الأسباب التي تحمل المعلّم على التخلّص منه؟ أليس من حقّه أن يعرف لماذا استحقّ هٰذا الرجل أن يقتله؟ لو كان سأل عن ذٰلك لسمع كلامًا هو الصفع أو الركل. يا لهم من عصابة كأنّها القضاء والقدر! وإنّه لا يكاد يحلّ في مكان حتّى يلمح أحد رجالهم ذاهبًا أو قاعدًا أو قادمًا. وفي المساء سكر، وفي سيرك الحملاوي سهر، وعند عيّوشة الفنجريّة بات ليلته، وقال لنفسه مرّة أخرى ليت الحياة تمضي هٰكذا بلا قتل، وأن يتزوّج من جديد، ويخلّف البنات والبنين، ويواصل الاتّجار والربح ويأخذ حذره فلا يرى لمخبر وجهًا. ترى ماذا ينتظره غدًا؟ ولٰكن ماذا كان ينتظره مذ انطلق يلعب شبه عارٍ في أزقّة الحسينيّة ومنذ انضمّ إلى عصابة زلة، ومنذ اشترك في معارك الدراسة والجبل والوايليّة، ومذ عمل برجيًا في الدروب الساهرة، ومذ غامر بتوزيع المخدّرات في المقاهي، ماذا كان ينتظره!؟

وجاء يوم السبت الموعود. استيقظ مبكّرًا ليستقبل أخطر يوم في حياته. ملأ أحد جيبيه قطعًا من اللحم البارد ووضع في الآخر زجاجة، ودسّ في صدره سكّينًا حادّة النصل. أمّا المعلّم الدهل ورجاله فسيلتزمون الدكاكين ويخالطون الناس نفيًا للشبهات، وهو أدرى بهٰذه الحيل الساخرة. هٰؤلاء الأوغاد المجرمون يجب أن يتلقّى منهم أربعين جنيهًا لا طعنة انتقام غادرة. واستكان وراء شجرة على مبعدة أمتار من بيت الحاجّ عبد الصمد الحباني، وجعل يختلس النظرات من الباب المغلق حتّى فتح وخرج منه غلامان وبنت يتأبّطون الحقائب المدرسيّة. كان بين الثلاثة شبه ملحوظ ولٰكنّ الذي لفت نظره بصفة خاصّة هو الشبه الحادّ بين الغلام الأكبر وبين المعلّم عبد الصمد نفسه. وتذكّر ابنه المتوفّى الذي لم يشهد وفاته وتذكّر حزنه الشديد عليه، وأحزان الحياة جملة. وما لبث أن بدا المعلّم عبد الصمد وهو يتقدّم من الداخل إلى نقطة وسط الحوش، ثمّ وقف مستندًا إلى عصاه وهو يفتل شاربه، واستدار إلى الوراء وراح يخاطب شخصًا لا يراه هو من موقفه ثمّ لوّح له بيده، ثمّ اتّجه نحو الباب متمهّلًا ووجهه الممتلئ يتألّق بما يشبه الابتسام. وتساءل عمّا يجعله يبدو مبتهجًا بل وطيّبًا؟ ولٰكن من أدراه أنّه ليس كالآخرين! كلّهم مناكيد لا يبتسمون ابتسامة حلوة إلّا لذويهم. مأمور السجن مثلًا، يا إلٰهي هل يمكن أن ينسى هٰذا الرجل!؟ مع ذٰلك دعي مرّة إلى حجرته

فوجده يمازح ابنه الذي جاء لزيارته ويغرقان في الضحك معًا كأنّما هو آدميّ كالآدميّين! تتبّع الرجل عن بعد وهو يشعر بقلق ودّ معه لو ينتهي كل شيء في غمضة عين. والرجل يسير في اطمئنان عجيب فلا يمكن أن يخطر له ببال أنّه لن يرى أسرته وأولاده مرّة أخرى، وأنّ هٰذا اليوم هو آخر عهده بالحياة، وأنّ الرجل المسكين الذي يتبعه وهو غافل عن وجوده.. هٰذا الرجل هو الذي سيقضي عليه، هو الوحيد الذي يستطيع أن يتنبّأ بمصيره القريب، الذي ارتضى أن ينفّذ فيه القضاء نظير خمسين جنيهًا لا غير، فكم يملك الرجل الذي يسير أمامه من مضاعفات هٰذا المبلغ الذي بيع به؟

وتخلّص من أفكاره منتبهًا إلى الطريق فتساءل أين يمضي الرجل؟ ليس هٰذا هو السبيل إلى المبيضة، لعلّه يقصد إلى درب سعادة، لِمَ لم يذهب إلى وكالته؟ إنّه ذاهب إلى هٰذا البيت الذي يقيمون سرادقًا أمامه، جاء الرجل ليشيّع جنازة، هٰذا واضح فيا له من صباح!

وفعلًا قصد الحاجّ عبد الصمد بيت الميت فعزّى أهله بحرارة، ثمّ توارى وراء الباب، واستمرّ بيومي في سيره نحو نهاية الطريق وعيناه تفتّشان عن مكان يستقرّ فيه إلى حين، وامتدّت يده إلى اللحم البارد المكوّم في جيبه كالتين المجفّف فتناول قطعة وراح يمضغها، ونازعته نفسه إلى جرعة كونياك، ولٰكنّه قاوم ذٰلك وأجّله إلى الساعات الحاسمة، وترامى إليه الصوات في موجات متقطّعة، وبدرجات متفاوتة بين الشدّة والاعتدال، لٰكنّه اشتدّ جدًّا حوالى الحادية عشرة، منذرًا باختفاء إنسان نهائيًّا من الدنيا. وخرج النعش محمولًا على الأعناق، ومشى الحاجّ عبد الصمد وراءه في الصفّ وهو يجفّف عينيه بمنديل كبير، وتوقّف بيومي عن التفكير مأخوذًا بشدّة الصراخ واكفهرار الوجوه ورهبة المنظر.

وتخفّف من مشاعره في الطريق، ونظر إلى صاحبه وهو ما زال يجفّف عينيه، ثمّ تساءل مرّة أخرى لِمَ يريدون قتله؟! لو مات الآن لكفاه قتله، لٰكن تضيع الأربعون، بل وربّما طولب بالعربون! ولم يشأ أن يتبع النعش حتّى المدفن فوقف عند أوّل الطريق.

ووردت على ذهنه فكرة غريبة وهي أن يعمل ترابيًّا. هي مهنة رابحة فيما يظنّ،ولن يُسأل ـ فيما يظنّ أيضًا ـ إن تقدّم لها عن ماضيه، ولن يجد صعوبة في زيادة دخله بتجارة الكيف وما أروجه بين القبور؟ ومضى يحلم من جديد مستعينًا بذٰلك على قتل الوقت حتّى رأى الحاجّ عبد الصمد راجعًا، ثمّ تبعه حتّى رآه يدخل الوكالة بالمبيضة فمال إلى قهوة عند رأس الطريق وجلس. احتسى الشاي ودخّن أكثر من جوزة وأكل عددًا من قطع اللحم، وهو يراقب مدخل الوكالة دون انقطاع تقريبًا، ورأى شخصًا يغادرها فلم يصدّق عينيه، المعلّم الدهل محمود نفسه! الرجل الرهيب الذي لحسابه سيقتل عبد الصمد. بل رأى الحاجّ عبد الصمد وهو يودّعه خارج الوكالة، رآهما يتبادلان الضحكات، وتواصل ذٰلك حتّى استقرّ المعلّم الرهيب في عربته وانطلقت به. إذن لم تنقطع بينهما المودّة! يا له من وغد ذٰلك الجبّار الرهيب. هو جبّار بلا ريب لٰكنّه لا ريب كذٰلك في أنّه يفكّر فيه ـ هو المسكين ـ طيلة وقته، ينتظر على قلق نتيجة عمله، يتمنّى له النجاح والتوفيق. يجري اسمه على لسانه مرّات، ويطوف بذهنه عشرات المرّات، ألا ما أخطر شأنك يا بيومي هٰذه الأيّام واليوم أخطرها جميعًا وهو آخرها أيضًا، أمّا الغد؟! وشدّت قبضة على قلبه. غدًا سيكون شيئًا من آلاف الأشياء، من ملايينها، أو لا شيء؟ وإذا فشل سيجد نفسه هدف نقمة وانتقام، وستضيق به الأرض. والمسألة في حقيقتها العارية أنّه سيقتل رجلًا لا يعرفه ولم تتّصل بينه وبينه الأسباب على أيّ وجه كان لحساب أناس يمقتهم لحدّ المرض.

لبث في القهوة حتّى الرابعة مساء، وهنالك صدرت عن الوكالة حركة تنذر بالختام. دخلت إليها عربات اليد، وتتابع خروج العمّال، وأغلقت النوافذ، ثمّ خرج الحاجّ عبد الصمد يتبعه أربعة من الموظّفين. تأهّب بيومي للقيام ولٰكنّه رأى الجماعة مقبلة نحو القهوة، ثمّ جلسوا على بعد أذرع من مجلسه والحاجّ يقول:

ـ فكرة، أستريح هنا قليلًا قبل أن أذهب إلى المأتم...

وجـاءت المشروبـات وراحـوا يحتسون القهـوة والشاي، ثمّ تنهّد الحاجّ عبد الصمد وقال:

ـ الله يرحمك يا سي عبده، مَن يتصوّر أنّك دفنت اليوم!

فقال أحد رجاله وهو يتحلّب ريقه:

ـ كان بالأمس يجلس بيننا في مثل هٰذه الساعة.

ـ وكان ذٰلك كلّ يوم....

واسترق بيومي إليـه نظرة فـرآه حزينًـا مكتئبًا من الذكرى كآبة واضحة، غير أنّ صحّته بدت قادرة على جرف الأحزان جميعًـا، وله وجـه مليء وعنق مكتظّ وكرش ضخمة فلن يجد صعوبة في إصابته، سينتهي كـلّ شيء آخر الليـل، عند عـودته من المـأتم، وفي الموضع الذي اختاره بعناية بعد معاينة مسكنه والطريق المفضية إليه.

وتساءل أحد رجاله:

ـ أسافر غدًا إلى الصعيد؟

فقال الحاجّ:

ـ نعم إنّها صفقة تزن ثقلها ذهبًا، ولم نكن نحلم بها...

ـ ولحدّ كام أدفع؟

ـ كما اتّفقنا بصفة عامّة، ولك أن تزيد حتّى المائة، إنّها صفقة مضمونة....

وابتسم ابتسامة متـألّقة وكـأنّما نسي الحـزن، وإذا برجل يقوم وهو يقول في اعتذار:

ـ آنَ لي أن أذهب حتّى لا تفوتني المغرب...

فقال له:

ـ مع السلامة، حرمًا، ولا تَنْسَ موعدنا غدًا...

ـ الساعة الخامسة!

ـ الساعة الخامسة، وإن تأخّرت لا تقلق، سألحق بك حتمًا...

واضطرب بيومي كلّما تكلّم الحـاجّ عن يقين، أو ضرب موعدًا، أو عكست عيناه الطمأنينة والثقة، لماذا يقتل هٰذا الرجل؟ إنّه لا يعرفه، لم تكد تستقرّ صورته في ذهنه، لا يكرهه، ولا يحنق عليه، ولا يـأتيه أيّ ضرر من ناحيته، فلماذا يقتله؟ لكنّه إذا لم يقتله قُتل، وإذا قتله ابتسمت له الدنيا، أو هٰكذا وُعِد. يحسن به ألّا يستسلم للأفكار المثبّطة للهمّة. وليطمئنّ إلى أنّه سينجـو من الاتّهام تمـامًـا. أيّ سبب يـدعـوهم إلى الاشتباه في أمره؟ أيّ سبب هناك يدعوه إلى قتل هٰذا الرجل؟ الحقّ أنّ اختياره لقتله هو في ذاته عمل بارع يدلّ على عراقة المجرمين في الإجرام.

وقال الحاجّ عبد الصمد:

ـ في رمضان القادم وعليكم خير سيرتفع حظّنا بإذن الله إلى مداه الأعلى....

رمضان القادم؟.. شدّ ما يؤثّر صوت الـرجل في أعصابه. إنّه يخشى أن يظلّ يسمعه حتّى بعد الموت.

ووقف الحاجّ وهو يقول:

ـ آن لي أن أذهب إلى المأتم، سلام عليكم ورحمة الله...

وتبعه عن بعد حتّى دخل السرادق بدرب سعادة، فذهب بعيدًا عن أضواء المصابيـح، ثمّ قبع في ركن مظلم، كان على ثقة من أنّ صاحبه لن يغادر السرادق إلّا في آخـر زمرة تغـادره فمضى يأكـل قـطع اللحم ويحتسي الكونياك. وهـو إذا شرب توهّجت أعصـابه وتوثّب قلبه وفارت جراثيم العدوان في دمه. وترامت إليه التلاوة من مُقرِئ حسن الصوت فأمعن في الأكل والشرب وغرق في دوّامة من الهذيان البـاطنيّ، وجاء شرطيّ يتبختر فانقبض صدره، إنّه يستطيع أن يعرفه بأكثر من حاسّة، بالعين والأذن وبالأنف أيضًا. ذٰلك أنّه ينفث رائحة جلديّة خاصّة تذكّره بنقطة البوليس، والصفـع واللعنـات، وزنـزانـة السجن، والجـردل، والبرش، والغرفة المظلمة. مرّ به، ثمّ عاد، وتـريّث قبالته لحظة ملقيًا بثقله عـلى ساق واحـدة، ثمّ تأبّط بندقيّته وذهب، وتتابع الوقت حتّى لم يبق في السرادق إلّا آحاد. عند ذاك نهض وكـلّ شيء يبدو أحمـر في عينيه، ومضى في سبيل درب الجـماميز وهـو يتحسّس السكّين في صدرته. البيت وما حوله خالٍ نائم، لا دكاكين ولا مارّة، وثمّة حـارة بين شـارع السمهري والدرب، غير قصيرة، ضيّقة، مظلمة، خالية، فعند أوّلها لبد، وفي مخبإ يرى بـوضوح شـارع السمهري والقادمين منه على حين تخفيه الـظلمة عن الأعـين، وقف يتربّص ويده قابضة عـلى السكّين والـوقت يمرّ

كحزّ الألم.

وعندما دقّت ساعة قديمة الواحدة لاح الحاجّ من بعيد، ولكن كان بصحبته آخر. فترت دقّات قلبه، وقال لنفسه إنّه إذا لم يجهز عليه الآن فلن يعود إلى المحاولة مرّة أخرى وسيطارده الموت إلى الأبد. قدم الرجلان حتّى توسّطا شارع السمهري وما زالا يتقدّمان حتّى غصّ بالقنوط. أوشك أن يتقهقر من مكمنه مغلوبًا على أمره ولكنّ الرجلين توقّفا عن السير، ثمّ تصافحا، ومال الآخر على عطفة جانبيّة، وتقدّم وحده عبد الصمد. شدّ على أعصابه مرّة أخرى وهو يسدّد نحوه النظر. وتحفّز بكلّ قوّة وجارحة. وكان الحاجّ يسير متمهّلًا. يد قابضة على العصا والأخرى تعبث بسلسلة الساعة، والهدوء يكسو وجهه وما يشبه التعب أو الضجر. وخيّل إليه أنّ ابتسامة خفيفة انسابت لحظة بين شفتيه، وما زال يتقدّم حتّى دخل الحارة المظلمة فاختفت معالمه واستحال شبحًا يسير في الظلام، ولم يعد يفصل بينهما إلّا خطوة. استلّ السكّين من صدرته، واشتدّت عليها قبضته، واستجمع كلّ قواه، ثمّ انقضّ عليه بسرعة خاطفة، وطعنه طعنة قاسية، لا مهادنة فيها ولا أمل، ندّت عن الرجل صرخة خافتة وترنّح جسده الضخم مرّة ثمّ سقط.

واندفع بيومي هاربًا وهو ينتفض، ناسيًا السكّين في صدر الرجل، ملوّث العنق والجلباب ـ وهو لا يدري ـ بالدم.

ضدّ مجهول

لم يكن بالشقّة شيء غير مألوف يلفت النظر، أو يمكن أن يفيد منه المحقّق. كانت مكوّنة من حجرتين ومدخل، وبصفة عامّة كانت غاية في البساطة. أمّا ما استحقّ الدهشة حقًّا فهو بقاء حجرة النوم في حالة طبيعيّة واحتفاظها بنظامها العاديّ رغم أنّ جريمة قتل فظيعة ارتكبت بها. حتّى الفراش ظلّ عاديًا، أو لم يتغيّر إلّا بالقدر الذي يطرأ عليه عقب النوم. غير أنّ الراقد عليه، لم يكن نائمًا، كان قتيلًا لمّا يجفّ دمه، وهو قد مات مخنوقًا كما يدلّ على ذلك أثر الحبل حول عنقه وجحوظ عينيه، وتجمّد الدم حول أنفه وفيه، ولا أثر وراء ذلك لعراك أو لمقاومة، سواء في الفراش أو في الحجرة أو في بقيّة الشقّة، كلّ شيء طبيعيّ ومألوف وعاديّ. وقف ضابط المباحث ذاهلًا، يقلّب عينيه المدرّبتين في الأنحاء، يلاحظ ويتفحّص ولا يخرج بطائل. إنّه يقف أمام جريمة بلا شكّ، والجريمة، لا توجد إلّا بمجرم، والمجرم لا يستدلّ عليه إلّا بأثر. وها هي النوافذ مغلقة جميعًا بإحكام. فالقاتل جاء من الباب، ومن الباب خرج. ومن ناحية أخرى فالرجل مات مخنوقًا بحبل فكيف تمكّن القاتل من لفّ الحبل حول عنقه؟ لعلّه تمكّن من ذلك وضحيّته نائم، فهذا هو التفسير المقبول لعدم وجود أيّ أثر للمقاومة. وثمّة تفسير آخر، أن يكون غدر به من وراء حتّى أجهز عليه، ثمّ أنامه في فراشه وسجّاه وأعاد كلّ شيء إلى أصله وذهب غير تارك أيّ أثر! أيّ رجل! أيّة أعصاب! يعمل بأناة ورويّة وهدوء وإحكام كما يقع في الخيال. يسيطر على نفسه وعلى القتيل وعلى الجريمة وعلى المكان كلّه ثمّ يذهب في سلام! أيّ قاتل هذا!. ورتّب خطوات التحقيق في ذهنه، الباعث على الجريمة، التحقيق مع البوّاب، والخادمة العجوز، وافترض افتراضات شتّى، وقاوم ما استطاع انفعالاته الشديدة، ثمّ عاد إلى التفكير في المجرم الغريب، الذي تسلّل إلى الشقّة، وأزهق روحًا، ومضى بلا أثر، كأنّه نسمة هواء لطيفة أو شعاع من الشمس. وفتّش الصوان والمكتب والثياب، فوجد حافظة نقود وبها عشرة جنيهات، كما وجد الساعة وخاتمًا ذهبيًّا، يبدو أنّ السرقة لم تكن الباعث على الجريمة، فما الباعث إذن؟!

واستدعى البوّاب لاستجوابه، وهو نوبيّ طاعن في السنّ، يعمل في العمارة الصغيرة بشارع السراد بالعبّاسيّة منذ عشرات السنين، وقد أدلى بأقوال لها أهمّيتها، فقال عن القتيل إنّه مدرّس بالمعاش، يدعى حسن وهبي، فوق السبعين، يعيش وحده مذ توفّيت زوجته، وله بنت متزوّجة في أسيوط وابن طبيب يعمل

في بور سعيد، وهو أصلًا من دمياط، وتقوم على خدمته أمّ أمينة فتجيئه حوالى العاشرة صباحًا وتغادره حوالى الخامسة مساء.

ـ وأنت ألا تؤدّي له بعض الخدمات أحيانًا؟

فقال العجوز بسرعة وتوكيد:

ـ ولا مرّة في السنة، أنا لا أراه إلّا أمام الباب عند ذهابه وإيابه.

ـ خبّرني عن يوم أمس...؟

ـ رأيته وهو يغادر البيت في الثامنة.

ـ ألم يكلّفك بتنظيف الشقّة؟

فقال الرجل بشيء من العصبيّة:

ـ قلت ولا مرّة في السنة، ولا مرّة في حياته، أمّ أمينة تجيء في العاشرة فتطهو طعامه وتنظّف الشقّة وتغسل الثياب...

ـ هل تترك نوافذ شقّته ـ أو بعضها ـ مفتوحة؟

ـ لا أدري...

ـ ألا يمكن أن يدخل أحد من النافذة؟

ـ شقّته في الدور الثالث كما ترى، فالأمر غير ممكن، ثمّ إنّ العمارة محاطة بالعمارات من ثلاث جهات، والجهة الرابعة تطلّ على شارع البراد نفسه!

ـ استمرّ في حديثك...

ـ غادر البيت في الثامنة ثمّ رجع في التاسعة، وهٰذه هي عادته كلّ يوم منذ أكثر من عشر سنوات، ويبقى بعد ذٰلك في شقّته حتّى صباح اليوم التالي....

ـ ألا يزوره أحد؟

ـ لا أذكر أنّي رأيت أحدًا يزوره عدا ابنه أو ابنته...

ـ متى زاراه لآخر مرّة؟

ـ في العيد الكبير...

ـ ألا يزوره اللبّان أو بائع الجرائد؟

ـ الجرائد يعود بها بعد مشوار الصباح، أمّا الزبادي فتتسلّمه أمّ أمينة عصرًا.

ـ هل تسلّمته أمس؟

ـ نعم، رأيت الغلام وهو يصعد إلى الشقّة ورأيته ذاهبًا...

ـ متى غادرت أمّ أمينة الشقّة أمس؟

ـ حوالى المغرب...

ـ ومتى جاءت اليوم؟

ـ حوالى العاشرة، ودقّت الجرس فلم يفتح الباب...

ـ هل خرج اليوم كعادته؟

ـ كلّا...

ـ متأكّد؟

ـ لم أره خارجًا، وكنت بمجلسي عند الباب حتّى جاءت أمّ أمينة.... ثمّ عادت إليّ بعد ربع ساعة لتخبرني بأنّه لا يجيب فصعدت معها، ودققت الجرس وطرقت الباب ولـمّا لم يجب ذهبنا إلى القسم...

وقال الضابط لنفسه إنّ هٰذا البوّاب لا يستطيع أن يخنق دجاجة، ولا أمّ أمينة، ولٰكنّهما قد يسهّلان إدخال شخص ما وإخراجه، لٰكن لِمَ قتل الأستاذ حسن وهبي؟ هل ثمّة سرقة خافية؟... هل تركت الحافظة سليمة للتضليل؟! وهل وجود مفتاح الشقّة بدرج المكتب لعبة أخرى؟...

وقالت أمّ أمينة إنّها خدمت في بيت المدرّس منذ ربع قرن، خمسة عشر عامًا على حياة زوجه، وعشرة أعوام بعد وفاتها، ولٰكنّ المرحوم قرّر أن تبيت في منزلها منذ ترمّله، وهي أرملة، وأمّ لستّ من النساء، كلّهنّ متزوّجات من عمّال وأصحاب حرف، وأدلت بعناوينهنّ جميعًا.

ـ كان أمس بصحّة جيّدة، قرأ الجرائد، وتلا جزءًا من القرآن بصوت مسموع، وعندما تركت الشقّة كان يستمع إلى الراديو...

ـ ماذا تعرفين عن أهله؟

ـ من دمياط لٰكنّه منقطع الصلة بهم تقريبًا، ولا يزوره أحد إلّا ابنه وابنته في المواسم والإجازات...

ـ هل تعرفين له أعداء؟

ـ أبدًا...

ـ ألا يزوره أحد في بيته؟

ـ أبدًا، وفي أحوال نادرة كان يجلس صباح الجمعة في القهوة مع بعض زملائه أو مع تلاميذه القدامى...

وتساءل الضابط هل يمكن أن تقع جريمة بلا باعث ودون أثر؟ واستكمل الإجراءات الواجبة ففتّش

بمساعدة معاونيه مسكن البوّاب، وبيوت أمّ أمينة وبناتها الستّ، ثمّ استدعى أصحاب المرحوم القلائل، ولكن لم يُدْلِ أحد منهم بشيء ذي بال، وبدا مصرع الرجل لغزًا محيّرًا للألباب. وشاع الخبر في الشارع، ثمّ نشر في الجرائد فعلمت به العبّاسيّة كلّها وأسف له كثيرون. وأكّد الطبيب ابن القتيل أنّ والده لا يملك شيئًا ثمينًا على الإطلاق، وأنّ حسابه في البنك لا يتجاوز المائة الجنيه وفّرها لحاجة طارئة ثمّ لخرجته آخر الأمر، وأكّد أيضًا أنّه ليس له أعداء، وأنّ قتله قد يكون نتيجة طمع في ثروة وهميّة خمّن المجرمون وجودها في مسكنه. وجرى تحقيق دقيق مع البوّاب وأمّ أمينة، لكنّه لم يؤدّ إلى شيء فأفرج عنهما بلا ضمان. ووجد ضابط المباحث نفسه في حيرة ضبابيّة وعانى إحساسًا بالهزيمة لم يمرّ به من قبل. كان ذا تاريخ مشرّف في مكافحة الجرائم شهد به الريف والبنادر، وفي الجملة كان من الضبّاط ذوي السمعة العالية، وهٰذه أوّل جريمة ينهزم أمامها هزيمة مطلقة بلا بارقة أمل ولا عزاء. وبثّ عيونه في أوساط المشبوهين في الجبل وأطراف الوايليّة وعَرَب المحمّدي لكنّهم لم يرجعوا بفائدة. وقرّر الطبيب الشرعيّ أنّ الأستاذ حسن وهبي مات خنقًا، وتفحّص جميع ما يخصّه من أشياء بأمل العثور على بصمة أو شعرة أو أيّ أثر ممّا يتركه المجرمون، ولٰكنّ مجهوداته ضاعت هباء، ووقف الجميع أمام فراغ صامت.

ومن شدّة الهزيمة شعر الضابط محسن عبد الباري بالخجل وتنغّص عليه صفوه، وكان يقيم بشارع يشبك غير بعيد من القسم، فلمّا لاحظت زوجته كربه قالت له برقّة:

ـ لا يجوز أن تحرق دمك بلا سبب...

فلاذ بالصمت ومضى يسلّي همّه بالقراءة. وكان مغرمًا بقراءة الشعر الصوفيّ كأشعار سعدي وابن الفارض وابن العربيّ، وهي هواية نادرة بين ضبّاط المباحث، ولذٰلك أخفاها حتّى عن خاصّة الأصدقاء. وظلّ الحادث حديث العبّاسيّة، لغموضه المحيّر، ولأنّ المرحوم كان مدرّسًا لكثيرين من شباب العبّاسيّة وكهولها. ولٰكن بمرور أسبوع أو نحوه غاص الخبر في بحر النسيان المخيف، وحتّى محسن عبد الباري قيّده ضدّ مجهول، وقال لنفسه وهو يزدرد هزيمته المرّة «مجهول!... هٰذا هو حقًّا المجهول!».

وبعد شهر دعي الضابط إلى سراي قديمة بشارع العبّاسيّة العموميّ بسبب جريمة مشابهة! كأنّ الجريمة الأولى وقعت من جديد فلم يكد محسن يصدّق عينيه. وكان القتيل لواء قديمًا من رجال الجيش، وكان يعيش مع أسرته المكوّنة من زوجة في الستّين وأخت أرملة في الستّين أيضًا، وابنه الأصغر وهو طالب جامعيّ في العشرين من عمره، وكان يقيم في السراي أيضًا البوّاب والبستانيّ وسائق السيّارة وطاهية وخادمتان.

وُجد اللواء صباحًا في فراشه كالنائم، شأنه كلّ يوم، إلّا أنّ الوقت تأخّر به عن المألوف ممّا دفع بزوجته إلى تفقّد حاله. لكنّه لم يكن نائمًا، بل مخنوقًا، وأثر الحبل محفور حول عنقه، وفي عينيه جحوظ فظيع، وحول الفم والأنف دم لزج. أمّا الحجرة فلم يختلّ بها نظام، ولا الفراش نفسه، ولم يسمع صوت في الليل ليوقظ النائمين في الطابق معه من أهله، وجملة القول أنّ الضابط وجد نفسه مرّة أخرى أمام اللغز القاتل الذي سحقه منذ شهر في مسكن المدرّس حسن وهبي أمام المجهول بصمته وغموضه وغرابته وقسوته وسخريته واستحالته.

ـ وهل وقعت سرقة؟

ـ كلّا...

ـ له أعداء؟

ـ كلّا...

ـ والخدم، أكانت علاقته بهم طيّبة؟

ـ جدًّا.

ـ أتشكّون في أحد؟

ـ أبدًا...

ومضى الضابط في الإجراءات بلا أمل، عاين السراي معاينة دقيقة، واستجوب الأهل والخدم، وكان يتوجّس خيفة من مجهول، ويشعر بأنّ مؤامرة تُدبّر في الظلام للقضاء على ضحايا كثيرين، وعلى سمعته وكافّة القيم في حياته، وشعر أيضًا بأنّ ثمّة لغزًا يوشك أن يخنقه بثقل غموضه، وأنّه إذا مُنِيَ بالفشل مرّة

أخرى فلن يصلح للحياة ولن تصلح الحياة لأحد. ولخطورة شأن القتيل جاء نفر من كبار رجال المباحث للإشراف على التحقيق بأنفسهم وقال أحدهم باستغراب:

ـ توجد جريمة بلا شكّ، ولكن كأنّها تُرتكب بلا مجرم...!

ـ بل المجرم موجود، ولعلّه أقرب إلينا ممّا نتصوّر...

ـ كيف ارتكب جريمته؟

ـ يطوّق العنق بحبل دقيق ثمّ يشدّ عليه حتّى يزهق الروح، ولكن كيف يصل إلى مكان جريمته، وكيف يذهب دون أن يترك أثرًا؟

ـ وما الباعث على القتل؟

ـ بواعث القتل متعدّدة تعدّد البواعث على الحياة!

ـ هل يمكن أن يقتل أحدًا بلا سبب...؟

ـ إذا كان مجنونًا فإنّه يقتل بلا سبب، أو بلا سبب ممّا نقتنع به...

ـ ما العلاقة بين المدرّس واللواء؟...

ـ كلاهما قابل للموت...!

ونُشر الخبر في الصفحات الأولى من الجرائد في عناوين مثيرة فاهتزّ له الرأي العامّ، وبصفة خاصّة أهل العبّاسيّة، وكان اللواء معروفًا منذ عهد الانتخابات حيث رشّح نفسه مرارًا فانتُخب مرّة عضوًا بمجلس الشيوخ. وجنّد محسن جميع المخبرين للبحث والتحرّي، وأصدر إليهم تنبيهاته المشدّدة، وانكبّ على العمل برغبة محمومة في الظفر. وعاد إلى بيته آخر الليل خائر القوى والنفس. وصمّم على كتم همومه عن زوجته التي بدأت في ذلك الوقت تعاني متاعب الحبل. وكان أخشى ما يخشاه أن يُنقل من قسم الوايلي موصومًا بالهزيمة ليحلّ محلّه آخر كما كان يحلّ هو محلّ آخرين في الريف على عهد التوفيق والنصر. وعبثًا حاول أن يسرّي عن نفسه بمطالعة الشِّعر إذْ ثبت ذهنه على الجريمة التي أمست رمزًا على هزيمته.

من يكون هذا القاتل الرهيب؟ لا هو لصّ ولا هو منتقم ولا هو مجنون. المجنون قد يقتل ولكنّه لا ينفّذ جريمته بهذا الإعجاز الساحق. إنّه يقف أمام لغز قويّ قهّار لا نجاة من عبثه، فكيف يتحمّل مسئوليّة حماية الأرواح حياله؟!

وملّ الناس ـ وبخاصّة أهل العبّاسيّة ـ الخوض في الموضوع، وفتر اهتمامهم به، وهدأت النفوس بعض الشيء، واستحال جزع الضابط حزنًا رزينًا منطويًا في أعماق النفس.

وإذا بالجريمة الثالثة تقع!

وجاء وقوعها بعد مصرع اللواء بأربعين يومًا، وكان مسرحها بيتًا متوسّطًا بين الجناين، وضحيّتها شابّة في الثلاثين، زوجة لمقاول صغير وأمًّا لثلاثة أطفال. وكالعادة وجد كلّ شيء على مألوف حاله، عدا أثر الحبل الملتهب حول العنق والدم حول الفم والأنف وجحوظ العينين، ولا أثر بعد ذلك لشيء. وأدّى محسن واجبه الروتينيّ بروح خامد يائس وقد آمن بأنّ عذابه لن ينتهي أبدًا، وبأنّه نُصّبَ هدفًا لقوّة لا ترحم. وقالت أمّ القتيل وكانت تقيم معها:

ـ دخلتُ في الصباح لأتفقّد حالها فوجدتها...

وخنقتها العبرات، فسكتت حتّى انحسرت عنها موجة البكاء وقالت:

ـ كانت المسكينة مريضة بالتيفود منذ عشرة أعوام...

فهتف محسن داهشًا:

ـ مريضة؟!

ـ نعم، وكانت حالتها خطيرة، لكنّها... لكنّها لم تمت بالتيفود!

ـ ألم تشعري بحركة في الليل؟

ـ أبدًا، كان الأطفال نائمين في هذه الحجرة، ونمت أنا على هذه الكنبة على مقربة من حجرتها لأسمعها إذا نادت، وكنت آخر من نام في البيت وأوّل من استيقظ، فدخلت الحجرة فوجدتها يا كبدي كما ترى....

وجاء الزوج عند الظهر عائدًا من الإسكندريّة على حال شديدة من الحزن. ومضى وقت قبل أن يجد نفسه في حال تسمح له بالإجابة على أسئلة الضابط. ولم يكن لديه قول يمكن أن يفيد التحقيق، كان بالإسكندريّة لبعض الأعمال، أمضى نهار الأمس في

القهوة التجاريّة مع أناس سمّاهم، وبات ليلته عند أحدهم بالقباري حيث تلقّى البرقيّة المشئومة، وصاح الرجل وهو يتأوّه:

- يا حضرة الضابط، هٰذه حال لا تطاق، ليست الأولى، قُتل المدرّس واللواء قبل ذٰلك، أين البوليس؟ الناس لا يُقتلون بلا قاتل، وكان عليكم أن تقبضوا عليه.

لم يتحمّل محسن الطعنات فانفجر هاتفًا:

- لسنا سَحَرَة!... ألا تفهم؟!

وسرعان ما ندم على ما بدر منه، وعاد إلى القسم وهو يقول لنفسه: «الحقّ أنّي أوّل ضحيّة للمجرم!» وودّ لو يستطيع أن يعلن عجزه. هٰذا المجرم كالهواء، وحتّى الهواء يترك في البيوت أثره. أو أنّه مثل حرارة الجوّ، ولٰكنّها أيضًا تترك أثرها، وحتّام تقيّد الجرائم ضدّ مجهول؟! وطوّق العبّاسيّة الفزع. وزادته الصحافة اشتعالًا. ولم يعد للمقاهي من حديث غيره، جرائم الخنق ومرتكبها الرهيب المجهول، إنّه خطر داهم وليس أحد بمأمن منه، وتبدّدت الثقة برجال الأمن، وانحصرت الشبهة في المنحرفين والمجانين باعتبارها موضة هٰذه الأيّام. وتبيّن من البحث أنّ أحدًا من نزلاء مصحّة الأمراض العقليّة لم يهرب، ووردت على القسم رسائل من مجهولين ففتّشت بسببها بيوت كثيرة ولٰكن لم يعثر فيها على أحد ذي خطورة، وكان أكثر المصابين من الطاعنين في السنّ. وبلّغ البعض عن شابّ معروف بالهوس والشذوذ من سكّان شارع السرايات فألقي القبض عليه وسيق إلى التحقيق ولٰكن ثبت أنّه في ليلة مقتل اللواء كان مقبوضًا عليه في الأزبكيّة لتحرّشه بفتاة في الطريق، فأطلق سراحه، ضاع كلّ مجهود هباء، وقال محسن في أسًى:

- المتّهم الوحيد في هٰذه القضيّة أنا!

هٰكذا كان أمام نفسه، وأمام أهل العبّاسيّة، وأمام قرّاء الصحف، وتطايرت إشاعات لا يدري أحد كيف تطايرت. قيل إن المتّهم معروف لدى رجال الأمن ولٰكنّهم يتستّرون عليه لصلته القريبة بشخصيّة هامّة. وقيل أيضًا إنّه لا يوجد متّهم في الحقّ والواقع، ولا جريمة ولٰكنّه مرض خطير مجهول، وإنّ معامل وزارة الصحّة تعمل ليل نهار في الكشف عن سرّه. وتفشّت الحيرة والبلبلة بين الناس....

ويومًا - وكان قد مضى على مقتل السيّدة شهر أو نحوه - أبلغ الشرطيّ الديدبان بقسم الوايلي أنّه عثر على جثّة في العطفة الملاصقة للقسم. خبر لم يسمع عن مثله من قبل. وهرع الضابط محسن عبد الباري إلى مكان الجثّة وكان بوسعه - لو أراد - أن يعاينها من نافذة حجرته، وجد جثّة رجل شبه عار، متسوّلًا عن يقين، ملقًى لصق جدار القسم، وكاد يصرخ من شدّة الانزعاج حين وقعت عيناه على أثر حبل الخنق حول الرقبة! ربّاه... حتّى هٰذا الشحّاذ! وتفحّص جلبابه كأنّما ثمّة أمل في العثور على شيء. ودُعي شيخ الحارة للتعرّف عليه فقرّر أنّه متسوّل من الوايليّة الصغرى، بلا مأوى، ويعرفه الكثيرون. وجرى التحقيق مجراه لا سعيًا وراء أمل ولٰكن تغطية للهزيمة المزرية. وسئل سكّان البيوت القريبة من مكان الجريمة ولٰكن أيّ جديد ينتظر؟... ولِمَ لا يُسأل المقيمون في القسم أيضًا وهو الملاصق للجريمة؟! وانتشر المخبرون في مواطن الشبهات ولٰكنّهم كانوا يبحثون عن لا شيء، عن خيال، عن روح. وكردّ فعل للحنق الذي غمر النفوس سيق المشبوهون والمنحرفون بالعشرات إلى الحجز حتّى خلت منهم العبّاسيّة جميعًا ولٰكن ما الفائدة؟ وزيد عدد الشرطة بالشوارع وتضاعف عددهم بالليل. ورَصدت الداخليّة ألفًا من الجنيهات مكافأة لمن يرشد إلى القاتل الخفيّ. وتناولت الصحافة الموضوع بقوّة مثيرة في صفحاتها الأولى، وتضخّم هٰذا كلّه في نفوس أهل العبّاسيّة حتّى استحال إلى أزمة مروّعة. ركبهم الفزع، وعذّبتهم الأوهام، وانقلبت أحاديثهم إلى هذيان، وهجر القادر منهم حيّه، ولولا أزمة المساكن وظروف المعيشة لخلت العبّاسيّة من أهلها، ولٰكن لعلّ أحدًا لم يتعذّب كما تعذّب الضابط محسن عبد الباري أو زوجته الحبلى السيّئة الحظّ. وقد قالت له على سبيل العزاء والتشجيع:

- لا لوم عليك، هٰذا شيء يُعجز خيال البشر...

- لم يعد لبقائي في وظيفتي معنى...

فقالت بجزع:

- دلّني على تقصيرك...

- يستوي المجهود الضائع والتقصير ما دام لا يحفظ روحًا ولا يدفع أذًى...

- ستنتصرون في النهاية كالعادة...

- أشكّ في ذٰلك، فهٰذا شيء خارق للعادة...

ولم ينم تلك الليلة. ظلّ ساهرًا يفكّر ونازعته رغبة في الهرب إلى عالم شِعره الصوفيّ، حيث الهدوء والحقيقة الأبديّة... حيث تذوب الأضواء في وحدة الوجود العليا حيث العزاء عن متاعب الحياة وفشلها وعبثها، أليس عجيبًا أن ينتسب إلى حياة واحدة عابد الحقّ وهٰذا المجرم الضاري؟ إنّنا نموت لأنّنا نفقد حياتنا في الاهتمامات السخيفة. ولا حياة ولا نجاة لنا إلّا بالتوجّه إلى الحقّ وحده...!

ولم يكد يمضي أسبوعان حتّى وقع حادث لا يقلّ غرابة عن سابقه، إذ سقط جسم من آخر عربة للترام رقم ٢٢ أمام شارع عشرة آخر الليل. وأوقف الكمساري الترام ومضى نحو مصدر الصوت، ولحق به السائق، فرأيا أفنديًّا على الأرض، ظنّا أنّه سكران أو مسطول أو عثرت به القدم، وسدّد السائق نحوه بطّاريّته اليدويّة وسرعان ما ندّت عنه صرخة، ثمّ صاح وهو يشير إلى عنق الرجل:

- انظر....

فنظر الكمساري فرأى أثر الحبل المشهور. وارتفع صوتاهما فهرع إليهما عدد من الشرطة والمخبرين المنتشرين في الزوايا والأركان. وفي الحال تمّ القبض على شخصين تصادف مرورهما قريبًا من مكان الحادث وسيق الجميع إلى القسم. وكان للحادث رجّة فظيعة، وكان على محسن أن يبذل مجهودًا عنيفًا يائسًا آخر للضياع. وأفرج عن أحد المقبوض عليهما إذ تبيّن أنّه ضابط جيش بملابس ملكيّة، وجرى التحقيق مع الثلاثة الآخرين دون أن ينتهي إلى شيء. وذاق محسن مرارة الهزيمة والخيبة للمرّة الخامسة حتّى خيّل إليه أنّ المجرم يتقصّده هو بالذات بألاعيبه الجهنّميّة. وذكّرته شخصيّة المجرم برجل الروايات الخفيّ، أو بمخلوقات الأفلام السينمائيّة التي تهبط إلى الأرض من الكواكب الأخرى، وقال لزوجته وهو يغلي بأحزانه:

- من الحكمة أن تذهبي إلى بيت والدك بالهرم بعيدًا عن هٰذا الجوّ المشحون بالعذاب والرعب.

لكنّها تساءلت في احتجاج:

- أليس من المخجل أن أتركك على هٰذه الحال؟

فقال وهو يتأوّه:

- ليتني أجد سببًا وجيهًا لإلقاء اللوم على نفسي أو على أيٍّ من معاونيّ...

ونوقشت المسألة في الصحف على نطاق واسع في مقالات مسهبة بأقلام علماء النفس ورجال الدين. أمّا العبّاسيّة فقد اجتاحها الذعر، وأمست تقفر مع المغرب من سكّانها سواء في المقاهي أو في الطرق، وبات كلّ وكأنّه ينتظر دوره. وبلغت الأزمة ذروتها عندما وجدت طفلة بمدرسة البنات الابتدائيّة مختنقة في دورة المياه...

وتتابعت الأحداث بصورة مرعبة. وتلقّاها الناس بذهول. لم يعد أحد يهتمّ بالتفاصيل المملّة عن التحقيق والبحث وآراء الباحثين في الصحف. انحصر التفكير في الخطر الداهم الذي يزحف غير مكترث لشيء، ولا يفرّق بين شيخ وشابّ، وغنيّ وفقير، رجل وامرأة، صحيح ومريض، في بيت أو في الترام أو في الطريق. مجنون؟... وباء؟... سلاح سرّيّ؟... خرافة من الخرافات؟! وغشي الحزن الحيّ شبه المهجور، وأنهكه الذعر، وأغلقت البيوت أبوابها ونوافذها، ولم يعد لأحد من حديث غير الموت.

وكان محسن عبد الباري يتجوّل في الحيّ كالمجنون، يتفقّد الشرطة والمخبرين، ويتفحّص الوجوه والأماكن، ويمضي في يأس تامّ، ويناجي يأسه طويلًا، وهزيمته المريرة، ويودّ لو يقدّم عنقه إلى المجرم شرط أن يعفي الناس من حبله الجهنّميّ. وزار مستشفى الولادة حيث ترقد زوجته. جلس إلى جانب فراشها قليلًا وهو يرنو إليها وإلى الوليد، مفترّ الثغر عن ابتسامة. ابتسامة لأوّل مرّة منذ عهد قصير. ثمّ لثم جبينها وذهب. عاد إلى الدنيا التي يودّ ألّا يراه فيها أحد. ووجد ما يشبه الدوار. الحياة التي يقضي عليها حبل مجهول فتصبح لا شيء. لكنّها شيء بلا ريب وشيء ثمين. الحبّ والشّعر والوليد. الآمال التي لا حدّ لجمالها. الوجود في

الحياة.... مجرّد الوجود في الحياة. أهناك خطأ يجب أن يصلح؟ ومتى يصلح؟ واشتدّ الدوار كما يحدث عند يقظة مفاجئة عقب نوم عميق.

ونمت أنباء إلى مأمور القسم بأنّه تقرّر نقل الضابط محسن عبد الباري وإحلال آخر محلّه. استاء المأمور استياء شديدًا، ومضى من فوره إلى حجرة الضابط الذي يقدّره خير قدرة. رآه مستلقي الرأس على المكتب كالنائم، فاقترب منه وهو يقول بلطف:

ـ محسن...

ناداه فلم يردّ. وكرّر النداء ولكنّه لم يردّ. هزّه ليوقظه فمال رأسه ميلة غريبة. عند ذاك لمح المأمور نقطة دم فوق السومان. نظر نحو زميله بفزع فرأى أثر الحبل الجهنّميّ حول العنق. وزلزل القسم ومَن فيه!

وحدثت سلسلة اجتماعات خطيرة في المحافظة واتّخذت قرارات هامّة وعاجلة، واستدعى المدير العامّ جميع معاونيه وقال لهم بقوّة وحماس:

ـ سنعلن حربًا لا هوادة فيها حتّى يقبض على المجرم...

وتفكّر قليلًا ثمّ استطرد:

ـ هنالك شيء لا يقلّ خطورة عن المجرم نفسه، وهو الذعر الذي اجتاح الناس.

ـ نعم يا فندم!

ـ يجب أن تسير الحياة سيرتها المألوفة وأن يعود الناس إلى الإحساس الطيّب بالحياة...

وتجلّى التساؤل في الأعين المستطلعة فقال المدير:

ـ لن تنشر كلمة واحدة عن الموضوع في الصحف...

وآنس من العيون فتورًا فقال:

ـ الحقّ أنّ الخبر يختفي من الدنيا إذا اختفى من الصحف...

وقلّب عينيه في الوجوه ثمّ قال:

ـ لن يدري أحد بشيء ولا سكّان العبّاسيّة أنفسهم...

ثمّ ضرب مكتبه بقبضته وقال:

ـ لا حديث بعد اليوم عن الموت، يجب أن تسير الحياة سيرتها المألوفة، وأن يعود الناس إلى الإحساس الطيّب بالحياة، ولن نكفّ عن البحث...

زينة

ازدحم مدخل العمارة رقم ١١٥ بشارع رمسيس بالمنتظرين أمام أبواب المصاعد، وهو مدخل لا يخلو من ازدحام كما يجدر بعمارة جميع شققها مؤجّرة للشركات. وكان بين المنتظرين ثلاثة أشخاص جاءوا في وقت واحد على وجه التقريب، رجلان وفتاة، وكأكثر الحاضرين لم يكن يعرف أحدهم الآخر. وبطبيعة الحال لم ينتبه أحد إلى الرجلين على حين تسلّلت نظرات الاهتمام إلى الفتاة لشبابها وجمالها وأناقتها، وبينا بدا أحد الرجلين كمن يناقش نفسه مناقشة حادّة جعل يقضم ظفره من حين لآخر لاحت في عيني الأخر نظرة حالمة وحزينة، وعندما صادفت عيناه الفتاة دبّت فيهما حياة متألّقة كالزهرة.

قصد أوّل الثلاثة الشقّة رقم ١٨ بالدور الثالث فمضى إلى السكرتاريّة وحيّا السكرتيرة اللطيفة هناك وقال برقّة ممزوجة بالثقة:

ـ محمّد بدران...

ولم تكد الفتاة تغيب وراء باب المدير حتّى عادت وهي تقول:

ـ تفضّل.

دخل محمّد بدران حجرة المدير فمدّ له هٰذا يده من وراء مكتبه وهو منهمك في مكالمة تليفونيّة، ثمّ أشار إليه بالجلوس، فغاص في مقعد جلديّ كبير أمام المكتب. وبسرعة سحريّة سرى في جلده وأعصابه الهواء المكيّف فأنعشه وهدهده وأخذ يجفّف عرقه ويرطّب لهيب الحرّ الذي عاناه في الطريق واختنق به في المصعد. وسرعان ما وعد نفسه بتركيب جهاز تكييف في حجرة مكتبه حالما تتحسّن الأحوال عمّا قريب إن شاء الله، ولو يشاركه فيها الأبناء في بعض أوقات المذاكرة بل ولا بأس من أن يتحوّل جزء منها إلى مكان لجلوس الزوجة في أشهر القيظ. وكالعادة انثالت على

ذهنه أحلام الثراء بلا تحفّظ فأكملت ما ينقص حياته من الرفاهيّة. شقّة جديدة في حيّ راقٍ بعيدًا عن روض الفرج طبعًا، أثاث فاخر، مطبخ أمريكانيّ، بار أمريكانيّ أيضًا، سخّان، فريجيدير كبير، سيّارة، شقّة دائمة بالإسكندريّة للتصييف في الصيف ولعطلات المواسم في بقيّة الفصول. ولسبب ما خطرت بباله الفتاة الجميلة التي رآها في مدخل العمارة أمام مصعد. ما أجمل أن «يملك» الإنسان صديقة مثلها. فائقة الجمال حقًّا. ولجمالها أثر بهيج مثير لأحلام الشباب في الحبّ والنشوة السامية. ترى أما زال يذكر عهد الشباب الأوّل بأحلامه ومثاليّاته؟! وإذا به يستيقظ على صوت المدير وهو يقول:

ـ كيف حالك يا أستاذ محمّد؟

فخرج من أحلامه قائلًا:

ـ بخير ما دمت بخير يا سعادة المدير...

وضحكا معًا بلا مناسبة ظاهرة وإن أحنقه صوته الجهوريّ ذو النبرة الشديدة والجلجلة، ثمّ رفع إليه عينيه كأنّما يقول «في خدمتك يا فندم» فقال المدير الذي اعتمد مكتبه بمرفقيه:

ـ كيف الأحوال؟

ـ ماشية! ليس في الرأس إلّا مشروعات...

ـ كلّ شيء بأوانه، أراهن على أنّك ستحقّق مشروعاتك، أنا خبير بالرجال...

فابتسم قائلًا:

ـ لنا زميل لعلّك تعرفه، كنّا نعمل منذ ثلاثة أعوام في جريدة واحدة بثلاثين جنيهًا، هل تصدّق أنّه يعمل اليوم بثلاثمائة جنيه؟

ـ ستجيء فرصتك أيضًا (ثمّ وهو يضحك) وأنا ماذا كنت منذ خمسة أعوام؟

ـ لكنّك رجل أعمال...!

وضحكا مرّة أخرى، وإذا بوجه المدير يستردّ هيئته الجادّة ويقول داخلًا في موضوعه:

ـ أنا ارتأيت طريقة ستوفّر عليك تعبًا كثيرًا...

ورمقه محمّد بقلق كأنّه خاف أن يعقب التوفير في التعب توفير في الأجر، ثمّ قال بعجلة:

ـ أنا لا يهمّني التعب، إليّ بنقط الموضوع وسوف تقرأ مقالًا لن يشكّ قارئه في أنّه بقلم أخصّائيّ من العلماء!

فلم يبد على المدير أنّه اكترث لاعتراضه، وأخرج من درج مكتبه مقالة مسطورة على فرخين من الورق، فتساءل محمّد في شبه انزعاج:

ـ كتبتها كلّها؟

ـ لا ينقصها إلّا إمضاؤك!

فتناولها الآخر في فتور وهو يغمغم:

لكن...

فقاطعه قائلًا بلهجة مرحة:

ـ اقرأ ولا تخفْ، متى وجدتني بخيلًا يا جاحد!؟

فاستردّ شيئًا من طمأنينته وهو يقول كالمحتجّ:

ـ ولكنّك ستعوّدني على الكسل...!

وراح يقرأ: «عزيزي القارئ، ماذا تعرف عن العقّار الجديد «س.أ.ب»؟ لعلّك تسمع عنه لأوّل مرّة، ولم تسمع بطبيعة الحال عن الثورة العلميّة التي أحدثها في أمم الشمال بصفة خاصّة وفي القارّة الأوربّيّة بصفة عامّة؟ في الأسطر القادمة ستعرف كلّ شيء عنه، مؤيّد بأقوال جمهرة من كبار العلماء. ولـمّا كانت مجلّتنا علميّة قبل كلّ شيء فإنّا نرجو ألّا يطوح الخيال بأحد قرّائها، فإنّ اعتقادنا ألّا قوّة تستطيع أن تعيد الشباب إذا ولّى، ولكنّ عقّارًا يؤخّر الشيخوخة عشرة أو خمسة عشر عامًا ليس ممّا يستهان به...».

واستمرّ في قراءة المقال والمدير يتابعه في اهتمام لا يخلو من سخرية، حتّى أتمّه، وتبادلا النظر في صمت مليًّا ثمّ سأله المدير:

ـ ما رأيك؟

ـ مدهش، ثمّة أخطاء في اللغة أو النحو ستصحّح بطبيعة الحال، ولكنّه مقال هامّ ومثير...

ـ يجب نشره في صفحة مهمّة...

فقال محمّد بدران بشيء من المكر:

ـ أنت تعرفني من قديم، ولكنّ هناك معلومات قد تحتاج إلى تحقيق علميّ أو إلى تعديل على الأقلّ، إنّ مجلّتنا ذات صفة علميّة معترف بها!

فقال المدير ببرود:

ـ لن أزيد مليّمًا على المبلغ المتّفق عليه!

ـ لا أقصد هٰذا. . .

ـ بل تقصده! لا تكن طمّاعًا، ستأخذ المجلّة أجرة إعلان ممتاز جدًّا. وستأخذ أنت مكافأتك كما اتّفقنا فلا داعي للمشاغبة!

فدارى محمّد هزيمته الخفيفة بضحكة وقال بحرارة زائفة:

ـ أخاف أن يؤدّي الإفراط في تناول العقّار إلى. . . .

ـ ما أجمل تلاوتك للآيات الإنسانيّة! لكنّني أزعم أنّني إنسان أكثر منك، هٰذا العقّار إذا لم يفد فلن يضرّ، وهو مفيد قطعًا، والإنسان يعيش على الأوهام ويسعد بها. . .

وتناول من جيبه مظروفًا صغيرًا، ووضعه على المكتب أمام الأستاذ محمّد، وكان هٰذا يعرفه كما يعرف وجه طفله، فأخذه وهو يبتسم قائلًا:

ـ ألف شكر يا إكسلانس، ربّما ما يحرمني منك. . .

ـ ولا منك يا أستاذ محمّد. . .

وقاما في وقت واحد فتصافحا، ثمّ ذهب. وشملته حركة سريعة، أشبه بالاندفاع، وهي طابعه في السير، وكان عليه أن يذهب إلى المجلّة دون إبطاء. ولم يكن في ذهنه إلّا المشكلات الخاصّة بالمجلّة التي عليه أن يحلّها قبل هبوط الليل. في زمن بعيد نسبيًّا كان يفكّر طويلًا بعد تناول مثل هٰذا المظروف. على الأقلّ كان يقارن بدهشة بين حاله حين تخرّجه في الجامعة والتحاقه بالعمل مخمورًا بأسمى الآمال، وبين حاله التي صار إليها حين لم يعد لشيء قيمة إلّا السيّارة وجهاز التكييف وتعليم الأولاد في الكلّيّة الأمريكيّة. . .

* * *

وقصدت الفتاة الشقّة رقم ٣٣ بالدور الخامس. سارت بقامتها الرشيقة ووجهها الجميل، وعينيها اللوزيّتين اللتين تشعّان حيويّة حتّى انتهت إلى مكتب السكرتير، فقام بحماس وصافحها بحرارة ثمّ أشار إليها بالجلوس وهو يقول:

ـ المدير مشغول، خمس دقائق، كيف حالك؟

جلست وهي تبتسم في تحفُّظ ماكر، وتشاغلت عن الشابّ المحدّق فيها بالنظر إلى الحجرة البديعة المعدّة لاستقبال أهل الأهمّيّة والمال وعلق بصرها بلوحة من الفنّ الحديث لم تميّز بوضوح من أشيائها إلّا تفّاحة استقرّت في مكان غمّازتها عين بشريّة هالعة على حين اكتنفتها خطوط وألوان فاقعة وأجزاء متناثرة من أعضاء الجسم الإنسانيّ، وبصفة عامّة خيّل إليها أنّها ترى ركن حجرة ـ كانت مأهولة بالبشر ـ أثر زلزال عنيف مدمّر، استردّت عينيها وهي ترفع حاجبيها المقرونين في شبه احتجاج ساخر فرأت الشابّ وهو يشير إلى الكرسيّ الجالس عليه ويقول باسمًا:

ـ ستجلسين هنا بعد أيّام. . .

ـ متى تسافر إلى ألمانيا؟

ـ في نهاية الأسبوع على الأكثر، ولكن متى أراك ثانية؟

ودقّ جرس التليفون الخاصّ بالمدير فرفع الشابّ السمّاعة لحظة، ثمّ أعادها ومضى إلى الحجرة، وما لبث أن خرج مصحوبًا بخواجا طاعن في السنّ فأوصله حتّى الباب وعاد إلى الفتاة وهو يقول:

ـ تفضّلي يا آنسة زينب. . .

وهي تمرّ أمامه في طريقها إلى الحجرة همس في أذنها:

ـ أظنّ من الممكن أن نتقابل الليلة. . . ؟

فظلّت تنظر فيما أمامها وإن وشى عارضها بابتسامة، حتّى غيّبها باب الحجرة. تقدّم المدير ليلاقيها في المنتصف، بقامته المترهّلة، وصلعته الوضيئة، وانحنى نحوها بوجهه المجدور، يتقدّمه أنف كالكفّ المبسوطة بين هالتين من سوالف بيضاء، فتناول يدها، وضغط عليها بحنان مريب ومضى بها حتّى أجلسها على المقعد الوثير أمام المكتب، ثمّ جلس على كرسيه وعيناه لا تتحوّلان عن وجهها:

ـ خطوة عزيزة يا زوزو، كيف حال والدتك وأخواتك؟

وكانت رغم مطاوعة الأمور تجد قلقًا، وإحساسًا كأنّه التقزّز، لكنّها ابتسمت إلى عينيه المكلّلتين بحاجبين أشيبين، عينيه الحادّتين رغم الكبر، وقاومت

النفور المستقرّ في شعورها، والذي جاء معها في الطريق بل من البيت، رغم محاولاتها القويّة في مغالبته بالأحلام الخياليّة المتألّقة كالماس.

ـ ستشرّفين السكرتاريّة في نهاية الأسبوع...

اتّسعت الابتسامة المغتصبة من شفتيها، فتحرّكت قسمات الرجل في نشوة كالطرب وقال بحرارة:

ـ أنت ضوء الحياة يتسلّل إلى قلبي المظلم من جديد، وسوف ينعكس على حياتك بالسعادة...

ذكّرها هٰذا بما ردّدته جدران بيتها الصمّاء في غير حياء، وبأمّها التي تبدو أحيانًا كنمرة متوثّبة وإن تكن تنقلب قطّة مستكينة عندما تندى جفونها بدمعة ما. وغمغمت في حرج:

ـ أرجو أن تجدني عند حسن ظنّك...

ابتسم ابتسامة اقشعرّ لها بدنها، فندمت على ما فرط منها دون تدبّر. وإذا به يتساءل:

ـ وقريبك؟

فقالت بامتعاض خفيّ:

ـ انتهى الأمر، فسخت الخطبة...

ـ ماذا قلتم؟

ـ لم تعوزنا المبرّرات الوجيهة...

فقال بنبرة مبتهجة:

ـ لن تندمي على ما فات، أمّك حكيمة، وأنت كذٰلك، إنّ متاعب الحياة لا تفضّ كما يزعم الحمقى في الصحف، ولٰكنّها تفضّ بالإرادة الحيّة، إرادة شخص ذكيّ مثلك...

ما أبشع خجلها، أو ما أبشعه في بعض الأحيان على الأقلّ! لٰكنها لم تندم على فسخ الخطبة... لم تعدها بحياة تستحقّ هٰذا الاسم، وتوعّدت أسرتها بمتاعب جديدة. وهي لم تكن تحبّ قريبها. الآن لن يفصل بينها وبين من تحبّ شيء، حتّى لو علم بحقيقة ما تمضي إليه إذ من حسن الحظّ أنّ الطيور على أشكالها تقع. وسألته باستهانة:

ـ ماذا يزعم الحمقى في الصحف؟

أحاديث كألف ليلة وليلة عن إصلاح المجتمع والكون، ماذا تفيدين من ذٰلك أنت؟!

فرفعت كتفيها في استهزاء، فعاد يقول:

ـ لولا الدين لتزوّجت منك بلا تردّد...

فغضّت البصر حتّى شعر بأنّه ينبغي أن يبرّر موقفه فقال:

ـ إنّ تغيير الدين كفيل بالقضاء على مركزي، وبالتالي على الوسائل التي يمكن أن أسعدك بها...

فقالت بارتياح خفيّ:

ـ هٰذا مفهوم وواضح...

فقال بحماس:

ـ ولو هيّأت لك فيلّا كاملة لأحرجتك لٰكنّك ستكونين السكرتيرة، شيء عاديّ وطبيعيّ، وستكون متع الدنيا بين يديك، صدّقيني إنّ المال هو سرّ بهجة الحياة، وإنّي مصمّم على جعلك أسعد مخلوقة في هٰذا الوجود...

ـ متشكّرة جدًّا...

فهزّ رأسه بارتياح وقال:

ـ سأرسلك إلى حمدي رجب مدير الإدارة ليمتحنك، مجرّد إجراء شكليّ كي تسير الأمور في مجراها الطبيعيّ...

ـ متشكّرة جدًّا...

ـ وخبّري والدتك بأن تستعدّ للانتقال إلى مصر الجديدة...

ـ سيجيء هٰذا في وقته...

وندمت مرّة أخرى على ما أفلت منها من قول. باتت سريعة الغضب حقًّا، وإن ظلّ وجهها باسمًا هادئًا. وأوشكت أن تغضب على طموحها المجنون نفسه...

وقامت وهي تقول:

ـ سأذهب إلى مدير الإدارة.

فقام أيضًا ومضى حول مكتبه، وسارت نحو الباب فتبعها وهو يرنو إلى رسم ظهرها البديع، حتّى وقفا وجهًا لوجه وراء الباب، تناول يدها وانحنى كأنّما ليقبّلها ولٰكنّه مدّ وجهه عند منتصف المسافة إلى خدّها فلثمه. ولبث داني الوجه من وجهها، وأنفاسه ترعش الأهداب المسدلة من كلفة الفستان أعلى الصدر، ثمّ تساءل برغبة محمومة:

ـ أما من قبلة؟

فأومأت إلى الأحمر في شفتيها وتساءلت:

ـ و . . . وهذا؟

ـ ولو؟

فلثمت جانب فيه، ثمّ استدارت نحو الباب . . .

* * *

وقصد ثالث الثلاثة الشقّة رقم ٥٠ بالدور الثامن. كانت صورة الفتاة الجميلة ما تزال تعايش خياله معايشة لطيفة، مخالطة أفكاره ومشاعره وأنفاسه، وكان يتصوّر في نشاط حارّ خلّاق الحياة العريضة التي يمكن أن يصنعها ذٰلك المثال من الجمال الحيّ، لكنّها انطوت في ركن مجهول أمام السكرتيرة الدميمة الذكيّة التي ابتسمت لاستقباله. حيّاها برقّة وهزّ رأسه هزّة المتسائل وهو ينظر نحو باب المدير فقالت على الفور:

ـ إنّه ينتظرك يا أستاذ . . .

ودخل فقام المدير باسم الوجه وهو يقول:

ـ أهلًا أستاذ وديع، جئت في وقتك . . . !

وتصافحا، ثمّ جلس وديع، أمّا المدير فمال نحو صوان قريب فمدّ يده داخله مليًّا، ثمّ قدّم إلى الأستاذ لفافة ماسيّة أدرك هٰذا لأوّل مرّة أنّها «قرش»، ثمّ قال:

ـ هديّة لك! لم أعرف إلّا مصادفة أنّك من أهل الكيف!

وابتسم وديع في شيء من الارتباك وهو يدسّها في جيبه، وجلس المدير وهو يقول:

ـ قرأت القصّة، جميلة، نعم جميلة، لي عليها بعض الملحوظات سأحدّثك عنها عندما يبدأ الاجتماع (ونظر في الساعة) . . . وإذا كان لدى الآخرين ملاحظات أخرى فرجائي أن تفرغ من إعادة كتابتها قبل نهاية الشهر، حتّى يجد كاتب السيناريو مهلة لكتابته، وحتّى تدخل الإستديو في الميعاد المتّفق عليه . . .

القصّة تتغيّر ولكنّ قصّة القصّة، قصّة جميع القصص، واحدة، هٰذه هي المسألة التي يتكرّر وقوعها عند مناقشة أيّ من قصصه، قصّتك جميلة يا أستاذ . . . ولكن! . هي جميلة ولكن يجب أن تؤلّفها من جديد. وتساءل من خلال تنهّدة لم تُسمع عن ذٰلك الركن من الدنيا الذي تجري فيه الأمور على طبيعتها وتنطلق الطيور المغرّدة، بلا خوف ولا جهل ولا طغيان، ولم يداخله شكّ في أنّه سيجد هنالك الفتاة الجميلة التي عايشت خياله حتّى أثملته. وتحرّك حركة لا معنى لها وقال على سبيل الدفاع عن النفس:

ـ يا أستاذ مجدي، إنّك سألتني إن كان عندي قصّة فقدّمتها ثمّ أخبرتني أنّك قبلتها، أليس كذلك؟

ـ طبعًا، لكنّ القصّة ليست إلّا مشروعًا، وعلينا أن نبدأ من أساس متين حتّى نضمن إنتاج فيلم نظيف، شركتي عنوان الإنتاج النظيف، ألا تعلم أنّهم يطلقون عليّ اسم المنتج المجنون لهٰذا السبب؟!

كان يتابع صوته بغيظ مكتوم، وينظر بغرابة إلى وجهه المطلّ عليه من وراء مكتبه متضمّنًا جميع آيات الصحّة والعافية والتحدّي، كانت ملامحه جميعًا تتعلّق بالتحدّي، عيناه الجاحظتان، أنفه المدبّب، فكّاه العريضان القويّان، وكانت عنايته بالأناقة فائقة الحدّ، ورائحة المسك تفوح منه، رغم علم جميع المقرّبين إليه من أنّه يتدهّن بها لرأي قرأه عن إثارتها في أحد الكتب الجنسيّة. هٰذا المدير الكبير الذي قضى زهرة عمره مندوبًا لشركة تأمين، وما زال يباهي بطلاقته في الفرنسيّة ويستعمل منها الألفاظ والعبارات لمناسبة ولغير مناسبة، إلى درايته بأشياء كثيرة في الحياة العمليّة، وإن يكن الشيء الوحيد الذي لم يفقه فيه حرفًا هو الفنّ بصفة عامّة، والقصّة بصفة خاصّة، وتساءل وديع عن اللعنة الغريبة التي قضت عليه طوال حياته الفنّيّة بأن يقف موقف المستأذن بفنّه أمام الناس لا يربطهم سبب واحد بهٰذا الفنّ. وتنهّد من الأعماق تنهيدة خفيّة حارّة كمعركة في أعماق المحيط . . .

وفي تمام السادسة مساء جاء المخرج الأستاذ محمّد طنطاوي. وتبعه بعد قليل الموزّع مسيو دزرائيلي، ثمّ قامت الحجرة لاستقبال النجمة عواطف زهدي. وهلّت المرطّبات ألوانًا وضجّ المكان بالأحاديث والنكات والتعليقات، على حين انكمش الأستاذ وديع في كرسيّه ينتظر أن تبدأ محكمة التفتيش عملها. وجعل يسترق إلى وجوههم النظرات.

وتساءل متى تتقوّض سيطرة الطغاة. متى يمكن أن يفكّر محمّد طنطاوي كإنسان؟ متى يحلّ في رأس مسيو دزرائيلي شيء غير الأرقام والنقود؟ متى تقلع عواطف

زهدي عن العادات المتأصّلة التي اكتسبتها في بيت الهوى التي انتشلت منه إلى عالم الفنّ؟ متى يكفّ مجدي السيّد عن إنتاج أفلام كعربون لعشق جديد؟ متى تقف هٰذه العوامل كلّها عن التدخّل في فبركة القصص؟... ووجد نفسه تستعيد صورة الفتاة الجميلة التي عايشته منذ قليل، وحلم مرّة أخرى بالحياة العريضة التي يمكن أن يصنعها جمالها الحيّ.

وارتفع صوت المدير وهو يقول:

ـ هه، لندخل في الموضوع، الأستاذ وديع عبد الرازق هنا ليسمع آراءكم في قصّته، فيجب أن ننتهي الليلة من المناقشة حتّى يشرع فورًا في تعديل القصّة...

واتّجهت الأنظار نحو مسيو دزرائيلي باعتباره رأس المال وكان ضائعًا في المقعد الضخم لقصر قامته وضآلة جسمه فتزحزح إلى الأمام حتّى استوى على طرف المقعد وقال باهتمام:

ـ القصّة تبدأ ساخنة ولٰكنّها تنتهي باردة، هٰذا شيء خطير جدًّا...

تركّزت عليه الأبصار في انتباه واحترام، وتجلّت مقدّمات الموافقة دون كلام، ولـمّا همّ المخرج بفتح فيه قاطعه الخواجا قائلًا:

ـ لا مؤاخذة يا محمّد، أنا عندي موعد ولا بدّ أن أذهب حالًا فاتركني حتّى أتمّ كلامي، قلت ساخنة وباردة، وشخصيّة البطل غير محبوبة لأنّه غنيّ، والمتفرّجون في بولاق والسيّدة زينب لا يحبّون الأبطال الأغنياء، ولا مجال في القصّة للضحك، الجمهور يحبّ الضحك، وجوّ الضحك فرصة لخلق رقصة أو أغنية، ابحثوا هٰذه النقط، وإذا تعذّر تعديل القصّة فعندي لكم سيناريو جاهز قابل للتصوير فورًا...

وتساءل وديع بحدّة:

ـ سيناريو؟!

فابتسم إليه ملاطفًا وقال:

ـ أنا وكيل توزيع أفلام أجنبيّة، وعادة أستحضر جميع السيناريوهات لأختار على أساسها الأفلام التي أوزّعها، وأشتري ما أشاء من الأفلام، ولٰكنّي أستبقي سيناريوهات الأفلام الأخرى حتّى تسعفني في مثل هٰذه الزنقة، ولن يضيع حقّك كمؤلّف فسيكتب اسمك على القصّة الجديدة، ولن تتّهم بالسرقة لأنّ الفيلم المصوّر عن هٰذا السيناريو لن يرد إلى الشرق الأوسط، فكّروا في ما قلت، وسأتّصل تليفونيًّا بك يا مجدي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لأعرف النتيجة...

ووقف رافعًا يده بالتحيّة فوقفت الحجرة، ثمّ ذهب...

وتغيّرت تعبيرات الوجوه بعد ذهابه فانطلقت على سجيّتها ممّا دلّ على أنّه كان ثمّة توتّر غير ملموس ثمّ زال، وقلّب مجدي ناظرَيْه في الوجوه وهو يقول بنبرة ملؤها التشجيع:

ـ لا تهتمّوا بما قال، أنا عارفه، كلامه كثير لٰكنّه يقتنع في النهاية برأيي، والحقّ أنّ هذه القصّة صالحة تمامًا لعواطف...

فقالت عواطف:

ـ السيناريو الذي أشار إليه لخّصه لي بالتليفون وهو غير مناسب لي على أيّ حال، أنا لا أصلح لتمثيل الزوجة الخائنة، وسيُغضب هٰذا غالبيّة جمهوري...

فقال محمّد طنطاوي وهو يشعل سيجارة:

ـ فلنتكلّم في قصّة الأستاذ وديع...

ـ خبّرني عن رأيك فيها؟

ـ أنا أوافق دزرائيلي على أنّها تنقصها الفكاهة.

فقال وديع بحرارة:

ـ الموضوع جادّ، إذا أردت اللمسات الفكاهيّة هنا أو هناك فهٰذه أمرها غير عسير وهو يجيء في العلاج دون إفساد الفكرة الأصليّة.

ـ لا أقصد هٰذا، أنا أريد خلق شخصيّة مضحكة لتلعب دورها في الفيلم كلّه، كتابع أو صديق للبطل...

فاستماتَ وديع في الدفاع قائلًا:

ـ لٰكنّها تبدو شخصيّة ملزوقة، وقد تكرّرت في أفلامنا حتّى باخت...

فقالت عواطف:

ـ بالعكس هٰذه الشخصيّة تنجح دائمًا، ودورها مناسب لحمّودة.

ولم يكن حمّودة إلّا أخاها، ولذلك لم يجد وديع في المعارضة جدوى فعدل عنها قائلًا:

ـ سأجد لها مكانًا في القصّة...

فعاد المخرج يقول:

ـ وسَخِّن النهاية أكثر، إنّها ليست باردة كما يقول دزرائيلي ولٰكنّ تسخينها لا بأس به، اختمها بمعركة بين البطل وغريمه...

ـ لا... لا، هٰذه نهاية لا تناسب موضوعًا نفسيًّا، ولا تناسب موضوعنا بحال، فكّر في هٰذا من فضلك، إنّها نهاية مناسبة لفيلم رعاة بقر أو ما يشابهه...

ـ المعركة لعبة ناجحة، وأنا متخصّص في المعارك...

فقال مجدي ضاحكًا:

ـ يا أستاذ وديع لا تظلم مخرجنا، كيف تحرمه في فيلم طويل ولو من معركة واحدة؟ أتريده أن يضرب المتفرّجين أو يضرب المنتج...!

وضجّت الحجرة بالضحك عدا وديع الذي مضى يجترّ غمّه صامتًا، وإذا بعواطف تقول:

ـ ودوري مناسب بلا شكّ ولٰكنّه في النصف الأوّل من الفيلم سلبيّ...

فقال وديع اليائس من تتابع الضربات:

ـ دورك في الأوّل هو دور امرأة عاديّة، نموذج متكرّر من نسائنا في البيت ولٰكنّ دورك الحقيقيّ يبدأ بزواجك من البطل...

ـ ليس هٰذا بدور بطلة فيلم...

ـ ولٰكن هٰكذا القصّة تسير...

ـ ولو!

وتساءل ترى ألا يمكن أن يجد عملًا آخر غير التأليف؟ وتأوّه دون صوت. وعند ذاك قال مجدي:

ـ هٰذه ملاحظات بسيطة لن تغيّر جوهر القصّة، وطبعًا أنت موافق يا أستاذ وديع؟!

ـ الحقّ أنّي غير موافق...

فضحك ضحكة مترعة بصحّة وعافية وقال:

ـ هٰكذا يكون موقفك كلّ مرّة، وتستمرّ المناقشات حتّى منتصف الليل، ثمّ تجبر بخاطرنا...

وقال المخرج:

ـ الأستاذ وديع عنيد ولٰكنّه يسايرنا في النهاية، وفنّان السينما يجب أن تذوب شخصيّته في المجموع!

وندّت عن مجدي آهة كأنّما تذكّر فجأة شيئًا ذا بال، واستخرج من درج مكتبه شيكًّا وهو يقول:

ـ القسط الثاني حلّ منذ أسبوعين، لعن الله المشاغل...

ومدّ له يده فتناوله وهو يستشعر أوّل نسمة باردة في هٰذه الجلسة الجهنّميّة. وبدا منه أنّه يستعدّ لمواصلة المرافعة، ولٰكنّ مجدي قال:

ـ ممكن أن نلخّص ما تمّ الاتّفاق عليه بما يأتي: خلق شخصيّة مضحكة لحمّودة، تسخين في النهاية بمعركة، خلق حوادث مهمّة لعواطف قبل الزواج من البطل...

ثمّ ضحك ضحكة عالية وهو يقول:

ـ ولٰكن لا نريد حوادث قبل زواجها من المنتج...

وضجّوا جميعًا بالضحك، واستأذن المخرج ووديع فذهبا معًا. ودعاه المخرج إلى سيّارته الكبيرة ليوصله إلى محطّة الترولّلي باس فانسابت بهما السيّارة كالعروس، وقال المخرج:

ـ مطلوب منّي قصّة لشركة أبو الهول سأخرجها بعد هٰذا الفيلم مباشرة، فهل عندك فكرة؟

عذاب جديد في سبيل رزق جديد، كم يسرّه هٰذا الطلب وكم يحزنه! وفكّر مليًّا ثمّ قال متسائلًا:

ـ ما رأيك في موضوع عن المال؟

ـ قصّة بوليسيّة؟

ـ كلّا، إنّي أودّ أن أكتب عن المال باعتباره غولًا مخيفًا يلتهم القيم الجميلة بلا رحمة كالخلق والجمال والروح...

ففرقع محمّد طنطاوي بأصبعيه فرحًا وقال بحماس:

ـ اشرع في كتابتها وقابلني يوم الجمعة لكتابة العقد. فكرة عظيمة، وهادفة، وصالحة جدًّا للاشتراك في جائزة وزارة الثقافة.

زعبلاوي

اقتنعتُ أخيرًا بأنّ عليّ أن أجد الشيخ زعبلاوي.

وكنت قد سمعت باسمه لأوّل مرّة في أغنية:

الدنيا ما لها يا زعبلاوي
شقلبوا حالها وخلّوها ماوي

وكانت أغنية ذائعة على عهد طفولتي فخطر لي يومًا أن أسأل أبي عنه كعادة الأطفال في السؤال عن كلّ شيء. سألته:

ـ من هو زعبلاوي يا أبي؟

فرمقني بنظرة متردّدة كأنّما شكّ في استعدادي لفهم الجواب، لكنّه قال:

ـ فلتحلّ بك بركته، إنّه وليّ صادق من أولياء الله، وشيّال الهموم والمتاعب، ولولاه لمتّ غمًّا...

وفي السنوات التي تلت ذلك سمعته مرّات وهو يثني أطيب الثناء على الوليّ الطيّب وكراماته.

وجرت الأيّام فصادفتني أدواء كثيرة، وكنت أجد لكلّ داء دواءه بلا عناء وبنفقات في حدود الإمكان، حتّى أصابني الداء الذي لا دواء له عند أحد، وسدّت في وجهي السبل وطوّقني اليأس، فخطر ببالي ما سمعته على عهد طفولتي، وتساءلت لِمَ لا أبحث عن الشيخ زعبلاوي؟! وذكرت أنّ أبي قال إنّه عرفه في بيت الشيخ قمر بخان جعفر، وهو شيخ من رجال الدين المشتغلين بالمحاماة الشرعيّة، فقصدت بيته، وأردت التأكّد من أنّه ما زال يقيم فيه فسألت بيّاع فول أسفل البيت، فنظر الرجل إليّ باستغراب وقال:

ـ الشيخ قمر! ترك الحيّ من عهد بعيد، ويقال إنّه يقيم اليوم بجاردن سيتي، وإنّ مكتبه بميدان الأزهار...

واستدللت على عنوان مكتبه بدفتر التليفون، وذهبت إليه من توّي في عمارة الغرفة التجاريّة، واستأذنت، ثمّ دخلت الحجرة على أثر خروج سيّدة حسناء منها أسكرتني برائحة زكيّة كالسحر المخدّر، استقبلني باسمًا، وأشار إليّ بالجلوس فجلست على مقعد جلديّ فاخر، وأحسّت قدماي رغم غلظ النعل بغزارة السجّادة ونفاستها. وكان الرجل يرتدي البدلة العصريّة ويدخّن السيجار، ويجلس جلسة المعتدّ بنفسه وماله، وينظر إليّ بترحاب حارّ لم أشكّ معه في أنّه يظنّني زبونًا، فركبني الحرج والضيق لتطفّلي على وقته الثمين، فقال يستحثّني على الكلام:

ـ أهلًا وسهلًا؟

فقلت لأضع حدًّا لموقفي الحرج:

ـ أنا ابن صديقك القديم الشيخ علي التطاوي!

فمرّت بنظرته رنوة فتور، لا الفتور كلّه لأنّه لم يفقد الأمل كلّه وقال:

ـ الله يرحمه كان رجلًا طيّبًا...

فتشجّعت على البقاء بقوّة الألم الذي ساقني إلى المجيء وقلت:

ـ كان حدّثني عن وليّ طيّب يدعى زعبلاوي قابله عند فضيلتكم، إنّي يا سيّدي أريده إن كان ما يزال على قيد الحياة.

استقرّ الفتور في العينين، ولم أكن لأدهش لو طردني أنا وذكرى أبي معًا، وقال بلهجة مَن صمّم على إنهاء الحديث:

ـ كان ذلك في الزمان الأوّل، وما أكاد أذكره اليوم...

فقمت لأطمئنه إلى اعتزامي الذهاب وأنا أسأله:

ـ أكان وليًّا حقًّا؟

ـ كنّا نراه معجزة....

فسألته وأنا أتحرّك لأزيد من طمأنينته:

ـ وأين يمكن أن أجده اليوم؟

ـ مدى علمي أنّه كان يقيم بربع البرجاوي بالأزهر...

وأكبّ على أوراق مكتبه بحركة قاطعة بأنّه لن يفتح فاه مرّة أخرى فحنيت رأسي شكرًا واعتذرت عن إزعاجه مرّات، وغادرت مكتبه وأنا لا أسمع للدنيا صوتًا من وشّ الخجل في رأسي.

وذهبت إلى ربع البرجاوي الذي يقوم في حيّ مأهول لحدّ الاكتظاظ، فوجدته تآكل من القِدم حتّى لم يبق منه إلّا واجهة أثريّة وحَوْش استعمل رغم الحراسة الاسميّة مزبلة. وكان له مدخل مسقوف اتّخذه رجل

محلًا لبيع الكتب القديمة من دينيّة وصوفيّة، وكان قميئًا ضئيلًا كأنّه مقدّمة رجل فلمّا سألته عن زعبلاوي نظر إليّ بعينين ملتهبتين ضيّقتين وقال باستغراب:

ـ زعبلاوي! يا سلام! والله زمان، كان يقيم في هذا الربع حقًّا عندما كان صالحًا للإقامة، وكان يجلس عندي كثيرًا فيحدّثني عن الأيّام الخالية، وأتبرّك بنفحاته، ولكن أين زعبلاوي اليوم؟!

وهزّ كتفيه في أسى، وسرعان ما تركني لزبون قادم. ورحت أسأل أصحاب الدكاكين المنتشرة في الحيّ، فاتّضح أنّ عددًا وافرًا منهم لم يسمع عنه، وآخرين تحسّروا على أيّامه الحلوة وإن جهلوا مكانه، والبعض سخر منه بلا حيطة ونعتوه بالدجل ونصحوني أن أعرض نفسي على دكتور كأنّي لم أفعل. ولم أجد بدًّا من العودة إلى بيتي يائسًا.

ومضت الأيّام مثل عكارة الجوّ، واشتدّ بي الألم، فأيقنت بأنّني لن أصبر على هذه الحال طويلًا، وعدت أتساءل عن زعبلاوي وأتعلّق بالآمال التي بعثها اسمه القديم في نفسي. عند ذاك خطرت لي فكرة وهي أن أقصد شيخ حارة الحيّ، والحقّ أنّي عجبت كيف لم أفكّر في هذا من أوّل الأمر. وكان مكتبه عبارة عن دكّان صغير غير أنّ به مكتبًا وتليفونًا. وكان يجلس إلى مكتبه مرتديًا جاكتة فوق جلباب مقلّم، ولم يقطع دخولي حديثه مع رجل يجلس إلى جانبه، فوقفت أنتظر حتّى انصرف الرجل، ثمّ نظر إليّ بدوره، فقلت أفضّ مغاليقه بالقواعد المتّبعة، فسرعان ما جرت البشاشة في وجهه، ودعاني إلى الجلوس وهو يسألني عن مطلبي، فقلت:

ـ إنّني في حاجة إلى الشيخ زعبلاوي...

فرمقني بدهشة كما رمقني السابقون من قبل وابتسم عن أسنان مذهّبة وهو يقول:

ـ على أيّ حال فهو حيّ لم يمت، ولكن لا مسكن له وهذا هو الخازوق، وربّما صادفته وأنت خارج من هنا على غير ميعاد، وربّما قضيت الأيّام والشهور بحثًا عنه دون جدوى...

ـ حتّى أنت لا تستطيع أن تجده!

ـ حتّى أنا! إنّه رجل يحيّر العقل، ولكن احمدْ ربّنا على أنّه ما زال حيًّا...

ونظر إليّ مليًّا ثمّ تمتم:

ـ الظاهر أنّ حالتك شديدة...

ـ جدًّا...

ـ كان الله في عونك، لكن لم لا تستعين بالعقل!

وبسط ورقة على المكتب ومضى يخطّط عليها بسرعة ومهارة غير متوقّعتين حتّى رسم للحيّ خريطة شاملة أحياءه وحواريه وأزقّته وميادينه، نظر إليها بإعجاب ثمّ قال:

ـ هذه مساكن، وهنا حيّ العطّارين، وحيّ النحّاسين، خان الخليلي، القسم والمطافئ. الرسم خير مرشد، وخذ بالك من المقاهي وحلقات الذكر والمساجد والزوايا والباب الأخضر فقد يندسّ بين الشحّاذين فلا يميَّز منهم، أنا في الواقع لم أره من سنوات، وشغلتني عنه شواغل الدنيا، وقد أعادني سؤالك عنه إلى أجمل عهود الشباب...

وجعلت أنظر في الخريطة بحيرة، ودقّ جرس التليفون فرفع السمّاعة وهو يقول لي بأريحيّة:

ـ خذها، ونحن في خدمتك...

غادرته وأنا أطوي الخريطة، ورحت أقطع الحيّ، من ميدان إلى شارع إلى عطفة، وأنا أسأل مَن آنس فيه إلمامًا بالمكان، حتّى قال لي كوّاء بلديّ:

ـ اذهب إلى حسنين الخطّاط بأمّ الغلام فإنّه كان صديقه...

وذهبت إلى أمّ الغلام. وجدت عمّ حسنين يعمل في دكّان ضيّق عميق الطول، مليء باللوحات وحقائق الألوان، وتنبعث من أركانه رائحة غريبة هي خليط من رائحة الغراء والعطر. وكان عمّ حسنين متربّعًا فوق فروة أمام لوحة مسنودة إلى الجدار قد نقش في وسطها باللون الفضّيّ اسم الله. وكان مكبًّا على زخرفة الحروف بعناية تستحقّ الاحترام فوقفت وراءه متحرّجًا من إزعاجه أو قطع فيض الإلهام عن يده المنسجمة في ملكوتها، وطال انتظاري وإشفاقي، وإذا به يتساءل في لطف بلديّ:

ـ نعم...

أدركت أنّه كان على علم بوجودي فعرّفته بنفسي

وقلت:

ـ قيل لي إنّ الشيخ زعبلاوي صديقك وأنا أبحث عنه...

كفّت يده عن العمل وتفحّصني متعجّبًا ثمّ قال بنبرة تنهّديّة:

ـ زعبلاوي! يا سبحان الله!

فتساءلت بلهفة:

ـ هو صديقك، أليس كذلك؟

ـ كان يا ما كان، الرجل اللغز! يقبل عليك حتّى يظنّوه قريبك، ويختفي فكأنّه ما كان، لكن لا لوم على الأولياء...

انطفأ الأمل كما ينطفئ المصباح بغتة لانقطاع التيّار، وقال الرجل:

ـ لازمني عهدًا حتّى خلت أنّني أرسمه في ما أرسم ولكن أين هو اليوم؟

ـ لعلّه ما زال حيًّا...

ـ هو حيّ بلا ريب، وكان له ذوق لا يعلى عليه، وبفضله صنعت أجمل لوحاتي...

فقلت بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل:

ـ يعلم الله أنّني في مسيس الحاجة إليه وأنت أدرى بالمتاعب التي يُقصد من أجلها!

ثمّ وهو يبتسم مشرقًا:

ـ نعم... نعم، شفاك الله، والحقّ أنّه رجل كما يقال عنه وأكثر...

واقتلعت قدميّ وأنا أصافحه ثمّ ذهبت. ومضيت أشرّق في الحيّ وأغرّب سائلًا عنه مَن آنس فيه طول عمر أو خبرة حتّى أخبرني بيّاع ترمس بأنّه قابله في بيت الشيخ جاد الملحّن المعروف منذ زمن وجيز. وذهبت إلى بيت الموسيقار بالتمبكشيّة، ووجدته في حجرة بلديّة، أنيقة، تتردّد في جنباتها أنفاس التاريخ، وكان يجلس على كنبة وعوده الشهير منطرح إلى جانبه منطويًا على أجمل أنغام عصرنا، على حين ورد من الداخل صوت هاون ولغط صغار. وحالما سلّمت وقدّمت نفسي أشعرني بحلاوة استقباله وانطلاقه على سجيّته بأنّني في بيتي، ولم يسألني عمّا جاء بي سواء بالكلام أو الإشارة ولم أشعر بأنّه يداري السؤال أو يضمره حتّى عجبت للطفه وإنسانيّته، وقلت مستبشرًا خيرًا:

ـ يا شيخ جاد، أنا من عشّاق فنّك، طالما طربت له في أفواه المطربات والمطربين...

فقال باسمًا:

ـ تُشكر...

فقلت في حياء:

ـ لا مؤاخذة على إزعاجك، قيل لي إنّ زعبلاوي صديقك وأنا في أشدّ الحاجة إليه...

فقطّب في اهتمام وقال:

ـ زعبلاوي! أنت في حاجة إليه؟ الله معك، ترى أين أنت يا زعبلاوي؟

فتساءلت بلهفة:

ـ ألا يزورك؟

ـ وفي وجهه جمال لا يمكن أن يُنسى.

ـ ولكن أين هو؟!

ـ زارني منذ مدّة، قد يحضر الآن، وقد لا أراه حتّى الموت.

فتنهّدت بصوت مسموع وتساءلت:

ـ لِمَ كان كذلك؟

فتناول العود وهو يضحك وقال:

ـ هكذا الأولياء وإلّا ما كانوا أولياء!

ـ ويتعذّب عذابي مَن يريدهم؟

ـ هذا العذاب من ضمن العلاج!

وأمسك بالريشة وراح يعابث الأوتار فيُنطقها نغمًا عذبًا، فتابعته شارد اللبّ ثمّ قلت وكأنّني أخاطب نفسي:

ـ إذن ضاعت زيارتي سدًى!

فابتسم وهو يلصق خدّه بجنب العود، وقال:

ـ الله يسامحك، أيقال هذا عن زيارة عرّفتني بك وعرّفتك بي!

فخجلت أيّما خجل وقلت معتذرًا:

ـ لا تؤاخذني، أخرجني شعور الخيبة عن حدود الأدب...

ـ لا تستسلم للخيبة، هذا الرجل العجيب يُتعب كلّ من يريده، كان أمره سهلًا في الزمان القديم عندما كان يقيم في مكان معروف، اليوم الدنيا تغيّرت، وبعد

أن كان يتمتّع بمكانة لا يحظى بها الحكّام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل، فلم يعد الوصول إليه بالشيء اليسير، ولٰكن اصبر وثق بأنّك ستصل...

ورفع رأسه عن العود، وانتظم العزف حتّى صار مقدّمة موسيقيّة واضحة، وإذا به يغنّي:

أدر ذكر من أهوى ولو بملامي

فإنّ أحاديث الحبيب مدامي

وعلى جمال اللحن والغناء تابعته بقلب غافل مكدود ولـمّا فرغ من الأداء قال:

- لحّنت هٰذه القصيدة في ليلة واحدة، وأذكر أنّها كانت ليلة عيد الفطر، وكان هو ضيفي طوالها، وهو الذي اختار لي القصيدة، وكان يجلس حينًا بمجلسك هٰذا، وحينًا يلاعب أولادي كأنّه أحدهم، وكلّما غلبني الفتور أو استعصى عليّ الإلهام لكمني مداعبًا في صدري وضاحكني فيجيش قلبي بالنغم وأواصل العمل حتّى اكتمل لي أجمل لحن صنعته...

فتساءلت في دهش:

- أله في الطرب؟

- هو الطرب نفسه، وصوته عند الكلام جميل جدًّا، وما إن تسمعه حتّى ترغب في الغناء، وتهيج أريحيّة الخلق في صدرك...

- وكيف يشفي من المتاعب التي يعجز عنها البشر؟

- هٰذا سرّه، ولعلّك تظفر به عند اللقاء...

لٰكن متى يجيء اللقاء؟! ولُذْنا بالصمت فعادت ضوضاء الصغار تملأ الحجرة. ومضى الشيخ في الغناء مرّة أخرى، وجعل يردّد: ولّى ذكرها، في ألوان من طبقات النغم ومحاسنه حتّى رقصت الجدران من سكرة الطرب، وأعربت عن إعجابي بكلّ جوارحي فشكرني بابتسامته العذبة، ثمّ قمت مستأذنًا فأوصلني إلى الباب الخارجيّ، وعندما صافحته قال لي:

- سمعت أنّه يتردّد هٰذه الأيّام على الحاجّ ونس الدمنهوري، ألا تعرفه؟

فهززت رأسي بالنفي، وانتفاضة أمل جديد تدبّ في قلبي، فقال:

- هو من الوارثين، ويزور القاهرة من حين لآخر فينزل في فندق ما، ولٰكنّه يسهر كلّ ليلة في حانة النجمة بشارع الألفي...

وانتظرت الليل ثمّ ذهبت إلى حانة النجمة. سألت نادلًا عن الحاجّ ونس فأشار إلى ركن شبه منعزل لموقعه وراء عامود مربّع ضخم تقوم بأضلعه المرايا في كلّ جانب، وهنالك رأيت رجلًا يجلس إلى مائدة وحيدًا، وأمامه فوق المائدة زجاجة فارغة إلى ثلثها، وأخرى فارغة تمامًا وعدا ذٰلك لا يوجد شيء من مزّة أو طعام فأيقنت أنّني حيال سكّير خطير. وكان يرتدي جلبابًا فضفاضًا حريريًّا وعمامة مقلوظة، ويمدّ ساقيه حتّى أصل العمود ناظرًا إلى المرآة في ارتياح وانسجام وقد تورّدت صفحة وجهه المستدير الوسيم - رغم دنوّه من الشيخوخة - بحمرة الخمر. اقتربت منه في خفّة حتّى توقّفت على مبعدة ذراعين من مجلسه ولٰكنّه لم يلتفت نحوي ولم يبدُ عليه أنّه شعر بوجودي، فقلت برقّة متودّدة:

- مساء الخير يا سيّد ونس...

فالتفت نحوي بشدّة كأنّما أيقظه صوتي من سبات، وحدجني بنظرة إنكار فقدّمت إليه شخصي معتذرًا عن إزعاجه وهممت بتوضيح السبب الذي جاء بي إليه لٰكنّه قاطعني بلهجة شبه آمرة وإن لم تخل من لطف عجيب:

- تفضّل بالجلوس أوّلًا، واسكر ثانيًا!

ففتحت فمي لأعتذر لٰكنّه وضع أصبعيه في أذنيه وقال:

- ولا كلمة حتّى تفعل ما قلت...

أدركت أنّني حيال سكران ذي نزوات فقلت أسايره حتّى منتصف الطريق فجلست وابتسمت وقلت:

- أرجو أن تسمح لي بسؤال واحد...

لم يرفع أصبعيه من أذنيه، وأشار إلى الزجاجة وقال:

- في مجلس كمجلسي هٰذا لا أسمح بأن يتّصل بيني وبين أحد كلام إن لم يكن سكران مثلي، وإلّا خلا المجلس من اللياقة وتعذّر فيه التفاهم...

أفهمته بالإشارة أنّني لا أشرب فقال بقلّة اكتراث:

- هٰذا شأنك، وهٰذا شرْطي!

وملأ لي كوبه، فتناولته في رضوخ وشربته، وما إن

استقرّ في جوفي حتّى اشتعل، فصبرت عليه حتّى ألفت عنفه وقلت:

ـ إنّه لشديد، وأظنّ آن لي أن أسألك عن...

لٰكنّه أعاد أصبعيه إلى أذنيه وقال:

ـ لن أصغي لك حتّى تسكر...

وملأ الثاني فنظرت متردّدًا، ثمّ تغلّبت على احتجاجي الباطنيّ وشربته دفعة واحدة، وما إن استقرّ في موضعه حتّى فقدت إرادتي وعلى أثر الثالث ضاعت ذاكرتي، وعقب الرابع اختفى المستقبل، ودار بي كلّ شيء، ونسيت ما جئت من أجله، أقبل عليّ الرجل مصغيًا ولٰكنّي رأيته محض مساحات لونيّة لا معنى لها، وهٰكذا كلّ شيء بدا. ومرّ وقت لم أدره حتّى مال رأسي إلى مسند الكرسي وغبت في نوم عميق، وفي أثناء نومي حلمت حلمًا جميلًا لم أحلم بمثله من قبل. حلمت بأنّني في حديقة لا حدود لها، تنتشر في جنباتها الأشجار بوفرة سخيّة فلا ترى السماء إلّا كالكواكب خلل أغصانها المتعانقة ويكتنفها جوّ كالغروب أو كالغيم. وكنت مستلقيًا فوق هضبة من الياسمين المتساقط كالرذاذ، ورشاش نافورة صافٍ ينهلّ على رأسي وجبيني دون انقطاع. وكنت في غاية من الارتياح والطرب والهناء وجوقة من التغريد والهديل والزقزقة تعزف في أذنيّ، وثمّة توافُق عجيب بيني وبين نفسي، وبيننا وبين الدنيا فكلّ شيء حيث ينبغي أن يكون بلا تنافر أو إساءة أو شذوذ، وليس في الدنيا كلّها داعٍ واحد للكلام أو الحركة، ونشوة طرب يضجّ بها الكون. ولم يدم ذٰلك إلّا لفترة قصيرة فتحت بعدها عينيّ. أخذ الوعي يلطمني كقبضة شرطيّ، ورأيت ونس الدمنهوري ينظر إليّ بإشفاق، ولم يكن في الحانة إلّا بضعة أشخاص كالنيام. وقال الرجل:

ـ نمت نومًا عميقًا، لا شكّ أنّك جائع نوم...

فأسندت رأسي الثقيل إلى راحتي ولٰكنّني رددتها في دهشة ونظرت فيها فرأيتها تلمع بقطرات ماء، وقلت محتجًا:

ـ رأسي مبتلّ.

فقال بهدوء:

ـ نعم، حاول صاحبي أن ينبّهك...

ـ أرآني أحد على هٰذه الحال؟!

ـ لا تهتمّ، إنّه رجل طيّب، ألم تسمع عن الشيخ زعبلاوي؟

فانتفضت قائمًا وأنا أهتف:

ـ زعبلاوي!

فقال بدهشة:

ـ نعم، مالك؟!

ـ أين هو؟

ـ لا أدري أين هو الآن، كان هنا ثمّ ذهب...

هممت بالجري ولٰكنّ إعيائي كان فوق ما قدّرت فما لبثت أن تهاويت فوق الكرسيّ، وصحت بيأس:

ـ ما جئتك إلّا لألقاه، ساعدني على اللحاق به أو أرسل أحدًا في طلبه...

فدعا الرجل بائع جمبري وأمره بالبحث عن الشيخ وإحضاره، ثمّ التفت إليّ قائلًا:

ـ لم أكن أدري أنّك مصاب، آسف جدًّا...

فقلت بغيظ:

ـ لم تدعني أتكلّم...

ـ يا خسارة! كان يجلس على هٰذا الكرسيّ إلى جانبك، وكان يتغزّل طيلة الوقت بعقد من الياسمين حول عنقه أهداه إليه أحد المحبّين، ثمّ عطف عليك فراح يبلّل رأسك بالماء لعلّك تفيق.

فسألته وعيناي لا تفارقان الباب الذي ذهب منه بائع الجنبري:

ـ هل يقابلك هنا كلّ ليلة؟

ـ كان معي الليلة، وليلة أمس وأوّل أمس، ولم أكن رأيته منذ شهر!

فقلت وأنا أتنهّد:

ـ لعلّه يأتي غدًا...

ـ لعلّه...

ـ أنا على استعداد لأعطيه ما يريد من نقود...

فقال ونس بإشفاق:

ـ العجيب أنّه لا تغريه المغريات ولٰكنّه سيشفيك إذا قابلته...

ـ بلا مقابل؟

ـ بمجرّد أن يشعر بأنّك تحبّه...

وعاد بائع الجنبري بالخيبة، وكنت قد استعدت بعض نشاطي فغادرت الحانة وأنا أترنّح. وعند كلّ منعطف ناديت «يا زعبلاوي» لعلّ وعسى، ولكن لم يفدني النداء، ولفت إليّ غلمان السبيل فتطلّعوا نحوي بأعين هازئة حتّى لذت بأوّل عربة صادفتني...

وساهرت ونس الدمنهوري الليلة التالية حتّى الفجر ولكنّ الشيخ لم يحضر. وأخبرني ونس بأنّه سيسافر إلى البلد وبأنّه لن يعود إلى القاهرة حتّى يبيع القطن. وقلت عليّ أن أنتظر وأن أروّض نفسي على الصبر، وحسبي أنّي تأكّدت من وجود زعبلاوي، بل ومن عطفه عليّ ممّا يبشّر باستعداده لمداواتي إذا تمّ اللقاء. ولكنّني كنت أضيق أحيانًا بطول الانتظار فيساورني اليأس، وأحاول إقناع نفسي بصرف النظر نهائيًّا عن التفكير فيه. كم من متعبين في هٰذه الحياة لا يعرفونه أو يعتبرونه خرافة من الخرافات فلِمَ أعذّب النفس به على هٰذا النحو؟

ولكن ما إن تلحّ عليّ الآلام حتّى أعود إلى التفكير فيه وأنا أتساءل متى أفوز باللقاء. ولم يثنني عن موقفي انقطاع أخبار ونس عنّي وما قيل عن سفره إلى الخارج للإقامة، فالحقّ أنّني اقتنعت تمامًا بأنّ عليّ أن أجد زعبلاوي...

نعم، عليّ أن أجد زعبلاوي...

الجبّار

أخيرًا تراءت القرية، والليل يهبط من ذروة الأفق، والقوم عائدون وراء البهائم ينوءون بالإعياء، والخلاء المدثّر بالمغيب يترامى إلى ما لا نهاية. تقدّم أبو الخير بقدمينِ متورّمتينِ نحو القرية. من شدّة الخوف تجمّد قلبه فلم يعد يخفق بالخوف. ومن شدّة الألم لم يعد يشعر بالألم. ولمحه العائدون فاتّسعت الأعين دهشة وفغرت الأفواه، وراحوا يتهامسون ويشيرون نحوه. وغضّ أصدقاؤه بينهم الأبصار، وجعل يشقّ طريقه بعيدًا عنهم ماضيًا نحو مصيره، وتابعته الأعين وهو يبتعد رويدًا رويدًا حتّى لم يبق منه إلّا ما يبقى في الخاطر من حلم، وهزّوا الرءوس وقالوا: ضاع الرجل... انتهى أبو الخير...

* * *

وقعت مأساة أبو الخير في ما يشبه المصادفة. غلبه النعاس ذات ليلة في مخزن الغلال بدوار سيّده الجبّار. واستيقظ على حركة لكنّه للوهلة الأولى لم يشعر إلّا بأنّه شيء غارق في الظلام، أيّ مكان؟ أيّ زمان؟ لم يدرِ شيئًا في الوهلة الأولى، ثمّ ردّته رائحة الغلال إلى وجوده. وانتبه إلى الحركة التي أيقظته فمدّ نحوها بصره في الظلام، وإذا به يسمع صوتًا يقول في ضراعة ورعب:

ـ لا... لا... يا سيّدي...

هٰذا الصوت يعرفه. صوت زنّوبة بنت عليوة، مذعورة كأنّ وحشًا يأكلها، توثّب أبو الخير ليعرب عن شهامته بعمل ما لكنّ صوتًا غليظًا عميقًا سبقه هاتفًا في نبرة محمومة:

ـ اسكتي...

تسمّر في مكانه وخارت قواه، هٰذا الصوت يعرفه أيضًا. صوت سيّده، عبد الجليل، الجبّار، السلطة، القانون، الحياة والموت. نسي زنّوبة وانحصر تفكيره في وجوده غير المبرّر في هٰذا المكان، في المأزق الذي خلقته غفوة خائنة، وبِمَ يجيب لو استجوب! وفي لحظة اقتنع بأنّ الورطة ورطته هو لا ورطة زنّوبة وحدها، وبأنّ الذنب ذنبه هو لا ذنب الجبّار الذي لا يسأل عمّا يفعل، وظلّ يحملق في الظلام حتّى تراءى له كائن ضخم كالشبح يضطرب بالحركة، لعلّه الجبّار مستوليًا على البنت كالفرخ بين مخالب الحدأة. واستمرّت الضراعة الباكية تلطمها الزجرة المحمومة كما تلطم الزوبعة ورقة الشجر. وتولّاه فزع وتقزّز ويأس حتّى أحبّ لو يستجيب الله مرّة أخرى إلى دعاء نوح، وندّت عن الأرض خشخشة مكتومة نمّت عن تحرّكات الأقدام المتوتّرة ولم تتعدّ دائرة الشرك الرهيب، وأنين متوجّع أعقبته همهمة كلفحة نار. وخيّل إليه أنّ الظلام يعوي تحت وطأة ثقيلة، وأنّ عروقه ستنفجر، وتوثّب ليصرخ لأنّه لم يعد يتحمّل الألم غير أنّ صرخة من

الجبّار سبقته، صرخة ألم مباغت، بدأت حادّة ثمّ غلظت وانتهت كالزئير، ثمّ صاح:

ـ يا مجرمة...

وسمع وقع لطمة شديدة تُبعت بأنين مستسلم يائس وسقوط جسم، جسم رقيق خفيف الوزن. وقال الجبّار بحنق ملتهب:

ـ يا مجرمة!.. خذي...

وانهالت مطرقة القدم الغليظة على المتأوّهة، خذي... خذي... خذي، وتواصل الأنين آخذًا في الهبوط حتّى اختفى، وتلته زفرات هامسة، أمّا الغضب فاشتعل جنونه إلى ما لا نهاية، خذي... خذي... خذي، وصاح أبو الخير بلا وعي:

ـ اتّقِ الله...

فتلقّى صوتًا كالقذيفة متسائلًا:

ـ مَن؟...

فاندفع أبو الخير نحو الباب وشدّه إليه. انفتح الباب وتدفّق ضوء القمر، فرق أبو الخير منه، وإذا بالجبّار يصيح:

ـ عرفتك، أبو الخير، قف...

جرى كالرصاصة بقوّة التقزّز والفزع واليأس، والصوت في أعقابه:

ـ ولد يا أبو الخير... يا مجرم... قف يا مجرم...

وتردّد صوت السيّد فهرّت نحوه الأقدام، وأرهفت الأسماع، وما لبثت أن استيقظت القرية، وجعل أبو الخير يجري شوطًا ويهرول آخر حتّى انتهى إلى كوخ صديقه حارس حقل بطّيخ بزمام العمارى، ارتمى إلى جانبه وهو يلهث من الجهد والكلال فأقبل الآخر عليه مرحّبًا ملاطفًا ومواسيًا. قدّم له كوز ماء ليشرب ويبلّل وجهه، وراح يصغي إلى مأساته في جوف الليل. وتنهّد أبو الخير أخيرًا وتساءل:

ـ أتكلّم في النقطة؟

فهزّ صاحبه رأسه محذّرًا وقال:

ـ يقتلونك ولو في المحكمة...

فتساءل في حيرة:

ـ والعمل؟

ـ اختفِ.

ـ طول العمر؟

فرفع الحارس رأسه إلى السماء دون كلام، فقال أبو الخير:

ـ الوليّة والبنت في القرية تحت رحمة الجبّار بلا معين...

ـ فكّر في حياتك.

فتنهّد في كرب شديد وتساءل:

ـ أين القانون؟

فضحك الحارس ضحكة جافّة وقال:

ـ تجده نائمًا في بطن بطّيخة...

في اليوم التالي جاءه الحارس بأخبار. قال له إنّه ذاع في القرية أنّ أبو الخير اغتصب البنت وقتلها ثمّ هرب. شهد بهذا السيّد نفسه والجميع يصدّقونه دون مناقشة. وأهل الضحيّة في حريق من الحزن، كذلك الأهل والجيران. ورجال كثيرون توعّدوا بالانتقام، والحكومة تُجري التحقيق وتسمع أقوال الشاهد الوحيد. وحقّ الخزي على امرأته وابنته وأخرسها الحزن.

ـ جريمتي أنّني رأيت جريمة الآخر.

ـ لِمَ نمت في المخزن؟

ـ أمر ربّنا.

فرمقه بأسف قائلًا:

ـ اختفِ...

ومرّ بالحارس رجال من رجال السيّد يبحثون عن أبو الخير، ومرّ به رجال من أهل البنت الضحيّة. سمع أبو الخير من مخبئه أصوات المجدّين في البحث عنه ولمح وجوههم الكالحة ونذر الموت المتطاير من محاجرهم...

ـ سأهرب.

ـ نعم، ربّنا معك...

ـ ليس معي ملّيم...

فقال وهو يداري خجله بغضّ البصر:

ـ ولا أنا...

وانطلق أبو الخير عند جثوم الظلام بلا هدف ولا معين. لم يكن جاوز طيلة حياته السوق بحال ولا يعرف عن الدنيا شيئًا. وتجنّب القرى القريبة لعلمه

بأنّها في متناول الجبّار، إلّا أنّ الحكومة نفسها تجدّ الآن في أثره. ولا سبيل إلى تبرئة نفسه، وسيكون دائمًا عرضة في هٰذه البقاع وفي أيّ لحظة إلى رصاصة تنطلق فتقضي عليه. وظلام هٰذا الليل لن يمتدّ إلى الأبد، سرعان ما ينقشع عن ضوء النهار، ويبدو هو للأعين كعقرب تستبق إليها الهراوات والنعال. ومَن لامرأته وابنته؟ مَن لهما في جوّ ينضح بالمقت والرغبة في الانتقام؟ وجدّ في السير على غير هدى. ووجد الأشياء تعلن في حذر عن ذواتها فوضحت نوعًا ما أشجار الصفصاف والنخيل، والزرع المنتشر تتخلّله المماشي، وترعة ابتسم ماؤها وتلألأت أطراف من موجاته، فخرج من ذهوله متعجّبًا، والتفت لخاطر برقَ في رأسه المكدود نحو الأفق إلى يساره فرأى القمر صاعدًا فوق الأرض بأذرع متجلّيًا كأكبر ما يرى وأسهُم الضياء تنطلق منه وانية. ضايقه على غير عادة القمر، وجعل يلتفت إلى الوراء كلّما أوغل في السير. وترامى نباح من أطراف الصمت الثقيل، ومرّة تعالى عواء فارتعدت فرائصه. أين منه مصر الكبيرة ليذوب في زحمتها ويجد مخبأ ولقمة؟ كم يلزم من الوقت للقدم المتورّمة لتقطع ما يقطعه القطار السريع في أربع ساعات؟ وانطلقت زعقة غفير كصفير القاطرة فتوقّف لها قلبه. لعلّه يعترض سبيله متسائلًا عن هويّته ومذهبه. وخاف أن يتقدّم خطوة. ومال نحو شجرة جمّيز فلبد عند أصلها كأنّه نتوء في سحائها. لن يتعرّض له غفير في ضوء النهار ولٰكن مَن للمرأة والبنت؟! يمكن أن يبلغ بعد العذاب مصر ولٰكن مَن يحمي المرأة والبنت؟ وكيف تطيب الحياة لمن يعيش مطاردًا إلى الأبد محروق القلب على امرأته وابنته؟ ولبث يحملق في الفضاء، أفكاره تتلاطم، والساعات تمرّ، حتّى سرقه النوم، واستيقظ وهو يحلم بأنّه يتهاوى من قمّة جبل. فتح عينيه فرأى الأقدام الغليظة تضرب من حوله حلقة محكمة.

وقف فزعًا وهو يلمح الرجال يرمونه بنظرات كالأحجار المدبّبة وجيادهم وراء ظهورهم تصهل. وهتف من الأعماق:

ـ أنا في عرض النبيّ!

فلطمه أحدهم لطمة أردته على الأرض وصاح به:

ـ تهرب يا بن التيس!

فهتف مرّة أخرى:

ـ أنا في عرض النبيّ!

فغرس الرجل قدمه في بطنه وهتف:

ـ تغتصب البنت وتقتلها؟

ـ أنا. . .

أوشك أن يقول أنا بريء ولٰكنّه تذكّر لحسن حظّه أنّه يخاطب رجال الجبّار فأمسك، ورمق الرجل بنظرة ذليلة خرساء. فقال الرجل:

ـ ارجع واعترف. . .

قال بنبرة باكية:

ـ يشنقونني!

فركله بقسوة وقال:

ـ السيّد لن يتركك لحبل المشنقة!

ـ يسجنونني!

ركله ركلة أشدّ من الأولى وقال:

ـ ويعيش أهلك في أمان!

تأوّه يائسًا ولم ينبس فزمجرت الحناجر تتعجّله، فقال بصوت مهموس:

ـ سأرجع. . . !

ورجع يقطع الطريق على قدميه وهم يتبعونه عن بعد.

وأخيرًا تراءت القرية. والليل يهبط من ذروة الأفق. والقوم عائدون وراء البهائم ينوءون بالإعياء. والخلاء المدثّر بالمغيب يترامى إلى ما لا نهاية. تقدّم أبو الخير بقدمين متورّمتين نحو القرية. من شدّة الخوف تجمّد قلبه فلم يعد يخفق بالخوف. ومن شدّة الألم لم يعد يشعر بالألم. ولمحه العائدون فاتّسعت الأعين دهشة وفغرت الأفواه. وراحوا يتهامسون ويشيرون نحوه. وغضّ أصدقاؤه بينهم الأبصار. وجعل يشقّ طريقه بعيدًا عنهم ماضيًا نحو مصيره. وتابعته الأعين وهو يبتعد رويدًا رويدًا حتّى لم يبقَ منه إلّا ما يبقى في الخاطر من حلم. وهزّوا الرءوس وقالوا: ضاع الرجل. . . انتهى أبو الخير. . .

كلمة في الليل

أخيرًا انزاح، وأصبحت إحالته على المعاش حقيقة واقعة. وانتشر الخبر في المراقبة مشيعًا الارتياح العميق في كلّ إدارة، وكان ثمّة تهامُس كالأنين بأنّ في النيّة مدّ خدمته عامينِ جديدينِ، وبسبب ذٰلك نجح سكرتيره الخاصّ في جمع التبرّعات لإقامة حفل تكريم له، ثمّ جاء الخبر اليقين كالشفاء بعد المرض. وتبادل الموظّفون التهاني بلا حرج، وفرح حتّى أتعسهم كادرًا، وحقّ لمحمّد الفلّ رئيس المحفوظات أن ينقر على مكتبه الكالح جذلًا ويقول:

ـ ألم يكفنا أنّنا تحمّلناه أربعين عامًا؟! اللّٰهمّ إنّ لنا الجنّة بغير حساب. . . !

وروّح يسري طاهر كاتب القيودات العجوز بدفتر القيد على وجهه وقال:

ـ في ألف داهية يا حسين يا ضاوي. . .

ولم يكن في سيرة الرجل المُحال على المعاش شيء يخفى، ولٰكنّهم أقبلوا عليها كأنّما تؤرّخ لأوّل مرّة. وأبرز يسري طاهر القابع تحت رفوف المحفوظات المكدّسة رأسه ـ من بين صفّينِ عاليينِ من الملفّات فوق مكتبه ـ كرأس السلحفاة وقال:

ـ دخلنا الخدمة في يوم واحد، قرار تعيين واحد شمل يسري طاهر وحسين الضاوي وعليّ الكفراوي وعبد السلام زهدي ورغيب إسكندر (وكان يشير بأصبعه إلى الثلاثة الآخرين) ثمّ أعطاه ربّنا، أو أعطاه الشيطان وهو الأصدق حتّى تقلّد منصب المراقب العامّ في سرعة مذهلة، ماذا فعل لنا؟ كان يمرّ بنا وكأنّه لم يعرفنا، لم يمدّ لأحد يدًا، داسنا كأنّنا حشرات حتّى اكتظّت ملفّات خدمتنا بالعقوبات، ومضى يترقّى حتّى بلغ القمّة ونحن ما زلنا في القاع، عليه اللعنة!

فطوى رغيب إسكندر وكيل الصادر الجريدة التي كان يتفحّصها، وتزحزح إلى الوراء قليلًا ليتفادى من شعاع الشمس المنعكس على ضلفة النافذة الزجاجيّة، وضحك ضحكة مقتضبة كالنذير، ثمّ قال بنبرة ممطوطة تناسب الجرْي وراء الذكريات البعيدة:

ـ الله يسامحك يا حسين يا ضاوي، كنّا جميعًا من ساقطي الابتدائيّة، وعملنا معًا عمّالًا في المطبعة، وكان سعادته يجيء أحيانًا بالجلباب والقبقاب ألا تذكرون؟ ليس الفقر عيبًا طبعًا، ولٰكنّ العيب في الطرق الملتوية الشاذّة المهينة التي يرتفع بها بعض الناس بغير الحقّ، ويومًا انتقل عامل المطبعة كاتبًا بسكرتاريّة المدير! كيف ولِمَ؟ وبعد سنة عيّن سكرتيرًا للمدير، ثمّ مديرًا لمكتبه، ثمّ زوجًا لابنته، ثمّ انطلق كالصاروخ الذي نسمع عنه في هٰذه الأيّام! يا خبر أبيض يا حسين يا ضاوي! ولا الأحلام. . .

فقال محمّد الفلّ رئيس المحفوظات مكايدًا:

ـ كانت الفرصة أمامكم فلِمَ خبتم؟!

وتجاوبت ضحكاتهم الملتوية المائعة كأنّما تحكي فضيحة، وقال يسري طاهر:

ـ لا يتيسّر الوثوب الخاطف إلّا لمن حاز مؤهّلات خاصّة!

وتساءل محمّد جاد وهو كاتب حديث الخدمة:

ـ ألم يكن المراقب من حملة الليسانس؟

فقال رغيب إسكندر بتسليم:

ـ حصل على الابتدائيّة والكفاءة والبكالوريا وليسانس الحقوق من منازلهم!

فارتسمت الدهشة في وجه الشابّ حتّى قال عليّ الكفراوي مدير الدفترخانة:

ـ لا تدهش، كان قوّة نشاط عجيبة، لٰكنّه لم يرتفع بفضل شهاداته، بل إنّه لم يحصل عليها إلّا حين وجد نفسه في مركز لا يليق أن يستمرّ فيه دون شهادة عالية، كان قذرًا بكلّ معنى الكلمة، ولٰكنّه في القدرة على العمل فاق إبليس نفسه!

فعاد محمّد الفلّ يقول وهو يكوّر راحته على المسبحة:

ـ العمل؟ ذكّرتني يا سي عليّ، كانت حياته عملًا خالصًا، عمل. . . عمل. . . عمل، أيمكن أن يعدّ ذٰلك فضيلة؟! ما قيمة العمل إذا لم يختم يوم الإنسان بساعة صفاء ومحبّة تجعل للحياة طعمًا؟ هه؟ أمّا مديرنا العامّ ـ السابق والحمد لله ـ فلم يتمتّع بحياة على الإطلاق، دوسيهات. . . . ملفّات. . . مذكّرات. . .

تلك كانت حياته، حتّى يوم الجمعة كان يواصل العمل في بيته، وكان يعمل كلّ يوم حتّى ساعة متأخّرة من الليل، وحتّى في الأعياد والمواسم الرسميّة، ولم يقم في إجازة اعتياديّة في حياته كلّها مرّة واحدة، عمل... عمل... عمل... وكان هدفه من العمل خدمة وكيل الوزارة أو الوزير ليتقاضى في النهاية علاوة أو درجة، حياة كاملة مضت على وتيرة واحدة بين مسكنه في الحدائق وميدان لاظوغلي... أعوذ بالله....

فقال عبد السلام زهدي وكيل الوارد ووجهه يتقلّص اشمئزازًا:

ـ حتّى الطعام كان يتناوله شطائر في مكتبه بسرعة ولهوجة، وانقطعت أسبابه بأسرته أو كادت، حتّى بناته المتزوّجات لا يراهنّ إلّا خطفًا، وامرأته قضت حياتها في شبه فراغ مخيف، إنّه مجرم ولٰكنّه قضى على نفسه بالعقوبة التي يستحقّها، ذٰلك الرجل البغيض الذي لم يعرف من الدنيا إلّا الملفّات والمذكّرات والتعاليم الماليّة...

وهزّ رغيب إسكندر رأسه في أسّى وقال:

ـ لٰكنّه لم يكن عدوّ نفسه فقط، كان أيضًا عدوّ الآخرين...

وسرعان ما سال الامتعاض من زوايا الأعين، وقال محمّد الفلّ بنبرة مغيظة محنقة:

ـ لم أرَ موظّفًا كذٰلك الرجل استغلّ جهود جميع مرءوسيه ليفيد هو منها وحده، ويمنع الخير عن الآخرين كما لو كان سيؤخذ من لحمه ودمه!

فأردف عبد السلام زهدي قائلًا:

ـ وحتّى هٰذا شرّ سلبيّ، أمّا مقالبه وغدره ونميمته ووقيعته، كلّ أولٰئك فشرّ إجراميّ، كم أحرق قلوبًا هٰذا الرجل؟

ـ قل كم خرّب بيوتًا؟

ـ الله يرحمه فريد قناوي مات وهو يدعو عليه على فراش موته....

ـ وحسني غنيم مدير الحسابات السابق شلّ بسببه...

فقال يسري طاهر كاتب القيودات:

ـ لا حصر لضحاياه، لٰكنّه لم يفكّر إلّا في شيء واحد هو مصلحته، وترك الوزارة بلا صديق، أؤكّد لكم أنّه لا صديق له في الدنيا....

وحوالى الساعة السادسة من مساء الخميس وقف تاكسي أمام نادي «فينكس» فنزل منه حسين الضاوي. جاء ليشهد الحفل الذي يقام لتكريمه فوق حديقة السطح لمناسبة إحالته على المعاش.

كان قد قضى في المعاش يومًا واحدًا، يوم الأربعاء. يوم لن ينسى في الأيّام. أقلّ ما يقال فيه إنّه جعله يتساءل فيما يشبه الرعب هل حقًّا يستطيع أن يتحمّل يومًا آخر كذٰلك اليوم! وحيرته في مسكنه صباحًا تحت أعين امرأته المشفقة همّ آخر لا يُنسى. والراديو تسلية لم تخلق له، لا يكاد يعرفه، ولم يجد الفرصة ليتعرّف به. والكون كلّه بدا أنّه كفّ عن الحركة. وارتدى بدلته التي لم يعد لها معنى كأنّها بدلة عسكريّة لضابط متقاعد وغادر البيت غارقًا في الكرب، ومشى حتّى أدركه الإعياء سريعًا فاستقلّ عربة إلى وسط المدينة. أزعجه الازدحام كأنّما سدّ مسالك تنفّسه، وتريّث قليلًا أمام معارض المحالّ التجاريّة ولٰكنّ عينيه لم ترغبا في رؤية شيء ولم تكترثا لشيء، وخشي أن تقع عليه في تخبّطه عين أحد من معارفه، أي من الأعداء، فلاذ بأوّل مقهى صادفه، ومضى إلى آخر ركن فيه. لم يكن ارتاد مقهى منذ أربعين عامًا، مذ كان يجالس يسري طاهر وعلي الكفراوي ورغيب إسكندر وعبد السلام زهدي في مقهى الماليّة في الزمان الأوّل. وقال لنفسه إنّه يأوي أخيرًا إلى ملجإ الكسالى والعجزة. فعصرته حسرة.

وتصفّح جريدة ولٰكن ماذا يقرأ؟ لم يهمّه في الجريدة في ما مضى إلّا أخبار الوفيّات والدواوين وسرعان ما تململ في مجلسه فكرهه وكره مَن فيه، وطوّقته الوحدة كالقبر، وشعر في انفصاله عن الوزير والوكيل والمذكّرات بضياع أبديّ. غادر القهوة ليسير بلا هدف على ما في ذٰلك من جهد لم يعتده ووجد نفسه يمرّ بسينما فدخل. والسينما كذٰلك مكان لم يطرقه طوال الأربعين عامًا إلّا مرّات معدودات في مناسبات الاحتفالات التقليديّة بخطبة بناته، ولم يلبث فيها إلّا

نصف ساعة، ثمّ غادرها وهو يزفر مللًا ويأسًا، وعاد إلى البيت ذليلًا. وجد ابنتيه المقيمتين في القاهرة في زيارته فجالسهما طويلًا لأوّل مرّة منذ عهد لا يذكره، واستقرّ بنفسه أوّل إحساس بالارتياح في يومه الجهنّميّ. ثمّ وجد نفسه منفردًا بزوجته في جلسة مرهقة، والراديو يواصل ضجيجه لا يهمّه منه شيء ولا يهزّه شيء، وساءل نفسه ألا يعدّ امرأته في معسكر أعدائه المزدحم؟ هي لم ترضَ يومًا عن أسلوب حياته، واحتجّت المرّة بعد المرّة على إهمالها وفراغها وجفاف حياتها، ولولا أن وجدت ملاذًا في بيتي ابنتيها لحطّمت حياتها بيديها، ترى هل ارتاحت إلى هٰذه النهاية الخانقة؟... هل تحلم بشيء من الأنس تجده في وحشته المنكسرة؟! وحين استلقى في فراشه تساءل في رعب كيف يتحمّل يومًا آخر كهٰذا اليوم؟!

أمّا حفل التكريم هٰذا فهو آخر ما يربطه بالماضي، بالناس، وهو حدث له أهمّيّته. على الأقلّ لتعلم الوزارة خطورة الرجل الذي تقاعست عن مدّ خدمته، وليعلم أعداؤه من كبار الموظّفين وصغارهم أيّ رجل هو! سوف يقف أمامهم مهيبًا جبّارًا مستهينًا باسمًا ولن يدري أحد بالذلّ الذي كابده أمس. إنّهم يمقتونه مقتًا ولكنّ خطباءهم سيستبقون إلى الإقرار بمزاياه التي لا يمكن إنكارها، وسيردّ على تحيّاتهم بتحيّة بارعة يؤكّد بها تلك المزايا بطريقته الخاصّة، وسيجد فرصًا للتهكّم من كبار أعدائه بلباقة شيطانيّة. إنّها آخر حلبة ملاكمة يخوضها، ملاكمة بقفّازات حريريّة لكنّها مبطّنة بالحديد، وليخرجنّ منها ظافرًا. استقلّ المصعد إلى سطح النادي، ومضى نحو مدخل الحديقة في مشيته التقليديّة التي كانت تفسح له الطريق في أروقة الوزارة كأنّه قاطرة. وامتدّ بصره إلى الداخل فرأى الموائد على هيئة صدر وجناحين ولٰكنّ المقاعد كانت خالية. أو شبه خالية! وعلى وجه الدقّة لم يرَ إلّا السادة صلاح الدين كامل مدير المستخدمين، وإبراهيم شافعي مدير الحسابات، وأمين هنداوي مدير المخازن، وزيادة عبيد المراقب العامّ الذي حلّ محلّه، أربعة من أعدى أعدائه وبخاصّة الرجل الأخير. ثقلت قدماه وطاف به ما يشبه الدوار. حلوى وورود ولٰكن أين الآدميّون؟! كادت تخذله إرادته لولا الاستماتة في مدافعة الشماتة بأيّ ثمن. الأوغاد الجبناء قاطعوا الحفل. ترى أهي مكيدة مدبّرة؟ ومَن المدبِّر؟ لٰكنّه ابتسم لحسين الضاوي كما كان يبتسم في فترات الهزائم الوقتيّة التي تعقب استقالة وزير صديق، وتقدّم نحو أعدائه يصافحهم واحدًا واحدًا، ثمّ ألقى نظرة على المقاعد الخالية وقال وهو ما يزال يبتسم:

ـ فيكم الكفاية، تفضّلوا بالجلوس...

جلسوا. وجاء الخدم ليؤدّوا الخدمات المألوفة، وانتظر الرجل حتّى ابتعد الخدم ثمّ أطلق ضحكة ميتة وقال مداريًا حرجه:

ـ يبدو أنّ الختام ليس مسكًا ولا كالمسك...

فقال مدير المخازن في دهشة بلهاء:

ـ لعلّه وقع خطأ ليس في الحسبان...

فقال مدير الحسابات:

ـ ننتظر على أيّ حال...

ولٰكنّ حسين الضاوي قال باستهانة:

ـ الانتظار لن يجدي...

فقال صلاح الدين كامل وكان أقربهم جميعًا إلى روح المهادنة، قال وهو ينظر إلى المقاعد الخالية:

ـ لم أرَ في حياتي قلّة ذوق كهٰذه...

فحسا الضاوي حسوة شاي باللبن ثمّ قال والغضب يشتعل تحت قبضة إرادته:

ـ لا أدري شيئًا عمّا وقع، ولا يهمّني كثيرًا أمره، وسأصارحكم برأيي كما عوّدتكم. هنالك طراز واحد من الرجال أحترمه، طراز الرجل القويّ، وهو غير المحبوب بطبيعة الحال، ولو كنت ممّن يلتمسون الحبّ ما أعجزني!

وعكست عينا زيادة عبيد المستديرتان الصغيرتان الحادّتان نظرة ساخرة، سرعان ما فجّرت الغضب الكامن في عروق الضاوي، فقال وهو يحدج خصمه في حنق:

ـ أنا لا يهمّني شيء، لم يوجد رأس لم ينحنِ لي طويلًا.

فتظاهر زيادة بالدهشة لغضب الرجل وقال ببرود كالموت:

ـ طول عمرك مناضل ملاكم ولٰكنّني لا أذكر أنّني رأيتك غاضبًا مرّة واحدة. . .

فقال الضاوي بصوت ملتهب:

ـ لم يحدث أن وجدت أمامي من يستحقّ أن يثير غضبي!

فتساءل صلاح الدين كامل برجاء:

ـ ألا يمكن أن تمرّ الجلسة بسلام؟!

فأشار الضاوي إلى المقاعد الخالية وهتف بصوت متهدّج:

ـ مؤامرة دنيئة. . .

فرمقه زيادة عبيد بهدوء ساخر وقال ببروده المعتاد:

ـ أنت مخطئ، لم نعمل على منع أحد من الموظّفين من الحضور، وما جئنا إلّا لظنّنا بأنّهم موجودون في الحفل حتّى نحافظ أمامهم على كرامتنا كموظّفين كبار. . . .

ثمّ بهدوء مركّز كالسمّ:

ـ وإلّا ما كان هناك باعث واحد يدعونا إلى المجيء!

امتقع لون الضاوي وتحرّكت شفتاه حركة عصبيّة كحركة ذيل البرص المقطوع، وركّز في خصمه عينيه وعشرات الاحتمالات الجنونيّة تتلاطم في رأسه، لٰكنّه كظم الطوفان في اللحظة المناسبة، وقال بحقد وتحدٍّ:

ـ أنا غير نادم على أنّني عاملت كلّ شخص بما يستحقّه. . .

فتساءل زيادة بسخرية:

ـ ماذا جنيت من حياتك؟! الدرجة ها أنت تتركها في مكانها، الدرجة التي نبذتَ كلّ شيء في سبيلها، وعقابك الحقيقيّ أنّك ستجد أنّ الحياة قد نبذتك أيضًا. . .

وعاد صلاح الدين كامل يقول برجاء:

ـ سيسمعنا الخدم!

فوقف الضاوي وهو يقول دون مبالاة:

ـ لا يهمّني، المراقب العامّ لا يهمّني بتاتًا، كذٰلك الخدم، كلّ شيء يبدو حقيرًا لا يستحقّ الأسف. . . «السلام عليكم». . . .

ومضى دون أن يصافح أحدًا، وما لبث أن سافر إلى المنصورة ليمضي أيّامًا عند كبرى بناته. . . قضى أسبوعًا في صحّة أقرب إلى الاعتلال ولٰكنّه رجع إلى الحدائق على حال لا بأس بها. وخيّل إليه أنّه نسي حفل التكريم وآلام الهزيمة ولٰكنّ الحزن لم يفارقه، ولا الخوف من المستقبل، من الملل والفراغ. وكان أعجب ما وقع له أنّه اكتشف عند صلاة الصبح أنّه لم يكن يفقه معنى للفاتحة. حقًّا لم ينقطع يومًا عن الصلاة، ولٰكنّه كان يؤدّيها كما يحلق ذقنه وكما يعقد رباط عنقه بفكر مشغول بأمر أو بآخر، بمذكّرة يعدّها، ببند من التعاليم الماليّة، بمعركة يتوثّب لها، بأيّ شيء إلّا الصلاة.

ولأوّل مرّة وجد نفسه أمام هٰذه العبارة «باسم الله» بلا مشاغل يشغل قلبه عنها، فاكتشفها لأوّل مرّة في حياته، وشعر بدوار وغرابة، وتساءل كيف مرّ ذٰلك العمر الطويل؟! ومن شدّة انفعاله غادر مسكنه إلى الطريق، وسار فيه إلى الداخل إلى الشارع العموميّ كما ألف أن يفعل كلّ يوم في عشرات الأعوام الماضية، ثمّ لم يتّفق له أن يسير في هٰذا الاتّجاه أبدًا منذ زمن بعيد جدًّا، وبخاصّة فيما وراء المنعطف، ولا كان ثمّة ما يدعوه إلى ذٰلك، فظلّ يحتفظ له بصورته القديمة إذ كان طريقًا مقفرًا تحدق به الحقول من الجانبين، باسم الله بها تبدأ كلّ سورة، والحقّ يجب أن يبدأ بها كلّ شيء، ولعلّ هٰذا هو المراد حقًّا، وكلّما أوغل في الطريق بدت له كائنات جديدة لم تكن لتخطر له على بال. امتدّت على الجانبين الفيلّات بحدائق مخضرّة منسّقة، وتراءت وراءها الحقول. وقامت على الطوارين الأشجار بجمالها الرزين، كأنّها في صمتها تتناجى بلغة تنتظر من يكشف عن سرّها كما كشف هو عن سرّ آخر. وبدا الطريق ممتدًّا إلى غير نهاية فعجب غاية العجب وتساءل متى خلق هٰذا العمران كلّه؟! وخيّل إليه أنّه سيخجل كثيرًا عند البوح بكشفه لأحد من الناس. ولٰكن أيّ أحد من الناس يعرفه ليبوح له بكشفه؟ إنّ العمران لم يدخل بعد قلبه، قلبه المقفر من كلّ شيء. وعقابك الحقيقيّ أنّك ستجد أنّ الحياة قد نبذتك أيضًا. كما وجدها يوم الأربعاء أوّل أيّام المعاش، ماذا جنى من حياته الماضية؟ ماذا جنى غير

الفراغ والدوار؟ قدّمت من الجهد فوق ما يطيق البشر، ولكنّه جهد مضى باسم الطموح الجنونيّ، باسم الجشع، باسم الأنانيّة، باسم الكراهية، باسم الحقد، باسم العراك، ولا عمل واحد باسم الله. وتأوّه في موقف اختاره تحت ظلّ شجرة غير مبالٍ بأنظار المارّة. ترى هل فات الأوان وضاعت الفرصة؟ وامتدّ بصره مع الطريق فتراءت أشجاره المتباعدة كأنّها سياج شبه متّصل من الخضرة اليانعة تتخلّلها رءوس المصابيح الكهربائيّة البيضاء. كلّ هٰذا العمران والجمال قائم في الطريق الذي يعيش فيه من قديم وهو لا يدري به. ماذا يعرف من هٰذه الدنيا العجيبة؟! وماذا يفعل بماضيه المثقل؟ وتنهّد في حزن كأنّه بنيان يتقوّض. ورجع إلى مسكنه وهو يلهث من الانفعال فوجد امرأته جالسة تتشمّس فجلس إلى جانبها وهو يقول:

ـ لم أكن أتصوّر أنّ شارعنا على هٰذا القدر من الجمال!

فتساءلت:

ـ ماذا حدث له؟

ـ شارع جديد، ممهّد ونظيف، والفيلّا والأشجار!

فقالت بدهشة:

ـ هو كذٰلك طول عمره...

ـ لكنّني لم أره إلّا اليوم!

فرمقته بنظرة فاترة لكنّها ناطقة بأمر انتقاد وتأنيب فتقبّلها خاضعًا، وتساءل في لهفة ترى هل في العمر بقيّة لإصلاح الماضي الفاسد؟ للاعتذار عن كلّ هفوة، والتكابر عن كلّ جريمة، وتحويل الأعداء والضحايا إلى أصدقاء؟ وفكّر مليًّا ثمّ قال بحماس طفليّ:

ـ ألا يمكن أن يبدأ الإنسان حياة جديدة ولو في مثل عمري؟

ـ أيّ حياة؟!

ـ جديدة بكلّ معنى الكلمة، أرجو أن تجيبي بأنّ هٰذا ممكن.

فساورها حبّ استطلاع مشوب بقلق وقالت:

ـ لا أفهم، ماذا تعني؟

ـ سوف تفهمين...

جديدة بكلّ معنى الكلمة. وإلّا فكيف يحتمل العمر الباقي؟... هل ينسى يوم الأربعاء؟ وأغمض عينيه كمن يتذكّر أشياء مستعصية. وكانت تتابعه بعينين قلقتين فما لبثت أن ساءلت نفسها: ترى لِمَ يبتسم هٰكذا؟

وكان حقًّا يبتسم. ابتسامة جديدة، لا نفاقًا ولا تشفّيًا ولا استفزازًا ولا سخرية ولا مكرًا ولا تحريضًا ولا... ولا...

ابتسامة صافية.

حادثة

كان يتكلّم في تليفون الدكّان بصوت مرتفع ليُسمِع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخبة. وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدكّان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء، ثمّ ختم حديثه بقوله «انتظرني، سأحضر فورًا» وأعاد السمّاعة إلى موضعها وتناول علبة سجائر هوليود من فوق الطاولة ونقد البائع نقوده ـ ثمن العلبة والمكالمة ـ واستدار فوق الطوار متّجهًا نحو الطريق. كان في الستّين أو نحوها، طويل القامة نحيلها، كرويّ الجبهة والعينين، مكوّر الذقن، وأمّا صلعته فلم يبق فوق مرآتها إلّا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه. وقد أفصح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسنّ أو الطبع أو نسيان الذات. على ذٰلك كان يتمتّع بحيويّة مرحة، وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج، فأشعل سيجارة وأخذ نفسًا عميقًا، وبدا أنّه ينظر إلى الداخل لا إلى الطريق، ثمّ مال يمنة بمحاذاة صفّ من اللوريات الواقفة لصق الطوار حتّى وجد منفذًا إلى الشارع. ونفض السيجارة وهو يبتسم، ثمّ مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلى ضفّته الأخرى. وما كاد يجاوز مقدّمة اللوري الأخير حتّى شعر باندفاع سيّارة فورد نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنّه كان عليه أن يتراجع بسرعة، وإنّه لو فعل ذٰلك لنجا رغم سرعة السيّارة، لكنّه لسبب ما ـ لعلّه المفاجأة أو سوء

التقدير أو القضاء ـ وثب إلى الأمام وهو يهتف «يا ساتر يا ربّ» وجرت الحوادث متلاحقة. ندّت عن الرجل صرخة كالعواء، وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارّة والواقفين على الطوار وفوق إفريز محطّة الترام. ورئي غير آدميّ. وصدر عن فرملة الفورد صوت محشرج متشنّج ممزّق وهي تزحف على الأرض بعجلات متوقّفة جامدة. وهرع نحو الضحيّة في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام حتّى تكوّن منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج. ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفئًا على وجهه ولا يجرؤ أحد على لمسه، وإحدى رجليه ممدودة إلى آخرها، والأخرى منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر وقد فقدت فردة حذائها، وتغشّاه صمت بخلاف كلّ شيء حوله كأنّ الأمر لا يعنيه ألبتّة. الرجل وهو يرتفع في الفضاء أمتارًا ثمّ يهوي فوق الأرض كشيء وألصق سائق الفورد ظهره بالسيّارة من باب الحيطة وراح يخاطب مجموعة من الحفاة أحدقت به على سبيل المراقبة:

ـ لا ذنب لي، اندفع هو من أمام اللوري فجأة، وبسرعة، ودون أن ينظر إلى يساره كما يجب...

وإذ لم يجد وجهًا مستجيبًا عاد يقول بلهجة خطابيّة:

ـ لم يكن في الإمكان أن أتجنّب صدمه...

وندّ عن المصاب صوت كالزفير المكتوم، وتحرّك حركة شاملة مباغتة، ثانية واحدة، ثمّ غرق في اللامبالاة...

ـ لم يمت! حيّ.

ـ لعلّها إصابة بسيطة...

ـ لكنّه طار في الهواء والعياذ بالله!

ـ ولو، عفو ربّنا كبير...

ـ لا يوجد دم؟

ـ عند فمه، انظر...

ـ كلّ ساعة حادث من هٰذا النوع...

وجاء شرطيّ مسرعًا ففتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدميّ نفذ منها وهو يصيح بالناس أن يبتعدوا. فابتعدوا خطوات، خطوات فقط، وعينهم لا تتحوّل عن الرجل ولا تخف حدّة تطلّعها وإشفاقها. وقال إنسان:

ـ سيبقى هٰكذا حتّى يموت ونحن لا نفعل شيئًا...

فأجابه الشرطيّ بلهجة رادعة:

ـ أقلّ لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه...

واعترض الحادث جانب الطريق فاضطرّت السيّارات إلى الالتفاف حول السور البشريّ مشاركة الترام في ممشاه فضاق بها حتّى تحرّكت في بطء شديد وتجمّعت في صفوف ممتدّة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن رُكّابها تطلّعت أعين إلى الضحيّة في اهتمام، وأعين تجنّبت النظر في جزع. وجاء بوليس النجدة وراء صفّارته الحلزونيّة فاتّسعت الحلقة، وغادرت القوّة السيّارة إلى الرجل المُلقى، وكان الضابط حاسمًا وحازمًا فأصدر أمرًا بتفريق المتجمّعين، وتفحّص الرجل بنظرة شاملة، وسأل الشرطيّ:

ـ ألم تحضر الإسعاف...؟

وإذا لم تكن ثمّة ضرورة إلى السؤال فإنّه لم يلق بالًا إلى الجواب، وتساءل مرّة أخرى:

ـ هل من شهود؟!

فتقدّم ماسح أحذية وسائق لوري وصبيّ كبابجي كان عائدًا بصينيّة فارغة. وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ كان الرجل المجهول يتكلّم في التليفون. وجاءت سيّارة الإسعاف، وأحاط رجالها بالرجل، وتفحّصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثمّ نهض مُتوجّهًا إلى الضابط فبادره هٰذا قائلًا:

ـ أظنّ يجب نقله إلى الإسعاف...؟

فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عن الأثر الذي يُحدثه عادة جرس سيّارته:

ـ بل يجب نقله إلى مستشفى الدمرداش...

وأدرك الضابط ما يعنيه ذلك على حين استطرد رجل الإسعاف قائلًا:

ـ أعتقد أنّ الحالة خطيرة جدًّا...

وعندما أرقد الرجل بحجرة الفحص بمُستشفى الدمرداش كانت طلائع الليل تزحف كالجبال. وفحصه مدير القسم بنفسه، ثُمّ التفت إلى مُساعِده

قائلًا:

ـ إصابة خطيرة في الرئة اليسرى، تُهدِّد القلب مباشرة...

ـ عمليّة؟

فهز رأسه قائلًا:

ـ إنّه يُحتضَر...

وصدقت فِراسة الطبيب فقد تحرّك الرجل حركة شاملة كالرعشة، واضطرب صدره اضطرابًا مُتلاحِقًا مُحشرجًا، ثمّ شهق شهقة خفيفة واستكن. وكان الطبيبان يراقبانه فالتفت المدير نحو مساعده وهو يقول:

ـ انتهى...

وجاء ضابط النقطة وكان الرجل ما يزال راقدًا بكامل ملابسه عدا فردة الحذاء المفقودة. وقال الطبيب:

ـ هٰذه الحوادث لا تنتهي...

فقال الضابط وهو يومئ إلى الفقيد:

ـ وشهادة الشهود ليست في صالحه!

ثمّ وهو يقترب من السرير:

ـ أرجو أن نستدلّ على شخصيّته...

وشرع في عمله على حين بسط الشاويش المُرافق له ورقة فوق منضدة وتأهّب بدوره لتسجيل المحضر. ودسّ الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخليّ فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسّطة الحجم ومضى يفتّشها جيبًا جيبًا ويُملي على الشاويش:

ـ خمسة وأربعون قرشًا من العملة الورقيّة...

روشتّة للدكتور فوزي سليمان...

وألقى نظرة عابرة على أسماء الأدوية ولٰكنّه لاحظ وجود كتابة على ظهرها أيضًا فجرى بصره عليها بلا إرادة فإذا بها: الموادّ الكحوليّة والبيض والدهنيّات ممنوعة، ويُستحسن تجنّب المُنبِّهات كالشاي والقهوة والشيكولاطة. وابتسم الضابط ابتسامة باطنيّة إذ أنّ تعليمات مُماثلة صدرت إليه من طبيبه في نفس الشهر! ثمّ واصل إملاءه وأصابعه تستخرج من الحافظة محفوظاتها:

ـ مجلّد صغير من السُوَر القرآنيّة.

ولـمّا لم يجد شيئًا آخر في الحافظة قال بضيق:

ـ لا توجد بطاقة تحقيق شخصيّة!

وانتقل إلى الجيب الداخليّ الصغير وما لبث أن قال بفتور:

ـ ثلاثة قروش ونصف عملة معدنيّة...

ووجد أيضًا حُقًّا صغيرًا فرفع غطاءه المحكم فرأى مادّة غريبة كالبنّ المسحوق، وامتلأ أنفه برائحة مِسكيّة، ثمّ ما لبث أن عطس عطسة من الأعماق، فأعاد الغطاء إلى موضعه وقال بعين دامعة:

ـ حُقّ نشوق...

وتوالى التفتيش وتتابع الإملاء:

ـ منديل، علبة سجائر هوليود، سلسلة مفاتيح، ساعة يد...

وكان آخر ما عثر عليه صفحة مطويّة من كُرّاسة فبسطها فوجدها رسالة لم تُغلَّف بمظروف بعد، فأمل أن يصادف فيها ما يمكن أن يستدلّ به على شخصيّة الرجل. نظر أوّل ما نظر إلى الإمضاء ولٰكنّها لم تزد عن «أخوك عبد الله» فعاد إلى رأس الصفحة ولٰكنّ الرسالة كانت موجّهة «أخي العزيز أدامه الله»، فاستاء من هٰذه المعاندة ولم يجد بدًّا من قراءتها.

أخي العزيز أدامه الله:

اليوم تحقّق أكبر أمل لي في الحياة.

اضطُرّ إلى التوقّف رافعًا عينيه إلى تاريخ الرسالة، وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير، وامتدّ بصره فوق الأسطر إلى الوجه الباهت المشوب بزرقة مخيفة، المُغلَق كَسِرّ، الجامد كتمثال، ذٰلك الذي تحقّق أكبر أمل له في الحياة. وتساءل الطبيب:

ـ عثرت على شيء؟

فانتبه إلى نفسه وابتسم ابتسامة استهانة ليدلّ على اعتياده أيّ شيء وقال:

ـ اليوم تحقّق أكبر أمل لي في الحياة، بذٰلك بدأت الرسالة!

وعاد إلى القراءة متجنّبًا النظر إلى عيني الطبيب: «فقد انزاحت عن صدري الأعباء المريرة، انزاحت جميعًا والحمد لله، أمينة وبهيّة وزينب في بيوتهنّ، وها هو عليّ يتوظّف، وكلّما ذكرت الماضي بمتاعبه وكدحه

وقلقه وشقائه أحمدُ الله المنّان، وهٰذا هو النصر المُبين».

واسترق النظر مرّة أخرى إلى الإنسان الراحل، الذي لا يدري أحد مقرّه، الذي يثير الدهشة بصمته وانعزاله وارتداده العميق إلى المجهول، المتاعب والقلق والشقاء والأمل الكبير والنصر المبين!

«وبعد تفكير طويل قرّ رأيي على ترك الخدمة». فعلًا. «فهيهات أن تتحسّن صحّتي طالما بقيت في المدينة، وحسبت الحسبة فوجدتني أخدم في الحكومة بثلاثة جنيهات هي الفرق بين المرتّب والمعاش، لذٰلك قرّرت أن أطلب إحالتي على المعاش، وقريبًا أعود إلى البلدة إن شاء الله، وسوف أنضمّ إلى مجلسك الظريف عند عبد التوّاب شيخ الخفر، أمّا الآن فكلّ شيء بخير وليس في الإمكان خير ممّا كان».

وطوى الضابط الرسالة وهو يقول:

ـ إنّه موظّف كما يُفهم من خطابه ولٰكن ليس به ما يُمكِن الاستدلال على هويّته.

فقال الطبيب:

ـ ستتّخذ الإجراءات المألوفة وغالبًا ما يجيء أهله في الوقت المناسب فيتسلّمون الجثّة من المشرحة....

حَنْظَل وَالعَسكريّ

هٰذه الأقدام الثقيلة تبعث وقعًا له في صدره صدًى مخيف، والنحنحة الصادرة عن صاحبها نذير بالمتاعب والآلام، إنّه الشاويش قادم في ظلمة الليل. تمنّى أن يفرّ من وجهه لٰكنّه لم يستطع، وبكلّ مشقّة قام وهو يلقي بثقله على الجدار في أوّل المنعطف، وكان يترنّح، وحاله تنذر بالانهيار في أيّة لحظة، وفتح عينيه بجهد صوب القادم كالقدر، حاول كثيرًا أن يتحرّك فتبدّدت محاولاته في الظلام، كما بعثرت ذكرياته، ولاح على شعاع الفانوس وجهه الكالح المغبرّ الفظّ كالنائم، ولم يكن على جسده إلّا بقايا جلباب ممزّقة، وباطنه المجنون يحترق رغبة في الحقنة المحرّمة.

ـ حنظل.... تعال...

آه... هٰذا النداء المشئوم تعقبه الصفعات واللكمات. وبصوت يائس مكروب توسّل قائلًا:

ـ رحمة الله يا حضرة الشاويش...

وقف أمامه حاجبًا عنه شعاع الفانوس، شابكًا بندقيّته بكتفه فاشتدّ التصاق حنظل بجدار عطفة شنافيري. كان يعاني الخوف ويدافع الغيبوبة ويعلن المسكنة، ولٰكن ما بال الشاويش لم يهدر ولم يلعن ولم يصفع؟!

ـ أخذت الحقنة؟

ـ لا وربّك.

ـ لٰكنّك نائم أو كالنائم!

ـ لأنّني لم آخذها...

ـ تعال معي، المأمور يطلبك!

فتنهّد في صدر مجنون جائع وهتف:

ـ أنا في عرضك...

فوضع على منكبه يدًا آدميّة لا حديديّة ولا عسكريّة، فتعجّب حنظل دون أن ينبس، فقال الشاويش:

ـ تعال ولا تخف....

ـ لم أفعل شيئًا!

مضى به برفق وهو يهمس له:

ـ ستجد أنّ كلّ شيء طيّب، لا تخف...

وقف في حجرة المأمور على بعد مبعدة متر من بابها الذي أغلق وراءه، لا يتقدّم خطوة، ولا يرفع عينيه إلى النظرة التي تستقرّ عليه من وجه محنّك، والضوء الساطع مسلّط على جسده الطينيّ الذي لا يكاد يستره شيء، وقد بدا بين الجدران البيضاء الملساء والأثاث الوقور شيئًا متخلّفًا عن الزمن، توقّع حنظل صاعقة ولٰكن جاءه صوت المأمور في نبرة آدميّة غير منتظرة ككلّ شيء في تلك الليلة.

ـ اجلس يا حنظل، مساء الخير...

يا ربّ السماوات! ماذا جرى للدنيا؟!

ـ أستغفر الله يا حضرة المأمور، أنا خادمك!

ولٰكنّه حدجه بنظرة تأنيب وهو يشير بأصبع آمر إلى مقعد جلديّ، فتردّد كثيرًا، ثمّ لم ير بدًّا من الإذعان فجلس على طرف المقعد وهو ينظر إلى قدميه

الترابيّتين، في ضخامة قدمَي تمثال، المطمورتين تحت طبقات من القشرة الأرضيّة. ورغم ذلك لم يصدّق شيئًا فقال في ذلّ:

ـ يا حضرة المأمور، أنا رجل مسكين، كثير الخطايا، ولكنّ بؤسي أفظع من خطاياي، والرحمة عند الله مفضّلة على العدل...

فقال المأمور بنبرة جادّة رقيقة في آن:

ـ اطمئنّ يا حنظل، أنا عارف أنّك أخطأت كثيرًا ولكنّك قاسيت أكثر، وأنت أدرى بذنوبك، والشاويش معذور في قسوته عليك فالقانون هو القانون، ولكن جدّت أمور أوجبت تغيير المعاملة، تغيّر كلّ شيء، ونحن كما إنّ لنا جانبًا عسكريًّا فلنا في ذات الوقت جانبنا الإنسانيّ...

وجعل ينظر إلى المأمور بذهول وهو يغالب بمشقّة سلطان الغيبوبة فرمقه الرجل برثاء وقال:

ـ صدّقني يا حنظل، صدّق كلّ ما تسمع وما ترى، رأسك لا يقوى على التركيز لأنّك لم تحقن؟ نفد آخر نقودك ولم تحقن، وتاجر السمّ لا يرحم ويطالب بالدفع المقدّم، لكنّك ستشفى من هذا كلّه...

فقال حنظل بصوت باكٍ:

ـ أنا مسكين، حياتي حظّ عاثر، كنت قويًّا فضعفت، وبيّاعًا فأفلست، وأحببت فتلوّعت، وأدمنت، ثمّ تسوّلت...

ـ ستخرج من المصحّة رجلًا جديدًا، ولي معك لقاء آخر...

وفي باحة القسم أحاطت به مجموعة من العساكر فبحكم العادة تكوّر جسده كأنّما يتلقّى ضربة، ولكنّهم ابتسموا إليه، انفرجت الشفاه الغليظة تحت الشوارب الثائرة...

ـ أنتم!؟

ـ نعم يا حنظل، كلّ شيء تغيّر...

ـ بالشفاء يا حنظل...

ـ ليعفِ الله عمّا سلف...

وحُمل وهو بين النوم واليقظة، وسرعان ما استسلم للنوم في عربة راحت تتأرجح به إلى ما لا نهاية. وفتح عينيه على حجرة غريبة، رآها بياضًا ناصعًا وضوءًا باهرًا كما رأى وجهًا حانيًا، وشعر بضعف وتقزّز، وغثيان، ووحدة في الأعماق، وخوف، فتوسّل قائلًا:

ـ الحقنة، الحقنة يا عمّ متبولي...

وداعبت أذنه ضحكة رقيقة، وسطعت أنفه رائحة نفّاذة، وعانى جوعًا في الرأس وفي الحواسّ، وتشقّقت أركان رأسه، ثمّ غاب عن الوجود. وغادر حنظل المصحّة رجلًا جديدًا كما وعد المأمور. تجلّت صورته الطبيعيّة لأوّل مرّة ورفل في جلباب أبيض فضفاض، وحلق ذقنه فتبدّت قوّة شاربه وانتعل مركوبًا أصفر فاقعًا، ووضح وشم الأسد فوق معصمه ووشم العصفورة عند سوالفه تحت لاسة مزركشة. ومضى به شاويش كالصديق، كلّ شيء صديق، فتراءت بشرته سمراء صافية تحت الشمس، وما تمالك أن ضحك، وقال لنفسه إنّ وزنه سيخفّ بعد النظافة، وكان صاحيًا واعيًا يرى الأشياء ويسمع الأصوات ويحبّ الشاويش ولا يستشعر في جوفه الألم. وامتلأ ثقة بالنفس حتّى خال أنّ بقدرته أن يطير، وصدّق ما يحيط به، فلم يدهش عندما أقبل عليه العساكر مهنّئين، وتصافحوا بحرارة ومودّة في شبه مظاهرة في باحة القسم. ولم يدهش كثيرًا عندما رأى المأمور يقف لاستقباله، ولكنّه تأثّر جدًّا، وبروحه المتواضعة ارتمى على يده يريد أن يقبّلها ولكنّ المأمور تلقّاه بين ذراعيه وشدّ عليه برحمة فتذاوب خجلًا وامتنانًا وفاضت عيناه بالدمع. وأجلسه الرجل على المقعد وعاد إلى كرسيّه وراء المكتب وهو يضحك ضحكة رطيبة صافية، وقال:

ـ مباركة عليك الصحّة والعافية.

فاغرورقت عيناه فاستطرد المأمور قائلًا:

ـ الآن تستطيع أن تبدأ من جديد....

فقال بدموعه المنهمرة:

ـ بفضل الله وبفضلك...

ـ لا تبالغ فالفضل لله وحده.

وفتح المأمور دفترًا بين يديه وأمسك بالقلم وخطّ عبارة في رأس صفحة بيضاء، ثمّ قال بهدوء وهو يرمقه بنظرة هادئة وعميقة كضوء القمر:

ـ اطلب ما تشاء يا حنظل.

فارتبك الرجل ولم يُحِرْ جوابًا. تحرّكت شفتاه فتحرّك شاربه الفطريّ ولٰكنّه لم يُحِرْ جوابًا، فحثّه المأمور قائلًا:

ـ اطلب ما تشاء يا حنظل، هٰذا أمر!

ـ ولٰكن...

ـ لا لٰكن، اطلب ما تشاء...

فقال في تردّد:

ـ أطلب الستر...

ـ أفصح، اطلب ما تشاء، هٰذا أمر...

تذكّر حنظل دعاء أمّه، وحكايات الليل، وأنغام الرباب، ثمّ ضحك قائلًا:

ـ كنت أسرح بعربات الفاكهة!

فقال المأمور ويده تكتب في الدفتر:

ـ دكّان فاكهة بالحسينيّة، رفوف مزدوجة، كهرباء لحسن العرض...

فتساءل في ذهول:

ـ والنقود؟!

ـ لا تشغل بالك، هٰذا أمر يخصّنا ويخصّ الجميع، تكلّم ماذا تطلب... إنّه أمر!

ووجد حنظل شجاعة جديدة، مستمدّة من شخصه الجديد ودكّان الفاكهة، فقال بصوت متهدّج:

ـ سنيّة بيومي بيّاعة الكبدة، الحقّ أنّي...

فقال المأمور ويده لا تكفّ عن التسجيل:

ـ لا داعي للشرح، كلّه معلوم يعرفه عسكريّ النقطة، وكلّ عسكريّ، وخفير السوق، سنيّة شابّة مليحة وجريئة، ولم تتزوّج بعد رغم ما كان، وفي وقت ما كانت أفتك بك من المرويين، وتمادت في قسوتها فاشتدّت حالتك سوءًا، وهجرتك، لٰكنّها ستعود إليك، لتكن دكّان فاكهة وكبدة، سيكون ذٰلك شيئًا فريدًا في الحسينيّة على مثال محالّ البقالة الراقية جدًّا، غيره؟

مال رأسه من التأثّر، وحلمت عيناه بأديم أخضر تنبثق منه ورود حمراء مطوّقة بدوائر من البنفسج، وطنّت في أذنه نغمة تردّد: «يا منية القلب قل لي»، لٰكنّه رأى بقعة سوداء كسحابة من الذباب فاقشعرّ بدنه وقال بإشفاق:

ـ أخشى ألّا تدوم صداقة العساكر يا سيّدي المأمور، وأنّه وإن يكن لشقائي الماضي أسباب كثيرة فإنّ العساكر كانوا من الأسباب الهامّة في ذٰلك، طالما طاردوا عربتي لسبب ولغير ما سبب وصادروا رزقي وضربوني، وفي مسألة سنيّة بالذات فإنّ أوّل من لعب بعقلها كان العسكريّ حسّونة!

فارتفعت الضحكة الرطيبة الصافية مرّة أخرى وقال المأمور بلهجة لا تدع مجالًا لشكّ:

ـ لن تجد في العساكر عدوًّا واحدًا لك، هم من اليوم وإلى الأبد أصدقاؤك المخلصون، اطلب ما تشاء يا حنظل، هٰذا أمر!

وثمل حنظل بسكرة شجاعة لم ينعم بها حتّى أيّام الفتونة، فقال:

ـ أمثالي من الفقراء كثيرون لعلّك يا حضرة المأمور لا تعرفهم...

فقاطعه قائلًا ويده تكتب دون انقطاع:

ـ أعرف كلّ شيء، دلّنا عليهم، وسيكون لكلّ دكّانه وامرأته وصداقة العساكر، سيتحقّق هٰذا كلّه فاطلب ما تشاء، إنّه أمر...

فضحك حنظل ضحكة مجلجلة وشبك راحتيه وشدّ عليهما وهو يقول:

ـ كأنّني في حلم!

ـ الواقع نوع من الحلم، والحلم نوع من الواقع، اطلب ما تشاء، إنّه أمر...

فتنفّس في ثقة وامتلاء وتساءل:

ـ كم من المسجونين مَن يستحقّ السجن حقًّا؟!

فقال المأمور ويده تجري على الصفحة:

ـ سيخرج من السجن كلّ مَن لا يستحقّ السجن حقًّا ولو فرغت السجون!

فهتف حنظل في نشوة:

ـ ليحيا العدل، ليحيا المأمور!

وشهد حوش بيت حنظل بعطفة الشنافيري حفلًا فريدًا حضره المأمور والعساكر والفقراء وطلقاء السجون. وارتدت سنيّة فستانًا برتقاليًّا وتلفّعت بشال أخضر فلم يظهر من جسدها البضّ إلّا معصم محلّى بأسورة ذهبيّة وأسفل ساق مطوّقة بخلخال فضّيّ بشراريب من أهلّة. وكانت تقدّم بنفسها الشراب،

شراب التمرهنديّ والكركديّة. وثمّة فرقة موسيقيّة عليها مسحة من شارع محمّد عليّ احتلّت ركنًا وراحت تحيّي القادمين. واستمتع كلّ شخص بحرّيّته حتّى العساكر غنّوا ورقصوا تحت بصر المأمور، ثمّ وقف مقرئ بين مذهبجيّة ومضى يتغنّى بمديح الرسول مترنّمًا:

لّما بدا لاح منار الهدى

فتضاعفت آهات الطرب من صدور الفقراء والمساجين والعساكر وزغردت سنيّة زغرودة كأنّما تصدر عن ناي. وفي ختام الحفل وقف المأمور وخاطب الجميع قائلًا:

- أوّل الغيث قطر، ثمّ ينهمر، طاب ليلكم.

وزغردت سنيّة مرّة أخرى، وأخذ المدعوّون في الانصراف عند الفجر، والديكة تسبّح لله، والصمت يسبح...

واستلقى حنظل على الأريكة ليرتاح بعد عناء فجلست سنيّة عند رأسه وراحت تداعب قصّة شعره. كان سعيدًا مطمئنًّا راضيًا لا يريد لشيء نهاية. وقال برقّة:

- أنت أصل الخير كلّه...

فامتدّت أصابعها إلى سوالفه كأنّما تزقّق عصفورة الوشم فعاد يقول:

- جميع ما حصل لا أعتبره معجزة، المعجزة أنّ قلبك لانّ بعد ما كان.

وانسابت يدها إلى خدّه فذقنه ثمّ استكنّت على حنجرته، واستسلم لمداعباتها، ووَدّ في أعماقه ألّا يكون لشيء نهاية، غير أنّه انتبه على إحساس غريب، يشبه الضغط على حنجرته، واشتدّ بدرجة خرجت عن مألوف كلّ مداعبة. وقرّر أن يطلب إليها أن تخفّ من ضغط يدها ولكنّ صوته لم يخرج واشتدّ الضغط، ومدّ يده ليزيح يدها عن عنقه ولكنّه شعر بكابوس يرزح فوق صدره، وبثقل سمج، زكيبة رمل، أو قطعة جدار هوت فوق رأسه. أراد أن يتأوّه، أن يقوم، أن يتحرّك، فلم يستطع. وحرّك رأسه بعنف ليتخلّص من الكرب فاحتكّت بالأريكة، بشيء يشبه الأرض، التراب، بل ثمّة طين أيضًا، وغمره شعور جديد في درجته وطعمه وكآبته. وسمع صوتًا يعرفه يصيح به متهكّمًا:

- لم يبقَ إلّا أن تنام في عرض الطريق!

ما أشبهه بصوت العسكريّ! العسكريّ القديم بصوته الخشن المنذر بالمتاعب. ثمّ إنّه يختنق. يد سنيّة لا تريد أن ترحمه. وفجأة رفع الجدار عن صدره فاعتدل جالسًا وهو يئنّ في الظلام. تخايل لعينيه شبح عملاق يحجب عنه ضوء الفانوس كأنّما يمتدّ في الفضاء حتّى النجوم. وديكة الفجر تصيح، والبندقيّة تطلّ من فوق كتف الشبح. وفوق صدره هو يتداح الألم في الموضع الذي تخلّى عنه الحذاء الغليظ، وهتف:

- أين عهد المأمور يا شاويش؟!

فركله بلا رحمة وصاح به:

- عهد المأمور! يا مجنون يا مدمن، قم ع القسم...

ونظر حوله في ذعر وذهول فوجد طريقًا نائمًا، وظلمة شاملة، وصمتًا، ولا حفل، ولا أثر لحفل، ولا سنيّة، ولا شيء...

مَندُوبٌ فوقَ العَادَة

كنت أراجع الصحف اليوميّة، وهو ما أبدأ به عملي عادة كلّ صباح، عندما فُتح الباب دون استئذان عن رجل غريب. كان هائل المنظر لطوله وضخامته، فخم البدلة، وطربوشه الطويل الغامق يضفي على وجهه الأبيض نصاعة، وفيه وجاهة تؤكّدها نظّارة كحليّة وشارب غزير مربّع كساه المشيب. كان أيضًا في الستّين أو نحوها لكنّه تقدّم من مكتبي في حركة قويّة ثابتة قابضة يمناه على منشّة عاجيّة بيضاء وهو يقول بصوت حلقيّ غليظ:

- صباح الخير، مكتب الصحافة؟

فأجبته ولم أفق من صدمة اقتحامه:

- نعم، صباح النور!

ـ أظنّه تابع لمكتب الوزير؟

ـ نعم...

فأخرج حافظته، واستخرج منها بطاقة أعطاها لي، نظرت فيها فقرأت:

إسماعيل بك الباجوري

مستشار برياسة مجلس الوزارة

انفجرت «الرياسة» في رأسي، ولم يكن قد مضى على خدمتي إلّا عام أو دون ذلك بأشهر، ووقفت باحترام وأنا أبتسم كالمعتذر، وقلت بتأثّر ظاهر:

ـ تفضّل بالجلوس يا فندم، أنا في خدمتك!

لكنّه مشى موغلًا في الحجرة الصغيرة المستطيلة حتّى وقف وراء النافذة في نهايتها يطلّ على ميدان الأزهار، ثمّ عاد إلى مكتبي وهو يسأل:

ـ ألم يحضر معالي الباشا؟

ـ كلّا، معاليه يحضر حوالى العاشرة.

ـ ولا مدير مكتبه؟

ـ المدير يحضر حوالى التاسعة...

فانحرف جانب فيه الأيسر في امتعاض، ثمّ مدّ يده إلى سركي الوارد وراح يقرّه بسرعة ثمّ قال:

ـ خانات كثيرة لم تسدّد، هاك شكوى لم يردّ عليها منذ عشرين يومًا!

فانقبض صدري وأنا أتساءل على وجه مَن أصبحت اليوم، ثمّ قلت:

ـ إنّي أوزّع الشكاوى المنشورة في الصحف على الإدارات المختصّة في يوم ظهور الجريدة، والإدارات هي التي تتأخّر في الردّ...

ـ ولِمَ لا تستعجلها؟

ـ أستعجلها طبعًا، ولٰكنّ بعض الردود يستدعي التحرير إلى التفاتيش في الأقاليم.

فهزّ رأسه في امتعاض ثمّ أشار إلى الباب وهو يقول بلهجة آمرة:

ـ اتبعني من فضلك...

وسار في ردهات الوزارة وأنا أسير إلى جانبه متأخّرًا عنه خطوة من باب التأدّب، من ردهة إلى ردهة، حتّى أخذنا في طريق العودة وهو لا يمسك عن نشر الملاحظات:

ـ مكاتب خالية، أين الموظّفون؟! حتّى السعاة، والفرّاشون كالذباب الغائم! ما هٰذه الزكائب المحشوّة بالأوراق؟ وهٰذه الزبالة؟، وتلك الأكداس المكدّسة من الملفّات كالمقابر، ورائحة الزيت والبصل؟ ما شاء الله... ما شاء الله...

وجعلت أبدي عن أسفي بهزّ الرأس والتبسّم الحزين وأنا أسأل الله أن ينهي اليوم على خير، وإذا به يقول:

ـ كلّ شيء في غير محلّه؟... لو يعلم دولة الباشا!

وعدنا إلى الحجرة فوقفت وراء مكتبي على حين جلس على الكنبة في شبه استلقاء ثانيًا ساقه فوق ركبته، والظاهر أنّه رحم ارتباكي فقال لي:

ـ اجلس...

فجلست متشجّعًا بنبرة رقيقة انتزعتها انتزاعًا من غلظة صوته، ومضى يتفحّصني من وراء نظّارته الكحليّة في غير مبالاة ثمّ سألني:

ـ مِن الجامعة؟

ـ نعم...

ـ لِمَ توظّفت؟

فلم أحِرْ جوابًا. فقال:

ـ قل لأعيش!، كلّنا يريد أن يعيش، لٰكنّ الحياة تجري على غير ما يجب!

فخفضت رأسي موافقًا، ولا شيء أحبّ إليّ من أن يحضر مدير المكتب ليخلّصني من موقفي الرهيب.

ـ أنا مكلّف بعمل بحث شامل، مهمّة شاقّة، ولٰكن أهل ثمّة فائدة؟

تأثّرت جدًّا لتعطّفه بالبوح بمهمّته الخطيرة وازددت في الوقت نفسه حرجًا فقلت:

ـ ستجيء الفائدة حتمًا على يديك.

فتثاءب لدهشتي، وحلّ صمت مقلق، وكان يبدو عظيمًا جدًّا، ولعلّه ضاق بالصمت والانتظار فراح يتحدّث وكأنّما يحدّث نفسه هٰذه المرّة:

ـ على المرء أن ينشد الطمأنينة والصفاء ولٰكن كيف يتأتّى هٰذا؟!

فقلت وأنا في شكّ من سلامة تدخّلي في الحديث:

ـ ربّنا يهب سعادتك الصحّة.

فأنزل ساقه عن ركبته قائلًا:

- الصحّة! ما هي الصحّة؟ هي كمال التوازن والتوافق والتعاون في الكائن، ولٰكن هيهات أن تتحقّق إذا كانت الصحّة العامّة معتلّة، خذ مثلًا صحّة الوزارة! خانات لم تسدّد، موظّفون لا يحضرون، روتين، وما الرأي في هٰذا الغلاء الفاحش؟

فقلت وأنا أتابعه بجهد وأيّ جهد:

- شيء لا يطاق...

- العالم أيضًا صحّته معتلّة، هتلر ورم خبيث، والحلفاء ورم آخر، والأوقاف عندكم لماذا يستحقّ بعض الأوباش هٰذه الألوف المؤلّفة؟

فقلت رغم دبيب الدوار في رأسي:

- فلنأمل خيرًا ما دام دولة الباشا مهتمًّا بهٰذه المسائل.

فنهض بغتة وهو يقول:

- ولٰكن متى يأتي الوزير؟... الساعة العاشرة! ومتى يأتي مدير مكتبه؟... الساعة التاسعة...

ونظر في الساعة ثمّ جلس مكفهرّ الوجه. واتّجهت عيناه نحو التقويم المثبت بالجدار، الأربعاء ٢ يونيه، ٢٩ جمادى الأولى، ٢٥ بشنس، وتساءل في ملل:

- كم ورقة يجب أن تمضي حتّى تصبح الصحّة على ما يرام؟

ثمّ حدجني بنظرة متحرّشة هرب لها قلبي، ولٰكن سرعان ما حلّت محلّها نظرة دعابة وهو يسأل:

- ماذا تريد من الدنيا؟

فارتبكت مؤثرًا الصمت، ولـمّا آنست انتظاره لجوابي تكلّمت يدي بإشارات مبهمة سابقة لساني، ثمّ قلت:

- أشياء كثيرة!

- تكلّم!

فاستجمعت شجاعتي قائلًا:

- مرتّب حسن...

- والصحّة؟

- لا بأس بها...

- وكم من النقود تريد؟

- ما يكفيني...

- يكفيك لأيّ شي؟

- حسبي الضروريّات، والكماليّات الهامّة، وأن أتمكّن من تكوين أسرة...

- والآخرون ألا ينبغي لهم ذٰلك أيضًا؟

- نعم لِمَ لا!

- عند ذاك ترتاح النفوس من الانفعالات الخبيثة..

فقلت بارتياح حقيقيّ:

- نعم يا فندم...

فقال بحدّة ساخرة:

- كلّا! لا يكفي هٰذا كلّه، سيظلّ هناك هتلر، وتشرشل أيضًا، هٰذه هي العقدة المحيّرة، لقد كُلّفت بالبحث ولٰكنّني كلّما وجدت حلًّا لمشكلة عرضت مشكلة أخرى، وكلّما أزلت دُمّلًا ظهر دُمّل جديد، كأنّ الرحلة يجب أن تشمل العالَم كلّه...

فغمغمت بذهول:

- العالَم!

- نعم العالم، راقب آثار الحرب في بلادنا إن كنت في حاجة إلى دليل، أمور كثيرة معقّدة، ومشاكل لا حصر لها، فكّر في أن تنعم بالجبال في سويسرا فسيقال لك إنّها مهدّدة باجتياح الجيوش الألمانيّة، أو أن تستظلّ بشجرة بوذا في الهند فستجد جوًّا مشحونًا بالتعصّب والانفجار، وقد تتطلّع إلى زيارة موسكو ولٰكنّك لن تعود، والغلاء؟ ألم يبلغ حدًّا لا يتصوّره عقل؟

ولهث خيالي في إعياء، ولم أعد أفهم شيئًا، ولٰكنّي عكفت على النزر اليسير الذي وجدت له معنى فقلت:

- الغلاء فاحش جدًّا، والطماطم نادرة الوجود، أمّا البطاطس فبات أسطورة...

ولاح في نظرته الكحليّة تفكير، وشيء من الحزن والفتور، فتساءل:

- أتُحلّ هٰذه المشاكل إذا حدّدنا المرتّبات؟

- أيّ مرتّبات يا فندم؟

- يصدر مرسوم بأنّ أعلى مرتّب لا يجوز أن يزيد عن كذا.

- كذا؟

- ألا تنتشر تبعًا لذٰلك الطماطم؟ ويظهر البطاطس،

وتهبط أجور المساكن؟

- ولكنّ الدنيا ليست موظّفين فحسب، هناك تجّار، ورجال صناعة وأصحاب أراضٍ، وهناك أيضًا الأجانب!

فهزّ رأسه كالمتعب وقال:

- ويوجد هتلر، وموسوليني وتشرشل، وأكاذيب لا حصر لها، وصرخات زنوج تصمّ الآذان...

يا له من شخص غريب، ليس له جبروت المستشارين، ولا جلال الرياسة المخيف، بل وفيه جانب لطيف لا يكاد يفصله عن... ماذا أقول؟ عن التهريج إلّا خطوة؟! بيد أنّي قرّرت أن أستمسك بالحذر الشديد حتّى النهاية. وقلت برقّة ورجاء:

- هٰذه أمور محيّرة، ولا سبيل إلى حلّ مشاكلها، أو سبيل طويل لا يعلم مداه، ولٰكن هناك سبيل ميسور قريب المنال لو أقنعت صاحب الدولة مثلًا بزيادة علاوة الغلاء؟

فحدجني بنظرة استغراب وهو يقول:

- أتريد أن تحوّل مهمّتي الخطيرة إلى مجرّد مسعى شخصيّ لتحسين حالتك؟

فاحترق وجهي بالخجل وقلت متلعثمًا:

- لا أقصد ذٰلك ولٰكن...

فقاطعني بقوّة:

- ولٰكن عيبنا أنّنا نفكّر في أنفسنا ولا شيء غير أنفسنا...

ونظر في الساعة وهو يقول متسخّطًا:

- الوزير في الساعة العاشرة، مدير المكتب في التاسعة، ضاع سدًى جميع ما قصدته من التبكير!

وتذكّرت بغتة واجبًا فاتني لشدّة ارتباكي فهتفت:

- لم أطلب لسعادتك القهوة!

ومددت يدي نحو الجرس ولٰكنّه أوقفها بحركة آمرة وساخطة وقال بحدّة:

- نحن في مقبرة لا قهوة!

ثمّ بشيء من الهدوء:

- قلت إنّ عيبنا أنّنا نفكّر في أنفسنا ولا شيء غير أنفسنا، الحقّ أنّ لي من القدرة ما أستطيع به أن أبلغ الصفاء، عليّ فقط أن أعتزل العالم وهمومه، وهو صفاء حقيقيّ أسمع في سكونه الأبيض موسيقى النجوم، عليّ فقط أن أعتزل العالم وهمومه، لٰكنّي لا أستطيع، لا أريد، للهموم أيضًا أنغامها التي يلتقطها القلب، فإمّا صحّة عامّة أو لا صحّة على الإطلاق هٰذه هي عقيدتي النهائيّة، ولذٰلك كُلّفت بالمهمّة.

وراح يعبث بشعر المنشّة فداخلني شعور بالحيرة، وتساءلت عمّا يعني الرجل، ماذا وراء هٰذه النظّارة الكحليّة؟ وعند ذاك فتح الباب وظهر الساعي وهو يقول لي كعادته:

- البك المدير وصل.

واستأذنت من المستشار فمضيت من فوري إلى المدير وقلت له:

- إسماعيل بك الباجوري المستشار برياسة مجلس الوزراء في مكتبي.

وانتفض المدير واقفًا وهو يتساءل:

- إسماعيل بك الباجوري؟

وفي اللحظة التالية كان يصافحه باحترام بالغ مقدّمًا نفسه إليه، ثمّ ذهبا معًا إلى حجرة مدير المكتب ولبثت وحدي أفكّر، ولـمّا يذهب عنّي روع المقابلة وشجونها.

وواصلت عملي في مراجعة الصحف وأنا مشتّت الفكر، لا يتركّز انتباهي في شيء ممّا بين يديّ. ومضت نصف ساعة أو نحوها، وإذا بالباب يفتح ويدخل مدير المكتب مهرولًا. أقبل نحو التليفون وهو يسألني:

- هل تعرف هٰذا المستشار؟

فأجبت نفيًا، وأدار قرص التليفون:

- آلو رياسة مجلس الوزراء؟ أنا عليّ عبّاس مدير مكتب وزير الأوقاف، من فضلك هل يوجد في الرياسة مستشار اسمه إسماعيل الباجوري؟

- ....

- سعادتك متأكّد يا فندم! عندنا شخص بهٰذا الاسم وهٰذه الصفة كما هو واضح في بطاقته...

- ......

- آسف على إزعاجكم، وسأفعل ما أشرتم به...

وضع السمّاعة دون أن ينظر إلى وجهي الضائع ثمّ أدار القرص ثانية:

ـ آلو، سعادتك المأمور؟

ـ . . . .

ـ عليّ عبّاس مدير مكتب وزير الأوقاف، عندنا شخص ينتحل شخصيّة مستشار بالرياسة، يتحدّث حديثًا غريبًا ويطلب مقابلة معالي الوزير، وبالنظر للظروف الدقيقة التي تمرّ بها البلاد فأخشى أن يكون من الإرهابيّين. . .

ـ . . . . .

ـ الواقع أنّ مظهره مخالف لهذا النوع من الشباب، ولكنّي أخاف المفاجآت. . .

ـ . . . . .

ـ في انتظارك يا فندم، أرجو السرعة. . .

وأعاد السمّاعة وغادر الحجرة وأنا في حال، ووضح الأمر في القسم. لم يكن الرجل إرهابيًّا ولكن كان به لطف. واستدعينا أسرته، واتّخذت الإجراءات المتّبعة، وقد سمعته وهو يقول للمأمور في كبرياء غاضب:

ـ الحقّ عليّ، ما كان أسهل أن أنعم براحة البال، الحقّ عليّ. . .

صورة قديمة

فكرة ومضت فجأة فوعدته بالخلاص من حيرته، ومضت في رأسه عندما مرّت عيناه بالصورة المدرسيّة القديمة. كان يعاني حيرة البحث عن موضوع جديد للمجلّة كما ينبغي لصحفيّ مطالَب بجديد كلّ يوم. وفجأة ومضت فكرة. وكانت الصورة معلّقة بمكانها من حجرة الجلوس منذ أكثر من ثلاثين عامًا، لا تنطق ولا توحي بشيء ولا تكاد تُرى، ولكن بدا أنّه آن لها أن تتكلّم. ركّز انتباهه بحماس في الصورة التي كاد يمحوها طول البقاء. صورة السنة النهائيّة بالقسم الأدبيّ من الجيزة الثانويّة عام ١٩٢٨. ما الرأي في دراسة صحفيّة عن أصحاب هٰذه الوجوه الفتيّة؟. المدرسة والحياة، ١٩٢٨ و١٩٦٠؟ فكرة طيّبة من ناحية المبدأ، فهل يستطيع أن يظفر بحقائق تصلح أساسًا لبحث طريف؟! كم من أعوام مضت دون أن يلقي نظرة على الصورة؟ وكم من معالم فيها انطوت إلى غير رجعة، كهٰذه الطرابيش، وهٰؤلاء المدرّسين الإنجليز والفرنسيّين! وكانت مجرّد نظرة إلى أيّ وجه كافية غالبًا لتذكيره بصاحبه وإن غاب عنه اسمه، وإن جهل كلّ الجهل مصيره، ولا أحد بينهم تربطه به اليوم علاقة، حتّى ولا هٰذا الفتى المثير الذي جاوره في المسكن زمنًا طويلًا، وتفحّص الوجوه مبتدئًا بالصفّ الأعلى فمرّ بوجهين لا معنى لهما، ثمّ وقف عند فتًى كان من أبطال كرة القدم، ولقي حتفه في مباراة بين الجيزة ومدرسة أخرى، حادث لا يُنسى، وتراءى ضحيّته في الصورة برّاق العينين معتدًّا بنفسه منحرف جانب الفم في شبه ابتسامة، وهو اليوم عظام. وواصل مسيره من وجه إلى وجه حتّى وقف عند وجه نحيل مستطيل، ذكّره بموقف صاحبه فوق سلّم سكرتير المدرسة وهو يخطب خطبة ملتهبة داعيًا الطلبة إلى الإضراب احتجاجًا على تصريح ٢٨ فبراير. وإلى جانبه مباشرة برز وجه وجيه يحمل طابع الأناقة والسلالة الممتازة فورد اسم الأسرة بسرعة على ذاكرته ـ الماوردي ـ فسجّله في مذكّرته واثقًا من سهولة الاهتداء إليه، فضلًا عن أنّه كان نجمًا لامعًا في الحياة السياسيّة منذ عشرة أعوام، فهٰذا أوّل عنصر هامّ في مشروع بحثه. وجرت العينان على الوجوه واحدًا بعد آخر فلم ينطق وجه أو يبين حتّى بلغتا وجهًا ليس من السهل نسيانه، فهو رمز التفوّق المدرسيّ بكلّ سحره، وأوّل الفصل، وأوّل كلّ فصل، وأوّل المدرسة، الأورفلي وبفضل التفوّق وغرابة الاسم بقي في الذاكرة. وفي كلّيّة الحقوق كان له شأن، ثمّ عُيّن في النيابة العموميّة أيّام كان التعيين فيها حدثًا هامًّا، سيسهل عليه الاهتداء إليه بالرجوع إلى وزارة العدل، وهو ثاني عنصر هامّ في دراسته، الأورفلي بعد الماوردي. وتحدّاه وجه جديد بذكرى دامية، مشاجرة نشبت بينه وبين صاحبه في حوش المدرسة وإن لم يذكر من أسبابها شيئًا على الإطلاق. وتتابعت الوجوه صامتة صمت الحجر حتّى جاء الوجه المثير، الجار القديم، حامد زهران مدير شركة «الهرم المدرّج». ابتسم ابتسامة باردة. هٰذا هو فتى العصر! ما زال يذكر

بوضوح كيف ترك الجيزة الثانويّة ساقط بكالوريا، وكيف التحق بخدمة وزارة الحربيّة بالكفاءة، ولم تنقطع علاقته به إلّا منذ عشرة أعوام حين ترك هو عطفة أبو خوذة بعد أن فتح الله عليه في الصحافة. وتراءت إليه أخبار عن استقالته من الحكومة ليشغل وظيفة سكرتير لمدير شركة الهرم المدرّج، ثمّ علم آخر الأمر بتولّيه منصب المدير ٥٠٠ ج.م. في الشهر. يا له من معجزة سواء في طفرته الجنونيّة أو في تفاهته التي لا يشكّ هو فيها، على أيّ حال سيكون عنصرًا هامًّا وذا دلالة في دراسته. دراسة طريفة كما يأمل. وستعتمد على تحليله واستنباطاته أكثر من اعتماده على أحاديث أبطالها المجهولين إذ إنّ الطريف حقًّا ليس أشخاصهم ولكن دلالتهم الاجتماعيّة. ومهما يكن من أمر فليؤجّل تقرير الصورة النهائيّة للبحث حتّى يجمع موادّه...

وبدأ يطلب مقابلة عبّاس الماوردي في عزبته بقليوب بعد أن علم بإقامته فيها عن طريق دائرة الماوردي بميدان الأزهار. وفي الموعد المحدّد كان يقطع الممشى المحفوف بأصص الورد على الجانبين إلى السلاملك. كان القصر تحفة من طابقين وسط حديقة مساحتها فدّانان اكتظّ أديمها بأشجار المانجو والبرتقال والليمون وأعراش العنب ومربّعات ومثلّثات ودوائر لا عدّ لها من الأزهار والخضرة والجداول. وهو قائم كالمارد وسط فضاء من الحقول يترامى حتّى الأفق، يغشاه الصمت والهدوء والامتثال، وتتراءى عن بعد فوق سطحه أجساد منحنية، بدت ضائعة في النبات والفضاء. وأقبل عليه عبّاس الماوردي يرفل في عباءة فضفاضة، بوجه ممتلئ مورّد وشعر لامع منسرح فوق رأس مستدير كبير، وفي طوله وعرضه امتداد هائل جعله أشبه بتمثال متلفّع بستار قبل إزاحته! حدجه بنظرة باسمة، لم تخل من دهشة حذرة واستطلاع، وقال مرحّبًا:

ـ أهلًا وسهلًا بالأستاذ حسين منصور.

وتصافحا ثمّ جلسا وهو يقول:

ـ إنّي أتابع نشاطك الصحفيّ بإعجاب، وأذكر به زمالتنا المدرسيّة، وإن كنّا لم نلتقِ منذ افتراقنا في الجيزة الثانويّة...

فقال حسين باسمًا:

ـ تقابلنا مرّة خطفًا في البرلمان عام ١٩٥٠ أو ١٩٥١..

فتساءل بحاجبيه «حقًّا؟» واستسلما مليًّا لذكريات المدرسة ثمّ فاتحه بمقصده من الزيارة.

فقال عبّاس برجاء:

ـ أليس من المستحسن أن تتركني في حالي؟!

ولٰكنّ حسين قال متحمّسًا:

ـ لست من رأيك، هي دراسة قد تكون خطوة أولى لمتابعة جيل بأسره، ولن أنشر كلمة عنك قبل الرجوع إليك، أعدك بهٰذا، ولعلّي أستغني عن ذكر الأشخاص كلّيّة...

لم يعترض وإن لم يبدُ متحمّسًا. ولم يعلن وجهه عن شيء حتّى تساءل حسين منصور بقلق عمّا وراءه. ترى هل آلمه الموقف وما أثار من ذكريات؟! مهما يكن من أمر ثرائه اليوم فقد كان بالأمس مليونيرًا بلا جدال، وكان نجمًا سياسيًّا بازغًا، نجح في الانتخابات بالتزكية بفضل جاهه، ورشّحته الأقاويل للوزارة في أواخر ١٩٥٠.

ـ إنّي أقيم هنا بصفة دائمة، ولذٰلك أرسلت ابني الجامعيّ إلى عمّته بالقاهرة، ولا أكاد أغادر العزبة إلّا فيما ندر...

ولانت فرامله فاستفاض حديثه. قال إنّه يزرع أرضه بنفسه مستعملًا أحدث الآلات الزراعيّة، وإنّه يُعنى عناية خاصّة بتربية الماشية والدواجن، وإنّه أعدّ لأوقات الفراغ مكتبة كبيرة، واختار ركوب الخيل هواية ورياضة. إنّه قابع في مملكة صغيرة استغنى بها عن العالم كلّه، ويودّ لو يمضي عمره في حدودها لا يجاوزها. وإذا بالآخر يسأله عن الفلّاحين؟

ـ أنا فلّاح أيضًا، وكذٰلك كان أبي، ولا أجد صعوبة في التعامل معهم، إنّهم قوم طيّبون...

وعاد حسين يتساءل ولٰكنّه عدل عن الموضوع بلباقة:

ـ ألم ترشّح نفسك للاتّحاد القوميّ؟

فقال بتوكيد:

ـ اقترح عليّ كثيرون ذٰلك. ولٰكنّني سعيد هٰكذا!

تخيّل حسين تلك الحياة الجامعة للفطرة والحضارة معًا، المنعّمة بكلّ طيب، المنطوية في عزّة وكبرياء، المتعزّية باللذائذ الدنيويّة والفكريّة، الهائمة بالليل والقمر والبار الأمريكانيّ والغرزة البلديّ. . .

ـ وأصدقاء الماضي؟

ـ مَن؟! الخاصّة يمضون عندي نهاية الأسبوع، أمّا الآخرون فلا أدري عنهم شيئًا. . .

وأبى أن يتكلّم كلمة واحدة عن أمر من الأمور العامّة فلم يلحّ عليه وسأله:

ـ ألا تشتاق أحيانًا إلى السينما مثلًا؟

ـ عندي صالة عرض خاصّة، لا ينقصني شيء!

وعرض عليه الصورة المدرسيّة القديمة لعلّه يدلّه على أحد منها فتفحّصها باسمًا. ثمّ أشار إلى وجه قائلًا:

ـ عليّ سليمان، أصيب برصاصة في صدره على عهد صدقي، وبسببها عُيّن في السلك السياسيّ بعد تخرّجه، ثمّ خرج أخيرًا في التطهير. . .

وأشار حسين إلى صورة حامد زهران فهزّ الآخر رأسه نافيًا، فقال:

ـ حامد زهران، مدير شركة، ٥٠٠ ج.م. شهريًّا!

فتساءل بحاجبيْه «حقًّا؟» ولم ينبس، والتمعت عيناه بنظرة ارتياب حائرة، فأنهى الآخر الحديث.

* * *

وفي وزارة العدل اهتدى إلى مقرّ أوّل المدرسة الأستاذ إبراهيم الأورفلي المستشار بالجنايات. رصده أمام بناء المحكمة حتّى خرج متبوعًا بالحاجب الذي راح ينادي التاكسي، فأقبل نحوه مبتسمًا، ورمقه المستشار بنظرة داهشة، ثمّ ما لبث أن تعرّف عليه فمدّ إليه يده مصافحًا. ولـمّا أدرك مقصده بصفة أوّليّة دعاه إلى الغداء معه فحملهما التاكسي إلى مسكنه بشارع ماهر. دخلا مسكنًا محترمًا لكنّه عاديّ في جملته ممّا أدهش حسين منصور، ولكن عندما تحلّق السفرة معهما ثمانية من الأبناء متقاربي السنّ زايلته الدهشة.

ـ نشاطك الصحفيّ يلفت الأنظار حقًّا!

فشكره وهو يسترق النظر إلى جسده النحيل وعينيه اللامعتين المتعبتين. كم تمتّع في المدرسة بصيت التفوّق الساحر؟ اليوم لا يعلم باسمه أحد خارج دائرة القضاء. ولـمّا ألمح على مهمّته بشيء من التفصيل قال الأورفلي بسرعة:

ـ لا شأن لعملي بالصحافة! عندما كنت رئيس نيابة وفي أثناء التحقيق في قضيّة مشهورة حاولت الصحافة دفعي إلى الأضواء ولكنّني أبيت عليها ذلك، الشهرة لا تعني شيئًا للقاضي، والمتّهمون إمّا أبرياء يجب صيانتهم، أو مذنبون لا يجوز التشهير بهم.

فقال حسين بثقة:

ـ لا تخشَ النشر، إنّي أقوم بدراسة عن المدرسة والحياة، وإذا شئت رمزت إلى اسمك بحرف، وقد أستغني حتّى عن هذا. . .

ـ وهو الأفضل، ولكن ماذا تريد على وجه التحديد؟

فحدجه بنظرة إغراء صحفيّة وهما يحسوان القهوة في الصالون منفردين، ولم يبق من الأولاد إلّا طنين يقتحم باب الحجرة المغلق من آن لآن. . .

ـ أريد أن أسجّل رأيك في جيلنا وفي هذا الجيل، أهمّ القضايا التي فصلت فيها، فلسفتك عن عملك والحياة. . .

ومضى يفصح عن آرائه في تمهّل وفي شيء من الحياء. . . كان متحيّزًا للجيل الماضي كأفراد وللحاضر كفلسفة، وبدا معجبًا بمهمّته راضيًا عنها رغم ما تقتضيه من جهد متواصل، ثمّ أخذ يروي عجبًا من القضايا التي صادفته.

ـ أنت كنت الأوّل علينا دائمًا.

ففكّر مليًّا، ثمّ قال:

ـ وكنت أوّل البكالوريا في القطر كلّه. . .

ـ أرى في وجهك صفاء غريبًا رغم كلّ شيء.

ـ رغم ماذا؟

فقال برقّة:

ـ إنّ مَن يحكم بالإعدام على إنسان. . .

فقاطعه بتوكيد:

ـ ما دمت مرتاح الضمير فإنّي لا أعرف للقلق معنى. . .

ـ الحقّ أنّ صفاءك غير عاديّ.

فضحك عاليًا وهو يقول:
ـ اعتبرني من الصوفيّة إذا شئت.
فتجلّت الدهشة في عيني حسين وتوثّب إلى مـزيد من المعرفة ولٰكن سرعان ما بدا على الآخر ما يشبـه الندم على ما فرط منه وأبى أن يزيد كلمة واحدة.
ـ يبدو أنّ عملكم شاقّ حقًّا.
ـ حياتنا تفنى بين أوراق القضايا...
واضـح جدًّا أنّـه مرهق بـالعمل، كـما كان وهـو طـالب، رهبنة نبيلة وكفـاح متّصل، وثـمانيـة أولاد، وتصوّف.
ـ مع ذٰلك يـرى الموظّفـون في كادر القضـاء جنّة النعيم...
فقال مبتسمًا:
ـ لنا الجنّة!
وعرض عليه الصورة المدرسيّة فنظر فيها باهتمام، فأشار حسين إلى حامد زهران متسائلًا:
ـ ألا تذكر هٰذا الطالب؟
ـ كلّا...
ـ حامد زهران، من ساقـطي البكالـوريا، مـدير شركة، ٥٠٠ ج.م. شهريًّا.
فحملق في الصورة كأنّما يحملق في طبق طائر، فقال حسين:
ـ ظننت الخبر لا يهزّ الصوفيّ.
وانـطلقا معًـا يضحكان. وسـأله عمّن يعـرف في الصـورة من زملاء الـدراسة فجـرى بصره عليها ثمّ وضع أصبعه على وجه في الصفّ الثاني وهو يقول:
ـ محمّد عبد السلام، كاتب بالنيابة، وعمل معي في أوّل عهدي بالخدمة في أبو تيج ولا أدري الآن عنـه شيئًا...
واضطرّ إلى السفر إلى المنيا ليقابل محمّد عبد السلام في مقرّ عمله الأخير. بدا له أكبر من سنّه بعشرة أعوام عـلى الأقلّ، ووجـد في هيئته الـرثّة وشعـره الأبيض الأشعث وثنيتيه المفقودتين ما يـذكّر بـالخرابـات. ولم يتـذكّره الـرجل ولم يقتنـع بدعـواه حتّى أطلعـه عـلى الصـورة القديمـة. وجلسا في حجـرة استقبال سـائبة المفاصل في شقّة قديمة مكتظّة بالذرّيّة.

ـ لا أعرف أحدًا في هٰذه الصورة، طول مدّة خدمتي وأنا أتنقّل من بلد إلى بلد...
ووجد حسين في قلبه نغز ألم، وشعر نحو الرجل برثاء واحترام عميقين، وسأله عن درجته فقال:
ـ الدرجة الخامسة منذ عام، اكتب هٰذا يا أستاذ، ويـا حبّذا لـو تنشر صورتي مـع الأولاد، ستّ بنات وأربعة أولاد، ما رأيك؟ أليس من الجائز أن يكون الله قد أرسلك لي فرجًا في الشدّة؟!
ووعده بكلّ خير! واستدرجه للحديث عن ذكريات العمل، ورجاه أن يكتب له بالتفصيل ميزانيّة أسرته في عام مثلًا، وأشار إلى صورة حامد زهران قائلًا:
ـ هٰذا الزميل القديم يتقـاضى اليوم ٥٠٠ ج.م. شهريًّا.
فـذهل الـرجل حتّى خيّـل إليـه أنّ وجهـه ازداد شحوبًا، وتساءل:
ـ ماذا يعمل؟
ـ مدير شركة.
ـ لٰكنّ الوزير لا يقبض نصف هٰذا القدر!
ـ هٰذا شيء وذٰلك شيء...
فتساءل في دهشة:
ـ كيف وفيمَ ينفقها؟
فابتسم حسين ولم يجب فسأله الآخر:
ـ وما شهادته؟
ـ الكفاءة!
ـ يا خبر أسود، أنت تمزح...
ـ كلّا، العبرة ليست بالشهادة...
ـ العـبرة بماذا؟ دلّني كيف يصـل إنسان إلى هٰـذا الحظّ؟... هـا هـو يقف معي في صفّ واحـد في الصورة فخبّرني كيف بلغ هٰذه المرتبة؟!
فقال ملاطفًا:
ـ هناك شيء اسمه الحظّ...
فهزّ الآخر رأسه في حزن وقال بيقين:
ـ لا يوجد عمل في بلادنا يستحقّ هٰذا القدر من المال، وإلّا فلماذا لم نصل إلى القمر؟
وضحك حسين قائلًا:
ـ على أيّ حال أنتم أحسن حالًا من الملايين...

فقال محتجًّا:

ـ الملايين، أنا عارف هٰذا، ولٰكنّ حامد زهران هو المشكلة.

* * *

ولم يجد صعوبة في الاتّفاق على مقابلة مع جاره القديم حامد زهران. ولـمّا كانت الشركة ليست بالمكان المناسب للمقابلة الحرّة فقد دعاه إلى مسكنه بالدقّي. وتطلّع حسين إلى الفيلّا القائمة في أحضان الصفصاف بإعجاب، وسرعان ما ذكّرته بقصر عبّاس الماوردي في عزبة قليوب، الهندسة الرائعة والحديقة السابغة وأنفاس العزّ العطريّة. ترى أيّ صورة يتراءى فيها اليوم ذٰلك الجار القديم؟... فإنّه لا يحتفظ منه إلّا بالعود النحيل والوجه الشاحب، العابث في ضحكه، شبه الجائع، وهي صورة لا تتلاءم بحال مع هٰذه الفيلّا المثيرة. الله يرحم أيّام زمان يا حامد، أيّام الشلن تقترضه بشقّ الحيل ولا تردّه ولا بالطبل البلديّ. ليت الزمن لم يفرّق بيننا، إذن لرأيت عن كثب كيف تقع هٰذه الزلازل البشريّة!

ـ أهلًا حسين، أين أنت يا رجل؟

كان في كامل زيّه كالكبراء في بيوتهم، وكان الصالون يخطف الأبصار بالأضواء والمرايا والتحف، أما هو فقد اخضرّ عوده وجرى فيه ماء الحياة.

ـ أنا أحتجّ على هٰذه الزيارة النفعيّة، كان يجب أن يكون هٰذا البيت بيتك، حتّى التهنئة الواجبة لم أتلقّها منك في حينها!

وارتبك حسين قليلًا لكنّه قال بلباقة:

ـ لن يشفع لي عذر!... لذٰلك أطلب العفو...

وضحك حامد قانعًا. ونسيا في حديث الذكريات الحاضر وقتًا غير قصير، ثمّ تحفّز الصحفيّ للعمل. وتجنّب حسين الأسئلة التي قد يشتمّ فيها تعريض أو سخرية قاصرًا تحرّياته على النجاح وكيف تيسّر له، وعن سياسته في الشركة وآرائه في جيله... الخ...

ـ كانت تربطني بالمدير السابق علاقة العمل قبل أن يتولّى إدارة الشركة فاختارني سكرتيرًا له ثمّ مديرًا لمكتبه، فهو قد اختارني عن خبرة سابقة...

خبرة سابقة! الحقّ أنّك فتحت بيتك القديم نادي قمار للسادة من رؤسائك، نادي قمار وغرزة أيضًا، ولٰكن من المقطوع به أنّك ذكيّ نهّاز للفرص!

ـ وفي مدّة خدمتي في مكتبه درست كلّ كبيرة وصغيرة ممّا يتّصل بالعمل، وتعرّفت على جميع الكبار من المتعاملين مع الشركة.

ـ في هٰذا يوجد الفرق بين العبقريّ والعاديّ من السكرتاريّين.

ـ ومديري هو الذي رشّحني للوظيفة عند نقله منها إلى الخارج...

ـ نِعْم الترشيح! ولٰكن ما هي السياسة التي رسمتها للمستقبل؟

وأفاض في الحديث عن ذٰلك بثقة واعتداد، ودوّن الآخر خلاصة وافية للكلام وهو يراقبه عن كثب، ويسجّل في ذاكرته حركاته وسكناته، وعندما انتهى التحقيق قام زهران وقال وهو يتّجه إلى الداخل:

ـ انتظر حتّى أقدّمك إلى زوجتي...

آه... فايقة!... الجارة القديمة!... ترى كيف أصبحت اليوم؟! تزوّجها زهران أيّام التلمذة وكان جارًا لأبيها عمّ سلامة سائق الترام. ترى كيف تتبدّى اليوم في هٰذه الفيلّا؟!

ورجع حامد زهران يسير بين يدي فتاة في العشرين، حلية برّاقة، ووجه مستعار السمات من الشرق والغرب، ربّاه أهي زوجة جديدة.

وتمّ التعارف، وجرى الحديث بالإنجليزيّة أكثر الوقت، وكانت المباهاة تصرخ في وجه زهران الضاحك. ولٰكن أين فائقة؟... ماتت أم طُلّقت؟!

لم تكن الصورة لتتمّ حتّى يتأكّد من هٰذه النقطة. ومضى من توّه إلى عطفة الكرماني بباب الشعريّة، إلى مسكن عمّ سلامة القديم، وفي أوّل العطفة علم من كوّاء بلديّ بأنّ عمّ سلامة توفّي من سنوات، وأنّ ابنته فائقة فاتحة دكّان سجائر وحلوى أسفل البيت. واقترب من البيت منفعل الصدر وهو يحاذر أن تراه حتّى وقع عليها بصره وهي جالسة وراء الطاولة لا يبدو منها سوى وجهها وعنقها. وكانت تدخّن سيجارة وقد بدا وجهها أكبر من سنّه بعشر سنوات على الأقلّ كوجه محمّد عبد السلام كاتب نيابة المنيا. وبدت شاردة

الطرف متجهّمة ومستسلمة للمقادير. وتذكّر كم كانت مثالًا للصبر والحيويّة والأمـل فشعر بـأنّ أنبل مـا في صدره ينحني لها رثاء واحترامًا...

وغادر عطفة الكرماني ضيّق الصدر بعكارة الجوّ. ومضى يفكّر في ما جمع من موادّ لدراسته ويحلّلها تحليلًا أوّليًّا وهو يتساءل:

ـ تـرى أيّ معنى ستتمخّض عنـه هـذه الصـورة القديمة؟!

الطريق

- ١ -

اغرورقت عيناه. رغم ضبطه لمشاعره وكراهيته أن يبكي أمام هٰؤلاء الرجال اغرورقت عيناه. وببصر مائع نظر إلى الجثمان وهو يُحمل من النعش إلى فوهة القبر. بدا في كفنه نحيلًا كأن لا وزن له، شدّ ما هزلتِ يا أمّاه، وتوارت عن ناظريه تمامًا فلم يعد يرى إلّا ظلمة. وسطعته رائحة التراب، ومن حوله احتشد الرجال ففاحت أنفاس كريهة وعرق، وفي الحوش خارج الحجرة ارتفع لغط النساء، وانفعل برائحة التراب حتّى عافت نفسه كلّ شيء. وهمّ بالانحناء فوق القبر ولٰكنّ يدًا شدّت على ذراعه وصوتًا قال:

- تذكّر ربّك...

تقزّز من ملمسه ولعنه من الأعماق. هٰذا خنزير كسائر مَن حوله من الخنازير. ولٰكنّ لحظة الوداع استردّته بوخزة كالندم، وقال إنّ معاشرة ربع قرن من الزمان لا تعني في هٰذه اللحظة شيئًا ولا تساوي شيئًا، وتردّد من بعيد صوت كالعواء ثمّ دخل الحجرة طابور من العميان فطوّقوا القبر في نصف دائرة ثمّ جلسوا القرفصاء. وشعر بأعين كثيرة تحدّق فيه أو تسترق إليه النظرات، إنّه يعرف ما تعنيه هٰذه النظرات. وشدّ قامته الرشيقة في عناد. يقولون لِمَ يقف هٰكذا غريبًا في منظره وملبسه كأنّه ليس واحدًا منّا. لِمَ نحّته أمّه عن بيتّه ثمّ تركته وحيدًا؟ إنّهم لا يعزّونك ولٰكنّهم يدارون شماتتهم بك. ومذاق الحياة أمسى كالتراب. وبرز من الفوهة الترابيّ ومساعده فوقفا فوق سطح الأرض مرّة أخرى وأقبلا يسدّان القبر ثمّ يسوّيان الأرض في نشاط وحيويّة. ونادى السقّاء على الماء، ورتّل العميان، ثمّ ردّد رئيسهم التلقين. وتساءل عمّا ستجيب به أمّه. وقال إنّها ستكون وحيدة حقًّا. وماذا يقول في ذٰلك الخنازير؟ ها هو الخشوع يغشى جباههم كسحابة صيف. وأدركه الضجر فتاق إلى الوحدة في بيته وألحّت عليه رغبة في أن يعيد النظر في كلّ شيء. ستحدق الأسئلة المحرجة بأمّه في ظلام القبر. ولن يساعدها أحد من هٰؤلاء الشياطين، ولٰكنّ يومكم سيجيء. وانخفضت الأصوات في نغمة حزينة موحية بالختام، ووقف الطابور في حال انتظار وتقدّم الترابيّ منه خطوات. عند ذاك قال الواقف إلى يمينه:

- دعه لي فلا تحاسبه إنّي أدرى بهٰؤلاء الناس...

وثار حنقه من جديد ولٰكنّه أدرك أنّ الطقوس قد انتهت وتضاعف شعوره بالوحدة. وألقى على المقبرة نظرة شاملة فارتاح لأناقتها وتراءى له بين قضبان النافذة اللبلاب والصبّار والريحان التي تزركش جدار الفناء والأركان. كانت رحمها الله تحبّ الرفاهية فأعدّتها للدارين ولٰكن لم يبقَ لها إلّا المقبرة. وتحرّك الناس في بطء نحو الحوش فمضى إلى الباب الخارجيّ ليودّع المشيّعين. وصافحته النساء أوّلًا، ورغم ثياب الحداد والبكاء واللطم لم تختف من أعينهنّ نظرات الفجور ولا زايلت وجوههنّ القحة وفلتات التهتّك. وتتابع الرجال، شدّ حيلك وسعيكم مشكور، من تاجر مخدّرات إلى بلطجيّ ومن برمجيّ إلى قوّاد. وأتبعهم نظرة باردة وهو لا يشكّ في أنّهم يبادلونه نفس العاطفة. ومع ذٰلك لم ينس أنّه مدين لهم وهو ما يؤكّد سخطه دوامًا. وقال إنّه قد انتهى منهم إلى الأبد ولٰكنّه بلا نصير. وفي طريقه إلى مسكنه بشارع النبيّ دانيال لفحه هواء منعش معبق بأنفاس الخريف وبدت السماء غامضة في مولد المغيب. مسكن النبيّ دانيال الذي شهد فترة بهيجة ناعمة من حياته، ولا أثر للراحلة في مسكنه إلّا صوان كبير ونارجيلة مهملة تحت فراشها المهجور. وجلس في شرفة تطلّ على ملتقى النبيّ دانيال بسعد زغلول يدخّن سيجارة فجذب بصره استعداد قائم في شقّة على الجانب الآخر للطريق تسكنها أسرة إفرنجيّة، فثمّة بوفيه رُصّت عليه القوارير

وأوعية الثلج، وفي نهاية البهو تعانق رجل وامرأة بحرارة لا تناسب الوقت المبكّر. وقال إنّه ابتداء من اليوم سيعرف الحياة على حقيقتها. إنّه وحيد بلا مال ولا عمل ولا أهل ولم يبقَ إلّا أمل غريب كالحلم، إنّه مطالَب منذ اليوم بتأمين حياته، وهي مسئوليّة لم يتحمّلها من قبل. إذ نهضت بها أمّه وحدها، ففرغ هو طوال الوقت لإمتاع شبابه اليافع. وأمس فقط لم يكن يفكّر في الموت بحال. في مثل هٰذه الساعة أو قبل ذٰلك بقليل جاء الخنطور بأمّه فغادرته معتمدة على ذراعه وسارت في خطوات متثاقلة متخاذلة من الإعياء والضعف، وقد وهنت وهزلت وكبرت ثلاثين عامًا فوق عمرها الحقيقيّ الذي لم يجاوز الخمسين. هٰكذا تبدّت بسيمة عمران في آخر صورة لها، وهي راجعة إلى بيت ابنها، أو البيت الذي أعدّته لابنها، بعد أن قضت في السجن خمس سنوات. وتأوّهت قائلة:

ـ أمّك انتهت يا صابر...

فحملها بين ذراعيه دون مشقّة وهو يقول:

ـ كلام فارغ، ما زلت في عزّ الشباب...

واستلقت على فراشها قبل أن تنزع قطعة من ملابسها، ثمّ أمالت وجهها نحو مرآة في الصوان وقالت بحسرة وهي تنهج:

ـ أمّك انتهت يا صابر، من يصدّق أنّ هٰذا الوجه هو وجه بسيمة عمران!...

الألّ. في استدارة البدر كان. ووجنة مورّدة كالتفّاح، وأمّا الجسد الجسيم الهائل فلم يكن ليهتزّ هزّة واحدة عند القهقهة، وقهقهتها كانت تهتزّ لها المجالس.

ـ لعنة الله على المرض...

فقالت وهي تجفّف وجهها بكمّها رغم لطافة الجوّ:

ـ ليس المرض وحده ولٰكنّه السجن، والمرض جاء من السجن، أمّك لم تُخلق لذٰلك، وقالوا الكبد والضغط والقلب. الله يمرض عيشتهم، ترى ألا يمكن أن أرجع إلى ما كنت؟

ـ وأحسن، عندك الراحة والطبّ...

ـ والمال؟!

وامتعض عند ذٰلك فلم ينبس، فسألته:

ـ ماذا تبقّى لك منه؟

لم يخلُ من حذر وهو يجيب:

ـ شيء لا يذكر...

ـ كنت حكيمة عندما كتبت بيت رأس التين باسمك وإلّا لصادروه فيما صادروا من مالي.

ـ ولٰكنّي بعته عندما نفدت نقودي كما قلت لك وقتها...

فتأوّهت وهي تضع راحتها على يافوخها:

ـ آه يا رأسي، ليتك أبقيت عليه، كان في يدك مال كثير ولٰكنّني أنا التي عوّدتك على الحياة الحلوة، أردت أن تعيش مثل الأكابر، وأردت أن أترك لك ثروة لا يُغرقها البحر، ثمّ...

ـ ثمّ ضاع كلّ شيء في خبطة واحدة..

ـ نعم، منهم لله، انتقام وضيع من رجل وضيع، رجل طالما تنعّم بنقودي، ثمّ حقد عليّ بسبب بنت لا تساوي ثلاثة ملاليم فتذكّر فجأة الواجب والقانون والأعراض وأوقع بي ابن الزانية، لذٰلك بصقت على وجهه في المحكمة...

وطلبت سيجارة بإشارة من يدها فأشعل لها سيجارة وهو يقول:

ـ الأفضل ألّا تدخّني الآن، هل كنت تدخّنين هناك؟

ـ سجائر وحشيش وأفيون، ولٰكنّي كنت قلقة عليك دائمًا...

ودخّنت رغم تهافتها، وجفّفت وجهها وعنقها بيدها الأخرى:

ـ وماذا عن مستقبلك يا بنيّ؟

ـ كيف لي أن أدري؟ ليس أمامي إلّا أن أعمل برمجيًّا أو بلطجيًّا أو قوّادًا...!

ـ أنت!

ـ حقّ أنّك علّمتني حياة أجمل ولٰكنّي أخشى ألّا يكون ذٰلك في صالحي...

ـ أنت لم تُخلق للسجون!

ـ وماذا في الدنيا غير هٰذه الأعمال؟

ثمّ مستدركًا في حدّة:

ـ كم شمت بي الأعداء في غيابك!

ـ صابر... تجنّب الغضب. إنّه الغضب الذي أدخلني السجن فما كان أسهل عليّ أن أرضي الوغد الذي غدر بي...

ـ في كلّ مكان أصادف من يستحقّ السجن...

ـ دعهم يقولوا ما يشاءون ولكن لا تستعمل قبضتك...

فكوّر قبضته قائلًا:

ـ لولا هٰذه القبضة لعرّضوا بي في كلّ مكان، إنّ أحدًا لم يجرؤ على ذكرك بسوء أمامي وأنت في السجن...

فنفخت الدخان في غضب وقالت:

ـ أمّك أشرف من أمّهاتهم، إنّني أعني ما أقول، ألا يعلمون أنّه لولا أمّهاتهم لبارت تجارتي..!

ابتسم صابر رغم الكآبة الشاملة فعادت تقول:

ـ إنّهم مهرة في خداع الناس بمظاهرهم، الوجيه فلان... المدير فلان... الخواجا علّان... سيّارات وملابس وسيجار... كلمات حلوة... روائح زكيّة... لكنّني أعرفهم على حقيقتهم، أعرفهم في حجرات النوم وهم مجرّدون من كلّ شيء إلّا العيوب والفضائح، وعندي حكايات ونوادر لا تنفد، الأطفال الخبثاء القذرون الأشقياء، وقبل المحاكمة اتّصل بي كثيرون منهم ورجوني بإلحاح ألّا أذكر اسم واحد منهم ووعدوني بالبراءة، مثل هٰؤلاء لا يجوز أن يعيّروك بأمّك فأمّك أشرف من أمّهاتهم وزوجاتهم وبناتهم، وصدّقني أنّه لولا هٰؤلاء لبارت تجارتي...

عاوده الابتسام فتأوّهت قائلة:

ـ أين أيّام الضحك أين؟ أمّك أحبّتك بكلّ قواها، ولك أعددت هٰذا المسكن الجميل بعيدًا عن جوّي كلّه، وأرسلت مالي يجري تحت قدميك فإذا جاءتك منّي إساءة لا حيلة لي فيها فلا ذنب لي، وليس في الرجال من له نصف جمالك ورشاقتك، غير أنّه يجب أن تتجنّب الغضب وأن تتّعظ بما جرى لي...

رنا إلى تعاستها بحزن ثمّ تمتم:

ـ سيعود كلّ شيء إلى أصله...

ـ أصله؟! أنا انتهيت، بسيمة أيّام زمان لن تعود، ولا سبيل إلى العمل من جديد، لا الصحّة تسمح بذلك ولا البوليس...

ونظر إلى الأرض قائلًا:

ـ لم يبقَ من ثمن البيت إلّا القليل...

ـ وما العمل؟ يجب أن تعيش كما عوّدتك!

ـ لكنّي لم أعرفك يائسة أبدًا.

ـ إلّا هٰذه المرّة...

ـ إذن عليّ أن أعمل أو أن أقتل...

أطفأت السيجارة ثمّ أغمضت عينيها إعياء أو طلبًا للتركيز فقال صابر:

ـ لا بدّ من مخرج...

ـ نعم طالما فكّرت في ذٰلك وأنا في السجن...

ولأوّل مرّة في حياته تزعزعت ثقته في أمّه. واستطردت المرأة:

ـ أجل فكّرت طويلًا، ثمّ أقنعت نفسي بأنّه لا يصحّ أن أصرّ على الاحتفاظ بك ما دام ذٰلك في غير مصلحتك...

حدجها بنظرة متسائلة من عينيه السوداوين فتمتمت بنبرة اعتراف منهزمة:

ـ أنت لا تفهم شيئًا ولك حقّ، الواقع أنّ الحكومة صادرتك ساعة صادرت أموالي، لم يعد لي الحقّ في امتلاكك أنت أيضًا، أدركت ذٰلك يوم صدور الحكم...

وصمتت من شدّة معاناة اليأس ثمّ واصلت:

ـ معنى هٰذا أنّه يجب أن تهجرني...

تساءل بامتعاض:

ـ إلى أين؟

أجابت بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ إلى أبيك...!

رفع حاجبيه المقرونين في ذهول هاتفًا:

ـ أبي؟!

فهزّت رأسها علامة الإيجاب فقال:

ـ لكنّه ميت، أنت قلت إنّه مات قبل مولدي...

ـ قلت ذٰلك لكنّه ليس من الحقيقة في شيء...

ـ أبي حيّ! شيء مذهل حقًّا، أبي حيّ!

وجعلت ترمقه بنظرة استياء ومضى هو يقول:

ـ أبي حيّ! لكن لِمَ أخفيت عنّي ذٰلك؟

ـ آه جاء دور الحساب...

ـ أبدًا، ولكن ألا يحق لي أن أسأل؟

ـ أيّ أب في الدنيا كان يمكن أن يهيّئ لك من أسباب السعادة بعض ما هيّأت لك...

ـ لا أنكر شيئًا من هٰذا أبدًا...

ـ إذن فلا تحاسبني واستعدّ للبحث عنه...

ـ البحث؟!

ـ نعم إنّي أتحدّث عن رجل كنت امرأة له منذ ثلاثين عامًا ثمّ لم أعد أدري عنه شيئًا....

قطّب في حيرة وتهاوى جذعه الذي أطلقه الانفعال:

ـ أمّي ما معنى هٰذا كلّه؟

ـ معناه أنّي أوجّهك إلى المخرج الوحيد من ورطتك...

ـ لعلّه قد مات...

ـ ولعلّه حيّ...

ـ وهل أضيّع عمري في البحث عن شيء قبل التأكّد من وجوده؟

ـ ولكنّك لن تتأكّد من وجوده إلّا بالبحث، وهو خير على أيّ حال من بقائك بلا مال ولا أمل...

ـ موقف غريب لن أحسد عليه.

ـ بديله الوحيد أن تعمل برجيًا أو بلطجيًا أو قوّادًا أو قاتلًا، فلا بدّ ممّا ليس منه بدّ...

ـ وكيف يمكن أن أعثر عليه؟

تنهّدت من الأعماق وهي تزداد تعاسة بالعودة إلى الماضي:

ـ أمّا اسمه فهو المسجّل في شهادة ميلادك، سيّد سيّد الرحيمي، وقد أحبّني منذ ثلاثين عامًا وكان ذٰلك في القاهرة...

ـ القاهرة! ليس أيضًا في الإسكندريّة!

ـ إنّي أعلم أنّ مشكلتك الحقيقيّة ستكون في العثور عليه...

ـ لِمَ لَمْ يبحث عنّي هو؟

ـ إنّه لم يعلم بك...

قطّب صابر واستقرّت في عينيه نظرة احتجاج مكفهرّة فقالت:

ـ انتظر، لا تنظر إليّ هٰكذا، واسمع بقيّة الحديث عنه، إنّه سيّد ووجيه بكلّ معنى الكلمة، لا حدّ لثروته ولا نفوذه، لم يكن في ذٰلك الوقت إلّا طالبًا بالجامعة ومع ذٰلك كانت الدنيا تهتزّ لدى محضره.

تابعها بنظرة تجلّى فيها الاهتمام المشوب بالفتور فقالت:

ـ أحبّني، وكنت بنتًا جميلة ضائعة، وحفظني سرًّا في قفص من ذهب...

ـ تزوّجك...

ـ نعم، وما زلت أحتفظ بشهادة الزواج...

ـ ثمّ طلّقك؟

تنهّدت قائلة:

ـ بل هربت!

ـ هربتِ؟!

ـ هربت بعد معاشرة أعوام وأنا حبلى، هربت مع رجل من أعماق الطين...

بذهول وهو يهزّ رأسه:

ـ شيء لا يصدّق...

ـ وبعد قليل ستتّهمني بأنّني المسئولة عن ورطتك...

ـ لن أتّهمك بشيء فحسبنا ما بنا، ولٰكن ألم يبحث عنك؟

ـ لا أدري، هربت إلى الإسكندريّة ثمّ لم أسمع عنه شيئًا، وكثيرًا ما توقّعت أن ألقاه يومًا في أحد بيوتي ولٰكنّ عيني لم تقع عليه...

ضحك في فتور ثمّ قال:

ـ وبعد ثلاثين عامًا تدفعينني للبحث عنه...

ـ أليس يدفعنا إلى ما هو أغرب من ذٰلك، وستكون معك شهادة الزواج وستكون معك أيضًا صورة الزفاف، وسوف ترى بعينيك أنّك صورة منه...

ـ عجيب أن تحتفظي بالشهادة والصورة...

ـ كنت أفكّر في مستقبلك، وكنت فتاة فقيرة تعيش في كنف بلطجيّ، ولـمّا أتاني النجاح صدقت نيّتي على الاستئثار بك...

ـ ومع ذٰلك لم تتخلّصي من بقايا الذكريات...

جفّفت وجهها وعنقها بحركة حادّة بعض الشيء

وقالت:

ـ هممت بذلك مرّات ثمّ عدلت، كأنّ ركنًا فيّ كان يتنبّأ بما سيقع...

راح يذرع الحجرة في حيرة ثمّ وقف أمام السرير وهو يسأل:

ـ وإذا بعد الجهد والتعب أنكرني؟

ـ مَن يرى بهاء صورتك وينكرك؟!

عاد إلى الجلوس وهو يقول:

ـ القاهرة مدينة كبيرة وأنا لم أزرها من قبل...

ـ مَن قال إنّه اليوم في القاهرة؟ لِمَ لا يكون في الإسكندريّة، أو في أسيوط أو دمنهور، الحقّ أنّه لم يطلعني على حال من أحواله، أين هو اليوم، ماذا يعمل، أهو أعزب أم متزوّج؟ الله وحده يعلم...

فلوّح بيده كالغاضب وقال:

ـ وكيف يراد منّي العثور عليه؟

ـ ليس ذلك يسيرًا بطبيعة الحال ولكنّه ليس بالمحال، وأنت لك معارف من ضبّاط البوليس والمحامين، وليس من شخصيّة كبيرة إلّا ولها في القاهرة مقام...

ـ أخشى أن ينفد مالي قبل العثور عليه...

ـ لذلك يجب ألّا تتوانى عن البحث...

وتفكّر قليلًا ثمّ سأل:

ـ وهل يستحقّ يا ترى كلّ هذا التعب؟

ـ بلا أدنى شكّ يا بنيّ، ستجد في كنفه الاحترام والكرامة، وسيحرّرك من ذلّ الحاجة إلى أيّ مخلوق بما سيهيّئ لك من عمل غير البلطجة أو الجريمة، فتظفر آخر الأمر بالسلام...

ـ وإن وجدته فقيرًا!... ألم تكوني أنت غنيّة لا يحيط بثروتك حصر؟

ـ أؤكّد لك أنّ المال ليس إلّا حسنة من حسناته، وقد كنت غنيّة حقًّا ولكنّي لم اهيّئ لك كرامة ولا عملًا ولا سلامًا، وكنت تسير ملوّحًا بلكمتك لتُخرس الألسنة المتوثّبة للنيل منك ومن أمّك...

عاد إلى التفكير فخيّل إليه أنّه يحلم، ثمّ سألها:

ـ هل تؤمنين حقًّا بأنّني ساعثر عليه؟

ـ شيء يحدّثني بأنّه حيّ وأنّك إذا لم تيأس أو تتوانَ فسوف تعثر عليه...

هزّ رأسه وهو بين الحيرة واليأس وتمتم:

ـ هل حقًّا أمضي للبحث عنه؟ وإذا علم أعدائي بهذه الحكاية أفلن يجعلوا منّي نادرة جنونيّة؟!

ـ وماذا يقولون إذا وجدوك آخر الأمر قوّادًا؟ الحقّ أنّه لا خيرة لك فيما أنت ذاهب إليه..

أغمضت عينيها بعد ذلك وغمغمت «إنّي تعبة جدًّا» فرجاها أن تنام على أن يستأنفا الحديث غدًا. وخلع حذاءها ثمّ غطّاها ولكنّها أزاحت الغطاء عن صدرها بحركة عصبيّة فلم يُعِده، وما لبث شخيرها أن تردّد. واستيقظ حوالى التاسعة من صباح اليوم التالي بعد ليلة سهاد ممزّقة بالفكر. وذهب إلى حجرتها ليوقظها فوجدها ميتة. ترى هل ماتت وهي نائمة أو أنّها نادته آخر الليل فلم يسمع؟ على أيّ حال وجدها ميتة وهي لم تزل بالملابس التي غادرت بها السجن. وها هو الآن يتفحّص بعناية ودهشة صورة الزفاف. الصورة التي جمعت بين والديه منذ ثلاثين عامًا. وها هو يركّز بصره على صورة أبيه، على وجهه بالأخصّ. شابّ جميل حقًّا، مفعم بالشباب والحيويّة، ونظرته تفيض بالاعتداد بالنفس، ووجهه المائل للبياض، المستطيل الممتلئ، ذو الجبهة العالية، والطربوش المائل إلى اليمين، لا يمكن أن يُنسى. ولم تكذب أمّه حين قالت إنّه صورة منه ولكنّه كما يكون القمر على الورق صورة من القمر في كبد السماء.

وفي شقّة الجيران أخذ المدعوّون يتوافدون وأنغام الموسيقى تترامى، هذا صوت القرآن يُتلى في غرفة المرحومة. والآن أين هي الحقيقة وأين هو الحلم؟ أمّك التي ما تزال نبرتها تتردّد في أذنك قد ماتت، وأبوك الميت يُبعث في الحياة. وأنت المفلس المطارَد بماضٍ ملوّث بالدعارة والجريمة تتطلّع بمعجزة إلى الكرامة والحرّيّة والسلام.

ـ ٢ ـ

ليبقَ الأمر سرًّا، وإذا خاب مسعاه فليستعن بمعارفه، وليبدأ بالإسكندريّة فهذا طبيعيّ جدًّا، وإن يكن من المستبعَد أن يقيم بها شخص كأبيه ولا تدري

به أمّه. واتّخذ من دليل التليفون دليله، حرف السين، سيّد، سيّد، سيّد... حتّى استقرّت عيناه على سيّد سيّد الرحيمي. آه لو يدلّله الحظّ ويعفيه من متاعب لا يدري مداها أحد. سيّد سيّد الرحيمي صاحب مكتبة المنشيّة. أين هٰذا من جاه أبيه؟ والمنشيّة كانت معبدًا لأمّه طيلة ربع قرن من الزمان، ولٰكن لعلّه يجد في الاسم مفتاحًا للّغز. وجد صاحب المكتبة في الخمسين من عمره، وذا سحنة لا تمتّ بسبب إلى صورة أبيه، وأخبره أنّه يبحث عن سميّ له وأطلعه على صورته مخفيًا صورة أمّه، وقال الرجل:

ـ لا أعرف صاحب هٰذه الصورة.

ولـمّا أوضح له أنّها صورة التُقطت منذ ثلاثين عامًا قال:

ـ ولا أذكر أنّي رأيته...

ـ ألا يمكن أن يكون قريبًا من بعيد؟

ـ نحن في الأصل من الإسكندريّة، وجميع أهلي يقيمون هنا عدا بعض أقارب في الريف من ناحية الأمّ، ولٰكن ما سبب بحثك عنه؟

وارتبك لحظة ولٰكن سرعان ما أجاب:

ـ إنّه صديق قديم للمرحوم أبي، أليس للرحيمي فروع في بلاد أخرى؟

وتفحّصه بنظرة لم تخلُ من ريبة وقال:

ـ الرحيمي هو جدّي، ولا ينتسب إليه من أسرتنا إلّا أنا وأختي وليس لنا فروع من ناحيته خارج الإسكندريّة.

ولا سبيل إلى الصبر أو الطمأنينة لمن لم يعد يملك سوى مائتين من الجنيهات. وهي تتناقص بمرور الساعات ولا أمل بعدها في حياة كريمة. ومرضت عيناه من التفحّص المركّز للوجوه وأعياه القلق. ولجأ إلى محامٍ من معارفه يشاوره فقال له:

ـ لعلّ له رقم تليفون سرّيّ...

وتطوّع لمعاونته في الكشف عنه دون نتيجة، ثمّ قال له:

ـ اسأل مشايخ الحارات...

فقال صابر بإنكار:

ـ إنه وجيه بكلّ معنى الكلمة...

ـ إنّ ثلاثين عامًا خليقة بأن تفعل الأعاجيب، بل في نيّتي أن أكلّف صديقًا من ضبّاط البوليس ليتحرّى عنه في السجون!

ـ السجون؟!

ـ لِمَ لا؟ السجن كالجامع مفتوح للجميع، وأحيانًا يدخله إنسان لنبل في أخلاقه لا لاعوجاج.

وضحك المحامي ضحكة مقتضبة ثمّ قال:

ـ ولٰكن لنبدأ بالشهر العقاريّ فلعلّه من الأعيان المتخفّين.

ولم يكن في كشف السجون اسمه ولا في سجلّات الملّاك فلم يجد مفرًّا من اللجوء إلى مشايخ الحارات. واستبدل إلى حين اقتراحًا للمحامي بالإعلان في الصحف إذ إنّ ذٰلك يذيع مشكلته العجيبة على الملإ ويمكّن أعداءه الكثيرين في الإسكندريّة من العبث به فأجّل تنفيذ الفكرة إلى ما بعد مغادرة المدينة. ودار على مشايخ الحارات من العطّارين إلى كرموس، ومن رأس التين إلى محرّم بك. وكلّما ذكر اسم سيّد سيّد الرحيمي سئل:

ـ عمله؟!

ـ لا أدري عنه شيئًا إلّا أنّه من الوجهاء وهٰذه صورته منذ ثلاثين عامًا.

ـ ولِمَ تبحث عنه؟

ـ إنّه صديق قديم لأبي وقد كُلّفت بالبحث عنه.

وتحدّق فيه الأعين باستغراب:

ـ وهل أنت متأكّد من أنّه حيّ؟

ـ لست متأكّدًا من شيء.

ـ وكيف عرفت أنّه في الإسكندريّة؟

ـ مجرّد أمل ليس إلّا.

ثم يجيئه الجواب النهائيّ كجدار السجن:

ـ غير معروف عندنا.

ولم ترتح عيناه لحظة واحدة من التهام الوجوه، ولم يشعر في دوّامة الاستطلاع بخطى الخريف حتّى أيقظه مطر مباغت عند لسان الكورنيش الموغل في البحر فانسحب مسرعًا إلى الميرمار، ورفع عينيه إلى سماء أظلّت جوّ الظهيرة بقطع من الليل. وسمع صوتًا يقول مرحّبًا:

- تعال.

صافحها وجلس.

- لم أتمكّن من تعزيتك ولٰكنّي انتظرت أن تزور «الكباريه».

- ألستُ في حداد؟

- الكنار مكان مناسب للمحزونين، والجميع يتساءلون أين أنت؟

وتوقّف المطر فوقف من فوره معتذرًا بمشاغل فقالت بدورها هامسة:

- خبّرني هل أنت في ضائقة ماليّة؟

آه هل بدءوا يتقوّلون؟ وقالت بإغراء:

- مثلك لن يعزّ عليه المال إذا أراده!

فصافحها مرّة أخرى ببرود ثمّ ذهب. مثلك لن يعزّ عليه المال. أجل فأذعِنْ لنداء القوّادة. ذٰلك ما يتمنّاه أعداؤه ولٰكن دونه الموت. وتساءل ماذا بقي في الإسكندريّة؟

وبسط راحتيه أمام قارئ الكفّ ولٰكنّه لم يقل جديدًا. وزار العارف بالله سيدي الشيخ زندي بعطفة الفراشة. تربّع بين يديه في حجرة تحتانيّة مغلقة الشيش دوامًا فهي تعيش في مغيب متّصل وتتلوّى في جوّها سحائب البخور. وشمّ الشيخ منديله ثمّ أحنى رأسه مستغربًا ثمّ قال:

- مَن جدّ وصل..

وترامى إليه هدير الموج من الأنفوشي فقال بأمل «بداية حسنة» وقال الشيخ:

- وتَعَب كليالي الشتاء.

اليوم بسنة وكم هي باهظة التكاليف.

- وستنال مطلوبك.

وفي جزع سأله:

- ما مطلوبي؟

- إنّه ينتظرك بفارغ الصبر.

- هل يدري بي؟

- إنّه ينتظرك.

لعلّ أمّه لم تقل له كلّ شيء.

- إذن هو حيّ.

- الحمد لله.

- وأين أجده فهٰذا ما يعنيني حقًّا؟

- الصبر.

- لا يمكن الصبر إلى ما لا نهاية.

- أنت في البدء.

- في الإسكندريّة؟

أغمض الرجل جفنيه ثمّ تمتم:

- أبشّرك بالصبر.

وقطّب مغتاظًا ثمّ قال:

- لم تقل شيئًا.

فقال الشيخ محوّلًا عنه رأسه:

- قلت كلّ شيء.

وخرج إلى جوّ عاصف تركض فيه السحب مثقلة بالظلمات. وقال: دجّالون وعاهرات والنقود تبعثر بلا حساب. وعزم على بيع أثاث شقّته تمهيدًا للسفر إلى القاهرة.

وكان قد باع التحف الرشيقة في محنته ليواجه بثمنها نفقات معيشته الخياليّة. وكره دعوة السماسرة إلى شقّته فقصد المعلّمة نبويّة صديقة أمّه الحميمة والشخصيّة الوحيدة التي لم يكرهها في ذٰلك الوسط. وقالت وهي تقدّم خرطوم النارجيلة:

- سأشتري أثاثك على العين والرأس ولٰكن لماذا تهجر بلدك؟

- سأشقّ لي طريقًا في القاهرة بعيدًا عن الخلق!

- الله يرحم أمّك، أحبّتك ودلّلتك فسدّت في وجهك سبل الرزق!

وأدرك ما تعنيه فقال:

- لم أعد أصلح لهٰذه المهن!

- وماذا تفعل في القاهرة؟

- صديق هناك وعدني خيرًا.

قالت باسمة عن ثغر ذهبيّ:

- أعمالنا لا تشين إلّا المغرورين، طاوعني!

فبصق في موقد كبير ينفث بخور الهند.

وتعلّق بصره بالإسكندريّة والقطار يرجّ الأرض مبتعدًا. رآها مدينة الأطياف مغروسة في حلم الخريف تحت مظلّة هائلة من السحب، وهواء بارد معبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الأنيقة شبه الخالية. وودّعها هي

وأمّه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة. وكيف يكون الحال لو أنّ مَن تبحث عنه قد خلّفته وأنت لا تدري في ركن من الإسكندريّة لم يبلغه مسعاك؟ ومَن ضمنَ لك أن يكون حظّك في القاهرة خيرًا منه في الإسكندريّة؟ وكم في البحر من أمواج وكم في السماء من نجوم. وعجيب أن يكون بعيدًا هٰذا البعد كلّه مَن تحمل روحَه وجسدَه بين جنبيك. وما أبعدك عنه إلّا شهوة عمياء انتزعتك من أحضانه لتلدك في ماخور. وكان يسألها عن أبيه فتجيبه «كان موظّفًا محترمًا ورجلًا طيّبًا ولٰكنّه مات في ريعان الشباب»، وأهله أليس له أهل؟ فتجيبه «لا أعرف له أهلًا!». لذلك ظنّ طويلًا أنّه ابن رجل من البلطجيّة وأنّه ابن زنا. وأنت اليوم وحيد بلا أهل ولا أصدقاء كأنّك جنس غريب. وهاله الزحام في محطّة مصر فألحّ عليه شعوره بالوحدة.

ونازعته نفسه إلى العودة في أوّل قطار ولٰكنّه أودع حقيبته الأمانات ثمّ خرج إلى الميدان والشمس تميل ميلة العصر. ودار رأسه مع السيّارات والبصات والعابرين. وترامى الميدان في غاية من الاتّساع وبلا شخصيّة، وتقابل فوق أديمه متناقضات من أشعّة حامية وهواء لطيف، وشوارع مزدهرة وأخرى خربة. وقضى ساعة وهو يبحث عن فندق رخيص في الميدان وما حوله حتّى وجد نفسه في شارع الفسقيّة ذي البواكي أمام فندق «القاهرة». وقف على الطوار المسقوف المقابل للفندق على كثب من شحّاذ مستلقٍ لصق الجدار يتغنّى بمديح نبويّ. وانعكس عليه من الشارع طابع عمل ودمامة وضجر لكثرة الدكاكين على الصفّين وعربات النقل وأكوام البضائع ولٰكنّه أمل أن يجده أرخص فندق في الناحية. وهو مبنى قديم، ترابيّ الجدران، مكوّن من أربعة أدوار وعليّة فوق السطح، وذو باب مرتفع مقوّس الرأس كوجه باكٍ، يفتح على مدخل مستطيل ينتهي إلى السلّم ويتوسّطه مكتب جلس إليه رجل إلى جانبه امرأة. الرجل طاعن في السنّ أمّا المرأة.. ربّاه إنّها فتاة في عزّ الشباب تشدّ عينيه بقوّة ليست بلا سبب. إنّها توقظ مشاعر نائمة وتنبّه ذكريات مدفونة في الضباب. العطفة المبلّطة الصاعدة من الأنفوشي المشبعة بهواء البحر ورطوبته المالحة وانفعالات الجنون الملفّعة بالظلام. وسرعان ما توثّقت علاقات خفيّة بينه وبين الفندق كأنّما جاءه على ميعاد ووجد نفسه يعبر الطريق نحوه مدفوعًا برغبة في الاستطلاع والكشف وإن يكن غير مصدّق لظنونه تمامًا، وصوت الشحّاذ يتردّد عاليًا في نبرة أعجبته:

طه زينة مديحي صاحب الوجه المليحي
النصارى واليهود
أسلموا على يديه

السمرة الرائقة النقيّة، والعينان اللوزيّتان الدعجاوان، وبريقهما المضيء المفعم بالنبض والاقتحام. أين من هٰذا القطّة المهزولة ذات الثوب الباهت الواحد وأظافرها الجارحة؟ إنّها تذكّره بها بعنف تاركة له تخيّل ما صنع الزمن في عشر سنوات أو يزيد. والاسم القديم ضائع كأبيه، ولٰكنّ رائحة البحر تملأ خياشيمه وها هو يرتجف لتذكّر الليل البهيم، ورغم ذٰلك كلّه فقد ظلّ أبعد ما يكون عن اليقين. وبنت العطفة ذكرى عابرة لا قيمة لها ولٰكنّها تُبعث الآن في صورة فريدة ذات سطوة خطيرة الشأن كبعث أبيه من الموت الذي جاء به من البحر إلى هٰذه المدينة المثيرة. استقبلت الفتاة القادم بنظرة قصيرة ولٰكنّها متغلغلة ثمّ أدارت وجهها نحو استراحة الفندق إلى يمينها. ووقف صابر أمام المكتب والعجوز عاكف على دفتر يطالعه من خلال عدسة مكبّرة يمسك بمقبضها المعدنيّ الصغير بيد مرتعشة.

ولم ينتبه العجوز إلى القادم لشيخوخة حواسّه فيما بدا فأدام الشابّ النظر إلى عارض الوجه الذي شغله، مكتشفًا آيات تؤكّد ظنونه وآيات تبدّدها، ثمّ تحوّل الوجه إليه بنظرة ناقدة لانتهازيّته فربّتت على ساعد الرجل لتنبّهه، وعند ذٰلك بادره صابر قائلًا:

ـ مساء الخير يا والدي!

رفع الرجل إليه وجهه ويده لا تكفّ عن الارتعاش. وهو وجه من الصعب التنبّؤ عن صورته الأصليّة إذ اختفى أديمه تحت قناع من الأخاديد والتجاعيد، وبرز أنفه مقوّسًا حادًّا مجدورًا، واحتارت في عينيه الناضبتين نظرة باهتة ممصوصة كأنّما لم تعد

تُعنى برؤية العالم، وقال صابر:
ـ إنّي أسأل عن سعر الحجرة. . .
ـ ريال في الليلة. . .
ـ ولمن يقيم أكثر من أسبوعين؟
ـ الريال عملة لا قيمة لها اليوم. . .
ـ قد أقيم شهرًا أو أكثر تبعًا لمشيئة الله.
فأمسك الرجل عن الكلام إعراضًا عن المساومة وهنا رأى صابر طربوشه الطويل الغامق لأوّل مرّة، وتمتم:
ـ كما تشاء.
وراح يملي عليه الاسم والمكان الذي جاء منه ولـمّا سئل عن عمله أجاب:
ـ من الأعيان!
وقدّم له بطاقته الشخصيّة. وجعل يسترق النظر إلى الفتاة طوال انشغال العجوز بالبطاقة.
والتقت عيناهما مرّة ولٰكنّه لم يقرأ فيهما المعنى الذي يتلهّف عليه. وبسبب انفعاله وحده راح يقنع نفسه بأنّها هي هي. . . ولفحه هواء البحر في الركن المظلم وهو نصف عار، وملأت أنفه رائحة القرنفل المنبعثة من الشعر المبعثر. وثمل بشعور تفاؤل عجيب فقال إنّه على نحو ذٰلك سيعثر على أبيه. والمؤكّد بلا أدنى شكّ أنّ هٰذه الفتاة على استعداد لشيء ما. إنّها تقف منه موقفًا حياديًّا في الظاهر ولٰكنّها تخاطب ماضيه وأعماقه بألف لسان. ولا شكّ أنّ وراء هٰذه القشرة الناعمة الصامتة اللامبالية مدينة مسحورة. ولو كان الظرف غير الظرف لدعاها إلى الرقص واحتواها بين ذراعيه وقال لها بكلّ جراة كيف يرضى بالعيش تحت هٰذا القبو مَن ترطّبَ جسدُه بهواء البحر في عطفة القرشي. وردّ العجوز إليه البطاقة قائلًا:
ـ إذن فأنت من الإسكندريّة؟
فهزّ رأسه بالإيجاب مبتسمًا فغمغم الرجل بكلمات مبهمة، فقال بمكر راميًا الفتاة بنظرة سريعة:
ـ أراهن على أنّك تحبّ الإسكندريّة!
وابتسم جانب فم العجوز وحده، وعلى خلاف توقّعه أضربت الفتاة عن متابعته فشعر بخيبة، ثمّ خطر له أن يسأله:
ـ هل عرفت يومًا سيّد سيّد الرحيمي؟
فضيّق الرجل عينيه ثمّ قال:
ـ غير مستبعد أنّي سمعت عنه. . .
تركّز صابر في اهتمام أنساه كلّ شيء حتّى الفتاة نفسها:
ـ متى وأين؟
ـ لا أذكر، لست متأكّدًا. . .
ـ لٰكنّه من كبار الوجهاء. . .
ـ عرفت كثيرين منهم ولٰكنّي لم أعد أذكر أحدًا. . .
ومع أنّه آثر ألّا يزيد إلّا أنّه تمادى في التفاؤل وقال إنّه غير بعيد أن يهتدي إلى مكان أبيه اليوم أو غدًا. والتقط في اللحظة المناسبة نظرة من عيني الفتاة قبل أن تستردّهما. قرأ فيهما شكًّا وما يشبه السخرية وكأنّها تتساءل عمّا دعا هٰذا الوجيه إلى النزول بفندقها المتواضع. ولم يضايقه ذٰلك وقال إنّ الحقيقة ستنجلي عندما تعرف مهمّته وسوف تعرف عاجلًا أو آجلًا. ترى هل تذكّرته؟ وشعر بغرز الأظافر في ساعده عقب المطاردة البارعة التي بدأت من ساحل الصيّادين بالأنفوشي واستقرّت في الركن المظلم بعطفة القرشي، ولفح هواء البحر بدعابته القاسية نصفه العاري. ولٰكن أين كان أبوها في ذٰلك الوقت؟ ومتى انتقل إلى إدارة هٰذا الفندق؟! ونادت المرأة قائلة:
ـ عمّ محمّد يا ساوي.
فجاء عجوز من مجلسه عند الباب، عميق السمرة مائل للقصر دقيق الجسم تتكوّن ملابسه من طاقيّة بيضاء وجلباب رماديّ مقلّم ومركوب، فأشارت المرأة إلى صابر قائلة:
ـ حجرة رقم ١٣.
ابتسم صابر لدى سماعه الرقم، ثمّ استأذن في الذهاب لإحضار حقيبته، ولـمّا عاد تبع عمّ محمّد الساوي إلى الحجرة في الدور الثالث. وغادرها الرجل ثمّ دخل خادم يحمل الحقيبة. خادم بين الشباب والكهولة، سريع الحركة بدرجة لا تتناسب مع العمل الذي يؤدّيه، ضيّق العينين جدًّا مستديرهما، صغير الرأس، يوحي منظره بالسذاجة. وسأله عن اسمه فأجاب:

ـ عليّ سريقوس.

وآنس في نبرته امتنانًا بدرجة أشعرته بالقدرة على امتلاكه وقتما يشاء، وسأله:

ـ هل العجوز الجالس إلى المكتب هو صاحب الفندق؟

ـ نعم. عمّ خليل أبو النجا...

وهمّ بسؤاله عن الفتاة ولٰكنّه كبح رغبته عن حكمة إلى حين، وحذّر نفسه قائلًا: إنّ السذاجة سلاح ذو حدّين! ولـمّا خلا له المكان شمله بنظرة سريعة فتركت في نفسه انطباعًا بالقدم. السقف العالي والسرير ذو الأعمدة والكنصول، وقال إنّ أباه كان يعجب بهٰذا المنظر حينما أحبّ أمّه. ودلف من نافذة عالية وأطلّ على ميدان صغير في الطرف الشمالّي من الشارع، تتوسّطه فسقيّة تعجّ نافورتها رذاذًا على غلمان مهلّلين. وأضاء المصباح ثمّ جلس على كنبة تركيّة قديمة. وراودته أخيلة جنسيّة، وتخلّلتها أحلام بالعثور على أبيه. أمّا نداء العينين اللوزيّتين المضيئتين فعجيب كلّ العجب. ولعلّها الآن تفكّر في أمره وتساءل ولٰكن ليس ثمّة ما يقطع بأنّها هي هي. في زحمة المولد نهرته قائلة لا تقترب منّي هٰكذا، فقال متظاهرًا بالكبرياء: لم تقلها بنت قبلك. فأجابت بكبرياء أشدّ: ولٰكنّي أقولها وأعيدها. وذهبت في صحبة امرأة شرسة والهواء يلعب بضفيرتيها فأين كان عمّ خليل؟! وعيناك اليوم التقت بعينيها أكثر من مرّة وتجلّت معانٍ، ولٰكن لم يلتمع بينهما ما يوحي بذكريات مشتركة. لم تقل عيناها إنّها تذكر المجلس فوق سور الكورنيش عند قوارب الصيد المقلوبة، والأحاديث المفتعلة للتستّر على الرغبات الجامحة، وقبلة خُطفت أعقبتها معركة غير حامية. وعندما أعيتك الحيل صحت سأقتلع يومًا أظافرك. أمّا يوم المطاردة الرائعة وصراع الركن المظلم وشذا القرنفل والهواء المشبع برائحة البحر فكانت نصرًا صريحًا، ثمّ تلاه اختفاء وصمت، لا هي ولا الأمّ الشرسة، وأسف دام طويلًا، حتّى انتقلت أمّك من حال إلى حال واستقرّ بك المقام في الشقّة الأنيقة بالنبيّ دانيال. من أدراك أنّ لهٰذا الفندق علاقة بعطفة القرشي؟! وأنّ هٰذه الفتاة المثيرة هي تلك البنت القرنفليّة؟! على أيّ حال فهٰذه الفتاة تثير عاصفة في دمك، وفي سواد مقلتيها ترى الليالي المعربدة بأنغامها الجنونيّة. وما أحوجك إلى دفء الشهوة المعزّية في فترات الراحة من البحث، وقيمة ذٰلك تتضاعف للوحيد الذي لا أهل له ولا صاحب له. وعندما تجيء المعجزة ستقول له:

ـ أنا صابر، صابر سيّد سيّد الرحيمي، هاك شهادة الميلاد، وهاك شهادة الزواج، وانظر جيّدًا في هٰذه الصورة...

عند ذاك سيفتح لك ذراعيه وتنجاب عنك الوساوس إلى الأبد. وصرت امرأة أنيقة بكلّ معنى الكلمة، أين البنت المغطّاة بملح البحر؟ أين رائحة غفلة العذراء؟!

ـ ٣ ـ

استيقظ مبكّرًا بعد ليلة لم ينم فيها سوى ثلاث ساعات. ووجد رغم ذٰلك نشاطًا لم يحلم به من قبل. وفتح النافذة فلم يرَ المنظر الذي في غفلة توقّعَهُ، منظر عمارات النبيّ دانيال وسعد زغلول وزرقة البحر على مرمى البصر وهواء الإسكندريّة العامر بالفتن. رأى سماء ملفّعة بالسحب السمراء، وفي الأفق الشرقيّ نضح الستار ببياض ناصع، وعلى الأرض الخالية سعى فوج من العمّال والباعة، وفي لمحة واحدة تجلّت لمخيّلته صورة أبيه والوجه الدافئ المفعم بالإثارة، وجاءه عليّ سريقوس بالفطور إلى حجرته فأكل بشهوة عظيمة، ولـمّا رجع الخادم ليحمل الصينيّة الفارغة سأله:

ـ مَن الفتاة التي كانت تجلس إلى جانب عمّ خليل أمس؟

ـ زوجته!

ليعترف بأنّ هٰذا لم يجرِ له في بال، وكم بدا له مزعجًا:

ـ من الإسكندريّة؟

ـ لا أدري...

ـ متى امتلك عمّ خليل هٰذا الفندق؟

ـ لا أدري، إنّي أعمل هنا منذ خمس سنوات فقط.

ـ وهل كان وقتذاك متزوّجًا.

ـ نعم . . .

هي بنت عطفة القرشي. اشتراها العجوز هناك من المرأة الشرسة. وصنع منها امرأة حسناء طاغية، ولكن عليه هو أن يتفرّغ لمهمّته قبل أن ينفد آخر ما يملك من نقود. ووجد عمّ خليل أبو النجا بمجلسه وراء المكتب وهو يحادث عمّ محمّد الساوي الجالس إلى يمينه. ولمح في طريقه نفرًا من النزلاء يجلسون في الاستراحة ما بين متناوِل لفطوره وقارئ لجريدة. جاء بكرسيّ أمام المكتب ثمّ جلس رافعًا يده بالتحيّة وهو يقول:

ـ عن إذنك دليل التليفون.

وفرّ الصفحات حتّى عثر على حرف السين. سيّد. سيّد سيّد . . . وسيّد سيّد الرحيمي! وخفق قلبه بقوّة. هٰذا هو في مدينته. ليس كصاحب مكتبة المنشيّة. والمهنة؟ طبيب بميدان الأزهار وأستاذ بكلّيّة الطبّ. كما يحدث للوجهاء وأبناء الوجهاء. واستخفّه فرح فتمتم:

ـ الظاهر أنّ ربّنا سيرضى عنّي . . .

فنظر عمّ خليل بعينيه المذكّرتين بالآخرة فقال:

ـ الظاهر أنّي سأنجح في المهمّة التي جئت من أجلها من الإسكندريّة.

فغمغم العجوز:

ـ جميل أن ينجح إنسان.

كما نجحتَ في شراء الفاتنة! ورآه ما زال ينظر إليه مستطلعًا فقال:

ـ إنّي أبحث عن رجل هو كلّ شيء في حياتي.

فدعا له محمّد الساوي قائلًا:

ـ ربّنا يحقّق مقاصدك.

وقال عمّ خليل أبو النجا:

ـ لا يجيء أحد إلى هٰذا الفندق للإقامة ولكنّ المهمّة تستغرق ليلة أو أسبوعًا أو شهرًا ثمّ يمضي إلى حال سبيله.

ـ هٰذا طبيعيّ جدًّا.

ـ ولذٰلك فهم يتجاورون في الغرف والموائد والاستراحة ويندر أن يعرف أحد منهم الآخر.

ـ يخيّل إليّ أن عملك مسلٍّ جدًّا؟

ـ لا شيء مسلٍّ على الإطلاق!

ومغالطة الزمن أليست مسلّية؟! وسمع وقع حذاء نسائيّ فأجّل قيامه الذي همّ به. وجاءت الزوجة مدملجة الجسم في جونلًا سوداء وبلوزة حمراء مطوّقة الرأس والخدّين بإشارب أبيض منمنم. ووشى خطرانها باكتناز سويّ هو الوسط المثاليّ بين النحافة والبدانة، فسرعان ما ثمل أنفه بعبير أنثويّ مسكيّ عصف بعقله وقلبه، وهي وإن لم تبتسم إلّا أنّ عينيها عكستا نظرة راضية موحية كأرض خصبة لم تزرع بعد. ونهض عمّ محمّد الساوي وهو يحبك معطفًا رماديًّا قديمًا، أمّا عمّ خليل فقد رفع إليها وجهه متمتمًا:

ـ نويت بالسلامة؟

فقالت بصوت حلقيّ دسم:

ـ فتّك بعافية.

ومضت إلى الخارج يتبعها عمّ محمّد الساوي. أنت سرّ من الأسرار يا عمّ خليل. ووجهك يصلح رمزًا للموت كعَلَم القرصان. ولِمَ يرتكب أناس الأخطاء بلا تبصّر؟ وقام متظاهرًا بالهدوء فحيّا الرجل وغادر الفندق. وسبقته عيناه إلى كافّة أنحاء الطريق حتّى رأى المرأة والعجوز يميلان مع ميدان الفسقيّة فأسرع في مشيته حتّى لحق بهما. والتفت عمّ محمّد نحوه فابتسم كالمعتذر وقال:

ـ لا تؤاخذني يا عمّ محمّد، أودّ أن أعرف الطريق إلى ميدان الأزهار؟

والتفتت نحوه المرأة في شيء من الدهشة. ووقف عمّ محمّد ليصف له طريق الوصول فاضطرّت المرأة إلى الانتظار. وتظاهر بالإنصات إلى كلام عمّ محمّد دون أن يعي منه كلمة، وكلّما وجد فرصة آمنة حدج المرأة بنظرة فتتلقّاها بالرضى الهادئ المثير للطموح بلا دليل. انتهى من شرحه فشكره ثمّ ذهب. ترى أين هي ذاهبة مع كلب الحراسة؟ وألم تكن جرأته سابقة للأوان؟ إنّه دائمًا جريء غير أنّ الجرأة هٰذه المرّة قد تفسد عليه البحث أو تعرقله. وبلغ ميدان الأزهار مستعينًا بالمارّة ولم يجد في العيادة سوى التمرجيّ. وأخبره الرجل أنّ الطبيب يحضر عادة حوالى الثانية عشرة فجلس لينتظر. هل تردّدت أنفاس أبيه في هٰذه الشقّة؟ ها هو القلق يساوره والجزع، والأمل واليأس. وكلّما تقدّمت الساعة قلّ صبره. وإن وجد أباه حقًّا

فكيف يكون موقفه منه؟ كيف يتصرّف إن أنكره أو طرده؟ ولكنّه سيستميت في الدفاع عن حقوقه، ولذلك تبدّى في أحسن مظهر، ولم يخفَ عليه أنّ التمرجيّ رمقه باحترام وإعجاب! ولكنّه تذكّر أنّه لعجلته واضطرابه لم يعرف اختصاص الدكتور! وخرج من حجرة الانتظار إلى الصالة فجلس في قبالة التمرجيّ وسأله:

ـ من فضلك ما اختصاص الدكتور؟

ـ القلب! . . . حضرتك طبعًا. . .

ـ أردت أن أتأكّد، أصلي من الإسكندريّة!

وشعر بسخافة أسئلته ولكنّه لم يبال، بل عاد يسأله:

ـ هل عندك فكرة عن عمره؟

فأجاب الرجل مندهشًا:

ـ لا أدري عن ذٰلك شيئًا!

ـ ولكنّك تفرّق ولا شكّ بين الشباب والكهولة!

ـ إنّه أستاذ بالكلّيّة!

ـ وهل هو متزوّج؟

أعلن التمرجيّ عن مدى استغرابه بضحكة ثمّ قال:

ـ متزوّج وأب، وله ابن طالب بالكلّيّة. . .

عقبة وأيّ عقبة تعترض أمله في القبول، وسيكون للأسرة رأي في العضو الجديد القادم من ماخور ولا مؤهّل له غير جماله المبذول للفجور. ولكنّ إصراره بلغ المنتهى. وجاء المرضى تباعًا حتّى امتلأت الحجرات. ثمّ دعاه التمرجيّ إلى حجرة الكشف. ونفخ سحب القلق والوساوس ودخل. رأى وجهًا لا يمكن أن يرجع بحال إلى أصل الصورة التي يحملها ولٰكن من يتصوّر أنّ أمّه ـ في آخر ليلة لها ـ يمكن أن ترجع إليها؟ وجلس أمام مكتب الدكتور وراح يجيب على أسئلته التي شرع في تدوينها في دفتر كبير:

ـ إسمي صابر سيّد سيّد الرحيمي.

ضحك الدكتور قائلًا:

ـ عال: أنت إذن ابني، وما عمرك؟

ـ الواقع أنّني لا أشكو مرضًا على الإطلاق!

فحدجه بنظرة متسائلة فقال:

ـ إنّي أبحث عن سيّد سيّد الرحيمي. . .

ـ عنّي أنا؟!

ـ لا أدري ولٰكن تفضّل بالنظر في هٰذه الصورة!

تفحّصها الدكتور ثمّ هزّ رأسه بالنفي.

ـ ليست صورة حضرتك؟

ضحك قائلًا:

ـ بالتأكيد لا، ومَن هٰذه الفتاة الجميلة؟

ـ أليس بأحد من أقربائك؟ لاحظ أنّ تاريخها يرجع إلى ثلاثين عامًا مضت. . .

ـ ولا هي لأحد من أقربائي.

ـ حضرتك من أسرة الرحيمي؟

ـ والدي سيّد الرحيمي، كان موظّفًا بالبريد.

ـ أليست للأسرة فروع لم تعرفها؟

ـ أسرتي محدودة أصلًا وفرعًا!

قام يائسًا وهو يقول:

ـ آسف على إزعاجك، ولٰكنّك ربّما سمعت عن أحد الوجهاء بهٰذا الاسم. .؟

ـ لا أعرف وجيهًا بهٰذا الاسم، ولٰكن ما الحكاية بالضبط؟

ـ الحكاية أنّي أبحث عن وجيه يدعى سيّد سيّد الرحيمي، صاحب هٰذه الصورة منذ ثلاثين عامًا.

ـ لعلّه هنا أو هناك وأنا على أيّ حال لست مرجعًا في هٰذه الشئون.

وقضت نبراته بإنهاء الحديث فحيّاه وانصرف. دخل أوّل قهوة صادفته فجلس إلى البار ثمّ طلب براندي. ها هو يبدأ من جديد. وما إغراء دليل التليفون إلّا خدعة سخيفة. وتبدّد التفاؤل الوهميّ الذي اجتاحه منذ رأى زوجة عمّ خليل. وتذكّر سلسلة الأبحاث التي قام بها في الإسكندريّة من الشهر العقاريّ ومشايخ الحارات وأولياء الله ولكنّه يحتاج لإعادة ذٰلك إلى مرشد ولا أحد له في القاهرة. لذلك استحسن أن يبدأ بالإعلان ولعلّه أرخصها وأسهلها وأجداها. ونظر إلى الساقي العجوز وسأله:

ـ ألم تسمع عن سيّد سيّد الرحيمي؟

ـ دكتور في العمارة التالية.

ـ كلّا، أعني الوجيه سيّد سيّد الرحيمي؟

ردّد الخواجا الاسم كأنّه يلوكه في ذاكرته ثمّ قال:
- لا أذكر زبونًا بهٰذا الاسم.
- ألم يحدث لك أن بحثت عن شخص وأنت تجهل مقامه؟
أجاب وهو يمدّ بصره إلى لا شيء:
- ابن مفقود من أيّام الحرب!
هزّ صابر رأسه معلنًا عن أسفه ثمّ قال:
- ولٰكنّ الحرب انتهت وعُرف مصير كلّ من اشترك فيها.
- أن أعتبره مفقودًا خير من التسليم بموته!
وسأل الخواجا عن موقع جريدة أبو الهول فوصفه له بميدان التحرير. ذكّره مبناها الأبيض المربّع، والفناء الذي تتوسّطه فسقيّة بفيلّا ثريّ يونانيّ بالأزرايطة. ومضى نحو الباب الداخليّ فرأى فتاة واقفة على عتبته وما لبثت أن أشارت إليه. دهش صابر وأحدّ إليها بصره ولٰكنّ ساعيًا مرق من جانبه متّجهًا نحوها فأدرك أنّ الإشارة لم تكن له، وسلّمها الساعي شيئًا ثمّ اختفى وراء الباب، ووجد صابر نفسه أمامها، رشيقة نحيلة، لفت انتباهه في وجهها تناقض محبوب جمع بين سمرة البشرة وزرقة العينين، وتكوين الرأس والوجه غاية في الأناقة والبداعة، انبعث إليه منه شعور بالجذب والطمأنينة، ثمّ استعاد نشوة نبيذ بتافرنا وهو يسمع عزف كمان. وحيّاها باسمًا ثمّ سألها عن قسم الإعلانات فقالت بصوت رقيق موحي بالثقة بالنفس:
- أنا ذاهبة إليه.
ولحظها منقّبًا عن مواضع للإثارة ولٰكنّ طرفه ردّ ممتلئًا بالإعجاب وحده. ودخلا الإدارة فأشارت إلى رجل في الصدر حملت لافتة مكتبه اسم «إحسان الطنطاوي» فحيّاه، ثمّ دعاه الرجل إلى الجلوس على كرسيّ بين مكتبه ومكتب الفتاة التي جاءت به. وأبان صابر عن مقصده قائلًا إنّه يرغب في الاهتداء إلى شخص يدعى سيّد سيّد الرحيمي، فتساءل الرجل:
- دكتور القلب؟
فأجاب بالنفي، وتوقّع أن يسمع منه مزيدًا عن الشخصيّات التي تحمل هٰذا الاسم ولٰكنّه لم يفعل، فقال:
- في الحق أنّني لا أعرف سوى اسمه...
- أليس لديك فكرة عن عمله أو مكانه؟
- كلّا ألبتّة، كلّ ما أعلمه عنه أنّه من الوجهاء، محتمل أن تكون له مهنة تناسبه ولٰكنّي لم أجد في الدليل إلّا الدكتور.
- قد يكون رقمه سرّيًا، وقد يكون من أعيان الريف، وعلى أيّ حال فالإعلان أوجز سبيل إليه.
- ليكن إعلانًا صغيرًا بقدر الإمكان، ويوميًّا لمدّة أسبوع، في شكل دعوة للاتّصال بي بفندق القاهرة سواء بالمراسلة أو بالتليفون.
- لا بدّ من ذكر اسمك في الإعلان.
وفكّر بسرعة وقلق ثمّ تمتم:
- صابر سيّد.
ولم تتحقّق مخاوفه فراح الرجل يخطّط صورة للإعلان فلاحظ صابر أنّ الفتاة تتابع حديثه فلم يشكّ في أنّ غرابة الإعلان هي التي أغرتها بذٰلك. ورأى ثمّة مكاتب أخرى يجلس إليها موظّفون وموظّفات، وعرف اسم الفتاة «إلهام» وهي تخاطَب به، وسمع إحسان الطنطاوي يسأله:
- ألا تشير إلى الغرض من إعلانك؟
- كلّا..
ثمّ بعد هنيهة صمت:
- المؤسف أنّني ظننت أنّ الذين يعرفونه في القاهرة لا حصر لهم ولٰكنّي لم أجد حتّى الآن أحدًا يعرفه.
- موضوعك غريب، الاسم وحده! وكيف تتأكّد من هويّة مَن يتقدّم إليك مدّعيًا أنّه سيّد سيّد الرحيمي...؟
- لديّ ما أستدلّ به على ذٰلك!
وقالت إلهام وقد غلبها حبّ الاستطلاع:
- في المسألة سرّ عجيب، كأسرار السينما!
فقال صابر باسمًا وهو يرحّب في أعماقه بتدخّلها في الحديث:
- أو أن يكشف بالسهولة التي تكشف بها أسرار السينما!
- على الأقلّ أنت تعلم أنّه وجيه من الوجهاء فكيف عرفت ذٰلك؟

سكت صابر مليًّا فقال إحسان الطنطاوي بلهجة جدّيّة:

ـ هٰذا سؤال على مستوى التحقيق!

آه، هٰذه الطفلة الكبيرة، لعلّها على استعداد للميل إليه، وهي طاقة من عبير لطيف يدعو إلى استباحة الأسرار، ليست كالنار التي صهرته بالفندق، وقال:

ـ يا آنسة إلهام أنا رجل غريب في بلدكم...

ـ غريب؟!...

ـ أجل أنا في الأصل من الإسكندريّة وجئت القاهرة أمس. فأنا غريب في بلدكم ويهمّني جدًّا العثور على ذٰلك الرجل، وإنّي أستبشر خيرًا بوجهك!

ابتسمت بشجاعة الفتاة العاملة، ومرّة أخرى تذكّر نشوة النبيذ بتافرنا على أنغام الكمان.

ـ ٤ ـ

غادر الجريدة وموظّفو الإدارة يتأهّبون للانصراف. خطر له أن ينتظر قليلًا ليلقي نظرة أخيرة على إلهام فوقف ضمن الواقفين تحت مظلّة محطّة للبص. إشعاعها اللطيف لم يزل ناشبًا في خياله وقد تخفّف من عبء البحث إلى حين بوضع ثقته الكاملة في الإعلان. وجرى هواء مائل للبرودة في جوّ أبيض امتصّ لونه من سحاب ناصع البياض فأضفى على الدنيا حلمًا رائقًا. ورأى إلهام وسط مجموعة من الشبّان والشابّات وقفوا أمام الجريدة متبادلين كلمات سريعة وابتسامات قبل الافتراق، ثمّ عبرت الفتاة شارعًا جانبيًّا للجريدة إلى محلّ صغير يدعى فتركوان واختفت داخله. تبعها بلا تردّد، ثمّ نظر إلى الداخل من خلال حاجز زجاجيّ فرآها جالسة إلى مائدة منفردة، وتبيّن حقيقة المحلّ وهو مطعم للشطائر ومشرب للعصير والقهوة. دخل كأنّما يقصد البوفيه ثمّ لمحها ـ مصادفة ـ فتهلّل وجهه ومضى إلى مائدتها في أقصى المحلّ والنادل يضع أمامها طبقًا بالشطائر وكوبًا من عصير البرتقال:

ـ مصادفة جميلة جدًّا، هل تسمَحين لي بمشاطرتك المائدة؟

قالت دون حماس ودون فتور:

ـ تفضّل...

وطلب غداء كغدائها، وزاد انتعاشًا بإشعاعاتها التي ترفعه إلى مستوى غير مألوف في علاقاته مع الناس. وشعر ببهجة غريبة:

ـ لا شكّ أنّني أبدو ثقيلًا ولٰكن هٰكذا يبدو الغريب!

ـ إنّي أرحّب بالغرباء.

ـ شكرًا، أقصد أنّ لهفة الغريب على التعرّف بالناس تنفّرهم منه؟

ـ ليس في مشاركة عابرة كهٰذه ما ينفّر إطلاقًا.

وشكرها ثمّ تناول أولى شطائره.

ـ لعلّك ذاهبة إلى السينما؟

ـ كلّا، ولٰكنّنا نستأنف العمل في الجريدة بعد ساعتين أو أكثر قليلًا، ولـمّا كان بيتي في أقصى الجيزة والمواصلات كما تعلم فإنّني أفضّل كثيرًا أن أتناول طعامي هنا...

ـ وهل تبقين هنا طول الوقت؟

ـ بعض الوقت وأتمشّى على النيل البعض الآخر.

وراحا يتناولان طعامهما. واسترق ـ كلّما وجد فرصة ـ النظر إلى فيها وهو يمضغ الطعام، وإلى أصابع يديها، متملّيًا ما أمكن زرقة العينين في البشرة السمراء.

ـ ماذا ترين في الإعلان، هل يحقّق المقصود منه؟

ـ هو كذٰلك دائمًا.

قصد أن يوقظ حبّ استطلاعها ولٰكنّها لم تتمادَ في الكلام فقال:

ـ كم تهمّني النتيجة!

ـ ألا تعرف شيئًا عن الرجل الذي تبحث عنه؟

ـ عندي صورة وبعض معلومات طفيفة...

ثمّ بعد لحظة تفكير:

ـ إنّي موفد للبحث عنه من قبل والدي العجوز الذي كان يعرفه في الزمن القديم...

وقرأ في عينيها الصافيتين تساؤلًا فقال باسمًا:

ـ معاملات قديمة.

ـ ماليّة؟

ـ لا تخلو من هٰذا الجانب الهامّ!

أن تتحقّق أحلام لم تخطر بالبال هو ما يطمعك في

المستحيل، وهٰذه الفتاة من معدن يخلق النشوات.

ـ لم أشعر من قبل بمثل هٰذا الشعور!

فرفعت حاجبين مقوّسين متباعدين في تساؤل إنكاريّ فقال مفسّرًا:

ـ الغربة والأمل وصحبتك اللطيفة!

ـ فيما يتعلّق بصحبتي أرجو ألّا تكرّر أقوالًا أسمعها كثيرًا ولم أجد لها معنى.

ـ تسمعينها في الإدارة!

ـ مثلًا.

ـ هل أنت سعيدة في العمل؟

ـ هه!

ـ هل تتركينه للبيت في حينه؟

ـ إنّي أعتبره عملًا لا محطّة.

وفكرته الثابتة عن الجنس الآخر لا يمكن أن تتغيّر. هو في نظره سلسلة من المخلوقات الوحشيّة الفاتنة الباحثة عن الغرام بلا مبدإ. أمّه وقريناتها وفتيات الكنار الليليّ وعطفة القرشي. وحتّى نشوته الصاعدة إلى فوق لم تستطع أن تزعزع هٰذه الفكرة الثابتة، ومع ذٰلك لم يشأ أن يجرّدها ـ في خياله ـ من ثيابها وهي عادة مزمنة لم تفارقه. تجريدها من الثياب غير مجد لأنّ سحرها لا يستقرّ بموضع بالذات، شائع كضوء القمر، وبه جانب مجهول تتعلّق به الآمال كمستقرّ أبيه، ولن يتحقّق سروره بها كسروره بالأخريات أي بالبهلوانيّات والألفاظ الجارحة والأفعال الشائنة والعبث الهمجيّ الوقح. هي شيء فريد. وفي ساعات قلائل كشفت عن طبيعة ثانية فيه وعن ذوق لم يذق به الأشياء من قبل.

ـ ومع ذٰلك فانظري إلى عنايتك بأظافرك!

لاح في وجهها الاحتجاج في صورة طابع جدّيّ وقالت:

ـ عنايتك بشعرك ليست دون ذٰلك!

ـ اعتبري ملاحظتي طريقة غير مباشرة بالإعجاب.

ثمّ مستدركًا بنبرة اعتذار وهو ينظر إلى اللوز الورديّ المغروس في البنان:

ـ عندما سأعود إلى الإسكندريّة سأحمل منك أجمل ذكريات القاهرة.

ـ لِمَ لَمْ تعلن في فرع الجريدة بالإسكندريّة؟

وهمّ بأن يدفع ثمن الغداء لها ولكنّها أبت ذٰلك بإصرار فعدل عنه قائلًا:

ـ لو أردت أن تفعلي نفس الشيء لما رفضت.

فقالت ضاحكة:

ـ ولا هٰذه!

وفي مرآة مثبتة في الجدار الأيسر ضبطها وهي تتفحّصه باهتمام فارتاح لذٰلك جدًّا. ليكن تأثيره كتأثيره في الأخريات! وتذكّر الأسرار التي كشفها في ماضيه القصير فابتسم. النوافذ والغابات والروائح الفطريّة الفاتنة. وقامت لتذهب فصافحها مودّعًا ولٰكنّه لم يتبعها رغم رغبته الشديدة في ذٰلك. وأدرك أنّه من المحتمل جدًّا أن يطّلع نزلاء الفندق وصاحبه على الإعلان، وأنّ علاقته بمن يبحث عنه لن تخفى على أحد. ولـمّا أخبر خليل أبو النجا ومحمّد الساوي عن المكالمة التليفونيّة المنتظَرة قال العجوز:

ـ إذن أنت تبحث عن أبيك؟!

فتورّد وجهه وأحنى رأسه بالإيجاب.

ـ وكيف فقدته؟

ـ فقدته كما فقدني وها أنا قد قمت للبحث عنه.

ـ لا شكّ أنّها قصّة عجيبة!

وتضايق من الأسئلة المطوِّقة فقال:

ـ بل عاديّة جدًّا فأرجو استدعائي عند الطلب.

الشابّ الذي يبحث عن أبيه، هٰكذا سيطلقون عليه. وسيقولون ويتقوّلون. وهزّ كتفيه استهانة. ولزم الاستراحة أكثر الوقت وكلّما رنّ التليفون تعلّق به بصره. ووقعت مكالمات غير مجدية فاتّصل به سيّد سيّد الرحيمي الحلّاق ببولاق وثان مدرّس لغة عربيّة وثالث سائق ترام وقابلهم واحدًا فواحدًا، كما قابل الدكتور من قبل ولٰكن لم يكن لأحد منهم علاقة بمن يبحث عنه. أين مَن يبحث عنه إذن؟ ولِمَ لم يتّصل به كما فعل الآخرون؟ إذا كان قد مات أفلم يترك ابنًا أو قريبًا؟ وتذكّر نقوده التي تتناقص باستمرار بجزع شديد. ومن حوله جلس كثير من النزلاء وتطايرت رائحة القهوة والسجائر ولٰكنّ أحدًا لم يلق إليه بالًا وكأنّ الإعلان لم يقرأه أحد وهو ما حمد الله عليه. ولٰكن ما عسى أن

يصنع إذا تتابعت الأيّام بلا نتيجة؟ ماذا لو تفد المال ولم يظهر الأب؟ أنت قوّاد أو بلطجيّ؟ وعهد النبيّ دانيال الذي مضى كعبير طيّب بدّدته الريح. عرف حبّ الأمّ وإغداقها المال بلا حساب وعرف مسرّات الحياة بلا خوف أو ندم. وقالت الحياة جميلة وأنت زهرتها. وحتّى عند الوعي بحقيقة الأمر خضعت لها باعتبارها مصدر كلّ شيء. وأنت ترقص في ملهى الكنار الليليّ صاح مخمور أكل الغيظ قلبه:

- يا بن بسيمة!

فكانت معركة دامية وتناثر الزجاج، ولا شيء يحمي السمعة السيّئة إلّا القبضة الحديديّة. وما دامت بسيمة قد دُفنت فلا أمل إلّا إذا جاء الأب. وقال أحد القاعدين في الاستراحة:

- القطن! كلّ شيء يتوقّف على القطن!

لِمَ؟ .أهو رحيمي آخر؟ وهو لولا الإعلان ما تصفّح جريدة. حتّى أنباء الذرّة وغزو الفضاء جاءته عن طريق السكارى بملهى الكنار. وتساءل رجل آخر:

- وهذه الحروب التي تهدّد العالم لا تضمن لنا القطن؟

- لن تكون كالحروب الماضية...

- أجل إنّها لن تُبقي على شيء...

- القطن والفول والبهائم والخلق!

فتساءل الصوت الأوّل:

- وأين الله خالق كلّ شيء وحافظه؟

أين الله حقًّا؟ هو عرف اسم الله ولكنّه لم يشغل باله قطّ. ولم تشدّه إلى الدين علاقة تذكر. ولا شهد النبيّ دانيال ممارسة عادة دينيّة واحدة فهو يعيش في عصر ما قبل الدين. وقُضي عليه بأن يمضي أجمل أوقات النهار بين ثرثارين أغلبهم من الريف، ورائحة السجائر تختلط دائمًا برائحة البصل الأخضر. وإذا اشتدّت مرارة الصبر تسلّى بتخيّل إلهام أو زوجة عمّ خليل أبو النجا. والهواء ضروريّ جدًّا والنار لا غنى عنها. وسوف يصمت إلى الأبد دون أن ينبس لسانه بجواب يخرجه من حيرته. وإذا لم يلبِّ أبوه النداء أفليس من الخير أن تنفجر الذرّة لتهلك كلّ شيء؟ الخوف والجوع والماضي الملوّث؟ ومرّة حانت منه التفاتة إلى التليفون فرأى زوجة عمّ خليل بمجلسها الذي رآها به أوّل مرّة. إذن عادت! ودقّ قلبه باعثًا حرارة جنونيّة في كافّة المراكز المتلهّفة. الجسم الصارخ والنظرة المتآمرة مع الغرائز. ونسي التليفون والرحيمي وإلهام. وصعد إلى حجرته في الدور الثالث وانتظر وراء الباب، ثمّ سمع وقع أقدام صاعدة فخرج إلى الطرقة فالتقيا في منتصفها. وتظاهر بالمفاجأة وقال:

- حمدًا لله على سلامتك!

فشكرته بابتسامة فقال:

- تركت خلفك وحشة حقيقيّة!

فجادت بهزّة شكر من شعرها الأسود وسارت في طريقها المفضي إلى سلّم الدور الرابع غير أنّه همس بجرأة:

- الإسكندريّة!

تباطأت حتّى وقفت تقريبًا على بعد باردة منه متسائلة:

- الإسكندريّة؟.

- أجل، الإسكندريّة.

قالت مقطّبة:

- لا أفهم شيئًا!

فقال بإصرار:

- إن كنت نسيت فأنا لا يمكن أن أنسى.

- أنت مجنون؟

قالتها بثبات زعزع ثقته فتساءل:

- ألست...

ولكنّها قاطعته وهي تمضي في سبيلها:

- لعبة قديمة وسخيفة.

واستدرك قبل أن يوغل في الابتعاد:

- على كلّ حال تقبّلي إعجابي...

واعتمد على الدرابزين حتّى يتمالك أنفاسه، حتّى تبرد بعض الشيء النار الحامية. وتملّكته لحظة جنونيّة فتمنّى لو يهلك جميع من في الفندق ليخلو لهما وحدهما. كما عصف به الجنون ليلة المطاردة التي اندلعت من ساحل الصيّادين بالأنفوشي. وإذا بعليّ سريقوس يهبط السلّم وهو يدندن بموّال صعيديّ فجرّه إلى موقفه بإشارة وقال بمكر:

- سمعت صوتًا يناديك لعلّه صوت الستّ!
- الستّ؟
- حرم عمّ خليل؟
- كلّا. لعلّها الحجرة ١٦، أنا قادم من عند الستّ وهي تدخل شقّتها.
- ربّما، وستتأكّد بنفسك، ولٰكن هل تقيم الستّ في شقّة؟
- شقّة عمّ خليل فوق السطح.
- وأين كانت طوال الأيّام الماضية؟
- عند أمّها، إنّها تزورها كلّ شهر.

ورمق ظهر عمّ خليل - وهو نازل - باحتقار ومقت، وكره فكرة العودة إلى مجلسه بالاستراحة فغادر الفندق. تمتّع بشمس ترسل أشعّتها من سماء صافية، في جوّ يتيه ببرودة لطيفة محبّبة ورغب في المشي بنهم فمشى بلا هدف وهو يأسف على أنّه لا يجد فراغ البال لمشاهدة القاهرة. وتذكّر أنّ مدّة الإعلان ستنتهي بعد يوم فمضى إلى جريدة أبو الهول، والحقّ أنّه كان يرصد ميعاد الذهاب إلى الجريدة ليرى إلهام من جديد. وجد إحسان الطنطاوي مشغولًا بزبون فصافح إلهام ثمّ جلس على الكرسيّ بين المكتبين. توقّفت عن دقّ الآلة الكاتبة وسألته:

- لا جديد؟

أجاب وهو يفيق نهائيًّا من لفحة الجحيم:

- مكالمات ومقابلات غير مجدية...
- الصبر طيّب.

تابع أصابعها فوق أحرف الآلة بارتياح خفّف عنه متاعبه، وبدا عنقها طويلًا وهي خالعة جاكتتها وفي صفحته اليسرى لاح خال. ورغم سعادته برؤيتها فاجأه حزن طارئ لا تفسير له. وتبيّن أنّ إحسان الطنطاوي ينجز إعلان وفاة فحاصرته ذكريات الليلة الأخيرة لأمّه. ووضحت له تعاسة مركزه في الوجود إذ يعتمد كلّيّة على شبيه بالسراب. وحانت في تلك اللحظة التفاتة سريعة من إلهام إليه فانشرح صدره وتجاهل همومه. وفرغ إحسان الطنطاوي من إعلان الوفاة فحيّاه قائلًا بشيء من الخبث:

- تجديد؟

ضحك وهو يحني رأسه في تسليم، ثمّ سأله:

- جاءني كثيرون أمّا هو فلا حياة لمن تنادي، ما تفسير ذٰلك؟
- الإعلان من هٰذا النوع يتطلّب المثابرة.
- ولٰكنّ المفروض أنّ الرجل معروف على أوسع نطاق!
- أنت لا تعرف سوى اسمه، وما عدا ذٰلك بالسماع عرفته ولا يمكن أن تقطع في ذٰلك برأي حاسم، وأنا رجل عشت في مختلف الأوساط بالقاهرة زهاء ثلاثين عامًا ولم أسمع عنه...
- ولٰكنّي أصدّق تمامًا من أرسلني للبحث عنه.
- إذن ففي المسألة سرّ ستكشفه لك الأيّام.

تفكّر قليلًا ثمّ قال:

- عندي له صورة قديمة أُخذت له منذ ثلاثين عامًا.
- نضيفها إذا شئت إلى الإعلان فتضاعف من فائدته.

وأراه الصورة فتفحّصها ثمّ تمتم بإعجاب:

- يا له من شخصيّة!

وانتظر صابر في إشفاق أن يلاحظ الرجل وجوه الشبه بينه وبين صاحب الصورة ولٰكنّه لم يلاحظ شيئًا، ومضى يتحدّث عن الإعلان الجديد وتكاليفه. ووافق صابر على الاقتراح مرغمًا. ثمّ غادر الجريدة وهو يفكّر في نقوده التي تتناقص يومًا بعد يوم، والتي سيضحي بعد نفادها معدمًا كمتسوّل. وذهب إلى فتركوان فجلس إلى مائدة إلهام ينتظر. ولـمّا رأته تردّدت في شيء من الارتباك ولٰكنّه أزال تردّدها بوقوفه مرحّبًا، وبمجرّد أن جلست طلب الغداء من الشطائر والعصير، وتصرّف بلا كلفة ليبدّد دهشة اللقاء. وإذا بها تقول:

- رأيت الصورة!
- حقًّا؟
- أنت تشبهه!
- تعنين الرجل؟

هزّت رأسها موافقة وهي ترمقه بارتياب فلم يجد بدًّا من اختلاق كذبة جديدة فقال:

- إنّه أخي...
- أخوك! معقول جدًّا ولٰكن لماذا لم تقل ذٰلك من

الأوّل؟

فابتسم ولم يجب فسألته:

ـ ومن الفتاة الجميلة!

ـ كانت زوجته رحمها الله. . .

ـ آه، وهل. . . أعني أخاك. . . كيف. . .

ـ اختفى قبل مولدي. خلاف ثمّ اختفاء كما يقع أحيانًا، وأخيرًا بعد ثلاثين عامًا أرسلني أبي للبحث عنه. . .

ـ حقًّا إنّها قصّة مثيرة، ولكن لِمَ تعتقد أنّه شخصيّة معروفة؟

ـ هٰكذا قال لي أبي، ولعلّه مجرّد استنتاج، ولٰكنّ العجيب أنّ إحسان الطنطاوي لم يلاحظ الشبه بيننا عندما أريته الصورة فهل حدّثك عن ذٰلك بعد ذهابي؟

ـ كلّا، رغم وضوح الشبه، ولٰكنّ رأس الأستاذ إحسان مشغول بالحسابات. . .

وجاءت أطباق الشطائر فبدأ الغداء. وعند ذاك قال معتذرًا:

ـ آسف على تطفّلي، ولٰكنّي وحيد في المدينة والفراغ يوشك أن يقتلني. . .

فقبلت عذره بابتسامة وسألته:

ـ كيف تمضي وقتك؟

ـ في الانتظار.

ـ هٰذا مملّ جدًّا، ثمّ إنّ البحث غير الانتظار.

ـ ولٰكنّه لا يخلو من فترات الانتظار.

ـ وماذا تفعل في أوقات الانتظار؟

ـ لا شيء!

ـ غير معقول.

فقال برجاء:

ـ من هنا تلمسين مدى حاجتي إلى صديق.

ووشى تورّد وجنتيها بتشرّبها الإشارة فتشجّع قائلًا:

ـ وأنت الصديق!

شربت قليلًا من الماء ثمّ واصلت الطعام فتساءل:

ـ ما رأيك؟

ـ قد تكون مغاليًا في ظنّك.

ـ هٰذه الشئون تُعرف بالقلب.

ـ يمكن أن نتقابل كلّما جئت لتجديد الإعلان.

فضحك قائلًا:

ـ إذن فأنت تريدينني أن أواصل الإعلان إلى الأبد؟

ـ ما دام يهمّك العثور عليه.

ـ هو ذٰلك، ولٰكن إذا أثبت الإعلان عقمه فسوف أستأنف البحث.

ورفعت كوب البرتقال فرفع كوبه قائلًا:

ـ صحّتك!

ـ أنت تشجّعني على الحذر منك!

وشربا وهما يتبادلان الابتسام. وقال إنّه ما كان يطاردها لو كانت مكان الأخرى عند ساحل الصيّادين. وقال إنّها عزيزة جدًّا وهو يحبّها. «ومن الفتاة الجميلة؟» عجيب موقع السؤال من أذنك. لكونها لم ترها في الليلة الأخيرة. ولم تر كفنها النحيل كلا شيء.

وقال بدهاء:

ـ أشكرك جدًّا!

وجدت في الشكر فخًّا ولٰكنّها لم تبد احتجاجًا. وحلّ صمت سعيد فانغرست بذور التفاهم. وطريق البحث شاقّ ومحرق وطويل فيحتاج إلى استراحة من الظلّ الظليل.

ـ ٥ ـ

تعب البصر من تفحّص الوجوه، وشوارع القاهرة الزاخرة بتيّارات البشر والسيّارات كأمواج البحر في الأيّام العاصفة. وسحب الخريف الواردة من الإسكندريّة يتبدّد أكثرها قبل الوصول إلى سماء القاهرة ولٰكنّ ذكريات الإسكندريّة مشتعلة أبدًا في القلب المنتظر. ولم تعد استراحة الفندق مرهقة مذ عادت المرأة من رحلتها ولٰكنّها في الحقّ معذّبة. وليس نادرًا أن تُرى بمجلسها إلى جانب زوجها وأنت ترصدها من أقصى الاستراحة، ولها نظرة دسمة موحية تنفجر همساتها كالشرر. وكم من محاولات فاشلة بذلت للانفراد بها في طرقات السلّم، وقد تدري بها من بُعد فتفسدها عليك ثمّ تجيء إلى مجلسها ساخرة. وهي لا تردّ ابتسامة وتتجاهل أيّ إشارة. ومن خلال حيرة ضبابيّة تلتمع بوارق إغراء لاسلكيّة. وكلّما جنّ جنون

الإثارة تمنّى الهلاك لجميع من بالفندق لينقضّ عليها في الخلاء الصامت. في هٰذه الحالات الجنونيّة تنزوي إلهام في ركن كالندم عند طغيان الجريمة. ويفيق أحيانًا على روائح السجائر والبصل وأحاديث القطن والقمح والحرب المدمّرة. لعلّهم مثلك يجرون وراء أمل شبيه بما يعدك به أبوك المفتقد. ومن صميم ذهوله استيقظ مرّة على صوت محمّد الساوي وهو يهتف:

ـ صابر أفندي... تليفون...

وثب في انتباه حادّ واندفع نحو المكتب. هل أخيرًا...؟

وتأهّبت جميع حواسّه لسماع الكلمة الموعودة.

ـ آلو؟!

ـ حضرتك صاحب الإعلان؟

أجاب وهو يحسّ بدبيب دموع الراحة في أقصى مسالك عينيه:

ـ نعم مَن حضرتك؟

ـ أنا الرجل الذي تطلب فيما أعتقد...

ـ سيّد سيّد الرحيمي؟

ـ نعم...

ـ هل الصورة صورتك؟

ـ نعم...

ازدرد ريقه بصعوبة ثمّ قال بصوت متهدّج:

ـ كيف أقابلك؟ أيّ مكان تحدّده؟

ـ ولٰكن لماذا تريدني؟

ـ فلنؤجّل ذٰلك للمقابلة...

ـ أفضّل أن تعطيني فكرة قبل المقابلة...

ـ لٰكن ذٰلك متعذّر بالتليفون ولا ضرر من المقابلة البتّة...

ـ هل يمكن أن أعرف مَن أنت؟

ـ اسمي منشور في الإعلان...

ـ أعني مهنتك أو عملك؟

ـ من الأعيان...

ـ ولِمَ تريدني؟

ـ ستعرف ذٰلك في الوقت الذي تحدّده، وكلّه خير...

وسكت الصوت قليلًا ثمّ قال:

ـ تعال الآن... إليك العنوان: فيلّا ١٥ شارع التلبانة بشبرا.

سأل عمّ خليل وعمّ محمّد عن العنوان ولٰكنّهما لم يعرفاه وقال له الساوي:

ـ أسماء الشوارع تتغيّر في كلّ ساعة، اذهب إلى شبرا أوّلًا ثمّ اسأل هناك عن الشارع..

وذهب إلى شبرا، وحرق ساعات النهار في البحث والسؤال مندفعًا بإصرار محموم ولٰكنّه لم يجد أحدًا قد سمع عن الشارع. ولـمّا أعياه التخبّط ذهب إلى قسم شبرا وهناك تأكّد من عدم وجود شارع بهٰذا الاسم. تداعى إلى فراغ اليأس. هل أخطأ السمع؟ هل عبث به عابث؟

ورجع إلى الفندق وصوت الشحّاذ يعلو بالمديح فكَرِهَ كلّ شيء إلى حدّ المرض. ولـمّا رأى المرأة في مجلسها المألوف امتزجت كراهيته برغبة عنيفة دمويّة. وأخبره الساوي أنّ شخصًا سأل عنه في التليفون أكثر من مرّة. ورجّح أنّه نفس الشخص الذي طلبه أوّل النهار، فعاوده الأمل وقال إنّه أخطأ السمع بلا شكّ وإنّ الرجل استبطأه فكرّر السؤال عنه. وتمتم عمّ خليل:

ـ وفّقت إن شاء الله؟

فأجاب متظاهرًا بالمرح:

ـ في الطريق...

وخطف من المرأة نظرة ثمّ مضى إلى مجلسه بالاستراحة منهوك القوى، وتسلّلت إلى المكان كآبة مساء الخريف فأضيئت الأنوار. واختفت المرأة فازدادت الكآبة كثافة. لا شكّ أنّ الرجل سيعيد المكالمة. وإذا بالساوي يلوّح له بالسمّاعة فهرع إليه:

ـ آلو...

ـ صابر؟... فات النهار ولم تأت؟

ـ لكنّي لم أجد الشارع...

ـ هل بحثت عنه حقًّا؟

ـ طول النهار تقريبًا... التلبانة رقم ١٥ بشبرا...

ـ حقيقة أنّك حمار...

وضحك ضحكة طويلة قبل أن يغلق السكّة. أعاد السمّاعة وغادر الفندق. انتفض طوال الوقت من

الغضب. عابث كلب وغد. هكذا يُرَدّ إلى نقطة البدء ودون بادرة أمل. وذهب إلى بقالة الحرّيّة بكلوت بك فاشترى زجاجة كونياك وأعدّ له الرجل عشاء سمك. يوم عابث ويأس فلا أقلّ من أن يُختم بسهرة مستهترة. وشرب بسرعة ودون أدنى اهتمام بـالنقود التي تنفق، كأيّام النبيّ دانيال، عندما قالت له الدنيا جميلة وأنت زهرتها. وهواء الإسكندريّة المعربد المليء بالفتن. أمّا هٰذه المدينة فلا يلقى فيها إلّا العناء. وكلّ ساعة تمرّ تقرّبه من النهاية المخيفة. وماذا بعد الانتظار والجري وراء المجهول في الظلام؟ وإذا خطر له أن يمتهن مهنة أمّه فسيكون هزءة رجال الليل بالإسكندريّة. واللكمة التي كـانت تؤدّبهم تنقلب راحة مبسـوطة لخـدمتهم. الجريمة دون ذٰلك يا أوغاد. لعلّ عابث التليفون واحد منكم فالويل لكم. وامرأة الفندق متعة يرغب فيها منذ عهد الأنفوشي وإلهـام عبير طيّب ولٰكن مـا قيمة أيّ شيء قبل العثور على الأب؟ وتبسّم بالنشوة رغم رائحة السمك. ومضى يسير تحت البواكي المقطّبة. وحنّ إلى الرقص في الكنار الليليّ، والشوارع السنجابيّة المغسولة بماء المطر، والهـواء المنبعث من الهديـر الذي يغـطّي الأجساد بغلالة سمراء. ومسّ دمه جنون حيوانيّ كليلة المطاردة. وأمّه كانت تدخّن النارجيلة وتحكم الرجال. وعندما تجلس لمناقشته تجلس كملكة. وقالت له افعل ما تشاء ولٰكن لا تسرف فلا عدوّ لنا إلّا الفقر. وقالت له اعشق كلّ يوم امرأة ولٰكن لا تجعل لإحداهنّ من سلطان عليك. وهام على وجهه في الليل كالثور. وفي ملهى الكنار تعبث الأيدي تحت الموائد عبثًا فاضحًا. ولٰكن أين سيّد سيّد الرحيمي؟ وهتف بصوته المليء «يا رحيمي» ثمّ راح يدندن بـالأغنية الإسكنـدرانيّة «مـا تبـطّل الشقـاوة وتعـال عنـدنـا». وبحكم الكـونيـاك والسمـك والهمّ جرّد الـزوجة من ثيـابهـا وعبث بهـا بوحشيّة. ورجع إلى الفندق عند منتصف الليل فوجده غارقًا في النوم. ودخّن سيجارة في حجرته الأثريّة ثمّ نام. واستيقظ. انتبه إلى أنّه استيقظ على صوت وفتح عينيه. ثمّة ظلمة عميقة والنافذة لم تنضح بأيّ نور. ثمّ سمع نقرًا خفيفًا متقطّعًا على الباب. جلس وهو يرهف السمع فعاوده النقر الخفيف الحذر. مدّ يده إلى مفتاح الكهرباء فأضاء المصباح العـاري ثمّ مضى إلى الباب وفتحه بخفّة. وما إن تحرّكت الضلفة عن فرجة حتّى مرق منها شخص ثمّ ردّ البـاب وراءه بسرعة. اشتعـل يقـظة وهـو يحملق فيهـا ثمّ غمغم بـذهـول نشوان:

ـ أنت!؟

نظرت حولها بحركة تمثيليّة مـازحة كـأنّما فـوجئت بخطإ لم يجرِ على البال وتمتمت:

ـ أين أنا؟... أخطأت المكان؟...

وحبكت الـروب حـول صـدرهـا نصف العـاري وعضّت على شفتيها لتئد ابتسامة فجذبها إلى صدره، إلى بيجامته المبعثرة وشعره المنكوش، وضمّها إليه بقوّة الصبر المعذّب الطويل:

ـ أمّا أنا فإنّي أنتظر مائة عام!

واتّجها ملتصقينِ نحـو السرير، وفي الـطريق أطفأ النور.

ـ ألم تصادفك متاعب؟

ـ كلّا...

هي أدرى بأمرها وهو لا يهمه شيء. ورفع شفتيه عن ثغرها لحظة ليسألها:

ـ لم أعرف اسمك؟

ـ كريمة...

فهمس في أذنها من خلال أنفاس حارّة:

ـ جدًّا!

إذن فـأنت من النوع المقتحم!... لم أفـطن إلى طبعك بسبب دهائك الجميل. وفي الوقت المناسب لا يردّك شيء عمّا تريدين. ما أحلى الحبّ في الـظلام! وتحقّق حلم الجنون في دوّامة من الذهول. وانصهـر التأمّل في وقدة طاغية، وسبحت موجـة من النار في الظلمة الدامسة. واستحكمت لحظات النسيان المطلق فالتهمت الماضي والحاضر والمستقبل.

ـ قلت إنّك إكثر من كريمة!

ـ وأنت؟!

وتسلّلت إلى أنفه رائحة خفيفـة ولٰكنّها مثيرة جمّة الذكريات. وتوقّع أن يسمع هدير البحر. حتّى تواصل تردّد الأنفاس كصدى رنين الأوتار بعد توقّف العزف.

ورأى الظلمة مرّة أخرى. سواء فتح عينيه استطلاعًا أم أغمضهما شبعًا وارتياحًا. وقال بصوت منغوم:

ـ في الدنيا أشياء تستحقّ عليها التهنئة حقًّا.

ـ سيجارة من فضلك.

أشعل لها سيجارة وهو يقول:

ـ ظننتك غير مدخّنة...

ـ نادرًا جدًّا ما أدخّن!

وترك العود يعكس على جسدها ضوءه، ولٰكنّها نفخته فساد الظلام وانتشرت رائحة فسفوريّة خفيفة.

ـ لم ألمس فيك طوال الأيّام الماضية إلّا المعاندة!

ـ ولا المعاندة! أنا لا أبدي شيئًا!

ـ أمّا أنا فصارحتك بكلّ شيء من أوّل يوم!

فضحكت قائلة:

ـ عندما رأيتك قادمًا منذ عشرة أيّام قلت لنفسي هٰذا هو...

فهتف بانتصار:

ـ الإسكندريّة؟!

ـ كلّا، لا أقصد هٰذا ولٰكنّني قلت هٰذا هو رجلي!

ـ والإسكندريّة؟

ـ أنت تختلق حكايات لا أصل لها.

ـ حقًّا؟

ـ ولِمَ أكذب عليك؟

ـ عجيب أن يخلق مثلك مرّتين!

ـ يجب ألّا يسرقنا الوقت حتّى لا تحدث حوادث!

ـ كيف أمكنك المجيء؟

ـ أخذ المنوّم فنام، متاعبه كلّها تتجمّع عند النوم.

ـ ولٰكنّك خيّبت ظنّي، طالما قلت لنفسي إذا كانت هي فتاة الإسكندريّة فقد يعني هٰذا أنّني سأوفّق في البحث...

ـ تعني أباك؟

ـ نعم...

ـ ما حكايتك بالضبط؟

ـ نشأت وأنا أظنّ أبي ميتًا ثمّ أخبرني ثقة بأنّه حيّ، هٰذه هي الحكاية باختصار.

ـ لعلّك تبحث عن المال؟

ـ ولٰكنّه ليس كلّ شيء، الذي يهمّني الآن أكثر من سواه أن أسمع منك أنّك ستجيئين كلّ ليلة؟

ـ كلّما وجدت فرصة.

فقبّلها قبلة طويلة هادئة فقالت بشقاوة:

ـ كلّما راق لي ذٰلك!

فتشمّم عبير صدرها بامتنان وقال بتوسّل:

ـ لا تنكري الإسكندريّة!

ـ أنت مجنون بخيال، واحذر أن تكون كذٰلك في حكاية أبيك!

فقال بوجوم:

ـ أودّ لو كان ذٰلك كذٰلك لأريح نفسي...

ـ همّك أكبر ممّا ظننت!

ـ نعم، ولٰكنّ همّي الجديد، بعد هٰذه الليلة، أن أبقى هنا أكبر مدّة ممكنة.

ـ وماذا يمنعك من ذٰلك؟

بعد تفكير:

ـ إذا نفدت نقودي قبل العثور على أبي وجب عليّ الرجوع إلى الإسكندريّة.

ـ ومتى تعود إلينا في تلك الحال؟

ـ عليّ أن أبحث عن عمل هناك.

فشبكت أصابع يدها في أصابع يده وقالت:

ـ لا...

ارتفع انتباهه إلى القمّة فعادت تسأله:

ـ ولِمَ لا تبحث عنه هنا؟

ـ غير ممكن!

ـ كلّك ألغاز، ولٰكنّي أخبرك بأنّ النقود ليست مشكلة.

خفق قلبه وقال مقتبسًا من جوّ الكنار الليليّ:

ـ الظاهر أنّك مليونيرة.

فقالت في مباهاة:

ـ هٰذا الفندق... والمال... كلّ شيء باسمي أنا!

ـ والرجل موظّف عندك؟

ـ كلّا هو المتصرّف في ماله طالما أنّه على قيد الحياة.

ـ على أيّ حال هٰذا لا يعني شيئًا بالنسبة لي!

وخجل من مكره الساذج رغم الظلام فقالت:

ـ لندعُ الله أن يهديك إلى أبيك فهو حلّ أيسر من غيره.

ـ هٰذا ضروريّ ولو أنّني لن أهتمّ منذ الساعة بشيء سوى انتظارك.

وأحاطها بذراعه ولٰكنّها تزحزحت إلى حافة السرير قائلة:

ـ اقترب الفجر ووجب الذهاب . .

ورجع إلى سريره بعد أن أغلق الباب وعناقها لاصق به كالعبير، واستلقى في ارتياح عميق فسرعان ما زحف عليه التخدير. وقال إنّه يشعر لأوّل مرّة بأنّه يحتمل أن يستغني عن أبيه، ولٰكن عندما لوّح له الساوي بسمّاعة التليفون هرع إليه كالريح ثمّ هتف بجزع:

ـ آلو؟

وإذا بصوت جادّ يسأل:

ـ صابر سيّد صاحب الإعلان؟

ـ نعم أنا هو!

ـ أنا سيّد سيّد الرحيمي فماذا تريد؟

ـ لا بدّ من مقابلتك. . .

ـ أنا منتظرك بمحلّ فتركوان، هل تعرفه؟

ـ نعم سأكون عندك في خلال دقائق.

وأجال عينيه في المحلّ حتّى رأى رجلًا جالسًا إلى مائدة إلهام لم يشكّ لحظة في أنّه صاحب الصورة، بل إنّه لم يكد يتغيّر في مدى الثلاثين عامًا، عدا انتشار المشيب في سوالفه وانطباع تجاعيد غير ملحوظة إلّا عند التدقيق حول فيه وتحت عينيه. نظر صوبه في رهبة حقيقيّة إذ وجده أضخم وأفخم من أيّ خيال، واتّجه نحوه حتّى حدس الرجل شخصيّته فنهض لاستقباله فتصافحا وصابر لا يحوّل عنه عينيه.

ـ صابر أفندي؟

ـ نعم، وسيادتك صاحب الصورة بلا ريب.

وجلسا والرجل يقول:

ـ أنت شابّ في عزّ الشباب، ويخيّل إليّ أنّني رأيتك قبل الآن، أين يا ترى؟

ـ أنا في الأصل من الإسكندريّة، أنزل الآن في فندق القاهرة بشارع الفسقيّة، وأمشي كثيرًا في كلوت بك وميدان المحطّة، وقد جلست أكثر من مرّة إلى هٰذه المائدة!

ـ لا شكّ أنّي رأيتك في أحد هٰذه الأماكن، فأنا أزور الإسكندريّة من آن لآن وأمرّ كلّ يوم بميدان المحطّة، وليس نادرًا أن أجلس في هٰذا المحلّ!

فهتف صابر:

ـ هٰذا أعجب ما سمعت، ولو أنّني لا أذكر أنّي رأيتك من قبل إلّا بالتخيّل، ولٰكن متى اطّلعت على الإعلان؟

ـ منذ أوّل يوم!

ـ حقًّا! ولٰكنّك لم تتّصل بي إلّا اليوم!

ـ بلى، ذٰلك أنّ الإعلان يدلّ على أنّك لم تستطع الاهتداء إليّ بالطريق العاديّ على حين أنّني رجل معروف جدًّا ولا أيسر من الاهتداء إلى بيتي أو مكان عملي، لذٰلك تجاهلت نداءك، ولـمّا لمست إلحاحك لم أر بدًّا من الاتّصال بك.

ـ هٰذا عجيب حقًّا فإنّي لم أصادف أحدًا يعرفك، ولا رقم لك في الدليل.

ـ لندع الآن ذٰلك وخبّرني عمّا تريد؟

ـ الحقّ أنّي أريدك أنت، ولٰكن ألا تلاحظ شيئًا يا سيّدي؟

ونظر في وجهه متوقّعًا أن يلاحظ الشبه بينه وبين الصورة ولٰكنّه خيّب ظنّه، فقال بجزع:

ـ انظر إلى وجهي!

ـ ماذا في وجهك؟

وهنا سمع صوتًا يهمس:

ـ أستاذ صابر!

التفت نحو الصوت فرأى إلهام واقفة. نهض فصافحها ثمّ همّ بتقديمها إلى أبيه، وإذا بالرجل يمدّ لها يده قائلًا:

ـ إلهام! كيف حالك؟

وقبّلت الفتاة يده باحترام فهتف صابر:

ـ إذن أنت تعرفينه!

فسأله الرجل دون اكتراث بدهشته:

ـ خبّرني متى عرفت ابنتي.

فصاح صابر:

ـ ابنتك! ربّاه!

وبسرعة غير متوقّعة غادرت إلهام المكان قبل أن

يستطيع منعها، وقال الرحيمي بهدوئه الذي لزمه طيلة الوقت:

ـ كثيرًا ما أسمع كلامًا لا معنى له، ومنه ما يمسّني شخصيًّا ولكنّي لا أكترث لذلك ألبتّة، خبّرني الآن عمّا تريد؟

جلس صابر في حال من الانحلال التامّ، وبحركة آليّة قدّم له الصورة الجامعة بينه وبين أمّه التي رأى نصفها في الإعلان، ووثيقة زواجه بأمّه، وشهادة ميلاده، وشهادة تحقيق الشخصيّة، نظر الرجل فيها واحدة بعد أخرى وهو هادئ كتمثال. وبكلّ برود وضع كلًّا منها فوق الأخرى، وبحركة سريعة حاسمة راح يمزّقها إربًا. صرخ صابر وانقضّ عليه يريد أن يمنعه ولكن بعد فوات الأوان. أمسك بثنية الجاكتة وصاح به:

ـ أنت تمحو وجودي محوًا فالويل لك.

فقال الرجل دون أن يخرج عن هدوئه المثير:

ـ ابعد عنّي، لا ترني وجهك، دجّال كأمّك، ولا شأن لي بك، اذهب. . .

ودفعه عنه فتقهقر حتّى اصطدم رأسه بحافة البوفيه.

واستيقظ، فتح عينيه وهو يتنفّس بصعوبة فرأى الحجرة الأثريّة على ضوء النهار الذي ينضح به الشيش، وأدرك أنّه عارٍ تمامًا تحت الغطاء فتذكّر الليلة المنطوية بجميع ملابساتها، وتنهّد بارتياح، ولكنّه شعر ـ لشدّة انفعاله بالحلم ـ بإعياء وحزن.

ـ ٦ ـ

وتعدّدت أحلامه لدرجة أثارت انزعاجه وامتعاضه، ويستيقظ فيلازمه شعور بالتعب والكدر وأحيانًا يخيّل إليه أنّ الصمت يخنق العالم، وكثيرًا ما يذكّره ذلك الصمت بالصمت المصاحب لارتفاع الموجة وتجمّعها قبل أن تنفجر مرعدة مزبدة، وفي الحلم يطلّ عليه وجه أبيه بالرغم من أنّ العشق أصبح المحور الذي تدور حوله حياته، العشق الذائب في أحضان الظلمة. وهو يكره الأحلام لأنّها ترجعه إلى فترة ماضية من حياته ألحّ فيها عليه الصرع حتّى أوشك أن يهلكه.

وطاردته ذكريات المرض طويلًا بعد شفائه منه فكان الصرع من أسباب اندفاعه في طريق اليأس والقوّة كسمعة أمّه سواء بسواء. أمّا الصراع الذي يخوضه في الأحلام فيورثه عقب اليقظة إنهاكًا وحزنًا فيمتلئ بأفكار الفناء، وإذا ترامى إليه الأذان من الجامع القريب وهو على تلك الحال تضاعف حزنه.

وعندما دخل إدارة الإعلان بجريدة أبو الهول تطلّع إليه نفر من الموظّفين في فضول ولكنّ تطلّع إلهام إليه أفعمه بنشوة أحلى من بسمة الفجر الأولى فوق البحر الأبيض. وصافحها بحرارة كما ينبغي لصديق فسألته:

ـ أما من جديد؟

فأجاب وهو يملأ من وجهها عينيه:

ـ جئت لأجدّد الإعلان ولو أنّني تردّدت طويلًا هذه المرّة!

ـ هل تفكّر في وسائل أخرى.

ابتسم ولكنّه لم يخبرها بأنّ اهتمامه بالعثور على الرحيمي لم يعد في مكانته الأولى. وقال له الأستاذ إحسان الطنطاوي:

ـ عندنا لك مفاجأة.

فجلس وهو يتساءل فقال الرجل:

ـ سألت عليك امرأة بالتليفون. . .

ـ امرأة؟!

ـ سألت عن سرّ الإعلان.

ـ حقًّا! ومن هي؟

ـ لم تكشف لنا عن هويّتها ولم نشفِ لها غليلًا بطبيعة الحال.

ـ أليس من المحتمل أن تكون من طرف الرحيمي؟

فقالت إلهام:

ـ قد وقد؟

ـ وما قد الأخرى؟

فقال الطنطاوي ضاحكًا:

ـ قد تكون من طرفك أنت!

استعذب هٰذا التحقيق الذي أخذ بمجامع قلبه وقال:

ـ أو عابثة من العابثين، لقد لعب معي أحدهم لعبة سخيفة.

ترى هل المرأة من طرف الرحيمي؟ زوجته أو أرملته؟ أو لعلّها كريمة دفعت إلى ذلك بحبّ الاستطلاع، إنّها امرأة مجرّبة لا تصدّق شيئًا بسهولة. هي داهية بقدر ما هي فتّاكة بقدر ما هي لذّة طاغية. وجلس إلى المائدة بفتركوان فتذكّر لحظات الحلم العجيب. وجاءت إلهام فاتّخذت مجلسها، وطلب الغداء، وتبادلا ابتسامًا ودودًا، وقالت:

ـ لستَ على حماسك الأوّل للإعلان وهٰذا أحسن.

أنت لا تدرين شيئًا عمّا خفّض درجة حماسي!

ـ أحسن؟

ـ نعم فهٰذا البحث يجب أن يُترك للزمن الطويل.

ـ ولٰكن ألا تسمحين بأن أدفع ثمن الغداء ولو مرّة؟

ـ أنت الضيف لا أنا!

ـ ما ألطفك يا آنسة إلهام، ألا يمكن أن أذكر الاسم مجرّدًا؟

ـ بكلّ سرور.

ـ ما ألطفك!

ومضيا يتناولان الطعام في ارتياح وسرور. وقرأ في عينيها الزرقاوين اهتمامًا بموضوع ما لن يلبث أن يترجَم إلى كلمات فانتظر الكلام بشغف مؤمّلًا أن يكشف فيه عن حقيقة مشاعرها.

وتذكّر ظلمة النصف الثاني من الليل وذوبانه في فتنة رائعة فعجب لانقسامه الحادّ بين المرأتين. وقالت:

ـ يخيّل إليّ أنّك في إجازة خاصّة لإنجاز هٰذه المهمّة؟

تجسّ النبض للتعرّف عليه، وساوره قلق ولٰكنّه قال:

ـ لست موظّفًا بأيّ معنى لهٰذه الكلمة، أنا من الأعيان!

ـ تزرع أرضك؟

ـ أبي من ذوي الأملاك.

واضح أنّها تتستّر على شعور بعدم الارتياح. قال:

ـ وأنا أدير أملاكه العقاريّة، وهو عمل أثقل من أيّ وظيفة!

ثاني كذبة يكذبها عليها وهو كاره رغم أنّه لم يكذب بعد على المرأة الأخرى.

ـ المهمّ أنّك لا تعيش في فراغ فهو عدوّ البشر.

ـ هو كذٰلك، عانيته أسبوعين، ولٰكن كيف عرفت ذٰلك؟

ـ ليس عسيرًا عليّ أن أتصوّره ثمّ إنّي قرأت عنه.

ـ التجربة لا تكون حقيقيّة إلّا حين أمارسها.

ـ رأي وجيه.

ـ في سنّك هٰذه لا يتاح لك معرفة الحقائق بطريقتي إلّا فيما ندر؟

ـ إن كنت تتصوّرني طفلة فأقلع عن تصوّرك!

يا ربّي كم أحبّها وكم يسعدني الوجود بقربها. وتقدّم خطوة جديدة فقال:

ـ أنت تعرفين كلّ شيء عنّي تقريبًا فهل تعرّفينني بك؟

ـ وماذا أعرف عنك؟

ـ اسمي، عملي، أبي، مهمّتي في القاهرة، إعجابي بك!

وهي تضحك ضحكة صامتة:

ـ لا تخلط الحقائق بالخيال!

وقال لنفسه بل هو الحقيقة الوحيدة التي عرفها. وتجهّم الجوّ في المحلّ كأنّ نوافذه أغلقت. وغاب إشراق الظهيرة السابح وراء الحاجز الزجاجيّ في الخارج فتخيّلا جسامة السحابة التي أخفت الشمس.

وقال مستدرجًا إيّاها إلى الاعتراف:

ـ وبدوري فأنا أعرف اسمك ووظيفتك.

ـ وماذا تريد أن تعرف أكثر؟

ـ ما تجودين به، متى توظّفت؟

ـ منذ ثلاثة أعوام، وهو تاريخ تخرّجي في التجارة الثانويّة، ولٰكنّي مستمرّة في التعلّم.

وقلق. لا تسألي عن مؤهّلاتي فالكذب هنا لا يجدي، ولٰكنّك لبقة مهذّبة.

ـ وأسرتك بالجيزة، هه؟

ـ أعيش مع أمّي فقط، أسرتنا من قليوب، وخالي بمصر الجديدة، المهمّ أنّ في أسرتنا مفقودًا مهمًّا كما في أسرتك.

فقال بدهشة:

ـ من هو؟

أجابت وهي تكتم ضحكة:

ـ أبي!

اتّسعت عيناه الجميلتان في ذهول. وتذكّر الحلم العجيب. وقصّه عليها محوّرًا فيه بما يتمشّى مع كذبته الأولى. الآباء المفقودون أكثر ممّا تتصوّر. ولعلّهما يبحثان عن أب واحد.

ـ لكن كيف فُقد أبوك؟

ـ لا كأخيك ألا ترى أنّني أبيح أسرار أسرتي بغير حساب؟

فرمقها بعتاب ما لبث أن اختفى وراء نظرة متألّقة بحبّ الاستطلاع في ذروته، فقالت:

ـ الحقيقة أنّ أبي انفصل عن أمّي وأنا في المهد.

ـ هرب؟

ضحكت ضحكة عالية فتنبّه إلى هفوته قائلًا:

ـ أعني اختفى؟

ـ إنّه محام معروف في أسيوط ولعلّك سمعت عنه فهو الأستاذ عمرو زايد.

زال عنه توتّر التوقّع فقال في دعابة:

ـ ظننته سيّد سيّد الرحيمي!

فتساءلت ضاحكة:

ـ أيسعدك أن تكون عمّي؟

فأجاب بقوّة:

ـ كلّا.

تورّد وجهها الأسمر وهي تقول:

ـ صمّمت أمّي من بادئ الأمر على الاحتفاظ بي إلى النهاية، وجاراها أبي إذ كان شارعًا في الزواج من أخرى، فاتّفقا على نفقة، ثمّ عادت بي إلى بيت جدّي بالقاهرة، وبعد وفاته عشنا وحيدتين.

تابع القصّة بقلب لم يخلُ من سوء ظنّ. كحاله مع جميع النساء والأمّهات خاصّة. بيد أنّ إلهام لم تسمع قطعًا عن القوّادين والبلطجيّة والبرجيّة. هل تستطيع أن تحكي قصّتك في مثل هٰذا التفصيل؟ وغيّمت روحه كالسماء.

ـ ويومًا قال خالي إنّ عليّ أن أعرف أبي فقالت أمّي إنّه لا يستحقّ ذٰلك وإنّه لم يسعَ إلى رؤيتها مرّة واحدة، وكنت أشعر طوال الوقت أنّني بلا أب، وقال خالي إنّني أكبر يومًا بعد يوم وإنّه لا غنى لي عن أبي بحال.

فغمغم وهو لا يدري تقريبًا:

ـ والحرّيّة والكرامة والسلام!

فهزّت منكبيها في استهانة وقالت:

ـ أصرّت أمّي على الرفض خشية أن يفكّر في استردادي، وانضممت إليها بلا تحفّظ، واتّفق رأينا على أنّ العمل أهمّ من الأب وأبقى.

آه كيف تتكلّم الجميلة؟ أيّ عمل يغني عن الحرّيّة والكرامة والسلام؟

ـ واجتهدت حتّى أكملت تعليمي، وحصلت على الوظيفة في امتحان أعلنت عنه الجريدة، وانتسبت بعد ذٰلك إلى معهد تجاريّ عالٍ.

ـ وأبوك ألا تفكّرين فيه؟

ـ كأنّه غير موجود، وهو الذي اختار ذٰلك!

ـ لأنّك في غير حاجة إليه؟

ـ كلّا، فأنا في غير حاجة إلى أمّي كذٰلك ولكنّي أحبّها ولا أتصوّر الدنيا من غيرها.

ليست على شفا هاوية مثلك. وليست جائعة إلى الحرّيّة والكرامة والسلام. ولا يهدّدها ماض ملوّث قد ينقلب في أيّ لحظة فيصير لها المستقبل الوحيد.

ـ إنّي سعيدة بعملي رغم أنّني لست مثلك من الأغنياء!

طعنته وهي لا تدري. لكنّ الهيام غلب على جميع مشاعره. ولولا خوفه لاعترف لها بحقيقة حاله. ولـمّا ذهبت شعر بقلق في وحدته. إنّ سموّ عواطفه نحوها يغريه بأن يجرّب معها حيوانيّته. وهو إغراء يقترحه عقله لا إحساسه. وهو، إذ يتخيّل ذٰلك فإنّما يتخيّلها مذعورة من المباغتة ثمّ يتخيّل نفسه مخذولًا منهزمًا. وليس عقله وحده الذي يغريه بذٰلك ولكنّ تقاليده في معاملة النساء ورغبته الثابتة في العبث بما يسمّى بالأخلاق الفاضلة. وكما يغطّي تلوّثه بالقوّة فهو يغطّيه أيضًا بالاعتداء على الفضائل ليجعل من ماضيه قاعدة لا استثناء معيبًا. ولذٰلك فإنّ إلهام وإن قامت في حياته كالنار إلّا أنّها أقلقت مخاوفه وعقده وزعزعت أركان

العالم الذي بناه لنفسه واطمأنّ إليه، وفي الحقيقة هو لا ينسى عذابه إلّا في نار كريمة التي تشتعل في ظلام النصف الثاني من الليل.

ومشى في الشوارع مستسلمًا لجوّ نوفمبر اللطيف المنشّط، حتّى بلغ فندق القاهرة حوالي العصر. ورأى عمّ خليل مهوّم الرأس تحت طربوشه الطويل، وعمّ محمّد الساوي مقتعدًا كرسيّه من خلاف عاقدًا ذراعيه فوق مسنده. جلس في الاستراحة ساعة ثمّ قام إلى التليفون فطلب إلهام وقال لها:

ـ سأقابلك غدًا في فتركوان فهل تأذنين؟

ـ بكلّ سرور، ولٰكن خيرًا إن شاء الله؟

ـ كلّه خير، ولٰكنّي سأقابلك كلّما أمكنني ذٰلك!

ـ ٧ ـ

العزاء الحقيقيّ تجود به ظلمة النصف الثاني من الليل، عندما تعزف الأنفاس المتردّدة ألحانًا من الغايات. عندما يسود النسيان المطلق الأرض والأفلاك. غذاء دسم وراحة أبديّة لا كالقلق النشوان وعذاب الوحدة التي تخلّفها وراءها إلهام. ولم تنقطع عنه ليلة واحدة. مذ أيقظه طرقها الحذر من نومه السكران. ومضت سيطرتها تزحف عليه كالزمن لا مهرب منه. وهو بفضل تجاربه السابقة يمثّل دور المسيطر المتحفّظ ولٰكن لم تخنه اللحظات. وبهٰذه القوّة لم تتمكّن منه امرأة من قبل، ولم تشدّه بمثل هٰذه الأغلال. وهو لم يجد عندها استجابة واحدة فلم يدر إلّا الظنّ ما حقيقتها. فليلة ذابت في أحضانه وهمست في أذنه:

ـ لا حياة لي بدونك!

كذكريات الكنار الليليّ على أنغام البحر وتلك الليالي الظافرة في كلّ شيء. وربّتَ على خدّها بحنان وسيادة وهو يسبح بعزم ضدّ موجة تشدّه نحو أعماق الخضوع. هي كلّ شيء. الحبّ. والآمال التي بعثته وراء الأب الضائع. وفي ليلة أخرى أنس منها تحفّظًا شاردًا، واستسلامًا خامدًا، لا تعليق ولا حماس ولا نفور. عند ذٰلك سهد متفكّرًا حتّى مطلع الفجر. ومن شدّة ضيقه ناجى إلهام داعيًا الروح الرقيق المنبثق منها كعبير فاتن لا اسم له، ويقول لنفسه إذا أردت أن تتّخذ منّي أسيرًا فعلى الدنيا السلام. أنت الجحيم إذا سيطرت. وعن مآسي السيطرة تستطيع أن تحكي عشرات القصص. ولٰكنّ الحياة من غيرها لا طعم لها، غثيان، وفتور كالرماد، ودون ذٰلك الجنون والدم. وكم كانت بسيطة عند ساحل الصيّادين وإن لم تخل من مشاكسة. كموهبة كامنة لم تنضج بعد. ها أنت تسلكها في ذكريات الأنفوشي بعناد لا مبرّر له، وتلك حقيقة ضاعت كموجة في بحر. وهي ليست الحبّ وحده ولٰكنّها نسيان سحريّ لعذاب البحث العقيم عن الأب ويأسه، وهرب من دوّامة القلق التي تخلقها إلهام، وهي في ذات الوقت لا تخلو من مزيّة أو أكثر اختصّت بها إلهام أو الأب. وقال لها وهو يتعذّب من تغيّرها:

ـ لست كعادتك.

فسألته بسذاجة:

ـ هل تجدني أحيانًا مختلفة؟

أماكرة هي أم ذاهلة! أنسيت لحن الاعتراف المعربد المجنون؟

وأمّك تكشف لك مرّة عن وجهين. حين طمع صديق في زيارتها بمسكن النبيّ دانيال. طردته من شرّاعة الباب بقسوة وحشيّة ثمّ خلت إلى نفسها وهي تسبّ وتلعن. ثمّ أغمضت عينيها إعياء وتهاوت بلا حول وأجهشت في البكاء.

وقال بلا اكتراث في الظاهر:

ـ حسبتك متوعّكة.

فقالت ببساطة ولٰكن خيّل إليه أنّها تتحدّاه:

ـ إنّي على خير حال.

ـ يسرّني أن أسمع ذٰلك.

فداعبت خدّه براحتها قائلة في هدوء:

ـ ألا ترى أنّك أعزّ عندي من الحياة نفسها؟

أنت لا تتعامل بالألفاظ، وجميع ما يحيط بك ينذرك بالمتاعب ولن يكون هٰذا بلا ثمن. قال بمكر:

ـ وأنت عندي كذٰلك وأكثر، ولذٰلك فكلّما اقترب الرحيل حزنت بلا حدود!

ـ أنت تتكلّم عن الرحيل؟

ـ السكوت لن يبعده.

ـ سنبعده بقدر ما نستطيع ولٰكنّ حيلتنا محدودة فغريزة النقود هي الغريزة الوحيدة التي حافظت على قوّتها عند الرجل!

ـ وفضلًا عن ذٰلك فليس هو بالحلّ.

ـ هو جرعة إسعاف عند الضرورة.

ـ والرجل يقظ في هٰذا الجانب؟

ـ جدًّا. ولا تهمّه النقود بقدر ما يهمّه كيف أنفقها.

ـ غيور؟

ـ فوق ما تتصوّر، وبيننا اتّفاق يجب أن أحترمه وإلّا ضاع كلّ شيء، ولٰكن ماذا تفعل أنت؟ ألا عمل لك إلّا انتظار مكالمة تليفونيّة؟

ـ لو جاءت لاختفت متاعب الحياة.

ـ كان أبي على هامش الحياة.

ـ وليس كذٰلك أبي.

ـ كيف فقدته؟

ـ تاريخ قديم سأحدّثك عنه في ظرف آخر.

ـ ولِمَ لا يريد أن يتّصل بك؟

آه هٰذا هو العذاب الغامض المليء باحتمالات لا حصر لها. وعادت تسأله:

ـ خبّرني عن حالك إذا لم يظهر الرجل؟

ـ تصوّري حال رجل بلا مال ولا أهل ولا عمل!

ـ وكيف عشت فيما مضى؟

ـ ملكت الألوف ولٰكن لم يبقَ إلّا عشرات.

ـ ماذا كنت تعمل؟

ـ لا شيء.

ـ لِمَ لا تبحث عن عمل؟

ـ لا قيمة لأيّ عمل يجيء عن غير طريق أبي.

ـ لا أفهم.

ـ ولٰكن صدّقيني.

ـ اشتغل بتجارة.

ـ لا رأسمال ولا خبرة.

ـ وظيفة؟

ـ لا مؤهّل ولا وساطة.

ثمّ بعد هنيهة صمت:

ـ الواقع أنّني لا أصلح لشيء.

فتخلّلت غابة صدره بأصابعها وهي تهمس:

ـ إلّا الحبّ...

فابتسم في الظلام ثمّ سأل:

ـ ترى كيف تمضي بنا الحياة؟

ـ الأمور معقّدة وزوجي غير مأمون الجانب.

ـ كم إنّه طاعن في السنّ!

ـ هو كذٰلك، وأضيف أنّه من صلب معمّرين عاشوا حتّى قيل إنّ الموت نسيهم!

ـ وعمره على أيّ حال أطول من عمر البقيّة الباقية من نقودي.

ـ وقد يشمّ رائحة غريبة في الهواء فلا نلتقي بعد ذٰلك!

فشدّ على راحتها فوق صدره وقال:

ـ عند اليأس نهرب.

ـ مستعدّة لذٰلك ولٰكن ماذا نصنع بعد الهرب؟

فقال بحدّة:

ـ حتّى حبّنا لا قيمة له بدون أبي!

ـ فكّر ولا تحلم.

ـ أيعني هٰذا أنّه يجب أن ننتظر؟

ـ وكم نتحمّل الانتظار؟... وماذا بعد الانتظار؟

ـ الموت!

ـ ربّما سبقناه إليه، يخيّل إليّ أحيانًا أنّه سيدفنني، لا مرض به ألبتّة وبي أنا مرض الكبد واللوزتين.

ـ شيء مضحك!

ـ هو في الواقع مبكٍ، وعند أوّل بادرة شكّ سأمتنع عن الزيارة.

ـ عند ذاك أجنّ.

ـ وأجنّ أنا أيضًا ولٰكن ما الفائدة؟

ـ الانتظار غير مجد، والهرب عقيم، والتليفون حلم، ما العمل؟

ـ أجل ما العمل؟

ـ أظنّ الهرب أنسب الحلول.

ـ أبدًا.

ـ إذن فهو الانتظار.

ـ ولا الانتظار.

ـ إذن ما العمل؟

- آه، ما دمنا عاجزين فلنقطع ما بيننا.

سدّ فاها براحته لحظة وهو يقول:

- أهون من ذلك الموت.

فتنهّدت قائلة:

- الموت.

ثمّ وهي تناجي نفسها:

- أجل، الموت...

هزّت نبرتها أعماقه فأرهف حواسّه وقلبه يخفق. وطال صمت لدرجة أرهقته فقال:

- ماذا أسكتك؟

- تعبت، لا تسألني عن شيء.

- ولكنّ مشكلتنا ما زالت عند نقطة البدء.

- دعها حيث هي.

- ولكن يوجد بلا شكّ حلّ.

- ما هو؟

- إنّي أسأل.

- وأنا أسأل.

- لكنّني توقّعت في لحظة أن تقولي شيئًا هامًّا...

- لا رأي عندي، ولكنّه حلم، كالتليفون، أن أرث سريعًا الفندق والمال المودع باسمي، وأن نعيش معًا إلى الأبد.

- آه...

- عيبنا أنّنا عند العجز نحلم.

- ولكنّ الحلم قد يتحقّق فجأة.

- كيف؟

- يتحقّق وحده!

- صوتك ضعيف يقطع بأنّك لا تصدّق.

- نعم، وإذن؟

- وإذن سيطلع الفجر ونحن لا ندري، وقد قلنا ما يمكن أن يقال.

ارتدت ثيابها في الظلام وهو يتطلّع إلى شبحها المتحرّك وتبادلا قبلة وراء الباب ثمّ ذهبت.

اندسّ تحت الغطاء فغشيته كآبة مقبضة. الظلام لون الموت. وظلمة القبر تشهد الآن صورة لأمّك لم يشهدها أحد. وعندما نطق القاضي بالحكم وددت أن تخنقه. وفي السجن قالت لك أمّك «أنا عارفة الوغد الذي وشى بي، سأقتله». كنت جميلة وقويّة. وما اعترى صحّتك في السجن لا ينسى. وحبّك لي لا ينسى كذلك. أمّا صورتك الآن فلا يمكن تخيّلها. كم من هموم تتلاشى لو اعترفت لإلهام بكلّ شيء. هي تعطيك كلّ شيء صادق وأنت لم تعطها إلّا حزمة من الأكاذيب. أبي... لِمَ تصرّ على الاختفاء؟ قال: «أمّك تظنّ أنّها قتلتني وفي الحقيقة أنا الذي قتلتها». إذن فأنت مخيف لأنّك قاتل «ولكنّني سأعرف كيف أهتدي إليك». وإلهام أنت تغضبها وهي تقاوم بشدّة. وتصيح وهي تداري ثوبها الممزّق «سأقتلك». سأقتلك أنا لأخفي جريمتي. وارتفع صوت المؤذّن عند الفجر فهاله أنّه لم ينم دقيقة واحدة ولكنّه تذكّر الاغتصاب والقتل فهدأت نفسه قليلًا وأدرك أنّ النوم سرقه وهو لا يدري بعض الوقت. ولعلّه حلم بالسهاد فيما حلم. واستيقظ مرّة أخرى في السابعة وفتح النافذة فرأى الضباب يزفر على الآفاق، والسماء طبقات من الألوان القاتمة. وترامى إليه صوت الشحّاذ:

طه زينة مديحي صاحب الوجه المليح

وما كاد يبلغ باب الاستراحة حتّى رأى عمّ خليل نازلًا متكئًا على ذراع عليّ سريقوس، متلفّعًا بالعباءة، جلس ينظر إليه من بعيد، إلى يده المعروقة المرتعشة، والكوفيّة السوداء التي أخفت عنقه النحيل. خير ما تفعل يا عمّ خليل هو أن تموت. أنا أعرف عنك أكثر ممّا تتصوّر. أنت لا تنام إلّا بالمنوّم وبعد أن تدلكك كريمة طويلًا. وسعادتك تمارسها في الحنان العقيم، ولذّتك الوهميّة عندما تجرّدها من ثيابها فتذهب أمامك وتجيء ثمّ تحبّها براحتيك. يستوي لديّ أن يجيء أبي أو أن تذهب أنت. مرّة أوشك أن يقتل في الكنار الليليّ. في طرقة المرحاض اعترضه ضابط بحريّ وقال له: «اترك عليّة فنار وإلّا...». واشتبكا في صراع مخيف. تلقّى منه ضربات وكيّل له ضربات وحشيّة. ولم يكفّ حتّى حين استلقى غريمه بلا حراك. ولم تعد مجرّد خطّة للتغلّب على الخصم ولكن اندفاعًا جنونيًّا للقضاء عليه. لولا أن رمى النادل بنفسه عليه صائحًا «هل تحبّ المشنقة»؟ وعند الفجر قالت له أمّه «يا حسرتي لما أسمع أنّني كنت سأفقدك!» وقالت «إذا

ضايقك وغد فخبّرني وأنا قادرة على إرساله إلى القبر». كما فعلت مع منافِسة لها فقتلها رجل من أعوانها ثمّ فرّ إلى ليبيا. وقالت الإسكندريّة إنّ بسيمة عمران هي الفاعلة الأصليّة. ولٰكن أين الدليل؟ أمّا أنت يا عمّ خليل فلن تتغيّر تغيّرًا يذكر بعد الموت.

- ٨ -

قال صابر يخاطب الأستاذ إحسان الطنطاوي:

- أظنّ أنّ الاستمرار في الإعلان عبث؟

فأجاب الرجل بتسليم:

- أظنّ ذٰلك.

- لا شكّ أنّه اطّلع على الإعلان، هو أو أحد من ذويه.

- هٰذا هو اعتقادي.

وتدخّلت إلهام في الحديث قائلة:

- إذن فهو يرفض العودة.

فقال صابر:

- أو لعلّه يقيم في جهة نائية، أو خارج القطر.

- على أيّ حال فالاستمرار في الإعلان كما قلت عبث؟

ثمّ وهي تزداد حماسًا لفكرتها:

- كلّ شيء يتوقّف عليه وحده، والزمن هو الذي يعالج مشكلة من هٰذا النوع، وسوف يعود إليكم عندما يريد ذٰلك، كما نقرأ أحيانًا عن عودة الغائبين.

إنّها لا تدري أنّه هو المحتاج إلى الغائب وليس العكس. وأنّه لا يحتاج إليه حبًّا في الحرّيّة والكرامة والسلام فحسب وإنّما خوفًا من التردّي في الجريمة. إنّها لا تدري شيئًا عن الجريمة التي تتعقّبه، ولا المأزق الذي سيجد نفسه فيه عندما تنفد نقوده في القريب. ولم يعد في الطاقة الاستعانة بالمحامين ومشايخ الحارات وغير هٰؤلاء من المرشدين، وإنّه يفكّر كثيرًا في نفض يده من الأمر ولٰكن لا يهون عليه الكفّ النهائيّ عن البحث. وإذا قرّر يومًا الكفّ عن البحث فسوف يندفع في طريق آخر كثور أعمى. قال:

- فلنجدّد الإعلان للمرّة الأخيرة.

وانتظر في فتركوان، لا يكاد يمرّ يوم دون لقاء. صار اللقاء عادة جميلة للطرفين. أجل في النصف الثاني من الليل ينسى كلّ شيء ولٰكن ما إن ينبلج الصبح حتّى تنزع نفسه شوقًا وحنانًا إلى إلهام. وفي محضرها ترتفع به مشاعره إلى آفاق من السعادة والأنس والصفاء ولٰكنّ رغبته الغشوم في كريمة لا تموت، تغفو إلى حين ولٰكن لا تموت. جاذبيّة إلهام لا تخمد ولٰكنّ سيطرة الأخرى لا مهرب منها كالقضاء. ولشدّة وطأة هٰذه السيطرة يمقتها أحيانًا بقدر ما يعشقها، وكم نادى باطنه إلهام لكي تنقذه ولٰكنّه نداء اليأس. وشدّ ما يهرب من هٰذا السؤال المزعج «من تختار إذا خُيّرت» ولٰكنّه يدأب على جسّه كدمّل كامن. أحيانًا يمقت وهو ينتظر كالأسير. وإلهام سماء صافية يجري تحتها الأمان وكريمة سماء ملبّدة بالغيوم تنذر بالرعد والبرق والمطر ولٰكنّها أيضًا سماء الإسكندريّة المحبوبة. وكان يحتسي الشراب على صوت الرعد بالنبيّ دانيال ويدفّئ قلبه بالقبل. وهي تأبى أن تعترف بأنّها فتاة عطفة القرشي، لماذا تخفين الأسرار؟ لأنّك العذاب والشيطنة. وقد التحمت في خياله بهدير البحر ورائحة الماء المالح واليود وحنين الوطن ومغامرات الليالي المفعمة بالشهوات والمعارك البهيميّة. وهي مثله تغلي في شرايينها دواعي الفطرة والغريزة والعمى والقحة لا كإلهام نسمة تستقرّ في ذروة لا يرقى إليها أحد. ونظر إلى عينيها ترنوان إليه وهي تتّخذ مجلسها قبالته. وأبدت ملاحظة عن انشغاله فقال:

- عندما أستنفد وسائل البحث فلن أجد عذرًا للبقاء في القاهرة.

فأسبلت جفنيها وهي تسأله:

- أقرّرت متى تسافر؟

- لا أتصوّر أيّ حياة خارج القاهرة!

فقالت بصراحة فاتنة:

- كلام جميل أرجو أن تحقّقه!

- هٰذا ما أفكّر فيه بلا انقطاع.

- وأهلك وعملك؟

- لكلّ مشكلة حلّ، يخيّل إليّ...

ثمّ واصل حديثه بعد انقطاعة قصيرة:

- يخيّل إليّ أنّني لم أجئ إلى القاهرة للبحث عن

سيّد سيّد الرحيمي ولكن لكي أجدك أنت، أحيانًا نجري وراء غاية معيّنة ثمّ نعثر في الطريق على شيء ما نلبث أن نؤمن بأنّه الغاية الحقيقيّة!

فقالت بصراحة أفتن من الأولى ولكن بوجه مورّد:

ـ من ناحيتي فأنا مدينة لسيّد سيّد الرحيمي!

فقال بنشوة عجيبة:

ـ ما أجملك! ما أجمل الحبّ، هو الحبّ الذي يشدّني إليك يومًا بعد يوم، وهو الذي يكمن وراء كلّ كلمة من كلماتي إليك مهما يكون موضوعها الظاهريّ، واسمه لم يجرِ على لساني قبل الساعة، ولكن لولاه ما كان ثمّة مبرّر أو معنى لأيّ كلمة قلتها. . .

فغمغمت شفتاها بكلمات لم تُسمع، فتساءل:

ـ أليس كذلك؟

فقالت مستردّة شجاعتها:

ـ بلى، وأكثر. . .

وانتشى لحدّ الطرب، وأعرب عن نشوته بضغطة رقيقة من راحته فوق ظهر كفّها، ثمّ تذكّر أنّه سيلقى كريمة بين ذراعيه بعد ساعات فساوره القلق، وخاف العينين الزرقاوين السعيدتين، ثمّ تراءت له أخيلة مظلمة نفثت في أعصابه بهيميّة خفيّة. آه. . . كثيرًا ما عشق أكثر من امرأة في وقت واحد بلا عذاب ولا قلق. ولكنّه مع إلهام تعذّبه كريمة ومع كريمة تعذّبه إلهام والتوحيد بينهما أمنية لا يجرؤ على تمنّيها.

وسألها هاربًا من أفكاره:

ـ خبّريني ألم تعرفي الحبّ من قبل؟

فقالت بلا تردّد وهي تبتسم:

ـ لا، لا أظنّ، عواطف الصبا وهميّة، وأين هي؟ لا أثر هناك لها، وهي كانت موجّهة إلى ممثّل كبير قد مات من زمن، لا، لم أحبّ قبل هذه المرّة، ولكنّي خُطبت مرّة وفسخت الخطبة عندما طالبني بالاستقالة من وظيفتي، وبعض الزملاء في الجريدة يكلّمونني عن الحبّ بأسلوب الصفحة الأخيرة من الجريدة، كلّ ذلك لهو لطيف بلا غاية، سأحدّثك عن ذلك كلّه فيما بعد، على شرط ألّا تسافر، أو على الأقلّ ألّا تنسى القاهرة. . .

ـ قد أسافر إلى آخر الدنيا ولكنّي لن أنسى القاهرة!

ـ حسن أن أسمع ذلك، ولكن ما شأنك أنت مع الحبّ؟

ـ ما عرفته ينبغي أن يكون له اسم آخر.

ـ إذن فلنمرّ عليه بسلام، وأنا أفهم الحياة بدرجة لا بأس بها، وعندما أنظر في وجهك لا أشكّ في أنّني أرى وجه رجل صالح. . .

سيطر بسرعة على دهشته ثمّ تساءل باهتمام:

ـ ماذا تعنين؟

ـ لا أدري، أنت. . . أنت. . .، أعفني من التعاريف، شيء يشعّ من عينيك أقنعني. . .، هو المسئول. . .، هو المسئول عن عواطفي الصادقة، الأفضل أن تتكلّم أنت!

العينان الصافيتان لا تريان، أيدلّ وجهه حقًّا على أنّه رجل صالح؟ وأين ذهبت عربدة الحياة والدعارة البهيميّة؟ وأمّه وأساطيرها ونزوات الليالي المرعبة؟ يجب أن يجيء الأب لينتشله من مأزقه ويطرد الأكاذيب. قال:

ـ لا أودّ أن أمدح نفسي ولكنّ حبّي دليل على أنّي إنسان خير ممّا كنت أظنّ!

ـ أكثر من ذاك، انظر كيف تشقى بالبحث عن أخيك، أعرفته يومًا ما؟

ـ كلّا.

ـ ومع ذلك فأنت تجدّ وراءه كما لو كنت عاشرته العمر كلّه، أليس ذلك نبلًا؟

لعنة الله على الكذب. لذلك يفقد حديث إلهام معناه كأنّه الصمت.

ـ ما هي إلّا مهمّة كُلّفت بها. . .

ـ ولو! ثمّ إنّ تحقيقها ليس في صالحك من الناحية المادّيّة فلا تنكر نبلك!

كريمة مثله تمرّغت في التراب طويلًا وهما يتفاهمان حتّى على البعد. وفي أعمق لحظات الحبّ الحارّة تتهالك أنفاسها لتهمس في أذنه «متى تختفي العقبة التي تهدّد حبّنا» فيمسّه رعب الوعي كصفعة مباغتة وتهمس تضاعيف الظلام بالجريمة. أمّا إلهام فلا تقرأ في وجهه سطرًا واحدًا من الجريمة. ولا يجري لها على بال أنّه يقتل للاستئثار بامرأة أخرى. وأنّه بات يشمّ رائحة دم

مسفوك. وأنه لا معنى لتشبّث عمّ خليل بالحياة إلّا أن يدفعه إلى مصير محتوم. ولأنّك يا إلهام لم تنقذيني من الهاوية أحببتِ ـ وأنتِ لا تدرين ـ مجرمًا. وإذا مضيت في الكذب عليك فسوف أجنّ. ولم تضعف أنت أمام الحقيقة بالرغم من أنّك قاتلت حتّى أوشكت أن تَقتل، وأنّك تفكّر طويلًا في القتل؟ قل أنا فقير معدم، والرحيمي أبي لا أخي، وإنّه إن لم يعترف بي فلن أساوي حفنة من تراب، وماضيٌ غارق في الدعارة والفضيحة. آه... ستصرخ من الفزع. وينطفئ شعاع عينيك الذي يلهم الحبّ. ثمّ ترى هي الوجه الصالح على حقيقته. لو أنشأتك أمّك نشأة مناسبة لكنت اليوم قوّادًا سعيدًا، لكنّها صانتك في النبيّ دانيال لتتعذّب أبد الدهر. ثمّ أحبّت أباك لتحرمك نعمة اليأس.

ـ ماما لها رأي، هي تعرف عنك الكثير، وقالت لم لا ينشئ عملًا في القاهرة؟

ماما! إنّه يخاف الأمّهات. كأمّه تستطيع أن ترى حقيقته بنظرة واحدة. لن يعميها الإشعاع المزعوم الذي يشعّ من عينيه.

ـ أيّ عمل؟

بعد تردّد:

ـ هٰذا يتوقّف على استعدادك!

قل لها إنّك تتقن السكر والرقص والعراك والحبّ.

ـ إدارة الأملاك هي خبرتي الوحيدة!

ـ لا مؤاخذة، ليس عندي فكرة عن دراستك؟

تذكّر المدارس الوطنيّة والأجنبيّة التي عبرها عبور المتفرّج.

ـ والدي لم يتركني أكمل أيّ نوع من التعليم لحاجته إليّ وبخاصّة عقب مرضه!

ـ فكّرْ في مشروع تجاريّ، وأنا أعرف من الزملاء أناسًا متنوّعي الخبرة.

ـ حسن، سأفكّر في ذٰلك ولٰكن بعد مشاورة أبي!

وقال لها وهو يودّعها:

ـ من المؤسف أنّ هٰذا المكان لا يسمح لي بأن أقبّلك.

العقل ينصحه بأن يهجر إلهام ولٰكنّه لا يستطيع. هي كأبيه فيها تَعِدُه به وفي أنّها حلم عسير التحقيق. أمّا كريمة فامتداد حيّ لأمّه فيها تهبه من متعة وجريمة. ارجع إلى الإسكندريّة واعمل قوّادًا لأعدائك. اقتل واغنم كريمة ومالها. استخرج الرحيمي من الظلمات وتزوّج إلهام. آه.. وشتاء القاهرة قاسٍ ولا يضمر المفاجآت ولا يعزف موسيقى السماء. وما أزحم شوارعها ومحالّها فهي سوق تتلاصق فيها الأجساد والسيّارات. وأكثر من امرأة تجد فيك ما تبحث عنه بنظرة واحدة حين تشقى أنت عبثًا في البحث عن الرحيمي. لعلّه هلفوت ضحك على أمّك فأوهمها بأنّه من الوجهاء. وكثيرًا ما يجد لمحة من صورة أبيه المتخيّلة في هٰذا الرجل أو ذاك بين مئات من الوجوه المتتابعة. إنّه يرفضه أو لعلّه يخافه أو لعلّه ميت. وفي الشتاء سرعان ما تجنح الشمس للمغيب وترتفع أمواج الظلام. ولدى رؤيته عمّ الساوي سأله عمّن يعرف من رجال الله القارئين للغيب فدلّه على رجل بالدرب الأحمر يدعى الشيخة زهرة، ولـمّا بلغ مسكنه وجده مغلقًا مختومًا بالشمع الأحمر وقيل له إنّ البوليس قبض عليه بتهمة الدجل. وتساءل صابر متى كان الدجل تهمة؟ وعندما رأى الفندق وهو راجع إليه أثار فيه شعور برتابة البيت وكآبة السجن. وجلس في الاستراحة وهي آهلة تضجّ بالأصوات وتختنق بالدخان. ومن عجب أنّ الأحاديث لا تكاد تتغيّر رغم أنّ الوجوه تتغيّر كلّ يوم. وسمع رجل وهو يتساءل:

ـ ألا يعني هٰذا فناء العالم؟

فقال بلا وعي:

ـ في ألف داهية!

وتعالت ضحكات فأيقظته، وسأله سائل:

ـ حضرتك مع الشرق أم الغرب؟

فقال وهو آسف على تورّطه في حديث لا يهمّه:

ـ لا هٰذا ولا ذاك!

ثمّ تذكّر جملة متاعبه فقال بتأفّف:

ـ أنا مع الحرب!...

ـ ٩ ـ

في تلك الليلة لم تأتِ كريمة في ميعادها. انتظر في

الظلام عامر الرأس بخيالات الشراب. ومن الفراغ جسّد صورًا يصبّر بها شهوته، ومرّت ساعة كاملة بعد منتصف الليل ولم تأت. هو لا يدري شيئًا عمّا يحدث فوق السطح ولٰكنّ كريمة لم تتخلّف ليلة واحدة مذ طرقت بابه لأوّل مرّة. وتقدّم الوقت ساعة أخرى ساحقًا أعصابه فيئس من ليلته وأيقن أنّ مجيئها بعد ذٰلك سيكون عبثًا. وجعل ينظر صوب الباب مرهف السمع ولٰكنّ اليأس كثّف الظلمة. وظلّ مسهّدًا حتّى انطلق صوت المؤذّن فقال إنّه ينادي بفناء هٰذه الليلة. واستيقظ حوالى العاشرة فسخر من نفسه قائلًا: «ليكن حساب عسير» ونزل إلى الاستراحة فتناول فطورًا خفيفًا وراح يراقب من بعيد علاقة المودّة التي تؤاخي بين عمّ خليل ومساعده الساوي. وتساءل متى ينزل فيجد عمّ خليل خاليًا؟ وكيف يسأل كريمة عن أسباب تخلّفها؟ وفجأة قامت معركة كلاميّة بين اثنين من النزلاء لم يدرك سببها ولٰكنّه تابع باهتمام حركة أيديهما العصبيّة وكلماتهما الحادّة وتهديداتهما التي لم يتحقّق منها شيء. ثمّ شعر بضجر غير محتمل.

وقرأ في وجه إلهام ـ في أثناء تناول الغداء ـ اهتمامًا أضفى على فتنته جدّيّة ملحوظة. انجابت عنه هموم كثيرة وعاوده شيء من المرح فقال:

ـ أعترف لك بأنّني لا أجد لحياتي معنى إلّا عند اللقاء.

فحدجته بنظرة إراديّة وقالت:

ـ الحقّ أنّي لا أنقطع عن التفكير في حياتنا.

عاتبها في باطنه على توانيها في امتلاكه والسيطرة عليه، وعلى هزائمها غير العادلة أمام عدوّتها الطاغية. أنت مسئولة عمّا سيقع. قال:

ـ يسعدني أن أسمع ذٰلك، وأنا بدوري لا أنقطع عن التفكير!

ـ هات ما عندك؟

قال وهو يلعن نفسه وأكاذيبها:

ـ أفكّر في أمرين: العمل والزواج!

ـ هل اقتنعت نهائيًّا باقتراحي؟

ـ أجل، ولٰكن عليّ أن أتمّ مهمّتي على أيّ وجه أوّلًا ثمّ أسافر للاتّفاق مع أبي..

كره نفسه لحدّ الموت، وتمنّى أن يمحق أكاذيبه دفعة واحدة وليكن ما يكون. وقال إنّه لم يعرف هٰذا النوع من الألم المحيّر قبل ذٰلك. وبدافع كالاستغاثة قال:

ـ لنذهب إلى سينما هٰذا المساء.

في ظلمة السينما أخذ راحتها في يده. الظلمة دائمًا. ورفع يدها إلى فمه فلثمها في سعادة عجيبة. وتشمّم منها عبيرًا طيّبًا في سرحة طائرة. وقال إنّه يستريح من الاحتراق والجريمة أمّا العذاب الذي يخشى أن يعذّبه في النصف الثاني من الليل فيطرده عن باله. وهمست إلهام متسائلة:

ـ أليس هٰذا ظلمًا بيّنًا؟

ولم يكن يتابع الفيلم بحال فهمس مداعبًا:

ـ افتراقنا ساعة واحدة ظلم أفظع!

وتركّز في الشاشة لأوّل مرّة فرأى رجلًا يضطهد فتاة وسمع حوارًا عنيفًا، ولأنّه لم يتابع القصّة من أوّلها بدا له المنظر حركات وكلمات لا معنى لها. كما نشاهد أجزاء من حياة الناس منقطعة عن ملابساتها فنمرّ بها دون اكتراث وأحيانًا ضاحكين ممّا يستحقّ الرثاء. وكم يبدو بحثك عن أبيك من خلال الإعلان مضحكًا ومغريًا بالمزاح. وهل تجيء كريمة الليلة في ميعادها؟ أو يتعذّب حتّى الفجر؟ وكيف تنجلي هٰذه المتاعب كلّها في البحث والحبّ؟ ولحظ إلهام في لحظات المناظر الشديدة الإضاءة فرأى استغراقها فأحنقه ذٰلك وأوقف مداعباته لراحتها، وأراد أن يسحب يده ولٰكنّها شدّت على أصابعه فشدّ على راحتها ممتنًّا. وغادرا السينما فأوصلها إلى محطّة الباص ومضى إلى بقالة الحرّيّة بكلوت بك فأكل بسطرمة وسردين وشرب نصف كونياك. ورجع إلى حجرته عند منتصف الليل فلبث في الظلام ينتظر. ولم يَعِدِ الغيب بأيّ أمل، واشتدّ الصمت خارج الحجرة كالصمم.

وتتابعت الدقائق في عذاب وحنق. لا... لم يعرف هٰذا الذلّ من قبل. ذلّ الرغبة الجائعة... ذلّ البحث الخائب... ذلّ الخوف من الذلّ. ولحقت الليلة بسابقتها مسهّدة ملعونة مصدّعة. ورسم أن يوجد بالفندق في عصر اليوم التالي فشهد نزول كريمة إلى مجلسها بجانب زوجها كما رآها أوّل مرّة. تفشّى

عذاب الرغبة في كيانه فهاله أن تستأثره المرأة لهٰذا الحدّ. وتجنّبت أن تنظر ناحيته وهو في ركن الاستراحة يتصيّد. لا تعرف جنوني فهي لا تخشى عواقبه. ولـمّا قـامت لتصعد إلى شقّتهـا التقت عيناهمـا لحظة عنـد استدارتها فرمته بنظرة محذّرة ثمّ ذهبت. ما معنى هٰذا التحذير؟! العجوز لم تتغيّر معاملته لها وهو في سنّ لا يملك معها قوّة أعصاب لمداراة ما في نفسه. وفكّر أن يلحق بها في الدور الثاني أو الثالث ولٰكنّه لمس سرعة صعودها كأنّما حسبت حساب أفكاره فأعادت التحذير بصورة أخرى. الأيّـام تمرّ والنقـود تتناقص وحكـاية الأب أمست أسطورة سخيفة لا يركن إليها بحال. ولا غنى له عن هٰذه المرأة فهي حياته والأمل الباقي له في الحياة. وتكرّر التسكّع بالليل في كلوت بك والسكر والانتظار في الظلام ليلة وليلة وليلة. وهو راجع عند منتصف الليل قال محمّد الساوي بصوت نعسان:

ـ سأل التليفون عنك عصر اليوم.

آه... لم تعد أنباء التليفون تهزّ أعماقه ولٰكن آه لو يخلف ظنّه ويجيئه بالمعجزة في هٰذه اللحظة من اليأس والعذاب! قال الرجل:

ـ صوت امرأة...

ـ بخصوص الإعلان؟

ـ كلّا، سألت هل أنت موجود فقلت لها إنّك لم تعد بعد فأغلقت السكّة!

إلهام؟ من شـدّة نكـده لم يقـابلهـا في اليومـين الأخيرين. ولـمّا خلع بدلته وأطفأ المصباح سمع نقرة على الباب! وثب وثبة مجنون وفتح. شدّ ساعديها بقوّة وهتف بغضب وشى رغم زمجرته بالراحة السعيدة.

وجذبها صوب الفراش وهو يقول:

ـ أنت!... الويل لك...

ـ أنت تمزّق لحمي!

ـ كما مزّقت أعصابي!

ـ وماذا تعرف عن عذابي أنا؟

أراد أن ينـزع عنهـا الـروب ولٰكنّهـا أمسكـت بساعديه:

ـ كلّا... البقاء مجازفة غير مأمـونة... سـأقول كلمة ثمّ أذهب...

ـ ادعي الشيطان ليدافع عنك!

ـ أنت سكران ولٰكن اضبط نفسك، حركة بسيطة قد تهدم كلّ ما بنيناه.

أجلسها إلى جانبه على حافة السرير وهو يسأل:

ـ ماذا حصل؟

ـ عند خروجي آخر مرّة من عندك استيقظ على غير عـادة وسـألني هـل كنت طـوال الـوقت إلى جـانبـه فاعتذرت بالعذر المألوف وخيّل إليّ أنّ عليّ سريقوس لمحني، لست متأكّدة ولٰكنّي خفت خوفًا شديدًا!

ـ لعلّها أوهام!

ـ لعلّها ولعلّها، لا يجوز أن نجازف بكلّ شيء، سنخسر الحبّ والأمل، كلمة واحدة منّي تقضي عليّ بالفقر الأبديّ لا تنس ذٰلك.

وتنهّدت ثمّ استطردت:

ـ لذٰلك امتنعت عن المجيء، ولم أستطع بطبيعـة الحـال أن أفسّر سلوكي، وقدّرت وأنـا في غايـة من العذاب حالك وأفكارك، ولٰكنّ الرجل لم يكتب كلّ شيء باسمي إلّا بعد أن أخذ عليّ عهدًا بالوفاء، قال أنت يدي وعيني وابنتي وزوجتي، لا تنغّصي عليّ صفو الأيّام الباقية...

ـ إذن؟

ـ وإذن فيجب أن أمتنع عن الحضور بتاتًا، هٰذا هو الأسلم.

ـ هٰذا جنون!

ـ هٰذا هو العقل.

ـ كيف أنتظر، إلى متى أنتظر؟

وهي تتنهّد:

ـ لا أعرف الجواب كما تعلم.

ـ وسوف تنفد نقودي وأضطرّ إلى السفر.

ـ يمكنني أن أمدّك بالقليل منها لإطالة بقائك أكبر

ـ لن يغيّر هٰذا من المصير المحتوم.

ـ أعـرف هٰذا ولٰكن مـا الحيلة؟... أنا معـذّبـة مثلك.

ـ أنا أشدّ، أنا مهدّد بالعذاب والإفلاس معًا.

ـ وأنا أتعذّب لنفسي ولك، كيف لا تدرك هٰذا؟

تساءل وكأنّما يخاطب نفسه:
ـ متى يموت الرجل؟
ـ أنت تسألني كأنّني مطّلعة على الغيب!
ـ وماذا أنت إذن؟
ـ امرأة تعيسة، أتعس ممّا تتصوّر.
ـ قد يسخر من مخاوفنا الموت ويموت فجأة.
ـ هٰذا محتمل.
ـ رجل طاعن في السنّ ولا يمكن أن يعيش إلى الأبد.
ـ قد يموت الليلة وقد يموت بعد عشرين عامًا في سنّ أخت له ماتت منذ عامين!
ـ اللعنة.
ـ لا حيلة لنا، ويجب أن أذهب الآن.
ـ ولا أراك إلّا بعد موته؟
ـ قلت لا حيلة لنا.
ـ بل هناك حيلة.

وصمتا في الظلام حتّى سمعا هسيس الصمت، وإذا به يقول:
ـ أنت تذكّرينني طيلة الوقت بحديث قديم، حديث إشارات متقطّعة يشهد عليها هٰذا الظلام، فلنتكلّم بالصراحة هٰذه المرّة... عليّ أن أقتله؟!
قالت بنبرة مضطربة:
ـ أنت لا ترتاح إلى هٰذا الحديث، لذٰلك نبذته، لست قاسية ولا متوحّشة، عيبي الوحيد أنّني أحبّك بجنون، الأفضل أن ننتظر...
ـ حتّى يموت في سنّ أخته؟
ـ حتّى يأمر الله بما يشاء.

وركبه تصميم جنونيّ فنهض في الظلام، يائسًا كلّ اليأس، ثمّ جلس مرّة أخرى شاعرًا بالتهاب رغم برودة الجوّ، تساءل:
ـ ماذا بعد الجريمة؟
لم تنبس بكلمة، وأحسّ الظلام دخانًا كثيفًا:
ـ لا تضيّعي الوقت هباء، ماذا بعد الجريمة؟
سمع همسًا غير مبين كأنّما تريد أن تتكلّم فتمنعها شرقة. ثمّ جاء صوتها كأنّما يزحف من جحر:
ـ ننتظر فترة... لكن في أمان... ويمكن أن نلتقي في خفاء... ثمّ أكون لك أنا والثروة...
قال وهو يكوّر يده في الظلام:
ـ اليأس لا يدع لنا سبيلًا ولا وقتًا للاختيار.
ـ للأسف.
ـ ولٰكن ماذا ينبغي أن أفعل؟
قالت بعد صمت أقصر بكثير ممّا قدّر:
ـ ادرس العمارة الملاصقة للفندق.

آه هي مبيّتة كلّ شيء. الجريمة جاهزة في رأسها الرشيق، مغفور لها كلّ شيء ما دام قد دُبّر في سبيل حبّه.
ـ شقّة مأجورة لخيّاطين وبيّاعين بدل نصف عمر، فهي تخلو ليلًا، ولا يصعب الدخول أو الخروج منها.
ـ هٰذه هي العمارة.
ـ سطحها ملتصق بسطحنا!
ـ يعني الانتقال سهل.
ـ تجيء إلى سطحنا، يجب أن تنتظره في الشقّة!
ـ أظنّه يصعد إلى شقّته بين الثامنة والتاسعة؟
ـ وليكن في اليوم الذي أذهب فيه إلى زيارة أمّي وهي ميعاد معروف من كلّ شهر.
قال بدهشة:
ـ لا أصدّق أنّني لم أكد أتمّ شهرًا في الفندق!
ـ ومن السهل بعد ذٰلك أن تنتقل إلى العمارة التي جئت منها.
فقال بارتياب:
ـ كثيرًا ما نسمع عن جرائم من هٰذا النوع عند اكتشافها!
فقالت ببرود:
ـ لأنّنا لا نسمع إلّا عن الجرائم التي تُكتشف. جبّارة، كأمّك أو أكثر!
ـ أهٰذا هو كلّ شيء؟
ـ كلّا، يجب أن تقع سرقة لتبرّر القتل!
ـ وماذا أسرق؟
ـ دع ذٰلك لي، احذر أن تترك أثرًا، إنّ الكلاب تجري وراء الأثر!
ـ يبدو أنّ التنفيذ سيكون غاية من الإحكام.
ـ حياتنا حياة واحدة، فإذا قضي عليك قضي عليّ،

ولا حيلة لنا في البحث عن طريقة للخلاص من الألم والجنون.

وهزّ رأسه قائلًا في حيرة:

ـ جنون، جنون، هل تصدّقين أنّ شيئًا من ذٰلك سيقع؟

فقالت ببرود:

ـ ادرس العمارة جيّدًا، أمامك أيّام احذر أن يراك أحد وأنت تنتقل من سطح إلى سطح، أنت جريء وإلّا فلا يجوز أن أدّعي أنّي أفهم شيئًا في الدنيا...

ومضى يفكّر. أمّا هي فقالت:

ـ لنبدأ من الأوّل من جديد، خطوة فخطوة حتّى لا يفوتنا شيء...

ـ ١٠ ـ

تذوّقِ اللبن والبيض والفاكهة وانظرْ جيّدًا إلى هٰؤلاء الناس في الاستراحة فعمّا قريب ستختلف عنهم جدّ الاختلاف. وعندما يأتي الليل ستكتسب صفة دمويّة غريبة فتنضمّ إلى طائفة المجرمين. ها هو عمّ خليل أبو النجا، يستقبل الصباح البارد، يده لا تكفّ عن الارتعاش، ولا يفكّر في الموت. سيقف عمرك عند العاشرة مساء، أنت لا تعلم ولٰكنّني أعلم، فلا تشغل بالك بمتاعب الدقيقة التالية، تقبّلْ نصيحة أخ يائس، ولعلّي الآن أشارك الله في بعض علمه بالغيب، مذ قبلتُ أن أكون قاتلًا. ورنّ جرس التليفون فضحك ضحكة سمعها الأقربون من حوله، أهو سيّد سيّد الرحيمي يجيء في اللحظة الحاسمة ليغيّر المصير المحتوم؟ ورفع عمّ محمّد الساوي السمّاعة ثمّ قال: «لا... لا يا حضرة». لا... لا... وأنا أقول لا يا سيّدي الرحيمي، أنت تنكر ابنك وابنك سينكرك، ليس في حاجة إليك، سيبحث عن الحرّيّة والكرامة والسلام عند غيرك. هل أنت تتثاءب يا عمّ خليل فحتّام تغالب النوم الأبديّ؟ لماذا تصرّ على جرّي إلى مصير محتوم؟ ما معنى أن يتمتّع بمالك سالب حياتك، وأن تسقط أمّي بلا عقل، وأن يصمت أبي بلا رحمة، وأن تتعلّق آمالي بإزهاق روح، خبّرني عن معنى ذٰلك كلّه. أسبوع مرّ ولا فكر إلّا في الجريمة وكم كانت الأحلام مختلفة عندما تحرّك القطار من محطّة الإسكندريّة، وهٰؤلاء الرجال ألم يرتكب أحدهم جريمة! ثرثرة المال والحرب والحظّ التي لا تنتهي، ونبوءات عن جرائم الغيب، وغفلة تامّة عن جريمة تدبّر تحت أعينهم.

حوالى العاشرة غادر صابر الاستراحة فحيّا عمّ خليل ومضى إلى الطريق وهو يقول لنفسه «غادرت الفندق في العاشرة ولم أرجع إليه قبل الواحدة صباحًا» ألقى نظرة على مدخل العمارة المجاورة، كأنّه سوق لكثرة الداخلين والخارجين ثمّ قال لنفسه: «السطح خالٍ، ولا يُرى من مكان قريب، والظلام ينتشر ابتداء من الخامسة مساء». فكّر في زيارة إلهام بالجريدة ولٰكنّه افتقد التركيز الضروريّ للزيارة، وكره محادثتها وهو ينضح بالدم. وماذا يقول لها وهو يهجر طريقها إلى الأبد؟ ومرّ أمام الجريدة وهو حزين حقًّا. وتخيّل مجلس إلهام، ونظرتها، وسؤالها المألوف عن الرحيمي، ولفتاتها الرقيقة، وعجزه عن الارتفاع إلى مسئوليّة حبّها. وقتل الوقت بالمشي في الشوارع، وتناول غداءه في بقالة الحرّيّة بكلوت بك وشرب كأسين. وقال له البقّال:

ـ الجوّ رديء.

فقال وهو يغادر المحلّ:

ـ أنا مجرم من سلالة مجرمين!

ومضى وضحكة الرجل تودّعه. وصمّم فجأة على مقابلة إلهام في فتركوان ولٰكنّه لم يجدها، وقيل له إنّها ذهبت عقب الغداء مباشرة، وأفاق من تصميمه المندفع فجفل من فكرة زيارة الجريدة. ولبث في المحلّ حتّى الخامسة ثمّ مضى إلى شارع الفسقيّة فوقف تحت البواكي في شبه ظلمة على الجانب المقابل للعمارة المجاورة للفندق. وهو يتفحّص المكان. وارتفع صوت الشحّاذ بالمديح غير بعيد من موقفه فتقزّز من المفاجأة، وانتهز فرصة انشغال البوّاب بمساومة بائع خسّ فعبر الطريق إلى العمارة ودخل. شقّ سبيله في مدخل مزدحم. ورقي في سلّم مزدحم كذٰلك وصاخب، بين أبواب مفتوحة على شقق مكتظّة بالعمّال والزبائن. وقد وقعت عليه أعين كثيرة ولٰكنّها لم تره. وجعل يختلس

النظرات إلى الوجوه ليرى إن كان ثمّة أحد يعرفه من نزلاء الفندق، حتّى بلغ السطح في أمان، في الفضاء تبدّت الظلمة أقلّ كثافة فرأى السطح مغطّى بالنفايات ولٰكنّه خال من الآدميّين. اطمأنّ نوعًا ونظر فيما حول سطح العمارة فلم يرَ مبنى يطلّ عليه، ثمّ استقرّت عيناه على سطح الفندق فرأى ـ منتفضًا ـ كريمة وهي تجمع الغسيل. وهي تنتظره بلا شكّ، ولعلّها رأته وهو يعبر الطريق إلى مدخل العمارة، ويداها مهتمّتان بفكّ المشابك ولٰكنّ وعيها مركّز في طرف عينها المتجسّسة. رأته عند مدخل السطح فأشارت إليه بالاقتراب فدلف من السور وقد انحصر وعيه في تصميمه الجريء كاسحًا وساوسه واضطرابه، وظلّت مولية ظهرها كأنّها لا تشعر به، وسألته:

ـ هل رآك أحد يعرفك؟

ـ كلّا...

ـ عليّ سريقوس تحت، سأقف عند رأس السلّم حتّى تعبر السور.

وذهبت حاملة الغسيل حتّى غيّبها جدار الشقّة الذي يشطر السطح فنظر حوله بحذر ثمّ وثب إلى السور وهبط فوق سطح الفندق وتقدّم في أثرها ثمّ وقف أمام مدخل الشقّة. أطلّ رأسها من وراء باب السطح وهمست:

ـ الباب مفتوح فادفعه وادخل.

اتّجه نحو الباب وضغطه براحته فانفتح. شهق بعمق ثمّ زفر، ودخل دهليز غارق في الظلمة فتسمّر وراء الباب. وما لبث أن لحقت به فأغلقت الباب وأضاءت المصباح. رآها شاحبة الوجه برّاقة العينين، ولا أثر هناك لحيويّتها الفاتنة، تعانقا بلا مقدّمات وبعصبيّة وعنف ولٰكن بلا روح ولا حسّ ثمّ انفصلا وهما يتبادلان نظرة ذاهلة. قال:

ـ أيّ خطأ سيهلكنا.

فقالت بنبرة جافّة:

ـ ثبّت قلبك، كلّ ما حولنا مطمئن، وسينتهي كلّ شيء كما رسمنا.

وتقدّمته لتريه الشقّة الصغيرة، من الدهليز إلى حجرة كبيرة أعدّت للنوم، متّصلة بباب مشترك بحجرة أصغر للسفرة والجلوس، وسوى ذٰلك لا توجد إلّا المرافق. ألقى نظرة على أثاث الحجرة الكبيرة فخيّل إليه أنّ للسرير والصوان والكنبة التركيّة أعينًا ترنو إليه ببرود وعدم اكتراث، وأوشك أن يفصح عن مشاعره ولٰكنّه خجل من ذٰلك واكتفى بقوله:

ـ الحجرة كئيبة...

فأجابت وكانت تفيق رويدًا رويدًا من صدمة اللقاء والتسلّل:

ـ ربّما، المهمّ أنّك ستنتظر هنا في حجرة النوم، ويجب أن تختبئ تحت السرير بمجرّد أن تسمع الباب الخارجيّ وهو يفتح.

ـ الأرض خشب؟

ـ أجل، ومغطّاة بالبساط، البساط يغطّي أرض الحجرة كلّها...

ـ طبعًا سيغلق الباب الخارجيّ؟

ـ طبعًا، الساوي يوصله عادة وخاصّة حال غيابي، وهو يغلق الباب بنفسه، وغالبًا ما يترك المفتاح في القفل أو يضعه على الترابيزة، وستفتحه وتخرج...

ـ ألا أفاجأ بوجود أحد فوق السطح؟

ـ كلّا، عليّ سريقوس ينزل بعد توصيل الرجل وهو ينام في الدور الثالث.

ـ سيسألون كيف دخل الـ...؟

ـ ستكون النوافذ مغلقة، فإمّا أنّه نسي أن يغلق الباب بعد ذهاب الساوي، أو أنّه فتح لطارق...

ـ هل يعقل أن يفتح لطارق قبل أن يسأله عن هويّته؟

ـ لعلّه سمع صوتًا يعرفه!

ـ وتتّجه الظنون إلى من يعرفهم في الفندق؟

قالت ببرود:

ـ هٰذا حسن، لن يقع بريء، والمهمّ أن تنجو أنت...

ثمّ أشارت إلى حقيبتها وقالت:

ـ تمّت السرقة المطلوبة، بعض حليّ وبضعة جنيهات. وقد فتحت باب الصوان بنصل سكّين وبعثرت الملابس، هل أتيت بالقفّاز؟

ـ نعم.

ـ حسن جدًّا، وإليك قضيب الحديد. . .

أشارت إلى القضيب فوق الترابيزة وقالت:

ـ أحضرته من الطقيسي، وكان رِجْل كرسيّ ولّادة أثريّ فلا تمسّه إلّا بالقفّاز، احذر أن يسقط منك شيء وأنت تحت السرير.

خيّل إليه أنّ وجهها ذبل تمامًا من شدّة إشعاع عينيها. قالت:

ـ يجب أن أذهب.

وتعانقا كما تعانقا أوّل مرّة ثمّ قال:

ـ ابقي بعض الوقت. . .

ـ ولٰكن حان وقت الذهاب.

ـ ألم تنسي قول شيء؟

ـ ثبّت قلبك. وتصرّف بعقل في كلّ خطوة تالية، ور. . .

ـ وماذا؟

حدجته بنظرة غريبة ثمّ همست:

ـ لا شيء، ادخل تحت السرير.

وتعانقا للمرّة الثالثة، كأنّما يتشبّث بها. ثمّ مضت إلى الخارج وهي تنادي بأعلى صوتها عليّ سريقوس فسارع بالدخول تحت السرير. وعادت كريمة يتبعها الرجل فأمرته بأن يغلق النوافذ ويتأكّد من إغلاق الأخريات. وانتظرت حتّى قام بمهمّته وأطفأ النور ثمّ ذهبا معًا، خرج صابر من تحت السرير، ثمّ وقف بحذر، في ظلام حالك. الظلام ضَرْب من الاختناق، وضياع وعدم. ولبس القفّاز بعناية. وجال بيده متحسّسًا حتّى عثر على الترابيزة ثمّ تناول القضيب وشدّ عليه بقوّة. وارتدّ إلى موقفه الأوّل ثمّ جلس على حافة الفراش. اختفت الدنيا، لا شيء سوى ملمس الفراش ورائحة الصمت الآخذ في الاستفحال. لا مفرّ فيجب أن تهوي الضربة بإحكام. والانتصار بضربة واحدة خير من العناء والصبر، والانتظار العابث، والبحث الضائع. وحبّ إلهام سحابة شفّافة ولٰكنّها أشقّ من القتل. ومديح الشحّاذ يترامى فهو لم يأوِ إلى جحره بعد. نواء ضائع كالإعلان، وثروة الأمّ المصادَرة. ومتى تعانق كريمة بحرارة وأمان؟ وذوبان الأعصاب في الظلام محنة ولٰكنّ وراءك إرادة من حديد وقلب ينطلق إلى مراده الجهنّميّ كالشهاب.

وهٰذا صوت عليّ سريقوس فوق السطح يغنّي:

أيّام بنشرب عسل وأيّام بنشرب خلّ

ثمّ لا شيء إلّا الظلام وصوت الصمت.

وأخيرًا سمع المفتاح وهو يدار في القفل فهبط إلى الأرض وزحف تحت السرير. وسمع وقع أقدام قادمة، ثمّ فتح باب الحجرة وسطع النور. انكمش في اضطراب وتوثّب. ورأى فوق الأرض ستّ أقدام. وارتفع صوت عمّ خليل قائلًا:

ـ اذهب يا عليّ ولا تنس أن تحضر السبّاك.

ذهبت قدمان. وجلس عمّ خليل على حافة الفراش فاستقرّت على بعد ذراع من عينيه. وقال:

ـ سأقابله غدًا ولن أقبل مزيدًا من المساومة.

ـ هٰذا هو الرأي.

ـ رجل دنيء، رأى الموت أربع مرّات بعينيه ولم يتعلّم!

ـ ربّما يطوّل عمرك.

وساد صمت فتساءل محمّد الساوي:

ـ هل أفوتك بعافية؟

تأوّه الرجل قائلًا:

ـ كلّا ظهري يؤلمني وعندي صداع.

إلى متى يبقيه معه؟ هل يبيت معه ليلته؟ سرت في جسده رجفة من القلق. وإذا بالرجل يقيم الصلاة وهو جالس، ثمّ يسترسل في صوت مسموع:

استقبلت قبلتك

واترجّيت عفوك ورحمتك

يا أرحم الراحمين أدخلني جنّتك

وواصل صلاته حتّى السلام، ثمّ قال:

ـ ساعدني في خلع العباءة والحذاء يا محمّد.

وبعد هنيهة قال:

ـ ناولني زجاجة المنوّم من الدرج.

أين هٰذا الدرج يا ترى؟ إن كان في الصوان فقد انكشفت كذبة السرقة المدبّرة. وانتظر وكأنّه يتوقّع انفجار قنبلة وهو يتابع صفيرها. ولٰكنّه سمع الرجل وهو يرشف الماء، ثمّ شعر به وهو يستلقي فوق الفراش. وسمعه يقول:

ـ لن أستطيع القيام لإغلاق الباب وراءك، أغلقه من الخارج، وافتحه في ميعاد الصباح، مع السلامة.

حيّاه الساوي وأطفأ النور ثمّ أضاء المصباح السهاريّ وانصرف، سوف يفتح الباب صباحًا فيجد صاحبه جثّة. كيف دخل القاتل؟ كيف يذهب عقب الجريمة؟ آه العقل مشتّت. المهمّ التنفيذ لا تخمين آراء المحقّقين. ضربات قلبك تشوّش عليك أفكارك. ورغم الدراسة السابقة يجدّ في كلّ لحظة جديد. هل ينام قبل أن تنفجر أعصابك؟

وارتفع الشخير. كشخير أمّك في الليلة الأخيرة. والكفن كعود جافّ. وبكاء السماء من زجاج الشرفة بالنبيّ دانيال. قطّب في تصميم طاردًا خواطر الأحزان ثمّ زحف. زحف حتّى خرج جسمه كلّه. وقف بحذر شديد قابضًا على القضيب. رأى الرجل مختفيًا من الرأس إلى القدم تحت الغطاء. رأى رأسه المغطّى بارزًا تحت الوسادة. ارتاح جدًّا لاختفائه وانبعثت فيه جرأة جديدة. اقترب من الفراش خطوة رافعًا القضيب إلى أقصى ذراعه. وإذا بالرجل يزيح طرف الغطاء عن وجهه ويميله إلى ناحيته. ارتعد صابر وتسمّر جسمه وذراعه المرفوعة. وفتح الرجل عينيه فالتقيا بعينيه. ولم يبد منه ما يدلّ على أنّه رآه أو انذعر. أفاق صابر من الصدمة بجنون. هوى بيده بكلّ قوّة على الرأس فوق الطاقيّة، وتراجع ذاهلًا عن تكرار الضربة. ندّ عن الرجل صوت لم يتبيّن حقيقته وعبثًا حاول فيما بعد تحديده... تأوّه... صرخة.. شخير... حشرجة؟ وانتفض الجسم تحت الغطاء انتفاضة خفيفة فيما رأى ثمّ همد. وبسرعة حوّل عنه عينيه فاستقرّتا على النافذة. لم يفكّر أبدًا في التأكّد من موته. اقترب من النافذة ثمّ فتحها. ومرق منها معتمدًا على ساعديه. ردّها وراءه وازدرد ريقًا جافًّا لأوّل مرّة. آه.. هل القضيب ملطّخ بالدم؟ والسطح المجاور خال كما توقّع. كم الساعة يا ترى؟ وعبر السور. لماذا لم يغسل القضيب في الحمّام؟ هل يتخلّص منه هنا؟ جنون. هل يرميه في الجهة الخلفيّة للعمارة؟ جنون وسخف وثمّة أصوات آدميّة آتية من أسفل السلّم. أطلّ من فوق الدرابزين فرأى الدور الثالث غارقًا في الظلام، ولكنّ نورًا ينبعث من شقّة في الدور الثاني انعكس على الدرابزين والجدار وراءه. ومسح القضيب بفردة القفّاز اليسرى. ثمّ قبض عليه بها، وهبط السلّم. مرّ أمام الشقّة المفتوحة لا يلوي على شيء، ثمّ غادر الشقّة رجلان أو ثلاثة فنزلوا وراءه فتباطأ حتّى أدركوه ثمّ فاتوه فهبط وراءهم حتّى الدهليز، وغادر العمارة كأنّه واحد منهم وقد لمح البوّاب جالسًا في حجرته الصغيرة وراء الباب. في الطريق شهق بعمق ثمّ زفر. هل عرفه أحد؟ هل رأى أحد القضيب في يده؟ هل لوّث الدم بدلته؟ ورأى تاكسي عند الطوار المقابل ولكنّه خاف إن عبر الطريق مباشرة أن يراه أحد من الفندق، فتوغّل في الشارع، ثمّ عبر من بعيد إلى الجانب الآخر فرجع تحت البواكي صوب موقف التاكس. وصادف رجوعه قيام الشحّاذ وسيره نحوه متلمّسًا طريقه بعصاه، اضطرّ أن يقف على بعد مترين من التاكس حتّى يمرّ الرجل فرآه لأوّل مرّة بوضوح على ضوء مصباح. وشدّ ما أثار اشمئزازه لحدّ الغثيان. وجه نحيل ضائع اللون والمعالم في لحية متلبّدة بالقذارة، وعظام بارزة ووجنتان غائرتان وأنف مجدوع، ورأس مغطّى بطاقيّة سوداء يحجب مقدّمها حاجبيه، تدمع تحتها عينان دمويّتان مشدودتان إلى أسفل، فمن أين جاءه الصوت اللطيف الذي يغنّي بالمديح؟ كتم أنفاسه كيلا يشمّ رائحته وهو يمضي أمامه، وتقلّص وجهه في تقزّز ونفور حتّى اختفى عن ناظريه، ثمّ اندفع نحو التاكسي آمرًا السائق بالذهاب إلى ناحية من النيل بها مرسى قوارب، أيّ إنسان يعطف على هٰذا الشحّاذ! ولٰكن هل لمحه أحد وهو يغادر العمارة؟ القفّاز والقضيب هل رآهما أحد؟ وسائق التاكس هل ينقلب شاهد إثبات غدًا؟ التاكس لا يريد أن ينطلق. السائق يزعجه بتعليقات غير مفهومة.

ـ أليس كذٰلك؟

ـ هه!

ـ وبدل الجنون أقول لنفسي الصبر طيّب.

ليس أفضل من السكوت إلّا الجنون. وشاطئ النيل راقد في ظلام فمن يرى القضيب أو القفّاز أو الدم؟ والتجديف في هٰذه الساعة من السنة غريب

ولكنّه سلوك عاديّ جدًّا إذا قيس بغيره. الآن تتخلّص من القضيب والقفّاز وتغسل يديك. اغسلهما جيّدًا في الأمواج الثقيلة النابعة من الليل. وبمجرّد التفكير في الراحة زحف الإعياء كالنوم. وترك القارب للتيّار. ليس فوق البرّ من شيء يهمّ، وثمّة لذّة غريبة في إغماض العين والاستسلام للتيّار. وفي محو التفكير والذاكرة. ولكنّ التقاء العينين تحت المصباح السهاريّ لا ينسى. والصوت الذي انبعث ما كنهه؟ وما يسيل من عين الشحّاذ دم أم دمع؟ حتّى المطاردة الآن لا تهمّ. ولكن أين مضى بك التيّار؟

وفجأة انطبقت السماء على الأرض. وثب من الفزع فتمايل به القارب. وفي اللحظة التالية أدرك أنّها صفّارة قاطرة بحريّة انفجرت بغلظها المحطّم لأركان الجوّ. وتتابعت أمواج قويّة فرقص القارب. وتناول المجدافين وجدّف بقوّة راجعًا إلى المرسى. ولم يرَ في السماء نجمًا واحدًا فتذكّر الشتاء وسرعان ما سرت في جسده قشعريرة البرد. ومشى في الجزيرة بسرعة وقوّة دفعًا لبرودة الجوّ حتّى عبر جسر النيل. وعند إشارة المرور لمح سيّارة كبيرة واقفة، ورأى داخلها رجلًا جذب انتباهه من النظرة الأولى. كهل فخم، ولكنّ هٰذا الوجه كم إنّه محتمَل أن... ! وانفتح الطريق وتحرّكت السيّارة فصاح بأعلى صوته:

- سيّد الرحيميّ!

وجرى وراء السيّارة بأقصى سرعته ولكنّ المسافة الفاصلة بينهما اتّسعت إلى غير نهاية وسرعان ما اختفت السيّارة. حتّى رقمها لم يره. توقّف عن الجري وهو يلهث. هو الرحيمي! صاحب الصورة بعد ثلاثين عامًا. ولو تقدّم خطوات أسرع لأمكنه الوثوب على مؤخّرة السيّارة. ولكنّه لم يعرف الرقم ولا الماركة. والحسرة غير مجدية وهي في حالته مضحكة أيضًا. وكيف يثق في عينيه وهو لم يشعر بالبرد فوق سطح النيل! وماذا يعني الرحيمي له بعد ما كان؟ الأمل الوحيد الباقي له هو: كريمة. هي الآن سهرانة تفكّر. وتربطهما حقيقة واحدة رغم البعد. ومع ذٰلك كم يحنّ إلى لقاء إلهام ليعترف لها بكلّ شيء. وأنبأته ساعة الميدان بانتصاف الليل فقرّر العودة إلى الفندق في ميعاده المألوف رغم كراهيته للفكرة. ارتعد وهو يمرّ أمام العمارة. وتذكّر الشحّاذ بصورته البشعة فتساءل عن المأوى الذي يؤويه. ووجد عمّ محمّد الساوي جالسًا مكان عمّ خليل لم يذهب بعد للنوم. وتذكّر أنّه لم يأكل ولم يشرب وأنّه كان ينبغي أن يشرب قليلًا من الكونياك. ورفض فكرة الرجوع خشية ألّا يحسن تفسيرها غدًا!

وقال له العجوز:

- التعب واضح في وجهك!

فأجاب بحذر:

- الدنيا برد في الخارج...

فابتسم الرجل قائلًا:

- سألَتْ عنك مرّة أخرى.

- من؟!

- أنت أدرى؟!

إلهام!... خرافة كالرحيمي.

- ليس وراء بلدكم إلّا التعب.

- الحياة كلّها تعب، ولكن أما من جديد؟

أدرك أنّه يسأل عن الرحيمي فقال وهو يمضي محيّيًا:

- سأبحث عنه غدًا في القرافة!

- ١١ -

غادر الفراش في السادسة صباحًا. ترى هل ذاقت النوم عيناه؟ إنّه لا يذكر من ليله إلّا السهاد. ولكن مهلًا لقد حلم.

أجل لا يذكر من الحلم سوى منظر عراك نشب بينه وبين كريمة أمام عمّ خليل الذي لم يكترث لما يجري أمامه، ولكنّ ذٰلك دليل كافٍ على أنّه نام ولو بعض الوقت. والجوّ بارد حقًّا ولكن فلتكن رجلًا إلى النهاية وإلّا فما معنى مباهاتك بأنّك مجرم من سلالة مجرمين!

وأضاء المصباح فهاله أن يرى فردة القفّاز في يمناه! حملق فيها بذهول وفزع. إذن رمى بالقضيب والفردة اليسرى ونسي هٰذه! عاد بها إلى شاطئ النيل. وسار في الجزيرة، وجرى وراء السيّارة الكبيرة، وقطع الشارع، ولوّح بها للساوي وهو يحدّثه. حملق فيها بفزع متزايد.

بقعة من الدم انداحت وسط راحتها البنّيّة. ماذا فعلت هٰذه البقعة! عليك أن تختبر كلّ شيء، وتفحّص الفراش والغطاء والملاءة، وأرض الغرفة، ثمّ الحذاء والجوارب والبدلة والقميص والمنديل، كلّ شيء بعناية، ولٰكنّه لم يطمئنّ لشيء، ودار رأسه بالوساوس فعيناه لا تريان شيئًا أمّا أعين شياطين الأمن فلن يخفى عليها شيء، وقرّر أن يتخلّص من القفّاز فمضى به - مع الفوطة والصابونة - إلى الحمّام، مخفيًا في جيب البيجاما مقصّه الصغير، وراح يقطّعه، ويرمي بكلّ قطعة على حدة ثمّ يشدّ السيفون. وهو يفعل ذٰلك سقط منه مرّة على الأرض، فالتقطه وواصل عمله، ثمّ غسل وجهه وغادر الحمّام، وفي الطرقة رأى عليّ سريقوس أمامه فحيّاه الرجل قائلًا:

- صباح الخير يا سي صابر، استيقظت اليوم مبكّرًا.

اللعنة! ماذا جاء بك إلى طريقي! ساكن الحجرة رقم ١٣ استيقظ مبكّرًا على غير عادته، هٰذا الشيء الوحيد غير العاديّ يا حضرة الضابط. اللعنة. بادرة سوء ولا شكّ. وهل غسل الأرض عند موضع سقوط القفّاز؟ اللعين دخل الحمّام! ولّما دخلت الحمّام عقب خروجه منه رأيت أثرًا يشبه الدم عند البالوعة. ولم يدخل حجرته ولم تفارق عيناه باب الحمّام. وفتح الباب وخرج عليّ سريقوس فلمّا رآه بموقفه سأله:

- أيّ خدمة يا سي صابر؟

فذهب إلى الحمّام دون أن يلتفت إليه، وتفحّص موضع سقوط القفّاز جيّدًا ثمّ غادره، ولـمّا رأى عليّ سريقوس في الخارج قال كالمعتذر:

- نسيت الصابونة!

فابتسم الرجل قائلًا:

- كانت بيسراك وأنت ذاهب!

- هٰذه هي عاقبة الاستيقاظ مبكّرًا قبل أن يشبع الواحد من النوم، زياط ملعون أيقظني بعد الفجر وعبثًا حاولت النوم من جديد...

ودخل الحجرة وهو يستأنف ضحكته. بداية سيّئة ولٰكن لا داعي للمبالغة في الخوف. وأعاد تفحّص ملابسه وهو يرتديها، ورفع رأسه نحو السقف متخيّلًا صورة عمّ خليل فوق فراشه. وقال لنفسه - رغم قشعريرة تقلّص بها جسده - إنّ حوادث القتل تقع كلّ يوم وبلا حصر، ومجرّد التفكير في السفر إلى الإسكندريّة جنون. ولـمّا انتهى من ارتداء بدلته نظر فيما حوله متسائلًا ترى هل نسي شيئًا؟ إنّه غير مطمئنّ إلى بدلته رغم إعادة الفحص وسوف يكتشف الشياطين في نسيجها ما لا يخطر ببال. وخطر له أن يرتدي أخرى ويذهب بها إلى مصبغة لغسلها بالبخار، ولٰكن فيم يلفّها؟ وألا يلفت ذٰلك بعض الأنظار؟ ألا تصير موقع تحقيق بعد ظهر اليوم؟ وشعر بضيق ويأس وبخاصّة لأنّه رسم أن يغادر الفندق قبل اكتشاف الجريمة. ورأى أنّ ذٰلك أهمّ من البدلة نفسها. وألقى نظرة أخرى على الحجرة وهو يقول لها «لا تخونيني» ثمّ ذهب. رأى عمّ محمّد الساوي وهو يصلّي الصبح فجلس في الاستراحة مع نفر قليل من النزلاء. وتناول فطورًا خفيفًا، وفي أثناء ذٰلك جاءه عليّ سريقوس مسرعًا وهو يقول:

- نسيت هٰذه يا سي صابر.

حافظة نقوده! سقطت بلا شكّ وهو يتفحّص الجاكتة، وراجع محتوياتها ثمّ قال له:

- أشكرك جدًّا يا عمّ عليّ...

ونفحه بعشرة قروش فقال الرجل وهو يمضي عنه:

- وجدتها عند رِجْل السرير.

الأخطاء التي اكتُشفت كثيرة حقًّا فما عدد الأخطاء التي لم تُكتشف؟ والقوّة العمياء التي تجرّدك من ملابسك قطعة وراء قطعة سترمي بك في النهاية عاريًا كما ولدتك أمّك. وأمّك هي القاتل الحقيقيّ لعمّ خليل أبو النجا. وما أشبه شخيرها بشخيره في الليلة الأخيرة أمّا الصوت الذي ندّ عنه عقب الضربة القاتلة فقد مضى وانقضى. وضبط رجلًا من الجالسين وهو يداري ابتسامة ابتسمها لدى ملاحظته فأدرك أنّ شفتيه تُفصحان أفكاره فأربكه الحرج. وكره المكان فغادره. وفي الخارج ترامى إليه الغناء المألوف كلّ يوم «طه زينة مديحي» فتذكّر الصورة البشعة بتقزّز ثمّ قال وهو يتجنّب النظر ناحيته «من يدري لعلّه سعيد بالغناء». ويصعد عمّ محمّد الساوي إلى السطح ويفتح باب الشقّة ثمّ يطرق باب حجرة النوم... عمّ خليل

استيقظ؟... استيقظ يا عمّ خليل... ويدفع الباب برفق ويختلس من الداخل نظرة... عمّ خليل... ربّاه... يا ألطاف الله. أغيثونا... يا عليّ... يا عليّ... يا هوه... عمّ خليل قُتل... أغيثونا... بوليس النجدة. قديمًا اختفت أمّي فلم يعثر عليها أبي واختفى أبي فلم أعثر عليه. فليكن هٰذا الاختفاء الموفّق نصيبي أيضًا، وإذا انجابت الغمّة وطردها النسيان فتلقى كريمة بين ذراعيك ومعها كلّ ما تعد به الحياة السعيدة المطمئنّة. سار على غير هدى تقوده الشوارع والمنعطفات. وكلّما أجهده السير جلس على قهوة ليريح قدميه. لم يَرَ ولم يسمع شيئًا. ومرّة ارتفع رأسه إلى الأفق فوق مبنى القضاء العالي فرأى مظلّة كبيرة من السحب ذات أرضيّة بيضاء صافية تنتشر عليها قطعان من السحاب الداكنة فاستيقظ قائلًا: «هٰذه زفرة من الإسكندريّة» وتحرّك في القلب الشجن، ثمّ مضى بالعين التي لا تَرى والأذن التي لا تَسمع. وطيلة الوقت وهو يشعر بحاجة حارّة إلى لقاء إلهام، فلمّا فات النهار منتصفه مضى إلى فتركوان وهو ينظر إلى كلّ شيء بغرابة. ولدى رؤية الفتاة مقبلة فاضت به رغبة مفاجئة في الاعتراف. ولـمّا رأته ومضت عيناها ثمّ صافحته وهي ترميه بنظرة زرقاء عاتبة:

ـ لماذا أصافحك ما دمت تقاطعني؟

وتفحّصته باهتمام ثمّ استدركت:

ـ وأيضًا لا تتكلّم!

ـ استغرقتني المشاغل وكنت وما زلت في غاية التعب.

ـ ولا تليفون؟

ـ ولا تليفون، فلنؤجّل حديث ذٰلك لأشبع شوقي إليك.

وارتضيا الصمت وهما يتناولان الغداء ولٰكنّه ظلّ يرنو إليها طيلة الوقت. ردّد باطنه «طه زينة مديحي ـ صاحب الوجه المليح» وقال إنّ تصميمه على هٰذا اللقاء عجيب. وهو يبدو لا معنى له إلّا أن يكون ملجأ مؤقّتًا في العاصفة. وهي تبتسم رغم أنّها صافحت يدًا ملوّثة بالدم. ورهبة الوداع تغري بالدمع.

ـ أنت متعَب حقًّا.

فقال بفتور:

ـ أمس رأيته!

فلمعت عيناها باهتمام شديد مدركة من يعنيه:

ـ أخوك؟!

ـ سيّد سيّد الرحيمي.

ـ إذن فقد انتهت مهمّتك؟

فقصّ عليها الحكاية فيما يشبه الضجر. فقالت:

ـ هناك احتمال كبير أن يكون هو.

ـ وثمّة احتمال أن يكون غيره.

فتساءلت برجاء:

ـ متى تعتبر هٰذه المسألة منتهية؟

ـ إنّي أعتبرها كذٰلك.

ـ لٰكنّك متعَب حقًّا؟

ـ مضت الأيّام الأخيرة في مقابلات متواصلة ومشاوير معقّدة.

ـ أناس من طرف والدك؟

ـ نعم.

وشربا العصير، ثمّ تهيّأت لنغمة جديدة مهّدت لها بابتسامة حييّة ثمّ تساءلت:

ـ ولا تجد وقتًا للتفكير فيّ.

ـ بل أفكّر فيك طول الوقت.

ـ ماذا قال لك التفكير؟

متى تعترف لها بكلّ شيء وتعفي نفسك من الكذب؟

ـ أنت لا تتكلّم، تحدّثنا آخر مرّة عن عمل جديد في القاهرة!

آه... أنت لا تفكّر إلّا في الاعتراف وعمّا قليل ستنفجر.

ـ أجل، لم أنس ذٰلك لحظة واحدة.

ـ رغم مشاغلك؟

ـ رغم مشاغلي كلّها.

ـ أمّا أنا فأدرس الموضوع من جميع نواحيه.

إنّها آخر حصن للمقاومة فقال:

ـ إلهام أنا أحبّك، أحبّك من كلّ قلبي، ولٰكنّي كذبت عليك.

رمقته بدهشة وهي تسأل:

ـ متى وكيف كذبت؟.

ـ كذبت عليك بدافع حبّي نفسه.

ـ لا أفهم شيئًا.

ـ قلت لك إنّي أبحث عن أخي والحقيقة أنّي أبحث عن أبي؟

ـ أبوك!

ـ أجل، أبي هو الذي أبحث عنه.

ـ كيف فقدته؟... أهي حكاية كحكايتي؟

ـ كلّا، صدّقت طول عمري أنّه ميت، وفي الساعة الأخيرة من حياة أمّي اعترفت لي بأنّه حيّ، وأنّ عليّ أن أجده.

وهي تحدّق في وجهه طول الوقت:

ـ على أيّ حال ليس الأمر بذي بال.

ـ لكنّي رجل مفلس لا أملك إلّا جنيهات، كانت أمّي غنيّة جدًّا وكنت أعيش عيشة الوجهاء، ثمّ ضاعت ثروة أمّي لآخر مليّم، لم تترك لي سوى وثيقة زواجها وصورة أبي لأثبت بها بنوّتي أمامه عندما أجده، وعدا ذلك فإنّني لا أصلح لشيء.

أثقل الوجوم عينيها الصافيتين. كيف كانت تكون حالها لو اعترف لها بسيرة أمّه وماضيه على حقيقتها؟

ـ أقرأ الانزعاج في وجهك!

ـ كلّا ولٰكنّها المفاجأة.

ـ أنا غير جدير بك ولن أغفر لنفسي خداعك.

تمتمت:

ـ إنّي أفهم جيّدًا لماذا كذبت عليّ.

ـ الأفظع من ذٰلك جعلتك تحبّين شخصًا غير جدير بحبّك.

ـ وحبّك أهو كاذب؟

ـ أبدًا، مطلقًا، أحبّك من كلّ قلبي.

وهي تتنهّد:

ـ والحبّ هو الذي ردّك إلى مصارحتي بالحقيقة؟

ـ أجل هو ذٰلك.

ـ إذن فعذرك واضح!

ـ ولٰكنّه يطالبني أيضًا بالابتعاد عنك.

وهي تزدرد ريقها:

ـ لكن بالله لماذا؟

ـ مفلس ولا أهل لي، ولا أصلح لشيء.

ـ الإفلاس لا يهمّ فهو حال مؤقّتة، والأهل لا يهمّون فما حاجتنا إليهم، ولٰكنّك تصلح لأشياء كثيرة.

ـ أشكّ في ذٰلك، لا شهادة لي ولا عِلم ولا خبرة ولا عمل، ولذٰلك فلا أمل لي إلّا في العثور على أبي.

ـ وهل يغني أبوك عن كلّ شيء؟

ـ أفهمتني أمّي أنّه من الوجهاء وممّن يشغلون المناصب الخطيرة.

فتردّدت لحظات ثمّ قالت:

ـ لٰكنّ الإعلان... والاسم... ودليل التليفون... أعني...

ـ أجل، لا أصدّق الآن أنّه من أصحاب المناصب فهم معروفون، ولا من وجهاء القاهرة كذٰلك، ولٰكنّ ذٰلك لا ينفي أن يكون من وجهاء هٰذا الإقليم أو ذاك...

ـ ثمّ إنّك لمحته أمس؟

ـ ذٰلك ما خُيّل إليّ، ولٰكنّي لم أعد أثق بشيء.

ـ وحتّى متى تنتظر؟

ـ يجب ألّا أضيّع وقتي في البحث أو الانتظار.

ـ ثمّ؟

ـ لا أدري، السبل مسدودة في وجهي، ولٰكن عليّ أن أرجع إلى بلدي فأبحث عن أيّ عمل أو أنتحر...

وهي تعضّ على شفتيها:

ـ وتقول إنّك تحبّني!

ـ نعم... بكلّ قلبي.

ـ وتفكّر في الذهاب أو الانتحار؟

ـ السبل مسدودة لحدّ الاختناق.

ـ لٰكنّك تحبّني... وأنا أيضًا أحبّك.

قال بوجه متقلّص من الانفعال والحزن:

ـ أنا لا أصلح لشيء فكيف أصلح لك؟

ـ الصبر، لن أتخلّى عنك.

ـ لكن ما الفائدة، كنت أحلم بالعثور على أبي ولذٰلك أدخلتك في حلمي بلا حساب.

ـ العمل! هو الذي يحلّ مشكلتنا.

ـ قلت إنّني لا أصلح لشيء.

ـ أعطني فرصة للتفكير وسوف تسير الأمور كما نودّ.

والجريمة التي ارتكبت! لا يجوز بحال أن تسير الأمور كما تودّ، يجب أن يكون وقت ذلك قد فات. كيف لم يأت الاعتراف بالنتيجة المدمّرة! والضحك من الآن إلى نهاية العمر لن يكفي.

ـ لن تسير الأمور كما نودّ.

فقالت بحزم:

ـ أمهلني يومًا أو يومين، لا تتّخذ أيّ قرار قبل الرجوع إليّ، أنا أعرف ما أريد...

قل لها ماذا كانت أمّك. قل لها ماذا فعلتَ أمس. قل لها إنّك تزوّجت من أخرى بوثيقة من دم. قل لها إنّك تودّ أن تصرخ حتّى تصدع أركان الأرض.

ـ ١٢ ـ

ها هم عساكر البوليس وها هي اللمّة. كما تخيّل تمامًا طيلة النهار. وإذن فقد انتهى الرجل واكتشفت الجريمة والبحث دائر عن المجرم، ولا مفرّ من التقدّم فأسكِتْ هٰذه الرعدة وتمالَكْ نفسك حتّى الموت. لتنس النظرة الغائبة التي ألقاها عليك الرجل، إلى الأبد. ولا تسَلْ عن الصوت الذي ندّ عنه. والعودة إلى الفندق شاقّة مرعبة كالاعتراف. حتّى الخطّة التي نُفّذت نوقشت من جديد كأن لم تنفّذ بعد. كان يجب أن تغادر الفندق قبل يوم الجريمة بأسبوع. لم يكن الشيطان نفسه ليفكّر فيك ولٰكنّك لن تجني من الهلوسة إلّا الحسرات. ومن يصدّق أنّه حتّى في غمرة هٰذا الفزع الشامل لا يكفّ صوت الشحّاذ عن المديح! وشقّ طريقه خلال المتطلّعين حتّى اعترضه عسكريّ فقال بدهشة:

ـ ماذا حدث؟ أنا من نزلاء الفندق.

وظهر عمّ محمّد الساوي على عتبة الفندق بوجه شاحب استقرّت في صفحته صورة دميمة للفزع فأشار إليه قائلًا بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ دعه يدخل.

سأله بلهفة:

ـ ماذا حدث يا عمّ محمّد؟

فأجاب الرجل ووجهه يتقلّص تقلّص البكاء:

ـ قُتل عمّ خليل!

ـ قُتل!

ـ وُجد مقتولًا في فراشه لعنة الله على المجرمين.

رأى في المدخل عساكر ومخبرين، وفي مكان عمّ خليل جلس المحقّق وإلى يمينه ـ على كرسيّ كريمة المعتاد ـ رجل آخر. وكان شاغل كرسيّ عم خليل عاكفًا على أوراق بين يديه وقد جلس وراء المكتب من الناحية الأخرى أحد النزلاء. وذكّره الجالس مكان عمّ خليل بصورة أبيه المتخيّلة. وأوشك اهتمام مفاجئ أن ينتزعه من دوّامة الاضطراب التي اجتاحته ولٰكنّه ما لبث أن تبيّن شباب الرجل النسبيّ واختلافه عن الصورة عند التحقّق فوضح له سخف مخيّلته. هل يقف أو يمضي إلى حجرته؟ وبعد تردّد قصير شرع في السير إلى الأمام ولٰكنّ الجالس مكان كريمة أوقفه بإشارة من يده قائلًا:

ـ انتظر من فضلك في الاستراحة.

ذهب إلى الركن الأيمن حيث جلس بعض النزلاء فجلس معهم وهو يسأل:

ـ ماذا حدث؟

ـ وُجد عمّ خليل مقتولًا.

ـ ولٰكن كيف؟

ـ من يدري! وجاء المحقّقون، وحُجزنا جميعًا للتحقيق، وحصلت المعاينة كما حصل تفتيش شامل.

وارتفع صوت بكاء مكتوم جذب عينيه إلى ركن الاستراحة الأيسر فرأى كريمة! رآها جالسة بين امرأة عجوز في السبعين ورجل يكبرها بأعوام. كيف لم ينظر صوبها وهو داخل؟ وماذا يجدر به أن يفعل؟ وبعد تردّد نهض إليها ثمّ قال بصوت خافت:

ـ شدّي حيلك، البقيّة في حياتك.

لم تنبس بكلمة وظلّت مخفية وجهها بين يديها فرجع إلى مجلسه وهو يهزّ رأسه أسفًا. ترى هل أخطأ أو أصاب بهٰذه الحركة؟ وهل يمكن أن تشبه المرأة العجوز أمّ بنت الأنفوشي؟ وماذا يدور في أذهان المحقّقين؟ هل سألوا عن ساكن الحجرة رقم ١٢؟ هل بدأت التحرّيات عنه؟ هل يفهمون المجرمين كما يفهم هو

بنات الليل؟ وكرههم جميعًا لدرجة الموت. ونظر إلى الجالسين متسائلًا:

ـ وبعد؟

ـ أنت لم تنتظر إلّا دقائق ونحن على هٰذا الحال منذ الصباح.

ـ هل سألوا النزلاء الآخرين؟

ـ نعم، وتركوهم يذهبون، ولم يأت دورنا بعد، وسألوا الزوجة وأمّها وخالها.

ـ لٰكنّها لم تكن موجودة فيما أعلم...

وندم على تسرّعه، ولٰكنّ رجلًا قال:

ـ ولوا! وحصلت مفاجآت ففي الحجرة رقم ٦ ضبطت كمّيّة ضخمة من المخدّرات فقبض على صاحبها، وفي الحجرة رقم ٢ عثروا على لصّ محترف...

ـ آه... لعلّه...

ـ هٰذا جائز، كلّ شيء يتوقّف على سبب الجريمة.

ـ لا شكّ أنّه السرقة...

وندم على تسرّعه مرّة أخرى، يحسن به أن يتجنّب الأخطاء. هل وجدوا دليلًا أو شبه دليل في حجرة عمّ خليل أو في حجرته؟ لا يبدو أنّ أحدًا منهم يهتمّ به. وكم يودّ أن يخلو ولو دقائق إلى كريمة. احذر أن تنظر نحوها. لديها بلا شكّ ما يستحقّ أن تخبره به. ليس الأمر كما تخيّل. أجل ليس الأمر كما تخيّل. اللعنة... متى يخرس الشحّاذ البشع؟ في مثل هٰذا الوقت من كلّ شهر أذهب لزيارة أمّي. سرقت نقود وحليّ. أغلق عليّ سريقوس النوافذ أمام عينيّ ثمّ أغلقت الشقّة بنفسي... لا... لا أعرف له أعداء. لماذا ذكّرني هٰذا الرجل بصورة أبي؟

وإذا برجل يقول:

ـ ومع ذٰلك فنحن أبرياء فكيف يكون اضطراب المذنبين!

ـ وأكثر من هٰذا فمجرّد خطأ في التعبير قد يجلب متاعب لا حدّ لها.

ـ ولٰكن لم يُشنق بريء قطّ.

ـ أووه...

ولٰكن قد ينجو مذنب. أمّك والرجل الهارب إلى ليبيا. والعودة إلى الفندق محض جنون فخطّة أخرى هي ما كان يلزمك. وكالقضاء اعترضت مسعاك الخائب كريمة. وحاجتك إلى أبيك لم تنقض كما توهّمت ولٰكنّ الخطر يزيدها إلحاحًا.

واستدعوا تباعًا. وأخيرًا وجد نفسه جالسًا أمام المحقّق. كرهه من أعماقه ثمّ صمّم على الانتصار عليه.

ـ صابر سيّد سيّد الرحيمي.

وقدّم بطاقته فتصفّحها الرجل بعناية:

ـ نزلت في هٰذا الفندق منذ شهر تقريبًا وهو مسجّل في الدفتر.

كلّا، لا يشبه الأب في شيء وإن يكن ذكّره به عند النظرة الأولى.

ـ استيقظت كالعادة فارتديت ملابسي ونزلت إلى الاستراحة ثمّ تناولت الفطور وذهبت.

ـ ليس كالعادة تمامًا، استيقظت مبكّرًا.

ـ لا أستيقظ عادة في وقت محدّد، وقد استيقظت مبكّرًا أكثر من مرّة.

ـ قال الخادم إنّك استيقظت هٰذا الصباح مبكّرًا بخلاف عادتك.

ـ لعلّه لم يرني في المرّات السابقة.

ـ ألم تسمع شيئًا غير مألوف في الليل؟

ـ كلّا، نمت عقب عودتي فلم أستيقظ إلّا في الصبح.

ـ ألم يلفت نظرك شيء عقب استيقاظك؟

ـ كلّا.

ـ متى رأيت الخادم عليّ سريقوس؟

ـ عند خروجي من الحمّام مباشرة.

ـ ألم تلاحظ عليه شيئًا؟

ـ كلّا، كان كعادته كلّ يوم.

ـ وأنت ألم يحدث لك ما يستحقّ الذكر؟

ـ كلّا.

ـ ألم تنس حافظة نقودك؟

ـ بلى، حدث هٰذا حقًّا، وأتاني بها عليّ سريقوس في الاستراحة.

ـ وكيف كان وقع ذٰلك في نفسك؟

ـ سررت بطبيعة الحال.
ـ وماذا أيضًا؟
ـ لا شيء.
ـ ألم تدهشك أمانته؟
ـ ربّما، لا أدري بالضبط، ولعلّي لم أفكّر في ذٰلك.
ـ من الطبيعيّ جدًّا أن تفكّر في ذٰلك.
ـ لعلّي دهشت بعض الشيء.
ـ بعض الشيء؟
ـ أعني دهشة عاديّة.
ـ ما رأيك في مدى أمانته؟
ـ لم ألاحظ عليه ما يسوء.
ـ وأين أمضيت الوقت فيما بين ذهابك وإيابك؟
ـ أتجوّل هنا وهناك كيفما اتّفق.
ـ بلا عمل وهٰذا مفهوم من البطاقة. ولٰكن بلا أصدقاء؟
ـ لا أصدقاء لي هنا.
ـ وأمس متى غادرت الفندق؟
ـ حوالى العاشرة صباحًا.
ـ ومتى رجعت إليه؟
ـ عند منتصف الليل.
ـ لم ترجع في أثناء النهار كما فعلت اليوم؟
ـ كلّا.
ـ وهل سبق لك أن فعلت ذٰلك؟
كيف خرقت مألوف سلوكك أمس خلافًا للخطّة؟!
ـ مرّة أو مرّتين؟
ـ لا يتذكّر أحد هنا ذٰلك.
ـ ولٰكنّي أتذكّره!
ـ مرّة أو مرّتان؟
ـ الأرجح مرّتان!
ـ وكيف تقضي هٰذا اليوم عادة؟
ـ في التجوّل وأنا رجل غريب وكلّ مكان في المدينة بالنسبة إليّ جديد.
ـ وماذا وجدت عند عودتك؟
ـ قابلت عمّ محمّد الساوي في هٰذا المكان، وعليّ سريقوس أمام باب حجرتي.
ـ كيف وجدته؟
ـ سألني إن كنت في حاجة إلى خدمة ثمّ ذهب.
ـ ألم يصادفك أحد من النزلاء؟
ـ كلّا.
ـ وكيف أمضيت أمس من الساعة العاشرة صباحًا حتّى منتصف الليل؟
ـ تجوّلت في الشوارع حتّى موعد الغداء.
ـ وأين تناولت الغداء؟
ـ في بقالة الحرّيّة بكلوت بك.
ـ مكان غريب بعض الشيء لرجل من الأعيان.
طفح بالكراهية للرجل وهو يقول:
ـ اهتديت إليه أوّل عهدي بالمدينة وأنا أتخبّط فأنست إليه.
ـ وبعد ذٰلك؟
ـ مشيت على شاطئ النيل.
ـ في هٰذا الجوّ؟
وهو يضحك:
ـ أنا إسكندرانيّ.
ـ ثمّ؟
فتركوان... لا، حتّى لا يجرّ إلهام، وفيلم مترو رأيته في الإسكندريّة.
ـ دخلت سينما مترو.
ـ متى؟
ـ من الساعة السادسة.
ـ أيّ فيلم؟
ـ فوق السحاب.
ـ وبعد التاسعة؟
ـ تجوّلت كالعادة... وركبت بص مصر الجديدة إلى نهاية الخطّ لمجرّد قتل الوقت.
قتل!... لماذا اخترت هٰذه الكلمة المرعدة!
ـ وأين تناولت العشاء؟
آه... حذار...
ـ في سينما مترو تناولت شطائر وحلوى.
ـ ألم تقابل أحدًا؟
ـ كلّا.
ـ لم تعرف أحدًا في القاهرة؟
ـ كلّا.

ثمّ بعد لحظة تردّد:

ـ اتّصلت بمدير الإعلانات بجريدة أبو الهول لعمل لٰكنّها ليست علاقة معرفة بالمعنى المفهوم.

أخطأت؟... هل يقحم ذٰلك إلهام؟...

ـ لماذا انتقلت من الإسكندريّة إلى القاهرة؟

ـ زيارة سائح...

ـ لعلّ هٰذا الفندق غير جدير بإقامة سائح من الأعيان؟!

ـ هو جدير بالناحية الاقتصاديّة.

ـ يبدو أنّك لست من الأغنياء!

ـ بلى...

ـ ولا غاية لك من الزيارة إلّا السياحة؟

الحلقة تضيق. والكذب غير مجدٍ في هٰذه النقطة. وأنت لم تفكّر في هٰذه الأسئلة عند وضع الخطّة.

ـ ولديّ مهمّة خاصّة.

ـ أمن الممكن أن آخذ عنها فكرة؟

ـ مهمّة عائليّة.

ـ حدّثني عن أملاكك؟

ـ مجرّد نقود...

ـ لا عقار ولا أطيان؟

ـ مجرّد نقود...

ـ ومحلّ إقامتك بالإسكندريّة كما هو في البطاقة أم تغيّر؟

آه. تحرّيات. النبيّ دانيال. الكنار الليليّ. بسيمة عمران. سوف تطاردك الشبهات بالوراثة.

ـ كما هو بالبطاقة.

ـ وأموالك في أيّ بنك؟

ـ بنك؟

ـ في أيّ بنك تودع أموالك؟

ـ ليست في أيّ بنك...

ـ أين تودعها؟

ـ في... في جيبي.

ـ جيبك؟! ألا تخاف عليها السرقة؟

أجاب بيأس وحقد مكتوم:

ـ لم يبق منها إلّا القليل..

ـ ولٰكن في بطاقتك ما يدلّ على أنّك من ذوي الأملاك.

ـ كنت كذٰلك، أعني قبل إفلاسي...

ـ وماذا أعددت لمستقبلك؟

لا تتردّد طويلًا. سأتحدّاك بالصدق. أو رغم الصدق.

ـ كنت أبحث عن أبي، وهٰذا هو مستقبلي.

ـ تبحث عن أبيك؟

ـ أجل، انفصلت عنه وأنا في المهد. ولذٰلك قصّة عائليّة لا أهمّيّة لذكرها، ولـمّا أفلست لم أجد بدًّا من البحث عنه.

ـ أليس لك أيّ فكرة عن مكانه؟

ـ كلّا، والإعلان في الصحف هو آخر ما عمدت إليه من وسائل البحث.

ـ ولعلّ ذٰلك هو السبب الحقيقيّ في انتقالك إلى القاهرة؟

ـ لعلّه!

ـ وحتّى متى تكفيك نقودك؟

ـ شهر على الأكثر!

ـ تسمح؟

أعطاه المحفظة بوجه يحمارّ ويحتقن ثمّ استردّها بوجه عابس.

ـ وإذا نفدت نقودك؟

ـ شرعت في البحث عن عمل...

ـ ما هي مؤهّلاتك؟

ـ لا مؤهّلات!

ـ أيّ نوع من العمل؟

ـ عمل تجاريّ.

ـ هل تظنّ البحث سهلًا؟

ـ لي أصدقاء في الإسكندريّة، ولن أجد صعوبة في الحصول على عمل.

ـ أأنت مدين للفندق؟

ـ كلّا، ولقد دفعت أجرة هٰذا الأسبوع مقدّمًا.

ـ وكيف اهتديت إلى هٰذا الفندق؟

ـ صادفته وأنا أبحث عن فندق رخيص.

ـ ألم تكن تعرف فيه أحدًا من قبل؟

ـ كلّا...

ـ ولٰكنّك عرفت فيه الكثيرين ولا شكّ؟

ـ عمّ محمّد الساوي وعليّ سريقوس. . .

ـ وعمّ خليل. . . أعني المرحوم خليل أبو النجا؟

ـ طبعًا. . .

ـ ماذا ترك في نفسك من أثر؟

ـ رجل عجوز جدًّا وطيّب جدًّا. . .

ـ ومع ذٰلك فقد وجد من قتله بلا رحمة.

ـ أمر محزن جدًّا. . .

ـ أكنت تعرف أين يقيم؟

اللعنة والمقت ولٰكن حذار من الكذب.

ـ في شقّة فوق السطح فيما أظنّ. . .

ـ لست متأكّدًا؟

ـ كلّا. . .

ـ كيف عرفت ذٰلك؟

ـ عليّ سريقوس أخبرني. . .

ـ أم أنّك أنت الذي سألته؟

ـ ربّما.

ـ ترى لِمَ سألته؟

ـ لا أذكر الآن بالضبط ولٰكنّ العادة جرت بيننا بالدردشة كلّما جاءني لخدمة ما. . .

ـ ألم توجّه إليه أسئلة أخرى؟

خفق قلبه بعنف أليم وهو يجيب:

ـ ربّما، لا أذكر سؤالًا على وجه التحديد، كانت مجرّد ثرثرة.

وشعر بأنّه يُدفع إلى شرّ يصعب التخلّص من عواقبه ولٰكنّ الرجل سأل:

ـ حتّى متى تبقى في القاهرة؟

ـ حتّى أعثر على أبي أو أجد عملًا أو تنفد نقودي.

أشعل الرجل سيجارة في صمت معذِّب، وتفكّر مليًّا، ثمّ سأله:

ـ أليس عندك أقوال أخرى قد تفيد التحقيق؟

ـ كلّا. . .

ـ قد نحتاج إليك فيما بعد فلا تسافر قبل أن تخطرنا. . .

ـ بكلّ سرور يا فندم. . .

لم تكن خطّة كاملة. هي خطّة بلهاء. ومحاولة الهرب جنون، وسوف ترصدك عين لا تغمض. وعليك أن تستعيد كلّ سؤال وكلّ جواب لتعرف حقيقة مركزك.

ـ ١٣ ـ

مركزك غامض كالموت. غير بعيد أن تكون الآن محور بحث وتحرّ. وغير بعيد أن تكون الآن هدفًا لعين أو أكثر. ولن تدري بما يدور حولك. كعمّ خليل قبل أن تهوي عليه ضربتك. حذار أن تأتي حركة مريبة واحدة. الفندق خير منك فقد استعاد هدوءه. رائحة الموت طردت كثيرين من نزلائه ولٰكنّ غيرهم يجيئون. والاستراحة باردة برود القبر وليس في الجرائد اليوم من جديد وها أنت تقرأ الجريدة كبقيّة الناس. ها هم يعودون إلى أحاديث القطن والعملة والحرب. والهواء يصفر في الخارج كالعويل والشحّاذ يرتفع إنشاده مضجرًا سقيمًا فيا لإلحاح الشحّاذين!

ولفت سمعه وقع أقدام في مدخل الفندق فرأى عمّ محمّد الساوي واقفًا يستقبل كريمة. انتفض باطنه. وجلست المرأة وأمّها والعجوز أمام الرجل. أجاءت لتتسلّم إدارة الفندق؟ هل تلتقي عيناهما الآن أو بعد لحظات؟ حضورها ردّ إليك روحك الهاربة فمتى تغفل عنّا العيون؟ سوف تبلغك رسالة بطريقة ما وليست الرحمة ببعيدة. وهي في السواد أشدّ إثارة وما أحوجك إلى العزاء الساخن! ويدور بينها وبين الرجل حديث ترى ما أهمّيّته غير الخافية؟ وسمع عمّ محمّد الساوي وهو يقول:

ـ ولا أدري متى يسمح بدخول الشقّة. . .

تودّ أن تعرف مقرّها ولٰكن من الجنون أن تتبعها. كيف فاتك أن تسألها عن عنوان أمّها وأنتما تضعان الخطّة الكاملة؟ يجب أن تفكّر في الاتّصال بك تليفونيًّا. وأن تتذكّر حاجتك الماسّة إلى النقود.

ـ تليفون يا سي صابر.

آه. . . ماذا يريد التليفون. هل يحسن الرحيمي فنّ السخرية. تناول السمّاعة بيسراه وهو يمدّ يمناه إلى المرأة قائلًا:

ـ أكرّر العزاء يا هانم.

تلقّت يده شاكرة دون أن ترفع إليه عينيها، وجعل ظهره للساوي وعينيه لها طول المحادثة.

ـ أنا إلهام.

لِمَ لَمْ تكن الرحيمي؟ ولِمَ كان هٰذا الفندق بالذات. أجاب:

ـ أهلًا.

ـ ألنت بخير؟

ـ بخير.

ـ لم تحضر أمس.

ـ آسف، بعض التعب.

ـ فلنؤجّل الحساب ولكنّك ستحضر اليوم؟

ـ ليس اليوم، عندما أشفى منّ الزكام.

ـ لن أضايقك، أنت تعرف المكان والزمان، إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

وأغلقت الخطّ ولكنّه أبقى السمّاعة على أذنه كأنّما الحديث ما زال متّصلًا. وظلّ ينظر إلى كريمة حتّى صاد عينيها فقال:

ـ يجب أن تتّصلي بي بأيّ وسيلة، بالتليفون على سبيل المثال.

حوّلت عنه عينيها ولكن خيّل إليه أنّها فهمت لعبته. قال:

ـ أريد أن أعرف أشياء كثيرة، لا شكّ أنّك تدركين موقفي تمامًا، لا بدّ من التفاهم بوسيلة ما، ولا تنسي أنّ نقودي تنفد بسرعة...

رمقته بنظرة سريعة محذّرة فقال:

ـ إنّي مدرك تمامًا لجميع المصاعب ولكنّك لن تعدمي حيلة ذكيّة.

عاد إلى مجلسه مضطربًا ولكنّه ظفر بشيء من الارتياح. وما لبثت كريمة أن ذهبت متبوعة بـأمّها. واقتحمه إحساس غامض بأنّها تختفي إلى الأبد. وقال إنّه بدونها جريمة بلا هدف. ولبث في الاستراحة على أمل أن تتّصل به بالتليفون. ومرّ وقت عقيم. وترك اختفاؤها وراءه جحيمًا من الرعب، وخلت الاستراحة من النزلاء فرأى عمّ محمّد ينظر نحوه فتبادلا تحيّة مجاملة. وسأله الرجل:

ـ ماذا يبقيك وحدك؟

ـ الزكام! تناولت أسبرينة وسأذهب إذا شعرت بتحسّن.

وهو ينتقل إلى الكرسيّ التي جلست عليه كريمة من قبل. ترى أين يقبع المخبر؟ وقال:

ـ كم خيّب هٰذا التليفون أملي.

ـ آه... الغائب سرّه معه.

فرنا إليه برثاء قائلًا:

ـ الحقّ أنّك تعرّضت لتجربة قاسية.

تقلّص وجه العجوز وهو يقول:

ـ لا أراك الله ما رأيت!

ـ لا شكّ، إنّه كان منظرًا فظيعًا، أنا لم أرَ ميتًا قطّ، حتّى جثّة أمّي أغمضت عينيّ وأنا أقرأ عليها الفاتحة...

ـ ومع ذٰلك فالميتة شيء والقتل شيء آخر.

ـ أجل... القتل... الدم... الوحشيّة...

ـ وحشيّة تستحقّ اللعنات الأبديّة.

ـ إنّي أتساءل أيّ سبب يبرّر القتل؟

ـ نعم، أيّ سبب؟!

ـ والقاتل... أيّ إنسان هو؟

ـ من كان يصدّق أو يتصوّر، رأيت قبل ذٰلك قاتلًا... صبيّ بقّال... وطالما ظننته وديعًا كالحمام...

ـ عجبت حقًّا!

ـ ولٰكن أين المفرّ؟

ـ صدقت أين المفرّ؟ وعمّا قريب سنسمع بالقبض عليه.

حدجه العجوز بنظرة حزينة ثمّ قال:

ـ لقد قُبض عليه بالفعل.

ـ مَن؟

ـ القاتل.

ـ القاتل! لم نسمع ولم نقرأ.

هزّ رأسه هزّة العارف دون أن ينبس.

ـ ولٰكن مَن هو؟

ـ عليّ سريقوس.

ـ ذٰلك الأبله؟

ـ كصبيّ البقّال!
ـ ألذلك لم أره اليوم ولا مساء الأمس؟
ـ ليرحمنا الله.
ـ وهل علمت بذلك زوجة المرحوم؟
ـ طبعًا...
ـ الإنسان لغز.
ـ ضبطوا عنده نقودًا.
ـ ربّما كانت نقوده؟
ـ لكنّه اعترف بالسرقة، لهم وسائلهم.
ـ واعترف بالقتل؟
ـ لا أدري.
ـ لكنّك قلت إنّهم قبضوا على القاتل!
ـ هو ما قالت كريمة.
ـ أيعني هٰذا أنّ السرقة كانت الباعث على القتل؟
ـ أظنّ ذٰلك.
ـ كان بوسعه أن يسرق دون أن يقتل.
ـ الراجح أنّ المرحوم استيقظ فاضطرّ إلى قتله.
ـ كان طيّبًا لدرجة البلاهة.
ـ الإنسان كما قلت لغز.
ـ أكثر من لغز.
ـ أتدري أنّ الشحّاذ الذي نسمع مديحه النبويّ كلّ ساعة كان في شبابه فتوّة داعرًا؟
ـ ذٰلك الرجل!
ـ ثمّ فقد كلّ شيء من قوّة ومال وبصر فتسوّل.
ـ ولٰكنّ عليّ سريقوس عثر على حافظة نقودي صباح الجريمة فأتاني بها.
ـ لعلّه أمكر ممّا نتصوّر.

هل تقع المعجزات بهٰذه السهولة أو هو بنيان من الأوهام يقوم على لا شيء؟

ـ أما كان الأجدر به بعد ذٰلك أن يهرب؟
ـ الهرب اعتراف.
ـ وكيف يخفي المسروقات في حجرته؟
ـ ربّما ضُبطت في بيته.
ـ تهريبها إلى بيته لا يقلّ غباء.
ـ تلك حكمة ربّنا.
ـ عندما قابلني في الصباح قبل اكتشاف الجريمة كان هادئًا لطيفًا كعادته.
ـ من الناس مَن يقتل القتيل ثمّ يمشي في جنازته.

الثبات. احذر أن تفضح أطرافك اضطرابك الخفيّ. قد يوافيك التليفون بضوء. وعاد العجوز يقول:

ـ كنتُ أوّل من حُقّق معه.
ـ أنت!
ـ طبعًا، فأنا آخر من كان معه ليلًا وأوّل من دخل شقّته صباحًا.
ـ ولٰكن من يتصوّر...
ـ تلقّيت سيلًا من الأسئلة. وكنت أغلقت الباب بيدي، وكانت النوافذ مغلقة، ولٰكن وجدت نافذة مردودة دون إغلاق.
ـ لعلّها نسيت.
ـ أكّدت الزوجة أنّ جميع النوافذ مغلقة.
ـ هل كسرها عليّ سريقوس؟
ـ غير معقول فالكسر حقيق بأن يوقظ النزلاء لا المرحوم فحسب.
ـ لعلّه طرق الباب ففتح له الرجل.
ـ ولماذا يفتح النافذة؟... ثمّ إنّه لم يكن بوسع الرجل أن يغادر فراشه، وقد قُتل وهو نائم عليه.

ونظرة عينيه... وصوت الصمت.

ـ ربّما تمكّن من الاختفاء في الداخل.
ـ أبدًا، لقد غادر الشقّة قبلي وأنا من أغلقها.
ـ لعلّه...

ماتت بقيّة الجملة إذ خنقها الرعب. أوشك أن يقول لعلّه تظاهر بإغلاق النافذة دون أن يغلقها. مع أنّ المفروض أنّه لا يعلم بأنّ عليّ هو الذي أغلق النوافذ. ورغم نجاته فقد ثلج من الرعب. وتساءل العجوز:

ـ لعلّه ماذا؟
ـ لعلّه فتح الباب بمفتاح آخر.
ـ ربّما، ولٰكن لِمَ فتح النافذة؟
ـ الراجح أنّها نُسيت مفتوحة...
ـ الله أعلم.
ـ كانت محنة لك ولٰكنّك رجل طيّب.

ـ لا أدري كيف تركوني ولٰكنّهم يحسنون عملهم.

ـ والجرائد سكتت فجأة. لا كلمة اليوم عن الجريمة.

ـ الله يرحمك يا عمّ خليل. لقد عرفته منذ ستّين عامًا.

ـ وكم يبلغ عمره؟

ـ جاوز الثمانين.

ـ ومتى تزوّج؟

ـ منذ عشرة أعوام.

ـ لٰكنّه زواج عجيب، أليس كذٰلك؟

ـ لقد تزوّج في شبابه وأنجب، ثمّ ماتت أسرته جميعًا، ولبث أرمل عمرًا، حتّى تمّت مشيئة الله، وكان يحبّها كأب قبل كلّ شيء.

ـ هٰذا هو المعقول.

ـ كان رجل جدّ وعمل، وكان محسنًا، ساعدني في تربية أولادي الله يرحمه.

ـ وكيف تزوّج منها؟

ـ كان يسافر إلى الإسكندريّة لبعض الأعمال.

فقاطعه:

ـ أهي من الإسكندريّة؟

ـ كلّا، كان عند كلّ رحلة يقيم أيّامًا عند صاحب له في طنطا، وكانت هي متزوّجة...

ـ متزوّجة؟...

ـ من ابن خالتها شابّ بلطجيّ وضيع. وقد رآها عند صاحبه آه... لقد تكلّمت أكثر ممّا ينبغي.

ـ ولٰكن كيف تزوّجها؟

ـ طلّقت من ابن خالتها فتزوّجها.

ـ وتزوّجت من رجل فوق السبعين!

ـ لِمَ لا؟... لقد وفّر لها الاحترام والطمأنينة.

فقال بذهول:

ـ والسلام!

وجعل يتذكّر كلمات أمّه الأخيرة، ثمّ تساءل:

ـ ولٰكنّ البلطجيّ لا يطلّق زوجة حسناء فكيف طلّقها ابن خالتها؟

ـ لكلّ شيء ثمنه...

ورمش الرجل كالنادم على تسرّعه. فقال صابر:

ـ ذٰلك ماضٍ قد مضى...

ـ لٰكنّي أتكلّم أكثر ممّا ينبغي، والحقّ أنّني كثيرًا ما أهذي منذ رأيت دمه... أستغفر الله العظيم...

ربيبة بلطجيّ، جارية سوقيّة، زوجة رجل فانٍ، مدبّرة جريمة رهيبة، خالقة لذّات جنونيّة. معذّبتك إلى الأبد. ومجرّد وهم لا أساس له ساقك إلى فندقها الدامي، ثمّ رمى بي إلى براثن هٰذه الحيرة القاتلة. كالوهم الذي دفعك تجري وراء سيّارة كالمجنون.

ـ ١٤ ـ

قهوة مضاعفة لتفيق من الأرق. ونظر إلى التليفون خلال سحب الدخان المتصاعدة من سجائر النزلاء. وتساءل متى تتكلّم كريمة. وهطلت السماء في الخارج بغزارة دقائق معدودة ثمّ أشرقت السماء ولٰكنّ الطريق غشّاه الوحل. كريمة صامتة كالموت كأنّها لا تدري عذابه. وأنت تشرب أردأ أنواع الأنبذة وتسهد فوق فراشك حتّى الفجر، وتحلم حتّى يخيّل إليك أنّ النزلاء يسمعون صراخك، وإذا تدهورت صحّتك فلن يخفى ذٰلك عن عين الرقيب، أمّا كريمة فلا يهمّها شيء.

واستأذن في الجلوس إلى ترابيزته ـ لازدحام الاستراحة ـ قادم لعلّه الوحيد الذي بقي من النزلاء الذين عاصروا يوم الجريمة فأذن له وهو كاره يتوجّس ثرثرة مزعجة. وصدق توجّسه إذ قال الرجل:

ـ قبضوا على القاتل.

فقال صابر مخفيًا انزعاجه بابتسامة:

ـ سمعت ذٰلك.

ـ عليّ سريقوس؟

ـ نعم.

حبك العباءة حول جسده وقال:

ـ مجرّد سرقة لا كما ظننت.

ـ وماذا ظننت؟

ـ الحقّ أنّي سيّئ الظنّ بالنساء!

حدجه بنظرة مستطلعة فقال الرجل:

ـ زوجة جميلة وشابّة وسوف ترث تركة لا بأس بها.

فقال صابر وهو يشدّ على أعصابه:

ـ دار برأسي نفس الخاطر.

فضحك الرجل قائلًا:

ـ بعض الظنّ إثم.

ألم يَدُرْ ذلك برأس المحقّق؟ ولكنّ كريمة صامتة كالموت. وهذا التليفون لا يحقّق رجاء قطّ. والبرد والمطر والوحل لم تُسكت صوت الشحّاذ. وناداه محمّد الساوي وهو يشير إلى السّماعة فهرع إلى التليفون بتوسّل معذّب:

ـ آلو...

ـ صابر؟

لم يتخيّل يومًا أن يتلقّى صوتها بهذه الخيبة:

ـ إلهام.. كيف حالك؟

ـ هل أضايقك؟

ـ أبدًا سترين أنّه المرض وسوف أنتظرك اليوم.

إنّ قطعها بلا تمهيد لفوق الطاقة ولكن ما أيسر أن يجعلها هي القاطعة. يجب أن يبعدها عن وحل طريقه ولو بجراحة أليمة. وها هي لا تدري شيئًا عن أفكاره فتبتسم في عتاب وتطالعه بصفاء لا يكدّره شيء. آه... كيف يمكن أن يجبّها ذلك الحبّ العميق الصادق! وتصافحا بقوّة وهي تقول:

ـ ألا تشعر بالذنب؟

وتوقّف عن الكلام وهي تنزع قفّازها وتجلس قائلة بقلق:

ـ شدّ ما أثّر فيك الزكام!

ـ بل إنفلونزا خبيثة.

ـ ولا أحد يعنى بك؟

ـ لا أحد ألبتّة.

ـ ألم تستشر طبيبًا؟

ـ كلّا... وقد شفيت من المرض ولم يبق إلّا ظلّه...

ـ يسرّني أن أسمع ذلك، ستشرب مزيدًا من العصير.

ومضيا يتناولان الطعام وهي تنظر إليه أكثر الوقت.

ـ فكّرت أكثر من مرّة أن أزورك.

ـ أحمد الله أنّك لم تفعلي...

هزّت منكبيها ولكنّها لم تناقشه ثمّ قالت بابتهاج:

ـ أمّا أنا فلم أضيّع دقيقة واحدة. ستُسمعك لحنًا جميلًا بعد أن أصابك الصمم.

ـ إنّك ملاك.

ـ ألا تصدّقني! إذن فاعلم بأنّك ستبدأ حياة جديدة، أو أنّنا سنبدأ حياة جديدة، ما رأيك؟

طارد فتوره إكرامًا لها وقال:

ـ رأيي أنّك ملاك وأنّني حيوان كسيح.

ـ رأس المال الذي تحتاجه تحت أمرك!

ـ رأس المال!

ـ نعم، هو ما اقتصدته للمستقبل، وثمن بعض حليّ لا أستعملها، ليس ضخمًا ولكنّه يكفي، وقد استشرت زملاء خبيرين، أؤكّد لك أنّنا سنبدأ فوق أرض ثابتة.

آه... ليس لحنًا جميلًا فحسب. معجزة أيضًا. هل كنت تحلم بذلك!... رأس مال بلا سرقة ولا جريمة. ومعه الحبّ الحقيقيّ. إذن ردّ الحياة إلى عمّ خليل واستيقظ من الكابوس! وتأوّه بلا صوت:

ـ إلهام... كلّما غمرتني بنبلك زاد اقتناعي بأنّني غير أهل بك...

ـ لا وقت للشِّعْر!

هي في غاية السعادة والحماس. وإطفاء شعلتها سيكون جريمتك الثانية. لكنّها تمدّ يدها لتقطف ثمرة غير موجودة. ولم يَجْرِ لك في بال أنّه يمكن حلّ مشكلتك بهذه السهولة. ها هو الحبّ والحرّيّة والكرامة والسلام فأين أنت! ولماذا لم تقع المعجزة قبل الجريمة؟

ـ فيم تفكّر؟ توقّعت أن تفرح!... أن تفرح كثيرًا!

لم يبق إلّا أن تصدمها بالحقائق لتشفى. قال متنهّدًا:

ـ قلت لك إنّني لست أهلًا لنبلك فلم تصدّقيني.

ـ توقّعت أن تفرح.

ـ فات الوقت...

ـ يا ربّي... أنت لا تحبّني...

ـ إلهام... الأمور معقّدة جدًّا، أنا أحببتك من أوّل نظرة ولكن مَن أنا؟

ـ لا تحدّثني عن أبيك ولا فقرك ولا عدم صلاحيّتك...

أنت تعذّبينني لأنّك تشطرينني شطرين. والوسيلة الوحيدة لشفائك أن أصدمك بالحقائق.

ـ لعلّك ما زلت مريضًا!... إنّك أمامي ولكنّي أتساءل أين صابر؟

ـ أودّ ألّا تتساءلي اليوم وألّا تتكدّري...

ـ إن كنت مريضًا...

ـ كلّا... ليس المرض...

ـ إذن فما هو؟ لماذا قلت فات الوقت؟

ـ أقلت ذلك؟

ـ منذ ثوان!

ـ أنا أعني شيئًا واحدًا بكلّ إصرار وهو أنّني غير أهل لك.

ـ أرفض هذا السخف. أنت تعلم أنّني أحبّك.

ـ وهذه هي جريمتي، نحن للأسف لا نفرّ أمام الحبّ إلّا في الحبّ فقط.

ـ ولماذا هي جريمة؟

ـ لأنّه كان يجب أن أقدّم لك نفسي على حقيقتها.

ـ فعلت ذلك وقبلتك...

ـ حدّثتك عن أبي ولكنّي...

ثمّ واصل بمرارة:

ـ ولكنّني لم أحدّثك عن أمّي!

رمقته بنظرة مستنكرة وهي تقول:

ـ أنا أحبّك أنت ولا دخل للماضي في ذلك.

ـ يجب أن تصغي إليّ.

ـ بالله دعها ترقد في سلام.

ـ الإسكندريّة كلّها تعرف ما سأحدّثك عنه.

ـ لنحذف الإسكندريّة من خريطتنا.

قال وحلقه يغصّ بالمرارة:

ـ لقد ختمت حياتها في السجن!

حملقت في وجهه كأنّما تنظر إلى مجنون فقال:

ـ أرأيت؟

ثمّ وهو يزدرد ريقه:

ـ ولذلك صادرت الحكومة أموالها، وهذا هو سرّ فقري بعد الغنى، ولم تترك إلّا وهمًا هلكت وأنا أبحث عنه.

صدمة قاسية يئنّ لها قلبك ولكنّها ستفيق.

ـ لا يحقّ لي أن أحبّ امرأة إلّا من النوع الذي كانت تعاشره! كان يجب أن أتجنّبك ولكن سحرني الحبّ كما قلت لك.

إنّها لا تستطيع أن تتكلّم وهذا حسن، أو لا يبقى أمامك إلّا أن تعترف لها بما هو أدهى.

ـ هذا ما يعزّيني عن خسارة الفرصة التي تهبينها لي، وقد عشت حياتي الماضية عيشة العبث بفضل مالها الحرام، ولم يكن بيني وبين الاتّجار في الأعراض إلّا خطوة، ولعلّه العمل الوحيد الذي يليق بي.

اجتزت أشدّ العقبات. كأنّك سعيد! ويا ليت الليل لا يوجد. ولعلّ المحقّق يعلم الآن بتفاصيل هذه القصّة المخزية.

وحنى رأسه لها تحيّة ثمّ ذهب.

وفي عصر اليوم التالي دُعي إلى التليفون. وشدّ ما انزعج عندما سمع صوت إلهام.

ـ أهلًا إلهام!

قالت بصوت متهدّج:

ـ صابر... أردت... أريد... أريد أن أقول إنّ كلّ ما قلت لي أمس لا يهمّني!

ـ ١٥ ـ

إلهام... لستِ إلّا عذابًا. أمّا كريمة فقد جمعت بينكما الجريمة برباط لن ينفصم حتّى الموت، وحاجتك إليها كالجوع الكافر وإن قذف بك في أعماق الجحيم. والوقت يمرّ مقطّرًا العذاب ولكنّ مروره بلا حدث يهب شيئًا من الطمأنينة، وسوف تجد وسيلة أو أخرى للاتّصال بكريمة. وخير ما تفعلان فيما بعد أن تبيعا الفندق ثمّ تعيشا في مدينة غريبة. وسوف تعيشان عيشة فطريّة تلقائيّة فهي ليست كإلهام التي تلهبك بصوت التغيير والتعذيب. ولكن متى تنوي كريمة الاتّصال بك! وما العمل إذا نفدت النقود الباقية! حتّى عمل عليّ سريقوس يقبله إذا أبقى له على الأمل في الاتّصال بكريمة يومًا ما... ترى هل يُشنق الرجل؟ لقد قتلت رجلًا بيدك فما يضيرك أن تقتل الآخر بيد غيرك! لكن متى تستيقظ من الكابوس؟

وقبل أن يغادر الفندق صباحًا طلبته إلهام بالتليفون

وسألته:

ـ هل ستجدّد الإعلان؟

فأجاب في ضجر:

ـ كلّا...

فقالت بتودّد:

ـ رجوت شخصًا مهمًّا أن يبحث عن الرقم السرّيّ للرحيمي إن كان له رقم سرّيّ!

ـ لم يجد شيئًا طبعًا؟

ـ لا للأسف...

ـ لا تشغلي بالك...

ـ لنا مراسلون في الأقاليم وهم يقومون الآن بتحرّيات هامّة.

ـ لساني يعجز عن شكرك!

ثمّ سألت بصوت ينمّ على الحياء:

ـ ألا تفكّر في زيارتنا؟

فقال بحزم:

ـ كلّا، مراعاة لصالحك قبل كلّ شيء.

ترى أتبكي أم تغالب البكاء.

ـ قلت لك لا يهمّني...

ـ ولكنّه يهمّني جدًّا...

انقطع الاتّصال بعد ذاك. تألّم من جديد حتّى حنق عليها من شدّة تألّمه. ما قيمة الجمال في هٰذا العالم الدامي! ألا تريد عيناها أن تريا إلّا هٰذا الجمال الملعون؟! وقبل أن يغادر موقفه رأى عمّ محمّد الساوي يتطلّع إليه باهتمام فابتسم إليه متودّدًا فدعاه إلى الجلوس. قبِل الدعوة بامتنان خفيّ. وسأله العجوز:

ـ مستعجل؟

ـ أبدًا لا غاية لي وراء الذهاب.

فقال بارتياح:

ـ إذن فاجلس قليلًا، الحقّ أنّي أشعر بوحشة منذ موت المرحوم. ولا أجد من أحادثه...

ـ وأبناؤك؟

ـ لا أحد منهم في القاهرة...

ـ كان الله في عونك...

لم يبق في الاستراحة سوى رَجُلين، وفي الخارج غطّت أصوات العمّال والعربات على مديح الشحّاذ.

ـ أليس هنالك من جديد؟

ـ لي صديق من المخبرين ولعلّه يدّعي من العِلْم ما ليس له.

ـ ماذا قال؟

ـ عليّ سريقوس، لم يجدوا أحدًا غيره.

ـ لعلّه اعترف.

ـ لا أدري.

ـ أغرته سرقة حقيرة.

ـ لقد أنكر السرقة.

ـ ألم يعترف بها من قبل؟

ـ بلى، ثمّ عاد فأنكرها.

ـ ولٰكنّ النقود ضُبطت عنده!

ـ قال إنّ الزوجة جادت بها عليه.

خفق قلبه خفقة مؤلمة جدًّا:

ـ زوجة المرحوم؟

ـ نعم.

ـ ولٰكن، لماذا؟

ـ على سبيل الإحسان.

ـ وهل كانت تحسن إلى الخدم الآخرين؟

ـ سئل في ذٰلك جميع الخدم ولٰكن ثبت أنّه كان الوحيد:

وهو يزدرد ريقه:

ـ هٰذا غريب.

ـ الأغرب من ذٰلك أنّه رجع فاعترف بالسرقة.

ـ والإحسان المزعوم؟

ـ قال إنّها كانت تجود عليه ببعض النفحات عندما يؤدّي لها خدمات في شقّتها، ثمّ عرف من وراء ظهرها مكان النقود فسوّلت له نفسه السرقة.

ـ وذهب ليسرق فقتل!

ـ أظنّ هٰذا.

ـ ورأي المحقّق؟

ـ مَن يدري... ولٰكنّهم مقتنعون فيما يبدو بأنّه القاتل.

ـ وربّما يكون قد اعترف.

ـ ربّما.

ـ لا شكّ أنّ الزوجة كانت تهبه قروشًا.

- ربّما.
- ولْكن لماذا أنكر السرقة ثمّ عاد فاعترف بها؟
- من يدري؟
- هل للمسألة وجه آخر؟
- آه... من يقطع بذٰلك؟

اكتشف لأوّل مرّة - وهو ينظر من قريب في وجه العجوز - أنّ لون عينيه أخضر باهت، وكلّما أمعن فيه النظر خيّل إليه أنّه يرى صورة جديدة لدرجة أنّه تعذّر عليه استحضار الأولى.

- أتظنّ أنّ للمسألة وجهًا آخر؟
- من أين لي أن أعلم؟

آه... هٰكذا سيشعر البشر وهم يقتربون من الجحيم في الآخرة.

- أنت تعلم الكثير ولا تقول إلّا القليل.
- أخشى أن يكون العكس هو الصحيح.
- ألم يسألوا الزوجة من جديد؟
- استدعوها للتحقيق أكثر من مرّة...
- ألم يكن لأقوال سريقوس دخل في ذٰلك؟
- بلى.
- أتثق بالمخبر كلّ الثقة؟
- لْكنّها هي التي قالت لي بنفسها.
- الزوجة!
- نعم، جاءت مساء أمس.

اختارت الوقت الذي لا يوجد فيه بالفندق. وعندما يدكّ زلزال الأرض دكًّا فماذا يهمّ التحقيق أو المحقّق؟ وقد يستشفّ العجوز وراء أسئلتك دافعًا أهمّ من حبّ الاستطلاع ولكن كيف تحذر الحرّ والنيران أن تشتعل في ملابسك؟

- هل تكلّمت عن الإحسان إلى سريقوس.
- مجرّد إحسان طبعًا.
- هٰذا هو المعقول.
- لماذا؟
- عليّ سريقوس غير مقنع كرجل.
- أتحيط علمًا بهٰذه الأسرار؟
- ليس كلّ رجل يصلح.
- لْكنّني عشت أضعاف حياتك.
- لعلّك تشكّ في سلوك المرأة؟
- لم أقل ذٰلك.
- أنت إذن واثق من أمانتها؟

غضّ العجوز بصره في حزن. وصمت مليًّا. ثمّ قال:

- أنا لا أشكّ في سلوك المرأة ولْكنّي متأكّد من ذٰلك!

انظر كيف تتكشّف عوالم من الفزع تحت سطح أملس من التراب:

- إذن فهي امرأة آثمة؟
- نعم ويا للأسف.
- وعرفت ذٰلك من قبل مصرع صديقك؟
- نعم، ولْكنّ راحة باله كانت أهمّ عندي من الحقيقة.
- ألم تصرّح بآرائك في التحقيق؟
- طبعًا...
- صرّحت بالعلاقة الآثمة التي بينها وبين عليّ سريقوس.
- عليّ سريقوس! أنا لا أفكّر في عليّ سريقوس.

آه... هل وقع في مصيدة!

- كنّا نناقش موقفه.
- لْكنّنا تحدّثنا بعد ذٰلك عن المرأة.
- باعتبارها الطرف الآخر؟
- كلّا، هنالك رجل آخر.

تعال. الجحيم يتّسع أكثر من رجل!

- رجل آخر؟
- زوجها السابق.

وهو يستردّ روحه:

- الرجل الذي باعها؟
- كانت مجرّد صفقة لها ما بعدها!
- ولْكن كيف عرفت ذٰلك؟
- رأيته أكثر من مرّة يتسلّل إلى بيت أمّها وهي هنالك.

ها هو الجحيم يعود أفتك نيرانًا.

- وأخفيت الأمر؟
- لو أبلغته المرحوم لقتلته.

ـ وقد قتل رغم ذلك.
ـ نعم ويا للأسف.
ـ كيف سمح لها بتلك الزيارات؟
ـ إيغاله في الشيخوخة أنساه كلّ شيء حتّى سوء الظنّ.
ـ وقلت ذلك في التحقيق؟
ـ قلته.
ـ حقّقوا معها؟
ـ ثبت أنّ الرجل كان خارج القاهرة ليلة الجريمة.
ـ هذا لا يمنع من أن يكون مدبّرها.
ـ بلى ولكنّ التحقيق انتهى بإطلاق سراحها.
ـ كيف؟
ـ عندهم الأسباب.
ـ لعلّهما استغلّا الخادم بمكر فائق؟
ـ أو أيّ أحمق سواه.
وهو يزدرد ريقه:
ـ وربّما كانت ظنون لا تقوم على أساس.
ـ ربّما.
ـ لكنّك قلت إنّك متأكّد...
ـ مغالاة بعض الشيء في التعبير...
ـ عدنا من حيث بدأنا...
وهو يهزّ رأسه في حزن:
ـ قلبي يحدّثني بأنّ ظنوني صادقة.
ـ ولعلّه لا توجد علاقة بين الخيانة وبين الجريمة؟
ـ ربّما، وإلّا فكيف أطلق سراحها...؟
ـ على أيّ حال فقد أدّى عليّ سريقوس لها خدمة لا تقدّر بثمن.
ـ إذا كان هو القاتل.
ـ ألا تعتقد أنّه القاتل؟
ـ كلّ شيء محتمل.
ـ أحيانًا يخيّل إليّ أنّك لا تصدّق ذلك؟
ـ لِمَ لا؟.. ألا تذكر حديثي عن صبيّ البقّال؟
ـ لعلّه القاتل إذن؟
تنهّد قائلًا:
ـ أعتقد أنّ القاتل سيُقتل ولو بعد حين.

لن تذوق النوم حتّى تحقّق معها بنفسك. امرأة جهنّميّة لكن ما أغباها إذا حسبت أنّها يمكن أن تعبث بك. ألم تقتنع بأنّك قادر على القتل إذا أردته! ولكن كيف تعرف عنوانها؟ وعاد العجوز يقول:

ـ زوجها القديم لم يدبّر الجريمة وإلّا لما أُطلق سراحه بتلك السهولة، أمّا الجريمة الأخرى...
ـ إنّه ابن خالتها وليس من الشاذّ أن يزور خالته.
ـ الحقّ أنّني شككت في الأمر من قديم، كانت أمّها تقيم في الفجالة غير بعيدة من هنا، وكان المرحوم يصطحب زوجته إلى بيتها كلّما اشتاقت إلى رؤيتها، وإذا بالأمّ تقرّر أن تنتقل إلى شارع الساحل رقم ٢٠ بالزيتون، لماذا؟ لم أجد لذلك تعليلًا إلّا أن تتّخذه الزوجة عذرًا للإقامة أيّامًا عند أمّها كلّ شهر، ورغم معارضة المرحوم بادئ الأمر فقد انطلت عليه الحيلة فسلّم بالواقع...

آه... لم يتخيّل أن يظفر بطلبته بذلك اليسر، ودون بذل أيّ مجهود من ناحيته، لكنّ الجنون كان يعصف به عصفًا. أجل كان الجنون يعصف به عصفًا.

ـ ١٦ ـ

لولا يقينه من أنّ عينًا من عيون الأمن تراقبه بطريقة ما لاندفع من فوره إلى الزيتون. لا بدّ إذن من التريّث حتّى يجد حيلة جهنّميّة، ولـمّا نزل صباحًا من حجرته رأى ظهر الساوي وهو منحنٍ فوق مكتبه فخيّل إليه لحظة أنّه يرى عمّ خليل أبو النجا. ودهمته الحقيقة الغريبة ـ وكأنّها تدهمه لأوّل مرّة ـ وهي أنّه أزهق روحًا. وتساءل ترى هل يمكن أن يتذكّره عمّ خليل بطريقة ما؟ وتمهّل قليلًا وهو يصبّح على العجوز ولكنّه ردّ تحيّته بعجلة وعاد إلى دفتر الحساب وكأنّه نسي تمامًا حديث الأمس كلّه. نسي الأسرار الرهيبة التي كان سيمضي حياته كلّها وهو يجهلها. وتناول فطوره في الاستراحة برأس ثقيل من أثر المنوّم. كريمة... لن أسمح لقوّة في الأرض بأن تجعل منّي أبْلَه، ستجدينني قريبًا فوق رأسك ضربة قاضية. افعلي ما تشائين، خوني وتزوّجي، فإنّ حبل المشنقة في يدي. لا تتوهّمي أنّ حياتي أغلى من كبريائي. أمّا حديث المال والحرب

فلا ينقطع في الاستراحة كإنشاد الشحّاذ في الخارج. ودعتـه إلهام إلى التليفـون. لشدّ مـا يحنق عليها كلّما سمع صوتها في أعماق دوّامته.

- ألا تقابلني اليوم ولو بعض دقائق؟

- لا أستطيع.

- اذكر سببًا مقنعًا.

- لا أستطيع.

- حتّى لو كان الأمر يتعلّق بأبيك؟

تساءل بذهول:

- أبي؟!

- نعم...

- ولٰكن كيف؟

- فلنتقابل اليوم!

حتّى أبوه لا يمكن أن يستحوذ على انتباهه في هٰذه اللحظة الناريّة الدامية.

- لا أستطيع.

- لٰكنّه أبوك الذي جئت للبحث عنه!

- ربّما فيما بعد...

- هل أجيء إليك؟

فقال بضيق لم يخلُ من حدّة:

- كلّا...

أيّ جديد جَـدَّ عن الرحيمي؟ ومـاذا يهمّه الآن؟ الزيتون هي كـلّ شيء. وربّما لم يكن الأمـر كلّه إلّا حيلة لاستدراجه إلى اللقـاء. الزيتـون الآن هي كلّ شيء. وهام على وجهه معذّبًا وهو يفكّر بلا انقطاع. وشرب كثيرًا من النبيذ الرديء ثمّ تخبّط في الشوارع مواصلًا التفكـير حتّى آمن بأنّـه سينتصر على المخـبر المجهول الذي يتعقّبه. ها هو يصعد إلى حجرته لينام ولٰكنّه لن ينام. المخبر هو الذي سينام. وعقب أذان الفجر بقليل غادر الحجرة في حذر شديد ثمّ نزل على مهـل إلى مدخـل الفندق. رأى عـلى ضوء المصبـاح السهاريّ خادمًا نائمًا وراء الباب المغلق فشعـر بخيبة وغيظ. ولم يفكّر في إيقاظ الخادم ليفتح له إذ لم يستبعد أن يكون هو المخبر. تراجع حائرًا وأنفاسـه تتردّد في الصمت العميق. وطرأت فكرة لم يـدرسها من قبـل فبعثت حيويّته من جديد فرقي في السلّم حتّى السطح بلا توقّف ولا تردّد. وعندمـا وقع بصره عـلى الشقّة المغلقة تحت ضوء النجوم سرت في أطرافه رعدة حتّى أغمض عينيه من التأثّر. واندفع نحو السور الفاصل بين سطح الفندق وسطح العمارة الملاصقة فعبره كالمرّة الأولى. آه... إنّه يرتجف ولٰكن ما أحوجـه إلى قوّة أعصابه! ومضى إلى بـاب السطح ثمّ نـزل في ظلام دامس حتّى مدخل العمارة المضاءة بمصبـاح سهاريّ. رأى حجرة البوّاب مغلقة، والباب الخـارجيّ مغلقًا كذٰلك والمفتاح في القفل. كلّ شيء معدّ كأنّما بتدبير سابق، دلف من الباب وأدار المفتاح ولٰكنّه لم يطاوعه! لماذا؟ وشدّه بحذر فأخذ ينفتح فأدرك أنّه كان مفتوحًا، ولماذا أيضًا؟ أراد أن يخرج ولٰكن اعترضه شبح رجل سدّ الفتحة سدًّا وهو يسأل بصوت جافّ:

- مَن؟

بسرعـة جذبـه إلى الداخـل مجازفًـا بحياتـه، وفي اللحظة التالية طعنه بركبته في بطنه فتقوّس وهو يئنّ فهوى على رأسه بقبضته فسقط على وجهه. مرق إلى الخارج يخترق البرد والفجر والخلاء. عبر الطريق إلى بواكي الجانب الآخر ثمّ اتّجه نحو الميدان. ولم يكـد يخطو بضع خطواتٍ حتّى اصطدم بشبح فكاد يسقطه على ظهره. وقد تأوّه قائلًا:

- آه... أنا رجل ضرير...

قال متعجّلًا:

- لا مؤاخذة، الظلام شديد تحت البواكي...

- ربّنا ينوّر بصيرتك، دعوة مستجابة بإذن الله من سائل مسكين.

اقشعرّ من التقزّز. هو الشحّاذ دون غيره. حتّى في هٰذه الساعة من الفجر يسعى، وواصل سيره وصوت الرجل يلاحقه:

- حسنة لله تنوّر طريقك.

واستقلّ تاكسي وهـو يتنهّد، سـوف ينتظره المخـبر طويلًا، وستعمى عيناه من التحديق هنا وهناك وغادر التاكسي في شارع الساحل على بعد قريب من البيت المكوّن من دور واحد والظلام ينزع آخر غلالـة قبل الشروق. طرق الباب لا يدري عمّا سيفتح ولٰكنّه سلّم نفسه للمقاديـر. انفتحت الشرّاعة عن وجـه كريمـة!

وبسرعة واضطراب فتحت فدخل.

في قميص النوم مشعّثة الشعر خاملة المفاتن. همست:

ـ جننت؟!

ومالت إلى الحجرة على يمين الداخل، معدّة للاستقبال. وقفا وجهًا لوجه تحت ضوء مصباح عارٍ:

ـ تصرُّف مخرِّب؟ جننت؟

وهو يثقبها بعينيه اللتين لم تغمضا:

ـ ربّما...

ـ ألم تفكّر في خطورة الزيارة؟

ـ هو أهون من الانتظار بلا أمل.

ـ الانتظار ضرورة، ألا تدرك أنّ حالي أدقّ من حالك!

ـ وأظلّ أنتظر حتّى الموت؟

ـ حتّى يصبح الاتّصال مأمونًا...

ـ عندك التليفون.

ـ صوتي يعرفه عمّ محمّد.

ـ أيّ صبيّ بقّال كان يمكن أن ينوب عنك في طلبي.

ـ حقّقوا معي أكثر من مرّة، ركبني الخوف ولم يعد في رأسي عقل!

ـ أنت تدبّرين جرائم القتل في أثناء المضاجعة.

ـ لا ترفع صوتك فأمّي نائمة...

ـ أليست شريكة لك في أسرارك؟

ـ مجنون!... حالتك غريبة!

ـ يجب أن أرى حجرة نومك.

ـ حجرة كبقيّة حجرات البيت.

ـ لا تراوغي، يجب أن أرى مَن ينام فيها!

اتّسعت عيناها وهي تقول:

ـ ماذا جرى لعقلك؟

ـ ابن خالتك، زوجك السابق، أليس هنالك؟

ـ مَن قال ذلك؟ لا أحد هنالك، ها هو الخراب يجيء بيدنا لا بيد الآخرين.

ـ ليكن، لا بدّ أن أرى بعينيّ.

أزاحها من أمامه وغادر الحجرة. ففتح أوّل باب فرأى العجوز مستغرقة في النوم. وفتح بابًا آخر فرأى حجرة نوم، حجرة نومها على الأرجح، وفراشًا ينفتح غطاؤه عن الثغرة التي انزلقت منها. ودار بالحجرات والمرافق فلم يجد أثرًا لأحد. رجعا إلى موقفهما بحجرة الاستقبال وهو يقول بحنق:

ـ شتّت عقلي، فالرجل يجب أن يتجنّبك في فترة التحقيق.

ـ قلبي يحدّثني بأنّ مخلوقًا لئيمًا أوقع بيننا.

ـ ألم يكن ابن خالتك زوجًا لك؟

ـ كان.

ـ وباعك للزوج الذي دبّرت قتله؟

ـ سيُقبض علينا اليوم يا مجنون.

ـ أجيبيني...

ـ أنت غبيّ، جازفت بحياتي لأنّي أحبّك.

ـ في هذا الماخور كان يجيء للنوم معك...

ـ ألا تفرّق بين الصدق والكذب؟ أنسيت ما كان بيننا؟

ـ أيّ امرأة لا تعجز عن إتقان التمثيل فوق الفراش.

ـ صدّقني لصالحنا، كلّ ما في رأسك أكاذيب.

ـ تظنّين أنّ خوفي من المشنقة سيضطرّني إلى تركك للرجل.

ـ لا رجل في حياتي غيرك، صدّقني، إن لم تصدّقني في الحال سيأخذوننا قبل شروق الشمس.

ـ كذّابة، ماكرة، حطّمت حياتي كلّها بكذبة قصيرة...

ـ صدّقني، أنا أحبّك، لم أدبّر شيئًا إلّا من أجلك، صدّقني.

ـ حطّمت حياتي بكذبة لتفوزي أنت وعشيقك بالثروة والحياة.

ـ صدّقني قبل فوات الأوان، أنت حبيبي، ولا أحد غيرك، خرج الرجل من حياتي من زمان...

ـ دبّرت قسمة جهنّميّة، فلي الجريمة ولك الرجل والثروة.

ـ لا فائدة، انتهينا، اللعنة، رأسك كالحجر، كلمة أخيرة ألا تريد أن تصدّقني؟

ـ كلّا...

ـ إذن ماذا تريد؟

ـ أن أقتلك...

ـ ثمّ تشنق؟

ـ في ألف داهية...

ودوّى طرق على الباب كالقنابل. وطوّقت البيت أصوات مهدّدة وأقدام ثقيلة. صرخت كريمة بيأس:

ـ جاء البوليس، ألم أقل لك؟

انقضّ عليها كالمجنون، وقبض على عنقها بيدين عصبيّتين ثمّ ضغط بكلّ قواه، على حين اهتزّ الجوّ من زلزلة دفع الباب...

ـ ١٧ ـ

في السجن وحدك. لا يُزار مَن ليس له أهل. وإلهام تخطر كالحلم وهي تعرف الآن الحقيقة. شفيت ولا شكّ من الحبّ ولعنته. وها هي الجرائد تعيد القصّة، بل ها هي تكشف عمّا خفي عنك من أسرارها. والصور تملأ الصفحات. كريمة وعمّ خليل ومحمّد رجب زوج كريمة الأوّل وصورتك والصور الجامعة للأب والأم. حتّى إلهام الملائكيّة، وبسيمة عمران، الجرائد لا تترك كبيرة ولا صغيرة. في سجن الموت تتحرّر من علاقات الحياة كلّها فلا تهمّك الفضائح. أنت متحرّر من الكبرياء والخجل كما كنت وأنت في الرحم. صابر يقبض عليه متلبّسًا بقتل عشيقته. صابر له قصّة. بسيمة عمران إمبراطورة الليل بالإسكندريّة. علّلته عند اليأس والإفلاس بجاه أب مجهول. البحث عن سيّد سيّد الرحيمي المزعوم. الحبّ، القتل، صابر مثال فريد للجمال والرجولة. غزواتك في الإسكندريّة. الحبّ الأعمى الذي رفعه إلى المشنقة. هو مثال أيضًا للقسوة والأنانيّة والدعارة، وكم عجبوا للجانب الخفيّ الذي كشف عنه حبّ إلهام. لم يفكّر مرّة في إغوائها. اعترافاته المتتابعة بين يديها. رفضه استغلالها على أيّ وجه وتعفّفه عن أموالها وهو مختنق بأزمته الأخيرة. أمّه أنشأته على مستوى رفيع من الجاه فلم يكن بدّ من أن يعثر على الأب الوجيه المزعوم أو أن يرتكب أشنع الجرائم وهي القتل. وانظر كيف ارتاب المحقّق في أمرك من أوّل الأمر. ورصدت حركاتك في الشوارع وبقالة كلوت بك وفتركوان. وكيف كلّف عمّ محمّد الساوي بأن يحدّثك عن خيانة كريمة؟ أيّها العجوز الماكر. يا لي من أحمق! الزوج الأوّل محمّد رجب أنكر أيّ علاقة بالقتيل، ولكنّ العاشق وقع في الفخّ. ترى أأنكر دفعًا للشبهات أم أنّه قرّر الحقيقة بلا زيادة؟ ليس في الصحف ما يقطع باليقين في هذه المسألة التي ساقتك إلى الهلاك. هل يمكن أن تعرف السرّ بعد الموت؟ وعمّ محمّد الساوي أخطأ وهو ينسج أكاذيبه ممّا هدّد التدبير كلّه بالفشل لولا ذهول العاشق فقد اعترف له بأنّه شهد بخيانة الزوجة وفي ذات الوقت أخبره بأنّها تزوره فظنّ لحظة أنّ الشابّ قد فطن إلى التناقض الواضح ولكنّ صدمته بحكاية الخيانة أذهلته عن إدراك التناقض الواضح. آه... هذا حقّ ويا لي من أحمق. ووصف تسلّلك للذهاب إلى كريمة بإسهاب. كيف عبرت السور إلى العمارة المجاورة وكيف ضبطك البوّاب وهو راجع من صلاة الفجر حتّى اضطررت إلى ضربه حتّى الإغماء، وكيف انتبه المخبر الذي يراقب الفندق تحت البواكي إليك عند اصطدامك بشحّاذ ضرير وسماع صوتك وأنت تعتذر إليه!.. آه. ذلك الشحّاذ الكريه البشع الأعمى.

الجرائد لا تترك كبيرة ولا صغيرة. إنّها تشهّر بحماقتك وعماك كما شهّرت بأمّك. وهذا البحث الذي قامت به مجلّة الربيع مع نخبة من رجال الفكر. تحدّث أستاذ في الجامعة عن الزواج غير المتكافئ بين عمّ خليل وكريمة باعتباره المسئول الأوّل عن الجريمة. وقال كاتب يوميّات صحيفة: إنّ المسئول الأوّل هو الفقر، هو الذي أغرى زوج كريمة الأوّل ببيعها إلى زوجها الثاني، وإنّ كريمة شهيدة لصراع الطبقات وفوارقها. وناقش أستاذ بالخدمة الاجتماعيّة نشأة صابر في أحضان تاجرة أعراض ورواسبها في نفسه. وقال أستاذ علم نفس إنّ صابر مصاب بعقدة حبّ الأب وإنّه يمكن تفسير اندفاعه الإجرامي بأمرين مهمّين، فهو أوّلًا وجد في كريمة بديلًا عن أمّه فأحبّها. وإنّ لا شعوره أصرّ على الانتقام فقتل صاحب الفندق كرمز للسلطة وطمع في مصادرة أمواله كما صادرت الحكومة أموال أمّه. وقال

شيخ من رجال الدين إنّ المسألة في جوهرها مسألة إيمان مفقود، وإنّ صابر لو بذل في البحث عن الله عشر ما بذله في البحث عن أبيه لكتب الله له جميع ما طمع إليه عند أبيه في الدارين.

قرأ صابر تلك التعليقات بفتور وحيرة ثمّ هزّ منكبيه استهانة وهو يقول: «لكنّ أحدًا لم يعرف إن كانت كريمة صادقة أم كاذبة، ولا إن كان الرحيمي موجودًا أم لا».

ويومًا دعي إلى مقابلة محامٍ في حجرة المقابلات بالسجن. وقد خيّل إليه أنّه رآه قبل ذلك ولكنّه لم يتذكّر متى أو أين. وارتاح لوقار شيخوخته فصافحه وهو يتساءل:

ـ هل سيادتك المحامي الذي قيل إنّ الدولة ستختاره لي؟

ـ كلّا.

ثمّ بصوت منخفض عن الأوّل تواضعًا منه:

ـ أنا محمّد الطنطاوي.

ولكنّ صابر وضح جهله بالمحامي الكبير، فسأله بارتباك:

ـ من وكّل سيادتك عنّي؟

ـ اعتبرني متطوّعًا...

فقال بنبرة اعتذار:

ـ لا تؤاخذني إن صارحتك بأنّني لا أملك مالًا على الإطلاق!

فابتسم الأستاذ قائلًا:

ـ أنا الأخ الأكبر لإحسان الطنطاوي مدير إدارة الإعلان بجريدة أبو الهول.

ـ آه... أتعلم أنّني سألت نفسي أين رأيتك من قبل!

ابتسم الأستاذ فسأله صابر بتأثّر:

ـ هل سعى لديك لتتولّى الدفاع عنّي؟

ـ أجل، إذا شئت...

هتف صابر بغتة:

ـ إلهام؟!

ابتسم الأستاذ مرّة أخرى دون أن ينبس بكلمة فأغمض صابر عينيه مليًّا ثمّ فتحهما متسائلًا:

ـ والأتعاب؟

ـ المصروفات الضروريّة للإجراءات فقط.

هل يمكن! كيف تتصوّر! نفقة جنازة الحبّ!

ـ لكنّه جهد ضائع يا أستاذ محمّد.

ـ مفهوم اليأس لا يوجد في قاموسنا.

ـ قتلت اثنين مع سبق الإصرار، واعترفت...

ـ ولو...

ـ وإلهام... لم...؟

ـ قيل إنّه ليس لك أهل فليس بكثير أن تكون لك صديقة.

ـ حتّى بعد أن عرفت...؟

ـ تقبّل ذلك دون مناقشة.

جفّف عينيه بطرف كمّه وهو يقول:

ـ الدمعة الثانية في عمري كلّه...

ـ لا عيب في ذلك، ولندخل في الموضوع.

ـ لقد اعترفت كما قلت لحضرتك.

ـ هنالك ظروف.

ـ أيّ ظروف يمكن أن تنفعني؟

ـ النشأة، الحبّ، الغيرة، سلوكك الأمين تجاه إلهام.

ـ لن أجني من ذلك إلّا مزيدًا من التشهير.

ـ لن نسلّم باليأس قبل أن يقع.

ـ الحكاية كلّها كالحلم، جئت من الإسكندريّة للبحث عن أبي فوقعت أحداث غريبة نسيت فيها مهمّتي الأصليّة حتّى وجدت نفسي أخيرًا في السجن...

ثمّ وهو يتنهّد:

ـ والآن أكاد أن أنسى كلّ شيء إلّا المهمّة الأصليّة التي جئت من أجلها...

ـ ولكن لا جدوى من التفكير فيها الآن، ربّما أشرت إليها في مرافعتي باعتبارها أوّل جناية كُتبت عليك قبل أن تولد...

ـ ولكنّ إلهام دعتني بالتليفون ذات يوم لأمور تتعلّق بأبي.

ـ وماذا قالت لك؟

ـ لم أذهب لمقابلتها محمومًا بالانتقام من الأخرى.

ـ أؤكّد لك أنّها لا تعلم عنه شيئًا.

هزّ صابر رأسه في حيرة ثمّ قال:

ـ إنّ نشر أخبار الجريمة في الصحف يُعتبر إعلانًا ضخمًا من نوع غير معهود ولعلّه يجيء بالنتيجة التي عجز عنها الإعلان المتواضع بجريدة أبو الهول.

ـ أنا على علم لا بأس به بأخبارك ولكنّي على يقين من أنّك لن تجني من الاهتمام بأبيك الآن إلّا التعب الضائع فإنّ مجيئه أو عدمه سواء في موقفك الأخير.

ـ لا يبعد إن جاء أن تحدث معجزة...

ـ كيف؟

ـ أعني إذا صحّ أنّه وجيه حقًّا وذو نفوذ.

ـ فليكن أكبر الوجهاء ولكن كيف يمكن أن يغيّر قوانين الدولة؟

ـ اسمع يا أستاذ، لقد كانت أمّي ذات نفوذ يومًا ما، فاستطاعت بنفوذها أن تتحدّى قوانين الدولة تحت سمع المسئولين وبصرهم!

ـ بالله خبّرني عن الأمل الذي يراودك إذا جاء أبوك؟

تردّد قليلًا ثمّ قال:

ـ ربّما استطاع أن يسهّل لي سبيل الهرب.

ـ تماديت في الخيال ولن تجني من وراء ذلك إلّا تعب القلب.

فنفخ قائلًا:

ـ على أيّ حال أنا شاكر فضلك، وأرجو أن تبلّغ امتناني إلى الآنسة إلهام، وإلى الأستاذ إحسان، وسوف تجدني تحت أمرك في كلّ ما تريد، وأمّا عن أملي المضحك فإنّني لن أيأس كما تقول أنت إلّا إذا وقع اليأس.

* * *

وقُدّم صابر إلى المحاكمة. وأحيلت الأوراق إلى المفتي. ونطق بالحكم. وقد تابع المرافعات باهتمام ولكنّه تلقّى الحكم بذهول رغم توقّعه له من أوّل الأمر.

* * *

وفي السجن دُعي إلى مقابلة الأستاذ محمّد الطنطاوي. وقابله الأستاذ بعطف وشجّعه بكلمات مناسبة ثمّ قال له:

ـ لا يزال أمامنا الاستئناف ثمّ النقض.

فسأله بحزن:

ـ كيف حال إلهام؟

ـ ليست على ما يرام، والظاهر أنّ مأساتها التي تحدّثت عنها الجرائد قد هزّت أباها من الأعماق فجاء من أسيوط لزيارتها وأصرّ على أخذها معه بعض الوقت تغييرًا للجوّ والتماسًا للصحّة.

فارتفع صوت صابر وهو يقول:

ـ إذن استيقظ من جحوده، أمّا أبي...

ابتسم المحامي الشيخ قائلًا:

ـ بهذه المناسبة هل تصدّق أنّني أحمل لك أنباء عن أبيك؟

هتف ذاهلًا:

ـ لا...

ـ بلى...

ثمّ مستطردًا بعد وقفة قصيرة:

ـ ألم تسمع عن الصحفيّ الذي كان يوقّع عموده اليوميّ بإمضاء «الصحفيّ المخضرم»؟ طبعًا لا، فلقد انقطع عن العمل منذ عشرين عامًا. وهو جار لي بمصر الجديدة، وكان قديمًا أستاذي بكلّيّة الحقوق، ومن أفقه مَن عرفتُ في الشريعة، وقد جاءت سيرتك على لساني وأنا مجتمع به أوّل أمس، ولمّا قصصت عليه قصّة أبيك قاطعني:

ـ أتقول سيّد سيّد الرحيمي، لكنّني أعرفه!

فقلت له لعلّ المعنيّ شخص آخر، فقال:

ـ سيّد سيّد الرحيمي، الوجيه الغنيّ الجميل، وقد كان شابًّا في الخامسة والعشرين أو نحو ذلك من ثلاثين عامًا...

هتف صابر:

ـ ألم ير الصورة في الصحف؟

ـ إنّه الآن لا يعرف الصحف وفضلًا عن ذلك فهو ضرير.

ـ يا للخسارة!... ولكن لا يمكن تجاهل التشابه في الاسم... والصفات... والعمر...

ـ هذا ملحوظ بطبيعة الحال.

ـ وأين يقيم؟

ـ للأسف لا يدري شيئًا عن ذٰلك.

ـ ألم يحدّثك عن زواجه الأوّل؟

قال المحامي مبتسمًا:

ـ قال إنّه لم يكن له من هواية في هٰذه الدنيا إلّا الحبّ.

ـ لٰكنّ أمّي هجرته، وتلك حادثة لا يمكن أن تُنسى.

ـ في حياة رجل كالرحيمي، تعدّ فيها النساء بعدد الأيّام، لا يمكن أن تعرف مَن الهاجر ومَن المهجور...

ـ أمّي لم تحدّثني عن ذٰلك الجانب من حياته.

ـ ربّما لم تعرفه.

ـ ولٰكنّ الزواج علاقة لا تخفى.

ـ قال عليّ برهان ـ أعني الصحفيّ المخضرم ـ إنّه كان يتزوّج كما كان يرافق، وكان يمارس الحبّ بشتّى أنواعه: الجنسيّ والعذريّ ولا يعتق ناضجة أو مراهقة، أرملة أو متزوّجة أو مطلّقة، فقيرة أو غنيّة، حتّى الخادمات وجامعات الأعقاب والمتسوّلات!

ـ يا للعجب!

ـ نعم...

ـ ألم يوقعه ذٰلك في متاعب؟

ـ كان يقهر المتاعب.

تساءل صابر بعينين حائرتين:

ـ ومهنته، ماذا كانت مهنته؟

ـ كان وما زال مليونيرًا، لا عمل له إلّا الحبّ، وكلّما وقع في مأزق هاجر من مدينة إلى مدينة، مواصلًا ممارسته لهوايته...

ـ ولٰكنّ وثيقة زواج أمّي ما زالت معي.

ـ وربّما وجدت وثائق أخرى لا حصر لها.

ـ ألم تُرفع عليه قضايا شرعيّة؟

ـ مَن يدري، ولٰكنّه طليق وفي هٰذا ما يكفي...

فقال صابر بسخرية مُرّة:

ـ وقوانين الدولة؟!

ـ لٰكنّه لم يقع، وقال الأستاذ برهان إنّه غوى مرّة عذراء من أسرة كبيرة محافظة ولٰكنّه غادر القطر في اللحظة المناسبة!

ـ ومتى رجع؟

ـ لم يرجع، تعلّق فؤاده بالعالم الكبير، وراح ينتقل من بلد إلى بلد، بل من قارّة إلى قارّة، معتمدًا على ملايينه، جاريًا وراء النساء من كلّ شكل ولون.

ـ وكيف عرف صاحبك ذٰلك؟

ـ كانت تصله منه رسائل على فترات متباعدة جدًّا.

ـ وهل عنده فكرة الآن عن مكانه؟

ـ كلّا، كانت الرسائل تجيئه بلا عنوان ليس عليها سوى اسم البلد إذ إنّه لا يحبّ الاستقرار في مكان أكثر من أيّام.

ـ لا شكّ أنّه رجل مشهور في الخارج.

ـ ذٰلك هو الراجح بالنسبة لأيّ مليونير وإن قضى الحذر في مثل حالته باتّخاذ أسماء وشخصيّات شتّى.

ـ متى تسلّم صاحبك آخر رسالة منه؟

ـ صاحبي لم يذكر شيئًا على وجه التحديد، ولا تنس أنّه جاوز التسعين عمرًا، ولٰكنّه يذكر أنّه تلقّى رسائل منه في جميع القارّات.

ـ لٰكنّه يعرف بلا شكّ كلّ شيء عن أسرته.

ـ لا أسرة له في مصر، كان أبوه مهاجرًا من الهند، وقد عرفه صاحبي في نادي الصفوة فتوطّدت بينهما أسباب الصداقة، وعن سبيله عرف ابنه الوحيد سيّد، وهو ابن وحيد لا أخ له ولا أخت، وقد مات الأب منذ أربعين عامًا تاركًا لوريثه ملايين الجنيهات التي اقتناها في تجارة المشروبات الروحيّة، فلا أحد له في مصر إلّا الذرّيّة التي يحتمل أن يكون أنجبها في مغامراته العديدة.

ـ مثلي أنا!

ـ مثلك أنت إذا كان هو أباك حقًّا.

ـ لا ينبغي أن أشكّ في ذٰلك بعدما عرفت من خصاله!

ابتسم المحامي ملتزمًا الصمت.

ـ خصاله هي خصالي ولٰكن بينا يلهو هو فوق الكرة أنزوي أنا في السجن منتظرًا حبل المشنقة.

ـ لٰكنّه لم يَقتل!

ـ صاحبك الضرير لا يعرف كلّ شيء.

ـ هو على كلّ حال مليونير.

ـ الأهمّ من ذٰلك أنّ قوانين الدولة لا تهدّده.

ـ لٰكنّك كنت تعلم أنّك فقير وخاضع لقوانين الدولة.

ـ وكنت أعرف من يكون أبي.

ـ وماذا كانت النهاية؟

ـ أجل للأسف، أمّي عرفته خيرًا من صاحبك المخضرم فاستطاعت أن تقتني ثروة طائلة وأن تتحدّى القانون، ولولا سوء الحظ. . .

ـ لٰكنّه لا يعرف سوء الحظّ.

ـ ولم يكن من المعقول أن أرضى بأن أعمل قوّادًا بعد أن عرفت أصلي.

ـ لم تحسن تقليد الأصل.

ـ بحثت عنه.

ـ وباعترافك نسيته.

ـ بسبب امرأة وهو عذر خليق بأن يقبله!

ـ لٰكنّه ليس هو حاكمك.

ـ لٰكنّه هو الذي نسيني.

ـ ربّما ظنّك في براعته وأنّك غير محتاج إليه؟

ـ لو لم تهجره أمّي لكان لي ذٰلك.

ـ لٰكنّها هجرته.

ـ وما ذنبي أنا؟

ـ لا ذنب لك في ذٰلك.

ـ وذٰلك كان السبب الأوّل لجريمتي.

ـ سبب بعيد جدًّا لا يُعتدّ به عند تحديد المسئوليّة.

ـ ولٰكنّه أخطر من سبب يعرض صدفة مثل مقابلة كريمة.

ـ سيظلّ القانون هو القانون.

تنهّد بعمق ثمّ قال:

ـ لعلّه من الخير ألّا أقطع بأنّه أبي!

ـ ذٰلك كان رأيي ولٰكنّي وجدتك متعطّشًا لمعرفة أيّ شيء.

ـ وماذا عرفت؟ يخيّل إليّ أنّني لم أعرف شيئًا مجديًا.

ـ بلى للأسف.

ـ وفضلًا عن عدم جدواه فما زال بعيدًا عن اليقين.

ـ وبسبب هٰذه المعرفة الطارئة أصبح الرجل أعزّ منالًا من الأوّل.

ـ هٰذا راجح جدًّا.

ـ وقد ضاعت الحرّيّة والكرامة والسلام وإلهام وكريمة!

فلاذ المحامي بالصمت مرّة أخرى، فقال صابر:

ـ ولم يبق إلّا حبل المشنقة.

فقال المحامي بنبرة عتاب:

ـ هنالك النقض.

وتردّد مليًّا متفكّرًا ثمّ قال مبتسمًا:

ـ وثمّة خبر آخر حدّثني به الأستاذ برهان. .

ـ ما هو؟

ـ ما يدري الأستاذ يومًا إلّا والرحيمي يطرق بابه!

هتف صابر:

ـ حقًّا؟

ـ كان ذٰلك في أكتوبر الماضي!

صرخ صابر بلا وعي:

ـ أكتوبر!

ـ أجل.

ـ كنت في ذٰلك الوقت أبحث عنه في الإسكندريّة.

ـ وقد أمضى في الإسكندريّة ستّة أيّام.

ـ يا للجنون! كنت أسأل مشايخ الحارات ولٰكنّي أجّلت فكرة الإعلان في الصحف طالما كنت في الإسكندريّة أن أتعرّض لسخرية أعدائي وجهًا لوجه.

ـ ألم تكن المهمّة أخطر من سخرية الأعداء؟

ـ بلى واحسرتاه! . . .

ـ لا تحزن لعلّه لم يكن يطّلع على الصحف.

ـ هيهات أن يهوّن ذٰلك من حسرتي. . .

ـ لا تجعلني أندم على مكاشفتي لك.

وجعل ينظر إليه في حسرته ثمّ قال محاولًا انتزاعه منها:

ـ كان في طريقه إلى الهند وقد أهدى إلى صاحبي كتاب «كيف تحتفظ بشبابك مائة عام» كما أهداه صندوقًا فاخرًا من الخمر المعتّقة.

ـ لا يبعد أن يكون هو الذي رأيته في السيّارة، وهل وقّع على هديّته بإمضائه؟

ـ أظنّ ذٰلك.

ـ ألا يمكن أن أرى الكتاب؟

ـ سآتيك به.

ـ وإذا أردت الاحتفاظ به المدّة الباقية؟

ـ لا أظنّ صاحبي يرفض طلبك.

ـ شكرًا، وماذا أيضًا؟

ـ وقال صاحبي إنّه ما زال محتفظًا بحيويّة الشباب وأفكاره وضحكاته وقال: «إنّي أتجوّل بين قارّة وأخرى كما يتجوّل أصبعك بين طرفَي شاربك» وقال أيضًا «لا تعدّ نفسك من الأحياء حتّى تطوف بأربعة أركان المعمورة وتمارس فيها الحبّ».

ـ ألم يذكر في الحديث أحدًا من أبنائه؟

ـ محتمل أن يكون له في كلّ قارّة أبناء ولٰكنّه لا يتحدّث إلّا عن الحبّ، وقد شرب حتّى ثمل ثمّ غنّى أغنية غراميّة سمعها في إحدى قبائل الكنغو...

ـ ويسكر ويغنّي ولا يخطر له أن يسأل عن أبنائه؟

ـ ربّما تغيّر مفهوم الأبوّة إذا امتدّت فوق كثرة غير عاديّة.

ـ لٰكنّ الأبناء هم الأبناء قلّوا أو كثروا!

ـ كثيرًا ما تقع متناقضات غريبة إذا تصوّر أب قويّ أبناءه على مثاله.

ـ يا له من دفاع!

ـ نحن نغتفر لبعض الشواذّ هفوات لا نغتفرها لغيرهم فما بالك بشخص غريب الأطوار كذٰلك الرجل!

ـ آه رأسي يدور...

ـ لا تجعلني أندم...

ـ لعلّه ما زال بمصر.

ـ لقد أرسل إليه بطاقة تحيّة من الخارج.

ـ لعلّه يزورنا قبل الإعدام.

ـ لا شيء مستحيل.

ـ آه... كنت أزور إلهام وأخاك الأستاذ إحسان كلّ أسبوع ولا أدري أنّني بطريقة ما قريب منك وأنّك جار لبرهان صديق الرحيمي!

ـ هٰكذا تقع الأمور عادة...

ـ كانت هناك فرصة نادرة للبحث.

ـ الأمل مع ذٰلك لم ينعدم.

ـ كيف... أيّ أمل؟

ـ أن نستبدل المؤبّد بالإعدام.

ـ أيّ أمل؟

ـ سنجد عند ذاك فرصة لاستئناف البحث.

ـ وإذا تأيّد الإعدام؟

بسط المحامي راحتيه في تسليم ثمّ قبضهما في وجوم.

ـ في حالة الإعدام يبقى لي من الزمن ما يستنفده النقض ثمّ الفترة السابقة للتنفيذ، ألا تستطيع أن تقدّم لي في تلك المدّة خدمة حقيقيّة بمحاولة الاتّصال بالرجل؟

ـ يا بنيّ القانون هو القانون، والرحمة والواجب يقتضيانني ألّا أضيّع وقتي فيما لا طائل وراءه، والأجدى أن أراجع ملفّ القضيّة والقانون الجنائيّ.

ـ بالرغم ممّا سمعت عنه لا تريد أن تقتنع بقوّته؟

ـ أنا رجل قانون، وأعلم أنّ مصيرك بيد القانون وحده.

ـ قد يدركني في فترة الانتظار أفلا تأخذني على قدّ عقلي؟

ـ إن لم يكن حقًّا كما تتصوّره فأهلًا به وسهلًا ولٰكن لا سبيل من ناحيتي إليه.

ـ إنّك رجل ذو خبرة وعِلْم وجارك يبدو أثيرًا لديه.

ـ الاتّصال به إن لم يكن مستحيلًا فهو يستلزم وقتًا لن يتّسع لك، ولا أملك وسيلة بحال، وسوف يتطلّب منّا الاتّصال بجميع سفاراتنا في الخارج كخطوة أولى، ولا يبعد أن ينتقل في أثناء الاتّصال إلى بلد لا تمثيل سياسيّ لنا فيه للأسباب التي تعرفها.

آه... الذكرى التي تموت وهي على طرف اللسان. وتشكيلات السُّحُب التي تعبث بها الرياح. وعصارة الألم المنصهرة وراء القضبان. والسؤال الأعمى والجواب الغشوم.

وقال:

ـ يبدو أنّه لا جدوى من الاعتماد على الغير.

فابتسم المحامي في تسامح وهو يقول:

ـ بل هناك جدوى فيما هو معقول.

فهزّ منكبيه قائلًا:

ـ فليكن ما يكون.

بيت سيئ السمعة

قُبَيْلَ الرَّحِيل

لم تبق إلّا أيّام معدودة قبيل الرحيل. لذلك بدت الإسكندريّة لطيفة جذّابة كما ينبغي لها قبيل الرحيل. وهو لا يدري متى يراها مرّة أخرى إذ إنّه يمضي عطلته عادة عند الأهل في الريف ولذلك فالذي كان موطنًا للوحشة والملل انقلب مبعثًا للحنان والأشواق في نظرة الوداع. حتّى مجلسه المعتاد منذ أربع سنوات بقهوة سيدي جابر تجدّد للتوّ شبابه. وقال لنفسه وهو يدخّن النارجيلة هيهات أن يجد جوًّا مناسبًا لترطيب التبغ كجوّ الإسكندريّة، أمّا النادل الذي جاء بالقهوة فقد قال بأسف:

ـ ستوحشنا كثيرًا يا بيه...

فابتسم إليه شاكرًا، وعند ذاك دخلت امرأة. هي... هي التي تتردّد على القهوة من شهر لآخر، التي أطلق عليها امرأة سيدي جابر، التي تجاهلها طوال أربعة أعوام، وكانت اختفت منذ أواخر الصيف. ها هي في فستان شتويّ، مطوّقة الوجه بإشارب ورديّ، متلفّعة بشال مرصّع بالترتر، ملابس توافق الخريف الزاحف وتلك السحب البيضاء التي أخفت قرص الشمس وطرحت لونها الهادئ الغامض على الشوارع شبه المقفرة. وجلست إلى جانب الروميّ صاحب القهوة، وتبادلا كالعادة قليلًا من الكلام وكثيرًا من الصمت، يغشاهما جوّ حادّ كأنّهما رجلان، ومن رجال الأعمال على الأرجح. وذاك كان شأنهما من زمان. ومرّة همس النادل في أذنه:

ـ أليست جميلة؟...

رأى عينين واسعتين مقتحمتين، ووجنتين ريّانتين، وإغراء في هالة من الثقة بالنفس والحنكة، فقال وقتذاك دون تردّد:

ـ ليس الطراز الذي يوافقني...!

اليوم تبدو مغرية فحسب كالإسكندريّة قبيل الرحيل. وقال للنادل:

ـ أربعة أعوام عشتها في الإسكندريّة ومع ذلك فلم أزر ـ ولو مرّة واحدة ـ لا حديقة الحيوان ولا أنطونيادس ولا الآثار الإغريقيّة الرومانيّة ولا هذه المرأة...

فابتسم النادل قائلًا:

ـ وأسيوط لن تجد فيها شيئًا...

وبعث إلى المرأة بنظرة بدائيّة ولم يكن في القهوة إلّا منهمكان في النرد فأجابته بعمق. فقال للنادل:

ـ أرني شطارتك...

انتقلت إلى جانبه، ثمّ تبعها النادل بزجاجة بيرة. وراح يؤكّد لها أنّ تعارفهما فرصة سعيدة حقًّا فقالت بدلال بارد:

ـ أنت كشجرة المانجو؟

فرفع حاجبيه مستفهمًا فقالت:

ـ تحتاج إلى خدمة طويلة وصبر!

فهرب من الاعتذار برفع قدحه هامسًا «صحّتك» وقضما الزيتون الأخضر وهما يترامقان في صمت حتّى قال:

ـ البيت على بعد دقائق!

فقالت بلا تلعثم:

ـ جنيهان!... والآن من فضلك...

ودسّتها في حقيبتها وهما يغادران القهوة. وأثنت على الشقّة الصغيرة المهندمة فأثنى بدوره على البوّاب صاحب الفضل. وجاء بطبق فاكهة ووضعه على خوان على كثب من الفراش. وسرعان ما تعانقا دونما كلمة واحدة. وامتلأ الصمت بتعابير غامضة وهمسات من عالم آخر. واستحكم ظلام المغيب في جوّ الحجرة المغلق. وارتجّت مصاريع النوافذ بريح مباغتة كما يقع كثيرًا في الخريف. وما لبث لحن المطر أن عزف فوق الجدران. ورفع إلى النافذة القريبة نظرة محمومة ثمّ همس مستسلمًا:

ـ جوّ متقلّب لا أمان له.

ولٰكنّه استمتع بدفء وراحة عميقة. وانتبه إلى الظلمة الشديدة فمدّ يده إلى الأباجورة فأضاء مصباحها، ولحن المطر ما زال يعزف ولٰكنّه خفّ جدًّا موحيًا بالختام. ونظر إليها فرآها مغمضة العينين كالنائمة. وهاله منظر جفنها الكبير كورقة وردة. ولاحت منه نظرة إلى المرآة البيضاويّة فرأى صورة لشخصه تستحقّ الرثاء. وكفّ المطر عن العزف تمامًا. وسألها:

ـ نائمة؟

فأجابت دون أن تفتح عينيها:

ـ لا أنام قبل الفجر...

وقشر موزة ورشقها برفق بين شفتيها الغليظتين فجلست نصف جلسة وتسلّيا معًا بالفاكهة. وقالت:

ـ قال الخواجا إنّك مسافر بعد غد... ولٰكن ما اسمك؟

وتذكّر وهو يداري ابتسامة أنّهما بدءا بالعناق قبل التعارف. قال إنّ اسمه بركات، موظّف منقول إلى أسيوط، فقالت وهي تمسح ظاهر يدها بباطن قشرة الموز:

ـ اسمي دنيا...

فقال لنفسه: اسم غريب وجميل ولٰكنّه بلا شكّ زائف ككلّ شيء في الجلسة، وشعر بالملل يستردّه من الحلم حتّى حسد المنهمكين في القهوة. وقصّت عن الماضي والمصير قصّة فقال لنفسه: «قصّة واحدة... لا جديد ألبتّة!». وسألته عن شقّته وأثاثها فأجاب:

ـ بعتها بكلّ ما فيها... وبعد غد سيحلّ بها آخر...

لم يعد بالحجرة إلّا عبير الموز والفتور. ولولا الجنيهان لتقوّض المجلس. وفي ذروة من ضيقه رآها وهي تمدّ ذراعها إلى حقيبتها فوق الكنبة، ثمّ رآها وهي تستخرج منها الجنيهين. لحظها بطرف متسائل فإذا بها تميل نحو الناحية الأخرى من الفراش لتودع الورقتين في درج التواليت. ونظرت إليه وهي تبتسم فتلقّى نظرتها بعين لم تفهم شيئًا، وسألها:

ـ لِمَ؟

فقالت وهي تسبل جفنيها:

ـ نقودك رُدّت إليك...

استيقظ من الفتور ولٰكنّه لم يفهم شيئًا فقالت بدلال:

ـ أنت فاهم ولٰكنّك تتغابى، هٰذا كلّ ما في الأمر!

وأقسم لها أنّه لا يتغابى أبدًا فقالت:

ـ لا لزوم للنقود في هٰذه الحال...

ـ أيّة حال؟

فطوّقت عنقه بذراعها السمراء وهو يضطرب من الانفعال وهمست في أذنه:

ـ الرضى!... فهٰكذا أفعل إذا رضيت نفسي...

وغرق في نشوة فرح لم يجرّبها من قبل حتّى رقصت الجدران ولٰكنّه هتف في شيء من الحياء:

ـ لا... لا...

وكتمت احتجاجه بقبلة دسمة فذاب اعتراضه في فرحة أشمل حتّى ودّ أن ينعم كلّ شيء بالأفراح. واندفع يعدّ المكان لسهرة طويلة سعيدة فمضى إلى الصالة ففتح الراديو، ونادى البوّاب فأمره بإحضار شراب وشواء، ثمّ رجع إلى الحجرة وهو يقول:

ـ كم من مرّة رأيتك في القهوة طوال أربعة أعوام؟!... ولٰكنّني أحمق...

ـ والرحيل؟ !

فهزّ رأسه بأسف ثمّ تمتم:

ـ بعد غد؟!... مَن يصدّق هٰذا؟!... ولٰكنّني أحمق...

واستلقى عند قدميها وهو يفرقع بأصابعه مع نغمة راقصة ردّدها الراديو. واقتنع بأنّ دنيا تتمتّع بصحّة تحسد عليها. وخطرت له فكرة جديدة فوثب إلى الأرض وهو يتساءل:

ـ ما رأيك في نزهة ليليّة؟!

ومضيا إلى ملهى صغير بشارع النبيّ دانيال. وتغلّب بسهولة على حرص مأثور عنه فأنفق بسخاء، وشربا كثيرًا، ورقصا مع كلّ نغمة. وفي فترة استراحة لاحظ أنّ شابًّا يرمق محبوبته باهتمام فتكدّر صفوه وتوثّب لمواجهة أيّ احتمال لا يروقه. وتقدّم الشابّ من دنيا وانحنى تحيّة ثمّ طلبها لرقصة مقبلة فنفخ بركات غاضبًا حتّى همست في أذنه:

ـ هٰذا تقليد مألوف لا ضرر منه...

فقال بغلظة:

ـ لا أحبّه...

ثمّ حدج الشابّ بنظرة حمراء، وقال له بخشونة:

ـ اذهب...

ولم يدر بماذا أجاب الشابّ ولٰكنّهما التحما في عراك بسرعة مذهلة. ولم يشعر بما تلقّى من ضربات ولٰكنّه أصاب خصمه في بطنه فترنّح وكاد يسقط على ظهره لولا أن تلقّاه النادل بين يديه. وأحدقت بهما الأعين المخمورة في ذهول ووجوم. وتنقّل مدير المحلّ بين الموائد مهدّئًا للخواطر ثمّ أشار إلى الأوركسترا فانطلق يعزف داعيًا إلى رقصة جديدة. وجعل بركات يلهث ودنيا تسوّي له ربطة عنقه وقد انخلع زرار الجاكتة وتهتّك الجانب الأيسر من أعلى القميص، أمّا اللكمة التي أصابت صدره فلم تكن بذات بال، ورغم ذٰلك فلم يستأثر به الكدر أكثر من دقائق، وسرعان ما عاوده الانسجام، وراح يشرب كما يحلو له. ورمقه البعض بحنق فمالت دنيا على أذنه قائلة:

ـ نذهب يا عزيزي...

وغادرا الملهى وعشرات النظرات تصفعه بازدراء، ولٰكنّه شدّ على ذراعها بمرح وسعادة، وداخله إحساس قويّ بالزهو والفخار فقال لها:

ـ لا تغتمّي يا عزيزتي، هٰذه متاعب يسيرة، وكثيرًا ما تحدث...

واستقلّا ترام الرمل مع الجمهور المنصرف من السينما. ومدّ ذراعيه حولها كالسياج ليدفع عنها غائلة الزحام ولٰكن رغم ذٰلك ضايقها رجل عن قصد أو عن غير قصد. ورماه بنظرة وعيد ولٰكنّ الآخر كان في واد آخر فواصل مضايقاته. وانفجر فيه غاضبًا من رأس دارت به الخمر. وتبادلا كلمات غاية في القسوة، ثمّ تبادلا لطمات ولكمات بعنف قبل أن يفصل الناس بينهما. وتدخّل أولاد الحلال لمنع المضاعفات. ووجد في وجنته اليسرى ألمًا، وسال الدم من زاوية شفته السفلى، وجعل يجفّف الدم بمنديله طيلة الطريق ولٰكنّ الدم الغزير الذي خضّب شارب خصمه عند أسفل أنفه الملتهب خفّف من شدّة انفعاله. وعند مغادرة الترام لفحه هواء منعش ثمل بعبير المطر فارتفعت روحه وقال:

ـ جرحي بسيط لٰكنّه خسر أنفه فيما أعتقد...

فتمتمت في ملق:

ـ كدت تقتله الله يجازيك...

وندّت عنه ضحكة ثمّ قصّ عليها نوادر من معاركه في الزمان الأوّل قبل أن تشكمه الوظيفة. وكان يروي ذٰلك بفخار واضح، ثمّ عاوده مرحه كأنّ شيئًا لم يكن، وهٰكذا رجعا إلى حجرتها. ووجد الشراب والشواء على الخوان حيث تركهما البوّاب فقال:

ـ جميل جدًّا، ولٰكن ينقصنا الزهور، كان يلزمنا باقة ورد ويا للأسف!

وغسلت له جرحه ودلكت وجنته وهو يغنّي «ما تبطّل الشقاوة وتيجي عندنا» وقالت له ضاحكة إنّ صوته لم يخلق للغناء فقال إنّ المهمّ هو السعادة فعند ذاك يغنّي أيّ شيء. ثمّ تحدّث ببلاغة رقيقة عن الحبّ حتّى قال لها:

ـ ليس كمثله شيء...

ثمّ قال أيضًا بعد أن قبّلها بامتنان:

ـ لا بدّ من الرجوع إلى الإسكندريّة، سنلتقي كثيرًا بالرغم من الرحيل...

وعندما ساد الصمت ارتفع زئير الهواء خارج النافذة

فقهقه بركات قائلًا:

ـ جوّ بلادك قُلّب ولٰكنّه جوّ سعيد!

وعندما اختفى كلّ شيء في الظلمة اشتدّ زئير الهواء، وأكثر من مرّة نضح شيش النافذة بوميض البرق في موجات قصيرة متتابعة كالدغدغة كشفت عن معالم الحجرة الكاسية والعارية ثمّ استكنّ الظلام كأكثف ممّا كان فتضاعف حنان الشابّ واستمتاعه بالدفء والأمان. ووجد نفسه يتذكّر جوّ الساحل عندما يكفهرّ وتنتشر في تضاعيفه تحرّكات غامضة متوتّرة تنذر بوشيك المطر. وما لبثت الأمطار أن انهلّت فوق النافذة في عربدة صاخبة فقال لنفسه وهو يستزيد من متعة الأمان والهناء، إنّ قيام الساعة نفسها يطيب في أحضان الحبّ.

واستيقظ عند الضحى.

وفتح النافذة فدخل هواء بارد وتراءت السماء ملبّدة بغيوم في لون المغيب جامدة غير موحية.

وجلست هي على الكنبة في تراخٍ مشعّثة الشعر منتفخة العينين فاترة النظرة شبه عابسة كأنّها لم تعرف اللعب. وخيّل إليه أنّها كبرت أعوامًا فسرعان ما شعر بالكبر وبأنّ كلّ شيء زائل. وتثاءب طويلًا بصوت كالأنين ثمّ قالت وكان أوّل ما نطقت به منذ استيقاظها:

ـ هٰذا أوان الذهاب.

فتساءل:

ـ لِمَ العجلة؟

فتمتمت:

ـ انتهت الليلة، ولديّ عمل ومواعيد!

ثمّ رأى حركة لم يكن يتوقّعها. رآها تميل نحو التواليت ثمّ تفتح الدرج وتستردّ الجنيهين من مكانهما ثمّ تعيدهما إلى حقيبتها وقد تثاءبت مرّة أخرى. ما معنى هٰذا؟!... وسألها في حيرة:

ـ ألأنت في حاجة إلى نقود؟!

ـ كلّا، أخذت ما اتّفقنا عليه فقط!

فتساءل في دهشة وكآبة:

ـ أيّ اتّفاق يا عزيزتي؟!

ـ الاتّفاق، نسيت؟

فضحك ضحكة بلهاء وقال:

ـ الظاهر أنّك أنت التي تنسين!

ولم تعن بالردّ فقال بجزع:

ـ شيء عجيب، النقود لا تهمّني، ولٰكنّك قلت أمس... أنسيت حقًّا!

وقال لنفسه إمّا أنّني مجنون وإمّا أنّها مجنونة. ثمّ قال عابسًا:

ـ ما لك؟ ماذا جرى؟ خبّريني من فضلك؟!

فابتسمت ابتسامة باردة وهي تتساءل:

ـ أتريد أن تأخذ دون أن تعطي؟

ـ قلت إنّك لا تأخذين عندما ترضين!

فرمقته بنظرة غريبة ثمّ قالت:

ـ أردت أن أهبك ليلة سعيدة، هٰذا كلّ ما هنالك...

فسألها بصوت متهدّج:

ـ مجرّد حيلة من الحيل؟!

ـ ولٰكنّها أسعدتك سعادة حقيقيّة...

فقال وغضبه يتراكم كزوبعة في الأفق:

ـ كذبة حقيرة...

ـ لا تزعل، كانت السعادة حقيقيّة، وأنا أستحقّ شكرك!

رماها بنظرة قاسية لم تر من وجهها إلّا دمامة وحشيّة، وأصغى في رجفة إلى حديث نفسه الثائرة التي تدعوه إلى خنقها حتّى يتفجّر دمها الأسود فنظرت إليه بقلق وحذر فصاح بها:

ـ شيطانة حقيرة.

فلم تنزع بصرها منه متوثّبة للدفاع عند أوّل حركة فصاح:

ـ وحيلة فاشلة ألا تدركين ذلك؟.. أودّ أن تدفعي حياتك ثمنًا لها...

فلم تنبس وازدادت حذرًا فعاد يقول:

ـ وما فائدة ذٰلك يا مغفّلة؟ لن تستطيعي أن تكرّريها مرّتين.

اطمأنّت الآن إلى أنّ موجة الجنون قد انحسرت عنه فيما بدا وأنّه أخذ يستردّ شيئًا من هدوئه الخائب وإن رانت عليه كآبة ثقيلة فقالت:

ـ لكنّها حيلة لا بأس بها قبيل الرحيل، أليس كذلك؟

فقال بازدراء:

ـ قلت يا مغفّلة إنّك لن تستطيعي أن تكرّريها مرّتين. . .

فتساءلت:

ـ ومَن قال إنّنا سنلتقي مرّة أخرى؟!

حُلم نصْف اللّيل

أمّ عبّاس امرأة جميلة، عُرفت في الحيّ بجمالها، ويتطلّع إليها أصحاب الأذواق كما يتطلّع أهل الخلاء إلى عين ماء. وهي إلى ذلك تملك عمارة قديمة من أربعة أدوار غير ثلاثة دكاكين أسفلها ولذلك اعتدّها الأهالي ـ وكلّهم فقراء ـ حلمًا موشّى بالذهب. ويوم توفّي زوجها بائع المسابح والمباسم والأوراد كانت في حوالى الأربعين، وهي سنّ يعتبرها الحيّ ذروة النضج وبجلى البضاضة وعطر الأنوثة. وكثيرون سعوا إلى التزوّج منها، ولكنّ القسمة دفعت بها إلى أحضان رجل لم يجرِ عند الظنّ على بال. كان حسنين يملك عربة كارو ويؤجّرها إلى الغير، في الثلاثين من عمره، قويّ الجسم مرهوب الجانب، ومعدودًا من فتوّات الدرجة الثالثة. ولم يكن أحد في الحيّ يحبّه أو يعجب به فازدادوا له مقتًا، وعجبوا كيف تقع امرأة كأمّ عبّاس في أحابيله، وقالوا بأسف والغضب والحسد يأكلان قلوبهم:

ـ مسكينة أمّ عبّاس، ومسكين عبّاس!

وعبّاس ابنها من الزوج الراحل، في العشرين من عمره، طيّب القلب جدًّا، تلوح في عينيه الواسعتين نظرة صامتة، ولعلّها ناطقة بلغة مجهولة، يبتسم كالأطفال، ويطلق شاربه ولحيته ويحبّهما. وهو أمّيّ لم يحصّل في الكتّاب حرفًا ولذلك فتح له أبوه دكّانًا من دكاكين العمارة لبيع الحلوى والفول السودانيّ واللبّ فكان يغدق على الأطفال بغير حساب. ولـمّا تزوّجت أمّه من حسنين غاب عن الحيّ أيّامًا ثمّ عاد وهو يقول لكلّ من يلقاه:

ـ لا يصحّ أن يحلّ محلّ الأب رجل آخر. . .

ورفع رأسه نحو مسكن أمّه وصاح بأعلى صوته:

ـ يا أمّ عبّاس. . . الله يسامحك. . .

وعندما ينقضي النهار يخلع جلبابه ويلبس بدلة زرقاء فاتحة اللون، فهو يحبّ الألوان الفاتحة، ويمشط بعناية شاربه ولحيته، ويغطّي رأسه بطربوش متداعي الأركان، ويتناول عصاه الخيزران البرتقاليّة، ثمّ يغلق الدكّان وينطلق في سبيل طويل، ملقيًا بتحيّاته يمنة ويسرة، يلوك في فيه قطعة من السكّر النبات ويبتسم في سعادة رائعة، وأكثر الليل يُرى هائمًا على وجهه. ومذ تزوّجت أمّه من حسنين اتّخذ من دكّانه مسكنًا فلم تعارضه أمّه طويلًا لعلمها بعناده، وكانت لا تخشى شيئًا عليه وتقول إنّ ملائكة الله تحرسه. وسعى حسنين يومًا إليه متودّدًا ولكنّه صاح في وجهه:

ـ اذهب، أنا لا أعرفك.

فغضب الرجل قائلًا:

ـ أنا عمّك. . .

وحال أناس بينهما وهم يلاطفون الرجل دفاعًا عن الشابّ المحبوب. وحزنت أمّ عبّاس حتّى دمعت عيناها الجميلتان. كانت تحبّ عبّاس لأنّه وحيدها ولأنّ وجهه صورة من وجهها. أجل كان عبّاس جميلًا، ولا يخفى جماله رغم اللحية والشارب والطربوش المتداعي الذي يغطّي ثلث وجهه.

ومن عجب أنّ حسنين ازداد بعد نعمة الزواج من أمّ عبّاس فظاظة وانحرافًا. واستفحل جانب الفتوّة من ذاته فاشترى الأعوان وأكثر من العدوان، وكان يسكر حتّى تلاطمه الجدران، وكان يغنّي إذا سكر بصوت تنفر منه الخنافس، وكلّما رأى عبّاس الرجل في حال من أحوال عربدته خرج من دكّانه إلى الطريق ورفع رأسه نحو مسكن أمّه وصاح بأعلى صوته:

ـ يا أمّ عبّاس. . . الله يسامحك. . .

ويومًا ترامت حشرجة نبراته الصارخة من وراء الشيش إلى الطريق في هياج وحشيّ:

ـ أنا سيّد البيت. . . أنا سيّد الكلّ. . .

وتخيّل الناس المرأة الجميلة تحت زوبعة الإهانات بأسف، المرأة التي لم تعرف في ماضيها سوى الحبّ

والتكريم. وتساءلوا عن سرّ ذٰلك الغضب. وأجاب سكّان العمارة بأنّ الإيراد هو سرّ الغضب، وأنّ الفتوّة انتصر، وأصبح المحصّل الوحيد للإيجار! ولم تعد أمّ عبّاس تخرج كعادتها لزيارة الجارات والتجوّل في التربيعة. لم يعد أحد يراها وهي تتبختر في الملاءة اللفّ كالمحمل وعيناها المكحولتان ترنوان بنظرة دسمة حول عروس البرقع.

ولم يقنع حسنين باغتصاب دخل الأمّ فمضى يومًا إلى دكّان عبّاس وهتف وهو يترنّح من السكر حتّى طيّر الأطفال عن ملعبهم:

- دلّني على ملّيم واحد ورثته عن أبيك؟

وتعلّقت عينا عبّاس بالأطفال وكأنّه لا يرى الرجل الآخر، فأنذره هٰذا بسبّابته صائحًا:

- ادفع الإيجار أو فلتخلِ الدكّان...

وسارع إليه بيومي اللبّان ليهدّئ من ثائرته، وتودّد إليه بمعسول الألفاظ حتّى مضى به بعيدًا وحسنين يقول بلسان ملتوٍ ونثار ريقه يرشّ وجه بيومي رشًّا:

- معتوه وبلطجيّ...

وعند المساء انطلق عبّاس إلى جولته الليليّة، يجود حيثما ذهب ببسمات رائقة وتحيّات حارّة في سعادة ملائكيّة. ودبّر حسنين حملة إرهابيّة جديدة ليحمل أمّ عبّاس على أن تبيع له العمارة بيعًا صوريًّا. واشتدّ الخلاف بينهما فضجّت الحارة بصراخه وتهديداته. وشكت المرأة إلى الجارات كربها. وتشاور بعض الطيّبين في السعي لدى حسنين ليعدل عن مطالبه ولٰكنّ أحدًا منهم لم يجرؤ على اتّخاذ خطوة إيجابيّة خوفًا من بطش الرجل وبخاصّة أنّه اعتدى في ذٰلك الوقت اعتداء وحشيًّا على رجل يدعى «كرمللة» عندما ضبطه يوصل نقودًا من أمّ عبّاس إلى ابنها. وارتفع نحيب المرأة ذات ليلة عقب تعنيف شديد من الرجل ثمّ علم أهل الحيّ أنّه ضربها ضربًا شديدًا وأنّها لن تطول مقاومتها.

وعند الفجر تعالى صراخ فمزّق السكون تمزيقًا. واستيقظ الناس فزعين وفُتحت النوافذ وهرع كثيرون إلى مصدر الصراخ، إلى القبو. وعلى ضوء فانوس رأوا بيومي اللبّان وهو واقف يرتجف. هو أوّل من يستيقظ في الحيّ ليسرح بصفيحة اللبن ولٰكن ماذا دهاه؟ وجدوه يشير إلى مكان في الأرض فنظروا حيث يشير فرأوا حسنين سابحًا في دمه وقد تكوّمت جثّته أسفل جدار القبو.

واضطرب الحيّ اضطرابة عنيفة، وسرعان ما احتلّته الشرطة والنيابة ثمّ اندفع التحقيق في جميع الجهات متعقّبًا كافّة الشبهات. استُدعي كرمللة وهو آخر ضحيّة للقتيل، وأمّ عبّاس، وبعض سكّان العمارة، وبيومي اللبّان نفسه، وعشرات وعشرات من خصوم الرجل الذين لا يحصيهم عدّ. ولٰكن ثبتت براءتهم جميعًا بصورة قاطعة. حتّى عبّاس استدعوه للتحقيق، ولـمّا سُئل عن المكان الذي كان فيه وقت ارتكاب الجريمة أجاب ببساطة:

- كنت مع الخضر...

ولـمّا أراد المحقّق أن يعرف مَن هو الخضر أجاب عبّاس بدهشة:

- ألا تعرف سيّدنا الخضر؟!

ولٰكنّ كثيرين كانوا يعرفون تجوال عبّاس خطوة فخطوة وقد شهدوا نيابة عنه. وهٰكذا بدت الجريمة لغزًا لا يريد أن يُحَلّ. وعُرف من التحقيق أنّ حسنين قُتل بآلة حادّة هشّمت مؤخّر رأسه. والحقّ أنّ أحدًا لم يأسف عليه، ولٰكنّهم تساءلوا كثيرًا عن القاتل، وظلّت الجريمة حكاية الحارة المثيرة زمنًا طويلًا...

وظُنّ أوّل الأمر أنّ عبّاس سيرجع إلى مسكن أمّه ولٰكنّه رفض ذٰلك بإباء. واعتصرت المحنة الأمّ فغرقت في الحزن ولٰكنّ جمالها قاوم المأساة وخرج منها في النهاية متألّقًا كماضيه. وعادت تتبختر بين السكّة الجديدة والتربيعة وعاد الإعجاب يحوطها كالهالة.

وإذا برجل يتقدّم طالبًا يدها. كان في الحقيقة شابًّا دون الثلاثين، قصّابًا أقرب ما يكون إلى الفقر ومن أهل الحيّ المجاور، جميل الصورة، دمث الأخلاق، نظيف الذمّة، وتساءل الناس هل تجازف المرأة بقبول التجربة مرّة أخرى؟ وقبلته المرأة بأسرع ممّا تخيّل أحد. ومع أنّ بعض الطيّبين قالوا إنّ الله قد عوّضها خيرًا إلّا أنّ كثيرين تهامسوا متسائلين: ترى أَلهٰذا الرجل علاقة بالجريمة الغامضة؟! أمّا عبّاس فقال كعادته:

ـ لا يصحّ أن يحلّ محلّ الأب رجل آخر.

وخرج إلى وسط الطريق ثمّ رفع رأسه إلى عشّ العروسين صائحًا:

ـ يا أمّ عبّاس... الله يسامحك!

وبلغ التهامس المريب مسامع الحكومة فأجرت تحرّياتها عن العريس ـ وكان يدعى عبده ـ واستدعي لسؤاله هو وأمّ عبّاس ولكن لم يثبت عليهما شيء وظلّ اللغز أخرس كما كان. وتجلّت بالمعاشرة مزايا عبده القيّمة فقد وهب المرأة حبًّا وعطفًا ومعاملة كريمة. وعرض من بادئ الأمر صداقته على عبّاس ومع أنّ الشابّ نهره قائلًا:

ـ دعني وشأني...

إلّا أنّه حباه بعطفه ورعايته وحثّ أمّه على مدّه بما هو في حاجة إليه من نقود. وأثبت في الوقت نفسه أنّه ذو عقل راجح فقد اقترح على أمّ عبّاس أن تبيع حوشًا خلفيًّا للعمارة قائمًا على ناصيتين لتجدّد العمارة بثمنه وتبني دورًا جديدًا. وأولته المرأة الثقة التي يستحقّها فتجدّدت العمارة وارتفعت وازداد دخل أمّ عبّاس زيادة محسوسة حتّى أُعجب به الناس وقالوا رجل ولا كلّ الرجال. وقال بيومي اللبّان لعبّاس وهذا يتناول عشاءه في دكّانه قبل الانطلاق إلى جولته الليليّة:

ـ أنت لك قلب ملاك فكيف تنفر من رجل طيّب كعمّ عبده؟

فمضى عبّاس في تناول الزبادى كأنّه غير المقصود بالكلام فتساءل بيومي:

ـ ألا تحبّ مَن يحبّ الناس ويعمّر الخرابات؟

وأعاد عبّاس سلطانيّة الزبادى فارغة ثمّ نظر في عيني بيومي قائلًا:

ـ الوحش... ألم تره وهو يقطّع اللحم في دكّانه؟!

ووضح فيما تلا ذلك من زمن أنّ عبده بارٌّ كذلك بأهله فكان كلّما خلت شقّة في العمارة أسكنها أحد أقاربه. وكان يخفض الإيجار للفقراء منهم بإذن من زوجته. وفي ذلك كلّه لم يجد أحد ما يؤاخذه عليه حتّى جاء بأمّه وأختين له ليقمن معه في شقّته فعند ذاك ردّد البعض المثل القائل: «إن كان حبيبك عسل ما تلحسوش كلّه». والحقّ أنّ أمّ عبّاس لم ترتح لذلك، وهي قد فوجئت بالأمر الواقع مفاجأة لم تستطع معها منعه ولكنّها أدركت أنّ الزمام قد أفلت من يديها وأنّها لم تعد سيّدة بيتها بحال بعد أن اضطلعت حماتها بالمسئوليّة فشعرت بالضياع.

وإذا به يومًا يخلي دكّانين من دكاكين العمارة الثلاثة ويهدم الجدار القائم بينهما ليقيم منهما دكّانًا كبيرًا فخمًا، ثمّ انتقل إليه من محلّه الصغير بالحيّ المجاور، وعُلّقت الخراف والعجول، وصار أكبر قصّاب في الحيّ كلّه. وافتتح المحلّ الجديد بتلاوة من مقرئ حسن الصوت وحمد عبده الله بصوت سمعه الكثيرون على ما فتح به عليه من مال حلال!

ولأوّل مرّة اختلف الناس فيه فمن قائل إنّه مثال للأمانة والبرّ، ومن قائل إنّه حسنين آخر حريريّ الملمس. وشكّ أناس في ذمّته وعضّ الحسد قلوب الكثيرين. وتغيّر عبده بعض الشيء فاختفت نظرته الوديعة وحلّت محلّها نظرة جديدة مليئة بالثقة وطعّم دماثته المألوفة بقدر من الحزم والعزم اقتضاهما مركزه الماليّ ومسئوليّته كرجل أعمال. ولم يكتفِ باستعمال حزمه وعزمه في التجارة فاستعملها في البيت أيضًا كلّما نشب نزاع بين أمّ عبّاس وأهله، واستعملهما خاصّة مع أمّ عبّاس. ولـمّا كانت المرأة لم تعهده إلّا لطيفًا مؤانسًا فقد كبر الأمر عليها وحزنت حزنًا شديدًا. وساءت الحال بينها وبين أهله، وأصرّت على استرداد ما ضاع من حقوقها في بيتها، حتّى قالت له يومًا:

ـ أنا لا أريد أن يشاركني أحد في بيتي.

وإذا بالرجل يقول لها بصوت رهيب:

ـ لك ما تشائين فتفضّلي بالذهاب...!

ولم تصدّق المرأة أذنيها. ثمّ صاحت:

ـ هذا بيتي... وعلى الآخرين أن يتركوه...

ووقع اشتباك بالأيدي بين النساء فهاله أن يُعتدى على أمّه، وانهال على أمّ عبّاس ضربًا، ثمّ دفعها خارج البيت. وجدت نفسها وحيدة في الطريق حتّى آوتها أسرة فقيرة تمتّ بقربى بعيدة إلى زوجها الأوّل. وهزّ الحادث النفوس هزًّا وهرع عبّاس إلى ما تحت مأواها الجديد وصاح بأعلى صوته:

ـ يا أمّ عبّاس... الله يسامحك...

ولم يدر الجيران ماذا يفعلون، فلم يكن من اليسير إغضاب الرجل بعد أن كبر نفوذه وتعلّقت به مصالح الكثيرين. وفكّر البعض في رفع الخلاف إلى ساحة القضاء ولٰكنّهم كانوا يتهامسون بذلك سرًّا خوفًا على أنفسهم. ولم يجهر بالسخرية منه إلّا عبّاس حتّى غضب عليه الرجل فمنع عنه مصروفه وهو يقول بأعلى صوته:

ـ عبث السفهاء لا يجوز أن يمتدّ إلى المال...

والتفت إلى كثيرين من أهل الحيّ الذين وقفوا يشاهدون النزاع وقال لهم:

ـ أيّ واحد منكم أحقّ بالنقود التي يعبث بها هٰذا الغلام المعتوه...

ولٰكنّهم كانوا يرمقون الدكّان والخراف والعجول ويتساءلون: وهٰذه الأموال ما شأنها؟! أمّا عبّاس فلم يكترث لشيء وبدا كأنّما يزداد سعادة وسيادة، وكان ينطلق في الليل كأنّه وارث الملكوت. وقال الناس إنّ أمّ عبّاس امرأة تعيسة الحظّ وإنّ قلبها الضعيف يدفعها دائمًا إلى المهالك. وبينما كانت تعيش بفضل إحسان أسرة فقيرة كان عبده يتضخّم ويشارك في كلّ نشاط ماليّ في الحيّ. وسعى بالصلح بينها أناس طيّبون حتّى أعادوا المرأة إلى بيتها. ولٰكنّها عادت منكسرة النفس لا أمل لها في حياة كريمة، ولم يسمح عبده بإعادة مصروف عبّاس إليه إلّا بشرط أن يشاركه في دكّانه أحد أقربائه هو ليصون المال ويدير العمل. وأحبّ عبده الحياة المريحة المترفة فعقد اللاسة الشاهي الفاخرة فوق رأسه وتلفّح بالعباءة من وبر الجمل ولبس المركوب الملوّن من خان الخليلي وتحلّى بالخواتم الذهبيّة، وسبقته رائحة المسك حيث ذهب فيقوم له الناس على الجانبين حتّى يختفي عن الأعين فيتهامسوا:

ـ الله يرحم أيّام زمان...!

وعند الفجر تعالى صراخ فمزّق السكون تمزيقًا. واستيقظ الناس فزعين وفتحت النوافذ، ثمّ هرع الجميع إلى القبو. رأوا بيومي اللبّان وهو يرتجف فنظروا إلى حيث يشير فرأوا المعلّم عبده مكوّمًا ورأسه غائص في بركة من الدم. وزُلزل الحيّ زلزالًا عنيفًا. وأطبقت عليه الشرطة والنيابة والمخبرون. واستدعي إلى التحقيق عدد لا حصر له من أهل الحيّ، ولٰكن لم يقع على أحدهم ظلّ شبهة من قريب أو بعيد، وقطعت الدلائل بأنّ جريمة عبده ستلحق بجريمة حسنين. وقال أناس وهم يضربون كفًّا بكفّ:

ـ ما أعجب هٰذا!...

فقال آخرون:

ـ انتظروا حتّى يظهر العريس الجديد...

ومضى عبّاس إلى دكّان بيومي ليتناول عشاءه المعتاد قبل الانطلاق لجولته الليليّة. وجعل بيومي يرمقه بغرابة وهو يأكل الزبادى بأناة وسعادة، وشاربه ولحيته يلتقيان حول فيه ويبتعدان في حركات متتابعة. وتردّد بيومي قليلًا ثمّ قال:

ـ عبّاس! أنت أعجب شيء في حارتنا...

فابتسم عبّاس إليه بمودّة إذ كان أحبّ الناس إلى قلبه، فقال الآخر فيما يشبه الهمس:

ـ كان عبده ما زال حيًّا عندما عثرت عليه في القبو...

فتحسّس عبّاس شاربه عند امتداده فوق فيه ليتأكّد من جفافه، فقال بيومي:

ـ وقد نطق باسم قاتله قبل أن تصعد روحه...

فملأ عبّاس الملعقة بالزبادى ورفعها إلى فيه وهو يركّز فيها عينيه، فقال بيومي:

ـ وهو بلا شكّ قاتل حسنين من قبل...

لاح في وجه عبّاس عناء مَن يستحضر خيالًا لا يُرام، فقال بيومي:

ـ وعند التحقيق نسيت كلّ شيء وتلك إرادة الله!

أتى عبّاس على آخر ما في السلطانيّة وتأهّب لمغادرة الدكّان فتساءل بيومي:

ـ مَن أنت يا عبّاس؟!.. وماذا يقول لك سيّدنا الخضر كلّ ليلة؟!

قَوْسُ قُزَح

اجتمعت الأسرة على هيئة مجلس للشورى. ذٰلك تقليد جميل متّبع من زمن بعيد بفضل حكمة الوالدين: حسن دهمان وهو من رجال التربية وعلم

النفس والسيّدة نظيرة وهي مفتّشة كبيرة بوزارة الشئون، والغرض منه تربويّ لإشراك الأبناء في تحمّل المسئوليّة وتفهُّم الحياة فضلًا عن أنّه يجعل من العقل المحرّك الأوّل لسلوكهم. وقالت الأمّ:

ـ نحن نجتمع لمناقشة مسألة «طاهر»...

وطاهر هو الابن الأصغر، في المرحلة الثانويّة، يحبّ ابنة زميل لأبيه تقاربه في السنّ، ولـمّا كانت أسرة الفتاة على وشك الانتقال إلى بلد عربيّ لعدّة سنوات فقد أراد طاهر أن يخطب البنت قبل السفر. وقال سمير وهو أكبر الأبناء وطالب بكلّيّة الهندسة:

ـ أعتقد أنّ الخطبة بالنسبة لطاهر سابقة لأوانها...

وقالت هدى وهي طالبة بكلّيّة الحقوق:

ـ طاهر متقلّب في عواطفه، رأيي التريّث..

والتفت حسن دهمان بوجهه الجادّ نحو طاهر وقال:

ـ أودّ أن أسمع رأيك...؟

وبوجه متجهّم، وهو يركّز بصره في تهاويل السجّادة تجنّبًا لالتقاء الأعين، قال طاهر:

ـ ما فائدة الكلام ما دام أنّ العقل سينتصر في النهاية؟

وطال الأخذ والردّ، ثمّ أُخذت الأصوات، وانتصر العقل كما تنبّأ طاهر، وقال الأب معلّقًا على النتيجة الحكيمة:

ـ هٰذا هو عين العقل...

هٰذه الجملة إكليشيه يختم به الرجل مناقشاته وتقريراته الموفّقة. ومنها يقف طاهر موقفًا غير ودّيّ إذ إنّه طالما عانى المتاعب باسم العقل. ولٰكنّ العقل يلعب دورًا خطيرًا في حياة الأسرة كأنّه معبود. بفضل توجيهه ساد الأسرة نظام عجيب فهي ساعة دقيقة. البيت آية في الترتيب والأناقة كأنّه وجه ذو ملامح أبديّة. سقوط عود كبريت أو تزحزُح مقعد عن موضعه أو ارتفاع في درجة صوت الراديو عن الحدّ المرسوم يُعَدّ من الحوادث المزعجة التي تتطلّب علاجًا سريعًا. أوقات الطعام والاستيقاظ والنوم والعمل والراحة تخضع لدقّة فلكيّة، ويقول حسن دهمان عن ذٰلك كلّه:

ـ هٰذا هو عين العقل...

ولكلّ فرد في الأسرة دفتر توفير، ونوع من الكتب يلائمه، وحتّى الأغاني والبرامج الإذاعيّة والتليفزيونيّة تقرّر بعد تشاور ونقاش، ولدى مواجهة أيّ مسألة هامّة ينعقد مجلس الأسرة ويدلي كلّ برأيه، ويفحص هٰذا الرأي بكلّ عناية ودقّة سواء تعلّق بنوع الدراسة أم الحبّ أم الصداقة أم السياسة، أجل لا يفلت من هٰذا النظام شيء، ثمّ يقول حسن دهمان بكلّ ارتياح:

ـ هٰذا هو عين العقل...

وعقارب الساعة آيات في الدقّة إلّا العقرب الصغير فهو مصدر قلق لوالديه.

ـ ألا تخجل من نفسك يا طاهر؟

لكنّه ينظر بغرابة إلى ما حوله. لا يريد أن يتحمّس لشيء. ويحضر مجلس الأسرة وهو كاره. ويتحفّز للمعارضة بسبب وبلا سبب. نشاز في أوركسترا العائلة. ويغالب ضحكة مريرة في أحايين كثيرة. ويبلغ به الاستهتار مرّة أن اقتحم المطبخ وتناول غداءه قبل موعده المحدّد بنصف ساعة. وقال له والده:

ـ ولٰكن هٰذا شذوذ لا مبرّر له يا بنيّ...؟

ولّما لم يجد منه استجابة من أيّ نوع سأله:

ـ ألا زلت تفكّر في الخطبة؟

فأجاب ببساطة:

ـ كلّا. الجوع هٰذه المرّة لا الحبّ...!

ولـمّا ذهب همست نظيرة هانم في أذن زوجها:

ـ آخر العنقود يا عزيزي...

فتساءل الرجل مغضبًا:

ـ هل نرضى بالهزيمة؟

ـ كلّا، ولٰكنّ الأمر يتطلّب عناية مضاعفة..

وآمن طاهر بأنّ «هٰذا هو عين العقل» تطارده حيث ذهب. إنّها تطوّقه في الظاهر والباطن. إنّه غريق في نسيجها المحكم. حتّى الحبّ والطرب والحزن. وسمع لجريان الدم في أطرافه صوتًا فأيقن أنّ شيئًا سيحدث. وشاركه إحساسه من يعيشون حوله ولٰكن في صمت متبادل. ويومًا وهو في الفراندا المطلّة على الحديقة الصغيرة حدث شيء. كان موسم الامتحانات يقترب وسمير وهدى مُكِبّان على المذاكرة. وكان الأب يكتب بحثًا والأمّ تقرأ مجلّة أمريكيّة وبكى طاهر. كان في

الفراندا يذاكر. وشعر بأنّ الحمل فاق احتماله وأنّ الدنيا لا شيء. وترك الكتاب فوق الترابيزة وراح ينظر في لا شيء. وحزن حزنًا عميقًا. ثمّ انصهرت الكآبة فذابت دموعًا. وكتم البكاء أوّل الأمر أن يسمعه أحد. ثمّ تدافعت الدموع بغزارة مذهلة فنشج ثمّ نحب. وغلبه ذٰلك فاستسلم للنحيب حتّى هرع إليه الجميع. وقفوا مبهوتين. وجاءت أمّه بماء فغسلت وجهه. وظلّ يبكي بحركات بلا صوت وبلا دموع. وأسند رأسه إلى صدر أمّه فتلقّته بحنان وهي تتساءل بقلق ترى هل جاوزت الحدّ «المعقول» في إظهار الحنان الذي يعتمل في صدرها؟ ثمّ هدأ طاهر تمامًا فجلس واجمًا ولم يبقَ من الانفعال الغريب إلّا نظرة حزينة بكلّ معنى الكلمة. وساد الصمت وارتسمت الأسئلة في الأعين القلقة. وسألته الأمّ:

ـ ما لك يا طاهر؟

أجاب دون أن ينظر إلى أحد:

ـ لا شيء. . .

ارتسمت الدهشة والاحتجاج مكان الأسئلة، وقال له سمير:

ـ خبّرنا بما يحزنك. . . !

وقالت هدى بحرارة:

ـ يجب أن نعرف ذٰلك. . .

ولٰكنّ الأب أشار إليهما بالخروج فخرجا ثمّ سأله برقّة:

ـ ماذا بك يا بنيّ؟

ـ قلت لا شيء. . !

ـ أيّام الامتحانات أيّام مرهقة للأعصاب. . ؟

ـ كلّا. . كلّ شيء طيّب. .

وغادر الرجل الحجرة ليمنح الأمّ فرصة أطيب ولٰكنّ طاهر لم يقل شيئًا. ولم يكن يعرف أكثر ممّا قال، ولذٰلك لم يستخلص أحد منه جديدًا لا في تلك الليلة ولا في الأيّام التالية. ونصحه والده بالترّيض في الشوارع المحيطة بمسكنهم ساعة كلّ يوم قبل أن يجلس للمذاكرة. واعتبر الحادث عرضًا من أعراض الإرهاق العصبيّ. ولم يعد أحد يذكره، ثمّ نسوه تمامًا.

ويومًا قال حسن دهمان باهتمام:

ـ دعوت مديرنا الجديد إلى سهرة لطيفة في حديقتنا الصغيرة. . .

وخاطبت الأمّ الأبناء قائلة:

ـ يجب أن نظهر بالمظهر اللائق وأن تمكثوا معنا قليلًا ثمّ تنصرفوا للمذاكرة، وسيتوقّف على لباقتكم نجاح الحفلة. . .

وتساءل طاهر:

ـ أهو صديقك يا بابا؟

فتفكّر الرجل مليًّا ثمّ قال:

ـ الصداقة نعمة كبيرة وعلينا أن نستزيد منها كلّما وسعنا ذٰلك، والمدير العامّ مجرّد زميل أكبر ولٰكنّه سيكون غدًا صديقًا، والحياة الاجتماعيّة تطالبنا بواجبات نافعة لا بدّ منها. . .

وقال طاهر لنفسه: «هٰذا هو عين العقل». وكان المدير الجديد قصيرًا بدينًا ضخم الوجه والرأس أصلع ويتكلّم ببطء شديد. وأنعم طاهر فيه النظر وهو يقاوم رغبة شرّيرة في الضحك. وأعجبه منظر أمّه وهدى وهما في كامل زينتهما وتابع أحاديث أسرته الطليّة بدهشة. وسمع والده يستشهد بالشعر أكثر من مرّة وسمع أمّه وهي تعلّق على شكوى المدير من كثرة نسيانه قائلة:

ـ تلك آية العبقريّة يا سعادة البيه. . .

وانسحب سمير وهدى في الوقت المناسب ولٰكنّ طاهر لم يبرح مجلسه، ورغم إشارات أمّه الخفيّة لم يبرح مجلسه، ولـمّا لاحظ أبوه تطلّعه إلى المدير قال له:

ـ آن لك أن تذهب يا طاهر. .

فتساءل طاهر:

ـ ألا أقول شعرًا يا بابا؟

وقطّب الأب على حين سأله المدير:

ـ أأنت شاعر؟

ـ كلّا ولٰكنّي أحفظ الشعر. . .

ـ إذن أسمعني لأعرف ذوقك. . .

فقال طاهر بانتصار:

ـ علوّ في الحياة وفي الممات. . .

ـ شعر مشهور. . .

ـ قيل لمناسبة شنق رجل!

فضحك المدير قائلًا:

- شعر جميل أمّا المناسبة فسيّئة جدًّا!

عند ذاك ضحك طاهر. شعر بأنّ الحمل فاق احتماله وأنّ الدنيا لا شيء وراح ينظر في لا شيء. وحزن حزنًا عميقًا. ثمّ انفجر ضاحكًا. وبادره أبوه فأخذه من يده ومضى به خارجًا. وعند نهاية السهرة ناقش الوالدان مشكلة طاهر طويلًا فاتّفق رأياهما على أنّها بحاجة إلى علاج حقيقيّ، ولٰكنّهما رأيا أنّ الأوفق تأجيل ذٰلك إلى ما بعد الامتحان.

ويومًا ارتفع صوت هدى في البيت وهي تنادي في شبه استغاثة صائحة «ماما... تعالي انظري ماذا فعل طاهر!». وهرع إلى حجرة الشابّ كلّ من سمع النداء. رأوا الحجرة في أغرب منظر. منظر لا يخطر على بال إنسان. حشيّة السرير قد طُرحت فوق المكتب. والكتب والأوراق قد صُفّت فوق خشب السرير. والصوان انعكس وضعه فالتصق بابه بالجدار. وقُلبت المقاعد على ظهورها. وطُويَت السجّادة الصغيرة ثمّ عُلّقت بدوبارة بسلك المصباح الكهربائيّ. وندّت عن الأمّ صرخة رثاء وهتف الأب:

- كارثة... كارثة وربّي!

وسألوه جميعًا عمّا فعل؟ وكان يقف وسط الحجرة هادئًا وباسمًا فلم يزد عن أن تساءل بدوره:

- ولِمَ لا؟

وصاحت الأمّ:

- أنت تمزّق قلبي...

فقال برقّة:

- آسف على إزعاجكم.

فقال الأب بحسرة:

- غير معقول... غير معقول...

- لِمَ لا يا بابا؟! كنت أقوم بتجربة، ولو أمهلتموني لكان ذٰلك عين العقل....

وغادر الحجرة إلى الفراندا، وتبعه والده فوجده واقفًا ينظر إلى السماء باهتمام بالغ. ونظر الرجل حيث ينظر فلم يرَ شيئًا فازداد انقباضًا ثمّ سأله برقّة:

- أتعبت رقبتك، لِمَ تنظر هٰكذا إلى السماء؟

وأهمله طاهر حتّى كرّر سؤاله مرّتين، ثمّ قال بضجر:

- إنّي أحسدها على ما تنعم به من حرّيّة!

فقال الأب محذّرًا:

- لكنّها مستقرّ أدقّ نظام في الوجود، النظام الذي لا يخطئ...

فانزعج طاهر وخفض عينيه غاضبًا...

- ألا تحبّ النظام يا طاهر؟

فقال بحدّة:

- لا أحبّ لشيء أن يتكرّر مرّتين..!

- لكنّها الفوضى يا بنيّ...!

فهتف الشابّ:

- ما أجمل هٰذا!

وتشاور الوالدان فأجمعا على وجوب البدء في العلاج دون إبطاء ولو ضاع العام الدراسيّ. واتّفقا على أن يستشيرا طبيبًا باطنيًّا أوّل الأمر، على أن يذهبا بعد ذٰلك إلى طبيب أعصاب إن نصح الباطنيّ بذٰلك، ثمّ إلى طبيب نفسانيّ إن لزم الحال.

وكان الوالدان في الحديقة يستقبلان بعض الضيوف، وسمير وهدى يذاكران، عندما سَمع الجميع ضجّة في الطريق وتدافُع أقدام في الداخل وصراخ الخادمين.

وتبيّن أنّ النار مشتعلة في الطابق العلويّ. وانطلقوا جميعًا إلى الطريق وأحد الخادمين يحمل طاهر بين يديه. وجاءت المطافئ فأخمدت النار قبل أن تستفحل. وقال طاهر في التحقيق ببساطة مذهلة:

- نعم، أنا الذي سكبت البترول وأشعلت النيران...

ولّما سُئل عن السبب أجاب بالبساطة نفسها:

- لا أتذكّر...

ثمّ لاذ بالصمت.

وانطلقت سيّارة المستشفى. جلس طاهر مقيّد اليدين والقدمين بين والديه على حين جلس أمامهم مندوب المستشفى:

- كم رأينا من حالات أشدّ من هٰذه ثمّ عاد أصحابها كأعقل ما يكون.

وأراد الأب أن يقول: «إنّ ذهاب العقل كارثة لا تعادلها كارثة» ولٰكنّه لم ينبس. وساءل نفسه: «ما معنى

هٰذا!.. وهل ثمّة خطأ؟» كان بيته ـ وما زال ـ معبدًا للعقل وللنظام فكيف تسلّل إليه الفساد؟ وحزّ الألم في نفسه حتّى تتابعت تأوّهاته الباطنيّة وحتّى حسد زوجته على سخاء عينيها. ولحظ الابن العزيز بطرف عينه فرآه قد أغمض عينيه فعضّ على شفته.

وتطوّع المندوب للتخفيف من كآبة الجوّ فقال:

ـ المستشفى خير مكان له فلا تحزنا لذٰلك الإجراء الذي لا بدّ منه...

ولم تكن لدى حسن دهمان رغبة في الكلام ولٰكنّه أراد أن يجامل الرجل بقدر ما يستطيع فتمتم وهو من الحزن في غاية:

ـ صدقت يا سيّدي، هٰذا هو عين العقل.

الصّمت

ما أفظع هٰذه الحجرة! كميدان قتال. لا ترى العين في أيّ موضع منها إلّا سلاحًا يقشعرّ منه البدن. وهو لا يعرف إلّا المقصّ ولٰكنّ المعرض حافل بما يشبه السكاكين والخناجر والدبابيس من كافّة الأشكال والأحجام. وثمّة أوعية ملوّثة بالدم تحت الموائد المعدنيّة، وقطن وشاش، ورائحة أثيريّة نافذة كنذير من عالم مجهول، وثلاثة أطبّاء: الطبيب المولّد وطبيب القلب وطبيب التخدير، وممرّضة بدينة لٰكنّها في خفّة النحلة ولا تمسك عن الحركة. لم ير الأشياء إلّا خطفًا على حين تركّزت عيناه فوق السرير المرتفع حيث ترقد زوجته مطحونة بالصراع، مرفوعة الساقين فوق حاجز قائم في نهاية السرير وقف وراءه المولّد في معطفه الأبيض، لا يبدو منه إلّا نصفه، ويشي أعلى ذراعه بحركة يده المختفية. وراحت زوجته تقلّب رأسها يمنة ويسرة كاشفة كلّ مرّة عن عارض من وجهها المتقبّض من الألم، الذي استقرّت في صفحته زرقة مغبرّة. آه.. حتّام يطول الصراع؟ متى يجود بالراحة الرحمٰن؟ ويد الطبيب لا تكفّ عن الحركة، وهو ينظر نحوه أكثر الوقت، في بساطة واستهانة ويبتسم ولا ينقطع عن الكلام...

ـ ما أعظم الفارق بين صورتك الحقيقيّة وصورتك على الشاشة!

هزّ رأسه وهو ينتزع من شفتيه الجافّتين ابتسامة مجاملة، واضطرّ في ذات الوقت أن ينزع عينيه من الوجه المعذّب ليبادل الطبيب نظرة بنظرة على سبيل المجاملة أيضًا.

ـ ما أبدع الفنّ! وفنّ التمثيل هو سيّد الفنون في نظري! إنّك تُضحكني من أعماق قلبي، لا أحد يُضحكني هٰكذا ولا الأمريكيّون أنفسهم، ودور الباشكاتب في فيلمك الأخير دور عجيب حقًّا، تفوّقت فيه على نفسك!

لاحت في عيني الطبيبين الآخرين ابتسامة، واسترقت الممرّضة إليه نظرة باسمة كذٰلك، تحيّة لدور الباشكاتب. ونظر الأستاذ صقر نحو زوجته على أمل أن يكون الحديث قد لطّف من كربها ولٰكنّه وجدها غارقة في دنياها الخفيّة فساءل نفسه متى ينتهي عذابها؟، ومتى يرحمه الطبيب فيتركه لنفسه؟. وإذا بالطبيب يخاطبها قائلًا:

ـ ساعديني! يجب أن تساعديني كما قلت لك مرارًا، شدّي حيلك وأريني شطارتك!

وهمست بصوت هو الأنين:

ـ لا قوّة لديّ...

ـ بل لديك قوّة عظيمة، ولن تتمّ الولادة إلّا بمساعدتك، افهمي ذٰلك جيّدًا، أنا في انتظار صوتك!

استجمعت قواها الخائرة، تتابع الصراخ في قوّة لا بأس بها ولٰكنّه سرعان ما وهن فتقهقر إلى أنين مبحوح. وزادت يد الطبيب حركة. وعاد يقول:

ـ والفيلم في جملته ممتاز أيضًا، قرأت مرّة في مجلّة أنّك تشترط قبل التعاقد على دور أن تطّلع على السيناريو..؟

انتزع عينيه من زوجته مرّة أخرى وقال:

ـ نعم...

ـ لٰكن ما معنى السيناريو؟

يا للعذاب!

* * *

ـ هو إعداد القصّة للسينما...

ـ أنا أقرّك على موقفك، يجب أن تقرأ السيناريو أوّلًا حتّى تضمن لموهبتك فيلمًا يناسبها. . .

ـ شكرًا. . . شكرًا. . .

وتأوّهت المرأة تأوّهات متقطّعة فقال الطبيب معاتبًا:

ـ لا. . . لا. . . ، ليس هٰذا ما أريد، الستّ هي التي تولّد نفسها!

ومال الأستاذ صقر فوق أذنها هامسًا:

ـ شيئًا من التعب يا عزيزتي كي يجيء ربّنا بالفرج!

فقال الدكتور ضاحكًا:

ـ أطيعي كلام هٰذا الرجل المسئول!. . . (ثمّ ملتفتًا نحوه) لم أعرف أنّها كانت زميلة لك في المسرح إلّا عن طريق إحدى المجلّات أمّا أنا فلم أرك في المسرح ولم أرها كذٰلك لأنّني لست من روّاد المسرح. . .

ثمّ بعد هنيهة صمت:

ـ أنت لست معي!

فانتبه صقر قائلًا وقد تكاثف عذابه:

ـ معك يا دكتور!

ـ خبّرني ما أحبّ أدوارك إليك؟

ربّاه إنّها لا تجد قوّة للطلْق، ولٰكن ينبغي أن يكون الخطر بعيدًا وإلّا ما استرسل الدكتور الذي لا يرحم في استجوابه:

ـ ماذا قلت! أحبّ الأدوار إليك!

ـ لعلّه دور العسكريّ!

ـ تعني فيلم حريقة بلا نار؟. . . لا. . . لا. . .

وانفجر صراخ من الأعماق، تصاعد حارًّا مليئًا كأنّما يقذف بفتات الصدر والحلق. واستحثّها الطبيب على المزيد وهو يتركّز في حركة يده الآخذة في السرعة. وأعقب ذٰلك تأوّه عريض مرتفع ما لبث أن هبط إلى درجة الأنين ثمّ انداح في الصمت ونقّل صقر بصره من الوجه الأزرق المغبرّ إلى الساقين إلى وجه الطبيب وتساءل ترى أهو الختام المريح؟! واقترب طبيب القلب فجسّ النبض أمّا المولّد فتراجع خطوة ثمّ خلع معطفه والقفّاز ودار حول السرير حتّى وقف أمامه باسمًا. همس صقر:

ـ الحمد لله؟

ـ الحمد لله دائمًا. . . تعال. . .

ومضى إلى حجرة داخليّة فتبعه، وهناك قال الطبيب:

ـ ضاعت الجولة هباء، ولن يعاودها الطلق قبل أربع ساعات على الأقلّ. . .

ثمّ وهو يهزّ رأسه:

ـ وإذا لم تتيسّر الولادة بحال طبيعيّة فلا بدّ من جراحة. . .

ـ جراحة!

ـ لِمَ لا؟ القلب سليم، وليس بها أمراض، ألم أنصحك آخر مرّة بتجنّب الحمل؟!

بهت صقر. ومضى إلى الصالون فجلس بين أعضاء الأسرة التي تلقّت الخبر بانزعاج حقيقيّ. وذهبوا إلى حجرة الزوجة فوجدوها تغطّ في نوم عميق فعادوا إلى مجلسهم. وضاق صقر بالجلسة وشعر بحاجة ملحّة إلى الحركة. استقلّ سيّارته الدودج إلى قهوة الشمس، قهوة الزملاء، وإن لم يأمل في العثور على أحدهم في تلك الساعة من الصباح. وعند مدخل القهوة ناداه صوت قويّ فمضى إلى صاحبه وجلس إلى جانبه في الممرّ المكشوف تحت سماء مجلّلة بسحب الخريف. تربّع جميل الزيادي في مجلسه تحوطه هالة من الفخامة مصدرها بدانته المتناسقة، وهو زميل قديم لصقر من عهد المدرسة الابتدائيّة، أمّا اليوم فهو من الأعيان وعشّاق المسرح. وكان صقر في حاجة حقيقيّة إلى المشاركة الوجدانيّة فقال:

ـ اطلب لي فنجال قهوة فإنّي في حالة إغماء!

فطلب له القهوة وهو يتساءل:

ـ ما لك كفى الله الشرّ؟

وأعاد على سمعه ما قال الطبيب فلم يبدُ عليه أنّه اهتزّ أقلّ اهتزاز لكلمة «الجراحة» وقال ببساطة:

ـ سليمة بإذن الله، والنساء يلدن من عهد حوّاء فلا تخف. . .

ـ المسكينة تتألّم بدرجة فظيعة، ويقولون إنّ الجراحة خطيرة. . .

فتناول الرجل شويّة فول سوادنيّ من طبق فنجال ممتلئ وهو يدعوه إلى مشاركته ثمّ قال:

ـ إشاعات يروّجها الأطبّاء ليبرّروا مطالبهم،

المطالب هي الخطيرة حقًّا. . . .

وضحك لذكرى وردت للمناسبة وقال قبل أن يفتح صقر فاه:

ـ عند مولد ابني إسماعيل أتعلم ماذا حدث؟

حنق صقر على مولد إسماعيل الذي اقتحم عليه عذابه وأجّل عزاءه المأمول لوقت لا يعرف مداه!

ـ ولدته أمّه في ثماني عشرة ساعة!، جاءها الطلق الساعة السادسة صباحًا وأدركها الفرج عند منتصف الليل! أيّ عذاب تتخيّله؟ ومع ذٰلك كلّه فقد ولدت في البيت وبوساطة حكيمة لا دكتور ولا دياولوا!.

فهزّ صقر رأسه كأنّما يتذوّق عبرة حقيقيّة، ثمّ تساءل:

ـ لكن ماذا تعرف عن جراحة الولادة؟

ـ تهويش أطبّاء، هٰذا مدى علمي، هل عندها ضغط أو زلال أو سكّر؟

ـ كلّا. . .

ـ إذن فهي لا شيء، وقد قالوا لنا عند مولد ابنتي عزيزة إنّه لا بدّ من جراحة! لماذا؟ الحكاية أنّ الولادة طالت أكثر من المتوقّع فاستعانت الحكيمة بدكتور فنصح بنقلها إلى المستشفى لإجراء جراحة عاجلة، وقبل أن يبتعد مترًا عن بيتنا جاء الفرج!

تابعه بنظرة مغيظة وهو يطحن الفول السودانيّ بتلذّذ عجيب، وإذا به يقول مسترسلًا في ذكرياته:

ـ الولادة العسيرة حقًّا كانت ولادة سوسن ابنة أختي!

نظر صقر إلى الأرض ليخفي كربه فواصل الآخر حديثه:

ـ كانت ضعيفة القلب، وأجمعوا على إجراء جراحة، واستكتبوا زوجها إقرارًا بالموافقة، وشقّوا بطن البنت. . .

ـ شقّوا البطن؟!

فضحك جميل قائلًا:

ـ هي الآن بفضل الله كمفتّشات الرياضة البدنيّة!.

وخيّل إليه أنّه سيدخل في حديث ولادة أخرى فقام إلى التليفون وسأل عن الحال فجاءه الجواب بأنّها نائمة في هدوء تامّ. وعاد إلى مجلسه كارهًا فقال له جميل:

ـ يجب أن تعود إلى المسرح، أنا لا أحبّ السينما، وإن شئت فاعمل في الاثنين ولٰكن لا تنقطع للسينما!

فتمتم بفتور:

ـ أنا هجرت المسرح منذ أكثر من عشرين سنة!

ـ ولو!، هٰذا رأي الأستاذ سمير عبد العليم أيضًا، وعلى فكرة قابلته قبل مجيئي إلى القهوة مباشرة وكان يسأل عنك، والظاهر أنّه اتّصل بك في المنزل حينما كنت في المستشفى. . .

ـ ماذا يريد؟. . . ألم يقل لك؟

ـ أبدًا، مطالبه لا تنتهي كما تعلم ولٰكنّه ظريف وابن حلال. . .

استقلّ سيّارته إلى مجلّة «كلام الناس» حيث وجد صديقه الناقد سمير عبد العليم يكاد أن يختفي وراء الأوراق المكدّسة فوق مكتبه. تعانقا وسمير يقول:

ـ بحثت عنك في كلّ مكان، أين كنت؟

فجلس وهو يقول مرحّبًا بالفرصة التي واتته لإعلان أحزانه:

ـ كنت في المستشفى، راضية في حالة ولادة!

هنّأه بصوت خطابيّ وهو ينكبّ على الأوراق باحثًا عن شيء هامّ فيما بدا، فقال صقر:

ـ ولادة خطيرة يُخشى ألّا تتمّ إلّا بجراحة!

والظاهر أنّ سمير لم يسمعه لشدّة انهماكه في البحث غير أنّه قال بمرح:

ـ نحن نطالب بوليّ عهد للمسرح الكوميديّ!

فرفع صقر صوته قائلًا:

ـ ولادة خطيرة يُخشى ألّا تتمّ إلّا بجراحة!

انتبه سمير إليه وقد كفّ عن البحث لحظة فأعاد صقر على مسمعه أقوال الطبيب فقال الناقد:

ـ ربّنا يكتب لها السلامة، الطبّ تقدّم وانقضى عهد الجراحات الخطيرة. . . .

ثمّ انهمك في البحث مرّة أخرى وهو يقول:

ـ أنا نفسي جئت إلى هٰذه الدنيا بجراحة، وفي زمان كان الطبّ فيه كالطبّ عند قدماء المصريّين، يا سلام على الفنّانين وأعصابهم المرهفة.

وندّت عنه آهة ارتياح لعثوره على الأوراق التي كان يجدّ في البحث عنها، وأخذ يرتّبها بعناية وهو يقول

بنبرة جديدة دلّت على أنّه نسي الحديث الأوّل تمامًا:

ـ اتّفقت مع صوت العرب على برنامج جديد أسبوعيّ باسم «أهل الفنّ» واخترت أن أبدأ بك...

ـ لُكن يقولون إنّ جراحة الولادة خطيرة يا سمير؟

ـ لا شيء خطير ألبتّة، وستضحك غدًا من قلقك هٰذا بملء فيك، المهمّ أنّ هٰذا البرنامج يقتضي تسجيل مناظر من مسرحيّاتك القديمة، الأفلام أمرها سهل ويمكن تسجيلها في أيّ وقت أو طبع نسخ جديدة من الفصول التي يُتّفق عليها، ولٰكنّ المسرحيّات كيف نسجّلها، كيف نجمع الممثّلين القدامى؟، ومَن يحلّ محلّ الذي مات منهم؟.. هٰذه المشكلات ومثيلاتها تشغلني طيلة الوقت...

أوشك أن يغضب ولٰكنّه استسخف نفسه فانزوى في وحدة حالكة.

ـ ما رأيك في هٰذا النظام؟ سأبدأ بمقدّمة عنك ألقيها بنفسي، يعقب ذٰلك حوار بيني وبينك أنا أسأل وأنت تجيب، يتخلّل ذٰلك مناظر من المسرحيّات ومواقف من الأفلام، ثمّ جلسة عائليّة في بيتك، ولٰكن آه.. راضية ستكون متوعّكة ربّنا يشفيها؟!

ـ آمين، ماذا تعرف عن جراحة الولادة؟

ـ كلّ خير، لا تصدّق الأطبّاء، الصعوبة الحقيقيّة في تسجيل المسرحيّات القديمة، اتّصلت بكثيرين من الممثّلين، ولٰكن هل لديك أصول المسرحيّات؟!

ولـمّا لم ينبس قال سمير:

ـ أنت لست معي!

ـ معك، عندي الأصول، عن إذنك التليفون..

وكرّر السؤال عنها فتلقّى نفس الجواب، وأعاد السمّاعة مغمغمًا «يا ربّ». وقال سمير:

ـ تعال لمقابلتي في الإذاعة مساء الأحد...

ـ ربّنا يطمئنّي أوّلًا....

ـ إن شاء الله، لا تكون خوّافًا هٰكذا، ألا ترى أنّك تذكّرني بدور الباشكاتب الذي تفوّقت فيه على نفسك!

عاد إلى قهوة الشمس فوجد أنّ مجلس الزملاء قد انعقد كشأنه ظهر كلّ يوم. وصمّم على ألّا يعلن شكواه لأحد فجاراهم في أحاديثهم بقلب غائب واشترك أحيانًا في قهقهاتهم التي ترجّ القهوة في تلك الساعة من النهار. وعند الواحدة قاموا ليتناولوا الغداء في المقطّم، دعوه للذهاب معهم فاعتذر فمضوا إلّا واحدًا هو حيدر الدرمللي، وهو زميل قديم عمل في مسرحه ملقّنًا ويشتغل اليوم مدير إنتاج في شركة سينمائيّة. ولم يدرِ بالسبب الذي جعل حيدر يتخلّف عنهم حتّى قال هٰذا بقلق:

ـ ظهرت نتيجة تحليل الدم وهي ليست على ما يرام!

تذكّر أنّه شكا إليه مرضًا ألمّ به منذ عشرين يومًا في أحد الاستديوهات فقال له معتذرًا:

ـ آه نسيت أن أسأل عن صحّتك بسبب زياط إخواننا وتهريجهم، آسف يا حيدر، أنا شخصيًّا في كرب عظيم!

واضطرّ حيدر إلى تأجيل الكلام عن تحليل الدم إلى حين وسأله:

ـ لِمَ والعياذ بالله؟

فحدّثه عن حال زوجته حتّى قال حيدر:

ـ أسأل الله لها السلامة، ولعلّ الولادة تتمّ دون جراحة، ولٰكن خبّرني ماذا تعلم عن زيادة كريات الدم البيضاء؟

ـ لا أدري، وعلى أيّ حال فالطبّ تقدّم جدًّا، فوق ما نتصوّر، ولٰكن... ولٰكن أنا المسئول!

ـ أنت؟!

ـ نعم، كان يجب أن أحتاط فلا أسمح بالحمل مهما تكن الظروف...

هزّ حيدر رأسه في امتعاض وهو يتكلّف الاهتمام بكلام الآخر تكلّفًا ولٰكنّه لم ينبس بكلمة فقال صقر:

ـ ولـمّا وقع المحذور كان عليّ أن أجهضها بأيّ ثمن، وهاك نتيجة الإهمال...

فتبسّم حيدر وهو يجول في المكان بنظرة ذاهلة:

ـ دنيا!، يعني أنا كان مالي ومال الكريات البيضاء!

ـ على رأيك! وهل تدري ماذا تعني جراحة الولادة؟ شقّ البطن!

ـ ربّنا لطيف بالعباد، وهل تدري أنت أنّ مرضي يجهله أطبّاؤنا ويقفون حياله حيارى؟

ـ لا تتشاءم، ربّنا لطيف بالعباد كما تقـول، وإلّا فمَنْ لأمٍّ تتعذّب هٰذا العذاب وهي تهب الدنيا مولودًا جديدًا؟!

وأجهدهما الكلام فيما بدا فلاذا بالصمت، واندفن كلٌّ في ذاته فاجترّ أحزانه وحده. ونظر صقر في الساعة ثمّ طلب القهوة الرابعـة مذ غـادر المستشفى وأشعل السيجـارة العاشرة. وتسـاءل عمّا يخبّئـه لـه اليـوم!. وتجنّب صاحبه كما تجنّبه صاحبه فقام بينهما سدّ. وقال صقر وكأنّما يخاطب نفسه:

ـ إنّي أعجب كيف أنّي أكـرّس حيـاتي لإضحـاك الآخرين!

فتساءل حيدر بنبرة باردة:

ـ ألا يدفعون ثمن ذٰلك بسخاء؟

ولم يناقشه رغم ما بدا له من إمكان ذٰلك. وعاد ينظر في الساعة ويتساءل عمّا يخبّئه له اليوم.

وأغمض عينيه فشعـر بشيء من الـراحـة ولٰكنّ ضوضاء الطريق ضايقته كما لم تضايقه من قبل فودّ لو يغرق كلّ شيء في الصمت. . .

بَيْتٌ سَيِّءُ السُّمْعَة

كـان منهمكًا في عمله عنـدما استـأذنت سيّدة في مقابلته، وجلست وهي تقول:

ـ صباح الخير يا أستاذ أحمد. . .

سيّدة واضحة الكهولة، مقعّرة الخدّين من ذبول، بارزة الفم، تعكس عيناها نظرة متعبة، وتضفي عليها ملابس الحداد تجهّمًا وكآبـة. وسرعان مـا أدرك من مـطلع حـديثهـا أنّها قصـدتـه بـأمـل أن يسهّـل لهـا الإجراءات الخاصّة بمعاشها. وهمّ بتحويلها إلى مدير المعاشات مشفوعة بتوصية غير أنّ لمحة في نظرة عينيها المتعبتين استرعت انتباهه. خيّل إليه أنّها ترمقه بنظرة خاصّة تراوح بين الارتباك والخجل. ما سرّ ذٰلك يـا ترى؟ هل تعرفه؟ وفي الحال ومضت في ذاكرته ومضة أضاءت غياهب الماضي فهتف في ذهول:

ـ حضرتك. . .؟

قالت وهي تغضّ بصرها في حياء وتأثّر:

ـ نعم، ومن حسن الحظّ أنّي عرفت أنّ حضرتك مراقب عامّ المستخدمين!

ولم يكن تذكّر اسمها، ولٰكن وثب إلى ذهنه اسم التدليل الذي عُرفت به: «ميمي». إنّ منظرهـا أكبر من عمـرها. وعمـرها لا يمكن أن يجـاوز الخمسين. ولعلّه من الذوق أن يختلق سببًا لعدم معرفتها بالسرعة التي ـ لا شكّ ـ توقّعتها. قال:

ـ كنت مشغولًا جدًّا فنظرت إليكِ بعينين غائبتين فلم أعرفك. . .

فابتسمت عن طاقم نضيد وقالت:

ـ أنـا تغيّرت أيضًـا، الضغط ربّنا يكفيـك شرّه، والحياة أنهكت أعصابي، لي بنتان متزوّجتان، وثالثة في بعثـة، وعندمـا وصلنا إلى برّ الأمان تـوفّي المـرحـوم زوجي. . .

وتبادلا السؤال عن الأسرتين فتردّد ذكر مَن تزوّج ومَن مـات ومَن يقيم في القـاهـرة ومَن انتقـل إلى الأقاليم، وكان في أثناء ذٰلك يحاول أن يستحضر صورة ميمي القديمة بصعوبة لا تكاد تقهر فاحتجّ مرّات على قسـوة العبث. وأخـيرًا كتب لهـا تـوصيـة إلى مـديـر المعاشات وانتهت المقابلة.

عاد إلى مجلسه ـ بعد أن أوصلها إلى البـاب ـ وهو يعيش في حلم. ويبحث في ضباب الحلم عن عام. أيّ عام يا ترى؟. ١٩٢٥. عام مليء بالأحداث التاريخيّة ولٰكنّ ميمي كـانت أهمّ من تلك الأحداث جميعًـا، ميمي وبيتها العجيب، ومنشيّة البكري القديمة الراقدة في صحراء البنديرة، شارع الملواني، والبيوت الصغيرة ذات الدور أو الاثنين تصطفّ على جانبيه، ومن أعالي الأبواب الخارجيّة تتدلّى مصابيح للإضاءة ليـلًا. كلّ بيت ينطوي على نفسه كالسرّ. النساء عورة، والحبّ حرام، والزواج إجراء من اختصاص الرجال، والعروس آخر مَن يعلم. غير أنّ بيت آل حلاوة خرق العقل والمعقول وقام وحده ككلمـة متحدّيـة. عُرف بالبيت السيّئ السمعة وأحيط بسياج من الرهبة. ومجرّد جريانه على لسان صبيّ أو بنت كان جريرة يستحقّ من أجلها الزجـر. وضُربت حولـه المقاطعـة كأنّـه وباء.

وحتى اليوم لا يُذكر إلّا مصحوبًا بسوء الظنّ وبذلك تحدّد في التاريخ. آه... كيف كان ذلك؟!

كانت ربّة البيت ـ وهي زوج لموظّف كبير ـ امرأة متبرّجة. تتبدّى في الطريق في كامل زينتها عارضة حسنًا رائقًا رغم بلوغها الخمسين، وهي السنّ التي انتهت عندها ميمي. وكانت أوّل امرأة في الحيّ ترى سافرة فلا برقع أبيض ولا أسود. وقد تصطحب معها بناتها الأربع فتمضي بهنّ سافرات كذلك، آخذات زينتهنّ، وهو ما لم يُسمح به لبنت قبل خطبتها. وكنّ يذهبن مرّة في الأسبوع ـ مع الزوج أو دونه ـ إلى سينما كوزموجراف، وقد يسهرن في مسرح من المسارح فلا يرجعن قبل الواحدة صباحًا. أيّ امرأة وأيّ رجل وأيّ بنات! والأدهى من ذلك كلّه أنّه كان للأسرة يوم زيارة تستقبل فيه بعض الأسر بكامل هيئتها فيختلط الجنسان بلا حرج. وكان شبّان الحيّ يسيرون جماعات تحت حجرة الاستقبال المتلألئة بالأنوار، يصغون إلى الضحكات المتصاعدة، وعزف البيان، والغناء، وكلّما ظهر في النافذة طربوش تبادلوا الغمزات والنكات وذهبوا في التأويل كلّ مذهب وتخيّلوا أعجب المواقف. لذلك كلّه لم يكن غريبًا أن يُذكر بيت حلاوة مقرونًا بلفظة «دعارة» دون مناقشة. وكانت الأسرة على علم بآراء الجيران ومشاعرهم ولكنّها لم تكترث لذلك أدنى اكتراث، وترفّعت الهانم عن الجميع وسارت في طريقها شامخة الأنف كأنّها من سلالة غير سلالة الحيّ جميعه.

وكانت ميمي تُرى كثيرًا في الطريق أو في دكّان الحلوى. تُرى وحيدة وكانت صغرى البنات وفي الخامسة عشرة وكانت جميلة كأخواتها وأمّها وإن لم يعد يذكر من آي ملاحتها إلّا شعرها الأسود المتجمّع في ضفيرتين ريّانتين وعينين خضراوين وغمّازة في الذقن. وكان يسترق إليها نظرات دهشة متسائلة مليئة بحبّ الاستطلاع، ولم تخل أوّل الأمر من ازدراء وسخرية ثمّ حلّ محلّها إعجاب وافتتان فكان يقول لنفسه محزونًا: «يا للخسارة». وشُغف بها وكان يكبرها بعام أو اثنين، واحتفظ بسرّه لنفسه قطعًا للألسنة، وكان البعض يغازلها طمعًا فيها باعتبارها صيدًا سهلًا ولكنّه لم يكن عرف الاستغلال قلبه. وذات مساء وهبته نظرة على غير انتظار. كانا واقفين بدكّان الحلوى فوهبته نظرة غير قصيرة أثملته فترنّح بعيدًا عن تيّار الزمان وأفعمت قلبه بهجة ظافرة. فاض قلبه بسعادة مشرقة اقتلعت منه الوساوس فلم يعد يشترك في الأحاديث البهيميّة عن البيت السيّئ السمعة. وآمن بأنّ شعور قلبه الأصيل أخطر من جميع ما يقال. وفي ليالي رمضان راح يلاعبها من بعيد بكبريت الهوا فيشعله في الطريق فتشعله بدورها في النافذة. وتواعدا على اللقاء عند صحراء البنديرة. ووجد نفسه عند اللقاء مرتبكًا حقًّا ولكنّها بادلته التحيّة دون تلعثم وبشجاعة ردّت إليه روحه الضائعة. وقالت:

ـ أنت في البدلة أرشق ممّا تظهر في الجلباب وأنا أحبّ الرشاقة!

وكلّ كلمة جادت بها كانت كشفًا جديدًا وجرأة مذهلة. وكانا صغيرين جدًّا بالقياس إلى خلفيّة الصحراء المترامية وراءهما ورغم ذلك قال في حذر:

ـ قد يرانا أحد!

فتساءلت:

ـ مثل مَن؟!

ـ من الأهل أو الجيران.

فهزّت منكبيها استهانة وهواء الصيف المنعش يهفو بضفيرتيها ثمّ سألته:

ـ ما رأيك في حديقة الحيوان؟

وامتنع عن تقبيلها تأدّبًا رغم سنوح الفرص. وأعطته رقم التليفون ليتّفقا في الوقت المناسب ولعلّه ما يزال مسجّلًا في دفتر المذكّرات القديم. وسألته:

ـ هل نذهب إلى الحديقة معًا؟

فقال برجاء:

ـ نلتقي هناك ونفترق هناك!

وتلاقيا عند باب الحديقة وكان يوم سعيد. سارا من ممشى إلى ممشى بيدين مشتبكتين. واستمدّ من مسّها تيّارًا من الحرارة والبهجة والرضى وسألها كأنّما ليطمئنّ عليها:

ـ ماذا قلت لماما؟

فأجابت ببساطة:

ـ قلت إنّي ذاهبة إلى حديقة الحيوان!

فتساءل أحمد ذاهلًا:

ـ وحدك؟

فهزّت رأسها نفيًا وقالت بالبساطة نفسها:

ـ معك...

فضحك معلنًا عدم تصديقه ولـمّا وجدها جادّة جدًّا سألها:

ـ وهل وافقت؟

ـ نعم! ولكن دون حماس...

لم يدرِ كيف يصدّق هٰذا كلّه أمّا هي فاستطردت:

ـ قالت لي ابتعدي عن هٰذا الولد، إنّه كالآخرين، وأهله كبقيّة الجيران...

وشعر بأنّه مطارد. ووقف طرفه الحائر عند رأس نعامة سارحة في الفضاء من فوق الحاجز الحديديّ.

ثمّ قال بقلق:

ـ إذن هي تعلم أنّنا هنا معًا..!

ـ وراهنتني على أنّك ستخيّب رجائي...

ـ كيف؟

ـ مَن أدراني؟

بل هي تدري ولٰكنّها تظاهرت بالاهتمام بالقرود، ثمّ وقفت فوق قنطرة تتأمّل الماء المسقوف بأوراق الشجر، واقترحت أن يَعْدُوا حتّى الجبلاية ولٰكنّه شدّ على يدها قائلًا:

ـ خبّريني!

فنظرت في عينيه بجرأة وقالت:

ـ أنت لا تصدّق أنّها تعرف أنّنا هنا معًا ولٰكنّك تعلم بزواج أخيك الأكبر من ثلاث في وقت واحد!

فاحمرّ وجهه وقال:

ـ هو حرّ...

ـ لا تغضب من فضلك، فغضبك يؤكّد ظنّها، هل عرفت الآن ما سألت عنه؟

وداخله حزن. الواقع فاق ما تخيّله، إنّها من عالمين بعيدين. ورغم ذٰلك ازداد بها هيامًا.

ثمّ تساءل بصوت منخفض:

ـ وكيف وافقت على هٰذا اللقاء؟

ـ لِمَ لا؟ هو عيب؟!

ولم ينبس فسألته بسخرية خفيفة:

ـ ولِمَ وافقت عليه أنت؟

فلم ينبس أيضًا فسألته:

ـ أيجب أن نفترق؟!

فاستعطفها بحرارة لتعود إلى الرضى وقال معتذرًا:

ـ لا تغضبي، أنا أخطئ كثيرًا وعذري أنّي أقابل بنتًا لأوّل مرّة!

فرمقته بتوجّس وتساءلت:

ـ وماذا تظنّ بي أنا؟

فبادرها تجنّبًا للمضاعفات:

ـ كلّ خير، أنا...، أنا أحبّك يا ميمي...

وابتسمت. ومضت به إلى أريكة تمتدّ أمامها هضبة معشوشبة تناثرت في جنباتها مجموعات من البشر فجلسا جنبًا إلى جنب صامتين، حتّى قطعت الصمت قائلة:

ـ حدّثني عن مستقبلك...

وتحدّث عن مستقبل مشرق من خلال كلّيّة الحقوق وإن يكن أوشك أن يختم حياته مراقبًا للمستخدمين لا مستشارًا في النقض كما حلم. فقالت:

ـ هٰذا جميل حقًّا، ولٰكن ماذا عنّي أنا؟

ووجد نفسه في القفص كالحيوانات التي تحيط به من كلّ جانب فقال في اقتضاب شديد حدّدته الرهبة:

ـ الزواج...

فابتسمت وهي تحوّل وجهها عنه مادّة بصرها إلى قمّة الهضبة الخضراء وقد غابت عن مسمعه ضجّة الأصوات الآدميّة والحيوانيّة. ثمّ قالت وهي ما تزال تنظر إلى بعيد:

ـ ولٰكنّ أمامنا أعوامًا طويلة!... كيف...؟

فقال وهو يتلمّس متنفّسًا:

ـ لا بدّ من الانتظار حتّى أنتهي من الدراسة...

ـ سأنتظر بكلّ سرور، ولٰكنّي في حاجة إلى شيء يبرّر انتظاري أمام الآخرين، أيّ شيء، ارتباط من أيّ نوع؟!

تخيّل طلبه الارتباط بينت من البيت السيّئ السمعة بتعاسة ورعب، وانعقد لسانه فلم ينطق...

ـ ماذا قلت؟

ـ من العسير حقًّا أن أطلب ذٰلك الآن...

ـ ألا تُقْدِم على هٰذه الخطوة من أجلي؟

فتنهّد بصوت مسموع وهو يشعر بأنّه جرى مرحلة طويلة من التاريخ دون توقّف، فقالت بحدّة:

ـ أنت لا تريد، ليس عندك الشجاعة الكافية، أبيتنا مخيف إلى هٰذه الدرجة؟

ـ لا.. الأمر وما فيه...

ـ لا تكذب، أنا أعرف كلّ شيء، وماما لم تخطئ، وشارعنا كلّه سخافة في سخافة، ونحن أشرف من الجميع، يجب أن تعرف ذٰلك...

فهتف متألّمًا:

ـ إنّك تسيئين بي الظنّ، أنا في حاجة..، أرجو أن تقدّري موقفي، أعطيني...

ـ لا داعي لهٰذا الارتباك كلّه، لتنسَ كلّ ما قيل، كلّه سخيف من أوّله إلى آخره...

ـ لٰكنّني أحبّك، ليكن الأمر سرًّا بيننا حتّى...

ـ نحن لا نحبّ السرّ!

ـ حتّى أقف على قدميّ!؟

ـ لن تقف على قدميك أبدًا...

ثمّ وهي تكاد تمزّق منديلها الصغير من الانفعال:

ـ أعوذ بالله! أنا لا أحترم أحدًا في شارعنا!.. بلا استثناء... بلا استثناء...

هٰكذا انفصلا إلى الأبد.

وكان يستقبل سيل الذكريات وهو ينظر إلى الكرسيّ الذي طالعته منه بوجه لم يحفظ من ماضيه إلّا أضعف الأثر. أرملة أضناها التعب والحداد ولٰكنّها معتزّة بانتصارات حقيقيّة. وحوّمت حوله الذكريات كأسراب من البنفسج. تذكّر كيف تزوّجت بنات البيت السيّئ السمعة واحدة بعد أخرى رغم ما سُمع مرارًا وتكرارًا بأنّهنّ بنات لم يخلقن للزواج ولن يسعى إلى الزواج منهنّ أحد. وكلّما جاءه نبأ عن توفيقهنّ في زواجهنّ ذهل واختلّت موازينه...!

ومضى إلى بيته بعد ميعاد انتهاء العمل الرسميّ فتغدّى ونام ليستعدّ لسهرة في الأوبرا دُعي إليها هو وزوجته وبناته الثلاث. وكان الداعي زميلًا لكبرى بناته الموظّفة في إدارة الترجمة بالوزارة وقد قَبِلَ الدعوة رغم أنّ الداعي لم يرتبط بكريمته بأيّ ارتباط بعد! وعند المساء خلا إلى نفسه في حجرة مكتبه على حين نشطت الزوجة والبنات للاستعداد لسهرة الباليه المنتظرة، عمّا قليل يتبدّين في صورة كاملة من الزينة والأناقة ثمّ يتقدّمنه تحت الأضواء والأنظار ترمقهنّ بإعجاب! ولم يكن غريبًا أن يستخرج دفتر مذكّراته القديم من الدرج الخاصّ بالأوراق الثمينة كعقد ملكيّة الأرض وبوليصة التأمين. وكان اعتاد على عهد المراهقة ـ وهو عهد كان يحلم فيه بعرش الزجل! ـ أن يسجّل أحداثه العاطفيّة والاجتماعيّة يومًا بعد يوم. وفرّ صفحاته ليرجع إلى عام ١٩٢٥ وما حواليه حتّى رقم التليفون وجده. وبدافع لم يعرف كنهه امتدّت يده إلى قرص التليفون فأدارت الرقم القديم. وجاءه صوت:

ـ آلو!

فسأله وهو يبتسم في عبث:

ـ بيت حلاوة؟

فأجاب الصوت بخشونة:

ـ لا يا سيّدي.. هنا محلّ الطمبلي لبيع الخيش...

القَهوَة الخَـالِيَة

قال محمّد الرشيدي بنبرة أرعشها الحزن والانفعال:

ـ إلى رحمة الله الرحيم، إلى جوار ربّكِ الكريم يا زاهية يا رفيقة عمري، إلى رحمة الله.

وانتحب باكيًا وهو ينحني فوق الجثّة المسجّاة على الفراش، معتمدًا بيمناه على الوسادة من شدّة الإعياء، حتّى رحمته الخادم العجوز فربّتت على يده برقّة ثمّ أخذته منها إلى حجرة الجلوس فأسلم نفسه إلى مقعد كبير وهو يتنهّد بصوت مسموع. ومدّ ساقيه وهو يتأوّه ثمّ غمغم:

ـ أنا الآن وحدي، بلا رفيق، لم تركتِني يا زاهية؟ وبعد عِشْرة أربعين عامًا! لِمَ سبقتني يا زاهية؟

وعزّته الخادم بعبارات محفوظة غير أنّ منظر شيخ في التسعين وهو يبكي منظر محزن حقًّا، وقد التمعت

أخاديد خدّيه وحفر أنفه بالدموع، فغادرت الخادم الحجرة وهي تجهش في البكاء. وأغمض عينيه اللتين لم يبق في أشفارهما إلّا آحاد من الرموش وراح يقول:

ـ منذ أربعين عامًا تزوّجتك وأنت في العشرين، ربّيتك على يديّ، وكنّا سعداء جدًّا برغم فارق العمر، وكنت خير رفيق، يا طيّبة يا إنسانة، فإلى رحمة الله. . .

وكان ذا صحّة جيّدة إذا قيس بعمره، طويلًا نحيلًا، واختفى أديم وجهه تمامًا تحت التجاعيد والأخاديد، وبرزت عظامه وتحدّدت كأنّها جمجمة، وفي عينيه غارت نظرة تحت غشاوة باهتة لا تنعكس عليها مرئيّات هذا العالم. وأمّ الجنازة خلق كثيرون لم يكن فيهم واحد من أصحابه أو معارفه. جاءوا يعزّون ابنه أو إكرامًا لزوج ابنته الموظّف بإحدى السفارات في الخارج أمّا هو فلم يبق من أصحابه على قيد الحياة أحد. وجعل يستقبل الوجوه التي لا يعرفها ويتساءل أين رعيل المربّين الأوّل، أين الساسة الحقيقيّون على عهد مصطفى وفريد؟!

وعندما انفضّ المأتم حوالى منتصف الليل سأله ابنه صابر:

ـ ماذا نويت أن تفعل يا أبي؟

وقالت له زوجة ابنه:

ـ ولا يجوز أن تبقى هنا وحدك. . .

أدرك الشيخ ما يقصدان فتشكّى قائلًا:

ـ كانت زاهية كلّ شيء لي، كانت عقلي ويدي. . .

فقال صابر:

ـ بيتي هو بيتك، وستحلّ بحلولك بنا البركة، وستجيء خادمتك مباركة لخدمتك.

أجل لا يمكن أن يقيم في هذا المسكن وحده. ورغم ما يبدي ابنه وزوجته من شعور طيّب فهو يؤمن بأنّه ـ بانتقاله ـ سيفقد الكثير من حرّيّته وسيادته ولكن ما الحيلة؟! وكان في شبابه ورجولته وكهولته شخصًا صلبًا، وما زال يحتفظ بوقاره ومهابته، وكم خرّج من أجيال من المربّين والشخصيّات الفذّة، ولكن ما الحيلة؟! وبطرف واجم شهد الرجل تصفية مسكنه. رأى أركانه وهي تتقوّض كما رأى احتضار زوجته من قبل فلم يُبقوا إلّا على ملابسه وفراشه وصوان كتبه التي لم يعد يمدّ لها يدًا وبعض التحف وصور لأعضاء الأسرة ولبعض الرجال كمصطفى كامل ومحمّد فريد والمويلحي وحافظ إبراهيم وعبد الحيّ حلمي. وغادر بيته إلى مصر الجديدة في سيّارة ابنه، وهنالك أعدّت حجرة لنومه وتأهّبت مباركة العجوز لخدمته. وقال له ابنه:

ـ نحن جميعًا رهن إشارتك. . .

وابتسمت منيرة زوجة صابر ابتسامة ترحاب. روح طيّبة حقًّا ولكنّه لا بيت له، ذلك كان الشعور الذي اجتاحه. وجلس على مقعده الكبير يبادلها النظرات فيما يشبه الحياء. وقال لنفسه لعلّه لو كانت سميرة ابنته في مصر لوجد في بيتها أنسًا ألصق بالقلب. وظهر توتو عند عتبة الباب. ردّد عينيه بين أبويه ثمّ جرى حتّى لبد بين ساقي والده. ونظر إلى جدّه بتأمّل فابتسم الشيخ قائلًا:

ـ أهلًا توتو. . . تعال. . .

ونادرًا ما كان توتو يزور جدّه مع والده. وأحبّه الشيخ كثيرًا ولم يقتصد في مداعبته كلّما وسعه ذلك ولكنّ توتو كان حادًّا في مداعباته، فهو يحبّ الوثب على مَن يداعبه ويهدّد عينيه وأنفه بأظافره فسرعان ما تجنّبه الشيخ بلطف مؤثرًا أن يحبّه من بعيد. وأشار توتو إلى طربوش جدّه الطويل وقال:

ـ رأسك!

يعني أن يخلع طربوشه ليرى صلعته البرتقاليّة المستطيلة المنحدرة التي جذبت انتباهه وتساؤله من أوّل نظرة، ولـمّا لم تتحقّق رغبته راح يشير إلى أخاديد الوجه وحفر الأنف وتتابعت أسئلته رغم محاولات والده لإسكاته. وقال الشيخ لنفسه إنّ الطفل العزيز لن يعتقه من المتاعب وإنّه سيحتاج إلى حماية ولكن أين زاهية؟ وساعته ومِنَشّته وسجائره كيف يحفظها من عبثه؟ وحاول توتو أن يذهب إلى جدّه ليحقّق رغائبه بنفسه ولكنّ والده أمسك به ودعا خادمته فحملته إلى الخارج وهو يصرخ محتجًّا. وقال صابر:

ـ إنّي أفرغ من عملي مساءً ثمّ أذهب إلى النادي أنا ومنيرة فهل تأتي معنا؟

فقال الشيخ:

ـ لا تشغل نفسك بي ودع الأمور تجري على طبيعتها...

وذهب صابر ومنيرة فرحّب بالوحدة ليستجمّ. ولٰكنّ الوحدة ثقلت عليه بأسرع ممّا تصوّر. وألقى نظرة غير مكترثة على الحجرة ثمّ طوّقته الوحشة. متى يعتاد المكان الجديد ومتى يعتاد الحياة بلا زاهية؟ أربعون عامًا لم تخلُ يومًا من زاهية. منذ زُفّت إليه في الحلميّة ورقصت أمامها الصرّافيّة. والبيت بفضل يدها ينعم بنظام ونظافة وعبير بخور زكيّ. وما قيمة رمضان والأعياد بدونها؟ وخلت الجنازة من أجيال وأجيال من تلاميذه فهل لم يعد يذكره أحد؟!

ولم يكن كذٰلك حال الأصدقاء الذين ذهبوا. ولٰكنّهم ذهبوا وكأنّما يراهم فردًا فردًا كيوم احتشدت بهم جنازة مصطفى كامل. ورغم أنّه لم يعرف الأمراض الخطيرة قطّ فقد امتُحنت المسكينة بالدنج والتيفود والأنفلونزا وأخيرًا ماتت بالقلب، وتركته متعلّقًا بالحياة كما كان دائمًا. وقام إلى نافذة فرأى منها بستانًا كبيرًا يتوسّط مربّعًا من العمارات مكان الجامع الكبير الذي كان يطالعه من نافذة حجرته بالمنيرة. ولفحته نسمة هواء جافّة دافئة. وعجب للصمت المريح ولٰكنّه أكّد له وحدته. ويوم احتلّ الإنجليز القاهرة ظفر بجواد ضالّ ولٰكنّ والده خشي العاقبة فضربه ومضى بالجواد ليلًا إلى الخليج ثمّ أطلقه وكانت المدينة ترتجف من الخوف والحزن. ورجع إلى مجلسه فرأى عند أسفل المقعد قطّة صغيرة بيضاء ناصعة البياض غزيرة الشعر وفي جبينها خصلة سوداء فآنس في نظرة عينيها الرماديّتين استعدادًا للتفاهم. وزاهية طالما عطفت على القطط. وارتاح إلى نظرتها ثمّ تابعها وهي تدور حول رِجْل المقعد وربّت على ظهرها فتمسّحت بقدمه وعند ذاك ابتسم. ومسح على ظهرها فاستجابت لراحته وخفق ظهرها صعودًا وهبوطًا فبشّر ذٰلك بمودّة. وابتسم مرّة أخرى عن أنياب بانت أصولها الطحلبيّة وشملت القطّة حركة متموّجة من المرح. وتزحزح قليلًا إلى اليسار ليوسع لها مكانًا ولٰكنّ صوت توتو المتهدّج بالجري ارتفع وهو يقتحم الحجرة صائحًا:

ـ قطّتي...

فقال الشيخ مسلّمًا:

ـ ها هي قطّتك...

وسأله متودّدًا عن اسمها فقال بحدّة:

ـ نرجس.

وقبض بشدّة على قفاها ثمّ جرى بها خارجًا والشيخ يهتف به مستعطفًا:

ـ حاسب... حاسب...

وإذا به قد ذهل! عجب ماذا حصل؟ وتبيّن أنّ شيئًا أصاب جبينه. وقطّب مستاءً فارتفعت ضحكة توتو عند الباب وهو يلتقط الكرة الصغيرة المرتدّة. وتحسّس الشيخ النظّارة ليطمئنّ عليها ثمّ نادى مباركة فجاءت بسرعة وحملت الطفل مبتعدة به قبل أن يعيد رمي الكرة. وقال الشيخ:

ـ هٰذا الطفل العزيز مزعج وقاسٍ، مَن للقطّة المسكينة!

منذ خمس سنوات فقدت سميرة ابنته طفلًا في سنّ توتو فعزّاها باكيًا وهو يقول:

ـ كان الأجدر أن أموت أنا...

وخيّل إليه وهو في المأتم أنّ الأعين ترمق شيخوخته بدهشة مستحضرة التناقض الصارخ بين بقائه هو وذهاب حفيده في الثالثة. وليلتها قال لزاهية ممتعضًا:

ـ طول العمر لعنة...

ولٰكن ما أرقّها إذ قالت له «كلّنا فداك... أنت الخير والبركة».

وعند الأصيل عاد صابر من عمله فقال لأبيه:

ـ ما دمت لا تريد أن تذهب معنا إلى النادي فاختر مقهى في مصر الجديدة، مقاهي مدينتنا جميلة وقريبة من البيت...

قد يكون هٰذا هو المعقول ولٰكنّه يحبّ قهوة متاتيا. إنّها مجلسه المختار طيلة دهر طويل. ومضى إلى محطّة الأوتوبيس، وهو يسير إذا سار وئيدًا ولٰكن بقامة مرتفعة ويستعمل العصا ولٰكنّه لا يتوكّأ عليها، وكثيرون هم الذين يتطلّعون إليه في دهشة مقرونة بإعجاب. واتّخذ مجلسه بالقهوة تحت البواكي وهو يقول لنفسه فيما يشبه المداعبة: «ما بال القهوة خالية!». ولم

تكن القهوة خالية. ولا كان بها من الترابيزات الخالية إلّا عـدد محـدود. ولكنّهـا خلت من الأصحـاب والمعارف. ومن عادته أن يرنو إلى الكراسي التي حملت قديمًا الأعـزّاء الراحلين فيتخيّـل وجوههم وحـركاتهم والمناقشات حول أخبار المقطّم، ومباريات النرد الحامية والسياسة. قضى الله أن يشيّعهم واحدًا بعد آخر وأن يبكيهم جميعًا. وجاء زمن لم يجد فيه من رفيق سوى واحد هو عليّ باشا مهران. وهٰذا الكرسيّ كان مجلسه. يجلس عليه قصيرًا نحيلًا مكوّمًا فوق عصـاه وحافـة طربوشه تماسّ حـاجبيه الأشيبين النافـرين، ويرمقـه بنظرة هشّة شبه دامعة من نظّارة كحليّة ثمّ يتساءل:

ـ مَن منّا يا ترى سيسبق صاحبه؟

ثمّ يغرق في الضحك، وكانت يداه قد استوطنتهما رعشة الكبر رغم أنّه كان يصغره بعامين. ولـمّا مات في الخامسة والثمانين حزن عليه طويلًا، ومن بعده خلت الدنيا وخلت القهوة. وها هي العتبـة الخضراء تدور كعادتها أمام عينيه الكليلتـين ولٰكنّها ميـدان جديـد. ومتاتيا نفسها لم يبق من أصلها إلّا الموضع، ولٰكن أين صـاحبها الـروميّ الودود، وأين النـدل ذو الشوارب البلقانيّة؟ والكراسي المتينة البنيان والترابيزات الرخاميّة الناصعة والمرايا المصقولة والبوفيه العـامر بـالمشروبات والنراجيل أين؟ وفي ليلة شمّ النسيم من عام ١٩٣٠ أحيل إلى المعاش. وسهر ليلتها في مسرح الأزبكيّة هو ومجموعة من الأصدقاء حيث جلجل صوت الطرب، أمّا النهار فقد قضوه في القناطر الخيريّة محتفلين بوداعه وألقى الشيخ إبراهيم زناتي قصيدة. وليلتها شرب من الكونياك حتّى ثمـل وهو يـطرب للصوت المنشـد «يا عشرة الماضي الجميل» ولّما نام آخـر الليل حلم بـأنّه يلعب في الجنّة. ودعا له إبراهيم زنـاتي مفتّش اللغة العربيّة بمائة عام من العمر المديد في قصيدته. والدعوة يبدو أنّها ستُستجاب. ولٰكنّ القهوة خاليـة. والشيخ زناتي نفسه رحل وهو مـا يزال في الخـدمة. واقـترب النادل منه ليأخذ الصينيّة ولٰكنّه تراجع كالمعتذر فذكّره بفنجال القهوة المنسيّ الذي لم يمسّه.

وعندما رجع إلى البيت وجده راقدًا في السكون، وصاحبه لم يعد من النادي. ووجد عشاءه من الزبادى على خوان. وغيّر ملابسه في بطء وجهد ودون معاونة أحد. وجلس لتناول العشاء فتذكّر نرجس. لو تشاركه القطّة الصغيرة عشاءه؟! ما ألطف أن يوثّق علاقته بها فهي ستكون أنيسَه الحقيقيّ في هٰذا البيت المشغول بنفسه. لعلّها في موضع ما بالصالة. ومال نحو الباب قليـلًا وهتـف: «بس... بس». وقـام فمضى إلى الخارج وصاح: «نرجس، بس... بس...» فجاءه النواء من وراء الباب التالي لحجرته حيث ينام تـوتو وخادمته. وتفكّر قليلًا ثمّ اقـترب من الباب ففتحـه برفق فمرقت منه نرجس رافعة ذيلها الدسم كالعلم.

ارتاح الشيخ فعاد نحو حجرته وهي تتبعـه ولٰكنّ صرخة توتو دوّت غاضبة. وقال الشيخ لنفسه باسمًا إنّ الصغير لم يكن استغرق في النوم. وجاء تـوتو جـريًا فانقضّ على القطّة ثمّ قبض على قفاها بشدّة. وربّت جدّه على رأسه قائلًا برقّة:

ـ خفّف يدك يا توتو...

ولٰكنّ الآخر ضاعف ضغطه حتّى خيّل إلى الشيخ أنّ نرجس ستختنق فقال برجاء:

ـ اذهب أنت وسأحملها إلى فراشك...

ولٰكنّ توتو لم يسمع له فمال الشيخ نحوه وخلّصها من يده وهو يقول:

ـ سأطعمها ثمّ أعيدها إليك...

اندفع توتو غاضبًا ثمّ دفع جدّه في ركبته. ترنّـح الشيخ، ثمّ تراجع خطوة مضطربة، ثمّ تهـاوى فكاد يسقط على الأرض لولا أن تلقّاه الجدار، والقـطّة لم تزل فوق ساعده. ولبث في هٰذا الوضـع المائـل، لم يستطع أن يقيم نفسه، ودار رأسه قليلًا، وضغط على الأرض بقدمه وعلى الجدار بكتفه لينهض ولٰكنّه عجز، وزحفت القطّة فوق ساعده حتّى استقرّت على كتفـه المرتفع، ورغم دوار رأسه الخفيف أدرك مدى الخطر الذي يتهدّد عظامه بالكسر. وصاح بما تبقّى لديه من قوّة «يا مباركة». وكان توتو يصرخ وينذر توثّبه بهجمة جديدة. ويئس الشيخ من إنقاذ نفسه. ازداد خورًا ولم يستطع تكرير النداء. وتحفّز توتـو للوثوب إلى مـلاذ القطّة فاندفع بكلّ قوّتـه ولٰكنّ يد خـادمته أحـاطت بوسطه وقد اندفعت من الحجرة بعينين ذاهلتين من أثر

النوم. ثمّ جاءت مباركة أخيرًا بعد أن أيقظها الزياط فجرت نحو سيّدها مستعيذة بالله. واحتضنته من خلف وأقامته برفق وهو يتأوّه حتّى وقف كالتمثال دون حراك على حين وثبت نرجس إلى الأرض وفرّت إلى حجرته. وبصعوبة شديدة رجع الشيخ إلى مقعده الكبير معتمدًا على ذراع مباركة. ومضت فترة وهو صامت والمرأة لا تكفّ عن السؤال عن صحّته. وأشار لها بيده يطمئنها، ثمّ أسند رأسه إلى ظهر الكرسيّ ومدّ ساقيه متنهّدًا. وأغمض عينيه ليستجمّ.

وفي الحال تذكّر حفلة تأبين راسخة في الروح. رجع من المنصّة بعد أن ألقى كلمة طيّبة ثمّ جلس إلى جانب صديقه، ومال الصديق نحوه وسكب في أذنه ثناء جميلًا. لكن من كان ذلك الصديق؟. آه... إنّه واثق من أنّه سيتذكّره، وكم أنّه مذهل أنّه نسيه. قال كلمة لا يمكن أن تنسى كذلك. سوف يتذكّرها حتمًا. ودوّى التصفيق والهتاف، وارتفع نواء القطط، وبكت كلّ عين حتّى الأطفال ترامى صراخها. ومال الصديق نحوه مرّة أخرى وقال. وتأكّد من أنّه سيظفر بالذكريات جميعًا.

وسرعان ما استغرق في النوم...

كلمة في السرّ

فؤاد أبو كبير موظّف قديم أوشك أن يستوفي مدّة خدمته، وهو مَثَل حسَن للموظّف، مثال في اتّزانه فهو محترم حقًّا، ودءوب على العمل فهو حمار شغل، ولم تزايله هذه الصفة يومًا منذ التحق بالخدمة بالكفاءة وهو ابن عشرين. وقد انطبع بالروتين حتّى تغلغل في روحه وسرى في سلوكه حتّى السلوك غير الرسميّ فهو يرجع إلى بيته كلّ يوم حوالى الثالثة، يتغدّى وينام حتّى الخامسة، ثمّ يمضي إلى القهوة حوالى السادسة فيدخّن النارجيلة ويتكلّم في الكادر والسياسة، ثمّ يلعب النرد، وأخيرًا يعود إلى بيته عند الحادية عشرة فيتعشّى عشاء خفيفًا ويصلّي ثمّ ينام.

وهو زوج منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، وزوجه التي تزوّجها عن قرابة وحبّ تقاربه في السنّ، وقد أنجب منها خمس بنات وولدًا واحدًا تخرّج منذ أعوام طبيبًا، والجميع متمتّعون بنعمة الحياة الزوجيّة الموفّقة.

ولتوفيقه في الوظيفة إذ حاز رضى الرؤساء وبلغ الدرجة الثالثة الإداريّة، فضلًا عن توفيقه في الذرّيّة، كان يخاف العين، ويتّقي شرّها بالدعاء والصلاة، ولكنّه كان بصفة عامّة رجلًا سعيدًا، وحتّى ما أصابه من ضغط لم يستطع أن يفسد عليه حياته وإن فرض عليه مضايقات في العلاج وحرمانًا من بعض الأطعمة الشهيّة.

وذات يوم شعر بنشاط غريب طارئ. نشاط غريب كأيّام زمان. ربّاه... نشاط غريب انقطع العهد به من سنين، كأيّام زمان تمامًا، فما الذي حدث؟! وابتسم الرجل وهو يهزّ رأسه، ابتسم عن طاقم نضيد وهزّ رأسًا أبيضَ ناصعًا، وعابثه النشاط في أويقات متفرّقة وبخاصّة عند اليقظة الباكرة، وإذن فهي وثبة حقيقيّة لا وهم، وابتسم الرجل وأوشك أن يضحك عاليًا. ولم تستطع خبرته الحكوميّة أن تمدّه برأي في المسألة، وقال لنفسه إنّ هذا أمر غير معقول، وغير مصدّق، ألم ينقض العمر؟!

ونتيجة لذلك وجد نفسه تتابع الموظّفات باهتمام لم يُؤثر عنها من قبل. نظرة جديدة غير نظرة الأبوّة السابقة، وكأنّه كان يراهنّ لأوّل مرّة، وخلال أسبوع رأى فيهنّ ما لم يرَ طيلة عام أو أعوام، وبمجرّد مرور إحداهنّ في مجال بصره أصبح كافيًا لقلقلة حواسّه وزلزلة قلبه فراح يقول لنفسه في ذهول: «اللّهمّ لطفك ورحمتك، ماذا جرى؟!».

وخطر له وهو متربّع على الكنبة قبل النوم أن يتناول زوجته بنظرة. كانت الوليّة تستمع إلى الراديو بغير اهتمام، وجسمها مدفون في جلباب بيتيّ فضفاض، ومنديل رأسها معقود بإهمال سمح لخصلات بيضاء مشعّثة أن تبرز فوق الحاجب والأذن بصورة تستحقّ الرثاء، وفي عينيها استكنّت نظرة خاملة لا تنشد إلّا السلامة، ووشى شدقاها بالفراغ، إلى أنّ الآلام الروماتزميّة المتقطّعة قد طبعت على وجهها علامات ثابتة كالذعر. رمقها بيأس ثمّ رفع عينيه إلى صورة

تذكاريّة من شهر العسل، صورة نصفيّة لهما ملوّنة، تمثّلهما جنبًا إلى جنب في احتشام محبّب لا كعرسان هٰذه الأيّام، آه... فوزيّة كانت جميلة حقًّا، وكم كان هو بدينًا فخمًا! وقال لها دون تمهيد وبلهجة لم تخلُ من احتجاج:

ـ قلت لك مائة مرّة ركّبي طاقم أسنان!

وضحت في عينيها دهشة تنبئ بالحقيقة التي لا يجهلها وهي أنّه لم يطلب منها ذٰلك ولا مرّة واحدة، وغمغمت والدهشة لم تفارقها:

ـ طاقم أسنان!

وحقيقة أخرى لا يجهلها أيضًا وهي أنّ الأيّام قصرت علاقتهما على الزمالة والصداقة منذ بضع سنين فكيف يمكن لهٰذا الوضع أن يتغيّر فجأة؟! وكانت تجلس على نفس الكنبة على بعد ذراع منه، وفيما بين أويقات الاستماع إلى الراديو تتلو آية الكرسيّ بصوت خافت وبعض السور القصار التي تقيم بها صلواتها الخمس. ولفّه إحساس بالغربة ولٰكنّ قلقه الطارئ العجيب كان أقوى من الغربة فقال:

ـ قلت ذٰلك مائة مرّة! ومالك تهملين نفسك إلى هٰذه الدرجة!

فأوقفت التلاوة لتقول له:

ـ أمرك عجيب...

يا له من موقف! لعنة الله على المرض. وعلى الجنون. لٰكنّك تسبّ الجنون بلسانك فقط. هٰذا واضح. يا لها من مهزلة. ومدّ ذراعه على مسند الكنبة إلى ما وراء ظهرها، ثمّ ربّت على قفاها ضاحكًا فهزّت رأسها متمتمة:

ـ أمرك عجيب...

فهمس بعد جهد غير يسير:

ـ كأيّام زمان!

فانكمشت المرأة، تزحزحت حتّى طرف الكنبة وهي تغمغم:

ـ يا عيب الشوم!

ولـمّا رآها مقوّسة على خجلها أدرك مدى سخفه. وواصل اكتشافاته في الوزارة والطريق والقهوة حتّى احترقت عيناه. وارتدّت الأعوام الماضية بحرارتها الاستوائيّة. وهام على وجهه في مظانّ الهوى في الحدائق وحفلات السينما الصباحيّة وراح يقول لنفسه: «ما أعجب هٰذا... وما أبهجه». وشعر بأنّه مطارَد وأنّه يوشك أن يُضبط متلبّسًا، وأنّه لا يستطيع أن ينسى عمرًا كاملًا من الوقار والاستقامة وحسن السمعة. ولٰكنّه لم يتوقّف، بل ولم يعد يقنع بالمغامرات النظريّة. وذكر أبناءه وأحفاده، وتوهّم أيّ فضيحة كان يرعش أطرافه ويثلجها. وهل يمكن أن تعالج الأمور بالصبر؟ وما جدوى الصبر وهو من صلب فلّاح تزوّج في الحلقة السابعة! وما جدواه وهو يشمّ أريج الحبّ في كلّ مكان! وما عسى أن يفعل؟ وبعد تردّد ثقيل فاتح أحد أقرانه في القهوة بمتاعبه ولٰكن ماذا كانت النتيجة؟ ضحك الرجل وقال:

ـ الظاهر أنّك بحكم العمر انقلبت للإيمان بالخرافات.

فقال بحدّة:

ـ ولٰكنّ ما أخبرتك به حقيقة لا شكّ فيها!

فرفع الرجل يديه بالدعاء قائلًا:

ـ اللّهمّ بارك في عقل فؤاد أبو كبير!

كلّا لا فائدة ترجى من هٰؤلاء الفانين! وعاد يتساءل عمّا عسى أن يفعل؟ ستّ آمنة. وثب الاسم من الظلمات كالشهاب. ستّ آمنة جارته القديمة بروض الفرج قبل أن ينتقل بأسرته إلى المسكن الحاليّ بالسيّدة. وهي صاحبة الشقّة التحتانيّة، أرملة، وقد حاولت كثيرًا أن تصادق زوجته ولٰكنّ فوزيّة لم تستخفّ ظلّها. ولعلّها في الأربعين أو فوق ذٰلك بقليل، ولا تخلو من وسامة، أمّا تأنّقها المبالغ فيه فيقطع بحبّها الحياة! وفي عهد الجوار سنحت بينهما وقائع ولٰكنّه حسمها باستقامته فوئدت ولم يعلم بها أحد. كانت تحيّيه عند خروجه إذا تصادف وجودها في النافذة وما أكثر المصادفات. وأكثر من مرّة وهو راجع كان يراها من خلال الباب المفتوح وهي تخطر في قميص بيتيّ! ورغم ارتياحه الباطنيّ الذي كان باعثه الزهو لا الرغبة فإنّه لم يشجّعها قطّ زاهدًا ومشفقًا في الوقت نفسه من فضيحة تهزّ مكانته المرموقة في أسرته وفي العمارة. ومرّة تعرّضت له أمام شقّتها فحيّته ثمّ قالت:

ـ تسمح دقيقة واحدة يا فؤاد أفندي؟

وارتبك الرجل بشكل واضح فقالت:

ـ لديّ مشكلة أودّ أن أعرضها عليك!

وقع في لخمة دلّت على ذهوله ثمّ قال بجهد:

ـ تفضّلي بزيارتنا وستجدينني تحت أمرك.

ومن وقتها تجاهلته تجاهلًا كاملًا وكان ذٰلك قبيل انتقاله إلى السيّدة الذي مضى عليه ما يقارب العام. اليوم تدور أفكاره حول ستّ آمنة، ويستعيد ذكرياتها بحرارة بلغت حدّ الهوس. انصهرت تلك الأفكار والذكريات في رأسه وهو ماضٍ إلى روض الفرج. أجل بلغ مسكنه القديم في الوقت الذي كان يُنتظر فيه أن يكون في القهوة. وضغط على جرس الباب وقلبه يغوص في الأعماق. وكم ذهلت ستّ آمنة عندما رأته أمامها كآخر شيء كانت تتوقّعه...

ـ فؤاد أفندي!

حرّك رأسه بالإيجاب دون أن ينبس.

ـ خير إن شاء الله!

ثمّ تنحّت عن الباب وهي تدعوه إلى الدخول. وجد نفسه في حجرة استقبال صغيرة معبقة بعبير ورد في زهريّة على قائم معدنيّ طويل في الركن. وغابت عنه وقتًا ثمّ عادت آخذة زينتها ملتفّة في روب أبيض يذكّر بفستان العرس. ولم تقتصد في إعلان اهتمامها بالزيارة مردّدة «خير إن شاء الله» فطار من دماغه جميع ما أعدّه من قول، ولٰكنّه شعر بأنّه مطالَب بتفسير حضوره فقال:

ـ كنت مارًّا من هنا فقلت يجب أن أزور ستّ آمنة!

ابتسمت المرأة وهي تتمتم «خطوة عزيزة» ثمّ وهي تضحك:

ـ ولٰكنّك لم تكن تحبّ زيارتنا...؟!

فاحمرّ وجهه وقال كالمعتذر:

ـ الواقع أنّ الظروف...

وتوقّف لا يدري ماذا يقول. ثمّ ابتسم ابتسامة دلّت على أنّه يستردّ توازنه وقال:

ـ قلت مرّة إنّ لديك مشكلة...

فضحكت المرأة ضحكة عالية. وتبادلا نظرات باسمة فواتته شجاعة عظيمة فنهض ليجلس إلى جانبها على كنبة واحدة. ومدّ يده إلى يدها ولٰكنّها سحبتها برقّة وهي تقول:

ـ الظاهر أنّك لم تفهمني على حقيقتي يا فؤاد أفندي...

لهجة جادّة صدمت قلبه فانكمش. وعادت تقول:

ـ لست كما تتصوّر، أنت قلت لنفسك آمنة أرملة، وقد دعتني مرّة إلى شقّتها، لا بدّ أن تكون...

وهتف بحماس يغطّي به فتوره وفشله:

ـ معاذ الله... معاذ الله...

فحدجته بنظرة جريئة وسألته:

ـ إذن ماذا تريد؟

آه... لم يتوقّع هٰذا. خاب سعيك حقًّا؟

ـ يجب أن تعلم أنّني امرأة شريفة، وتصرّف بعد ذٰلك كما يحلو لك!

رجع وهو يقول لنفسه إنّ الأمر ليس بالبساطة التي حلم بها. ومع ذٰلك فقد شدّت على يده وهي تودّعه وأعربت له عن مشاعر طيّبة جدًّا. وقالت إنّها تنتظر زيارة أخرى بل وثالثة ورابعة! واضح جدًّا ما تريد. وحنّ بكلّ قواه إلى عبير الورد ثمّ اعترف بأنّه فقد عقله. ووجد فوزيّة تعاني أزمة من أزمات مرضها فتضاعف همّه. وتذكّر الأبناء والأحفاد فتكدّر لحدّ المرارة. وتوكّد لديه أنّه لن يستطيع مواصلة الحياة في هٰذه الدوّامة.

وفي خلال شهر من الزيارة الغريبة تزوّج فؤاد أبو كبير من ستّ آمنة في تكتّم تامّ.

ولم يستطع بعد ذٰلك أن يواجه أسرته بالحقيقة فكتب إلى ابنه الدكتور خطابًا مسهبًا أشبه بالاعتراف، مؤكّدًا فيه أنّه لن يتخلّى عن واجباته نحو أمّه. وأقام في مسكن آمنة في بيته القديم. وتوقّع أن يتّصل به ابنه أو إحدى بناته ولٰكنّ شيئًا من هٰذا لم يحدث حتّى خيّل إليه أنّه انتقل إلى عالم آخر، وجعل يتخيّل وقع المفاجأة في أسرته بذهول، ولٰكنّه طرح كلّ شيء جانبًا وسلّم نفسه للحبّ.

وبعد مرور ستّة أشهر كتب فؤاد أبو كبير خطابًا آخر إلى ابنه الدكتور. أخبره فيه بأنّه مريض ودعاه إلى مقابلته. وهال الدكتور أن يجد أباه طريح الفراش،

هيكلًا عظميًا مكسوًّا بجلد ذابل، ونظرة الموت تطلّ من محجريه. هاله المنظر حقًّا فبهت، ولـمّا رآه أبوه اغرورقت عيناه فانكبّ الشابّ على يده المعروقة التي ضرب لونها إلى السواد يقبّلها ويبكي. وجلست آمنة صامتة طيلة العناق والبكاء ثمّ قالت:

ـ زاره ثلاثة أطبّاء!

ولٰكنّ الرجل قال:

ـ أريد أن أرقد هناك...

فقالت المرأة وهي تحوّل وجهها جانبًا:

ـ علم الله أنّي لم أقصّر في خدمته ولٰكنّ المهمّ هو راحته فإذا شاء ذهب...

عاد فؤاد أبو كبير إلى فراشه القديم هيكلًا عظميًّا مكسوًّا بجلد ذابل ونظرة الموت تطلّ من محجريه. وأحاطت به أسرته ولٰكنّه استغرق في النوم أكثر الوقت. وفي لحظات اليقظة كان ينقّل بينهم عينيه صامتًا أو ينادي اسمًا بلسان ثقيل وصوت شخص آخر. ولم يتحسّن ولٰكنّه دخل طورًا جديدًا يتّسم بالغرابة. ومرّة فتح عينيه وكان ابنه جالسًا بجوار الفراش وحده فتساءل باهتمام:

ـ ماذا حدث؟

فسأله الشابّ عن حاله فتأوّه قائلًا:

ـ الظاهر أنّي ضعيف جدًّا... ولٰكنّي لا أدري...

فسأله بقلق:

ـ لا تدري ماذا؟

ـ ماذا؟! نعم ماذا؟ ولٰكن لِمَ؟ هٰذه هي النقطة...

وساد الصمت مليًّا ثمّ استدرك قائلًا:

ـ لذٰلك لا أستطيع أن أقطع برأي، شقيّ أم سعيد؟!

وأشار إليه كأنّما سيفضي إليه بسرّ لا يريد أن يطّلع عليه أحد فقرّب الشابّ وجهه منه فقال:

ـ عرفت كلّ شيء، كلّ شيء، حتّى الهدف الحقيقيّ...

ثمّ بدرجة أدنى من الانخفاض:

ـ ورغم التصميم على عدم النسيان نسيت، حقائق مذهلة ولٰكن ما هي؟!

وألحّ ابنه عليه أن يستريح ولٰكنّه عاد يقول:

ـ حقائق هائلة مذهلة، ولٰكنّها ضاعت جميعًا...

وأغمض عينيه إعياء ثمّ غمغم:

ـ كم أودّ أن أتذكّر ولو قليلًا كي أموت مطمئنًّا...!

الخوف

في تلك الفترة من أوائل القرن كان أهل الفرغانة أتعس الأحياء. كانت عطفتهم تقع بين حارة دعبس من ناحية وحارة الحلوجي من ناحية أخرى، وكانت الحارتان متنافستين متعاديتين لا يهدأ بينهما نزاع، وقد عُرف سكّانهما بالشراسة والغلظة والعدوان، وتسليتهم الأولى كانت العبث بالقوانين والناس.

وعلى عهد جعران فتوّة الحلوجي والأعور فتوّة دعبس اشتدّت بين الحارتين العداوة وسالت الدماء وتعدّد نشوب المعارك في الطرقات والجبل.

وتساءل أهل الفرغانة في جزع وما ذنبنا ونحن لا من دعبس ولا من الحلوجي؟! ذٰلك أنّه ما إن تنشب معركة في أيّ مكان حتّى يعصف بهم الذعر فيتوارى كلٌّ بما يملك أو بنفسه وراء الأبواب، ولم يكن من النادر أن يشتبك الخصمان فوق أرض الفرغانة نفسها، وهناك ينعق غراب الخراب فتنقلب العربات وتتحطّم السلاسل وينفجر الصوات ويصاب الأبرياء بلا حساب حتّى أمست الحياة في العطفة شرًّا لا يطاق وفاقت خسائرهم أصحاب النزاع أنفسهم وكره الحياة منهم حتّى السعداء. ويومًا استغاثوا برجال الدين فبذل هٰؤلاء أطيب ما عندهم من مسعى حتّى اتّفق العدوّان على تجنيب الفرغانة ويلات معاركهم. وكان يوم عظيم أرّخت به الفرغانة لطمأنينتها، ولٰكن أيّة طمأنينة؟... لقد كلّفتهم ما يطيقون وما لا يطيقون من حسن السلوك وطيب المجاملة والحرص على الحياد في المعاملة حتّى ضاعت في ذٰلك أموال وابتذلت كرامات. وكلّما فاض بهم الهمّ فأوشكوا على التمرّد ذكروا الزمان الأوّل بمآسيه فازدردوا الألم صابرين، ولٰكنّهم رغم ذٰلك كلّه نعموا بفترة سلام نسبيّ لم يعرفوها من قبل.

حتّى نزلت إلى الحارة نعيمة بنت عمّ الليثي بيّاع الكبدة.

فعندما ضعف بصر العجوز حتّى لم يعد يفرّق بين النكلة والملّيم اصطحب معه نعيمة لتعاونه في عمله. نزلت إلى العطفة وهي في مطلع سنّ الزواج. وتصدّت للمعاملة في جلباب غطّاها من العنق إلى الكعبين ولكنّه وشى بقوام معتدل ونمّت التصاقاته العفويّة بأجزاء الجسد عن بضاضة، إلى امتياز الوجه باستدارة ريّانة في لون الدوم الرائق، وعينين لوزيّتين في لون الشهد المصفّى تعبث في نظرتها حيويّة شباب مستجيبة في سذاجة للإعجاب. ورمقتها عيون الشباب باهتمام، وانجذبوا إلى فرن الكبدة القائمة فوق عربة اليد كما ينجذب الذباب إلى السكّر. وما لبث أن قرأ عمّ الليثي العجوز الفاتحة مع شابّ بيّاع بطاطة يدعى الحملي. وانتظر الناس الأفراح ولكنّهم عندما اجتمعوا مساء يوم بقهوة التوتة - وقد سُمّيت كذلك لوقوعها تحت أفرع شجرة توت - قرءوا الكدر واضحًا في وجه الرجل الذابل. وسأله صاحب القهوة:

- ما لك يا ليثي كفى الله الشرّ؟

فأجاب العجوز متنهّدًا:

- المنحوس يجد العظم في الكبدة!

تطلّعت إليه الرءوس من فوق الجوز وأقداح القرفة والشاي فقال باقتضاب ذي معنى:

- نعيمة...!

- ما لها؟... حصل من الحملي عيب؟

فهزّ الرجل رأسه المعمّم بلاسة منقّطة وقال:

- لا دخل للحملي في همّي ولكن قابلني الأعور فتوّة دعبس بلطف غريب ثمّ قال لي إنّه يطلب القرب في نعيمة!

تجلّى الاهتمام في الأعين مشوبًا بانزعاج ثمّ سأله سائق كارو:

- وماذا قلت له؟

- ارتبكت... وبكلّ صعوبة قلت إنّ فاتحتها مقروءة مع الحملي فصاح: الأعور يجيئك بنفسه تقول له الحملي؟! الحقيقة أنا انذعرت...

- ثمّ؟!

فامتلأت غضون وجهه بالقرف وهو يقول:

- مددت يديّ وأنا لا أدري وقرأت معه الفاتحة!

- وفاتحة الحملي؟

- قابلته، واعترفت له بوكستي فحزن الولد الطيّب ولكنّه لم يتكلّم ثمّ ذهب...

تبادلوا النظرات في صمت ارتفعت في رحابه قرقرة الجوز فقرّر صاحب القهوة أن يخفّف عن العجوز الألم فقال بأريحيّة:

- لا لوم عليك، أيّ واحد منّا في مكانك يتصرّف كما تصرّفت، صَلِّ على الهادي وهوّن عليك!

فضرب العجوز حجره بقبضته هاتفًا:

- ولكنّ المصيبة لم تقف عند هذا الحدّ!

فتساءل صاحب القهوة ذاهلًا:

- وهل يوجد ما هو شرّ من ذلك؟!

- بعد فاتحة الأعور بساعتين وجدت جعران فتوّة الحلوجي أمامي!

- يا ساتر يا ربّ، وماذا أراد؟

- نعيمة أيضًا!

وضرب صاحب القهوة كفًّا بكفّ ثمّ رفع رأسه إلى سقف القهوة يخاطب السماء فقال العجوز:

- اعترض سبيلي كالقضاء والقدر، لم أدرِ ماذا أقول ولا كيف أتصرّف، ثمّ اضطررت أن أعترف له بفاتحة الأعور!

- يا أرض احفظي ما عليك...

- قال لي يا مخرّف... يا أعمى... أقول لك جعران تقول لي الأعور؟! الحقيقة أنا انذعرت... ومددت يديّ وأنا لا أدري وقرأت الفاتحة!

- وفاتحة الأعور؟

فقال العجوز في انهيار تامّ:

- هذه هي المصيبة فأغيثوني...

وسرعان ما أدركوا أنّ المصيبة إنّما هي مصيبة الفرغانة وأنّ الخراب عاد يهدّد عطفتهم. وبحثوا جميعًا عن حلّ حتّى قال مقرئ أعمى:

- لا يمكن أن تتزوّج من الاثنين فهذا محال، ولا يمكن أن تتزوّج من واحد دون الآخر فهذا هو الموت...

ثمّ خلع العمامة وحكّ رأسه طويلًا دون أن يوفّق إلى اقتراح حلّ فقال بيّاع الترمس.

- فلنتزوّج سرًّا من الحملي...

فقال كثيرون في وقت واحد:

- ولا أبو زيد الهلالي نفسه يمكن أن يتزوّجها الآن...

ولـمّا أجهد التفكير رءوسهم عبثًا قال المقرئ:

- ادعوا معي: يا كريم الألطاف نجّنا ممّا نخاف...

وانتبه الناس في الصباح على حركة غريبة في وكالة مهجورة بالعطفة... رأوا جماعة من البنّائين والنجّارين والعمّال يعملون بهمّة في الوكالة ليعدّوها لحياة جديدة. وثبتت فوق المدخل لافتة كبيرة بعنوان «نقطة الفرغانة». وجاء عساكر وضابط فشغلوا المكان الجديد، وتجمهر الناس أمام النقطة فقال لهم عسكريّ عجوز:

- الحكمداريّة غضبانة... ولا بدّ أن تنتهي الفتونة!

وقال البعض إنّ الله قد استجاب لدعائهم ولٰكنّ الطمأنينة لم تدخل قلوبهم. كلّ ما أحاط بهم أقنعهم بأنّ الفتونة أقوى من الحكومة. لم يروا طوال حياتهم شرطيًّا يتحدّى فتوّة على حين أنّ الفتوّات يتحدّون القانون في كلّ ساعة من نهار أو من ليل. ولم ينس أحد كيف أنّ مأمور قسم الظاهر استعان يومًا بجعران فتوّة الحلوجي على تاجر مخدّرات يونانيّ متمتّع بالحماية الفرنسيّة عندما علم المأمور بأنّ اليونانيّ يهدّده بالقتل. كيف يتأتّى بعد ذٰلك لهٰذه النقطة البوليسيّة الصغيرة أن تقضي على الفتونة؟!

وخرج الضابط الشابّ بنجمتيه المذهّبتين وشريطه الأحمر وجلس على كرسيّ خيزران جنب مدخل النقطة ثمّ أرسل شرطيًّا إلى قهوة التوتة ليأتي له بنارجيلة. كان في الخامسة والعشرين. رشيق القوام غليظ القسمات، ليس فيه ما يلفت النظر سوى رأس كبير مفلفل الشعر كأنّه كتلة صوّانيّة مصفّحة. نظر إلى المتجمهرين وقال ببساطة غريبة:

- محسوبكم عثمان الجلالي... لا تخافوا... الحكومة معكم...

فتودّدوا إليه بابتسامة بلهاء ولم ينبس أحد بكلمة فعاد يقول وهو يتناول خرطوم النارجيلة:

- عيب أن يعيش الرجال كالنسوان، لا تمكّنوا أحدًا منكم...

ولـمّا لم يجد بادرة تشجيع واحدة قال بشيء من الحدّة دلّ على نفاد صبره:

- ومن يتستّر على مجرم سأعامله كمجرم...

ورمشت أعينهم في ارتباك ثمّ تفرّقوا تباعًا، كلّ يلوذ بالسلامة. وتجوّل الضابط في الحيّ مستطلعًا يتبعه بعض العساكر. طاف بدعبس كما طاف بالحلوجي. وطوّقته الأبصار حيثما ذهب، من النوافذ والمقاهي والأركان ارتطمت به نظرات التوجّس والسخرية والحنق. ومرّ بالأعوَر فتجاهله، ومرّ بجعران فتجاهله ثمّ أطلق ضحكة مجلجلة. ولبث عثمان هادئًا طيلة الوقت...

وأدرك الجميع أنّه يستعرض هيبة الحكومة فعزم جعران على أن يدهمه بالردّ الحاسم. وعند أصيل اليوم نفسه نشب عراك دامٍ بين الحلوجي ودعبس في خلاء الدراسة انتشرت أنباؤه كاللهب في وكالة خشب. وارتعد قلب الليثي الضعيف وسابت مفاصل الفرغانة. ونصح كثيرون الأب بأن يزوّج ابنته من جعران فهو الأقوى على أيّ حال، وخراب أهون من خراب.

وفي صباح اليوم التالي ظهر الضابط في الحارة مرتديًا جلبابًا كسائر أهل العطفة! لم يصدّق الناس أعينهم أوّل الأمر ولٰكنّ هويّته تأكّدت بصوته المعروف حين ارتفع قائلًا:

- من كان يخشى البدلة فقد خلعتها والآن فليأتِ إليّ الفتوّات إن كانوا حقًّا رجالًا!

وابتعد عن النقطة وحده دون أن يسمح لعسكريّ واحد بأن يتبعه ولٰكن تبعه الذاهلون من الرجال والنساء والصبية ومضى إلى الحلوجي بثبات لم يُعرف عن أحد قبله حتّى وقف أمام قهوة بندق حيث يوجد جعران بين صحبه وتابعيه. وقال عثمان بهدوء ولٰكن بوجه تتطاير من عبوسته النذر:

ـ أمس تحدّيتم الحكومة، ها أنا بينكم وحدي أطالب بنصيبي من التحدّي فالجدع منكم يتقدّم؟

ورقص شابّ يدعى عنبة ببطنه في وقاحة مزرية وهو على بعد أذرع من الضابط فمال هٰذا نحوه بغتة ولكمه في بطنه لكمة شديدة سقط على أثرها بلا حراك. وذهل الجميع لجرأة لم يتوقّعها أحد على حين تراجع المتفرّجون عن منطقة الزلازل. واستقرّت الأبصار على جعران وهو متربّع على أريكة متلفّعًا بعباءته. ولأوّل مرّة نظر جعران في وجه الضابط عثمان، ثمّ قال:

ـ أنت غدرت بصاحب لي بلا سبب...

فصاح عثمان:

ـ استحقّ التأديب فأدّبته وسيأتي دورك في الحال...

قال جعران بوجه مشوّه بالندوب:

ـ أنت شباب... اذهب من أجل خاطر أهلك...!

فصاح عثمان:

ـ قم إن كنت رجلًا وتقدّم...

ولم يتحرّك جعران استهزاء فاقترب عثمان منه خطوات وسرعان ما تكتّل الأعوان حول رجلهم وأمامه فقال الضابط ساخرًا:

ـ أرأيت أنّك تختبئ وراء جدار من الأنذال؟

وهتف جعران في رجاله:

ـ ابعدوا...

فتفرّقوا بسرعة كالحمام في أعقاب طلقة. ووثب جعران إلى الأرض وكان ربعة مدمج الجسد غليظ الرقبة، ثمّ تساءل:

ـ أين عساكركم؟

فقال الضابط بحنق:

ـ سأضربكم بالطريقة التي تضربون بها الناس...

وبمفاجأة صاعقة لطم جعران لطمة مهينة فصرخ هٰذا من الغضب وانقضّ عليه فاشتبكا في صراع مميت. تلك كانت لحظة مذهلة لم تنسها الحارة حتّى اليوم. كالصراع الذي يُروى عن الفيل والنمر. وكانت فاصلة في تاريخها كلّه فتغيّر مجراه إلى الأبد. وقرأ كلّ فتوّة من أعوان جعران بل ومن رجال الأعور مصيره فيها.

وأراد جعران بكلّ وحشيّة في دمه أن يعصر عثمان بين ذراعيه الحديديّتين ولٰكنّ الضابط اعتمد على خفّة الحركة واللكمات وهو فنّ لم يعرفه جعران أبدًا. وأصابت اللكمات فكّي عدوّه وصدره وبطنه وأنفه المعوجّ فصرخ في جنون الغضب:

ـ ملعون الجحيم إن لم أشرب من دمك!

وصاح الرجال الذين منعتهم تقاليدهم من الاشتراك في المعركة:

ـ الموت... الموت... يا معلّم.

وارتفع الصياح والصراخ والصوات. وتجمهر الحيّ كلّه تحت القبو الفاصل بين الحلوجي والفرغانة. ووقفت نعيمة ترتجف من الانفعال، قابضة على يد أبيها بعصبيّة، وهي تصف له ما يقع ممّا عجزت عيناه الكليلتان عن رؤيته.

ودار رأس جعران بالضربات المنهالة فبطؤت حركته وتراخت ذراعاه وشخصت عيناه إلى الغيب، وهتفت نعيمة بفرح:

ـ وقع الوحش على ركبتيه...

أجل قد وقع. ثمّ سجد حتّى انغرز رأسه في التراب فتقوّس كالدبّ، ثمّ تهاوى على جنبه... وارتفعت عشرات النبابيت فهتف عثمان وهو من التعب في نهاية:

ـ يا نسوان!

فتراجعوا خجلين وبعضهم يصيح في وجهه:

ـ قريبًا سيقرءون على روحك الفاتحة...!

وجعل الضابط يتجوّل في الأحياء بجلبابه البلديّ وأسطورته الغريبة تفرش له الرمل حيث ذهب. وكلّما صادف فتوّة كبيرًا أو صغيرًا اعترض سبيله وطالبه بأن يقول على مسمع من الناس «أنا مره» فإن تردّد انقضّ عليه وسوّى به الأرض. وفي كلّ يوم كانت له معارك يخوضها متحدّيًا ويخرج منها منتصرًا. ولم تمض أشهر قلائل حتّى رحل الفتوّات عن دعبس والحلوجي فلم يبق إلّا الشيوخ والنساء والصغار أو مَن غضّ الطرف وتبرّأ من الفتونة. وشعر الضعفاء بأنّهم يولدون من

جديد، ورمقوا الضابط بعين الإكبار والمحبّة.

ومرض عمّ الليثي وفقد بصره تمامًا فقعد في فراشه، وسرحت نعيمة بعربة الكبدة وحدها. وازدادت مع الأيّام ملاحة ونضجًا إلى ما كسبت من صيت لتنافس جعران والأعور عليها في الماضي القريب. وبين لحظة وأخرى انتظرت العطفة أن تزفّ إلى عريس مناسب. وإذا بصبيّ القهوة «حندس» يهمس ذات ليلة للساهرين:

- أرأيتم كيف ينظر الضابط إلى نعيمة؟

ولم يكن أحد لاحظ شيئًا فعاد يقول:

- إنّه يأكلها بعينيه...

ومضى كلّ يتابع نعيمة من زاويته، انتبهوا إلى أنّها تعسكر بعربتها عند الجدار المقابل للنقطة، وأنّ عثمان يسترق إليها النظرات باهتمام لا يخفى على راءٍ، وأنّ عينيه ترتادان مواضع الحسن في وجهها وجسدها، وأنّ نعيمة تلوّن نبراتها ـ عند النداء ـ بالدلال. وفي لفتاتها وسكناتها عند المعاملة جرت مناورات الأنوثة المتصدّية لرجل يستحقّ الاهتمام. وقال قائل منهم في سهرة تالية:

- هو يأكلها وهي تودّ أن تؤكل...

فتمتم صاحب القهوة:

- وعمّ الليثي المسكين؟!

فقال بيّاع الترمس:

- من يدري؟!... وربّما طلب من العجوز القرب!

فقال المقرئ الأعمى:

- ليس شيء على الله بكثير...

ولكن نطقت أعينهم بمدى يأسهم. وقال شابّ:

- هو أقوى من جعران والأعور معًا ويا ويل مَن يقول بُمْ!

ووقفت نعيمة في ضوء القمر وهي تراجع حساب اليوم وتغنّي:

أنا قبله كنت هبله

ولكن تجنّبها الشبّان حبًّا في السلامة، وقالوا لا تغنّي بنت هكذا إلّا للعشق!

ولم تمضِ ليالٍ حتّى عاد حندس يقول:

- كلّ شيء وضح، رأيتهما أمس عند خلاء شبرا!

فصاح به صاحب القهوة:

- اتّقِ الله!

- الحمد لله! كانت واقفة أمام العربة وكان الضابط يأكل الكبدة كالوحش...

فقال المقرئ:

- شيء طبيعيّ! كما يحدث للجميع!

فهتف حندس:

- ولكن عند خلاء شبرا، ألا تسمع سيّدنا؟

وترحّمت على عمّ الليثي...

ونفذ الحزن إلى الأعماق. ثمّ قال صاحب القهوة:

- أبوها عاجز، ولكنّه شرف الحارة كلّها!

فقال بيّاع الترمس:

- الحارة أعجز من أن تدافع عن شرفها.

وتجهّمت الوجوه بالخزي، وعجبوا كيف يجيء ذلك من الرجل الذي وهبهم السلام، ولم يذوقوا للزنجبيل ولا للتبغ طعمًا. وتساءل شابّ:

- والعمل؟

فقال المقرئ الأعمى:

- قل «أنا مره»!

وانتبهت نعيمة إلى الصمت الذي يطوّقها والازدراء، وجعلت تتودّد إلى هذا وذاك لتختبر شكوكها فارتطمت بجدار من الحنق. ولم تخش اعتداء عليها وفتوّة الفتوّات قائم بمجلسه أمام النقطة ولكنّها عانت وحدة غريبة. ورفعت رأسها في استكبار ولكنّ نظرة عينيها العسليّتين خلت من الروح كورقة ذابلة. ولأقلّ احتكاك عابر كانت تنفجر غاضبة وتمسك بالتلابيب، وتسبّ وتلعن وتصيح في وجه ضحيّتها «أنا أشرف من أمّك». وتربّع الضابط على الكرسيّ الخيزران يدخّن النارجيلة ويمدّ ساقيه حتّى منتصف الطريق وقد امتلأ جسمه وانتفخ كرشه وتجلّت في عينيه نظرة متعالية ولكن خمد حماسه حتّى بدا أنّ نعيمة نفسها لم تعد توقظ مشاعره، والذين لم ينسوا فضله رغم كلّ شيء تنهّدوا قائلين:

- المكتوب... مكتوب!

ولم تعد نعيمة تمكث في العطفة إلّا أقصر وقت ممكن ثمّ تسرح في الأحياء ولا تعود إلّا مع الليل.

ولأنّها ممتعضة دائمًا مكفهرّة ومتوثّبة للشجار دائمًا فقد قست ملامحها وبردت نظرتها وطبعت بطابع الجفاف فركضت الشيخوخة نحوها بلا رحمة...

وحتّى سحرها الذي أطاح برأس الضابط قد بطل أو هٰذا ما بدا للأعين المستطلعة فتهامست بـه أركان التوتة...

وفي لحظات الصمت ترتفع قرقرة النارجيلة في العطفة الخابية الضـوء كسلسلة من الضحكات الساخرة...

الرَّمَـــاد

حسن السماوي شخص يثير الحنق. ولا يشذّ عن هٰذا الرأي فيه أحد في إدارة الحسابات بشركتنا. وهو قصير القامة كصبيّ ولٰكنّه عريض الصدر كمصارع، ولـونـه أسمـر داكن مشـوب بصفـرة، ومن عينيـه الصغيرتين تطلّ نظرة غير مأمونة، وفضـلًا عن ذٰلك فهو قريب المدير العامّ. وطبيعيّ أن نشعر بأنّه عـين علينا، وألّا نرتاح إليه لخشونة طبعـه، وأن نضيق به لتمتّعه بكافّة أنواع المكافآت التشجيعيّة بلا جدارة، غير أنّه يحظى بالمجاملات في خير أحوالها. وكان مولعًا بسَحَر الكاتبة على الآلة الكاتبة. ظريف جدًّا أن ترى جلفًا وهو يحبّ، أن يجود وجهه المنفّر بابتسامة رقيقة، أن يرقّ صوتـه الغليظ وهو يهمس لهـا بكتابـة ميزان الصرف اليوميّ. وكنّا نتـابع ذٰلـك باهتـمام ما بعـده اهتمام. ومع أنّنا تمنّينا أن يعذّبه الحبّ لعلّه يهذّبه إلّا أنّنا أشفقنا من أن يفوز حقًّا بسحـر الجميلة الرقيقـة الواعدة بكـلّ خير في مجـالَي الأنوثـة والعمل. وثمّـة لحظات لا يكون بينهما حديث ممّا يمليه العمل فيسترق إليها نظرات حمراء من فوق استمارات الصرف، وقد يتصبّب عرقًا، أو ينال منه الإعياء فيرتدّ عنها بنـظرة خامدة. ويومًا همس جاري في أذني بنبرة ذات مغزى:

ـ آه لو رأيت سحر وهي تبتسم خفية؟

خـطفتُ نظرة من سحـر وهي عاكفـة على الآلـة الكـاتبة وأصـابعها المخضـوبة الأظـافر تعـزف عليها بنشاط، ثمّ قلت متأسّفًا:

ـ نعمة لا يستحقّها!

فهزّ رأسه نفيًا وقال:

ـ ليس هٰذا، ولٰكنّه برهان!

وعجبت. برهان موظّف جديد التحق بالخدمة منذ أسبوعين فقط، شابّ ممتاز حقًّـا، ولٰكن كيف أحرز هٰذا النجاح في هٰذه الفترة القصيرة؟! ورحت أراقبهما في لحظات الفراغ حتّى لمحت ابتسامة يتبـادلانها. لا شكّ في معناها. وتوقّعت أحـداثًا. وانتقـل الخبر في سرّيّة تامّة من شخص لآخر حتّى استقرّ عنـد رئيسنا الكهل الذي يـدنو من سنّ المعـاش. ولم يعد الأمـر تسليـة فحسن السماوي ليس جلفًـا فقط، ولا قريبًـا للمدير فحسب، ولٰكنّه أيضًا من أقاصي الصعيد، من أرض عُـرفت بأنّها تـرتوي بـدماء البشر، فـذهبنا في التخمين كلّ مذهب.

ومرّة اهتزّت الإدارة بصوت حسـن السماوي وهـو يرتفع بحدّة كأسنان المنشار قائلًا:

ـ الحكاية أنّ عقلك ليس في رأسك!

واتّجهت صوبه الأنظار من جميع الأركـان فإذا بـه متحفّزًا فوق مقعده يرمي بنظرة حاقدة برهان الواقف أمام مكتبه.

وقال الأخير بصوت المعتذر:

ـ هفوة لا خطورة لها، والاستمارة لم تُرسَل بعد إلى المراجعة!

فصاح السماوي:

ـ هفوة أو جريمة هٰذا تقديري أنا لا أنت، الحقيقة أنّ عقلك ليس في رأسك!

ورمى بـالاستمارة بصـورة تدعـو إلى الاستفزاز ثمّ صاح بالشابّ وهو راجع إلى مكتبه:

ـ هنا شركة لا تكيّة!

اصفرّ وجه بـرهان من التـأثّر ومضى يعيـد تحريـر الاستمارة لٰكنّ أثر الهجمة الحاقدة انعكس على سحر بدرجة أشدّ فيما خيّـل إليّ، وضح تمـامًا أنّ سرعتهـا المألوفة في الكتابة تعثّرت، وأنّها تمعن النظر في الكلمات ولٰكنّها لا تقرأ شيئًا. ووضح كذٰلك أنّ السماوي رأى شيئًا رابه أو حطّم آماله. ولعلّه ضبطه قبيل انفجاره

بثوانٍ فهو لا يكتم انفعالًا، ولٰكن هل يظنّ أنّه بالغٌ مراده بالقوّة؟! وأخذ يطاردها في الطريق كما قال الرواة. ورُئِيَ وهو يحادثها في محطّة الأوتوبيس. ولم ندرِ بطبيعة الحال كيف ينتهي عناده. وتعلّقنا جميعًا بأمل واحد آمنّا بأنّ به وحده تتحقّق العدالة الإلٰهيّة في إدارتنا. وقال جاري:

ـ ألم تعلم؟ لقد قابل عمّها وهو وليّ أمرها ليطلب يدها...

سألته بلهفة:

ـ والنتيجة؟

ـ الاعتذار.

ثمّ مستدركًا بفرحة غير خافية:

ـ فشل في البيت بعد فشل في الطريق...؟

وبات غرام السماوي مشكلة إدارتنا. وزاد طبعه سوءًا على سوء. عامل برهان معاملة شاذّة اتّسمت بالاستفزاز والتحدّي والتربّص حتّى آمن الشابّ بأنّه لا مستقبل له في شركتنا. أمّا معاملته لسحر فجرت على أسلوب مضطرب مذبذب، فتارة يعاملها بفظاظة ويغلظ لها في القول، وتارة يستميلها برقّة وعطف، ثمّ يعود إلى الأولى، ولا يستقرّ بحال على حال. وكلّما زاملت الصبر أحرقه الحقد وخنقه اليأس. وقال مرّة دون مناسبة أذكرها:

ـ عندنا تعامَل المرأة كالحيوان ولذٰلك يقال عنّا إنّنا خير مَن يفهم النساء!

ولم تسكت سحر فقالت بسخرية:

ـ هٰذا عندكم!

وضحكنا جميعًا حتّى هو ابتسم ابتسامة صفراء ولٰكنّه عاد يقول:

ـ صدّقوني إنّنا نعاملها بما تستحقّ!

وعُرف أنّ برهان يسعى إلى الانتقال إلى شركة أخرى وأنّه من غير المستبعَد أن تمضي سحر في أثره. وذات صباح لاحظنا أنّ برهان لم يحضر. ومضى النهار دون أن نتلقّى بلاغًا باعتذاره كالمتّبع. وكذٰلك مضى اليوم الثاني. وفي اليوم الثالث جاءتنا رسالة تنبئنا بوجوده في المستشفى للعلاج حيث قد وقع عليه اعتداء أثيم. وزرناه جميعًا. وجدناه في جناح الجراحة مجبّس الذراع والساق ملفوفًا بالأربطة البيضاء لا يبدو منه إلّا عينان خابيتان. وسرعان ما أُمرنا بمغادرة الحجرة فلبثنا مع شقيقه في الاستراحة وقد تملّكنا شعور بالرهبة والخطورة.

ولم يكن أدلى بأقواله بعد ولٰكنّ شقيقه أخبرنا بأنّ مجهولين اعتدوا عليه بالعصيّ وهو راجع إلى بيته ليلًا ثمّ لاذوا بالفرار دون أن يتعرّف على شخصيّاتهم أحد. والراجح أنّهم كانوا من حَمَلة الجلاليب وأنّ الاعتداء والهرب كانا مفاجأة صاعقة وأنّ الظلام كان كثيفًا آخر الليل، هٰكذا قرّر الشهود القلائل. ومع أنّ أفكارنا تلاقت عند ظنّ واحد إلّا أنّ أحدًا لم يجهر به بسبب وجود حسن السماوي بيننا. وقد علّق على ما سمع قائلًا:

ـ هٰذه حال من الفوضى لم يُسمع عنها من قبل...

ثمّ سأل شقيق برهان:

ـ أله أعداء؟

فنفى الرجل أنّه يعرف له أعداء وأمل في مزيد من الوضوح عندما يستطيع برهان أن يدلي بأقواله. وعدنا جميعًا واجمين وقد احمرّت من البكاء عينا سحر.

ولـمّا أدلى برهان بأقواله استُدعي حسن السماوي إلى التحقيق. وبدا أنّه استبشع التهمة بكلّ قوّة. واستمرّت التحرّيات طويلًا ولٰكنّها لم تسفر عن شيء. وكان على برهان أن يبقى في المستشفى طيلة شهرين أو أكثر. وسألني جاري ممتعضًا:

ـ ما جدوى هٰذه الحياة؟

وحلّ بإدارتنا وجوم كئيب مشحون بالسخط الصامت، أكّده باستمرار وجود سحر بيننا. وبطريقة أو بأخرى أعلنت وجوهنا وألوان سلوكنا عن باطننا. ولم نخرج في معاملته عن حدّ الأدب والمجاملة ولٰكنّ تجهُّم أرواحنا حاصره بغضب بشريّ رهيب. ونزل عن كبريائه فجعل يباسطنا في الحديث أو يضاحكنا لأوهى مناسبة كأنّما ليسبر مدى ظنونه ومخاوفه فكنّا نجاريه في تكلّف وسرعان ما يسيطر الصمت. ولم يعد يتحمّلنا فهتف مرّة دون مناسبة ظاهرة:

ـ أنا لا أخشى أحدًا ولٰكنّكم مخطئون!

وتساءل رئيسنا في دهشة:

ـ ماذا تقصد يا سيّد حسن؟!

فقال بعصبيّة:

ـ أنت تعلم وهم يعلمون ولْكنّي لا أخشى أحدًا!

وتضاعف حنقنا عليه وتمنّى بعضنا أن يراه جثّة هامدة. وبدوره قاطعنا ولْكنّه كان إذا اشتبك معنا في حديث بسبب العمل تحدّانا بجدّه أو بسخريته. وبمرور الوقت بدا كأنّه قدر على تجاهل عواطفنا. بل وعاد إلى التقرّب من سحر بالابتسامة الكريهة أو الكلمة رغم أنّها كانت تتصدّى له في نفور متصلّب كالديك المتحفّز. ونجح في امتلاك زمام نفسه وجرت حياته بصورة طبيعيّة شهدت له بقوّة الأعصاب. وأخبرني جاري ـ نقلًا عن سحر نفسها ـ أنّه قال لها إنّه بريء ممّا تظنّ، وإنّ نقطة ضعفه الوحيدة أنّه يحبّها وأنّه مُصمّم على أن يتزوّج منها! والظاهر أنّه لم يظفر بأيّة استجابة إذ صبّحنا يومًا بأن سألنا:

ـ هل قرأتم الحكاية؟

وراح يقرأ في الجريدة نبأ حادثة وقعت في المنيرة إذ قتل شابّ جارته بعد أن يئس من حبّها! وكنّا قرأنا الخبر ولْكنّ إعادته على أسماعنا بلهجته الصعيديّة المتشفّية أثارتنا إلى أبعد الحدود. أدركنا أنّ إفلاته من التهمة زاده على عكس المتوقّع فجورًا، وأنّه من طبيعة شرسة لا تقف عند حدّ. ماذا يقصد بتلاوته؟ ومتى تدركه العدالة التي لا نتصوّر أن تهمل أحدًا من الطغاة؟ وقلت معلّقًا على الحادثة:

ـ أهلَكَ الفتاة وأهلك نفسه!

وقال رئيسنا الكهل:

ـ إنّي أعجب كيف يُزهق إنسان روحًا بشريًّا؟!

فأجاب السماوي متهكّمًا:

ـ ذٰلك أنّك لم تعرف الحبّ...!

واسترقت إلى سحر نظرة فرأيتها منكبّة على العمل ولْكن بوجه مكفهرّ. وكأنّي أدركت للصواعق والزلازل والبراكين معنًى جديدًا لأوّل مرّة. ورُفع الغطاء عن وجه زميلنا برهان معلنًا عن منظر لا يُنسى. تحطّم عرنين الأنف، واختفت قطعة من شفته السفلى عند الثنيتين. وتركت الخياطة الطبّيّة بوجنته اليسرى طابعًا كأثر الاحتراق. وفي كلمة ضاع بها شبابه كأن لم يكن.

وعاد إلى عمله محطّم النفس فملأ قلوبنا بالشجن. وما عتّم أن غادرنا إلى عمل آخر. ولبث حسن مصرًّا على هدفه لا يثنيه عنه صدّ أو يأس. وكثيرًا ما كانت سحر تضيق بملاطفاته حتّى صاحت به مرّة وهي تتسلّم منه رسائل ومذكّرات:

ـ لا تحدّثني هٰكذا من فضلك!

والتفتنا نحوهما بوجوه غير متسامحة فتراجع قائلًا:

ـ آسف، أنت لا تفهمين قصدي!

فمضت عنه وهي تقول بتحدّ:

ـ أنا لا أخشاك... لا أخشى شيئًا!

ولْكنّ شيئًا لم يكن ليصرفه عن التعلّق بها. وتساءلنا بقلق هل نفاجأ بما ليس في الحسبان؟ وناقشنا الموضوع حول مائدة الغداء بمنزل رئيسنا الكهل. سألت:

ـ هل يُقْدِم على قتل الفتاة؟

فأجاب جاري:

ـ إنّه لا يتورّع عن شيء...

وإذا بزميل يقول:

ـ أخشى أن ينتهي بها النضال إلى القبول!

ـ القبول؟!

ـ لِمَ لا، إنّه لا يريد أن ينهزم والمرأة كما يقولون لغز!

وسألت رئيسنا عن رأيه فأجاب:

ـ إنّي أومن بالله ويتجدّد إيماني به عند كلّ صلاة...

فسألته:

ـ وهٰذه الفوضى؟

فكان جوابه أن ابتسم دون أن ينبس ثمّ قدّم لي تفّاحة!

وبدا حسن السماوي فيما تلا ذٰلك من أيّام هادئًا، أو راضيًا، أو مستسلمًا، كأنّما قد انتهى من نضاله إلى خاتمة. ويومًا قال لنا:

ـ حضراتكم مدعوّون لحفل خطوبتي!

ودقّ قلبي. ولا شكّ أنّ سؤالًا واحدًا محيّرًا دار برءوس الجميع. وجعلنا نختلس النظرات إلى سحر ونعاني حزنًا كاليأس من مصير الإنسان. والتفت السماوي نحو سحر أيضًا، وابتسم، ثمّ هزّ رأسه كالمتسائل، فابتسمت بدورها وقالت:

ـ بكلّ سرور ولْكن أرجو أن تدعو برهان أيضًا ليوصلني عند نهاية الحفل إلى البيت. . .

وتنهّدت قلوبنا في ارتياح عميق. . .

واختلست منه نظرة بعد أن تحوّلت عنه الأعين فرأيت الوجه الأسمر الداكن يقطر يأسًا كالموت. . .

الختام

علّام يسري ـ مراقب عامّ الوزارة ـ في غاية من السعادة. استدعاه الوزير وقال له:

ـ اتّخذ فورًا إجراءات تعيينك وكيلًا مساعدًا للوزارة. . .

وقام من مجلسه أمام مكتب الوزير فانحنى امتنانًا ورأسه يدور من الذهول ثمّ قال:

ـ ما أعجزني عن الشكر ولْكن أرجو أن أكون عند حسن الظنّ بي. . .

فقال الوزير:

ـ أنت رجل كفء، أمّا سمعتك الطيّبة فحقيقة أجمع الناس عليها. . .

ووجد علّام يسري نفسه في غاية من السعادة فامتلأ حبًّا لكلّ شيء ورضًى عن كلّ شيء. وكانت له ابنة وحيدة في العشرين من عمرها ومن خرّيجات الجزويت، وقد تقدّم لخطبتها أخيرًا قاضٍ شابّ، وبذلك وضح تمامًا أنّ رسالته في الحياة تتمّ على أكمل وجه يحلم به إنسان. وجاءه مدير مكتبه بأوراق العرض ثمّ قال عندما هَمَّ بمغادرة الحجرة:

ـ عبد الفتّاح حمام ما زال يلحّ في طلب المقابلة!

فقطّب المراقب العامّ قائلًا:

ـ وقتي ضيّق كما ترى، اسأله عمّا يريد، وإن كان لديه طلب فحوّله إلى جهة الاختصاص. . .

ـ ولْكنّه يلحّ في طلب المقابلة دون ذكر أسباب، وقد طردته أكثر من مرّة من مكتبي ولْكنّه يعود بإصرار، ويكرّر أنّ لديه ما يقوله لسيادتك شخصيًّا. . .

واضطرّ إلى أن يحدّد له وقتًا للمقابلة وهو كاره.

وجاء عبد الفتّاح حمام يسير في خطوات متهيّبة وهو غاضّ البصر، وانحنى بإجلال وهو يقول:

ـ صبّحك الله بالسعادة يا سيادة المراقب. . .

ولفت نظر المراقب بقصر قامته وبروز صدره بروزًا غير طبيعيّ ولونه الشاحب وشعر رأسه الأسود الغزير. وسأله وهو يداري غيظه:

ـ لماذا تصرّ على تضييع وقتي؟

وتهيّأ عبد الفتّاح للكلام فأضاع ثواني بارتباكه فهتف المراقب العامّ:

ـ متى تجود يا ترى بالكلام؟

فاشتدّ ارتباك الشابّ كما تجلّى في احمرار وجهه وقال بعجلة واندفاع كأنّه يقذف بنفسه في الماء في أوّل تدريب يخوضه:

ـ أنا موظّف ملفّات الخدمة بالمستخدمين، وقد رجعت إلى ملفّ سعادتك لمناسبة إعداد البيان التمهيديّ للتعيين الجديد، مبارك يا فندم! الموقف أنساني ما كان يجب أن أبدأ به. . .

وازدرد ريقه متوقّفًا عن الكلام فتساءل المراقب العامّ:

ـ ألهٰذا تطلب مقابلتي؟!

ـ كلّا يا فندم، ولْكنّي بالرجوع إلى ملفّ سيادتك اطّلعت على شهادة الميلاد. . .

آه. شهادة الميلاد! وانتزعه الماضي من حاضره بجذبة واحدة قاسية ولْكنّه لم يصدّق. وتساءل ببرود:

ـ نعم؟

ـ اطّلعت عليها فوجدت بها شيئًا غير طبيعيّ. . .

إذن هو ذٰلك! لا يمكن أن يصدّق. ولْكنّه حقيقيّ كجثّة مطمورة اكتُشفت فجأة. وقاوم من خلال شعور بالإعدام فتساءل:

ـ ماذا تقصد؟

فقال عبد الفتّاح بشيء من الهدوء لأوّل مرّة:

ـ يوجد «تحوير» في الشهادة!

ـ لا أفهم! لعلّه تصحيح أو شيء من هٰذا القبيل!؟

ـ من يدقّق النظر لا يشكّ أنّه. . .

وخرقت أذنه الكلمة غير المنطوقة. وشعر بيأس كالموت. أمّا الآخر فقال:

ـ رأيت أن أرجع إلى سيادتك قبل أن أكتب مذكّرة عن الموضوع لمدير المستخدمين!

على أيّ حال يجب ألّا ينهار أمام خصمه! لقد قضي عليه ولكنّه يجب أن يتماسك وأن يتجلّد فمن يدري؟! واكتظّ قلبه بالكراهية، ولكن ما الحيلة؟ واليوم موعد اجتماع لجنة الميزانيّة ويجب أن يبدو كلّ شيء طبيعيًّا.

وسأله:

ـ هل دقّقت النظر؟

ـ نعم! كان يمكن أن أكتفي بمراجعة صحيفة الأحوال ولكنّي إخلاصًا منّي لعملي أراجع الوثائق الأصليّة، ولا أدري كيف وقع بصري على...

آه إنّه لا يدري كيف! وفاض قلبه باليأس والكراهية، لولا الترقية المنتظرة لرقدت الشهادة في أمان حتّى نهاية الرحلة الوشيكة، على أيّ حال لا يجوز أن ينهار أمام عيني خصمه.

وسأله:

ـ وبعد؟

ـ قلت أرجع أوّلًا إلى سيادة المراقب العامّ!

ـ إنّي أشكر لك تصرّفك ولو أنّ...

ودقّ جرس التليفون فإذا بوكيل الوزارة يطلبه فنهض منزعجًا خشية أن يخونه صفاء الذهن الضروريّ للمقابلة. وقال من خلال عالَم مقوّض الأركان:

ـ اسمع يا بنيّ، أنا الآن مشغول جدًّا فلنؤجّل الحديث. وعندي لجنة ميزانيّة بعد الظهر فموعدنا الغد، إنّ أقوالك غريبة وغير مفهومة لي ألبتّة فلنؤجّل مناقشتها إلى غد...

وفي الطريق إلى مكتب الوكيل غاب تمامًا عمّا حوله. وتطلّع إلى الأمام بنظرة ذاهلة منقبًا عن القوّة المدمّرة الساخرة. متى يغمض له جفن؟ وتمنّى أن يتغيّب عن لجنة الميزانيّة ليصفّي حسابه مع معذّبه ولكنّه جفل من مجرّد التفكير في ذلك. إنّه اعتراف خطير سيعجّل بالقضاء عليه. ولكن هل انتهى حقًّا؟!

وغادر الوزارة عقب مقابلة الوكيل. استقلّ سيّارته الأوبل التي يسوقها بنفسه، وعند خروجه من باب الوزارة لمح عبد الفتّاح حمام واقفًا أمام محلّ صغير لبيع الفول يتناول سندويتش. التقت عيناهما لحظة ريثما انعطف إلى الطريق. وقد خفق قلبه في رعب حقيقيّ ثمّ اشتعل بالكراهية. لعلّه ينتظره! لعلّه مجرم محترف. لقد انتهى حقًّا.

وفي البيت كان حديث الأفراح يتردّد في أكثر الأوقات: عن العريس والحفل يتكلّمون، عن الحليّ والملابس والجهاز لا ينقطع الحديث. ومنى سعيدة جدًّا ومثلها أمّها وسرعان ما ينخرط في همومهم الممتعة ويدلي برأيه في كلّ شيء. ولكنّه حصّن نفسه هذه المرّة بقوله:

ـ الظاهر أنّي متوعّك اليوم، أعفوني من الكلام ومن الطعام...!

بذلك حصّن نفسه ضدّ الأعين المتفحّصة، وشرب كوبًا من البرتقال ثمّ آوى إلى فراشه. وسعادة منى المتجلّية لم تبرح مخيّلته فعذّبته عذابًا أليمًا. وقال لنفسه بأنّه لن يسمح لقوّة بالغدر بهذه السعادة. واستعرض في لحظات حياة طويلة طابعها الجدّ والأمانة والاستقامة.

علّام يسري مثال طيّب حقًّا في وسط ملعون. وذلك الخطأ الذي ارتكبه منذ خمسة وثلاثين عامًا ينفجر على غير انتظار كلغم منسيّ. وقد ارتكبه ليُقبل في المعهد وحتّى لا تضيع آماله هباء. لم يكن مغامرًا ولا مستهترًا بالمبادئ ولكن اغتاله الضعف والأمل. كان موقفًا رهيبًا عندما قدّم أوراقه فنظرة مدقّقة من عين المسجّل كانت كفيلة بنبذه من المجتمع. وآمن بأنّ جريمته قد دُفنت في الملفّ إلى الأبد ولكنّه لم ينس أنّه سيغتال الحكومة في عامين من مدّة خدمته. ولم يرحه ما قدّم من عمل مُجْدٍ واستقامة فعزم على طلب الإحالة على المعاش عندما يحلّ موعده الحقيقيّ الذي لا يعلم به أحد سواه، أجل طالما ذكّر نفسه بذلك ولعلّ مرض القلب الذي انتابه منذ أعوام كان نتيجة لحدّة شعوره بالشوكة الخفيّة المنغرزة في ضميره، وقد تسلّل عبد الفتّاح حمام إلى حجرته ليقوّض بنيانه بلطمة واحدة وجعل يتطلّع إلى فضاء الغرفة منقبًا في ذهول عن القوّة المدمّرة الساخرة!

وذهب إلى مكتبه مبكّرًا في اليوم التالي ثمّ استدعى الشابّ إلى مقابلته وبمجرّد أن رآه وهو يقترب من مكتبه

في أدب كـاذب وثبت في بـاطنـه رغبـة جنـونيّـة في الانقضاض على رقبته الغائرة بين كتفيه وخنقه. غير أنّه رمقه بنظرة طبيعيّة هادئة كأنّما لم يؤرّقه ليلة كـاملة وقال:

ـ لنعد إلى حديثك الغريب، الحقّ أنـه يهمّني أن أعرف كلّ شيء.

وجلس عبد الفتّاح في خضوع وأعاد على مسمعه خلاصة ما قاله أمس، فسأله:

ـ ألا يجوز أن تكون واهمًا؟

فأجاب بهدوء معذّب:

ـ الواقع أنّني لم أصدّق عينيّ بادئ الأمـر، دقّقت النظر طويلًا، ولكي أقطع الشكّ باليقين رجعت إلى شهادة المعاملة الخاصّة بالإعفاء من التجنيد فتأكّد لديّ أنّ ثمّة فارقًا في العمر بين الشهادتين مقداره عامان.

وساد صمت أليم. غضّ المراقب عينيه في استسلام نهائيّ وهو يتأذّى بنظرة خصمه على صفحة وجهه. إنّه يـطالبه بثمن السكـوت. وعندمـا ينطق الصمت بمـا يضمره سيتردّى في هوّة الجريمة وهو في كامل وعيه بما يصنع هٰذه المرّة. سيخطو الخطوة الأولى في طريق قذرة لا نهاية لها. أجل لا نهاية لها. وأسْر لا قرار له. آه أما من وسيلة لدفنه؟! وسأله:

ـ وبعد؟

ارتبك الشابّ قليلًا ثمّ قال:

ـ قلت يجب أن أخبر سيادتك أوّلًا.

ـ وثانيًا؟

إنّه ينظر في الأرض ليخفي انفعالاته الشرّيرة. إنّه لا يريد أن يموت ولا أن يختفي كشبح!

ـ ألا تريد أن تتكلّم؟

ولـمّا لم يسمع منه جوابًا سـأله بصـوت غريب في نبرته:

ـ ماذا تريد؟

وبصوت ضعيف أجاب:

ـ لا شيء إلّا ما يرضيك، لم أقصد إلّا أن أؤدّي خدمة لك، أنت رجل نبيل، وسأترك أمري لتقديرك!

ـ تكلّم أرجوك...

ـ أنا آسف جدًّا لموقفي هٰذا، ولكنّها... ولٰكنّها فرصتي الوحيدة...

ـ وهي؟

قال بضبط نفس أكثر:

ـ يا سيادة المراقب أنت أدرى...

قال وهو يشعر بذلّ لم يشعر بمثله من قبل:

ـ ما ترتيبك في الأقدميّة؟

ـ لا أمل لي في ترقية بالأقدميّة، عليّ أن أنتظر خمس سنوات...

ـ وإذن؟

فقال بجرأة أوضح:

ـ هنالك أكثر من طريق...

فقال المراقب بلا وعي تقريبًا:

ـ هٰذا يورّطني في تصرّفات طالما عففت عنها...

وتبـادلا نظرة انكسر لهـا قلب الرجـل. تـألّم بـلا حدود. إنّه يسخر من تعفّفه ومن حياته جميعًا.

ولم يعد يطيق رؤيته فقام مادًّا له يده. تصافحا ثمّ غادر الشابّ الحجرة دون أن ينال وعدًا صريحًا ولٰكنّه بدا مطمئنًّا كلّ الاطمئنـان. وارتمى على مقعـده وهو يقول لنفسه إنّي مريض. ما بي هو مرض بكلّ معنى الكلمة. وعندما غادر الوزارة بسيّارته لمح عبد الفتّاح بموقف الأمس أمام محلّ الفول. وانعطف بالسيّارة دون أن ينظر نحوه. غدًا سيتبعه كـظلّه وسيقع هـو تحت رحمته. ودفع السيّارة نحو أطراف المدينـة بلا هـدف وكان تلفن إلى أسرته بأنّه لن يعود قبل المساء. يجب أن يخلو إلى نفسـه وأن يبتّ في أمره بـلا تردّد ودون إبطاء. أيسقط في الهاوية أم لا؟ هل يسلّم نفسه أسيرًا مدى العمر أو يرى حلًّا آخر؟ وكان ينطلق بسرعة غير عـاديّة ويحـاور الشابّ طـوال الوقت. أتحسب أنّـك ملكت كلّ شيء؟ أنا أقول لا فما أنت صانع؟ أجل نحن في الخلاء حقًّا، كورنيش النيل، ألا تحبّ هٰذا المنظر الخلّاب؟ لعلّك خائف، أرأيت، كان ينبغي أن أكون أنا الخائف لا أنت أليس كذٰلـك؟ لا... لن يفيـدك الصراخ. مُتْ كحشرة. وشدّت قبضتـه على عجلة القيادة بقوّة فظيعة. ستُطرح هنا وحيدًا بلا أدنى أمل. ولٰكن ما أسخف هٰذه التخيّلات!... سيلقاك عبد الفتّاح غدًا ليسمع رأيك الأخير. وزاد من السرعة

في شبه خلاء تامّ. رأيك الأخير. بالقبول مع الأسر أو الرفض مع الفضيحة. وفي الحالين لا يمكن أن تنسى كرامتك. ومَن غير الله يمكن أن ينتشلك من مأزقك الخانق؟ ودعا ربّه طويلًا حتّى اغرورقت عيناه.

* * *

ووقع حادث أسيف في طريق الكورنيش... !

وقال المحزونون: جرى القضاء عليه وهو يترقّب سعادتين: ترقيته وزواج كريمته...

سُوق الكَانتو

غاص حسّونة في سوق الكانتو متأبّطًا لفافة كبيرة من الورق. كانت شمس الصيف الحامية تلهب الجموع الحاشدة وقد اصطفّت على الجانبين عشرات من عربات اليد مثقلة بالملابس والأوعية والأواني والأدوات القديمة. قصد حسّونة عربة رمضان ولٰكن منعه من الوصول إليها سياج من الجلابيب والملاءات اللفّ، ولم يجدِ صياحه في اختراق هدير صاخب من أصوات النداءات والمساومة والسبّ. ورصده حتّى التفت ناحيته فصرخ بأعلى صوته:

- يا معلّم رمضان!

انتبه الرجل إلى مصدر الصوت فلوّح له حسّونة بذراعه صائحًا:

- معي هديّة!

وشقّ رمضان طريقه إليه بجهد قاسٍ حتّى بلغه ثمّ سأله:

- بيع أم شراء؟

فضحك حسّونة عن أنياب كالأسياخ وقال:

- ربّنا لا يقطع لنا عادة...

- ما معك؟

- جاكتة...

وضح الاهتمام في وجه رمضان فتناول اللفافة ثمّ استخرج الجاكتة ليتفحّصها. جاكتة رماديّة في حالة جيّدة كبيرة الحجم حتّى لتصلح معطفًا لحسّونة. وسأله بلهجة ذات معنى:

- من أين...؟

فأجابه وهو يغمز بعين حمراء:

- اطمئنّ...

ودسّ رمضان في يده ورقة من ذات الخمسة والعشرين وهمَّ بالرجوع ولٰكنّ حسّونة تعلّق بذراعه بحرارة وهو يقول:

- عملي ليس نزهة، ليس نزهة...

وبعد دفع وجذب رمى له بخمسة قروش بحركة نهائيّة قاطعة ثمّ شقّ طريقه مرّة أخرى إلى عربته.

وجال حسّونة في أطراف السوق فابتاع أربع سجائر ورغيفًا ولحمة رأس ثمّ مضى إلى جدار المرحاض العموميّ فجلس في ظلّه وراح يدخّن سيجارة بهدوء مؤجّلًا الأكل إلى حين. شنكل! تخيّل وجهه القاسي ورأسه المشوّه بالندوب. وارتعد جسمه الضئيل. لو شكّ في لحظة واحدة انتهيت.

وتناول طعامه ولٰكنّ وجه شنكل سدّ حلقه.

وفي الليل لبد عند المنور يتنصّت. وسمع صوت شنكل وهو يسأل بغلظة:

- أين الجاكتة يا وليّة؟

فأجابت المرأة:

- لم تلمسها يدي...

- زارك أحد؟

- أبدًا...

- خرجت؟

- أبدًا...

- عفريت أخذها؟

- ربّنا يعلم...

وترامت إليه دمدمة عراك فارتعد في مكمنه.

- يا مجنون... يا وحش...

- تعضّيني يا كلبة؟

- يعني أموت وأنا ساكتة؟... ما قيمة جاكتة؟

- يا خرابي، فيها ما يساوي تعب عمر يا مجرمة...

ابتعد حسّونة عن المنور وهو يغمغم في ذهول «تعب عمر». انتقل من سطح الربع الذي يسكنه شنكل إلى السطح الملاصق له قاصدًا غرفته الخشبيّة. تعب العمر؟! ولٰكن كيف! لقد فتّش الجيوب جيبًا جيبًا فلم

يعثر على شيء! البطانة. أجل البطانة. ولكن كيف كان له أن يتخيّل ذلك! يجب أن يعثر على رمضان بأيّ ثمن. ولكن هل يرتاب شنكل في أمره؟ هل يتصوّر أنّ خروفًا يجرؤ على اقتحام عرين الأسد؟ إنّ عمره يُعَدّ بالدقائق إذا لم يحصل على تعب العمر ويرحل عن البلد. . .

وغادر ربعه للبحث عن رمضان. وجد سوق الكانتو خاليًا إلّا من شعاع خافت ينبعث من مصباح عموميّ في أقصى طرفه الشماليّ. ولم يعثر له على أثر في قهوة الجوهريّ، ولا في مجلسه بسوق الخضار ولا في غرزة أمّ الغلام. أتراه يعدّ النقود في بيته؟ ولّما لم يكن يدري أين مسكنه فقد رجع إلى سوق الكانتو عازمًا على قضاء الليل فوق الطوار ليكون أوّل مستقبِل له في الصباح.

وجلس القرفصاء أقرب ما يكون إلى المصباح. ضيّعت ثروة يا حسّونة الكلب. ولكن مَن كان يصدّق أنّ شنكل يترك ثروة في باطن جاكتة مسروقة؟! وسمع وقع أقدام تقترب فنظر نحو الظلام فرأى شبحًا قادمًا. وعندما دخل القادم مجال الشعاع وضحت معالمه بعض الشيء فإذا به شنكل! ملأه الرعب فانتتر واقفًا بلا وعي فعرفه الرجل ورماه بنظرة سمّرت قدميه في موضعه:

ـ حسّونة!

فقال بصوت متهدّج:

ـ نعم يا معلّم. . .

ـ ما لك مكوّمًا كالزبالة!

ـ رأسي ثقيل فقلت أنام في الهواء. . .

وصفعه كأنّما يجود عليه بإحسان وسار في طريقه. لم يصدّق عينيه. وتبعه بنظره حتّى اختفى وهو لا يصدّق عينيه، كلّا إنّه لا يشكّ فيه وإلّا ما أعلن عطفه بتلك الصفعة! ما أعمى الخوف! أليس هٰذا بطريقه الذي يخترقه كلّ ليلة إلى سوق الخضار؟! وتنهّد في إعياء ثمّ تداعى على الأرض.

واستيقظ مبكّرًا والحياة تدبّ في السوق. وما لبث أن رأى رمضان قادمًا يدفع عربته. هرع إليه بلا تدبير وقال بلا تمهيد:

ـ معلّم رمضان أين الجاكتة؟

رمقه الرجل بازدراء وهو يتمتم «يا فتّاح يا عليم» لـمّا كرّر الآخر سؤاله بلهفة أحدّ سأله:

ـ لِمَ تسأل عن شيء لا يخصّك؟

ـ الجاكتة يا رمضان؟

ـ عليك عفريت اسمه جاكتة! بعتها. . .

ـ بعتها! يا خبر أسود، بعتها يا رمضان؟ لمن؟

أجاب بارتياب:

ـ عطيّة الحلواني. . .

ـ يا خبر أسود يا رمضان.

وضاق به فزعق:

ـ انطق!

سأله بعينين مجنونتين:

ـ ماذا وجدت فيها؟

فصفعه إعرابًا عن حسرته وهو يسأله بكراهية:

ـ ماذا كان فيها؟

ـ تعب عمر!

ـ عمر من؟

ـ شنكل!

ارتعد الرجل فهتف:

ـ شنكل! . . . تبيع لي مصيبة!

ـ ولٰكنّ مصيبة بيعها أكبر.

ـ صحيح إنّك نحس!

ـ البطانة يا رمضان. . .

فكّر رمضان يائسًا ثمّ قال متنهّدًا:

ـ لا فائدة من النواح، انتظر الليل حتّى يرجع الحلواني من حلوان. . .

وقطع الكلام عندما رأى زبونًا واقفًا ينتظر لم يدرِ متى ولا كيف جاء. وتفحّص حسّونة الزبون باهتمام وقلق ثمّ ابتعد.

وعند المساء ذهبا معًا إلى قهوة الجوهريّ فوجدا عطيّة الحلواني منهمكًا في عشرة دومينو. فصافحه رمضان وقدّم له حسّونة ثمّ اشتركا في اللعب. وغادروا القهوة معًا لإتمام السهرة في حجرة الحلواني فمشوا جنبًا إلى جنب في شارع الموسكي في شبه ظلام تتخلّله أنوار متباعدة خافتة. وجعلا يحاوران الشابّ بجهد متكلّف

وهما يفكّران في شيء واحد، ودون مناسبة قال رمضان:

ـ إن شاء الله تكون الجاكتة موفّقة...

فقال الحلواني وهو يتثاءب:

ـ طبعًا، ولكنّها تحتاج إلى تضييق (ثمّ وهو يلكزه ضاحكًا) وتغيير لون، سلّمتها أمس إلى عبدون الرفّاء...

وماتت رغبتهما في مصاحبته ولكنّهما لم يجدا بدًّا من الذهاب. وغادرا الحجرة قبيل الفجر وهما يترنّحان فقال حسّونة متأوّهًا:

ـ فاز عبدون بتعب العمر...

فهتف به:

ـ سنرى، أنت مِن يوم مولدك نحس...

ـ أنا في حاجة إلى النقود لأهرب...

فقبض على قفاه وهو يسأله:

ـ وأنا؟! سيظنّني شريكك...

فتخلّص من يده قائلًا:

ـ إنّه لا يدري شيئًا عن علاقتنا...

وفي الصباح ذهبا معًا إلى دكّان عبدون الرفّاء وهو يتأهّب للعمل، وعانقه رمضان معانقة الخلّان ثمّ جلس ثلاثتهم على أريكة في نهاية الدكّان التي كانت أشبه بدهليز ضيّق غائص في الجدار.

ومال رمضان على أذن عبدون رغم أنّه لم يكن معهم رابع وهمس:

ـ لا أحبّ أن أشغلك عن عملك في ساعة الصبح ولكنّا جئنا بخصوص الجاكتة التي سلّمها لك عطيّة الحلواني...

فسأله عبدون بدهشة:

ـ ما لها؟

ـ هل قمت بالمطلوب لها؟

ـ لم أمسّها بعد...

تنهّد رمضان وحسّونة بارتياح وقال رمضان:

ـ يلزمنا بعض الوقت، دقائق لا أكثر...

فقال الرجل بقلق:

ـ حدّ الله!... إنّها أمانة...

ـ عيب يا عبدون، ستكون عندك بعد دقائق...

نظر إليه بارتياب، وردّد عينيه بين الرجلين، وابتسم ابتسامة خبير، ثمّ نهض إلى كومة من الملابس المعلّقة في الجدار ففرّها بسرعة حتّى استقرّت يده على الجاكتة الرماديّة فنزعها وراح يتحسّسها باهتمام حتّى استكنت يده فوق أسفل البطانة. وحدج رمضان بنظرة ساخرة فقال الرجل:

ـ أحببت أن نقوم بشغلنا بعيدًا عنك...

هزّ عبدون منكبيه استهانة، ورمى الطريق بنظرة حذرة، ثمّ رجع إلى الأريكة ويده تفكّ البطانة بخفّة، ثمّ استخرج رزمة من الأوراق الماليّة. ندّ عن حسّونة صوت كالشهقة، وقلق رمضان في مجلسه، أمّا عبدون فبدا نهمًا مصمّمًا، وقال رمضان بلهفة:

ـ فلنقتسمها بسرعة قبل أن يجيء أحد...

عند ذاك اختفى النور الهادئ الوارد من الطريق ولكنّهم لم ينتبهوا لذلك. وارتفع صوت كالخوار يقول بقسوة:

ـ عفارم عليكم...

تحوّلت الرءوس في فزع نحو الباب. وجدوا أمامهم شنكل. شنكل بكلّ ما أوتي من طول وعرض وكريه منظر يسدّ الباب سدًّا. صاح عبدون:

ـ أنا عبد مأمور، ولا دخل لي في شيء!

وصاح رمضان:

ـ عليّ الطلاق ما أعرف صاحبها!

وخرس حسّونة فلم ينطق. ودخل الرجل على مهل حتّى تناول الرزمة من يد عبدون المرتجفة. والتفت نحو حسّونة قائلًا:

ـ هل ظننت أنّ عيني غفلت عنك دقيقة واحدة؟

فتح الرجل فاه ولكنّ شنكل لطمه بيد كالمطرقة فاندلق من ركن الأريكة فوق الأرض وهو يتأوّه وكأنّه يتقايأ. وقال له بهدوء مخيف:

ـ اختفِ إن كنت تحبّ الحياة...

واستدار ليغادر المكان ولكنّ صفّارة انطلقت. وطُوّق باب الدكّان في ثوانٍ بالمخبرين.

ودخل الضابط شاهرًا مسدّسه وهو يقول بلهجة آمرة:

ـ كلّ واحد في مكانه...

وانقضّ عليهم المخبرون قبل أن يفيقوا من ذهولهم. وقال الضابط يخاطب شنكل:

ـ أتعبتنا أسبوعًا كاملًا الله يتعبك...

وعند الظهر وقفت سيّارة مرسيدس أمام القسم وغادرها رجل ربعة بدين ذو لغد هائل. قابلَ ضابط المباحث فصافحه ثمّ جلس وهو يقول:

ـ جئت بناء على إشارتك...

فقال الضابط:

ـ قُبض على سارق جاكتتك، ووُجدت نقودك كاملة لم تُمسّ، وسوف تتسلّمها في الوقت المناسب ولكن ينبغي أن تبقى لإتمام بعض الإجراءات.

رمق الوجيه عليّ سيف الضابط بنظرة امتنان وتمتم:

ـ همّة عظيمة حقًّا!

فقال الضابط بلهجة ساخرة وهو يتفحّصه بنظرة ذات معنى:

ـ أرجو أن تكون في موضعها!

وقلق الوجيه وتأكّدت ظنون طالما ساورته، ولكنّه كان شديد الحذر، وعليه أن يستزيد من هذا الحذر مستقبلًا. واستطرد الضابط قائلًا بلهجته الساخرة:

ـ مبارك عليك! المال الحلال لا يضيع...!

وَجْهًا لِوَجْه

في أقصى مكان بالحديقة جلسا شبه منفردين. وطيلة الوقت تبادلا نظرة مفعمة بالتطلّع والهناء وهما يحسوان الليمونادة:

ـ ستكون سهرة طيّبة بسينما ركس.

ـ والفيلم عن قصّة غراميّة مشهورة فهو يناسبنا جدًّا.

ابتسمت لتعليقه. وكان الفانوس الأنيق يبعث ضوءًا هادئًا فأضفى عليهما غموضًا فاتنًا. وسطعت رائحة الياسمين المطلّ من ثغرات التكعيبة المطوّقة للحديقة الصغيرة، ولم يكن بطرفها الآخر إلّا زوجان مثلهما غارقان في التهامس. ونسمة لطيفة مشحونة برطوبة أغسطس تردّدت من آن لآن.

وقال حامد:

ـ كالحلم، كثيرًا ما قلت ذلك لنفسي.

ـ هو كذلك، لكنّه حلم جميل.

منذ رآها في رأس البرّ في يوليو الماضي وهو يردّد ذلك. بعد اختفاء خمسة عشر عامًا رآها عند اللسان ساعة القيلولة. التقت عيناهما في نظرة تذكّر وعرفان. وابتسما بلا خطّة. تقدّم منها مادًّا يده فصافحته. أتذكرين مصر الجديدة؟ نعم... شارع الزقازيق. منذ ذلك الوقت لم أرَكِ...

بلى، متزوّجة وخارج القاهرة أكثر الوقت. وتقابلا في الصباح التالي فعلم أنّها مطلّقة من عام وأنّ ابنها الوحيد قد ضُمّ إلى حضانة أبيه. وغادرا المصيف في يومين متعاقبين وهما على تفاهم وميعاد...

ـ ها نحن الآن نفكّر فيما كان يجب أن نفكّر فيه منذ خمسة عشر عامًا!

فابتسمت سهام قائلة:

ـ القسمة والنصيب.

ـ وكنت أراك كلّ يوم تقريبًا.

ـ أذكر ذلك.

ـ وكنت معجبًا بك!

ـ ولكنّك... أعني لم تفصح بأيّ سبيل عن ذلك الإعجاب.

قال بنبرة المعتذر:

ـ كنت وقتذاك مترجمًا صغيرًا بالخارجيّة ومرشّحًا لبعثة.

ـ والعواطف أكانت محرّمة على صغار المترجمين؟

فضحك ضحكة مقتضبة ثمّ قال:

ـ ليس من السهل التحدّث عن خيال الشباب!

ـ أمّا أنا فقد انتظرت حتّى ضقت بالصمت.

ـ وبلغت أنا الأربعين ولم أتزوّج.

بعد تردّد وهي تبتسم:

ـ لماذا؟... مجرّد سؤال لا يتضمّن أيّ اعتراض بطبيعة الحال.

ـ سرقني الوقت، كثيرون يمضون هكذا...

اتّجهت عيناها لحظات إلى العاشقين في الطرف الآخر للحديقة. ناضجة تمامًا وهو من حسن الحظّ

يفضّل ناضجات نصف العمر.

ـ وعندما قابلتك بعد خمسة عشر عامًا من الاختفاء وجدتك مطلّقة وحزينة لحرمانك من ابنك، فتذكّرت بقوّة غير متوقّعة أنّني بلغت الأربعين دون زواج وقلت لنفسي لعلّ هٰذا اللقاء قد تمّ ليصحّح أكثر من خطأ.

وترامت نشرة أخبار الثامنة والنصف من مقهى بالسوق وراء محلّ بيجل فاقتحمت مجلسهما الهادئ المعبق بالياسمين. وتساءل حامد:

ـ هل الحرب حقًّا وشيكة الوقوع؟

فقالت باستهانة:

ـ هٰكذا يقولون منذ أن تولّى هتلر الحكم.

ـ صدقت، المهمّ أن نتزوّج في أقرب وقت ممكن.

عكست عيناها نظرتين متعاقبتين، الأولى مشرقة والأخرى غامضة دارتها بابتسامة فقال:

ـ لا شكّ أنّكِ فكّرت في ابنك.

ـ أنت تقرأني جيّدًا ولٰكنّي على الحالين لن أراه إلّا نادرًا.

ـ يمكن الاتّفاق على ذٰلك مع زوجك.

ـ لن يذعن، إنّها العداوة العمياء.

طالعها بنظرة إنكار فاستطردت:

ـ أكثر أعوام المعاشرة احترقت بنار العداوة. واستمرّت بفضل تعلّقي بابني، حتّى أدركني اليأس...

ـ سينسى الرجل العداوة مع الزمن.

ـ ليس هو بالرجل الذي ينسى.

ـ أمر مؤسف حقًّا.

ـ المهمّ أن تفكّر طويلًا قبل...

ـ فكّرت طويلًا ثمّ اخترتك عن اقتناع وحبّ.

قالت برضى:

ـ الواقع أنّي أشعر بغربة شديدة في بيت أختي بالرغم من أنّ حالتي الماليّة لا بأس بها.

ـ إنّي أدرك ذٰلك يا عزيزتي، لٰكن أتسمعين؟! هل حقًّا ستقع الحرب؟

ابتسمت ابتسامة دارت بها ضيقها بقطع تيّار الحديث الأوّل وقالت:

ـ لم تعد الأقوال تنطلي عليّ!

ـ الحالة أحرج ممّا تظنّين.

ـ أهي تزعجك لهٰذا الحدّ؟

ـ إيطاليا رابضة في ليبيا.

رنت إليه بنظرة هادئة فاستطرد:

ـ وهي رابضة أيضًا في الحبشة، أتدركين معنى ذٰلك؟

ـ ولٰكنّ الإنجليز...

ـ الإنجليز، إمّا أنّهم ضعفاء كما يؤكّد موسوليني وإمّا أنّهم أقوياء كما يدّعون. وفي الحالين ستتعرّض لأهوال الغزو.

ـ أنت منزعج كما لو أنّ الحرب ستعلن عليك أنت! بالله خبّرني لماذا ترى أن يتمّ الأمر في أقرب وقت ممكن؟

ـ آه...، نعم، يجب أن يتمّ الزواج في أقرب فرصة لأنّني عرضة للنقل إلى الخارج في أوّل حركة قادمة.

ـ عندك فكرة عن المكان المحتمل أن تنقل إليه؟

ـ فرنسا تصوّري أن يمضي شهر العسل في باريس!

ـ يا له من خيال! ولو أنّ ابني سيبقى في كفر الشيخ.

ـ سوف ترينه يومًا وهو رجل كامل، أمّا إذا قامت الحرب.

ـ لن يتمّ النقل، هٰذا كلّ ما هنالك...

ـ لن يمكن التكهّن بشيء.

ـ سنبقى هنا غالبًا وليس في هٰذا ما يضير.

ـ آه يا عزيزتي هل تدركين معنى ضرب بلد كبلدنا بقنابل الطيّارات؟

ـ لماذا يضربوننا؟! لسنا أعداء لأحد.

ـ سوف يتداعى كلّ قائم للخراب.

ـ لا أصدّق هٰذا.

ـ لماذا؟

ـ قلبي مطمئنّ في صدري.

ـ ما أجمل أن يطمئنّ إنسان في هٰذه الظروف!

ضحكت في رقّة بالغة وسألته:

ـ هل عرفتني في رأس البرّ من النظرة الأولى؟

ـ طبعًا.

- إذن لم أتغيّر كثيرًا؟
- أنت أجمل ممّا كنت إن يكن ذلك ممكنًا.
- لا تبالغ، ألم تترك سنّ المبالغات؟
- الحبّ لا يعترف بالزمن.
- أنا لم أسافر إلى الخارج من قبل.
- باريس! عروس الدنيا، صدّقيني.
- فرنسيّتي ليست على ما أودّ، ربّما التحقت بمعهد مناسب.
- أمّا إذا قامت الحرب ونحن في باريس؟
- الحرب أيضًا!!
- لتقم الآن إذا كانت تنوي ذلك.
- في باريس يمكن أن نرحل إلى بلد محايد كسويسرا.
- كلّ شيء يتوقّف على ما يصيب وطننا هنا.
- أنا مطمئنّة كما قلت لك، ولكن لماذا تقوم الحروب؟
- العداوات، الألمان يستعدّون لهذا اليوم منذ أكثر من عشرين سنة.
- عشرون سنة! إذن كيف يمكن أن تنسى عداوة؟
وهو يضحك:
- الناس لا ينسون العداوات ولكن من حسن الحظّ أنّهم يتزوّجون رغم ذلك!

غادرا الحديقة وهي تتأبّط ذراعه، وشقّا سبيلهما بين الموائد في محلّ بيجل الداخليّ حتّى انتهيا إلى شارع سليمان. ورغم الحرارة المرتفعة جرت نسمة الليل وومضت في السماء مئات النجوم فوق هامات العمارات الشاهقة. واقتربا في طريقهما من قهوة ليموند. كان يقف عند مدخلها ماسح أحذية مائلًا إلى الجدار في تراخٍ، يقبض بيد على صندوقه ويعبث بالأخرى بشارب ثائر غليظ كأنّ شعيراته قُدّت من أسلاك حديديّة. ربعة مليء، يرتدي فوق جلبابه سترة محلّاة ببطاقة خضراء تحمل اسم القهوة بأحرف بيضاء. وظهر عند رأس عطفة جانبيّة ملاصقة لجدار القهوة رجلان مجلببان. نادى أحدهما ماسح الأحذية قائلًا:
- يا عمّ... من فضلك...

استقام الرجل في وقفته ثمّ اتّجه نحو الرجلين اللذين وقفا داخل العطفة بعيدًا عن أنوار الشارع. وبلغ ماسح الأحذية موقف الرجلين عندما كان حامد وسهام يسيران بحذائه. وبغتة رفع الرجل الذي ناداه يده بهراوة إلى أقصى الذراع ثمّ هوى بها بكلّ قوّة فوق رأسه. صرخ الرجل متراجعًا إلى الشارع وقد سقط الصندوق من يده. وتشبّثت سهام بذراع حامد وهي ترتعد. وفي نفس الوقت رفع الرجل الآخر يده بهراوته وهوى بها فوق رأس الرجل المترنّح فوقع على ركبتيه متأوّهًا:
- آه... أنجدوني...

تتابعت الضربات من الرجلين بسرعة في قسوة وعنف وإصرار حتّى تهشّم الرأس وغرق في بحيرة من دماء. وحملقت سهام في المنظر الدمويّ بلا إرادة ثمّ شهقت وتداعت مغمًى عليها فتلقّاها حامد بين ذراعيه. وارتفع الصياح، وهرع أناس إلى المكان من جميع الجهات، وهبّ الجالسون على الطوار من روّاد القهوة وقوفًا يتطلّعون، ثمّ قدم شرطيّ جريًا وهو يصفر.

لم يجرِ القاتلان. لم يحاولا الهرب قطّ. وظلّ كلاهما قابضًا على هراوته الملطّخة بالدماء وعيناهما تعكسان نظرات وحشيّة متحجّرة. وقال أكبرهما:
- نحن تحت أمر الشاويش ولكن حذار أن يقترب منكم أحد.

حمل حامد سهام بين ذراعيه ومضى بها إلى مشرب عصير قريب من القهوة. أجلسها على مقعد في أقصى المحلّ وراح يربّت على خدّيها برفق. وسأله صاحب المحلّ:
- أطلب الإسعاف؟
فأجاب وهو يبلّل منديله بالماء:
- انتظر لحظة من فضلك، ربّما أفاقت دون حاجة إلى مساعدة...

وجعل يمسح بالمنديل المبلّل وجهها وعنقها حتّى عجن البودرة بالأحمر بالكحل، هذا والضجّة في الخارج تتزايد وسباب يُتبادل بلا حساب. وفتحت سهام عينيها. رنت بها إلى وجهه في ذهول. وقلّبتهما في

الوجوه بدهشة، ثمّ غمغمت:

ـ أنا تعبانة...

فقال لها وهو يواصل مسح وجهها ليزيل عنه الأصباغ تمامًا:

ـ سآتيك بكوب عصير...

شربت قليلًا فيها يشبه التقزّز وغمغمت مرّة أخرى:

ـ منظر فظيع لا يمكن أن يُنسى...

ـ سيُنسى كلّ شيء حتمًا.

ـ ووقع الضربات على الرأس... آه...

ـ شدّي حيلك، يجب أن نذهب.

وإذا بصرخة تفلت منها وهي تشير إلى قميصه بعصبيّة منذعرة. نظر في مرآة فرأى رشاشًا من الدم قد لوّث أعلى قميصه فتقلّص وجهه ورأى مثله فوق صفحة حقيبتها البيضاء وثنية شالها. بلّ منديله للمرّة الرابعة وراح يزيل آثار الدم عن القميص والحقيبة والشال فهتفت:

ـ هل لوّثني أيضًا؟

ـ لم يعد هناك شيء، انظري بنفسك.

عاودتها الرعدة فقال بجزع:

ـ لا شيء خطير ألبتّة، لسنا أطفالًا على أيّ حال.

ـ لا تترك نقطة واحدة.

ـ طبعًا... طبعًا. استريحي واهدئي.

أغمضت عينيها في إعياء واستسلام، ورجع أناس من مكان الحادث إلى مقاعدهم وهم يتبادلون التعليقات فسأل صاحب المحلّ الذي لم يستطع مغادرته:

ـ كيف حال جاد الله؟

ـ مات وشبع موتًا...

ـ مسكين، لكنّه رجل طيّب ولا أعداء له؟

ـ القاتلان ليسا من البلد، صعيديّان من أبنوب!

ـ ما له وأبنوب؟... عرفته هنا منذ عشرين عامًا.

ـ ثأر قديم، هذا مؤكّد.

وقال رجل بلهجة تلخيصيّة:

ـ لعلّه جاء من بلده هاربًا، ثمّ عثروا عليه فانتهى عمره الليلة، حكاية لم تعد تدهش أحدًا...

الهَـارِبُ مِنَ الإِعْـدَام

غزا الجيش الألمانيّ الأراضي البولنديّة...

انطلق الخبر من راديو مثبت في كوّة بجدار الحجرة الوحيدة القائمة في الخرابة، وترامى خارج الأسوار في أرض الخفير الواسعة، وصاح دحروج بحدّة:

ـ هس... اسمع أنت وهي...

سكت عن الزياط الولد وأخواته الثلاث. ولـمّا رأوا الجدّ في وجه أبيهم تسلّلوا بين أكوام الخردة وإطارات السيّارات وقطع الغيار إلى الطرف القصيّ من الخرابة، وهناك واصلوا لعبهم في أمان. وتوقّفت آمنة عن نشر الغسيل رافعة رأسها فوق الحبل المعلّق ما بين قضيب بنافذة الحجرة وسقف لوري قديم وصاحت بزوجها محتجّة:

ـ أفزعت العيال، ملعون الراديو وأخباره!

تجاهلها دحروج في غير ما غضب وأخذ النفَس الأخير من عقب سيجارة ممسك بأنملَيْه ثمّ قال:

ـ إذن هي الحرب!

أدرك سلامة أنّ الكلام موجّه إليه فرفع رأسه عن عجلة كان يعالج إطارها وحدج الرجل بعينين تلتمعان وسط لحية سوداء غزيرة تكتنف الوجه وتسترسل حتّى الرقبة ثمّ قال باستهانة:

ـ نعم، أخيرًا صدقوا.

وانتهز سلامة فرصة تحوُّل رأس دحروج نحو الصوت فاسترق إلى المرأة نظرة استقرّت فوق وجهها المشرئبّ ثمّ انحدرت إلى جسمها الممشوق الريّان الصدر. ولمحته المرأة قبل أن يستردّها كأنّما توقّعتها وسرعان ما ولّته ظهرها. انحنى الرجل فوق العجلة وهو يقول لنفسه ما أفظع الحرب في حرارة أغسطس، ما أفظع الحرارة! والتفت دحروج نحوه وهو يقول:

ـ طالما تنبّأوا بأنّها ستخرب العالم، ماذا عنّا نحن؟

أجاب السنيّ باسمًا:

ـ نحن بعيدون، فليأكل بعضهم بعضًا...

وضع رجلًا على رجل وهو يجلس على صفيحة مقلوبة ونظر إلى بعيد نظرة حالمة ثمّ قال:

ـ سمعنا الأعاجيب عن الحرب الماضية

فقالت آمنة ضاحكة:

- أصلك عجوز!

فضحك دحروج عن أسنان سود قائلًا بسخرية:

- أنت لا تهتمّين إلّا ببطنك...

وقال سلامة وكان رغم تجاوزه الشباب يصغر صاحبه بعشر سنوات على الأقلّ:

- حقًّا سمعنا الأعاجيب.

- الأسيوطي من هو؟ كان قبل الحرب شيّالًا!

ورجع العيال ناسين الوعيد فرجعت الضوضاء، وجرى محمود ابن السابعة - وهو البكريّ - وهنّ في ذيله فرمقه أبوه بإعجاب وصاح به:

- ولد يا محمود شدّ حيلك، الحرب قامت!

وعند الأصيل جلس دحروج وسلامة على خيشة متجاورين خارج سور الخرابة. ترامت أمامهما الصحراء حتّى سفح الجبل، منطفئة الرمال تحت الظلّ، وانداحت في السماء الصافية صفرة باهتة هي بقيّة أنفاس القيظ المختنقة. وثمّة شعاع وإن من الشمس المائلة يتسلّق هامة الجبل في عجلة، على أنّ الصحراء تزفر هواء منعشًا باقتراب المساء. وراح دحروج يعدّ القروش والسنيّ مسند الرأس إلى جدار السور سارح البصر في الأفق. وجاءت آمنة بالشاي وجرى العيال إلى الخلاء حفاة نصف عرايا. ورشف دحروج قليلًا من الشاي الساخن وهو يقول:

- قلبي يحدّثني يا سلامة بأنّ الشغل سيضحك عاليًا.

- ليصدق قلبك يا أبو محمود.

- ليتني أستطيع أن أعتمد عليك.

- صديقك... وأسير شهامتك... ولكن لا يمكن أن أبرح الخرابة!

تفكّر دحروج قليلًا ثمّ تساءل:

- هل يعرفك أحد في المدينة الكبيرة خلف هذه اللحية؟

- إنّهم يعرفون الجنّ.

- وهل ينقضي عمرك في الخرابة؟

- هي خير من حبل المشنقة يا أبو محمود!

أطلق دحروج ضحكة عالية ثمّ قال:

- يحقّ لي أن أضحك كلّما تذكّرت حكاية هربك من بين حارسين!

- خير الهرب ما وقع حيث لا ينتظر.

فقالت آمنة وهي واقفة مستقبلة الخلاء وقد انحسر شالها عن نصف رأسها الفاحم:

- وانعدم الرجل بلا دية!

فقال سلامة بنبرة غاضبة:

- كان قاتلًا ابن قاتل، وقد تقدّم به العمر حتّى خفت أن يسبقني الموت إليه، ولم يكن يكفّ الأهل عن مطالبتي بالثأر.

فقهقه دحروج عاليًا ثمّ قال:

- وهربت والأوراق محمولة إلى المفتي...

شدّ سلامة على ذراعه بامتنان قائلًا:

- ووجدت نفسي ضائعًا فقلت ليس لي إلّا دحروج صديق صباي فأويتني يا شهم الرجال.

- نحن رجال يا سلامة.

- على أيّ حال فالمخزن هنا في حاجة إلى رجل وإنّي رجله.

وقطع حديثهم ظهور جنازة في الأفق قادمة من ناحية العمران. مضت تتقدّم نحو الطريق المحاذي لسور الخرابة الغربيّ المفضي في نهايته إلى قرافة الخفير. ووضح النعش مسجّى بغطاء من الحرير الأبيض فتمتمت آمنة:

- شابّة صغيرة يا حسرة عليها.

فقال سلامة:

- المكان هنا جميل وآمن فلا عيب فيه إلّا أنّه في طريق القرافة.

فتساءل دحروج وهو يضحك:

- أليس طريقنا جميعًا؟!

لم يطرأ على الخلاء تغيّر يذكر مذ أعلنت الحرب. ظلّ ملعبًا للشمس من الشروق إلى الغروب، ومعبرًا للنعوش، ومعسكرًا للصمت. وأطلقت زمّارات إنذار في تجارب غارات وهميّة. وارتفعت أهمّيّة الراديو القديم الباهت إلى القمّة حتّى بات في وسع دحروج أن يحصي القنابل المتبادلة بين سيجفريد وماجينو. وكلّما استقبلت حواسّ سلامة صوتًا منغومًا أو حركة لاعبة أو نظرة ولو

غير مقصودة احترق باطنه بنار شرهة وغَضِبَ في ذات الوقت على نفسه بلا رحمة. وقال دحروج في ضجر:

ـ الحال لم تتغيّر فأين ما سمعنا عن الحرب؟!

ـ صبرك، ألا تذكر ما قال عميلك اليهوديّ؟

نظر دحروج نحو أكوام الحديد التي ملأ بها المكان عملًا بنصيحة عميله ثمّ قال:

ـ فلتسرع الأيّام...

ـ فلتسرع، ولتلتهم خمسة عشر عامًا من الزمن!

ـ خمسة عشر عامًا؟!

ـ في آخرها تسقط عنّي العقوبة!

ـ يا له من عمر! سوف نكون على حافة حرب ثالثة!

وراح يغنّي بصوت محشرج غريب «يا بهيّة خبّريني» ثمّ هتف:

ـ معلّم دحروج... لن يبقى من أهلي أحد إلّا النساء!

وقال إنّ آمنة تلعب بعقله وهي لا تدري، أو وهي تدري، وإنّه سيدخل الجحيم قبل أن يدركه الموت. ولم تكن الحرب تهمّه في شيء ولكنّه سمع بين فواصل من الأغاني أنباء اجتياح هولنده وبلجيكا وسقوط باريس. وتتابعت أمام العين طوابير اللاجئين، وامتلأ الفراغ بالتنهّدات والدموع، ثمّ إذا بإيطاليا تعلن الحرب. وقال دحروج بقلق:

ـ ها هي تدقّ الأبواب!

فقال سلامة بعدم اكتراث:

ـ لا علينا ولا لنا.

وتمتمت آمنة وهي تتابع لعب العيال العرايا حول برميل مليء بالماء:

ـ ربّنا كبير.

ولأوّل مرّة انطلقت زمّارة إنذار بغارة حقيقيّة. استيقظ دحروج وأسرته كما استيقظ سلامة في مرقده باللوري. وأعلنت آمنة عن خوفها على العيال وقالت إنّ المخبأ بعيد فقال دحروج:

ـ ابقي في الحجرة فلن يضربوا الخلاء أو القرافة...

ورفع سلامة رأسه نحو البدر الذي يحدّق فيهم بهدوئه الأبديّ ثمّ قال:

ـ لا أرى إلّا أنوارًا مجنونة.

ومن نافذة اللوري مدّ بصره إلى الحجرة المغلقة. قائمة لصق السور على يسار المدخل بسقف مائل نحو الباب وجدار لا لون له، مطليّة بضوء القمر طاوية جوانحها على قلوب مفعمة بالقلق، ككوخ مهجور فتخيّل أنّه جنّ الليل والخلاء. والغارة تنقضّ فتهدم كلّ قائم في المدينة وتطيح بالقانون والمفتي والقاضي والسجّان وحبل المشنقة. ويتفجّر باطن الأرض وتجتاح كلّ شيء حتّى الشهامة تختنق أنفاسها. وينهض من بين الأنقاض رجل عارٍ وامرأة ممزّقة الثياب وقد قتل الرقباء.

وتلاحقت الغارات ليلة بعد أخرى. غارات صامتة كالخلاء أو تتخلّلها مدافع مضادّة. واعتاد دحروج في أثناء الغارة أن يذهب إلى سلامة في اللوري ليشاهد السماء ويتحادثا:

ـ ليست الغارات كما سمعنا!

ـ الطليان ليسوا كالألمان.

وضحك دحروج وقبض على لحية سلامة قائلًا:

ـ أنت مغالط عزرائيل في عمرك!

ـ نعم، كان ينبغي أن أكون في القبر منذ عام ونصف عام على الأقلّ.

ـ ولذلك فأنت لا تخاف الموت؟!

ـ بل أخافه منذ أن شممت رائحته وهم يحملونه إلى المفتي!

ـ تصوّر كيف كان يكون شكلك الآن؟

ـ أحمد الله الذي أمهلني حتّى أرى الأنوار الكشّافة والمدافع المضادّة...

ودبّ نشاط جديد في الخرابة ثمّ تضخّم بحال لم يحلم بها دحروج من قبل. ومضى يغيب عن المكان ساعات كلّ يوم ثمّ استغرقت الأعمال الخارجيّة نهاره كلّه. وعمل سلامة في الخرابة بكلّ همّة كحارس وكخزّان. وفي أوقات الفراغ يجلس على إطار من المطّاط مسند الظهر إلى رفرف اللوري الخلفيّ، يدخّن سيجارة أو يمشط لحيته، وعيناه الحادّتان تذعنان في مطاوعة متزايدة لرغباته الجامحة. وقال إنّها تتجاهل

عينيه ولكنّها شديدة الإحساس بهما طوال الوقت، وإنّ نظرته الثاقبة تسيطر على حركاتها وسكناتها كأنّما تلعب بها بخيط خفيّ. ونظر إلى السماء يتابع حدأة تجول جولة الوداع عند الأصيل ثمّ نظر أمامه فرآها واقفة على مبعدة أمتار منه تجاه الصنبور الذي تدفّق منه الماء إلى صفيحة. وقال:

ـ كان يومًا شديد الحرارة. . .

هزّت رأسها بالإيجاب، ونظرت إلى عينيه المحدّقتين ثمّ غضّت بصرها وهي تداري ابتسامة. اكتسحت الابتسامة وازع الشهامة في صدره فاجتاحه إعصار. وتنهّد بصوت مسموع فزجرت المرأة محمود الذي جذب أخته من ضفيرتها عند الباب. وسألته:

ـ أُعِدّ لك الشاي؟

فقال بنبرة تمرّدت على سيطرته:

ـ من المنتظر أن يسافر قريبًا إلى الشرقيّة!

ورجع دحروج مع المساء. بدا متعبًا معفّرًا ولكنّ النجاح تألّق في عينيه. وضحك عاليًا وهو يقول لسلامة:

ـ يا ولد العمّ، ليست الحرب كما يقولون، الحرب نعمة كبرى!

وأعطى آمنة لفافة لحم كبيرة قائلًا:

ـ أسرعي، لم أذق اليوم لقمة واحدة.

ومن داخل الحجرة وهو يغيّر ملابسه ارتفع صوته:

ـ سأسافر غدًا إلى الشرقيّة. . .

غاب يومين وعند أصيل اليوم الثالث انتظره سلامة فوق الخيشة خارج السور. جلس هادئًا ثقيل الجفنين، يتخلّل لحيته بأصابعه، يحصي الحدأ المتخلّفة ويبادل الخلاء فتورًا واستسلامًا. وترامى إليه من الداخل صوت آمنة وهي تنهر العيال بصوت هزّه المرح فرنا إلى ذيل الشمس الآخذ في الانحسار عن قمّة الجبل وقال إنّ الليل لن يلبث أن يجثم. ولفته صوت من الغرب فرأى تاكسي قادمًا حتّى وقف عند نهاية السور ثمّ غادره دحروج. اقترب الرجل وهو يضرب الأرض بقدم ثقيلة ثابتة ورأسه مرفوع. استقبله واقفًا فتصافحا ثمّ لكمه الرجل في صدره وهو يضحك قائلًا:

ـ سلامة يا بن زينب، الإنجليز رجال!

رمقه مستطلعًا فاستطرد الآخر في مباهاة:

ـ وأصلهم من الصعيد. . . !

فدعا له بالمزيد من التوفيق. ودخل الرجل الخرابة صائحًا بفرح كالأطفال:

ـ ولد يا محمود. . .

وراح يغنّي «سَلّم عليّ» وهو يفرقع بأصابعه راقصًا.

وعوت الزمّارة قبيل الفجر فمضى دحروج وسلامة إلى الخلاء خارج السور كما تعوّدا أن يفعلا أخيرًا.

وقال دحروج:

ـ لم تعد الزمّارة تخيف أحدًا.

انسابت الصحراء تحت ضوء القمر مرتعًا للأحلام. وضحك دحروج طويلًا حتّى سأله سلامة عمّا يُضحكه فأجاب وهو يومئ بكوعه إلى الحجرة:

ـ شهدت هذه الليلة عمّك دحروج كما كانت تشهده ليالي الشباب!

وحلّ صمت قصير مسقوفًا بأنوار الكشّافات ثمّ عاد دحروج يقول بلهجة جادّة وأخويّة معًا:

ـ سلامة. ليس اليوم كالأمس، سيجيء كثيرون من العملاء الجدد، أخشى عليك!

سأله سلامة واجمًا:

ـ هل ينبغي أن أذهب؟

ـ نعم، سأهرّبك إلى فلسطين، وستعمل هناك لحسابي، ما رأيك؟

ـ الرأي رأيك. . .

قال بثقة:

ـ كلّ شيء مرسوم يا بن زينب!

وفجأة ارتجّت الأرض بزلزال ودوّى انفجار شلّ خفقان القلب. شدّ دحروج على ساعد سلامة بعصبيّة:

ـ ما هذا؟

أجاب سلامة ووجهه يشحب في ضوء القمر:

ـ قنبلة! . . . أسرع إلى الحجرة. . .

وارتفعت صرخة آمنة فصاح بها دحروج:

ـ مكانك. . . مكانك يا آمنة. . .

وإذا بالضرب يتتابع بلا توقّف. جرى الرجلان نحو الخرابة. وفي اللحظة التالية ندّت صرخة عن

دحروج ثمّ سقط على وجهه. هتف سلامة:

ـ معلّم!

وانحنى فوقه ليساعده على القيام ولٰكنّه لم يستطع شيئًا. وانطرح فوقه بلا إرادة. وانغرزت جبهته في الرمال. وهبطت الأرض. وارتفع جناح الصحراء صوب السماء. وشيء كثيف حجب وجه القمر.

ـ ماذا بك يا دحروج؟

ونادى صوت ثمّ ابتلع الظلام كلّ صوت وكلّ لون.

وأراد سلامة أن يقول لصاحبه: سامحني لقد غلبني النوم...

ولٰكنّه لم ينبس بكلمة واحدة.

سائق القطار

كلّ شيء يجري إلى الوراء. الصفصاف وأعمدة البرق تجري بسرعة فائقة أمّا الأسلاك فتسبح بلا توقّف هابطة صاعدة. وعلى مدى البصر تغمر الشمس غير المرئيّة الحقول والجداول وقطعان البقر والجاموس وأبناء الأرض. وَدَّ أن يستسلم لتيّار المناظر ولٰكنّ حناجر الجيران المزعجة أبت عليه ذٰلك. ما بالهم محتدّين. لماذا يغطّي صخبهم على صوت الديزل! وحوّل عينيه إلى الداخل فرأى إلى يمينه رجلًا بدينًا ذكّرته هيئته بدبّ، وعلى المقعد المزدوج أمامه جلس رجل له وجه صقر وامرأة حسناء تابعت حديثهما الصاخب بضيق وحرج واضحين. وقال الصقر مخاطبًا الدبّ بحدّة وانفعال:

ـ لا تحاول عبثًا...!

واشتدّ بريق عينيه الجاحظتين وتجمّع في ركنَيْ فيه زبد أبيض وسرت تقلّصات عصبيّة في شاربه المقوّس كهلال مقلوب وبدت الحسناء وادعة كحمامة ولٰكنّها في خلال المناقشة الحامية هجرت فوق الرفّ، ثمّ تطوّعت لتلطيف الجوّ فخاطبت الصقر قائلة بصوت ناعم:

ـ أعطه فرصة... اسمع رأيه...

فصاح بها:

ـ لا تتدخّلي... أنا هو أنا...

تراجعت بجمالها ونعومتها ويأسها. وفي أثناء ذٰلك التقت عيناها بعيني الغريب الجالس إلى جوار النافذة وكأنّما آلمها أن تعامل أمامه كطفلة. وبقدر ما أسف الغريب لحالها بقدر ما بهره جمال عينيها وهما ينفذان في عينيه. وقال الدبّ في هدوء نسبيّ ولٰكن بصوت ذي رنين منفّر:

ـ على أيّ حال فالناس للناس.

ـ هراء! أنا أتعامل مع جميع أنواع الحيوان أمّا ذٰلك الإنسان...

ولوى بوزه بازدراء لا حدّ له فسأله الآخر:

ـ هل علمت بما جرى له في الفترة الأخيرة؟

ـ أنا أعرف أقصر طريق بين نقطتين!

ـ سنجد في النهاية أنّ يدك اليمنى تضرب اليسرى.

فلوّح بيده غاضبًا وهو يقول:

ـ إنّنا لا نتردّد عن بتر اليد أو الساق عند الضرورة!

آه... لا سبيل إلى الاستمتاع بالمناظر الخلّابة في الخارج. ومهما تتجاهل المعركة السخيفة التي انحصرت في مجالها فسوف تلاحقك كضربات المطرقة. لن تنسى الزبد المقرف وحتّى رنوة العين الصافية لن تدعك في سلام! وللحال تأكّد أنّ احتدام المعركة لن ينقطع كدويّ عجلات الديزل المتواصل في روتين مسقم، وليس ثمّة مقعد خالٍ في العربة يمكن الهروب إليه.

وطرح رأسه على مسند المقعد وأغمض عينيه. وكأنّ الله استجاب لدعاء خفيّ فأخذت المناقشة تستهلك نفسها بنفسها فخفتت الأصوات ثمّ حلّ صمت عجيب مريح، وقد خلا كلّ إلى تيّاره. بديع كحلم. واللعنة على الرجل العنيد وعلى كلّ خصام. وفتح عينيه ربع فتحة مسترقًا نظرة من الوجه الرائق فرآه منبسطًا قد زايله الحرج والخجل وشعور المذلّة. وعلى حين راح الدبّ يشخر انهمك الصقر في مطالعة جريدة، وتجلّت في عيني الحسناء نظرة هادئة كأوّل إشراقة للصباح، متمادية في الحلم لا تنظر إلى شيء بالذات. وفتح عينيه نصف فتحة فالتفتت عيناها إليه مستجيبة فيما بدا لإحساس خفيّ. وقال لها ـ في

باطنه - كم أحبّ منظرك، فحوّلت عنه عينيها في شبه رضى حتّى عجب لقوّته السحريّة. وانتبه إلى ما حوله أقصى انتباه، ولـمّا اطمأنّ إلى غفلة الصقر ونوم الدبّ ملأ عينيه منها بنهم، فرأى فيما رأى خاتم الزواج في يسراها المستكنّة على عِناها فوق بطنها. وما لبث الصقر أن نحّى الجريدة جانبًا ومال برأسه إلى الوراء ثمّ استغرق في النوم. وتولّاه شعور بالأمان عجيب كأنّ الدنيا قد خلت بعد نوم الرجلين خلوًّا تامًّا. وانبعثت من أعماقه جسارة واستهانة فواصل حديثه الباطنيّ بعينيه إلى أبعد مدى. وقامت المرأة وهي تبتسم ابتسامة لا ترى عادة إلّا بالقلب ومضت نحو مدخل العربة. وباندفاع لا رويّة فيه قام ثمّ تبعها على الأثر. ولم يكن بالمدخل أحد سواها، ولم تدخل دورة المياه كما توقّع ولٰكنّها وقفت وراء الباب المحكم الإغلاق رانية إلى الحقول، ولـمّا سمعت وقع قدميه التفتت نحوه عفوًا فانتهز الفرصة وحيّاها بهزّة قصيرة من رأسه. أعادت رأسها إلى موضعه الأوّل دون ردّ ودون اعتراض كذٰلك فقال متشجّعًا:

- لاحظت بأسف شديد التنافر الواضح بين طبعك الهادئ والجلسة المزعجة!

وافقت على رأيه بمزيد من الصمت الراضي فضحك ضحكة قصيرة خافتة وهو يهمس:

- الوقوف هنا أجمل.

عند ذاك تمتمت:

- أظنّنا أزعجناك أكثر ممّا يحتمل.

ولشعوره بقصر الفرصة المتاحة سألها:

- حضرتك من القاهرة؟

هزّت رأسها بالنفي. وبعد وقفة قصيرة قالت:

- من طنطا، وحضرتك؟

هزّه السؤال الإيجابيّ حتّى الأعماق فقال دون تردّد:

- أنا من القاهرة، أيمكن أن أعرف عنوانك؟

- لا فائدة، نحن نقيم في العزبة...

- ربّما سافرت إلى القاهرة فخذي رقم التليفون...

- لا فائدة...

وبعد أن ألقى نظرة على الباب المغلق قال بحرارة:

- إنّ ما بي هو الجنون بعينه، لا يمكن أن نسلّم بالفراق دون مقاومة، أنت تفهمين ذٰلك؟

- نعم...

ارتفعت حرارة حماسه إلى القمّة وهو يقول:

- يخيّل إليّ أنّك غير سعيدة...

- نعم، جميع ما حولي مرعب مقزّز، أودّ أن أطير بعيدًا...

- إذن طيري.

حدجته بنظرة متسائلة تروم أملًا فقال:

- نغادر الديزل في دمنهور.

- أهرب!

- نعم، لا وقت للتردّد..

- وبعد ذٰلك؟

- دعي الباقي لي.

- ربّما استيقظ قبل ذٰلك، هو أو الآخر...

- سوف يظنّك بدورة المياه...

- ولٰكن...

- لا لٰكن، سنحاول، هي فرصتنا على أيّ حال.

- لٰكن لا أحد منّا يعرف الآخر!

- ما عرفناه حتّى الآن أهمّ بكثير ممّا لم نعرفه بعد!

وفتح الباب قيراطًا لينظر إلى داخل العربة ولـمّا وجد كلّ شيء هادئًا أغلقه ثمّ نظر في الساعة وقال:

- لدينا دقائق قبل دمنهور، سآتي بحقيبتي الصغيرة.

ورجع بعينين ملتمعتين ووجه شديد الإصرار فقال بقلق:

- القطار لم يهدّئ من سرعته!

فنظر في الساعة مرّة أخرى وقال:

- لعلّي أخطأت في التقدير.

العكس حصل إذ زادت سرعة الديزل زيادة محسوسة غير متوقّعة وما لبثت المرأة أن هتفت:

- انظر!

مشيرة إلى محطّة دمنهور وهي تجري بسرعة فائقة إلى الوراء ككلّ شيء في الخارج:

- كيف لم يقف في محطّة دمنهور؟!

وإذا بباب العربة يفتح، ورجل يندفع منه نحو باب العربة التالية وهو يصيح بأعلى صوته:

- السائق جنّ!... وسيهلكنا جميعًا!

استدارت المرأة في ذهول وتبادلت مع الرجل نظرة حائرة، وترك الرجل حقيبته ثمّ فتح باب العربة ناظرًا إلى الداخل فرأى جميع الركّاب واقفين في حال من الاضطراب والذعر لا توصف. وقد فتحت النوافذ جميعًا واختلطت الأصوات وارتفعت في هلوسة، ورأى الصقر وهو يصرخ غاضبًا وفي ذات الوقت ينظر حواليه باحثًا ـ فيما اعتقد ـ عن المرأة، فأراد أن يحذّرها ولكنّه سرعان ما نسي ذلك واندفع نحو الداخل سائلًا عمّا هنالك فلم يُسمع صوته فشقّ سبيله بعسر شديد نحو العربة التالية صائحًا:

ـ أين المفتّش؟... أين رجال القطار...؟!

ومدّ يده ليفتح الباب فانفتح قبل أن يلمسه وهرول إلى الداخل رجل صائحًا:

ـ السائق اعتدى على مساعده وقذف به خارج حجرته!

فسأله بأعلى صوته:

ـ قبضوا عليه؟

ـ أغلق بابه دونهم ودفع القاطرة إلى آخر سرعة...

وارتطم الصياح بالصوات. ورغم الضجّة المدوّية سمع صوتًا يقول:

ـ ستنفجر القاطرة أو يقع اصطدام قاتل.

ـ والعمل؟

ـ سيهلك الجميع...

اندفع من الباب مخترقًا البوفيه إلى المدخل المتّصل بحجرة السائق المغلقة فرأى المفتّش ورجال القطار ونفرًا من الركّاب، وسمع أحدهم يسأل:

ـ ما العمل؟

فأجاب المفتّش:

ـ نحن نفكّر في كلّ شيء.

ـ وهل ثمّة أمل؟

تجاهل المفتّش السؤال ثمّ رفع يده داعيًا الجميع إلى السكوت فأطبق الصمت، ثمّ راح يطرق الباب المغلق بيده هاتفًا:

ـ عبد الغفّار أصغِ إليّ...

فجاء من الداخل صوت كالرعد:

ـ لا تحاول... عبثًا...

فصاح المفتّش:

ـ يجب أن تسمع لنا.. لا شأن للناس بمشاكلك الخاصّة.

ـ أنا هو أنا!

ـ عبد الغفّار.. ما ذنب الناس؟ معك رجال ونساء وأطفال... كلّهم أبرياء!

ـ هراء!

ـ ارجع إلى عقلك قبل فوات الفرصة.

ـ هراء!

ـ تذكّر ربّك، ألا تخشى لقاءه؟

ـ هراء!

ارتفعت درجات الذعر إلى غير حدّ، وتفشّى الاضطراب في كلّ موضع. وبُذلت محاولات يائسة لدفع الباب أو تحطيمه ولكنّها سرعان ما توقّفت عندما هدّد السائق بتفجير القاطرة. وأغمي على كثرة من النساء وبعض الرجال. وفَقَدَ شابّ أعصابه فرمى بنفسه من إحدى النوافذ مودّعًا الحياة بعواء ظلّ صداه يتردّد طويلًا. ونشبت معارك غريبة لم يُعْنَ أحد بفضّها أو معرفة بواعثها.

واقترب الرجل من كبير المفتّشين وزعق به:

ـ أليس هنالك من حيلة؟

فأجاب الرجل بصوت لا يقلّ عنه درجة واحدة:

ـ جرّبنا كلّ حيلة!

ـ أيعني هذا أن نفنى جميعًا لا لسبب إلّا...

وشعر بذراعين تطوّقانه من خلف قبل أن يتمّ جملته فالتفت في ذعر واضح فرأى المرأة تطالعه بوجه مخطوف وبصر زائغ فصاح بها بغيظ لم يحاول إخفاءه:

ـ تشدّدي... لا وقت لهذا...

فقالت بصوت مخنوق:

ـ أين أنت! جنّ زوجي فخنق أخي ثمّ راح يضرب رأسه في الجدار...

قال بضيق وكأنّه لم يسمع شيئًا:

ـ نحن نجري بسرعة جنونيّة نحو الفناء.

ارتمت بين يديه مغمًى عليها فقطّب في حنق، ثمّ مضى يجرّرها إلى ركن المكان فأنامها على الأرض

بسرعة آليّة باردة، ولـمّا عاد إلى المفتّش وجده يصرخ ويشدّ شاربـه ويبكي! ودقّ الرجـل الباب بقبضتـين مجنونتين هاتفًا:

ـ يا عبد الغفّار... يا عبد الغفّار...

فجاءته الإجابة كطوبة:

ـ أنا لا أعرفك...

ـ ولٰكنّك ستقتلني...

ـ هٰذا شأني ولا علاقة له بك!

ـ أنا لم أسئ إليك، لا أنا ولا الآخرون.

ـ لٰكنّكم ركبتم قطاري.

ـ قل قولًا معقولًا...

ـ أنتم المجانين!

ـ أليس لك أبناء؟

ـ كلّا.

ـ ألا تحبّ الحياة؟

ـ كلّا.

ـ أليس في قلبك رحمة؟

ـ كلّا.

ـ خبّرني ما ذنبنا؟

ـ أنتم تحبّون الديزل؟

ـ اطلب ما تشاء.

ـ ها أنا آخذ ما أريد بغير طلب.

وبصق المفتّش على الباب صارخًا:

ـ يا عبد الغفّار يا مجرم يا وضيع يا غادر يا وحش!

وقرّر الرجل أن يمضي إلى نافذة ليرمي بنفسه منها وليكن ما يكون. وهو يتحوّل عن موقفه وقعت عيناه على المرأة المستلقية في غيبوبـة فقال مـا أسعدهـا في غيبوبتها. ووجـد الركّـاب متكتّلين يسدّون المنـافذ. توحّدوا في ذهول ورعب وارتجاف. عبثًا حاول أن ينفذ من بينهم. ولـمّا يئس رمى بنفسه عليهم وسرعان ما تلقّته الأيدي بالضرب فانهال عليهم بدوره ضربًا حتّى لفّهم الجنون جميعًا. وإذا بالواقعة تقع. وقعت الصدمة المتوقّعة كأنّها ارتطام كونيّ: اندفع الناس بقوّة جهنّميّة فحُطّمت الرءوس، وطَحنت الجدران الأجساد. صرخ الرجل بأعلى حنجرته ورأى النجوم تتهاوى من حوله وصرخته تدور في فراغ أحمر.

فتح عينيه ودويّ صرخته يجعجع في أذنه!

آه... إنّه لا يصدّق. اعتدل في جلسته وهو يظنّ صرخته قد مزّقت الآذان. ولبث هنيهة لا يجرؤ على النظر إلى أحد. ثمّ أخذ يسترق النظر في حذر شديد فلم ير أحدًا شاعرًا له بوجود. تنهّد من الأعماق. وما لبث أن تنبّـه إلى استمرار النقـاش الحادّ بـين الصقر والدبّ.

ورأى المـرأة نصف مغمضـة العينـين غـارقـة في الضجـر. اللعنة... اللعنـة. وكان الصقـر يتحدّى صاحبه قائلًا:

ـ دعك من ضرب الأمثال العقيمة، لا تضيّع وقتي سدًى. أنت تعلم أنّ أنا هو أنا..!

لونـا بَارْك

تحرّك ببطء في طابور طويل طاويًا تذكرة الدخول في يده. تذكرة أهداها إليه أبوه وكانت في الأصل ضمن الهدايا الّتي تُوزّع باسم مدير لونابارك. تحرّك في عالم غـريب مكتظّ بالبشر فتلقّت حـواسّه في وقت واحـد فيضًا لا نهاية لـه من الأصوات والأضـواء والروائـح العـطريّة والعـرق وضغط الأجساد. ومضى يـتزحزح خطوة فخطوة في المدخل الممتـدّ على هيئـة بوق حتّى خرج من فوهته وقد زهقت منه الأنفاس. وجد نفسه في سـاحة يـطوف بها نسيم رقيق وتـطوّق بجناحيهـا أشجار متوسّطة مغروسة في أصص كبيرة فاتّجه نحـو طـريق ضيّقة تقـوم على جـانبيها دكـاكـين الأطعمـة فأفضت به إلى الملعب الكبير. في الفرج الـذي جاء بعد الضيق شعر بأنّه وُلـد من جديـد، وهٰكذا بـدأ رحلته. وصمّم على تجربة كلّ لعبة فإنّه لم يتكبّد مشقّة المجيء ليبقى متفرّجًا. وصادفه مربّع الأراجيح، وكان أكثر روّاده من الأطفال ولٰكنّه لم يخلُ من مغامِر شابّ، وإذا به يتّخذ موقفه في القارب الحديديّ قابضًا بيديه على العمودين، ويدفعه بحركة ذاتيّة فيصعد به ويهبط

محيّيًا ذكريات جميلة. وغادرها وهو راضٍ عن نفسه تمامًا فابتاع بسكويتة دندرمة ومضى في رحلته.

وللحال جذب انتباهه فرقعة وهتاف، وصوت الداعي «جرّب قوّة عضلاتك». ورأى مدفع القوّة يندفع فوق القضيبين الصاعدين نحو الهدف وقد ازدحم وراء الحاجز المتفرّجون والمنتظرون لدورهم.

توثّبت عضلاته للنضال. وسرعان ما اتّخذ مكانه بين المنتظرين وهو يبتسم في ثقة. ولمّا جاء دوره تقدّم من قاعدة المدفع وتناول مقبضه الصلب، وراح يدفعه دفعات قصيرة ليختبر ثقله وسرعته فينطلق إلى مدًى قريب صاعدًا ثمّ يتقهقر هابطًا فيتلقّاه من مقبضه مرّة أخرى، ثمّ شدّ على عضلاته ودفعه بأقصى قوّته فاندفع طاويًا القضيبين بسرعة حتّى ارتطم بالهدف الفولاذيّ وفرقعت الكبسولة في مقدّمته. تحوّل عن موقفه والهتاف يدوّي، ولكنّه ذاب في زحمة أكبر كما ذاب الهتاف في ضوضاء حلّقت فوق المكان كلّه. وشقّ سبيلًا مبهور العينين بأضواء المصابيح الملوّنة المتدلّية من غصون الشجر حتّى استقرّ أمام كشك لبيع البيرة المثلّجة. ومال برأسه إلى الوراء وهو يرفع القدح فرأى القمر في الأفق منخفضًا عن البالونات المنطلقة من صاري الملعب، ولا تميّز لنوره في وهج الأضواء الساطعة ولا عبرة لجلاله في الضوضاء المكتسحة الصاخبة. شرب حتّى ارتوى. واستمع قليلًا إلى أغنية تنهال من مكبّر صوت وهو ينظر من بعيد إلى مضمار السيّارات المكهربة.

ومضى إلى المضمار بنشاط متجدّد. استقلّ سيّارة فبدأ الرحلة المكهربة. اندفعت السيّارة بقوّتها الذاتيّة ولم يكن عليه إلّا أن يوجّهها بعجلة القيادة متفاديًا إذا شاء السيّارات التي تجول حوله كالكواكب. ووقعت ارتطامات عن قصد أو عن عجز فاستمتع بالهجوم وبالهروب على السواء، حتّى رأى سيّارة تحمل فتاة قد تكالبت عليها السيّارات ناطحة والفتاة لا تني تضحك. عند ذاك دبّ فيه حماس جديد فاستجدّ لجولته معنى، وطارد سيّارة الفتاة والشرر يتطاير من عجلات سيّارته. وبدا عسيرًا أن يستخلصها لنفسه من المتنافسين ولكنّه احتكّ بها مرّة، والتحم بها أخرى في عناد فدارا معًا حول أنفسهما حتّى ألقت به سيّارة متحدّية بعيدًا. وكان عليه أن يدور دورة كبيرة قبل أن يتمكّن من استرداد ما فقده غير أنّ الجرس رنّ معلنًا انتهاء الدورة. ورأى الفتاة تغادر سيّارتها فغادر سيّارته. تبعها محاذرًا حتّى يبعد عن مجال الأعين التي توقّع تجسُّسها عليه، ثمّ أخذ يقترب منها. سمعت وقع أقدامه فنظرت وراءها لحظة فداخلته طمأنينة إلى النجاح. وأبطأت عند سياج مطرّز بالياسمين والبنفسج يحيط بمطعم كباب مُتَرامٍ في الهواء الطلق ففغمتهما رائحة الشواء الدسمة ممتزجة بعبير الأزهار. همس:

ـ أنت سائقة ماهرة!

فابتسمت فقال لنفسه إنّها جاءت لذلك. وقدّم لها ذراعه فتردّدت قليلًا ثمّ تأبّطتها. ودعاها إلى قدحين من البيرة. اسمي حسن واسمي سعاد. ودمعت الأعين والشراب البارد ينساب إلى الأعماق. وسكب مكبّر الصوت ألف ليلة، أمّا القمر فقد ارتفع فوق الصاري نائيًا بنفسه عن برج الأضواء وصخب الهاتفين.

ـ ليلة بديعة ولكن أجمل ما فيها هو أنت.

ـ أنت ظريف جدًّا.

ـ هل يعجبك القطار؟

ـ ولو أنّه مرعب أحيانًا!

جلسا جنبًا إلى جنب في المقعد الأخير من العربة الأخيرة، ولحظ ابتسامتها وهو يختار المكان المنعزل فتوتّرت أعصابه، وتناول يدها في يده والقطار يتحرّك. سار القطار على مهل حتّى اعترضته هضبة فاندفع صاعدًا وضاعف اندفاعه وهو يهبط. وجرى بسرعة فوق متتابعات من المرتفعات والمنخفضات فطوّقها بذراعه. ودار حول منعطف في تمهّل ماكر وراح يرتقي جبلًا في صمت ينذر بالخطر، ثمّ انحطّ من علٍ كأنّما يهوي في فراغ وارتفع الصراخ. شدّ على خاصرتها فمال رأسها إلى ذراعه فطبع على شفتيها قبلة طويلة. لم يكد ينتبه بعد ذلك إلى معاكسات القطار حتّى رجع إلى المحطّة. وقال لها ومشروعات الليل تتواكب في رأسه:

ـ خير ما نفعل الآن أن نستريح في مشرب.

وتبادلا «صحّتك» مرّة أخرى. وتحرّك دبيب النشوة

في قلبه. ونظر في مرآة مكلّلة بورد من البلاستيك فوق الطاولة فأعجبه شاربه الأسود وخدّاه المورّدان. وحدّثها عن الليل فأحنت رأسها بالإيجاب، ولـمّا غنّى الصوت الملائكيّ سألها:

ـ تحبّين الغناء؟

فأجابت بحماس:

ـ والرقص.

ـ وأيّ لعبة تودّين؟

ـ الحظّ.

وجدا حلقة الحظّ كثيرة الزحام فبلغا سياجها بعد مشقّة. وتناول كلّ منهما حلقاته الخشبيّة الخفيفة وهو يتفحّص الأهداف المنشورة في تقارب معجز للصائد. سدّدا نحوها الحلقات فطاشت جميعها. وابتاعا مجموعة ثانية وثالثة من الحلقات وهو يحلم طيلة الوقت بعلبة فضّيّة لا يدري شيئًا عمّا بداخلها على حين ركّزت هي على زجاجة فلير دامور. وبعد الجهد والبذل أصاب زجاجة نبيذ وكسبت هي عروسًا عارية. وذهبا وهو يفضّ سدادة الزجاجة ثمّ تناول منها شربة بعد أخرى. وركبا في أثناء ذٰلك الساقية فارتفعت بهما إلى جبين القمر، ثمّ رقصا فوق سطح الغربال، ودارت الخمر برأسه فأفرط في مداعبتها حتّى همست في أذنه:

ـ حذار أن تلفت لنا الأنظار.

فقرصها في ساعدها البضّ فقالت بشيء من الحدّة:

ـ لا.

وانتزعت منه الزجاجة فأحكمت سدّها ووضعتها في الصندوق الكرتونيّ لصق العروس. واستقلّا ترولـلي غابة الأشباح فالقارب المتزحلق، ثمّ وجدا نفسيهما أمام وادي التيه المعروف بحجرة جحا. هتف بسرور:

ـ عزّ المطلوب.

لكنّها قالت بفتور:

ـ لا أحبّها، سنتيه في سراديبها حتّى نفقد الصبر.

فتناول يدها ضاحكًا ثمّ دخلا. قطعا أمتارًا في مدخل مربّع ينتهي بسدّ في الأمام، وعن اليمين وعن اليسار نفقان يستديران إلى الداخل. ولاحظت تردّده بين النفقين فقالت محتجّة:

ـ من أوّلها حيرة!

فمال إلى اليمين قائلًا «لنكن من أهل اليمين». ساراً في نفق مستقيم مضاء بفانوس يتدلّى من السقف، فانتهيا إلى حجرة مستطيلة بها منفذان غير المنفذ الذي دخلا منه، ووجدا بها بضعة أفراد وكان أحدهم يقول:

ـ هلكت من التعب.

فصاح آخر:

ـ الظاهر أنّنا لن نخرج إلى سطح الأرض مرّة أخرى!

اتّجه بها نحو المنفذ الأيمن فسارا في ممرّ بدأ ضيّقًا ثمّ أخذ في الاتّساع حتّى اعترضته ثلاثة أبواب.

قلّب عينيه بينها فقرأ على أوسطها بالقلم الرصاص «ادخل من هنا فإنّه مجرَّب» فتمتم:

ـ دعابة ماكرة لأحد اللاعبين، على اللاعب هنا أن يعتمد على نفسه.

ـ لِمَ تختار بابًا دون آخر؟

ـ العبرة بالتجربة.

ـ ولٰكن سنبدّد وقت الفسحة.

ـ أليست حجرة جحا ضمن الفسحة؟

مرقا من الباب الأيمن إلى ممرّ قصير أوصلهما إلى ميدان مسقوف تتعدّد الأبواب على محيط دائرته، وتكتظّ باحته بالنساء والرجال. قهقه البعض وعبست وجوه في نرفزة حقيقيّة. وقال رجل:

ـ لو أنّ أحدنا أصابه مكروه فهل يُترك حتّى يموت؟

ـ لِمَ لا يوجد مندوبون عن الإدارة لتقديم المساعدة عند الضرورة؟

ـ هل ننادي أحد المسئولين؟

ـ نادى كثيرون ولا مجيب.

دخل حسن من أحد الأبواب فتخبّطا طويلًا من حجرة إلى ممرّ ومن ممرّ إلى سرداب ومن سرداب إلى نفق، وتيّار الحائرين يصادفهم في شتّى الاتّجاهات. ولم ينقطع لحظة واحدة عن الضحك أو الغضب أو التعليقات. وتوقّفت سعاد وهي تقول في رجاء:

ـ لنرجع.

فضحك قائلًا:

ـ ماذا يعني الرجوع أو ماذا يعني التقدّم؟... نحن

نسير فحسب!

ـ ألا تذكر من أين أتيت؟

ـ كلّا.

ـ وطبعًا لا تدري أين تذهب!

ـ هٰذا واضح.

وهي تتنهّد:

ـ تعبت وضجرت.

ـ نحن معًا وفي هٰذا ما يكفي.

ـ ألا تسمع أصوات الغيظ؟

ـ وأصوات الضحك؟

ـ سنتخبّط حتّى موعد الإغلاق.

سِرّ اللعبة لا يمكن أن يُعرف في أوّل جولة فليس أمامنا إلّا أن نجرّب حظّنا.

واستأنفا السير والتخبّط، وتجربة أبواب لا حصر لها وأنفاق وسراديب لا تنتهي. واشتكت أصابع قدميها فحذّرته من الاضطرار إلى حملها بين ذراعيه. وزادت جزعًا عندما رأت رجلًا قد اقتعد الأرض يائسًا في انتظار أن ينتشله رجل من الإدارة عند موعد الإغلاق. وطال بهما اللفّ والدوران والتخبّط حتّى تجهّم الوقت ثمّ دفعا بابًا بحركة روتينيّة ميكانيكيّة فإذا بباب الخروج يطالعهما! قام الباب على مبعدة ثلاثة أمتار بهيجًا رقيقًا مضيئًا محبوبًا، وتبدّت ساحة لونابارك من خلاله سابحة في الأنوار والأنغام. غادرا حجرة جحا وهما يتصبّبان عرقًا فذهبا إلى حديقة مشرب الجعة وطلبا بيرة. وضعت صندوق العروس على كرسيّ جنب حقيبتها وسلتت قدميها من الحذاء وراحت تقبض أصابع قدميها المخضّبة وتبسطها وهي تلحظه بعتاب. وبمجرّد أن استقرّ الشراب في بطنه دار رأسه وتفاعل النبيذ والبيرة بحال غير ودّيّة.

قالت:

ـ أنت عنيد أكثر ممّا ظننت.

ـ هٰكذا يجب أن تكون الفسحة في لونابارك.

ـ توجد ألعاب لطيفة وأخرى سخيفة.

ـ الأفضل أن نجرّبها جميعًا.

انتعشت بالشراب فطلب قدحين جديدين وهو يقول:

ـ لم تبق إلّا لعبة الموتوسيكل.

قطّبت متسائلة:

ـ تقصد لعبة الموت؟

ـ لِمَ تُسمّى بلعبة الموت رغم أنّه لا يموت بها أحد؟!

ـ لا يسرّني أن أرى راكب الموتوسيكل الذي يبدأ دورانه فوق الأرض ثمّ ينتهي وهو يدور حول السقف!

ـ هي اللعبة الوحيدة التي لم نشترك فيها بعد.

ـ لا... لا...

ـ لِمَ لا؟ ألا ترين أنّها أشدّ إثارة من جميع سابقاتها؟

ـ لن تتحمّلها أعصابي، ولا معنى لها.

ـ بغيرها ستظلّ فسحتنا ناقصة!

ـ فلتبق ناقصة فهٰذا أفضل.

ـ ما دمنا قد جئنا فعلينا أن نجرّب كلّ لعبة.

ـ لا تجعلني أندم على معرفتك.

أذعنت إزاء عناده وهي متبرّمة. وشربا للمرّة الثالثة ثمّ دسّت قدميها في الحذاء وتأبّطت ذراعه مرّة أخرى. سارا على مهل اضطراريّ فوق سيقان مسترخية من الجهد. ثقل رأسه بالخمار وعاود الألم أصابع قدميها. والزياط من حولهما يشتدّ وأفواج جديدة من الناس تقدم رغم انتصاف الليل.

وتوسّط القمر السماء، سماء صافية إلّا من سحائب رقيقة متباعدة عبرت سطحه كأنفاس حارّة في جوّ رطيب.

وترامى إليهما أزيز الموتوسيكل وهما يقتربان من زحمة المنتظرين أمام الباب. ضغطت ذراعه قائلة:

ـ كم إنّك عنيد!

فقال وهو يهزّ رأسه:

ـ المؤسف حقًّا أنّ الفسحة ستنتهي.

وأدار نحوها وجهه بشوق وحنان ثمّ داعب ملتقى حاجبيها بإبهامه ليزيل عنه تقطيبة منعقدة، ولم يكفّ حتّى منحته ابتسامة غير سعيدة.

مَوْجَةُ حَرّ

المدينة الكبيرة تنفض النعاس في صمت السحر.

وقبيل الشروق تخضّب الأفق بحمرة قانية. وقطرت السماء الباهتة زمنة فسطعت أنفاس دافئة. استند عسكريّ الدوريّة بجسر الجلاء إلى جذع شجرة رافعًا رأسه إلى الأفق عبر النيل، وبصق، ثمّ تمتم:

ـ يوم نكد حتّى قبل أن تشرق الشمس!

وذابت الحمرة القانية في وهج الشمس، وانهالت الأشعّة على الكائنات. وسعى فوق الأرض باعة وعمّال، وسرعان ما التمعت الحياة بقطرات العرق وأكثر من صوت قال:

ـ يا له من يوم!

واشترى أحمد علبة البلمونت ثمّ مال إلى التليفون على طاولة الدكّان فأدار القرص:

ـ نادرة؟... صباح الخير.

ـ ....

ـ كلّا، لم أذهب إلى المصلحة بعد، أنا أكلّمك من دكّان السجائر.

ـ ....

ـ فعلًا، والطريق أشدّ حرارة، ولكنّه جوّ مناسب لنزهة مسائيّة على شاطئ النيل؟

ـ ....

ـ حسن، السابعة مساء عند جسر الجلاء.

ارتفعت الشمس وسط هالة ناصعة قاسية. واستكنّ الهواء في كينونة ثقيلة متخلّفة، وقرص الذباب الخدود في بلادة وتكتّل كالسخام فوق صناديق القمامة. ونشرت الجماهير المتدفّقة نحو محطّة الباص الجرائد فوق الرءوس. وقال رجل:

ـ الفول يغلي في بطني!

فأجابه الآخر:

ـ إذن فكيف تكون الظهيرة؟!

وخلف المحطّة مباشرة تبدّت جباه العمّال العاكفة على صفّ الحروف من نوافذ بدروم المطبعة وترامت أصوات الآلات بلا انقطاع.

وشابت القبّة الباهتة صفرة كئيبة ضاربة في حواشيها إلى الاحمرار. ونزّت الأرض رطوبة ساخنة أمّا الهواء فاختنق برائحة كريهة كأنّما يتنفّس دخانًا. وفي إدارة الحسابات أغلقوا النوافذ ورشّوا الأرض الخشبيّة الكالحة بالماء، وأضاءوا مصباحًا واحدًا، واستُعملت الأضابير في التهوية، واتُّبعت نصيحة مجرّب باحتساء الشاي الساخن! وقال المراجع الكهل:

ـ صدّقوني لم تعرف البلاد حرًّا كهٰذا الحرّ!

ـ مؤكّد أنّ الحرارة جاوزت الأربعين.

ـ أو الخمسين، نحن نحترق في الواقع.

ورفع المدير عينيه المظلمتين من هبوط القلب وقلّب في الوجوه نظرة خابية حاقدة وقال:

ـ ستعود الإدارة بعد الظهر لإنجاز الميزانيّة...

أطبق الصمت فلم يناقشه أحد. وهمس كاتب:

ـ الحقود وجد فرصة للانتقام!

ـ صبرك، لن يمتدّ به الأجل حتّى منتصف النهار!

وفي الميدان ارتطم مقدّم تاكسي بمؤخّرة آخر عند إشارة المرور. وغادر السائق المتقدّم مكانه ليعاين أثر الارتطام. مال فوق الفانوس الخلفيّ يسبقه شعر صدره المتلبّد البارز من بين شقّي قميصه وهو يجفّف جبينه وخدّيه بكمّه، ثمّ رمى السائق الآخر الذي لحق به بنظرة ملتهبة فتمتم الآخر:

ـ وقف التاكسي فجأة فلم...

فقاطعه بحدّة:

ـ حطّمت الفانوس.

فراح يجفّف وجهه بمنديل ضارب إلى السواد وهو يقول:

ـ التواءة بسيطة ليس إلّا...

صاح به مطاردًا بلسعة الشمس:

ـ أنت أعمى!

وتماسكا بشدّة ثمّ انهالت اللكمات، وجاء عسكريّ المرور جريًا وهو يسبّ ويلعن.

وتربّعت الشمس في كبد السماء كرة من نار تقذف حممًا. وانتشرت الصفرة الكئيبة الضاربة إلى الاحمرار لطخات متفرّقة في الأديم الضاري. ونفثت الأرض أطنانًا من الحرارة اللافحة المركّزة بالبخار، وانطلقت الباصات مائلة إلى الجانب الأيمن من ثقل حمولتها، وتلاصقت الأجساد البشريّة حتّى انصهرت في جسد واحد هائل متعدّد الألوان والتقطيبات متوحّد العناء والعذاب، واستقرّت في الأعين المتطلّعة إلى الطريق

نظرة خاملة مستسلمة متقزّزة متألّمة متصبّرة.

ـ العرق يتجمّع ويهبط في خطوط كالحشرات ثمّ يستقرّ في الحذاء.

ـ يوم من أيّام الجحيم.

ـ إذن كيف يعيش الناس في السعوديّة؟

ولسبب ما انفجر السائق في غضب قاذفًا بسيل من اللعنات الفاحشة فصكّت آذان السيّدات والأوانس وكأنّهنّ لم يسمعن ألبتّة، وواصلن وجومهنّ بلا مبالاة.

وأخذ مرسي صاحبه إلى قهوة وبار آسيا وهو يقول:

ـ لن تُعرف حقيقة اليوم إلّا في جرائد الغد، كم تظنّ درجة الحرارة؟

ـ في الظلّ؟

ضحك مرسي عاليًا وهو يصفّق مناديًا الجرسون ثمّ قال:

ـ هاك طريقتي المقتبسة عن الإنجليز الذين يعيشون في المناطق الاستوائيّة، أن أشرب حتّى تلطسني الخمر، هناك لن أفرّق بين ديسمبر وبين أغسطس...

وقنع عسّاف وزوجه من الغذاء بأكلة جبن وبطّيخ. وتجرّد من ملابسه ثمّ استلقى ـ كما ولدته أمّه ـ فوق الكنبة، وفعلت حرمه مثله فوق الفراش. على ذٰلك لم يهنأ بالنوم لتسرُّب العرق المالح من جفنيه وانحداره أحيانًا إلى فيه الفاغر. استيقظ مرّات ليجفّف وجهه ثمّ يستغرق في النوم، ولٰكنّه صحا أخيرًا على ضوضاء وزياط منزعجًا حقًّا. نهض متسخّطًا فجفّف جسده بالفوطة ومضى إلى الشيش لينظر ماذا يجري فرأى الغلمان يلعبون الكرة في الطريق تحت قذائف الشمس! وخلف الهدف مباشرة نام سائقو الكارو على الطوار في ظلّ الجدران. لعن النسل والتناسل ثمّ رجع إلى الكنبة يبتسم ساخرًا:

ـ يلزمنا جهاز تكييف هوا.

فتردّد شخير زوجه عاليًا.

وانداحت الصفرة الضاربة إلى الحمرة وانبثقت منها إشعاعات تحمل رسائل من الكآبة والضجر. وتصاعد التثاؤب والتأوّه. ونفد صبر ستّ عليات زوج بيّاع الثلج فوضعت ربع لوح ثلج فوق رأسها، ثمّ مسحت به عنقها، ثمّ أرسته فوق صدرها طويلًا، ولم تمض ساعة حتّى ظهرت عليها أعراض الحمّى.

وأمام قهوة الحرّيّة سقط عبد الرحيم القاضي المصاب بضغط الدم على جنبه، وصدرت عنه تموّجات تشنّجيّة، وانكمش جانب فيه وسالت منه رغوة ثمّ فاضت روحه.

وحتّى العصر لم يطرأ تغيّر يذكر. خفّ توهّج النهار قليلًا. وبهتت الصفرة الكئيبة المنداحة في السماء. ومالت الشمس ولٰكنّها ظلّت تصبّ النيران صبًّا. وانعقدت الرطوبة حول الأجساد مادّة لزجة ذات كثافة ملموسة. ومع أنّ الشِّعر هو أحبّ القراءات إلى حسن الزفتاوي إلّا أنّه قال بفتور:

ـ كلمات... كلمات، لا توحي بشيء، أين ذهب الشِّعر؟

فأجابه صديقه حمدي مغمض العينين ملصقًا زجاجة الاسباتس بجبينه:

ـ عبثًا تبحث عن شيء له قيمة في هٰذا اليوم.

ـ حتّى الحبّ مات!

ـ وحتّى الجنس فقد نكهته الحيوانيّة الحرّيفة!

وصادف عسكريّ الدوريّة بحيّ الطبليّة عربة خيار يدفعها صاحبها في تراخٍ فثار غضبه ثمّ انقضّ على العربة فنزع مقبضيها من يد البيّاع ورفعها إلى أقصى ذراعه حتّى اندلق الخيار على الأرض وصاح:

ـ ألف مرّة قلنا ممنوع مرور العربات!

وصرخ البيّاع وتجمهر الناس. وانتبه العسكريّ المنقول حديثًا من قسم قصر النيل إلى قسم الجماليّة إلى أنّ التعليمات المطبّقة على منطقة قصر النيل لا تنطبق على حيّ الطبليّة، فشعر بحرج مركزه، ولٰكنّه أبى أن ينهزم أو أن يعترف بخطئه فصاح مستزيدًا من الغضب:

ـ كيف تسبّ الدين يا جاحد!... تسبّ الدين!؟

وأقسم الرجل بالطلاق ولٰكنّ أكثر من قسم بالطلاق ترامت من الأركان والنوافذ. وتابع الحادثة بفتور الواقفون حول مشرب السوبيا، يلهثون ويشربون ويتصبّبون عرقًا، والذباب يتلاطم فوق رءوسهم.

واستقرّت أشعّة الشمس المائلة فوق الجانب الغربيّ

لعمارة النجمة بجاردن سيتي حيث يقيم إبراهيم سمهان المستشار. واستيقظ المستشار من قيلولته ليجد نفسه غارقًا في بحيرة من العرق. هزّ رأسه في ذهول ونظر طويلًا إلى صورة جسده المنطبعة فوق الفراش. كيف حدث هٰذا؟ وماذا يصنع إذن جهاز التكييف؟ انزلق إلى الأرض وهو يترنّح في جلبابه الفضفاض، ومضى إلى الجهاز، فتبيّن أنّه متوقّف. فسد الجهاز أم انقطعت الكهرباء؟ وأدار المفتاح الكهربائيّ فوجد الكهرباء منقطعة. لا شكّ أنّها انقطعت بسبب ارتفاع الحرارة. وهٰذا يعني أنّ الفريجيدير أيضًا متعطّلة، في هٰذا اليوم الملعون. وهو وحيد في القاهرة بينا تصيّف الأسرة في الإسكندريّة. وحيد بكلّ معنى الكلمة فحتّى الخدم في الإسكندريّة، ولولا اجتماع مجلس إدارة المؤسّسة المنتدب إليها لما جرى عليه هٰذا الحظّ التعس، وذهب إلى الحمّام وفتح الفريجيدير ليبلّ ريقه الجافّ ولو بشربة فاترة ولٰكنّه رأى صرصورًا لابدًا في عنق القارورة الوحيدة التي ملأها بنفسه قبل النوم! تحوّل عنها غاضبًا عابسًا إلى صنبور الماء وفتحه ولٰكنّه لم يقطر نقطة واحدة. ربّاه... غاض الماء من الأدوار العالية كما يحدث كثيرًا في الأيّام القائظة. أيّ جنون! ضائع في صحراء. كم إنّه ظمآن، وكم إنّه متلهّف على دشّ بارد! وغادر شقّته في الدور الثامن إلى الطرقة الخارجيّة. المصعد متوقّف طبعًا. كلّ شيء متوقّف خرب في هٰذا اليوم الجهنّميّ. ونظر من فوق الدرابزين وصاح بأعلى صوته:

- عمّ محمّد... عمّ محمّد...

لا مجيب. وكرّر النداء دون جدوى. ربّاه ما العمل؟ ظمآن وحرّان ولا بدّ أن يذهب إلى المرحاض أيضًا. وإذا به يرى خادم الشقّة التالية له وهو يصعد خطوة فخطوة، ينوء بحمل صفيحة مملوءة بالماء. وأنزل الخادم الصفيحة على أرض الطرقة حتّى يستردّ أنفاسه. وقف شاحب الوجه بصدر يعلو وينخفض. ونظر المستشار ناحيته فتبادلا نظرة طويلة وهما صامتان. وضمّن المستشار نظرته رجاءً مستحيلًا فتجاهله الخادم وأرخى جفنيه زائغًا ممّا قطع بأنّه تلقّى الرسالة ورفضها. له حقّ فليس في الإمكان أن يكرّر عمله الفدائيّ مرّتين ولٰكن ما العمل؟ ونظر المستشار إلى الماء المترجرج في الصفيحة الناصعة فازدرد ريقه الجافّ بصعوبة. ثمّ همس وهو يبتسم متودّدًا:

- تسمح لي بملء كوب؟

فقال الخادم باستحياء:

- تفضّل يا بيه!

وهرع إلى الداخل ثمّ رجع بكوب فملأه، وصبّه في جوفه دفعة واحدة! وجعل يستشعر الماء وهو يرشح من مسامه، ثمّ تمتم:

- ماء دافئ.

- ينصبّ من الحنفيّة كالنار..

وتذكّر مطالبه الضروريّة الأخرى فاستأذن في ملء الكوب مرّة أخرى فأذن له الخادم بتسليم لا حيلة فيه. ورجع إلى الشقّة وهو يقول ساخطًا «بلد غير مستعدّ للحلّ مع أنّ ثلاثة أرباع عامه صيف!».

وتوارت الشمس في المغيب وراء ستار دمويّ ولٰكنّ الجوّ لم يتحرّر من قمقمه المنصهر. وأذاع الراديو أنباء الموجة وتفسيراتها الفلكيّة والدرجة الثامنة والأربعين التي بلغتها في الظلّ. ورقدت المدينة في همود تحت العذاب الأغبر. وانتظر أحمد عند جسر الجلاء حتّى وافته إليه نادرة في فستان رماديّ عارية الذراعين والساقين.

- ماذا فعلتِ اليوم؟

فأجابت وهي ترعش راحتها المبسوطة في استفظاع:

- أوه... يوم لن يُنسى...

ذهبا إلى مجلسهما المعهود بالكورنيش ولٰكنّ الشاطئ كان مكتظًّا بالبشر لا موضع فيه لإنسان. اقترح أن يمضيا سهرة في سينما مكشوفة ثمّ يعودا إلى النيل بعد منتصف الليل. ولـمّا رجعا لم يكن الشاطئ قد خلا ولٰكن كان ثمّة موضع. وافترشا الحشائش بعد أن أزالا عنها قشر الفول ومزقًا من الورق، ولم يكن في الجوّ نسمة واحدة.

- مات الهواء؟!

فأجاب بضيق:

- شيء أثمن منه مات فينا.

- لن نحتمل يومًا آخر كاليوم.

ومضى المكان يخلو بسرعة نسبيّة حتّى وجدا نفسيهما منفردين أخيرًا. ولفّ ذراعه حولها فشعر في جنبه بسخونة وفغمت أنفه رائحة عرق فاتر. وانعكست أضواء الفوانيس على ماء ساكن راكد لا يلعب ولا يبهج:

ـ إذن متى تنكسر حدّة الحرارة؟

ـ آه... متى؟

وخيّل إليه أنّ حرارة الحبّ تزدرد حرارة الجوّ بسرعة لم يتوقّعها، غير أنّ قدمًا ثقيلة دقّت الأرض في الظلام الصامت. ومن الظلمة المضاعفة التي تلقيها شجرة وارفة مرق شبح العسكريّ في ضوء المصباح. تعلّق به رأساهما ثمّ همست:

ـ لا يوجد أحد غيرنا...

فشبك راحتيه حول ركبته وغمغم حانقًا:

ـ يوجد الحرّ...

ـ لا تعطِ له فرصة للتحرّش...

مرّ العسكريّ أمامهما وهو يرميهما من علُ بنظرة غامضة. ابتعد حتّى أوشك أن يختفي ولٰكنّه توقّف، وتنحنح. ثمّ استدار راجعًا حتّى وقف على مبعدة مترين أو ثلاثة. لبث واقفًا في عناد كأنّه الحرّ دون أن ينبس. توقّعا أن يقترب أكثر أو أن يتكلّم ولٰكنّه لم يفعل. ولكزته بكوعها هامسة: «هيّا». قاما معًا، وألقيا نظرة أخيرة على الماء الراكد، ثمّ ذهبا.

وشيء غريب كريه زحم الجوّ، ذو رائحة مريضة وشخصيّة مبهمة، وقد انعقد حول مصابيح الطريق كالضباب، وانتشر تحت النجوم فتراءت خابية. وتحرّك العسكريّ ببطء شديد، وبصق، ثمّ تمتم:

ـ قلنا إنّه يوم نكد حتّى قبل أن تشرق الشمس!

عابرو السّبيل

اندمج الشارع الكبير في حياة هٰؤلاء الناس. شارع قصر النيل. ما بين السابعة والثامنة صباحًا يقطعونه ثمّ يتفرّقون إلى أماكن أعمالهم. وتتكرّر الرحلة في نظام فلكيّ على مرّ الأعوام. بدأها كثيرون وهم في ريعان الشباب والفتوّة وواصلوها حتّى أدركتهم الشيخوخة وتخايلت لأعينهم النهاية. ومنهم من ينقطع دون سبب معروف للآخرين إذ إنّهم يترافقون في الطريق ولٰكنّهم لا يتعارفون. والعين تلقي نظرة عابرة فلا تكاد ترى، كأنّ الآخر شجرة مغروزة في الطوار، وربّما استيقظت لسبب ما فترى بدهشة العوالم الغريبة الماضية في سبيلها، كلّ عالم وحدة من الأسرار والأفراح والأتراح لا تدري شيئًا عن الآخرين، ولا تجد وقتًا للتعرّف إلى ذاتها وتجهل كلّ الجهل مصيرها، عند ذاك تتفجّر الألسنة في غزارة ولٰكن تشحّ الأجوبة حتّى الإرهاق، وتشمخ السماء بصفحتها ـ الصافية أو الملبّدة تبعًا للفصول ـ فلا تشفي غليلًا ولا تبدّد حيرة.

ثابر على تلك الرحلة ثلاثة أشخاص، رجلين مصريّين وامرأة إفرنجيّة. بدأها الرجلان حوالي عام ١٩٢٥ ثمّ ظهرت المرأة بعد ذٰلك ببضعة أعوام، وكانوا في ذٰلك الوقت شابّين وشابّة. وكان أحدهما طويلًا نحيلًا يتميّز بعينين حادّتين وسمرة غامقة وحركات عصبيّة، أمّا الآخر فكان معتدل الطول والقدّ هادئ الطبع. وبدت الفتاة متعة للبصر بعينيها الزرقاوين وشعرها الفاحم وبشرتها الحليبيّة وجسمها الرشيق. وكانت ـ كذٰلك الشابّ الطويل ـ يسيران في اتّجاه ميدان الأوبرا، أمّا الشابّ الآخر فيتّجه نحو ميدان سليمان باشا، ويتقابلون عادة في منتصف الطريق أو نحو ذٰلك، ولم يترك أحدهما فرصة للقاء إلّا ويملأ من الفتاة عينيه، المعتدل يرمقها بحياء وبلا غاية إلّا إبهاج الروح والحواسّ، أمّا الآخر فيلتهمها بنظرة حادّة، ليست نظرة ولٰكنّها كلام وفعل وعربدة، ورُئي مرّة وهو يحيّيها وهي تتجنّبه مبتعدة عنه مسرعة، ذٰلك أنّها كانت فيما بدا فتاة جادّة نشيطة تنطلق بجدّيّة وعزم العاملات، لا تكاد تنظر إلى غير الطريق، وإذا التقت عينها بعين الشابّ المعتدل فبالقدر الذي يحتّمه حبّ الاستطلاع أو ملابسات المشي في حدّها الأدنى. وجعل الشابّ المعتدل يسترق النظر إلى الآخر بامتعاض، ويتابع مناوراته بحنق وإشفاق متوقّعًا أن يراه ذات صباح والجميلة تتأبّط ذراعه. وبقدر ما كان يلعن قحته بقدر ما كان يعجب بها على نحو خفيّ، ويتمنّى

في أعماقه بعضًا منها، وأحزنه جدًّا أن يتّفق اتّجاههما في الطريق على خلاف اتّجاهه. ومضت الكواكب الثلاثة في مداراتها دون أدنى تغيّر في علاقاتها المشتركة، أمّا عن كلّ في ذاته فقد تتابع ظهور خواتيم الزواج في أيديهم، سبق المعتدل وتبعه في نهاية العام الطويل وأخيرًا لحقت بهما الحسناء. ورغم ذلك فلم يقلّ الشغف بها كثيرًا وإن بدا أنّ الطويل قد تخلّى بصفة شبه نهائيّة عن أحلام المغامرة. ولم يتغيّر شيء ممّا بين الثلاثة عندما قامت الحرب العالميّة الثانية وإن تكن الدنيا قد اندفعت بجنون نحو التغيّرات الفادحة. زخرفت الصحف بعناوين المعارك الحمراء، وتناقل المارّة الأنباء المثيرة، وظهر الإنجليز المدنيّون والعسكريّون بكثرة حتّى في تلك الساعة المبكّرة، وفتح ثلاثة بارات في الشارع العتيد، وانتقلت عدوى التغيير إلى الفتاة نفسها أسوة بالدنيا من حولها، فثقلت مشيتها وشحب لونها ثمّ تكوّر بطنها وانداح تحت الفستان التقليديّ المسترسل بلا حزام، أجل لقد حبلت العروس الفاتنة. وتفحّصها الطويل بعين صقر وبشيء من الغيظ متذكّرًا امرأته ولكن امتلأت عيناه بالعطف والشرود الغامض. وحبلت المرأة مرّة ثانية قبيل انتهاء الحرب، وثالثة أيّام حرب فلسطين، ولعلّ أحدًا من الثلاثة لم يكن يفطن حقًّا إلى الزمن إلّا عندما يقع بصره على الآخر. امتلأ عود الحسناء وتوارى في الذاكرة القدّ الرشيق الممشوق، وأحدقت بالعينين الزرقاوين أنصاف دوائر خفيفة لم تعد تخفى، واستقرّت بهما نظرة رزينة، رزانة الإعياء لا رزانة الدلال والصدود التي عرفاها قديمًا. واشتدّ نحول الرجل الطويل وجرى الشيب في سوالفه وشاربه وبرزت عظام وجنتيه، ومع أنّ المعتدل لم ير من تغيّر ذاته سوى شعيرات بيضاء إلّا أنّه لم يشكّ في مدى تغيّره الحقيقيّ كلّما نظر إلى رفيقه فانطوى صدره على توتّر غامض كأنّه صدى بعيد جدًّا لما يقع حوله في التاريخ والطريق. واستمرّ دوران الكواكب الثلاثة خلال أحداث جديدة، فقد نشب في القنال قتال مرير واندلع حريق القاهرة ثمّ انفجرت ثورة يوليه. تزلزل المجتمع من جذوره وانهار البنيان المتداعي وأخذ نظام جديد في التبلور، وإذا بالاعتداء الثلاثيّ يعترض الطريق كثور أعمى. وفي أتون حرب العدوان قُدّر لأولئك الثلاثة أن يجتمعوا في مكان واحد لأوّل مرّة. فقد انطلقت زمّارة الإنذار وفرقعت المدافع وهم يسيرون أمام مشرب لاجيون. لجأ ثلاثتهم إلى المشرب باندفاع عفويّ فوجدوا به خادمًا واحدًا يغسل أرضيّته، ومائدة واحدة صالحة لاستقبالهم في أقصاه. شقّوا سبيلهم إليها خلال قوائم من الكراسي المتراصّة فوق بعضها، ثمّ وقفوا متردّدين قلقين، ثمّ جلسوا ـ بدعوة من الخادم ـ حول المائدة المنفردة. وكلّما ترامى انفجار تبادلوا نظرة باهتة دون أن ينبس أحدهم بكلمة، وكان الطويل أجرأهم على خرق جدار الصمت فقال:

ـ ولا أيّام الحرب العالميّة...

فقال الآخر بحنق:

ـ المجرمون!... سرعان ما نسوا هوانهم تحت أقدام هتلر!

وتواصل التعليق دون أن تشترك المرأة فيه، ثمّ خفّ الضرب درجات فعاد الطويل يقول:

ـ لا مدعاة للخوف فهم يضربون الأهداف.

وحدجته المرأة بنظرة جائعة للتصديق فابتسم إليها. تبدّت عن قرب معتلية ذروة النضج الأنثويّ وإن شارف حسنها الوداع. وقال الطويل مدفوعًا بأريحيّة طارئة:

ـ خير ما نفعل أن نتناسى ما يقع في الخارج.

ثمّ وهو يبتسم عن طاقم نضيد:

ـ نحن نتقابل كلّ صباح منذ زمن بعيد جدًّا كالحلم...

تفكّر الآخر مليًّا ثمّ قال:

ـ منذ عام ١٩٢٥.

فالتفت الطويل نحو المدام وقال:

ـ المدام ظهرت بعد ذلك؟

انتزعت نفسها من التركيز المفعم بالقلق في الخارج وهزّت رأسها بالإيجاب.

ـ عمر طويل مرّ دون أن نتبادل كلمة واحدة.

وضحك ثمّ استطرد:

ـ لذلك لا أعجب لخصام أمّتين أو ثلاث!

وساءلت المرأة نفسها بتوتّر:

ـ متى ينتهي الضرب؟

فقال بلهجة وديّة جدًّا:

ـ لا تخافي يا مدام، سينتهي الضرب عاجلًا ويذهب كلّ منّا إلى طريقه ولٰكنّي أودّ أن أنتهز هٰذه الفرصة لأحقّق فكرة جميلة خطرت لي الآن فقط!

نظر إليه المعتدل مستطلعًا في غير حماس على حين نظرت المرأة في ساعة يدها.

ـ سوف أُحال على المعاش بعد شهر واحد، أي إنّني سأنقطع عن رؤيتكما بعد تلك العشرة الطويلة العزيزة...

فقال الآخر:

ـ وأنا أيضًا سأُحال إلى المعاش في نهاية هٰذا العام.

ـ هٰذا أدعى إلى تحقيق الفكرة، وهي أن نحتفل بذكرى لقائنا الطويل على مدى أكثر من ثلاثين عامًا!

وقلّب وجهه بينهما في حماس وقد أخذ الهدوء يخيّم في الخارج رويدًا وإن لم تُطلق بعد زمّارة الأمان، ثمّ قال:

ـ أودّ أن أدعوكما إلى عشاء بسيط بمطعم كريستتم بالهرم، ما رأيك يا أستاذ؟

فقال الآخر بنبرة سلبيّة:

ـ بكلّ سرور إن سمح الوقت!

ـ ستقبل الدعوة حتمًا خصوصًا إذا قبلتها المدام، ما رأيك يا مدام؟

انتزعت المدام نفسها من قلقها مرّة أخرى وتمتمت:

ـ لٰكن...

ـ لا لٰكن ألبتّة، إنّه سلوك لا عيب فيه عندكم، ودعوتي واضحة البراءة، ورفضها غير إنسانيّ...

ابتسمت ابتسامة خفيفة اعتدّها الرجل قبولًا فبادر يقول:

ـ شكرًا، سنتّفق على الميعاد في صباح قريب.

اتّفقوا على الميعاد صباح اليوم الثالث لوقف القتال. وتقابلوا في ميدان التحرير ثمّ استقلّوا تاكسيًا إلى كريستتم فبلغوه قبيل الغروب. وفي أثناء ذٰلك تمّ التعارف بينهم فقدّم الطويل نفسه قائلًا «عليّ بركة، مترجم» وقال الآخر «سيّد عزّت، مدير حسابات» وقالت المدام «مدام ماتياس، خيّاطة في ماي ستار». وجلسوا في حجرة خاصّة يحجبها عن بقيّة المحلّ باب موارب يقوم خلفه برافان. وأوصى عليّ بركة على عشاء حمام وكبد وأمر بكونياك. ونظر إلى سيّد عزّت ورفع كأسه قائلًا:

ـ لنشرب نخب شباب عام ١٩٢٥، أمّا أنت يا مدام فما زلت شابّة!

فقالت ضاحكة:

ـ لا... لا... لا فائدة من الكذب، أنت تعرف وهو يعرف.

وما كادت الكئوس تفرغ حتّى طلب غيرها وهو يقول:

ـ لا ترفضا، دعونا نشرب، لن نسكر على أيّ حال، وهي ليلة العمر.

ومضت الألفة تحلّ محلّ التحفّظ، ويشيع الدفء بتأثير الكونياك ولباقة عليّ بركة وحيويّته. وراح يقول:

ـ كان يجب أن نكون أصدقاء حميمين، يتبادلون المودّة والأسرار، ولٰكن فات الوقت للأسف، فلم يبق لنا إلّا أن نذكر شيئًا من الأمور الجوهريّة جدًّا لتمام التعارف، أسعد حادث في حياتنا مثلًا أو أبقاه أثرًا في نفوسنا؟!

رحّب سيّد عزّت بالاقتراح لا لشيء إلّا لأنّه يجد ما يقول، فقال:

ـ لعلّ أسعد حادث صادفني هو نجاح ابني الأكبر في الثقافة العامّة بعد ما يشبه اليأس...

ونظر الرجل إلى المدام مستطلعًا كأنّما كانت هي الهدف الحقيقيّ لاقتراحه فابتسمت قائلة:

ـ زواج ابنتي الكبرى، ولٰكنّ الحادث الذي لا أنساه هو وفاة زوجي منذ أربعة أعوام.

كاد التهلّل للخبر يفلت من أساريره لولا أن تداركه بتقطيبة مصطنعة ثمّ هزّ رأسه في رثاء. وانتهز فرصة الصمت الذي تلا ذٰلك فطلب الكونياك لثالث مرّة، ثمّ ضحك مفتتحًا صفحة جديدة وقال:

ـ أحداثي أنا لا تخلو من غرابة، فأسعدها كان وفاة قريب آلت إليّ تركته، وأتعسها جاءني منك أنت يا مدام!

ـ أنا!

ـ أجل وأنت تعرفين السبب.

فقالت متشجّعة بفعل الكونياك الخفيّ:

ـ تعني مطارداتك لي في الشارع؟

ـ أعني إعراضك عنّي حتّى قبل الزواج.

ـ يا عزيزي، أنت لم تكن جادًّا...

ـ كيف عرفت؟

ـ أنا أفهم، أنت لم تكن جادًّا...

وقال سيّد عزّت وهو يفرغ ثمالة كأسه:

ـ أنا موافق.

ـ أنت أيضًا! هل اختفت نواياي الطيّبة إلى ذٰلك الحدّ؟

ـ لم تكن هناك أيّة نيّة طيّبة!

ـ وأنت؟! كنت تأكلها أكلًا وتأكل نفسك!

فقال سيّد عزّت بتسليم:

ـ لا أنكر ذٰلك!

ضحك الرجل في شماتة أمام مدام ماتياس فقالت:

ـ لا أصدّق.

ـ لماذا؟

وجاء العشاء مع جديد من الكونياك فأقبلوا على الطعام والسؤال معلّق والاهتمام به يعمق إلى غير نهاية، وقالت مدام ماتياس وقد احمرّت أذناها من الشراب:

ـ لي معك حكاية.

ـ أنا؟!

ـ كنت تنظر بقوّة، كلّ صباح، قلت لنفسي حتمًا سيكلّمني يومًا ما!

ـ حسبتك لم تلحظي شيئًا ألبتّة!

ـ هه! قلت سيكلّمني، وما أخّره إلّا أنّه مؤدّب أكثر من اللازم على خلاف...

قاطعها عليّ بركة بضحكة عالية هاتفًا:

ـ على خلاف الآخر القليل الأدب!

وهي تضحك أيضًا:

ـ لا... لا... معذرة... (ثمّ ملتفتة نحو سيّد)... واعتبرت المسألة مفروغًا منها لدرجة أنّني فاتحت ماما في الموضوع ولٰكنّها رفضت بشدّة فكرة زواجي من مصريّ!

صاح سيّد عزّت الذي أفقدته لذّة الحديث لذّة الطعام:

ـ الزواج؟!

ـ نعم... وبسببك زعلت من ماما فأقمت مدّة عند خالتي...

ابتسم سيّد في ارتباكه حياء وسرورًا كما كان ينبغي أن يفعل عام ١٩٣٠ وإذا بعليّ بركة يلكزه في ذراعه قائلًا:

ـ ضيّعت عليّ فرصة دون أن تنتفع بها، صدق من قال إنّ رجال الحسابات معقّدون إلى النهاية!

تمتم سيّد عزّت:

ـ لم أكن أعرف! كنت يا مدام جادّة جدًّا بصورة غير مشجّعة.

ـ هٰكذا نصحتني زميلة لي في ذٰلك الوقت بماي ستار، كانت يهوديّة مولودة في مصر، قالت لي إنّ المصريّين يعشقون المرأة اللعوب ولٰكنّهم لا يتزوّجون إلّا المتحفّظة!

صاح عليّ بركة بفم مكتظّ بالحمام:

ـ نِعْم النصائح اليهوديّة!

فخاطبت المدام سيّد عزّت قائلة:

ـ لٰكنّك لم تتكلّم، حتّى لم تحاول الكلام.

قال بارتياب:

ـ كنت دائمًا أخاف من الإفرنج!

ـ تخاف؟!

ـ نعم، شيء قال لي إنّك مستحيل لأنّك إفرنجيّة، وكلّما فكّرت في الكلام عقد الخوف لساني.

عليّ بركة وهو يضحك في تهكّم:

ـ مفهوم... مفهوم... اللائحة الماليّة لا تسمح بحبّ بين مصريّ وإفرنجيّة!

ـ وكان مرتّبي محدودًا وكانت فكرتي عن الحبّ أنّه باهظ التكاليف!

قالت المدام وهي تهزّ منكبيها:

ـ انتظرت حتّى خجلت من نفسي، ثمّ كان أن تعرّف بي مسيو ماتياس.

فقال عليّ بركة معاتبًا:

ـ انتظرت الصامت وصددت المتكلّم الفصيح!

انتهى العشاء ولكنّ الشراب لم ينته. وتجلّت آثاره في الخدود والأعين والألسن وارتفع الضحك.

وهتف عليّ بركة بنبرة الظافر باقتراح سعيد:

ـ عندي فكرة!

فنظرا إليه مستطلعين فقال:

ـ لنرقص!

قال سيّد عزّت:

ـ لا أعرف الرقص.

وقالت المدام:

ـ ولا توجد موسيقى.

قال «لا يهمّ» وقدّم لها ساعده فقامت ملبّية، وأحاط خاصرتها بذراعه وراحا يرقصان. وإذا به يضمّها إليه حتّى التصقا تمامًا. حاولت أن تتخلّص منه عبثًا.

وتساءل سيّد عزّت في ذهول:

ـ أيّ رقص هٰذا؟!

وقالت المدام في إعياء:

ـ من فضلك... عن إذنك...

تمادى الرجل في فعله وانعقدت في عينيه نظرة مخيفة فصاح سيّد عزّت:

ـ خذ بالك!... المدام تعبانة...

فقال بحدّة:

ـ نحن هنا لا يدري بنا أحد!

ـ ابعد... دعني...

وقام سيّد عزّت. وبقيامه تأكّد من أنّه ثمل حقًّا. وضع يده على كتف الكهل الطويل وقال برجاء:

ـ علي بيه، اعقل، لا تفضحنا!

فصاح به وهو يزيح يده بحركة من كتفه:

ـ اعقل أنت، سيأتي دورك يا غبيّ!

وتأوّهت المرأة متألّمة فهتف سيّد بغضب:

ـ دعها... أقول لك دعها... ألا تفهم؟

وأمسك بذراعيه محاولًا فكّهما. جذبهما بأقصى ما استطاع من قوّة. انضغطت المرأة بينهما حتّى استشعر بضاضتها. تراجع خطوة وهو يضاعف من قوّة جذبه وقد لفحه خجل آثم. وصاح عليّ بركة بجنون:

ـ ابعد وإلّا...

ـ ستوقعنا في فضيحة!

وهتفت المدام:

ـ سأصرخ... أقول لك إنّي سأصرخ!

ودار سيّد عزّت حولهما حتّى وقف وراءه فقبض على عنقه وشدّه منه بلا رحمة حتّى كاد أن يختنق فتراجع إلى الوراء كالمتهاوي. وترنّحت المدام ثمّ انحطّت فوق الكرسيّ مغمضة العينين. ولم يعد يُسمع إلّا لهاثهم. خلا كلّ إلى نفسه يضمّد جروح روحه. المدام كالنائمة وعليّ بركة مائل إلى الجدار وسيّد متقلّص الوجه من الغثيان. وقال عليّ بركة بحقد:

ـ لن أدفع حساب أحد!

مدّت المدام يدها إلى حقيبتها ولٰكنّ سيّد عزّت أمسك بها بحنوّ وهو يقول له:

ـ لن يدفع لنا أحد.

ورجعوا إلى الصمت والإعياء. ثمّ خطرت لسيّد فكرة فنادى الجرسون وقال له: «كأسان من فضلك» وقبل أن يختفي الرجل وراء البرافان قال له عليّ بركة: «ثلاثة من فضلك». وشربوا هٰذه المرّة وكأنّهم يتداوون، في صمت وبلا مرح. وراح عليّ بركة يقطع الحجرة ذهابًا وجيئة. ثمّ غادر الحجرة فغاب دقائق ثمّ عاد بوجه مغسول وأسارير هادئة. ونقّل بصره بينهما ثمّ قال:

ـ دفعت الحساب، كلّه...

فاحتجّ سيّد عزّت قائلًا:

ـ لا!

ـ دفع وانتهى الأمر.

ثمّ بنبرة أرقّ:

ـ لننس ما كان، هٰذا خير ما نفعل.

وابتسم فيما يشبه الاعتذار. واقترب من سيّد قائلًا «هات رأسك» ولثم جبينه قبل أن يفطن الآخر إلى ما يريد. وتحوّل إلى المدام مغمضًا: «وهاتي رأسك» ثمّ لثم جبينها دون مقاومة من ناحيتها. وقال ووجهه لم يزل في مستوى وجهها:

ـ آسف يا مدام... الصلح خير!

وفجأة لثم فاها. ثمّ استقام متراجعًا وهو يقول:

ـ قبلة الصلح، وتحيّة للحلم القديم، حلم تراءى

لي قبل موت سعد زغلول!

على ذٰلك غادروا المحلّ. وأمسك بيسراها داعيًا الآخر للإمساك بيمناها وسار ثلاثتهم في جوّ مائل للبرودة. والقمر متوارٍ وراء سحابة مفضّضة. وتراءى الخلاء في ظلام حتّى الأنوار المتباعدة الباهتة فوق المقطّم كعقد من النجوم. وضحك الرجل وقال:

ـ فلنتذكّر أغنية جميلة يعرفها ثلاثتنا لنغنّيها معًا!

يوم حافل

ـ لا...

قالها بحدّة وهو يقطّب، ثمّ رشف رشفة من قدح الشاي. وركّز عينيه في القدح ليتجنّب عيني زوجته ولٰكنّها قالت محتجّة:

ـ كنت متوقّعة هٰذا الردّ!

ـ حسن، لِمَ لَمْ تعفي نفسك منه؟!

ـ لأنّ المرأة مسكينة حقًّا.

قال وهو يهزّ رأسه هزّة الخبير بالعالَم والناس:

ـ شياطين خبثاء.

ـ اقرأ العريضة لعلّك تقتنع بأنّها مظلومة حقًّا.

ـ قلت شياطين خبثاء.

ـ أنت تعلم أنّ زوجها وهب الوزارة عمره كلّه فلأسرته حقّ في المساعدة التي يجيزها القانون.

ـ وهب الوزارة عمره!... اعلمي أنّ تسعين في المائة من موظّفي الحكومة نباتات طفيليّة تتغذّى بدون وجه حقّ.

ـ متى تغيّر بالله من طبعك؟

رمقها بنظرة باسمة رادّة لا يمكن أن تنبت أملًا فحلّ صمت غير قصير، ثمّ سألها بنبرة جديدة وهو يقوم عن المائدة:

ـ كيف حال الولد؟

فلم تجب احتجاجًا، ولمّا كرّر السؤال قالت باستياء:

ـ نام ليلة أمس نومًا هادئًا ولٰكنّ الحرارة ما زالت مرتفعة.

واستقلّ سيّارته وهو يأمر السائق قائلًا «جروبي».

انطلقت السيّارة تقطع الكورنيش مخلّفة وراءها المعادي. وفتح الجريدة فتصفّح العناوين الكبيرة بسرعة حتّى استقرّ بصره فوق صفحة الوفيّات. طالع أسماء الراحلين أمّا الأقارب فسكرتيره الخاصّ يتولّى أمرهم. متى يطالعك اسم عليّ كامل بالخطّ العريض؟ سوف تشيّع جنازته بكلّ إجلال وتؤدّى له جميع الواجبات ولٰكن متى؟ ذٰلك الرجل العنيد المصاب بتصلّب الشرايين. وهو يعاندك ويتوهّم أنّه يحافظ على كرامته وكأنّه لا يخشى قوّتك التي يعمل لها كلّ إنسان ألف حساب فمتى؟ كما قرأت يومًا اسم حسن سويلم. في مثل هٰذه الجلسة في نفس السيّارة في نفس الطريق. يومها بدأت بالنظر في صفحة الوفيّات فكان اسمه أوّل ما وقع عليه بصرك. البقاء لله... حسن سويلم... مراقب عامّ الإيرادات. متى يا عليّ كامل؟

ـ انظر أمامك!

صاح بالسائق بعنف فحوّل الرجل عينيه بسرعة عن أسراب حمام تطير فوق سطح النيل كسحابة بيضاء. واكفهرّ وجهه لحظات ثمّ انبسطت صفحته رويدًا. آخر مشاحنة جرت بينك وبين المرحوم حسن قبل وفاته بشهر. يا حسن بك، أنا الذي يقرّر متى يجب تقديم مشروع الميزانيّة. ولٰكنّ ذٰلك من صميم اختصاصي يا كريم بك. آه... لا تضطرّني إلى سحب العمل من يديك... أنت تعرفني جيّدًا. إذن اسمح لي أن أحتجّ على هٰذه المعاملة فلست أنا بالموظّف الصغير. لو امتدّ به الأجل لكان اليوم منافسك الأوّل دون منازع. ولٰكنّ الجسم الفاسد لا يخلو من دمامل. ها هو عليّ كامل ذو الشرايين المتصلّبة، ماذا يريد؟

وقفت السيّارة أمام جروبي فغادرها ثمّ دخل المحلّ. أجال بصره في أنحاء المكان حتّى رأى الأستاذ عليّ فمضى إليه ثمّ صافحه بحرارة قائلًا:

ـ صباح الخير، تهانيّ على مقالتك الأخيرة.

ـ أعجبتك حقًّا؟

كرّر إعجابه وهو يجلس. وطلب قهوة وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى فقال الأستاذ:

ـ الظاهر أنّك وُفّقت. . .؟

دسّ يده في جيبه الداخليّ فأخرج مظروفًا سلّمه للأستاذ وهو يقول:

ـ قنبلة العام!

ـ حقًّا؟

ـ سوف تنفجر تحت أقدام نسيم البحيري المأفون المغرور.

ـ أنت متأكّد من صحّتها؟

ـ وثائق لا يرتقي إليها شكّ.

ـ لا أريد أن أعرّض الجريدة لقضيّة خاسرة!

ـ الله يعلم كم كلّفني الحصول عليها من حيلة ومال.

ـ إن لم تقضِ على البحيري فستقضي عليّ!

ـ ستقضي على البحيري وحده.

تبادلا نظرة طويلة ثمّ قال كريم:

ـ سيكون نصرًا للجريدة!

ـ ولك أنت.

ضحك كريم ضحكة أضخم بكثير من جسمه النحيل الدقيق فتمتم الصحفيّ باسمًا:

ـ أنت رجل جبّار حقًّا!

ـ أنا رجل مستقيم ونظيف فلا يهمّني أن أُرمى بعد ذٰلك بالقسوة.

وقرأ في عيني الصحفيّ نظرة لم يفهمها تمامًا فقال:

ـ أنت أيضًا تكرهه.

ـ سأنشر الوثائق للمصلحة العامّة ولا دخل لعواطفي في ذٰلك.

ـ حسن وأنا أخدم المصلحة العامّة بطريقتي كذٰلك.

وقام مادًّا له يده فصافحه وهو يسأله عن صحّة ابنه فقال وهو يمضي عنه:

ـ لا بأس به ولٰكنّ الحرارة ما زالت مرتفعة، شكرًا لسؤالك عنه. . .

استقلّ سيّارته إلى مكتب الأستاذ يوسف عبد الرحمٰن المحامي الذي استقبله بترحاب وهو يقول:

ـ مبارك يا كريم بك، قرأت اسمك أمس بين المرشّحين.

ـ شكرًا يا عزيزي، خبّرني عن جلسة أمس.

ـ تأجيل لتقديم مذكّرات.

ـ وماذا عن مركزنا؟

ـ عال جدًّا، أنا مطمئنّ كلّ الاطمئنان.

ـ إذن سيركع فهيم الدسوقي؟

ـ أجل، ولٰكن ثمّة جديد.

ـ ما هو؟

قال المحامي بصوت أخفض درجة:

ـ تلويح بالصلح!

ـ صلح!!

لفظها كذبابة فقال المحامي:

ـ سوف تحترم شروطك بطبيعة الحال.

ـ ولو!

ـ وهو على أيّ حال ابن عمّك.

ـ هٰذا مبرّر للعداوة.

ـ أهٰذا هو رأيك الأخير؟

ـ حتّى النهاية.

وذهب إلى مكتبه بالوزارة ثمّ طلب في التليفون رقمًا.

ـ آلو. . . عليّ؟. . . صباح الخير.

ـ . . . .

ـ عندي لك خبر مهمّ جدًّا. . .

ـ . . . .

ـ اقرأ غدًا صحيفة الكوكب.

ـ . . . .

ـ نسيم البحيري قضي عليه إلى الأبد.

وضحك طويلًا حتّى ارتجّت لضحكه أركان الحجرة الكبيرة الصامتة. واستقبل مدير مكتبه الذي عرض عليه البريد وبعض الموضوعات العاجلة. وجاء على أثره عليّ كامل فتبادلا الآراء في مسائل شتّى ووجهاهما يعكسان برودًا سافرًا. وعندما وقف عليّ كامل استعدادًا للذهاب سأله كريم بدافع شيطانيّ مباغت:

ـ كيف الصحّة؟

فأجاب الآخر فيما يشبه التحدّي:

ـ لم تكن شراييني في وقت من الأوقات خيرًا ممّا هي الآن.

عنيد مكابر كذّاب. وجهك الشاحب المتغضّن

يفضحك. وعمّا قليل ستعتذر عن تخلّفك الاضطراريّ عن اجتماعات المساء. عليّ كامل، البحيري، الدسوقي، وعشرات غيرهم. كائنات نخرها السوس فلم يبقِ منها إلّا على عناد وحقد. أنت بحاجة إلى مدفع سريع الطلقات لتطهّر منهم الحياة. وسوف تنتصر كما انتصرت دومًا. حياتك سلسلة من المعارك متوّجة بالانتصار. في ذٰلك متعتك وكرامتك في الحكومة أو النادي أو القرية. منذ نشأتك الأولى وأنت مناضل كأنّك تعيش في حلبة ملاكمة. النضال هو روح الحياة وسرّها أمّا القِيَم المعسولة الخرعة فهي آفات الحياة. والرجال يضمرون لك إعجابًا لا حدّ له وإن ردّدت ألسنتهم خلاف ذٰلك فعن خوف أو حسد.

حتّى الوزير نفسه استدعاه يومًا وقال له:

ـ يا سيّد كريم لماذا تثير الزوابع دائمًا؟

فتساءل بأدب واعتزاز معًا:

ـ سيّدي الوزير هل أنا رجل صالح للعمل؟

ـ لم أطعن في ذٰلك أبدًا.

ـ ونظافتي؟

ـ على خير ما يرجى.

ـ وعند الخلاف مع الآخرين أين تجد سيادتكم الحقّ؟

ـ ولٰكنّك تغالي في العنف حتّى لينقلب الوضع فكأنّ الحقّ مع خصمك.

ـ هٰكذا خلقني الله!

فقال الرجل بنبرة لم تخلُ من ضجر:

ـ حتّى العنف في الحقّ يجب أن يقف عند حدّ.

وعند الظهر رأس اللجنة الماليّة. وتفانى في العمل كعادته فلم يبالِ بالوقت. ومرّت ساعتان عقب وقت الغداء وهو يختلس من حين لآخر النظر إلى الوجوه المتعبة المتألّمة، ويتربّص بكلمة تذمُّر أو شكوى. وفي صدره لعبت عواطف ماكرة كشقاوة الأطفال. ولمّا أشبع طاقته في العمل والتعذيب فضّ الجلسة. واتّصل بزوجته بالتليفون فسألها عن الولد:

ـ لا بأس به ولٰكنّي استدعيت الطبيب لأنّ الحرارة لا تريد أن تنخفض.

ـ بخير إن شاء الله لن أعود قبل العاشرة مساء بسبب العمل!

وفكّر في مسألة مرض الأطفال وهو يتناول غداءه بالنادي. قال إنّ الأطفال ما كان يجب أن يمرضوا على الإطلاق. المرض ـ إذا لم يكن منه بدّ ـ فهو ظاهرة تطرأ على الجهاز البشريّ عقب طعونه في السنّ أمّا الطفل فلا يمرض إلّا لخلل في الكون. وقد كان ـ هو ـ سليمًا عند الزواج كما كانت كذلك درّيّة زوجته، وولد رمزي آية في الصحّة والجمال فما معنى المرض إذن؟

ومضى إلى حجرة التليفون فانبسطت أساريره لأوّل مرّة. لأوّل مرّة سرت ابتسامة في غضون الوجه الصارم الكالح:

ـ آلو... هنّومة؟... كيف الحال؟

ـ .....

ـ عال، هٰذا يعني أنّه لن يعود اليوم؟

ـ .....

ـ إذن نتقابل في السابعة؟

ـ .....

ـ اعملي حسابك على ساعتين على الأقلّ، إلى اللقاء يا محبوبة!

واستقلّ السيّارة وهو يقول للسائق «بار الأنجلو». سيمكث هنالك ساعة ثمّ يمضي إلى هنّومة. امرأة مثاليّة في غراميّاتها. وزوجها البدين يتوهّم أنّ البدانة يمكن أن تجعل من رجل زوجًا موفّقًا. وهو يجيء إلى بار الأنجلو فينهمك في لعب الطاولة مقامرًا بمبالغ ضخمة، ومرّة قاوم إغراء غريبًا بصفعه على قفاه. أمّا البحيري فموعده الغد. سوف يصعق عند مطالعة الجريدة وإذا انتحر فسيثبت بانتحاره أنّ سوء ظنّه به لم يكن صوابًا على طول الخطّ. واضطرّ السائق إلى ركن السّيارة في آخر الطريق عند أوّل موضع خالٍ فغادر السيّارة ليتمّ طريقه مشيًا على الأقدام. سار فوق الطوار بجسمه النحيل الدقيق يطالع الدنيا بوجه صارم شبه متقزّز. ومرّ بمحلّ لبيع التحف اليابانيّة فدخله دون سابق تفكير لابتياع هديّة لهنّومة. اختار شبشبًا مناسبًا تمامًا للاستعمال في مسكنها السرّيّ بالهرم. وواصل مسيره نحو البار. وعند أوّل منعطف قبل المقهى، وعقب نزوله من الطوار مباشرة، وجد نفسه

مدفوعًا نحو غلام يبوّل فتراجع بسرعة هاتفًا «يا ولد يا كلب». كـان الغلام يبـوّل في علانيـة استعراضيّـة، وشقاوة وشت بسروره بما يفعـل. وقد انـطلق البول متـلألئًا تحت أشعّـة الشمس في هيئة قـوس والغلام يدفعه بحـركاتـه الذاتيّـة إلى أقصى مدى يستـطيعه. تراجع كريم بك في شبه فزع فزلّت قدمه فهوى على ظهره فارتطم مؤخّر رأسه بحافة الطوار. ذعر الغلام فولّى هاربًا. ووقف المارّة القريبون ليشاهدوا الحـدث الغريب وهم بين الرثاء والابتسـام ولٰكنّ كريم بـك استلقى في إغماء لا شكّ فيه. وهرع إليه بعض ذوي النجدة ليسعفوه. وارتفع من بينهم صوت هاتفًا:

ـ يا لطف الله... الرجل جثّة هامدة!

الشَّحَّاذ

سحائب ناصعة البياض تسبح في محيط أزرق، تظلّل خضرة تغطّي سطح الأرض في استواء وامتداد، وأبقار ترعى تعكس أعينها طمأنينة راسخة، ولا علامة تدلّ على وطن من الأوطان، وفي أسفل طفل يمتطي جوادًا خشبيًّا ويتطلّع إلى الأفق عارضًا جنب وجهه الأيسر وفي عينيه شبه بسمة غامضة. لمن اللوحة الكبيرة يا ترى؟ ولم يكن بحجرة الانتظار أحد سواه. وعمّا قريب يأزف ميعاد الطبيب الذي ارتبط به منذ عشرة أيّام. وفوق المنضدة في وسط الحجرة جرائد ومجلّات مبعثرة، وتدلّت من الحافة صورة المرأة المتّهمة بسرقة الأطفال. رجع يتسلّى بلوحة المرعى، الطفل والأبقار والأفق، رغم أنّها صورة زينة رخيصة القيمة ولا وزن إلّا لإطارها المذهّب المزخرف بتهاويل بارزة. وأحَبَّ الطفل اللاعب المستطلع والأبقار المطمئنّة ولكن ازدادت شكواه من ثقل جفونه وتكاسُل دقّات قلبه. وها هو الطفل ينظر إلى الأفق ينطبق على الأرض. دائمًا ينطبق على الأرض من أيّ موقف ترصده، فيا له من سجن لا نهائيّ. وما شأن هذا الجواد الخشبيّ؟ ولِمَ تمتلئ الأبقار بالطمأنينة؟ ولفت سمعه في الخارج حركة أقدام ثابتة، ثمّ ظهر التمرجيّ عند الباب قائلًا:

ـ تفضّل.

ترى هل يتذكّر رغم مرور ربع قرن من الزمان؟ ها هي حجرة استقبال الطبيب الخطير، وها هو يقف وسط حجرته باسمًا، بقامته المتوسّطة النحيلة والوجه الغامق السمرة والعينين البرّاقتين والشعر القصير المفلفل. لم يكد يتغيّر عمّا كان في حوش المدرسة. وما زالت زاوية فمه تنحرف في سخرية مذكّرة بمرحه المطبوع الذي كان يضاهي تفوّقه الحاسم.

ـ أهلًا عمر، تغيّرت حقًّا ولكن إلى أحسن!

ـ حسبتك لن تذكرني!

وتصافحا بحرارة.

ـ ولكنّك عملاق بكلّ معنى الكلمة، كنت طويلًا جدًّا وبالامتلاء صرت عملاقًا...

وكان يرفع رأسه إليه وهو يحادثه فابتسم عمر في سرور وودّد.

ـ حسبتك لن تذكرني!

ـ أنا لا أنسى أحدًا فكيف أنساك أنت!

تحيّة كريمة من طبيب خطير. وكثيرون يسمعون عن الطبيب الناجح ولكن هل يعرف المحامي الفذّ إلّا أصحاب القضايا؟! وضحك الطبيب وهو يتفحّصه وقال:

ـ لكنّك سمنت جدًّا، كأنّك مدير شركة من العهد الخالي ولا ينقصك إلّا السيجار.

ضحكت أسارير الوجه الأسمر المستطيل الممتلئ، وفي شيء من الارتباك ثبّت نظّارته فوق عينيه وهو يرفع حاجبيه الكثيفين.

ـ إنّي سعيد بلقياك يا دكتور.

ـ وأنا كذلك وإن تكن مناسبة رؤيتي ليست بالسارّة عادة.

وتقهقر إلى مكتبه المختفي تحت أطلال من الكتب والأوراق والأدوات المكتبيّة النفيسة ثمّ جلس وهو يشير إليه بالجلوس.

ـ فلنؤجّل حديث الذكريات حتّى نطمئنّ عليك.

وفتح دفترًا وأمسك بالقلم:

ـ الاسم: عمر الحمزاوي، محامٍ، والسنّ؟

وضحك الطبيب عاليًا وهو يقول مستدركًا:

ـ لا تخف، الحال من بعضه!

ـ ٤٥ عامًا.

ـ على أيّام المدرسة كان الشهر يُعتبر فارقًا في العمر لـه خطورتـه أمّا الآن فيـا قلبي لا تحزن، هـل من أمراض خاصّة في الأسرة.

ـ كلّا، إلّا إذا اعتبرت الضغط بعد الستّين مرضًا خاصًّا.

وشبك الطبيب ذراعيه وقال بجدّيّة:

ـ هات ما عندك. . .

مسح عمر على شعره الغزير الأسود الذي لا تُرى شعيرات سوالفه البيضاء إلّا بحدّ البصر وقال:

ـ لا أعتقد أنّي مريض بالمعنى المألوف.

فازداد اهتمام الطبيب وهو يُنعم فيه النظر باستمرار.

ـ أعني أنّي لا أشكو عرضًا من الأعراض المرضيّة المألوفة.

ـ نعم. . .

ـ ولٰكنّي أشعر بخمود غريب. . .

ـ أهٰذا كلّ ما هنالك؟

ـ أظنّ هٰذا.

ـ لعلّه من الإجهاد المستمرّ.

ـ ربّما، ولٰكنّي غير مقتنع تمامًا. .

ـ طبعًا وإلّا ما شرّفتني. .

ـ الحقّ أنّه نتيجة لذٰلك الخمـود ماتت رغبتي في العمل بحال لا تصدَّق. . .

ـ استمرّ.

ـ ليس تعبًا بالمعنى المألوف، يخيّل إليّ أنّي ما زلت قادرًا على العمل ولٰكنّي لا أرغب فيه، لم تعد لي رغبة فيه على الإطلاق، تركته للمحامي المساعد في مكتبي، وكلّ القضايا تؤجَّل عندي منذ شهر. . .

ـ ألم تفكّر في القيام بإجازة؟

فواصل حديثه وكأنّه لم يسمعه:

ـ وكثيرًا ما أضيق بالدنيا، بالناس، بالأسرة نفسها، فاقتنعت بأنّ الحال أخطر من أن أسكت عنها.

ـ إذن فالمسألة ليست. . .

ـ المسألة خطيرة مائة في المائة، لا أريد أن أفكّر أو أن أشعر أو أن أتحرّك، كلّ شيء يتمزّق ويموت، فخطر لي على سبيل الأمل أنّني سأجد لذٰلك سببًا عضويًّا.

قال الطبيب باسمًا:

ـ ما أجمل أن تُحلّ مشاكلنا الخطيرة بحبّة بعد الأكل أو ملعقة قبل النوم.

مضى بـه إلى حجرة الكشف. وأخـذت عيّنة من البول ثمّ خلع عمر ملابسه ورقد على السرير الطبّيّ. وتتـابعت الأوامر فـأبرز لسانه، وفتـح بشدّ الجفنـين عينيه، ونقرت الأصابع الرشيقة على مواضع في الصدر والـظهر، وضغـطت بشـدّة عـلى أمـاكن في البـطن، واستعملت السمّاعة ومقياس الضغط، وتنفّس بعمق، وسعل، وهتف: آه من الحلق مرّة ومن الأعماق مرّة أخرى. وجعل يختلس النـظرات إلى وجهه ولٰكنّـه لم يقرأ شيئًا. وفرغ الرجل من كشفه فسبقه إلى مكتبه وما لبث أن لحق به. واطّلع الطبيب على نتيجة التحليل ثمّ فرك يديه وابتسم ابتسامة عريضة وقال:

ـ عزيزي المحامي الكبير، لا شيء ألبتّة.

تحرّك جناحا أنفه الطويل الحادّ وازداد وجهه تورّدًا:

ـ ألبتّة؟!

ـ ألبتّة!

ولٰكنّه سرعان ما قال بحذر:

ـ أخشى أن يكون الأمر أخطر ممّا تتصوّر!

فقال الدكتور ضاحكًا:

ـ ليست قضيّة أهوّلها لمضاعفة الأجر!

فضحك عمر وهو يرمقه بأمل فأكّد الآخر قائلًا:

ـ حسن، إذن فاعلم أنّه لا شيء. . .

فتساءل عمر في قلق:

ـ هل يُقضى عليّ بـأن أُسجن في عيادات الـطبّ النفسيّ؟

ـ لا نفسّي ولا دياولو!

ـ حقًّا؟

ـ أجل، إنّه مرض برجوازيّ إن جاز لي أن أستعير اصطلاحًا حديثًا ممّا يُستعمل في جرائدنا، ليس بك من مرض. . .

ثمّ بتمهّل:

ـ ولٰكنّي أرى في الأعماق مقدّمات لأكثر من مرض، والحقّ أنّك جئت في الوقت المناسب، متى ألحّ عليك الخمود؟

ـ منذ شهرين وربّما أكثر قليلًا ولٰكنّ الشهر الأخير

كان محزنًا حقًّا.

ـ دعني أصف لك حياتك كما أستنبطها من الكشف، أنت رجل ناجح ثريّ، نسيت المشي أو كدت، تأكل فاخر الطعام، وتشرب الخمور الجيّدة، وترهق نفسك بالعمل لحدّ الإرهاق، ودماغك دائمًا مشغول بقضايا الناس وأملاكك، وأخذ القلق يساورك على مستقبل عملك ومصير أموالك...

ضحك عمر بفتور وقال:

ـ صورة صادقة في جملتها ولٰكنّي لم أعد أهتمّ بشيء...

ـ حسن، لا شيء بك، ولٰكنّ العدوّ رابض على الحدود...

ـ كإسرائيل؟

ـ وعند الإهمال سيدهمنا الخطر الحقيقيّ...

ـ دخلنا الجدّ!

ـ اعتدِلْ في الطعام... قلّل من الشراب... التزم برياضة منتظمة كالمشي... فلن تلقى ما تخشاه...

وانتظر وهو يفكّر ولٰكنّ الدكتور لم يحرّك ساكنًا فسأله:

ـ ألن تكتب لي دواء؟

ـ كلّا، لست قرويًّا لأقنعك بأهمّيّتي بدواء لا يضرّ ولا يفيد، الدواء الحقيقيّ بيدك أنت وحدك...

ـ وهل أعود كما كنت؟

ـ وأحسن، أنا رغم إرهاقي بالعمل ما بين الكلّيّة والمستشفى والعيادة أمشي كلّ يوم نصف ساعة على الأقلّ، وأتّبع نظامًا مناسبًا في الغذاء.

ـ لم أشعر يومًا أنّي تقدّمت في السنّ...

ـ الكبر مرض، ولن تشعر به ما دمت تدفعه بحسن السلوك، هنالك شبّان فوق الستّين، المهمّ أن نفهم حياتنا...

ـ أن نفهم حياتنا؟!

ـ أنا لا أتفلسف طبعًا...

ـ ولٰكنّك تداويني بنوع من الفلسفة، ألم يخطر لك يومًا أن تتساءل عن معنى حياتك؟

فضحك الدكتور عاليًا ثمّ قال:

ـ لا وقت عندي لذٰلك، وما دمت أؤدّي خدمة كلّ ساعة لإنسان هو في حاجة ماسّة إليها فما يكون معنى السؤال؟

ثمّ بجدّيّة وودود:

ـ قُمْ في إجازة.

ـ إجازتي متقطّعة عادة كأنّها ويك أند يستمرّ طيلة شهور الصيف.

ـ لا، خذ إجازة طويلة بالمعنى، ومارس نظام معيشتك الجديدة، وسوف تبدأ بعد ذٰلك متجدّدًا.

ـ هٰذا ممكن...

ـ توكّل على الله، ليس بك إلّا نذير من الطبيعة فاستمع إليه، وعليك أن تنقص وزنك عشرين كيلو ولٰكن على مهل ودون عنف.

ضرب على ركبتيه وانحنى انحناءة خفيفة تؤذن بالتأهّب للقيام ولٰكنّ الدكتور بادره:

ـ مهلًا، أنت آخر زوّار اليوم فلنجلس قليلًا معًا.

اعتدل في جلسته باسمًا. دكتور حامد صبري إنّي أعرف ما تريد. تريد طيّ ربع قرن من الزمان. وأن تضحك من أعماق قلبك مرّة أخرى.

ـ ما أجمل أيّام زمان!

ـ الحقيقة يا دكتور ما أجمل كلّ زمان باستثناء «الآن».

ـ صدقت، التذكّر شيء والمعاناة شيء آخر.

ـ ثمّ يتبدّد كلّ شيء بلا معنى.

ـ لٰكنّنا نحبّ الحياة، هٰذا هو المعنى.

ـ شدّ ما كرهتها في الأيّام الأخيرة!

ـ وها أنت تبحث عن الحبّ المفقود، خبّرني أما زلت تذكر أيّام السياسة والإضراب والمدينة الفاضلة؟

ـ طبعًا، وقد ولّت جميعًا، ولم يبق إلّا سوء السمعة.

ـ ومع ذٰلك فقد تحقّق حلم كبير، أعني الدولة الاشتراكيّة.

ـ نعم...

الدكتور وهو يبتسم:

ـ وكنت تظهر لنا بأكثر من وجه، الاشتراكيّ المتطرّف، المحامي الكبير، ولٰكنّ وجهًا منك رسخ في ذاكرتي أقوى من أيّ سواه، هو عمر الشاعر!

ابتسم ابتسـامة عصبيّة ليداري امتعـاضًا مبـاغتًـا وتمتم:

ـ يا لسوء الحظّ!

ـ هجرت الشعر؟

ـ طبعًا.

ـ ولكنّك طبعت ديوانًا فيما أذكر.

فخفض عينيه حتّى لا يقرأ فيهما توتّره وضيقه وقال:

ـ عبث طفولة لا أكثر ولا أقلّ.

ـ بعض زمـلائي من الأطبّـاء الشعـراء يضحّـون بالطبّ في سبيل الشعر. . .

وواصل الدكتور:

ـ ذكـرى غبراء كـالطقس المنحـوس فمتى يسكت عنها!

ـ وأذكر من أقراننا القدامى مصطفى المنياوي، ماذا نطلق عليه؟

ـ الأصلع الصغير! ما زلنا أصدقاء لا نكاد نفترق، وهو اليوم صحفيّ نابه ومؤلّف إذاعيّ تلفزيونيّ. . .

ـ زوجتي مغرمة به جدًّا، وقد كان متحمّسًا مثلك، ولكنّ رأس الحماس كان عثمان خليل بلا جدال. . .

تجهّم وجه عمر. لطمته الذكرى بقبضة من حديد. ثمّ غمغم:

ـ إنّه في السجن!

ـ نعم، عمر طويل في السجن، أظنّه كان زميلك في كلّيّة الحقوق؟

ـ تخرّجنا في عـام واحد، أنـا ومصطفى وعثـمان، الحقّ أنّي لا أحبّ الماضي!

فقال بنبرة ختاميّة:

ـ فلتحبّ المستقبل.

ثمّ وهو ينظر في ساعته:

ـ من الآن فصاعدًا أنت أنت الطبيب.

في حجـرة الانتـظار رفـع عينيـه مـرّة أخـيرة إلى الصورة. لم يزل الطفل ممتطيًا جواده الخشبيّ متطلّعًا إلى الأفق. وهـذه البسمـة الغـامضـة في عينيـه أهي للأفق؟ وما زال الأفق منطبقًا على الأرض، فماذا يرى الشعاع الذي يجري ملايـين السنين الضـوئيّة؟ وثمّـة أسئلة بلا جواب فأين طبيبها؟

وفي الخارج أمام العمارة بميدان سليمان باشا ركب الكاديلاك السوداء فتحرّكت به كباخرة عروس النيل.

ـ ٢ ـ

الوجوه تتطلّع مستفسرة. حتّى قبل أن تردّ تحيّتك. حنان رقيق مخلص ولكن ما أفظع الضجر! الحموضة التي تفسـد العـواطف البـاقيـة. ولاحت من ورائهم الشرفة الكبيرة المطلّة على النيـل من الدور الـرابع. وتبدّى عنق زوجك من طاقة فستـانها الأبيض غليظًا متـين الأساس. واكتـظّت وجنتاهـا بالـدهن، وقفت كتمثال ضخم مليء بالثقة والمبادئ، وضاقت عينـاها الخضراوان تحت ضغط اللحم المـطوّق لهـما، أمّـا ابتسامتها فما زالت تحتفظ ببراءة رائقة ومحبّة صافية.

ـ قلبي يحدّثني بأنّ كلّ شيء طيّب. . .

إلى جـانبهـا وقف مصـطفى المنيـاوي في بـدلتـه الشركسكين رافعًا نحـوك وجهه البيضـاويّ الشاحب وعينيه الذابلتين وصلعته التاريخيّة، وقد بدا ضئيلًا في نحافته إلى جانب الزوجة المحكمة البناء.

ـ حدِّثنا عن زميل المدرسة، ماذا قال وهل عرفك؟

واعتمدتْ بثينة بكوعها عـلى كتف تمثال بـرونزيّ لامرأة باسطة الذراعين في هيئة مرحّبة، وتطلّعت إلى أبيها في تشوّف بعينيها الخضراوين، وهي تكرّر صورة أمّها عندما كانت في الرابعة عشرة، بقامتها الرشيقة، ولكن يبدو أنّها تتعملق مع الأيّام ولن تسمح للدهن بأن يغطّي على صفائها. تساءلت بنظرة كما تتفاهم معك كثيرًا دون كلام، أمّا جميلة ـ أختهـا الصغيرة ـ فعكفت عـلى دبّتهـا بـين مقعـدين كبـيرين ولم تهتمّ بالقادم.

وجلسوا جميعًا ثمّ قال بهدوء:

ـ لا شيء. . .

هتفت زينب بنبرة جامدة:

ـ الحمد لله، طالما قلت إنّك بحاجة إلى الراحة.

فأحنقه انتصارها بـلا سبب، وخاطب مصطفى ـ مشيرًا إلى زوجته ـ قائلًا:

ـ هي المسئولة أوّلًا وأخيرًا!

ولـمّا فـرغ من تلخيص رأي الدكتـور عـاد يؤكّـد رأيه:

ـ هي هي المسئولة.

فقال مصطفى بحبور:

ـ يا له من علاج هو باللعب أشبه!

ثمّ مستدركًا في أسف:

ـ لكنّ الـطعـام والشراب!... الـلعنـة عـلى الزمن...

لِمَ تلعن وأنت لم تصب بسوء؟ ماذا يفعل المقبل على رحلة غامضة! الحائر بين الحبّ والضجر. الـذي لم يحدّث نفسه بعد بطريقة شافية. وقال لمصطفى:

ـ الدكتور حامد سأل عن الأصلَع الصغير...

ثمّ بعد أن سكتت عاصفة الضحك:

ـ وهنيئًا لك إعجاب زوجته!

ابتسم مصطفى في سرور صبيانيّ لمعت به أسنانـه الناصعة البياض:

ـ أصبحت بفضل الإذاعة والتلفزيون كالوباء ولا بدّ أن أصيب ضعيفي المناعة.

وذكـر الآخر في السجن. حتّى حسـاسيّة الضمـير يدركها الضجر. يوم احترقت بلهيب الخطر. لكنّه لم يعترف. رغم الأهوال لم يعـترف. وذاب في الظلمات كأن لم يكن. وأنت تمرض في الترف. وتنهض الزوجة رمزًا للمطبخ والبنك. فسَلْ نفسك ألّا يضجر النيل تحتنا.

ـ بابا، هل نستعدّ للسفر؟

ـ سنمرح كثيرًا وسوف أعلّم أختك السباحة كـما علّمتك فيما مضى...

ـ حتّى البراميل!

هـا هي أمّـك تحـاكي الـبراميـل. والأفق يحـاكي السجن. والحـرّيّة استكنّت وراء الأفق. ولم يبق من أمل إلّا الضمير المعذّب. وقال مصطفى:

ـ زوجتي تفضّل رأس البرّ للأسف ومثلي لن يظفر بإجازة شهر كامل، إلّا إذا أصيب بسرطان ممتاز...

وتساءلت جميلة رافعة رأسها عن الدبّة:

ـ متى نسافر يا بابا؟

ولاح له مصطفى كنصب تذكاريّ للحبّ والزواج. كان المشير والمعين والشاهد. وكلّ يوم يؤكّد صداقته له وللأسرة. ولم يدرِ شيئًا بعد عن المياه التي تجرف قاع النهر.

ـ وذكّرني الدكتور بأيّام الشِّعر!

فضحك مصطفى قائلًا:

ـ الظاهر أنّه لم يسمع عن روائعي الدراميّة الحاليّة؟

ـ وددت لو أحكي له قصّتك مع الفنّ.

ـ ترى هل يؤمن النطاسيّ الكبير بالفنّ؟

ـ زوجته مغرمة بك، ألا تقنع بذلك؟

ـ إذن فهي مغرمة باللبّ والفشار.

وكانت زينب تراقب السفرجيّ من خلال الديكور المقوّس وما لبثت أن قالت:

ـ هلمّوا إلى العشاء.

وأعلن عمر أنّه سيكتفي بشريحة من صدر الدجاج وفاكهة وكأس واحدة من الويسكي فتساءل مصطفى:

ـ والبطارخ على سبيل المثال هل ألتهمها وحدي؟

وراح مصطفى يتحدّث عن إفـطار مستر تشرشـل الـذي نوّهت بـه إحـدى الصحف في أثنـاء زيـارتـه لقبرص. وقد تردّد قليلًا عند بدء الطعام ثمّ ما لبث أن أكل وشرب بلا حساب... ولم تستطع زينب كذلك أن تقاوم الإغراء وشربت زجاجة من البيرة، وواظبت بثينـة عـلى اعتـدالهـا الـذي تعتـدّه أمّهـا نـوعًـا من الاعوجاج. فقال مصطفى:

ـ الـطعـام أجـدر من الجنس بتفسـير السلوك البشريّ...

فنسي عمر نفسه وقال بمرح لأوّل مرّة:

ـ يخيّل إليّ أنّك مصاب بعقدة الدجاج...

وعقب العشـاء لم يجتمع شملهم أكـثر من نصف ساعة، نـامت بعدهـا جميلة، ومضت الأمّ وبثينة إلى زيـارة في نفس العمارة فخـلا عمـر إلى مصـطفى في الشرفة الكبيرة حيث استقرّت بينهما زجـاجة ويسكي ووعاء به ثلج فوق منضدة زجاجيّة السطح. ولم تندّ عن الأشجار حركة واحدة، وانتشرت حـول المصابيح غلالة ترابيّة. وبـدا النيل من ثغـرات أعالي الشجـر سـاكنًا هـامدًا شـاحبًا معـدوم المرح والمعنى. وشرب مصطفى وحده وتمتم باستياء:

ـ يد واحدة لا تصفّق.

فأشعل عمر سيجارة وهو يقول:

ـ ما أفظع الجوّ، لم أعد أحبّ شيئًا حبًّا خالصًا.

فقال مصطفى ضاحكًا:

ـ أذكر أنّك كرهتني يومًا ما. . .

فقال دون توقّف عند قوله:

ـ أخشى أن يتكرّر موقفي تجاه العمل إلى ما لا نهاية.

ـ عليك بالرجيم والرياضة، ولن يهون عليك أن تخون بثينة وتقع في اليأس.

ـ سوف أشرب كأسًا أخرى.

ـ لا بأس، ولٰكن كن أكثر حزمًا في الإسكندريّة.

ـ تقول إنّني كرهتك يومًا ما، أنت كاذب كأكثر أهل صناعتك!

ـ كنت تضيق بي على عهد إيماني الشديد بالفنّ.

ـ كنت وقتذاك أعاني نزعة من نفسي.

ـ أجل، كنت تقاتل حبّه الكامن فيك وتهجره بقسوة، وكنت أنا في ذٰلك الوقت وجهًا من وجوهه جديرًا بإثارة الشجون.

ـ ولٰكنّي لم أكرهك، وجدتك فقط ضميرًا معذّبًا.

ـ وقد احترمت أزمتك بعقل متسامح. وصمّمت على الاحتفاظ بك وبالفنّ معًا. . .

ثمّ وهو يضحك:

ـ ولعلّي أرحتك كثيرًا عندما قرّرت نبذ الفنّ بقوّة مذهلة، وها أنا أبيع اللبّ والفشار عن طريق الصحف والإذاعة والتلفزيون على حين تنهض أنت قمّة من قمم المحاماة في ميدان الأزهار!

ذكريات معادة. كالقيظ والغبار. دورات محكمة الإغلاق. والطفل الباسم يتوهّم أنّه يمتطي جوادًا حقيقيًّا.

ـ ضجر يضجر أضجر فهو ضجر وهي ضجرة والجميع ضجرون وضجرات. . .

ـ الرجيم والرياضة!

ـ يا لك من مضحك.

ـ هي رسالتي في الحياة، التسلية، والجمع تسليات، قديمًا كان للفنّ معنى حتّى أزاحه العلم من الطريق فأفقده كلّ معنى. . .

ـ أمّا أنا فقد نبذته دون تأثّر بالعلم. . .

ـ إذن لماذا نبذته؟

ماكر كالقيظ. وهٰذا الليل لا شخصيّة له. وضجيج الطريق ولا طرب. الماكر يسأل وهو يعلم.

ـ دعني أسألك أنت عن السبب؟

ـ قلت وقتذاك إنّك تريد أن تعيش وأن تنجح. . .

ـ إذن لماذا طرحت السؤال؟

ها هي نظرة اعتراف تقلق في عينيه الذابلتين من رمد قديم.

ـ أنت نفسك تنبذه بسبب العلم وحده!

ـ زدني علمًا؟

ـ عجزت عن أن تحتفظ له بمكانة محترمة على مستوى العلم!

فضحك مصطفى بصفاء مغسول بالويسكي وقال:

ـ لا تخلو حركة هروبيّة من فشل، ولٰكن صدّقني أنّ العلم لم يُبْقِ شيئًا للفنّ. ستجد في العلم لذّة الشعر ونشوة الدين وطموح الفلسفة، صدّقني أنّه لم يَبق للفنّ إلاّ التسلية، وسينتهي يومًا بأن يصير حلية نسائيّة ممّا يُستعمل في شهر العسل.

ـ ما أجمل أن أسمع ذٰلك! انتقامًا من الفنّ لا حبًّا في العلم.

ـ اقرأ أيّ كتاب في الفلك أو في الطبيعة أو في أيّ علم من العلوم وتذكّر ما تشاء من المسرحيّات أو دواوين الشعر ثمّ اختبر بدقّة إحساس الخجل الذي سيجتاحك. . .

ـ ما أشبه هٰذا الشعور بما ينتابني عندما أفكّر في القضايا والقانون. . .

ـ هٰذا الشعور المخجل لا يعانيه إلاّ الفنّان المنبوذ من الزمن. . .

فتثاءب عمر ثمّ قال:

ـ اللعنة، إنّي أشمّ في الجوّ شيئًا خطيرًا، ويرعبني إحساس داخليّ بأنّ بناء قائمًا سيتهدّم. . .

ملأ مصطفى كأسًا جديدة وقال:

ـ لن نترك بناء كي يتهدّم!

فمال نحوه مقطّبًا وسأله:

ـ ماذا تظنّ بي؟

ـ الإجهاد والتكرار والزمن.

ـ وهل في الرجيم والرياضة الكفاية؟

ـ كلّ الكفاية، اعتقدْ ذلك من كلّ قلبك...

- ٣ -

من الآن فصاعدًا أنت الطبيب. فأنت حرّ. والفعل الصادر عن الحرّية نوع من الخلق. حتّى ولو يكن مقاومة مستمرّة لشهوات البطن. ولنقل إنّ الإنسان لم يُخلق ليكتظّ بالأطعمة. وبتحرّر المعدة تتحرّر الروح كذلك وتحلّق. لذلك ترقّ السحب وترنّم عواصف أغسطس الصاخبة. ولكن ما أشدّ الزحام والرطوبة ورائحة العرق. وأجهدك المشي وناءت به قدماك كأنّما تتعلّمه لأوّل مرّة. والأعين ترمق العملاق وهو يوسع الخطى حتّى ينال منه التعب فيجلس على أوّل أريكة تصادفه على طريق الكورنيش. وعيناك ترمقان الناس بعد عمى ربع قرن. هكذا شهد الشاطئ مولد آدم وحوّاء ولكن لا يدري أحد من سيخرج من الجنّة. وقديمًا قطع الشابّ الطويل النحيل ابن الموظّف الصغير القاهرة طولًا وعرضًا على قدميه دون تذمّر. وسلسلة طويلة من آبائه وأجداده تهرّأت أقدامهم من معاندة الأرض ثمّ تساقطوا من الإعياء. وقريبًا سيخرج الماضي من السجن فيتضاعف عذاب الوجود.

ـ عثمان، لماذا تنظر إليّ هكذا؟

ـ ألا تريد أن تلعب الكرة؟

ـ أنا لا أحبّ الرياضة.

ـ لا شيء غير الشِّعر؟!

وأين المهرب من نظراتك الثاقبة؟ وما الجدوى من مجادلتك؟ وأنت تعلم أنّ الشِّعر هو حياتي وأنّ تزاوج شطرين ينجب نغمة ترقص لها أجنحة السماوات.

ـ أليس كذلك يا مصطفى؟

وهتف المراهق الأصلع:

ـ هذا الوجود من حولنا ليس إلّا تكوينًا فنّيًّا...

ويومًا هتف عثمان في حال من التجلّي:

ـ عثرت على الحلّ السحريّ لجميع المشاكل...

واندفعنا برعشة حماسيّة إلى أعماق المدينة الفاضلة. واختلّت أوزان الشعر بتفجّرات مزلزلة. واتّفقنا على ألّا قيمة ألبتّة لأرواحنا. واقترحنا جاذبيّة جديدة غير جاذبيّة نيوتن يدور حولها الأحياء والأموات في توازن خياليّ لا أن يتطاير البعض ويتهاوى الآخرون. وعندما اعترضتنا دورة فلكيّة مُعاكِسة انتقلنا من خلال الحزن والفشل إلى المقاعد الوثيرة، وارتقى العملاق بسرعة فائقة من الفورد إلى الباكار حتّى استقرّ أخيرًا في الكاديلاك، ثمّ أوشك أن يغرق في مستنقع من الموادّ الدهنيّة.

وها هي الشماسي تترامى ملتصقة الشراريب فتكوّن قبّة هائلة دانية مختلطة الألوان، تستلقي تحتها الأبدان شبه العارية. وتنتشر في الجوّ رائحة آدميّة عميقة الأثر في الحواسّ مذابة في رائحة البحر المتحدّية تحت شمس تخلّت عن بطشها. ووقفت بثينة بقدّها المشوق، مبلّلة الجسد، محمرّة الذراعين والساقين، مدسوسة الشعر في غطاء أزرق من النايلون، مفترّة الثغر لفرحة الشاطئ. وأنت شبه عار، مغطّى الصدر بدغل من الشعر الكثيف الأسود، وقد استكنّت بين ساقيك جميلة وهي تبني هرمًا من الرمال. واضطجعت زينب على مقعد جلديّ طويل وراحت تطرّز أفواف وردة على رقعة كانفاه، متباهية بتضخّم صحّيّ فلم تعدم نظرات مراهقة بلهاء تحوم حول صدرها الناهض.

عزيزي مصطفى. قرأت تعليقاتك الفنّيّة الأسبوعيّة. بديعة ولاذعة وموحية. تقول إنّك بائع لبّ وفشار؟ مهلًا، لكنّك من أصل كريم، وصاحب قلم تمرّس طويلًا بالنقد الجدّيّ والمسرحيّ، فحتّى تسلياتك لها نكهة خاصّة. أشكرك على سؤالك عنّا ولكنّ خطابك جاء موجزًا لدرجة مزعجة ولعلّك اعتبرته تكملة شكليّة لمقالاتك ولكنّي في مسيس الحاجة إلى ثرثرة لانهائيّة. زينب عال وهي تُقرئك السلام وتذكّرك بالدواء الذي رجتك أن تحصل عليه من الخارج بواسطة أيّ من زملائك الرحّل. متاعب مصرانها هيّنة في رأيي ولكنّها مغرمة بالدواء كما تعلم. بثينة سعيدة وكم أودّ أن أتسلّل إلى عقلها ولكنّ أسعدنا بغير جدال هي جميلة التي لا تفهم شيئًا بعد.

ولو أنّك رأيتني لـدهشت للتقدّم الـذي أحرزتـه فقد نقصت ثـمانيـة كيلو ومشيـت آلاف الكـيلومـترات وضحّيت بأطنان من اللحوم والبطارخ والزبد والبيض وعرفت الاشتياق إلى الطعام بعد شبع طويل لدرجة الموت. ولأنك بعيد فإنّني لا أجد مَن أحادثه كما أحبّ ولذلك كثيرًا ما أحدّث نفسي. كلام زينب أعقل ممّا يجب، لماذا يثيرني الكـلام العاقـل في هٰـذه الأيّـام؟ الشخص الوحيد الذي أعجبني حديثه رجل مجنون، يرفع يده بالتحيّة على طريقة الزعماء طـوال الطريق. ويلقي خطبًا عجيبة، وقد التقيت به فيما وراء شاطئ جليم بكيلو على الأقلّ فبادرني:

ـ ألم أقل لك؟

فأجبته باهتمام:

ـ فعلًا...

ـ ولكن ما الفائدة؟... ستمتلئ المدينة غدًا بسمك موسى ولن تجد موضعًا لقدم.

ـ على البلديّة أن...

لكنّه قاطعني بحدّة:

ـ لن تفعل البلديّة شيئًا، سوف ترحّب به تشجيعًا للسياحة، وسوف يتكاثـر بصورة مـذهلة حتّى يضطرّ السكّـان الأصليّون للهجـرة فيمتلئ الـطريق الزراعيّ بـطوابير المهـاجرين ورغم ذٰلـك كلّه سيواصـل ثمن السمك صعوده...

وتمنّيت أن أتسلّل إلى رأسـه أيضًا. لغتـه لا تقلّ غرابة عن لغة العلماء الأفذاذ أصحاب المعادلات، وما أضيعنا نحن العقلاء بين الاثنين، نحن الذين نعيش في السـاجـة المجسّمـة، لا نعـرف لـذّة الجنون ولا أعاجيب المعادلات. رغم ذٰلك فأنا ربّ أسرة سعيدة. تعالَ وشاهدني وأنا أناجي بثينة على حين تهاجمنا جميلة بـالرمـال. وبيتنا في جليم مـريح جـدًّا. وحنيني إلى الـويسكي يشتدّ بصـورة ملحوظـة. وأمس ونحن في الكابينة مساء ترامى إلينا صوت جارنا وهـو يتحدّث قائلًا:

ـ العمارات ستؤمّم...

اصفرّ وجه زينب وحدجتني بنظرة استغـاثة فقلت لها:

ـ لدينا من المال الشيء الكثير...

فتساءلت:

ـ وهل تنجو الأموال؟

ـ لقد تحصّنّا ضدّ القَدَر بتأمينات شتّى...

فراحت تتساءل في قلق:

ـ ومن أدرانا!...

فقاطعتها:

ـ بالله خبّريني كيف سمنت إذن لهٰذا الحدّ؟!

فهتفت بي:

ـ كنت في شبـابـك مثلهم لا تـتكـلّم إلّا عن الاشتراكيّة، وهي ما زالت في دمك!

ثمّ كرّرتْ عليّ أن أذكّرك بالدواء. مصطفى، أنا لا يهمّني شيء، لا يهمّني شيء صـدّقني، لا أدري ماذا حصـل لي، لن يهمّني شيء، المهمّ عندي أن نلتقي لنستأنف هذرنا ومناقشاتنا الجميلة التي لا معنى لها. وقد رمت لي الصدفة بحديث غراميّ في الظلام دون أن يفطن لوجودي أصحاب الشأن. قال الرجل:

ـ عزيزتي نحن منحدرون إلى خطر مؤكّد...

فقالت المرأة:

ـ هٰذا يعني أنّك لا تحبّني.

ـ لكنّك تعلمين تمامًا أنّني أحبّك.

ـ إذا تكلّمت بعقل فهٰذا يعني أنّك لم تعد تحبّني.

ـ ألا ترين أنّني مسئول وأنّني جاوزت الشباب؟

ـ قل إنّك لم تعد تحبّني...

ـ سوف نهلك معًا ونخرب بيتنا...

ـ ألا تكفّ عن المواعظ؟

ـ لك زوجك وبناتك ولي زوجتي وأبنائي...

ـ ألم أقل لك إنّك لم تعد تحبّني؟

ـ ولٰكنّني أحبّك.

ـ إذن فلا تذكّرني بغير الحبّ.

وابتعـدت وأنا أتخيّـل الدرامـا الممتعـة الفـاضحـة وأضحك لجرأة المرأة وتهافت الرجل. ولٰكنّها ذكّراني بصديق قديم اسمه الحبّ. يا إلٰهي ما أطول العمـر الذي مضى دون حبّ. وماذا بقي منه عدا ذكريات محنّطة؟! كم أتمنّى أن أتسلّل إلى قلب عاشق. وأنا كما تعلم لم أحبّ في حياتي سوى زينب ولٰكن كان ذٰلك

منذ عشرين عامًا. وما أذكره من ذلك التاريخ حركات ومواقف لا مشاعر وانفعالات. وأذكر أنّني قلت لك يومًا «عيناها تصعقانني» وأذكر أنّك لم تتخلَّ عنّي أبدًا، وأنّ حالتي كانت جنونيّة. ولكنّ ذكرى الجنون غير الجنون نفسه. كنت محموم الفكر بركانيّ القلب ساهر الليل. ورفعني العذاب إلى الشّعر وسحّت من عينيّ دموع وتوثّقت أسبابي بالسماء. ولكنّ كلّ أولئك ذكريات محنّطة. وها أنا اليوم أكافح للتملّص من الموادّ الدهنيّة ولا أرى في زينب العزيزة إلّا تمثالًا لوحدة الأسرة والبناء والعمل. وثق من أنّه لا يهمّني شيء. فليأخذوا العمارات الثلاث والأموال السائلة. ولن أزعم أنّني أستهين بذلك بتأثير من المبادئ التي أوشكتْ يومًا أن تقذف بنا جميعًا إلى السجن مع عثمان، فأيّام الجهاد نفسها لم تعد إلّا ذكريات محنّطة، ولكنّي لا أدري ماذا حلّ بي أو ماذا غيّرني، فأبشر يا عزيزي بأنّني أتقدّم نحو شفاء جسمانيّ واضح، ولكنّي أقترب في الوقت نفسه من جنون طريف والعقبى لك.

ـ لا تنس أن تكتب له عن الدواء.

ـ فعلت يا عزيزتي...

ما ألطفك يا بثينة! براعم صدرك تشهد للدنيا بحسن الذوق. ولعلّي من جيل محافظ نوعًا فماذا أعدّت أمّك؟... من المحزن أنّك لم تعرفي من الدنيا شيئًا، وأنّني صنتك كالكنار فلم تتجاوزي سيّارة المدرسة. وهٰذه النظرة الحالمة ماذا وراءها؟ ألم تضنّي عليّ بحلم رغم الصراحة التي تبارك أحاديثنا؟! وكيف تؤثّر فيك رائحة الأبدان العارية؟ والغزل المتطاير بين الأمواج، يا إلٰهي ادفع المجتمع إلى مجاراة أفكارها وفعالها حتّى لا تتعرّض لسوء. وقال لها وهي تمدّ ساقيها العاريتين تحت مقعده المغروس في الرمل:

ـ لم نهنأ ببعضنا هٰكذا من قبل!

ـ الحقّ عليك...

ـ لم أبقَ في المكتب طيلة العمر إلّا من أجلكم.

فانطرحت على كوعيها معرّضة بطنها وصدرها للشمس المتألّقة في سماء صافية على حين تهادت فوق منحنى الخليج سحابة بيضاء وحيدة. وقالت الأمّ دون أن ترفع رأسها عن الكانفاه:

ـ قولي له إنّ صحّته اليوم أهمّ من أيّ شيء...

ـ حتّى من تأميم العمارات؟

فأجابت متحدّية مقطّبة:

ـ حتّى من تأميم العمارات...

فقال بنبرة تقريريّة مستسلمة:

ـ ما أجمل أن نتكيّف مع مجتمعنا!

ولم تنبس بكلمة. ومرّت أمام المجلس حسناء معجبة بنفسها فخطف منها نظرة أشاعت في حواسّه بهجة ياسمينيّة.

ـ عندما أعود إلى حالتي الطبيعيّة سأحاول أن أفهم الحياة فهمًا جديدًا يقرنها بالسعادة الحقيقيّة...

ـ لنسأل الله أن يحفظنا من كلّ سوء...

ـ الله يحبّ أن نسأله الخير للناس جميعًا...

واسترق إليها نظرة ماكرة ثمّ قال ضاحكًا:

ـ ولٰكن كيف يستجيب الله للدعاء في هٰذه الحال؟

وأدركت ما يعنيه ولٰكنّها لم تعلّق بكلمة واحدة. وتناسى الموضوع كلّه واستسلم لأفكاره. خفّ الوزن ودبّ النشاط ولٰكن ما أفظع القلق! الذباب والعمل والزوجة. ويومًا ستجد بثينة ما يشغلها عنك ومثلها جميلة التي تشيد الأهرام من الرمال. خبّرني بالله ماذا تريد؟ ولماذا يخيّم الصمت رغم الضجيج؟ ولِمَ يتنبّأ شيء في صدرك بمخاوف هوائيّة؟ وفي كلّ لحظة تشعر بأنّ صلة تتمزّق محدثة صوتًا مزعجًا، وأنّ قائمًا يتزعزع وأنّ أسنانك توشك أن تتساقط. وسوف تفقد الوزن في النهاية وتسبح في الفضاء. اشددْ قبضتك على الأشياء، وانظر إليها طويلًا فعمّا قليل ستختفي ألوانها. ولن يكترث لك أحد. وها هي الأمواج تطيح بأهرام جميلة المشيّدة من الرمال. والهواء يطيّر الصحف التي لا حقيقة ثابتة فيها إلّا صفحة الوفيّات. ويقول لك الرجل «هٰذه هي قضيّتي أعهد بها إلى سيّد المحامين». يا للسخرية! لم يبق لنا يا حضرات المستشارين إلّا أن نعمل معًا في السيرك القوميّ.

ـ لماذا تسرح يا عزيزي؟

ـ لا شيء...

ـ هل أنت بخير تمامًا؟

ـ أظنّ ذٰلك.

ـ ولْكنّ خبرتي الطويلة بك تقول إنّك في حاجة إلى عناية...

ـ يجب أن نحترم الخبرة...

ـ هل أحدّثك عن رأي الطبّاخة؟

ـ وهل للطبّاخة رأي؟

ـ قالت إنّ الرجال السعداء الناجحين عرضة للعين...

ـ وهل تصدّقين ذٰلك؟

ـ كلّا طبعًا ولْكنّ الحيرة تحملنا أحيانًا على تجربة أيّ شيء؟

ـ إذًا فما عليك إلّا أن تتّفقي مع شيخة زار!

ـ ألا ترى أنّ السخرية لم تكن من شيمتك؟

فقال باسمًا:

ـ قليل من السخرية يفيد ولا يضرّ!

ـ لن أثقل عليك يا عزيزي.

وهم عائدون تأخّرتْ به قليلًا عن البنتين وقالت:

ـ إليك خبرًا سارًّا...

تطلّع إليها في يأس خفيّ.

ـ اكتشفت في بثينة شيئًا لم يكن في الحسبان!

ـ غير ما اكتشفت العام الماضي؟

ـ بلى، إنّها يا عمر شاعرة!

رفع حاجبيه الكثيفين في دهش.

ـ نعم... لاحظت انهماكها في الكتابة، وأنّها تمزّق ما تكتب ثمّ تعيد كتابته، وأخيرًا اعترفت لي بأنّها تكتب شعرًا، فضحكت وقلت لها...

وتردّدتْ فسألها:

ـ ماذا قلت لها؟

ـ قلت لها إنّك بدأت كذٰلك شاعرًا...

فتساءل مقطّبًا:

ـ ألم تخبريها كيف انتهيت؟

ـ لْكن أن تكون بنت في سنّها شاعرة شيء جميل.

ـ فعلًا...

ـ يجب أن تقرأ شعرها وأن تزوّدها بنصائحك...

ـ لو لنصائحي قيمة لأجْدَتْ معي!

ـ ولْكنّك سعيد بالخبر؟

ـ جدًّا...

ـ ٤ ـ

ولْكنّ الاضطراب غطّى على السعادة المؤقّتة. وهٰذا إحساس عاصف كأنّه نوع من الذعر. وثمّة جَيَشان يرعى الصدر لم يقربه منذ عشرين عامًا. وناداها إلى الشرفة المطلّة على البحر فجاءت في بلوزة مزركشة وبنطلون بنّيّ يضيق تدريجيًّا حتّى يلتصق بالساقين فوق الرسغين. أجلسها قبالته وهو يقول:

ـ رأيت أن أدعوك لتشهدي معي الغروب...

همّت بالاعتذار فيما بدا له، وكان يعلم أنّ ذاك وقت خروجها مع أمّها وأختها لنزهة الأصيل على الكورنيش، ولْكنّه قال:

ـ ستلحقين بها سريعًا، ألا يحبّ الشعراء الغروب؟

ولاحظ تورّد وجنتيها بشغف وهو يبتسم.

ـ لْكن... لْكنّي لست بشاعرة!

ـ ولْكنّك تكتبين شعرًا؟

ـ من أدراني أنّه شعر؟

ـ سوف أحكم بعد الاطّلاع!

ـ كلّا.

نطقت بها في إشفاق وحياء فقال:

ـ لا سرّ بيننا وأنا فخور بك.

ـ ما هو إلّا كلام ركيك.

ـ سأحبّ شعرك حتّى ركيكه...

أسبلت جفنيها في استسلام حتّى تلاقت رموشها الطويلة المقوّسة إلى أعلى، وإذا به يسألها في اهتمام من الأعماق:

ـ خبّريني يا بثينة كيف اتّجهت نحو الشعر؟

ـ لا أدري!

ـ أنت متفوّقة في العلوم ولْكن كيف اتّجهت نحو الشعر؟

وهي تتذكّر مقطّبة:

ـ المختارات المدرسيّة!... أحببتها جدًّا يا بابا...

ـ ولْكن ما أكثر من يحبّونها!

ـ كانت تسحرني بدرجة أقوى فيما أعتقد...

ـ ألم تقرئي غير ذٰلك من الشعر؟

ـ بلى، قرأت في دواوين...

ـ دواوين؟!

فضحكت قائلة:

ـ استعرتها من مكتبتك!

ـ حقًّا؟!

ـ وعرفت أنّك شاعر أيضًا.

وخزه ألم فدفعه بتظاهر بالمزيد من المرح وقال:

ـ لا... لا... لست شاعرًا... كانت لعبة من لعب الطفولة...

ـ مؤكّد أنّك كنت شاعرًا. على أيّ حال وجدتني مدفوعة إلى الشعر دفعًا...

أنت تتحدّث عن المسرح ولكنّي شاعر، وأنا ملقى في دوّامة لا نجاة منها إلّا بالشعر فهو غاية وجودي، وإلّا بالله خبّرني ماذا نصنع بالحبّ الذي يكتنفنا كالهواء؟ والأسرار التي تلفحنا كالنار، والكون الذي يرهقنا بلا رحمة؟ فلا تكن مكابرًا يا صديقي.

ـ زيديني شرحًا؟

قالت وهي تستردّ شجاعتها المألوفة:

ـ كأنّني أبحث عن أنغام في الهواء!

ـ قول جميل يا بثينة، وهو كذلك ما دام لا يفسد علينا الحياة..

ـ ماذا تقصد يا بابا؟

ـ أعني دراستك، ومستقبلك، ولكن آن لي أن أطّلع على شِعرك!

أتته بكرّاسة مغلّفة بورق مفضّض. وباحترام وحبّ وإشفاق ولهفة راح يقرأ. وتخلّل قراءته عام ١٩٣٥ مداعبًا ومعترضًا. عهد الحرمان والأمل والأسرار. والاضطراب المطوّق للعباد، وأحلام المدينة الفاضلة. ثمّ صوت عثمان وهو يرتعش هاتفًا «عثرت على الحلّ السحريّ لجميع المشاكل».

ولكنّ البنت عاشقة. وربّي إنّها لعاشقة. البرعمة التي لم تتفتّح بعد. مَن هو ذو الجمال. الذي السحاب أنفاسه. والشمس مرآته. الذي تتمايل الأغصان شوقًا إليه. لماذا نضطرب إذا كرّر الأبناء سيرتنا؟ وما رأي أبي إذا سمعني أحدّث حفيدته في الحبّ؟

ـ هٰذا شِعْر حقًّا!

تألّق الفرح أخضر في عينيها وصاحت:

ـ حقًّا؟!

ـ وشعر جميل.

ـ أنت تشجّعني يا بابا ليس إلّا...

ـ بل أقول الحقّ.

ونظر في عينيها ثمّ سأل باسمًا:

ـ ولٰكن مَن هو؟

فانطفأت شعلة الحماس في عينيها وتساءلت في شيء من الخيبة:

ـ مَن...؟

ـ مَن المقصود بالترانيم؟

ثمّ بنبرة ثقة:

ـ لم يعرف السرّ مكانًا بيننا...

فقالت بإلغاز لم يخل من فتور:

ـ ليس أحدًا من الناس!

ـ ترى ألم أعد الصديق الأب؟

ـ بلى ولٰكنّه ليس أحدًا من الناس.

ـ يهمّني أن أعرفه بعد إذنك؟

ـ ولٰكنّي أقول إنّه ليس أحدًا من الناس.

ـ أهو من الملائكة؟

ـ ولا من الملائكة.

ـ ماذا هو إذن... حلم... رمز؟

في حيرة واضحة:

ـ لعلّه... هو غاية كلّ شيء...

مسح الرطوبة عن جبينه وساعدَيْه وصمّم بإرادة هائلة على أن ينتزع من نفسه أيّة نيّة عبث أو سخرية أو استهانة وقال بجدّيّة:

ـ إذن فأنت تعشقين سرّ هٰذا الوجود؟

أجابت في توتّر حلّ محلّ شجاعتها التلقائيّة:

ـ هٰذا جائز جدًّا يا بابا...

ما أحمقنا عندما نظنّ أنفسنا أغرب من الآخرين!

ـ كيف حصل ذٰلك؟

ـ لا أدري... من الصعب أن أوضح، ولٰكنّي وجدت في ديوانك بدء الطريق...

وضحك ضحكة عضليّة خالصة وقال:

ـ مؤامرة عائليّة!... أمّك كانت تعرف من زمن وأطلعتك على ذٰلك الشيء الذي تسمّينه ديوانًا...

ـ ولكنّه شعر رائع... وكم أنّه ملهم!

وضحك ضحكة عالية لفتت إليه عازف البيانولا الذي كان يرسل على الكورنيش أنغامه المتشنّجة.

ـ أخيرًا وجدت معجبة! ولكنّه لم يكن شعرًا، كان أوهامًا محرقة، ومن حسن الحظّ أنّي تركته في الوقت المناسب...

ـ أمّا أنا فوجدت فيه ما أهيم به...

ـ إذن فأنت خالقة حتّى في قراءتك!

ـ أنت تقول هٰذا!

ـ وهٰذا هو حبيبك؟

ـ كما أنّه حبيبك!

كان. لا حبيب الآن. القلب لم يعد يفرز إلّا الضياع. وبين النجوم يترامى الفراغ والظلام. وملايين السنين الضوئيّة.

ـ ما رأيك يا أبي؟

ـ لمثلك ينبغي أن أقول «افعلي ما تشائين».

فتساءلت في مرح:

ـ ومتى تعود إلى الشعر؟

ـ ادعي الله أن أعود إلى مكتبي أوّلًا!

ـ إنّي أعجب كيف هان عليك أن تهجره؟

فقال وهو يداري ابتسامة حياء:

ـ كان لهوًا ليس إلّا...

ـ والديوان يا بابا؟

ـ توهّمت يومًا أنّني سأستمرّ...

ـ ولكنّي أسألك عمّا أوقفك.

تداخلت شفتاه في سخرية ولكن سرعان ما ارتفع إلى حال من الجدّيّة الصادقة ودفعته رغبة صريحة إلى الاعتراف فقال:

ـ لم يسمع لغنائي أحد.

أضرّ بك الصمت. وقال مصطفى محرّضًا:

ـ المثابرة والصبر!

وقال عثمان:

ـ اقذف بشعرك في المعركة تظفر بآلاف المستمعين!

وأرهقك الصمت. وألحّ عليك الحرمان. وفتح الحبّ ذراعيه. وأثبت الشعر أنّه لا قدرة له على الامتلاك. ويومًا قال مصطفى بارتياح:

ـ أخيرًا قبلت فرقة الطليعة مسرحيّتي...

واشتدّ إرهاق الصمت. وقرّر شمشون أن يهدم المعبد. وسرعان ما استغرقه النوم.

وسألت بثينة:

ـ هل من الضروريّ يا بابا أن يستمع لغنائنا أحد؟

فداعب خصلة من شعرها الأسود وقال:

ـ ما معنى أن ندعو سرّ الوجود من الصمت إلى الصمت؟

ثمّ برقّة وعطف:

ـ ألا تودّين أن يسمع لغنائك الناس؟

ـ طبعًا ولكنّي سأستمرّ على أيّ حال...

ـ جميل، أنت أفضل من أبيك، هٰذا كلّ ما هنالك.

ـ ولكنّك تستطيع أن تعود إلى الشعر إذا أردت...

ـ الموهبة ماتت إلى الأبد.

ـ لا أصدّق، إنّك في نظري دائمًا شاعر...

ما للشّعر وهٰذا الطول والعرض، والتفكير الدائب في القضايا، وبناء العمارات، والطعام الدسم لحدّ المرض؟!

وحتّى مصطفى انحطّ يومًا على المقعد الطويل مقوّس الظهر:

ـ عليّ أن أعيد النظر في حياتي كما فعلت أنت...

ـ طالما نصحت بالمثابرة والصبر.

فبصق ضحكة خشنة وقال:

ـ لا فائدة من تجاهل الجماهير!

ـ أتريد أن تبدأ من جديد محاميًا؟

ـ مات القانون قبل الفنّ، الحقّ أنّ مفهوم الفنّ قد تغيّر ونحن لا ندري، عهد الفنّ قد مضى وانقضى، وفنّ عصرنا هو التسلية والتهريج، هٰذا هو الفنّ الممكن في زمن العلم، ويجب أن نتخلّى للعلم عن جميع الميادين عدا السيرك.

ـ الحقيقة أنّنا نتحطّم واحدًا بعد آخر.

ـ بل قل إنّنا بلغنا سنّ الرشد، انظر إلى نجاحك في الحياة على سبيل المثال، وفي رأيي أنّ الترفيه غاية جليلة لمتعَبي القرن العشرين، وما نظنّ أنّه الفنّ الحقيقيّ ليس إلّا الضوء القادم مِن نَجْم مات منذ

ملايين السنين، فعلينا أن نبلغ سنّ الرشد وأن نولي المهرّجين ما يستحقّون من احترام!

- يخيل إليّ أنّ التفلسف قد قضى على الفنّ!

- بل قضى العلم على الفلسفة والفنّ، فإلى مسرّات التسلية بلا تحفّظ، ببراءة الأطفال وذكاء الرجال، إلى القصص الخفيفة والضحكات المجلجلة والصور الغريبة، ولنتنازل نهائيًّا عن غرور الكبرياء وعرش العلماء ولنقنع بالاسم المحبوب والمال الوفير...

سرّني ذلك رغم الحزن والأسف. مارست بتألّم حقيقيّ العواطف المتضاربة. وفكّرت بذهول فيمن ازدرده السجن. الأصلع المحبوب يهبك بلسم العزاء لفشلك. وتفوّقًا غير متوقّع. من غد سوف يطمح إلى القوّة التي امتلكتها ولكن بوسيلة أتفه. كما انقلب المتطلّع إلى سرّ الوجود إلى محامٍ ثريّ غارق في الموادّ الدهنيّة.

- إن يكن العلم كما تتصوّر فما نحن إلّا طفيليّون على هامش الحياة.

- نحن رجال ناجحون ذوو سرّ دفين من الحزن المكبوت وليس من الحكمة أن ننكأ الجروح.

- لكنّنا ننتمي في الواقع إلى عصر قديم بالٍ.

- بالله لا تنكأ الجروح.

- العلماء أقوياء بالحقيقة ونحن قوّتنا مستمدّة من المال الذي يفقد شرعيّته يومًا بعد يوم.

- لذلك أقول لك إنّ الموت يمثّل أملًا حقيقيًّا في حياة الإنسان.

ونظر إلى عينيها الخضراوين برقّة وقال:

- بثينة، هل أطمع أن تعديني بألّا تفرّطي في دراستك العلميّة؟

- أظنّ ذلك ولو أنّ الشّعر سيظلّ أجمل ما في حياتي...

- ليكن، لن أجادلك في ذلك، ويمكن أن تكوني شاعرة وفي ذات الوقت مهندسة مثلًا.

- يبدو أنّك مشغول بمستقبلي...

- طبعًا، لا أحبّ أن تنتبهي يومًا فتجدي نفسك في العصر الحجريّ على حين يعيش مَن حولك في عصر العلم...

- لكنّ الشّعر...

فقاطعها:

- لن أجادلك يا عزيزتي، صديقي مصطفى يجد في العلم دينًا وشعرًا وفلسفة، لكنّي لن أجادلك، أنا سعيد بك وفخور...

ها هي الشمس تتهاوى للمغيب. قرص أحمر كبير امتصّ المجهول قوّته وحيويّته الباطشة فرنت إليه الأعين كما ترنو إلى الماء. وتدفّقت حوله كثبان السحب وضّاءة الحوافي مورّدة الأديم في مهرجان من الألوان.

أتريد أن تعرف سرّي حقًّا يا مصطفى، اسمع: عندما أمضّني الفشل جريت نحو القوّة التي آمنّا من قبل بأنّها شرّ يجب أن يزول، ولكنّك تعرف سرّي يا مصطفى...

- ٥ -

في ضوء الشمس الغاربة تبدّت أنيقة وقورًا. رغم اكتناز جسمها الطويل، المفصح عن شبع مثير ورفاهية محنقة. ما كان أرقّ جمالها! وما زالت على قدر من الجمال بالرغم من ضخامتها غير العاديّة وانتفاخ وجنتيها. ونظرتها الخضراء الجادّة لم تفقد كلّ سحرها ولكنّها غريبة، غرابة مستحدثة لم ترها عينك من قبل. امرأة رَجُل آخر. رجل الأمس الذي لم يعرف التعب أو الفتور. الذي نسي نفسه. ولكن ما علاقتها بهذا الرجل؟ المريض بلا مرض، المتجنّب للدسم والشراب، الذي يتنسّم في الهواء المشبع بالرطوبة نُذُر مخاوف لا حدود لها. والأختان سابقتان، جميلة تمشي على سور الكورنيش الحجريّ قابضة على يد بثينة التي سايرتها على الأرض، في الطريق ما بين جليم وسيدي بشر الذي يخفّ به الزحام درجة ما. وأعين كثيرة تطلّعت إلى بثينة، وشفاه تمتمت بكلمات لم يميّزها ولكنّه يعرفها على أيّ حال فابتسم من الداخل فحسب. وما هو إلّا عامان أو ثلاثة ثمّ تصير جدًّا. وتمضي الحياة، ولكن إلى أين؟ والتفت إلى الشمس الغاربة في سماء صافية باهتة لم يعلق بها من الشفق إلّا قشرة سطحيّة استدارت عند الأفق. قال:

ـ كان الأقدمون يتساءلون أين تذهب الشمس، ولم نعد نتساءل. . .

فتطلّعت زينب إلى الشمس ثواني ثمّ قالت:

ـ بديع أن نتخلّص من سؤال!

الإجابة العاقلة تخنقك وكأنّها تستفزّك. التصرّفات العاقلة تغضبك بلا سبب. ما أجمل أن يثور البحر حتّى يطارد المتسكّعين على الشاطئ! وأن يرتكب السائرون على الكورنيش حماقات لا يمكن تخيّلها! وأن يطير الكازينو الكبير فوق السحب! وأن تتحطّم الصور المألوفة إلى الأبد! فيخفق القلب في الدماغ، وتتراقص الزواحف والعصافير.

ومضت البنتان إلى سينما سان استفانو، ثمّ واصل كلاهما المشي متقاربين. وإذا بها تتأبّط ذراعه وتهمس متسائلة:

ـ عمر. . . ماذا عندك؟

ألقى نظرة باسمة على ما حوله وقال:

ـ ما أكثر الغرام!

ـ هو كذٰلك دائمًا، ولٰكن ماذا عندك؟

فقال ممعنًا في التجاهل:

ـ بثينة لا تعرف أشياء كثيرة، فكّرت في ذٰلك وأنا. . .

فقاطعته نافذة الصبر:

ـ إنّي أعرف ما عليّ، والبنت معدنها نفيس، ولٰكنّك تهرب. . .

ما أشدّ استجابة نفسك لـ «تهرب» كأنّها مفتاح سحريّ يلقى إليك في جبّ. . .

ـ أهرب؟

ـ أنت فاهم ما أعنيه فاعترف. . .

ـ بأيّ جريمة؟

ـ بأنّك لم تعد أنت. . .

ما أحوج الرطوبة اللزجة إلى عاصفة هوجاء!

ـ حقًّا؟

ـ جسمك وحده الذي يعيش بيننا، وأحيانًا أحزن لحدّ الموت.

ـ ولٰكنّني أتداوى بعزيمة صادقة كما لا بدّ تشهدين.

ـ الحقّ أنّي أتساءل عن السبب وراء ذٰلك كلّه، أطوارك جعلتني أتساءل من جديد.

ـ لٰكنّنا شخّصنا الحال بما فيه الكفاية.

ـ أجل، ولٰكن ألا يضايقك شيء بالذات؟

ـ أبدًا. . .

ـ يجب أن أصدّقك.

ـ لٰكنّك لا تصدّقين تمامًا فيما يبدو؟

ـ ظننت أنّ أمرًا ضايقك، في المكتب، في المحكمة، عند أحد من الناس، وأنت حسّاس وبارع في الحزن المكتوم!

ـ أنا لم أقصد الطبيب إلّا لأنّني لم أعثر على سبب محسوس!

ـ لم تحدّثني كيف بدأت الحال.

ـ طالما حدّثتك عن ذٰلك.

ـ عن النتائج فقط ولٰكن كيف بدأ الحال على وجه التدقيق؟

وها هي رغبة مستهترة في الاعتراف تدفعك.

ـ من الصعب أن أحدّد تاريخًا أو أقرّر كيف بدأ التغيّر، لٰكنّني أذكر أنّني كنت مجتمعًا بأحد المتنازعين على أرض سليمان باشا، وقال الرجل: «أنا ممتنّ يا أكسلانس، أنت محيط بتفاصيل الموضوع بدرجة مذهلة حقيقة باسمك الكبير، وإنّ أملي في كسب القضيّة لعظيم». فقلت له: «وأنا كذٰلك» فضحك بسرور بيّن وإذا بي أشعر بغيظ لا تفسير له، وقلت له: «تصوّر أن تكسب القضيّة اليوم وتمتلك الأرض ثمّ تستولي عليها الحكومة غدًا» فهزّ رأسه في استهانة وقال: «المهمّ أن نكسب القضيّة، ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أنّ الله سيأخذها» فسلّمت بوجاهة منطقه ولٰكن ذهل رأسي بدوار مفاجئ واختفى كلّ شيء. . .

رمته بنظرة داهشة وسألته:

ـ أكان هٰذا هو السبب؟

ـ أبدًا. . . لا أعرف سببًا على التحديد، ولٰكنّي كنت أعاني تغيّرًا خفيًّا مستمرًّا، من هنا جاء تأثري الذي لا معنى له بكلام الرجل الذي تردّده الملايين كلّ ساعة دون أن يحدث أيّ أثر لأيّ إنسان.

ـ طبعًا، أنت لا تفكّر في الموت إلّا كما يفكّر العقلاء.

ترى كيف يفكّر العقلاء في الموت؟
ـ هٰذا مسلّم به من حسن الحظّ.
وهي تحدجه مستطلعة:
ـ وهل كرهت العمل بعد ذٰلك؟
ـ لا. . . لا أستطيع أن أقطع برأي في ذٰلك، ربّما قبله وربّما بعده.
ـ الحقّ أنّي حزينة بدرجة لا أحبّ أن أحدّثك عنها. . .
ـ ولٰكن هل يهمّك العمل لهٰذا الحدّ؟
ـ أنت مَن يهمّني، أنت وحدك. . .
وتؤجّل قضيّة فأخرى فثالثة ويمضي النهار وأنت مستمرّ في مقعدك ممدود الساقين تحت المكتب، تدخّن بلا انقطاع وتنظر إلى السقف ببلاهة.
ـ تعبت من المشي.
ـ لٰكنّك تمشين أضعاف ذٰلك.
فقالت وهي تخفض البصر:
ـ آن لي أن أعترف لك بدوري، الراجح أنّي حبلى. . .
فاهتزّ باطنه بموجة قاسية أكّدت تلهّفه على مفتاح الهرب السحريّ وتمتم:
ـ لٰكن. . .
فقالت بهدوء:
ـ يا عزيزي، أمر الله فوق كلّ تدبير. . .
ثمّ وهي تشدّ على ذراعه:
ـ وأنت لم تنعم بعد بوليّ العهد!
واستدارا راجعين ونظرة دلال تمرح في عينيها. ومرّت النظرة طويلًا حتّى دقّ ناقوس الإنذار. وقال لنفسه إنّه بشيء من الشراب سيطرد الفتور ويمثّل دور الحبّ كما يمثّل الزوجيّة والصحّة.
واستيقظ مبكّرًا بعد نوم ساعات معدودات. وطرق أذنيه صخب الأمواج العاصف في سكون الصباح المعتم. وزينب مستغرقة في النوم، مكتظّة بالنوم والشبع تنفرج شفتاها عن شخير خفيف متواصل، مشعّثة الشعر. وأنت متضايق كأنّما كُتب عليك أن تناطح نفسك. وهٰذا يعني أنّني لم أعد أحبّك. بعد الحبّ القديم والعشرة الطويلة والذكريات المليئة بالوفاء لم أعد أحبّك. لم تبق ذرّة حبّ واحدة. ليكن عرضًا يزول بزوال المرض ولٰكنّي الآن لا أحبّك. وهو أشقى ما ألاقي من مرّ التجارب. وها أنت تسمع شخيرها فلا تعطف ولا يبتسم القلب. وتنظر إليها وتسأل ماذا جاء بها أو ماذا جاء بك ومن ذا قضى بهٰذه السخرة اللعينة؟
ـ مصطفى. . . ها هي الفتاة!
ـ الخارجة من الكنيسة؟
ـ هي هي. . . انظر إلى فستانها الأسود حدادًا على عمّها. . . أيّ ملاحة!
ـ ولٰكنّ الدين!
ـ لم أعد أكترث لهٰذه العوائق. . .
وقلت لها يسعدني أنّك تنازلت بقبول معرفتي. في حديقة العائلات قدّم عمر الحمزاوي المحامي نفسه فتمتمت بصوت لا يكاد يُسمع «كاميليا فؤاد». يا عزيزتي حبّنا أقوى من كلّ شيء وسوف نتغلّب على أيّ عائق فقالت وهي تتنهّد: «لا أدري».
ويومًا ضحك مصطفى في جوّ عاصف وقال:
ـ إنّي أعرفك منذ عهد آدم، بحّاثة عن المتاعب، زوبعة في بيتك وزوبعة أعنف في بيتها وأنا حائر بينكما. . .
ثمّ ما أجمل موقفه وهو يرفع كأسه صائحًا:
ـ مبارك عليكما، أصبح الماضي في خبر كان، ولٰكنّ تضحيتك لا تقاس بتضحيتها، وللعقائد طغيان حتّى على الذين نبذوها، صحّتك يا زينب، صحّتك يا عمر. . .
وانتحى بك جانبًا وراح يقول وهو سكران تمامًا:
ـ لا تنس الأيّام الأليمة، لا تنس الحبّ أبدًا، تذكّر أنّه لم يعد لها أهل في هٰذه الدنيا، مقطوعة من شجرة، ولا أحد لها سواك.
تزوّجت قلبًا نابضًا لا حدود لحيويّته، وشخصيّة فاتنة حقًّا، تلميذة مثاليّة للراهبات، مهذّبة بكلّ معنى الكلمة، مدبّرة حكيمة خُلقت للتدبير والحكمة، وقوّة دافعة للعمل لا تعرف التواني، ونظرة ثاقبة في استثمار المال، ارتفعت في عهدها من غمار العدم إلى التفوّق الفريد والثروة الطائلة، ووجدت في حرارة حبّها عزاء

عن الفشل والشعر والجهاد الضائع، رمز الجنس والمال والشبع والنجاح، فماذا جرى؟!

تقلّبت في الفراش على وجهها فانحسر طرف القميص عن نصفها التحتانيّ العاري، فانزلق من الفراش متّجهًا نحو الشرفة ودخل ثمّ أغلق الباب وراءه. طوّقه هواء عاصف ورأى الأمواج وهي تركض بجنون نحو الشاطئ فتلطم بزبدها الفاتر أرجل الكبابين، تحت قبّة باهتة انتشرت قطعان السحب في جنباتها وغام جوّ الصباح الباكر باللون الرماديّ المشعّ منها. ولم تدبّ قَدَم بعد فوق الأرض. . . ولم تنفتح نفسك لشيء. ولم ينعشك الهواء. وحتّى متى تنتظر الشفاء. أين مصطفى لأسأله عن معنى هٰذه المتناقضات. عنده من الأفكار مدّخر كثير رغم أنّه لم يعد يبيع اليوم إلّا اللبّ والفشار. لماذا يجيء دور زينب بعد العمل؟! وها هي موجة تعلو علوًّا غير عاديّ، ثمّ تتكسّر عن أطنان من الزبد، ثمّ تنداح في تدهور مسلمة الروح. يا إلٰهي إنّهما شيء واحد. زينب والعمل. والداء الذي زهّدني في العمل هو الذي يزهّدني في زينب. هي القوّة الكامنة وراء العمل. هي رمزه. هي المال والنجاح والثراء وأخيرًا المرض. ولأنّي أتقزّز من كلّ أولٰئك فأنا أتقزّز من نفسي. أو لأنّي أتقزّز من نفسي فأنا أتقزّز من كلّ أولٰئك. ولٰكن مَن لزينب غيري؟ الليلة الماضية كان الحبّ تجربة مريرة. ضمر ونضب فلم يبق منه سوى ارتفاع في الحرارة وسرعة في النبض وزيادة في ضغط الدم وتقلُّص في المعدة، تتلاحق في وحدة رهيبة. وحدة الموجة التي يمتصّها رمل الشاطئ، فلا يتقهقر منها إلى البحر شيء. هي تترنّم بأهازيج الغرام وأنا أبكم، هي تطارد وأنا شارد اللبّ، هي تحبّ وأنا كاره، هي حبلى وأنا عقيم، هي حسّاسة حذرة وأنا بليد، وقالت أنت لا تتكلّم كعادتك فقلت بل لا يُسمع لي صوت، وقلت تصوّر أن تكسب القضيّة اليوم فتمتلك الأرض ثمّ تستولي عليها الحكومة غدًا، فقال: ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أنّ الله سيأخذها. ورغم الجفاء والجفاف فإنّ الموجة تعلو لحدّ الجنون ثمّ تتكسّر عن الزبد ثمّ تسلم الروح، ويزدردك قبر النوم بلا راحة، ويظلّ عقلك يتابع هواجسه، حتّى الطبيب تفكّر في زيارته مرّة أخرى، مسلّمًا بأنّك تغيّرت أكثر ممّا كنت تتصوّر، فيا ترى ماذا أريد، أجل ماذا أريد، الفقه لا يهمّ، والحكم لصالح موكّلي لا يهمّ، وإضافة مئات جديدة لحسابي لا يهمّ، ونعمة البيت السعيد لا تهمّ، وقراءة عناوين الصحف لا يهمّ، فما رأيك في رحلة في الفضاء، في ركوب الضوء شكرًا لسرعته الثابتة، الشيء الوحيد الثابت في هٰذا الكون الذي لا يعرف الثبات، المتغيّر بلا توقّف، المتحرّك في جنون.

وها هو قد وصل أوّل مُكتشِفَيْن للفضاء، بيّاع الجرائيم وبيّاع الأنباء الكاذبة. . .

- ٦ -

في آخر أغسطس رجعت الأسرة إلى القاهرة. وامتعض عمر لمرأى ميدان الأزهار وهو في سبيله إلى عمله وقال إنّه لم يتغيّر عمّا تركه وإنّه ما زال معبرًا كالحًا للذاهبين إلى أعمالهم. واستُقبل استقبالًا حارًّا وبخاصّة من مساعده الأستاذ محمود فهمي، وسرعان ما حُملت إليه ملفّات القضايا المؤجّلة والتي تحت البحث. ولم يخل سبتمبر من أيّام لزجة ولٰكن جرت به نسائم لطيفة وظلّلت بواكير صبحه طلائع سحب بيضاء. وعانقه مصطفى المنياوي طويلًا وتبادلا القبلات، ووقفا طوال الاستقبال وجهًا لوجه، عمر بقامته المديدة ومصطفى رافع وجهه نحوه وصلعته مائلة إلى الوراء تلمع تحت ضوء المصباح الفضّيّ. وقال وهو يجلس على المقعد الجلديّ الكبير أمام المكتب:

- أراك في رشاقة الغزال، برافو. . .

وتناول سيجارة من العلبة الخشبيّة المطعّمة بالصدف التي تعزف أنغامها عند فتحها، ثمّ أشعلها وهو يقول:

- فكّرت مرّات أن أزورك في الإسكندريّة ولٰكنّ واجب الزوجيّة كان يناديني إلى رأس البرّ فضلًا عن أنّي شُغلت طيلة الوقت بإعداد مسلسلة جديدة للراديو. . .

ونظر إلى ملفّات القضايا، ثمّ إلى عيني صاحبه مستجديًا كلمة مشجّعة فابتسم عمر ابتسامة غامضة

فألحق النظرة بالاستجداء حتّى قال عمر:

ـ عملت صباح اليوم ساعات متواصلة.

فتنهّد مصطفى في ارتياح غير أنّ الآخر تمتم:

ـ ولٰكن. . .

فتساءل مصطفى في قلق:

ـ ولٰكن!

ـ بالصراحة لم استردّ للعمل أيّة رغبة. . .

وساد صمت متشائم، ونفث الدخان من فم متوتّر، ثمّ تساءل:

ـ أكان ينبغي أن تأخذ مزيدًا من الراحة؟

ـ دعنا من المغالطة فالأمر أخطر من ذٰلك.

ثمّ وهو يشعل بدوره سيجارة على صدى أنغام جديدة:

ـ الأمر أخطر من ذٰلك، وليس العمل وحده الذي أصبحت أكره ولٰكنّ الداء يلتهم أشياء أخرى أعزّ علينا من العمل، زوجتي على سبيل المثال.

ـ زينب!

فقال فيما يشبه الحياء:

ـ لا أدري كيف أتكلّم ولكن للأسف لم أعد أطيقها، البيت نفسه لم يعد بالمأوى المحبوب!

ـ أتقول ذٰلك عن مكان يضمّ بثينة وجميلة؟

ـ من حسن الحظّ أنّهما ليستا في حاجة إليّ. . .

تجهّم وجه مصطفى ورمشت عيناه المستديرتان الذابلتان، وتجلّت في نظرته المستطلعة رغبة ملحّة حزينة في حلّ اللغز.

ـ لكنّ مثلك لن يعجزه معرفة السرّ.

قال وهو يبتسم ابتسامة مريرة:

ـ لعلّه الكون ـ بدورانه الدائم على وتيرة واحدة ـ هو المسئول الأوّل عن ذٰلك.

ـ أعترف بأنّك تبالغ فيما يتعلّق بزينب على الأقلّ.

ـ هي الحقيقة السوداء.

فسأله بإشفاق:

ـ تتوقّع عواقب عمليّة لذٰلك الموقف؟

ـ إنّني أعيش في مقام السؤال ولٰكن بلا جواب.

ـ على الأقلّ فإنّك لا بدّ مقتنع بأنّ ما بك هو حال من أحوال النفس.

ـ سَمِّهِ كيف شئت، ولٰكن ما هو، ماذا أريد، ماذا عليّ أن أعمل؟!

ـ أنت أرشد من أن تبقى في مقام السؤال، سائل رغباتك الدفينة، راجع أحلامك، ها هي أشياء تودّ الفرار منها، ولٰكن إلى أين؟

ـ أجل، إلى أين؟

ـ عليك أن تجيب بلا تردّد.

ـ خبّرني أنت عمّا يدفعك إلى العمل والزوجة؟

بدا السؤال مضحكًا على نحوٍ ما فضحك ولٰكنّ قتامة الجوّ لم تسمح للمرح بالبقاء أكثر من ثوانٍ.

ـ إنّي أرتبط بزوجتي بحكم الواقع والعادة، أمّا عملي فهو مصدر رزقي، ولي جمهور أسعد به كثيرًا، مئات الرسائل التي أتلقّاها أسبوعيًّا تسعدني حقًّا، والحقّ أنّ تجاوب الناس معك قيمة ثمينة ولو يكن مصدره بيع اللبّ والفشار!

ـ وأنا ليس لي جمهور وواقع وعادة؟!

تردّد مصطفى مليًّا ثمّ قال:

ـ الحقيقة أنّ عملك جاوز بك أبعد غايات النجاح، وأنّ زوجك تعبدك، فلم تعد أمامك غاية تتطلّع إليها.

عمر وهو يبتسم ساخرًا:

ـ هل أسأل الله فشلًا في العمل وخيانة في الزوجيّة؟

ـ لو استجاب لك لمنحك حبّ الحياة من جديد!

وخلا كلاهما إلى نفسه في صمت مشحون بالتوتّر منذر بمأساة وشيكة الوقوع. وقال عمر:

ـ يعزّيني أحيانًا أنّني أكره نفسي بنفس القوّة.

ثمّ وهو يطفئ عقب السيجارة في النافضة بقوّة حانقة:

ـ والحقّ أنّ عملي وزينب ونفسي، كلّ أولٰئك شيء واحد هو ما أودّ التخلّص منه. . .

فسأله وهو يحدجه بنظرة مريبة:

ـ هل هناك حلم يراودك؟

تردّد بعض الوقت ثمّ قال بنبرة اعترافيّة:

ـ حدث أن كتبت بثينة شعرًا. . .

ـ بثينة؟!

ـ قرأته ودار بيننا حديث فانبعثت في نفسي أشواق

غامضة إلى الكتب القديمة التي هجرتها منذ عشرين سنة!

ـ أوه... كم خطر ذلك ببالي!

ـ صبرك!... حقًّا لقد دبّت الحركة في الركود الأبديّ، ورحت أبحث عن نغمة ضائعة، وتساءلت ترى هل يمكن أن أبدأ من جديد؟... ولكنّها كانت مجرّد حركة طارئة ثمّ ما لبثت أن تجمّدت...

ـ لكنّك تراجعت بسرعة!

ـ بل عاودت القراءة، وسطّرت كلمات، ولكنّ ذلك كلّه لم يكن شيئًا، وذات ليلة وأنا في السينما رأيت وجهًا جميلًا فدبّت الحركة مرّة أخرى...

ـ أهي الحركة ما تنشد؟

ـ حركة... أو نشوة... أحيت الكائن دفعة واحدة... وآمنت ساعتها بأنّ الحركة أو النشوة هي مطلبي، لا العمل ولا الأسرة ولا الثراء... هي هٰذه النشوة العجيبة الغامضة... كأنّها النصر الدائم وسط الهزائم المتلاحقة... وهي التي سحقت الشكّ والخمول والمرارة...

وجّه مصطفى إليه نظرة ثابتة وهو قابض على ذقنه بيده وتساءل:

ـ ترى أترغب في أن تودّع الحبّ الوداع الأخير؟

فقال مقطّبًا:

ـ أتظنّه عرضًا من أعراض السنّ الحرجة؟ ولكنّ ذلك يعالَج ببساطة ويمرّ بسلام عندما يندفع زوج وقور على غير توقّع إلى الملاهي الليليّة أو يتزوّج من امرأة جديدة، وقد تراني يومًا راكضًا وراء امرأة ولكن سيظلّ ما يدفعني شيئًا أخطر من أعراض السنّ الحرجة...

ولم يتمالك مصطفى من أن يضحك ضحكة عالية ثمّ يسأل:

ـ ترى أهي نشوة عجيبة حقًّا أم إنّها تبرير فلسفيّ لجريمة الزنا؟!

ـ لا تتهكّم بي فأنت نفسك كنت يومًا فريسة لأزمة خطيرة...

ابتسمت أسارير وجهه ولاحت في عينيه نظرة منداحة في متاهات التذكّر وقال:

ـ أجل كنت شارعًا في كتابة مسرحيّة جديدة وإذا بالفنّ يتفتّت بين يديّ نشارة وترابًا ولكنّي سرعان ما استبدلت به فنًّا آخر دان له ملايين المواطنين بالسعادة...

ـ أمّا أنا فأخطأت الطريق، استبدلت بالفنّ الزائل عملًا ينافسه في البلى، فالمحاماة كالفنّ من أعمال العصور البائدة، وأنا لا أحسن ما أحسنت من فنّ جديد، وفاتني مثلك أن أتعلّم العلم، فكيف السبيل إلى نشوة الخلق المفقودة؟!.. الحياة قصيرة وأنا لا أنسى الدوار الذي أصابني عندما قال لي الرجل «ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أنّ الله سيأخذها؟».

ـ هل تزعجك فكرة الموت؟

ـ كلّا ولكنّها تحتّم عليّ أن أذوق كنه الحياة...

ـ كما وجدتها في السينما؟!

لم يعلم بجولاتك في ميادين الإسكندريّة وطرقاتها، وتشوّقك الظامئ إلى الوجوه الواعدة بالنشوة المستعصية، وتسكّعك تحت أشجار الشلّالات المترنّحة باستغاثات العواطف المشبوبة. العملاق المجنون الذي ينقّب عن عقله الضائع تحت الأعشاب النديّة.

وألمح إلى تلك المغامرات بشيء من الإسهاب ولكن في إطار من حديث وقور يناسب العجائب الغامضة.

لم أكن في تلك الليالي العجيبة حيوانًا تحرّكه شهوة، ولكنّي كنت معذّبًا... ويائسًا...

ـ ٧ ـ

كلّما رأيتك كثيرًا ازددت شهوة
وكلّما ازدادت شهوتي زاد لهيبي

ـ يا لها من أغنية متفجّرة!... من المغنّية؟

ـ مارجريت... نجمة «باريس الجديدة»...

ونسمت نسمة خريفيّة في الحديقة الهلاليّة التصميم التي تنبسط وسطها حلبة الرقص، وترامت الأنغام من فوق مسرح أحمر الجدران والسقف يشعّ النور المكتوم من باطن جوانبه الملتهبة.

ـ إنجليزيّة التكوين!

ـ هٰذا ما يدّعيه صاحب الملهى ولكن حذار فمفهوم

إنجليزيّة في الملاهي الليليّة يمكن أن تدخله أجناس شتّى...

ثمّة خطوط رشيقة في صفحة الوجه ونظرة في العينين الملوّنتين وخفّة في الحركة، لعلّ مِن تضامُنها جميعًا تنبثق النشوة المستعصية المنشودة.

- يا بختك فأنت خبير بهٰذه الجنّات المحرّمة...

- هي ضمن عملي بصفتي المشرف على القسم الفنّيّ بالمجلّة!

- برافو!... قلت إنّ اسمها مارجريت؟

فأجاب وهو يضحك:

- أو عشرون جنيهًا في الليلة بخلاف مصاريف الفتح!

وحملت إليه نسمة الخريف اللطيف تحيّة من عالم مجهول لا يسكنه عقل واحد وتقوم أركانه الأربعة وراء الظلام المحدق بأشجار السرو.

- توقّع من جانبي أيّ عجيبة.

- ولٰكن لا تشرب أكثر من كأس...

- المهمّ أن أدعوها إلى المائدة...

ومضى مصطفى يبحث عن النادل. وسطعت الجوّ نفحة زنبقة. وفي فترات الصمت بين الغناء تجلّت وشوشة الأغصان. وتوثّب لطرق باب الهوس. ورأى أنماطًا غريبة من البشر فقال لنفسه كالمعتذر: هٰذا ما فعل بنا المرض!

وجاءت مارجريت تخطر في ثوب سهرة مختلط الألوان لدرجة الغموض وحيّت باسمة عن أسنان نضيدة بارزة، وعلى بعد متر وقف النادل شبه منحنٍ كظلّها فأمّن عمر قائلًا:

- شامبانيا...

شربتها أوّل مرّة ليلة زفافك. من أرخص الأنواع كانت هديّة مشتركة من مصطفى وعثمان معًا. ما عسى أن يفعل المسجونون لو تفشّى بينهم مرضك الغريب؟!

ورحّب مصطفى بالمرأة ترحيب رجل لا يجهلها ولا تجهله وقال لها:

- مس مارجريت، أعجب كلانا بصوتك، وصديقي معجب بشخصك، والظاهر أنّه كلّما رآك ازداد...

وغمز بعينه ضاحكًا ثمّ قال:

- صديقي محامٍ كبير، أرجو ألّا تحتاجي إليه بصفته المهنيّة!

فضحك ثغرها ضحكة خالية من الصوت وقالت:

- إنّي أحتاج دائمًا لمن يدافع عنّي، أليس ذٰلك تعريفًا لا بأس به للمرأة؟

فقال عمر مستعينًا بلباقة خاصّة لم تُستعمل من سنين طويلة:

- باستثناء من لهنّ جمالك أو صوتك...

وقال مصطفى وعيناه الذابلتان ترمشان في خبث:

- دعيني أعرّفك أنّه بدأ شاعرًا وإن لم يصل إلى مستوى «ازدادت شهوتي»...

تساءلت مارجريت في حذر وهي تتفحّص عمر:

- شاعرًا؟!... لٰكنّه يبدو رصينًا بكلّ معنى الكلمة؟

فقال عمر:

- لذٰلك سرعان ما هجرت الشعر...

- وهو يبحث عن الجمال علاجًا لداء طريف ألمّ به في الأيّام الأخيرة...

وانطلقت طقّة السدادة وهام في الكئوس الحباب.

- أيعني هٰذا أنّني نوع من الدواء؟

فبادرها مصطفى باسمًا:

- أجل، لِمَ لا، من النوع الذي يؤخذ قبل النوم...

- لا تتعجّل، الشفاء لا يجيء بالسرعة التي تتصوّرها...

ودعت الموسيقى إلى الرقص فمضى بها إلى المرقص. وعندما أحاط خاصرتها بذراعه وهام في وجدانه شذاها حلا الليل ورقّت الرطوبة وازدهرت مجامع الأشجار المتلألئة بالأحمر والأبيض من المصابيح.

- ليكن تعارف سعيد.

- أنت ظريف بقدر ما أنت طويل...

- لٰكنّك لست قصيرة.

- ولٰكنّي أخشى عينيك الحادّتين...

- ليستا كذٰلك إلّا لأنّهما يشتعلان سرورًا ولٰكنّي كدت أنسى الرقص ويقينًا أنّي لا أحسنه...

ـ ألا ترى أنّك أطول من أن تحسن الرقص!

ـ عندما دعاني صديقي إلى باريس الجديدة قال لي «ستجد نمطًا تحبّه».

ـ حقًا؟

ما أجمل الكذب في الخريف! وصفّق لهما مصطفى وهما يعودان إلى مجلسهما. وأشرق وجه عمر بفرحة ساذجة.

واستردّ في لحظة معبقة بسحر الليل شباب الزمن الخالي ولمست الخاتم في يسراه متمتمة:

ـ متزوّج!.. أنتم أيّها المتزوّجون لا تتركون للعزّاب فرصة...

فقال مصطفى ضاحكًا:

ـ إنّكما تتقدّمان بسرعة مذهلة، أراهن على أنّكما ستخرجان الليلة معًا...

ـ خسرت الرهان!

ـ لماذا يا عزيزتي مارجريت؟.. صاحبنا محامٍ لا يعرف التأجيل...

ـ إذن فعليه أن يعرفه!

ـ اللعنة على التقاليد الجامدة...

ولكنّ عمر قال برقّة:

ـ على أيّ حال سيّارتي تحت أمركِ لتوصلكِ إلى أيّ مكان.

واستقلّت معه السيّارة ليوصلها وهو من البهجة في نهاية.

ـ إلى أين؟

ـ بنسيون أثينا...

ـ ولكن هل رأيت الهرم بعد منتصف الليل؟

ـ لكنّها ليلة مظلمة لا قمر فيها...

فوجّه السيّارة نحو الهرم وهو يقول:

ـ المدينة حرمتنا من جمال الظلام...

ـ لكن...

فقال مطمئنًا:

ـ أنا محامٍ، لا رياضيّ ولا قاطع طريق...

والقلب لم يخرج من كهفه منذ مغاني الحدائق وقهوة العائلات، ووَجْه زينب القديم لا يكاد يتذكّره. وحتّى صورة الزفاف لم يلقِ عليها نظرة حقيقيّة منذ عشرة أعوام. وأنت يا مرجريت كلّ شيء ولا شيء. إنّي أطرق بكلّ رجاء باب المدينة المسحورة. وها هو شعور الهارب يتملّكني.

ـ في هٰذا الخلاء حول الهرم وقعت حوادث تاريخيّة...

فأبعدت ذراعه عن عنقها قائلة:

ـ لا تفكّر من فضلك في زيادة الحوادث...

وضغط على راحتها ممتنًّا رغم كلّ شيء فقالت:

ـ الأفضل ألّا نقف، ألا ترى أنّ الهواء شديد؟

ـ لكنّنا في حجرة محكمة!

ما أكثف الظلمة حولنا! تكاثفي حتّى ينسانا العالم وليختف كلّ شيء عن العين الضجرة. آنَ للقلب وحده أن يرى، أن يرى النشوة كنجم متوهّج. وها هي تدبّ في الأعماق كضياء الفجر. فلعلّ نفسك أعرضت عن كلّ شيء ظمأ للحبّ. حبًّا في الحبّ. توقًا لنشوة الخلق الأولى، اللائذة بسرّ أسرار الحياة، التي خرجت من صراع مليون مليون سنة بنبتة باهرة مذهلة.

ـ فلنبق حتّى الصباح...

ـ لا تحلم، وصّلني من فضلك.

ـ ألم تسمعي عن مغامرات الليل في الهرم؟

ـ حدّثني عنها غدًا...

ومال نحوها فتبادلا قبلة، وهمّ بالإعراب عن رغبة أشدّ ولكنّها قالت برجاء:

ـ قلت غدًا...

ولثم خدّها بخفّة إعلانًا عن تراجعه. وتحرّكت السيّارة فوق الرمال.

ـ لا تزعل من فضلك...

ـ عليّ أن أذعن للقوانين الأبديّة.

ـ الأبديّة؟

ـ أعني قوانين الأنوثة...

ـ الحقّ أنّي متعبة.

ـ وأنا كذلك، ولكنّي سأعدّ مكانًا مناسبًا.

ـ انتظر حتّى نلتقي...

ـ من الخير أن أبني العشّ.

ـ انتظر قليلًا.

ـ شيء يحدّثني بأنّنا لن نفترق. . .

فقالت وهي تنظر إلى الطريق:

ـ نعم. . .

وعندما رجع إلى كورنيش النيل بجاردن سيتي كان الفجر وشيك الطلوع. وتذكّر وهو في المصعد زجر الأب في الأيّام الخالية. ولـمّا أضاء نور الحجرة رأى زينب جالسة فوق كرسيّ التسريحة تتطلّع إليه بعين كسيرة من الضوء والحزن. وقال بهدوء:

ـ كان يجب أن تكوني نائمة. . .

فقالت باسطة راحتيها في يأس:

ـ هٰذه ثالث ليلة. . .

ببرود وهو ينزع ملابسه:

ـ شيء لا بدّ منه. . .

تساءلت في شيء من الحدّة:

ـ أهو البيت ما يضايقك؟

ـ كلّا ولٰكنّ الضيق واقع!

ـ وكيف تمضي الليل كلّه؟

ـ ليس مكان محدّد، سينما، قهوة، أتجوّل بالسيّارة؟

ـ وأنا هنا فريسة للأفكار. . .

ـ بل يجب أن تنامي ملء جفنيك. . .

ـ وسوف أمرض في النهاية.

ـ اعملي بنصيحتي. . .

وهي تنفخ:

ـ أنت تعاملني ببرود قاتل. . .

لا مراء في ذٰلك. رَجُلك القديم انسلخ من جلده. ها هو يركض لاهثًا وراء نداء غامض. مخلّفًا وراءه حفنة من تراب. مسرّات الأمس وحتّى المدينة الفاضلة. . حفنة من تراب. وحتّى فتاة النضارة الواعدة عندما دقّت أجراس الكنيسة ونظرت في عينيها الخضراوين بافتتان وقلت:

ـ الحبّ يهزأ بالمخاوف. . .

فتمتمت وهي تتعلّق بك:

ـ ولٰكن أهلي. . .

ـ أنا أهلك، أنا كلّ شيء، وستقوم القيامة قبل أن يتخلّى عنك حبّي!

واليوم تتعلّق حياتك بأغنية داعرة.

ـ نامي يا زينب رحمة بنفسك وبي. . .

***

ولٰكنّ امرأة أخرى التي وقفت فوق المسرح الأحمر وغنّت:

كلّما رأيتك كثيرًا ازددت شهوة

وكلّما ازدادت شهوتي ازداد لهيبي

ومال نحو مصطفى متسائلًا:

ـ أين مارجريت؟

فغاب مصطفى دقائق ثمّ عاد وهو يقول:

ـ مفاجأة غير سارّة. . .

ـ وهي؟

ـ سافرت!

ـ أين؟

ـ خارج القطر!

ـ وهل يقع ذٰلك مفاجأة؟

لوّح بيده في استهانة وقال:

ـ لنبحث عن غيرها. . .

ـ ٨ ـ

تلك الدفعة الغادرة إلى الوراء فجّرت ردّ فعل مضادّ بقوّة مضاعفة. وها أنت في سباق حادّ مع الجنون. وغايتك الأخيرة أن تنطلق غصون الشجر. وقد سأله مصطفى:

ـ أأنت واثق من أنّ ذٰلك هو الطريق إلى الشفاء؟

ـ ذٰلك راجح، وليس لديّ الآن سواه. . .

وأوقفت السيّارة أمام ملهى «كابري» وقال وهما يمضيان نحوه:

ـ جرّبت كما تعلم أشياء وأشياء بلا جدوى، وواتتني نبضة هامّة أمام مارجريت، ومارجريت وإن تكن كذبة عابرة ولٰكنّ النبضة كانت حقيقيّة. . .

وجلسا تحت تكعيبة جانبيّة خافتة الضوء يلوح الجالسون تحتها كأطياف. وقال مصطفى:

ـ أمّا مدير هٰذا الملهى فهو صديقك. . .

وأشار إلى طرف المسرح البعيد حيث يقف رجل من النمط الكرويّ، بدين مع ميل إلى القصر برميليّ التكوين، ذو وجه أبيض مليء ينتهي أسفله بلغد غليظ

منتفخ كأنّه قربة، وفي عينيه نظرة نائمة تحت جفنين ثقيلين، وفي جانب فيه انحراف شبه دائم يشي بالمرح. رأى الرجل مصطفى فانتقل إلى مجلسه بسرعة لا تناسب ثقله. وعرفه عمر. الزبون القديم الذي كسب له قضيّتين. وصافحها الرجل بحرارة وجلس وهو يقول:

ـ عمر بك... خطوة عزيزة...

وأمر بالويسكي واستطرد مخاطبًا عمر:

ـ لم أحلم بأن تشرّفني أبدًا وإن يكن العاملون هم أجدر الناس بالمرح...

وقال مصطفى بلهجة حاسمة:

ـ دعنا من الرسميّات يا مسيو يازبك.

نظر إليه بحذر فقال مصطفى باسمًا:

ـ هو ما تظنّ، آنَ لك أن تردّ الجميل لمحاميك...

ـ عمر بك؟

ـ خطر لي أن أسألك عن المرأة التي تراها لائقة به...

ابتسم الرجل ابتسامة غامضة وقال:

ـ تناسبه في ظنّي فتاة مثقّفة، بنت ناس، جميلة...

ـ أقصد للحبّ لا للزواج!

ـ هو حرّ يا سيّدي.

ـ وهل لديك شيء من المثقّفات الفاتنات...؟

فلوّح بيد صغيرة ناعمة وهو يقول بفخار:

ـ كابري... كابري!

وأسهب وهو يرمق عمر بنظرة لم يختف منها الشكّ نهائيًّا:

ـ كانت طالبة بمعهد التمثيل، لم توفّق في السينما ولْكنّها تعبد الرقص، تألّقت في كابري...

ـ وردة!

ـ دون غيرها...

وقال مصطفى كالمعتذر:

ـ لم أرشّحها بسبب طولها الذي يصدّني عادة عن المرأة...

وأشار يازبك إلى المسرح بثقة والموسيقى تعزف رقصة شرقيّة. وهدرت عاصفة من التصفيق تستقبل راقصة باهرة حقًّا، تأخذ البصر بقامة مديدة قُدّت على مثال راقص مثير، وعينين واسعتين جدًّا تسيلان جاذبيّة ناعسة، وقد أضفى جبينها العالي على وجهها جلالًا رفعها إلى طبقة أخرى. وتمتم مصطفى:

ـ هائلة!

ـ أنت مطعَّم ضدّ الخطيئة الساحرة...

ـ عندي اكتفاء ذاتيّ وهو عبث شائع بين الأزواج الصالحين...

وابتسم عمر وهو يتذكّر قول مصطفى مرّة إنّه لا يمكن أن يخون زوجته لأنّه لم يوفّق في الحبّ إلّا معها. ثمّ غاب عن أصوات المتحاورين وهو يتابع حركات الجسم الفارع، وخفّته التي تتحدّى طوله وجلاله، وسرعان ما عشق ابتسامتها كما عشق شجرة السرو. وانتبه على يد يازبك المدودة ليصافحه مستأذنًا في الانصراف. ولـمّا ذهب تلقّى من مصطفى نظرة جادّة وسمعه يقول محذّرًا:

ـ من النادر أن يظفر إنسان بنشوة الحبّ في هٰذه الملاهي.

فتمتم عمر ساخرًا:

ـ مَن جدّ وصل...

ـ أتعلم أنّني كلّما لقيت زينب هٰذه الأيّام أوجعني ضميري؟!

فقال باستهانة:

ـ ثمّة آلام أعنف من ترف الضمير...

وأشار مصطفى إلى المتاعب التى تجيء من وراء العشق فقال عمر:

ـ كلّما رأيت أنثى خيّل إليّ أنّني أرى الحياة على قدمين...

وأقبلت وردة في حركة نشيطة، بلا تلكّؤ أو افتعال، وهي تحدجه بنظرة ثابتة من عينيها الواسعتين الرماديّتين، وتنشر في الهواء شذا خصلة من الياسمين مرشوقة في أسورتها. وصافحته وهي تقول بسرور:

ـ أخيرًا وجدت رجلًا لا أنظر إليه من فوق!

وجلست بين الرجلين، ونفضت يدها فتساقط الياسمين فوق غطاء المائدة الأحمر. وجاءت الشمبانيا وجرى الحباب. وتبدّت وردة رزينة ولْكن نمّت نظرتها الرماديّة عن ميل مؤجّل للمرح. وبادلت مصطفى

ابتسامة ألفة ليست بنت ساعتها. واستمعت إلى الثناء المنتظَر عن رقصها وجمالها ولٰكنّها جعلت تنظر طيلة الوقت إلى عمر باحترام. وتفحّصها هو بعناية وهو يسأل الغيب عن الأمل المنشود وراء العينين الرماديّتين. أنا لم أحضر لأنّي أحبّ ولٰكنّني حضرت لأحبّ. والبشرة صافية والشذا طيّب والعين تحرّك رموشها الطويلة لتنفث تعاويذها.

ـ إذن فأنت المحامي الكبير؟

ـ هٰذا لا يهمّ إلّا إذا كان لديك مشاكل...

ـ مشاكلي لا تُحلّ بالقضايا ويا للأسف...

ـ وما وجه الأسف؟

ـ كان يمكن أن تُحَلّ على يديك...

فقال مصطفى ضاحكًا:

ـ إنّه جدير بالثقة في المحكمة وخارجها.

ورمق بحبّ استطلاع عنقها الطويل المطوّق بعقد لؤلؤيّ بسيط، وأعلى صدرها المنبسط في رحابة، ونضارة الجنس التي تنضح بها شفتاها المتلتلتان الملوّنتان والنظرة السائلة من عينيها، فنبض وجدانه بشوق غريب غير محدود، وتلهُّف غامض كالذي يساوره في آخر الليل. وودّ أن يخاطب الأعماق وأن تخاطبه الأعماق بلا وسائط، وأن يجد إن خانته النشوة بديلًا في لذعة الجنس السحريّة. الذروة المتفجّرة التي تمتصّ رحيق الحياة وأحلامها في رشفة واحدة زائلة. وقلق من التلهّف والترقّب ودغدغة المغامرة. ومن سورة الشراب بلا حيطة. ومن شذا الياسمين المضغوط تحت قاعدة الكأس. ومن نظرة وردة الموحية بالقبول. ومن نجم يومض من خلال ثغرة في التكعيبة، وقال لها عندما آذنت السهرة بانتهاء:

ـ نذهب؟

وودّعهما مصطفى وذهب. وتأثّرت وردة لمنظر الكاديلاك التي وقفت كفيلًا أنيقة.

ـ أين مسكنكِ؟

ـ غير ممكن، أليس لك بيت؟

ـ فيه زوجة وابنتان...

ـ إذن وصّلني لمسكني كما يفعل الخياليّون...

انطلق إلى صحراء الهرم بسرعة جنونيّة. واستكنّ في الخلاء كليلة مارجريت وتربيع القمر يتهاوى إلى المغيب. وضمّها إليه بذراعه وتناول قبلة رشيقة كافتتاحيّة، ثمّ تبادلا قبلة طويلة تحدوها حرقة صراع في مستوى القمر. وهمست في تنهّدة:

ـ هٰذا حسن...

فضمّها إليه بشغف تمادى في خلوة الصحراء وأصابعه تتخلّل شعرها المضيء بشعاع القمر. وهمس بصوت غريب لاهث:

ـ عندما يطلع الفجر...

وألصق خدّه بخدّها وراحا ينظران إلى القمر الناعس في مستوى البصر ويتابعان شعاعه الواني المنطرح فوق الرمال. سوف يسحب ذيوله قبل أن يروي القلب الظامئ. ولا من قوّة تستطيع أن تستديم اللحظة. اللحظة التي وهبت الكون يومًا سرًّا جديدًا. وها أنت تقف على أعتابها مستجديًا. وتبسط يدك في ضراعة للظلمة والأفق. والغيابات التي يهبط إليها القمر. لعلّ قبسًا يشتعل في صدرك كما ينبثق الفجر. وتتوارى مخاوف الإفلاس والعدم.

ـ أأنت خياليّ؟

ـ بعيد عن ذٰلك لحدّ المرض.

وهي تضحك:

ـ ولست من الذين يضربون النساء؟

ـ ولا الرجال...

ـ هٰذا حسن.

وهو يضمّها إليه أكثر:

ـ ولٰكنّي شرعت يومًا في القتل!

ـ بسبب امرأة؟

ـ كلّا.

ـ لا تتحدّث هٰكذا أمام القمر...

ـ وأخيرًا قرّرت أن أقتل نفسي...

ـ بين يديّ؟

ـ بين يديك.

ـ وأمام القمر؟

ـ ها هو القمر يختفي...

عندما رجع إلى مسكنه وأضاء المصباح فتحت زينب عينين جامدتين. حيّاها بلا مبالاة فقالت بنبرة

متوتّرة:
ـ الصبح طلع. . .
فأجاب ببرود:
ـ فليطلع. . .
وجلست في الفراش منتفخة الجفنين ملتاعة يائسة.
ـ لم أسمع منك هٰذه اللهجة منذ تزوّجتك.
وارتدى بيجامته في صمت فهتفت:
ـ لم أسمع أبدًا. . .
فتمتم واجمًا:
ـ هٰكذا المرض.
ـ وكيف لي باحتمال الحياة؟
ـ نهاري منغّص فلا تنغّصي ليلي. . .
ـ البنتان تسألان. . .
ـ آه. . . فلنواجه الأزمة بشيء من الحكمة. . .
وهي تدفن وجهها في الجدار:
ـ لو كان لي مكان. . .

أطفأ المصباح واستلقى مغمض العينين. لن تلبث أولى حركات الصباح أن تُسمع. ودموع ولا شكّ تُسفح إلى جانبي. على حين ترقد الخيانة مدفونة كحشرة. وما هي إلّا لحظات حتّى يموت الوجود. مقطوعة من شجرة، لم يعد لها أحد سواك. يا للعجب من أين لك هٰذا التصميم كلّه؟ ونشوة الليلة مجنونة كالبرق فكيف تملأ فراغ الحياة؟

ويوم الجمعة سعى إلى بثينة في الشرفة وهي تسقي أصص الورد. طالعها بابتسامة مرتبكة فوثبت نحوه مرحّبة وأولته خدّها ليلثمه. ورغم إشراقها لمح في نظرتها المتهرّبة عتابًا كالعبير الواني.
ـ أوحشتني جدًّا.
فعضّ باطن شفتيه وقال:
ـ آسف جدًّا ولٰكنّني مصمّم على الشفاء، وبحاجة إلى سماحة تفهمني!
وعادت إلى أصص الورد فسألها:
ـ هل أنت بخير؟
ـ نعم. . .
ثمّ بعد تردّد قالت:
ـ ماما ليست كذٰلك.
ـ لها حقّ، ولٰكن سيتغيّر كلّ شيء بالسماحة الواجبة. . .
فأشارت إلى ياسمينة لا تكاد تُرى وقالت بفرح:
ـ أوّل ياسمينة، صغيرة جدًّا ولٰكنّ رائحتها قويّة، هل أقطفها لك؟

ـ ٩ ـ

ما أغرب الذهاب كلّ يوم إلى المكتب. مكان غريب لا معنى له فمتى توجد الشجاعة الكافية لإغلاقه. وقال له الوكيل:
ـ كلّ يوم اعتذار عن قضيّة، ألم تسمع عمّا تعانيه المهنة؟! وكدت أصبح بلا نشاط. . .

وغيره يتحمّل عبء العمل في الواقع وهو بالكاد يوجّه أو يراجع. وتحدّق فيه من الجدران أعين قاتمة والهواء راكد عفن. وفي الخارج استغرقه إحساس خلّاق لتجهيز الشقّة الجديدة بميدان سليمان باشا. وقال لوردة:
ـ إنّي سعيد بتجهيز عشّنا فإنّ الهرم لن يصلح للشتاء.

فتساءلت وهي ترقص بكتفيها مع أنغام الجاز تحت تكعيبة كابري:
ـ وهل يدوم اهتمامك بي حتّى الشتاء؟
فرفع كأس الشمبانيا قائلًا:
ـ في صحّة اهتمام دائم. . .
ولمح على البعد يازبك في وقفة مراقبة فخيمة فتبادلا ابتسامة ثمّ وضع راحته على يد وردة وهو يقول:
ـ إنّي مدين له حقًّا.
ـ هو خفيف وطيّب بالقياس إلى أمثاله، ولٰكنّه جشع كالمنتظر. . .
ـ ولٰكنّي زبون شمبانيا!
فقطّبت بلطف قرن بين حاجبيها وقالت:
ـ من الإسراف أن تجيء كلّ ليلة!
فتورّد وجهه بهجة وتمتم:
ـ يا لها من تحيّة بيضاء. . .
وهي تحاصره بعينيها:

ـ ألم يشهد بذلك الهرم؟

ـ بلى يا عزيزتي، وهو من ناحيتي ليس اهتمامًا كما قلت ولكنّه. . .

فأسكتته بضغطة على يده وقالت:

ـ لا تسمّه، دعه يسمّي نفسه فهذا أجمل. . .

ـ أنت ظريفة لحدّ الجنون!

ـ ولا ثقة لي في الكلام إذ إنّني في الأصل ممثّلة. . .

ـ وسيّدة بكلّ معنى الكلمة. . .

ـ شكرًا ولكنّ الفنّ سيّئ السمعة عند الكثيرين، ولذلك انفصلت عن أهلي، ومن حسن الحظّ أنّه لا أب لي ولا أخ. . .

فتفكّر لحظة ثمّ قال:

ـ التمثيل بلا شكّ أفضل من الرقص في كابري. . .

ـ لم أحبّه كما يجب، وقيل لي إنّني بلا موهبة، وعشقت الرقص طوال الوقت، فكانت كابري وكان ما لا بدّ منه. . .

فقال بحرارة:

ـ ولكن لك قلب من ذهب!

ـ لم أسمع ذلك من قبل. . .

وكلّف أكثر من رجل بالقيام بعمل في تجهيز الشقّة الجديدة. الأثاث والديكورات والبار والتحف. وفي أقصر مدّة ممكنة تكوّنت على أجمل صورة حجرات للنوم والسفرة والمدخل، وحجرة شرقيّة تحيي في الخيال أحلام ألف ليلة. وأنفق بلا حساب وكأنّه يتخلّص من ورم ماليّ أليم. وراح يتابع عيني مصطفى المنياوي وهما تجولان في الأركان ذاهلتين، وعندما سدّدهما نحوه قال:

ـ خير من اللوم أن تحدّثني عن معنى الحياة!

ـ الحياة!

ـ سأدقّ الجدار الأصمّ في كلّ موضع حتّى يرنّ صوت أجوف يشي بالكنز المدفون!

فهزّ مصطفى منكبيه في تسليم قائلًا:

ـ من الجنون ما هو جميل. . .

ـ لم أعرف للحياة طعمًا كما عرفتها في الأيّام الأخيرة ولذلك لا أبالي شيئًا. . .

قال مصطفى مبتسمًا:

ـ يازبك قلق متشائم ممّا يقطع بإخلاص الفتاة!

ـ هي إمّا بسيطة مخلصة وإمّا أنّها أعظم ممثّلة.

ـ لكنّها ممثّلة فاشلة!

وبهرها المنظر عند دخولها الشقّة لأوّل مرّة، وهتفت بإعجاب:

ـ ذوقك شمبانيولي حقًّا، ولكنّك مسرف!

وهو يقبّلها قبلات متقطّعة:

ـ أليس هو عشّنا؟!

ـ ولكنّي لا أريد أن أرهقك، ويجب أن تفهمني على حقيقتي. . .

ـ لولا فهمي حقيقتك ما فعلت شيئًا. . .

فضحكت بدلال وقالت:

ـ أنت المسئول وحدك عن فهمك. . .

ـ والهرم؟

ـ عندما نصرخ للسعة نار فلا يعني هذا أنّ الصراخ من طبيعتنا. . .

فاضطجع على ديوان وهو يقول:

ـ أخبرني مصطفى أنّ يازبك قلق؟

ـ رفضت أن أخرج مع أحد وليعضّ الأرض. . .

ـ فليعضّ إلى ما شاء الله. . .

ـ سوف أقصر عملي في كابري على الرقص. . .

ـ خبّريني أأنت مستصفاة من ماء الورد؟

فمضت وهي تقول:

ـ الجوّ حارّ اليوم، سآخذ دشًّا في الحمّام الجديد.

وبدّل ثيابه. وشعر بأنّ الجلباب أليَق بالحجرة الشرقيّة من البيجاما. وقلّب عينيه في المكان الأنيق بارتياح وسعادة. وقال إنّ السعادة وحدها كفيلة بشفائه ولو تساهل في الرجيم والشراب. وتملّكته روح دعابة فتساءل بصوت مرتفع جدًّا:

ـ ماذا يفعل ماء الدشّ؟

فجاء صوتها من وراء الباب:

ـ غاية في سوء الأدب. . .

وفُتح باب الحمّام فمرقت منه متلفّعة ببشكير، وهرعت إلى حجرة النوم ثمّ ردّت الباب وراءها. وأغمض جفنيه على رضى. فليكرّر هذا العشّ نشوات

الهرم. وليكن ما بين يديه ما ينشده. ما داس قلوبًا صديقة في سبيله. وما علّمه الاستهتار والقسوة وألّا يزول على غير انتظار كما زالت مارجريت. وزميلك المحامي الكبير قال لك في مكتبك:

ـ تتراءى هٰذه الأيّام أنيقًا أكثر ممّا ينبغي لمحامٍ قدير ناجح؟

فقلت ضاحكًا:

ـ وأقلّ ممّا ينبغي لمحامٍ سعيد...

ونظرت إليه بريبة جديرة برجل ماجن عشيق ولٰكنّه سرعان ما غيّر الحديث راجعًا إلى حديث السياسة المفضّل عنده فسأله:

ـ ماذا يفعل الناس في هٰذه الأيّام؟

فأجبت دون مبالاة بالسياسة:

ـ إنّهم يبحثون بجنون عن النشوة.

ولم يفهم. إنّه زير نساء ولست كذٰلك. لست ماجنًا ولا عابثًا. ولٰكن من ذا يفرّق بين قاتل وعابد، أو يصدّق أنّك تقيم للعربدة معبدًا؟

وفتحت باب الحجرة نصف فتحة ثمّ أبرزت رأسها قائلة:

ـ ربّما طال وقت الزينة وأنا في حاجة ماسّة إلى قبلة؟

فهفا إليها، وأخذ خدّيها بين راحتيه حتّى برزت شفتاها مضمومتين فقبّلها قبلة طويلة وهو يشمّ بتلذّذ رائحة الصابون الزكيّة وشذا البشرة الآدميّة. وهمس:

ـ هل أدخل؟

فدفعته ضاحكة وهي تقول:

ـ لا تكن بدائيًّا...

عاد إلى ضجعته فوق الديوان. ورأى أمامه الدولاب الملوّن الجامع للراديو والتلفزيون بين جناحيه فقام وأدارهما معًا في فرحة طفوليّة فتلاقت في أذنيه ضجّة متداخلة مناقشة عن جرائم الأحداث مع ما يطلبه المستمعون، ثمّ أسكتها دون أن يتخلّص من عبثه الطفوليّ فمضى إلى الباب المغلق ونقر عليه فجاءه الصوت:

ـ هه!

ـ أحبّك.

ـ من كلّ قلبي.

ـ ما أعزّ أمنية في حياتك؟

ـ الحبّ.

فتمادى في عبثه البريء متسائلًا:

ـ هل فكّرت يومًا عن معنى الحياة؟

ـ لا معنى لها إلّا الحبّ.

ـ وهل فرغت من زينتك؟

ـ لم يبق إلّا القليل.

فاستطال تماديه وهو يسأل:

ـ عزيزتي ألا يقلقك أن نعبث والعالم من حولنا يجدّ؟

وهي تضحك عاليًا:

ـ ألا ترى أنّنا نجدّ والعالم من حولنا يعبث؟

ـ من أين لك هٰذه البلاغة؟

ـ عمّا قليل ستعرف سرّها...

عندما يطوي الليل ستائره ويدركنا الفجر بلا رحمة فلا مفرّ من الرجوع إلى الحجرة الكئيبة، حيث لا نغمة ولا نشوة. ستطاردك عينان حزينتان وجدار صخريّ. ثمّ ترنّ أوتار الحكمة الكالحة باعثة كلمات تقريع جامدة خشنة كغبار الخماسين. ليكن ردّك حازمًا قاصمًا كنفورك:

ـ لا تزعجيني.

ولتصمّ أذنيك عن أيّ كلام.

ـ قلت لا تزعجيني هٰكذا أكون، اليوم وغدًا وكلّ يوم...

ـ انزلي على حكم الأمر الواقع، وأبعدي البنت عن مجال نزاعنا.

ـ لا جدوى من العناد وسوف أفعل ما يحلو لي.

ولا تتراجع إذا تساءلت عن علّة تغيّرك.

ـ ظنّي كما تشائين، الملل كرّه إليّ الاعتذار.

وفتح الباب وخرجت وردة كأبهى ما يكون.

ـ كيف تراني يا عزيز القلب؟

رنا إليها طويلًا في انبهار، ثمّ غمغم:

ـ دعيني أكوّن جملة لم يسبق ذكرها على لسان.

- ١٠ -

جلست قبالته في الشرفة، جلسة يوم العطلة، فقال لنفسه بعد ارتياح: حقًّا لم أرها منذ أسبوع كامل. وألقت الشمس على حجرها وساقيها فيضًا من شعاعها الذي يبرق لألاء فوق سطح النيل. ومن عجب أنّه لم يعد يذكر كثيرًا عن طفولتها، وهل كانت عفريتة كجميلة، ولكنّها اليوم فتاة جميلة، ذكيّة مجتهدة وشاعرة، ومثال للأناقة. وأمّا فكرة أنّها تكرّر صورة قديمة لأمّها فلتطردها من ذهنك.

- أنت جادّة أكثر ممّا ينبغي لشاعرة!

وصاحت جميلة وهي تقف على عتبة الشرفة متحدّية:

- شاعرة!

هدّدها بأصبع ثمّ عاد إلى بثينة التي توجس وراء مظهرها الجادّ زعلًا أو احتجاجًا.

- وأنتِ أنحف ممّا يجوز كما أنّ أختك أسمن ممّا يجوز، ماذا تأكلين وماذا تأكل؟

وصاحت جميلة:

- تأكل!

وجاءت أمّ محمّد فحملتها رغم المقاومة وذهبت. وقالت بثينة:

- ماما مريضة!

- ماما بخير، حدّثيني عن نفسك.

- لا شيء هامّ ولكنّ ماما ليست بخير.

لن تكفّ عنك المطاردة في هذا البيت. وأنتِ ألا يشغلك حقًّا إلّا الشعر والرياضة والكيمياء؟ وهل الله وحده هو معشوقك؟!

- ألا يعجبك الحديث عن ماما؟

فقال مقطّبًا:

- لم تعد تفهمني في مرضي...

والتقت عيناهما لحظات فحوّل بصره إلى النيل منهزمًا.

- ولكنّ الدكتور يا بابا...

فقاطعها برقّة لتخفي ضيقًا:

- الحقّ أنّني الطبيب ولا أحد سواي.

- معذرة فقد عوّدتني على الصراحة معك.

- بلا شكّ.

وإذا بصوت رفيع حادّ يصرخ:

- شكّ!

فقبض على ذراع الصغيرة حتّى جاءت أمّ محمّد فذهبت بها.

- هل أصبحنا نسبّب لك الكدر؟

- لا سمح الله، ولكنّ الإنسان يهاجر إذا ضاق بنفسه.

- إنّها تبكي كثيرًا وهذا مؤلم جدًّا.

- عليك أن تقنعيها بخطئها...

فقالت وهي تعبث بأسورة ساعتها الذهبيّة:

- لكنّ معاملتك لها تغيّرت، وقلت لها بخشونة إنّك ستفعل ما يحلو لك!

- أقالت ذلك أيضًا؟

- أنا الوحيدة التي يمكن أن تشكو لها!

انقبض قلبه وتمتم:

- لكنّه الغضب كما تعلمين.

- هي على أيّ حال مستعدّة لأن تخفّف عنك ضيقك بما في وسعها...

- ليس في وسعها شيء!

وتردّدت لحظات ثمّ قالت:

- ألا تقدّر أنّها ربّما تظنّ...؟

- أليس من الأفضل أن تطلعيني على آخر أشعارك؟

- لا جديد.

- لكنّ معشوقك لا يكفّ عن الإلهام...

- ربّما تظنّ أن... كما تعلم؟

- أهي تصارحك حتّى بالمخاوف السخيفة؟

- إنّي حزينة حقًّا.

فقال وهو يشعل سيجارة:

- أوهام سخيفة.

فقالت بلهفة:

- إنّي أصدّقك، أنت مثال أبديّ للصدق، أهي مجرّد أوهام؟

ها أنت محاصر في ركن صلد.

- أمّك أزعجتك أكثر ممّا يجوز.

ـ قل إنّها أوهام. . .

فرمقها بعتاب ولٰكنّها تجنّبته ناظرة إلى النيل وهي تسأل:

ـ ليس هناك امرأة؟

وإذا بالصوت الرفيع يعلو:

ـ امرأة!

رفعها هٰذه المرّة إلى حجره كأنّما ليحتمي بها وراح يداعبها بشيء من العنف الأبويّ الذي يناسب شقاوتها ولٰكنّ بثينة قالت بلهفة:

ـ أريد جوابًا يا بابا. . .

ـ ماذا تظنّين بوالدك؟

ـ إنّني أصدّقك فتكلّم. . . وحياتي عندك تكلّم. . .

وفي يأس مرير قال:

ـ لا شيء.

تهلّل وجهها فاربدّ قلبه. والتمعت عيناها بفرحة ظافرة فتجهّمت الدنيا. وتجلّى الخريف في الجوّ. وانتشر في أعالي الشجر اصفرار باهت. وعكست قوافل من سحب بيضاء نصاعتها فوق الماء الرصاصيّ. وتضمّن الفراغ الخابي أنغامًا صامتة من الرقّة والحزن، وأسئلة مضنية عسيرة الجواب. وتضخّمت كذبته حتّى أنذرته بالعدم.

ومن شدّة ضيقه زار مصطفى بمكتبه بالمجلّة. وتجدّد النقاش بلا نتيجة وقال له مصطفى:

ـ لقد جاريتك وساعدتك على أمل أن يتبيّن لك عبث المحاولة ولٰكنّك غرقت. . .

فهتف متنهّدًا:

ـ ألا تعلم أنّي أعيش الفنّ الذي تلهّفت يومًا على خلقه؟!

وأكمل مصطفى صفحة بين يديه ثمّ بعث بها إلى المطبعة، وقال:

ـ كثيرًا ما خيّل إليّ أنّك تعاني أزمة حادّة لفنّ مكبوت!

فرفض ذٰلك بهزّة من رأسه وقال:

ـ لا، ليس الفنّ، ربّما هو ما نلجأ بسببه أحيانًا إلى الفنّ.

فتمهّل مصطفى قليلًا، ثمّ قال:

ـ لعلّه لو كنّا من العلماء الذين ينفقون عشرين عامًا من العمر في البحث عن معادلة لما عرفت التعاسة إلى نفوسنا سبيلًا. . .

فقال وهو يهزّ رأسه أسفًا:

ـ لعلّ سرّ شقائي أنّني أبحث عن معادلة بلا تأهيل علميّ. . .

مصطفى وهو يضحك:

ـ ولأنّه لا يوجد وحي في عصرنا فلم يبق لأمثالك إلّا التسوّل!

ـ التسوّل! في الليل والنهار. في القراءة المجدبة والشعر العقيم. . في الصلوات الوثنيّة في باحات الملاهي الليليّة. في تحريك القلب الأصمّ بأشواك المغامرات الجهنّميّة.

وتحدّث مصطفى عن زينب فقال إنّها تعاني مرارة الهجر ومتاعب الحمل معًا. أجل كم أنّها متوعّكة ولٰكن ما لقلبه قد تحجّر. وهو مستعدّ أن يجود لها بكلّ غالٍ تحت شرط أن تحرّره من استغلال حبّ ميت.

ـ أجل. . . هناك امرأة ما دمت تصرّين على أن تعرفي. . .

والكراهية نبتت في مستنقع آسن مكتظّ بالحكم التقليديّة والتدبير المنزليّ. ولا عزاء فيها بلغناه من ثراء ونجاح فالعفن قد دفن كلّ شيء. وحُبست الروح في برطمان قذر كأنّها جنين مجهض. واختنق القلب بالبلادة والرواسب الدسمة. وذبلت أزهار الحياة فجفّت وتهاوت على الأرض ثمّ انتهت إلى مستقرّها الأخير في مستودعات الزبالة.

ـ ابكي ما شاء لك البكاء ولٰكن عليك أن تسلّمي بالأمر الواقع.

فقد قتل الضجر كلّ شيء. وانهارت قوائم الوجود بفعل بضعة أسئلة. وقلت له تصوّر أن تكسب القضيّة اليوم وتمتلك الأرض ثمّ تستولي عليها الحكومة غدًا فقال لي ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أنّ الله سيأخذها؟

وكان في مكتبه يراجع مذكّرة في فتور عندما دخل الساعي ليستأذن للمسيو يازبك. ودخل الرجل يتقدّمه

كرشه فسلّم وانحنى ثمّ جلس وهو يقول:

ـ مررت بميدان الأزهار فقلت أزور وأحيّي...

فقال عمر بسخرية باسمة:

ـ قل إنّك جئت من أقصى الأرض من أجل وردة!

ـ عزيزي الأفوكاتو العظيم، أنت تعلم أنّ حديقتي ملأى بالورود...

ـ حسن، وإذن لا تتكلّم عن وردة كلمة واحدة...

فابتسم ابتسامة وقال:

ـ من الحمق أن أتصوّر أنّه يمكن أن أغلبك، ولنتقدّم في أقصر طريق بين نقطتين..

ـ أفندم؟

ثقلت جفونه وقال جادًّا:

ـ وردة لم تعد تقوم بواجباتها...

ـ أعليها واجب غير الرقص؟

ـ سيّدي، أنت لم تشرّف كابري تلك الليلة لترقص أو لتشاهد الرقص...

ـ وإذن؟

ـ قلت أشكو إلى الرجل الكبير...

فقطّب عمر ولم ينبس، فقال الرجل:

ـ الشغل شغل يا عزيزي الكبير وأنا أحبّ...

فقاطعه ببرود:

ـ افعل ما تراه في صالحك يا مسيو يازبك...

ـ إنّي أتحاشى إغضابك...

ـ لكنّي أنتحل لك العذر مقدّمًا...

فأحنى الرجل رأسه ممتنًّا وقال:

ـ وأعدك منذ الآن أن أعيدها إلى العمل إذا استغنيت عنها مستقبلًا...

ـ لن يجيء هٰذا اليوم يا مسيو يازبك...

ـ أصدق تمنّيات السعادة يا شيري!

وهمّ بالقيام ولٰكنّه استمهله بدافع عبثيّ ممّا يلمّ به دون تمهيد، وسأله:

ـ خبّرني يا مسيو يازبك ماذا تعني لك الحياة؟

رفع الرجل حاجبيه الخفيفين دهشة، ولـمّا قرأ الجدّ في وجه صاحبه قال:

ـ الحياة هي الحياة...

ـ أأنت سعيد؟

ـ الحمد لله، أحيانًا يصاب الموسم بالركود، أو يصيب الملهى غرام مفاجئ كغرام وردة، ولٰكنّ القافلة تسير...

ـ لٰكنّك تعيش حياتك ثمّ يأخذها الله؟

ـ هٰذا مفهوم طبعًا، ولٰكنّ بيتي جميل، والمدام عال، ولي ابن وحيد يتعلّم الكيمياء في سويسرا وسيعيش هناك...

وهو يبتسم:

ـ هل تؤمن بالله؟

فأجاب الرجل بدهشة:

ـ طبعًا، يا له من تحقيق طريف!

ـ إذن فقل لي ما هو الله؟

ضحك الرجل عاليًا. وأزالت الأسئلة الغريبة الكلفة فسأل برجاء:

ـ هل يطول غرامك بوردة؟

ـ طبعًا.

ـ ألا يمكن...

فقاطعه قائلًا:

ـ أعدك إذا أخبرتني ما هو الله أن أتركها لك في الحال!

نهض الرجل، وانحنى مرّة أخرى، وقال وهو ينصرف:

ـ ستجدني دائمًا في خدمتك.

ـ ١١ ـ

قبّلها بشغف وامتنان وهو يقول:

ـ إنّها لتضحية جسيمة أن تهجري عملك!

فقالت وعيناها الواسعتان تلمعان بأنداء دموع:

ـ من أجلك.

وعبقت الحجرة الشرقيّة بأنفاس الحبّ. وقال إنّه ما كان يظنّ أنّه سيحبّها بكلّ هٰذه القوّة.

وأخرجت من جيب الروب علبة كحليّة وأهدتها إليه في حياء... هديّة أزرار ذهبيّة للقميص.

ندّت عنه آهة فرح كأنّه سيستعمل الذهب لأوّل

مرّة.

ـ حبيبتي...

ـ الزرار كما ترى مكوّن من قلبين...

ـ ذٰلك أنّ قلبك مِن ذَهَب كما قلت لك...

وراحت ترجل شعره الأسود الغزير بأصابعها، ثمّ سألته:

ـ لِمَ أتيت اليوم بملابسك وبدلك؟

فتجهّم وجهه وقال بنبرة زايلها تطريب الغرام وحنانه:

ـ هجرت بيتي نهائيًّا...

فهتفت بدهشة:

ـ لا...

ـ هو الحلّ الوحيد.

ـ قلت لك إنّني لا أحبّ أن أسبّب لك المتاعب.

ـ لندع هٰذا الحديث جانبًا...

* * * *

تكهرب جوّ الحجرة في سكون الفجر. رمته بنظرة يائسة وغاضبة من عينين دمعت أسفلهما لطختان زرقاوان. ما أبشع شراسة الغضب في وجه ظلّ أليفًا طيلة عشرين عامًا!

ـ ألم أنصحك بأن تروّضي نفسك على قبول الواقع؟

ـ بل قل إنّك تلطّخ كرامتك مع امرأة ساقطة!

ـ سيوقظ صوتك النائمين...

ـ انظر إلى الأحمر في منديلك، ما أقذر هٰذا!

وأعماه الغضب فصاح:

ـ فليكن، وماذا بعد؟!

ـ بنتك في سنّ الزواج!

ـ إنّي أدفع عن نفسي الموت...

ـ ألا تخجل؟! إنّي خجلة من أجلك.

فصاح بغضب أشدّ:

ـ قبول الموت أدعى للخجل...

وسقط رأسها مع دموعها وهي تقول بصوت مختنق:

ـ عشرون عامًا دون أن أعرف قذارتك...

فقال بجنون:

ـ إذن فلتكن النهاية...

ـ سأهيم على وجهي.

ـ بل تبقين فهٰذا هو بيتك وسأذهب أنا.

وارتميت على مقعد بحجرة الجلوس مغمض العينين من الألم. ورفعتَ رأسك على حسّ فإذا بثينة واقفة أمامك، ناعسة العينين من أثر النوم، شاحبة الوجه. ترامقا في صمت في جوّ مشحون بالعتاب والشعور بالإثم. وتذكّرت الكذبة السوداء. وعَصَرَك خزي لم تشعر به من قبل.

ـ آسف يا بثينة على إزعاجك.

وضح في ضمّة شفتيها الكبرياء الجريح.

ـ لا فائدة من الكلام.

ناءت بالأرض التي تحملها فوق عاتقها ولم تنبس.

ـ ستظلّ أمّك في البيت محاطة بكلّ رعاية...

ودعا الله في سرّه ألّا تبكي. وتمتم:

ـ إنّه بلاء، ولٰكنّي أدفع عن نفسي ما هو أشدّ.

ونظرت في عينيه بنظرة حزينة جدًّا وقالت:

ـ ولٰكنّك قلت لي «لا»...

وهو يتنهّد محترقًا:

ـ كان الصدق غير لائق.

ـ لماذا؟

فقال برجاء:

ـ فلنبقِ على ما بيننا من حبّ.

وذهبت. ليس من الممكن أن تتلقّى نظراتها مرّة أخرى قبل أن تصفح.

وقالت وردة:

ـ سوف تندم على قرارك.

ـ كلّا، لم أعد أطيق الحياة الكاذبة.

وفكّرت في قلق ثمّ تساءلت:

ـ كم أخشى أن أفشل في إسعادك.

ـ لٰكنّني سعيد بالفعل.

وأسلم نفسه للسعادة. ولم يسمح لأيّ فكرة معادية بأن تكدّر صفاءه. وتوقّع من بادئ الأمر معارضة من ناحية مصطفى ولٰكنّه شكمه بلا تردّد. وقال له:

ـ إنّي سعيد فهل تكره ذٰلك؟! حتّى شيء من الشعر يتحرّك في أعماقي...

وحتّى العمل انفتحت له نفسه بعض الشيء وإن

ظلّ على تحفّظه في قبول القضايا. وفي أويقات الراحة بين العمل كان يجدّد نشاطه بمحادثتها عن طريق التليفون. ثمّ يهرع إلى عشّه ليجده في صورة باهرة، وتطالعه صاحبته بوجه يتألّق بالسعادة. وكانا يفضّلان الحياة في الحجرة الشرقيّة، وفي بعض الأحيان ينطلقان إلى أطراف القاهرة، إلى ملتقيات العشّاق، أو يقومان برحلات ليليّة إلى الفيّوم أو استراحة الطريق الصحراويّ. ولـمّا علمت بماضيه الشعريّ الذي بشّر ببعث جديد عملت على إيقاظه بمحفوظاتها المترعة. وكانت تحفظ تمثيليّات شوقي منذ عهد دراستها بالمعهد كما حفظت الكثير من أشعار الغزل. وقال لها بإعجاب:

ـ ما أجمل حبّك للشعر!

فحثّته على تجديد شبابه الشعريّ ولكنّه قال بحذر:

ـ الشّعر جميل، ولكن أجمل منه أن نعيشه!

وقالت له يومًا:

ـ أنت لم تسألني عن ماضيّ!

فقال وهو يقبّلها:

ـ عندما تحلّ بنا بركة النشوة يملأنا اليقين فلا نسأل عن شيء.

ولكنّها كانت راغبة في الحديث عن ماضيها فقالت:

ـ كان أبي مدرّس لغة إنجليزيّة، من المدرّسين الذين لا ينساهم تلاميذهم، ولو كان على قيد الحياة يوم أعلنت رغبتي في دخول معهد التمثيل لشجّعني وباركني، ولكنّ أمّي سيّدة متديّنة جدًّا وضيّقة العقل جدًّا فدخلت المعهد على رغمها، ولـمّا قرّرت أن أحترف الرقص ثارت عليّ، وثار معها أخوالي وعمّ عجوز، وانتهى النزاع بالقطيعة، فهجرت أهلي.

ـ وكيف عشت وحدك؟

ـ قاسمت زميلة من ممثّلات المسرح بيتها.

وراح يداعب يدها البضّة بإعجاب، ثمّ سألها:

ـ أكنت تحبّين الرقص من أوّل الأمر؟

ـ كنت أحبّه ولكنّي حلمت بأن أكون ممثّلة، وبذلت جهدي ولكنّي فشلت فقنعت بهوايتي الأولى...

وتجهّم وجهه وهو يسأل:

ـ وهل استبدّ بك يأسك؟

ـ الحقّ أنّه ألطف من غيره، ولم أكن أجهل ما يعنيه العمل في ملهى ليليّ!

ثمّ بحرارة صادقة:

ـ ولكنّك حبّي الأوّل والأخير...

فضمّها إليه ضمّة امتنان، وسأل:

ـ ولماذا لم ترجعي إلى أمّك عقب فشلك في التمثيل؟

ـ كان قد فات الأوان، ولي كبريائي، وقد زاد من حدّته الفشل!

ـ الفشل! اللعنة التي تدفن ولا تموت. ما أفظع ألّا يستمع لغنائك أحد، ويموت حبّك لسرّ الوجود! ويمسي الوجود بلا سرّ. وتبعث الحسرات يومًا لتخرب كلّ شيء.

وشهد مكتبه زيارات خطيرة من خاله وأخته الوحيدة. وضرعا إليه ألّا يتزوّج من «الراقصة». وقال له خاله حسين كرم المستشار:

ـ استمرار هذه العلاقة سيحول دون اختيارك مستشارًا يومًا ما.

فقال له بشيء من الجفاء:

ـ ما فكّرت في ذلك ولا أردته...

دافع عن سعادته بكلّ قواه، وبقوّة اليأس الذي خنقه... وتبدّى كطفل بريء دائم المرح، حتّى قال له مصطفى ضاحكًا:

ـ خبّرنا الآن عن معنى الحياة.

فضحك عمر عاليًا ثمّ قال:

ـ هذا السؤال لا يلحّ علينا إلّا حينما يفرغ قلبنا...

الرنين الأجوف لا يصدر عن إناء ممتلئ. ولذلك فالنشوة هي اليقين. ولذلك فإنّ أملي الأخير أن يجود الحبّ بنشوة دائمة.

وقال مصطفى:

ـ أحيانًا أرثي لك وأحيانًا أغبطك!

فلمعت عيناه في انتصار فاستطرد مصطفى:

ـ إنّي أنطلق في حياتي المزدحمة كالصاروخ ولكنّي ربّما تذكّرت في يوم من أيّام الخماسين أنّي أطوي جوانحي على فشل قديم، وربّما اعترضني سؤال شيطانيّ عن

معنى وجودي ولْكنّي سرعان ما أدفنه في الأعماق كذكرى مخزية.

وسفعت رياح شتويّة نوافذ المكتب وانقلب الأصيل ليلًا، فاستطرد الذي يتحدّى البرد بصلعته:

- لماذا نسأل؟ الحكاية أنّ العقيدة كانت تعطينا معنى متكاملًا، وأنّنا نحاول أن نملأ الفراغ تحقيقًا لقانون طبيعيّ، وأمس ثرت على لحظة ضعف ألمّت بي وقلت إنّ تعليقاتي الفنّيّة لها معنى، وبرنامج الماضي والحاضر بالراديو له معنى، وتمثيليّاتي في التلفزيون لها معنى، ولا يحقّ لي أن أسأل بعد ذْلك.

- يا لك من فارس!

وتمادى في تعداد انتصاراته قائلًا:

- وأمس ثبت لي أنّني قادر على حبّ زوجتي لدرجة لا تصدّق حتّى إنّني اقترحت على رئيس التحرير أن أسجّل الليلة في «خبر الأسبوع الفنّيّ»، أمّا ابني عمر الذي سمّيته للأسف باسمك فمراهق شكس، واهتمامه بالكرة يماثل اهتمامنا القديم بقلب العالم رأسًا على عقب...

قلب العالم رأسًا على عقب. انتهى في السجن، وسوف يخرج يومًا ما. بعد بضعة أعوام. وسوف تتلاقى الأعين في دهشة مزعجة. فليكترث بذْلك غيري.

وقال مصطفى بلهجة أكثر جدّيّة:

- اقترح عليّ رئيس التحرير أن ألقي محاضرات عن التوعية الاشتراكيّة على موظّفي وعمّال الدار...

- بأيّ صفة؟

- بصفتي اشتراكيًّا عتيقًا!

- وقبلت طبعًا؟

- طبعًا، ولْكنّي أتساءل: ما دامت الدولة تحضن المبادئ التقدّميّة وتطبّقها أليس من الحكمة أن نهتمّ بأعمالنا الخاصّة؟

- كأن تبيع اللبّ والفشار وتتساءل عن معنى الوجود!

- أو أعشق لأبلغ اليقين!

- أو تسقط مريضًا بلا علّة!

وراحا يدخّنان في صمت. وإذا بعمر يسأله:

- كيف حالهم؟

ابتسم مصطفى وقال:

- زينب عال! استردّت رصانتها ولْكنّها مرهقة بالحمل، وثمّة خبر يجب أن تعلمه!

تجلّى اهتمام في عينيه فقال الآخر:

- إنّها تفكّر في أن تبحث عن عمل بعد الولادة...

لوّح بيده ممتعضًا فاستطرد مصطفى:

- مترجمة مثلًا، أخشى أن تصمّم يومًا على هجر البيت...

- لْكنّه بيتها...

فحدجه بنظرة ساخرة وقال:

- بثينة مستغرقة في دروسها، وجميلة توشك أن تنساك!

فغضّ بصره في ارتباك فعاد مصطفى يقول:

- وأنا أقوم بالواجب ولا أتوانى عن نقدك مرّ النقد!

فقال عمر ضاحكًا:

- منافق عتيق...

- أمّا زوجتي فلا تكفّ عن شنّ الحرب عليك.

- طبعًا... طبعًا...

- وكثيرًا ما أدافع عنك عندما نكون منفردين وأرجع سلوكك إلى «مرض نفسيّ خطير» ثمّ أؤكّد لها في نفس الوقت أنّه مرض غير معدٍ...

- ١٢ -

ليس كمثل وردة في حبّها أحد. هي مغرمة برَجُلها لحدّ الجنون، مغرمة بعشقها لحدّ العبادة. وهي متفرّغة لحبّها، تقوم بجميع واجباتها بلا معين. وكان عمر ينظر إلى الجدران والأثاث واللوحات، ويشمّ الورد في الأصيص، ويستمع إلى أنغام الحجرة الشرقيّة، ثمّ يقول إنّه آدم في الجنّة. وهي لا تطالبه بشيء وربّما دفعها لابتياع ما يلزمها من ثياب وحوائج. وزاد وزنها فعالجته بالمشي وبشيء من الرجيم وحرصت ما استطاعت على ألّا يفرط في طعام أو شراب. وشعر تمامًا بأنّها تذوب في شخصه وتتفانى في حبّه وتتعلّق به كامل أخير. وفي ليالي الشتاء الطويلة انطويا على

نفسيهما. وطال بهما السهر في الحجرة الشرقيّة، يغرقان في أحـاديث لا نهايـة لهـا، عن الماضي والحـاضر والمستقبل، والواقع والخيال، والحقيقة والحلم، تتخلّلها القبلات والملاطفات، ولولا الشرفة المغلقة المطلّة على الميدان ما روّعتهما بين حين وآخر عواصف الشتاء أو انهلال المطر. واستنفدت ليـالي الشتـاء الأحـاديث. وشملهما الصمت أوقاتًا ولكنّه صمت مضمـر للرضى والارتياح والطمأنينة المتبادلة. وطافت به مرّة خيالات فـابتسم، ومرّة وجم. وتخيّـل تصادم سيّـارتـين عنـد مفترق الطريق وتطاير رجـل وقور في العمر فجزع. وهمس الصوت الحنون:

ـ أين أنت؟

فأجاب في شبه حياء:

ـ لا شيء.

فطوّقت عنقه بذراعها وقالت:

ـ أراهن أنّه شيء هامّ!

هزّ رأسه نفيًا فسكتت برهة ثمّ بفطنة قالت:

ـ لا أدري لِمَ لا تزورك بثينة وجميلة في مكتبك؟

وكان يفكّر في العنكبوت الذي يبني بيتًا غايـة في الغرابة ليصطاد ذبابة، ولٰكنّه قال:

ـ بثينة لا تريد.

ـ هل بُلِّغت رغبتك؟

ـ حملها إليها مصطفى.

ـ لم تحدّثني عن ذلك؟

ـ ليس للأمر أهمّيّة.

ـ بل يهمّني كلّ ما يخصّك.

ومنعًـا للخيالات الغـريبـة لعب التلفـزيـون دوره فجعلا ينتقلان بين القنوات الثلاث. وسأل مصطفى عنها بالتليفون مرّة فـدعته إلى العشّ. ووجـدت فيه رجلًا يؤلف دون عناء فأغرته بتكرار الزيارة. وسـأله مصطفى عن الشّعر ومدى ما بلغه من خياله فأجابت وردة:

ـ إنّه يكتب شعرًا.

ولكنّ عمر احتجّ قائلًا بازدراء:

ـ ما هو إلّا إجهاض وقد مزّقته...

فقال مصطفى مواسيًا:

ـ السعادة أهمّ من الشّعر...

وأوشك أن يسأله «ولكن ما هي السعادة؟» ولٰكنّه أشفق من العينين الرماديّتين اللتين ترمقـانه بـاهتمام. وبفضـل التلفـزيـون والـراديـو ومصـطفى تخفّفـا من الحديث المعاد. وقال لنفسه «يـا إلٰهي!». وتخيّل أنّـه استحوذ على قوّة سحريّـة وراح يستعملها في تسلية الناس. كأن يخفي في غمضـة عين دار الأوبـرا حتّى يتجمّع الناس ذاهلين، ثمّ يعيدها في غمضة عين حتّى يتصايح النـاس من الذهـول. ما أحـوج الناس إلى جرعات مماثلة من السحر! وقال لنفسه مرّة أخرى «يا إلٰهي!». وحدجها بنظرة ناعمة فسألته:

ـ لماذا لا تدعو أصدقاءك للسمر واللهو؟

فقال بهدوء:

ـ لا صديق لي إلّا مصطفى!

وشعر بأنّها تداري إنكارًا موضحًا:

ـ لا أعتبر الزملاء والمعارف من الأصدقاء.

فعملت من ناحيتها على أن يكثرا من الخروج، وأن يمضيا السهرات ما بين السينما والمسرح، بل والملاهي الليليّة.

ـ هٰذا أفضل من البقاء لوحدنا في البيت.

فوافق برأسه ولٰكنّها رنت إليه بعتاب قائلة:

ـ أوّل مرّة يخفق ذكاؤك في مجاملتي!

فقال بعد فوات الفرصة:

ـ قصدت الثناء على مشروعاتك اللطيفة...

ـ أمّا أنا فلا أملّ معاشرتك وحدك إلى الأبد.

ـ ولا أنا صدّقيني...

وسخط على غفلته. وقال لنفسه للمرّة الثالثـة «يا إلٰهي». أمّا مصطفى فلم يخفِ عنه إعجابه بسعادته. وقال له يومًا وهو يجالسه في مكتبه:

ـ حدّثني عن حبّك فإنّه سيحملني في النهاية عـلى اعتناق آراء جديدة في الحياة...

وقرأ في عينيه نظرة ناقدة لا تخلو من خبث فسأله:

ـ هل هنت على بثينة لهٰذا الحدّ؟

ـ أنت تعلم أنّها مثـاليّة وذات كـبرياء ولٰكنّهـا في الأعماق تعبدك!

ـ ألم أوحشها الغادرة؟

ـ ستراك يومًا، ولٰكن بالله حدّثني عن حبّك...

فقال مقطّبًا في تحدٍّ:

ـ كأقوى ما يكون!

ـ تصريح سياسيّ؟!

ـ أنت منافق ولا حقّ لك في الاطّلاع على أسرار القلوب...

ضحك مصطفى طويلًا وقال:

ـ دعني أصفه لك كما أتخيّله، الكلام اللذيذ نضب، المداعبات اختصرت، والشراب يكثر بلا حيطة...

ـ مُتّ بغيظك...

ـ يا للرعب! وردة مُحبّة صادقة. وجميلة. يا إلٰهي، ما العمل لحماية النشوة من النعاس. أو لبعث الشِّعر الذي مات. يا أصيل الشتاء المعتم!

وسهرا ليلة في ملهى باريس الجديدة. ودون أيّ توقّع ظهرت فوق المسرح مارجريت. تلقّى ضربة من الماضي بلا حذر. ولٰكنّه ضبط أعصابه بقوّة. وغنّت:

كلّما رأيتك كثيرًا ازددت شهوة

وكلّما ازدادت شهوتي زاد لهيبي

وهمست وردة:

ـ يا لها من حكمة...

ولٰكنّ نظرة واحدة تُتبادل بينك وبين مارجريت خليقة بأن تقرأ وردة فيها كتابًا. وأعلن عن رغبته في الذهاب فذهبا. وتسكّعا بالسيّارة في ليل بارد وطرقات مقفرة. لا داعي للانفعال ولا معنى له. لٰكنّ عودتها المباغتة شجّعت الملل المتردّد على الاستفحال. وستقف على حافة الهاوية مرّة أخرى. وعند اليأس تنطلق القوى المدمّرة!

ومن مكتبه قال لوردة بالتليفون إنّه مدعوّ لحفل تكريم زميل اختير مستشارًا. وذهب إلى باريس الجديدة، ومضت مارجريت تغنّي وهو ينتظر، ماذا جاء بي؟ وبهٰذه السرعة؟ وعمَّ أبحث؟ هل انتهت وردة حقًّا؟

وجاءت مارجريت مرفوعة الرأس وجاءت الشمبانيا. وقالت مشرقة الوجه:

ـ كان من المؤسف أن أسافر فجأة..

ـ فجأة؟...

ـ تلقّيت برقيّة من الخارج!

وتفحّصها بحبّ استطلاع وهو يعجب للقوّة التي تدفعه نحوها. ودعاها للذهاب معه فقالت:

ـ ليس الليلة...

فضبط أعصابه متسائلًا:

ـ متى؟

ـ ليكن غدًا.

وعاد إلى عشّه حوالى الواحدة فوجد وردة جالسة بالحجرة الشرقيّة فقبّلها ثمّ سألها كما يسأل زينب:

ـ ما زلت مستيقظة؟

فقالت بعتاب:

ـ طبعًا!

ورنت إليه طويلًا ثمّ قالت:

ـ أرجو ألّا تكون قد أفرطت في الطعام أو الشراب...

ولـمّا استلقى في البيجاما على الديوان زحفت نحوه حتّى ألصقت شفتيها بشفتيه. ولم يكن راغبًا في شيء ألبتّة ولٰكنّه قال لنفسه «لتكن ليلة شرعيّة!». ولم يدر كيف يعتذر في الليلة التالية. وحدّثته بالتليفون فلم يشر إلى غيابه المنتظر. ومضى إلى باريس الجديدة وهو يهنّئ نفسه على استهانته. ورأى الضوء الأحمر يلوّن مارجريت بلون الجنّيّات الساحرات. وهزّه منظر عنقها النحيل ودسامة صوتها. وغشّى دخان السجائر الفوانيس الإسبانيّة المدلّاة من سقف مزخرف برسوم العرايا. وتساءل من أين تتسلّل النشوة إلى هٰذا المكان المغلق المعبق برائحة الخمر والسجائر. وراء عامود ضخم مضيء من الداخل رأى متعانقين في ذهول الأموات. ولٰكن كيف اقتُلعت وردة من نفسه كأنّها زهرة صناعيّة؟ ولماذا يلحّ الموت على تذكيرنا بنفسه بين كلّ عمل وآخر؟ ومنذا يستطيع أن يؤكّد أنّ هٰؤلاء السكارى موجودون؟

ولـمّا انطلقت بهما السيّارة نحو الهرم قالت:

ـ الليل بارد...

فشغّل جهاز التدفئة فقالت:

ـ لِمَ لا تذهب إلى بيتك؟

ـ لا بيت لي. . .

وأوقف السيّارة في محيط من الظلام تحت غطاء كثيف من السحب. وقال بسرور:

ـ لا نجم واحد. . .

وضمّها إلى صدره بعنف يكاد ألّا يحتمل. ومن دوّامة أنفاس مختلطة همست:

ـ الظلام مخيف. . .

فأسكتها بقبلة وقال:

ـ لا وقت للخوف.

مَسُّها بديع. ولكن هٰذا لا شيء. المهمّ أن تلامس سرّ أسرار الحياة. واندفعت الكلمات المتقطّعة في أنّات كلغة السكوت في الليل. وغنّى الانسجام أغنية تبشّر بحياة أفضل. وصهرت حرارة الأنفاس قلوبًا أضناها البرد. وغابت الأعين حتّى عن ظلمة الليل. وتنهّد فؤاده في ظفر وارتياح. وتنهّد من شدّة الارتياح. وتنهّد من ثقل الارتياح. يا إلٰهي. وتنهّد في فتور وغمّ. ونظر إلى الظلام البهيم وساءل نفسه أين النشوة الحقيقيّة؟ وأين مارجريت فإنّ الظلام لم يبقِ منها على شيء. وعاد إلى عشّه متجهّم الباطن. وقفت قبالته جامدة القسمات. حيّاها وهو يبتسم. ولبثا واقفين برهة مرهقة. وارتمى على الديوان قائلًا:

ـ آسف. . .

فقاطعته:

ـ لا داعي لاختلاق المعاذير. . .

وذهبت في الحجرة وجاءت ثمّ جلست على مقعد قريب وقالت:

ـ لاحظت جيّدًا أنّك كنت بحاجة إلى تغيير. . .

ـ ليس الأمر بهٰذه البساطة. . .

فقالت بعصبيّة لم تفلح في مقاومتها:

ـ التحقيق مهمّة لا تسرّ، ولا داعي لعذاب لا موجب له، إنّي أسألك سؤالًا واضحًا: هل فشلنا؟

فقال بصدق وخمول معًا:

ـ لا مثيل لك، إنّي أومن بذٰلك.

وهي تنظر بعيدًا:

ـ كنت مع امرأة؟

تردّد قليلًا وقال:

ـ إن أردت الحقيقة فإنّني لم أبرأ بعد من المرض!

فقالت بحدّة لأوّل مرّة:

ـ لٰكنّه مرض لا يجد علاجًا إلّا عند امرأة. . .

ثمّ بهدوء قالت:

ـ ليس عندي لك إلّا الحبّ فإن زهدت فيه انتهى كلّ شيء. . .

وراقبت صمته بيأس ثمّ استطردت:

ـ وتقلّب الأهواء في الشباب داء له علاج أمّا في العقلاء أمثالك فلا علاج له.

وأجال بصره في الحجرة يائسًا وقال:

ـ هل أنا مجنون؟

ـ العجيب أنّ شخصيّتك لا توحي بأيّ نزق!

ـ لٰكنّي متّهم بالجنون لسلوكي. . .

هتفت بحدّة:

ـ إن كنت تقصد معاشرتك لي فارجع إلى زوجتك!

ـ لا زوجة لي.

ـ إذن فلأذهب أنا، مشكلتي أبسط من مشكلة زوجتك لأنّني لن أعدم عملًا أو مسكنًا. . .

وخزه قولها وأوشك أن يصرخ في وجهها «اذهبي» ولٰكنّه مدّ ساقيْه وأغمض عينيه.

ـ كنت مع امرأة؟

فقال باستهانة وضجر:

ـ أنت تعرفين.

ـ مَن؟

ـ امرأة.

ـ ولٰكن مَن تكون؟

ـ لا يهمّ.

ـ عرفتها قبل أن تعرفني؟

ـ مقابلة عابرة.

ـ تحبّها؟

ـ كلّا.

ـ لِمَ ذهبت معها إذن؟

ـ هه. . .

ـ لعلّها رغبة طارئة ؟

ـ يعني!

ـ وهل ترضخ لأيّ رغبة؟

ـ ليس في جميع الأحوال.

ـ متى؟

باستهانة وضجر:

ـ عند الإحساس بالمرض.

ـ هل أنت مولع بالنساء؟

ـ كلّا.

ـ ألم تكن تحبّني؟

ـ بلى.

ـ ولٰكنّك لم تعد تحبّني...

ـ أحبّك ولٰكن عاودني المرض.

فقالت بحدّة:

ـ لاحظت تغيّرك منذ أيّام.

ـ منذ عاودني المرض.

فهتفت بحنق:

ـ المرض... المرض!

ثمّ وهي تنظر نحوه بسحنة منقلبة:

ـ هل ستقابلها مرّة أخرى؟

ـ لا أدري...

ـ أيسرّك أن تعذّبني؟

فنفخ قائلًا:

ـ قليلًا من الراحة من فضلكِ.

وذهب بمارجريت إلى استراحة الطريق الصحراويّ في ليلة شتاء باردة ولٰكنّها صافية السماء مرصّعة بالنجوم. وعند العودة قالت برقّة:

ـ أليس من الأفضل أن يكون لنا مأوى؟

فأجاب بغموض:

ـ كلّا...

وقد اقتنع بأنّه لا جدوى من الاستمرار ولٰكنّها استاءت من إجابته وقالت ببرود:

ـ أنا لا أرتاح لمغامرات الطرق.

فأوصلها إلى الفندق دون أن ينبس بكلمة.

-١٣-

نشوة الحبّ لا تدوم ونشوة الجنس أقصر من أن يكون لها أثر. وماذا يفعل الجائع النهم إذا لم يجد الغذاء؟ والعاصفة الهوجاء تجتاحك لتقتلعك. والاستقرار مات ولا سبيل إلى بعثه. وثمّة راقصة سمراء بباريس الجديدة أعجبته رشاقة قدّها ومرح نظرتها فذهب إلى الملهى دون مبالاة بالآخرين. وحيّته مارجريت من فوق المسرح بابتسامة فابتسم لها ثمّ دعا السمراء إلى مجالسته. قد تظنّ مارجريت أنّه يمارس معها ألعوبة غليظة من ألاعيب الغرام ولٰكنّه فقد في العاصفة روح الدعابة. وأغرى السمراء بالنقود لتذهب معه ففعلت. ليس أفضل ولٰكن خيّل إليه أنّ قلبه اهتزّ مرّة وهي تضحك. على هٰذا القلب أن يهتزّ أو أن يموت. لا الشّعر ولا الخمر ولا الحبّ فأيّ نداء تلبّي تلك النشوة المستعصية!

وكلّ ليلة يذهب بامرأة. من هٰذا الملهى أو ذاك أو حتّى من الطريق. وعندما ذهب إلى كابري ودعا راقصة تدعى منى هرع إليه يازبك مرحّبًا مستبشرًا فحنق على فرحته التي اعتدّها نعيًا لجهاده الخائب.

ـ إكسلانس... هل...

فعبس في وجهه بجفاء أجفله ومض بمنى. وهو يضمّها في حضنه أرعشته رغبة غريبة في قتلها. وتخيّل أنّه يشقّ صدرها بسكّين فيعثر في داخله عمّا يبحث عنه. القتل هو الوجه الخلفيّ للخلق وهو تكملة الدورة الملغزة التي لا تتكلّم. وهمست منى:

ـ مالك!

فقال وهو يصحو منزعجًا:

ـ لا شيء، إنّه الظلام...

ـ ولٰكن لا أحد حولنا...

وساق السيّارة بسرعة جنونيّة حتّى قبضت على ساعده، ثمّ هدّدته بالصراخ. وهو يغيّر ملابسه قال لنفسه لا بدّ من شيء. الشيء أو الجنون أو الموت. وجلست وردة في الفراش وهي تقول:

ـ أنا ذاهبة...

فقال برقّة:

ـ إنّي مسئول عنك.

ـ لا أريد شيئًا...

وعادت تقول بعد صمت:

ـ من المحزن أنّي أحببتك بصدق.

فقال بملل:

ـ ولٰكنّك لا تصبرين عليّ.

فقالت بلهجة قاطعة:

ـ نفد الصبر.

وعافتها نفسه فلم يُعقّب.

وعاد في الليلة التالية فلم يجد لها أثرًا. ابتسم في ارتياح واستلقى ببدلته على الديوان مستمتعًا بالشقّة الصامتة الخالية. وكلّ ليلة ساق إليها امرأة جديدة.

وقال له مصطفى وهو يضحك:

ـ أهلًا بأكبر زير نساء في القارّة الأفريقيّة!

ابتسم في فتور فاستطرد الرجل:

ـ سرّك يذيع يومًا بعد يوم، حدّثني عنك أكثر من زميل من زملائي، وترامت أخبارك إلى بعض زملائك بالنادي، وهم يتساءلون ماذا قلبه وكيف جدّد شبابه؟

قال بنفور:

ـ الحقّ أنّي أكره النساء...

ـ هٰذا واضح!!

ثمّ بلهجة جدّيّة:

ـ أفرغ ما في نفسك من اضطرابات كي تستقرّ بعد ذٰلك بصفة نهائيّة.

وجاء الربيع فسرّه أن تنطلق السهرات من القاعات المغلقة إلى الحدائق. وعاني الضجر والأحلام المرهقة. وفي أوقات تسلّى بقراءة الشِّعر فهفت نفسه إلى أشعار الهند وفارس. وحملته مغامراته الليليّة إلى كابري مرّة أخرى. وجلس تحت التكعيبة يشرب كأسًا ويتلقّى الربيع من وراء السرو. وعزفت أنغام راقصة فإذا بوردة فوق المسرح. لم يدهش لذٰلك ألبتّة فلم ينزعج ولم يبتسم. كان ذٰلك في الخريف. وتواصلت الفرحة بالنشوة بالحبّ ثمّ كان الجفاء. الدورات المفرغة فمتى يحطّمها القلب المحزون. متى يخترق الفضاء لغير رجعة. وها هي تلمحه ثمّ تواصل رقصها. وها هو يازبك يسترق النظرات في قلق مضحك. أمّا هو فخلا من القرارات عزمه. ورأى عقب الاستعراضات وردة غير بعيدة فدعاها إلى مائدته. وجاءت باسمة الثغر كأنّ ما كان لم يكن. وطلب الشراب الذي اشتهر به في الملاهي الليليّة. وقال لها بصدق:

ـ الحقّ أنّي آسف يا وردة.

فقالت وهي تبتسم ابتسامة غامضة:

ـ لا يجب أن تأسف على ما فات...

ثمّ بنبرة ساحرة:

ـ وتجربة الحبّ ثمينة ولو بالعذاب!

فقال وهو يعضّ شفته:

ـ لست طبيعيًّا...

فقالت بصوت مهموس:

ـ إذن لندعُ لك بالسلامة.

وتلاقت عندهما نظرات النساء اللاتي مضى بهنّ ليلة بعد أخرى فابتسمت وردة وتمتم هو:

ـ بلا رغبة!

فتساءلت برفع حاجبيها فقال:

ـ عرفتهنّ بلا استثناء ولٰكن بلا رغبة!

ـ ولماذا إذن؟

ـ لأنّ اللحظة الإلٰهيّة لا تجود بنفسها أكثر من ثانية واحدة!

فقالت بامتعاض:

ـ ما كان أقساك! إنّكم لا تؤمنون بالحبّ إلّا إذا كفرنا به...

ـ ربّما، ولٰكنّ مشكلتي غير ذٰلك...

وحمل إليه النسيم من الحقول الغارقة في الظلام شذًا مسكرًا من زهر البرتقال فتح له عوالم خفيّة من المسرّات، فطرب طربًا استخفّه وأخرجه من قيود الاتّزان فسألها بشغف:

ـ خبّريني يا وردة لماذا تعيشين؟

فهزّت منكبيها وأتت على كأسها. ولٰكنّه كرّر سؤاله بجدّيّة لا لبس فيها فقالت:

ـ وهل لهٰذا السؤال من معنى؟

ـ لا بأس أن نسأله أحيانًا.

ـ إنّي أعيش، هٰذا كلّ ما هنالك.

ـ بل إنّي أنتظر جوابًا أفضل...

فكّرت قليلًا ثمّ قالت:

ـ لنقل إنّي أحبّ الرقص، والإعجاب، وأتطلّع إلى الحبّ الحقيقيّ!

ـ هٰذا يعني أنّ الحياة عندك هي الحبّ...

ـ ليكن. . .

ـ ألم تحبّي مرّة ثمّ كرهت الحبّ؟

فقالت بامتعاض:

ـ غيري فعل. . .

ـ وأنت؟

ـ كلّا. . .

ـ كم مرّة أحببت؟

ـ قلت لك يومًا. . .

ولٰكنّه قاطعها:

ـ لندع جانبًا ما قلته يومًا، صارحيني الآن بكلّ شيء. . .

ـ ها هو طبعك الوحشيّ يغلبك. . .

ـ ألا تريدين أن تتكلّمي؟

ـ قلت ما عندي. . .

فتنهّد آسفًا، ثمّ سألها محمومًا:

ـ والله، ما موقفك منه؟

حدجته بنظرة ارتياب حادّة فقال بتوسّل:

ـ أجيبيني من فضلك يا وردة.

ـ أومن به. . .

ـ بيقين؟

ـ طبعًا. . .

ـ من أين جاء اليقين؟

ـ إنّه موجود وكفى. . .

ـ أتفكّرين فيه كثيرًا؟

ضحكت كالمرغمة وقالت:

ـ عند كلّ حاجة أو شدّة. . .

ـ وفيما عدا ذٰلك؟

فقالت بحدّة:

ـ ألا ترى أنّك تحبّ تعذيب الآخرين؟

ولبث في الملهى حتّى الثالثة صباحًا ثمّ انطلق بسيّارته ـ وحده ـ إلى الطريق الصحراويّ. وقال إنّ خروجه وحده هٰذه الليلة يُعتبر تطوّرًا ذا شأن. ثمّ أوقف السيّارة في جانب من الطريق المقفر وغادرها إلى ظلمة شاملة. ظلمة غريبة كثيفة بلا ضوء إنسانيّ واحد. لا يذكر أنّه رأى منظرًا مثل هٰذا من قبل، فقد اختفت الأرض والفراغ ووقف هو مفقودًا تمامًا في السواد، ورفع رأسه قبل أن تألف عيناه الظلام فرأى في القبّة الهائلة آلاف النجوم عناقيد وأشكالًا ووحدانًا. وهبّ الهواء جافًّا لطيفًا منعشًا موحّدًا بين أجزاء الكون. وبعدد رمال الصحراء التي أخفاها الظلام انكتمت همسات أجيال وأجيال من الآلام والآمال والأسئلة الضائعة. وقال شيء إنّه لا ألم بلا سبب وإنّ اللحظة الفاتنة الخاطفة يمكن أن تمتدّ في مكان ما إلى الأبد. وقد يتغيّر كلّ شيء إذا نطق الصمت وها أنا أضرع إلى الصمت أن ينطق، وإلى حبّة الرمل أن تطلق قواها الكامنة وأن تحرّرني من قضبان عجزي المرهق. وما يمنعني من الصراخ إلّا انعدام ما يُرجع الصدى. وأسند جسمه إلى السيّارة ونظر نحو الأفق. وأطال وأمعن النظر، وثمّة تغيّر جذب البصر. رقّ الظلام. وانبثّت فيه شفافيّة. وتكوّنَ خطّ في بطء شديد ومضى ينضح بلون وضيء عجيب. كسرّ أو عبير. ثمّ توكّد فانبعثت دفقات من البهجة والضياء النعسان. وفجأة رقص القلب بفرحة ثملة. واجتاح السرور مخاوفه وأحزانه. وشدّ البصر إلى أفراح الضياء يكاد ينتزع من محاجره. وارتفع رأسه بقوّة تبشّر بأنّه لن ينثني. وشملته سعادة غامرة جنونيّة آسرة وطرب رقصت له الكائنات في أربعة أركان المعمورة. وكلّ جارحة رنّمت وكلّ حاسّة سكرت واندفنت الشكوك والمخاوف والمتاعب. وأظلّه يقين عجيب ذو ثقل يقطر منه السلام والطمأنينة. وملأته ثقة لا عهد له بها وعدته بتحقيق أيّ شيء يريد. ولٰكنّه ارتفع فوق أيّ رغبة وترامت الدنيا تحت قدميه حفنة من تراب. لا شيء. لا أسأل صحّة وسلامًا ولا أمانًا ولا جاهًا ولا عمرًا. ولتأتِ النهاية في هٰذه اللحظة فهي أمنية الأماني.

ولبث يلهث ويتقلّب في النشوة. ويتعلّق بجنون بالأفق. تنفّس تنفّسًا عميقًا كأنّما ليستردّ شيئًا من قوّته عقب شوط من الركض المذهل. وشعر بدبيب آتٍ من بعيد. من أعماق نفسه. دبيب إفاقة. ينذر بالهبوط إلى الأرض. عبثًا حاول دفعه أو تجنّبه أو تأخيره. راسخ كالقدر، خفيف كالثعلب، ساخر كالموت. تنهّد من الأعماق واستقبل موجات من الحزن وأفاق والضياء

يضحك.

رجع إلى مجلسه بالسيّارة. ودفعها بلا حماس. ونظر إلى الطريق بفتور كأنّما يخاطب شخصًا أمامه:

ـ هٰذه هي النشوة.

وقال بعد صمت:

ـ اليقين بلا جدال ولا منطق...

ثمّ بصوت مسموع أكثر:

ـ أنفاس المجهول وهمسات السرّ...

وتساءل وهو يزيد من سرعة السيّارة:

ـ ألا يستحقّ أن يُنبذ كلّ شيء من أجله؟

ـ ١٤ ـ

استيقظ في عشّه الخالي على رنين التليفون فتناول السمّاعة، وجاءه صوت مصطفى:

ـ أين كنت طوال الليل؟

ولـمّا لم يجب قال:

ـ زينب في مستشفى الولادة.

ومرّت لحظات قبل أن يفقه المعنى ثمّ تذكّر أنّه زوج وأب وأنّ مزيدًا من الأبوّة ينتظره.

وفي بهو الاستقبال بالمستشفى وجد مصطفى وبثينة وعليّات زوجة مصطفى وهي امرأة رزينة قويّة الشخصيّة في الأربعين من العمر ممتلئة مع ميل إلى القصر مستديرة الوجه والقسمات. ولـمّا جاء دور بثينة في المصافحات مدّت له يدها وهي تغضّ البصر لتخفي وجومها.

وقال مصطفى:

ـ هي في حجرة الولادة، وكلّ شيء طبيعيّ...

وهمّ بالذهاب إلى الحجرة فقالت عليّات بحذر:

ـ كنت بالداخل، وها أنا ذاهبة إليها...

ـ ألا أدخل أيضًا؟

فقال مصطفى:

ـ يحسن تجنّب الانفعالات الطارئة...

ولم يطل بهم الانتظار فقد رجعت عليّات متهلّلة الوجه وهي تقول لعمر:

ـ مبارك عليك وليّ العهد، وزينب في طريقها محمولة إلى حجرتها...

نظر إلى بثينة بشوق، ثمّ جلس إلى جانبها واضعًا راحته فوق يدها دون كلام فتركتها بعض الوقت حياء ثمّ سحبتها. وقال مصطفى وهو يتابع الحركات الخفيّة:

ـ من حسن الحظّ أنّ المستشفيات من الأماكن التي تنسى فيها الخصومات...

فسأله وما يزال يشعر بخيبة أمل لانسحاب اليد:

ـ متى جاءت إلى هنا؟

ـ حوالى منتصف الليل...

والمناقشة دائرة مع وردة تنعشه الشمبانيا.

ـ ولم تذهبي إلى المدرسة...؟

ـ طبعًا جاءت مع مامتها...

ـ شكرًا لك يا عليّات وشكرًا لك...

فقالت عليّات وهي تغادرهم إلى حجرة زينب «عفوًا» ثمّ قال مصطفى:

ـ وقد تعبت جدًّا عند الفجر...

آه. الفجر في الصحراء والنشوة الخياليّة الخالدة. ولٰكن أين؟ واستأذن مصطفى في الذهاب لينام فلبث هو وبثينة وحدهما ينتظران. وانتبه بحساسيّة إلى حرج موقفه. وقال بعطف:

ـ لم تنامي يا بثينة؟

فهزّت رأسها بالإيجاب وهي تنظر إلى سجّادة البهو السحابيّة اللون:

ـ ألا ترغبين في محادثتي؟

فخجلت من المقاطعة الصريحة وتساءلت:

ـ ماذا أقول؟

ـ أيّ شيء، ومهما يكن من أمر فأنا أبوك وصديقك وما بيننا من علاقة لا يمكن أن ينفصم.

ولاذت بالصمت في تأثّر شديد.

ـ ألا توافقيني على ذٰلك؟

فهزّت رأسها بالإيجاب ورسمت شفتاها لفظ الموافقة.

ـ أنت زعلانة، وهٰذا أمر طبيعيّ، ومهما يكن من الأمر فهو لا يمسّك مباشرة، ومقاطعتك لي غير مقبولة، وقد دعوتك مرارًا لزيارتي فلماذا لم تحضري؟

ـ لم أستطع. . .

ـ هل منعك أحد؟

ـ كلّا، ولكنّني كنت حزينة جدًّا. . .

ـ أكان حزنك أكبر من حبّنا؟!

فقالت بمرارة:

ـ لم تزرنا مرّة واحدة.

ـ لم يكن ذلك بالممكن، ولكنّي دعوتك مرارًا فكان عليك أن تأتي، وقد نغّص امتناعك راحتي ولم تكن فيّ حاجة إلى مزيد. . .

فقطّبت لتكتسب صلابة تطرد بها حنان الدمع وقالت:

ـ منعني حزني. . .

ـ يا للأسف، لا أحبّ لك السلبيّة، وكنت في حاجة إليك في غربتي!

وابتسم ليخفّف من توتّر الجوّ ثمّ قال:

ـ حسبنا عتابًا، لا وقت الآن لذلك. . .

وربّت على منكبيها وسألها مغيّرًا المجرى:

ـ ما أخبار الشّعر؟

فابتسمت ابتسامة خفيفة لأوّل مرّة فقال بحرارة:

ـ لعلّنا لم نكن في يوم من الأيّام أقرب ما يكون لبعضنا ممّا نحن فيه اليوم!

ـ ماذا تعني؟

ـ يخيّل إليّ أنّنا حول منبع واحد. . .

حوّلت إليه عينيها الخضراوين مستزيدة فقال:

ـ رجعت إلى الشّعر أقرأه وأحاوله. . .

ـ حقًّا؟

ـ مجرّد محاولات فاشلة. . .

ـ لمه؟

ـ لا أدري، ربّما لأنّ الغبار أكثف من أن يُزال بنفضة واحدة، أو لأنّ أزمتي أقوى من الشّعر. . .

ـ أزمة؟!

ـ أعني مرضي. . .!

فابتسمت وهي تنظر إلى الأرض فسألها بإنكار:

ـ ألا تصدّقينني؟

ـ أصدّقك دائمًا!

فحزّه قولها وقال:

ـ يجب أن تصدّقيني رغم الكذبة الوحيدة في حياتنا، كانت كذبة ضرورة ولن تتكرّر، أمّا مرضي فهو حقيقيّ. . .

ـ ألم تعرف بعد ما هو؟

فكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ عذاب يعالَج بالصبر الطويل. . .

فتساءلت في إشفاق:

ـ بعيدًا عنّا؟

فقال بهدوء ويقين:

ـ أنا أعيش وحيدًا!

فرمقته بنظرة استغراب فقال:

ـ وحيدًا، صدّقيني. . .

ـ ولكن. . .

ـ الآن وحيدًا. . .

فتساءلت بلهفة أرضت عواطفه:

ـ ولِمَ لَمْ تَعُدْ يا بابا؟

فلثم خدّها المورّد وقال:

ـ لعلّه من الخير أن أبقى كذلك. . .

ـ كلّا. . .

وأمسكت بيده وكرّرت:

ـ كلّا. . .

وجاءت عليّات لتدعوه إلى الحجرة فذهب. رأى زينب مغطّاة بملاءة بيضاء إلّا الوجه.

وتبدّى الوجه شديد الشحوب ممصوص الحيويّة نصف مغمض العينين. شعر بعطف واحترام ورثاء. وقال ها هي تَخلق على حين يعجز هو عن الخلق. وتمتم بشيء من الارتباك:

ـ حمدًا لله على سلامتك. . .

فردّت بشبه ابتسامة فقال:

ـ مبارك عليك وليّ العهد!

وجلس محاصرًا بالحرج حتّى خفّف عنه دخول عليّات وبثينة وأحسنت عليّات ملء الجوّ بالنوادر والمِلَح فمرّ الوقت دون إرهاق. وجاءوا بالمولود في فراشه. وكشفوا عن وجهه. رأى كتلة لحميّة متموّجة حمراء، مخطوطة القسمات، ليس من اليسير أن يتصوّر أن سيكون لها شكل فضلًا عن شكل مقبول، ولكنّه

تذكّر تجارب مماثلة سابقة تنحني إحداها فوق فراش الوليد لترمقه بدهشة وحنان من عينيها الخضراوين. ولم يجد نحوه شعورًا مميّزًا غير أنّه أدرك أنّه سيحبّه كما ينبغي وقنع منه بنظرة حياد متسائلة. لو لم تكن عاجزًا عن التعبير كأبيك لسألتك عن مشاعرك وعن ذكرياتك عن العالم الذي جئت منه لتوّك.

وسألت عليّات:

ـ هل اخترتم له اسمًا؟

فأجابت بثينة:

ـ سمير...

إذن فليَحْمِهِ اسمه من الضجر. وقالت عليّات بلهجة ذات مغزى:

ـ لتكن نشأته في أحضان والديه!

ورغم انسيابه في أسرار الخلق لم يساوره أدنى أمل في التغيّر. ولا خرج من غربته الأبديّة. ولم يملأ الوليد الثغرة التي تفصل بينه وبين زينب. وراح يتساءل حتّى متى يبقى في مجلسه محطًّا للنظرات والتساؤل.

وأزف وقت الغداء فاستأذن في الانصراف وذهب. ولحقت به بثينة خارج الحجرة وقد استردّت شجاعتها الطبيعيّة الصريحة معه. قالت:

ـ بابا... لن تبقى وحيدًا...

وكان يعلم أنّه لم يعد بحاجة إلى شقّته الخالية، وأنّه يحلم بوحدة جديدة، فتساءل مستسلمًا:

ـ ماذا تريدين؟

ـ أن تعود...

فلثم خدّها وهو يقول:

ـ على شرط ألّا تضيقوا بي...

وتأبّطت ذراعه، وأوصلته حتّى الباب الخارجيّ بوجه مشرق.

ـ ١٥ ـ

العود إلى البيت دون تغيّر. لا كراهية لزينب ولا حبّ لها. واختفاء الكراهية دليل على اختفاء زينب نفسها ودليل انتصار نهائيّ على دنياها. وانتصار الغربة الزاحفة. وقال لها:

ـ علينا أن نتقبّل محنتنا بشجاعة.

وتبدّت شجاعة حقًّا. حتّى حجرته هجرتها. وقال لها بتأثّر:

ـ أنت مثال الكمال.

وانقطع عن مغامرات الليل الخائبة. ووهبته بثينة وجميلة وسمير مسرّات لا تنكر. والنيل يجري تحت الشرفة بلا توقّف وهو يسأل بلهفة متى تعود رحمة الفجر في الصحراء. واعتكف في حجرته طول الليل يقرأ ويتأمّل حتّى يجيء الفجر فيمضي إلى الشرفة وينظر إلى الأفق يتساءل أين الرحمة أين. وها هي ترانيم فارس والهند والعرب المليئة بالأسرار ولكن أين السعادة أين! ولِمَ تشعر بالكآبة وأنت بين هذه الجدران الرحميّة؟ وما هذا الشعور المقلق الذي يهمس لك بأنّك ضيف غريب موشك على الرحيل. وإلى أين؟ وقال مصطفى:

ـ الحمد لله على أن عاد كلّ شيء إلى أصله.

فقال بازدراء:

ـ لم يعد شيء إلى أصله...

فتجنّب المناقشة في إشفاق فقال عمر بتحدٍّ:

ـ لم أعد إلى البيت، لم أعد إلى العمل...

ـ ولكن يا عزيزي...

ـ ولا يعرف أحد ماذا تقول الساعة التالية.

وفيما كان بمكتبه عصرًا إذ فتح الباب ودخل رجل. ربعة متين البنيان، شاحب اللون، كبير الوجه، حليق الرأس، قويّ الفكّين والأنف، يشعّ من عينيه العسليّتين نور حادّ. نظر إليه عمر منكرًا لأوّل وهلة ثمّ انتتر واقفًا وهو يهتف بصوت متهدّج:

ـ عثمان خليل!

وتعانقا طويلًا وعمر في غاية من الانفعال، ثمّ جلسا على المقعدين المتقابلين أمام المكتب ولسانه لا يتوقّف عن كلمات الترحيب والتهنئة والتبريك، والآخر يبتسم وكأنّه لا يجد ما يقوله. وحلّ صمت قصير كردّ فعل فراحا يتبادلان النظر. وتموّجت المخيّلة بالذكريات. وتحرّكت في الأعماق مشاعر غريبة منذرة بكلّ ظنّ. وارتفع مدّ حاملًا دفعات من القلق والتوجّس. وطالما طافت به لحظة اللقاء المرتقبة وطالما

عمل لها ألف حساب ولكنّها حلّت رغم ذلك بغتة كمفاجأة غير ممكنة التوقّع. ولم يقدّر الزمن ونسي كلّ شيء في العهد الأخير ومع ذلك فإنّ المدّة لم تنقص بالتمام ولم يستنتج إلّا الساعة أنّ ثلاثة أرباعها قد انقضى! وها هو يلقاه أبعد ما يكون عن الاستعداد النفسيّ لذلك. رجل خارج من السجن إلى الدنيا ورجل يتحفّز للخروج من الدنيا إلى عالم مجهول.

ـ يا له من عمر طويل!

ابتسم عثمان، فقال عمر:

ـ لم تغب عنّا فيه ساعة واحدة، وها هو وجهك مصمّم على الحياة كعادتك!

فقال بصوت حلقيّ دسم:

ـ وأنت لم تكد تتغيّر في الصورة ولكنّ صحّتك ليست كما يجب!

سُرّ للملاحظة الأخيرة وقال:

ـ بلى، مرضت، عانيت أزمات غريبة، ولكن من فضلك لا تجعل منّي موضوعًا للحديث، أريد أن تتحدّث وأن أسمع.

ودخل فرّاش بالكوكا والقهوة ثمّ قال عثمان:

ـ مضت أعوام وأعوام، اليوم بسنة في قرفه والسنة بيوم في تفاهتها، ولكن لا تنتظر أن أتحدّث عن حياة السجن...

ـ مفهوم... آسف... ولكن متى خرجت؟

ـ منذ أسبوعين؟

ـ وكيف لم تحضر إلّا اليوم؟

ـ سافرت من فوري إلى القرية وكنت مريضًا بالإنفلوانزا ولـمّا شفيت رجعت إلى القاهرة.

لا فائدة من الهرب إلى الأحاديث الجانبيّة. وإحساسك بالذنب يزداد حدّة.

ـ كم عذّبنا أنّنا لم نستطع زيارتك!

فقال عثمان بوجه لا ينبئ عن شيء:

ـ كان سيُقبض على أيّ زائر من غير الأهل.

ـ وكم وددنا لو كان في الإمكان أن نطمئنّ عليك.

ـ الحقّ أنّنا عوملنا معاملة سيّئة جدًّا أوّل الأمر ولكنّها تغيّرت بطبيعة الحال بعد قيام الثورة.

فتقلّص وجه عمر إعرابًا عن أسفه فاستطرد الآخر:

ـ ولكن ثبت لي أنّه إذا قُذف بنا إلى الجحيم فإنّنا حتمًا سنعتاده ونألف الزبانية!

وأذعن عمر لإحساسه بالذنب فاعترف قائلًا:

ـ العدل كان يقضي بأن نذهب معك إلى السجن...

فقال بسخرية:

ـ القانون هو الذي أدخلني السجن لا العدل!

فتمتم عمر بخشوع:

ـ على أيّ حال فنحن مدينون لك بحرّيّتنا وربّما بحياتنا...

ـ أليس ذلك ما كنت تفعله لو ألقي القبض عليك أنت وكنت أنا من الهاربين؟

فلم ينبس عمر بكلمة حياء وارتباكًا واستطرد عثمان بمرارة:

ـ وها أنا في الدنيا من جديد وفي منتصف الحلقة الخامسة.

فقال عمر معزّيًا:

ـ ما زلت شابًّا وأمامك حياة طويلة وعريضة...

ـ وورائي تجربة أمرّ من اليأس...

فقال عمر بحزن:

ـ قد عشناها خارج الأسوار ولكن يخيّل إليّ أنّنا لم نفعل شيئًا ذا بال...

فهتف محتجًّا:

ـ لا تقل ذلك. لا تفقدني البقيّة الباقية من العزاء.

تحرّكت مخاوفه مرّة أخرى وشعر بأنّه جثّة منسيّة فوق سطح الأرض. فقال:

ـ مارسنا عملًا، وتزوّجنا، وأنجبنا، ولكن يخيّل إليّ أنّه ليس لي ما أحصده إلّا الهباء، ولكن معذرة لا يحقّ لي أن أتكلّم عن نفسي.

ـ ولكنّنا نصفان متكاملان!

الماضي المنقضي والحساب العسير. وقال بفخار في بدروم بيت مصطفى المنياوي «خليّتنا قبضة من حديد ولا يمكن أن تنكسر. ونحن نعمل للإنسانيّة جمعاء لا للوطن وحده.

نحن نبشّر بدولة البشريّة. نحن نخلق بالثورة والعلم «عالم الغد المسحور».

ولـمّا أصـابته القـرعة قـال «أنا سعيـد، مصطفى عصبيّ وأنت عريس، وغدًا تلقى قنبلة على خنزير من المولعين بمصّ الدماء».

ـ كان التدبير محكمًا، ولولا رصاصة طائشة أصابت ساقك لما قبضوا عليه. . .

ـ أجل، وماذا فعلت أنت ومصطفى؟

ـ سهرنا حتّى الصبح والحزن يقتلنا. . .

فضحك ضحكة قصيرة وسأل:

ـ ألم تخافا أن أعترف؟

ـ فكّر مصطفى في الهرب ودعاني إلى ذلك، وفكّرنا في الاختفاء، وذقنا أيّـامًا تعيسـة ولٰكنّك كنت فـوق مستوى الإنسان وكنّا ما زلنا لا شيء. . .

ويعتاد الإنسان الجحيم كما يعتاد التضحية بالغير! ومهما يكن من قذارة الفأر فإنّ منظره في المصيدة يثير الرثاء.

وأشار عثمان إلى المساعدات التي تلقّاها والداه ـ قبل وفـاتهما ـ من عمـر ولٰكنّ عمـر أبى أن يسمـع بقيّـة الإشارة. وعند ذاك قال عثمان:

ـ لا أريد أن آسف على مـا فات، فقـد اخترت مصيري بوعي كامل، والآن آن لـك أن تحدّثني عن أخبار الدنيا؟

فقال عمر بدهاء وهو يرنو إلى النجاة من بعيد:

ـ ليكن المستقبل أهمّ ما يهمّنا. . .

ـ المستقبـل؟. . . أجل. . . سـأنفض الغبار عـلى الليسانس. . .

ـ وإليك مكتبي تحت أمرك. . .

ـ عظيم، ولا اعتراض لأحد في الجهات الرسميّة على أن أعمل. . .

ـ إذن فلتبدأ من اليوم. . .

ـ شكرًا. . . شكرًا. . . ولٰكن حـدّثني عن أخبار الدنيا!

لا يريد أن يتزحزح. يا للغرابة! كأنّك لم ترتبط به يومًا ما. وكأنّك لم ترغب قطّ في هٰذا اللقاء. لا شيء مشترك بينكما إلّا تـاريخ ميت. ولا يـوحي إليك إلّا بمشاعر الذنب والخوف وازدراء النفس. ولم يدرِ بعد بأنّ كتب الغيب حلّت محلّ الاشتراكيّة في مكتبتـك. وها هو يعترضك كقدر وأنت تهرب من الأهل والدنيا.

وضاق عثمان بصمته فسأله مستدرجًا:

ـ حدّثني عن أصحابنا!

ـ أوه. . . تفــرّقـوا، لا أعــرف منهم اليـوم إلّا مصطفى المنياوي. . .

ـ وماذا فعلتم؟. . .

ـ الحقّ أنّ السنــوات التي تلت القـبض عليـكم اتّسمت بالعنف والإرهاب فلم يكن بدّ من أن نركن إلى الصمت، ثمّ انشغل كلّ بعمله، وتقدّم بنا العمر على نحو ما، ثمّ قامت الثورة وانهار العالم القديم. . .

قبض عثـمان على ذقنـه العريضـة بيده، وعكست عينـاه المشعّتـان نـظرة بـاردة. لعلّه ينعى الأعــوام الضائعة. ما أبغض هٰذا الموقف الذي أوّق نومه مرّات ككابوس! وقال عثمان:

ـ طالما ساءلت نفسي لماذا، أجل لماذا، وبدت لي الحياة خدعـة سمجة، وعجبت لـلأقدام التي انهالت عـلى رأسي، أقدام أنـاس تعساء من صميم الشعب الـذي سُجنت من أجله، وتساءلت لماذا، هل تعني الحياة أن نستوصي بالجبن والعماء؟ ولٰكن ليس ذٰلـك النمـل ولا بقيّـة الحشرات، ولا أطيـل عليـك فقـد استرددت إيماني. . .

يا لسوء الحظّ!

ـ اسـترددت إيمـاني فـوق الصخـور وتحت أشعّـة الشمس، وأكّدت لنفسي بأنّ العمر لم يضع هـدرًا، وأنّ ملايين الضحايا المجهـولين منـذ عهد القـرد قد رفعوا الإنسان إلى مرتبة سامية!

أحنى عمر رأسه إعـرابًا عن المـوافقة والاحـترام! واستطرد عثمان بنبرة لم تخلُ من حنق:

ـ من الحمق التعــرّض بمــاضٍ مسلول مــا دام المستقبل ينهض راسخًا بصورة أقوى ملايين المرّات من جبن الجبناء.

فقبض على أداة نجاة وسط العاصفة الهوجاء قائلًا:

ـ على أيّ حال فقد تقوّض العالم القديم المـرذول وقامت ثورة حقيقيّة فتحقّق حلم من أحلامك. . .

انظر إلى وجهه كيف يتجهّم. وتتجمّع فيه عاصفة مربدّة. وها أنت تتجرّع هزيمة في ميدان لم يعد يهمّك

في شيء. ألا يعلم بأنّي لم يعد يهمّني شيء!

وقال عثمان بأسف:

ـ لو لم تسارعوا إلى الجحور لما فقدتم الميدان.

ـ لم تكن لدينا قوّة ولا أتباع في الشعب يُعتدّ بهم، ولو وقعت المعجزة على أيدينا لهبّت قارّات للقضاء علينا...

ـ المؤسف أنّ المرضى لا يفكّرون إلّا في المرض...

ـ وهل ترى من العقل أن يتجاهلوه؟

ـ ليس العقل ولكنّه الجنون، ألم تدرك بعد كم أنّ العالم مدين للجنون؟!

فقال ملاطفًا:

ـ على أيّ حال قد قامت الثورة وهي تشقّ طريقها بعقليّة اشتراكيّة حقيقيّة...

فحدجه بنظرة متفحّصة طويلة حتّى قرأ فيها معاني لم تسرّه فقال:

ـ وهي التي لم تمسّ رءوس أموال أمثالي من الناس فقد فرضت ضريبة عادلة.

ثمّ بنبرة عصبيّة:

ـ صدّقني أنّني لست عبدًا لشيء، فليذهب كلّ شيء إلى الجحيم...

فابتسم عثمان وسأله:

ـ صارحني يا عزيزي أما زلت مؤمنًا كما كنت؟

فتفكّر عمر مليًّا فوق حافة الهاوية ثمّ قال:

ـ كذلك كنت حتّى قبيل قيام الثورة، فلمّا أن قامت الثورة اطمأنّ بالي ثمّ أخذت أفقد الاهتمام بالسياسة وأولي وجهي وجهة أخرى...

قطّب متسائلًا:

ـ وجهة أخرى؟!

قال بحذر:

ـ يحلو لمصطفى أحيانًا بأن يصفها بأنّها حنين جارف إلى الماضي الفنّيّ...

فتساءل بامتعاض:

ـ وهل مِن تعارُض بين الفنّ والمبدإ !؟

فقال وهو يزداد ضيقًا وحرجًا:

ـ ليس الأمر بهذه البساطة...

فقال بوجوم:

ـ لا أفهم سوى أنّك لم تعد أنت...

كما قالت زينب ووردة من قبل!... وقال:

ـ أعترف بأنّني لم أعد أستحقّ أن أكون موضع تفكيرك.

ثمّ بلهجة فيها شيء من المرح:

ـ المهمّ الآن هو أن تبدأ حياتك الجديدة لتعوّض ما فات...

فقال بلهجة ثقيلة:

ـ أخشى ألّا أجد حقًّا ما يعوّضني عمّا فات...

ـ هاك مكتبي تحت أمرك، وجميع ما يلزمك للبدء...

ـ إنيّ عاجز عن الشكر.

ـ بل هو دون ما تستحقّ، وسوف أظلّ ما حييت مدينًا لك بالحياة...

ثمّ بلهجة تحرّرت كثيرًا من الخوف والحرج:

ـ لا شكّ أنّك في شوق لرؤية زينب والأسرة ومصطفى فلنتعشّ الليلة في البيت...

ـ ١٦ ـ

ووليمة العشاء حفلت بالأطعمة والأشربة والذكريات. واغرورقت عينا زينب وهي ترحّب به وشدّت على يده طويلًا على حين عانقه مصطفى المنياوي عناقًا حارًّا، أمّا عليّات فكان يراها لأوّل مرّة. وجلست بثينة إلى جانبه على المائدة وأعلن بدهشة أنّها صورة من شباب أمّها. ولـمّا قدّمت فواتح الشهيّة قال:

ـ لن أبالغ في صنف لأذوق جميع الأصناف...

والتفت نحو بثينة قائلًا:

ـ قالوا لك إنّي صديق قديم، وهذا بعض الحقيقة لا الحقيقة كلّها، أنا صديق قديم خارج من السجن...

واعتبرتها بثينة نكتة فابتسمت فقال:

ـ صدّقيني فأنا صديق قديم وسجين قديم.

وعند ذاك قالت زينب:

ـ إذن يجب أن تعلم أنّك بطل سياسيّ لا مجرّد

سجين!

ورمقته بثينة باهتمام مشوب بدهشة فقال:

ـ بطل أو مجرم، هي من أسماء الأضداد...

وقال لها عمر:

ـ عثمان صديق قديم، وهو زميلي في المكتب الآن، وله قصّة طويلة سأقصّها عليك فيما بعد، ولكنّك تعرفين شيئًا ولا شكّ عن المسجونين السياسيّين...

فسألت بثينة عثمان:

ـ أسجنك الملك؟

فقال والسفرجيّ يضع في طبقه شريحة من الديك وكمّيّة من البازلّاء:

ـ بل المجتمع كلّه...

ـ وما فعلت؟

لم يجب فقال مصطفى ضاحكًا:

ـ كان اشتراكيًّا قبل الأوان...

ثمّ وهو يغمز بعينيه:

ـ وكان يهوى اللعب بالقنابل...

فاتّسعت العينان الخضراوان ولكنّ زينب قالت لعثمان بلباقة لتحويل المجرى:

ـ بثينة شاعرة...

فنظر إلى عمر باسمًا وقال:

ـ الشعر وراثيّ في هذه الأسرة!

فقال له مصطفى محذّرًا:

ـ لكنّ شعرها ترنيمات موجّهة للذات الإلٰهيّة.

وهمّ بتفجير سخرية ولكنّه أمسك في اللحظة المناسبة وقال بأدب:

ـ أرجو أن يسعدني الحظّ بالاستماع إلى بعض هٰذه الترنيمات...

ونجح عمر في إخفاء ضيقه. وتناول حمامة محشوّة وقال لنفسه إنّها لو أحسنت الطير لما أكلت. ولاحظ مجاملات المائدة المتبادلة بين بثينة وعثمان بارتياح. وإذا بالفتاة تسأل جارها:

ـ وكيف صبرت على حياة السجن؟

ـ صبرت لأنّه لم يكن من الصبر بدّ. وعُرفت بحسن السير والسلوك، والظاهر أنّنا لا نسيء السلوك إلّا في المجتمع.

وضحك ثمّ استطرد:

ـ الواقع أنّ السجن لا يخلو من مزيّة، فالسجناء يمارسون حياة لا طبقيّة فيها ممّا نحبّ أن يتحقّق في الحياة...

ـ لكنّي لم أفهم شيئًا...

ـ سوف تفهمين كلامي إذا أمكن أن أفهم شِعرك.

ـ هل قرأت شِعر بابا؟

ـ طبعًا.

ـ وهل أعجبك؟

وقال عمر محتجًّا:

ـ كيف بالله تأكلان وأنتما لا تكفّان عن الحديث؟

ولكنّ عثمان أحبّ محادثتها، وقد سألها:

ـ هل ستدرسين الآداب في الجامعة...؟

ـ العلوم.

ـ برافو، ولكن كيف وأنت شاعرة؟

فقالت زينب بفخار:

ـ إنّها متفوّقة في العلوم.

وقالت بثينة:

ـ وبابا متحمّس لدراسة العلم...

فرمق عثمان عمر بنظرة حائرة ثمّ قال لبثينة:

ـ سوف تدركين يومًا أنّه الأمل المنشود.

ـ ولكنّي لن أتخلّى عن الشّعر.

ـ وما البأس في تلك الحال؟!

ـ وكم عامًا قضيت في السجن؟

ـ حوالى العشرين!

فرمته بنظرة ذاهلة فضحك قائلًا:

ـ ومع ذٰلك فقد عرفت رجلًا في السجن لا يرغب في مغادرته، وكلّما قاربت مدّته الانتهاء ارتكب جريمة خفيفة ليجدّدوا له المدّة...

ـ تصرّف غير معقول!

فقال بلهجة جادّة:

ـ ما أكثر التصرّفات غير المعقولة!

وقال عمر معاتبًا:

ـ ألا تريدين له أن يأكل؟

وقُدّمت لهم القهوة في حجرة الاستقبال. ولم ينقطع الحديث بين عثمان وبثينة. وحوالى العاشرة اقترح

مصطفى أن يجلس ثلاثتهم بالشرفة، وانتقل النساء إلى حجرة الجلوس. وأراد عثمان أن يعرف ماذا صنع مصطفى بحياته فقصّ عليه هذا قصّته بصراحة واستهانة وجرأة غير متوقّعة. ولم يقنع بذلك ولكن قال:

ـ ها قد وقفت على أحوالنا فماذا يدور في رأسك الكبير؟

وكان عثمان قد عاد ـ بعد اختفاء بثينة ـ إلى الفتور والتجهّم فقال:

ـ عليّ أن أبدأ حياتي أوّلاً كمحامٍ.

ـ إنّما أسأل عمّا يدور برأسك!

ـ وعليّ أن أدرس ما حولي...

ـ من حقّك هذا، غير أنّ موقفنا القديم لم يعد ضرورة حتميّة...

فقال بغلظة متحدّية:

ـ ولكنّه ضرورة حتميّة!

ـ أعني أنّ الدولة الآن اشتراكيّة مخلصة وفي هذا الكفاية...

وظلّ عمر صامتًا ينظر نحو النيل الذي يجري عاكسًا أضواء المصابيح تحت هلال مرشوق في الأفق.

وقال عثمان بمرارة:

ـ إذا كنت قد تغيّرت فلا يعني هذا أنّ الحقيقة يجب أن تتغيّر...

ـ لم نتغيّر ولكنّنا تطوّرنا...

ـ إلى الوراء...

ـ الوطن تطوّر إلى الأمام بلا شكّ...

ـ ربّما ولكنّكما تطوّرتما إلى الوراء.

وظلّ عمر ينظر إلى الهلال أمّا مصطفى فسأله بمرح:

ـ ألم يقنعك ما ضحّيت به من عُمْر؟

فقال بحنق:

ـ الحقيقة لا تقنع.

ـ يا عزيزي لست المسئول الوحيد عنها...

ـ الإنسان إمّا أن يكون الإنسانيّة جمعاء وإمّا أن يكون لا شيء.

فقال مصطفى ضاحكًا:

ـ إنّني لم أستطع أن أكون مصطفى فحسب فكيف يمكن أن أكون الإنسانيّة جمعاء؟

ـ يا لفداحة الفشل!... لا أصدّق ما حلّ بكما من تدهور...

لم يستطع مصطفى أن يتجاوب معه في جدّيّته ولكنّه أشار إلى عمر وقال:

ـ دعك من عمر فهو يعاني أزمة حادّة... لقد كره العمل والنجاح والأسرة...

نظر عثمان إلى عمر متسائلاً ولكنّه لم يحوّل وجهه عن النيل، فقال مصطفى:

ـ كأنّما يبحث عن نفسه...

فقطّب عثمان كالمنزعج وقال:

ـ أليس هو الذي أضاعها؟

ثمّ خاطب نفسه متأوّهًا:

ـ هل انتهى الحال إلى التأمّلات الفلسفيّة!

فقال مصطفى وكان يغالب الاستسلام للمرح طوال الوقت:

ـ طالما اعتقدت أنّه يريد أن يبعث جانبه الفنّيّ المكبوت، وحاول ذلك وما زال، ولكنّه يحلم أحيانًا بنشوة غريبة...

ـ زدني فهمًا...

فتحوّل عمر نحوهما قائلاً:

ـ أرِحْ نفسك واعتبره مرضًا...

فحدجه بنظرة ثاقبة وتمتم:

ـ لعلّه مرض حقًّا، إذ أنّك ضيّعت جانبك الصحيح المعافى...

فقال مصطفى:

ـ أو أنّه يبحث عن معنى لوجوده.

ـ عندما نعي مسئوليّتنا حيال الملايين فإنّنا لا نجد معنى للبحث عن معنى ذواتنا!

فتساءل عمر مضجرًا:

ـ ترى هل تموت الأسئلة إذا قامت دولة الملايين؟

ـ ولكنّها لم تقم بعد!

ونقّل عينيه بينهما ثمّ قال:

ـ والعلماء يبحثون عن سرّ الحياة والموت بالعلم لا بالمرض!

ـ وإذا لم أكن من العلماء؟

ـ فلا أقلّ من ألّا تثير في وجوه العاملين غبار النواح والولولة. . .

فقال مصطفى:

ـ إنّك تقذف بألفاظ مدبّبة على حين يعاني صديقنا ألـمًا حقيقيًّا. . .

ـ أنا آسف وأخشى أن أظلّ آسفًا إلى الأبد. . .

وتساءل عمر:

ـ ولْكن ألا يسعفنا القلب إن فاتنا أن نكون من العلماء؟

ـ القلب مضخّة تعمل بواسطة الشرايين والأوردة، ومن الخرافة أن نتصوّره وسيلة إلى الحقيقة، والحقّ أنّي أقترب من فهمك، فأنت تتطلّع إلى نشوة، وربّما إلى ما يسمّى بالحقيقة المطلقة، ولٰكنّك لا تملك وسيلة ناجعة للبحث فتلوذ بالقلب كصخرة نجاة أخيرة، ولٰكنّه مجرّد صخرة، وسوف تتقهقر بك إلى ما وراء التاريخ، وبذلك يضيع عمرك هدرًا، حتّى عمري الذي ضاع وراء الأسوار لم يضع هدرًا، ولٰكنّ عمرك أنت سيضيع هدرًا، ولن تبلغ أيّ حقيقة جديرة بهٰذا الاسم إلّا بالعقل والعلم والعمل. . .

لم يشهد الفجر في الصحراء. لم يشعر بالنشوة التي تحقّق اليقين بلا حاجة إلى دليل. لم تطرح الدنيا تحت قدميه حفنة من تراب.

وقال مصطفى :

ـ إنّي مؤمن بالعلم والعقل ولٰكن بين يديّ الآن قصيدة كتبها عمر في الفترة الأخيرة قبل أن ينبذ الشعر نهائيًّا، وهي تقطع بثورته على العقل. . .

فقال عثمان وهو يتمالك أعصابه:

ـ يسرّني أن أسمعها. . .

همّ عمر بالاعتراض ولٰكنّ مصطفى بسط ورقة استخرجها من جيبه وراح يقرأ:

لأنّني لم ألعب في الهواء
ولا سكنت في خطّ الاستواء
لم يستهوني شيء إلّا الأرق
وشجرة لا تنثني للعاصفة
وبناء لا تطرف له عين

وساد صمت ثقيل. ثمّ قال عثمان:

ـ لم أفهم شيئًا. . .

وقال عمر:

ـ وأنا لم أقل شعرًا، كنت أهلوس تحت تأثير حال مرضيّة.

فقال مصطفى:

ـ ولٰكنّ الفنّ الحديث عمومًا يتنفّس في هٰذه الثورة.

فقال عثمان بازدراء:

ـ إنّها أنين نظام يحتضر. . .

فقال مصطفى:

ـ ربّما كان هٰذا حقًّا على المستوى الحضاريّ ولٰكنّني أقول كفنّان قديم إنّها أزمة فنّيّة أيضًا، أزمة فنّان يبحث عن شكل جديد بعد أن أعياه المضمون. . .

ـ ولِمَ أعياه المضمون؟

ـ لأنّه كلّما عثر على موضوع وجده مبتذلًا من كثرة الاستعمال. . .

ـ ولٰكنّ الفنّان يضفي من نفسه على موضوعه فيصير جديدًا في هٰذه الحدود على الأقلّ.

ـ لم يعد هٰذا مقنعًا في عصر الثورات الجذريّة، عصر العلم، وقد تبوّأ العلم العرش فوجد الفنّان نفسه ضمن الحاشية المنبوذة الجاهلة، وكم ودّ أن يقتحم الحقائق الكبرى ولٰكن أعياه العجز والجهل، وحزّ في نفسه فقدان عرشه فانقلب «غاضبًا» أو «عدوًّا للرواية» أو «لا معقولًا»، ولـمّا استحوذ العلماء على الإعجاب بمعادلاتهم غير المفهومة نزع الفنّانون المنهارون إلى سرقة الإعجاب باستحداث آثار شاذّة مبهمة غريبة، وأنت إن لم تستطع أن تستلفت أنظار الناس بالتفكير العميق الطويل فقد تستطيعه بأن تجري في ميدان الأوبرا عاريًا. . .

ولأوّل مرّة يضحك عثمان عاليًا، واستطرد مصطفى:

ـ ولذلك اخترت أوسط الطرق وأصدقها وهو أن أكون مسلّيًا. . .

وقال عمر لنفسه لماذا أُتعب نفسي في مناقشة أمور لا تهمّني؟

- ١٧ -

خرس الفجر. على ضفاف النيل أو في الشرفة أو في الصحراء خرس الفجر. وليس من شاهد على أنّه تكلّم ذات مرّة إلّا ذاكرة محطّمة. وإدامة النظر والتطلّع إلى أعلى واحتراق القلب لا تجدي شيئًا. والجوانح تنطوي على لوعة مشتعلة صراخها يصكّ السماوات بلا أمل. وسخريات الشِّعر وشَعر مارجريت الذهبيّ وعينا وردة الرماديّتين وطيف زينب الخارج من الكنيسة أشباح شاحبة تهيم في رأس أجوف. وضحكات مصطفى تنعى أيّ أمل أمّا صخب عثمان فنذر نبيّ يبشّر بالعدم. وخاطبت المقاعد والجدران والنجوم والظلام، وخاصمت الخلاء، وغازلت شيئًا لم يوجد بعد، حتّى أراحني أمل قاتم فوعدني بالخراب الشامل. وقد هان كلّ شيء، وتهتّكت القوانين التي تحكم الكائنات، وتعذّر التنبّؤ بطلوع الشمس. كيف أقبل بعد ذٰلك أن أنظر في ملفّ قضيّة أو أن أناقش مشكلة تتعلّق بميزانيّة البيت! وقد قلت لحجرتي المغلقة:

- أيّ خطأ كانت تلك الهدنة التي أرجعتني إلى البيت!

وقلت للقطّة وهي تتمسّح بساقي:

- سمعًا وطاعة، سأرحل عن المأوى المكتظّ بالعواطف المتطفّلة المعوقة...

ولم يبق من تسليات إلّا أن أرقص فوق قمّة الهرم أو أقفز من فوق أعلى جسر إلى قاع النيل، أو أقتحم الهلتون عاريًا، ويقينًا أنّ روما لم يحرقها نيرون ولٰكن ضرمتها الأشواق اليائسة. كذٰلك تزلزل الأرض وتتفجّر البراكين.

وقالت وردة في التليفون:

- ترى هل نسيت صوتي؟

فقال بفتور:

- أهلًا وردة...

- ألا تزورنا ولو في السنة مرّة؟

- كلّا ولٰكنّي تحت أمرك إن كنت في حاجة إلى شيء...

- أنا أحدّثك بلغة القلب...

فقال ممتعضًا:

- القلب!... إنّه مضحكة...

وفي لحظة ألم حادّ لعن العلم المستعصي على أمثاله من البشر. وكان يتخفّف من ألمه بالاستسلام لجنون السرعة وهو يندفع بسيّارته في أطراف القاهرة. وتعدّدت رحلاته بلا هدف إلى الفيّوم أو القناطر أو طنطا أو الإسكندريّة. ويندفع بجنون حتّى يثير الفزع والسخط. وكثيرًا ما يغادر القاهرة صباحًا ثمّ يرجع إليها صباح اليوم التالي دون نوم. وقد يدخل دكّان بقّال ليسكر أو يجلس في التريانون لينام أو يشيّع جنازة لا يعرفها ولا تعرفه، أو يغلبه النوم عقب الفجر فينام في السيّارة أو على شاطئ النيل حتّى الصباح. وذهب مرّة إلى مكتبه، وجد عثمان منهمكًا في العمل بطاقة مذهلة. وسأله الرجل:

- أين كنت طوال الأيّام الماضية؟

فرمقه باستهانة وقال:

- في أماكن لا حصر لها...

- أنت مرهق بلا ريب، ترى ماذا يدور في رأسك؟

وكان الألم قد حرّره من الحرج والحياء والخوف، حتّى خوفه من عثمان قد اندثر، فقال:

- أفكّر في تفجير الذرّة فإن تعذّر ذٰلك ففي القتل فإن تعذّر ذٰلك ففي الانتحار!

فضحك عثمان ثمّ قال معترضًا:

- ولٰكن مكتبك...

- لقد عاشرتني مدّة تكفي لأن تفهم...

- حدّثني عمّا تنوي أن تفعله..

فقال بتصميم:

- آن الأوان لأن أفعل ما لم أفعله في حياتي وهو ألّا أفعل شيئًا.

- لا شكّ في أنّك تمزح...

- لم أكن جادًّا كما أكون اليوم...

فتراجع عثمان أمام تجهّمه الصارم وقال برقّة:

- ألا تفكّر في استشارة طبيبك؟

- لا أستشير أحدًا فيما يجهله...

وزحف صمت مرهق حتّى خرقه عمر متسائلًا:

- وأنت هل تقصر جهودك على المحاماة؟

ـ أجل ولٰكنّي لا أكفّ عن التفكير. . .

ـ هل تنقلب مرّة أخرى خطرًا يهدّد الأمن؟

فقال باسمًا:

ـ هٰذا شرف لا أستطيع أن أدّعيه بعد. . .

الحقّ أنّ ما يكتنفه من طنين يمنعه من حسن الاستماع إلى الصمت. لا بدّ من الذهاب. وهو بحال من التوتّر يسهل معها الجهر بأيّ سرّ. لذٰلك قال لزينب إنّه سيوكلها عن نفسه في التصرّف فيما يملك وأنّه سيختفي عن مكتبه للعاملين فيه. وأظلمت عيناها كما تظلمان تحت الضربات التي تتلقّاها واحدة بعد أخرى. وقال لها إنّه صمّم على ألّا يشغل نفسه بشيء وأن يزيح الدنيا عن عاتقه. ولها أن تعتبر الحال مرضًا واضحًا أو غامضًا ولٰكنّه على أيّ حال لا يجد سبيلًا أفضل من الخلوّ إلى نفسه بعيدًا عن الناس. وليس في الموضوع امرأة، يجب أن تصدّقه، ولا لهو أو عبث، ولٰكنّها أزمة طاحنة بلغت ذروتها ولن تنفرج إن كان مقدّرًا لها أن تنفرج إلّا بالطريقة التي اختارها.

وتوسّلت زينب قائلة:

ـ لقد تركناك وشأنك، إذا كنت كرهت العمل فاهجره، وإذا كان الحنين يراودك على الفنّ فاستجب له، ولٰكن لا تهجرنا إكرامًا لأبنائك. . .

وخزه الكلام ولٰكنّه قال إنّه لا فائدة ترجى من ثنيه عن عزمه الذي يسيّره كالقضاء، فقالت:

ـ لقد حدّثني مصطفى طويلًا، وآلمني أنّك صارحته بما تخفيه عنّي، ولٰكنّي انتحلت لك بعض العذر أمام نفسي لغموض الحال التي تعانيها، ولا تؤاخذني على عدم فهمي لما تبحث عنه عن معنى لوجودك أو للحياة، ولٰكنّي لا أجد علاقة بين ذٰلك وبين انقلابك على عملك ومستقبلك وأسرتك، لماذا لا تعود إلى استشارة الطبيب؟

ـ لذٰلك لم أصارحك بكلّ شيء.

ـ ولٰكنّ المرض ليس بعيب. . .

ـ إنّك تظنّين بي الجنون.

فبكت حتّى اضطرب جذعها ولٰكنّه لم يَلِنْ وقال بتصميم:

ـ الحلّ الذي اخترت فيه الخير لنا جميعًا.

فقالت بضراعة:

ـ اذهب إلى أيّ مكان حتّى تستردّ راحتك النفسيّة ثمّ عد إلينا. . .

ـ ربّما حدث ذٰلك ولٰكن من الأفضل أن نوطّن النفس على ذهاب لا رجعة منه. . .

فاسترسلت في البكاء حتّى قال:

ـ إن لم أفعل ذٰلك فإنّني سأجنّ أو أنتحر. . .

ووقفت وهي تقول:

ـ بثينة ليست طفلة ويجب أن تسمع رأيها.

ولٰكنّه هتف بها:

ـ لا تضاعفي عذابي. . .

ومن اليسير أن يخمّن ما سيقال عن مرضه، عن عقله، ولٰكن لا أهمّيّة لذٰلك ألبتّة. ولعلّه حقّ. إنّه يخاطب الجماد والحيوان ويناقش الكائنات المنقرضة. ويرى أحيانًا وهو ينطلق بسيّارته الأرض المتماسكة وهي تتفتّت ثمّ تتحوّل إلى شبكة مترامية من الذرّات حتّى يضطرّ إلى التوقّف وهو يرجف. وأحيانًا وهو يرنو إلى شجرة أو النيل تتحقّق للمنظور شخصيّة حيّة، وتتّخذ هيئته ملامح خفيّة لا يعوزها الشعور أو الإدراك، ويخيّل إليه أنّه يرامقه في حذر، وأنّه يضع وجوده بإزاء وجوده وهو على مستوى الندّ للندّ ومفاخرًا في ذات الوقت بعراقته في الوجود وخلوّه النسبيّ في الزمن. علام يدلّ ذٰلك؟ وعلام يدلّ نبذه للعمل والأسرة والأصدقاء؟ وعليه فيجب أن يكون حذرًا وإلّا وجد نفسه مسوقًا إلى مستشفى الأمراض العقليّة.

وجاء مصطفى وعثمان للاجتماع به. وأدرك أنّهما دُعيا إلى ذٰلك. ولم تنفع ضحكات مصطفى في التخفيف من توتّر الجوّ. ولم يكن يتكلّم لدى استقبالهما. وجيء بالويسكي إلى الشرفة فشرب كأسًا تحيّة للقادمين. وتبادلوا نظرات طويلة وشت بما تخفيه من إشفاق. وظهرت زينب دقيقة واحدة لتحيّة الرجلين وقالت وهي تهمّ بالانصراف:

ـ كنّا أسعد أسرة، ولم يكن مثله في الرجال أحد، ثمّ انهار كلّ شيء. . .

وأزهق تصريحها روح التردّد فلم يبق بدّ من الانقضاض على الموضوع. وتساءل مصطفى:

ـ هل حقّ ما سمعنا؟

ولم يجب مكتفيًا بإشارة من وجهه المصمّم.

ـ إذن فأنت ذاهب! . . .

أجاب بصراحة كنصل مرهف:

ـ أجل.

ـ إلى أين؟

ـ مكان ما. . .

ـ ولٰكن أين؟

ولم يجب. المكان رغم لا نهائيّته سجن. ومصطفى أحمق إذ يستعمل لغة لا معنى لها.

ـ إذن جاء دورنا لتلقي بنا في صندوق الزبالة.

فقال عابسًا:

ـ أمس بكت بثينة ولٰكنّها لم تسمع خيرًا من هٰذا الجواب.

فقال مصطفى في جزع:

ـ أهٰذا آخر عهدنا بك؟

ـ هو آخر عهدي بكلّ شيء.

ـ سوف أبكي بجماع روحي وجسدي.

ـ وأنا كابدت ما هو أشقّ من البكاء.

فتساءل مصطفى بحرارة:

ـ لأيّة غاية؟

فقال بمرارة:

ـ لأنطح الصخر.

فقال عثمان:

ـ لا أفهم.

ولٰكنّ مصطفى واصل حديثه قائلًا:

ـ ليكن ما تشاء ولٰكن فلتبق بيننا. . .

ـ يجب أن أذهب.

فقال عثمان وهو لا يحوّل عنه عينيه:

ـ ألا ترى أن تستشير الطبيب؟

فأجاب بحدّة:

ـ لست في حاجة إلى إنسان. . .

ـ ولٰكنّك بنيان قائم ولا يجوز أن يتهدّم للاشيء.

ـ لست شيئًا في الواقع. . .

ـ لا يستطيع الإنسان أن يفكّر وهو بين الناس؟

ـ لن أفكّر ألبتّة.

ـ ماذا ستفعل إذن؟

فقال بضيق:

ـ لا سبيل للتفاهم فيما بيننا.

ـ لٰكنّني على ثقة من أنّك ستدفع بنفسك إلى الهلاك.

ـ أنت الذي تدفع نفسك إلى الهلاك.

ـ إذا كان لا بدّ من الهلاك فمن الأفضل أن ننضمّ إلى . . .

فقال ملوّحًا في قرف:

ـ لن أنظر إلى الوراء.

ـ إنّك تجري في الحقيقة وراء لا شيء. . .

نشوة الفجر شيء أم لا شيء؟ وهل تكمن حقيقة كلّ شيء في اللاشيء؟ ومتى ينتهي العذاب!

واستطرد عثمان قائلًا:

ـ تصوّر أن يقتدي بك العقلاء في هٰذه الدنيا!

ـ فليبق العقلاء للدنيا.

ـ لٰكنّك واحد منهم.

فمسح على رأسه ثمّ كوّر قبضته ورمى بها إلى الأرض بازدراء قائلًا:

ـ هاك عقلي تحت قدميك.

فتساءل عثمان محزونًا:

ـ ما جدوى هٰذه المناقشة؟

ـ هي عقيمة ولا جدوى منها، وغدًا لن تقع عليّ عين. . .

وقال مصطفى متأوّهًا:

ـ لا أصدّق كلمة واحدة ممّا يقال.

فقال وهو يخفي عينه في الأرض:

ـ من الخير أن تنسياني كأن لم أكن.

فقال مصطفى:

ـ ولٰكنّه فوق الاحتمال.

وتصلّب وجه عثمان في حزن غاضب. وأسدل عمر على وجهه ستارًا أصفر من اللامبالاة. وتحوّل شخصاهما في نظره إلى مجموعتين من الذرّات فامّحت ذواتاهما. ومن صراعه الباطنيّ أدرك أنّ حبّهما ما زال عالقًا بفؤاده كأسرته. ذٰلك الصراع الذي يحمّل أعصابه ما لا تحتمل من ضغط وتمزّق. وتاقت نفسه

إلى لحظة الانتصار المأمولة، لحظة التحرّر الكامل.

- ١٨ -

عندما يظفر قلبك بضالّته سيجد نفسه خارج أسوار الزمان والمكان. ولٰكنّك ما زلت تشقى باللوعة في البيت الصغير ككوخ تنبسط من حولك الأرض المعشوشبة، وتحيط بها على مدى السور أشجار السرو الرفيعة المقام. متى اليوم الذي يغيب عنك السرو وما يحدق به؟ يوم تسكت أشجان الليل المستقطرة من هسيس النبات وزفرات الصراصير ونقيق الضفادع. يوم لا ترهقك ذكرى ماضية ويستأثر بي اللاشيء. وتتلاشى أصداء الترانيم الهنديّة والتأوّهات الفارسيّة فتستقبل شعاع النشوة الورديّ بلا وسيط. نشوة الفجر العصماء العصيّة لتشدّك بقوّة المجهول إلى قبّة السماء. هنالك لن يعرف قلبك النوم ولا حواسّك الصحو.

وقفت بثينة رشيقة كشجرة السرو وأجالت عينيها الخضراوين بين الحديقة والحقول المترامية وراء الأسوار والترعة الجارية بين صفّين من أشجار السنط وسألته في عتاب:

ـ أمن أجل هٰذا؟!

ضعفت أمام طلعتها فمسحت برفق على موجات شعرها وغمغمت:

ـ بل من أجل اللاشيء.

ـ ألا تخاف الوحشة في الخلاء؟

فهمست في أذنها:

ـ أرهقتني الوحشة في الزحام..

وتباعدت خطوة وهي تقول:

ـ أمس عثمان قال..

فقاطعها برفق:

ـ ألم تفطني يا بنيّتي بعد إلى أنّني أصمّ؟!

فغادرت الحديقة من الباب الخشبيّ القصير المغروس في سور اللبلاب والنرجس واختفت عن الأنظار. وتنهّدت في إعياء وفتحت عينيّ في الظّلام. ماذا يعني الحلم إلّا أنّني لم أبرأ بعد من نداء الحياة؟ وكيف أُفكّر فيك طيلة يَقظتي ثمّ تعبث بمنامي الأهواء؟

***

وعانقك مصطفى بحرارة ومرح ثمّ نظر في عينيك نظرة حادّة وحزينة. ورأيت مكان صلعته شعرًا أسود غزيرًا مسترسلًا إلى الوراء فلم تملك أن تشير إليه قائلًا:

ـ مبارك عليك شعرك ولٰكن ماذا فعلت؟

فقال بجدّيّة غير معهودة فيه:

ـ تلوت سورة الرحمٰن عند السحر.

فسألته بدهشة:

ـ ومتى عرفت الطريق إلى الرحمٰن؟

ـ منذ اعتزلت أنت العالم في هٰذا المكان.

ـ ولِمَ جئت؟

ـ لأقول لك إنّ زينب تعمل بقوّة عشرة من الرجال.

ـ لها الله.

وألقى على البيت والحديقة والحقول نظرة ثمّ قال:

ـ ما أجدر هٰذا البيت بأن يكون مهد غرام أو مثوى فنّان.

فجفلت قائلًا:

ـ ها أنت تعود إلى الهزل.

فتأوّه قائلًا:

ـ لم يبق لنا إلّا الهزل نحن بنو العصر الحجريّ، ولٰكنّك بدل أن تهزل جننت بحبّ اليأس...

فتراجعت وأنا أقول:

ـ ألم تدرك أنّني ميت الحواسّ؟

فهزّ منكبيه استهانة وتسلّق شجرة سرو حتّى بدا أعلى من البدر الصاعد فوق الأفق، وراح يحرّك يده بجرس ذي رنين شديد حتّى زحفت من الحشرات أنواع شتّى ومضت ترقص حول الشجرة في ضوء القمر. والتمعت تحت ضوء القمر.

وتنهّدت في إعياء وفتحت عينيّ في الظلام. ماذا يعني الحلم إلّا أنّني لم أبرأ بعد من نداء الحياة؟ وكيف أفكّر فيك طيلة يقظتي ثمّ تعبث بمنامي الأهواء؟!

* * *

وأمس جلت بأنحاء الحديقة مردّدًا شعر المجنون.

وعندما بلغت السور الشماليّ الذي تُرى وراءه التّرعة هزّني صوت حلقيّ وهو يصيح:

ـ أين الباب يا رجل؟

عثمان يعتلي درّاجة بخاريّة مزركشة العجلة والمقود بالأعلام الصغيرة على طريقة أهل البلد في الأعياد.

وقلت له دون مجاملة:

ـ لا تدخل.

فهتف:

ـ ألم تدرِ بالمعجزة؟... لقد عبرت سطح الترعة بالدرّاجة.

ـ لا أومن بالمعجزات!

فضحك عاليًا وهو يقول:

ـ لكنّنا في عصر المعجزات...

تراجعت خطوة وأنا أسأله:

ـ ماذا تريد؟

فقال بجدّيّة وجلال:

ـ جئتك موفدًا من الأسرة.

ـ لا أسرة لي.

ـ ألم تدرِ بالمعجزة، لقد ظهر لأسرتك فروع جديدة في القارّات الخمس أفلا تودّ أن ترجع إلى ذٰلك المزيج العجيب من البلاتين والفحم؟!

فقلت متحدّيًا:

ـ ألم تدرِ بأنّ أسرتنا الحقيقيّة هي اللاشيء؟!

فقال مهدّدًا:

ـ سأطاردك بفرقة كاملة من الكلاب المدرّبة...

وقعقع أزيز الدرّاجة وارتفع نباح الكلاب فتنهّدت في إعياء وفتحت عينيّ في الظلام. ماذا يعني هٰذا الحلم إلّا أنّني لم أبرأ بعد؟ وكيف أفكّر فيك طيلة يقظتي ثمّ تعبث...

***

وسهرت الليل كلّه في الحديقة. ولم يكن معي في الظلام شيء، والنجوم تومض في القبّة. وساءلتها عن أشواقي. وساءلتها متى يتحقّق الحلم المنشود. وصرخت حتّى اضطربت لصراخي خلايا السرو. وعاتبت كلّ شيء ولا شيء. ورنوت إلى نجم متألّق بين النجوم.

ـ أريد أن أرى.

فهمس:

ـ انظر.

فنظرت فرأيت فراغًا لا شيء فيه. ولٰكن ليس هٰذا ما أتوق لرؤية وجهه فهمس:

ـ انظر.

فانحسرت هالة من الظلام عن رجل عارٍ وحشيّ الملامح مسدل الشعر حتّى المنكبين، يقبض بيمناه على عصا من الحجر الصلد ويتحفّز للقتال. ووثب نحوه وحش لم تره عينيّ من قبل كأنّه تمساح ولٰكنّه يقوم على أربع أرجل طوال وله وجه ثور. ودارت بينهما معركة دامية انتهت بسقوط الوحش وتراجع الرجل مترنّحًا والدماء النازفة تخضّب وجهه وصدره وتسيل فوق ذراعيه، ولٰكنّه رغم آلامه ابتسم.

ولٰكن ليس هٰذا ما أتوق لرؤية وجهه. فهمس:

ـ انظر.

فانجابت الظلمة عن فسحة من المكان تكتنفها غابة وينهض في خلفيّتها جبل. وانحدر من الجبل قوم عرايا مدجّجون بالأحجار فتصدّى لهم آخرون من الغابة لا يقلّون عنهم وحشيّة أو رغبة في القتال. ودارت معركة عنيفة وعلا الصراخ وسالت الدماء. حتّى الوحوش الكاسرة ولّت لائذة بأعالي الشجر والقنوات وقمّة الجبل. وانهزم أهل الغابة فسقط منهم مَن سقط، وأسر مَن أسر وهلّل أهل الجبل.

ولٰكن ليس هٰذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم، فهمس:

انظر.

فرأيت جموعًا تعكف على الأرض تحرثها وتزرعها، وقوافل تسير محمّلة بالبضائع، وطائفة تمتطي الخيل مدجّجة بالسلاح متأهّبة للقتال.

ولٰكن ليس هٰذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم، فهمس:

ـ انظر.

فرأيت جبهة عالية يرتسم التفكير في أخاديدها وصاحبها منكبّ على أوراق فوق صفحاتها أرقامٌ لا نهاية لها.

ولٰكن ليس هٰذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم، فهمس:

ـ انظر.

ولم أر شيئًا أوّل الأمر. ولكنّي شعرت بوثبة تبشّر بالنصر وشاع في صدري شعور غامر بالسعادة. وتذكّرت الإحساس الباهر الذي سبق الرؤيا ساعة الفجر بالصحراء. ولم أشكّ في أنّ النشوة آتية بموسيقاها وأنّ العريس سيبزغ وجهه. وانجابت الظلمة عن منظر آخذ في الوضوح رويدًا والتوكّد، وخفق قلبي كما لم يخفق من قبل. وتمخّض عن باقة، هيئة باقة ورد، غير أنّ وجوهًا آدميّة حلّت محلّ ورودها. وما لبثت أن تبيّنت فيها وجوه زينب وبثينة وسمير وجميلة وعثمان ومصطفى ووردة. ذهلت من الدهشة وحملقت فيها بإنكار. وباخ حماسي مرّة واحدة وتجرّعت غصص الخيبة. ليس هٰذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم. أين وجهه... أين وجهه؟ ولٰكنّ المنظر تشبّث بكينونته. وازداد مع الوقت دقّة ووضوحًا. وتبادلت أشخاصه الألاعيب. تبدّت زينب برأس وردة ووردة برأس زينب. ولبس عثمان صلعة مصطفى ونظر مصطفى إليّ بعيني عثمان. وإذا بسمير يثب إلى الأرض متّخذًا من رأس عثمان رأسًا له ثمّ يحبو نحوي. وفزعت فعدوت والكائن المركّب من سمير وعثمان يتبعني. وكلّما زدت من سرعتي زاد هو من سرعته وإصراره. وقفزت من فوق السور الأخضر فوثب الآخر من فوقه كجرادة. وركضت بحذاء الترعة والآخر في أثري كثور عنيد. وعدوت، وعدوت حتّى سرى الإنهاك في عضلاتي وانبهرت أنفاسي وخارت قواي ودار رأسي فهويت إلى الأرض. انطرحت على وجهي فوق عشب نديّ وقدما الآخر تقتربان منّي في إصرار وكأنّهما تزدادان قوّة. عبث الشيطان بالحلم. وبدلًا من النشوة حلّت اللعنة واستحالت الجنّة ملعبًا للمهرّجين. وتخلّيت عن فكرة المقاومة واستسلمت للأرض المعشوشبة. ورفعت رأسي قليلًا لأنظر فيما حولي. سمعت صفصافة تترنّم ببيت من الشعر. واقتربت منّي بقرة قائلة إنّها سوف تتوقّف عن درّ اللبن لتتعلّم الكيمياء. وزحفت حيّة رقطاء ثمّ بصقت أنيابها السامّة وراحت ترقص في مرح. وانتصب الثعلب حارسًا بين الدجاج. واجتمعت جوقة من الخنافس وغنّت أغنية ملائكيّة. أمّا العقرب فتصدّت لي في لباس ممرّضة.

وتنهّدت في إعياء وفتحت عينيّ في الظلام. ماذا يعني هٰذا الحلم إلّا أنّني... وكيف أفكّر فيك طيلة يقظتي ثمّ...

ـ ١٩ ـ

استلقيت على ظهري فوق الحشائش رانيًا إلى الأشجار الراقصة بملاطفات النسيم في الظلام. أنتظر وإن طال الانتظار، وإذا بأقدام تقترب وصوت يهمس:

ـ مساء الخير يا عمر.

وانتصب شبح إلى جانبي. ما أكثر الأحلام ولٰكنّني لا أرى شيئًا. وقال:

ـ كدت أيأس من العثور عليك، كيف ترقد هٰكذا، ألا تخاف الرطوبة؟

وجلس إلى جانبي فوق الحشائش ومدّ يده ولٰكنّي تجاهلته فقال:

ـ أنسيت صوتي؟... ألم تعرفني بعد؟

قلت متأوّهًا:

ـ متى يكفّ الشيطان عنّي!

ـ ماذا قلت يا عمر؟ بالله حدّثني فأنا في غاية من الضيق.

ـ من أنت؟

ـ يا عجبًا!... أنا عثمان خليل...

ـ وماذا تريد؟

ـ أنا عثمان! لقد وقع المحذور وأنا مطارَد...

تحسّست جسمه بيديّ وقلت:

ـ ليس هٰذا بجسم سمير فماذا تعني هٰذه المرّة؟

ـ سمير!... إنّك تخيفني...

ـ ولٰكنّي لن أخاف ولن أعدو كالمجنون...

فلمس ذراعي وقال:

ـ بالله حدّثني كصديق، لا تدفع بي إلى اليأس منك...

ـ وماذا يهمّ؟

ـ أصغِ إليّ يا عمر، إنّي في موقف خطير، إنّهم يبحثون عنّي في كلّ مكان وإذا ألقوا القبض عليّ هلكت. . . .

ـ إذن فأنت الهارب هٰذه المرّة. . .

ـ سأختبئ عندك حتّى أتمكّن من الهرب.

فتساءلت في حزن:

ـ كيف جاء بك الشيطان؟

فأجاب بلهفة:

ـ كنّا نعرف مكانك من أوّل يوم، وليس ذٰلك بالمطلب العسير على صحفيّ مدرّب كمصطفى، وكثيرًا ما حام مصطفى حول مسكنك وأوصى بك الفلّاحين الذين يجيئونك بالطعام، ولٰكنّنا لم نرد أن نزعجك. . .

فهتفت متأوّهًا:

ـ هم الذين حالوا بيني وبين وجهه.

ـ بل لم نزعجك مرّة واحدة طوال عام ونصف عام. . .

ـ لن أبالي حتّى إذا وضعت رأسك مكان رأس سمير!

فقال بحسرة:

ـ ماذا أصابك؟. . . لا. . . لا لن أصدّق أنّك لم تعرفني بعد. . .

ـ صدّق أو لا تصدّق. . .

ـ أصغِ إليّ يا عمر، سأصارحك بحقيقة مذهلة، لقد تزوّجت من بثينة!

ـ فليعبث الشيطان ما شاء له العبث.

فقال وهو يدني وجهه من وجهي:

ـ رغم فارق السنّ تزوّجنا، هو الحبّ كما تعلم، وفي بطنها الآن ينبض جنين هو ابني وحفيدك!

ـ كما كنت ابني وعدوّي!

ـ ألم توقظك الأخبار العجيبة؟

ـ كما لفظت الحيّة أنيابها السامّة ورقصت. . .

ـ يا للخسارة!

ـ هٰذا ما أردّده دائمًا وما من مجيب. . .

فربّت على صدري برفق وقال:

ـ عُدْ إلى وعيك، إنّهم في أشدّ الحاجة إليك، لقد هربت في اللحظة المناسبة ولٰكنّهم يجدّون في البحث عنّي، ولقد فتّشوا مكتبك وأخشى أن يسيئوا بك الظنّ، عُدْ لتعلن براءتك وترعى أسرتك، بثينة تنتظر وليدًا، ولن تراني أبدًا. . .

ـ وأنا لم أره. . .

ـ ألا تريد أن تفهم؟

ـ أموت كلّ يوم عشرات المرّات كي أفهم ولٰكنّني لا أفهم.

ـ ألم تفهم أنّني زوج ابنتك وأنّه مقضيّ عليّ بالاختفاء أو الموت؟

ـ اجرِ حتّى تسقط إعياء وسوف ترى الخنافس وهي تغنّي. . .

ـ يا للفظاعة!

ـ يا للفظاعة!

فهزّني بشيء من الشدّة وقال بغضب:

ـ اصْحُ، لا وقت للهذيان، يجب أن أفهمك كلّ شيء قبل أن أذهب.

ـ اذهب، لا تكدّر صفو أحلامي.

ـ يا للتعاسة، ماذا فعلت بنفسك؟

ـ سوف ييأس الشيطان منّي.

ـ اصْحُ، أسرتك في خطر، إذا اتّجه الشكّ إليك فسيتعرّضون للبهدلة، أنا لا أخاف على نفسي فقد نذرتها للهلاك، ولٰكن يجب أن تعود إليهم. . .

ـ عد إلى الجحيم فهو مقرّك.

وهزّه مرّة أخرى بحنق قائلًا:

ـ يجب أن أهرب ويجب أن تعود.

ـ ابق كما شئت لترى بعينيك انتصاري.

فهزّ رأسه في أسف وقال:

ـ يا لك من أحمق، بدّدت مجدك في البحث عن شيء غير موجود.

ـ متى تصدّق أنت أنّك غير موجود؟!

نهض الرجل قائمًا وهو يقول:

ـ أشهد أنّني يئست منك رغم أنّ اليأس ليس في قاموسي.

ـ ها قد يئس الشيطان. . .

ابتعد الشبح في الظلام وهو يقول بحزن:

ـ الوداع يا أخا الجهاد القديم.

عاد السكون إلى الليل. ولٰكنّ ذٰلك لم يطل.

سرعان ما عاد الرجل مهرولًا وهو يقول:

ـ جاءوا، كيف اهتدوا إليّ بهٰذه السرعة؟

وجرى في الحديقة نحو السور الغربيّ، وسرعان ما رجع وهو يقول في هياج:

ـ إنّني محاصَر...

وجرى نحو المبنى الصغير. ورنوت إلى النجوم في سلام نسبيّ. ولٰكنّ صوتًا مزعجًا ترامى صياحه وهو يقول:

ـ سَلِّمْ نفسك، عثمان خليل... سلّم نفسك، أنت محاصر من جميع الجهات. -

لم أسمع جوابًا واتّجهت عيناي نحو مصدر الصوت الغارق في بهيم الليل وغمغمت:

ـ الشيطان يتمادى في عبثه ولٰكنّي لست محاصرًا، بل أنا حرّ...

وترامت الأصوات من جميع النواحي المحدقة بالسور، واقتربت رويدًا، وصاح صوت أشدّ إزعاجًا من الأوّل:

ـ المقاومة لا جدوى لها ولا معنى لها...

ولم يردّ المختبئ، وغمغمت:

ـ كلّ شيء له معنى.

وإذا بأضواء كشّافة تجتاح البيت من جميع الجهات فتجعله شعلة من نور، وضاق الخناق على المكان كلّه، وصاح الصوت:

ـ سلِّم يا عثمان، اخرج رافعًا ذراعيك...

وتأوّهت متمتمًا:

ـ متى تسكت عنّي أصوات الشياطين!

وصاح الصوت الرهيب:

ـ ألا ترى أنّ أيّ مقاومة عبث؟!

فهمست:

ـ لا شيء في الوجود عبث...

واندفعت أقدام مصحوبة بصياح في الناحية الخلفيّة للبيت الصغير. وخرج شبح إلى الشرفة الأرضيّة المتّصلة بالحديقة وزعق:

ـ انتهى... انتهى... قُبض عليه... وانتهى كلّ شيء.

وهمست:

ـ ليس لشيء نهاية.

واندفع عديد من الأشباح في الحديقة راكضين نحو البيت. وعثر أحد الراكضين بساقي فسقط على وجهه، وصاح:

ـ حذار، يوجد آخرون...

وانطلق عيار ناريّ. وندّت عنّي تأوّهة عميقة. وشعرت بألم حادّ كأنّه ألم حقيقيّ لا عبث شيطان بحلم.

وتنهّدت في إعياء وفتحت عينيّ. ماذا يعني هٰذا الحلم إلّا أنّني لم أبرأ بعد. وكيف أفكّر فيك طيلة يقظتي ثمّ تعبث بمنامي الأهواء ولٰكن مهلًا. أين أنا؟ أين النجوم؟ أين أعشاب الحديقة وأشجار السرو؟ هٰذه سيّارة تنطلق. وأنا راقد على مقعد طويل جانبيّ يجلس على طرفه رجل. وعلى المقعد المواجه لي في الجانب الآخر من السيّارة يجلس عثمان صامتًا بين رَجُلين. لا شكّ أنّي ما زلت أحلم. وثمّة ألم في منكبي يدفعني إلى التأوّه. وقال صوت:

ـ من المؤكّد أنّ الرصاصة اخترقت الترقوة ولٰكنّه جرح سطحيّ لا خطر منه.

ترى ماذا يعني هٰذا الحلم؟ وأين يذهب بي؟ ومتى يسكن الألم الحادّ بمنكبي؟ ومتى أنتصر على الشيطان وعبثه؟ ومتى تختفي من أحلامي الدنيا ومن فيها؟ وتأوّهت رغمًا عنّي فقال صوت:

ـ اصبر قليلًا.

فقلت بتحدّ:

ـ زولوا لأرى النجوم.

ـ أنت بخير.

فقلت بعناد:

ـ إنّي بخير ما انتصرت عليكم.

ـ اهدأ، سيراك الطبيب فورًا.

ـ لا حاجة بي إلى إنسان.

ـ لا تجهد نفسك بالكلام.

فقلت بإصرار:

ـ لقد تكلّمت الصفصافة ورقصت الحيّة وغنّت

الخنافس.

ومضى يردّد ذلك بصوت خافت. وأغمض عينيه ولكنّ الألم لم يسكن. وتساءل متى يرى وجهه؟ ألم يهجر الدنيا من أجله؟

* * *

خامره شعور بأنّ قلبه ينبض في الواقع لا في الحلم، وبأنّه راجع في الحقيقة إلى الدنيا.

ووجد نفسه يحاول تذكّر بيت من الشعر. متى قرأه، وأيّ شاعر غنّاه؟

وتردّد الشّعر في وعيه بوضوح عجيب:

ـ إن تكن تريدني حقًّا فلم هجرتني!؟

ثرثرة فوق النيل

- ١ -

أبريل، شهر الغبار والأكاذيب، الحجرة الطويلة العالية السقف مخزن كئيب لدخان السجائر. الملفّات تنعم براحة الموت فوق الأرفف، ويا لها من تسلية أن تلاحظ الموظّف من جدّيّة مظهره وهو يؤدّي عملًا تافهًا. التسجيل في السراكي، الحفظ في الملفّات، الصادر والوارد. النمل والصراصير والعنكبوت ورائحة الغبار المتسلّلة من النوافذ المغلقة. وسأله رئيس القلم:

- هل أتممت البيان المطلوب؟

فأجاب بلسان مُتَراخٍ:

- نعم، ورفعته للمدير العامّ.

فرماه بنظرة نافذة لاحت كإشعاع بلّوريّ من وراء نظّارته السميكة. هل ضبطه متلبّسًا بابتسامة بلهاء غير مبرّرة؟! ولٰكنّ هٰذه السخافات يجب أن تساغ في أبريل، شهر الغبار والأكاذيب.

ودبّت حركة عجيبة في رئيس القلم فشملت أعضاءه الظاهرة فوق المكتب. حركة تموّجيّة بطيئة ولٰكنّها ذات أثر حاسم. راح ينتفخ رويدًا فيمتدّ الانتفاخ من الصدر إلى الرقبة فإلى الوجه ثمّ الرأس. حملق أنيس زكي في رئيسه بعينين جامدتين. وإذا بالانتفاخ البادئ أصلًا بالصدر يتضخّم فيزدرد الرقبة والرأس، ماحيًا جميع القسمات والملامح، مكوّنًا من الرجل في النهاية كرة ضخمة من اللحم، ويبدو أنّ وزنه خفّ بطريقة مذهلة فمضت الكرة تصعد ببطء أوّل الأمر ثمّ بسرعة متدرّجة حتّى طارت كمنطاد والتصقت بالسقف وهي تتأرجح. وسأله رئيس القلم:

- لماذا تنظر إلى السقف يا أنيس أفندي؟

آه. ها هو يضبطه متلبّسًا مرّة أخرى. ورمقته الأعين بإشفاق واستهزاء. واهتزّت الرءوس في رثاء احتفاء بملاحظة الرئيس وتأييدًا لها. وإذن فلتشهد النجوم على ذٰلك. حتّى الهاموش والضفادع تعامله معاملة أكرم وألطف. أمّا الحيّة الرقطاء فقد أدّت خدمة لا تتكرّر لملكة مصر القديمة. أنتم وحدكم أيّها الزملاء لا خير فيكم، والعزاء عندما نلتمس العزاء في قول ذٰلك الصديق الذي قال: «فلتُقِم أنت في العوّامة، لن تتكلّف مليّمًا واحدًا من إيجارها، وعليك أن تُعدّ لنا كلّ شيء».

وبتصميم مفاجئ راح يسرد مجموعة من الخطابات. السيّد المحترم. إشارة إلى كتابكم رقم ١٩١١ المؤرّخ في ٢ من فبراير ١٩٦٤ وملحقه رقم ٢٠٠٨ المؤرّخ في ٢٨ من مارس ١٩٦٤ أتشرّف بالإفادة. ومع رائحة الغبار المتسلّلة ترامت من راديو الطريق أغنيّة «يا أمّه القمر ع الباب» فتوقّفت يده عن الكتابة وغمغم: «الله». فقال زميله الأيمن:

- يا بختك بفراغ البال.

يا أولاد الأقدميّة المطلقة! في انتظار حلم لن يتحقّق تحترفون البهلوانيّة. وأنا بينكم معجزة تخترق الفضاء الخارجيّ بغير صاروخ.

ودخل الساعي فَسَرَتْ في بدنه رعدة رغبة فقال له:

- واحد سادة.

فأجاب الساعي وهو يقف أمام مكتبه:

- ستجده على مكتبك عندما ترجع من مقابلة سعادة المدير العامّ.

غادر الحجرة بقامته الطويلة الضخمة بحكم ضخامة عظامه لا بسبب أيّ درجة من الامتلاء.

في حجرة المدير وقف أمام مكتبه خاشعًا، وظلّ رأس المدير الأصلع مكبًّا على أوراق يراجعها عارضًا لعينيه ظهر قارب مقلوب، وطارد بالبقيّة الباقية له من إرادته أيّ خاطر يمكن أن يعبث به فيوقعه في مأزق وخيم العواقب. ورفع الرجل وجهًا مدبّبًا مغضونًا ثمّ رمقه بنظرة شوكيّة. أيّ خطأ يمكن أن يتسرّب إلى

البيان الذي نقله بعناية خارقة؟!

ـ طلبت منك بيانًا مفصّلًا عن حركة الوارد في الشهر الماضي.

ـ نعم يا سعادة البك وقد قدّمته لسعادتك.

ـ أهو هٰذا؟

نظر إلى البيان فقرأ على الغلاف بخطّ يده «مذكّرة عن حركة الوارد خلال شهر مارس مرفوعة إلى السيّد مدير عامّ المحفوظات».

ـ هو يا أفندم.

ـ انظر واقرأ...

رأى أسطرًا مكتوبة بوضوح يليها فراغ أبيض، قلّب الأوراق في ذهول، ثمّ حملق في وجه المدير العامّ كالأبله.

قال الرجل بحنق:

ـ اقرأ.

ـ سيّدي المدير... لقد كتبتها حرفًا حرفًا...

ـ خبّرني كيف اختفت؟

ـ الحقّ أنّه لغز غير قابل للتفسير...

ـ ولٰكنّ أمامك آثار سنّ القلم!

ـ سنّ القلم؟

ـ أعطني قلمك الساحر!

وتناول القلم بحركة حادّة وراح يرسم خطوطًا على غلاف البيان ولٰكنّه لم يرسم خطًّا واحدًا.

ـ ليس به نقطة حبر واحدة!

تجلّى الوجوم في صفحة وجهه العريض فقال المدير بمرارة:

ـ بدأت بكتابة هٰذه الأسطر، ثمّ فرغ الحبر، ولٰكنّك استمررت في الكتابة...

لم ينبس بكلمة.

ـ لم تنتبه إلى أنّ القلم لا يكتب...

حرّك يده حركة حائرة.

ـ خبّرني يا سيّد أنيس كيف أمكن أن يحدث ذٰلك؟ أجل كيف. كيف دبّت الحياة لأوّل مرّة في طحالب فجوات الصخور بأعماق المحيط!

ـ لست أعمى فيما أظنّ يا سيّد أنيس؟

أحنى رأسه مستسلمًا.

ـ سأجيب أنا عنك. إنّك لم تر الصفحة لأنّك مسطول؟

ـ يا سعادة...

ـ هٰذه هي الحقيقة، حقيقة معروفة للجميع حتّى السعاة والفرّاشين، وأنا لست واعظًا، ولا وليّ أمرك، افعل بنفسك ما تشاء، ولٰكن من حقّي أن أطالبك بأن تمتنع وقت العمل عن البلبعة...

ـ يا سعادة...

ـ دعنا من السعادة والتعاسة، حقّق لي هٰذا الرجاء المتواضع وهو ألّا تبلبع في أثناء العمل...

ـ يشهد الله أنّي مريض!

ـ إنّك المريض الأبديّ...

ـ لا تصدّق ما...

ـ كفاية، انظر في عينيك...

ـ هو المرض ولا شيء سواه...

ـ ما رأيت في عينيك إلّا الاحمرار والظلام والثقل...

ـ لا تستمع إلى كلام...

ـ عيناك تنظران إلى الداخل لا إلى الخارج كبقيّة خلق الله...

ثمّ ندّت عن يديه المغطّاتين بشعيرات بيضاء شعثاء حركة وعيد، وقال بنبرة حادّة:

ـ للصبر حدود، فلا تستسلم للتدهور بلا حدود، وأنت رجل في الأربعين، وهي سنّ العقل فكفّ عن العبث...

تراجع خطوتين استعدادًا للذهاب فقال الرجل:

ـ سأخصم من مرتّبك يومين فقط ولٰكن احذر أن تعود.

وسمعه وهو يمضي نحو الباب يقول بازدراء:

ـ متى تفرّق بين الحكومة والغرزة!

وبرجوعه إلى الإدارة ارتفعت الرءوس نحوه مستطلعة. تجاهلهم وجلس ينظر إلى فنجان القهوة. وشعر بزميله وهو يميل نحوه ليسأل سؤالًا في الغالب فتمتم في ضجر:

ـ كن في حالك...

وأخرج من الدرج محبرة وراح يملأ القلم. عليه أن

يعيد البيان من جديد. حركة الوارد. لا حركة ألبتّة في الحقيقة. حركة دائريّة حول محور جامد، حركة دائريّة تتسلّى بالعبث. حركة دائريّة ثمرتها الحتميّة الدوار. في غيبوبة الدوار تختفي جميع الأشياء الثمينة، من بين هذه الأشياء الطبّ والعلم والقانون، والأهل المنسيّون في القرية الطيّبة. والزوجة والابنة الصغيرة تحت غشاء الأرض. وكلمات مشتعلة بالحماس دفنت تحت ركام من الثلج. ولم يبق في الطريق رجل. وأغلقت الأبواب والنوافذ. وثار الغبار لوقع سنابك الخيل. وصاح المماليك صيحات الفرح في رحلة الرماية، كلّما عثروا على آدميّ في مرجوش أو الجماليّة أقاموا منه هدفًا لتدريبهم. وتضيع الضحايا وسط هتاف الفرح المجنون، وتصرخ الثكلى: «الرحمة يا ملوك» فينقضّ عليها الصائد في يوم اللهو، بردت القهوة وتغيّر مذاقها وما زال المملوك يضحك ملء شدقيه. وحلّ الصداع مكان الخيال وما زال المملوك يضحك. وهم يطلقون اللحى ويثيرون الغبار. ويفرحون بالأبّهة والتعذيب.

ودبّ نشاط مرح في الحجرة القائمة مؤذنًا بوقت الانصراف.

- ٢ -

استوت العوّامة فوق مياه النيل الرصاصيّة مألوفة الهيئة كوجه. بين فراغ إلى اليمين احتلّته عوّامة دهرًا قبل أن يجرفها التيّار ذات يوم، ومصلّى إلى اليسار مُقام على لسان عريض من الشاطئ مطوّق بسور من الطين الجافّ ومفروش بحصيرة بالية، دخل أنيس زكي من باب خشبيّ أبيض يمتدّ إلى جانبيه سياج من شجيرات البنفسج والياسمين، فاستقبله عمّ عبده الخفير قائمًا، يعلو بقامته العملاقة هامة كوخه الطينيّ المسقوف بالأخشاب وسعف النخيل. ومضى إلى الصقالة فوق ممشى مبلّط تكتنفه من الناحيتين أرض معشوشبة، يتوسّط يمناها حوض من الجرجير، وتقوم في أقصى اليسرى خميلة من اللبلاب ترامت كخلفيّة لشجرة جوافة فارغة. وانهلّت أشعّة الشمس ملحّة حامية من خلال سقيفة من أغصان الكافور منطرحة فوق الحديقة الصغيرة من أشجارها المغروسة في الطريق.

خلع ملابسه، وجلس بجلبابه الأبيض فوق عتبة الشرفة المطلّة على النيل يستقبل نسمة لطيفة، مستسلمًا للمساتها الحانية، جاريًا ببصره فوق الماء المنبسط كأنّه مستقرّ ساكن لا يتموّج ولا يتلألأ، ولكنّه موصل جيّد لأصوات السكّان في عوّامات الشاطئ الآخر في صفّها الطويل تحت أغصان الجازورينا والأكاسيا. وتنهّد بصوت مسموع فسأله عمّ عبده وهو يعدّ المائدة الصغيرة الملتصقة بالجدار الأيمن على مبعدة مترين من الفريجيدير النورج:

- خيرًا؟

فتمتم ملتفتًا نحوه:

- صادف الكيف جوًّا فاسدًا مقرفًا.

- ولكنّك تعود آخر الأمر إلى جوّك الطيّب.

دائمًا ينتزع إعجابه. كشيء ضخم قديم عريق في القدم. وبحيويّة النظرة المنبثقة من دائرة التجاعيد الصلبة. وربّما أرهبه عمق الحفائر. أو هالة الشعر الأبيض الكثّ البارز من جيب جلبابه كأزهار البلح. أمّا جلبابه الدمور المنسدل كغطاء تمثال فينسدل على اللحم بلا عائق. وما اللحم إلّا جلد على عظم. ولكن أيّ عظم؟! هيكل عملاق يناطح رأسه سقف العوّامة. ويشعّ كونه جاذبيّة لا تقاوَم. رمز حقيقيّ للمقاومة حيال الموت. لذلك يحبّ كثيرًا محادثته رغم أنّ المعاشرة بينهما لم تجاوز الشهر.

وقام إلى السفرة واتّخذ مجلسه، وراح يأكل قطعة من الكوستيليتة ممسكًا بطرف الريشة وهو ينظر إلى الجدار الخشبيّ المطليّ بغراء سماويّ، ويتابع برصًا صغيرًا زحف مسرعًا فوق الجدار ثمّ انزوى وراء مفتاح الكهرباء، وذكّره البرص برئيس القلم ولكن لماذا؟ وألحّ عليه سؤال مباغت ترى هل يوجد للمعزّ لدين الله الفاطميّ ورثة يمكن أن يطالبوا ذات يوم بملكيّة القاهرة؟

- كم عمرك يا عمّ عبده؟

كان يقف وراء البارفان الحاجب للباب الخارجيّ مطلًّا عليه من عل كأنّه شجرة سرو سارحة في السحاب، وابتسم كأنّما لم يأخذ السؤال مأخذ الجدّ:

ـ عمري!

فأكّد سؤاله بهزّة من رأسه وهو يتمطّق فعاد العجوز يقول:

ـ من أدراني...

لست خبيرًا في تقدير الأعمار، ولٰكنّ الراجح أنّه كان يسعى فوق الأرض قبل أن تغرس أوّل شجرة في شارع النيل. ولم يزل قويًّا بالقياس إلى سنّه لدرجة تفوق الخيال.

يتفقّد الفناطيس، ويجذب العوّامة بحبالها تبعًا للأحوال فتطيعه، ويسقي الزرع، ويؤمّ المصلّين، ويحسن طهي الطعام.

ـ هل تعيش وحدك دائمًا في الكوخ؟

ـ إنّه بالكاد يسعني وحدي...

ـ من أيّ بلد جئت يا عمّ عبده؟

ـ أووه!

ـ أليس لك من أقارب في القاهرة؟

ـ لا أحد.

ـ نحن شبيهان في ذٰلك على الأقلّ، أمّا طعامك فلذيذ...

ـ تُشكر!

ـ إنّك تأكل أكثر ممّا يجوز لشخص في سنّك.

ـ آكل ما أستطيع أن أهضمه...

ونظر إلى العظام المتخلّفة من الكوستليتة وقال إنّ المدير العامّ لن يبقى منه ذات يوم إلّا عظام كهٰذه العظام، وكم يودّ أن يشهد محاسبته يوم الحساب، وراح يقشر موزة مواصلًا تحقيقه:

ـ متى خدمت في العوّامة؟

ـ مذ جيء بها إلى مرساها.

ـ متى كان ذٰلك؟

ـ أووه...

ـ وصاحبها الأوّل هو صاحبها اليوم؟

ـ تتابع عليها كثيرون.

ـ وعملك هل يعجبك؟

أجاب بزهو:

ـ أنا العوّامة: لأنّي أنا الحبال والفناطيس، وإذا سهوت عمّا يجب لحظة غرقت وجرفها التيّار...

فضحك لاعتزازه الساذج الجذّاب بنفسه، ورنا إليه مليًّا، ثمّ سأل:

ـ ما أهمّ شيء في الدنيا؟

ـ الصحّة والعافية.

شيء غامض ساحر في الإجابة أضحكه طويلًا، وعاد يسأل:

ـ متى عشقت امرأة آخر مرّة؟

ـ أووه...

ـ وبعد العشق ألم تجد شيئًا يسرّك؟

ـ قرّة عيني في الصلاة.

ـ جميل صوتك وأنت تؤذّن...

ثمّ بنبرة مرحة:

ـ ولست دون ذٰلك جمالًا حين تذهب لتجيء بالكيف أو تغيب لتعود بفتاة من فتيات الليل.

فقهقه مائلًا برأسه المغطّى بطاقيّة بيضاء إلى الوراء ولٰكنّه لم يجب.

ـ أليس كذٰلك؟

فأجاب وهو يمسح بيده الكبيرة على وجهه:

ـ أنا خادم السادة.

كلّا. وهو العوّامة كما قال. الحبال والفناطيس والزرع والطعام والمرأة والأذان.

وقام متأبّطًا المنشفة فدخل من باب جانبيّ في ذات الجدار إلى الحوض ليغسل يديه، وعاد وهو يقول لنفسه إنّ الإفراط وحده كان السبب في أنّ أكثر الخلفاء لم يعمّروا طويلًا.

ورأى عمّ عبده منهمكًا في تنظيف المائدة منحني الظهر كنخلة مقوّسة فسأله مداعبًا:

ـ ألم تر عفريتًا في حياتك؟

ـ رأيت كلّ شيء.

فغمز بعينه متسائلًا:

ـ ألم تسكن أسرة شريفة هٰذه العوّامة أبدًا؟

ـ أووه...

ـ يا خفير اللذّات! لو لم تحبّ هٰذه الحياة لهجرتها من أوّل يوم...

ـ لٰكنّي بنيت المصلّى بيدي!

ونظر إلى الكتب المصفوفة فوق الأرفف التي تشغل

الجدار الطويل إلى يسار الداخل.

مكتبة التاريخ منذ العصر الخالي حتّى عصر الذرّة. مجال خياله وكنز أحلامه. وتناول كيفما اتّفق كتاب ك.ك... عن الرهبنة في العصر القبطيّ ليطالع فيه ساعة أو ساعتين قبل القيلولة كعادته كلّ يوم. وفرغ عمّ عبده من عمله فاقترب منه مستطلعًا آخر تعليماته قبل أن يذهب. عند ذاك سأله:

ـ ماذا يجري في الخارج يا عمّ عبده؟

ـ كالعادة يا سيّدي.

ـ ألا جديد هناك؟

ـ لِمَ لا تخرج يا سيّدي؟

ـ كلّ يوم أذهب إلى الوزارة.

ـ أعني أن تخرج للفرجة...

فضحك قائلًا:

ـ عيناي تنظران إلى الداخل لا إلى الخارج كبقيّة عباد الله!

وصرفه وهو يوصيه بأن يوقظه قبيل المغرب إذا غلبه النوم.

ـ ٣ ـ

أعدّ المجلس كأحسن ما يكون. صفّت الشلت على صورة هلال كبير فيما يلي الشرفة. وفي نقطة الوسط من الهلال استوت صينيّة نحاسيّة كبيرة، جمعت الجوزة ولوازمها. وهبط المغيب فوق الأشجار والماء فانتشر في الجوّ حلم هادئ. وآبت أسراب الحمام البيضاء تطير ذراعًا فوق النيل. تربّع أنيس وراء الصينيّة رانيًا إلى المغيب بعينين ناعستين على هيئتها بوجه عامّ ولكن عندما يسري سحر الفصّ المذاب في القهوة السادة فسوف تتغيّر أشياء. ستحلّ الأشكال المجرّدة والتكعيبيّة والسرياليّة والوحشيّة مكان الجازورينا والكافور والأكاسيا وعرائس العوّامات أمّا الإنسان فيرتدّ إلى العصر الطحلبيّ، ولكن ما هي الأسباب التي حوّلت طائفة من المصريّين إلى رهبان؟

بل ما هي آخر نكتة سمعتها عن راهب وإسكاف؟

وسرت هزّة خفيفة في العوّامة بفعل قدم تسير فوق الصقالة فتأهّب لاستقبال القادم. أقبلت فتاة معتدلة القامة ذات شعر ذهبيّ. مضت إلى الشرفة وهي تحيّيه بمرح فتمتم:

ـ أهلًا بوزارة الخارجيّة.

ليلى زيدان صديقة الأعوام العشرة الماضية، عانس في الخامسة والثلاثين كما ينبغي لرائدة في فضاء الحرّيّة مرقت من بؤرة محافظة. وأنت لم تمسّها ولكن مسّها الكبر. هذه التجاعيد الخفيفة كالزغب حول طرف العين والفم، ومسحة من الجفاف القاسي المقفر لإناء لم يترع بماء. ولم تزل بها ملاحة تُشتهى في البشرة الصافية رغم غلظ في أرنبة الأنف ونذير غامض يزحف مهدّدًا بالخراب، وكانت في عصر خوفو ترعى الغنم في شبه جزيرة سيناء ولكنّها لم تترك أثرًا إذ لدغها ثعبان أعمى فقضى عليها.

قالت دون أن تلتفت إليه كأنّما تخاطب النيل:

ـ يوم شاقّ في الوزارة، ترجمت عشرين صفحة فولسكاب...

ـ وكيف حال السياسة الخارجيّة؟

ـ ماذا تتوقّع؟

ـ أنا لا أطلب إلّا الستر...

غادرت موقفها إلى أقصى شلتة في الجناح الأيمن للمجلس ثمّ جلست وهي تقول:

ـ المنظر كما هو كلّ يوم، عمّ عبده جالس في الحديقة كتمثال، وأنت هنا تعدّ الجوزة!

ـ ذلك أنّ على الإنسان أن يعمل.

وأذعن لإحساس مترنّح فتمثّل له المساء بشرًا عابثًا قد عمّر الملايين من السنين. وراح يعرّض بامرأة عابدة للحبّ، كلّما هجرها حبّ ارتمت بين أحضان آخر. وقال إنّ ذاك سلوك يمكن أن تفسّر به أوجه القمر المتتابعة من المحاق إلى البدر.

فابتسمت ابتسامة باردة وقالت بسخرية مقلّدة نبرته السابقة:

ـ ذلك أنّ على المرأة أن تحبّ!

وغمغمت «وغد» فقرأ في وجهها نذيرًا خفيفًا بالغضب ولكنّه لم يعثر بأثر للكراهية فآمن بأنّها لا تقاس في لهوها بامرأة مثل فيكتوريا ملكة العصر المحافظ المشحون بالتقاليد.

وسألها دون جدّيّة ما:

ـ لم لا تتّخذين منّي رفيقًا؟

ولّما ألحّ عليها بعينيه أجابت:

ـ إنّك إذا استعملت الحبّ يومًا كمبتدإ في جملة مفيدة فستنسى حتمًا الخبر إلى الأبد!

وتذكّر كم كان متفوّقًا في اللغة العربيّة مثل المدير الذي يشهد له بذلك قراره بخصم يومين من مرتّبه لا لشيء إلّا لأنّه كتب صفحة بيضاء. وكما قالت له ذات يوم «أنت بلا قلب». فقد ذهب الأصدقاء ولم يبق في العوّامة منهم إلّا خالد عزّوز وليلى زيدان. ودون أيّ تمهيد قبض على ساعدها وقال: «أنت الليلة لي أنا». لماذا خالد دائمًا؟ وخالد نفسه ورثك بعد هجر رجب لك. وإذن فالليلة لي أنا. وارتفع صوته غاضبًا مع أذان الفجر. إذن عمّ عبده في الخارج وصرخت أنت كالمجنون في الداخل. وبسط خالد راحتيه ضارعًا وهو يقول «فضحتنا».

وضحكت ليلى أوّل الأمر ثمّ بكت أخيرًا، وطرحت مسألة غاية في الفلسفة فقيل إنّها تحبّ خالد وإنّها لذلك لا يمكن أن تذعن لرغبته هو رغم صداقتها وإلّا كانت بغيًّا. وصاح ليلتها أنّ الأذان أيسر على الفهم من تلك الألغاز.

وقالت ليلى ناشدة تصفية الجوّ:

ـ الصداقة أهمّ وهي التي لها البقاء.

ـ ولك طول البقاء!

وكرّس كرسيًّا يدخّنانه معًا في فترة الانتظار فجذبت نفسًا بشراهة ثمّ سعلت طويلًا. وردّد ما يقوله عادة من أنّ الكرسيّ الأوّل هو كرسيّ السعال ثمّ يجيء الفرج بعد ذلك. وقال لنفسه إنّه لم يكن عجيبًا أن يعبد المصريّون فرعون ولكنّ العجيب أنّ فرعون آمن بأنّه إله.

واهتزّت العوّامة بقوّة وترامت أصوات مختلفة من الخارج، فنظر نحو المدخل المحجوب بالبارفان فرأى الأصدقاء يتتابعون في حيويّة، أحمد نصر، ومصطفى راشد، وعليّ السيّد، وخالد عزّوز. . . مساء الخير. . . مساء الجمال. وجلس خالد إلى جانب ليلى أمّا عليّ السيّد فقد ارتمى إلى يمين أنيس هاتفًا:

ـ أدركنا. . . !

فراح أنيس يكرّس ويرصّ ثمّ دارت الجوزة.

وتساءل مصطفى راشد:

ـ هل من أخبار عن رجب؟

فأجاب أنيس وهو يخمّن:

ـ قال بالتليفون إنّه في الإستديو وإنّه سيحضر فور الانتهاء من العمل.

وتألّقت الجمرات في المجمرة بفعل النسائم المتدفّقة من الشرفة. وبلغ نشاط أنيس أقصى مداه، واكتسى وجهه الطويل العريض بغبطة مستقرّة وقال إنّ الذي جعل من تاريخ الإنسانيّة مقبرة فاخرة تزدان بها أرفف المكتبات لا يضنّ عليها بلحظات مضمّخة بالمسرّة.

ونظر خالد عزّوز إلى عليّ السيّد متسائلًا:

ـ هل عند الصحافة من أخبار جديدة؟

فأومأ عليّ بذقنه نحو ليلى زيدان قائلًا:

ـ عند وزارة الخارجيّة. . .

ـ ولكنّني سمعت أنباء مذهلة حقًّا. . .

فقال أنيس ساخرًا:

ـ لا توجعوا رءوسنا، ما أكثر ما نسمع ولكن ها هي الدنيا باقية كما كانت، ولا شيء يحدث على الإطلاق. . .

فقال مصطفى راشد محرّكًا تفّاحة آدم:

ـ وفضلًا عن ذلك فإنّ الدنيا لا تهمّنا كما إنّنا لا نهمّ الدنيا في شيء. . .

فقال أنيس زكي:

ـ ما دامت الجوزة دائرة فماذا يهمّكم؟

فرمقه خالد بإعجاب قائلًا:

ـ خذوا الحكمة من أفواه المساطيل.

ـ اسمعوا ما حصل لي اليوم مع المدير العامّ. . .

وأثارت حكاية قلمه عاصفة من الضحك حتّى علّق عليها عليّ السيّد قائلًا:

ـ بمثل ذلك القلم تُدوَّن معاهدات السلام. . .

واصلت الجوزة دورانها المنغوم المشتعل. وانعقدت هالة من الهاموش حول مصباح النيون. أمّا خارج الشرفة فقد استقرّت الظلمة واختفى النيل إلّا أشكالًا هندسيّة منتظمة وغير منتظمة تعكسها مصابيح الطريق

في الشاطئ الآخر ونوافذ العوّامات المضاءة. وتجلّت صلعة المدير العامّ كظهر قارب مقلوب في قبضة الظلام. ووضح تمامًا أنّه من سلالة الهكسوس فوجب أن يرتدّ إلى الصحراء. وأسوأ ما يمكن أن تتوقّع هو أن تنتهي السهرة كما انتهى شباب ليلى زيدان الأوّل وكالرماد الزاحف على جواهر الجمرات. ومن يا ترى الرجل الذي قال إنّ الثورات يدبّرها الدهاة وينفّذها الشجعان ثمّ يكسبها الجبناء؟

وجاء عمّ عبده فأخذ الجوزة ليغيّر ماءها ثمّ أعادها وذهب دون أن ينبس. وخلع خالد نظّارته الذهبيّة فمسحها وهو ينوّه بإعجابه بالرجل العجوز. وخرج أحمد نصر عن صمته المألوف قائلًا:

ـ إنّه من نسل الديناصور!

فقال مصطفى راشد:

ـ لنحمد الله على أنّه في أرذل العمر وإلّا ما ترك لنا امرأة لنهنأ بها. . .

وأعاد أنيس على أسماعهم الحديث الذي دار بينه وبين الرجل ظهر اليوم فقال عليّ السيّد:

ـ إنّ العالَم في حاجة إلى رجل في عملاقيّته لتستقرّ سياسته. . .

وحلّ صمت مؤقّت فارتفعت قرقرة الجوزة، وترامى من الخارج نقيق ضفدع وصراخ صرّار الليل. ومن خلال الدخان المنتشر استكنّت يد ليلى في يد خالد. أصدقاء العمر، والعزاء. وأنف أحمد نصر الطويل الأقنى لا يضاهيه في شكله سوى أنف عليّ السيّد وإن نهض الأخير في وجه أعرض وأميل للبياض. وتكلّم الظلام خارج الشرفة فقال لا تكترث لشيء. انحدر صوته مع شعاع نجم كابيّ الاحمرار قطع المسافة إلى غرزتنا في مائة مليون سنة ضوئيّة. وقال أيضًا لا تجعل من الحياة عبثًا. أجل حتّى المدير العامّ نفسه سيختفي ذات يوم كما اختفى الحبر من قلمك. ولم يعد للقلب من همّ يحمله مذ دفن في التراب أعزّ ما كان يملكه. وإذا أردت حقًّا ارتكاب حماقة للفتّ الأنظار إليك فتجرّد من ثيابك وتبختر في ميدان الأوبرا. وهناك ستجد إبراهيم باشا فوق جواده وهو يشير إلى فندق الكونتننتال كأطراف دعاية للسياحة في بلادنا.

ـ هل حقًّا سنموت يومًا ما؟

ـ انتظر حتّى تذاع نشرة الأخبار.

ـ أنيس بك يتفلسف. . .

ـ والحقّ أنّه جاء بسؤال لم يسأله أحد من قبل!

تساءلت ليلى زيدان:

ـ ما آخر نكتة؟

فأجاب مصطفى راشد:

ـ لم يعد هناك من نكات مذ أصبحت حياتنا نكتة سمجة.

ورنا إلى الظلمة خارج الشرفة فرأى حوتًا هائلًا يقترب في هدوء من العوّامة. إنّه ليس بأغرب ما رأى في النيل عند جثوم الليل. لكنّه فغر فاه هذه المرّة كأنّما يعتزم التهام العوّامة. وتواصل الحديث بين المساطيل بلا مبالاة فقرّر أن ينتظر ما يحدث بلا مبالاة. وإذا بالحوت يتوقّف عن التقدّم. وإذا به يغمز بعينه وهو يقول «أنا الحوت الذي نجّى يونس». ثمّ تراجع واختفى. وعند ذاك ضحك أنيس. وسألته ليلى زيدان عمّا يضحكه فأجاب:

ـ خيالات غريبة.

ـ وما لنا نحن لا نرى شيئًا؟

فأجاب وهو لا يكفّ عن العمل:

ـ ذلك أنّ الأمر كما قال الشيخ الكبير «إنّ المتلفّت لا يصل».

وانهالت التعليقات بلا ضابط:

ـ لا شيخ لنا يا دجّال.

ـ ولا يوجد متر مربّع من الأرض بمنجاة من الزلزال.

ـ وهو لا يخلو كذلك من الرقص والغناء. . .

ـ إذا أردت أن تضحك من القلب حقًّا فانظر إلى الأرض من فوق.

ـ يا بخت الذين مستقرّهم فوق.

ـ ولكن بصدور اللائحة الماليّة الجديدة سيهدأ كلّ بال.

ـ هل تطبّق اللائحة على الحيوان أيضًا؟

ـ رُوْعي فيها أن تطبّق على الحيوان أوّلًا. . .

ـ وها هو القمر ينتظر المهاجرين.

ـ وأخشى ما أخشاه أن يضيق الله بنا.

ـ كما ضاق كلّ شيء بكلّ شيء.

ـ وكما يضيق رجب بعشيقاته...

ـ وكما يضيق الضيق بالضيق.

ـ والحلّ، ألا يوجد حلّ؟

ـ بلى، علينا أن نتماسك حتّى نغيّر وجه الأرض.

ـ أو نبقى فيما نحن فيه وهو خير وأبقى.

واهتزّت العوّامة بقدم آتية فتوقّعوا ظهور رجب ولٰكن دخلت امرأة مرحة الحيويّة لا يعيب جسمها الممتلئ إلّا أنّ نصفه الأعلى أضخم قليلًا من الأسفل. سنيّة كامل! قلّبت بينهم عينين رماديّتين وتبادلت معهم القبلات. وأجلسها عليّ السيّد إلى جانبه وهو يقول:

ـ لم نرك من رمضان الماضي!

وقبّل يدها مرّتين ثمّ تساءل:

ـ زيارة عابرة؟

فقالت بنبرة تنطق الراء غينًا:

ـ زيارة دائمة.

ـ هٰذا يعني أنّ زوجك قد هجرك!

فقالت وهي تتناول الجوزة:

ـ أو أنّني هجرته...

ونشّت سحابة شرهة وهي تقول إشباعًا لحبّ الاستطلاع الذي اكتنفها:

ـ ضبطته يغازل جارة جديدة!

ـ يا خبر أحمر...

ـ ولعلع صوتي حتّى سمعه سابع جار!

ـ برافو...

ـ وتركت البيت والأولاد وذهبت إلى أختي في المعادي.

ـ أمر مؤسف ولٰكنّه ضروريّ لتجديد الحياة الزوجيّة.

ـ وأوّل ما خطر لي بعد ذٰلك أن أزور عوّامتي.

ـ عين الصواب، والعين بالعين...

وأومأ مصطفى راشد إلى عليّ السيّد وهو يقول لها:

ـ جاء دور الزوج الاحتياطيّ...

وتساءل أنيس غاضبًا:

ـ لماذا لا يكون دوري أنا هٰذه المرّة؟

فقال عليّ السيّد ملاطفًا:

ـ ولٰكنّي احتياطيّ سنيّة كامل منذ قديم...

ـ وأنا...

ـ أنت سيّدنا وتاج رأسنا ووليّ نعمتنا، ولو كنت تهتمّ بالحبّ لكان لك منه ما تشاء وأكثر...

ـ أنت كاذب...

فأشار إلى الجوزة قائلًا:

ـ بل لا وقت عندك للحبّ...

ـ أوغادا... سأقصّ عليكم ما حصل لي مع المدير العامّ...

ـ لكنّك قصصته بتفاصيله، أنسيت يا وليّ النعم؟!

ـ أوغاد، هٰذا يعني أنّ الحياة ستمضي قبل أن نستوعب ما يمرّ بنا...

ودارت الجوزة مختصّة سنيّة كامل برعاية أكبر بصفتها لم تنسطل من رمضان الماضي. وقال أنيس لنفسه إنّها سمراء وعصبيّة وتحبّ الضحك. ولا تنسى أولادها حتّى في غيبوبة الحبّ والسطل. وتعود في النهاية إلى زوجها. لكنّها تعاشره عامًا وتهجره عامًا. وتقسم دائمًا أنّ الحقّ عليه. وجاء بها رجب أوّل مرّة. كما جاء يومًا بليلى زيدان. ذٰلك أنّه إلٰه الجنس وممّون عوّامتنا بالنساء. عرفت له جدًّا قديمًا كان يسعى في الغابات قبل أن يقام بناء واحد على ظهر الأرض. كان يدفن في أحضان النساء مخاوفه من الحيوان والظلام والمجهول والموت. كان له رادار في عينيه وراديو في أذنيه وقنبلة مجسّمة في قبضة يده. وحقّق انتصارات عجيبة قبل أن يتهاوى هالكًا، وأمّا حفيده رجب...

واهتزّت العوّامة وترامى صوت رجب القاضي وهو يقول مخاطبًا شخصًا معه «على مهلك يا عزيزتي...».

حلّ في نظراتهم الاهتمام فتمتم خالد:

ـ لعلّها ممثّلة جاء بها من الإستديو.

وظهر من وراء البارڤان بقوامه المشوق وسمرته الداكنة وقسماته الرشيقة تتقدّمه فتاة دون العشرين عمرًا، سمراء، تنتظم وجهها المستدير قسمات صغيرة دقيقة تنطق بالخفّة. ولا شكّ أنّه قرأ في وجوه أصدقائه دهشة لحداثة سنّها فقال باسمًا بنبرته الموسيقيّة:

ـ آنسة سناء الرشيدي، طالبة بكلّيّة الآداب...

- ٤ -

تركّزت الأعين على القادمة الجديدة ولكنّها لم ترتبك وأجابت بنظرة باسمة جريئة.

وطوّق رجب خاصرتها بذراعه وسار بها إلى مجلسه ثمّ أجلسها إلى جانبه وهو يقول:

ـ أدركني يا وليّ النعم!

فتساءل أحمد:

ـ أمام الآنسة!

فقال مستنكرًا:

ـ لا يجوز الكذب أمام معجبة صادقة!

وجذب نفسًا طويلًا عميقًا قويًّا حتّى توهّجت دقاق الجمرات فوق الكرسي نافثة لسانًا راقصًا من اللهب. أغمض عينيه تلذّذًا ثمّ فتحهما وهو يقول لسناء:

ـ دعيني أقدّم لك الأصدقاء الذين سيصيرون منذ الليلة أسرتك.

وانتبه إلى وجود سنيّة كامل لأوّل مرّة فصافحها بحرارة، وخمّن أسباب مجيئها فوافقت بضحكة، ثمّ راح يقدّمها قائلًا:

ـ من بنات المير دي دييه، زوجة وأمّ، امرأة ممتازة حقًّا، وفي أوقات الكدر العائليّ تعود إلى أصدقائها القدماء، سيّدة مجرّبة عرفت الأنوثة عذراء وزوجًا وأمًّا فهي تُعدّ كنزًا من الخبرة للفتيات الصغيرات في عوّامتنا...

وندّت أصوات ضحك، وابتسمت سناء، أمّا سنيّة فرمته بنظرة احتجاج لم تبلغ درجة الغضب، وتحوّل إلى ليلى زيدان قائلًا:

ـ آنسة ليلى زيدان، خرّيجة الجامعة الأمريكيّة، مترجمة بالخارجيّة، جمال وثقافة إلى مركز باهر في تاريخ المرأة الرائدة في بلادنا، وعلى فكرة فإنّ شعرها ذهبيّ حقيقة لا زيف فيه ولا صباغة...

وتحوّل إلى أنيس زكي المنهمك في عمله قائلًا:

ـ أنيس زكي، موظّف بوزارة الصحّة، وليّ أمر عوّامتنا، وزير شئون الكيف، رجل مثقّف كحضرتك وهذه مكتبته، وقد طاف بكلّيّات الطبّ والعلوم والحقوق فمضى بعلومها دون شهاداتها كأيّ رجل لا تهمّه المظاهر، من أسرة ريفيّة محترمة، ولكنّه يعيش منذ دهر وحيدًا في القاهرة، كأنّه إنسان عالميّ، ولا تسيئي الظنّ بسكوته إذا لم يحادثك كثيرًا فهو يهيم في الملكوت!

والتفت إلى أحمد نصر قائلًا:

ـ أحمد نصر، مدير حسابات الشئون، موظّف خطير، ومرجع في عديد من الخبرات كالبيع والشراء وكثير من الشئون العمليّة المفيدة، وله ابنة في مثل سنّك، ولكنّه زوج شاذّ يستحقّ الدراسة، تصوّري أنّه زوج منذ عشرين عامًا، لم يخن زوجه مرّة واحدة، ولم يملّ عشرتها، ويزداد تعلّقًا بحياته الزوجيّة، لذلك أقترح أن يكون موضع دراسة في المؤتمر الطبّيّ القادم...

وأشار إلى مصطفى راشد مستطردًا:

ـ الأستاذ مصطفى راشد المحامي المعروف، محامٍ ناجح وفيلسوف أيضًا، متزوّج من مفتّشة بوزارة التربية، وهو يتطلّع بصدق إلى المطلق وسوف ينجح في إدراكه ذات ليلة، ولكن خذي حذرك منه فهو يقول إنّه ما زال يفتقد حتّى اليوم أنموذجه المفضّل من النساء...

وربّت على ظهر عليّ السيّد قائلًا:

ـ الأستاذ عليّ السيّد، الناقد الفنّيّ المعروف، طبعًا قرأت له كثيرًا، وأحبّ أن أخبرك بأنّه يحلم كثيرًا بمدينة فاضلة خياليّة، أمّا عن واقعه فهو متزوّج من اثنتين، وصديق سنيّة كامل، والبقيّة تأتي...

وأخيرًا أومأ إلى خالد عزّوز وهو يقول:

ـ الأستاذ خالد عزّوز، في الصفّ الأوّل من كتّاب القصّة القصيرة عندنا، يملك عمارة وفيلّا وسيّارة وأسهمًا في مذهب الفنّ للفنّ، فضلًا عن ولد وبنت، وله فلسفة خاصّة لا أدري كيف أسمّيها ولكنّ الإباحيّة من سماتها الظاهرة...

وابتسم إليها كاشفًا عن أسنان بيضاء نضيدة ثمّ تمتم:

ـ لم يبق من عوّامتنا إلّا عمّ عبده الذي مررنا بشبحه في الحديقة ونحن في طريقنا إلى هنا، وسوف تعرفينه بطبيعة الحال، وما من أحد في شارع النيل إلّا

ويعرفه. . .

ونادى أنيس عمّ عبده وأمره بتغيير ماء الجوزة فمضى بها من الباب الجانبيّ ثمّ أعادها بعد قليل وذهب واتّسعت عينا سناء عجبًا لضخامته فقال رجب:

- من حسن الحظّ أنّه مثال الطاعة وإلّا فلو شاء لأغرقنا جميعًا. . .

لا خوف من الغرق ما دام الحوت في الماء. ويد الفتاة القاصر صغيرة كيد نابليون ولْكنّ أظافرها حمراء مدبّبة كمقدّم قارب سباق، وبوجودها تكمل مجموعة قانون العقوبات المستحقّة على عوّامتنا.

وها هو الظلام قد بدأ يتكلّم.

تساءل مصطفى راشد محرّكًا تفّاحة آدم:

- وما تخصّص الآنسة في الآداب؟

فأجابت بنبرة كغزل البنات:

- التاريخ.

فتأوّه أنيس:

- الله!

فصاح به رجب:

- ليس تاريخها بتاريخك الدامي ولْكنّها معنيّة بالأشياء الحلوة.

- ليس في التاريخ أشياء حلوة.

- كغرام أنطونيو وكليوباطرة.

- كان غرامًا داميًا. . .

- على أيّ حال لم يقتصر كلّه على السيف والحيّة.

وبدت سناء قلقة. ونظرت نحو البارفان متسائلة:

- ألا تخافون البوليس؟

فتسائل مصطفى راشد باسمًا:

- بوليس الآداب؟

فقالت بعد أن سكت الضحك:

- والمباحث أيضًا؟

فقال عليّ السيّد:

- لأنّنا نخاف البوليس والجيش والإنجليز والأمريكان والظاهر والباطن فقد انتهى بنا الأمر إلى ألّا نخاف شيئًا. . .

- ولْكنّ الباب مفتوح!

- في الخارج عمّ عبده وهو كفيل بردّ أيّ اعتداء.

وقال لها رجب باسمًا:

- لا تقلقي يا نور العين فالدولة منهمكة في البناء ولديها ما يشغلها عن إزعاجنا. . .

وقدّم لها مصطفى راشد الجوزة قائلًا:

- جرّبي هٰذا النوع من الشجاعة.

ولْكنّها اعتذرت برقّة فقال رجب:

- خطوة خطوة، لقد بدأ الإنسان بأظافره وانتهى بالصاروخ، لفّوا لها سيجارة.

وفي دقيقتين قدّمت لها سيجارة فتناولتها بشيء من الحذر ولْكنّها رشقتها بين شفتيها. ورمقها أحمد نصر بإشفاق فقال أنيس لنفسه إنّه يخاف في الحقيقة على ابنته، ولو عاشت ابنتي لكانت قرينة لسناء.

ولْكن ما قيمة أن تبقى أو أن تذهب. أو أن تعمّر كسلحفاة. ولّما كان الزمن التاريخيّ لا شيئًا بالقياس إلى الزمن الكونيّ فسناء معاصرة في الواقع لحوّاء. ويومًا ستحمل لنا مياه النيل شيئًا جديدًا يستحسن ألّا نسمّيه فقال له صوت الظلام «أحسنت». ولا أستبعد أن أسمع ذات ليلة نفس الصوت وهو يأمرني بعمل خارق يذهل له من لا يؤمن بالمعجزات. وقد قال العلم في النجوم كلمته ولْكن ما هي في الحقيقة إلّا أفراد عالم آثروا الوحدة فتباعدوا عن بعضهم آلاف السنين الضوئيّة. فيا أيّ شيء افعل شيئًا فقد طحننا اللاشيء.

وسألها أحمد نصر بحنان:

- وهل تجدين وقتًا للمذاكرة؟

فأجاب رجب:

- طبعًا، ولْكنّها مولعة بالفنّ أيضًا.

فحذّرته بسبّابتها قائلة:

- لا تجعل منّي موضوعًا للسمر.

- ويل لمن تحدّثه نفسه بشيء من ذٰلك.

فتساءل أحمد نصر:

- تريدين أن تكوني ممثّلة؟

فابتسمت دون معارضة فاستطرد:

- ولْكن. . .

فقاطعه رجب:

ـ اسكت يا رجعيّ، إنّ أشنع تهمة في عصرنا هي الرجعيّة.

وأمسك بأصبعيه ذقنها فأمال وجهها إليه ثمّ قال وهو يتفحّصها باهتمام:

ـ دعيني أدرس وجهك، جميل، تضمر نضارته قوّة خفيّة، بلحة مسكرة ذات نواة صلبة، ونظرة فتاة قاصرة ولٰكنّها عند التقطيب تشعّ دهاء امرأة، أيّ دور يصلح لك؟ لعلّه دور الفتاة في سيناريو لغز البحيرة!

سألته باهتمام:

ـ ما دورها على وجه التحديد؟

ـ فتاة بدويّة تحبّ صيّادًا ماكرًا ممّن يتّخذون من الحبّ لهوًا، يستهين بها أوّل الأمر ولٰكنّها تؤدّبه وتمشّيه على العجين....

ـ هل أصلح له حقًّا؟

ـ إنّما أنطق عن غريزة فنّيّة يؤمن بها المنتجون والموزّعون معًا، لحظة من فضلك، زمّي شفتيك، أريني كيف تقبّلين، احذري الخجل. الخجل عدوّ فنّ التمثيل، أمام الجميع، قبلة حقيقيّة بكلّ معنى الكلمة، قبلة يجب أن يتحسّن بعدها الموقف الدوليّ...

وطوّقها بذراعيه القويّتين الطويلتين، وتلاقت شفتاهما بقوّة وحرارة في صمت سكتت فيه الأشياء حتّى القرقرة، ثمّ صاح مصطفى راشد:

ـ هٰذه لمحة من المطلق الذي أرهق نفسي في البحث عنه.

وقال خالد عزّوز بحماس متدفّق:

ـ أيّها السادة، أهنّئكم، يجب أن نهنّئ أنفسنا جميعًا، يجب أن نحيّي هٰذه اللحظة الحضاريّة الرائعة، والساعة يمكن أن نقول إنّ الفاشيّة قد اندحرت تمامًا، وإنّ بديهيّات أقليدس قد تلاشت، فتقبّلي يا سناء ـ بلا ألقاب من الآن فصاعدًا ـ إعجابي...

فقالت ليلى زيدان باسمة:

ـ دع لأحد غيرك الكلام إكرامًا لي...

فقال متأسّفًا:

ـ الغيرة ليست غريزة كما يقول الجاهلون، ولٰكنّها تراث إقطاعيّ!

لست بغيًّا. اللعنة. يا رائحة النيل المضخّمة بعبير رحلة طينيّة مرهقة. وثمّة شجرة معمّرة في البرازيل استوت على سطح الأرض قبل أن يوجد الهرم، هل أنا وحدي بين هٰؤلاء المساطيل الذي يضاحك هٰذه الموجة المستهترة؟ هل أنا وحدي الذي أسمعها وهي تهمس لي أن دقّ الباب أربعين دقّة يتحقّق لك ما لا يمكن أن يتحقّق؟ فمتى ألعب بالمجموعة الشمسيّة لعب الهواة بالكرة؟ وذات يوم دفعت إلى معركة دامية وأنا أخلّص بين متخاصمين.

ومرق خارج الشرفة خفّاش كالرصاصة. وراح يتأمّل نقوش الصينيّة النحاسيّة المرسومة على هيئة دوائر متداخلة تفصل بينها مساحات محفورة بالترتر قد غشّاها الرماد ونفايات المعسّل. وغفا غفوة قصيرة حيث يجلس ولمّا فتح عينيه وجد مصطفى راشد وأحمد نصر قد ذهبا. وأغلقت الحجرة المطلّة على الحديقة على ليلى وخالد، والحجرة الوسطى على سنيّة وعليّ السيّد، أمّا رجب وسناء فقد وقفا في الشرفة يتناجيان. لم تبق خالية إلّا حجرته وأغلب الظنّ أنّها ستغلق بابها في وجهه هٰذه الليلة. وتناجى العروسان:

ـ كلّا...

ـ كلّا؟! جواب لا يليق بعصرنا!

ـ المفروض أنّني أذاكر عند صديقة...

ـ فليكن الدرس عند صديق!

ومدّ ساقه فصدم الجوزة فألقاها على جانبها فسال لعابها الأسود وتدفّق نحو عتبة الشرفة.

لا أهمّيّة لشيء. حتّى الراحة لا معنى لها. ولم يبدع الإنسان ما هو أصدق من المهزلة.

وإذا بقامة عمّ عبده تحجب ضوء المصباح الغارق في الهاموش.

ـ آن الأوان؟

ـ نعم.

ومضى يجمع الأدوات ويكنس النفايات بهمّة عالية، ثمّ نظر إليه متسائلًا:

ـ متى تذهب إلى حجرتك؟

ـ فيها عروس جديدة!

ـ أووه.

ـ ألا يعجبك الحال؟

فضحك قائلًا:

ـ فتيات شارع النيل ألطف وأرخص. . .

فقهقه أنيس طويلًا حتّى جرى صوته مدوّيًا فوق سطح النيل وقال:

ـ يا جاهل، وهل هٰؤلاء كأولٰئك؟

ـ عندهنّ أعضاء أكثر؟

ـ كلّا، ولٰكنّهنّ سيّدات محترمات. . .

ـ أووه.

ـ لا يبعن أنفسهنّ ولٰكنّهنّ يمنحن ويأخذن كالرجال سواء بسواء.

ـ أووه.

ـ أووه.

ـ وهل لذٰلك ستنام في الشرفة حتّى يغسلك الندى؟

فحيّاه مبتعدًا وهو يقول:

ـ أنا ذاهب لصلاة الفجر.

ونظر إلى النجوم وراح يحصي منها ما يستطيع عدّه. وأرهقه العدّ حتّى جاءته نسمة عطرة من حديقة القصر. وهارون الرشيد جالس على أريكة تحت شجرة مشمش والجواري يلعبن بين يديه. وأنت تصبّ له الخمر من إبريق من الذهب. ورقّ أمير المؤمنين حتّى صار أصفى من الهواء وقال لك:

ـ هات ما عندك. . .

ولم يكن عندك شيء فقلت قد هلكت. ولٰكنّ الجارية ضربت أوتار العود وغنّت:

وأذكر أيّام الحمى ثمّ أنثني
على كبدي من خشية أن تصدّعا
وليست عشيّات الحمى برواجع
عليك ولٰكن خلّ عينيك تدمعا

فطرب الرشيد حتّى ضرب بيديه ورجليه، فقلت: ها هي فرصة لتهرب. وانسحبت بخفّة ولٰكنّ الحارس العملاق لمحك فاتّجه نحوك فجريت فجرى وراءك شاهرًا سيفه فصرخت مستغيثًا بآل رسول الله فأقسم ليرمينّ بك في سجن بينهم.

ـ ٥ ـ

ابتسم للغروب بجسد منتعش بعد دشّ بارد. وانتشر في الجوّ النعاس والهدوء الشامل، وأسراب الحمام ترسم فوق النيل أفقًا أبيض. لو في الإمكان أن يدعو المدير العامّ إلى العوّامة لضمن لنفسه هدوءًا كالغروب ولاستلّ من قبضته البرنزيّة أشواكها المؤذية.

وحسا آخر حسوة من الفنجان السادة الممزوج بالسحر ولعق بلسانه الرواسب.

وجاء الأصدقاء تباعًا كما جاء رجب وسناء. طيلة أسبوع وهما متلازمان. وآنست سناء أخيرًا إلى الجوزة حتّى همس أحمد نصر في أذن رجب «البنت صغيرة!» ولٰكنّه أجابه همسًا أيضًا وهو مرتكز بكوعه على ركبة أنيس «لست أوّل فنّان في حياتها!». وجعلت ليلى زيدان تردّد «الويل لمن تحترم الحبّ في عصر لا يكنّ للحبّ احترامًا!». ولم يجد أحمد نصر من يفضي إليه بأفكاره المحافظة إلّا أنيس المسالم فمال على أذنه قائلًا:

ـ جميل أن تدعى ساقطة الأمس بفيلسوفة اليوم!

فأجابه أنيس:

ـ هذا ما آل إليه حال الفلسفة بصفة عامّة.

وفرقع عليّ السيّد بأصابعه ملفتًا الأنظار إليه ثمّ قال بجدّيّة:

ـ على فكرة يجب أن أبلغكم رسالة قبل أن تنسطلوا. . .

فاتّجهت إليه بعض الأنظار فقال بصوت واضح:

ـ سمارة بهجت ترغب في زيارة العوّامة!

استقرّت عليه الأبصار في اهتمام شامل، حتّى أنيس نفسه وإن لم يكفّ عن العمل.

ـ الصحفيّة؟

ـ زميلتي الجميلة النابهة!

انقضت فترة صمت للاستيعاب والهضم، وتجلّت في الأعين نظرات غامضة حتّى تساءل أحمد نصر:

ـ لٰكن لماذا ترغب في زيارتنا؟

ـ أنا المسئول عن إثارة اهتمامها بكم بأحاديثي العريضة عن العوّامة!

فقال رجب القاضي:

ـ أنت طويل اللسان ولكن أتحبّ صاحبتك العوّامات؟!

ـ ليس الأمر كذلك ولكنّها تعرف أو تسمع عن أكثر من شخص في العوّامة، أنا مثلًا صديق وزميل، خالد عزّوز من قصصه، وأنت من أفلامك...

ـ هل عندها فكرة عمّا يدور هنا؟

ـ تقريبًا، وجوّنا ليس بالغريب عليها بحكم عملها وخبرتها بالحياة.

ـ إذا حكمنا عليها بما تكتب فهي جادّة لدرجة الرعب.

ـ وإنّها لكذلك في الواقع ولكن في كلّ إنسان جانب ينشد العلاقات الإنسانيّة العاديّة.

فتساءل أحمد نصر في شيء من الضيق:

ـ هل لها جولات مماثلة؟

ـ أظنّ ذلك، هي ودود حقًّا وتحبّ الناس...

فقال أحمد نصر أيضًا:

ـ ولكنّها ستصادر حرّيّتنا...

ـ لا... لا... لا، لا تحمل همًّا من هذه الناحية...

ـ هل تشاركنا فيما نحن فيه؟

ـ إلى حدّ ما، أعني في الأمور البريئة...

ـ البريئة!... هذا يعني أنّنا سنكون موضوع تحقيق صحفيّ!

فقال بتوكيد:

ـ إنّها قادمة للتعارف لا لشيء آخر.

لا تهتمّ بالموضوع أكثر من ذلك وإلّا ضاع التدخين هباء. وتذكّر كيف استقبل الفرس أوّل نبأ عن الغزو العربيّ. وابتسم. ورأى على سطح الصينيّة عديدًا من الهاموش الهالك فخطر له أن يسأل:

ـ إلى أيّ نوع من الكائنات ينتمي الهاموش؟

اعترض السؤال أفكارهم في تطفّل مزعج ولكنّ مصطفى راشد أجاب ساخرًا:

ـ من الحيوانات الثدييّة.

واستطرد عليّ السيّد قائلًا:

ـ ما على الرسول إلّا البلاغ، فإذا لم يرق لكم دعوتها...

لكنّ رجب قاطعه قائلًا:

ـ لم نسمع رأي الجنس الآخر...؟

ولم تُبدِ ليلى زيدان اعتراضًا، ولا سنيّة كامل، أمّا سناء فقالت:

ـ لندع الرأي لأنيس وأحمد ومصطفى فهم في حاجة إلى صديقة!

ولكنّ عليّ السيّد اعترض قائلًا:

ـ لا... لا يصحّ التفكير في ذلك، لا تحرجوني وحياة أمّكم...

فتساءلت سناء وهي تزيح بأناملها خصلة ضالّة عن حاجبها:

ـ إذن لماذا تودّ أن تجيء؟

ـ قلت ما فيه الكفاية...

فتساءل أنيس:

ـ إذا كان الهاموش من الحيوانات الثدييّة فما وجه الإصرار على أنّ صاحبتكم ليست من ذلك النوع؟

فقال عليّ السيّد موجّهًا خطابه للجميع دون توقّف عند مقاطعة أنيس:

ـ حرّيّتكم مكفولة في كلّ شيء، في القول والفعل، في التدخين والبذاءة، لا تحقيق ولا دراسة، ولا أيّ نوع من المكر الصحفيّ، ثقوا بذلك كلّ الثقة، ولكن لا يليق أن تعامل معاملة امرأة عابثة! أعني أنّها آنسة فاضلة، كأيّ واحدة منكنّ، لا تقبل أن تعامل كامرأة مستهترة...

فقال أحمد نصر:

ـ الحقّ أنّي لا أفهم شيئًا...

ـ هذا هو المتوقّع منك دائمًا أيّها القرن التاسع عشر، ولكنّ الجميع يفهمونني بلا صعوبة على الإطلاق...

فقال خالد عزّوز:

ـ لعلّها رغم مقالاتها الأسبوعيّة برجوازيّة قحّة.

ـ ليست من البرجوازيّة في شيء ممّا تعنيه...

وقال مصطفى راشد:

ـ قدّم لنا عنها فذلكة مفيدة...

ـ حسن، هي في الخامسة والعشرين، ليسانس لغة إنجليزيّة، وقد حصلت عليه وهي دون العشرين

بقليل، صحفيّة ممتازة أكبر بكثير من سنّها، وذات آمال أدبيّة ترجو أن تتحقّق ذات يوم، ممّن يأخذن الحياة مأخذ الجدّ وإن تكن لطيفة المعشر. ومعروف أنّها رفضت زواجًا برجوازيًّا فاخرًا رغم مرتّبها الصغير.

ـ لماذا؟

ـ الرجل دون الأربعين، مدير مؤسّسة، صاحب عمارة كخالد عزّوز، فضلًا عن أنّه قريب لها من ناحية الأب، ولٰكنّها لم تكن تحبّه فيما أعتقد...

فقال خالد:

ـ إذا صحّ الحكم عليها من قلبها فهي فتاة متطرّفة...

ـ قل إنّها تقدّميّة، ولٰكنّها صادقة مخلصة...

ـ هل اعتقلت مرّة؟

ـ كلّا، إنّها زميلتي منذ عيّنت في مجلّة كلّ شيء.

ـ لعلّها اعتقلت وهي طالبة؟

ـ لا أظنّ، وإلّا كنت عرفته في أثناء أحاديثنا الطويلة، على أيّ حال لا أقطع في ذٰلك برأي...

فتساءلت سناء:

ـ ماذا يضطرّكم إلى استضافة امرأة خطرة لا يمكن أن تعدنا بأيّ تسلية؟

فقالت ليلى زيدان:

ـ يجب أن تأتي، نحن في حاجة إلى دم من نوع جديد.

فقال عليّ السيّد:

ـ اتّفقوا على رأي، إنّها الآن في النادي فإذا شئتم دعوتها بالتليفون...

فسأله أنيس:

ـ هل أخبرتها بأنّ الذي يجمعنا ها هنا هو الحوت؟

لم يجبه، ولٰكنّه اقترح أخذ الأصوات. وضحك أنيس لذكريات محنّطة. واقترح أن يدعى عمّ عبده للإدلاء بصوته. وطوّق رجب سناء بذراعيه على حين نهض عليّ السيّد إلى التليفون.

ـ ٦ ـ

بعد المكالمة التليفونيّة بنصف ساعة غادر عليّ السيّد مجلسه ليستقبل القادمة عند الباب. وما لبثت العوّامة أن اهتزّت هزّتها الانسيابيّة لوقع الأقدام الضاربة فوق الصقالة. وتمنّى أحمد نصر لو كانوا أخفوا الجوزة وأدواتها حتّى تطمئنّ القلوب إلى الزائرة ولٰكنّ رجب القاضي أشار إلى أنيس قائلًا باستهانة:

ـ كرّس ورصّ...

ظهرت من وراء البارفان باسمة الوجه، وتقدّمت ـ يتبعها عليّ السيّد ـ وهي تتلقّى النظرات المركّزة في هدوء وديّ ودون ارتباك. وقف الرجال جميعًا، حتّى أنيس وقف في جلبابه الأبيض المنحسر عن أسفل ساقيه، وقام عليّ السيّد بالتعريف التقليديّ، واقترح أحمد نصر أن يجيء لها بكرسيّ ولٰكنّها رغبت في الجلوس على شلتة فالتصق رجب ـ بحركة لا إراديّة ـ بسناء مفسحًا لها مكانًا إلى جانبه! واستأنف أنيس عمله وهو يسترق إليها النظر. توقّع ممّا سمع أن يرى شيئًا غريبًا. وهي حقًّا ذات شخصيّة ولٰكنّ أنوثتها جذّابة بلا عائق. ورغم ثقل جفنيه رأى سمرتها المتبدّية بلا رتوش. وملامحها واضحة كأناقتها البسيطة ولٰكنّ في نظرتها ذكاء يصدّ عن اكتناه أغوارها. وخيّل إليه أنّه رآها من قبل ولٰكن في أيّ عصر من العصور الغابرة؟ وهل كانت ملكة أو من الرعيّة؟ وعندما استرق إليها النظر مرّة أخرى طالعته بصورة جديدة! حاول أن يستوعبها ولٰكنّ التركيز أرهقه فحوّل عينيه إلى الليل.

وأعقب ضجّة التعارف والمجاملات المعتادة صمت، وغنّت القرقعة مع صرّار الليل. وبلباقة لم تخصّ سمارة الجوزة بأيّة نظرة قد تنمّ عن شيء. ولمّا امتدّت بها يد أنيس إليها تلقّت الغاب بين شفتيها دون أن تدخّن على سبيل التحيّة ثمّ أمرّتها إلى رجب، وتناولها رجب وهو يقول:

ـ كوني على راحتك.

فالتفتت نحوه قائلة:

ـ شاهدتك في فيلمك الأخير «شجرة بلا ثمر» وأشهد أنّك أدّيت دورك بتفوّق رائع...

ولم يكن تواضعه ليخجل من الثناء ولٰكنّه تساءل في حذر:

ـ رأي أم مجاملة؟

ـ بل رأي، وهو رأي الملايين.

ونظر أنيس من خلال الدخان إلى سناء فرآها تروّض خصلة من شعرها المتمرّدة. وابتسم. المدير العامّ نفسه بما له من سلطة تنصّ عليها اللائحة العامّة للشئون الماليّة والإداريّة لا يتجاوز اختصاصه شئون الوارد والصادر. وثمّة آلاف من الشهب تتناثر من الكواكب لتحترق وتتبدّد منهالة على جوّ الأرض دون أن تمرّ بالأرشيف أو تسجّل في دفتر الوارد. أمّا الألم فقد خصّ به القلب وحده.

وإذا بسمارة تقول مخاطبة خالد عزّوز:

ـ أمّا أنت فآخر ما قرأت لك أقصوصة الزمّار.

ثبّت خالد النظّارة على عينيه، فاستطردت:

ـ الزمّار الذي انقلب مزماره إلى حيّة تسعى...

فقال مصطفى راشد:

ـ وقد استحقّ منذ نشرها أن يدعى بحقّ خالد الخنش!

ـ قصّة غريبة ومثيرة.

فقال عليّ السيّد:

ـ صديقنا نجم مدرسة الفنّ للفنّ، ولا تتوقّعي أن ينبثق من عوّامتنا فنّ آخر!

وقال مصطفى راشد:

ـ وعمّا قريب سينبثق منها أدب العبث المعروف باللامعقول...

فقال رجب:

ـ ولكنّ اللامعقول موجود بيننا بوفرة حتّى قبل أن يوجد كفنّ، زميلك عليّ السيّد معروف بأحلامه اللامعقولة، ومصطفى راشد يجري وراء اللامعقول باسم المطلق، ووليّ أمر عوّامتنا حياته كلّها لا معقولة مذ هجر الدنيا من حوالى عشرين عامًا.

فضحكت سمارة متجاوزة وقارها وقالت:

ـ أنا شيخة حقًّا منذ حدّثني قلبي بأنّني واجدة عندكم أشياء عجيبة مثيرة!

فتساءل رجب:

ـ قلبك الذي حدّثك أم وشايات عليّ السيّد؟

ـ لم يقل إلّا خيرًا...

ـ على ذلك فليست عوّامتنا بالوحيدة في نوعها؟

ـ ربّما ولكن ما أكثر الناس وما أقلّ من يصلح للصداقة بينهم.

ـ تصوّرت أنّ الصحفيّ هو آخر من يقول ذلك...؟

ـ الناس يلقوننا عادة بالوجه الذي يلقون به الفوتوغرافيا.

فقال خالد عزّوز:

ـ ها نحن نلقاك بالصدق والفطرة البريئة فمتى تبادلينا نفس المعاملة؟

وهي تضحك:

ـ اعتبرني كذلك، أو فامنحني أقصر مدّة ممكنة.

حمل أنيس المجمرة إلى عتبة الشرفة بعد أن زوّدها بقطع من فحم. تعرّضت هناك لتيّار الهواء وراح ينتظر. واتّسعت المراكز المحترفة في شتّى القطع حتّى استحال سواد الفحم حمرة متوهّجة هشّة عميقة ناعمة. واندلعت عشرات من الألسنة الصغيرة الموسومة بالشفق، فانتشرت، ثمّ تلاقت أجنحتها مكوّنة موجة راقصة نقيّة شفّافة مكلّلة الأطراف بزرقة خياليّة، ثمّ أزّت فتطاير من جوفها سرب من عناقيد الشرر. وصرخت أصوات نسائيّة فأعاد المجمرة إلى مكانها. واعترف فيما بينه وبين نفسه بإعجابه غير المحدود بالنار. إنّها أجمل من الورد والأعشاب والفجر البنفسجيّ، فكيف أمكن أن تطوي بين جوانحها أكبر قوّة مدمّرة؟ يجب إذا أسعفتك الهمّة أن تقصّ عليهم قصّة الإنسان الذي اكتشف النار. ذلك الصديق القديم الذي كان له أنف عليّ السيّد وجاذبيّة رجب القاضي وعملقة عمّ عبده. وأين ذهبت الفكرة الطريفة التي اعتزمت طرحها للمناقشة عندما حملت إلى الشرفة المجمرة؟!

وقال مصطفى راشد:

ـ أنا محامٍ، والمحامي بطبعه سيّئ الظنّ، وأكاد أتخيّل الآن ما يدور في رأسك عنّا...

ـ لا شيء في رأسي ممّا تظنّ...

ـ مقالاتك تزخر بالنقد المرير للسلبيّة، ونحن يمكن أن نُعدّ ـ في نظر البعض ـ السلبيّة نفسها!

ـ لا. . . لا، لا يجوز الحكم على الناس في أوقات فراغهم. . .

فقال رجب ضاحكًا:

ـ إنّها بالأحرى أعمار فراغ!

ـ لا تذكّروني بأنّي غريبة عنكم.

فقال أحمد نصر:

ـ قلّة ذوق أن نجعل من أنفسنا موضوعًا للحديث بينا أنّ المهمّ حقًّا هو أن نعرف عنك ما نجهله.

ـ لست لغزًا.

وقال عليّ السيّد:

ـ ومقالات الكاتب تتكفّل بالكشف عنه. . .

فسأله مصطفى راشد:

ـ هل تفعل ذٰلك مقالاتك النقديّة؟

وضجّ المكان بالضحك. حتّى عليّ السيّد ضحك طويلًا.

وقال وما زالت أساريره ضاحكة:

ـ إنّي أحدكم أيّها المنحلّون العصريّون ومن شابه أصدقاءه فما ظلم. ولٰكنّ هٰذه الفتاة صادقة للأسف!

فقال خالد عزّوز:

ـ كلّ قلم يكتب عن الاشتراكيّة على حين تحلم أكثريّة الكاتبين بالاقتناء والإثراء وليالي الأنس في المعمورة. . .

فتساءلت سمارة:

ـ هل تناقشون هٰذه الأمور كثيرًا؟

ـ كلّا. ولٰكنّنا ندفع إليها إذا عرّض أحدهم بحالنا.

ونادى أنيس عمّ عبده فجاء العجوز العملاق ومضى بالجوزة من الباب الجانبيّ ثمّ رجع بها بعد أن غيّر ماءها. انجذبت عينا سمارة إليه طيلة حضوره ثمّ تمتمت عقب اختفائه:

ـ يا له من عملاق جذّاب!!

وتذكّر عليّ السيّد أنّه الشخص الوحيد من أهل العوّامة الذي لم يقدّمه لها فقال:

ـ هو عملاق حقًّا ولٰكنّه لا يكاد يتكلّم، يعمل كلّ شيء ولٰكنّه لا يتكلّم إلّا فيما ندر، ويخيّل إلينا كثيرًا أنّه غارق أبدًا في لحظته الراهنة، ولٰكن لا يمكن الجزم في ذٰلك بشيء قاطع، وأعجب شيء أنّه قد يصدق عليه أيّ وصف. فهو قويّ وهو ضعيف، وهو موجود وغير موجود، وهو إمام المصلّى المجاور وهو قوّاد!

فضحكت سمارة طويلًا ثمّ قالت:

ـ الحقّ أنّي أحببته من أوّل نظرة!

فقال رجب بتلقائيّة:

ـ عقبى لنا!

نظرت سناء إلى الليل كالهاربة ولٰكنّه طوّق خاصرتها بذراعه كالمعتذر. واقتحمت رأس أنيس تساؤلات شتّى، هل اجتمع هٰؤلاء الأصدقاء ـ كما يجتمعون الليلة ـ بثياب مختلفة في العصر الرومانيّ؟ وهل شهدوا حريق روما؟ ولماذا انفصل القمر عن الأرض جاذبًا وراءه الجبال؟ ومَن مِن رجال الثورة الفرنسيّة الذي قتل في الحمّام بيد امرأة جميلة؟ وما عدد الذين ماتوا من معاصريه بسبب الإمساك المزمن؟ ومتى تشاجر آدم ـ بعد الهبوط من الجنّة ـ مع حوّاء لأوّل مرّة؟ وهل فات حوّاء أن تحمّله مسئوليّة المأساة التي صنعتها بيديها؟

ونظرت ليلى زيدان إلى سمارة متسائلة:

ـ وهل تبقين دائمًا في كامل وعيك؟

ـ القهوة والسجائر ولا شيء غيرهما. . . .

فقال مصطفى راشد:

ـ أمّا نحن فقد نسمع مرّة عن خطّة حاسمة للقضاء على المخدّرات فلا ندري ما يمكن أن يبقى لنا. . .

ـ لهٰذه الدرجة!

وذكر رجب بأنّ لديهم ويسكي أيضًا فرحّبت بكأس فقام بنفسه وأعدّها لها. ثمّ تساءلت عن سرّ تعلّقهم بالجوزة فلم يتطوّع أحد بجواب حتّى قال عليّ السيّد:

ـ إنّها محور جلستنا، ولا سعادة حقيقيّة لنا إلّا في هٰذه الجلسة.

وافقت بهزّة من رأسها على أنّها جلسة سعيدة حقًّا، وإذا بسنيّة كامل تقول لها:

ـ لا تهربي. لديك ما تقولينه ممّا يدخل في صميم الموضوع.

ـ لا أريد أن أردّد الإكليشيهات المحفوظة ولا أحبّ أن أسقط كالتمثيليّات الهادفة!

فقال أحمد نصر:

ـ ولكنّنا نحبّ أن نعرف آراءك؟

ـ إنّي أعلنها تباعًا كلّ أسبوع.

ثمّ تساءلت بعد رشفة من الويسكي:

ـ ولكن ما آراؤكم أنتم؟

فقال مصطفى راشد:

ـ نحن نعمل للرزق في نصف اليوم الأوّل، ثمّ نجتمع بعد ذلك في زورق ليسبح بنا في الملكوت.

فسألت باهتمام حقيقيّ:

ـ ألا يهمّكم حقًّا شيء ممّا يدور حولكم؟

ـ قد ينفعنا أحيانًا كمادّة لضحكنا.

ابتسمت ابتسامة غير مصدّقة، فقال مصطفى راشد:

ـ لعلّك تقولين لنفسك إنّهم مصريّون، إنّهم عرب، إنّهم بشر، ثمّ إنّهم مثقّفون، فلا يمكن أن يكون هناك حدّ لهمومهم، الحقّ أنّنا لا مصريّون ولا عرب ولا بشر، نحن لا ننتمي لشيء إلّا هذه العوّامة...

ضحكت كما تضحك لنكتة فعاد مصطفى يقول:

ـ ما دامت الفناطيس بحالة جيّدة، والحبال والسلاسل متينة، وعمّ عبده ساهرًا، والجوزة عامرة، فلا همّ لنا...

ـ كلام لا يدخل العقل.

ـ لماذا؟

تفكّرت قليلًا ثمّ تراجعت قائلة:

ـ لن أستدرج للهاوية، كلّا، لن أسمح لنفسي بأن أكون ثقيلة الدم كتمثيليّة هادفة...

فقال عليّ السيّد:

ـ لا تصدّقي كلام مصطفى حرفيًّا، لسنا أنانيّين بالدرجة التي صوّرها، ولكنّنا نرى أنّ السفينة تسير دون حاجة إلى رأينا أو معاونتنا، وأنّ التفكير بعد ذلك لن يجدي شيئًا، وربّما جرّ وراءه الكدر وضغط الدم...

ضغط الدم. كالصنف المغشوش. وطالب الطبّ يمرض بالوهم أوّل عهده بالمدرسة. والمدير العامّ نفسه ليس أسوأ من المشرحة. أوّل يوم في المشرحة كأوّل تجربة للموت في أعزّ ما ملكت. وهذه الزائرة مثيرة من قبل أن تتكلّم. جميلة ورائحتها حلوة، والليل أكذوبة بما هو نهار سلبيّ، وعندما يطلع الفجر تخرس الألسنة. ولكن ما الشيء الذي تودّ تذكّره طيلة الجلسة دون جدوى؟!

وقال خالد عزّوز مخاطبًا سمارة:

ـ قلمك ذو استعداد أدبيّ.

ـ ولكنّه لم يجرّب بعد.

ـ لا شكّ أنّ لديك خطّة!

ـ على أيّ حال إنّني مغرمة بالمسرح.

فسأل رجب محتجًّا:

ـ والسينما؟

ـ إنّها بعيدة عن طموحي.

فقال رجب:

ـ ما المسرح إلّا كلام!

فقال مصطفى راشد باسمًا:

ـ كعوّامتنا سواء بسواء.

فقالت باهتمام:

ـ العكس هو الصحيح، المسرح تركيز، وكلّ كلمة فيه يجب أن يكون لها معنى.

ـ وهذا هو الفارق الجوهريّ بينه وبين عوّامتنا.

وتلاقت عيناها بعيني أنيس وهو يدير الجوزة فكأنّها اكتشفته وقالت له:

ـ لم لا تتكلّم؟

إنّها تستدرجك لتقول لك عند الجدّ «لست بغيًّا». وهي تذكّرني بشيء لا أتذكّره. ومن الجائز أن تكون كليوباطرة أو المرأة التي تبيع المعسّل بدرب الجماميز. وهي من مواليد برج العقرب. ألا تعلم بأنّني على موعد مع فكرة مجرّدة ذات طابع جنسيّ؟!

وقال مصطفى راشد معتذرًا عنه:

ـ إنّ من يعمل لا يتكلّم.

ـ ولِمَ يعمل وحده؟

ـ إنّها هوايته المفضّلة وهو لا يسمح لأحد بمساعدته.

وقال رجب القاضي:

ـ إنّه وليّ أمر عوّامتنا، وندعوه أحيانًا بوليّ النعم. وأيّ فارس منّا بالقياس إليه هاوٍ مبتدئ فهو لا يفيق

أبدًا. . .

ـ على الأقلّ فهو يجد نفسه مفيقًا عقب الاستيقاظ صباحًا؟

ـ دقائق معدودات يصرخ فيها طالبًا القهوة السادة. . .

فألحّت في توجيه الخطاب إليه قائلة:

ـ أجبني بنفسك عمّا تفعل في تلك الدقائق؟

فقال دون أن يرفع عينيه إليها:

ـ أتساءل لماذا أحيا!

ـ عال، وبماذا تجيب؟

ـ أنسطل عادةً قبل أن أجد الفرصة.

وضحكوا أكثر ممّا يجب وضحك معهم. وقلّب عينيه بين النساء من خلال الدخان المتفجّر. لا تعكس عين محبّة للزائرة. وثمّة أسد واحد يلتهم اللحم ويرمي للآخرين بالعظام. وعظام الزائرة الجديدة مترعة بتخاع مزعج. ولٰكن ما دام الهاموش حيوانًا ثديئًا فلا خوف علينا. والحقّ أنّه لولا أنّ الكواكب تدور حول الشمس لتحقّق لنا الخلود.

ونظر رجب في ساعة يده ثمّ قال بجدّيّة:

ـ آن لنا أن نكفّ عن الهذيان، الليلة علامة طريق في حياتنا، لأوّل مرّة يشرّفنا إنسان جادّ عنده شيء ليس عند أحد منّا، ومن يدري فلعلّنا مع الأيّام نعرف الجواب عن أسئلة كثيرة ظلّت حتّى اليوم بلا جواب. . .

فرمقته بحذر متسائلة:

ـ أتسخر منّي يا أستاذ رجب؟

ـ معاذ الله، ولٰكنّني أبني آمالًا على انضمامك إلى مجموعتنا!

ـ وعندي نفس الرغبة، ولن أضيّع فرصة كلّما سمح الوقت.

وتفشّت حركة انهزام مستسلمة فاستعدّ الجالسون للذهاب. حلّت اللعنة التي تجعل لكلّ شيء نهاية. أهي هٰذه الفكرة التي استعصت طويلًا على الذاكرة؟ ولم يبق في المجمرة إلّا رماد. وذهبوا تباعًا حتّى انفرد بوحدته. ليلة أخرى تموت. والليل يرامقه خارج الشرفة، وها هو عمّ عبده يردّ المكان إلى صورته الأولى.

ـ أرأيت الزائرة الجديدة؟

ـ على قدّ النظر. . .

ـ يقال إنّها من رجال البوليس!

ـ أووه.

ولّما همّ الرجل بالذهاب قال له:

ـ عليك أن تبحث لي عن فتاة مناسبة في الظلام.

ـ الليل تأخّر وليس في الطريق شيء. . .

ـ تحرّك أيّها البنيان. . .

ـ وقد توضّأت لصلاة الفجر.

ـ أتطمع في خلود أخلد ممّا أنت فيه؟!. . . تحرّك. . .

التقط من نافضة عقب سيجارة من السجائر التي دخّنتها في أثناء الجلسة. بقي منها الفلتر البرتقاليّ وعقب أبيض مضغوط فتأمّلها طويلًا ثمّ أعادها إلى موضعها وسط مجموعة من الهاموش الهالك. وتضوّع من النيل شذًا مائيّ ذو نكهة أنثويّة. وخطر له أن يتسلّى بعدّ النجوم ولٰكن أعوزته الهمّة. إذا لم يكن في النجوم من يُعنى برصد كوكبنا ودراسة أحوالنا الغريبة فنحن ضائعون. وترى كيف يفسّر الراصد مجلسنا الضاحك ما بين اجتماع شمله حتّى تقوّضه؟! سيقول ثمّة تجمّعات دقيقة تنفث غبارًا ممّا يكثر في الغلاف الجوّيّ للكواكب وتصدر عنها أصوات مبهمة لا يمكن فهمها ما دمنا لم نصل بعد إلى معرفة أيّ فكرة عن تكوينها. ويزيد حجم التجمّعات بين مرّة وأخرى ممّا يدلّ على أنّها تتكاثر بطريقة ما، ذاتيّة أو خارجيّة، ولذٰلك فمن غير المستحيل أن يوجد نوع من الحياة البدائيّة في ذٰلك الكوكب البارد خلافًا للرأي القائل باستحالة وجود حياة في غير الأجواء الناريّة، ومن العجيب أنّ هٰذه التجمّعات الدقيقة تختفي لتعود من جديد ويتكرّر الحال على ذٰلك المنوال دون هدف واضح ممّا يرجّح معه الرأي القائل بعدم وجود حياة بالمعنى الصحيح على الأقلّ. وحسر الجلباب عن ساقيه المشمّرتين وضحك عاليًا ليرى الراصد ويسمع. وقال بل لنا حياة وقد أوغلنا في الفهم حتّى أدركنا ألّا معنى وسوف نوغل أكثر فأكثر ولا أحد يستطيع التكهّن بما

سيكون. ولن تكون أدهش من يوليوس قيصر إذ تدهمه الحسناء الخالدة بارزة من البساط المنطوي. ويسأل القائد الذاهل:

ـ من الفتاة؟

فتجيب ممتلئة ثقة بجمالها:

ـ كليوباطرة ملكة مصر.

ـ ٧ ـ

اعتمد سور الشرفة بساعديْه رانيًا إلى الغروب الهادئ، والنسيم يلاطفه نافذًا من طوق جلبابه، حاملًا إليه فيما يحمل من شذا الماء والنبات صوت عمّ عبده وهو يؤمّ المصلّين غير بعيد من العوّامة. ومذاق القهوة السادة ما زال يجري مع ريقه، أمّا خياله فلم يتخلّص بعد من ابن طولون الذي ساح بعض الوقت ـ قبيل القيلولة ـ في عصره. في الفترة القصيرة التي تلي احتساء القهوة وتسبق الرحلة يتوقّع عادة أن يقع شيء ما فيعابثه حزن غامض لغير ما سبب. ولكنّ هزّة خفيفة رقصت بالعوّامة فتساءل عن القادم المبكّر وغادر موقفه إلى الصالة عندما ظهرت من وراء البارفان سمارة بهجت. اقتربت منه باسمة وهو ينظر إليها بدهشة حتّى تصافحا. اعتذرت عن قدومها المبكّر فرحّب بها مسرورًا بحقّ، ومضت إلى الشرفة بحماس كأنّما تتّصل بالنيل اتّصالًا مباشرًا لأوّل مرّة، وجالت في نعاس الغروب بعين جذلة، وتأمّلت طويلًا أشجار الأكاسيا أندوزا بأزهارها الملوّنة بعصير من الحمرة والبنفسج. وتحوّلت إليه فتبادلا النظر بحبّ استطلاع من ناحيتها وقليل من الارتباك من ناحيته. ثمّ دعاها إلى الجلوس ولكنّها ذهبت أوّلًا إلى المكتبة إلى يسار الداخل فجرت على الأرفف بنظرات مستطلعة ثمّ عادت فاتّخذت مجلسًا إلى جانب مجلسه الذي يتوسّط الهلال. وجلس بدوره، ثمّ رحّب مرّة أخرى بزيارتها السعيدة المبكّرة بعد غيبة أسبوع. وقارن بين ملابسها البسيطة المكوّنة من قميص أبيض وجونيلا رماديّة وبين جلبابه الأبيض، وقال لنفسه لعلّه لأسباب تتعلّق بمهنتها أو بجدّيّتها أنّ طوق القميص لا ينحسر على شيء من مشارف ثدييها كالأخريات. وإذا بها تسأله:

ـ أكنت متزوّجًا وأبًا حقًّا؟

وقبل أن يجيب اعتذرت بنبرة متراجعة عن تطفّلها قائلة إنّه خُيّل إليها مرّة أنّ عليّ السيّد ذكر ذٰلك في معرض حديث عن أصدقائه. وأجاب بإحناءة من رأسه، ولمّا رأى مزيدًا من التطلّع في عينيها العسليّتين الجميلتين قال:

ـ وأنا طالب ريفيّ وحيد بالقاهرة، وماتت الأمّ وطفلتها في شهر واحد بمرض واحد...

ثمّ استطرد في بساطة موضوعيّة:

ـ كان ذٰلك منذ عشرين عامًا...

وتذكّر قصّة الذبابة والعنكبوت. وتذكّر بضيق أنّه لم يكد يبدأ الرحلة بعد، وأشفق من أن يتلقّى كلمة رثاء ولٰكنّها أعربت عن مشاعرها بصمت غير قصير، ثمّ التفتت نحو المكتبة وقالت:

ـ وقيل لي إنّك تدمن التاريخ والثقافة ولٰكنّك فيما أعلم لا تكتب...؟

رفع حاجبيه العريضين المتناسبين مع صفحة وجهه الطويلة العريضة الشاحبة، وبدا مستنكرًا أو هازئًا فابتسمت، وتساءلت:

ـ لِمَ إذن انقطعتَ عن دراستك؟

ـ لَمْ أوفّق للنجاح ثمّ انقطعت عنّي الموارد فتوظّفت في وزارة الصحّة بوساطة طبيب من أساتذتي السابقين...

ـ لعلّ العمل لا يناسبك؟

ـ لست آسفًا على شيء...

ونظر في ساعة يده، ثمّ صبّ قليلًا من الكحول في قارورة على الفحم وأشعله بعود ثقاب ثمّ حمل المجمرة إلى عتبة الشرفة، ولٰكنّها عادت تسأل:

ـ ألا تشعر بالوحدة أو بأنّه لا يجوز أن...

فقاطعها ضاحكًا:

ـ لا وقت عندي لذٰلك.

فضحكت بدورها قائلة:

ـ على أيّ حال أنا سعيدة لأنّي وجدتك في وعيك هٰذه المرّة.

ـ لست في وعيي تمامًا...

وتابع نظرتها إلى الفحم الآخذ في الاشتعال فابتسم ثمّ أشار إلى فنجال القهوة الذي لم يبق في قعره إلّا ثمالة من راسبه البنّيّ. وسلّمت بالواقع ثمّ راحت تثني على الحياة فوق النيل فصارحها بأنّه حديث عهد نسبيًّا بهٰذه الحياة الجميلة.

ـ أقمنا في شقق كثيرة ولم نسلم مرّة من تطفّل الجيران!

وإذا به يضحك ضحكة جديدة منقطعة بجوّها الطائر عمّا سبقها فنظرت إليه متسائلة، فكرّر الضحك، ثمّ أشار إلى رأسه قائلًا:

ـ بدأت الرحلة... وعيناك جميلتان!

ـ ولٰكن ما العلاقة بين هٰذا وذاك؟

فقال بتقرير يقينيّ:

ـ لا علاقة بين شيء وشيء...

ـ ولا حتّى بين طلقة رصاصة وموت إنسان؟!

ـ ولا هٰذا، فالرصاصة اختراع معقول، أمّا الموت...؟

فضحكت وقالت:

ـ أتدري؟... لقد تعمّدت أن أجيء مبكّرة لأخلو إليك!

ـ لم؟

ـ لأنّك الوحيد الذي لا يكاد يتكلّم.

فأعلن رفضه برفع حاجبيه ولٰكنّها أصرّت على رأيها قائلة:

ـ حتّى لو كنت تتكلّم مع نفسك طول الوقت!

وفصل بينهما الصمت فراح ينظر إلى السماء المتكاثف، وأدرك أنّ حضورها المبكّر فوّت عليه مراقبة المساء وهو يتسلّل بخطاه الوئيدة ولٰكنّه لم يأسف على ذٰلك، وترامت من الخارج سعلة معروفة لديه فغمغم «عمّ عبده» فتحدّثت عن الرجل باهتمام وطرحت طائفة من الأسئلة ولٰكنّه أجابها بأنّ الرجل لا يمرض ولا يتأثّر بالجوّ ولا يعرف عمره كما يخيّل إليه أنّه لن يموت. وسألته:

ـ هل تلبّون دعوتي إذا دعوتكم إلى سميراميس؟

فقال بجذع:

ـ لا أظنّ، وعنّي أنا فهو مستحيل...

وأكّد لها أنّه لا يغادر العوّامة إلّا إلى الأرشيف.

فقالت:

ـ يبدو أنّني لا أعجبك.

فقال مدافعًا:

ـ إنّك ألطف من قطر الندى!

وفي أثناء ذٰلك كان الليل قد هبط. ومادت العوّامة تحت وقع أقدام كثيرة وارتفعت ضوضاء فوق الصقالة، وانزعجت سمارة لتأرجح العوّامة فقال لها:

ـ نحن نعيش فوق الماء فنهتزّ لوقع أيّ قدم.

وتتابع ظهور الأصدقاء من وراء البارقان، ودهشوا لوجود سمارة ولٰكنّهم رحّبوا بها بحرارة، وفسّرت سنيّة كامل ذٰلك التبكير تفسيرًا من نوع خاصّ فهنّأت أنيس في دعابة! وما لبث أن دبّ النشاط في يديه فدارت الجوزة. وأعدّ رجب القاضي لسمارة كأسًا من الويسكي. ولحظ أنيس نظرة سناء المتسلّلة من تحت خصلات شعرها إلى سمارة فابتسم. وابتهج كثيرًا لتوهّج الجمرات. ومدّ ذراعه بالجوزة إلى سمارة فتنحّت عنها ولٰكنّه أثار عليها موجة من التحريض الفاشل، وسكت كلّ شيء إلّا القرقرة. ثمّ اجتاحت المجلس تعليقات شتّى. الطيّارات الأمريكيّة ضربت فيتنام الشماليّة. كأزمة كوبا تذكرون؟ وأمّا عن الإشاعات فهي لا تحصى. وهناك الهاوية التي يرقد على حافتها العالم، واللحوم والجمعيّات التعاونيّة، وهل من جديد عن العمّال والفلّاحين؟ والرشوة والعملة الصعبة، والاشتراكيّة واكتظاظ الطرقات بالسيّارات الخاصّة، وقال أنيس لنفسه كلّ ذٰلك يستقرّ في جوف الجوزة ثمّ يتبخّر دخانًا، كالملوخيّة التي طبخها عمّ عبده. وشعارنا القديم: لو لم أكن لتمنّيت أن أكون. وعندما يتوهّج في السماء نور كهٰذه المجمرة يقول المرصد إنّ نجمًا قد انفجر وانفجرت بالتالي مجموعته الكوكبيّة وانتثر الكلّ غبارًا. وذات مرّة تساقط الغبار على سطح الأرض فنشأت الحياة. وتقول لي بعد ذٰلك سأخصم من مرتّبك يومين. أو تقول لي لست بغيًا. وقد لخّص المعرّي ذٰلك في بيت لا أذكره ولا يهمّني أن أذكره. كان أعمى فلم ير سمارة وهي معاصرة له.

ـ زوجي يسعى للصلح.

ـ لا سمح الله. . .

. . . أعمى فلم يرَ. انقطع الخيط وتبدّد شيء بهيج. المهمّ أن نحافظ على. . . على ماذا؟ وغدًا لدينا عمل مرهق لمناسبة الحساب الختاميّ. فهي معتقل الأرشيف. متحف الحشرات أمّا الهاموش فحيوان ثدييّ. . .

وقالت سمارة:

ـ لكنّك شقراء جميلة بكلّ معنى الكلمة.

فقال خالد وكان واضحًا أنه يعني ليلى زيدان:

ـ مشكلتها الحقيقيّة هي مشكلة الوطن كلّه وهي أنّها فتاة عصريّة أمّا الزوج فبرجوازيّ. . .

نظر إلى الليل فرأى مصابيح الشاطئ الآخر تنساب في باطن النهر كأعمدة من نور. ومن عوّامة بعيدة عن مجال البحر حمل النسيم أنغام غناء وموسيقى فلعلّه عرس كما غنّى محمّد العربي ليلة دخلتك: شوفوا العجب حبّيت فلّاحة. وقال العمّ فليحفظك الله وليعمّر بيتك بالذرّيّة الصالحة ولكن خذ بالك فلم يبق إلّا فدّانان. ما أجمل القرية عندما تعبق الحديقة بأزهار اللارنج. تسكر كالشذا المنتشر من خلف آذان الهوانم.

ـ يا له من اقتراح!

قالت سمارة بحماس:

ـ لكنّه جميل وهو تعارف حقيقيّ لا زيف فيه. . .

ـ ولكن ما المقصود باقتراحك؟

ـ أعني الهمّ الأوّل الذي يشغل الشخص.

ـ أهو تحقيق صحفيّ؟

ـ إن داخَلَكُمْ فيّ شكّ فعليّ أن أذهب من فوري.

فقال أحمد نصر بحذر:

ـ إذن فلنبدأ بك، حدّثينا عن همّك الأوّل في الحياة؟

لم تفاجأ بالسؤال فيما بدا وقالت ببساطة موحية بالصراحة:

ـ أهمّ ما يشغلني الآن هو أن أجرّب نفسي في كتابة المسرحيّة. . .

فقال مصطفى راشد بخبث:

ـ المسرحيّة لا تكتب لغير ما سبب!

جذبتْ نفَسًا متمهّلًا من السيجارة وهي تضيّق عينيها متفكّرة متردّدة فابتسم عليّ السيّد ابتسامة نمّت على مشاركة وجدانيّة وقال يشجّعها:

ـ واضح من أنّ جوّ عوّامتنا لا يتقبّل من الحديث إلّا السخرية والعبث، ولكنّك فتاة قويّة فيما أعتقد وعليك أن تتحدّي جوّنا. . .

فأرخت عينيها كأنّما تنظر إلى المجمرة وقالت:

ـ ليكن، الحقّ أنّي أومن بالجدّيّة!

وانهالت الأسئلة. أيّ جدّيّة؟ الجدّيّة لحساب أيّ شيء؟ أليس من الجائز أن نؤمن بالعبث بجدّيّة؟ والجدّيّة تتضمّن أن يكون للحياة معنًى فما المعنى؟

وصاح رجب:

ـ أمامكم ساحرة ستحوّل بقلمها المهزلة إلى دراما هادفة. ولكن هل تؤمنين حقًّا بذلك؟

ـ أودّ ذلك. . .

ـ تكلّمي بصراحة، خبّريني كيف. لا شكّ أنّنا نرحّب من قلوبنا بهذه المعجزة.

وتذاكروا الأسس العالية التي استقرّ عليها المعنى قديمًا، وسلّموا بأنّها ذهبت إلى غير رجعة، فعلى أيّ أساس جديد نقيم المعنى؟ وقالت بإيجاز:

ـ إرادة الحياة!

وتبادلوا الأفكار. إرادة الحياة شيء صلب مؤكّد ولكنّها قد تفضي إلى العبث. أجل ما المانع؟ وهل تكفي لخلق البطل؟ ثمّ إنّ البطل هو من يضحّي بإرادة الحياة نفسها في سبيل شيء آخر هو أسمى في نظره من الحياة فكيف يتأتّى ذلك الشيء العجيب؟

ـ ما أعنيه هو أن نتّجه عند البحث إلى إرادة الحياة نفسها لا إلى أساس يتعذّر الإيمان به، إرادة الحياة هي التي تجعلنا نتشبّث بالحياة بالفعل، ولو انتحرنا بعقولنا، فهي الأساس المكين المتاح لنا، وقد نسمو به على أنفسنا. . .

فقال مصطفى راشد:

ـ يمكن تلخيص فلسفتك بأنّها تستبدل بشعار «من فوق لتحت» شعار «من تحت لفوق»!

ـ لا فلسفة هناك ولكنّ هذا هو همّي الأوّل، وقد جاء دوركم. . .

عليكم اللعنة. ليس أعدى للكيف من التفكير. وعشرون جوزة كادت تضيع هباء. ولا شيء يبدو راسخ الإيمان كشجرة البلح. كما إنّ إصرار الهاموش يستحقّ الإعجاب. ولكن إذا فقدت أنّات عمر الخيّام حرارتها فقل على الراحة السلام. وجميع هؤلاء الساخرين تكوينات ذرّيّة. وها هو كلّ فرد منهم ينحلّ إلى عدد محدود من الذرّات. فقدوا الشكل واللون، اختلفوا تمامًا، ولم يعد منهم شيء يُرى بالعين المجرّدة، وليس ثمّة هناك إلّا أصوات.

صوت رجب القاضي:

ـ همّي الأوّل هو الفنّ.

صوت مصطفى راشد:

ـ الحقيقة أنّ همّه الأوّل هو الحبّ، أو بالأحرى النساء!

صوت سمارة في نبرة مرتابة:

ـ أهٰذا هو همّك حقًّا؟

ـ بلا زيادة ولا نقصان...

واستدرج صوتها صوت عليّ السيّد للإجابة فقال:

ـ همّي الأوّل هو النقد الفنّيّ!

صوت مصطفى راشد متهكّمًا:

ـ كلام فارغ، همّه الحقيقيّ هو الحلم، الحلم في ذاته، بصرف النظر عن محتواه، أمّا النقد فهو لا ينقد إلّا مجاملةً لصديق أو هجومًا على عدوّ أو لابتزاز قدر من المال!

ـ ولكن كيف يريد للحلم أن يتحقّق!

ـ لا يهمّه ذٰلك ألبتّة، ولكن إذا جادت الجوزة بالنعيم دعَك أنفه الهائل وقال تأمّلوا يا أولاد المسافة التي قطعها الإنسان من الكهف إلى الفضاء! يا أولاد الزنا سوف تلهون بين النجوم كالآلهة...

واتّجه التحقيق نحو أحمد نصر فتردّد صوته قائلًا:

ـ همّي الأوّل هو الستر!

صوت مصطفى راشد متطفّلًا:

ـ هٰذا الرجل له شأن آخر، هو مثلًا مسلم! يصلّي ويصوم، وزوج مثاليّ يقف من نساء العوّامة موقف المصريّين من الأحداث، ولعلّ همّه الأوّل هو أن تتزوّج كريمته!

صوت خالد عزّوز:

ـ هو الوحيد فينا الذي سيعيش بعد الموت...

وضاق أنيس بوحدته الصاخبة فنادى عمّ عبده ليغيّر ماء الجوزة. وتمثّل العملاق في لحظات حضوره كالموجود الوحيد في خلاء صوتيّ. وصوت قال إنّ همّه الأوّل هو التذكّر. وآخر قال بل إنّ همّه هو النسيان. وساءل أنيس نفسه لماذا وقف التتار عند الحدود؟!

وهتف صوت ليلى زيدان:

ـ لا همّ لي!

صوت خالد عزّوز:

ـ أو إنّني همّها الأوّل!

وصوت سنيّة كامل قال:

ـ همّي أن يطلّقني زوجي وأن يطلّق عليّ السيّد زوجتيه...

وحاول صوت سمارة أن يستدرج صوت سناء ولكنّه لم ينبس فقال صوت رجب:

ـ اعتبريني همّها الأوّل!

وقال صوت سناء:

ـ لا...

ولكنّ صوت قبلة همس متهافتًا مدغومًا. أمّا صوت خالد عزّوز فقال:

ـ همّي الأوّل هو الفوضويّة!

وندّت ضحكات. وساد صمت كفاصل راحة فسيطر الخلاء كاملًا. وأقبل عمّ عبده وهو يقول:

ـ رمت امرأة بنفسها من الدور الثامن في عمارة الصويا!

لحظه أنيس بوجوم وسأله:

ـ كيف عرفت؟

ـ ذهبت أثر صراخ فرأيت منظرًا فظيعًا!

صوت عليّ السيّد:

ـ من حسن الحظّ أنّنا بعيدون عن الخارج فلا نسمع شيئًا.

ـ انتحرت المرأة أم قتلت؟

فقال الرجل:

ـ الله أعلم.

ثمّ مضى متعجّلًا إلى الخارج. واقترح عليّ السيّد أن

يذهب للاستطلاع ولكنّ اقتراحه رفض بالإجماع. وأرجعت صدمة الخبر الذرّات إلى تكويناتها الأصليّة فعاد المجلس إلى هيئته. وسرّ أنيس لانقلابه من وحدته المرهقة. وقال إنّ معاشرة المجانين خير على أيّ حال من الوحدة. وجاء دور مصطفى راشد ليتكلّم ولٰكنّ عليّ السيّد أراد أن يثأر لنفسه فقال:

ـ إنّه محامٍ قد خسر الدوائر التي صفيت فهو يعيش اليوم على الخطاة من أبناء الشعب، وهمّه الأوّل بعد قبض مقدّم الأتعاب هو المطلق، وهو مطلب عسير بل أشدّ عسرًا من مؤخّر الأتعاب!

فتساءلت سمارة:

ـ إذن فأنت من المتديّنين؟

ـ معاذ الله!

ـ فما هو المطلق؟

أجاب عليّ السيّد:

ـ أحيانًا ينظر إلى السماء، وأحيانًا يركّز في ذاته، وثالثة يؤكّد أنّه قريب ولٰكنّ اللغة خرساء، وقد نصحه خالد بأن يعرض نفسه على طبيب غددا!

ـ على أيّ حال فهو من حزب الجدّيّة؟

ـ كلّا... إنّ مطلقه عبثيّ!

ـ أيمكن أن نعدّه فيلسوفًا؟

ـ بمعنى عصر للفلسفة إن شئت، الفلسفة التي تجمع بين السرقة والسجن والشذوذ الجنسيّ على طريقة جينيه...

وتذكّر آخر لقاء مع نيرون. كلّا لم يكن وحشًا كما قيل. قال إنّه لمّا وجد نفسه إمبراطورًا قتل أمّه، فلمّا صار إلٰهًا أحرق روما. وقبل ذٰلك كان مجرّد إنسان عاديّ فعشق الفنّ. وقال إنّه لذٰلك كلّه ينعم في جنّة الخلد. وضحك عاليًا فما يدري إلّا والأنظار تتّجه إليه وسمارة تسأله:

ـ جاء دورك يا وليّ الأمر فما همّك الأوّل؟

ودون تردّد أجاب:

ـ أن أرافقك!

وضجّ المكان بالضحك وقال رجب باندفاع:

ـ ولٰكن...

ثمّ استردّ انتباهه بسرعة فسكت فعاد الضحك أشدّ من الأوّل ورغم الحرج ألحّت سمارة على استجوابه فأجاب عنه أحمد نصر قائلًا:

ـ أن يقتل المدير العامّ...

فضحكت قائلة:

ـ أخيرًا وجدت شخصًا جادًّا!

ـ ولٰكنّه لا يفكّر في ذٰلك إلّا في لحظات الإفاقة!

ـ ولو!

ورجع عمّ عبده فوقف عند البارقان وهو يقول:

ـ انتحرت المرأة لخلاف مع عشيقها!

وحلّ الصمت مليًّا حتّى قال عزّوز:

ـ خير ما فعلت. غيّر الجوزة يا عمّ عبده...

وتمتمت سمارة:

ـ لم يزل في الدنيا حبّ!

فعاد خالد يقول:

ـ انتحرت المرأة وهي على الأرجح جادّة، أمّا نحن فلا ننتحر.

وقال أحمد نصر إنّ كلّ حيّ هو جادّ ويمارس حياته على أساس من الجدّيّة، وإنّ العبث يقتصر عادة على الأدمغة. وقد تجد قاتلًا بلا سبب في رواية مثل رواية الغريب أمّا في الحياة الحقيقيّة فإنّ «بيكت» نفسه أوّل من يسارع بإقامة الدعوى على ناشر إذا أخلّ بشرط من شروط العقد الخاصّ بأيّ كتاب من كتبه العبثيّة. ولم تقبل سمارة الرأي على علّاته، قالت إنّ ما يستقرّ في الرأس لا بدّ وأن يؤثّر بطريقة أو بأخرى في السلوك أو على الأقلّ في المشاعر، وضربت الأمثال بالسلبيّة واللاأخلاقيّة والانتحار المعنويّ. ولكي يبقى الإنسان إنسانًا فعليه أن يثور ولو كلّ سنة مرّة!... ولٰكنّ رجب اقترح عليها أن تبقى حتّى يشاهدوا مطلع الفجر من وراء أشجار الأكاسيا اندوزا فاعتذرت ثمّ صمّمت على الذهاب عند منتصف الليل، ورفضت شاكرة فكرة أن يوصلها أحدهم بسيّارته. وفي ذهابها ساد الجوّ صمت كالراحة بعد التعب. وأوشك أن يدركهم فتور معًا. وهمّ أنيس بأن يحدّثهم عن تجربته الذرّيّة ولٰكنّه سرعان ما عدل عن فكرته كسلًا. وتساءل أحمد نصر:

ـ ما وراء المرأة الغريبة الفاتنة؟

فقال عليّ السيّد وقد احمرّت عيناه الكبيرتان وبدا

أنفه الكبير متهدّلًا لزجًا:

ـ إنّها تحبّ أن تعرف كلّ شيء، وأن تصادق كلّ جدير بالصداقة.

فتساءل مصطفى راشد:

ـ وهل يمكن أن يدور بخلدها أن تدعونا يومًا إلى الجدّيّة؟

فقال خالد عزّوز:

ـ في تلك الحال علينا أن ندعوها بدورنا إلى حجرة من الحجرات الثلاث...

ـ هٰذه مهمّة رجب القاضي!

امتقع وجه سناء ولٰكنّ السطل لم يجعل للملاحظة قيمة. وقال خالد:

ـ علينا من الآن أن نتّفق على وريث لسناء!

ورمقت سناء رجب بنظرة قاسية فقال ملاطفًا:

ـ ليس على المسطول حرج...

وعاد خالد يسأل:

ـ أمن السهل على عابث أن يعشق امرأة جادّة؟

ودارت الجوزة وامتلأت الأعين بالنعاس. ونقلت المجمرة إلى الشرفة فنفضت عنها الرماد وتوهّجت ثمّ طقطقت مطلقة الشرر. واقترب أنيس من الشرفة مستزيدًا من نسيم الليل الرطيب. ورنا إلى النار بإعجاب مستسلمًا لسحرها العجيب. وقال إنّ أحدًا لا يعرف سرّ القوّة كالدلتا. الأبراص والفئران والهاموش وماء النهر كلّ أولٰئك عشيرتي ولٰكن لا يعرف سرّ القوّة إلّا الدلتا. الشمال كلّه دنيا سحريّة مغطّاة بالغابات لا تعرف النهار إلّا دفعات من الضوء المتسلّل من شِباك الأوراق والغصون. وذات يوم تراكضت السحب هاربة وحلّ ضيف ثقيل مشقّق الجلد كالح الوجه اسمه الجفاف. ماذا نصنع وهاكم الموت يزحف علينا؟ ذَوَتِ الخضرة وهاجرت الطيور وهلك الحيوان. قلت هاكُم الموت يزحف ويمدّ قبضته إلينا. أمّا أبناء عمّي فقد مضوا إلى الجنوب التماسًا للعيش اليسير والقطوف الدانية ولو في أقصى الأرض. وأمّا أسرتي فقد اتّجهت نحو المستنقعات المختلفة من مياه النيل ولا سلاح لها إلّا عزيمتها ولا شاهد على مغامراتها الجنوبيّة إلّا الدلتا. وفي انتظارها تكتّل نبات الشوك والزواحف والوحوش والذباب والبعوض، ثمّة مأدبة وحشيّة للفناء ولا شاهد إلّا الدلتا. قالوا ليس أمامنا إلّا أن نقاتل شبرًا فشبرًا وأن نجالد بالعرق والدم. السواعد الدامية والأعين المحملقة والآذان المرهفة ولا شيء يسمع إلّا دبيب الموت. وانتشرت الأشباح ودوّمت النسور تنتظر الضحايا. لا وقت إلّا للعمل، لا هدنة لدفن الموتى، ليس ثمّة من يسأل أين يذهبون. وولدت أعاجيب وبذرت بذور المعجزات ولا شاهد إلّا الدلتا.

ـ ٨ ـ

عندما تبدأ سهرة جديدة، يتكاثف الإحساس بالحضور، ويطمئنّ الوجود، وتتوارى فكرة النهاية، فتتهيّأ فرصة نادرة لممارسة الشعور بالخلود، ولأنّ الليلة قمراء فقد أطفئ مصباح النيون اكتفاء بمصباح أزرق خافت الضوء مثبت فوق الباب الخارجيّ. وبدا الصحاب شاحبي الوجوه ومن خارج الشرفة أضفى القمر المرتفع عن مجال البصر على هلال المجلس بساطًا فضّيًّا متوازي الأضلاع.

ـ قرأتم بلا شكّ مقال سمارة عن الفلم الجديد؟

ـ قل عن رجب القاضي فهو الأصحّ!

ـ كلّا. إنّه لا يقرأ الجرائد ولا المجلّات. ومثل لويس السادس عشر لا يدري شيئًا عمّا يدور في الخارج.

وقالت ليلى زيدان مراعاة لشعور سناء:

ـ الجدّيّة!... أجل!... ولٰكنّي لم أكترث لذٰلك، كنت أعلم من أوّل الأمر أنّها جاءت لهدف محدّد من نوع آخر...

وقالت سناء لرجب:

ـ قم لنرقص.

فأجابها بهدوء بغيض:

ـ لا توجد موسيقى.

ـ طالما رقصنا بغير موسيقى.

ـ صبرك يا عزيزتي وإلّا فلن تدور الجوزة؟

يظنّ نفسه مركز الكون وأنّ الجوزة تدور من أجله. والحقّ أنّ الجوزة تدور لأنّ كلّ شيء يدور، ولو كانت

الأفلاك تسير في خطّ مستقيم لتغيّر نظام الغرزة. وليلة أمس اقتنعت تمامًا بالخلود ولٰكنّي نسيت الأسباب وأنا ذاهب للأرشيف.

وقال خالد عزّوز ساخرًا:

ـ والمقال يعتبر من الأدب الهادف فيما أعتقد، ما رأيك يا رجب؟

أجاب رجب وكأنّ سناء غير موجودة:

ـ اعتبرته خطوة وتحيّة من جانبها!

ـ وممّا يؤكّد ذٰلك أنّها منقطعة عنّا منذ أيّام!

التربيع الأوّل المختفي يضفي على الظلمة ضياء مسطولًا كعين البنفسج الناعسة. أتذكر كيف كان البدر مرهقًا في ليالي الغارات؟ ها هو البارع يتوثّب لغزوة جديدة، وكجميع الغزاة يتحلّى بقسوة حادّة كالدرع.

وقال رجب مستزيدًا من النسيان القاسي لصاحبته:

ـ شكرت بالتليفون، قلت إنّني أودّ أن أزورها لولا إشفاقي من إحراجها فقالت باستغراب أيّ إحراج هناك!

ـ دعوة صريحة!

ـ وفي دقائق معدودة أو معدودات كما يقول علماء النحو كنت أستأذن لدخول حجرتها ولٰكنّي وجدت في الخرابة عفريتًا، وكان العفريت هو صديقنا عليّ السيّد...

وانهال السباب على الصديق عليّ السيّد.

ـ شكرت، وشربت القهوة، وقلت إنّ مقالها جدير بأن يخلقني خلقًا جديدًا!

ـ منافق ابن منافق ومن سلالة أمّة عريقة في النفاق.

ـ وشغلت بطّاريّة السكس أبيل من خلال نظراتي إليها فصدرت عن أوتارها الصوتيّة في أثناء الحديث أنغام رقيقة من النوع الذي لا تسمح به الرقابة إلّا في أعقاب سعي طويل هادف.

فقال عليّ السيّد:

ـ خيال مغرور! كان الحديث عاديًّا والصوت عاديًّا.

ـ بل كنت أنت منهمكًا في حديث هامس مع منتج سينمائيّ وفي غاية من المساومة...

فضحك عليّ السيّد ضحكة عالية وقال:

ـ الحكاية صندوق ويسكي بلا زيادة وسيستهلك في عوّامتكم اللعينة...

وسأله مصطفى راشد:

ـ وهل اقتصر الأمر على الأنغام الرقيقة؟

ـ ماذا تتوقّعون أكثر من ذٰلك في مقابلة شبه رسميّة؟

ومع ذٰلك فقد توارت الأستاذة الهادفة وراء غلالة أنثويّة شفّافة من النوع الذي تستعمله الفراشة وهي تنتقل بين الأزهار مؤدّية وظيفة عمّ عبده في شارع النيل.

فقالت سناء بنبرة كرنين الوتر الرفيع من القانون إذا مسّته يد العازف خطأً:

ـ يا لك من ساحر!

فابتسم إليها ابتسامة فاترة بدت في الضوء الأزرق الشاحب كامتعاضة وقال:

ـ يا عزيزتي الصغيرة...

ولٰكنّها قاطعته بحدّة:

ـ لست صغيرة من فضلك!

ـ صغيرة السنّ ولٰكن كبيرة المقام!

ـ دعنا من الأكلشيهات التي ماتت بموت العصر المملوكيّ!

فتأوّه عليّ السيّد قائلًا:

ـ أين منّا عصر المماليك بشرط أن نكون من المماليك!

فقالت سناء باستياء واضح:

ـ وما أسرع أن ينقلب أهل العوّامة وحوشًا بلا قلوب.

الوحوش ذوات قلوب. وهي ليست وحوشًا إلّا حيال أعدائها، ولن أنسى الحوت الذي تراجع عن العوّامة وهو يقول لي «أنا الحوت الذي نجّى يونس». وكم من ملايين ملايين الأعين قد رنت إلى الليل المستكنّ في ضوء القمر. وليس أدلّ على صدق سمارة من هجرة الطيور الموسميّة. أمّا سناء المسكينة فقد نسيت سكنى الكهوف على عهد صباها الأوّل. وصاح:

ـ المعسّل زفت، كأنّه ورق شائط!

وراح يصرّه في منديل ليعصره، وفي أثناء ذلك اشترك في سباق الجري ورفع الأثقال في الدورة الأوليمبيّة باليابان فسجّل أرقامًا قياسيّة. ودقّ جرس التليفون فنهض رجب إليه كأنّما كان ينتظره، ولم يُسمع من حديثه سوى كلمات مفردة مثل مفهوم... طبعًا... حالًا، وأعاد السمّاعة ثمّ التفت إلى المجلس وهو يقول:

ـ عن إذنكم...

ونظر إلى سناء قائلًا:

ـ ربّما رجعت في آخر السهرة...

ومضى إلى الخارج. اهتزّت العوّامة تحت أقدامه القويّة، وندّت عن سناء حركة عصبيّة فخيّل إليهم أنّها موشكة على البكاء ولم ينبس بكلمة أحد، وارتسمت في الأعين تساؤلات ولكنّ عليّ السيّد هزّ رأسه مستنكرًا، وأخيرًا خاطب مصطفى راشد سناء برقّة قائلًا:

ـ لا... لا... لقد ولّى العصر الرومانسيّ وحتّى العصر الواقعيّ يحتضر!

وقالت ليلى زيدان وهي تداري ابتسامة شامتة:

ـ من المسلّم به في عوّامتنا أنّه لا شيء يستحقّ الأسف!

فهتفت سناء بحدّة:

ـ لا رومانسيّة ولا أسف...

فقال عليّ السيّد:

ـ أؤكّد لك أنّه ذاهب لمقابلة منتج!... ولكن لا تنسي عمومًا أنّك صادقت رجلًا حرفته النساء!

وقام أحمد نصر وهو يقول بحذر:

ـ سآتيك بكأس ويسكي ولكن عودي إلى حالتك الطبيعيّة من فضلك.

وقالت سنيّة كامل ببساطة مذهلة:

ـ وإذا وقع المحذور فعندك مصطفى وأحمد...

فصاح أنيس بوحشيّة:

ـ لماذا تغفلني إحصاءات الأوغاد؟

ثمّ بغلظة وهو يضغط على مخارج الكلمات:

ـ أوغاد منحلّون مدمنون!

أغرقوا في الضحك. وتساءل مصطفى راشد:

ـ ترى أذهب حقًّا إلى سهارة؟

فقال عليّ السيّد:

ـ كلّا.

ـ ليس بالغريب أن يوقع بامرأة!

وقالت ليلى زيدان:

ـ بالله خبّرني لماذا جاءت إلى هنا إن لم يكن من أجله؟

فقال عليّ السيّد:

ـ لا شيء محال، ولكنّها ليست بالغرّة، ولا أظنّها ترضى بأن تكون معجبة عابرة!

فتساءل مصطفى راشد:

ـ ما الذي يجعل لبعض الرجال مثل تلك السطوة؟

فقال عليّ السيّد:

ـ أيّ نجم في مركزه فلا بدّ أن يكون له شأن.

ـ ليس الأمر بمجرّد لمعان نجم، ولا حتّى الرشاقة والجمال، ولكنّه سرّ أسرار الجنس!

فقال أحمد نصر:

ـ فلتحدّثنا النساء عن ذلك...

فقال عليّ السيّد:

ـ النساء يحببن ولكنّهنّ لا يقلن لماذا...

فقال خالد عزّوز:

ـ لتسأل عن ذلك الغدّة النخاميّة...

ومضت سناء بشلتة إلى الشرفة وجلست وحيدة. وسأل عليّ السيّد مصطفى راشد وهو يومئ خفية إلى سناء:

ـ أهي تمثّل الأنموذج النسائيّ الذي تبحث عنه؟

فأجاب باقتضاب أن لا. وقال خالد عزّوز:

ـ الإباحيّة... الإباحيّة. هي العلاج لذلك كلّه...

وإذا بأنيس يقول:

ـ يا أوغاد... أنتم المسئولون عن تدهور الحضارة الرومانيّة!

وضحكوا في صخب، وقال له أحمد:

ـ أنت الليلة عصبيّ على غير عادتك...

ـ المعسّل زفت!

ـ لكنّه كثيرًا ما يكون كذلك.

ـ والقمر! تذكّرني دورته بالمهزلة...

ـ المهزلة؟

ـ مهزلة المهازل!

ودارت الجوزة بلا توقّف. ولزموا الصمت ليستحضروا الأرواح الشاردة، ووشى المجلس بِعَدَمٍ التهم التاريخ والمستقبل. وقال لنفسه إنّه الصفر. لا ناقص ولا زائد ولٰكنّه صفر. معجزة المعجزات. وانكشف المجهول تحت ضوء القمر. وترامى صَوت عمّ عبده من الخارج وهو يرطن بكلام لم يميّزه أحد. وضحك البعض وقال آخر إنّ الوقت ينقضي بسرعة مذهلة. وتجلّت وشوشة الموج وهو يرتطم بأسفل العوّامة. أجل دورة القمر. والثور المغمى. ويومًا قال لي شيخ «إنّك تحبّ الاعتداء والله لا يحبّ المعتدين» وكان الدم يسيل من أنفي. ولعلّ الشيخ قال ذٰلك للآخر. ولعلّ الدم سال من الآخر. كيف يمكن الثقة بشيء بعد ذٰلك؟ وعاد الصوت يقول: «انقضى الوقت بسرعة مذهلة». وتنهّد أحمد نصر قائلًا «آن الأوان» هٰكذا نعى إلينا الجلسة. وتمطّت حركة متكاسلة ثمّ ذهب أحمد ومصطفى معًا. وتبعهما خالد وليلى. أمّا عليّ وسنيّة فتسلّلا إلى الحجرة المطلّة على الحديقة. وجاء عمّ عبده ليعيد المكان إلى أصله. شكا إليه رداءة المعسّل فقال الرجل إنّ كلّ ما في السوق رديء، وجاءت من الشرفة عطسة فذكر من توّه سناء. زحف على أربع نحو الشرفة ثمّ أسند ظهره إلى ضلفتها ومدّ ساقيه إلى الداخل وهو يتمتم «مساء الجمال». انحسر عنها ضوء القمر الذي أوغل فيها وراء العوّامة ناحية الطريق ساحبًا وراءه فوق سطح الماء لألائه.

ـ أتظنّ أنّه يعود؟

ـ من؟

ـ رجب!

ـ ما أتعس المسئول إذا عجز عن الجواب.

ـ قال إنّه ربّما جاء آخر السهرة...

ـ ربّما...

ـ هل أضايقك؟

ـ معاذ الله.

ـ أترى أنّه يجب أن أنتظر؟

فضحك ضحكة خفيفة وقال:

ـ ينتظر قوم إمامهم منذ ألف سنة!

ـ أتسخر منّي مثلهم؟

ـ لم يسخر منك أحد ولٰكن تلك طريقتهم في الكلام.

ـ على أيّ حال فأنت ألطفهم جميعًا.

ـ أنا!

ـ لا يخرج من فمك سوء.

ـ ذٰلك أنّني أخرس.

ـ ويجمع بيننا شيء واحد.

ـ ما هو؟

ـ الوحدة.

ـ المسطول لا يعرف الوحدة.

ـ لماذا لا تغازلني؟

ـ المسطول الحقّ يتمتّع باكتفاء ذاتيّ!

ـ ما رأيك في نزهة في قارب شراعيّ؟

ـ قدماي لا تكادان تحملانني...

وهي تتنهّد:

ـ لم يبق إلّا أن أذهب، ولا يوجد أحد ليوصلني إلى الميدان!

ـ عمّ عبده يوصل من لا يجد أحدًا ليوصله.

تردّد في تيّار النسيم بعض من أنفاس الليل الرطيبة، ومن وراء باب الحجرة المغلقة همهمت ضحكة. والسماء صافية تمامًا تزدهر بآلاف النجوم، ومن مكان يتوسّطها تراءى وجه مطموس المعالم وهو يبتسم. وداخله شعور لم يجد مثله إلّا وهو يسجّل رقمًا قياسيًّا في الدورة الأوليمبيّة. ولّما كان الوقت ينقضي بسرعة مذهلة فقد تجلّت لعينيه المأساة على حقيقتها في ميدان المعركة، إذ يجلس قمبيز على المنصّة ومن خلفه جيشه المنتصر، إلى يمينه قوّاده المظفّرون وإلى يساره فرعون يجلس جلسة المنكسر. والأسرى من جنود مصر يمرّون أمام الغازي. وإذا بفرعون يجهش في البكاء فيلتفت قمبيز نحوه سائلًا عمّا يُبكيه فيشير إلى رجل يسير برأس منكّس بين الأسرى ويقول:

ـ هٰذا الرجل!... طالما شهدته وهو في أوج أبّهته فعزّ عليّ أن أراه وهو يرسف في الأغلال!

- ٩ -

قد أعدّت الجلسة بكلّ ما يلزمها وها هو عمّ عبده يؤذّن لصلاة المغرب ولٰكن ثمّة محنة حقيقيّة في الانتظار. انتظار سحر الفنجان المسحور. والانتظار شعور مؤرِّق ولا شفاء منه إلّا ببلسم الخلود. وقبل ذٰلك فلا النيل يؤنسك ولا أسراب الحمام الأبيض. وترى بعين قلقة تقوُّض المجلس كما ترى جميع النهايات. والقمر بازغ فوق أغصان الأكاسيا يؤكّد هٰذه الوساوس ولا يلطّفها. وما دام ذٰلك كذٰلك فحتّى فِعل الخير يعقبه الندم. ويضيق الصدر بأيّ حكمة إلّا حكمة تنعى جميع الحكم. فليذهب العذاب المتراجع أمام السحر إلى غير رجعة. وعندما نهاجر إلى القمر فسنكون أوّل مهاجرين يهاجرون هربًا من لا شيء إلى لا شيء. فواحسرتا على نسيج العنكبوت الذي غنّى ذات مساء في قريتنا مع نقيق الضفادع. وقبيل القيلولة سمعت إلى نابليون وهو يتّهم الإنجليز بقتله بالسمّ البطيء. ولٰكن ليس الإنجليز وحدهم الذين يقتلون بالسمّ البطيء. وراح يتمشّى ما بين الشرفة والبارفان، وأضاء المصباح الأزرق، وفي أثناء ذٰلك شعر بأنامل الرحمة وهي تلاطف باطنه.

واهتزّت العوّامة وارتفعت الأصوات مؤذنة بالعمران.

اكتمل المجلس ودارت الجوزة على مرأى من القمر الماضي في العلوّ. وتخلّفت سناء لأوّل مرّة منذ مجيئها فلاحظ ذٰلك أحمد نصر وتضاربت التعليقات. وقالت سنيّة كامل:

ـ المسألة أنّكم رجال في حال انعدام من الوزن!

وبدا رجب لا مباليًا وهو يثني على «الصنف» فقال له أحمد نصر:

ـ كنت قاسيًا معها أكثر ممّا يجوز ولم تراعِ حداثة سنّها.

ـ لا يمكن أن أكون عاشقًا ومربّيًا في وقت واحد...

ـ لٰكنّها صغيرة!

ـ لست أوّل فنّان في حياتها!

ورجّح أحمد نصر أنّها أحبّته بصدق فقال:

ـ إذا عاش حبّ شهرًا كاملًا في زماننا الصاروخيّ فهو حبّ معمّر!

وتذكّر كيف أغرته بمغازلتها، وكيف أبى كيوسف! وكيف يصنع الحبّ الحكايات من قديم الزمان. وضوء القمر يسطع على وجوههم وعمّا قليل سيختفي عن الأنظار. وعندما يدقّق النظر في وجوههم تتكشّف له عن ملامح جديدة كأنّها وجوه غريبة، إنّه يراهم عادة بأذنه ومن وراء سحابات الدخان ومن خلال الأفكار والمعاملات ولٰكنّه إذا ركّز عليهم تركيزًا تلقائيًّا نافذًا وجد نفسه غريبًا وسط غرباء، ورأى الخراب في التجاعيد الخفيفة حول عيني ليلى زيدان. ولمح قسوة ثلجيّة في ابتسامة رجب التهكّميّة. وتلوح الدنيا غريبة أيضًا لا يدري موقعها من الزمان ولعلّها لا توجد أصلًا. وانتبه على اسم سمارة وهو يتردّد بينهم وسرعان ما سمع صوتها وهي تضاحك عمّ عبده في الخارج، وسرى من هزّة العوّامة إلى جسده ما يشبه القشعريرة، وهلّت سمارة في تايير أبيض. حيّتهم بيديها واتّجهت إلى الشلتة الخالية، شلتة سناء، وأشعلت سيجارة في ارتياح ولٰكن لم يلاحظ أحد عليها تغيرًا يمكن أن يفسّر به سلوك رجب الغامض أمس. وتساءلت الفتاة ببراءة:

ـ أين سناء؟

فأجاب مصطفى راشد:

ـ في كوخ عمّ عبده!

احتفظت ببراءتها فقال إنّها تبحث هناك عن المطلق فقالت إنّها كان يجب أن تبحث عنه عنده هو لا في كوخ عمّ عبده. فقال مواصلًا تهكّمه:

ـ الحقّ أنّها وجدت حبّ رجب عرضًا زائلًا فمضت وراء شيء حقيقيّ لا يتغيّر...

فقالت آسفة:

ـ في كوخ عمّ عبده شيء لا يتغيّر حقًّا هو الخلاء!

أجل لا يملك الرجل سوى جلبابه وينام على أريكة قديمة بلا غطاء. هٰكذا وجده عند انتقاله إلى العوّامة ولٰكن لا بدّ أن يزوّده بغطاء عند مقدم الشتاء. وألحّ مصطفى على سمارة في أن تجرّب الجوزة وانضمّ إليه

رجب:

- لماذا تصرّين على رفضها؟

فضحكت متسائلة:

- لماذا تحبّونها؟... هٰذا هو السؤال المهمّ!

- الامتناع عنها هو ما يحتاج إلى تفسير!

ووضح للجميع شغفها للوقوف على سرّها الآسر. أجل. لماذا يعشق أناس غيبوبتها؟ لماذا يهيمون بالنعاس الذاهل؟...

وقال لها خالد عزّوز:

- ارجعي إلى كلمة إدمان في دائرة المعارف البريطانيّة!

ولكنّ مصطفى راشد سارع يقول:

- حذارِ من الأكلشيهات يا أستاذة.

وجعلت تبتسم متردّدة فعاد يقول:

- حذار من ترديد ألفاظ سخيفة مثل الهروب ألخ...

فقالت ببساطة:

- أريد أن أعرف.

فتساءل رجب:

- تحقيق جديد؟

- لا أقبل أن أكون موضع اتّهام.

فقال مصطفى راشد متحدّيًا:

- لا قيمة للأكلشيهات، جميعنا أناس عاملون، مدير حسابات، ناقد فنّيّ، ممثّل، أديب، محام، موظّف، كلّنا نعطي المجتمع ما يطلبه منّا وأكثر، من أيّ شيء نهرب؟

قالت بصدق:

- إنّك تفترض آراء معارض ثمّ تناقشها. إنّي أسأل فقط عمّا تصنعه لكم الجوزة؟

فقال عليّ السيّد:

- إنّها تقول شيئًا قريبًا من قول الشاعر:

سهرت أعين ونامت عيون
لأمر تكون أو لا تكون
فاطرح الهمّ عن النفس ما استطعت
فحملانك الهموم جنون

فقالت فيما يشبه الظفر:

- إذن هي الهموم...

قال مصطفى راشد بإصرار:

- إنّنا نواجه هموم حياتنا اليوميّة بكلّ همّة، لسنا تنابلة. نحن أرباب أسر ورجال أعمال...

تلوح الدنيا غريبة وتزداد غرابة عند تناول الأفكار. الهموم والتنابلة والأكلشيهات. والمساطيل يتناقشون بأعين محمرّة. واختفى القمر تمامًا ولكنّ سطح الماء يضيء بلألائه كأنّه بشاشة سعادة مجهولة. ماذا تريد المرأة وماذا يريد المساطيل؟ يقولون وقت فراغ وتقول إدمان. وعجيب ألّا تهتزّ العوّامة بهٰذا النقاش وهي تميد تحت وقع قدم فوق الصقالة.

وجاء عمّ عبده فأخذ الجوزة ليغيّر ماءها ثمّ أعادها وذهب. ونظر أنيس إلى لآلئ الماء وابتسم. انتبه إلى صوت سمارة وهي تناديه فنظر إليها ويداه لا تكفّان عن العمل. قالت:

- أودّ أن أسمع رأيك أنت؟

فقال ببساطة:

- تزوّجي يا آنسة!

فضحكوا. إنّها تفضّل دور الواعظة، قال رجب، ولكنّها أصرّت على ألّا ترتبك. وجعلت تستحثّ أنيس على الإجابة بعينيها. وانصرف عنها إلى ما بين يديه. لماذا واحد وواحد يساويان اثنين؟

امرأة مزعجة تقتحم علينا بديهيّات الحياة. ماذا تريد؟ وكيف يمكن أن نسطل في مطاردة مستمرّة حامية؟ ولمّا يئست منه تحوّلت إلى مصطفى قائلة:

- حقّ أنّكم تواجهون هموم حياتكم اليوميّة بكلّ همّة. ولكن ماذا عن الحياة العامّة؟

- تعنين السياسة الداخليّة؟

- والخارجيّة!

فقال خالد عزّوز متهكّمًا:

- وسياسة العالم، لم لا؟

فقالت باسمةً:

- وتلك أيضًا...

فتساءل مصطفى راشد:

- والسياسة الكونيّة لا يجوز أن تهمل أيضًا.

فتساءلت ضاحكة:

ـ أرأيت أنّ الهموم أكثر ممّا نتصوّر!

ـ الآن تفاهمنا، إنّك تأسفين على وقتنا الضائع في السهرات، وتعتقدين أنّه هروب من أعبائنا الحقيقيّة، وأنّه لولا ذٰلك لقدّمنا الحلول الناجحة لمشاكل الوطن العربيّ والعالم والكون...

وضحكوا مرّة أخرى. وقالوا لأنيس إنّه السبب الحقيقيّ وراء ما يعانيه العالم من آلام والكون من غموض. واقترح مصطفى أن يرموا بالجوزة إلى النيل ثمّ يقسموا العمل فيما بينهم، فيختصّ خالد عزّوز بالسياسة الداخليّة، وعليّ السيّد بالسياسة العالميّة، ومصطفى بحلّ رموز الكون. وراحوا يتساءلون عن كيف يبدءون، وكيف ينظّمون أنفسهم، وكيف يحقّقون الاشتراكيّة على أسس شعبيّة ديموقراطيّة لا زيف فيها ولا قهر، وكيف بعد ذٰلك يعالجون مشكلات العالم كالحرب والتفرقة العنصريّة، وهل يبدأ مصطفى من الآن في حلّ معمّيات الكون، هل يدرس العلم والفلسفة أو يقنع بالتركيز الذاتيّ في انتظار الشعاع المضيء؟

وتدارسوا العراقيل المتحدّية، والأخطار التي قد تحيق بهم كمصادرة الأرزاق والاعتقال والقتل، وثمّة صوت تشكّى من السرعة المذهلة التي ينقضي بها الوقت. والقمر اختفى تمامًا ولم يبق من بساط اللآلئ إلّا ذيل قصير. ولم تتوقّف الجوزة عن الدوران ولا سمارة عن الضحك.

وتلاطمت في رأسه خواطر عن الغزوات الإسلاميّة والحروب الصليبيّة ومحاكم التفتيش ومصارع العشّاق والفلاسفة والصراع الدامي بين الكاثوليكيّة والبروتستنتيّة وعصر الشهداء والهجرة إلى أمريكا وموت عديلة وهنيّة ومساوماته مع بنات شارع النيل والحوت الذي نجّى يونس وعمل عمّ عبده الموزّع بين الإمامة والقوادة وصمت الهزيع الأخير من الليل الذي يعجز عن وصفه والأفكار الفسفوريّة الخاطفة التي تتوهّج لحظة ثمّ تختفي إلى الأبد.

وصحا على صوت سمارة وهي تسأل الجماعة:

ـ كيف كنتم في مطلع الحياة؟

وضحكوا. لماذا يضحكون؟ كأنّما لم يكن لحياتهم مطلع. الذكريات البعيدة التي لحقت بالعصر الحجريّ. القرية ثمّ الغرفة الوحيدة والإصرار. الإصرار في القرية والحجرة الوحيدة. والقمر كان يبزغ ويغرب ولا يوحي بنهاية شيء. قال خالد:

ـ في صباي لم يكن ثمّة سؤال بلا جواب، والأرض لم تكن تدور، والأمل يمتدّ في المستقبل بسرعة مائة مليون سنة ضوئيّة.

وقال عليّ السيّد:

ـ وتساءلت ذات يوم لماذا يعرقل الخوف من الموت سعادتنا الأبديّة؟

وقال مصطفى راشد:

ـ ويومًا كدت أهلك أنا وأنيس في مظاهرة ثوريّة!

ولم تدهش الفتاة لشيء من ذٰلك. وراحت تتحدّث عن إمكان استعادة الحماس في أزياء جديدة، ولٰكنّهم تكلّموا عن خيانة المرأة التي تنزع الثقة من النساء جميعًا، وقالت لمصطفى وهو أشدّهم جدلًا:

ـ إنّك تهرب بالمطلق من المسئوليّة.

فأجابها بسخرية:

ـ المسئوليّة سبيل الكثيرين للهروب من المطلق...

البيضة والدجاجة. أمّا أنا فأكرّس وأرصّ وأشعل النار وأدير الجوزة ثمّ أنصب من نفسي مستودعًا لخردة المهاترات، والنساء تضحك وتحلم بالحبّ. والوقت ينقضي بسرعة مذهلة. وكلّما أرادت الأستاذة الذهاب استبقاها الساحر بإصرار. وعمّا قليل سيحلّ الخراب بالمجلس، والخيّام الذي كان مدرسة أمسى فندقًا للملذّات. وقد قال لي في آخر لقاء إنّه لو كان امتدّ به العمر إلى أيّامنا لاشترك في أحد النوادي الرياضيّة.

ـ آن الأوان!

وذهب الرجال والنساء إلّا رجب وسمارة!

من المحقّق أنّهما لا يعرفان أنّ النيل هو الذي قضى علينا بما نحن فيه. وأنّه لم يبق من عبادتنا القديمة إلّا عبادة أبيس. وأنّ الداء الحقيقيّ هو الخوف من الحياة لا الموت. والآن فلتسمّع الحوار المعاد كما هي العادة:

ـ أليس الأفضل يا عزيزتي أن نستمتع بالحبّ؟

ـ فكرة طيّبة!

ـ وإذن...

ـ قلت لك يا عزيزي إنّي جادّة. . .

ـ أخلاق برجوازيّة؟

ـ جادّة. . . جيم ألف دال تاء مربوطة. . .

ـ بالله كيف تسلّمين نفسك؟

ولّما لم تجب استطرد:

ـ بالزواج مثلًا؟

ـ قل بالحبّ باعتباره الأصل. . .

ـ إذن تعالي. . .

ـ أأنت جادّ؟

ـ أنا لا أهزل أبدًا. . .

ـ وسناء؟

ـ أنت لا تدرين شيئًا عن سيكلوجيّة المراهقات المجنونات!

ـ عندي بعض معلومات لا بأس بها.

ـ أتسلّمين لي نفسك إذا عاهدتك على الإيمان بالجدّيّة؟

ـ أنت ظريف حقًّا!

وها هو يقرّب وجهه من وجهها. سيتكرّر المنظر القديم. وها هو يطبق بشفتيه على شفتيها. وهي لم تقاوم ولكنّها لم تستجب. وتحدجه بنظرة ساخرة باردة. باخ الفارس وتراجع. هكذا دالت دولة الفُرس. وقال وهو يبتسم:

ـ إذن فلنتمشّ في الحديقة الصغيرة. . .

ـ لكنّ الليل تأخّر. . .

ـ ليس في العوّامة زمن.

وخلت الصالة، كلّا لم تخل الصالة فما يزال بها أنقاض المجلس والمكتبة والبارفان والفريجيدير والتليفون والمصباح النيون والمصباح الأزرق ومقعدان فوتيل وسجّادة سماويّة ذات نقوش ورديّة وهيكل إنسان من العصر الذرّيّ. أمّا هما ففي الحديقة يتمشّيان وسترطّب حرارتهما الأعشاب النديّة، وسوف تستقرّ همساتهما في أوراق البنفسج والياسمين. ولا يبعد أن يرقصا على أنغام صرّار الليل.

وجاء عمّ عبده ليباشر مهمّته الختاميّة. راقبه مليًّا ثمّ قال له:

ـ إذا وجدت فتاة. . .

ـ أووه.

ـ قبل الوضوء أو بعده وإلّا فالويل لك. . .

ـ مات رجل طيّب ممّن كانوا يحافظون على صلاة الفجر.

ـ والعمر الطويل لك، يغلب على ظنّي أنّك ستدفننا جميعًا!

وضحك العجوز وهو يمضي بالصينيّة.

وعثرت عيناه على حقيبة بيضاء كبيرة فوق الشلتة التي كانت تجلس عليها سمارة. وخيّل إليه أنّ للحقيبة شخصيّة وأنّها تؤثّر فيه بمكر وسحر. واجتاحته رغبة عنيفة في ارتكاب فعل شاذّ. مدّ يده إلى الحقيبة ففتحها، رأى أشياء متوقّعة ولكنّها بدت صارخة الغرابة وفغمته رائحة زكيّة. منديل وقارورة صغيرة كحليّة اللون ومشط ذو مقبض فضّيّ وكيس نقود ومذكّرة في حجم الكفّ. وفتح الكيس فوجد بضعة أوراق ماليّة فخطر له أن يأخذ نصف جنيه ليعطيه للفتاة التي سيجيء بها عمّ عبده. وسرّ لذلك جدًّا. وآمن بأنّه يبتكر فكرة فريدة ذات طاقة غير عاديّة على بعث المسرّات. تناول المذكّرة ودسّها في جيبه. أغلق الحقيبة وهو يغرق في الضحك. سوف يستأنف تجربة التشريح التي فشل فيها قديمًا ويشقّ قلبًا مغلقًا. ويجدّد شبابه ليستعيد أيّام العبث. سوف تقول الفتاة كلّ شيء ممّا يخطر على البال وممّا لا يخطر. وسوف تتساءل هل قصد بالمادّة الطحلبيّة ذات الخليّة الواحدة أن تتضمّن جميع هذه الأعاجيب؟ وسوف تسألني متى كنت بركانًا قبل أن تتخلّف راسبًا من الرواسب الميتة؟ وأنا لا أعرف الجواب ولكن لعلّك تعرف أنت يا من يشيد التاريخ بذكراك. جلس أمامي كتمثال فقلت:

ـ أنت تحتمس الثالث حقًّا؟

أجاب بصوت ذكّرني بصوت مصطفى راشد:

ـ نعم. . .

ـ ماذا تفعل؟

ـ أتقاسم العرش مع أختي حتشبثوت. . .

قلت باهتمام:

ـ يسأل كثيرون عن سرّ خمولك في ظلّها؟

ـ إنّها الملكة. . .

ـ ولٰكنّك الملك أيضًا.
ـ إنّها قويّة وتحبّ أن تستأثر بكلّ شيء.
ـ ولٰكنّك أكبر قوّاد مصر وأعظم حكّامها...
ـ لم أخض حربًا ولم أمارس الحكم بعد...
ـ إنّي أحدّثك عمّا ستصير إليه، ألا تفهم؟
ـ وكيف عرفت ذٰلك؟
ـ من التاريخ، كلّ الناس يعرفونه...

وضحك وهو ينظر إليّ كمن ينظر إلى معتوه، قلت بإصرار:

ـ إنّه التاريخ، صدّقني...
ـ لكنّك تتكلّم عن مستقبل مجهول.

فقلت كمن يتكلّم في كابوس من شدّة الحيرة:

ـ إنّه التاريخ، صدّقني...

ـ ١٠ ـ
مشروع مسرحيّة

فكرتها تدور عن الجدّيّة في مواجهة العبث. والعبث هو فقدان المعنى، معنى أيّ شيء. انهيار الإيمان، الإيمان بأيّ شيء. والسير في الحياة بدافع الضرورة وحدها ودون اقتناع وبلا أمل حقيقيّ. وينعكس ذٰلك على الشخصيّة في صورة انحلال وسلبيّة وتمسّ البطولة خرافة وسخرية، ويستوي الخير والشرّ ويقدّم أحدهما ـ إذا قدّم ـ بدافع من الأنانيّة أو الجبن أو الانتهازيّة. وتموت القيم جميعًا وتنتهي الحضارة. وممّا يجب دراسته في هٰذه المرحلة مشكلة المتديّنين العابثين، فإنّهم لا ينقصهم الإيمان ولٰكنّهم يسلكون في الحياة العمليّة مسلك العبث فكيف تفسّر ذٰلك؟ أهو سوء فهم للدين؟ أم إنّه إيمان غير حقيقيّ، روتينيّ، بلا جذور، تمارس تحت ستاره أخسأ أنواع الانتهازيّة والاستغلال؟ يجب دراسة هٰذه النقطة وهل يمكن الانتفاع بها في المسرحيّة أو تؤجّل لموضوع مستقلّ.

أمّا الجدّيّة فتعني الإيمان، ولٰكن الإيمان بماذا؟ ولا يكفي أن نعرف ما يجب أن نؤمن به ولٰكن من الضروريّ أن يكون لإيماننا صدق الإيمان الدينيّ الحقّ وقدرته المذهلة على خلق البطولات وإلّا كان نوعًا جادًّا من العبث. وحتّم أن يعبّر عن ذٰلك كلّه من خلال الموقف والحدث، سواء أكان الإيمان بالإنسان أم بالعلم أم بالاثنين معًا. ولكي أبسّط المسألة أقول إنّ الإنسان واجه قديمًا العبث وخرج منه بالدين، وهو يواجهه اليوم فكيف يخرج منه؟ ولا فائدة ترجى من مخالطة إنسان بغير اللغة التي يتعامل بها، وقد اكتسبنا لغة جديدة هي العلم ولا سبيل إلى توكيد الحقائق الصغرى والكبرى معًا إلّا بها، وهي حقائق بلورها الدين بلغة الإنسان الجديدة.

وليكن لنا في العلماء أسوة ومنهج. يبدو أنّهم لا يقعون في العبث أبدًا. لماذا؟ ربّما لأنّهم لا وقت لديهم لذٰلك، وربّما لأنّهم على صلة دائمة بالحقيقة معتمدين على منهج موفّق قد أثبت جدارته، فلا يتأتّى لهم الشكّ فيها أو اليأس منها. وقد ينفق أحدهم عشرين عامًا لحلّ معادلة، وستجد المعادلة عناية متجدّدة وتلتهم أعمارًا جديدة ثمّ تفضي إلى خطوات راسخة في سبيل الحقيقة، فهم يعيشون في مناخ معبق بالتقدّم والنصر، ولا يعنّ لهم مثل هٰذا السؤال: «من أين وإلى أين وما معنى حياتنا» أيّ مغزى. ولا يوحي بأيّ عبث، والعلم الحقيقيّ يفرض أخلاقيّات في عصر تدهور الأخلاق، فهو مثال في حبّ الحقيقة والنزاهة في الحكم والرهبانيّة في العمل والتعاون في البحث والاستعداد التلقائيّ للنظرة الإنسانيّة الشاملة. وعلى المستوى المحلّيّ هل يمكن أن يحلّ التفوّق العلميّ محلّ الانتهازيّة في قلوب الجيل الجديد؟

على أيّ حال يستحسن ألّا أشغل رأسي بفكرة المسرحيّة أكثر من ذٰلك الآن وسأعود إلى ذٰلك بعد جمع مزيد من العناصر الضروريّة للعمل.

ويخيّل إليّ أنّ الحركة ستجري على الوجه الآتي:

فتاة تغزو مجموعة من الرجال لتغيّرهم. يجب أن تنجح في ذٰلك بطريقة فنّيّة وإلّا ما كان للمسرحيّة معنى. امرأة جادّة ورجال عابثون. وتلزمني قصّة حبّ. ومن الممتع حقًّا أن يقع الجميع في حبّها، وعليها هي أن تختار واحدًا، أو أنّها ستقع وهي لا تدري في حبّ أحدهم. وينفسح المجال لصراع حادّ بين الجدّيّة والعبث والحبّ. بل يجب أن يتأزّم الموقف

بين الحبّ والجدّيّة كيلا تفتر المسرحيّة. ولكن هل تمضي كقصّة غراميّة في إطار من صراع فكريّ؟ هل تقتصر على المناقشات الفكريّة والمناجاة الغراميّة؟ وكيف ومتى يتمّ التطوّر في الحديث بإقناع فنّيّ؟ هل يتمّ بناءً على مناقشات؟ هل يتمّ بناءً على العاطفة؟ ينقصني شيء هامّ جوهريّ فما هو؟ كيف يمكن تحويل أناس عابثين إلى عقيدة؟ وما مدى اتّساع هذه العقيدة؟ هل يكفي أن تغطّي الموقف الاجتماعيّ؟ أعني هل يكفي ذلك لبعث البطولات؟

على أيّ حال فإنّني على بيّنة الآن من الأفكار التي عليّ أن أبلورها وأوضحها لأجعل منها محور المسرحيّة. ويحسن بي أن أدوّن أفكاري ومعلوماتي الأساسيّة عن شخصيّات الرواية ـ بأسمائهم الحقيقيّة مؤقّتًا ـ لعلّ في ذلك خلاصًا من حيرتي إذ إنّه من المحتمل أن تتدفّق الحركة في مجرًى تلقائيّ إذا وضحت الشخصيّات واستقرّت معالمها الأساسيّة.

* * *

أشخاص المسرحيّة

١ ـ أحمد نصر

موظّف كفء فيما يقال، ذو خبرة مذهلة بالحياة اليوميّة والعمليّة. موفّق في حياته الزوجيّة وله ابنة في سنّ المراهقة، متديّن روتينيّ فيما أعتقد. وهو في الجملة شخص عاديّ ولا أدري كيف يخدم أغراض المسرحيّة. وثمّة سؤال هامّ: لماذا يدمن الجوزة؟ ولندعْ جانبًا ما يقال عن البواعث الجنسيّة فهل عنده ما يهرب منه؟ على أيّ حال يجب خلقه من جديد باعتباره غير قانع في أعماقه باستغراق الوظيفة والأسرة لحيويّته. إنّه يشعر في زاوية من نفسه بأنّه مسئول. أو يجب أن يكون مسئولًا، عمّا يجري حوله، ولأنّه مؤمن فهو أعظمهم توازنًا ولكنّه رغم ذلك وربّما بسبب ذلك أيضًا يحزنه أنّه شيء لا يقدّم ولا يؤخّر في الحياة. على ذلك يمكن أن نعدّ اهتمامه المشهور بالمشكلات الصغيرة ـ كإدمانه ـ نوعًا من الهروب من إحساس التفاهة الذي يطارده. وسيمارس تعاسته الخفيّة دون وعي، وسيظلّ في الظاهر الرجل المتوازن المؤمن المطمئنّ المفيد حتّى تكشفه البطلة أمام نفسه وربّما في سياق غرامه بها.

٢ ـ مصطفى راشد

محامٍ. لا بأس أن أبقي له على مهنته تبريرًا لقوّته في الجدل. ساخر جدًّا وخفيف الروح. متزوّج من امرأة لا يحبّها ولعلّه تزوّج منها طمعًا في مرتّبها قبل كلّ شيء، وبرغم أنّه يبحث عن أنموذجه الأنثويّ الذي لم يصادفه بعد. والحقّ أنّ الذي لا يمارس العشق في هذه العوّامة فهو رجل غريب ينطوي ولا شكّ على سرّ دفين. لعلّه الإدمان. وهو يعي خواءه النفسيّ تمامًا. ويجد ملاذه في الجوزة والمطلق. ولكنّه لا يعي ـ فيما يبدو ـ الخدعة التي يخدع بها نفسه، وهو يتطلّع إلى المستحيل بلا منهج ولا جهد حقيقيّ، معتمدًا على التأمّل المسطول. كأنّ المطلق ما هو إلّا مبرّر للإدمان، ولكنّه يهبه إحساسًا بالعلوّ فوق تفاهته الحقيقيّة: وهو ـ ككثيرين ممّن أقابلهم في الحفلات العامّة ـ ذو مظهر برّاق بالثقافة وباطن أجوف متداعٍ تفوح منه التعاسة والنتانة.

٣ ـ عليّ السيّد

أزهريّ النشأة. أتمّ دراسته بعد ذلك في كلّيّة الآداب، وأتقن الإنجليزيّة في مدارس برلتز، فهو مناضل وعلى بيّنة من هدفه القريب العمليّ، وله زوجتان، القديمة من القرية والجديدة من القاهرة ولكنّها ستّ بيت، امرأة تقليديّة لترضي نوازعه المحافظة للسيادة، وهو ينوّه بقلبه الكبير الذي أبقى على الزوجة الأولى ولكنّه خنزير كما تشهد بذلك علاقته الغريبة بسنيّة كامل. وكناقدٍ فنّيّ فهو وغد كبير، يقيم أسسه الجماليّة على المنفعة المادّيّة فلا يضطرّ إلى قول الحقّ إلّا إذا خانه الحظّ وعند ذاك ينقلب هجاء ساخرًا بلا رحمة، ويطارده الإحساس بالتفاهة والخيانة والعبث فيمضي في سبيل الجوزة والأحلام الغريبة عن إنسانيّة جديدة تتخايل أمام عينيه الذاهلتين من خلال الضباب المهلك. وهو مثال لطائفة من المعاصرين الذين يهيمون على وجوههم بلا عقيدة ولا

خلق، ولا يتورّع عن ارتكاب جريمة إذا أمن من العقاب.

٤ ـ خالد عزّوز

ورث عمارة فضمنت له حياة رغدة رغم عجزه الواضح. وجد مهربه في الجوزة والجنس والفنّ الهلاميّ الذي يفضح ما تنطوي عليه جوانحه من انحلال وإباحيّة. من الصعب الفصل فيما إذا كان فقده للعقيدة ـ أيّ عقيدة ـ هو الذي تأدّى به إلى الانحلال أم إنّ انحلاله هو الذي ساقه إلى رفض العقائد، لذٰلك لا أستبعد أن يرجع يومًا إلى الإيمان التقليديّ إذا نضب معينه. وهو دون أصحابه عاطل، يأخذ من المجتمع دون أن يعطيه شيئًا، إلّا قصصًا مثل قصّة الزمّار الذي انقلب مزماره حيّة تسعى! ولا أستبعد كذٰلك أن يطلّ علينا ذات مساء من شرفة اللامعقول.

٥ ـ رجب القاضي

هو أمل المسرحيّة. إذا لم يذعن للتطوّر فقل عليها السلام. أبوه حلّاق كما أخبرني عليّ السيّد، وما زال يمارس مهنته في كوم حمادة رغم لمعان ابنه، عن كبرياء من ناحيته أو نذالة من ناحية ابنه. رجب رجل جنس. إله من الآلهة التي تموت في الحلقة السادسة، وكآلهة العشق لا يخلو من قسوة لن يلطّفها إلّا الحبّ. وهو كالآخرين بلا عقيدة ولا مبادئ ولٰكنّه دونهم عصبيّة وتأزّمًا، جميل جذّاب، مشهور بسمرته الغامقة، وسيطرته غير المحدودة، ومهربه الحقيقيّ في الجنس أمّا الجوزة فيبدو أنّها لا تؤثّر فيه إلّا قليلًا. وإمكانيّاته للمسرحيّة غنيّة عن التنويه.

٦ ـ أنيس زكي

موظّف خائب، زوج سابق. أب سابق. صامت ذاهل ليلًا ونهارًا. مثقّف يقال ولا يملك من الدنيا إلّا مكتبة دسمة، يخيّل إليّ أحيانًا أنّه نصف مجنون، أو نصف ميت، نجح في أن ينسى تمامًا ما يهرب منه. نسي نفسه. توحي ضخامة هيكله بقوّة كان يمكن أن توجد. يمكن أن تصفه بأيّ شيء أو ألّا تجد له صفة على الإطلاق. سرّه في رأسه. يمكن أن تطمئنّ إليه كما تطمئنّ إلى مقعد خالٍ. قابل للاستغلال الكوميديّ ولٰكنّه لن يكون له دور إيجابيّ في المسرحيّة.

* * *

يستحسن أن أختزل الشخصيّات النسائيّة إلى اثنتين: البطلة لأهمّيّة دورها، وسناء لتشحذ من حِدَّة العاطفة في الدراما فضلًا عن أنّ شخصيّة مراهقة عصريّة خليقة بأن تضفي على المسرحيّة روحًا جذّابًا لا يخلو من فائدة دراسيّة، ثمّ إنّ انتصار البطلة عليها في المعركة الغراميّة يُعدّ رمزًا لانتصار الجدّيّة على العبث في النطاق النسائيّ إذ لا جدوى من الجدّيّة إذا لم تتغلغل جذورها في المرأة التي هي أمّ المستقبل.

ولا ضرورة بعد ذٰلك لسنيّة كامل التي تمارس تعدّد الأزواج على طريقتها الخاصّة ولا إلى المترجمة الشقراء العانس التي تتوهّم أنّها رائدة شهيدة على حين أنّها رائدة متهافتة مدمنة منحلّة.

* * *

انتهت الكتابة في المذكّرة، وثمّة عنوان هو «ملاحظات هامّة» ولٰكنّه يقوم وحيدًا في وسط السطر، ويليه بياض، وفرّ الصفحات الباقية حتّى الغلاف فلم يعثر على كلمة واحدة. دسّ المذكّرة في جيبه وهو يتمتم «يا بنت الذين». واستخرج المذكّرة ثمّ أعاد قراءة ما كتب عنه ثمّ أعادها إلى جيبه، وضحك. ونظر إلى الفنجال الفارغ وهو يقول «لا فائدة» سيطول انتظاره، وربّما صاحبته الإفاقة حتّى ينعقد المجلس. وترامى من المصلّى صوت عمّ عبده وهو يؤذّن لصلاة المغرب فعاد يتمتم «يا بنت الذين!».

واهتزّت العوّامة مؤذنة بأقدام آتية فنظر نحو الباب وهو يتساءل عمّن يكون القادم المبكّر؟

ومن وراء البارفان ظهرت سمارة بهجت!

ـ ١١ ـ

اقتربت وهي تحيّيه بابتسامة متكلّفة، وضح له انشغالها فقال:

ـ لست كعادتك!

راحت تدور في المكان وهي تتفحّصه:

ـ مالك؟

ـ فقدت أشياء مهمّة.

ـ هنا؟

ـ كانت معي في جلسة الأمس...

ـ وما هي؟

ـ مذكّرة خاصّة بعملي ومبلغ تافه من النقود.

ـ أأنت متأكّدة من أنّك فقدتها هنا؟

ـ لست متأكّدة من شيء.

ـ عمّ عبده يكنس المكان والزبّال يأخذ الزبالة في الصباح.

جلست على فوتيل وهي تقول:

ـ لو أنّها سرقت فلماذا لم يأخذ السارق الحقيبة كلّها، لماذا يأخذ المذكّرة ويترك كيس النقود؟

ـ لعلّها سقطت منك؟

ـ كلّ شيء ممكن...

ـ أهي خسارة لا تعوّض؟

وقبل أن تجيبه اهتزّت العوّامة وارتفعت الأصوات. رجته بسرعة أن ينسى الموضوع وألّا يعيد ذكره، قالت ذلك وهي تنتقل إلى الشلتة. وتتابَع دخول الصحاب حتّى تمّ للمجلس تمامه، وتفرّغ للجوزة بهمّة ونهم وكان على درجة من الإفاقة غير مألوفة فنشطت في أعماقه شياطين متحفّزة للعبث. واسترق إلى سمارة نظرة ماكرة. وقال مصطفى راشد مخاطبًا سمارة:

ـ ثبت الآن أنّك تجيئين مبكّرة لتنفردي بأنيس!

فقالت بتسليم:

ـ ألا ترى أنّه فارس أحلامي؟

فقال أحمد نصر:

ـ نحن فتيان ولٰكنّه في الأربعين.

وبدون دعوة ظهر عمّ عبده عند البارڤان وهو يقول:

ـ غرقت عوّامة في إمبابة...

التفتت الرءوس بشيء من الاهتمام، وسأله أحمد نصر:

ـ هل غرق أحد؟

ـ كلّا ولٰكن غرقت المحتويات.

فقال خالد عزّوز:

ـ نحن نعاني نقصًا في المحتويات لا في الأفراد.

ـ وجاء بوليس النجدة!

ـ كان يجب أن يجيء أيضًا بوليس الآداب...

وتساءلت ليلى:

ـ لماذا تغرق العوّامة؟

فأجاب العجوز:

ـ لغفلة الخفير.

فقال خالد عزّوز:

ـ بل لغضب الرحمٰن على من فيها.

فأمّنوا على قوله ورجعوا إلى الجوزة. ولّما ذهب عمّ عبده قال عليّ السيّد:

ـ حلمت ذات ليلة أنّني صرت في طول عمّ عبده وعرضه.

فخرج أنيس من صمته المألوف قائلًا:

ـ ذٰلك أنّك تهرب من الأحلام والإدمان!

رحّبوا بتعليقه ضاحكين، وسأله عليّ:

ـ ولٰكن مِمَّ أهرب يا وليّ النعم؟

ـ من الخواء!

ولّما سكت الضحك استطرد:

ـ جميعكم أوغاد عصريّون تهربون في الإدمان والأوهام الكاذبة...

وتجنّب النظر نحو سمارة. وقهقهت شياطينه العابثة وتوالت تعليقات:

ـ أخيرًا نطق!

ـ هٰذا مولد فيلسوف!

وبات مركز الأنظار، وسأله مصطفى:

ـ وماذا عنّي أنا؟

ـ هارب من الإدمان والمطلق، يطاردك الإحساس بالتفاهة.

وميّز ضحكة سمارة وسط هدير الضحك ولٰكنّه تجنّب النظر إليها. تخيّل اضطرابها الخفيّ وتخيّل وجهها وتخيّل مصارينها ثمّ واصل كلامه قائلًا:

ـ كلّنا أوغاد لا أخلاق لنا يطاردنا عفريت مخيف اسمه المسئوليّة...

قال رجب:

ـ يجب أن تؤرّخ حياة العوّامة بهٰذه الليلة.

وقال مصطفى راشد:

ـ أراهن على أنّ «غبارة» الليلة مهرّبة من موسكو!

وسأله خالد:

ـ أنيس، أيّها الفيلسوف، وماذا عنّي وماذا عن ليلى؟

ـ إنّك إباحيّ منحلّ لأنّك بلا عقيدة وربّما إنّك بلا عقيدة لأنّك منحلّ، أمّا ليلى فما هي إلّا رائدة زائفة منحلّة مدمنة لا شهيدة كما تتوهّم!

فصاحت به ليلى:

ـ قطع لسانك!

وأشار إلى سنيّة كامل قائلًا:

ـ وأنت تمارسين تعدّد الأزواج يا مدمنة!

فصرخت:

ـ يا مجنون!

ـ كلّا... أنا نصف مجنون فقط ولٰكنّي أيضًا نصف ميت...

ـ كيف تجرؤ على هٰذه الوقاحة؟

فقال عليّ السيّد ملاطفًا:

ـ أغضبت حقًّا يا سنيّة... إنّه وليّ أمرنا...

ـ لا أقبل أن أهان أمام غرباء...

أوشك الوجوم أن يلتهم المرح ولٰكنّ رجب قال بتوكيد:

ـ لا غرباء بيننا، سمارة منّا وعلينا...

فقالت ليلى:

ـ إنّها منّا حقًّا ولٰكنّها عليك أنت وحدك!

فقال أنيس:

ـ لا، إنّها لا تبالي برجل يهرب من خوائه في الإدمان والجنس...

صاح رجب في انبساط:

ـ ليلتنا فلّ يا جدعان!

ـ من يصدّق أنّك أنيس الصامت!

ـ لعلّه يجترّ كتابًا عن تدهور الحضارة...

ما تزال في جوفي قنبلة ادّخرها للمدير العامّ، ليهدأ الضحك المتفجّر في باطني حتّى أرى الأشياء. هل تحطّمت السلاسل التي تشدّ عوّامتنا إلى الشاطئ؟ والبدر يتوثّب لاقتحام باب شرفتنا الهشّ. أمّا الهاموش، فقد أدرك آخر الأمر سرّ افتتانه المدمّر بضوء المصباح.

وقال رجب لسمارة:

ـ لست في أحسن أحوالك!

فقالت دون أن تنظر إلى سنيّة ولٰكنّها نظرت إليها في الواقع بفتور تبرتها:

ـ ذاك حال الغريب!

ـ لا، سنيّة امرأة الحنان، وهي أمّ رءوم حتّى في عشقها...

فقالت سنيّة في سماحة:

ـ أشكرك، أنت خير من يعتذر عنّي للأخت سمارة.

فقال خالد عزّوز:

ـ لا تبالغوا في توطيد السلام وإلّا حلّ بنا الملل.

وساد صوت القرقرة وحده وانداحت موجاته في شعاع القمر. قال له دمه المتدفّق إنّ النوم عسير في هٰذه الليلة الهائجة. وإنّه سيشهد سهاد العاشقين بلا عشق. وراح يتذكّر ما تيسّر من أشعار المجانين. واختفى الحاضرون فلبث وحده مع الليل المضيء. ورأى فارسًا يركض جواده في الهواء قريبًا من سطح الماء فسأله عن هويّته فقال إنّه الخيّام وإنّه نجح أخيرًا في الهروب من الموت. واستيقظ على منظر ساقه المطروحة لصق الصينيّة: طويلة بارزة العظام، باهتة اللون في الضوء الأزرق، كثيفة الشعر، كبيرة الأصابع، مقوّسة الأظافر من طول إهمالها بلا قصّ، فكاد ينكرها. وعجب لعضو من جسده كيف يبدو كالغريب، ثمّ انتبه إلى مصطفى راشد وهو يتساءل:

ـ أنحن حقًّا كما وصفنا وليّ الأمر؟

فقال خالد عزّوز:

ـ لا هروب ولا خلافة ولٰكنّنا نفهم حقيقتنا كما ينبغي لنا.

وقال عليّ السيّد:

ـ عوّامتنا هي الملاذ الأخير للحكمة البشريّة.

ـ هل الاستغراق في الأحلام هروب؟

ـ أحلام اليوم هي حقائق الغد.

ـ هل التطلّع إلى المطلق هروب؟

ـ أف... وهل علينا من عمل سواه!

ـ وهل الجنس هروب؟

ـ اخص!... إنّه الخلق نفسه...

ـ وهل الجوزة هروب؟

ـ هروب من البوليس إذا شئت!

ـ أهي هروب من الحياة؟

ـ إنّها الحياة نفسها!

ـ فلماذا هاجمنا وليّ الأمر؟

ـ إنّه لم يهرّج من عشرة أعوام فأراد أن يخزي عين الحسود...

ـ ليلتنا فلّ يا جدعان!

ووصّاهم أحمد نصر بشيء من الصمت كيلا تتبدّد ثمرة السهرة، ودارت الجوزة دوراتها الختاميّة المركّزة.

وارتفع القمر عن مجال الأبصار، وهو وحده الذي قرأ في نظرة سمارة هزيمة حزينة. وتبدّدت وجوههم شاحبة ناعسة، وجادّة أيضًا على رغمهم، ورمق مصطفى سمارة باهتمام وسأل عن رأيها فيما سمعت فقال رجب:

ـ لم يُخلق آخر الليل للمناقشة.

فلماذا خُلق؟ ذهبوا جميعًا عدا عليّ السيّد وسنيّة كامل. وما لبثت الصالة أن خلت له. وجاء عمّ عبده كالعادة فأنجز مهمّته دون أن يتبادلا كلمة ثمّ ذهب. وزحف نحو الشرفة فرأى القمر من جديد متألّقًا في مركز القبّة المرصّعة، ناجاه مغمغمًا أن ليس كعوّامتنا شيء: الحبّ لعبة قديمة بالية ولكنّه رياضة في عوّامتنا، الفسق رذيلة في المجالس والمعاهد ولكنّه حرّيّة في عوّامتنا، والنساء تقاليد ووثائق في البيوت ولكنّهنّ مراهَقة وفتنة في عوّامتنا، والقمر كوكب سيّار خامد ولكنّه شِعر في عوّامتنا، والجنون مرض في أيّ مكان ولكنّه فلسفة في عوّامتنا، والشيء شيء حيثما كان ولكنّه لا شيء في عوّامتنا. أيّها الحكيم القديم «إيبو ـ ور» أقدم بعصرك الذي اضمحلّ فيه كلّ شيء إلّا الشّعر وأسمعنا الغناء. حدّثني ماذا قلت لفرعون. أقبل الحكيم «إيبو ـ ور» وهو ينشد:

إنّ ندماءك كذبوا عليك

هٰذه سنوات حرب وبلاء

قلت أسمعني مزيدًا أيّها الحكيم! فانشد:

ما هٰذا الذي حدث في مصر

إنّ النيل لا يزال يأتي بفيضانه

إنّ من كان لا يمتلك أضحى الآن من الأثرياء

يا ليتني رفعت صوتي في ذٰلك الوقت

قلت ماذا قلت أيضًا أيّها الحكيم «إيبو ـ ور»؟ فقال:

لديك الحكمة والبصيرة والعدالة

ولٰكنّك تترك الفساد ينهش البلاد

انظر كيف تمتهن أوامرك

وهل لك أن تأمر حتّى يأتيك من يحدّثك بالحقيقة؟

ـ ١٢ ـ

استيقظ على صوت يهمس باسمه، فتح عينيه وهو مستلق على ظهره في الشرفة فرأى هالة ناصعة في السماء تشي بالقمر المختفي عن ناظريه. أين المكان والزمان!

ـ أستاذ أنيس!

التفت فرأى سمارة واقفة فوق عتبة الشرفة. جلس معتمدًا على ذراعيه رافعًا إليها عينين لم تفيقا بعد من سكرة الحلم.

ـ آسفة لعودتي في وقت غير مناسب...

ـ أما نزال في نفس الليلة؟

ـ مضى على ذهابنا ساعة، أكرّر الأسف.

تزحزح حتّى أسند ظهره إلى جدار الشرفة وحاول أن يتذكّر.

ـ عدت من ميدان التحرير بعد أن أوصلني رجب إليه.

ـ شرّفت، إليك حجرتي إذا تنازلت...

قالت بجزع:

ـ لم أعد لأنام، وأنت تعلم ذٰلك جيّدًا.

ثمّ بهدوء وهي تخفض عينيها:

ـ أريد مذكّرتي...

تساءل مقطّبًا:

ـ مذكّرتك!

ـ إذا سمحت...

تمطّت شياطين العبث في نفسه فقال محتجًّا:

ـ تتّهمينني بالسرقة!

ـ كلّا . . . ولٰكنّك عثرت عليها بطريقة ما.

ـ هٰذا يعني أنّي سرقتها.

ـ بالله ردّها إليّ فلا وقت للكلام.

ـ إنّكِ مخطئة.

ـ لست مخطئة.

ـ إنّي ارفض أن أسمع التهمة مرّة أخرى.

ـ لا أتّهمك بشيء. ردّ إليّ مذكّرتي التي فُقدت منّي هنا.

ـ لا أعرف مكانها. . .

ـ سمعتك وأنت تردّد ما دُوّن فيها!

ـ لا أفهم.

ـ بل تفهم كلّ شيء ولا داعي لتعذيبي.

ـ التعذيب ليس هوايتي.

ـ الليل ينتهي بسرعة.

فسألها مداعبًا:

ـ أتحاسبك ماما على التأخير؟

ـ أستاذ، كن جادًّا ولو دقيقة واحدة.

ـ نحن لا نعرف الجدّ.

تساءلت في قلق:

ـ هل تنوي إفشاء سرّها؟

ـ من أين لي ذٰلك وأنا لا أدري عنها شيئًا!

ـ كن لطيفًا كالعهد بك.

ـ لست لطيفًا، أنا نصف مجنون ونصف ميت. . .

ـ المدوّن في المذكّرة لا يمثّل رأيي فيكم ولكنّه جملة الآراء التي أعدّها للمسرحيّة.

ـ عدنا إلى الألغاز والاتّهام.

ـ ما زلت طامعة في كرم أخلاقك.

ـ ما الذي حملك على هٰذا الظنّ؟

ـ أنّك ردّدت كلماتي بالحرف.

ـ ألا تؤمنين بتوارد الخواطر؟

ـ إنّي مؤمنة بأنّك ستردّ إليّ مذكّرتي. . .

ـ إذن فأنت تتصوّرين أنّك قادرة على أن تفهمي في أيّام ما أعجز عنه في أعوام!

وضحك ضحكة خرقت صمت الخلاء فوق النيل وقال بلهجة جديدة:

ـ أفكارك فارغة، صدّقيني. .

هتفت بارتياح:

ـ ها أنت تسلّم.

ـ سأردّها إليك ولٰكنّها لا تصلح لشيء.

ـ ما هي إلّا ملاحظات مبدئيّة لم تدرس بعد.

ـ لٰكنّك فتاة رديئة!

ـ الله يسامحك.

ـ جئتِ لا لصداقة ولٰكن للتجسّس.

قالت محتجّة:

ـ لا تسئ بي الظنّ، إنّي أحبّكم حقًّا وأرغب في صداقتكم، وفضلًا عن هٰذا وذاك فإنّني أومن بأنّه يوجد بطل كامن في كلّ فرد. ولم يكن يهمّني معرفة حقيقتكم بقدر أن أخلق منها ما ينفع المسرحيّة.

ـ لا تجهدي نفسك انتحال الأعذار فإنّ الأمر في الواقع لا يهمّني.

ومدّ لها يده بالمذكّرة وهو يقول:

ـ أمّا الخمسون قرشًا فيسرّني أن أظلّ مدينًا بها إليك.

فتساءلت في انزعاج:

ـ ولٰكن كيف. . . أعني. . .

ـ كيف سرقتها؟. . . المسألة غاية في البساطة فنحن نعتبر جميع ما تقع عليه اليد في العوّامة من القطاع العامّ!

ـ بالله أعطني تفسيرًا يريح القلب.

فقال ضاحكًا:

ـ كانت نزوة لا تقاوم. . .

ـ أكنت في حاجة إليها. . .؟

ـ كلّا، لم يبلغ بي الفقر هٰذا الحدّ.

ـ إذن لماذا أخذتها؟

ـ وجدت في استغلالها على ذٰلك الوجه نوعًا من القربى إليك!

ـ الحقّ أنّي لا أفهم.

ـ ولا أنا. . .

ـ ولٰكنّي بدأت أشكّ في منهجي كلّه.

ـ من الأفضل ألّا يكون لك منهج على الإطلاق.

ضحكت فقال:

ـ إلّا ما يوصلك إلى الرجل المنشود!

ضحكت مرّة أخرى فعاد يقول:

ـ إنّي أفهمك كما يفهمك الجميع.

كانت همّت بالذهاب فثبتت في مكانها مستطلعة فقال:

ـ إنّك شرّفتنا من أجل رجب...

فضحكت باستهانة فقال وهو يشير إلى الحجرة المغلقة:

ـ حذار أن توقظي العاشقين!

ـ لست كما تظنّون، إنّي فتاة...

فقاطعها:

ـ إن كنت فتاة حقًّا فتعالي إلى حجرتي لتثبتي ذٰلك!

ـ كم إنّك ظريف ولٰكنّي لن أعجبك...

ـ لماذا؟

ـ لأنّه فظيع أن تكون الفتاة جادّة.

ـ ولٰكنّي لا أدعو من الفتيات إلّا الجادّات...

ـ حقًّا؟!

ـ جميع بنات الليل جادّات.

ـ الله يسامحك.

ـ لا يعرفن العبث، يعملن حتّى الهزيع الأخير من الليل، لا للهوٍ أو لذّة، ولٰكن لهدف تقدّميّ وهو أن يعشن حياة أفضل!

ـ عيب هٰذه العوّامة أنّه لا يُعرف بها الجدّ من الهزل.

ـ الجدّ والهزل اسمان لشيء واحد.

تنهّدت مؤذنة بإنهاء الحديث غير أنّها تردّدت لحظة ثمّ سألته:

ـ هل تنوي أن تفشي سرّ المذكّرة؟

ـ لو كان ذٰلك في نيّتي لفعلت.

ـ أستحلفك بكلّ عزيز أن تصارحني بما في نفسك.

ـ فعلت.

ـ أن أختفي خير من أن أطرد.

ـ لا أريد هٰذا ولا ذاك.

صافحته مودّعة وهي تقول بنبرة حميمة:

ـ شكرًا.

ذهبت مسرعة وصوت عمّ عبده يؤذّن لصلاة الفجر.

ـ ١٣ ـ

اهتزّت العوّامة مؤذنة بقادم جديد رغم تمام المجلس، وتساءلوا عمّن يكون، ثمّ التفتوا نحو الباب باهتمام لا يخلو من قلق، وقام أحمد نصر ليعترض سبيل القادم عند المدخل ولٰكنّ ضحكة معروفة ترامت إليهم ثمّ وضح صوت سناء وهي تهتف «هاللو!». دخلت ساحبة وراءها شابًّا أنيقًا فنهض رجب لاستقباله وهو يقول:

ـ أهلًا رءوف!

وقدّمه للصحاب قائلًا: «نجم الشاشة المعروف». وجلسا وسط ترحاب رسميّ فاتر. وقالت سناء بصوت أجرأ من عادتها:

ـ أتعبني حتّى أذعن للمجيء، قال كيف تقتحم على ناس خلوتهم، ولٰكنّه خطيبي والعوّامة أسرتي!

وتلقّت التهاني من جميع الشلّة فعادت تقول وقد وشت أنفاسها بالشراب:

ـ وهو مثلكم من أهل ذٰلك.

وأشارت إلى الجوزة ضاحكة، ولم يبالِ أنيس بالحرج وأدار الجوزة بكلّ نشاط. وقالت سناء:

ـ هٰذه فرصة سعيدة يا رءوف. إليك الناقد الكبير عليّ السيّد والكاتبة المعروفة سمارة بهجت، ومن تجمعهم الجوزة لا يفرّق بينهم رأي أو ذوق!

فقال رجب:

ـ ولٰكنّ سمارة للأسف لا تتعامل مع الجوزة.

فتساءلت بسخرية:

ـ إذن فلماذا تدمن على زيارة العوّامة؟

وهمس رءوف في أذنها بكلمات لم يتبيّنها أحد ولٰكنّها ضحكت في استهتار. وجاء عمّ عبده ليغيّر ماء الجوزة فلمّا ذهب قالت سناء لرءوف:

ـ أتصدّق أنّ كلّ هٰذا البناء رجل واحد؟!

وضحكت ولٰكن وحدها. وساد صمت متوتّر مقدار ربع ساعة ثمّ أقنعها رءوف بوجوب الذهاب فقام آخذًا بذراعها وهو يقول:

ـ معذرة، لا بدّ من الذهاب لموعد عاجل، فرصة سعيدة...

أوصلهما رجب حتّى الباب ثمّ عاد إلى مكانه. وتجهّم المجلس رغم دوران الجوزة، وجعل رجب يبتسم إلى سمارة ملاطفًا ولكنّها قالت وهي تومئ إلى الجوزة:

ـ مهما قلت فلن يصدّقني أحد...

فقالت ليلى زيدان:

ـ على أيّ حال فليست هي بالتهمة الشائنة...

ـ إلّا عند الأعداء.

فقال رجب ببساطة:

ـ لا أعداء لك إلّا الرواسب البرجوازيّة.

ـ ولكنّها تكلّمت عن الإشاعات في الوسط الصحفيّ، وذكرت مسكنها القديم في المنيل وكيف كانت عودتها المتأخّرة إلى البيت تثير القيل والقال بين الجيران.

ـ ولمّا قالت ماما لهنّ إنّ عملها في الصحافة يضطرّها إلى ذلك قلن وما الذي اضطرّها للعمل في الصحافة!

فقال رجب:

ـ لكنّك تقيمين الآن في شارع قصر العيني...

وأراد مصطفى راشد أن ينكش أنيس لعلّه يجدّد ثورة الأمس فيبدّد وجوم المجلس ولكنّه لم يخرج من عالمه. كان يفكّر في الحلقات المفرغة التي تحاصره كلّ يوم كشروق الشمس وغروبها وبزوغ القمر وأفوله والحضور والانصراف في الوزارة والإقبال والإدبار في الجلسة والصحو والنوم، تلك الحلقات المذكّرة بالنهاية والتي تجعل من أيّ شيء لا شيء. وقد دار معها الآباء والأجداد. وتنتظر الأرض انتظارًا لا يعرف الجزع لتستمدّ من آمالنا ومسرّاتنا أسمدة لتربتها. فلا بأس أن تحتدم الأشواق في سحابات الدخان المضمّخ بشذا السحر المحرّم الغامض.

أمّا ليلى فتعذّب نفسها بالحبّ العقيم وتوغل في الفضاء كسفينة كونيّة أفلتت من مدارها. وإله الجنس يمدّ ساقه حتّى استقرّ حذاؤه الأبيض لصق المجمرة وهو يرامق الفتاة المزعجة اللذيذة بنظرات متسلّلة من عينيه السوداوين الجذّابتين. وكلام كثير قيل عن سناء وخطيبها ولكنّ رجب لم يشترك فيه. ولمّا انتبه الصحاب إلى انهماكه الكلّيّ في سمارة قال مصطفى راشد:

ـ نحن سعداء إذ نعاصر قصّة حبّ كبير.

فقال خليل عزّوز:

ـ فلنسمّه باسمه الحقيقيّ.

فقال أحمد نصر:

ـ بالله لا تفسد علينا الحلم.

فقالت ليلى زيدان:

ـ الجديد فيه أنّ أحد طرفيه إنسان جادّ.

وتساءل خالد عزّوز:

ـ ترى ما موقف مُحِبّة جادّة من مُحِبّ عابث؟

فأجاب رجب:

ـ تطهّره من عبثه.

ـ وإذا كان العبث جوهره الذي لا يتغيّر؟

ـ لا مفرّ من انتصار الحبّ في النهاية.

وضحكت سمارة هازئة. فقال خالد:

ـ يهمّني أن أرى فتاة جادّة وهي تحبّ، إذ إنّ انزلاق قدم وزير أضحك بكثير من انزلاق قدم بهلوان.

فقال عليّ السيّد:

ـ لا فرق في الحبّ بين جادّة وعابثة، الجدّيّة دعوة إلى الاهتمام العمليّ بالشئون العامّة أسوة بالشئون الخاصّة...

فغمز خالد بعينيه ناحية سمارة وتساءل:

ـ بأيّ الناحيتين تراها مهتمّة الآن؟

وارتفع الضحك ثمّ عاد خالد يتساءل:

ـ هل ثمّة أمل في تطويرها نحو الاهتمامات العامّة؟

ـ إنّ آمالها متعلّقة بالجيل الجديد.

فنظر خالد نحو رجب قائلًا:

ـ الظاهر أنّ جيل الأربعين لم يعد يصلح إلّا للحبّ...

ـ هذا إذا كان يصلح له حقًّا.

فقال أحمد نصر:

ـ الجيل الجديد خير منّا.

فتساءل مصطفى راشد:

ـ أليس ثمّة أمل في أن نتغيّر نحن؟

فأجاب خالد:

ـ نحن نتغيّر عادة في المسرحيّات والأفلام وهٰذا هو سرّ ضعفها.

ـ هٰذا هو سرّ نجاح الهزليّات التي تصوّرنا على حقيقتنا.

ـ لماذا لا تعترف بذٰلك في مقالاتك؟

ـ لأنّني منافق... وقد عنيت بقولي السابق الهزليّات الغربيّة أمّا هزليّاتنا المحلّيّة فتنتهي عادة بتغيّر مفاجئ للمثل الهزليّ في شكل موعظة سخيفة، ولذٰلك فالفصل الثالث يكون عادة أضعف فصول المسرحيّة وهو يكتب في الواقع للرقابة.

والتفت خالد نحو سمارة وقال:

ـ إذا فكّرت يومًا أن تكتبي مسرحيّة عن أناس مثلنا فانصحك كزميل في الفنّ أن تختاري الشكل الهزليّ، أعني المهزلة أو اللامعقول وكلاهما شيء واحد...

فقالت متجاهلة نظرات رجب:

ـ فكرة تستحقّ الدراسة!

ـ تجنّبي الأبطال الهادفين الذين لا يبتسمون ولا ينطقون إلّا عن المثل الأعلى ويدعون إلى كيت وكيت، ويحبّون بصدق، يضحّون، ويردّدون الشعارات، ثمّ يَقتلون في النهاية النظّارة بثقل دمهم.

ـ سأعمل بنصيحتك وأكتب عن الآخرين الذين يقتلون النظّارة بخفّة دمهم!

ـ ولٰكنّ هٰؤلاء أيضًا مشكلتهم الفنّيّة. إنّهم يعيشون بلا عقيدة، يقضون أوقاتهم في العبث لينسوا أنّهم سيتحوّلون بعد قليل إلى رماد وعظام وبرادة حديد وأزوت ونيتروجين وماء، ويرهقهم في ذات الوقت أنّ الحياة اليوميّة تفرض عليهم ألوانًا من الجدّيّة الحادّة التي لا معنى لها، وأنّ مجانين من حولهم يهدّدونهم بالنسف في أيّ لحظة. أمثال هٰؤلاء لا يعلمون ولا يتطوّرون فكيف تصنعين بهم في مسرحيّة ترجين لها النجاح؟

ـ هٰذه هي المسألة!

ـ وثمّة مشكلة أخرى، أنّ أحدهم لا يختلف عن الآخر إلّا في القشور. ذٰلك أنّ أحدهم لا يكون شخصيّة ولٰكنّه يتكوّن من عناصر متحلّلة كبناء متهدّم، ونحن قد نفرّق بين بيت وبيت ولٰكن كيف نفرّق بين كومين من الأحجار والأخشاب والزجاج والخرسانة والملاط والتراب والطلاء؟... إنّهم كلوحات الفنّ الحديث... الواحد كالآخرين فكيف تبرّرين تعدّد الشخصيّات فوق المسرح؟

ـ إنّك توشك أن تنصحني بالعدول عن الأدب!

ـ كلّا ولٰكنّي أقول لك إنّه كما إنّ الطيّبات للطيّبين والخبيثات للخبيثين فإنّ مسرح العبث للعبثيّين، لن يحاسبك الأخ عليّ السيّد على انعدام الحدث أو الشخصيّة أو الحوار ولن يحرجك أحد بالسؤال عن معنى هٰذا أو ذاك. ولمّا كان لا يوجد أساس للتقييم فلن يهزّك من يخفضك وستجدين من يرفعك ومن يقول بحقّ إنّك عبّرت بمسرح فوضويّ عن عالم ماهيّته الفوضى...

ـ ولٰكنّنا لا نعيش في عالم ماهيّته الفوضى!

فقال وهو يتنهّد:

ـ هٰذا فراق بيني وبينك ويمكنك الآن أن تعودي إلى نظرات الأخ رجب!

لا شيء هنا يدور بيقين وهو يعرف هدفه إلّا الجوزة. وعمّا قليل سيهبط النعاس من موطنه السحريّ بين النجوم فيعقل الألسنة. والراجح أنّ العشق الجديد سيثمر قبلة في الهزيع الأخير من الليل تحت شجرة الجوافة. ومن قبل دارت الأرض ملايين ملايين السنين حتّى أثمرت هٰذا المجلس فوق سطح النيل. واختفى القمر عن ناظريه ولٰكنّه رأى البرص فوق باب الشرفة. يجري ثمّ يتوقّف ثمّ يجري. كأنّما يبحث عن شيء، وتساءل:

ـ لماذا توجد حركة؟

فالتفتوا نحوه متوقّعين مفاجأة ما، وسأله مصطفى:

ـ أيّ حركة تعني يا وليّ الأمر؟

فتمتم هو يواصل عمله:

ـ أيّ حركة...

ـ ١٤ ـ

ولمّا كان اليوم عطلة رسميّة لمناسبة الهجرة فإنّ

أنيس قضى النهار بين الشرفة والصالة غائبًا في انسجام شامل، وقبيل المغيب جاء عمّ عبده ليعدّ المجلس فهنّأ أنيس بالعيد لثالث أو لرابع مرّة وهو يظنّ أنّه يهنّئه لأوّل مرّة. وسأله أنيس عمّا يعلم عن العيد فأجاب الرجل بأنّه اليوم الذي هاجر فيه النبيّ من الكفّار، ولعن الكفّار، فقال أنيس:

- سوف يملأون هذا المجلس الذي تُعدّه بعد قليل!

فضحك العجوز غير مصدّق فمضى أنيس في عبثه قائلًا:

- إنّك يا عمّ عبده هارب في الإيمان.

- هارب!... جئت إلى هنا ذات يوم فوق عربة قطار.

- من أيّ بلد؟

- أووه.

- من أيّ جريمة هربت؟

- أووه...

إنّه مُصِرّ على النسيان فلعلّه جاء هربًا من جريمة أو حملته موجة الثورة سنة ١٩١٩. وإنّه لم يعد يدري ولن يدري أحد.

وسأله موغلًا في العبث:

- أأنت جادّ يا عمّ عبده؟

- أووه...

- ألم تعلم بأنّ سمارة نبيّة جديدة؟

- أستغفر الله العظيم.

- وقد جنّدت منّا جيشًا سنحارب به العدم ثمّ نسير إلى الأمام...

فسأله الرجل بسذاجة:

- إلى أين؟

- إلى السجن أو مستشفى المجاذيب.

فقال وهو يمضي إلى صلاة المغرب:

- إنّي أبحث عن قطّ لكثرة الفئران فوق الجسر.

وما لبث أن جاء الصحاب مبكّرين عن موعدهم احتفالًا بالعطلة الرسميّة. وشرع أنيس في نشاطه، وتحدّثوا بعض الوقت عن شئونهم العائليّة. وأعلن رجب عن عزمه على رفع أجره في الفلم إلى خمسة آلاف جنيه فهنّأه خالد عزّوز وقال له إنّه بذلك يثبت ولاءه للاشتراكيّة العربيّة. وضحك رجب ولكنّه لم يعلّق على قول صاحبه وراح يتحدّث عن سناء وكيف تظهر مع رءوف في المجتمعات والإستديوهات بصفتها خطيبته مؤكّدًا أنّ الخطبة لن تتوّج بالزواج. وهنا تساءلت ليلى زيدان:

- حتّى متى تظلّ شلتة الجدّيّة شاغرة؟

فأجاب عليّ السيّد:

- عادت مع البعثة الصحافيّة من زيارة المصانع أمس وستجيء سمارة الليلة غالبًا.

وقال خالد عزّوز لرجب:

- حدّثنا بصراحة عن علاقتك بها.

فابتسم دون أن يجيب فقال خالد:

- هل ثمّة جرسنييرة من وراء ظهورنا؟

- كلّا، يجب أن تصدّقوني فليس بين أهل العوّامة سرّ!

- إذن فيجب أن تعترف بأوّل هزيمة تحلّ بك في حياتك.

- كلّا ولكنّي لم أركّز الهجوم كي أستعيد ذكريات الهوى العذريّ!

- إذن يوجد حبّ؟

- طبعًا.

- من ناحيتك أيضًا؟

جذب نفسًا طويلًا ثمّ زفره متأنّيًا وقال:

- لا أخلو من حبّ.

تساءلت سنيّة كامل:

- حبّ رجبيّ؟

- ولكنّه موديل جديد!

- هذا يعني أنّه لا شيء من حيث الجوهر.

- فلننتظر حتّى نرى.

فقال أحمد نصر:

- إنّها جميلة حقًّا.

فقال عليّ السيّد:

- ولكنّها ذات شخصيّة قويّة.

فقالت سنيّة كامل:

- إنّها صفة منفّرة لدرجة ما في المرأة.

فحدجتها ليلى بنظرة استياء فاستدركت في مرح:

ـ إلّا فيما ندر. . .

وقال رجب:

ـ إنّ عظمة الغزاة تقاس بمناعة الحصون التي يفتحونها. . .

فقالت ليلى زيدان :

ـ ولكنّ الذرّة لم تجعل للحصون قيمة ولا للغزاة فضلًا!

فقال أحمد نصر:

ـ إنّها رفضت زواجًا فاخرًا وهٰذا تصرّف يستحقّ الإعجاب في ذاته.

قالت سنيّة كامل:

ـ لا تحكم من قبل أن تعرف (ثمّ متوجّهة إلى رجب) ألم تلمّح لك بطريقة ما إلى الزواج؟

ـ الزواج يجيء أحيانًا بلا تلميح كالموت. . .

ـ صارحني أيمكن أن تفكّر أنت جدّيًّا في الزواج؟

تردّد قليلًا قبل أن يقول لا. أثّر تردّده في النفوس تأثيرًا عميقًا. لماذا لا أدفع بالمجمرة إلى الشرفة لأستمتع بمهرجان اللهب. إنّ توهّجه خالد لا كتوهّج النجوم الزائفة، ولٰكنّ المرأة كالغبار لا تعرف برائحتها الدسمة ولٰكن عندما تستقرّ أنفاسها المحترقة في الأعماق. وكليوباطرة على كثرة غراميّاتها لم يعرف سرّ قلبها. وحبّ المرأة كالفنّ الهادف لا شكّ في سموّ هدفه ولٰكن تحوط بنزاهته الريب. ولا ينتفع مخلوق بهٰذه العوّامة كالفئران والصراصير والأبراص. وليس كالحزن شيء يقتحم عليك المأوى بلا دعوة. وأمس قال لي الفجر عند طلوعه إنّه في الحقيقة لا اسم له.

وانتبه إليهم وهم يتناقشون في اللحوم البلديّة والسمك الروسيّ والعملة الصعبة والمعادلة العسيرة، ثمّ يضجّون بالضحك. واهتزّت العوّامة مؤذنة بقادم فساد الصمت ثمّ تمتمت سنيّة كامل:

ـ العروس!

جاءت سمارة مرحة نشيطة فصافحتهم بحرارة وهنّأتهم بالعيد، وسرعان ما سئلت عن الرحلة فأجابت بأنّها كانت رائعة، وأنّ عليهم أن يقوموا بمثلها لكي يخلقوا خلقًا جديدًا، ونقل خالد عينيه بين الحاضرين ثمّ تساءل:

ـ ترى أيمكن أن نُخلق خلقًا جديدًا؟

تبادلوا النظرات ثمّ أغرقوا في الضحك. وقال لها مصطفى راشد:

ـ الحقّ عليكِ، إنّك لم تكشفي لنا عن سرّ جدّيّتك وحماسك!

ـ لن أقع في الشرك!

ـ واضح أنّك في الإيمان القديم مثلنا، ومثلنا أيضًا في الطبقة التي تنحدر نحو الهاوية، فكيف عثرت بعد ذٰلك على معنًى؟ وخبّرينا على الأقلّ ما هو؟

تردّدت مليًّا ثمّ قالت:

ـ إنّها الحياة لا المعنى. . .

ـ نحن نشعر بدفعها في غرائزنا، وفي تلك الحدود نمارسها على خير وجه.

ـ كلّا. . .

ـ سبق أن قلنا لك. . .

قاطعته:

ـ بعض غرائزها تعبد الموت كما تعلمون. . .

ـ والمخرج؟

ـ الخروج من القوقعة. . .

كلام طليّ ولٰكنّه لا يقدّم ولا يؤخّر.

ـ الحياة فوق المنطق.

عند ذاك قال لها رجب:

ـ عودي إلى حذرك فقد وقعت في الشرك.

وجاء عمّ عبده ليغيّر ماء الجوزة فأثنى له عليّ السيّد على جودة الصنف فقال الرجل:

ـ أمس نصحني المعلّم بأن نشتري تموين شهر لأنّ المُخبرينَ يراقبونه.

ـ مؤامرة لابتزاز أموالنا فلا تصدّقه.

وسألته سمارة:

ـ وأنت يا عمّ عبده ألا تخاف المخبرين؟

فأجاب عنه مصطفى راشد:

ـ لقد طعن في السنّ لدرجة تجعله فوق القانون!

ولمع نجم في الأفق كبسمة صافية. سأله عن المخبرين وهل يراقبون المعلّم حقًّا فأجاب بأنّهم يراقبون المفيقين لا المساطيل، وأنّ النجوم تلمع كلّما اقتربت من الأرض وتخبو كلّما أوغلت في الفضاء، وأنّ بعض

الأضواء التي تزيّن القبّة صدرت في الأصل عن نجوم قد كفّنها العدم، وأنّ القوّة التي تسخّرك للاشيء أقوى من القوّة التي تسخّرك لأشياء. وتهاوى شهاب فجأة حتّى خال أنّه استقرّ وراء العوّامة فوق البنفسج. وقال:

- جميع موظّفي الإدارة أخذوا مكافآت تشجيعيّة سواي.

ولعن أحمد نصر المدير العامّ فقال أنيس:

- وقفت في الحجرة غاضبًا لأعلن احتجاجي ولكن غلبني الضحك.

وضحكوا ولكنّه هزّ كتفيه. وتذكّر عليّ السيّد كيف كانوا يحتفلون بالهجرة في القناطر فقال رجب القاضي:

- خير احتفال بالهجرة أن نهاجر...

وتألّق وجهه بخاطر جديد فيما بدا فقال:

- ما رأيكم في أن نجوب الخلوات في سيّارتي؟

- ولكنّنا لم ننسطل بعد.

- ننطلق بعد منتصف الليل.

رحّبت سمارة بالاقتراح. وقال أحمد نصر إنّ في الحركة بركة. ولم يعترض أحد إلّا أنيس الذي تمتم:

- لا.

ولكن هل تمضي القافلة في سيّارتين؟ بل في سيّارة واحدة وإلّا فلا معنى لها. كيف والسيّارة لا تتّسع إلّا لسبعة ونحن تسعة؟ فلتجلس ليلى على حجر خالد وسنيّة على حجر عليّ. وتضاعف الحماس للرحلة التي جاءت بغير تدبير سابق. وقال أنيس بفتور:

- لا.

ولكنّهم أصرّوا على اصطحابه، وهل تتمّ مغامرة كهذه بغير وليّ الأمر، ورفض أن يتحرّك أو أن يغيّر ملابسه فأصرّوا على أخذه ولو بالجلباب. وعند منتصف الليل قاموا للذهاب. وأذعن أنيس لهم على كره. ومضوا نحو السيّارة مبكّرين عن موعدهم فوقف عمّ عبده أمام كوخه كالنخلة وهو يتساءل:

- هل أنظّف المكان؟

فقال أنيس:

- أترك كلّ شيء على حاله حتّى نرجع.

- ١٥ -

تحرّكت السيّارة تحمل في المقعد الأماميّ رجب وسمارة وأحمد نصر على حين تكدّس الباقون في المقعد الخلفيّ كجسد مفلطح ذي خمسة رءوس. اتّجهت نحو شارع الهرم في شبه خلاء من المارّة والسيّارات. واقترح رجب طريق سقارة مجالًا للراحة فلاقى اقتراحه استحسانًا ممّن عرف الطريق ومن لم يعرفه. أمّا أنيس فقبع في جلبابه صامتًا وقد ضغط في جانب السيّارة الأيمن. قطعوا طريق الهرم في دقائق ثمّ انعطفوا نحو طريق سقارة وهناك انسابت السيّارة في سرعة غير عاديّة في طريق مظلم مقفر. ووضحت معالم الطريق بعض الشيء على ضوء السيّارة فإذا به يمتدّ في الظلام بلا نهاية، محفوفًا من الجانبين بأشجار الجازورينا الضخمة تتلاقى أغصانها في الأعلى، ويكتنفه من الناحيتين فضاء ريفيّ المنظر والنسمة والوحشة، يجلّله الصمت، ويشقّ جناحه الأيسر بطول الطريق ترعة قاتمة الوجه تتّضح بعض سطوحها بلون رصاصيّ غامق مميّز عمّا حولها تحت ضوء النجوم الخافت، وازدادت السيّارة سرعة وتدفّق الهواء من النافذة جافًا منعشًا مشبعًا بأخلاط النباتات. وقالت سنيّة كامل لرجب:

- هدّئ السرعة.

وقال خالد عزّوز:

- لا تجاوز السرعة اللائقة بمساطيل.

وسألته سمارة:

- أأنت من هواة السرعة؟

نحن نزور الآن قرافة فرعونيّة قديمة فلنقرأ الفاتحة.

وسرعان ما استردّت السيّارة سرعتها الأولى فاقترح خالد أن يتوقّفوا قليلًا ليتجوّلوا في الظلام! رحّبوا جميعًا بالاقتراح فمضت السيّارة تهدّئ من سرعتها، ثمّ مال بها رجب إلى رقعة متربة بين شجرتين ووقف. فتحت أبواب وغادرها أحمد وخالد وسنيّة وليلى ومصطفى وعليّ. تزحزح أنيس عن الباب المغلق وجلس جلسة مريحة لأوّل مرّة وهو ينفض جلبابه ليطلق سراحه ويفتّش بقدمه عن فردة شبشبه التي انسلتت في الزنقة. ولمّا دعوه إلى اللحاق بهم قال بإيجاز:

ـ كلّا.

فقبض رجب على يد سمارة التي همّت بالخروج وهو يقول:

ـ لا يجوز أن نترك وليّ الأمر وحده!

ابتعدت القافلة نحو شاطئ الترعة وهم يتكلّمون ويضحكون، انقلبوا أشباحًا تحت أشعّة النجوم. وسرعان ما اختفوا تمامًا في توغّلهم فلم يعد يجيء من ناحيتهم إلّا أصوات مجرّدة. وتساءل أنيس بنبرة خاملة:

ـ ما معنى هٰذه الرحلة.

فأجاب رجب معابثًا:

ـ المهم الرحلة لا المعنى!

همهمت سمارة احتجاجًا على التعريض بها ولٰكنّ أنيس تشكّى قائلًا:

ـ الظلام يبعث على النوم...

فقال له بحماس:

ـ أنعِمْ بالنوم يا وليّ الأمر.

والتفت نحو سمارة وقال:

ـ يجب أن نتكلّم عن شئوننا بصراحة تُوافِق الصدق الفطريّ المحيط بنا.

يعزّ النوم على من يشاهد كوميديا غراميّة، والصدق يحلو بعد منتصف الليل في طريق سقارة، وها هي ذراعه تزحف فوق مسند المقعد، كلّ شيء يحتمل أن يحدث في طريق سقارة.

ـ أجل لنتكلّم عن حبّنا...

ـ نا؟

ـ نا... نا... حبّنا هٰذا ما عنيته تمامًا.

ـ يتعذّر عليّ أن أتعامل مع إله.

ـ يتعذّر عليّ أنّ شفتينا لم تتعارفا بعد!

حوّلت رأسها نحو الحقول كأنّما لتصغي إلى صرّار الليل والضفادع. وتمتمت ما أجمل النجوم فوق الحقول. ترى أيّ أفكار جديدة دوّنت في المذكّرة؟ وهل يقدّر لنا أن نرى أنفسنا فوق خشبة المسرح ذات ليلة وأن نقهقه مع النظّارة؟

ـ أعرف ما تودّين قوله.

ـ هه؟

ـ إنّك لست كالأخريات؟

ـ أنت تقول ذٰلك.

ـ ولٰكنّ الحبّ.

ـ ولٰكنّ الحبّ؟

ـ إنّك لا تصدّقينني!

أين الصدق في هٰذا الظلام؟ وما تعني أصواتنا للحشرات؟ وأنت في الأربعين وعليك أن تغيّر دورك في الأفلام المقبلة. ألا تدري كيف انطوى كازانوفا الهائل في مكتبة الدوق؟

ـ لا تقل رواسب برجوازيّة من فضلك.

ـ فكيف أفسّر خوفك؟

ـ أنا لا أخاف.

ـ إذن فهي عقدة الثقة؟

ـ سمعتك تردّد ذٰلك في فلم.

ـ لعلّي لم أومن بعد بالجدّيّة ولٰكنّي آمنت بك.

ـ إنّها عقدة دون جوان!

أشباح تتراءى في الحقول أو في الرأس. كالقرية في الأيّام الخالية. الزوجيّة والأبوّة والطموح والموت. والنجوم قد عاشت بلايين السنين ولٰكنّها لم تسمع بعد عن نجوم الأرض. لا أشباح هناك ولٰكنّها أشجار وحشيّة أهملت وسط الحقول.

ـ ممكن أن ألتزم بالبراءة حتّى نتزوّج!

ـ نتزوّج!

ـ ولٰكنّ بي شيطان يثور على الروتين...

ـ الروتين؟

ـ بالإشارة تفهمين كلّ شيء ولٰكنّني لا أفهمك...

أين الشرفة وصوت تلاطم الأمواج أين؟ والجوزة ورائحة الماء وعمّ عبده أين؟ والخواطر التي تومض كالبرق ترتطم بأشباح الجازورينا ثمّ تختفي ولٰكن أين؟

ـ لماذا رفضت الزواج من الرجل المرموق؟

ـ لم أقتنع به.

ـ يعني لم تحبّيه؟

ـ إذا شئت...

ـ إنّه مثلي في الأربعين؟

ـ ليس ذٰلك.

ـ الاقتناع مهمّ في الاختيار الحرّ لا في الحبّ.

ـ لا أدري.

ـ والجنس؟

ـ سؤال جدير بالإهمال.

وصاح أنيس بصوت بدّد دأب الليل:

ـ تقعيد وتبويب للسنّ والحبّ والجنس يا ذرّيّة علماء النحو...

التفتا نحوه في انزعاج ثمّ ضحكا، وقال رجب:

ـ ظننتك نائمًا.

ـ حتّى متى نبقى في هٰذا السجن؟

ـ مكثنا ساعة.

ـ ولماذا لم ننتحر؟

ـ كنّا نحاول الحبّ!

وترامت من جوف الليل أصوات القافلة، ثمّ لاحت أشباحهم مبعثرة وهي تقترب. أقبلوا نحو السيّارة ثمّ أحاطوا بمقدّمها، أجل يا عزيزي كان من السهل قتلنا في الخلاء. وا أسفاه على أيّام الفرسان والصعاليك. وقال خالد إنّه أوشك أن يرتكب الخطيئة الأولى لولا الرائدة الزائفة، وقال مصطفى راشد:

ـ وفي الظلام قرّرنا أن نختبر عصريّتنا فاستبقنا إلى الاعتراف بأخطائنا.

أثنى رجب على براعة الفكرة فاستطرد مصطفى:

ـ واعترف كلّ منّا بآثامه...

ـ آثامه؟!

ـ أعني ما يعتبر كذٰلك لدى الرأي العامّ؟

ـ وكيف كانت النتيجة؟

ـ رائعة.

ـ كم منها ما يعدّ جريمة؟

ـ عشرات.

ـ وما يعدّ جنحة؟

ـ مئات.

ـ ألم يرتكب أحدكم فضيلة ما؟

ـ المدعوّ أحمد نصر.

ـ لعلّك تعني إخلاصه لزوجه؟

ـ وللتعليمات الماليّة ولائحة المخازن والمشتريات!

ـ وكيف كان رأيكم في أنفسكم ؟

ـ أجمعنا على أنّنا طبيعيّون لا يشيننا شيء، وأنّ الأخلاق التي تديننا أخلاق ميتة مستوحاة من عصر ميت، وأنّنا روّاد أخلاق جديدة صادقة لم ينتظمها التشريع بعد...

ـ برافو... برافو...

استسلم لمنظر الأشجار وهي تطوّق الطريق على طوله بإحكام جماليّ خارق. لو تبادلت مواضعها على جانبي الطريق لانهارت العلوم والمعارف. وها هي حيّة تسعى حول غصن تريد أن تقول شيئًا. أجل قولي شيئًا يستحقّ أن يُسمع. ولٰكن ما ألعن الضوضاء.

ـ دعوني أسمع!

فضحكوا لزعقته، وتساءل مصطفى:

ـ ماذا تريد أن تسمع؟

وتكدّسوا في السيّارة فانضغط في الباب كأوّل الأمر واختفت الحيّة تمامًا. وقال رجب:

ـ سيقودكم سائق عصريّ!

تحرّكت السيّارة وهي تزمجر كالعاصفة، ثمّ انطلقت في قوّة، ومضت تستزيد من سرعتها حتّى بلغت ذروة جنونيّة.

ندّت ضحكات هستيريّة، وأصوات متهدّجة، ثمّ ارتفعت احتجاجات واستغاثات. انهالت الأشجار متطايرة إلى الوراء واجتاح الأجساد إحساس أهوج بالتردّي في هاوية وتوقّع مُفزع بالارتطام في قرارها.

ـ جنون... هٰذا جنون.

ـ سيقضي علينا بلا رحمة.

ـ قف... يجب أن نستردّ أنفاسنا.

ـ لا... لا... حتّى الجنون يجب أن يقف عند حدّ...

لكنّه رفع رأسه في نشوة مخيفة ودفع السيّارة إلى أقصى سرعة وهو يصرخ كالهنود الحمر فاضطرّت سمارة إلى مسّ ذراعه هامسة:

ـ من فضلك...

وقال خالد بعصبيّة:

ـ ليلى تبكي فارجع إلى صوابك!

آه مات الخيال ولم يبق في الرأس إلّا ضغط الدم. القلب يهبط كأسوأ تكسات البلبعة. أطبق جفنيك

حتّى لا ترى الموت بعينيك.

وفجأة دوّت صرخة مروّعة. فتح عينيه مرتعدًا فرأى شبحًا أسود يطير في الهواء. ارتجّت السيّارة بعنف وكادت تفقد توازنها، وهصرتهم فرملة شديدة فارتطموا في المساند والأبواب وانعصروا في تأوّه وحشيّ.

ـ شخص ما تحطّم.

ـ قتل عشر مرّات.

ـ نهاية متوقّعة.

ـ وليلة سوداء.

صاح رجب بصوت أجشّ:

ـ تمالكوا أنفسكم.

وقام نصف قومة لينظر إلى الوراء، ثمّ جلس مرّة أخرى ودفع السيّارة فانطلقت. مال أحمد نصر نحوه كالمستطلع فقال بتصميم:

ـ يجب أن نهرب...

وركبهم صمت مريض فاستدرك:

ـ هو الحلّ الوحيد.

لم ينبس أحد بكلمة حتّى همست سمارة:

ـ لعلّه في حاجة إلى مساعدة؟

ـ لقد انتهى.

فقالت بصوت أعلى درجة:

ـ لا يمكن القطع برأي.

ـ لسنا أطبّاء على أيّ حال.

فوجّهت سؤالها إلى الجميع:

ـ ما رأيكمْ؟

ولمّا لم يتحرّك لسان تمتمت:

ـ أظنّ...

وإذا به يفرمل غاضبًا حتّى وقف بالسيّارة في وسط الطريق ثمّ التفت إليهم قائلًا:

ـ لن يقال غدًا إنّني قرّرت الهرب برأيي وحده، إنّي رهن إشارتكم فما رأيكم؟

ثمّ صاح محتجًّا على الصمت:

ـ أجيبوني!... أعدكم بأن أصدع بما تأمرون.

قال خالد:

ـ يجب أن نهرب، هو الحلّ الوحيد...

فقال أحمد نصر:

ـ ابتعدنا عن الطريق لتتهيّأ لنا فرصة للتفكير في مكان آمن...

ـ لا وقت للعدالة، أريد رأيًا صريحًا...

فقال عليّ السيّد:

ـ امضِ، يجب أن نهرب، ومن عنده رأي آخر فليتكلّم.

وقال مصطفى في جزع:

ـ تحرّك وإلّا ضاع الأمل.

وبكت ليلى فسرت عدواها إلى سنيّة، عند ذاك التفت رجب إلى سمارة قائلًا:

ـ إنّه إجماع كما ترين...

ولمّا لم تنبس حرّك السيّارة وهو يقول:

ـ نحن فوق الأرض لا على خشبة مسرح.

انطلقت السيّارة في سرعة رزينة وهو يقودها واجمًا مُخشَّبًا وقد غشّاهم صمت جنائزيّ. وأغمض أنيس عينيه ولكنّه رأى الشبح الأسود وهو يطير في الهواء. ترى أما زال يتألّم؟ ألم يعرف لماذا وكيف قتل؟ أو لماذا وجد؟ أم انتهى إلى الأبد؟ وهل تمضي الحياة كأنّ شيئًا لم يكن؟

استمرّت السيّارة في انطلاقها حتّى وقفت أمام العوّامة، غادروها صامتين وتخلّف رجب ليفحص مقدّمها. واستقبلهم عمّ عبده واقفًا ولكن لم يلتفت إليه أحد. وتبدّت في ضوء المصباح وجوههم الشاحبة المنهزمة. وما لبث أن لحق بهم رجب بوجه متصلّب لم ير من قبل.

ولم يعد الصمت يحتمل فقال عليّ السيّد:

ـ ليس بمستحيل أن يكون حيوانًا!

فقال أحمد نصر:

ـ الصرخة كانت صرخة إنسان...

ـ ترى هل يؤدّي التحقيق إلى التعرّف علينا؟

ـ لن نجني من الفكر إلّا الأرق.

وتمتم رجب:

ـ وإرادتنا بريئة!

فقالت سمارة:

ـ ولكنّ الهرب جريمة...

فقال بحدّة:

ـ لم يكن منها بدّ وقد أيّدها الجميع.

وراح يتمشّى بين الشرفة والبارفان ثمّ قال:

ـ إنّي حزين جدًّا ولٰكن يحسن بنا أن ننسى الموضوع كلّه.

ـ يا ليتنا ننسى...

ـ يجب أن ننسى، أيّ تصرّف آخر كان يعني القضاء على سمعة ثلاث سيّدات وبهدلة الآخرين، وسوقي أنا إلى المحكمة...

وجاء عمّ عبده فنظروا إليه في تبرّم ولٰكنّه قال دون أن يلحظ شيئًا:

ـ أيّ خدمة؟

فأشار له رجب أن يذهب فمضى قائلًا:

ـ أنا ذاهب إلى المصلّى...

تساءل رجب بعد ذهابه:

ـ ترى هل فهم العجوز شيئًا؟

فأجاب أنيس:

ـ إنّه لا يفهم شيئًا.

فقال رجب بعصبيّة:

ـ يحسن بنا أن ننصرف.

فصدّق خالد على قوله قائلًا:

ـ الفجر وشيك الطلوع...

وذهب خالد وليلى وعليّ وسنيّة ومصطفى وأحمد وقال رجب لسمارة:

ـ إنّي آسف على تكدير صفوك ولٰكن تعالي لأوصلك.

هزّت رأسها بتقزّز قائلة:

ـ ليس في تلك السيّارة...

ـ هل تؤمنين بالعفاريت؟

ـ كلّا ولٰكنّها صدمتني أنا...

ـ لا تبالغي في الخيال...

ـ الحقّ إنّي محطّمة.

ـ على أيّ حال فلن أتركك، سنسير معًا حتّى تهتدي وسيلة للمواصلات.

ووقف قبالتها ينتظر حتّى قامت.

ـ ١٦ ـ

وتناهى إليه صوت عمّ عبده وهو يؤذّن فقال إنّني وحيد. وإنّه يحسن به أن يدعو أحدًا أو أن ينضمّ إلى أحد. ولوّح بذراعه للّيل وقال إنّ السرّ قد تبخّر من رأسه فهو مفيق. وضحك من غرابة الفكرة. لٰكنّه مفيق وها هو ليل الفجر بلا صوت يتحدّث وليس للحوت من أثر. أين بقيّة الغبارة هل داستها سيّارة. والحاكم بأمر الله كان يقتل بلا حساب، ولمّا آمن بأنّه إله حرّم على الناس الملوخيّة، لماذا أذعنت للخروج معهم؟ هٰكذا توّجت قاتلًا، القتل والسرعة الجنونيّة والهرب، والمناقشة المدبّبة وأخذ الأصوات في ديوقراطيّة دامية. وبعثت الزوجة والبنت ثمّ ماتتا من جديد. ولن ينام الليلة إلّا الميّتون. والصرخة التي هزئت من كمال الأفلاك. مجهول من مجهول إلى مجهول. متى يرحم العقل نفسه ويستسلم للنوم. وصعد الحاكم بأمر الله إلى قمّة الجبل ليمارس أسراره العلويّة، ولم يعد، حتّى اليوم لم يعد، ولم يعثر له على أثر، وحتّى الساعة لم يتوقّف البحث عنه، لذلك أقول إنّه حيّ، وقد رآه رجل أعمى ولٰكن لم يصدّقه أحد، وغير بعيد أن يتجلّى للمساطيل في ليلة القدر. أمّا الإنسان المجهول فقد قُتل كما قتل النوم. وتريّث بصره الحائر عند الفريجيدير فوق أعلى بابها فاكتشف لأوّل مرّة وجه الشبه بين منحنى الباب وجبين عليّ السيّد، وأيضًا فهو له عينان تغرورقان في الضحك. وقالوا إنّ الحاكم بأمر الله قد قتل، كلّا فمن كان مثله لا يُقتل ولٰكنّه إن شاء ينتحر، وقد ألقى نظرة من فوق الجبل على القاهرة ثمّ أمر الجبل أن يدكّها، ولمّا لم يصدع الجبل بأمره أدرك أنّ جهاده عبث فانتحر، لذلك أقول إنّه حيّ وغير بعيد أن يتجلّى للمساطيل في ليلة القدر.

وترامى إليه من الحديقة صوت عمّ عبده لدى رجوعه وهو يبسمل فناداه فجاء الرجل من توّه وهو يقول:

ـ لم تنم بعد؟

فسأله بلهفة:

ـ هل أخذت بقيّة الغبارة؟

ـ كلا.

ـ فتّشت عنها في كلّ مكان ولا أدري أين ذهبت. . .

ـ لماذا لم تنم؟

ـ فرغ رأسي في الرحلة المشئومة. . .

ـ يجب أن تنام فالصباح يقترب.

وعندما تحرّك العجوز للذهاب سأله:

ـ يا عمّ عبده ألم تقتل أحدًا في حياتك؟

ـ أووه!

فتأوّه قائلًا في حنق:

ـ اذهب. . .

ومضى يذهب ويجيء حتّى تعب، وانتقل إلى الشرفة فاستلقى فوق شلتة ولٰكنّ حدّة اليقظة أيأسته من النوم. وخلوّ العوّامة من الكيف ضاعف من قلقه ووساوسه. وقال إنّه يجب أن يتحلّى بصبر النجوم. وانطفأت مصابيح الطريق فاستقلّت الطبيعة بألوانها. وتسلّل ضياء الغسق فصبغ الأفق بلون بنفسجيّ ضارب للقرنفل، ثمّ انحسر الغبش عن مولد أشجار الأكاسيا واللّبخ. ونهض يائسًا ومتحدّيًا. أسلم رأسه للصنبور طويلًا ثمّ تناول زجاجة حليب من الفريجيدير فشربها بلا رغبة. وصنع بيديه قهوة فاحتساها. وضاق بالمكان فارتدى بدلته وغادر العوّامة مبكّرًا ليتسكّع في الطرقات حتّى يأزف موعد الدواوين.

استقبل الطريق مفيقًا لأوّل مرّة. بباطن بعيد كلّ البعد عن السلطنة والخيال والضحك. وامتدّ الشارع أمامه طويلًا تكتنفه الأشجار السامقة من الجانبين تتدانى أعاليها على مرمى البصر كجبين مقطّب. لأوّل مرّة يرى العوّامات والذهبيّات الراسية على امتداد الشاطئ المرصّع بحدائقها المتشابهة والمتباينة.

العجب أنّ لكلّ عوّامة شخصيّتها ولونها وشبابها أو كهولتها ووجوه آدميّة تتراءى في نوافذها. وأعجب ما رأى نخلة محمّلة بالبلح الأصفر وما كان يصدّق أنّه توجد على الشاطئ نخلة واحدة. وثمّة عديد من الأشجار مختلفة الأحجام والأشكال والأزهار لا يدري عن أسمائها أو خواصّها شيئًا.

ومرّت به قافلة من الجمال يقودها رجل فتساءل من أين أتت وإلى أين تذهب، وداخله شعور كاليقين بأنّها تزحف في ضيق مفعم بالتوتّر والألم. وقرأ على باب عوّامة لافتة تعلن عن «دور مفروش للإيجار». ها هي شقّة خالية، وها هي امرأة لا بأس بشكلها وعمرها تنظر نحوه من الدور الأعلى، ولن يستطيع الخيال أن يحصي الاحتمالات الممكن أن يصادفها ساكن جديد أعزب. ولٰكن كيف يمكن أن ينطوي نهار المفيق؟ واعترضه جذع شجرة فاستوقفه لضخامته وغلظه فرفع عينيه إلى الغصون المنتشرة في الهواء كقبّة هائلة مغروسة الهامة في سحابات الصباح الشفّافة الدانية ثمّ رجع إلى الجذع المعمّر هابطًا إلى جذور كالحة متفرّعة عن أصله وضاربة في أرض الطوار كأنّما تنشب فيه أظافرها في اندفاعة متوتّرة غاصّة بالتحدّي والألم. وهاك رقعة من اللحاء الخارجيّ قد تآكلت كاشفة عن طبقة من اللحاء الداخليّ ذات لون أصفر باهت على هيئة بوّابة قوطيّة استوت أمامه بطول قامته داعية إيّاه للدخول. وقال إنّ طول عمر الشجرة ـ وحده ـ يكفي لإقناع من لا يريد أن يقتنع بأنّ النبات كائن لا عقل له. ومضى وهو يمعن النظر فيما حوله ومتسائلًا في غرابة ترى ألون الوجود أحمر أو أنّه أصفر، وهل لحاء الشجر كجلد ميت، ولٰكن متى رأيت جلد ميت! وثبت له أنّ شيئًا ما في الطريق يعترضه متحدّيًا معاندًا مثيرًا للألم. وتذكّر بغتة أنّه لم يحلق ذقنه. وأنّه لم ينس ذٰلك قطّ وهو مسطول، وأنّ ذٰلك سيزيد من تعقيد الأمور. وسأله صوت عن الساعة فلم يعن بإجابته ولم يلتفت نحوه، وسار متثاقلًا حتّى لوّح له بائع الجرائد بصحف الصباح فمضى عنه في غير مبالاة.

إنّه لم يقرأ جريدة منذ دهر طويل، ولا يعرف من الأحداث إلّا ما تلوكه ألسنة المساطيل في هذيانها الأبديّ. مَن الوزراء وما السياسة وكيف تسير الأمور؟ انظر يا سيّدي. ما دمت تسير في طريق شبه خالٍ دون أن يهاجمك قاطع طريق، ما دام عمّ عبده يجيئك بالغبارة كلّ مساء، ما دام الحليب متوفّرًا في الفريجيدير، فالأمور تسير حتمًا سيرًا حسنًا. أمّا آلام الإفاقة، وحوادث السيّارات، وأحاديث الليل المغلقة، فلم يعرف بعد على من تقع مسئوليّة حلّها.

وذهب إلى الإدارة مبكّرًا، وما كاد يستقرّ على كرسيه الخشبيّ حتّى اجتاحته رغبة لا تقاوم في النوم فطرح رأسه على المكتب وغاب في سبات عميق. ودعاه زملاؤه إلى مناقشة عن لائحة العقوبات فقال لهم إنّ خير ما تصلح به الحكومة هي لائحة الوصايا العشر وبخاصّة بند السرقة وبند الزنا. وغادر الحجرة إلى القرية فأحاط به غلمان الصبا ورموه بالتراب فانقضّ عليهم رافعًا يده بحجر ولٰكنّ عديلة قبضت عليها وقالت له أنا زوجتك فلا تضربني فسألها عن البنت فقالت إنّها سبقت إلى جنّة الخلد وإنّها تدور على الخالدين بالماء العذب وفرح جدًّا وقال لها إنّ عمرًا طويلًا انقضى وهو يحاول عبثًا أن يتذكّر ذٰلك وإنّ طريق الجنّة محفوف بأشجار الجازورينا ويتعذّر السير فيه ليلًا ولٰكنّ السيّارة تقطعه في ثوانٍ مرهقة بالرعب ويصرخ الإنسان ولٰكنّ صوته ينحبس في حنجرته ولا يسمعه أحد فطارت في الهواء ثمّ سقطت فوق غصن شجرة فقال بعجب إذن هو أنت فقالت كيف لم تعرف فقال إنّه الليل يقطر سوادًا ولا يُرى فيه شيء ويتكلّم كثيرًا بلا جدوى فقالت خبّرني عمّا تريد فقال أريد ما فتّشت عنه في كلّ مكان ولٰكن ها هو قادم على هيئة سحابة داجنة وعمّا قليل ستمطر السماء مطرة واحدة ولٰكنّها تكفي لبلّ ريق المنصهر المعذّب ثمّ مدّ نحوها ذراعه ولٰكنّه لمح عمّ عبده قادمًا من أقصى الطريق راكضًا بكلّ قوّته لا يتوقّف ولا يلتفت غير أنّه شعر طيلة الوقت بالعجوز وهو يوشك أن يطبق عليه وبلغ العوّامة فاندفع فوق الصقالة ثمّ أغلق الباب وراءه ووجد لدهشته المجلس مكتملًا والإخوان يتضاحكون كعادتهم فعانقهم وهو لا يصدّق وقال لهم لقد حلمت حلمًا مزعجًا فسأله رجب عمّا رأى فقال رأيت مجلسنا في سيّارتك وأنت تدفعنا بجنون فصدمنا رجلًا فطار في الهواء فضحكوا طويلًا وقال له مصطفى أحكم اللحاف حولك عند النوم فتأوّه قائلًا أسطلوني فقدّمت له سنارة الجوزة وهي تقوم على خدمتها فجذب منها نفسًا طويلًا عميقًا حتّى دار رأسه وجعل يضحك منها ويقول ألم نقل لك فنحّت الجوزة جانبًا وقامت فتمنطقت بالإشارب وراحت ترقص رقصة بلديّة فدعاهم إلى التصفيق ولٰكنّه لم يجد منهم أحدًا أجل لم يكن في العوّامة من أحد سواهما فراح يصفّق لها وحده ثمّ ضمّها بين ذراعيه وهو يقول لقد فتّشت عنك في كلّ مكان وسألت عنك عمّ عبده وعند ذاك تهاوت الضربات فوق الباب وارتفع صوت عمّ عبده وهو يصيح افتح. فجرّها من يدها إلى الفريجيدير واندسّا فيها ثمّ أغلق الباب واشتدّت الضربات حتّى زلزل المكان واستمرّ الزلزال حتّى فتح عينيه فرأى زميله وهو يهزّه قائلًا:

ـ صحّ النوم!

دَعَكَ عينيه فقال الآخر:

ـ اذهب إلى المدير العامّ فإنّه يريدك.

ونظر في الساعة فإذا بها تدور في العاشرة، قام مترنّحًا ثقيل القلب فمضى إلى المرفق فغسل وجهه ثمّ ذهب إلى مكتب المدير العامّ ومثل بين يديه. حدجه الرجل بنظرة باردة وقال:

ـ أحلام سعيدة!

فلم ينبس من الألم والقرف فقال الرجل:

ـ رأيتك بعينيّ في سابع نومة وأنا مارّ أمام الإدارة.

ـ أنا مريض.

ـ كان يجب أن تطلب إجازة.

ـ لم أشعر بالمرض إلّا عند حضوري.

ـ الحقيقة أنّك مريض قديم ولا شفاء لك.

وجرفه غضب مفاجئ فهتف بخشونة:

ـ لا...

ـ أنت تخاطبني بهٰذه اللهجة!

ـ قلت إنّي مريض فلا تهزأ منّي.

ـ لقد جننت ما في ذٰلك شكّ.

فصرخ بصوت كالرعد:

ـ لا...

ـ يا مجنون ها هي عاقبة الإدمان!

ـ احفظ لسانك أحسن لك!

انتتر الرجل واقفًا ممتقع الوجه وصاح به:

ـ يا وقح يا مجرم يا مدمن...

انقضّ بلا وعي على النشّافة ورماه بها فأصابت صدره فوق رباط الرقبة. ضغط الرجل على زرّ الجرس

وهو يرتعد فصاح أنيس:

ـ إن نطقت بكلمة أخرى قتلتك!

أحاط به صمت ثقيل في مكتبه ولٰكنّه لم ير أحدًا. جلس ساهمًا منفصلًا تمامًا عمّا حوله. حتّى الألم لم يعد يشعر به. وقبيل الانصراف اقترب منه زميله وهمس في إشفاق:

ـ يؤسفني أن أخبرك بأنّ أمرًا قد صدر بوقفك عن العمل وإحالتك إلى النيابة الإداريّة.

ـ ١٧ ـ

استسلم للمقادير. وقال إنّ شرّ البليّة ما يضحك. وهو يتناول غداءه أخبره عمّ عبده بأنّه لم يجد شيئًا عند التاجر وبأنّهم أخطئوا في إغفال نصيحته. والعمل؟ سيجرّب حظّه عند تاجر آخر ولٰكنّه غير متأكّد من نتيجة مسعاه. ها المصائب تتجمّع كسُحُب الشتاء. واستلقى على فراشه وراح يطالع فصولًا من عصر الشهداء. قرأ طويلًا ولٰكنّ النوم لم يأت. سقط شهيد في إثر شهيد ولٰكنّ النوم لم يأت. وكره الرقاد فقام يتسلّى بإعداد المجلس. عندما تتكاثر المصائب يمحو بعضها بعضًا وتحلّ بك سعادة جنونيّة غريبة المذاق. وتستطيع أن تضحك من قلب لم يعد يعرف الخوف. ولنا فوق ذٰلك نزهة لطيفة في النيابة الإداريّة. ما اسمك بالكامل: أنيس زكي ابن آدم وحوّاء، سنّك: ولدت بعد مولد الأرض بألف مليون سنة، وظيفتك: بروميثيوس مسطولًا، مرتّبك: ما قيمته خمسة وعشرون كيلو من اللحم البلديّ. والتاجر على أيّ حال يجب أن يوجد. ودخل الشرفة فجذب سمعه صوت عمّ عبده وهو يؤمّ المصلّين لصلاة العصر. تقدّمهم كالطود واصطفّوا خلفه كالأقزام ما بين خفير عوّامة وقرويّ وخادم. ومخرت النيل قافلة من المراكب الشراعيّة محمّلة بالأحجار. وتتابعت الأمواج سمراء ضاربة للاخضرار في هدوء رتيب كأنّ الطمأنينة تحكم الكون. واستوت على الشاطئ أشجار الأكاسيا كالبركات مستقلّة بكون آخر.

وجاء عمّ عبده عقب الصلاة ولٰكنّه وجد المجلس جاهزًا. ورجع أنيس إلى الصالة وهو يقول له مداعبًا:

ـ تطاردني يا عجوز؟

ـ هه؟

ـ رأيتك في المنام تطاردني.

ـ خيرًا إن شاء الله.

ـ ماذا تصنع لو طردتك من العوّامة؟

وهو يضحك:

ـ جميع الناس يحبّون عمّ عبده.

ـ أتحبّ الدنيا يا عجوز؟

ـ أحبّ كلّ ما خلق الرحمٰن.

ـ ولٰكنّها كريهة أحيانًا. أليس كذٰلك؟

ـ الدنيا حلوة ربّنا يطوّل عمرك.

ـ إيّاك وأن ترجع خالي اليدين.

ـ ربّنا موجود.

وتلقّت العوّامة الهزّة المألوفة فنظر أنيس نحو الباب ليرى القادم المبكّر. وما كاد عمّ عبده يختفي حتّى ظهرت سمارة، متجهّمة شاحبة الوجه تعكس عيناها توجّسًا وقلقًا وقد ركد ماء الشباب في وجهها، صافحته في آليّة ثمّ جلسا متباعدين. وانتبهت إلى المجلس المعدّ بغرابة وتمتمت:

ـ أيمكن أن تمضي الحياة كما كانت؟

ـ لا شيء يكون كما كان.

قالت وهي تغمض عينيها:

ـ لم أنم أمس دقيقة واحدة.

ـ ولا أنا. . .

فتأوّهت قائلة:

ـ مات فيّ جانب لا يعوَّض.

ـ الحقّ أنّ الموت يطاردنا بشدّة منذ أمس.

مدّت له يدها بالجريدة المسائيّة وهي تقول:

ـ جثّة رجل في الخمسين، شبه عار، كسر في الفقار والساقين وعظام الرأس، دهمته سيّارة وهرب الجناة، لم تعرف هويّته كما لم يعرف له أهل.

قرأ الخبر ثمّ رمى بالجريدة قائلًا:

ـ عدنا إلى الجحيم.

ـ لم نخرج من الجحيم.

ـ نحن لم نخرج من الجحيم.

ـ نحن في الواقع قتلة.

ـ نحن في الواقع قتلة.

ثمّ وهو ينظر إلى النيل:

ـ وفضلًا عن ذٰلك فإنّي دفعت إلى باب التشرّد.

وقصّ عليها قصّة المدير العامّ. وتبادلا نظرات ميتة وهي تعرب عن أسفها. ثمّ سألته:

ـ ألك مورد غير الوظيفة؟

فضحك ضحكة أغنت عن الجواب، وقال:

ـ إنّهم يدفعون أجرة العوّامة وكافّة تكاليف السهرة.

ـ الرفت عقوبة نادرة الحدوث.

ـ سيقول لكلّ كائن إنّني مدمن منحلّ!

ـ يا للبلاء لقد تراكمت المصائب.

وانطوى كلّ في قوقعته.

وإذا بالعوّامة تخفق في هزّات متتابعة ثمّ جاء الصحاب جميعًا بوجوه غريبة. وقال أنيس لنفسه إنّهم يتوقّعون متاعب من ناحية سمارة. وسأله رجب ـ وهو يشير إلى الجوزة ـ لماذا لا يعمل فأجابه بأنّه لا يوجد شيء، وقال لنفسه إنّه يتظاهر بالاستهانة ولٰكن دون جدوى. وتبيّن أنّهم اطّلعوا على الخبر في الجريدة. أجل. وما لبثوا أن علموا بمأساته مع المدير العامّ. وتأوّه عليّ السيّد قائلًا: «يا للمصائب»، وقال أحمد نصر باهتمام:

ـ يجب أن نتخلّص من الجوزة وأدواتها في الحال.

وحدجوه باستنكار فاستطرد:

ـ لا أستبعد أن يعمل المدير على الإيقاع بالعوّامة!

وفي تصميم قام من فوره وراح يرمي بالجوزة والكراسي والمعسّل وسائر الأدوات المساعدة إلى النيل، ثمّ ارتمى على الشلتة وهو يقول:

ـ اعتبروا العوّامة منطقة خطر حتّى ينجلي الموقف.

وتبادلوا نظرات كئيبة عارية من التّصنّع حتّى تمتم أنيس:

ـ الجنّة ولّت!

ولمّا لم ينبس أحد رجع يقول:

ـ كانت خرجة مشئومة، لماذا فكّرتم في الخروج؟

فقال رجب بصوت حادّ:

ـ علينا أن ننسى الماضي.

أجل لننسى ولٰكنّ وجوهكم لا تريد أن تنسى.

ونفخت سمارة قائلة:

ـ كيف ننسى ووراءنا قتيل!

فقال بصوت أجشّ:

ـ لذٰلك يجب أن ننسى.

ـ ولٰكنّه فوق المستطاع.

رماها بنظرة طويلة. لا يدري أحد بما يدور في رأسه، ولا يدري أحد عن محنة الحبّ شيئًا. ترى أتسوء الأمور أكثر ممّا ساءت؟ وقلّب رجب عينيه في الوجوه ثمّ قال:

ـ خمّنت ما سيحدث هنا من قبل أن أحضر، ونحن الآن على بُعْد من الحادث يتيح لنا التفكير في هدوء، فعلينا أن نتكاشف.

فقال عليّ السيّد في ضجر:

ـ ألم نعتبر كلّ شيء منتهيًا؟

ـ يبدو أنّ لسمارة رأيًا آخر!

فقالت سنيّة بقلق:

ـ لا تعودوا إلى ذٰلك الحديث. إنّي منهارة تمامًا.

وقالت ليلى:

ـ قضيت ليلة جهنّميّة وأمامنا عذاب طويل، حسبنا ذٰلك!

ـ ولٰكن يبدو ـ كما قلت ـ أنّ لسمارة رأيًا آخر...

التفت عليّ السيّد نحو سمارة وقال بنبرة رزينة حزينة:

ـ سمارة، خبّريني عمّا ترين، جميعنا محزونون معذّبون، لم يذق أحدنا النوم، ليس بيننا من يحبّ القتل، أو حتّى يتصوّره، ونحن نشاركك عواطفك، وقد حزّ في نفوسنا الخبر، رجل مسكين لعلّه من مهاجري الريف، مجهول بلا أهل، ولا سبيل أمامنا لإصلاح الخطأ، هل من سبيل؟ إذا ظهر له أهل فسنجد وسيلة لتعويضهم، ولٰكن ما العمل الآن؟

لم تنبس ولم ترفع إليه عينًا، فواصل حديثه:

ـ لعلّك تقولين لنفسك إنّ الواجب واضح. من الناحية النظريّة هٰذا حقّ، كان يجب أن نتوقّف لا أن نهرب، وعندما نتأكّد من موته نمضي من فورنا إلى

النقطة وندلي باعترافنا، ثمّ نقدّم للمحاكمة لينال كلّ جزاءه، أليس كذلك؟

فقال رجب:

- جزائي السجن بلا ريب!

- والفضيحة المزرية للجميع بما فيهم أنت!

فقال مصطفى:

- ولن يبعث الرجل بعد ذلك حيًّا، ولن يفيد من تضحياتنا...

وعاد عليّ السيّد يقول:

- إنّي أعرفك خيرًا من الآخرين، فتاة مثاليّة بكلّ معنى الكلمة، ولكن لا بدّ من شيء من المرونة لكي نواجه أعباء الحياة. ليس الحادث المؤسف بقضيّة وطن ولا مبدأ، المسألة بكلّ بساطة: مجهول قتل خطأ، وهناك مسئوليّة لا أنكر، حماقة مألوفة ويا للأسف، ولكن هل نهون عليك جميعًا، هل تريدين حقًّا التضحية بسعادتنا وكرامتنا، بل دعيني أقول بسعادتك وكرامتك أنت أيضًا، في سبيل لا شيء؟!

تمتمت وهي تتنهّد:

- لن أصلح بعد ذلك لشيء!

- وَهْم لا أساس له، آلاف يُقتلون كلّ يوم بلا سبب، والدنيا بعد ذلك بخير، وستجدين دائمًا فرصة للعمل، فلن يقعد بك تسامحك الواجب نحونا عن نشاطك الصحفيّ الذكيّ ولا عن همّتك المعروفة في الوحدة الأساسيّة، ولا ولا ولا، بل لعلّه سيدفعك إلى مضاعفة الجهد...

- كما يدفع أحيانًا الشعور بالإثم؟

- إنّه ليس بإثمك على أيّ حال، وهو خليق بأن يحملنا على إعادة التفكير في كلّ شيء، أمّا رجب فقد تطوّر بالفعل، بفضلك، على الأقلّ فيما يتعلّق بنظراته نحو المرأة، فكّري بذلك كلّه بقلب سمح.

فقالت في قهر شديد:

- إنّي صائرة إلى موت محقّق!

فقال خالد عزّوز:

- كلّنا صائرون إلى الموت...

- إنّما أعني موتًا أفظع...

- ليس ثمّة ما هو أفظع من الموت.

- ثمّة موت يدركك وأنت حيّ.

- لا لا، لا يجوز أن يضحّى بنا بدافع من تركيب لفظيّ.

وإذا برجب يصيح بانفعال غاضب شديد:

- ألا يهمّك أن تنشر الصحف أنّك كنت بصحبة رجال سيّئي السمعة في النصف الأخير من الليل وهم يعبثون ويقتلون؟

وهاجتها حدّته فهتفت بحدّة:

- لا يهمّني!

فتمادى في الغضب صائحًا:

- إنّك تمثّلين دور الشجاعة مطمئنّة إلى معارضتنا الإجماعيّة...

- كذب!

- إذن هلمّي إلى النقطة...

فصاح مصطفى راشد حانقًا:

- إنّ ما نبنيه في دهر تهدمه أنت بحماقتك في ثانية واحدة؟

وقامت إليه سنيّة فلمست يده ملاطفة وقبّلت جبينه حتّى عدل عن المناقشة، ثمّ وقفت أمام سمارة وسألتها برقّة:

- أتعنين حقًّا أن تضحّي بنفسك وبنا؟

فأجابت بإصرار وهي لم تزل تحت وطأة الغضب:

- نعم!

- ليكن، افعلي بنا ما تشائين.

وقبل أن تنطق سمارة بكلمة دخل عمّ عبده فخرست الألسنة، أعطى أنيس لفافة صغيرة وهو يقول:

- وجدتها بطلوع الروح...

فقال أحمد نصر لأنيس:

- تخلّص منها في الحال.

- لا...

- لقد قلت ما فيه الكفاية.

- ليس أسهل من رميها في الماء عند الضرورة.

وتساءل عمّ عبده:

- ماذا جرى؟

فأعادها أنيس إليه ليعدّ فنجال قهوة فمضى بها

الرجل. وقد غيّر مجيئه الجوّ بعض الشيء. وساد الصمت حتّى قال مصطفى راشد متأسّفًا:

ـ عين أصابتنا...

فقال خالد عزّوز:

ـ فلنلفّ سجائر لعلّ وعسى...

وتهلّل وجه السيّد بتفاؤل مباغت فقال برجاء:

ـ أراهن على أنّ رجب سينجب أطفالًا!

وإذا بأنيس يضحك. ضحك رغم توتّر أعصابه وقال:

ـ عملتم من الحبّة قبّة.

ولمّا يعره أحد انتباهًا قال:

ـ سمارة فتاة ذات مبادئ ولكنّها أيضًا امرأة ذات قلب...

فنظروا إليه محذّرين في استياء واضح ولكنّه مضى يقول:

ـ نحن مدينون للحبّ...

وأكثر من صوت رجاه أن يسكت ولكنّه أكمل قائلًا:

ـ فهو الذي أنقذنا من حكم المبادئ.

تأفّفت سمارة في عصبيّة ثمّ أجهشت في بكاء عنيف كأنّه إعصار اجتاح أعصابها. واقترب عليّ السيّد منها متأثّرًا محاولًا تهدئتها. أمّا رجب فقد انقضّ على أنيس صارخًا:

ـ أنت!... أنت!

وأهوى بقوّة على وجهه بكفّه!

ـ ١٨ ـ

قبض أحمد نصر على ذراعه إلى الوراء بشدّة وهو يقول بصوت متهدّج:

ـ أنت مجنون!... أيّ مصيبة وأيّ جنون...

وكفّت سمارة عن البكاء فاغرة فاها. وحلّ صمت كالموت. وتلقّى أنيس الصفعة دون أن يتحرّك. ونظر إلى رجب طويلًا دون أن ينبس. وأراد مصطفى أن يقترب ليواسيه ولكنّه مدّ ذراعه إلى الأمام ليصدّه وهو يقول:

ـ عن إذنك...

ـ خطأ مفجع بلا أدنى شكّ ولكنّ المذنب صديق أبيض القلب أعماه الغضب.

فصرخ بصوت كالرعد:

ـ لا...

وجاء عمّ عبده كأنّما يلبّي نداءه وهو يقول:

ـ القهوة فوق النار.

فلوّح بيده أن يذهب فذهب. وقام واقفًا وراح يتمشّى بعرض الصالة ذهابًا وإيابًا. وجعل يكلّم نفسه بصوت لا يسمعه أحد. وفجأة وثب على رجب وأطبق بيديه على عنقه. وبسرعة ضربه رجب على ذراعيه ليخلّص رقبته فنطحه أنيس في أنفه ثمّ انهالا على بعضهما ضربًا ولكمًا وركلًا. واندفع الآخرون للحيلولة بينهما ولكنّ أنيس ترنّح وتهاوى ساقطًا على الأرض. وظهر عمّ عبده عند الباب فوقف ينظر ذاهلًا ثمّ تمتم:

ـ لا... لا...

فأمره أحمد نصر بالذهاب ولكنّه مضى يردّد:

ـ لا... لا...

ثمّ تراجع تحت ضغط النظرات وهو يهزّ رأسه أسفًا، وتعاون مصطفى راشد وعليّ السيّد على مساعدة أنيس للجلوس على الفوتيل وأحاط الآخرون برجب الذي راح يمسح الدم النازف من أنفه، وبسط أنيس يديه على ذراعي الكرسي ومال برأسه إلى مسنده ثمّ أغمض عينيه نصف إغماضة. وقامت ليلى وسنيّة بإسعاف أوّليّ فجاءتا بماء وقطن ومسحتا الدم عن شفته السفلى وحاجبيه ثمّ بلّلتا وجهه وعنقه. أمّا سمارة فقد تقلّص وجهها ألمًا وغمغمت بكلمات لم يسمعها أحد. وضرب أحمد نصر كفًّا على كفّ وهو يقول:

ـ لم أكن أتصوّر...

فتمتم عليّ السيّد:

ـ يا للخراب!...

ـ لقد ركبنا الشيطان فلم يعد لنا من وجود...

واغرورقت عينا سنيّة بالدموع وقالت:

ـ من يصدّق أن يحدث ذلك في عوّامتنا!

فعادت سمارة إلى البكاء ولكن دون أن يندّ عنها صوت، وفتح أنيس عينيه، لم ينظر إلى أحد، ومال

عليّ السيّد عليه وهو يسأل:

ـ كيف حالك؟

لكنّه لم يجب فقال صاحبه:

ـ سأدعو طبيبًا بعد إذنك...

عند ذاك قال أنيس:

ـ لا داعي لذٰلك.

ـ الحزن قتلنا صدّقني، حتّى رجب نفسه. وهو يودّ مصالحتك.

فقال بهدوء غريب:

ـ كلّ شيء يهون إلّا...

وازدرد ريقه ثمّ استطرد:

ـ إلّا جريمة القتل...

لم يبد على أحد أنّه فهم شيئًا. واعتدل هو في جلسته، وقال عليّ السيّد:

ـ أنت الآن أحسن؟

فقال بالهدوء نفسه:

ـ كلّ شيء يهون إلّا جريمة القتل...

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنّ العدالة يجب أن تتحقّق...

ـ رجب على استعداد...

فقاطعه:

ـ إنّما أعني قتل الرجل المجهول...

تبادلوا نظرات غريبة ثمّ هزّ عليّ السيّد منكبيه قائلًا:

ـ الأهمّ أن تعود إلى حالتك الطبيعيّة...

ـ عدت إليها تمامًا فشكرًا، إنّي أتكلّم عمّا يجب عمله بعد ذٰلك...

ـ ولٰكنّني لا أفهم ما تعنيه يا عزيزي؟!

ـ ليس كلامي غامضًا بحال، إنّي أعني القتيل المجهول، وأقول إنّ العدالة يجب أن تتحقّق!

ابتسم عليّ السيّد ابتسامة حائرة بلهاء ثمّ قال:

ـ ها أنت ترانا في غاية من التعاسة ولم يبقَ إلّا أن ننفجر هالكين...

ـ يجب أن تأخذ العدالة مجراها...

ـ الكلام يتعبك ولا شكّ.

ـ يجب الإبلاغ عن الجريمة فورًا...

ـ إنّك لا تعني ما تقول.

ـ بل أعنيه بكلّ دقّة ووعي.

ـ شيء لا يصدَّق...

ـ صدّقه فهو حقيقيّ مؤكَّد.

ـ ولٰكنّ القضيّة لم تهمّك قطّ!

ـ لا يهمّني الآن سواها...

وجاء أحمد بكأس ويسكي ولٰكنّه رفضه شاكرًا فأراد أن يلفّ له سيجارة إلى أن تنضج القهوة ولٰكنّه قال بأنّه سيفعل ذٰلك بنفسه في الوقت المناسب. وقالت له ليلى برجاء:

ـ بالله لا تزدنا تعاسة!

ـ إنّه قضاء لا رادّ له...

ـ لقد انتهينا من ذٰلك وسمارة نفسها قد رحمتنا...

ـ قلت ما فيه الكافية...

وقال خالد بعصبيّة:

ـ يا جماعة علينا أن نذهب، لقد مسّنا الجنون ولن يزيده اجتماعنا إلّا استفحالًا.

ـ ولٰكنّي سأذهب إلى النقطة بنفسي فليكن ذٰلك في علمكم...

تركّزت عليه الأنظار بذهول. وحوّل رجب وجهه إلى النيل لينفخ غضبه في الهواء. وقال أحمد نصر:

ـ لست في كامل وعيك.

ـ بل في كامل وعيي.

ـ أتدري ما هي العواقب؟

ـ أن ينال كلّ جزاءه.

فصاح رجب بأعلى صوته:

ـ إنّه يائس مرفوت ولا يهمّه في شيء أن يندكّ المعبد على مَن فيه!

فصاح به عليّ السيّد:

ـ اسكت أنت. إنّك المسئول الأوّل عن كلّ شيء فلا تنطق بكلمة.

ثمّ التفت إلى أنيس قائلًا بحرارة:

ـ أتصوّرت حقًّا أن نتخلّى عنك في محنتك؟ ليس من المحتوم أن ترفت، وإذا رفتّ فنحن وراءك ومعك حتّى تجد عملًا آخر...

ـ شكرًا ولٰكن لا علاقة بين هٰذا وذاك...

ـ بالله كن معقولًا، لا سبب في الدنيا كلّها يبرّر موقفك، حتّى سمارة اقتنعت برأينا، إنّي لا أفهمك!

فصاح رجب:

ـ ألا تفهم حقًّا؟

ـ اسكت أنت.

ـ ألم تفهم أنّه مصمّم على الانتقام منّي؟

ـ اسكت أنت.

ـ لقد جنّ ولا فائدة من مناقشة مجنون.

ـ قلنا لك اسكت.

ـ فلتدكّ السماوات على الأرض قبل أن أسمح لمدمن مجنون بأن يدمّر مستقبلي.

وأرادت سمارة أن تقول شيئًا ما ولكنّ رجب لوّح نحوها بقبضته غاضبًا وصاح:

ـ ماذا تريدين يا رأس البلوى؟

فانكمشت في ذعر، أمّا رجب فانقلب مجنونًا ووثب الافتراس من سحنته ثمّ صرخ:

ـ إذا لم يكن من تهمة القتل بدّ فلتكن جريمة قتل حقيقيّة.

تكتّل الرجال حوله في تصميم وجعل أحمد يقول يائسًا:

ـ كارثة... ستقع كارثة فتقتلعنا جميعًا...

وظهر عمّ عبده مرّة أخرى وهو يقول:

ـ وحّدوا الله!

فصاح به أحمد نصر:

ـ غرّ... اذهب بعيدًا وإيّاك أن تعود!

ولمّا ذهب العجوز قال لأنيس:

ـ أنيس، ها أنت ترى، باسم صداقتنا أعلن أنّك لا تعني ما تقول.

فقال أنيس بإصرار:

ـ لن أتراجع أبدًا.

ـ دينك ودين أهلك!

والتفت نحو سمارة داعيًا إيّاها بنظرة جزعة وجلة إلى التدخّل. وتركّزت الأنظار عليها واضحة في حثّها على الكلام وفي تحميلها مسئوليّة ما وقع معًا. وركبها القهر والحرج. ونظرت نحو أنيس، وازدردت ريقها، ثمّ همّت بالكلام ولكنّه سبقها قائلًا:

ـ لا تراجع. أقسم لكم على ذلك!

وهجم رجب محاولًا فكّ الحصار المضروب حوله ليثب عليه ولكنّهم شدّدوا في حصاره وقبضوا على ذراعيه ووسطه. وبذل كلّ قوّته للتخلّص من أيديهم دون جدوى. وعند ذاك قام أنيس ثمّ سار نحو باب المرافق فاختفى دقيقة ثمّ رجع قابضًا على سكّين المطبخ ووقف بين الباب والفريجيدير متوثّبًا للدفاع عن نفسه حتّى الموت. وصرخت النساء. وهدّدت سنيّة باستدعاء البوليس عند أوّل بادرة شرّ. وضاعفت السكّين من ثورة رجب فانهال على أنيس سبًّا وقذفًا، وكرّر المحاولة للوثوب عليه حتّى صاح خالد عزّوز:

ـ يجب أن نذهب في الحال.

فصرخ رجب:

ـ سأقضي عليه قبل أن يقضي عليّ.

ولكنّهم دفعوه نحو الباب الخارجيّ رغم مقاومته، وعنفت حركاته للتخلّص منهم فعنف كذلك إصرارهم حتّى انقلب ما بينهم إلى ما يشبه المعركة. وهدّدهم إذا لم يتركوه بالضرب فهدّدوه بدورهم بالضرب.

وتابع أنيس المنظر بغرابة، إنّهم يتصارعون، الوحش يريد أن يقتل. استماتوا في الدفاع فلم يغلبهم.

وكفّ فجأة عن الهجوم. ها هو يقف جامدًا وهو يلهث ثمّ ينتفض غضبًا، وبرقت في عينيه نظرة جنونيّة، وصرخ:

ـ إنّكم تتوهّمون أنّني وحدي المسئول!

ـ لندع الكلام حتّى نغادر العوّامة.

ـ لقد هربتم معي!

ـ فلنتكلّم في الخارج بهدوء.

ـ كلّا يا أوغاد، إنّي ذاهب، سأذهب إلى النقطة بنفسي، إنّي أتحدّى الخراب والموت والشياطين...

واندفع إلى الخارج وهم في أعقابه. وتبعتهم في الحال سنيّة وليلى. وارتجّت العوّامة ومادت تحت الأقدام الثقيلة الغاضبة.

وضع السكّين فوق الخوان ومضى إلى أقرب شلتة ثمّ جلس غير بعيد من سمارة. نظر كلاهما إلى الليل خارج الشرفة مستسلمًا للصمت والوحدة. لم يتبادلا

نظرة ولا كلمة ولكنّه قال لنفسه إنّ الدنيا قد زلزلت وإنّها على وشك الانفجار. وشعر بأقدام تقترب مألوفة اللغة، فلم يلتفت حتّى وقف العجوز وراء ظهره وقال:

ـ ذهبوا. . .

فلم يجبه فعاد الآخر يقول:

ـ لعب الشيطان بكم حتّى شبع.

فلم يخرج من صمته فقال العجوز:

ـ جئتك بالقهوة.

فتحسّس فكّيه وقال:

ـ اتركها أمامي.

ـ خذها في الحال من يد مباركة لتسكّن الألم.

وقرّب الفنجان من فيه بإصرار حتّى احتساه فقال العجوز:

ـ لتكن هٰذه المرّة للشفاء.

ثمّ تحوّل عن موقفه ماضيًا نحو الباب ولكنّه توقّف عند البارقان وقال:

ـ اعتزمت أن أفكّ سلاسل العوّامة لو كان عاد إلى ضربك!

فقال أنيس بدهشة:

ـ لكنّني كنت سأغرق مع الآخرين؟

فقال وهو يمضي:

ـ على أيّ حال ربّنا سترا

وضحك أنيس ضحكة خافتة، وسألها:

ـ أسمعت ما قال العجوز؟

فسألته بدورها:

ـ ألا ترى أنّه يجب استدعاء طبيب؟

ـ كلّا، لا حاجة إلى ذٰلك.

وأشعرته إثارة الموضوع بالألم من جديد ولكنّه كان طفيفًا وكانت القهوة قد استقرّت في معدته.

وسألته مرّة أخرى:

ـ أيذهب حقًّا إلى النقطة؟

ـ لا أدري شيئًا عمّا يقع في الخارج.

فتردّدت قليلًا ثمّ سألته:

ـ ما الذي جعلك. . .

وقطعت عبارتها فأدرك معناها ولكنّه لم يجب فسألته:

ـ الغضب؟

ـ ربّما.

ـ ربّما؟

ثمّ وهو يبتسم:

ـ وأردت أيضًا أن أجرّب قول ما يجب قوله!

تفكّرت قليلًا ثمّ سألته:

ـ لماذا؟

ـ لا أدري بالضبط، ربّما لأمتحن كيف يكون أثره.

ـ وكيف وجدته؟

ـ كما رأيت.

ـ ألا تنوي أن تبلّغ بنفسك إذا لم يفعل؟

ـ إنّك لا تريدين ذٰلك!

فتنهّدت قائلة:

ـ كان الموقف فوق طاقتي فانهزمت.

ـ ولٰكنّ التجربة أثبتت أنّه ممكن؟

ـ ولٰكن يبدو أنّك لن تسير فيها إلى النهاية.

ـ لا سبب لذٰلك عندي مثلك. . .

ـ ها أنت تعود إلى قتلي!

فصمت مليًّا ثمّ قال:

ـ إنّك تحبّينه، أليس كذٰلك؟

فلاذت بالصمت متجاهلة ترقّبه، فقال:

ـ أوجدته مختلفًا عن الرجل الممتاز الذي رفضته من قبل؟

فقالت بنبرة متشكّية:

ـ روح القتال لم تفارقك بعد.

ـ ليس ثمّة ما يُخجل في ذٰلك فهو رجل ممتاز أيضًا.

ـ ولٰكنّه بلا أخلاق!

ـ لم يعد للأخلاق وجود، حتّى أحمد نصرا

ـ أودّ أن أقول إنّك متشائم ولٰكن لا حقّ لي في ذٰلك.

ـ على أيّ حال ستحميهم لا أخلاقيّاتهم من ارتكاب حماقة أخلاقيّة، وسوف يعود إليك الحبّ!

ـ عذّبني كيف شئت فإنّي أستحقّه وأكثر.

فضحك ضحكة أشعرته بآلام فكّيه وقال:

ـ وها أنا أعترف لك بأنّ الغيرة كانت باعثًا من

بواعث سلوكي الغريب!

فحدجته بنظرة داهشة فابتسم قائلًا:

ـ لا يصحّ أن أخدعك، فقد تتوهّمين أنّ إحدى شخصيّات مسرحيّتك قد تطوّرت إلى النقيض بتأثير كلامك أو بدافع من حدّة التجربة، فأوقعك في نهاية مفتعلة!

لبثت ترامقه بدهشة، فقال:

ـ وثمّة نهاية أخرى لا تقلّ عن السابقة سخفًا وهي أن تبادليني الحبّ!

فغضّت من عينيها وهي تسأله:

ـ فكيف ترى النهاية؟

ـ هٰذه هي مشكلتنا لا مشكلة المسرحيّة وحدها...

ـ لكنّك تكلّمت عن قول ما يجب قوله؟

ـ ذٰلك حقّ، لم يكن الغضب ولا الغيرة وحدهما، ولٰكن خطر لي بعد ذٰلك أن أقول ما يجب قوله، وأن أقف موقفًا جادًّا لأمتحن أثره، فوقع زلزال لا ندري شيئًا عن عواقبه، وحتّى أنت انهزمت!

ـ إنّك تمثّل بجثّتي.

ـ بل إنّي أحبّك.

تجلّت في عينيها نظرة حزن عميق وقالت:

ـ أعترف لك بأنّني مصرّة على أن أكون جادّة أكثر منّي جادّة بالفعل...

ـ هاتي ما عندك بسرعة فإنّ القهوة على وشك!

ـ في أويقات الراحة من العمل يعترضني العبث كأنّه وجع الأسنان.

ـ ذاك بعض أعراضه.

ـ ولٰكنّني أحاربه بعقلي وإرادتي.

فقال ساخرًا:

ـ لا يبعد أن تجدي التطوّر الضروريّ في المسرحيّة في تطوّر البطلة إلى الوراء!

فاحتدّت قائلة:

ـ كلّا... كلّا... إنّي مصمّمة.

سكت إشفاقًا فقالت:

ـ ومع ذٰلك فإنّني مقتنعة بأنّ المسألة ليست مسألة العقل والإرادة وحدهما...

ـ إذن ماذا؟

ـ أتعرف لعبة الساقية في لونابارك؟

ـ كلّا.

ـ إنّها تدور بركّابها من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل...

ـ وبعد؟

ـ عندما تكون صاعدًا فإنّك تتلقّى إحساسًا صاعدًا بطريقة تلقائيّة، وعندما تكون هابطًا فإنّك تتلقّى إحساسًا هابطًا بطريقة تلقائيّة كذٰلك، وبلا تدخّل ـ في الحالين ـ من العقل أو الإرادة!

ـ زيديني شرحًا وتذكّري القهوة!

ـ نحن من الركّاب الهابطين...

ـ والعمل؟

ـ ليس لنا إلّا العقل والإرادة!

ـ والهزيمة؟

فقالت بحدّة:

ـ كلّا.

ـ هل تعدّين نفسك مثالًا للانتصار؟

ـ من الركّاب الهابطين مَن جاوز نفسه وحتّى مَن أهلكها.

وراحت تتكلّم عن الأمل فنظر إلى الليل. ورفرف الليل بجناحيه فتناثرت الأسرار كالنجوم. واستحال كلامها وشوشة منبعثة من تهويمات حلم. وشيء حدّثه بأنّه عمّا قليل سينشقّ سطح الماء القاتم عن رأس الحوت.

* * *

وقالت له:

ـ إنّك لم تعد معي.

فقال محدّثًا نفسه:

ـ أصل المتاعب مهارة قرد!

ـ ما كان ينبغي أن تشرب القهوة.

ـ تعلّم كيف يسير على قدمين فحرّر يديه.

ـ هٰذا يعني أنّه يجب أن أذهب.

ـ وهبط من جنّة القرود فوق الأشجار إلى أرض الغابة.

ـ سؤال أخير قبل أن أذهب: ألديك خطّة

للمستقبل إذا تأزّمت الأمور؟

ـ وقالوا لـه عدْ إلى الأشجـار وإلّا أطبقت عليك الوحوش.

ـ أتستحقّ معاشًا مناسبًا إذا لا سمح الله رفتّ؟

ـ فقبض على غصن شجرة بيـد وعلى حجـر بيد وتقدّم في حذر وهو يمدّ بصره إلى طريق لا نهاية له.

عيد العار

عَامِـر وَجْـدي

الإسكندريّة أخيرًا.

الإسكندريّة قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبلّلة بالشهد والدموع.

***

العمارة الضخمة الشاهقة تطالعك كوجه قديم، يستقرّ في ذاكرتك فأنت تعرفه ولكنّه ينظر إلى لا شيء في لا مبالاة فلا يعرفك. كلحت الجدران المقشّرة من طول ما استكنّت بها الرطوبة. وأطلّت بجماع بنيانها على اللسان المغروس في البحر الأبيض، يجلّل جنباته النخيل وأشجار البلح، ثمّ يمتدّ حتّى طرف قصيّ حيث تفرقع في المواسم بنادق الصيد. والهواء المنعش القويّ يكاد يقوّض قامتي النحيلة المقوّسة، ولا مقاومة جدّيّة كالأيّام الخالية.

ماريانا، عزيزتي ماريانا، أرجو أن تكوني بمعقلك التاريخيّ، كالظنّ وكالمأمول، وإلّا فعليّ وعلى دنياي السلام. لم يبق إلّا القليل، والدنيا تتكرّر في صورة غريبة للعين الكليلة المظلّلة بحاجب أبيض منجرد الشعر.

ها أنا أرجع إليك أخيرًا يا إسكندريّة.

***

ضغطت على جرس الشقّة بالدور الرابع. فُتحت شُرّاعة الباب. فتحت شُرّاعة الباب عن وجه ماريانا. تغيّرتِ كثيرًا يا عزيزتي. ولم تعرفني في الطرقة المظلمة. أمّا بشرتها البيضاء الناصعة وشعرها الذهبيّ فقد توهّجا تحت ضوء ينتشر من نافذة بالداخل.

ـ بنسيون ميرامار؟

ـ نعم يا فندم.

ـ أريد حجرة خالية.

الباب فُتح. استقبلني تمثال العذراء البرنزيّ. ثمّة رائحة ما لعلّي أفتقدها أحيانًا. وقفنا نتبادل النظر. طويلة رشيقة، الشعر ذهبيّ، والصحّة لا بأس بها، ولكن بأعلى الظهر احديداب، والشعر مصبوغ حتمًا، واليد المعروقة وتجاعيد زاويتي الفم تشي بالعجز والكبر. إنّك يا عزيزتي في الخامسة والستّين رغم أنّ الروعة لم تسحب منك جميع أذيالها. ولكن هل تتذكّرينني؟

نظرت باهتمام تجاريّ باديء الأمر، ودقّقت النظر، ثمّ اختلجت العينان الزرقاوان. ها أنت تتذكّرين، وها أنا أستردّ وجودي الضائع.

ـ أوه... أنت!

ـ مدام!

تصافحنا بحرارة. غلبها الانفعال فقهقهت ضاحكة. كنساء الأنفوشي تهقهت. وأطاحت بالوقار بضربة واحدة.

ـ يا خبر أبيض، عامر بك، أستاذ عامر، ها... ها...

جلسنا على كنبة الأبنوس تحت العذراء وشبحانا يتخايلان في زجاج صوان المكتب القائم للزينة.

نظرت فيما حولي وقلت:

ـ مدخل البنسيون هو هو لم يتغيّر.

فقالت محتجّة، ملوّحة بيدها بفخار:

ـ بل تجدّد وطُلِيَ مرّات، وعندك أشياء جديدة كالنجفة والبارفان والراديو...

ـ إنّي سعيد يا ماريانا، الشكر لله على أنّك في صحّة جيّدة....

ـ وأنت أيضًا يا مسيو عامر، اِلْمس الخشب....

ـ عندي المصران الغليظ والبروستاتا، نحمده على أيّ حال...

ـ أتجيء بعد زوال الصيف؟

قلت باهتمام:

- بل جئت للإقامة، متى تلاقينا آخر مرّة؟

- منذ... منذ... أقلت للإقامة؟

- نعم يا عزيزتي، رأيتك آخر مرّة منذ حوالى عشرين عامًا...

- واختفيت طيلة ذلك العمر!

- العمل، والهموم...

- أراهن على أنك زرت الإسكندريّة مرّات ومرّات في تلك الأعوام...

- أحيانًا، ولكنّ وطأة العمل كانت شديدة، وأنت أدرى بالصحافة...

- وأعرف أيضًا جحود الرجال...

- ماريانا يا عزيزة، أنت أنت الإسكندريّة...

- تزوّجت طبعًا...

- كلّا بعد!

تساءلت مقهقهة:

- ومتى تتمّ النيّة وتُقْدِم؟

قلت بنبرة لم تخلُ من امتعاض:

- لا زواج، لا أبناء، اعتزلت العمل، انتهيت يا ماريانا...

شجّعتني بحركة من يدها فواصلت قائلًا:

- عند ذاك نادتني الإسكندريّة، مسقط رأسي، ولمّا لم يكن لي فيها من قريب حيّ فقد قصدت الصديق الباقي لي في دنياي.

- جميل أن يجد الإنسان صديقًا يقاسمه وحدته.

- أتذكرين أيّام زمان؟

قالت بصوت مأساويّ:

- ذهبت بكلّ جميل.

ثمّ في شبه غمغمة:

- ولكن علينا أن نعيش....

وجاء وقت الحساب والمساومة. قالت إنّه لم يعد لها من مورد إلّا البنسيون، ولذلك فهي ترحّب بنزلاء فصل الشتاء ولو كانوا من الطلبة المزعجين، وفي سبيل ذلك تستعين بالسماسرة وبعض خدم الفنادق. ردّدت ذلك بحزنِ عزيزِ قومٍ ذلّ. واختارت لي الحجرة رقم ٦ في الجناح البعيد عن البحر. واتّفقنا على أجرة معقولة تصلح لشهور العام عدا فصل الصيف، على أن يكون لي حقّ الاستمرار في الإقامة صيفًا إذا دفعت أجرة المصيّفين. تمّ الاتّفاق على كلّ شيء بما فيه الفطور الإجباريّ، وأثبتت المدام أنّها تستطيع في الوقت المناسب أن تستنقذ قلبها من الذكريات لتحسن المساومة والتدبير. وسألتني عن حقائبي فأجبت بأنّها في أمانات المحطّة. فقالت ضاحكة:

- لم تكن متأكّدًا من وجود ماريانا.

ثمّ واصلت بحماس:

- لتكن إقامة دائمة.

فنظرت إلى يدي التي ذكّرتني بيد مومياء في المتحف المصريّ.

***

لا تقلّ حجرتي في شيء عن الحجرات المطلّة على البحر. مستوفية لحاجتها من الأثاث والمقاعد المريحة ذات الطابع القديم. ولتبق الكتب في صندوقها إلّا ما ندر ممّا قد أراجعه فيمكن وضعه فوق الترابيزة أو التسريحة. لا يعيبها شيء إلّا أنّ جوّها يسبح في مغيب دائم لأنّها تطلّ على منور كبير يتسلّق على جدرانه سلّم الخدم حيث تمرّ القطط ويتناجى العاملون. وزرت الحجرات كلّها. الورديّة والبنفسجيّة والسماويّة وكانت جميعها خالية. في كلٍّ أقمت صيفًا أو أكثر في زمن مضى. ورغم اختفاء المرايا القديمة والسجاجيد الفاخرة والقناديل المفضّضة والفنايير البلّوريّة فما زالت مسحة أرستقراطيّة باهتة تعلق بالجدران المورّقة والأسقف العالية الموشّاة بصور الملائكة.

قالت وهي تتنهّد وقد لمحتُ لأوّل مرّة طاقم أسنانها:

- كان بنسيون الساده!

فقلت مواسيًا:

- سبحان مَن له الدوام.

فعادت تقول وهي تلوي بوزها:

- أكثر النزلاء شتاء من الطلبة، وأمّا في الصيف فأستقبل كلّ مَن هبّ ودبّ.

***

- عامر بك، كن شفيعي عند دولة الباشا.

وقلت للباشا:

- يا دولة الزعيم، ليس الرجل ذا كفاءة ممتازة ولكنّه فَقَدَ ابنه في الجهاد وهو جدير لذلك بأن يرشّح عن الدائرة.

وافق على اقتراحي أسكنه الله أعزّ مكان في جنّته. كان يحبّني ويتابع مقالاتي باهتمام صادق. ومرّة قال لي:

- أنت كلب الأمّة الخافك.

كان رحمه الله ينطق القاف كافًا. وسمع بها بعض الزملاء القدامى من رجال الحزب الوطنيّ فكانوا كلّما رأوني صاح صائحهم: «أهلًا بكلب الأمّة».

لكنّها كانت أيّام المجد والجهاد والبطولة.

كان عامر وجدي شخصًا فريدًا، له في الرجاء جانب يرده الأصدقاء، وفي الخوف جانب يَتجنَّبه الأعداء.

***

في الحجرة أتذكّر أو أقرأ أو أستسلم للنعاس. وفي المدخل مجال سمر مع الراديو وماريانا. وإن شئت تنويعًا في التسلية ففي أسفل العمارة مقهى الميرامار. من البعيد جدًّا أن أعثر على أحد أعرفه أو يعرفني، ولا في التريانون نفسه. ذهب الأصدقاء وذهب زمانهم. وإنّي لأعرفك يا إسكندريّة الشتاء. تُخلين ميادينك وشوارعك مع المغيب فيمرح فيها الهواء والمطر والوحشة، وتعمر حجراتك بالمناجاة والسمر.

***

- ذلك العجوز الذي يخفي جسده المحنّط تحت بدلة سوداء من عهد نوح.

وقال مَن عيّنه الزمن الهازل رئيسًا للتحرير:

- زمن البلاغة ولّى، هل عندك عبارة تصلح لراكب طيّارة؟!

راكب طيّارة! أيّها القره جوز المفعم شحمًا وغباء... إنّما خُلق القلم لأصحاب العقول والأذواق لا للمجانين المعربدين من ضحايا الملاهي والحانات... ولكن قضي علينا طول العمر بالسير في ركاب زملاء جدد في المهنة، لُقّنوا علمهم في السيرك ثمّ اجتاحوا الصحافة ليلعبوا دور البهلوانات.

***

جلست على الفوتيل مرتديًا الروب، استسلمت ماريانا إلى مسند الكنبة الأبنوس تحت تمثال العذراء، وانبعث من المحطّة الإفرنجيّة موسيقى راقصة. وددت أن أسمع لونًا آخر ولكنّي تجنّبت إزعاجها. استرخت جفونها كمن تحلم وحرّكت رأسها في طرب كأيّام زمان.

- كنّا وما زلنا أصدقاء يا عزيزتي.

- طول العمر.

- لم نتبادل العشق ولا مرّة!

ضحكت ضحكة عالية وقالت:

- ذوقك بلدي، لا تنكر...

- عدا مرّة عابرة، هل تذكرين؟

ضحكت طويلًا ثمّ قالت:

- نعم جئت مرّة بخواجاية فاشترطت عليك أن تكتب في السجلّ «عامر وجدي وحرمه».

- وسبب آخر أبعدني عنك، كنت حسناء فاخرة يحتكرك الوجهاء...

تهلّل وجهها في سعادة شاملة، ماريانا، مهمّ عندي جدًّا أن يمتدّ بك العمر بعدي ولو يومًا واحدًا حتّى لا أضطرّ إلى البحث عن مأوى جديد. ماريانا إنّك شاهد حيّ على أنّ التاريخ ليس وهمًا، من عهد الإمام إلى اليوم.

***

- سيّدي الأستاذ، أستودعك الله.

رمقني في ضجر، وهو يضيق بي كلّما رآني. قلت:

- آنَ لي أن أعتزل.

قال وهو يداري ارتياحه:

- خسارة كبيرة ولكنّني أرجو لك حياة طيّبة.

انتهى كلّ شيء.

انطوت صفحة تاريخ بلا كلمة وداع ولا حفلة تكريم ولا حتّى مقال من عصر الطائرة. أيّها الأنذال، أيّها اللوطيّون، ألا كرامة لإنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة؟!

***

قلت وأنا أرنو إليها تحت تمثال العذراء:

- ولا هيلانة في زمانها!

ضحكت وقالت:

ـ قبل أن تجيء كنت أجلس وحدي، لا أنتظر أحدًا أعرفه، مهدّدة دائمًا بأزمة كُلى.

ـ سلامتك، ولكن أين أهلك؟

وهي تتنهّد:

ـ هاجر النساء والرجال.

ولوت بوزها المجعّد ثمّ واصلت:

ـ قلت أين أذهب؟ لقد ولدت هنا، لم أرَ أثينا أبدًا في حياتي، ثمّ إنّ البنسيونات الصغيرة لن تؤمّم على أيّ حال.

***

يعجبني الصدق في القول والإخلاص في العمل وأن تقوم المحبّة بين الناس مكان القانون. لا فُضّ فوك. لقد أكرمك الله بتمثالين والموت.

***

ـ مصر وطنك والإسكندريّة ليس كمثلها شيء.

عزف الهواء في الخارج. والظلام يهبط خلسة. قامت فأشعلت من النجفة ثلاثة مصابيح في أسفلها مثل عنقود العنب. عادت إلى مجلسها وهي تقول:

ـ كنت سيّدة، سيّدة بكلّ معنى الكلمة.

ـ ما زلت سيّدة يا عزيزتي.

ـ هل تشرب كأيّام زمان؟

ـ كأس واحدة عند العشاء، طعامي خفيف جدًّا، وذاك سرّ حيويّتي رغم تقدّم العمر.

ـ آه يا مسيو عامر، تقول إنّ الإسكندريّة ليس كمثلها شيء؟ كلّا لم تعد كما كانت على أيّامنا، الزبالة تُرى الآن في طرقاتها!

قلت بإشفاق:

ـ عزيزتي، كان لا بدّ أن تعود إلى أهلها.

قالت بحدّة:

ـ ولكنّنا نحن الذين خلقناها.

ـ عزيزتي ماريانا ألا تشربين كأيّام زمان؟

ـ كلّا، ولا كأس واحدة، عندي ضغط من الكُلى.

ما أجمل أن نوضع في متحف جنبًا إلى جنب، ولكن عديني بألّا تموتي قبلي:

ـ مسيو عامر، قتلت الثورة الأولى زوجي الأوّل، أمّا الثورة الثانية فجرّدتني من مالي وأهلي، لماذا؟

ـ إنّك مستورة والحمد لله، ونحن أهلك، والعالم يشهد أمثال هٰذه الحوادث كلّ شروق شمس.

ـ يا له من عالم!

ـ ألا نغيّر المحطّة الإفرنجيّة؟

ـ غدا ليلة أمّ كلثوم فلا محطّة غيرها!

ـ أمرك يا عزيزتي.

ـ خبّرني لماذا يعذّب الناس بعضهم البعض، ولماذا يتقدّم بنا العمر؟

ضحكت دون أن أنبس.

أجلْتُ البصر في الجدران المنقوش عليها تاريخها. هاك صورة الكابتن بقبّعته العالية وشاربه الغزير في البدلة العسكريّة، زوجها الأوّل، ولعلّه حبيبها الأوّل والأخير، الذي قتل في ثورة ١٩١٩. في الجدار المقابل وفوق المكتبة صورة أمّها العجوز، كانت مدرِّسة. على مرمى البصر في الصالة فيما وراء البارفان صورة الزوج الثاني ملك البطارخ وصاحب قصر الإبراهيميّة، أفلس ذات يوم فانتحر.

ـ متى فتحت البنسيون؟

ـ قل متى اضطررت لفتحه من فضلك!

ثمّ أجابت:

ـ عام ١٩٢٥.

عام محنة وكدر...

***

ـ ها أنا شبه سجين في بيتي وعرائض التأييد تزفّ إلى الملك.

ـ زيف وكذب يا دولة الزعيم.

ـ حسبت الثورة قد طهّرت النفوس من ضعفها.

ـ الجوهر سليم والحمد لله... سأُسمع دولتكم مقالة الغد.

***

راحت تدلك بشرة وجهها بليمونة وهي تقول:

ـ كنت سيّدة يا مسيو عامر، أحبّ الحياة الحلوة والنور والفخامة والأبّهة والملابس والصالونات، وكنت أهلّ على المدعوّين كالشمس...

- رأيت ذلك بعينيّ. . .

- لكنّك لم تر إلّا صاحبة البنسيون.

- كانت تهلّ أيضًا كالشمس. . .

- وكان النزلاء من السادة ولكن لم يعزّني ذلك عن تدهوري. . .

- ما زلت سيّدة بكلّ معنى الكلمة.

هزّت رأسها ثمّ سألت:

- والأصدقاء القدامى ماذا حلّ بهم؟

- حلّ بهم المكتوب عليهم.

- لماذا لم تتزوّج يا مسيو عامر؟

- سوء الحظّ، ليتنا أنجبنا ذرّيّة.

- أوه. . . كان كلا الزوجين عاقرًا!

يغلب عليّ الظنّ أنّك أنت العاقر. إنّه أمر مؤسف إذ إنّنا لم نوجد إلّا لكي ننجب.

***

ذلك البيت الكبير الذي تحوّل مع الأيّام إلى فندق، يراه السائر في خان جعفر كقلعة صغيرة، وحوشه القديم الذي شقّ فيه طريق إلى خان الخليلي، قد نقش في قلبي هو وما يكتنفه من بيوت قديمة والكلوب العتيق، صورة تذكاريّة لنشوة الحبّ المشبوب المرتطم بخيبة الأمل. العمامة واللحية البيضاء وقسوة الشفتين وهما تلفظان «لا» فتقضي في تعصّب أعمى على الحبّ الذي هبط إلى الدنيا قبل الأديان بمليون سنة.

- مولاي، إنّي أنشد القرب منكم على سنّة الله ورسوله.

صمت وبيننا فنجال قهوة لم يمسّ، فقلت:

- إنّي صحفيّ، ذو مال، وابن شيخ كان خادمًا لمسجد سيدي أبي العبّاس المرسي.

قال:

- رحمه الله كان من التقاة المؤمنين.

وقبض على المسبحة ثمّ استطرد:

- يا بنيّ، كنت منّا، جاورت الأزهر زمنًا.

ذاك التاريخ متى يُنسى! قال:

- ثمّ طُردت من الأزهر، أنت تذكر. . .؟

- مولاي، ذاك تاريخ قد انقضى، لأتفه الأسباب كان يحقّ الطرد، شابّ هزّه الشباب فاشترك في تحت مطرب ذات ليلة، أو طرح بعض أسئلة ببراءة. . .

قال بامتعاض:

- قضى عليه قوم عقلاء بتهمة شنيعة.

- مولاي مَنْذا يستطيع أن يقضي على إنسان بتهمة كالإلحاد، ولا مُطّلع على الفؤاد إلّا الله؟

- يستطيع ذلك مَن يسترشد بالله.

اللعنة. مَنْذا يزعم أنّه عرف الإيمان. قد تجلّى الله للأنبياء ونحن أحوج منهم إلى ذاك التجلّي. وعندما نتحسّس موضعنا في البيت الكبير المسمّى بالعالم فلن يصيبنا إلّا الدوار.

***

لنحذر الكسل. لا بأس من تجربة المشي في الصباح المشمس. ما أحلى أيّام الدفء في البالما والبجعة. ولو وجدت نفسك وحيدًا بين أسر تعمر بالأجيال. الأب يطالع جريدة والأمّ تطرّز رقعة والأبناء يلعبون. لو يخترع المخترعون للمعتزلين جهازًا يسادلهم الحديث والسمر، أو شخصًا إلكترونيًا يلاعبهم النرد، أو يركّب لهم عينًا جديدة تولع مرّة أخرى ببنات الأرض وألوان السماء.

وقد عشنا دهرًا طويلًا حافلًا بالأحداث والأفكار، نوينا أكثر من مرّة أن نسجّله في مذكّرات ـ كما فعل الصديق القديم أحمد شفيق باشا ـ ولكن لم تصدق النيّة ثمّ تبدّدت بين إمهال وإرجاء. اليوم لم يبق من النيّة القديمة إلّا الحسرة بعد أن وهنت اليد وضعفت الذاكرة واضمحلّت القوّة. ففي ذمّة الله ذكريات الأزهر، وصحبة الشيخ عليّ محمود وزكريّا أحمد وسيّد درويش، حزب الأمّة ما أعجبني فيه وما نفّرني منه، الحزب الوطنيّ بحماساته وحماقاته، الوفد بثورته العالميّة الخالدة، الخلافات الحزبيّة التي قوقعتني في حياد بارد لا معنى له، الإخوان الذين لم أحبّهم، الشيوعيّون الذين لم أفهمهم، الثورة ومغزاها وامتصاصها للتيّارات السابقة، غراميّاتي وشارع محمّد عليّ، موقفي العنيد من الزواج. لو قُيّض لذكرياتي أن تُكتب لكانت عجبًا حقًّا.

زرت بحنان أثنيوس وباستوريدس وأنطونيادس. جلست وقتًا في بهو وندسور وسيسل، ملتقى الباشوات

والساسة الأجانب في الزمن القديم، وخير مجال لالتقاط الأخبار ومتابعة الأحداث، فلم أر إلّا قلّة من الأجانب شرقيّين وغربيّين. رجعت ولي عند الله دعاءان: دعاء بأن يمنّ عليّ بحلّ مشكلة الإيمان؛ ودعاء بألّا يصيبني بمرض يقعدني عن الحركة فلا أجد من يأخذ بيدي.

***

ما أجمل هٰذه الصورة النابضة بالشباب! قد وضعت على المقعد ركبة الساق اليمنى وأراحت الأخرى على الأرض، ومالت بجذعها نحو مسند المقعد ملقية معصميها عليه، واستدار وجهها ليواجه الكاميرا باسمًا معتزًّا بملاحته وقد انحسر ديكولتيه الفستان الكلاسيكيّ الفضفاض عن قاعدة العنق الطويل ونحر منبسط كالمرمر.

كانت قد ارتدت معطفها الأسود والإشارب الكحليّ تأهّبًا لزيارة الطبيب، وجلست تنتظر الوقت المناسب للذهاب. سألتها:

ـ أقلت إنّ الثورة قد جرّدتك من مالك؟

فرفعت حاجبيها المزجّجين وقالت:

ـ ألم تسمع بكارثة الأسهم؟

لعلّها قرأت في عينيّ تساؤلًا ففطنت إلى ما يدور بخلدي فقالت:

ـ ضاع ما ربحته أيّام الحرب الثانية، صدّقني لقد ربحته بشجاعتي إذ أصررت على البقاء في الإسكندريّة عندما هاجر الكثيرون إلى القاهرة والأرياف خوفًا من غارات الألمان، طليتُ النوافذ باللون الأزرق وأسدلتُ الستائر، ودار الرقص على ضوء الشموع، ولن تجد مَن يضاهي ضبّاط الإمبراطوريّة في البذل والكرم.

وجدتني وحيدًا بعد ذهابها أنظر إلى عيني زوجها الأوّل وينظر إليّ. ترى مَن قتلك وبأيّ سلاح؟ وكم من جيلنا قتلتَ قبل أن تُقتل؟ جيلنا العتيد الذي فاق الأجيال جميعًا في غزارة ضحاياه.

***

الغناء الأفرنجيّ لا ينقطع. أقسى ما حَكَم الزمان به عليّ في عزلتي. ماريانا أخذت حمّامًا ساخنًا عقب عودتها من عند الطبيب، ها هي تجلس ملفوفة في برنس أبيض وقد عقصت شعرها المصبوغ غارسة فيه عشرات المشابك المعدنيّة البيضاء. خفّضتْ صوت الراديو إلى حدّ الهمس لتبدأ هي إذاعتها وقالت:

ـ مسيو عامر... لا شكّ أنّ لديك مالًا وفيرًا؟

فسألتها بشيء من الحذر:

ـ هل عندك مشروعات؟

ـ كلّا، ولٰكن في مثل عمرك ـ وعمري أيضًا مع الفارق الكبير ـ لا يتهدّدنا شيء مثل الفقر والمرض.

قلت والحذر لم يفارقني بعد:

ـ لقد عشت مستورًا وأرجو أن أموت مستورًا.

ـ لا أذكر أنّك كنت مسرفًا قطّ.

تردّدت قليلًا ثمّ قلت:

ـ أرجو أن يكون عمر المدّخر من نقودي أطول من عمري...

لوّحت بيدها باستهانة وقالت:

ـ الطبيب شجّعني هٰذه المرّة فوعدته بألّا أحمل همًّا.

ـ جميل ألّا نحمل همًّا.

ـ يجب أن نفرح ونلهو عندما تأتي ليلة رأس السنة.

قلت ضاحكًا:

ـ نعم، على قدر ما تسمح قلوبنا.

راحت تهزّ رأسها في تلذّذ وتقول في مناجاة:

ـ يا ليالي رأس السنة...

فقلت منفعلًا بذكريات بعيدة:

ـ كم أَحَبَّكِ الكبراء!

ـ لم أعرف الحبّ إلّا مرّة واحدة...

ثمّ أشارت إلى صورة الكابتن. وعادت تقول:

ـ قتله طالب من الطلبة الذين أخدمهم اليوم!

ثمّ قالت بخيلاء:

ـ كان بنسيون السادة!... يعمل به طاهٍ ومرمطون وسفرجي وغسّالة وخادمان، لا أحد يخدم به اليوم سوى غسّالة أسبوعيّة!

ـ كبراء كثيرون يغبطونك على ما أنت فيه.

ـ أهٰذا عدل يا مسيو عامر؟

ـ هو على أيّ حال طبيعيّ يا مدام.

اربدّ وجهها فضحكتُ متودّدًا وملاطفًا.

***

الرحمٰن، علّم القرآن، خلقَ الإنســان، علّمـه البيـان، الشمس والقمر بحسبـان، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان.

مضيت أقرأ سورة الرحمٰن الحبيبة إلى قلبي مذ كنت في الأزهر. كنت غائصًا في مقعد كبير طارحًـا قدميّ على وسادة. هـطل المطر بغـزارة فارتفـع رنينه فـوق درجات السلّم المعدنيّ في المنور.

كلّ مَن عليها فانٍ، ويبقى وجه ربّـك ذو الجلال والإكرام.

ثمّـة أصوات تقتحم الصمت خـارج الحجـرة في البنسيون. رفعت رأسي عن الكتاب وأنصتّ. ضيف أم نزيل جديد؟ صوت ماريانا يرحّب بحرارة لا تليق إلّا بصديق حميم. وثمّة ضحـك أيضًا. ثمّ وضحت نبرة غليظة من صوت أجوف. ترى مَن القادم؟ الوقت بعد العصر بقليل. والمطر ينهلّ بشدّة، والغيوم تريق في الحجرة ظلمة كالليل. ضغطْتُ على زرّ الأباجورة حين لمع برق خاطف نضح به الشيش، وهزم الرعد.

يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقـطار السـماوات والأرض فـانفـذوا لا تنفــذون إلّا بسلطان.

***

يميل إلى القِصَر والبدانة، منتفخ الشدقينِ واللُّغْد، ولـه عينان زرقـاوان رغم سمـرة بشرتـه، ذو طـابـع أرستقراطيّ لا تخطئه العين وينمّ عنه صمته المتكبّر إذا صمت وحركات رأسه ويديه المتّزنة المرسومة بدقّة إذا تكلّم. قدّمته المـدام بإسْمِ «طلبـة بك مـرزوق» في مجلس المساء، ثمّ قالت تزيدني معرفة به:

ـ كان وكيلًا لوزارة الأوقاف ومن الأعيان الكبار.

لم يكن عندي في حاجـة إلى تعريف. عـرفته من بعيد بحكم مهنتي على عهد النضال السياسيّ والحزبيّ. كان من المنتمين إلى أحزاب السراي وبطبيعة الحال من أعداء الوفد. وتذكّرت أيضًا أنّه وُضع تحت الحراسة منـذ عام أو أكـثر وأنّه جُـرّد من موارده عـدا القـدر المعلوم. أمّا المدام فقد تبدّت في أحسن أحوالها مرحًا وعاطفيّة، نوّهت مرارًا بصداقتها القديمة لطلبة بك. وبرز حماسها المتدفّق عندما دعته بمُحِبّها القديم.

وقال لي الرجل ونحن نتبادل الحديث:

ـ قرأت لك كثيرًا فيما مضى...

فضحكت ضحكـة ذات مغـزى فضحـك بـدوره قائلًا:

ـ كنت تعطيني مثلًا حيًّا لقوّة البلاغة عندما تتصدّى للدفاع عن باطل!

وضحك طويلًا ولكنّني لم أجادلـه. وقالت المـدام تخاطبني بشماتة:

ـ طلبة بك تلميذ قديم للجزويت، سنسمع الأغاني الإفرنجيّة معًا ونتركك لتتعذّب وحدك...

ثمّ بسطت راحتيها في ترحيب وقالت:

ـ جاء ليقيم معنا...

فرحّبتُ به فعادت تقول في رثاء:

ـ كان يملك ألف فدّان، كان يلعب بالمال لعبًا...

هنا قال الرجل بامتعاض:

ـ انقضى عهد اللعب...

ـ وأين كريمتك يا طلبة بك؟

ـ في الكويت مع زوجها المقاول.

وكنت أعلم أنّ الحراسة قـد فُرضت عليـه لشبهة تهريب بيد أنّه فسّر مأساته قائلًا:

ـ خسرت أموالي جميعًا ثمنًا لنكتة عابرة!

فسألته:

ـ هل دُعيت إلى تحقيق؟

فقال بازدراء:

ـ المسألة بكـلّ بساطـة أنّهم كانـوا في حاجـة إلى مالي...

وكانت المرأة تنظر إليه بإمعان فقالت:

ـ تغيّرت كثيرًا يا طلبة بك.

ابتسم فوه الصغير المطوّق بشدقيه ثمّ قال:

ـ أصابتني جلطة كادت تقضي عليّ...

ثمّ بشيء من العزاء:

ـ ولكنّني أستطيع أن أشرب الـويسكي في حدود الاعتدال.

***

غمس الكروسّان في الشاي الممزوج باللبن ثمّ أكل بأناةِ مَن لم يألف الطاقم الجـديد بعـد. لم يكن على

مائدة الإفطار سوانا. وكانت الأيّام القلائل الماضية قد قرّبت بيننا وأزالت حواجز الحذر فغلب الأنس بروح الجيل الواحد على الخلافات البالية، وإن انطوى كلّ منّا في أعماقه على مزاج متفرّد مناقض لصاحبه. ولكن تجيء أوقات يبرز فيها المزاج الثاوي في الأعماق ليثير الغبار والتحدّيات. أجل قد سألني بلا مناسبة:

ـ أتدري ما السبب وراء المصائب التي حلّت بنا؟

فتساءلت بدهشة:

ـ أيّ مصائب تعني؟

ـ أيّها الثعلب، إنّك تعرف تمامًا ما أعني.

ـ ولكن لم تحلّ بي المصائب من أيّ نوع كان...

رفع حاجبيه الأشيبين وقال:

ـ لقد اغتيلت شعبيّتكم كما اغتيلت أموالنا...

ـ لعلّك تذكر أنّي خرجت من الوفد، بل من الأحزاب جميعًا، منذ حادث ٤ فبراير...

ـ ولو... ثمّة لطمة قد أطاحت بكبرياء الجيل كلّه...

فقلت زاهدًا في الجدل:

ـ بصرف النظر عن موقفي فإنّي مشوّق إلى معرفة رأيك...

قال بهدوء وازدراء:

ـ يوجد سبب بعيد في طرف الحبل المشدود حول أعناقنا، شخص لا يكاد يذكره أحد...

ـ من هو؟

ـ سعد زغلول!

لم أتمالك من الضحك فراح يقول بحدّة:

ـ أجل، منذ دأبَ على إثارة الإحَن بين الناس، والتطاول على الملك، وتملُّق الجماهير، رمى في الأرض ببذرة خبيثة، ما زالت تنمو وتتضخّم كسرطان لا علاج له حتّى قضى علينا...

***

لم يكن بالبالما إلّا آحاد. مضى طلبة مرزوق ينظر إلى ماء النيل شبه الساكن في ترعة المحموديّة على حين مددت ساقيّ واستلقيت على مسند الكرسي كأنّما أضطجع تحت شعاع الشمس النقيّ الدافئ. هاجرنا إلى أطراف الإسكندريّة المزدحمة بالنبات والأزهار، التي تنعم أيّام الصحو بالدفء والسلام، فآوينا إلى ركن من الجنّة عامر بالبركات.

مهما يكن من غلوّ صاحبي وعصبيّته فهو يستحقّ قدرًا من الرثاء. عليه أن يبدأ حياة جديدة مريرة بعد الستّين. إنّه يغبط كريمته في مهجرها ويرى أحلامًا غريبة، لا يطيق أن يسمع عن نظريّة تبرّر مأساته التاريخيّة. ويؤمن بأنّ الاعتداء على ماله إنّما كان اعتداء على كون الله وسننه وحكمته.

ـ كدت أعدل عن الإقامة في البنسيون عندما علمت بوجودك...

لم أصدّق وسألته عن السبب:

ـ وقع اختياري على بنسيون ميرامار بأمل ألّا أجد فيه إلّا صاحبته الخواجاية.

فسألته عمّا بدّد سوء ظنّه بي:

ـ فكّرت، ثمّ اقتنعت بأنّ التاريخ لم يعرف عميلًا فوق الثمانين!

ضحكت طويلًا ثمّ سألته:

ـ ولِمَ تخاف العملاء؟

ـ لا شيء في الحقيقة غير أنّي أروّح عن نفسي أحيانًا بالكلام.

ثمّ واصل حديثه بعصبيّة:

ـ لم يعد لي مقام في الريف، وجوّ القاهرة يصرّ على إشعاري بهواني. عند ذاك فكّرت في عشيقتي القديمة، وقلت لقد فقدت زوجها في ثورة ومالها في الثورة الأخرى، وإذن فسوف نعزف لحنًا واحدًا.

وأثنى على صحّتي رغم طعوني في السنّ وجعل يغريني على مصاحبته في دور السينما والمقاهي الشتويّة. ثمّ تساءل:

ـ لماذا عدل الله عن سياسة القوّة؟

لم أدرك مرماه فقال متبسّطًا في الشرح:

ـ أعني الطوفان والرياح وغيرها.

فسألته بدوري:

ـ أتحسب أنّ الطوفان قد أهلك من البشر أكثر ممّن أهلكتهم قنبلة هيروشيما؟

فلوّح بيده ساخطًا وقال:

ـ ردّد دعايات الشيوعيّين أيّها الثعلب! إنّ أكبر خطأ

في حقّ البشريّة قد وقع لدى تردّد أمريكا في الاستيلاء على سلطان العالم عندما كانت تملك وحدها القنبلة الذرّيّة!

ـ خبّرني هل تجدّد غراميّاتك مع ماريانا؟

ضحك عاليًا وقال:

ـ يا لها من فكرة جنونيّة، إنّي شيخ هدمه العمر والسياسة وهيهات أن تحرّكني إلّا المعجزات، وأمّا هي فلم يبق لها من الأنوثة إلّا ألوانها المجرّدة...

وضحك مرّة أخرى ثمّ قال:

ـ وأنت هل نسيت تاريخك؟ لقد قرأت عن فضائحك في مجلّة الكشكول، عن جريك وراء الملاءات اللفّ بشارع محمّد عليّ...

ضحكت بلا تعليق فتساءل:

ـ هل رجعت أخيرًا إلى الدين؟

ـ وأنت؟... يخيّل إليّ أحيانًا أنّك لا تؤمن بشيء؟...

فقال بحنق:

ـ كيف لا أومن بالله وأنا أحترق في جحيمه؟!

***

ـ لقد خُلق أمثالك للجحيم، لن يبارك الله لك في شيء، اخرج مطرودًا من هذا المكان الطاهر، كما طُرد إبليس من رحمة الله.

***

دقّت الساعة الكبيرة في الصالة معلنة انتصاف الليل. تجاوبت أركان المنور بصفير هواء قويّ. أقعدني الكسل والدفء وأنا غائص في المقعد الكبير عن القيام إلى الفراش. وثقلت عليّ وحدتي بعد أن انفردت بي في الحجرة الخالية فقلت لنفسي ما جدوى الندم بعد الثمانين.

وإذا بالباب يفتح دون استئذان ويقف طلبة مرزوق على عتبته قائلًا:

ـ معذرة، أدركت من ضوء الحجرة أنّك لم تنم.

نظرت نحوه باستغراب. لقد شرب الليلة أكثر ممّا يشرب عادة. وسألني متهكّمًا وحركات رأسه تواكب نبرته:

ـ أتعلم كم كان يكلّفني في الشهر الواحد الدواء والفيتامينات والهرمونات والروائح والدهون وخلافه؟!

انتظرت أن يتكلّم ولٰكنّه أغمض عينيه كأنّ الجهد أرهقه، ثمّ تراجع فأغلق الباب ومضى.

***

السرادق مكتظّ بالخلق، وساحة المولد كيوم الحشر، والصواريخ تنطلق في الفضاء. انشقّ النور وانعدم الظلام لمولد أحمد. وتهادت الرولزرويس حتّى وقفت أمام السرادق. هبط منها طلبة مرزوق فخفّ لاستقباله أقوام وأقوام من السادة الدمرداشيّة. طريقة الرجل الذي جمع في قلبه بين الرسول والمندوب السامي. ولمحني صاحب الرولزرويس فأعرض عنّي في كبرياء. وقيل ليلتها إنّك جئت ثملًا كما جئتني الليلة. ودُعي سيّد المطربين إلى وسط السرادق فأنشد «يا سماء ما عَلّتك سماء». وفي الهزيع الأخير من الليل غنّى «أحبّ أشوفك» فأطاح بعقول المريدين. متى كانت تلك الليلة العجيبة؟ على التحديد لا أذكر ولٰكنّها حتمًا سبقت وفاة الرجل الجليل وإلّا ما صفا لي الطرب.

***

كنت أجلس في المدخل ولا أحد معي في البنسيون عندما دقّ الجرس. فتحت الشُرّاعة على طريقة المدام فرأيت أمامي وجهًا انشرح لمرآه صدري. من النظرة الأولى انشرح له صدري. وجه أسمر لفلّاحة مطوّقة الرأس والوجه بطرحة سوداء: أصيلة الملامح مؤثّرة جدًّا بنظرة عينيها الحلوة المترقّبة:

ـ مَن أنتِ؟

ـ أنا زهرة!

قالتها ببراءة وثقة كأنّما تنطق باسم علم من الأعلام. سألتها وأنا أبتسم:

ـ ماذا تريدين يا زهرة؟

ـ الستّ ماريانا.

فتحت لها الباب فدخلت حاملة بقجة صغيرة. نظرت فيما حولها ثمّ سألت:

ـ أين الستّ؟

ـ ستجيء بعد قليل، اجلسي.

جلست على مقعد واضعة البقجة على حجرها فعدتُ إلى مجلسي في نشاط جديد. جعلت أنظر إليها،

إلى تكوينها القويّ الرشيق، وملاحتها الفائقة، وشبابها الغضّ، وأنا في غاية من الارتياح. واستسلمت لرغبة في محادثتها فقلت:

ـ قلت إنّ اسمك زهرة؟

ـ زهرة سلامة.

ـ من أين يا زهرة؟

ـ من الزياديّة بحيرة.

ـ على ميعاد مع المدام؟

ـ لا...

ـ إذن؟...

ـ جئت لأقابلها.

ـ تعرفك طبعًا؟

ـ نعم.

تملّيت جمالها وشبابها بارتياح لم أشعر بمثله من دهر ثمّ عدت أسألها:

ـ هل تعيشين في الإسكندريّة من زمن طويل؟

ـ لم أعش في الإسكندريّة ولٰكن زرتها مرارًا مع المرحوم أبي.

ـ وكيف عرفت المدام؟

ـ كان أبي يجيئها بالجبن والزبد والسمن والدجاج، وكنت أجيء معه أحيانًا.

ـ فهمت، تنوين يا زهرة أن تحلّي محلّ أبيك.

ـ لا...

حوّلت عينيها إلى البارفان كأنّما لتتفادى من المزيد فاحترمت سرّها وازددت لها حبًّا. وبكلّ حنان دعوت لها في سرّي أن يحفظها الله.

***

قلت وأنا أقبّل يدها المعروقة المدبوغة «ببركة دعواتك أصبحت رجلًا ولا كلّ الرجال، هلمّي معي إلى القاهرة» فقالت وهي تتطلّع نحوي بحنان: «فليزدك الله من خيره وبركاته، أمّا أنا فلن أغادر البيت، إنّه حياتي وعمري».

بيت نحيل، مقشّر الجدران، تلطمه الرياح وتستقرّ أملاح البحر على أحجاره، وتلفحه روائح السمك المكدّس على شاطئ الأنفوشي.

قلت: «ولٰكنّك تعيشين هنا وحدك».

فقالت: «معي خالق الليل والنهار».

***

دقّ الجرس فقامت زهرة ففتحت الباب. نظرت إليها المدام بدهشة ثمّ هتفت:

ـ زهرة!... غير معقول...

لثمت الفتاة يدها مشرقة الوجه لحرارة الترحيب.

ـ جميل أن أراك، الله يرحم والدك، تزوّجت يا زهرة؟

ـ كلّا.

ـ غير معقول!.

وضحكت عاليًا ثمّ التفتت إليّ قائلة:

ـ زهرة بنت رجل طيّب يا مسيو عامر...

ومضتا معًا إلى الداخل حين جاش صدري بحنان وأبوّة.

***

ولمّا جمعنا مجلس الليل ـ أنا وطلبة وماريانا ـ قالت المدام:

ـ أخيرًا ارتحت.

وسكتت لحظة ثمّ واصلت:

ـ زهرة ستعمل عندي.

اجتاحني إحساس غريب بالفرح والضيق معًا ثمّ سألت:

ـ أجاءت لتعمل خادمة؟

ـ نعم، لِمَ لا، ستكون على أيّ حال في مركز ممتاز.

ـ ولٰكن ما...

ـ كانت تستأجر نصف فدّان وتزرعه بنفسها، ما رأيك في ذٰلك؟

ـ جميل ولٰكن لِمَ تركت أرضها؟

نظرت إليّ مليًّا ثمّ قالت:

ـ لقد هربت.

ـ هربت!

قال طلبة ساخرًا:

ـ اعتبروها إقطاعيّة!

ـ أراد جدّها أن يزوّجها من عجوز مثله لتخدمه. والباقي معروف...

قلت بحزن:

ـ حَدَثٌ خطير لا تهضمه القرية.

ـ لا أحد لها بعد جدّها إلّا شقيقتها الكبرى وزوجها...

ـ وإذا عرفوا أنّها هنا؟

ـ محتمل ولٰكن ماذا يهمّ؟

ـ ألا تخشين...

ـ ليست صغيرة، وما فعلتُ إلّا أنّني آويتها وأعطيت لها عملًا شريفًا...

ثمّ بإصرار:

ـ مسيو عامر، لن أتخلّى عنها...

***

لن أتخلّى عن واجبي ما دام فيّ عِرْق ينبض، ولتفعل بنا القوّة ما تشاء.

***

وراحت تعلّمها وزهرة تتعلّم بسرعة فائقة وماريانا تقول بسرور:

ـ البنت مدهشة يا عامر بك، مدهشة، ذكيّة وقويّة، من مرّة واحدة تعرف المطلوب، أنا بختي عال.

وقالت لي في مرّة أخرى:

ـ ما رأيك، خمسة جنيهات غير الأكل واللبس؟

أعلنت ارتياحي ثمّ قلت برجاء:

ـ لا تُلبسيها بطريقة عصريّة!

ـ أتريدها أن تلبس كالفلّاحات؟

ـ عزيزتي، البنت جميلة، فكّري في الأمر.

ـ أنا عيني مفتوحة دائمًا، والبنت طيّبة يا مسيو عامر.

هٰكذا خطرت زهرة في فستان من الكستور فُصِّل على جسمها الرشيق ليُبرز محاسنه، ربّما لأوّل مرّة، بعد طول اختفاء تحت الجلباب الفضفاض المسترسل حتّى الكعبين، ومُشط شعرها جيّدًا بعد أن غُسل بالجاز ثمّ فُرق في وسط الدماغ ليجتمع في ضفيرتين انسابتا في امتلاء وراء الأذنين.

ورآها طلبة مرزوق فنظر إليها متفرّسًا ثمّ مال نحوي بعد ذهابها وهمس قائلًا:

ـ سنشاهدها في الصيف القادم في الجنفواز أو مونت كارلو!

فقلت باستياء:

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ!

ثمّ مرّ بها وهو في طريقه إلى الخارج فسألها مداعبًا:

ـ هل فيك عِرْق أجنبيّ يا زهرة؟

شيّعته بنظرة متسائلة. واضح أنّها لم تستلطفه. ونظرت نحوي فقلت لها:

ـ إنّه يداعبك، فاعتبري قوله نوعًا من الثناء...

ثمّ قلت باسمًا:

ـ وأنا أيضًا من عشّاقك يا زهرة...

فابتسمت ابتسامة صافية فلم أشكّ في أنّها تبادلني مودّة بمودّة وسررت بذٰلك جدًّا. وكانت المدام تدعوها ـ بعد انتهاء العمل ـ للجلوس معنا في المدخل حول الراديو، فكانت تختار مقعدًا بعيدًا بعض الشيء عنّا وعلى كثب من البارفان وتتابع أحاديثنا برغبة جادّة في الاستطلاع والفهم، واستأنستها بمودّتي فصرنا صديقين، وتبادلنا الكلام كثيرًا في الفرص المتاحة.

وقصّت علينا ذات ليلة قصّتها بنفسها وهي تظنّ أنّنا نسمعها لأوّل مرّة. ثمّ قالت تعليقًا على بعض ظروفها:

ـ أراد زوج أختي أن يأكلني فزرعت أرضي بنفسي!

ـ ألم يشقّ عليك ذٰلك يا زهرة؟

ـ كلّا، إنّي قويّة بحمد الله، لم يغلبني أحد في المعاملة، لا في الحقل ولا في السوق.

فقال طلبة مرزوق ضاحكًا:

ـ ولٰكنّ الرجال يهتمّون بأمور أخرى أيضًا؟.

فقالت بتحدٍّ لطيف:

ـ أكون رجلًا عند الضرورة...

فأمنت على قولها بحماس. وقالت المدام:

ـ زهرة ليست غشيمة، كانت تصحب أباها في جولاته، كان يحبّها جدًّا...

فقالت بحزن:

ـ وكنت أحبّه أكثر من عينيّ، أمّا جدّي فلا يفكّر إلّا في الانتفاع من ورائي...

ولٰكنّ طلبة عاد إلى معاكستها قائلًا:

ـ لو كان باستطاعتك أن تكوني رجلًا فلم

اضطررت إلى الهرب؟

فقلت مدافعًا عنها:

- يا طلبة بك، أنت أدرى بجوّ القرى، وقداسة الأجداد، والتقاليد الرهيبة، كان عليها أن تبقى لتصير زوجة زائفة أو أن تهرب...

رمقتني بامتنان، ثمّ قالت بأسف:

- تركت أرضي...

وإذا بطلبة يقول:

- سيقولون إنّك هربت لكيت وكيت...

حدجته بنظرة غاضبة، واكفهرّ وجهها كأنّما اتّخذ من ماء الفيضان بشرة جديدة، وفردت سبّابتها والوسطى وهي تقول بخشونة:

- أغرزهما في عين مَن يتقوّل عليّ بالباطل...

هتفت المدام:

- زهرة ألا تفرّقين بين الجدّ والدعابة؟

وقلت بدوري ملاطفًا وقد أخذت بغضبتها:

- إنّه يداعبك يا زهرة...

وملت نحوه متسائلًا:

- أين لباقتك يا عزيزي؟

فأجابني باستهانة:

- موضوعة تحت الحراسة!

***

عيناها عسليّتان، وجنتاها دسمتان مورّدتان، في ذقنها غمّازة. بالكاد حفيدتي الصغرى، أمّا جدّتها المحتملة فقد مرّت في لمح البصر. لم يدركها حبّ ولا زواج. المستحيل تذكّر ملامحها. بيرجوان والدرب الأحمر وسيدي أبو السعود طبيب الجراح.

***

- حتّى متى تبقى هنا يا سيّدي؟

كانت تجيئني في حجرتي بقهوة العصر فأستبقيها حتّى أفرغ رغبة في حديثها.

- إنّي مقيم هنا يا زهرة.

- وأسرتك؟

قلت ضاحكًا:

- لا أحد لي في الدنيا سواك.

فضحكت من أعماق قلبها في مرح. يدها صغيرة صلبة خشنة الأنامل. قدماها مفلطحتان كبيرتان. أمّا الجسم والوجه فسبحان الله العظيم.

ومرّة همست لي:

- إنّه ثقيل الدم!

قلت لها مستعطفًا:

- إنّه رجل كبير سيّئ الحظّ، وبه مرض...

- يظنّ نفسه باشا وقد مضى عهد الباشوات.

وقع قولها من أذنيّ موقعًا غريبًا فدار رأسي في دائرة سحريّة قطرها قرن كامل.

***

- يأبون زيارة وزير الحقّانيّة لأنّه أفندي...

- يا دولة الزعيم، لرجال القضاء مهابتهم!

- إنّي فلّاح قبل كلّ شيء أمّا هم فشراكسة...

ثمّ ماضيًا في تصميم:

- اسمع، طالما عيّروني بالغوغاء ففاخرتهم بأنّني زعيم الرعاع ذوي الجلاليب الزرق، اسمع. لا بدّ أن تتمّ الزيارة... وبكلّ احترام...

***

حتّى أنواع الويسكي حفظت أسماءها وهي تبتاعها من بقّالة الهاي لايف. وكانت تقول لي:

- كلّما طلبتها رمقتني الأبصار وضحكت الوجوه... فردّدت في نفسي «ليحفظك الله».

***

يا لها من ضوضاء. الأصوات ليست بالغريبة ولكنّها تصرخ محتدمة. ماذا يجري خارج الغرفة؟ غادرت الفراش والساعة تدقّ الخامسة مساء. تلفّعت بالروب ومضيت إلى الخارج. لمحت طلبة وهو يختفي في حجرته ضاربًا كفًّا على كفّ. رأيت زهرة جالسة مقطّبة وشبه باكية مقوّسة الظهر والمدام واقفة أمامها في غاية من الكدر. ماذا هناك؟ قالت المدام لمّا رأتني:

- زهرة سيّئة الظنّ جدًّا يا عامر بك!

تشجّعت زهرة بحضوري فقالت بخشونة:

- أراد أن أدلّكه!

بادرتها المدام:

- أنك لا تفهمين، إنّه مريض، كلّنا نعلم ذلك، في حاجة إلى تدليك، كان يسافر كلّ سنة إلى أوروبّا،

وما دمت لا تريدين فلن يرغمك أحد...

قالت زهرة بحدّة:

ـ لم أسمع عن ذلك من قبل، دخلت حجرته بنيّة سليمة فرأيته منطرحًا على وجهه شبه عارٍ!

ـ كفى يا زهرة، الرجل كبير، أكبر من والدك، ليس إلّا سوء تفاهم، قومي فاغسلي وجهك وانسي الأمر كلّه...

جلسنا على كنبة من الأبنوس وحدنا. الهواء يصرخ في الخارج والنوافذ تصطكّ. غشانا صمت ثقيل مرهق فقالت المدام:

ـ هو الذي طلب، وأنا لا أشكّ في نيّته...

تمتمت بلهجة ذات معنى:

ـ ماريانا!

تساءلت بحدّة:

ـ أتشكّ في نيّته؟

ـ العبث لا حدود له!

ـ لكنّه شيخ كما تعلم؟

ـ وللشيوخ عبثهم أيضًا!

ـ قلت إنّها أولى بالنقود من أخرى غريبة!

ـ إنّها فلّاحة...

ثمّ ذكّرتها قائلًا:

ـ وقد وضعتِها في حِماك!

***

وجاء طلبة فاتّخذ مجلسه في بساطة البريء وانطلاقته. وراح يقول:

ـ الفلّاح يعيش فلّاحًا ويموت فلّاحًا...

فقلت بضيق:

ـ دعها تعيش وتموت على ما فطرها الله عليه...

قال بامتعاض:

ـ قطّة متوحّشة، لا يغرّك منظرها في الفستان، وجاكتة المدام الرماديّة، إنّها قطّة متوحّشة...

إنّي حزين من أجلك يا زهرة. أدرك الآن مدى وحدتك. وليس البنسيون بالمكان المناسب لك. والمدام ـ حاميتك ـ لن تتورّع عند أوّل فرصة عن اتّهام براءتك...

وتساءل طلبة مرزوق بعد الكأس الأولى قائلًا:

ـ مَنْذا يحدّثني عن حكمة الله في خلقه؟

فهتفت ماريانا مرحّبة بتغيير مجرى الحديث:

ـ حاسب أن تكفر يا طلبة بك!

فأشار إلى تمثال العذراء وسأل:

ـ خبّريني يا سيّدتي لماذا رضي الله بأن يُصلب ابنه؟

فقالت بجدّ:

ـ لولا ذلك لحلّت بنا اللعنة!

فضحك طويلًا ثمّ قال:

ـ ألم تحلّ بنا اللعنة بعد؟

وكان يسترق إليّ النظر وأنا أتجاهله حتّى لكزني بكوعه وهو يقول:

ـ أيّها الثعلب، عليك أن تصالحني مع زهرة...

***

نزيل جديد؟

شيء في وجهه الأسمر الواضح الملامح يشي بأنّه فلّاح معتدل القامة في غير امتلاء، سمرته أميل إلى العمق، له نظرة قويّة، في الثلاثين من عمره. دعته المدام إلى مقعد من مائدة الإفطار وهي تقول:

ـ مسيو سرحان البحيري.

ثمّ قدّمتنا إليه، وطلبت منه أن يزيدنا تعريفًا بنفسه إن شاء فقال بصوت قويّ ذي طعم ريفيّ متمدّن:

ـ وكيل حسابات شركة الإسكندريّة للغزل.

وعقب خروجه ضحكت المدام معلنة عن سرورها وقالت:

ـ نزيل مقيم أيضًا وبنفس الشروط!

ولم يكد يمضي أسبوع حتّى جاء حسني علّام للإقامة أيضًا: وهو شابّ يصغر سرحان بقليل، ربعة أبيض اللون، ذو بنيان متين يليق بمصارع، وقالت المدام إنّه من أعيان طنطا.

وأخيرًا جاء منصور باهي مذيع بمحطّة الإسكندريّة، في الخامسة والعشرين، وقد أثّر فيّ وجهه الرقيق وقسماته الصغيرة الجميلة، أجل فيه شيء من الطفولة ولا أقول الأنوثة ولكن بدا من أوّل الأمر أنّه يعيش في ذاته عسير الألفة.

إذن قد شمل العمران الحجرات جميعًا وطارت المدام من الفرح. وتوثّب قلبي للترحيب والتعارف

ولإشباع عواطفه المتعطّشة. وقلت للمدام:

ـ شباب مرح جميل فلعلّهم لا يزهدون في مجلسنا العجوز!

فقالت بسرور:

ـ وليسوا طلبة على أيّ حال.

لم يتجاوز التعارف حدوده الرسميّة، حتّى اقتربت الليلة الأولى لموسم أمّ كلثوم فعلمت أنّهم سيسهرون معنا حول الراديو وأنّها ستكون ليلة طيّبة عامرة بالشباب والغناء.

***

أعدّوا فيما بينهم عشاء من الشواء وشرابًا من الويسكي. جلسنا حول الراديو وزهرة تقوم على خدمتنا كنحلة. الليلة باردة ولكنّها صامتة لم نسمع للرياح فيها صوتًا وقالت زهرة: إنّ السماء صافية وإنّك تستطيع أن تعدّ النجوم. ودارت الكئوس وزهرة جالسة عند البارفان تراقبنا بنظرة باسمة. عانى طلبة مرزوق وحده قلقًا خفيًّا. قال لي قبل السهرة بأيّام: «سينقلب البنسيون جحيمًا». إنّه يخاف الأغراب، ولم يشكّ في أنّهم يحيطون بتاريخه وظروف حراسته علمًا، إن لم يكن عن طريق الصحف فعن سبيل المذيع منصور باهي.

وكانت المدام كعادتها قد استخلصت منهم المعلومات الخليقة بأن تُشبع تطفّلها الأبديّ:

ـ مسيو سرحان البحيري من أسرة البحيري!

لم أسمع عن الأسرة من قبل ولا بدا على طلبة مرزوق نفسه أنّه سمع بها.

ـ وقد دلّه صديق على البنسيون لمّا علم بضيقه بشقّته القديمة...

وحسني علّام؟

ـ مسيو حسني من أسرة علّام بطنطا...

وخيّل إليّ أنّ طلبة يعرفها ولكنّه تجنّب الحديث ما أمكنه.

ـ وهو يملك مائة فدّان...

قالتها بزهو كأنّها هي المالكة.

ـ لم تزد ولم تنقص فالثورة لم تمسّه...

وتهلّل وجهها كأنّما النجاة كانت لها.

ـ وقد جاء الإسكندريّة لينشئ لنفسه عملًا...

هنا سأله سرحان:

ـ ولِمَ لا تزرع أرضك؟

فقال باقتضاب:

ـ مؤجّرة.

فتفحّصه سرحان بنظرة مداعبة ثمّ قال:

ـ قل إنّك لم تزرع في حياتك قيراطًا...

وضحك ثلاثتهم ولكن برزت ضحكة حسني المجلجلة.

ثمّ أشارت المدام إلى منصور باهي وقالت:

ـ أمّا هٰذا فهو شقيق صديق قديم يُعتبر من أحسن ضبّاط البوليس الذين عرفتهم الإسكندريّة...

خيّل إليّ أنّ أشداق طلبة قد ازدادت انتفاخًا.

ـ وقد أشار عليه لدى نقله من الإسكندريّة قريبًا بالإقامة في بنسيون ميرامار...

مال طلبة نحوي منتهزًا فرصة انشغالهم بالشراب وهمس:

ـ وقعنا في وكر للجواسيس!

فهمست له بدوري:

ـ لقد ولّت أيّام الوحشيّة فلا تكن سخيفًا.

وإذا بالسياسة تفرقع في السمَر. وبدا سرحان متحمّسًا بلا حدود:

ـ لقد خلق الريف خلقًا جديدًا...

كان صوته يتغيّر تبعًا لامتلائه بالطعام أو خلوّه منه:

ـ كذٰلك العمّال، إنّي أعيش بينهم في الشركة فتعالوا وانظروا بأنفسكم.

وسأله منصور باهي ـ إنّه أميلهم للصمت وقد ينفجر ضاحكًا كأنّه شخص آخر...

ـ أتشتغل بالسياسة بالفعل؟

ـ من هيئة التحرير إلى الاتّحاد القوميّ، واليوم فأنا عضو بلجنة العشرين وعضو مجلس الإدارة المنتخب عن الموظّفين...

ـ ألم تشتغل بالسياسة من قبل؟

ـ كلّا...

وقال حسني علّام:

ـ إنّي مقتنع تمامًا بالثورة. لذلك أعتبر ثائرًا على

طبقتي التي جاءت الثورة لتصفيتها...

فقال منصور باهي:

ـ على أيّ حال فالثورة لم تمسّك.

ـ ليس ذاك هو السبب، فحتّى فقراء طبقتنا قد لا يحبّون الثورة...

وأخيرًا قال منصور باهي:

ـ إنّي مقتنع تمامًا بأنّ الثورة كانت أرفق بأعدائها ممّا يجب!

والظاهر أنّ طلبة مرزوق ظنّ أنّه إن لزم الصمت فقد يضرّه الصمت، لذلك قال:

ـ لقد حاق بي ضرر بالغ فأكون منافقًا لو قلت إنّني لم أتألّم، ولكنّني أكون أنانيًا كذلك لو أنكرت أنّ ما عُمل هو ما كان ينبغي أن يُعمل...

***

عندما آويت إلى حجرتي قبيل الفجر لحق بي فسألني عن رأيي فيها قال فأجبته بصوت غريب بعد أن نزعت طاقم أسناني:

ـ رائع...

ـ أتظنّ أنّ أحدًا صدّقني؟

ـ لا يهمّ...

ـ يحسن بي أن أبحث عن مقام آخر...

ـ لا تكن سخيفًا.

ـ كلّما سمعت ثناء على إجراءاتٍ قتلي تعرّضت لأزمة روماتزم!

ـ عليك أن تروّض نفسك عليه.

ـ كما تفعل أنت؟!

فقلت ضاحكًا:

ـ إنّنا مختلفان منذ الأزل كما تعلم.

فمضى وهو يقول لي:

ـ أتمنّى لك أحلامًا مزعجة!

***

وقالت المدام ولم تكن تشارك في الشراب وقنعت من الطعام بشريحة شواء وكوب حليب دافئ:

ـ عيب ثومة أنّها تبدأ في وقت متأخّر!

ولكنّ الشبّان نجحوا في التغلّب على آلام الانتظار. وفجأني منصور باهي قائلًا:

ـ إنّي أعرف من تاريخك الشيء الكثير.

اجتاحني فرح صبيانيّ كأنّما رُددت إلى فترة من فترات الشباب، فمضى يفسّر قوله:

ـ راجعت الصحف القديمة مرّات وأنا بصدد إعداد برنامج إذاعيّ...

تطلّعت إليه مستزيدًا في اهتمام فقال:

ـ تاريخ طويل حقًّا، أسهمت بقدر ملحوظ في شتّى تياراته، حزب الأمّة، الحزب الوطنيّ، الوفد، الثورة...

قبضت على الفرصة بجنون، مضيت به إلى رحلة في رحاب التاريخ، نوّهت بمواقف لا يجوز أن تُنسى، استعرضنا الأحزاب. حزب الأمّة ما له وما عليه، والحزب الوطنيّ ما له وما عليه، والوفد وحلّه للمتناقضات القديمة وقاعدته الشعبيّة من الطلبة والعمّال والفلّاحين، لماذا جنحت بعد ذلك للاستقلال، ثمّ لماذا أيّدت الثورة...

ـ ولكنّك لم تهتمّ بالمشكلة الاجتماعيّة الجوهريّة؟

فقلت ضاحكًا:

ـ لقد نشأت عهدًا بالأزهر فلم يكن غريبًا أن أعمل كمأذون شرعيّ رسالته في الحياة أن يوفّق بين الشرق والغرب في الحلال!

ـ أليس غريبًا أن تحمل على النقيضينِ معًا، أعني الإخوان والشيوعيّين؟

ـ كلّا، كانت فترة حيرة، ثمّ جاءت الثورة لتمتصّ خير ما فيهما معًا.

ـ إذن فقد انتهت حيرتك؟

أجبت بالإيجاب. ثمّ تذكّرت حيرتي الخاصّة التي لا تُحلّ بحزب أو ثورة فردّدت في نفسي الدعاء الذي لا يدري به أحد.

وآن الأوان فدفعت بقاربي المضطرب إلى بحر الأنغام والطرب. نشدته أن يكون من الأعضاء المتنافرة المتناحرة جسمًا ينبض بالروح والانسجام. نشدته أن يعلّمني التوافق والتوازن في بناء ترعاه عين الحبّ والسلام. أن يصهر عذاباتي في نغمة تنعش القلب والعقل بجمال البصيرة. أن يسكب الشهد المصفّى على عناد الوجود.

ألم تسمع بالخبر العجيب؟... لقد اجتمع مجلس النظّار أمس بعوّامة منيرة المهديّة...

***

ـ شبّان ظرفاء وأغنياء!

هٰكذا جعلت تردّد ماريانا. وقد زادت أعباء زهرة ولٰكنّها حملتها بهمّة عالية حقًّا. أمّا طلبة مرزوق فراح يقول:

ـ إنّي لا أطمئنّ إلى أحد منهم.

فسألته ماريانا:

ـ ولا حسني علّام؟

فواصل حديثه قائلًا:

ـ سرحان البحيري أشدّهم خطورة، لقد انتفع بالثورة إلى أقصى حدّ، ودعك من أسرة البحيري التي لم يسمع بها أحد، ثمّ إنّ كلّ مولود في البحيرة فهو بحيري، حتّى زهرة فهي زهرة البحيري...

ضحكت كما ضحكت المدام. ومرّت بنا زهرة في طريقها إلى الخارج لأداء واجب من واجباتها، فرأيتها مطوّقة الرأس بإشارب أزرق ابتاعته بنقودها، تخطر في جاكتة المدام الرماديّة، فاتنة من فاتنات الأعشاب النديّة والزهور البرّيّة. وعدت أقول:

ـ منصور باهي فتى ذكيّ، ما رأيك؟... لا يحبّ الكلمات الجوفاء، ويخيّل إليّ أنّه ممّن يعملون في صمت، ثمّ إنّه من جيل الثورة الخالص...

ـ ما الذي يدعوه، هو أو غيره، إلى الالتصاق بالثورة؟

ـ إنّك تتكلّم كأنّما لا يوجد بالوطن فلّاحون ولا عمّال ولا شبّان!

ـ لقد سلبت البعض أموالهم وسلبت الجميع حرّيّتهم!

فقلت ساخرًا:

ـ إنّك تتكلّم عن حرّيّة بالية، وحتّى هٰذه لم تحظ باحترامكم أيّام سطوتكم...

***

وأنا خارج من الحمّام رأيت في الطرقة شبحين، زهرة وسرحان البحيري. في مهامسة أو مناجاة. لعلّه أراد أن يداري موقفه فرفع صوته متحدّثًا في بعض الشئون التي تُعَدّ الفتاة مسئولة عنها. مضيت إلى حجرتي كأنّما لا أرى ولا أسمع ولٰكن اجتاحني القلق. كيف تحافظ زهرة على راحة بالها في خليّة غاصّة بالشبّان؟ وعندما جاءتني بقهوة العصر سألتها:

ـ أين تقضين عطلتك الأسبوعيّة مساء الأحد؟

أجابت بابتهاج:

ـ في السينما.

ـ وحدك؟

ـ مع المدام.

قلت من قلب محبّ:

ـ فليحفظك الله...

ابتسمت قائلة:

ـ إنّك تخاف عليّ كما لو كنت طفلة.

ـ وإنّك لطفلة يا زهرة.

ـ كلّا، تجدني في وقت الشدّة كالرجال.

قرّبت وجهي من وجهها الجميل المحبوب وقلت:

ـ زهرة. هٰؤلاء الشبّان لا يعرفون للّهو حدودًا، أمّا عند الجدّ...

وفرقعت بأصابعي، ولٰكنّها قالت:

ـ حدّثني أبي عن كلّ شيء...

ـ إنّي في الواقع أحبّك وأخاف عليك.

ـ أنا فاهمة، لم أعرف رجلًا مثلك منذ أبي، وأنا أحبّك أيضًا.

لم أسمع بكلمة الحبّ من قبل بهٰذه النعومة الرائقة. وكان من الجائز أن تخاطبني بها عشرات الأفواه البريئة لولا تهمة ألقيت بغباء، تهمة لا يمكن أن يقضي فيها أحد من الناس.

***

البرقع الأبيض.

خرجت العجوز من الباب إلى الحارة وهي تقول:

ـ هلمّي قد كفّ المطر...

تبعتها صاحبة البرقع الأبيض تمشي في حذر على أرض زلقة متجنّبة نقرة مملوءة بماء المطر. عفا الزمان على ذكريات جمالها إلّا الأثر. تنحّيت جانبًا وأنا أردّد في نفسي سبحان الخلّاق ذو النعم. واهتزّ الفؤاد من أعماقه فقلت أتوكّل على الله وخير البرّ عاجله.

في المدخل وحدنا وقد جلست تحت العذراء تعكس عيناها الزرقاوان نظرة مثقلة بالفكر. وكان المطر يهطل بلا توقّف منذ الظهر والسحب تتتابها نوبات رعديّة متفجّرة. قالت المدام:

ـ مسيو عامر، إنّي أشمّ رائحة غريبة!

رمقتها بحذر فقالت باستياء:

ـ زهرة!

ثمّ بعد وقفة قصيرة:

ـ وسرحان البحيري!

انقبض صدري ولٰكنّني تساءلت بسذاجة:

ـ ماذا تعنين؟

ـ أنت تفهم تمامًا ما أعني...

ـ ولٰكنّ الفتاة...

ـ قلبي لا يخونني في هٰذه الأمور!

ـ البنت طيّبة وشريفة يا عزيزتي ماريانا.

ـ مهما يكن من أمرها فإنّي لا أحبّ أن يلعب أحد من وراء ظهري!

إمّا أن تبقى زهرة شريفة وإمّا أن تعمل لحسابك. إنّي أفهمك تمامًا أيّتها العجوز.

***

حلمت ـ وأنا مستغرق في القيلولة ـ بالمظاهرة الدامية التي اقتحم الإنجليز على أثرها ساحة الأزهر. وفتحت عينيّ وأصوات المتظاهرين وطلقات الرصاص تدوّي في رأسي. كلّا إنّها أصوات من نوع آخر تجتاح البنسيون خارج حجرتي. ارتديت الروب وغادرت الحجرة وأنا من الانزعاج في نهاية. وجدت الجميع قد سبقوني إلى المدخل. البعض في حال استطلاع مثلي أمّا سرحان البحيري فكان ثائرًا متسخّطًا وهو يسوّي الكرافتة وياقة القميص، كذٰلك زهرة كانت مصفرّة الوجه من الغضب وقد تمزّقت طاقة فستانها وراح صدرها يعلو وينخفض، على حين مضى حسني علّام إلى الخارج بالروب آخذًا معه امرأة غريبة وهي تصرخ وتسبّ وقد بصقت في وجه سرحان البحيري قبل أن يغيّبها الباب. وصاحت المدام:

ـ لا يجوز هٰذا في بنسيون محترم...

وجعلت تردّد بحدّة «لا... لا... لا».

ثمّ خلا المدخل إلّا من ثلاثتنا أنا وهي وطلبة مرزوق. سألت ولمّا أفق من النوم تمامًا:

ـ ماذا حدث؟

فأجابني طلبة مرزوق:

ـ لم أر أكثر ممّا رأيت إلّا القليل...

وذهبت المدام إلى حجرة سرحان للاستماع فيما بدا أمّا طلبة فواصل الحديث قائلًا:

ـ يبدو أنّ صاحبنا البحيري دون جوان عتيد!

ـ ما الذي حملك على هٰذا الظنّ؟

ـ ألم تر إلى المرأة وهي تبصق عليه؟

ـ ولٰكن مَن المرأة الغريبة؟

ـ امرأة، أيّ امرأة!

ثمّ وهو يضحك:

ـ امرأة جاءت تسعى وراء رجلها الهاجر!

وجاءت زهرة وهي ما زالت منفعلة فمضت تقول دون سؤال من أحد:

ـ فتحت الباب للأستاذ سرحان وإذا بامرأة تتبعه وهو لا يدري ثمّ اشتبكا في عراك حامٍ.

ورجعت المدام فقالت وهي واقفة:

ـ الفتاة كانت خطيبته، أو هٰذا ما فهمته...

وضح كلّ شيء فيما أعتقد غير أنّ طلبة مرزوق سأل بخبث:

ـ وما دخل زهرة في الموضوع؟

فأجابت زهرة:

ـ أردت أن أخلّص بينهما فتحوّلتْ إليّ ثمّ كان ما كان!

فقال الرجل:

ـ إنّك ملاكمة جبّارة يا زهرة!

فقلت برجاء:

ـ فلنعتبر الموضوع منتهيًا من فضلكم...

***

بسم الله الرحمٰن الرحيم

طسم

﴿تلك آيات الكتاب المُبين. نتلو عليك من نبإ موسى وفرعونَ بالحقّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنون. إنّ فرعونَ علا في الأرض وجعل أهلها شِيَعًا يَستضعف طائفة منهم يُذبّحُ

أبناءهم ويستحيي نساءهم إنّه كان من المُفسِدين. ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا في الأرض ونَجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين﴾.

سمعت يدًا تنقر على الباب مستأذنة في الدخول. دخلت المدام باسمة ثمّ جلست أمامي على مقعد بلا ظهر أطرح عليه ساقيّ أحيانًا. ثمّة زوبعة كانت تعوي في المنور وأنا مدّثر بالروب، والحجرة نعسانة في جوّها شبه المظلم الذي لا يدلّ على وقت. قالت وهي تغالب ضحكة:

ـ إليك نبأ عجيبًا. . .

أغلقت الكتاب ووضعته على الكوميدينو وأنا أغمغم:

ـ ليكن سارًّا يا عزيزتي. . .

ـ زهرة قرّرت أن تتعلّم. . .

نظرت إليها ببلاهة ولم أفهم شيئًا:

ـ حقًّا قرّرت أن تتعلّم، قالت لي إنّها ستغيب ساعة كلّ يوم لتتلقّى درسًا. . .

قلت:

ـ هٰذا مذهل حقًّا. . .

ـ عندنا في العمارة بالدور الخامس أسرة فيها إبنة مدرّسة اتّفقت معها. . .

ـ أكرّر أنّه قرار مذهل حقًّا!

ـ ومن جانبي لم أعارضها وإن أشفقت على أجرتها التي ستستولي عليها المدرّسة. . .

ـ جميل منك هٰذا يا مدام ولٰكنّي مذهول بكلّ معنى الكلمة!

ولمّا جاءتني زهرة بقهوة العصر قلت لها:

ـ تخفين عنّي أسرارك يا ماكرة!

قالت بحياء:

ـ لا أسرار تخفى عليك.

ـ وقرارك عن التعليم؟. . . خبّريني كيف فكّرت في ذٰلك؟

ـ كلّ البنات تتعلّم، إنّهنّ يملأن الشوارع. . .

ـ ولٰكنّك لم تفكّري في ذٰلك من قبل. . .

ضحكت بسرور فقلت:

ـ إنّك قلت لنفسك إنّك أجمل منهنّ فلِمَ يتعلّمن ولا تتعلّمين. . . هه؟

جعلت تنظر إليّ بابتهاج دون أن تنبس فقلت:

ـ ولٰكن ليس ذاك بكلّ شيء. . .

ـ ماذا هناك أيضًا؟

تردّدت لحظة ثمّ قلت:

ـ هناك صاحبنا سرحان البحيري. . .

تورّد وجهها وغضّت البصر فقلت بإشفاق:

ـ أمّا التعليم ففكرة مدهشة وأمّا سرحان. . .

تردّدتُ في الإفصاح فتساءلت:

ـ ماله؟

ـ هٰؤلاء الشبّان طموحون!

قالت بامتعاض:

ـ كلّنا أبناء حوّاء وآدم. . .

ـ هٰذا حقّ ولٰكن. . .

ـ الدنيا تغيّرت، أليس كذٰلك؟

ـ الدنيا تغيّرت ولٰكنّهم لم يتغيّروا بعد. . .

امتلأت نظرتها بالتفكير وهي تقول:

ـ بعد الكتابة والقراءة سأتعلّم مهنة كالخياطة.

خفت إن تكلّمت أكثر أن أجرح مشاعرها فسألتها:

ـ هل يحبّك حقًّا؟

فأحنت رأسها بالإيجاب فقلت:

ـ ليحفظك الله ويسعدك.

ورحت أساعدها من حين لآخر وهي تدقّ باب المجهول، عالم الكلمات والأعداد. وعلم الجميع بقرارها وناقشوه طويلًا ولٰكن لم يسخر منها أحد، على الأقلّ أمامها. كان الجميع يميلون إليها فيما أعتقد، كلٌّ على طريقته. وتابع طلبة مرزوق القضيّة فلم يخفَ عليه شيء من أسرارها، ثمّ قال لي:

ـ ما هو الحلّ السعيد لمشكلة زهرة؟. . . أن ينزل عندنا يومًا منتج سينمائيّ. ما رأيك؟

فلعنت رأيه.

***

وذات أصيل ذهبت كالعادة إلى مجلسي بالمدخل فرأيت زهرة جالسة إلى جانب فتاة غريبة على الكنبة. من لمحة أدركت أنّها المدرّسة. فتاة ريفيّة وجميلة. وقد تكرّمت بالحضور إليها بسبب وجود زوّار في شقّتها.

وكالعادة كانت المدام قد استجوبتها وعرفت عنها بعض ما تتطلّع إليه فأخبرت بأنّها تقيم مع والديها وأنّ لها أخًا يعمل في السعوديّة. وتكرّر حضور المدرّسة للبنسيون، وكانت تثني على اجتهاد تلميذتها.

ولاحظت مرّة ـ وزهرة قادمة بقهوة العصر ـ أنّها متجهّمة فسألتها عن الصحّة فأجابتني بفتور:

ـ كالبغل!

ـ والدروس؟

ـ لا شكوى من هٰذه الناحية.

فقلت بقلق:

ـ لم يبق إلّا صديقنا البحيري!

وصمتنا بعض الوقت كأنّما لنصغي إلى صوت المطر المنهمر، ثمّ قلت:

ـ لا أطيق أن أراكِ متألّمة.

فقالت بامتنان:

ـ إنّي أصدّقك.

ـ ماذا حدث؟

ـ الحظّ يعاندني.

ـ قلت لك من أوّل يوم...

ـ ليس الأمر بالسهولة التي تتصوّرها!

ثمّ نظرت إليّ بكآبة وقالت بانفعال:

ـ ما العمل؟ إنّي أحبّه، ما العمل؟

ـ هل تبيّن لك كذبه؟

ـ كلّا، إنّه يحبّني أيضًا، ولٰكنّه يتكلّم دائمًا عن العقبات.

ـ لٰكنّ الرجل إذا أحبّ...

فقالت بإصرار:

ـ إنّه يحبّني ولٰكنّه دائمًا يتكلّم عن العقبات.

فقلت بحنان:

ـ ولٰكن ما ذنبك أنت؟ يجب أن تعرفي لنفسك طريقًا.

فمضت وهي تقول:

ـ ما قيمة أن أعرف ما يجب عمله ما دمت لا أستطيعه؟

***

ـ يا سعادة الباشا كيف هان عليك؟

فقاطعني قائلًا:

ـ كان عليّ أن أختار بين أمرين، فإمّا الانتفاع ببنك التسليف الزراعيّ مع إعلان خروجي على الوفد وإمّا الخراب.

ـ ولٰكنّ الكثيرين فضّلوا الخراب!

فصاح غاضبًا:

ـ صه... إنّك لا تملك قيراطًا ولا ابن لك ولا بنت، ولقد ضُربت واعتُقلت في قشلاق قصر النيل، ولٰكنّ ابنتي أعزّ عليّ من الدنيا والآخرة!

***

قالت لي المدام هامسة:

ـ تعال معي، أهل زهرة حضروا.

مضيت معها إلى المدخل فرأيت شقيقة زهرة وزوجها جالسينِ والفتاة واقفة في وسط المكان تنظر إليهما في صلابة وعناد. وكان الرجل يقول:

ـ حسن أن تذهبي إلى المدام ولٰكن عار أن تهربي.

وقالت أختها:

ـ فضحتنا يا زهرة في الزياديّة كلّها.

فقالت زهرة بغضب وحدّة:

ـ أنا حرّة ولا شأن لأحد بي.

ـ لو كان جدّك يستطيع السفر!

ـ لا أحد لي بعد أبي.

ـ يا للعيب... هل كفر لأنّه أراد أن يزوّجك من رجل مستور؟

ـ أراد أن يبيعني.

ـ الله يسامحك... قومي معنا...

ـ لن أرجع ولو رجع الأموات.

وهمّ زوج أختها بالكلام ولٰكنّها بادرته:

ـ لا شأن لك بي!

وأشارت إلى المدام قائلة:

ـ إنّي أعمل هنا كما يعمل الشرفاء وأعيش من عرق جبيني!

خيّل إليّ أنّهما يودّان أن يصارحاها برأيهما في المدام والبنسيون وتمثال العذراء ولٰكنّهما لا يستطيعان. وقالت المدام:

ـ زهرة ابنة رجل كنت أحترمه، إنّي أعاملها كابنة،

فأهلًا بها إن أرادت البقاء.

ونـظرت المدام إليّ كـأنّمـا تستحثّني عـلى الكـلام فقلت:

ـ فكّري يا زهرة واختاري!

لكنّها قالت بإصرار:

ـ لن أرجع ولو رجع الأموات!

انتهت الرحلة بالفشل فمضى الرجل بزوجته وهو يقول لزهرة:

ـ القتل لك حقّ وعدل.

وجعلنا نناقش الموضوع، ونقول ونعيد. حتّى قالت لي زهرة:

ـ خبّرني عن رأيك صراحة؟

فقلت:

ـ أتمنّى أن ترجعي إلى قريتك!

ـ أرجع للهوان؟

ـ قلت «أتمنّى» يا زهرة... أقصد أن ترجعي وأن يكون في الرجوع سعادتك.

ـ إنّي أحبّ الأرض والقرية ولكنّي لا أحبّ الشقاء!

وانتهزت فرصة ذهاب المدام إلى بعض شأنها فقالت بحزن:

ـ هنا الحبّ والتعليم والنظافة والأمل!

أدركت أشجانها. لقد هاجرتُ مثلها مع والدي من القرية. وأحببت القرية مثلهـا ولكنّي ضقت بالعيش فيها. وعلّمت نفسي كما تودّ أن تفعل. ورُميت مثلها بتهمـة باطلة فقـال أقوام إنّي أستحقّ القتـل. ومثلها فتنني الحبّ والتعليم والنظافة والأمل.

الله أسـأل أن يجعل حـظّك أسعد من حـظّي يـا زهرة.

***

دنا الخريف من نهايته ولكنّ جوّ الإسكندريّة يسير على هواه. وقد أنعمت بركاته علينا بصباح مضيء دافئ فابتهج ميدان الرمل تحت أشعّة الشمس الهـابطة من سماء صافية الزرقة. ابتسم إليّ محمود أبو العبّاس بائع الجرائد وأنا أقف أمام معرضه الملوّن بأغلفة المجلّات والكتب، ابتسم وقال لي:

ـ سعادة البك؟

ظننت أنّ ثمّـة خـطأ في الحسـاب. نـظرت إليـه متسائلًا وهو قائم أمامي بجسمه الفارع فقال:

ـ سعادتك تقيم في بنسيون ميرامار؟

أجبت بهزّة من رأسي فقال:

ـ لا مؤاخذة، توجد في البنسيون بنت اسمها زهرة؟

أجبت بانتباه مفاجئ:

ـ نعم.

ـ أين أهلها؟

ـ لكن لماذا تسأل؟

ـ لا مؤاخذة، أريد أن أخطبها.

فكّرت قليلًا ثمّ قلت:

ـ أهلها في الريف وأظنّها على خلاف معهم، هل فاتحتها في الأمر؟

ـ إنّها تجيء أحيانًا لشراء الجرائد ولكنّها لا تشجّعني على الكلام.

وزار المدام مساء اليوم نفسه ليطلب يد زهـرة. وخـاطبت المدام زهـرة في الأمر بعـد ذهابـه. ولكنّها رفضته بلا تردّد ولا تفكير. ولمّا أعادت على مسمعنا ـ أنا وطلبة ـ الحكاية قال الرجل:

ـ لقد أفسدتها يا ماريانا. نظّفتها ولبّستها ملابسك، وهـا هي تختلط بـالشبّـان المتـازين فتلعب بعقـولهـا الأحلام، وليس لذلك كلّه إلّا نهاية محتومة واحدة!

وفي خلوتنا اليوميّة ـ عندما جاءتني بقهوة العصر ـ تحادثنا في الموضوع. قلت لها:

ـ كان يجب أن تفكّري في الأمر.

فقالت محتجّة:

ـ ولكنّك تعرف كلّ شيء!

ـ لا ضرر ألبتّة من التفكير والمشاورة.

فقالت معاتبة:

ـ إنّك تراني شيئًا حقيرًا لا يجوز له أن ينـظر إلى فوق!

فلوّحت بيدي معترضًا وقلت:

ـ المسألة أنّني أراه زوجًا كفئًا، هٰذا كلّ ما هناك.

ـ ساعود معه إلى مثل حياة القرية التي هربت منها!

لم أرتح إلى حجّتها فواصلت حديثها قائلة:

ـ ومرّة سمعته يتكلّم مع صاحب له وهو لا يراني

فيقول له إنّ النساء تختلف في الألوان ولْكنّها تتّفق على حقيقة واحدة، فكلّ امرأة حيوان لطيف بلا عقل ولا دين، والوسيلة الوحيدة التي تجعل منهنّ حيوانات أليفة هي الحذاء!

نظرت إليّ كالمتحدّية ثمّ تساءلت:

ـ أمِنَ العيب أن أحبّ لنفسي حياة كريمة؟

لم أجد ما أقوله. ورغم تظاهري بالأسف فإنّني شعرت بإعجاب بها لا يحدّ. لن أضايقك بنصائح العجائز. لقد كان سعد زغلول يستمع إلى نصائح الشيوخ ولْكنّه اتّبع غالبًا آراء الشباب. ليحفظك الله يا زهرة.

***

ـ أحداث هامّة تقع من حولك وأنت لا تدري أيّها العجوز!

قال طلبة مرزوق ذٰلك وهو يبتسم ابتسامة خبيثة. كنّا نجلس في المدخل وحدنا ولا أنيس لنا إلّا صوت هطول المطر. سألته وأنا أتوقّع أنباء سوء:

ـ ماذا هناك؟

ـ دون جوان البحيرة يدبّر انقلابًا في الخفاء.

همّني الأمر لصلته بزهرة فسألته عمّا يعني فقال:

ـ غيّر الهدف القديم، وهو يسدّد الآن بإحكام نحو هدف جديد!

ـ تكلّم بلا تلذّذ بالمصائب.

ـ حسن، جاء دور الأستاذة!

ـ المدرّسة؟

ـ بالضبط، لمحت نظرات متبادلة وأنا كما تعلم لي خبرة قديمة بهٰذه اللغة.

ـ يا لك من رجل تتجسّد له أفكاره الشرّيرة في صورة حقائق...

قال وهو يسخر ضاحكًا، وشامتًا:

ـ بابا عامر... أدعوك إلى متابعة ألطف دراما في ميرامار!

عزمت على ألّا أصدّقه ولْكن كدّر صفوي القلق. وإذا بحسني علّام يحدّثنا في نفس اليوم عن معركة دارت بين سرحان البحيري ومحمود أبو العبّاس بائع الجرائد في ميدان الرمل. خمّنت ما وراء المعركة من أسباب ولْكنّ تخيُّل تطوّراتها كان فوق المستطاع. وقال حسني:

ـ تبادلا الضرب حتّى خلّص الناس بينهما.

فسأله طلبة مرزوق:

ـ هل شهدتهما وهما يتضاربان؟

ـ كلّا، علمت بما كان بعد وقوعه بفترة وجيزة.

وتساءلت المدام بإشفاق:

ـ وهل وصل الأمر إلى القسم؟

ـ كلّا، انتهى بسيل من السباب والوعيد.

ولم يُشِرْ سرحان إلى الواقعة فتجنّبنا ذكرها، ورجعت أفكّر فيما قال طلبة عن سرحان والمدرّسة فاعتراني غمّ ونكد.

***

الوفاء عند المِلاح صدف أسعفيني يا دموع العين

واستعدناها مرّات ومرّات بالتصفيق والهتاف فراح يغنّي حتّى مطلع الفجر. كنت ليلتها مكتظًّا بالشباب والقوّة والطعام والخمر. والقلب يعاني وحده أسرار الشجن.

***

حلمت بوفاة أبي.

كنت مستغرقًا في النوم في الهزيع الأخير من الليل. رأيتهم وهم يحملونه من رواق مسجد أبي العبّاس حيث أدركته الوفاة ثمّ يمضون به إلى البيت. بكيت. ودوّى في أذنيّ صوات أمّي. ومضى يدوّي حتّى فتحت عينيّ.

يا إلٰهي ماذا يحدث في الخارج؟ كالمرّة السابقة؟ لقد انقلب بنسيون ميرامار إلى ميدان قتال. ولْكن عندما غادرت حجرتي كان كلّ شيء قد انتهى. ولمحتني ماريانا فأقبلت نحوي كالمستغيثة فدخلنا الحجرة وهي تهتف:

ـ لا... لا... فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

نظرت إليها بعينيّ المثقلتين بالنوم فقصّت عليّ القصّة الجديدة. استيقظتْ على صوت عراك، غادرتْ حجرتها فوجدت سرحان البحيري وحسني علّام وهما يتضاربان.

ـ حسني علّام!؟

ـ نعم، لِمَ لا، يجب أن يأخذ كلٌّ نصيبه من الجنون!

فسألتها بامتعاض:

ـ ولكن ما السبب؟

ـ آه، فلنرجع خطوة إلى الوراء، إلى حادثة لم أشهدها لأنّي كنت مثلكم مستغرقة في النوم.

ـ وهي؟

ـ قالت زهرة إنّ حسني علّام رجع من الخارج سكران فحاول أن. . .

ـ لا. . . !

ـ إنّي أصدّقها يا مسيو عامر.

ـ وأنا أيضًا، ولكنّ حسني لم يلاحظ عليه أنّه. . .

ـ لا يمكن أن نلاحظ كلّ شيء. وقد استيقظ سرحان في الوقت المناسب فكان ما كان.

ـ يا للأسف!

مسحت على عنقها كأنّما لتزيل عنه الألم الذي ألمّ بأوتار صوتها من الزعق، ورجعت تقول:

ـ لا. . . فليذهبوا إلى الجحيم.

فقلت بامتعاض:

ـ على الأقلّ يجب أن يذهب حسني علّام.

لم تعلّق على قولي، بل ولم تتحمّس له، ثمّ غادرت الحجرة متجهّمة.

ولمّا جاءتني زهرة عصر اليوم التالي تبادلنا نظرات ذات معنى. غمغمت:

ـ أسفت جدًّا يا زهرة.

فقالت بسخط:

ـ رجال بلا شهامة.

ـ الحقّ أنّ المكان لا يليق بك.

ـ بوسعي دائمًا أن أدافع عن نفسي، وقد فعلت.

ـ ولكن ليست هذه بالحياة المطمئنّة التي تُرجى لبنت طيّبة مثلك.

فقالت بعناد:

ـ يوجد أرذال في كلّ مكان، حتّى في القرية!

***

غادرتُ البنسيون عقب أيّام حُبست فيها داخله لشدّة البرد وثورة الرياح وانهلال المطر. كانت أيّامًا فظيعة فانطوينا على أنفسنا في الحجرات، ولكن لم يكفّ الجوّ عن مهاجمتنا في قواقعنا، لطمت المياه النوافذ، وزلزلت الجدران بصواعق الرعد، وومض البرق كالنذر، وصرخت الرياح كعزيف الجان.

ولمّا غادرت البنسيون استقبلني الوجه الآخر للإسكندريّة، الذي أفرخ غضبه. وثاب إلى وداعته، تلقّيت الشعاع الذهبيّ المغسول بامتنان، نظرت إلى الأمواج وهي تتتابع في براءة، على حين نُقشت السماء بسحائب صغيرة متهافتة كالأنفاس المتردّدة. جلست في التريانون لأشرب القهوة باللبن. كما كنت أجلس في الأيّام الخالية مع الغرابلي باشا والشيخ جاويش، ومدام لبراسكا الإفرنجيّة الوحيدة التي جرّبتها وسط طوفان من الملاءات اللفّ! جلس معي طلبة مرزوق بعض الوقت ثمّ انصرف إلى بهو وندسور لمقابلة صديق قديم. وإذا بسرحان البحيري يُقبل نحوي فيسلّم ويجلس ثمّ يقول:

ـ فرصة سعيدة. دعني أودّعك فقد لا ألقاك وأنا أغادر البنسيون.

سألته بدهشة:

ـ هل عزمت على الرحيل؟

فأجاب بصوته العريض:

ـ نعم، انتهت الإقامة، ولو ذهبت دون أن أودّعك لأسفت على ذلك طيلة العمر!

شكرت له رقّته، ولكنّي وجدت أسئلة تلحّ عليّ، غير أنّه لم يهبني فرصة لمزيد من الكلام إذ يلوّح بيده لشخص قادم ثمّ صافحني وذهب.

وسألت نفسي في قلق وكآبة: ماذا عن زهرة؟

***

قبض بشدّة على قضبان قفص الاتّهام وهو يستمع إلى النطق بالحكم ثمّ صاح بأعلى صوته في المحكمة:

ـ يا فرحتك فيّ يا دنف، يا فرحتك فيّ يا نعيمة يا ضبّاطي!

***

ولمّا رجعت إلى البنسيون وجدت المدام وطلبة مرزوق وزهرة مجتمعين في المدخل، مخلّفين بكآبة أبلغ في إفصاحها عن أيّ تفجّع أو ندب! جلست صامتًا

وقد وضح لي ما وددت أن أسأل الآخر عنه. قالت المدام:

ـ تكشّف أخيرًا ذاك السرحان عن حقيقته.

تمتمت:

ـ قابلني منذ ساعات في التريانون فأخبرني بأنّه سيغادر البنسيون!

ـ الحقّ أنّي طردته!

ثمّ وهي تشير نحو زهرة:

ـ هاجمها بلا حياء، ثمّ أعلن بأنّه ذاهب ليتزوّج من المدرّسة!

نظرت إلى طلبة فنظر إليّ وقال ساخرًا:

ـ أخيرًا استقرّ رأيه على الزواج!

وقالت المدام:

ـ لم يرتح له قلبي أبدًا، من أوّل نظرة فهمته، شرّير لا أخلاق له!

ثمّ واصلت حديثها:

ـ أراد مسيو منصور باهي أن يناقشه وإذا بمعركة جديدة تنشب فجأة، عند ذاك صرخت في وجهه أن يخرج إلى غير رجعة!

نظرت إلى زهرة بإشفاق. أيقنت أنّ اللعبة قد انتهت، وأنّ الوغد قد ذهب بلا جزاء. وغضبت غضبة كغضبات الأيّام المريرة ثمّ قلت لزهرة:

ـ إنّه وغد لا يستحقّ أن تأسفي عليه!

ولمّا خلوت إلى طلبة قلت له:

ـ ليتها تقبل الزواج من محمود أبو العبّاس!

فقال لي بلهجة مَن يوقظ محدّثه من غفلة:

ـ يا رجل، أيّ محمود! ألم تدرك بعد أنّها فقدت الشيء الذي لا يعوَّض؟

قطّبت محتجًّا، وقد أُخذت في الوقت نفسه، فقال ساخرًا:

ـ أين عقلك أيّها العجوز؟... وأين فطنتك؟

ـ ليست زهرة كالأخريات.

ـ الله يرحمك.

وبقدر ما حنقت عليه بقدر ما اجتاحني الشكّ. وقلت لنفسي بحزن عميق: يا للخسارة!

وعاد طلبة يقول:

ـ المدام أوّل مَن نبّهني ولٰكنّي لم أكن في حاجة إلى تنبيه!

ـ امرأة سوء!

ـ إنّها كما تعلم على استعداد دائمًا لحمايتها أو لاستغلالها...

فقلت بغيظ:

ـ لا هٰذا ولا ذاك، أقسم على ذٰلك.

وجاء لقاء العصر حزينًا مؤثّرًا. رجتني ألّا أذكّرها بنصائحي القديمة وألّا ألوم أو أعتب. تبرّأت من ذٰلك كلّه وقلت إنّ عليها أن تواجه مستقبلها بشجاعة هي جديرة بها.

ـ ترى هل يفتر حماسك للتعليم؟

فقالت بتصميم وبلا أدنى ابتهاج:

ـ سأجد مدرّسة أخرى!

فهمست:

ـ وإن احتجت إلى أيّ مساعدة...

مالت نحوي حتّى لثمت منكبي ثمّ عضّت على شفتها لتمنع الدموع. مددت يدي المعروقة المدبوغة حتّى مسحت بحنان شعرها الأسود وتمتمت:

ـ ليحفظك الله يا زهرة.

***

لزمت حجرتي تلك الليلة مذعنًا لإحساس شامل بالإعياء. وأقعدني التعب بضعة أيّام أخر. وجعلت المدام تحثّني على مقاومة الضعف لأشهد ليلة رأس السنة الجديدة. وفي سياق ذٰلك سألتني:

ـ نقضيها في المونسنيير كما يقترح طلبة بك أم نقضيها هنا؟

غمغمت في فتور:

ـ هنا أفضل يا عزيزتي.

كم احتفلت بها في صولت وجروبي وألف ليلة وحديقة لبتون. وقد مرّت بي عامًا وأنا معتقل في سجن القلعة الحربيّ.

***

وفي صباح اليوم الثالث لاعتكافي اقتحمت المدام غرفتي في غاية من الانزعاج ثمّ قالت لاهثة:

ـ أما سمعت بالخبر؟

ثمّ وهي تغوص في المقعد الكبير:

ـ قُتل سرحان البحيري!

هتفت:

ـ هه!؟

ـ وُجد قتيلًا في طريق البالما!

ولحق بها طلبة مرزوق قابضًا بعصبيّة على الجريدة وهو يقول:

ـ خبر مزعج جدًّا، وقد يجرّ علينا متاعب لم تكن في الحسبان!

وجعلنا نتبادل النظر والرأي دون جدوى. استعرضنا كافّة الاحتمالات، فكّرنا في خطيبته الأولى، حسني علّام، منصور باهي، محمود أبو العبّاس، حتّى قالت المدام:

ـ قد يكون القاتل شخصًا آخر لا يخطر لنا ببال.

فقلت:

ـ لِمَ لا، نحن لا نكاد نعرف عن الشابّ شيئًا، لا عن حياته ولا علاقاته ولا ظروفه...

فقالت المدام بقلق:

ـ كم أتمنّى أن يكتشفوا القاتل عاجلًا وأن يكون بعيدًا عنّا كلّ البعد، وألّا أرى وجه رجل من البوليس...

فأيّدها طلبة مرزوق قائلًا:

ـ كم أتمنّى ذلك أيضًا!

وسألت عن زهرة فتنهّدت المدام قائلة:

ـ صعقت المسكينة، صعقت بكلّ معنى الكلمة...

قلت بحزن:

ـ ألا يمكن أن أراها؟

ـ إنّها منهارة تمامًا في حجرتها وقد أغلقت الباب.

وعدنا نتبادل الرأي والنظر دون جدوى.

أخيرًا أغمضت عينيّ فتردّد في خاطري:

﴿كلّ مَن عليها فانٍ. ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام، فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبان﴾.

حُسني علّام

فريكيكو... لا تلمني!

وجه البحر أسود محتقن بزرقة. يتميّز غيظًا. يكظم غيظه. تتلاطم أمواجه في اختناق. يغلي بغضب أبديّ لا متنفّس له.

ثورة. لِمَ لا. كي تؤدّبكم وتفقركم وتمرّغ أنوفكم في التراب. يا سلالة الجواري. إنّي منكم وهو قضاء لا حيلة لي فيه. وقد عرفتني ذات العين الزرقاء بقولها «غير مثقّف، والمائة الفدّان على كفّ عفريت». وقبعت تنتظر ثورًا آخر.

الكورنيش لا يُرى من شرفة سيسل. إن لم أنحنِ فوق السور فلا سبيل لرؤيته. البحر يمتدّ مباشرة كأنّما أراه من سفينة. وهو يترامى حتّى قلعة قايتباي محصورًا بين سياج الكورنيش وذراع حجريّ يضرب في الماء كالغول. بينهما يختنق البحر. يتلاطم موجه في تثاقل وهو كظيم. بوجه أسود ضارب للزرقة مُنْذِر بالغضب. يضطرم بباطن محشوّ بأسرار الموت ونفاياته.

أمّا الغرفة فتنطبع بسحنة كلاسيكيّة. تذكّرني بسراي آل علّام بطنطا. لذلك أضيق بها. وقد غرب مجد الريف وجاء عصر الشهادات يحملها أبناء السفلة. حسن، لتكن ثورة. ولتدكّكم دكًّا. إنّي أتبرّأ منكم. سأنشئ عملًا. أتبرّأ منكم يا فُتات العصور البالية.

فريكيكو... لا تلمني.

***

ذات يوم ـ ومحمّد النوبيّ يقدّم لي الإفطار في الحجرة ـ خطر لي أن أقول له:

ـ كم أشعر بالضجر في فندقكم العظيم!

عادة قديمة لي أن أقيم علاقات طيّبة مع خدم الفنادق التي أنزل بها، بالمؤانسة والسخاء، لحين الحاجة إليهم! وإذا بالرجل يسألني:

ـ هل تقيم في الإسكندريّة مدّة طويلة؟

ـ جدًّا!

ـ أليست الإقامة في بنسيون معقول أفضل لك في تلك الحال؟

نظرت إليه مستطلعًا فقال:

ـ هناك بنسيون نظيف ومعقول. ستجد فيه تسلية أكثر ونفقات أقلّ، ولٰكن ليكن ذٰلك سرًّا بيننا!

ظريف ومفيد وخائن. يخدم في جهة ويعمل لحساب أخرى ككثيرين من مواطنيّ الأعزاء. وحقّ أنّ للبنسيون جوًّا عائليًّا حميمًا. وهو أنسب لمن يفكّر في مشروع جديد. وهل ساقني إلى سيسل إلّا عادة قديمة متأصّلة وكبرياء لم يخفّف من غلوائه بعد؟!

***

فتحت شرّاعة الباب عن وجه جميل. أجمل ممّا يليق بخادمة. أجمل ممّا يليق بسيّدة. يا لها من شابّة مليحة! وسوف تعشقني من النظرة الأولى.

ـ نعم؟

فلّاحة؟ عجبًا. ليُدفن سيسل في جوف الأمواج السوداء.

ـ من طرف محمّد كامل بفندق سيسل.

أجلستني في المدخل ومضت إلى الداخل. جعلت أنظر إلى الصور كمقدّمة لمعرفة أصحابها. مَن هٰذا الضابط الإنجليزيّ؟ ومَن الحسناء المتّكئة على ظهر الكرسي؟ جميلة ومثيرة. ولٰكنّها قديمة! موضة الفستان تقطع بأنّها كانت معاصرة للعذراء!

وجاءت عجوز مضيئة مذهّبة. صاحبة البنسيون بلا ريب. الطراز الكامل لقوّادة إفرنجيّة متقاعدة. أو غير متقاعدة كما أرجو. وتلك صورتها قبل أن يخرّبها الزمن. ها هي الأمور تتّضح. لقد ترجم محمّد كامل شكواي من الضجر بلغته الخاصّة. وخيرًا فعل. وكلّما توفّر الترفيه تهيّأ الجوّ للتفكير في المشروعات الجديدة.

ـ حجرة خالية يا مدام.

ـ كنت تقيم في سيسل؟

بهرها ذٰلك بلا شكّ. تمنّيت أن ترجع إلى الوراء أربعين عامًا. وأجبت بالإيجاب فسألت:

ـ كم يومًا؟

ـ على الأقلّ شهر وقد يمتدّ عامًا.

ـ إلّا أشهر الصيف فلا بدّ من اتّفاق خاصّ.

ـ ليكن...

ـ طالِب؟

ـ من الأعيان.

جاءت بالسجلّ وهي تسألني عن اسمي فقلت:

ـ حسني علّام.

غير مثقّف وذو مائة فدّان على كفّ عفريت وسعيد الحظّ لأنّه لم يعرف الحبّ الذي يتغنّى به المطربون.

***

حجرة مقبولة بنفسجيّة الجدران. ها هو البحر يترامى في زرقة صافية حتّى الأفق. ونسائم الخريف تلاعب الستائر، وفي السماء قطعان مبعثرة من السحائب. التفتّ نحو الفلّاحة وهي تفرش السرير بالملاءات والأغطية. جسمها قويّ رشيق مفصّل المحاسن، وإن صدق ظنّي فهي لم تحبل، ولم تجهض بعد! على أيّ حال من المستحسن أن أتأنّى حتّى أحيط بأسرار المكان.

ـ اسمك يا حلوة؟

أجابت بوجه جادّ:

ـ زهرة.

ـ عاش مَن سمّى.

شكرتني برأسها وبلا ابتسامة.

ـ يوجد في البنسيون نزلاء آخرون؟

ـ رجلان وشابّ مثل حضرتك...

ـ وأيّ اسم أختار لك للدلاعة؟

أجابت بأدب ودون تشجيع:

ـ اسمي زهرة.

جادّة أكثر ممّا يليق. سوف تكون زينة أيّ شقّة أستأجرها في المستقبل. وهي أجمل من قريبتي الحمقاء التي قرّرت أن تختار عريسها على ضوء الميثاق.

فريكيكو... لا تلمني...

***

ـ أأنت جادّ فيما تقول؟

ـ طبعًا يا عزيزتي...

ـ ولٰكنّك في رأيي لا تعرف الحبّ!

ـ أريد أن أتزوّج كما ترين...

ـ يخيّل إليّ أنّك لا يمكن أن تحبّ.

ـ أريد أن أتزوّج منك، ألا يعني هٰذا أنّني أحبّك؟

ثمّ قلت وأنا أراوغ الغيظ والغضب:

ـ وإنّي كفء للزواج، أليس كذٰلك؟

بعد تردّد قالت:

- ما قيمة الأرض الآن؟

حمّلت نفسي مسئوليّة الموقف المهين ثمّ مضيت وأنا أقول:

- سأتركك لتفكّري في هدوء...

***

على مائدة الإفطار تمّ التعارف بيني وبين النزلاء الآخرين. عامر وجدي صحفيّ متقاعد في الثمانين على أقلّ تقدير، نحيل مع ميل إلى الطول، وذو صحّة يُحسد عليها، ووجهه المتجعّد الغائر العينين البارز العظام لم يدعْ للموت شيئًا يلتهمه. كرهت منظره، وعجبت كيف يبقى حيًّا على حين تهلك أجيال من الشباب كلّ يوم.

طلبة مرزوق لم يكن بالغريب عليّ. وقد علّق عمّي ذات يوم بعطف على وضعه تحت الحراسة، ولكنّي لم أشر إلى ذلك بطبيعة الحال. كنّا وما زلنا نتابع أخبار الحراسة بشغف شهوانيّ مخيف كأفلام الرعب. وقد سألني:

- مِن آل علّام بطنطا؟

أجبت بالإيجاب. وبسرور خفيّ. فقال:

- عرفت والدك. كان مزارعًا ممتازًا...

ثمّ التفت إلى عامر وجدي - وكان يغادر المائدة - وقال ضاحكًا:

- ولم يقع رحمه الله طويلًا تحت تأثير المهرّجين!

ولمّا أدرك أنّي لم أفهم ما يعنيه قال:

- أقصد الوفديّين.

فقلت بعدم اكتراث:

- مدى علمي أنّه كان وفديًّا عندما كانت البلاد كلّها وفديّة...

آمن على قولي ثمّ عاد يسألني:

- أظنّ لك إخوة وأخوات؟

- أخي قنصل بإيطاليا وأختي زوجة لسفيرنا في الحبشة!

فتحرّك شدقاه حركة راقصة ثمّ سألني:

- وأنت؟

كرهته في تلك اللحظة حتّى وددت له الموت غرقًا أو حرقًا. ولكنّني أجبت باستهانة:

- لا شيء...

- الا تزرع أرضك؟

- إنّها مؤجّرة كما تعلم ولكنّي أفكّر في إنشاء عمل جديد...

كان يتابعنا سرحان البحيري - النزيل الثالث ووكيل حسابات شركة الإسكندريّة للغزل - وكذلك المدام العجوز. وسألني سرحان:

- أيّ عمل؟

- لم أستقرّ على رأي بعد.

- أليس الأضمن أن تبحث لك عن وظيفة؟

كرهته في تلك اللحظة هو الآخر. به لهجة ريفيّة خفيفة لصقت به كرائحة طعام في إناء لم يحسن غسله. وهو حيوان لا يَسَع مِرْفَت أن تَصِمَه بأنّه غير متعلّم أو غير مثقّف. وإذا سوّلت له نفسه أن يسألني عن شهادتي فسأقذفه بقدح الشاي.

***

- من أين جاءك هذا الحماس للثورة؟

- هذا ما أعتقده يا عمّي...

- لا أصدّقك...

- بل صدّقني بلا تردّد.

ضحك ضحكة فاترة وقال:

- الظاهر أنّ اعتذار مرفت قد أطاح بعقلك!

فقلت باستياء:

- الزواج كان فكرة عابرة!

فقال باستياء أيضًا:

- رحم الله والدك، أورثك عناده دون حكمته!

***

وكم أغراني الغيظ بالهجوم على الثورة ممثّلة في شخص سرحان المنتفع بها بلا شكّ ولكنّي لم أستسلم للتهوّر. وسألتني المدام العجوز:

- لِمَ لا تحدّثنا عن مشروعك؟

- لم أجده بعد.

- إذن فأنت غنيّ؟

ابتسمت بثقة دون أن أجيب فراحت تنظر إليّ باهتمام.

***

غادرت البنسيون أنا وسرحان فحملنا المصعد معًا. جعل ينظر إليّ بعينين باسمتين داعيتين إلى مزيد من التعارف فخفّ سخطي عليه درجات. وقال وكأنّه يصحّح خطأه دون شعور منه:

ـ الوظيفة اليوم أضمن ممّا عداها ولكنّ العمل الحرّ إذا اختير بحكمة...

تركنا المصعد قبل أن يتمّ جملته ولكنّ لهجته المؤيّدة أغنت عن الكلام. وافترقنا فمضى نحو محطّة الترام، ومضيت نحو الجراج. مررت أمام مقهى الميرامار القائم أسفل العمارة فتذكّرت جلوسي به مع عمّي في الأيّام الخالية، وقبل وقوع الكارثة. كان يذهب إليه في الأصائل ليدخّن النارجيلة، فيجلس متلفّعًا بعباءته الخفيفة كملك متنكّر في ثياب العلمة، يتوسّط مجموعة من الشيوخ والنوّاب والأعيان! أجل تلك أيّام خلت، ولكنّه يستحقّ أكثر ممّا حاق به.

استقللت سيّارتي الفورد بلا هدف معيّن سوى رغبتي الأبديّة في التجوال والسرعة. وقلت لنفسي إنّه من المستحسن ألّا أنبذ سرحان البحيري فقد أجد نفعًا في خبرته ومعارفه بالمدينة. وانطلقت بالسيّارة إلى الأزاريطة فالشاطبي فالإبراهيميّة الخ، في سرعة خاطفة استجابت لها أعصابي المتوثّبة. اخترقت هواء نشيطًا لطيفًا منعشًا تحت سماء ظلّلها الغمام. وبدا الكورنيش المحفوف بزرقة البحر نظيفًا نقيًّا، قد تطهّر من عرق المصيّفين وصخبهم، وقلت بتصميم لن أعود إليك يا طنطا إلّا لأقبض نقودًا أو لأبيع أرضًا، فلتذهبي بذكرياتك إلى الجحيم.

ملت إلى مستعمرة السيوف ثمّ مرقت إلى شارع أبي قير، سيّد الشوارع، فازددت سرعة وطربًا وتحدّيًا. وتساءلت بأسّى أين الأوروبيّات... أين الجمال... أين سبائك الذهب. وحضرت الحفلة الصباحيّة بسينما مترو. غازلت فتاة في الاستراحة أمام البوفيه. تناولنا الغداء في عمر الخيّام. نمنا القيلولة معًا في مسكنها بالإبراهيميّة. عدت إلى البنسيون عصرًا وقد نسيت اسمها تمامًا. كان المدخل والصالة خاليين فأخذت دشًا، وتحت الماء تذكّرت الفلّاحة المليحة. ولمّا عدت إلى حجرتي طلبت قدح شاي لأراها من جديد.

وقدّمت لها قطعة شيكولاتة فتردّدت ولكنّي ألححت عليها قائلًا:

ـ كيف لا ونحن أسرة واحدة!

وجعلت أنظر إليها بسرور وهي تنظر إليّ بلا ارتباك أو تنظر إلى الأرض. خائفة؟... ماكرة؟

ـ زهرة، هل يوجد مثلك كثيرات في الريف؟

قالت متجاهلة مقصدي:

ـ لا عدّ لهنّ ولا حصر.

ـ ولكن كم منهنّ جميلة مثلك؟

فشكرت لي هديّة الشيكولاتة وذهبت. خائفة؟ ماكرة؟ على أيّ حال لست بحاجة إليها الآن. ومن حقّها شيء من التمنّع والدلال. ومن حقّها كذلك أن أعترف بأنّها فائقة الجمال.

فريكيكو... لا تلمني...

***

نظرت طويلًا إلى صورة المدام القديمة حتّى ضحكت متسائلة:

ـ تعجبك؟

وقصّت عليّ قصّة زواجها الأوّل، ثمّ الثاني.

ـ كيف تراني الآن؟

فقلت وأنا أرى عروق معصمها النافرة وبشرتها المتكاثفة كقشر السمكة:

ـ جميلة كما كنت!

فقالت بتسليم:

ـ المرض كبّرني قبل الأوان.

ثمّ بلا تمهيد:

ـ ولكن هل من الحكمة أن تجازف بنقودك في مشروع جديد؟

ـ لا بأس بذلك أبدًا.

ـ وإذا استولت عليه الحكومة؟

ـ توجد أعمال مضمونة.

خمّنت أنّها تتردّد في زحزحة البلاطة فقلت معابثًا:

ـ ما أجمل أن نشترك معًا في عمل مثمر!

تظاهرت بالدهشة وقالت ضاحكة:

ـ أنا!... أوه... البنسيون لا يجيء إلّا بالكفاف!

وانضمّ إلى مجلسنا قلاوون الصحافة. جاء متدثّرًا في روب سميك. ووجدته بشوشًا رغم شيخوخته الكريهة. وقال كمن يعلّق على حالي وحاله:

ـ الشباب يبحث عن المغامرة، الشيخوخة تنشد السلامة.

تمنّيت له صحّة طيّبة فسألني:

ـ أجئت الإسكندريّة من أجل المشروع؟

فأجبته بالإيجاب فعاد يسأل:

ـ وهل أنت جادّ في سعيك؟

ـ لقد ضقت بالفراغ.

فردّد قائلًا:

إنّ الشباب والفراغ والجده
مفسدة للمرء أيّ مفسده

ولٰكنّي أكره الشعر كما أكره سيرة الشهادات. وشعرت باستعلاء فارس تركمانيّ يعيش بين رعاع. حقّ قد صقل الحظّ بعضهم. نفس الحظّ الذي ينفخ شمعتنا لتنطفئ. وقلت لنفسي إنّ الثورة ظاهرة غريبة مثل الكوارث الطبيعيّة. وإنّني كمَن يستقلّ سيّارة فارغة البطّاريّة.

وإذا بشابّ جديد يظهر من وراء البارفان متّجهًا نحو الباب الخارجيّ فدعته المدام للجلوس وقدّمته إلينا قائلة:

ـ مسيو منصور باهي.

مذيع في محطّة الإسكندريّة. شهادة عالية جديدة، ووجه وسيم دقيق ولٰكنّه خلو من الرجولة. وهو أيضًا من الرعاع المصقولين. وفي تحفّظه ما يغري بلكمه. وقد سألت المدام بعد ذهابه:

ـ نزيل عابر أم مقيم؟

فقالت بتيه:

ـ مقيم يا عزيزي، أنا لا ينزل عندي العابرون!

ورجعت زهرة من الخارج بحافظة من البلاستيك مثقلة بالبقالة. تابعتها وهي تمضي بنهم. البلد مكتظّة بالنسوان ولٰكنّ البنت مثيرة لغرائزي.

فريكيكو... لا تلمني.

***

ـ أخيرًا وقعت في الحبّ؟

ـ طانطا... لا حبّ ولا هيام... لٰكنّها فتاة ممتازة... ومن لحمي ودمي... وأنا أريد أن أتزوّج.

ـ على أيّ حال فأنت شابّ تتمنّاك أيّ فتاة.

***

ليلة أمّ كلثوم متوّجة حتّى في بنسيون ميرامار. أكلنا وشربنا وضحكنا. خضنا في كلّ موضوع حتّى في السياسة. لٰكنّ الخمر نفسها لم تستطع أن تقهر عاطفة الخوف. صالَ عامر وجدي وجالَ فحكى على الربابة أساطير مجد لا شاهد عليها إلّا ضميره. صمّم الرجل الخرب على إقناعنا بأنّه بطل قديم، وإذن فلا يوجد إنسان عاديّ في هٰذه الدنيا اللعينة. كذٰلك لا يوجد فرد واحد غير متحمّس للثورة. حتّى طلبة مرزوق، حتّى حضرتي. علينا بالحذر. سرحان منتفع ومنصور غالبًا مرشد، حتّى العجوز فمن يدري، والمدام نفسها لا يبعد أن تكلّفها جهات الأمن بنوع من المراقبة. ولمّا جاءتني زهرة بزجاجة صودا سألتها:

ـ وأنت يا زهرة... تحبّين الثورة؟

فقالت المدام:

ـ أوه... انظر إلى الصورة المعلّقة في حجرتها!

هل أعتبر ذٰلك إذنًا بالتسلّل إلى الحجرة! ورغم أنّ الويسكي صهرنا في بوتقة ألفة حميمة إلّا أنّني شعرت بأنّها عابرة، وستظلّ عابرة. لن تقوم صداقة حقيقيّة بيني وبين سرحان أو منصور. مودّة عابرة ستمضي كما مضت البنت التي التقطتها من بوفيه مترو. وقلت لنفسي إنّ عليّ أن أجد عملًا أُفرغ فيه طاقتي وأملأ به وقتي وإلّا تعرّضت لأن أرتكب حماقة خرقاء أو جريمة قتل تناسب المقام. ومن المسلّم به أنّني سأبقى عازبًا إلى الأبد كيلا أرتطم بلفظة «لا» مرّة أخرى، ولأنّه لن توجد الفتاة الكفء لي في مجتمعنا النامي. يمكن بعد ذٰلك أن أعتبر جميع النساء حريمًا متنقّلًا لمزاجي، إلى خادمة ممتازة لملء فراغ شقّتي المستقبلة. خادمة مثل زهرة. بل هي زهرة بالذات. وسوف ترحّب بذٰلك بكلّ امتنان. ستمارس مهنة ستّ البيت مع الإعفاء من متاعب الحمل والولادة والتربية. وهي جميلة، وسوف تروّضها حقارة أصلها على تحمّل نزواتي وغراميّاتي اللامتناهية. وإذن فالحياة مقبولة رغم كلّ شيء،

وواعدة بمسرّات لا بأس بها.

وبالغ سرحان في حكي النوادر حتّى سقطت قلوبنا من الضحك. ومنصور قد ينفجر ضاحكًا ثمّ سرعان ما يتقهقر إلى قوقعته.

***

اسمعوا... اقرءوا... هٰذا حكم بالإعدام... هل يقف الإنجليز مكتوفي الأيدي حتّى تجتاحنا الشيوعيّة!

***

بدأ الغناء. بدأ السماع. كالعادة شملني توتّر. أجل إنّي أستطيع أن أتابع مقطعًا أو مقطعين ثمّ يدركني التشتّت والملل. ها هم يهيمون في الطرب، وها أنا أغرق في وحدة. والذي أدهشني حقًّا أنّ المدام تحبّ امّ كلثوم كالآخرين. ولعلّها لاحظت دهشتي فقالت:

ـ سمعتها عمرًا طويلًا.

وراح طلبة مرزوق يستمع بعمق، ثمّ مال إلى أذني هامسًا:

ـ مِن نِعَم الله أنّهم لم يصادروا أذنيّ!

أمّا قلاوون فقد أغمض عينيه وراح يسمع أو راح في سبات. استرقت النظر إلى زهرة فوق مقعدها عند البرافان. جميلة حقًّا ولٰكن هل تسمع؟ فيمَ تفكّر؟ أيّ أمل يراودها؟ هل تحيّرها الحياة كما تحيّرنا؟ ومضت بغتة إلى الداخل والجميع بالطرب سكارى، فقمت إلى الحمّام لألتقي بها في الطرقة. داعبت ضفيرها وهمست:

ـ لا شيء أجمل من الطرب إلّا وجهك.

جفلت في صلابة فتقدّمت منها لأضمّها إلى صدري ولٰكنّي توقّفت أمام نظرة باردة منذرة.

ـ طال انتظاري يا زهرة!

تراجعت بخفّة ثمّ ذهبت إلى مقعدها. حسن. في سراي علّام بطنطا عشرات من أمثالك ألا تفهمين؟ أم ترين ثقافتي دون الكفاية يا روث الجاموسة؟ رجعت إلى مجلسي. وبتأوّهات مفتعلة إعجابًا بغناء لا أتابعه داريت غيظي. ثمّ وثبت بي رغبة ملحّة في الجهر برأيي لأكون صادقًا مع نفسي ولو مرّة واحدة في السهرة الطويلة، ولٰكنّي لم أفعل. وفي الاستراحة انتهزت فرصة التفرّق المؤقّت للمجتمعين فغادرت البنسيون.

انطلقت بالسيّارة إلى كليوباطرة. كان الجوّ باردًا عاصفًا ولٰكنّني كنت مشتعلًا بحرارة الخمر. قصدت مسكن قوّادة مالطيّة كنت أتردّد عليها في ليالي الصيف. وقد دهشت لحضوري بعد انتصاف الليل وفي ذٰلك الوقت الموحش المقفر من العام. وقالت لي:

ـ لا أحد في البيت سواي، ولا أستطيع أن أدعو واحدة الآن.

وقفت أمامي في قميص النوم، في الخمسين أو أكثر، بدينة مترهّلة، لا تخلو من مسحة أنثويّة، وثمّة زغب يعلو شفتها كالشارب. دفعتها إلى حجرتها وهي تقول بدهشة:

ـ ما هٰذا!... لست مستعدّة.

فقلت ضاحكًا:

ـ لا أهمّيّة لذٰلك، ولا أهمّيّة لشيء.

ثمّ أمضينا ساعة أخرى في ثرثرة حتّى سألتني عمّا جاء بي إلى الإسكندريّة. ولمّا حدّثتها عن هدفي قالت:

ـ إنّهم الآن يصفّون أعمالهم ويذهبون.

فقلت لها وأنا أتثاءب:

ـ لن أنشئ شركة ولا مصنعًا.

ـ إذن فابحث عن خواجا مناسب لتحلّ محلّه.

ـ فكرة لا بأس بها ولٰكن عليّ أن أدرس كلّ شيء.

وفي طريق العودة هطل المطر بشدّة. رأيت طريقي بصعوبة رغم نشاط ماسحة المطر. وقلت لنفسي بغضب إنّ الوقت يتبدّد سدى!

***

جميلة... رغم رائحة المطبخ جميلة.

ـ قطعتان من السكّر من فضلك.

دعوتها بذٰلك لإذابة السكّر في الشاي، وللبقاء دقيقة.

ـ كنت جافّة معي يا زهرة.

ـ كلّا، ولٰكنّك جاوزت الحدود.

ـ أردت أن أعرب لك عن مشاعري.

فقالت بصراحة حادّة:

ـ إنّي هنا للعمل وحده.

ـ هٰذا أمر مفروغ منه...

ـ الظاهر أنّك لا تصدّقه...

ـ أخطأت فهمي يا زهرة!

ـ إنّك سيّد طيّب فكن طيّبًا معي...

وذهبتْ فطاردها صوتي قائلًا:

ـ سأحبّك إلى الأبد!

***

هلمّ معي إلى رحلة غريبة، يوم رهيب، زَجْر وتأنيب من أخي، تأنيب من عمّي، المدرسة المدرسة، بنا إلى الطريق الزراعيّ، رحلة طويلة وغريبة، شمالًا وجنوبًا، ليلًا ونهارًا، عند كلّ بلدة نتزوّد بالطعام والشراب، لم أعد قاصرًا...

***

إنّي رأيتكما معًا.

في الطرقة أمام الحمّام رأيتكما معًا. إذن فهو ذلك السرحان. قرص خدّك بحنان. لم يرتفع رأسك في غضب. وجهك الجميل ابتسم وشعّ منه نور أسمر. وتحرّكت ضفيرتك في دلال كالحال في حقول الذرة. سبقني الفلّاح بأيّام. لا ضير من ذلك البتّة إذا روعيَتِ العدالة في التوزيع. ولو يكن لي يوم وله يومان.

***

ضحكت طويلًا وأنا أستقلّ الفورد. وهتفت:

فريكيكو... لا تلمني.

***

أوصلت طلبة مرزوق بالسيّارة إلى التريانون فدعاني للجلوس معه. مررنا في طريقنا إلى مجلسنا بسرحان البحيري وهو ينفرد بشخص آخر فتبادلنا التحيّة. سألني طلبة كيف أمضي وقتي فأجبته بأنّني أتجوّل بالسيّارة وأفكّر في المشروع الجديد. سألني:

ـ ألك خبرة في نشاط معيّن؟

أجبت بالنفي، فقال:

ـ لا تُلْقِ بنقودك في بئر.

ـ ولكنّني مصمّم...

ـ تزوّج لتتعلّم الحكمة!

فقلت وأنا أكظم غيظي متورّمًا:

ـ إنّني مصمّم على العزوبة والمشروع.

أشار صوب سرحان البحيري وقال:

ـ ولد ذكيّ...

فسألته باهتمام:

ـ أعرفت عنه شيئًا؟

ـ ثمّة صديق قديم على صلة بالشركة، يصفونه هناك بأنّه شابّ ثوريّ، وفي هذا الكفاية...

ـ أتظنّه مخلصًا؟

ـ نحن نعيش في غابة يتعارك وحوشها على أسلابنا...

داخَلَني ارتياح خفيّ فمضى يقول:

ـ ما تحت البدلة إلّا مجنون بالترف!

فقلت بتسليم وأنا مطمئنّ إلى وحدتنا:

ـ ولكنّ ثمّة إصلاحات لا يمكن إنكارها!

حرّك شدقيه حركة غريبة وقال:

ـ قصد بها أناس لم يرتقوا بعد إلى درجة الوعي. وهم ـ مثلنا ـ تحت رحمة البدل.

ولمّا آنَ لي أن أرجع إلى البنسيون لحق بي سرحان في الخارج فأركبته معي في السيّارة. كأنّما خُلق اللعين لكي يألف ويؤلف. ورغم ازدرائي له فإنّي أبقي عليه لعلّي أنتفع به في وقت الحاجة. وقد لكزته بكوعي وأنا أقول ضاحكًا:

ـ حلال عليك يا عمّ...!

نظر إليّ باسمًا ومستطلعًا فقلت:

ـ زهرة!

رفع حاجبيه الكثيفين ولكنّه أرخى عينيه في تسليم فقلت:

ـ إنّك فلّاح كريم فلا تبخل عليّ...

فقال بوجوم:

ـ الحقّ أنّي لا أفهمك...

ضحكت ساخرًا وقلت:

ـ سأكون صريحًا معك كما يجدر بالأصحاب، أتعطيها نقودًا أم تعطي المدام؟

فقال بإنكار:

ـ لا... لا... ليس الأمر كما تتصوّر...

ـ إذن فكيف أتصوّره على حقيقته؟

ـ إنّها فلّاحة طيّبة، ليست...، صدّقني...

ـ ليكن، الظاهر أنّي استوقفت سيّارة «ملاكي» بظنّ

أنّها تاكسي...

فريكيكو، لا تشغل بالك بأشياء تافهة. الخطأ أنّني صادقت زمنًا عدوًّا وأنا أحسبه الصديق. ولكنّي سعيد بحرّيّتي. لقد قذفت بي طبقتي إلى الماء والقارب يميل إلى الغرق، ولكنّي سعيد بحرّيّتي. لا ولاء عندك لشيء. سعادة عظمى ألّا يكون لك ولاء لشيء. لا ولاء لطبقة أو وطن أو واجب. لا أعرف عن ديني إلّا أنّ الله غفور رحيم.

فريكيكو... لا تلمني...

***

انفجرت في الخارج ضجّة لا عهد للبنسيون بها.

كنت مستيقظًا لتوّي من القيلولة فخرجت إلى الصالة. وضح لي أنّ ثمّة معركة في المدخل. نظرت من فرجة البارفان فرأيت مشهدًا مسلّيًا حقًّا. امرأة غريبة ممسكة بتلابيب صديقنا البحيري تنهال عليه ضربًا وسبًّا. وزهرة واقفة متوتّرة الأعصاب تنطق بكلمات سريعة وتحاول التخليص بينهما. المرأة تنقضّ على زهرة فجأة ولكنّ زهرة أثبتت أنّها مصارعة ذات جبروت. لكمتها مرّتين، وفي كلّ مرّة أطاحت بها حتّى ألصقتها بالجدار. إنّها جميلة ولكنّها خفير ذو قبضة حديديّة. لبثت متواريًا لأتيح لنفسي أكبر قدر من تسلية فريدة حقًّا. ولكن عندما ترامى إليّ صرير أبواب خرجت من مكمني، فأخذت المرأة الغريبة من معصمها، وذهبت بها خارجًا وليس عليّ - عدا البيجاما - إلّا الروب. دفعتها برقّة أمامي، معلنًا لها عن أسفي، واضعًا نفسي في خدمتها. كانت تغلي بالغضب غليانًا، وتسبّ وتلعن، ولم يبدُ عليها أنّها أحسّت بوجودي بعد. إنّها امرأة لا بأس بها وقد أوقفتها عند بسطة السلّم بالدور الثاني وأنا أقول:

- انتظري لحظة، يجب أن تصلحي حالك قبل الخروج إلى الشارع...

سوّت شعرها، وشبكت طوق فستانها الممزّق بمشبك من شعرها، ثمّ أعطيتها منديلًا معطّرًا لتمسح به وجهها.

- سيّارتي أمام العمارة سأوصلك إذا سمحت بها....

نظرت إليّ لأوّل مرّة. شكرتني بعجلة، ثمّ نزلنا معًا جلست في السيّارة إلى جانبي فسألتها عن المكان الذي تودّ الذهاب إليه فتمتمت بصوت مبحوح:

- الأزاريطة...

سرنا تحت سماء ملبّدة بالغيوم وقد عاجلنا الظلام قبل أوانه. قلت مستدرجًا:

- لعنة الله على الغضب...

فهتفت:

- السافل الحقير!

- يبدو أنّه فلّاح طيّب!

- سافل حقير...

تساءلت بسخرية خفيّة:

- خطيبك؟

لكنّها لم تجب. ما زالت مشتعلة. وهي امرأة لا بأس بها، ومحترفة بطريقة ما على وجه اليقين. أوقفت السيّارة أمام عمارة بشارع الليدو فقالت وهي تفتح الباب:

- أشكرك، إنّك رجل كريم...

- لا أريد أن أتركك وحدك لأطمئنّ عليك!

- أشكرك، إنّي على خير حال...

- إذن فهو الوداع؟

مدّت يدًا لتصافحني ثمّ قالت:

- إنّي أشتغل في الجنفوازا!

درت بالسيّارة وأنا متحمّس لمعرفة مزيد من المعلومات بيد أنّ تحمّسي فتر قبل أن أبلغ العمارة. الأمر واضح وتافه. عشق وهجر ثمّ معركة تقليديّة. وها هو يلقي زهرة فيبدأ حكاية جديدة. والمرأة لا بأس بها وقد أحتاج إليها ذات ليلة. ولكن ما الذي دفعني إلى تكبّد مشاقّ هذه الرحلة السخيفة؟!

فريكيكو... لا تلمني...

***

السيّارة تطير فوق أرض الشوارع السنجابيّة، المصابيح وأشجار الكافور تركض في الاتّجاه المضادّ. السرعة الانسيابيّة تنعش القلب فتنفض عنه الخمول والملال. ويزمر الهواء ويرعش الأغصان فتتشنّت في انتشارات جنونيّة. أو ينهمر المطر فيغسل الزرع فتضيء

الحقول بخضرة متألّقة. من قايتباي إلى أبي قير، من بحري حتّى السيوف، البطن والأطراف، وكلّ أرض ممهّدة: أهيم فوقها بسيّارتي.

والوقت يمرّ ولا خطوة جدّيّة أخطوها لتحقيق المشروع.

وخطر لي أن أقوم بجولة استكشافيّة في مراكز الإشعاع الأصيلة. زرت قوّادة قديمة بالشاطبي فجاءتني بفتاة مقبولة للصبوح. وتناولت الغداء عند قوّادة ثانية باسبورتنج فأمدّتني بامرأة أرمنيّة فوق المتوسّط. أمّا قوّادة سيدي جابر فأهدت إليّ فتاة رائعة من أمّ إيطاليّة وأب سوريّ فأصررت على دعوتها إلى سيّارتي. حذّرتني من الغيوم المنذرة بالمطر فقلت لها إنّي أتمنّى أن يهطل المطر. وفي الطريق الزراعيّ إلى أبي قير هطل المطر واختفى البشر فأحكمت إغلاق النوافذ ورحت أنظر إلى الماء المنسكب والأشجار الراقصة والخلاء النقيّ الذي لا نهاية له وقد ذُعرت الجميلة وقالت إنّ هٰذا جنون فقلت لها تصوّري مخلوقين مثلنا عاريين تمامًا في سيّارة وآمنين رغم ذٰلك من أيّ تطفّل يتبادلان القُبل على انفجارات الرعد ووميض البرق وانهلال المطر فقالت إنّه المحال فقلت ألا تودّين أن تخرجي اللسان للدنيا ومَن عليها وأنت في حماية هٰذه الغضبة الكونيّة فقالت محال... محال... فقلت ولٰكنّه سيتحقّق بعد ثوان وشربت من فوهة الزجاجة وكلّما جعجع الرعد استحثثته على المزيد وتوسّلت إلى السماء أن تُفرغ مدّخرها من الماء فقالت الجميلة قد تتعطّل السيّارة فقلت لها آمين... آمين... فقالت وقد يدركنا الظلام فقلت وليدم إلى الأبد فقالت إنّك مجنون ... مجنون فصحت بأعلى صوتي: فريكيكو... لا تلمني...

***

على مائدة الإفطار بلغتني الأنباء العجيبة على القرار الذي اتّخذته زهرة للتعلّم. سمعت تعليقات شتّى لم تخلُ من مزاح، ولٰكن غلبت عليها روح تشجيع. حزّ في نفسي الخبر فنكأ الجرح القديم. لقد نشأتُ بلا رقيب حقيقيّ فاجتاحني اللهو. ما أسفت على شيء وقتذاك ولٰكنّني أدركت متأخّرًا أنّ الزمن عدوّ وليس بالصديق الذي توهّمته. وها هي الفلّاحة تقرّر أن تتعلّم. وقد شرحت لي المدام ظروفها ما بين القرية والإسكندريّة. توكّد لي أنّها ليست من توابع المدام، ولعلّها ما تزال عذراء إلّا يكن سرحان ممّن يضيقون بالعذارى، ولٰكنّني قلت للمدام بخبث:

ـ ظننت زهرة...

وأشرت بيدي إشارة، فقالت:

ـ لا... لا...

فتجاهلت الموضوع بغتة قائلًا:

ـ يجب أن تفكّري في المشروع المشترك!

فتساءلت بدهاء قوّادة:

ـ من أين لي بالمال؟

فهمست باهتمام مصطنع:

ـ ماذا لو أردت أن أدعو صديقة إلى هنا؟

هزّت رأسها آسفة وقالت:

ـ البنسيون مشغول كلّه، وإذا سمحت لواحد فكيف أرفض لآخر؟ ولٰكن يمكن أن أدلّك على مكان إذا أردت...

ولمّا صادفت زهرة في الصالة هنّأتها على قرارها وقلت لها ضاحكًا:

ـ شدّي حيلك، فعندما يتحقّق مشروعي سأكون في حاجة إلى سكرتيرة!

فابتسمت في ابتهاج حتّى أطلّت آي الملاحة من قسماتها. الحقّ أنّ رغبتي فيها لم تمت. ومع سابق علمي بأنّني سأشبع منها في أسبوع إلّا أنّه أسبوع ضروريّ فيما بدا لي.

***

راحت السيّارة تجوب الشوارع والأحياء. في جوّ صافٍ هادئ معتدل لدرجة أثارت أعصابي. ولكي أستمتع بأكبر قدر من السرعة الجنونيّة بلا عائق اتّجهت إلى الطريق الصحراويّ فانطلقت فيه بسرعة مائة وعشرين ك، مقدار ساعة، ثمّ رجعت بنفس السرعة. تناولت الغداء في «بام بام». والتقطتُ فتاة لدى مغادرتها لمحلّ حلّاق. ثمّ رجعت إلى البنسيون حوالى العصر. رأيت زهرة جالسة إلى فتاة بالمدخل فأدركت من النظرة الأولى أنّها المدرّسة. جالست المدام

واسترقت إلى المدرّسة النظر. لا بأس بها. ثمّة احديداب خفيف لا يكاد يُلحظ، وفطس بالأنف مقبول بل ومثير. من المؤسف أنّ فتاة مثلها لا تقبل ليلة حبّ عابرة. لا بدّ لأمثالها من علاقة وطيدة طويلة. وقد لا ترضى بذلك أيضًا فترمي بنظرها البعيد إلى الزواج متخطّية دعوة الثورة إلى تحديد النسل.

تمّ التعارف عن طريق المدام. وقد قدّمتني كعادتها بالكامل، أي بالمائة فدّان والمشروع، فسررت لذلك وحمدت لها لباقتها المستقاة من خبرة السنين. وركّزت في جولاتي على حيّ محرم بك حيث تقع مدرستها. وأثمرت خطّتي فرأيتها مرّة قبيل العصر واقفة في محطّة الباص. أوقفت السيّارة ودعوتها إلى الركوب. تردّدت قليلًا ولكن شجّعها على قبول دعوتي تلبُّد السماء بالغيوم. أوصلتها إلى عمارتنا وأنا أشكو لها وحدتي في الإسكندريّة، وحاجتي إلى المشورة والرأي فيما يتعلّق بمشروعي، وقلت لها وأنا أودّعها:

ـ أظنّني بحاجة إلى لقاء آخر!

فقالت بترحيب:

ـ تفضّل بزيارتنا!

الحقّ يا فريكيكو أنّ سنّي وثروتي يرشّحانني بمنطق حاسم للزواج. لذلك يتعذّر عليّ أن أرافق مدرّسة أو طبيبة أو مذيعة أو موظّفة. وعليّ إن أردت توسيع مجالي الحيويّ أن أخدع الأبصار بدبلة زواج وهميّ.

ولم أجد ما أشغل به نفسي بقيّة اليوم إلّا أن قصدت القوّادة المالطيّة بكليوباطرة فطلبت منها أن تدعو أكبر عدد ممكن من بناتها، وسهرت سهرة عجيبة معربدة موشّاة بأبهج الحماقات التي لم يعرف التاريخ لها مثيلًا منذ عهد خليفتنا خالد الذكر هارون الرشيد.

***

ـ إنّه لم ير أمّه... وتركه أبوه وهو في السادسة... لذلك لا أقسو عليه...

كان يتكلّم بهدوء أمّا أخي فكان ينتفض من الغضب.

***

حوصرت بالعجائز. الواقع أنّني لا أحبّ قلاوون الصحافة وهيهات أن أوفّق إلى خير ما دمت أصبح على وجهه. وسألني طلبة مرزوق عن مدى تقدّمي في مشروعي. وتشمّمت في الجوّ رائحة بخور فتساءلت عنها فضحك طلبة بك وقال:

ـ كان يجب أن ترى المدام وهي تطوف بالحجرات حاملة المبخرة!

نظرت إليها قائلًا:

ـ إذن فأنت تحبّين أمّ كلثوم وتؤمنين بالبخور؟

ابتسمت ابتسامة عابرة لشدّة متابعتها لأغنية يونانيّة. وقلت لطلبة بك:

ـ يجب أن أجد خواجا ممّن ينوون الهجرة لأشتري عمله.

ـ فكرة حسنة، ما رأيك يا ماريانا؟

أجابت بعجلة حتّى لا تنقطع عن الأغنية:

ـ نعم، انتظر، أظنّ صاحب مقهى ميرامار يفكّر في ذلك.

فسألتها:

ـ ماذا تعني الأغنية؟

أجابت بدلال:

ـ عن البنت في سنّ الزواج، ماما تسألها وهي تجيب معدّدة المزايا التي تتطلّبها في العريس!

نقّلت بصري بين صورة الكابتن وصورة شبابها فغمغمت:

ـ كان من الممكن أن أبقى سيّدة حتّى اليوم...

ـ إنّك سيّدة تمامًا.

فقالت محتجّة:

ـ أعني سيّدة في قصر الإبراهيميّة!

والتفت نحوي قلاوون الصحافة وقال:

ـ لا تَدَعِ الوقت يمرّ دون أن تفعل شيئًا...

لَعَنْتُهُ في سرّي. كان الجوّ قارص البرودة صامتًا. وكنت على موعد من الفتاة الإيطاسوريّة في سكن القوّادة بسيدي جابر.

فريكيكو... لا تلمني...

***

علمت بزيارة شقيقة زهرة وزوجها على مائدة الإفطار.

ـ قرّرت البقاء معنا بصفة نهائيّة...

قالت المدام ذلك بارتياح، فقلت:

- لنحمد الله على أنّ المقابلة مرّت بسلام، أعني دون شروع في القتل!

ثمّ قلت لسرحان البحيري ساخرًا:

- الظاهر أنّ البحيرة خرعة!

- خرعة؟!

- يقال إنّ قربها من الإسكندريّة قد أضعف من ضراوة تقاليدها الريفيّة...

فقال بصوته الرنّان متباهيًا:

- ذاك يعني أنّها أعظم تمدّينًا من سائر الريف!

***

ركب طلبة مرزوق معي لكي أوصله إلى فندق وندسور لمقابلة صديق قديم. إنّه الشخص الوحيد الذي أضمرُ له حبًّا واحترامًا. وهو يقوم أمام عينيّ كتمثال أثريّ لملك قديم، دالت دولته وولّى زمانه، ولكنّه يحتفظ بكافّة مزاياه الذاتيّة. قلت له والخبث يسيطر على أفكاري:

- ألم يكن الأجدر بالفلّاحة أن تذهب مع أهلها؟

فقال ضاحكًا:

- كان الأجدر بها ألّا تهرب من أوّل الأمر.

- أعني أنّ لديها من الأسباب ما يمنعها من العودة حتّى لو تمنّتها!

- تقصد الفتى البحيري؟

- ليس هذا بالضبط ما أعنيه، ولكنّه يرجع إليه على أيّ حال!

ضحك الرجل وقال:

- محتمل جدًّا، ومحتمل أنّه بريء ممّا تظنّ، وأنّ آخر كان وراء الدافع لهربها من القرية!

وقد تضاعف سوء ظنّي عندما علمت - عقب ذلك بأيّام - برفضها الزواج من محمود أبو العبّاس بيّاع الجرائد. وكان محمود قد شاورني في الأمر - كزبون قديم له - قبل أن يقدم على الذهاب إلى المدام لطلب يد الفتاة. وعندما وقفت أمام معرضه في اليوم التالي لمسعاه الفاشل كنت واثقًا من مناقشته للموضوع ومتأهّبًا له. كان يبدو ممتعضًا وحانقًا. تبادلنا نظرات تُغني عن قول الكثير، ثمّ قلت له مواسيًا:

- هاك عيّنة من بنات اليوم.

فقال بغضب:

- هيهات أن تجد مثلي الحمقاء...

- سيعوّضك الله بخير منها، وإن أردت الحقّ فليس البنسيون بالمكان المناسب لاختيار عروسك...

- ظننتها بنتًا طيّبة...

- أنا لم أقل إنّها ليست كذلك ولكن...

فسألني باهتمام:

- ولكن ماذا؟

- ماذا يهمّك منها وقد انتهى أمرها بالنسبة إليك؟

- ليرتاح قلبي.

- أيرتاح قلبك لو قلت لك إنّها تحبّ سرحان البحيري؟

- المجنونة!... وهل سيتزوّج الأستاذ سرحان منها؟

فقلت وأنا أودّعه:

- تكلّمت عن الحبّ لا الزواج!

كنت أكره سرحان من أوّل يوم. أجل قد تهبط كراهيتي له لدرجة الصفر في الأوقات التي يفتح لي قلبه المطبوع على الألفة والمعاشرة ولكن سرعان ما يرجع الحال إلى أصله. ولا دخل لزهرة في هذه الكراهية فهي أتفه من أن تجعلني أكره أو أحبّ إنسانًا. ربّما لصراحته العمياء أحيانًا، وربّما لإصراره على الإشادة بالثورة لمناسبة ولغير ما مناسبة. لذلك فكثيرًا ما أرغمني على مجاراته ولو بالسكوت. وقد فاض بي الكيل مرّة فقلت له:

- نحن مؤمنون بالثورة ولكن لم يكن ما سبقها فراغًا كلّه.

فقال بعناد مثير:

- بل كان فراغًا...

- كان الكورنيش موجودًا قبلها، كذلك جامعة الإسكندريّة!

- لم يكن الكورنيش للشعب، ولا الجامعة...

ثمّ سألني ضاحكًا، وبلا حقد ظاهر:

- خبّرني لِمَ تملك وحدك مائة فدّان على حين أنّ كلّ ما تملكه أسرتي عشرة فقط؟

فسألته وأنا أكظم غيظي:

ـ ولِمَ تملك عشرة على حين لا يملك ملايين من الفلّاحين قيراطًا واحدًا!!

***

ـ مهما تقل فلن أصدّق كلمة واحدة ممّا تقول، إنّ رَفْض مرفت لك أطاح بعقلك، ولا تصدّق ما يقال عن العدالة والاشتراكيّة، المسألة تتلخّص في كلمة واحدة: القوّة، إنّ مَن يملك القوّة يملك كلّ شيء، ولا بأس بعد ذلك من أن يتغنّى أمام الناس بالعدالة والاشتراكيّة، وإلّا فخبّرني بالله هل رأيت أحدًا منهم يسير في الأسواق شبه جائع مثل سيّدنا عمر؟!

***

على أيّ حال سرعان ما بلغني الخبر اللذيذ عن القتال بين محمود أبو العبّاس وسرحان البحيري يا بصل! وتجاهلت الأمر احترامًا لصمته، بل انتهزت فرصة اجتماعي به في مدخل البنسيون فسألته الرأي عن المشروع، وإذا به يقول لي في اهتمام:

ـ اصرف النظر عن مشروع المقهى وما شاكل ذلك، إنّك ابن ناس، وعليك أن تختار مشروعًا مناسبًا.

ـ مثل ماذا؟

ـ أنا أقول لك، مشروع تربية دواجن وعجول مثلًا، إنّه يدرّ ذهبًا.

ثمّ بعد تفكير قليل:

ـ ممكن أن تؤجّر قطعة أرض في منطقة سموحة، وممكن أن أساعدك بما لي من خبرة وأصدقاء وربّما شاركتك إذا ما أسعفتني الظروف.

***

ما أضيق الإسكندريّة في عينَي سيّارة مجنونة. إنّي أمرق فيها كالهواء ولكنّها انقلبت علبة سردين. الليل يتبع النهار في إصرار غبيّ ولكن لا شيء يحدث على الإطلاق. ورغم أنّ السماء تتزيّن كلّ يوم برداء. والطقس كالبهلوان لا يمكن التنبّؤ بحركته التالية، والنساء يُقبلن في ألوان لا حصر لها، فلا شيء يحدث على الإطلاق. الكون في الحقيقة قد مات وما هٰذه الحركات إلّا الانتفاضات الأخيرة التي تندّ عن الجثّة قبل السكون الأبديّ.

وتذكّرت الجنفواز.

إنّه يقع على الكورنيش متحدّيًا البحر والشتاء ولٰكنّ بابه يقع في شارع خلفيّ ضيّق. له مسرح للغناء والرقص، وتتوسّطه باحة للرقص المشترك، وينتشر اللون الأحمر الكابي في السقف والجدران والمصابيح كأنّه مأوى للجان، ومن نظرة إلى فتياته وزبائنه يتسرّب إلى النفس إحساس محتوم بأنّه ماخور.

رأيت فتاة البحيري ترقص رقصة فولكلوريّة مبتذلة. دعوتها إلى مائدتي فلم تعرفني بادئ الأمر ثمّ اعتذرت بحالها يوم التعارف. وسرعان ما قالت إنّها انتظرت مقدمي طويلًا فاعتذرت بضيق الوقت وكثرة المشاغل. عرفت أنّ اسمها صفيّة بركات والله أعلم باسمها الحقيقيّ. وهي أجمل من المدرّسة ولٰكن يعيبها ميل إلى البدانة، وتستقرّ في وجهها المليء نظرة محترفة. شربتُ كثيرًا حتّى أوشكت أن أفقد الوعي ثمّ دعوتها إلى سيّارتي ومضيت بها إلى شارع الليدو بالأزاريطة، ولمّا هممت بمصاحبتها اعتذرت بعذر قهريّ فرجعت إلى البنسيون وأنا من السكر وسوء المآل في حال.

التقيت وأنا ذاهب إلى حجرتي بزهرة وهي راجعة من الحمّام في قميص النوم. اعترضت سبيلها مفتوح الذراعين. توقّفت متوثّبة. اقتربت منها فقالت بحزم:

ـ ابعدْ. . .

أشرتُ بأصبعي إلى حجرتي فقالت متوعّدة:

ـ ابعد واذهب لحالك.

انقضضت عليها بالرغبة والسكر فضربتني بقبضتها في صدري ضربة مذهلة أشعلتني بالغضب. جنّ جنوني فلطمتها بوحشيّة. وصمّمت على الانقضاض حتّى النهاية ولٰكنّ يدًا وضعت على كتفي وجاءني صوت سرحان اللاهث وهو يقول:

ـ حسني. . . أجننت؟

دفعته بوحشيّة ولٰكنّه شدّ على كتفي قائلًا:

ـ ادخل الحمّام وضع إصبعك في فمك.

استدرت نحوه ولطمته بشدّة على غرّة منه. تراجع وهو يهدر ثمّ لطمني بقوّة. وإذا بالمدام قادمة وهي تحبك حولها الروب متسائلة في جزع:

ـ ماذا يحدث؟!
ثمّ دخلتْ بيني وبين سرحان وهي تقول بغضب:
ـ لا، هٰذا تخريب، ولا يمكن أن أقبله.

***

الملائكة تسبح أو ترقص في السقف. المطر يعزف فوق النوافذ وهدير الأمواج يصكّ الأذنين بانفجارات معركة محتدمة. أغمضت عينيّ مرّة أخرى تحت لطمات الصداع. تأوّهت ثمّ لعنت كلّ شيء. ثمّ اكتشفت أنّني نمت بقيّة الليل بالبدلة والمعطف والحذاء. وانهالت عليّ ذكريات الليلة الماضية فلعنت كلّ شيء.

وجاءت المدام بعد أن أذنت لها بالدخول. وقفت تنظر إليّ وأنا أتزحزح متثاقلًا متكاسلًا إلى الوراء لأجلس مستندًا إلى رأس الفراش، وقالت:
ـ تأخّرت عن موعدك؟
ثمّ غاصت في المقعد الكبير وهي تقول في عتاب:
ـ ها هي عاقبة السكر الشديد.
تلاقت عينانا فابتسمت وقالت:
ـ إنّك أعزّ مَن عندي ولٰكن لا تَعُدْ للسكر.
رفعت عينيّ إلى السقف المزركش بصور الملائكة وتمتمت:
ـ إنّي آسف.
ثمّ بعد فترة صمت:
ـ يجب أن أعتذر لزهرة.
ـ حسن ولٰكن عدني بأن تسلك السلوك اللائق بأسرتك.
ـ اعتذري عنّي لزهرة حتّى أعتذر لها بنفسي.

وقد انقطع ما بيني وبين سرحان أمّا زهرة فصالحتها بعد إباء وتمنّع. ولا أنكر أنّ مخاصمة سرحان قد خلقت فراغًا في نفسي. الآخر ـ منصور باهي ـ لا أكاد أعرفه، ولا علاقة لي به سوى كلمات عابرة نتبادلها على مائدة الإفطار فلا يبقى منها في الذاكرة شيء. إنّنا نتبادل ـ بلا شكّ ـ كراهية صامتة. وإنّي أحتقر انطواءه وغروره وأنوثته وما يحلّي به نفسه من أدب ظاهريّ رخيص. وقد سمعته مرّة في الراديو فهالني صوته ـ الكاذب مثله ـ الذي تحسبه صادرًا عن فارس خطيب. ومن عَجَب أنّه لم تنشأ مودّة بينه وبين أحد سوى قلاوون الصحافة ممّا جعلني أقطع بأنّ العجوز الأعزب لوطيّ سابق!

***

يحسن بي ألّا أغادر الحجرة! ولٰكن ثمّة حادث سعيد يقع في الخارج. في حجرة البحيري؟! أجل. مناقرة... بل مشاجرة... بل معركة... بين روميو البحيري وجولييت البحيريّة... ما معنى ذٰلك؟ هل طالبته بإصلاح غلطته؟ هل رام التملّص والهرب كما فعل مع صفيّة؟ إنّه لأمر بالغ اللذّة ولٰكن يحسن بي ألّا أغادر الحجرة. أين كانت تختبئ جميع تلك المسرّات؟ فريكيكو انتبه جيّدًا واستمتع باللحظة البديعة. وصاح الصوت الرنّان:
ـ أنا حرّ... أتزوّج بمن أشاء... سأتزوّج مِن عليّة.

يا سيّد يا بدوي! عليّة! الأستاذة؟ هل لبّى الدعوة لزيارة بيتها؟ هل تحوّل من التلميذة إلى الأستاذة؟ اشهد يا فريكيكو. أيّ يوم بهيج يا إسكندريّة. لتحيا الثورة. ولتحيا قوانين يوليو. ها هو صوت المدام يرطن بالعربيّة. وها هو صوت المذيع الهمّام بلحمه ودمه، أخيرًا تنازل بالاهتمام بشئون الرعيّة. وسيجد ولا شكّ حلًّا لهٰذه المشكلة الريفيّة. يا أهلًا بالمعارك. فريكيكو... يجب أن تتحرّك. احذر أن تسبقك الأحداث.

وقد سمعت القصّة مرّة أخرى على ربابة المدام. وقالت لي في الختام:
ـ لقد طردته، ما كان يجب أن يقيم بيننا يومًا واحدًا!

أثنيت على شهامتها، ثمّ سألت عن زهرة فقالت بأسف:
ـ معتكفة في حجرتها متوعّكة.

أجل. القصّة القديمة. المتجدّدة مثل فصول السنة. وقد هنّأ البحيري بالطرد. فاز بترقية إلى الدور الخامس. ولا يدري أحد أين ينتهي به الطريق.
وقالت المدام:
ـ إنّ صاحب الميرامار يفكّر جدّيًّا في بيعها.
فقلت بثقة:

- إنّي على استعداد لمفاوضته.

وغادرت البنسيون مدفوعًا برغبة حامية في مسح الإسكندريّة بالطول والعرض.

فريكيكو... لا تلمني...

***

لأوّل مرّة أراها منهزمة منسحقة. شحب لونها الخمريّ وفقدت عيناها العسليّتان الرونق والبريق. صبّت لي الشاي وهمّت بالانصراف فرجوتها أن تبقى. كان الهواء يزأر في هبّات متقطّعة، وجوّ الحجرة القاتم يشي بتجمّع السحب.

- زهرة... الدنيا مليئة بالسفالات ولٰكنّها لا تخلو من خير...

لم يبدُ عليها أنّها تهتمّ بالإصغاء إليّ أو أنّها تهتمّ بأيّ شيء.

- انظري ماذا فعلت أنا، ضاق بي العيش بين أهلي في طنطا فهاجرت إلى الإسكندريّة.

لم تنبس ولا دبّت فيها نسمة اهتمام.

- أقول لك إنّه لا حزن يدوم ولا فرح، وإنّ على الإنسان أن يجد طريقه، وإذا ساقه الحظّ إلى طريق مسدودة فعليه أن يتحوّل إلى أخرى.

- كلّ شيء طيّب، لست آسفة على شيء.

- بل أنت حزينة، حزينة جدًّا يا زهرة، ولك حقّ، ولٰكن عليك أن تختاري النجاة، هٰذا الاختيار نصف النجاة إن لم يكن النجاة كلّها.

قاومت التأثّر بإرادة جبّارة طبعت وجهها بطابع دميم عابر، فقلت:

- أصغي إليّ، إليك اقتراحًا، لا تبتّي فيه برأي الآن ولٰكن فكّري فيه على مهل.

وتريّثت لحظات ثمّ قلت:

- عمّا قريب سيكون لديّ عمل.

تململت، فقلت:

- ستجدين عندي إذا شئت وظيفة محترمة!

ارتسم سوء الظنّ في عينيها فقلت:

- هٰذا المكان لا يصلح لك... بنت محترمة بين أشكال وألوان من مريدي اللهو والتسلية، مَن يقرّ ذٰلك؟

لم تأخذ كلمة من قولي مأخذ الجدّ، ذٰلك واضح جدًّا، فقلت:

- ستكونين عندي في حصن... عمل شريف وحياة ممتازة.

غمغمت بما لم أسمع ثمّ حملت الصينيّة وذهبت.

غضبتُ. عليها وعلى نفسي غضبت لحدّ المقت. شهوات المحرومين أعمتها عن حقارتها. ملعونة الأرض التي أنبتتك في طينها. وقلت بذلّة ومرارة:

فريكيكو... لا تلمني...

***

سهرت بين الجدران الحمراء الكابية في الجنفواز. دعتني صفيّة إلى المبيت في بيتها فلبّيت. عرضت همومي للمناقشة وأنا سكران تمامًا. ولمّا جاء ذكر المشروع وثب صوتها قائلًا:

- جاء الفَرَج!

ثمّ قالت وهي تشعل سيجارة:

- الجنفواز... صاحبه يرغب في بيعه.

فقلت بلسان مخمور:

- لكنّه حقير كئيب!

- فكّر في موقعه الممتاز... ممكن أن يصير ملهى ومطعمًا ممتازًا!

وأكّدت أنّه يدرّ ربحًا كثيرًا وهو بحالته الراهنة وتنبّأت له بمزيد من النجاح إذا جُدّد. قالت:

- أنت ابن ناس، وسيضع البوليس ذٰلك في اعتباره، وعندي خبرة لا حدّ لها. الصيف مضمون، وبقيّة العام مضمونة كذٰلك بفضل الليبيّين الذين يفدون علينا محمّلين بنقود البترول.

قلت وكأنّي في حلم:

- رتّبي لي مقابلة مع الخواجا.

- في أقرب فرصة وسوف أختصّ أنا بالجانب النسائيّ.

- اتّفقنا.

قبّلتني وهي تتساءل:

- لم لا تجيء للإقامة معي؟

- فكرة، ولٰكن يجب أن تعرفيني على حقيقتي من أجل تعاون دائم، أنا لا أعرف ذٰلك الشيء الذي

تسمّونه الحبّ.

***

حوالى العاشرة صباحًا عدت إلى البنسيون. التقيت بسرحان البحيري في مدخل العمارة. تجاهلته كما تجاهلني ووقفنا ننتظر هبوط المصعد وأنا أقول لنفسي لعلّه جاء لزيارة آل عروسه. وفجأة التفت نحوي وقال:

ـ إنّك كنت السبب فيما وقع بيني وبين محمود أبو العبّاس!

تجاهلته تمامًا كأنّني لم أسمع صوتًا، فاستمرّ يقول:

ـ لقد اعترف لي بذلك.

ولمّا أصررت على تجاهله في احتقار وبرود قال بعصبيّة:

ـ على أيّ حال فقد خلا سلوكك من شهامة الرجال.

تحوّلت إليه بغضب صائحًا:

ـ اخرس يا ابن الكلب!

وسرعان ما تبادلنا الضربات حتّى جاء البوّاب ورفاق له فخلّصوا بيننا. توقّف الضرب وبدأ السباب. حتّى هتف:

ـ سأؤدّبك... انتظرني.

فهتفت بدوري:

ـ تعال لأريحك من حياتك القذرة.

***

في مجلس الأصيل حول الراديو وجدت المدام وطلبة بك، فقالت لي المدام:

ـ اشترك معنا في التفكير، كيف نقضي ليلة رأس السنة؟

ثمّ أشارت إلى طلبة بك وقالت:

ـ من رأيه أن نسهر في المونسنيير ولكنّ عامر بك يفضّل البقاء هنا؟

ـ أين عامر بك؟

ـ إنّه معتكف، عنده برد.

ـ دعيه في اعتكافه، ولنذهب إلى المونسنيير، يجب أن نلهو بعنف حتّى الصباح!

وبعد صمت قليل قلت لها:

ـ أخيرًا تحقّق المشروع!

وقصصت عليها الخبر حتّى عكس وجهها خيبة أمل واضحة، ثمّ قالت:

ـ لا تتسرّع ... يجب أن تفكّر.

ـ كفاني تفكير.

ثمّ صرّحتْ قائلة بعد تردّد:

ـ مقهى الميرامار أفضل... وإنّي أفكّر جدّيًا في مشاركتك.

فقلت ضاحكًا:

ـ ربّما فكّرت في التوسّع مستقبلًا.

وانبعثت من أعماقي رغبة جامحة في الاستمتاع لأقصى حدّ بليلة رأس السنة الجديدة.

***

وقد تعرّفت بصاحب «الجنفواز» في نفس الليلة في حجرة مكتبه بالملهى. وتمّ الاتّفاق على البيع من حيث المبدأ، ثمّ دعاني إلى سهرة في مسكنه بكامب شيزار بعد مَوعد الإغلاق. وشهدت صفيّة السهرة واشتركت في مناقشة التفاصيل. وجاء ذكر لليلة رأس السنة فاتّفقنا أيضًا على الاحتفال بها معًا في «الجنفواز» على أن نكمل السهرة في بيت الخواجا أو في أيّ مكان آخر، فهنّأت نفسي على الخلاص من سهرة العجائز.

وفي صباح اليوم التالي لاحظت أنّ حجرة الإفطار تطالعني بوجه غريب. أجل كان قلاوون الصحافة معتكفًا في حجرته ما يزال، ولكنّ منصور باهي لم يفارق حجرته أيضًا، ولم أرَ أثرًا لزهرة. وقرأت في وجهَي المدام وطلبة بك وجومًا ينذر بالشرّ، وإذا بالرجل يقول:

ـ أما علمت بالخبر؟

رمقته بنظرة متسائلة فقال:

ـ لقد عُثر على سرحان البحيري جثّة هامدة في طريق البالما...

لبثت لحظات ذاهلًا قبل أن يستقرّ الخبر في وعيي وإدراكي. واكتسحني شعور من الانزعاج والإشفاق، والقلق حيال طبيعة الموت الغامضة المقتحمة. وسألت:

ـ ميتًا؟

ـ بل قتيلاً.
ـ ولٰكن.
فقاطعتني المدام:
ـ اقرأ الجريدة، إنّه خبر مزعج، وقلبي يحدّثني بمتاعب كثيرة.
تذكّرت المعركة الأخيرة أمام المصعد فامتعضت نفسي. وخشيت أن تمتدّ إليّ المتاعب التي تنبّأتْ بها المدام. وسألت وأنا أدرك سخف السؤال وعمقه:
ـ ترى مَن يكون القاتل؟
فقالت المدام:
ـ هٰذا هو السؤال طبعًا.
وقال طلبة مرزوق:
ـ وعندما يسألون عن أعدائه....؟!
أجبت وقد استعدت شيئًا من روح السخرية:
ـ في الحقّ لم يكن له صديق بيننا!
فقال طلبة مرزوق:
ـ وهل يكون له أعداء آخرون؟
ـ ستُعرف الحقيقة عاجلًا أو آجلًا.
وسألت عن زهرة فأجابت المدام:
ـ في حجرتها على أسوأ حال...
أفقت من وقع الخبر فردّدت قائلًا:
ـ لتكن مشيئة الله.
كان في نيّتي أن أخبر المدام بما استقرّ عليه رأيي من الانتقال من البنسيون ولٰكنّي أجّلت ذٰلك إلى وقت آخر. ولمّا هممت بالخروج قال لي طلبة بك:
ـ محتمل أن نُدعى جميعًا لسماع أقوالنا.
فقلت وأنا أمضي:
ـ فليَدْعُنا مَن يشاء.
صمّمت على غسل رأسي بجولة من جولاتي الانطلاقيّة في أنحاء الإسكندريّة. كانت السحب البيضاء دانية يقطر منها لون رائق، والهواء خفيفًا سريعًا لاذعًا.
إنّه آخر يوم في السنة وقد تضاعفت رغبتي في إحياء ليلة جنونيّة حتّى الصباح.
لقد وضحت لي معالم الطريق، فليمت مَن يموت وليعش مَن يعيش.
دفعت السيّارة وأنا أقول لصورتي في المرآة الصغيرة:
فريكيكو... لا تلمني...

٣

مَنصُور بَاهي

ـ قُضِيَ عليّ بالسجن في الإسكندريّة وبأن أمضيَ العمر في انتحال الأعذار.
قلت ذٰلك لأخي وأنا أودّعه، ثمّ ذهبت رأسًا إلى بنسيون ميرامار. فتحت شُرّاعة الباب عن وجه عجوز ذي طابع أنيق متعالٍ، رغم الكبر ورغم المهنة، فسألتها:
ـ مدام ماريانا؟
أجابت بالإيجاب فقلت:
ـ منصور باهي...
فتحت لي الباب مرحّبة وهي تقول:
ـ أهلًا... حدّثني أخوك بالتليفون... اعتبر نفسك في بيتك.
انتظرت عند الباب حتّى وصل البوّاب حاملًا الحقيبتين، ثمّ دعتني إلى الجلوس وجلست هي على كنبة تحت تمثال للعذراء:
ـ أخوك ضابط بوليس عظيم، كان ينزل عندي قبل أن يتزوّج، وقد أقام في الإسكندريّة عمرًا وها هو ينتقل إلى القاهرة...
تبادلنا نظرات مودّة وهي تتفحّصني بدقّة وعناية ثمّ سألتني:
ـ كنت تقيم معه؟
ـ نعم.
ـ طالب؟... موظّف؟
ـ مذيع في محطّة الإسكندريّة.
ـ ولٰكنّك أصلًا من القاهرة؟
ـ نعم...
ـ اعتبر نفسك في بيتك ولا تحدّثني عن الإيجار...
ضحكت مستنكرًا، ولٰكنّي شعرت أنّها على استعداد

لقبولي بالمجّان لو أردت. حسن، العفن يجري مع الهواء ولعلّه يصدر أصلًا من ذاتي أنا.

- وأيّ مدّة ستقيم معنا؟

- غير محدودة...

- سنتّفق على أجرة مناسبة ولن أطالب برفعها في الصيف...

- شكرًا، لقد أرشدني أخي إلى ما يجب عمله وسوف أدفع في المصيف كالمصيّفين...

انتقلت بلباقة إلى موضوع آخر فتساءلت:

- أعزب؟

- نعم.

- متى تفكّر في الزواج؟

- ليس الآن على أيّ حال.

فضحكت عاليًا وهي تسأل:

- فيمَ تفكّر إذن؟

جاريتها في الضحك بلا روح. ودقّ الجرس فقامت ففتحت الباب فدخلت فتاة حاملة لفّة كبيرة من البقالة أو غيرها ثمّ مضت إلى الداخل. من نظرة أدركت أنّها خادمة وأنّها جميلة. ثمّ عرفت - والمدام تخاطبها - أنّ اسمها زهرة. وهي في سنّ طالبة جامعيّة وكان ينبغي أن تكون كذلك.

قادتني المدام إلى إحدى الحجرتين المطلّتين على البحر وهي تقول:

- هٰذا الجانب غير مناسب للشتاء ولكنّها الحجرة الوحيدة الخالية...

فقلت بلا اكتراث:

- إنّي أحبّ الشتاء...

***

وقفت في الشرفة وحيدًا. ترامى البحر تحتي إلى غير نهاية، ينبسط في زرقة صافية بديعة. وتلعب أمواجه الهادئة بلآلئ الشمس. غمرتني ريح خفيفة في ملاطفة منعشة ولم يكن في السماء إلّا سحابات متفرّقة. كاد يغلبني الحزن ولكن سمعت حركة خفيفة في الحجرة فالتفتّ مستطلعًا فرأيت زهرة وهي تفرش السرير بالملاءات والأغطية. عملت بهمّة دون أن تنظر نحوي فتملّيتها على مهل وسرعان ما أكبرت ملاحتها الريفيّة الباهرة. وقلت راغبًا في إنشاء علاقة ومودّة:

- أشكرك يا زهرة.

فابتسمت إليّ ابتسامة تشرح الصدر، فطلبت فنجال قهوة فجاءتني به بعد دقائق معدودة. وقلت:

- انتظري من فضلك حتّى أفرغ...

وضعت طبق الفنجال على سور الشرفة ومضيت أحتسيه فاقتربت حتّى وقفت عند العتبة رانية إلى البحر فسألتها:

- تحبّين الطبيعة؟

لم تجب. ولكنّها لم تفهم. ترى ماذا يشغل بالها؟ ولكن لا ريب أنّها بالغريزة المرتوية من الأرض تتحفّز للعمل الأوّل الذي تهتمّ به الطبيعة الخلّابة. قلت:

- لديّ في الحقيبة الكبرى كتب ولا صوان لها في الحجرة.

استعرضت قطع الأثاث بعينيها ثمّ قالت ببساطة:

- دعها في الحقيبة.

ابتسمت ثمّ سألتها:

- تعملين هنا من قديم؟

- كلّا.

- والمكان أهو مناسب لراحتك؟

- نعم.

- ألا يضايقك الرجال الذين يجيئون ويذهبون؟

هزّت منكبيها ولم تجب بلا أو نعم فقلت:

- إنّهم مخيفون أحيانًا، أليس كذلك؟

تناولتِ الفنجال ثمّ قالت وهي تهمّ بالذهاب:

- أنا لا أخاف!

أُعجبت بثقتها بنفسها. وإذا بي أعاني إحساسًا بالحسرة. وكعادتي جعلت أفكّر فيما هو كائن وما ينبغي أن يكون. وتهدّدني الحزن مرّة أخرى.

تفقّدت قطع الأثاث ثمّ قرّ عزمي على شراء مكتبة صغيرة للكتب، أمّا الترابيزة المستديرة القائمة بين صوان الملابس والشيزلونج فصالحة للكتابة.

***

لبثت في دار الإذاعة بضع ساعات لتسجيل البرنامج الأسبوعيّ. تناولت الغداء في مطعم بترو بشارع صفيّة زغلول. جلست في على كيفك لأحتسي

فنجالًا من القهوة. مضيت أتسلّى بمشاهدة الميدان المغطى بمظلّة من السحب. وقد انتشرت معاطف المطر المطويّة على الأذرع. وفجأة دقّ قلبي عندما مرّ أمامي ذاك الرجل. فوزي! انحنيت إلى الأمام قليلًا حتّى أوشك جبيني أن يمسّ الزجاج لأتأكّد من هويّته. كلّا، ليس بفوزي، ليس بفوزي على وجه اليقين. ولٰكن ما أعظم التماثل بينهما ودرّيّة حضرت بالتداعي كما يقال. وهي تحضر بلا قانون إلّا قانونها الأزليّ. أجل درّيّة. ماذا لو كان هو فوزي حقًّا؟ وماذا لو تلاقت الأعين؟ إذا رأيت صديقًا حميمًا وجبت عليك معانقته. وهو أيضًا بمنزلة الأستاذ. لتكن معانقة حارّة وإن أدمتك الأشواك. وادعه إلى فنجال قهوة فبذٰلك تقضي آداب الضيافة.

ـ أهلًا... أهلًا... ماذا جاء بك إلى الإسكندريّة في هٰذا الوقت من العام؟

ـ زيارة عائليّة!

هٰذا يعني أنّه جاء ليمارس نشاطًا ولٰكنّه يخفيه عنّي كما يجدر به. على أنّني قلت:

ـ أتمنّى لك إقامة دائمة.

ـ لم نرك منذ عامين، وبالدقّة منذ تخرّجك.

ـ بلى، فقد عُيّنت في محطّة الإسكندريّة كما تعلم!

ـ أعني أنّك هجرتنا تمامًا.

ـ بعض المتاعب... أعني صادفتني بعض المتاعب.

ـ قد يكون من الحكمة ألّا يستمرّ الإنسان في عمل لا يناسبه.

اجتاحتني كبرياء عمياء فقلت:

ـ وقد لا يستمرّ في العمل أيضًا إذا كفّ عن الإيمان به.

تمهّل كعادته ليزن كلماته ثمّ قال:

ـ قيل إنّ أخاك...

قاطعته باستياء:

ـ لست قاصرًا...

فضحك قائلًا:

ـ أغضبتك؟... معذرة...

توتّرت أعصابي. درّيّة. وتساقط رذاذ فتمنّيت أن ينهلّ المطر ليخلو الميدان من البشر. عزيزتي. لا تصدّقي. قديمًا قال حكيم إنّنا قد نكذب أحيانًا لنقنع الآخرين بأنّنا صادقون. وعدت ألحظ صديقي المخيف فسألني:

ـ ألم تعد تهتمّ بشيء؟

فضحكت. كادت تندّ عنّي ضحكة. وقلت:

ـ ما دمت أحيا فلا بدّ أن أهتمّ بشيء.

ـ مثل ماذا؟

ـ ألا ترى أنّني حلقت ذقني وأنّني أحكمت عقد الكرافتة؟!

فسألني جادًّا:

ـ وماذا أيضًا؟

ـ هل شاهدت فيلم مترو الجديد؟

ابتسم ثمّ قال:

ـ فكرة... فلنشاهد فيلمًا رأسماليًّا!

***

زارتني مدام ماريانا في حجرتي زيارة مجاملة. ينقصك شيء؟ أيّ خدمة؟ كن صريحًا، كان أخوك صريحًا وكان شهمًا بكلّ معنى الكلمة، وهو قويّ ضخم عملاق، أمّا أنت فدقيق متناسق ولٰكنّك قويّ أيضًا، اعتبر البنسيون بيتك. واعتبرني صديقة، صديقة بكلّ معنى الكلمة.

ولٰكنّها لم تأت في الحقيقة للمجاملة، أو لم تكن المجاملة إلّا وسيلة فحسب، لقد جاءت أصلًا للاعتراف، أو لتحقيق الذات عن طريق شفويّ. هٰكذا تطوّعت برواية تاريخ حياتها، نشأتها الناعمة المنعّمة، حبّها وزواجها الأوّل من كابتن إنجليزيّ، زواجها الثاني من ملك البطارخ وقصر الإبراهيميّة، ثمّ فترة الانحدار، ولٰكن أيّ انحدار؟! كان بنسيون السادة، الباشوات والبيكوات، أيّام الحرب.

ودعتني إلى البوح بأسرار حياتي، طوفان من الأسئلة، امرأة غريبة ومسلّية ومرهقة، امرأة عند الزوال، لم أشهدها وهي عروس الصالونات، ولٰكن يمكن تخيّلها، على ضوء الفاتنات والطغاة يمكن تخيّلها، ولٰكنّي لم أعرفها إلّا وهي خرابة أثريّة تتعلّق عبثًا بأذيال الحياة.

وعلى مائدة الإفطار تعرّفت بالنزلاء. أسرة متنافرة غريبة. وإنّي لفي حاجة إلى تسلية. إذا تغلّبت على ما يشدّني إلى الداخل فقد أنعم بصاحب أو بصديق. لِمَ لا؟ لنطرح جانبًا عامر وجدي وطلبة مرزوق فهما من جيل راحل. ولكن ماذا عن سرحان البحيري وحسني علّام؟ في عينَي سرحان جاذبيّة فطريّة وهو ودود فيما يبدو رغم صوته المزعج ولكن ماذا عن اهتماماته؟ أمّا الآخر... حسني علّام... فهو مثير للأعصاب، هكذا يبدو لأوّل وهلة على الأقلّ، متغطرس الصمت والتحفّظ، غاظني بنيانه المحكم ورأسه الكبير المرتفع وتربّعه على كرسيّه كأنّه حاكم، أجل حاكم ولكن بلا ولاية وبلا محتوى، ولعلّه لا يتبسّط في الحديث مع أحد إلّا إذا وثق من أنّه أتفه منه. وقلت لنفسي. على الذي يرضى بهجر الدير أن يوطّن النفس على معاشرة الأراذل. وكالعادة تملّكني الانطواء حيال الغرباء. وقلت سيقولون... سيظنّون. وقديمًا خسرت بذلك الفرص حياتي.

***

دهشت عندما رأيت سرحان البحيري داخلًا عليّ في حجرة مكتبي بالإذاعة. تألّق وجهه ببشاشة صديق قديم. ثمّ صافحني بحرارة وهو يقول:

ـ كنت مارًّا تحت الإذاعة فقلت أسلّم وأشرب القهوة!

رحّبت به، وطلبت القهوة. فقال:

ـ سأطالبك يومًا بإطلاعي على أسرار الإذاعة!

بكلّ سرور يا رجل المصطبة العتيدة التي لم أنعم بالجلوس عليها... وبإيجاز حدّثني عن عمله بشركة الإسكندريّة وعضويّة مجلس الإدارة وعضويّة الوحدة الأساسيّة. وقلت له:

ـ يا له من حماس جميل يُعَدّ درسًا للمتواكلين.

فنظر إليّ بإمعان، ثمّ قال:

ـ إنّه طريقنا للمشاركة في بناء عالمنا الجديد.

ـ آمنت بالاشتراكيّة من قبل الثورة؟

ـ الحقّ أنّي آمنت بها مع الثورة.

ودغدغني ميل إلى مناقشة إيمانه ولكنّني كبحته. وجرى الحديث إلى البنسيون فقال:

ـ إنّه أسرة طريفة لا يشبع الإنسان منها.

فسألته بعد تردّد:

ـ وحسني علّام؟

ـ شابّ ظريف هو الآخر.

ـ يبدو كأنّه أبو الهول.

ـ في الظاهر فقط، ولكنّه ظريف، وذو استعداد أصيل للعربدة!

ضحكنا معًا. لم يدرِ أنّه يعرّفني بنفسه أكثر ممّا يعرّفني بالآخر. وعاد يقول محذّرًا:

ـ إنّه من الأعيان، بلا وظيفة، فيمكن القول إنّه بلا شهادة. خذ بالك من هٰذه النقطة...

ثمّ واصل بلهجته الحكيمة المحذّرة:

ـ إنّه يملك مائة فدّان، فهو يخندق في الخطوط الأماميّة، ولا يحمل شهادة علميّة، وعليك أن تفهم البقيّة...

ـ ولماذا أقام في الإسكندريّة؟

ـ إنّه ولد حكيم، يبحث عن مشروع تجاريّ ناجح!

فقلت ضاحكًا:

ـ عليه أن يغيّر سحنته المتعجرفة وإلّا هرب الزبائن. ثمّ خطر لي أن أسأله عمّا يدعوه إلى الإقامة في بنسيون رغم أنّه قديم عهد بالإسكندريّة، فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ فضّلت بنسيونًا عامرًا بالناس عن شقّة موحشة داخل البلد!

***

ليلة أمّ كلثوم، ليلة الخمر والطرب، فيها تزحزح النقاب عن أشياء من خبايا النفوس.

إلى سرحان البحيري يعود أكبر الفضل في إحيائها ولعلّه تكلّف أقلّ نصيب من نفقاتها! استرقت نظرات إلى طلبة مرزوق لم يقرأ معانيها أحد. أجل، عاودتني ذكريات حميمة، أحلام دمويّة، صراعات طبقيّة، كتب وتجمّعات، بنيان من الأفكار راسخ الأساس. راعني ترهّله وانكساره. وحركات شدقيه، وقبوعه فوق مقعده في استسلام، وتودّده إلى الثورة بلا إيمان، وكأنّه لم يكن من السلالة التي شيّدت قلاعها من اللحم

والدماء. أخيرًا جاء دوره ليمارس النفاق بعد أن خلف مجده المتهدّم الذابل أمّة من المنافقين. وما حسني إلّا جناح من النسر المهيض، لكنّه جناح ما زال يرفرف ولا يخلو من قدرة على الطيران.

***

ـ أقول إنّ تلك التناقضات قد مُحيت تمامًا.

ـ كلّا... إنّها أُزيحت بتناقضات جديدة. وسوف تثبت لك الأيّام...

***

أمّا سرحان البحيري فسرى فينا كالروح بمرح حارّ لا يفتر وهو طيّب القلب، ومخلص، لِمَ لا، طَموح بلا ريب، إنّه التفسير المادّيّ للثورة، وسرعان ما تبيّن لي أنّ عامر وجدي هو أعظم الحاضرين فتنة وأحقّهم بالتقدير والحبّ. عرفت أنّه عامر وجدي الذي راجعت العديد من مقالاته عند إعدادي لبرنامج «أجيال من الثورة». لقد استولت عليّ أفكاره المتطوّرة بل والمتناقضة، وسحرني أسلوبه الذي بدأ بالسجع وانتهى إلى بساطة نسبيّة لا تخلو من فخامة وجزالة. وقد سُرّ باطّلاعي على مقالاته سرورًا دلّ على عمق إحساسه بالزوال والنسيان والجحود فأثّر ذلك في نفسي تأثيرًا حادًّا محزنًا. وقَبض على القشّة التي ألقيتها إليه في الماء فمضى يقصّ عليّ تاريخه الطويل، جهاده المستمرّ، التيّارات التي لاطمته، والأبطال الذين آمن بهم.

***

ـ وسعد زغلول؟... لقد عبده الجيل السابق عبادة...

ـ ما قيمة المعبودات القديمة! لقد طعن الرجل الثورة الحقيقيّة وهي في مهدها...

***

ولكن ما بال طلبة مرزوق يرمقني بحذر؟ لقد ضبطت عينيه المرتابتين الكارهتين في مرآة المشجب. لا يهمّ. ومثله خليق بأن يخاف خياله. وقد صببت له كأسًا فشكرني فسألته عن رأيه في نظرات عامر وجدي التاريخيّة ولكنّه قال كالمعتذر:

ـ ما مضى قد مضى، دعنا نتهيّأ للسماع.

أُعجبت بزهرة وهي تقوم على خدمتنا ولكنّها لا تكاد تبتسم إلّا للنادر من نكاتنا، وتجلس عند البرافان لتراقبنا من بعيد بعينين جميلتين غير مبيّنتين. وقد سألها حسني علّام وهي تقدّم له شيئًا:

ـ وأنت يا زهرة... هل تحبّين الثورة؟

فتراجعت في حياء عن دائرة المعربدين ولكنّ المدام أجابت عنها إجابة شافية. وقد بدا أنّه يحيّيها بسؤاله ويدعوها إلى المشاركة في الحديث ولكنّي لمحت في أعماقه ضيقًا يداريه فقلت:

ـ إنّها تحبّها بالفطرة!

ولكنّه لم يسمعني أو أنّه ـ الوغد ـ تجاهلني. وقد اختفى قبل نهاية السهرة، وأخبرت زهرة بأنّه غادر البنسيون، وقد أُعجبتُ بعامر وجدي الذي ظلّ ساهرًا يسمع ويطرب حتّى مطلع الفجر. وسألته وقد نهضنا للنوم:

ـ هل سمعت في ماضيك صوتًا كهذا الصوت؟

فأجاب باسمًا:

ـ إنّه الشيء الوحيد الذي لا نظير له في الماضي...

***

رجوتها أن تجلس ولكنّها لبثت واقفة مستندة إلى صوان الملابس، تنظر معي إلى الأفق الملبّد بالغيوم من زجاج الشرفة المغلق، وتنتظر أن أفرغ من احتساء الشاي. وكنت أعطيها قطعة من البسكوت الذي أحتفظ بقدر منه فتقبلها عربونًا لصداقة نامية. إنّ قلبها الأبيض يشعر بمودّتي واحترامي وإعجابي وكنت بذلك سعيدًا. وتساقط رذاذ، فانسابت قطراته على الزجاج فاهتزّت صورة العالم الخارجيّ. سألتها عن بلدتها فأجابت. خمّنتُ السبب الذي اقتلعها من أرضها، ولكنّي قلت:

ـ لو بقيت في قريتك لسارع إليك ابن الحلال.

فقصّت عليّ قصّة ضارية، عن الجدّ والزوج العجوز... ثمّ قالت:

ـ وهربت...

انزعجت للخبر فقلت:

ـ ولكنّك لن تسلمي من الألسنة.

فقالت باستهانة:

ـ إنّه خير ممّا هربت منه!

أعجبت بها لحدّ الإكبار ولكن أشجتني وحدتها، غير أنّها كانت تقف مليئة بالثقة كمعدن غير قابل للكسر. وكان الرذاذ قد نقش الزجاج بالغبش فاختفى العالم أو كاد.

***

قنبلة؟ صاروخ؟ فكرة جنونيّة. كلّا، إنّها سيّارة، الأحمق، يا للشيطان إنّه حسني علّام، ماذا يدفعه إلى الطيران؟ سرّ لا يعلمه إلّا هو، كلّا... فإلى جانبه تجلس فتاة، كأنّها صونيا، أهي صونيا، صونيا أو غيرها فليذهب إلى الجحيم.

وما كدت أجلس في مكتبي حتّى لحق بي زميلي وهو يقول:

- قبض على أصحابك أمس!

غشيتني لحظة غيبوبة. خجلت من أن أعلّق بكلمة واحدة فقال:

- والسبب فيما يقال...

قاطعته بحدّة:

- لا أهمّيّة لذلك.

- ثمّة همس عن...

- قلت لا أهمّيّة لذلك...

اعتمد على مكتبي بذراعيه الممدودتين وقال:

- كان أخوك حكيمًا.

فقلت وأنا أنفخ:

- نِعْمَ الحكيم أخي...

وقلت لنفسي لا شكّ أنّ حسني علّام قد بلغ الآن أقصى الأرض، وأنّ صونيا ترتعد من الخوف واللذّة.

***

- ولا كلمة، سأقتلعك من الوكر!

- ولكنّي لم أعد طفلًا...

- ألم تسرع بأمّك إلى القبر؟

- اتّفقنا على ألّا نذكر ذلك الماضي البعيد.

- ولكنّي أراه حاضرًا، ستذهب معي إلى الإسكندريّة ولو اضطررت إلى أخذك بالقوّة.

- عاملني كرجل من فضلك.

- إنّك ساذج، أتظنّنا غافلين، لسنا غافلين.

وتفرّس في وجهي بقوّة ثمّ قال:

- إنّك غرّ جاهل، ماذا تحسبهم؟ أبطالًا... هه؟ إنّي أعرفهم خيرًا منك، وستذهب معي طوعًا أو كرهًا...

***

فتحت لي الباب. كنت خافق القلب جافّ الحلق مشتّت الفكر. برز لي وجهها من الدهليز القاتم أبيض شاحبًا. حدّقت فيّ بعينين جامدتين، لم تعرفني أوّل الأمر، ثمّ اتّسعت عيناها لوقع مفاجأة غير متوقّعة، وهمست:

- أستاذ منصور!

تنحّت جانبًا فدخلت وأنا أقول:

- كيف حالك يا درّيّة؟

تقدّمتني إلى حجرة الجلوس، وقد أضفى منظرها الحزين على كلّ شيء كآبة وتجهّمًا. جلسنا على مقعدين متقاربين، وعلى الحائط أمامنا صورته تطلّ علينا من إطار أسود وهو يسدّد إلينا الفوتوغرافيا كأنّما يلتقط لنا صورة، تبادلنا نظرات صامتة حزينة، ثمّ سألت:

- متى جئت إلى القاهرة؟

- جئتك من المحطّة رأسًا.

- إذن علمت...؟

- أجل، في مكتبي، ثمّ أخذت ديزل الساعة الثانية مساء.

ونظرت إلى صورته وأنا أتشمّم رائحة التبغ الذي يدخّنه وهي مستكنّة ما تزال في جوّ الحجرة، ثمّ سألت:

- هل قُبض عليهم جميعًا؟

- أظنّ ذلك.

- وأين ذهبوا بهم؟

- لا أدري.

تشعّث شعرها في إهمال، وشحبت بشرتها البيضاء، وضعضعت عينيها نظرة ذابلة مسهّدة.

- وأنت؟

- كما ترى.

وحيدة بلا مورد. كان أستاذًا مساعدًا بكلّيّة الاقتصاد ولكن بلا مدّخرات. كلّ شيء واضح وضوح الكآبة التي تخنق المكان كلّه.

ـ درّيّة، أنت زميلة قديمة، وهو صديق، أعزّ صديق رغم كلّ شيء.

ثمّ استجمعت شجاعتي وواصلت:

ـ أنا موظّف، ولي إيراد لا بأس به أيضًا، ولست مسئولًا عن أحد كما تعلمين.

حرّكت رأسها في ضيق وتمتمت:

ـ ولكنّك تعلم أنّني لا . . .

قاطعتها بحرارة:

ـ لا أظنّك ترفضين مساعدة تافهة من صديق قديم.

ـ الطبيعيّ أن أجد عملًا مناسبًا.

ـ عندما يتيسّر ذٰلك، ولن يتيسّر قبل مضيّ وقت.

ما زالت الحجرة مطبوعة بروحه. كعهدي بها في الأيّام الخالية. الكنبة الإستديو ومكتبتها العامرة، المسجّل، الجرامفون، التلفزيون والراديو، الفوتوغرافيا والأفلام وألبوم الصور، ولٰكن أين الصورة التي جمعت بيننا في أوبرج الفيّوم؟ لا شكّ أنّه رمى بها في لحظة الغضب. وكانت عينانا تلتقيان ثمّ تنفصلان في حذر، ولا شكّ أنّ مشاعر متجانسة طاردتنا، وأنّ ذكريات مشتركة ناوشتنا، وأنّ الماضي والحاضر والمستقبل يتمثّل في صورة طريق مجهول. وسألتها:

ـ لديك خطّة؟

ـ لم أجمع أفكاري بعد.

تردّدتُ قليلًا ثمّ سألت:

ـ ألم تفكّري في الكتابة إليّ؟

تردّدت قليلًا ثمّ أجابت:

ـ كلّا.

ـ ولٰكن احتمال حضوري لا شكّ خطر ببالك.

لم تُجب. قامت فغابت دقائق ثمّ رجعت بالشاي، وأشعلنا سيجارتين. خيّل إليّ أنّي أسترجع رائحة قديمة مفتقدة. وكان لا بدّ ممّا ليس منه بدّ فقلت وعذاباتي القديمة تجتاحني:

ـ أظنّك علمت بمحاولاتي الفاشلة في العودة؟

لازمت الصمت فقلت:

ـ لم ألقَ أيّ تشجيع، وهٰذا أخفّ تعبير يمكن اختياره.

تمتمت برجاء:

ـ لننسَ الماضي.

ـ حتّى فوزي نفسه تجاهلني!

ـ قلت لننس الماضي.

ـ كلّا يا درّيّة.

ثمّ قلت بامتعاض وألم:

ـ ولست أجهل ما قيل عنّي، قالوا إنّني أسعى للعودة لأعمل عينًا لأخي!

هتفت بتبرّم وضيق:

ـ ألا يكفيني ما بي من حزن!

اعتذرت إليها بنظرة ذليلة وقلت:

ـ درّيّة إنّك تدركين شعوري تمامًا.

ـ إنّي ممتنّة.

فهتفت كالملدوغ:

ـ أعني شعوري بأنّني كان يجب أن أكون معهم!

فقالت بحزن:

ـ لا جدوى من تعذيب نفسك.

ـ أودّ . . . أودّ أن أعرف رأيك فيّ بصراحة؟

ساد الصمت فترة قصيرة مشحونة بالعذاب ثمّ تمتمت:

ـ لقد استقبلتك في بيتي، أو إن شئت في بيته، وفي هٰذا الكفاية!

تنهّدت بصوت مسموع. لم يطمئنّ قلبي تمامًا. وكنت على ثقة من أنّي سأردّ إلى الجحيم كما كنت، ولٰكن لم يكن الوقت مناسبًا لتبرير الأخطاء. وقلت:

ـ سأزورك بين حين وآخر، وعليك أن تكتبي لي لدى أيّ طارئ.

***

أرهقني السفر ذهابًا وإيابًا فقرّرت البقاء في البنسيون. انضممت إلى الجالسين حول الراديو في المدخل، ومن حسن الحظّ أنّهم كانوا أحبّ أهل الدار إلى نفسي: عامر وجدي والمدام وزهرة. شغلتني أفكاري عن الحديث حولي حتّى سمعت المدام وهي تقول لي:

ـ إنّك دائمًا غائب عنّا بأفكارك!

فقال عامر وجدي وهو يرمقني بمودّة:

ـ ذاك شأن الأذكياء!

وظلّ يرمقني بعينيه الغائمتين ثمّ تساءل:

ـ ألا تفكّر في استخلاص مادّة كتاب من برامجك الثقافيّة؟

فقلت دون مبالاة بالحقيقة:

ـ إنّي أفكّر في كتابة برنامج عن تاريخ الخيانة في مصر!

ـ الخيانة!... يا له من موضوع غزير متشعّب!

وضحك طويلًا ثمّ عاد يقول:

ـ عليك أن ترجع إليّ، سأمدّك بالمراجع والذكريات.

***

ـ أنا أحبّك، وأنت تحبّينني، دعيني أكلّمه.

ـ إنّك مجنون!

ـ إنّه عاقل ومعقول وسيفهمنا تمامًا، وسيغفر لنا.

ـ لكنّه يحبّني، ويعدّك صديقه الأوحد، ألا تفهم؟

ـ إنّه يكره الزيف، إنّي أفهمه تمامًا.

***

واستمرّ عامر وجدي قائلًا:

ـ برنامج عن الخيانة، يا له من برنامج، ولكن احرص في النهاية على أن تؤلّف كتابًا وإلّا نسيك الناس كما نسوني، لم يبق من الذين لم يدوّنوا أفكارهم إلّا سقراط.

وكانت المدام تتابع أغنية يونانيّة طلبتها فيما يطلبه المستمعون، أغنية على لسان عذراء تعدّد المزايا التي تتمنّاها في فتى الأحلام أو هٰكذا قالت المدام. إنّ منظرها وهي تستمع إلى الأغنية مغمضة العينين من الطرب منظر مؤثّر حقًّا، خلاصة مبكية مضحكة لحبّ الحياة.

وقال عامر وجدي:

ـ وقد خلّد بفضل تلميذه أفلاطون، ولكن غريب أن رضي بتجرّع السمّ متجاهلًا فرص الهرب!

فقلت ببرارة:

ـ أجل، ورغم أنّه لم يكن يعاني شعورًا بالإثم أو الخطإ.

ـ وكم من أناس إذا قارنتهم بسقراط اقتنعت بأنّهم لا يمكن أن يرجعوا معه إلى أصل جنسيّ واحد!

فقلت ببرارة وجنون:

ـ أولٰئك هم الخونة.

ثمّة حقائق وثمّة أساطير، الحياة يا بنيّ محيّرة حقًّا.

ـ ولٰكنّك من جيل الإيمان؟

فضحك وهو يقول:

ـ الإيمان... الشكّ... إنّهما مثل النهار والليل.

ـ ماذا تعني من فضلك؟

فسكت لحظات ثمّ قال:

ـ أعني أنّهما لا ينفصلان. وأنت يا بنيّ من أيّ جيل؟

فقلت بضجر:

ـ العبرة بما نعمل لا بما نفكّر، وإذن فأنا مجرّد مشروع.

وضحكت المدام قائلة:

ـ نعمل... نفكّر... ما هٰذا؟!

وضحك العجوز أيضًا وقال:

ـ في كثير من الأحيان يخيّل إلى المفكّر المرهَق أنّ أثمن ما في الوجود يتلخّص في أكلة شهيّة وامرأة جميلة.

فهقهت المدام وقالت:

ـ برافو... برافو.

وضحكت زهرة أيضًا فسمعت ضحكتها لأوّل مرّة فانجابت عنّي الهموم إلى حين. وأعقب ذٰلك دقائق صمت فتجلّى صوت الهواء وهو يدوّي في الخارج ويلطم الجدران فتصطكّ النوافذ المغلقة. وعاودني القلق والكآبة فقلت مخاطبًا عامر وجدي:

ـ أن تؤمن وأن تعمل فهٰذا هو المثل الأعلى، ألّا تؤمن فذاك طريق آخر اسمه الضياع، أن تؤمن وتعجز عن العمل فهٰذا هو الجحيم.

ـ أجل، إنّك لم تشهد سعد في شيخوخته وهو يتحدّى النفي والموت.

نظرت إلى زهرة، المنفيّة الوحيدة، وهي تجلس مفعمة ثقة وأملًا فغبطتها، بل حسدتها!

***

زرتُ درّيّة بعد مضيّ أسبوع من الزيارة الأولى.

استعاد مسكنها أناقته المعهودة، وتبدّت هي في مظهر لا تعوزه العناية، ولكنّي قرأت في عينيهـا السقم. أجل وحيدة وبلا عمل أو أمل، قلت لها:

ـ أرجو ألّا تضايقك زياراتي.

فقالت بصوت لم أتبيّن فيه معنى:

ـ على الأقلّ فهي تُشعرني بأنّني ما زلت على قيد الحياة.

تقبّض قلبي ألمًا. تخيّلت الحال على حقيقتها الخشنة الجرداء. وددت أن أعرب عن عواطفي ولٰكنّ الماضي عقل لساني. واتّفق رأينا على أنّ في العمل النجاة من السقم ولٰكن كيف؟ إنّها تحمـل ليسـانس آداب في اللغات القديمة ولٰكنّ ثمّة عقبات لا يستهان بها.

ـ لا تحبسي نفسك في البيت.

ـ فكّرت في ذٰلك ولٰكنّي لم أتحرّك بعد.

ـ لو كان في الإمكان أن أزورك كلّ يوم.

ابتسمت. تفكّرت. ثمّ قالت:

ـ يحسن أن نتقابل خارج البيت!

لم أرتح لقولها ولٰكنّي اقتنعت به فقلت:

ـ فكرة مقبولة!

وتمّ اللقاء الثالث في حديقة الحيوان. طالعني وجه الزمان الأوّل عدا نظرة العين. بجماله ورونقه وإن خلا من روح المرح والبهجة. وسرنـا دقـائق إلى جـانب السور المطلّ عـلى طريق الجامعة، طـريق ذكريـات مشتركة لا يمكن أن تُنسى. وقالت:

ـ إنّك تكلّف نفسك ما لا يُطاق.

ـ أنتِ لا تدرين كم أنّي سعيد بذٰلك.

أكان أجدر بي أن أصرّح بالسعادة المزعومة؟ وعدت أقول:

ـ الوحدة يا دريّة، إنّها شرّ ما يبتلي به إنسان.

قلت ذٰلك بنبرة المجرّب، ربّما عن قصد، فقالت:

ـ لم أزر الحديقة منذ أيّام الجامعة!

فقلت دون مبالاة بجملتها الاعتراضيّة:

ـ إنّي وحيد أيضًا، وأعرف مذاق الوحدة.

بـدت كالمحـاصرة. ضايقني ذٰلـك وزاد عـواطفي تعقيدًا والتواءً. ورغم ذٰلك أوشك الفيضان أن يجرف السدّ. وعندما التقت عينانا خيّل إليّ أنّها جفلت. وإذا بها تقول:

ـ يحزنني أنّني أتريّض على حين أنّه. . . هناك.

ولحظت وجومي فتساءلت:

ـ ما لك؟

ـ لا أكاد أتحرّر من الإحساس بالذنب.

ـ أخشى أن تجد في صحبتي مصدرًا للعذاب.

ـ كلّا. ولٰكن ذٰلك الإحساس الجهنّميّ يتغذّى على اليأس.

ـ علينا أن نجد في اللقاء شيئًا من العزاء.

ـ واليأس يدفع للتهوّر، ولأن يداوي المريض الداء بالداء!

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني. . .

تردّدتُ قليلًا ثمّ واصلت:

ـ أعني. . . أن تعذري حماقتي لو قلت لك يـومًا تحت دفعـة تيّار جـارف إنّي أحبّك، كـما أحببتك في زماننا الأوّل.

وأفقت من تهـوّري، أيّ حماقـة، أيّ جنون، مـا أبغي؟ كنت منـدفعًا وراء غـاية محـدّدة. كمن يلقي بنفسه في الماء ليطفئ ملابسه المشتعلة. وقالت بعتاب:

ـ منصورا.

فـتراجعت كمن تلقّى لـطمـة شـديـدة، وقلت بخذلان:

ـ لا أدري ماذا قلت، ولا كيف قلته، ولٰكن ثقي من أنّني لا يمكن أن أسعى للسعادة!.

وقلت لنفسي وأنا أستقلّ الديزل «في الرسائل يجد الإنسان شجاعة أكثر».

* * *

استيقظت على ضوضاء وصخب. . . أهـو صوت يندّ عن الصراع الذي يتلاطم في باطني؟. كلّا. . . هنـاك صراع من نـوع آخـر في البنسيـون. غـادرت حجرتي فرأيت المنظر الأخير من معركة. أدركت من آثارها المطبوعة على الوجوه أنّ سرحان وامرأة غـريبة وزهـرة كـانـوا أبـطالهـا أو ضحـايـاهـا. ولٰكن من المرأة؟. . . وما علاقة زهرة بالأمر كلّه؟

وجاءتني زهرة بالشاي كالعادة، فراحت تقصّ عليّ

الواقعة كما وقعت، باندفاع امرأة وراء سرحان وهو عائد إلى البنسيون، واشتباكها معه في عراك، وكيف جُرّت إلى العراك وهي تخلّص بينهما.

- ولكن مَن المرأة يا زهرة؟

- لا أعرف.

- سمعت من المدام أنّها كانت خطيبة لسرحان؟

تردّدت مليًا ثمّ قالت:

- ربّما.

- ولِمَ انقضّت عليك أنت؟

- قلت إنّي أردت التخليص بينهما.

- ولكن ذٰلك لا يبرّر اشتباكها معك؟

- حصل.

نظرت إليها برقّة ومودّة ثمّ سألتها:

- هل بينك وبين...

لكنّها تجاهلت سؤالي فقلت:

- لا عيب في ذٰلك، وأنا صديق، وباسم الصداقة أسألك.

فأحنت رأسها بالإيجاب.

- إذن فأنت مخطوبة وتخفين عنّي؟

حرّكت رأسها نفيًا فقلت:

- لم تعلن الخطوبة بعد؟

وأقلقني سكوتها فسألت:

- متى تعلن؟

أجابت بثقة:

- كلّ شيء بأوانه.

هجس هاجس الخوف في صدري فقلت:

- لكنّه هجر الأخرى كما رأيت؟

فقالت ببراءة:

- إنّه لا يحبّها.

- فلِمَ خطبها إذن؟

نظرت إليّ بإشفاق ثمّ تشجّعت قائلة:

- لم تكن في الحقيقة خطيبته، إنّها امرأة ساقطة!

- الخيانة هي الخيانة على أيّ حال!

وقع القول من مسمعي موقعًا غريبًا فاجعًا فوجدت له في فمي طعم السمّ وعواقبه. وحنقت على سرحان ضمن حنقي على نفسي فلعنته ألف لعنة.

وعندما جاءتني في نفس الموعد بعد ذٰلك بأيّام قالت لي بروح مرحة عالية:

- أستاذ.... هل أبوح لك بسرّ؟

نظرت إليها مستطلعًا، ومتوقّعًا المزيد عن علاقتها بسرحان ولٰكنّها قالت لي:

- سأتعلّم!.

لم أفهم في الواقع شيئًا وظللت أنظر إليها مستطلعًا. فقالت:

- اتّفقت مع جارتنا ستّ عليّة محمّد المدرّسة على تعليمي. ذُهلت... وهتفت:

- حقًّا؟.

- نعم... اتّفقنا على كلّ شيء....

- شيء رائع يا زهرة، كيف فكّرت في ذٰلك؟

قالت بفخار:

- فكّرت فيه بنفسي...

- نعم... ولٰكن ماذا جعلك تفكّرين فيه؟

- قلت لن أبقى جاهلة إلى الأبد، ثمّ إنّ لي غرضًا آخر!

- غرض آخر؟

- نعم.... سأتعلّم مهنة!

رمقتها بإكبار وسعادة وهتفت:

- رائع... رائع... رائع يا زهرة...

لبثت منفعلًا بالسعادة والإكبار وأنا منفرد بنفسي في الحجرة المغلقة. كان المطر يهطل، وهدير الأمواج يتتابع في دفعات مدوّية متقطّعة راطنًا بلغته المجهولة. ثمّ مضى الانفعال يهدأ وينخفض ويبرد حتّى انداح في مستنقع من ماء آسن يغشاه زبد الكآبة. إنّ الصعود يذكّر بالهبوط، والقوّة بالضعف، والبراءة بالعفن، والأمل باليأس. وللمرّة الثانية لم أجد مَن أصبّ عليه جام غضبي إلّا شخصيّة سرحان البحيري!

* * *

اخترنا مجلسنا تحت شجرة كافور بكازينو الشاطئ. وكانت الشمس المائلة عن السمت تريق علينا شعاعها الدافئ فتذيب برد القاهرة القارص. وقالت وهي تتفادى طيلة الوقت مِن تلاقي عينينا:

- ما كان يجب أن أجيء!

فقلت بطمأنينة:
ـ ولْكنّك جئت فحسم مجيئك التردّد!
ـ لم يحسم شيئًا، ثق من ذٰلك!
نظرت إليها وبي تصميم على القفز إلى الهاوية:
ـ إنّي مقتنع بأنّ مجيئك...
ـ كلّا، المسألة أنّي لم أرضَ أن أبقى وحيدة مع رسائلك.
ـ لا أظنّ أنّ رسائلي تتضمّن جديدًا.
ـ ولْكنّك أرسلتها لشخص لا وجود له!
فلمست يدها المطروحة على المائدة كأنّما لأثبت لها الوجود ولْكنّها سحبتها وهي تقول:
ـ لقد أرسلتها بعد زمانها بأربع سنوات!
ـ إنّها تتضمّن أشياء تُجاوز بطبعها الزمان والمكان!
ـ ألا ترى أنّني ضعيفة وتعيسة!
ـ وأنا كذٰلك، إنّي في رأي أصحابنا جاسوس، وفي رأي نفسي خائن، ولا ملجأ لي إلّا أنت...
ـ أيّ دواء!
ـ لا يبقى غيره إلّا الموت أو الجنون.
نفخت في توتّر معذّب ثمّ تمتمت:
ـ إنّي خائنة من قديم الزمان.
ـ بل كنت مثال الإخلاص الزائف...
ـ تعريف آخر للخيانة التي مزّقتني....
فقلت بغضب:
ـ إنّنا نتمزّق بلا سبب حقيقيّ،وذاك جوهر المأساة...
ونظرنا إلى النيل بلونه الرصاصيّ وأمواجه شبه الساكنة. ثمّ تسلّلت يدي من وراء المائدة إلى يدها فاحتوتها بحنان، وشدّت قليلًا لتُسكت مقاومتها الضعيفة. وهمستُ:
ـ لا يجوز أن نذعن لرواسب غير صحّيّة!
فقالت بحزن:
ـ إنّنا نتدهور معًا بأكثر ممّا تصوّرت.
ـ لكنّنا سنخرج من التجربة كالمعدن النقيّ...
ووجدت رغبة طاغية تدفعني إلى الحضيض كأنّما الحضيض غاية منشودة تُطلب لذاتها، أو كأنّما الجحيم أسمى هدف الإنسان النهم إلى السعادة.

***

التقيت في محطّة مصر بصديق قديم. صحفيّ وذي ميول تقدّميّة ولْكنّه لم يشتغل بالسياسة. جلسنا في البوفيه، أنا في انتظار الديزل وهو في انتظار شخص قادم من القنال. قال:
ـ عليّ أن أشكر هٰذه الفرصة الطيّبة فقد كنت أودّ أن أقابلك...
حسن، ماذا تريد، إنّني لم أره منذ تعييني في الإسكندريّة. وإذا به يسألني:
ـ ماذا يجيء بك إلى القاهرة؟
حدجته بدهشة. أجل... وكان يدرك أنّ سؤاله سيثير دهشتي... فقال:
ـ لتشفع صداقتنا لصراحتي. يقولون إنّك تجيء من أجل مدام فوزي!
لم أنزعج الانزعاج الذي توقّعه، فقد ساورتنا ـ أنا ودرّيّة ـ الشكوك من قبل، فقلت بفتور:
ـ إنّها في حاجة إلى صديق كما تعلم.
ـ وأعلم أيضًا...
فقاطعته باستهانة:
ـ وتعلم أنّني أحبّها من قديم!
فتساءل بإشفاق:
ـ وفوزي؟!
ـ إنّه أعظم ممّا يظنّ الآخرون.
فقال بضيق:
ـ إنّي ـ كصديق ـ غير سعيد بما يقال!
ـ حدّثني عمّا يقال؟
ولْكنّه سكت... فقلت بعصبيّة:
ـ إنّني جاسوس، إنّني هربت في الوقت المناسب، ثمّ تسلّلت إلى بيت الصديق القديم!
ـ لم أقصد إلّا....
ـ وأنت تصدّق ذٰلك!
ـ لا... لا... ولن أسامحك إذا توهّمت ذٰلك...
تساءلت في طريق عودتي إلى الإسكندريّة: هل أستحقّ نعمة الحياة؟. إنّي أبحث عن حلّ لمتناقضات شتّى، حلّ عسير فيما يبدو، فلِمَ لا يكون الموت هو الحلّ الأخير؟ وأردت أن أجلس بعض الوقت في

الترايانون ولْكنّني لمحت من الخارج سرحان البحيري وحسني علّام جالسينِ يتحادثان فعافتهما نفسي وعدلت عن الدخول. كانت سحب متقاربة الألوان تركض بسرعة ملحوظة وهي دانية، والهواء يهبّ في دفعات منعشة. سرت والكورنيش متحدّيًا وقد ارتفع الماء وتطاير رشاشه إلى الطريق. وقلت لو أنّني كنت أملك أشياء ثمينة لحطّمتها. وقلت إنّ التوازن لن يرجع إلى الأشياء إلّا بزلزال شامل.

وجاءتني زهرة بالشاي. قالت لي باعتداد الواثق من اهتمامي بشئونها:

ـ جاء أهلي ليأخذوني ولْكنّني رفضت...

ورغم فتور مشاعري عامّة فإنّ اهتمامي بزهرة لم يمت، فقلت لها:

ـ أحسنت!

ـ حتّى الرجل الطيّب، عامر بك، نصحني بالرجوع إلى القرية...

ـ إنّه يخاف عليك، هٰذا كلّ ما هنالك.

فرمقتني بإمعان ثمّ قالت:

ـ ولْكنّك لا تبتسم كعادتك!

ابتسمت إليها بلا روح فقالت:

ـ أنا فاهمة!

ـ فاهمة؟

ـ نعم، سفرك كلّ أسبوع وانشغال بالك؟

ضحكت على رغمي فقالت بسعادة:

ـ أتمنّى أن أشهد فرحك!

ـ ربّنا يسمع منك يا زهرة...

وتمّ التفاهم على ضوء نظرة متبادلة. وأشارت بيدها كأنّما تدعوني إلى المرح فقلت:

ـ هناك شخص ينغّص عليّ صفوي...

ـ مَن هو؟

ـ شخص خان دينه!

فحرّكت يدها مستنكرة.

ـ وخان صديقه وأستاذه!

واصلت حركتها الاستنكاريّة فسألتها:

ـ هل يغفر له الذنب أنّه يحبّ؟

فقالت مستفظعة:

ـ حبّ الخائن نجس مثله!

* * *

انغمست في العمل. وكلّما اضطربت أعصابي أو تشتّت فكري سافرت إلى القاهرة. هنالك سعادة الحبّ. ولْكن أيّ سعادة؟ لقد سعدت حقًّا عندما كفّت عن المقاومة فتركت يدها في يدي. ولْكنّي عانيت بعد ذٰلك شعورًا محمومًا قلقًا، وسيطرت عليّ فكرة غريبة وهي أنّ الحبّ طريق الموت، وأنّني بالإفراط في كلّ شيء قد أبلغ نهاية الطريق. وقلت لها مرّة:

ـ أحببتك من قديم، إنّك تذكرين ذٰلك، ثمّ فوجئت بخطوبتك!

فقالت بحزن:

ـ إنّك تبدو متردّدًا فيسهل إساءة فهمك.

ثمّ قالت بنبرات اعتراف:

ـ قبلت فوزي تأثّرًا بشخصيّته، إنّه كما تعلم يستحقّ كلّ إكبار...

وكان يجلس حولنا كثيرون من العشّاق فسألتها:

ـ هل نحن سعداء؟

فحدجتني باستغراب وقالت:

ـ يا له من سؤال يا منصور!

ـ أعني ربّما ساءك أنّني جعلت منك حديث المجالس!

ـ لا يهمّني ذٰلك أمّا فوزي...

أرادت بلا شكّ أن تردّد ما قلته مرّات عن سعة إدراكه وكبر قلبه ولْكنّها سكتت. وكرهت إدارة الأسطوانة من جديد. وإذا بي أسألها:

ـ درّيّة هل داخلك الشكّ فيّ كالآخرين؟

قطّبت في استياء لأنّها حذّرتني أكثر من مرّة من طرق ذٰلك الموضوع ولْكنّي قلت برغبة ملحّة:

ـ لو فعلتِ لكان أمرًا طبيعيًّا!

تحوّلت إليّ محتجّة وسألت:

ـ لِمَ تنبش عن العذاب؟

تراجعتُ باسمًا وأنا أقول:

ـ طالما أسأل نفسي عمّا دعاك للخروج عن الإجماع؟

فقالت بضجر:

ـ الحقّ أنّه ليس لكَ طبيعة الخَوَنة!

ـ وما طبيعة الخونة؟ إنّي ضعيف، إذعاني لأخي ضعف لا شكّ فيه، وإنّي أرشّح الضعفاء للخيانة. . .

تناولت يدي بين يديها وقالت برجاء:

ـ لا تعذّب نفسك. . . لا تعذّبنا. . .

وقلت لنفسي إنّها لا تدري أنّها أداة من أدوات التعذيب!

***

دخلت المدام حجرتي فأيقنت من أنّي سأسمع أنباء. إنّها تطير بالأخبار ـ كفراشة ـ من ناحية إلى أخرى. حسن. أما سمعت يا مسيو منصور؟! محمود أبو العبّاس بيّاع الجرائد خطب زهرة، ولكنّها رفضته!

ـ هو الجنون نفسه يا مسيو منصور!

فقلت ببساطة:

ـ إنّها لا تحبّه يا مدام. . .

ـ قلبها سائر في طريق خاطئ!

وغمزت بعينها. وقلت لنفسي الويل له إذا غدر بها. وتملّكتني بغتة فكرة غريبة، أو رغبة منحرفة، وهي أن يغدر بها لأنزل به العقاب الذي يستحقّه!

ومالت نحوي هامسة:

ـ انصحها من فضلك، ستعمل برأيك،. . . إنّها تحبّك. . .

وأثارني فعل الحبّ فبذلت أقصى جهدي لكي أكظم غضبي.

***

ـ إنّها من أصل طيّب. شبه أرستقراطيّ، ولكنّها لم تعد قدّيسة. للعمل ظروفه القهريّة كما تعلم، ولولاي لأخليت شقّتها وصودرت أموالها. . .

***

الريح تسفع النوافذ بوابل المطر. هدير الأمواج يقتحم أعماقي. لم أشعر بدخول زهرة حتّى وضعت قدح الشاي على الترابيزة أمامي. رحّبت بها لتنتشلني من أفكاري السوداء. تبادلنا ابتسامة. قدّمت لها قطعة البسكوت. وقلت ضاحكًا:

ـ ها هو ثاني عريس ترفضينه!

رمقتني بحذر فواصلت قائلًا:

ـ أتريدين رأيي يا زهرة؟ إنّي أفضّل محمود على سرحان!

فقطّبت قائلة:

ـ لأنّك لا تعرفه. . .

ـ وهل عرفت الآخر كما يجب؟

فقالت بحدّة:

ـ لا أحد يصدّق أنّني كفء له!

ـ قولي ذلك لغير أصدقائك!

ـ إنّه لا يفرّق بين المرأة وبين الحذاء!

وضحكت فقصّت عليّ نادرة من تصرّفاته وآرائه، فقلت:

ـ إنّك تستطيعين أن تردّي له التحيّة بأحسن منها. . .

ولكنّها تحبّ سرحان، وستظلّ تحبّه حتّى يتزوّج بها أو يغدر بها. وقلت:

ـ زهرة. . . إنّي أحترم رأيك وفعلك، بودّي أن أهنّئك في القريب!

***

تخلّفت عن السفر إلى القاهرة لإنجاز أعمال عاجلة وهامّة. اتّصلت بي درّيّة بالتليفون مستغيثة من وحدتها المضنية. ولمّا تلاقينا في الأسبوع التالي قالت لي بعصبيّة:

ـ جاء دوري لمطاردتك!

فقبّلت يدها؛ ونحن نستقلّ بحجرة منفردة بفلوريدا، ثمّ أوجزت لها أخباري المتضمّنة عذري. وكانت قلقة متوتّرة الأعصاب فأكثرت من التدخين. ولم أكن على حال أحسن. وقلت لها:

ـ كنت أدفن نفسي في العمل ولكنّي أطفو رغم إرادتي ويهمس لي صوت غريب بأنّ ثمّة خطأ في العمل، أو أنّ أمرًا هامًّا فاتني تدبّره، وكثيرًا ما أكتشف أنّني نسيت شيئًا ضروريًّا في البنسيون أو في المكتب. . .

فقالت بلهفة:

ـ ولكنّني وحيدة، ولم أعد أحتمل وحدتي. . .

ـ نحن في دوّامة، ولا نحرّك يدًا لحلّ مشكلتنا. . .

ـ والعمل؟

تفكّرت قليلًا. مطاوعًا المنطق وحده. ولكن أيّ

منطق؟ لا منطق لمن تعتصره الانفعالات. كأنّما كنت أنقّب عن تحدّيات جديدة. قلت:

ـ لو سألنا العقل لأجاب بأنّ علينا أن نفترق أو أن نسعى إلى الطلاق!

اتّسعت عيناها الرماديّتان في فزع، ربّما لاستجابتها لا لنفورها. وهتفت:

ـ الطلاق!

فقلت بهدوء:

ـ ثمّ نبدأ حياة جديدة...

ـ تصرّف خارق!

ـ لكنّه طبيعيّ، وأخلاقيّ إن شئت...

أسندت رأسها إلى يدها ثمّ سكتت معلنة إفلاسها، فقلت:

ـ ألم أقل إنّنا لا نحرّك يدًا؟

ثمّ بعد فترة صمت:

ـ خبّريني عن فوزي لو كان مكاني؟

فقالت بصوت متهافت:

ـ أنت تعلم أنّه يحبّني...

ـ ولكنّه لن يُبقي عليك إذا علم أنّك تحبّينني...

ـ ألا يتّسم تفكيرك بطابع نظريّ جدًّا؟

ـ ولكنّي أعرف فوزي، وهٰذا واقع!

ـ تصوّر... تصوّر أن يقول...

ـ إنّك تخلّيت عنه وهو في السجن، أليس كذٰلك؟ لا قيمة لذٰلك تتخلّين عنه لا عن مبادئه...

تخيّلتُه وهو مستلقٍ على الكنبة الإستديو، يرمقني بعينيه اللوزيّتين السوداوين، يدخّن غليونه، يعالج همومًا لا حصر لها ولٰكنّه لا يشكّ في سعادته الزوجيّة! وسألتني:

ـ فيمَ تفكّر؟

فقلت:

ـ إنّ الحياة الحقّة لا تجود بنفسها إلّا للأكفاء...

ثمّ تناولت يدها وأنا أقول:

ـ لنشرب كأسين ولنكفّ عن التفكير...

***

غبت عمّا حولي. صهرني الغضب. مذ علمت بتهجّم حسني علّام على زهرة صهرني الغضب. كان يجلس معي في المدخل عامر وجدي والمدام ولٰكنّي لم أسمع من حديثهما إلّا وشًا. وعلمت أيضًا بمشاجرة سرحان وحسني فتمنّيت لو أنّها استمرّت حتّى الموت، الموت لكليهما. تمنّيت أيضًا أن أؤدّب حسني ولٰكن لم يداخلني شكّ في قدرته على سحقي فكرهته حتّى الجنون. وغادرت المدام المكان فنبّهتني إلى ما حولي. نظرت إلى عامر وجدي فرأيته يرنو إليّ باهتمام ومحبّة فتخفّفت من انفعالات القتال المحتدمة في صدري. وتلقّيت فكرة عجيبة بأنّ الرجل العجوز كان صديقًا حميمًا لأبي أو لجدّي. وراح يسألني عن أحلامي فقلت باقتضاب:

ـ يخيّل إليّ أنّه لا مستقبل لي...

فابتسم ابتسامة مجرّب لكلّ شيء، وكأنّما مرّ به سخطي مرّات بشتّى الصور، ثمّ قال:

ـ الشباب عدوّ الرضى، هٰذا كلّ ما هنالك.

ـ لقد استغرقني الماضي فبتّ أعتقد أنّه لا يوجد مستقبل!

قال بجدّيّة وقد زايل الابتسام وجهه:

ـ ثمّة صدمة، عثرة، سوء حظّ، ولٰكنّك تستحقّ الحياة بكلّ جدارة...

كرهت أن أناقش معه همومي، حتّى المشروع منها، فتساءلت متهرّبًا:

ـ ماذا عن أحلامك أنت يا أستاذ؟

ضحك طويلًا ثمّ قال:

ـ نوم الشيوخ يقلّ للدرجة التي تنعدم فيها الأحلام، غير أنّي أتمنّى ميتة رفيقة.

ـ إذن فالموت أنواع؟

ـ ما أسعد الرجل الذي نام عقب سهرة طيّبة ثمّ لم يصح إلى الأبد!

فسألته مأخوذًا بلذّة محادثته:

ـ أتعتقد أنّك ستُبعث ذات يوم؟

ضحك مرّة أخرى وقال:

ـ أجل، إذا جمعت براجحك في كتاب!

***

يعجبني جوّ الإسكندريّة... لا في صفائه وإشعاعاته الذهبيّة الدافئة... ولٰكن في غضباته

الموسميّة... عندما تتراكم السحب وتنعقد جبال الغيوم... ويكتسي لون الصباح المشرق بدكنة المغيب... ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مريب... ثمّ تتهادى دفقة هواء فتجوب الفراغ كنذير أو كنحنحة الخطيب... عند ذاك يتهايل غصن أو ينحسر ذيل... وتتتابع الدفقات ثمّ تنقضّ الرياح ثملة بالجنون... ويدوّي عزيفها في الآفاق... ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتّى حافة الطريق... ويجعجع الرعد حاملًا نشوات فائرة من عالم مجهول... وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب... وينهلّ المطر في هَوَس فيضمّ الأرض والسماء في عناق نديّ... عند ذاك تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم أخلاطها كأنّما يعاد الخلق من جديد...

وعند ذاك فقط يجلو الصفاء ويطيب... إذا انقشعت الظلمات... وأسفرت الإسكندريّة عن وجه مغسول... وخضرة يانعة. وطرقات متألّقة. ونسائم نقيّة. وشعاع دافئ. وصحوة ناعمة...

عايشت العاصفة من وراء الزجاج... حتّى نعمت بالصفاء. شيء حدّثني بأنّ تلك الدراما إنّما تحكي أسطورة مطمورة في قلبي... وتخطّ طريقًا ما زال غامض الهدف... أو تضرب موعدًا في غمغمة لم تُفهم بعد.

دقّت الساعة الكبيرة فوضعت أصبعي في أذني حتّى لا أعرف الوقت. ثمّ ترامت إليّ أصوات غريبة. استمرّت في إصرار وارتفعت. مشاحنة؟... شجار؟ إنّ الأحداث التي تقع في البنسيون تكفي قارّة بأكملها. وحدسَ قلبي بأنّ زهرة محورها كالعادة. وفتح باب بعنف فوضحت الأصوات تمامًا. زهرة وسرحان! وَثَبتُ إلى الباب ففتحته. رأيتهما في الصالة وجهًا لوجه كديكين والمدام تحول بينهما. وكان سرحان يصرخ في غضب هادر:

ـ أنا حرّ... أتزوّج بمن أشاء... سأتزوّج من عليّة!

زهرة غاضبة كبركان، عزّ عليها أن يعبث بها، أن تنهار آمالها ثمّ ترتدّ وهي الخاسرة. إذن قد نال أربه ويريد أن يولي وجهة أخرى. اقتربت منه ثمّ أخذته من يده عائدًا إلى حجرتي. كان ممزّق البيجاما في أكثر من موضع، دامي الشفتين. وراح يصيح:

ـ شرّيرة متوحّشة!

فطالبته بالهدوء ولكنّه تمادى في الغضب وهو يقول:

ـ تصوّر... تريد حضرتها أن تتزوّج منّي!

فعدت أنصحه بالهدوء فصاح:

ـ مجنونة فاجرة!

وضقت به فسألته:

ـ لِمَ أرادت أن تتزوّج منك؟

ـ اسألها... اسألها...

ـ إنّي أسألك أنت...

نظر إليّ لأوّل مرّة في انتباه فقلت:

ـ لا بدّ من سبب يبرّر طلبها؟

تحوّل الانتباه في عينيه إلى حذر ثمّ سألني:

ـ ماذا تعني؟

فقلت بغضب:

ـ أعني أنّك وغد...

ـ أستاذ!

فبصقت في وجهه وأنا أصرخ:

ـ على وجهك، ووجه كلّ وغد، وكلّ خائن...

وسرعان ما اشتبكنا في عراك عنيف. بيد أنّ المدام اقتحمت الحجرة قبل أن يستفحل الضرب.

دخلت بيننا وهي تقول:

ـ من فضلكم، لقد ضقت بذلك كلّه. سوّوا خلافاتكم في الخارج لا في بيتي!

وذهبت به خارج الحجرة.

***

مظلم الرأس، مثقل القلب. مشتّت الفكر، هكذا ذهبت إلى دار الإذاعة. ولمّا دخلت حجرتي رأيت امرأة جالسة أمام مكتبي، امرأة؟! درّيّة! أجل درّيّة دون غيرها. عقلت الدهشة لساني، تسمّرت أمامها لحظات، ثمّ انجابت الظلمات عن رأسي فهتفت:

ـ درّيّة!

وابتسمت. يجب أن أبتسم. بل يجب أن أتهلّل.

وأخذت يدها بين يديّ فضغطت عليها بحنوّ. واجتاحتني عاطفة ثريّة بالفرح، اكتسحت القلق والمخاوف التي تنهش قلبي. وقلت:

ـ يا لها من مفاجأة! أيّ سعادة يا درّيّة!

قالت وهي تطالعني بوجه شاحب:

ـ كان يمكن أن أنتظر يومين حتّى نلتقي ولٰكنّني لم أستطع الانتظار، واتّصلت بك تلفونيًّا فلم أجدك!

وساورني قلق لم أعرف كنهه. جئت بكرسيّ فجلست قبالتها وأنا أقول:

ـ ليكن خيرًا ما جاء بك يا درّيّة...

قالت وهي تغضّ البصر:

ـ بلغتني رسالة من فوزي عن طريق صحفيّ صديق...

خفق قلبي. إنّه الصحفيّ الصديق. لا خير هناك على وجه اليقين. قالت:

ـ إنّه يمنحني الحرّيّة للتصرّف في مستقبلي كما أشاء!

اشتدّ خفقان قلبي. وضح الأمر بحذافيره ولٰكنّي صمّمت على تقطيره نقطة نقطة. والعجب أنّ الاضطراب شملني لدرجة لم أنعم فيها بأيّ شعور مريح أو سعيد. بل خيّل إليّ أنّني غير سعيد. وسألت بعناد:

ـ ماذا يعني؟

ـ واضح أنّه علم بأمرنا!

ـ ولٰكن كيف؟

ـ بأيّ طريق كان، ليس ذٰلك بالمهمّ!

تبادلنا نظرًا حائرًا. شعرت بأنّني أكبّل بالحديد. وقلت لنفسي كان يجب أن أحظى بقدر من السعادة أو الارتياح، فماذا جرى؟ وسألتُ:

ـ ترى هل غضب؟

فقالت بعصبيّة:

ـ لقد تصرّف على أيّ حال كما توقّعت أنت!

أحنيت رأسي في تسليم ذاهل، فقالت:

ـ عليك الآن أن تمدّني برأيك؟!

أجل، لا يبقى إلّا أن أعطيها إشارة البدء. أن تمضي الإجراءات في سبيلها. أن أبني عشّ الزوجيّة كما اقترحت وتمنّيت. ها هو الحلم يستأذنني ليتسرّب إلى عالم الحقيقة. ولٰكنّني غير سعيد. يجب أن أكون صريحًا مع نفسي، بل أبعد ما يكون عن السعادة! إنّي قلق وخائف. وليس ما بي شعور بالندم أو الخجل. إنّه ملتصق بذاتي دون غيري، ملكي الشخصيّ، وإذا لم أكن في موقف دفاع عن سعادتي ففي أيّ موقف أكون؟

وقالت بنبرة لا تخلو من استياء:

ـ كلّما فكّرت وأمسكت عن الجواب، أشعرتني بأنّني منبوذة في وحدة قاتلة!

ولٰكنّي كنت في حاجة إلى المزيد من التدبّر. وكان الخوف والقلق قد بلغا بي مبلغًا لم أعد أكترث فيه لعواطفها أو حتّى مجاملتها. أفقت من سحرها كأنّ هراوة صكّت رأسي. تحرّرت من سيطرتها. وارتفعتْ في باطني المضطرب القلق المذعور موجة سوداء من النفور والتمرّد والقسوة. لم أجد لذٰلك تفسيرًا إلّا يكن الجنون نفسه.

وتساءلت هي بحدّة:

ـ لم لا تتكلّم؟

قلت بهدوء مخيف:

ـ درّيّة... لا تقبلي هبته الكريمة!

حملقت في وجهي. حملقت في وجهي ذابلة غير مصدّقة تعيسة غاضبة، فقلت ممعنًا في وحشيّتي:

ـ افعلي ذٰلك بلا تردّد!

ـ أنت تقول ذٰلك؟!

ـ نعم...

ـ إنّه لمضحك، إنّه لمُبْكٍ، إنّي لا أفهم شيئًا...

فقلت بيأس:

ـ فلنؤجّل الفهم إلى حين...

ـ لا يمكن أن تدعني بلا تفسير!

ـ لا أملك أيّ تفسير...

انبثق شعاع غضب من أعماق عينيها الرماديّتين وقالت:

ـ إنّك تجعلني أشكّ في عقلك!

ـ اعتقد أنّني أستحقّ ذٰلك!

فصاحت بحنق:

ـ أكنت تعبث بي طيلة الوقت؟

ـ درّيّة!

ـ صارحني. . . أكنت تكذب عليّ؟

ـ أبدًا. . .

ـ إذن هل مات حبّك فجأة؟

ـ أبدًا. . . أبدًا. . .

ـ إنّك تصرّ على العبث بي!

ـ ليس عندي ما أقوله، إنّي أكره نفسي، هذا ما يجب أن أصارحك به، وعليك ألّا تقتربي من رجل يكره نفسه. . .

عكست عيناها المحملقتان هبوطًا في قواها الداخليّة. ثمّ انتزعت بصرها من وجهي بازدراء وحنق. ولبثت فترة صامتة كأنّما لا تدري ماذا تصنع بنفسها. ثمّ تمتمت وكأنّما تحادث نفسها:

ـ إنّي حمقاء، وعليّ أن أدفع ثمن حماقتي. لم تُشعرني بالثقة قطّ، ولا الأمان، كيف تجاهلت ذلك؟ لقد دُسْتَني في اندفاعك المجنون، أجل إنّك مجنون. . .

تخشّعت كطفل مذنب مطيع. ولُذْتُ بالصمت كذريعة أخيرة لإنهاء الموقف المعذّب. تجنّبت النظر نحوها. تجاهلت وقع عينيها. صوت أصابعها فوق حافة المكتب. نَفْخها المضطرم، تحوّلتُ إلى جثّة هامدة. . .

وجاءني صوتها متهافتًا:

ـ أليس لديك ما تقول؟

فثابرت على الموت. قامت بشيء من العنف فقمت بدوري. غادرت المكان فتبعتها حتّى بلغنا الطريق. وعبرناه معًا. ثمّ أوسعت خطاها معلنة رفضها لمرافقتي فتوقّفتُ. أتبعتها عينيّ كمن ينظر في حلم. وتضخّم الحلم وامتدّ رواقه، وتراجع الواقع حتّى توارى وراء الأفق. رنوت إلى مشيتها المألوفة المحبوبة بغرابة، وبحزن، وحتّى تلك اللحظة الجنونيّة لم يغب عنّي أنّ ذاك الكائن المخلخل المقهور الذي يختفي رويدًا في تيّار السابلة، لم يغب عنّي أنّه حبّي الأوّل وربّما الأخير في هٰذه الدنيا. وباختفائها هويت إلى الحضيض. ورغم شقائي المؤكّد فقد داخلني ارتياح غامض غريب.

***

البحر يترامى تحت سطح أملس باسم الزرقة فأين العاصفة الهوجاء؟ والشمس تهوي إلى المغيب مرسلة شعاعًا ماسيًّا يلتحم بأهداب سحائب رقيقة فأين جبال الغيوم؟ والهواء يلاعب سعف النخيل في غابة السلسلة بمداعبات شفّافة رقيقة فأين الرياح الموج المزلزلة؟

ونظرت إلى وجه زهرة الشاحب، ودموعها الجافّة على الوجنتين. ونظرتها الكسيرة الذابلة، فخيّل إليّ أنّني أنظر في مرآة، وأنّ الحياة تطالعني بفطرتها الخشنة الفظّة الرهيبة، بإمكانيّاتها المجرّدة، بصمودها الصلب المغطّى بالأشواك، بآمالها الخبيثة في قوقعة مسمومة الأطراف، بروحها الأبديّة التي تجذب إليها المغامرين واليائسين فتُقدِّم لكلّ غذاءه. لقد سلبت الشرف وهجرت بلا كبرياء. أجل إنّي أنظر في مرآة.

رمقتني بتحذير وقالت:

ـ لا لوم ولا عتاب من فضلك.

فقلت بحزن:

ـ سمعًا وطاعة.

لم أكن أفقت بعد من تجربة درّيّة المريرة، ولا وجدت الوقت الهادئ لتحليلها وفهمها. ولٰكنّي كنت ممتلئًا بها حتّى الجنون. وكنت على يقين من أنّ العاصفة آتية لا ريب فيها. وأنّ ثمّة ذروة للمأساة لم أبلغها بعد. وكان من المستحيل أن أبقى صامتًا فقلت مواسيًا:

ـ قد يكون الخير فيما حصل. . .

لم تنبس. . . فسألتها:

ـ ماذا عن المستقبل؟

تمتمت بلا روح:

ـ إنّي أحيا كما ترى. . .

ـ وأحلامك يا زهرة؟

ـ سأستمرّ. . .

قالتها بعناد وإصرار ولٰكن أين الروح؟ قلت:

ـ سيذهب الحزن كأن لم يكن، وسوف تتزوّجين وتنجبين أطفالًا. . .

قالت بمرارة:

ـ خير ما أفعل أن أتجنّب جنس الرجال. . .

ضحكتُ. أوّل ضحكة منذ دهر. إنّها لا تدري

بالدوّامة التي تعصف بي. ولا بالجنون الذي يتربّص بي.

وخطرت لي فكرة، أخطرت فجأة وبلا مقدّمات؟ كلّا لا شكّ أنّ لها جذورًا مطمورة لم أفطن لها. إنّها جنونيّة ولذلك فهي مغرية. فكرة غريبة باهرة وأصيلة. وغير بعيد أن تكون هي ما أبحث عنه. أن تكون البلسم لالتهاباتي المزمنة. نظرت إليها بحنان، وقلت:

ـ زهرة، لن تطيب لي الحياة وأنت حزينة...

اغتصبت من شفتيها ابتسامة شكر فقلت وموجة الحماس ترتفع بي درجة جديدة:

ـ زهرة... اطردي الأحزان... كوني كما كنت دائمًا. خبّريني متى أرى ابتسامة السعادة على شفتيك!

ابتسمت برأس حانٍ. ارتفعت موجة الحماس درجة جديدة. ها هي الفتاة المنفيّة الوحيدة المهجورة المسلوبة الشرف. وقلت بانفعال غريب:

ـ زهرة... لعلّك تجهلين كم أنّك عزيزة عندي... زهرة... اقبليني زوجًا لك!

التفتت نحوي بحركة سريعة. ذاهلة وغير مصدّقة. انفرجت شفتاها لتتكلّم ولكنّها لم تنبس بحرف.

قلت وأنا واقع تحت سيطرة انفعالي الغريب:

ـ اقبليني يا زهرة... إنّي أعني ما أقول!

قالت ولمّا تُفِق من دهشتها:

ـ لا...

ـ فلنتزوّج في أقرب فرصة...

تحرّكت أصابعها القويّة بعصبيّة وهي تقول:

ـ إنّك تحبّ واحدة أخرى!

ـ لم يكن هناك حبّ، إنّها حكاية اختلقها خيالك، فأسمعيني جوابك يا زهرة!

تنهّدت... تنهّدت وهي ترمقني في ارتياب وقالت:

ـ أنت كريم نبيل، وعطفك يدفعك في طريقه بلا تفكير، كلّا، لن أقبل ذلك، وأنت لا تعنيه، كلّا، لا تَعُد إلى ذلك...

ـ إذن ترفضينني يا زهرة؟

ـ إنّي أشكرك، ولكن ليس هناك طلب حتّى أرفضه أو أقبله...

ـ صدّقيني، أقسم لك، امنحيني وعدًا...

أملًا... وسأنتظر!

قالت بإصرار ودون أن تأخذ كلامي مأخذ التصديق الحقيقيّ:

ـ كلّا، إنّي أشكر عطفك وأقدّره، ولكنّني لا أستطيع أن أقبله، عُدْ إلى فتاتك، إن كان هناك خطأ فلا شكّ أنّها هي المخطئة ولكنّك ستسامحها...

ـ زهرة... صدّقيني...

ـ كلّا... لا تعد إلى ذلك من فضلك.

قالتها بإصرار رهيب، ثمّ تبدّى الإعياء في أعماق عينيها، وكأنّما ضاقت بالموقف كلّه فشكرتني بإيماءة وهي تمضي خارجًا بتصميم قاطع.

ارتددت إلى الفراغ. نظرت فيما حولي كأنّما أبحث عن غوث. متى يقع الزلزال؟ متى تهبّ العاصفة؟ وماذا قلت؟ كيف قلته؟ ولِمَ؟ أيوجد شخص آخر يتّخذ منّي وسيطًا له كلّما شاء هواه؟ وكيف يمكن أن أضع حدًّا لذلك كلّه؟

***

كيف يمكن أن أضع حدًّا لذلك كلّه؟

كرّرت السؤال وأنا أغادر الحجرة بجنوني. رأيت في الصالة سرحان البحيري وهو يتكلّم في التليفون، ولمحت حقيبته وراء الباب مؤذنة برحيله الأبديّ. نظرت إلى مؤخّر رأسه المائل إلى سمّاعة التليفون بمقت. كأنّما أنظر إلى عدوّ لدود وراثيّ. إنّه يملأ حياتي أكثر ممّا تصوّرت. وإذا اختفى حقًّا إلى الأبد فماذا أصنع بحياتي؟ وكيف أعثر عليه مرّة أخرى؟ إنّه يشدّني إليه شدًّا. كالنور والفراشة. إنّه الجرعة السامّة التي قد أتداوى بها.

وارتفع صوته الرنّان وهو يقول للتليفون:

ـ طيّب... الساعة الثامنة مساء... سأنتظرك في كازينو البجعة!

إنّه يضرب لي موعدًا. وربّما يحدّد لي هدفًا. إنّه يدعو جنوني إلى الرقص. صوته الرنّان يغريني بالانتحار. إنّه يأمرني بأن أتبعه. وسيمنّ عليّ بانتشالي من الفراغ.

تراجعت إلى حجرتي خشية أن أندفع مع عواطفي الجامحة. ولمّا غادرت البنسيون لم يكن بـه أثـر لسرحان.

ذهبت إلى أثنيوس. فكّرت أن أكتب رسالة إلى درّيّة ولكنّ الجنون عصف برغبتي كما عصف بعقلي.

واتّخذت مجلسي في ركن البهو الداخليّ بكازينو البجعة. كمن قرّر الهجرة فودّع المدينة وهمومها جميعًا. وجدت شيئًا من الراحة وشيئًا من صفاء الذهن. توارى الركن وراء موائد مشغولة برجال ونساء. وطلبت كأسًا من الكونياك ثمّ أتبعتها بأخرى وعيناي مصوّبتان نحو المدخل. وقبيل الثامنة بربع ساعة جاء البطل المنشود. جاء يتقدّمه طلبة مرزوق! أكان هو الشخص الذي كلّمه في التليفون؟ ومتى جمعت بينهما هذه الصداقة الطارئة؟ جلسنا على مبعدة عشر موائد من مجلسي، وجاءهما الجرسون بكونياك كذلك. وتذكّرت أنّني وافقت صباحًا ـ على مائدة الإفطار ـ على اقتراح لطلبة مرزوق بأن نمضي سهرة رأس السنة في المونسنيير! أجل وعدت بالاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة. ومضيت أنظر إليهما من وراء وهما يشربان ويتبادلان الحديث والضحك.

***

حرصت على ألّا يراني ولكنّه لمحني في المرآة. تجاهلته ومضيت وأنا ألعن سوء الحظّ. كانت الطريق خالية تمامًا وكنت أسمع أطيط حذائه ورائي. وأبطأت في السير حتّى أوشك أن يدركني وكنّا أوغلنا في الطريق الخالية، وحاذاني وهو يرمقني بارتياب، وتباطأ في السير حتّى لا يعرض لي ظهره بلا دفاع، وقال:

ـ إنّك تتبعني... لقد رأيتك من البداية!

فقلت ببرود:

ـ نعم...

ازداد حذرًا وهو يتساءل:

ـ لماذا؟

نزعت المقصّ من معطفي وأنا أقول:

ـ لأقتلك...

تحجّرت عيناه على المقصّ وهو يقول:

ـ أنت مجنون بلا شكّ...

وتوثّب كلانا سواء للهجوم أو للدفاع، ومضى يقول:

ـ لست بوليّ أمرها!...

ـ ليس من أجل زهرة... ليس من أجل زهرة فقط...

ـ إذن لماذا؟

ـ لا حياة لي إلّا بقتلك!

ـ ولكنّك ستُقتل أيضًا، أنسيت!

فاجتاحني شعور المهاجر الذي ودّع المدينة بكافّة همومها، وثملت به. وإذا به يسألني:

ـ كيف عرفت مكاني؟

ـ سمعتك في البنسيون وأنت تتكلّم في التليفون.

ـ وعزمت عند ذاك على قتلي؟

ـ أجل.

ـ ألم تعزم على ذلك من قبل؟

ذهلت، لم أجب، ولكنّي لم أتراجع.

ـ إنّك في الواقع لا تريد قتلي!

ـ بل أريده وسأقتلك...

ـ هبك لم ترني ولم تسمعني في تلك اللحظة!

ـ ولكنّي رأيتك وسمعتك... وسأقتلك.

ـ ولكن لماذا؟

ذهلت مرّة أخرى ولكن تأكّدت نيّتي على القتل ورسخت إلى الأبد. وصحت به:

ـ لذلك أقتلك، خذ... خذ...

***

ترامت إليّ ضحكة سرحان وهو يحادث طلبة مرزوق. وأكثر من مرّة غادر مكانه ثمّ رجع إليه.

لعنت طلبة مرزوق وقلت إنّ مجيئه قد أفسد كلّ شيء. غير أنّه قام بعد مضيّ ساعة أو نحوها فصافح سرحان مودّعًا وذهب. بقي سرحان وحده فتلهّفت على اللحظة التي يمّحي فيها العذاب. وواصل الشراب ولكنّه كان يتلفّت كثيرًا نحو مدخل المكان. ووضح في لفتاته التوتّر والقلق. أينتظر شخصًا آخر؟ هل يجيء الآخر فيضيّع الفرصة إلى الأبد؟

ودعاه الجرسون إلى التليفون فمضى مسرعًا ملهوفًا. غاب بعض الوقت ثمّ رجع إلى مجلسه واجمًا متجهّمًا.

رجع في الحقيقة متهدّمًا ماذا حدث؟ لم يجلس، دفع حسابه ثمّ غادر المكان. راقبته من الزجاج الفاصل بين البهو والداخل فرأيته متّجهًا نحو البار، ربّما لمزيد من الشراب. تربّصت به حتّى فارق مكانه ماضيًا نحو الباب الخارجيّ فغادرت مجلسي في هدوء وتمهّل. ولدى خروجي كان قد عبر الطريق. أحكمت المعطف حولي اتّقاء لهواء خفيف ولكن لاسع كالسياط. الطريق خالٍ تمامًا، وأضواء المصابيح متلفّعة بهالات من الضباب، وهسيس النبات على الجانبين يخرق الصمت الشامل. سرت حذرًا، أكاد ألاصق الجدران، ولكنّه بدا غائبًا في أفكاره ذاهلًا عمّا حوله منهمكًا بكلّيّته في عالم وحده، حتّى إنّه نسي المعطف مطروحًا على ذراعه. ماذا حصل؟ لقد ظلّ طيلة الوقت يتحدّث ويضحك فماذا قلبه؟ أمّا أنا فقد تركّزت في فكرة واحدة كأنّما هي وجه الخلاص الوحيد لي. وإذا به يميل إلى الطريق الزراعيّ الموصل للبالما. طريق خالٍ ومظلم، مهجور تمامًا في تلك الساعة، ماذا يروم منه؟ وأيّ قضاء يتصرّف كأنّما ليسلّم عنقه بين يديّ؟! أسرعت قليلًا حتّى لا أضلّه وأنا ألامس سياج الحدائق، وقد غرقنا معًا في الظلام. وجعلت أتوثّب وأنا أتابع شبحه، ولكنّه توقّف فجأة فوقفت عن التقدّم وأنا أرتعد. سيقع شيء ما. ربّما جاء شخص غريب، عليّ أن أنتظر. وإذا بصوت يندّ عنه كلمة... إشارة صوتيّة. قيء! وتحرّك ببطء مسافة قصيرة ثمّ سقط على الأرض. سكران مخمور. لقد شرب فوق طاقته وها هو يفقد الوعي. وانتظرت وأنا أرهف السمع ولكن لم يقع شيء. اقتربت منه حتّى كدت أعثر به. انحنيت فوقه، أردت أن أناديه ولكنّ صوتي انحبس. لمست جسمه ووجهه فلم يستجب، غرق تمامًا في غيبوبة الخمر، وسوف يفارق العالم بلا ألم أو خوف، كما يتمنّى عامر وجدي العجوز. هززته برفق فلم ينتبه، هززته بشيء من الشدّة فلم ينتبه أيضًا، حرّكته بعنف فلم تبدر منه بادرة أمل في إفاقة. انتصبت قامتي في حنق. دسست يدي لأستخرج المقصّ ولكنّي لم أجد له أثرًا. فتّشت عنه في جميع مظانّه عبثًا. أسهى عليّ أن آخذه! كنت مضطربًا، متأزّمًا، يائسًا، ثمّ جاءت المدام لتستطلع رأيي في سهرة رأس السنة. أجل، لقد غادرت الحجرة دون أن أحقّق الغرض الوحيد من رجوعي إليها. تضاعف غضبي على نفسي، تضاعف غضبي على السكران المنعّم بغيبوبة لا يستحقّها. ركلته في جنبه. ركلته مرّة أخرى بقوّة أشدّ. ركلته الثالثة بعنف. وجنّ جنوني فانهلت عليه بطرف الحذاء في شتّى أطرافه حتّى أفرخت غضبي وهياجي. تراجعت إلى السياج وأنا أترنّح من الإعياء مردّدًا «لقد قضيت عليه». كنت أتنفّس بصعوبة وأشعر بتقزّز، وسيطر عليّ إحساس مضنٍ بأنّني مجنون يمارس حركات جنونيّة عنيفة في الظلام. وتذكّرت درّيّة. تذكّرتها وهي تنظر في أعماق عينيّ، وهي تضيع في زحمة الطريق...

ورجعت إلى البنسيون مشيًا على الأقدام. تخيّلت زهرة وهي تغطّ في نوم مرهق ثقيل خانق.

وتناولت حبّة منوّمة ثمّ استلقيت على الفراش.

***

دفعني بإصرار وهو يقبض على منكبي فصرخت غاضبًا:

ـ إنّك تقضي عليّ إلى الأبد.

٤

سرحان البحيري

هاي لايف.

معرض أشكال وألوان مثير للشغب، شغب البطون والقلوب. موجة هائلة من الأنوار الباهرة تسبح فيها قدور فواتح الشهيّة، العلب الحرّيفة والمسكّرة، اللحوم المقدّدة والمدخّنة والطازجة، الألبان ومستخرجاتها، القوارير المضلّعة والمنبسطة والمبطّطة والمربّعة والمنبعجة المترعة بشتّى الخمور من مختلف الجنسيّات.

لذلك تتوقّف قدماي بطريقة أتوماتيكيّة أمام كلّ بقالة يونانيّة.

وهواء الخريف يلفحني بدسامته الجنسيّة. وعيناي ترنوان إلى الفلّاحة بين الزبائن أمام الطاولة. طوبى للأرض التي غذّت وجنتيك ونهديك. وأنا أراجع أسعار القوارير لمحتها. امتدّ إليها بصري من موقفي

فوق الطوار، مارًا فوق برميل الزيتون، نافذًا من فرجة بين الهيج والديوارس، مائلًا عن قطّاعة البسطرمة، حتّى استقرّ على عارض وجهها الأسمر المرفوع إلى البقّال ذي الشارب البلقانيّ. وقد تأبّطت حقيبة من القشّ المجدول مُلئت بالمشتريات، وقد برزت من جانب غطائها رأس زجاجة الجوني ووكر.

تصدّيت لها وهي تغادر المحلّ فتلاقت عينانا، ارتطمت نظرتها المستطلعة الصلبة بنظرتي الضاحكة المعجبة. سارت في طريقها فسرت وراءها ولا غاية لي إلّا تحيّة الجمال ذي العبير الريفيّ الذي أحبّه. تعرّضنا في طريق الكورنيش لدفقات هواء الخريف المشعشع بالشعاع الواني الغارب، وهي تتقدّمني في مشية عسكريّة سريعة حتّى انعطفت فيما وراء عمارة الميرامار. التفتت ناحيتي وهي تمرق إلى مدخل العمارة فتلقّيت نظرة عسليّة محايدة!

وتذكّرت موسم جني القطن في قريتنا...

***

كان عبيرها قد تبخّر من نفسي أو كاد عندما رأيتها للمرّة الثانية في نهاية الأسبوع. لمحتها أمام معرض محمود أبو العبّاس وهي تبتاع الجرائد. أدركتها قبل أن تذهب وأنا أقول:

ـ صباح الفلّ...

ردّ محمود أبو العبّاس التحيّة دونها ولٰكنّها نظرت نحوي فتلقّيت نظرتها بعين صقر تودّ أن تشدّها إليها إلى الأبد. سرعان ما ذهبت وقد هيّجت عبيرها من جديد فملأ حواسّي جميعًا، وقلت لمحمود:

ـ هنيئًا لك!

فضحك في براءة فسألته:

ـ من أين؟

فأجاب دون مبالاة:

ـ تعمل في بنسيون ميرامار!

رددت إليه مبلغًا كنت اقترضته في زنقة من مطالب الأسرة ثمّ مضيت أتمشّى حول الفسقيّة في انتظار المهندس عليّ بكير. فلّاحة حلوة، حلوة بكلّ معنى الكلمة، وها هي تسلب لبّي. انتشيت بالانفعال وشعاع الشمس وبالوجوه الكثيرة الواقعة في حبائل الانتظار حولي.

وتذكّرت موسم جني القطن في قريتنا.

***

جاء عليّ بكير حوالى العاشرة صباحًا فذهبنا إلى مسكني بشارع الليدو بالأزاريطة. كانت صفيّة قد ارتدت ملابسها فذهبنا إلى سينما مترو. غادرنا السينما في الواحدة بعد الظهر فسبقاني إلى الشقّة وذهبت إلى هاي لايف لابتياع زجاجة نبيذ قبرصيّ.

رأيت الفلّاحة واقفة تستبضع. كملاطفة الأحلام وابتسام الحظّ. شيء نبّهها إلى وقفتي فيما وراءها فالتفتت مستطلعة فرأت وجهي المبتهج. أرجعت رأسها ولٰكنّني لمحت في مرآة تتوسّط أسرابًا من قوارير الخمر ابتسامة انفرجت عنها شفتاها الورديّتان. رأيت ـ فيما يرى الحالم اليقظان ـ نفسي مقيمًا في البنسيون، أستمتع فيه بالدفء والحبّ. لقد تسلّلت إلى نفسي. أنعشت قلبي كما حدث له مرّة في كلّيّة التجارة. وهٰذه الابتسامة صريحة كشمس النهار المشرق. فلّاحة... بعيدة عن منبتها... غريبة في بنسيون... غريبة كالكلب الضالّ الأمين في سعيه وراء صاحب.

وقلت لها ونحن نغادر المحلّ:

ـ لولا ضوء النهار لأوصلتك...

فقطّبت ساخرة وهي تقول دون غضب حقيقيّ:

ـ دمّك خفيف!

فحلمت أحلامًا سعيدة بعبير الريف والحبّ البكر...

***

وجدت عليّ بكير متربّعًا فوق شلتة بحجرة الشلت، وصفيّة تعدّ الطعام في المطبخ. ارتميت إلى جانبه ثمّ وضعت الزجاجة أمامي وأنا أقول:

ـ نار... هٰذا هو آخر تعريف علميّ للأسعار...

شدّ على ذراعي ثمّ سألني:

ـ مرّت أزمة العام الدراسيّ الجديد؟

ـ مرّت ولٰكن بغير سلام...

أخبرته ذات يوم بتنازلي لأمّي وإخوتي عن إيراد ميراثي من الأرض البالغ أربعة أفدنة ولٰكن ما الفائدة؟!

وقال مشجّعًا:

ـ ما زلت في مقتبل العمر والحياة، وأمامك مستقبل باهر...

فقلت في ضجر:

ـ حدّثني عن الحاضر من فضلك، وخبّرني بالله عن معنى الحياة بلا فيلّا وسيّارة وامرأة؟

ضحك عليّ بكير موافقًا، وسمعت صفيّة حديثي وهي قادمة بالصينيّة فرمتني بنظرة ضارية وخاطبت المهندس قائلة:

ـ لا ينقصه شيء ولكنّه جاحد ابن جاحدة!

فتراجعت قائلًا:

ـ لا أملك في الواقع إلّا المرأة!

قالت صفيّة متشكّية:

ـ نحن نعيش عيشة مشتركة منذ أكثر من عام، عزمت على تعليمه الاقتصاد فجرفني معه إلى التبذير!

شربنا وأكلنا ونمنا.

وغادر ثلاثتنا المسكن قبيل الغروب فذهبت صفيّة إلى الجنفواز، وذهبت وعليّ بكير إلى الكافيه دي لابيه. سألني ونحن نحتسي القهوة:

ـ أما زالت تطمح إلى الزواج منك؟

ـ مجنونة... ماذا تتوقّع من مجنونة؟

ـ أخاف أن...

ـ نجوم السما أقرب إليها منّي، ثمّ إنّني مللتها جدًّا...

نظرنا من الزجاج إلى جوّ رائق. شعرت بعيني عليّ بكير وهما تتحوّلان إليّ فتجاهلتها وأنا أستشعر نذير الخطر. وما لبث أن قال:

ـ لندخل في الجدّ...

حوّلت نظري إليه. صرنا وجهًا لوجه. لا مفرّ الآن ولا مهرب. قلت:

ـ لندخل في الجدّ...

فقال في هدوء غريب:

ـ حسن، تمّت دراسة الموضوع بدقائقه!

انقبض قلبي.

انقبض قلبي. نظرت إليه بتسليم واهتمام وقلق. قال:

ـ أنا المهندس المختصّ وأنت المشرف على حسابات القسم، سوّاق اللوري مضمون، وكذلك الخفير، لم يبق إلّا أن نجتمع للقَسَم على القرآن...

ضحكت رغمًا عنّي. نظر إليّ متسائلًا، ثمّ أدرك النكتة التي أفلتت منه بلا قصد. ضحك أيضًا، ثمّ قطّب قائلًا:

ـ ليكن، إنّه مال بلا صاحب، تصوّر ما يعنيه لوري من الغزل في السوق السوداء، عمليّة مأمونة ويمكن أن تتكرّر أربع مرّات في الشهر...

رحت أفكّر وأحلم. وواصل عليّ حديثه قائلًا:

ـ الخطوات المشروعة سراب، صدّقني، ترقيات وعلاوات ثمّ ماذا؟ بكم البيضة؟... بكم البدلة؟ وها أنت تتحدّث عن فيلّا وسيّارة وامرأة، حسن، أفتني إذن؟ وقد انتُخبت عضوًا في الوحدة فماذا أفدت؟ وانتُخبت عضوًا في مجلس الإدارة فماذا جدّ؟ وتطوّعت لحلّ مشكلات العمّال فهل فتحوا لك أبواب السماء؟ والأسعار ترتفع والمرتّبات تنخفض والعمر يجري، حسن، ما الخطأ؟ كيف وقع؟ أنحن أرانب معمل؟ عزيزي... اعدلني على القبلة...

سألته وصوتي يقع من سمعي موقع الصوت الغريب:

ـ متى نشرع في العمل؟

ـ لن نبدأ قبل شهرين وربّما ثلاثة، يجب أن يكون التخطيط أساس عملنا، وبعدها حياة خالد الذكر هارون الرشيد!

رغم أنّ مقاومتي الحقيقيّة كانت قد انهارت من زمن بعيد إلّا أنّ قلبي ناء بهمّ ثقيل. وجعل ينظر في عينيّ ببصر حادّ. ثمّ سألني:

ـ هه؟

فانفجرت ضاحكًا. ضحكت حتّى دمعت عيناي. وطالعني وجهه طيلة الوقت صلبًا باردًا متسائلًا. ملت نحوه فوق المائدة ثمّ همست:

ـ أوكي أيّها الزميل العزيز...

شدّ على يدي ثمّ ذهب. لبثت وحدي موزّعًا بين أفكاري.

***

ـ أستاذ... سأحتاج قريبًا إلى خبرتك...

سألته عمّا يريد فقال:

- سأشتري - إن شاء الكريم - مطعم بنيوتي عندما يقرّر السفر إلى الخارج...

ذهلت حقًّا. نظرت إلى معرضه المكتظّ بالكتب والجرائد والمجلّات، هل مكّنه حقًّا من ادّخار ما يبتاع به مطعم بنيوتي؟ وسألته:

- ماذا تريد منّي وأنا لا أعرف عن الطعام إلّا أنّه يؤكل؟

- أن تساعدني في الحسابات...

وعدته خيرًا، ثمّ خطر لي أن أبيع الأفدنة وأشاركه، فسألته:

- لعلّك تحتاج إلى شريك؟

فأجاب بنفور واضح:

- كلّا، لا أحبّ الشركة، ولا أريد للمطعم أن يكبر فيلفت نظر الحكومة!

***

ذهبت إلى المقرّ العامّ للاتّحاد الاشتراكيّ فاستمعت إلى محاضرة عن السوق السوداء، أعقبتها مناقشة عامّة. ولمّا انفضّ الاجتماع سمعت صوتًا يناديني وأنا ماضٍ نحو الباب الخارجيّ. توقّفت في تيّار الزحام وأنا أتلفّت فرأيت رأفت أمين مقبلًا نحوي. لم أكن رأيته منذ عهد الدراسة بالجامعة فتصافحنا بحرارة، وسرنا في الزحام حتّى خرجنا إلى الطريق. أخبرني بأنّه حضر الاجتماع باعتباره - مثلي - عضوًا في الوحدة الأساسيّة لشركة المعادن المتّحدة. واتّجهنا نحو الكورنيش بإغراء من لطافة الجوّ، ولمّا خلونا إلى أنفسنا أو كدنا أغرقنا في الضحك معًا. ضحكنا بلا مناسبة ظاهرة ولٰكن بدافع من ذكريات مشتركة لم يكن في الإمكان نسيانها أو تجاهلها. ذكريات اجتماعيّة مماثلة، شهدناها جنبًا لجنب، فصفّقنا معًا وهتفنا معًا. حدث ذٰلك عندما كنّا عضوين في لجنة الطلبة الوفديّين بالكلّيّة. أتذكر؟ طبعًا مُنْذا ينسى؟ كنّا وقتذاك أعداء الدولة. أجل... أمّا اليوم فنحن الدولة. وجرى الحديث هٰكذا بين الماضي والحاضر حتّى قلت له:

- لا أصدّق أنّك - أنت بالذات - تبرّأت من وفديّتك؟

فعاوده الضحك وهو يقول:

- وأنت لم تكن وفديًّا مخلصًا، واحدة بواحدة والبادي أظلم...

ثمّ لكزني بكوعه متسائلًا:

- ولٰكن أأنت اشتراكيّ مخلص؟

- طبعًا...

- لِمَ من فضلك؟

- للثورة أعمال لا يَسَعُ الأعمى إلّا الإقرار بها.

- والبصير؟

فقلت بجدّيّة:

- إنّي أعني ما أقول.

- إذن فأنت ثوريّ اشتراكيّ؟

- بلا أدنى شكّ.

- مبارك، خبّرني الآن أين نقضي ليلتنا؟

فدعوته إلى الجنفواز. سهرنا حتّى منتصف الليل. أردت أن أنتظر صفيّة ولٰكنّها أخبرتني بأنّها مدعوّة للذهاب مع زبون ليبيّ...

***

كنت خارجًا من سينما ستراند عندما رأيت الفلّاحة الحلوة. كانت قادمة من شارع صفيّة زغلول بصحبة عجوز يونانيّة. رائقة السمرة ساحرة النظرة ريّانة الشباب. كان الطوار مكتظًّا بالخلق، والهواء يهبّ منعشًا حاملًا رائحة البحر، وهالة ضخمة من القطن المندوف تغشى القبّة فتضفي على الجوّ لونًا أبيض ناعسًا ناعمًا كبهجة الرضى. مضتا تشقّان طريقهما وسط الزحام فتراجعتُ خطوة موسعًا وأنا أحيّي بإغماضة من عيني. ابتسمتْ بحذر، أجل... استجابت باسمة في حذر. وقلت لنفسي إنّ الصنّارة قد نشبت. وشاع في نفسي سرور كالسائل العذب الذي يخالط الريق بعد مضغ الفول الأخضر البكر الطازج المقطوف لتوّه من الأرض الخضراء.

***

اختلست من وجهها نظرة وأنا أحتسي قهوة الأصيل. كانت عيناها منتفختين محمرّتين من أثر النوم العميق، وشفتاها الغليظتان منفرجتين، في أقبح أحوالها كالعادة، وغافلة تمامًا عمّا دبّرت لها. فقلت

بلهجة أسيفة مصطنعة:

ـ صفيّة...

رمقتني مستطلعة فقلت:

ـ جدّت ظروف سخيفة ولٰكن علينا أن نتوافق معها؟

فاستقرّت في عينيها نظرة حذرة، وهزّت رأسها داعية إيّاي إلى الإفصاح فقلت:

ـ سنضطرّ إلى تغيير نظام حياتنا، أعني الإقامة في شقّة واحدة!

قطّبت فتجمّع الغضب بين حاجبيها كما يتجمّع ماء المطر في نقرة مطيّنة وتحفّزت للنضال، فقلت:

ـ إنّها كارثة، كارثة تمامًا بالنظر إلى أزمة المساكن، ولٰكنّ زميلًا في الشركة لمح لي، أجل، حدّثتك مرّة عن الرقابة الإداريّة، ولا شكّ أنّ مستقبلك يهمّك كما يهمّني.

قالت بضيق محتجّة:

ـ ولٰكن مضى على حياتنا المشتركة حوالى عام ونصف.

ـ كانت أهنأ أيّام حياتي، وكان يمكن أن تمتدّ إلى الأبد دون أن يدري بها أحد...

ونظرتُ في قعر الفنجال كأنّما أقرأ البخت ثمّ واصلت قائلًا:

ـ ولٰكنّ سوء الحظّ أدركني، سأرجع إلى شقّة العازب المبعثرة، وربّما اضطررت إلى الإقامة في فندق حقير أو بنسيون مزعج...

نفخت بوحشيّة وقالت:

ـ يوجد حلّ، يوجد حلّ، ولٰكنّك خسيس ابن حرام!

ـ أنا رجل صريح، أحبّك حقًّا، وسأحبّك حتّى آخر يوم في حياتي، ولٰكنّي قلت لك من أوّل يوم إنّ الله لم يخلقني للزواج...

ـ لأنّه خلقك ناقص المروءة...

ـ وإذن فلا داعي للرجوع إلى مناقشات لا خير فيها...

تفرّست في عينيّ كأنّما لتنفذ إلى أغوارهما، ثمّ قالت:

ـ تريد أن تهجرني...

فبادرتها:

ـ صفيّة، أنا رجل صريح، لو في نيّتي أن أهجرك لقلتها بصريح العبارة وذهبت...

رانَ الكدر على روحها ووجهها، وضاعف العبوس من دمامتها العابرة، فتمنّيت أن تعافني وتكرهني ليذهب كلّ منّا إلى حال سبيله.

وقلت لنفسي إنّه عند الحساب ستتعادل كفّتانا. كانت حياتنا مشتركة بكلّ معنى الكلمة عدا المجاملات التي كانت تنفحني بها في المناسبات والتي عجزتُ ـ لظروفي الخاصّة ـ عن ردّها. غيري آخرون يستغلّون عشيقاتهم استغلالًا فاحشًا. الحقّ أنّي لم أعْتَدْ بَذْل النقود للنساء. وعلى أيّ حال فإنّي أتوقّع معركة ختاميّة، وقد جرّبت ذٰلك أكثر من مرّة. وقد عرفت الحبّ في الكلّيّة ولٰكنّي جئت متأخّرًا فضاعت الفرصة. فرصة سعيدة كانت. جميلة وذات مستقبل وكريمة لطبيب تتدفّق عليه أموال المرضى، ولٰكن ما فائدة «لو»؟

ها هو قلبي يخفق مرّة أخرى. أجل... إنّي أحبّ الفلّاحة. مجرّد شهوة كالتي ساقتني إلى صفيّة في الجنفواز.

***

ـ أريد حجرة لإقامة طويلة.

تجلّت نظرة ارتياح في العينين الزرقاوين المستطلعتين، ثمّ تراخت مستندة إلى ظهر الكنبة تحت تمثال العذراء. في لفتاتها رشاقة متخلّفة عن ماضٍ سعيد، وشعرها الذهبيّ المصبوغ يشي برغبة مزمنة في التشبّث بذٰلك الماضي. ساومتني بصراحة تجاريّة مؤكّدة الأسعار الخاصّة بالصيف.

ـ ولٰكن أأنت قادم جديد إلى الإسكندريّة؟

لم يكن سؤالًا عارضًا ولٰكنّه حلقة من سلسلة استجواب طويل مفهوم. جاريتها لأوثّق علاقتي بها فقدّمت لها اعترافًا بعملي وسنّي وبلدتي وحالتي الاجتماعيّة. في أثناء ذٰلك رجعت الفلّاحة من مشوار خارجيّ، رأتني فخفضت عينيها، أدركت حقيقة الموقف بنظرة واحدة، ومضت متعثّرة في ارتباكها،

ولكنّ المدام لم تفطن بطبيعة الحال إلى ارتباكها، ولا رأت تورّد خدّيها. وعندما تقدّمتني إلى الحجرة الخالية ـ آخر حجرة خالية مطلّة على الشارع ـ كنّا بمثابة صديقين ترجع صداقتهما إلى عهد غابر في الزمان.

***

تفقّدت الحجرة بارتياح ثمّ جلست على المقعد الكبير مستبشرًا. عرفت من مجلسي ـ ودون سؤال ـ اسم الفلّاحة وهي تنادى. وما لبثت أن دخلت حجرتي حاملة الملاءات والأغطية لتعدّ السرير. مضيت أرقبها بسعادة متفحّصًا أجزاءها بعناية وشغف، الشعر والقسمات والقامة. يا سيّدي أبو العبّاس البنت جميلة، جميلة لدرجة السحر، وتملك شخصيّة أيضًا. أرادت أن تختلس منّي نظرة ولكنّ عينيّ كانتا لها بالمرصاد. وابتسمتُ قائلًا:

ـ أنا سعيد يا زهرة...

استمرّت في عملها كأنّها لم تسمعني فقلت:

ـ ربّنا يطوّل عمرك فقد أرجعتِ إليّ الريف الذي جئت منه...

ابتسمت، فقلت:

ـ محسوبك سرحان البحيري يا زهرة...

فلم تملك أن سألت:

ـ بحيري؟

ـ من فرقاصة بالبحيرة...

كتمت ضحكتها وهي تقول:

ـ أنا من الزياديّة...

فهتفت بنشوة كأنّما وحدة المحافظة معجزة قد وجدت لضمان سعادتي وحبّي:

ـ يا ربّنا...

وكانت انتهت من عملها فهمّت بمغادرة الحجرة فرجوتها قائلًا:

ـ ابقي قليلًا فلديّ الكثير ممّا أودّ قوله.

ولكنّها حرّكت رأسها بدلال بريء ثمّ ذهبت. سعدتُ بتنكّرها لرجائي واعتددته معاملة «خاصّة» لا يمكن أن تعامل بها «زبونًا» مجرّدًا. نعم إنّها ثمرة ناضجة وما عليّ إلّا أن أقطفها ولكنّ جسمها بريء فيما يبدو ولا عِلْم لي باستعداداتها. إنّي أحبّها، ولا غنى لي عنها. وددت أن يضمّنا مسكن واحد بعيدًا عن هٰذا البنسيون الذي لا يخلو عادة من متطفّلين ثقلاء.

***

على مائدة الإفطار تعرّفت بعجوزين غريبين. أكبرهما حيّ ميت، مومياء، ولٰكنّه لا يخلو من مرح، وهو ـ كما قيل ـ صحفيّ قديم. والآخر طلبة مرزوق، ليس اسمه بالغريب على أذنيّ وإن كاد يُمحى، وهو ممّن وُضعوا تحت الحراسة، ولا علم لي بما جاء به إلى هٰذا البنسيون. وقد أثار تطلّعي من أوّل الأمر، فكلّ شاذّ مثير سواء كان مجرمًا أو مجنونًا أو محكومًا عليه أو موضوعًا تحت الحراسة. إلى ذٰلك كلّه فقد كان من الطبقة التي علينا أن نرثها بطريقة ما. ها هو يخفي عينيه في قدح الشاي، متجنّبًا النظر نحوي، عن حذر أو كبرياء. وتلاطمت في نفسي ـ حياله ـ أحاسيس متباينة تتراوح ما بين الشماتة من ناحية والرثاء من ناحية أخرى، غير أنّ إحساسًا منها استقرّ في وضوح وهو ذعري الغريب من فكرة مصادرة الثروات، كأنّما أومن بأنّ مَن يَقتل مرّة قد يعتاد القتل!

وأراد عامر وجدي أن يجاملني فقال:

ـ يسرّني أنّك من رجال الاقتصاد، إنّ الدولة اليوم تعتمد أوّل ما تعتمد على الاقتصاديّين والمهندسين...

تذكّرت عليّ بكير فلم أهنأ بالثناء. وعاد العجوز يقول:

ـ على أيّامنا كان جلّ اعتمادها على بلاغة البلغاء!

ضحكت هازئًا متوهّمًا أنّي بذٰلك أجاري رأيه غير أنّه استاء فيما بدا فأدركت أنّه لم يكن ينتقد، ولٰكنّه كان يؤرّخ. وراح يقول مدافعًا عن جيله:

ـ يا بنيّ. كان هدفنا إيقاظ الشعب، والشعوب تستيقظ بالكلمات، لا بالمهندسين ولا بالاقتصاديّين!

وسرعان ما تراجعت قائلًا في اعتذار:

ـ لو لم يقم جيلكم بواجبه لما تحقّق لجيلنا وجود!

وظلّ طلبة مرزوق ملازمًا الصمت.

***

قلبي يستعيد براءته وفتوّته. مثل هٰذا الصباح المشرق. مثل زرقة البحر الصافية. مثل هٰذا الدفء المبارك. وحبّ الحياة يتردّد مع أنفاسي، يجري مع

ريفي، ينعش روحي بفرح ونهم. عملت نهارًا طيّبًا بالشركة ثمّ تناولت الغداء مع صفيّة في مسكني القديم. نظرت إليّ ببصر نافذ فأسدلت على وجهي قناع الكآبة. شكوت إليها وحشة البنسيون وبرودته. حياة لا تُحتمل يا عزيزتي ولذلك وصّيت سمسارًا بالبحث لي عن شقّة.

وتردّدت ألفاظ مألوفة مثل خسيس وابن حرام، ولمّا آن لنا أن نستريح بعد الغداء ساءلت نفسي متى أتحرّر من السخرة؟

ولمحت زهرة وهي تحمل القهوة إلى حجرة عامر وجدي. دقّت الساعة الكبيرة الخامسة مساء فطلبت قدحًا من الشاي. جاءتني منوّرة كالنرجسة. أو أغنية تتغنّى بسواد الشعر وصفاء السمرة وشهد العين. لمست يدها وأنا أتناول القدح وهمست:

ـ من أجلك سجنت نفسي في هذه الحجرة...

قطّبت لتداري عواطفها ثمّ استدارت لتذهب فقلت لها قبل أن تختفي عن ناظريّ:

ـ أحبّك... لا تنسي ذلك أبدًا...

ولكنّها استجابت لمحادثتي عصر اليوم التالي. رغبت أن أعرف عنها أقصى ما يسعني معرفته فسألتها:

ـ ماذا جاء بك من الزيادية إلى هنا؟

أجابت باللهجة الريفيّة الأليفة:

ـ الرزق...

وحدّثتني عن أهلها، وظروف هربها، والتجائها أخيرًا إلى المدام بوصفها عميلة أبيها. قلت بإشفاق:

ـ ولكنّها خواجاية... والبنسيون كما تعلمين سوق!

قالت بثقة واعتزاز:

ـ عرفت الحقل والسوق!

ليست بالغرّة ولا بالهشّة. ولكن هل آخذ القصّة بحرفيّتها. إنّ اللاتي يهربن من القرية إنّما يهربن.... هه؟! وقلت وأنا أرامقها مفتونًا بها:

ـ حدث ذلك كلّه لكي نلتقي هنا!

رمتني بنظرة مستطلعة لا تخلو من ارتياب ولكنّها نديّة بالميل، فقلت:

ـ أحبّك. هذا ما أودّ قوله ولا أملّه يا زهرة...

تمتمت:

ـ كفاية!

ـ لن أكفّ حتّى أسمع مثلها من شفتيك، حتّى تطمئنّي إلى حضني...

ـ أهذا ما تفكّر فيه؟

ـ لن يكون لشيء طعم حتّى أناله...

ذهبت بوجهٍ صافٍ لا أثر فيه للكدر أو الغضب. هنّأت نفسي على بلوغ المراد. ووجدتني أجترّ حنيني القديم إلى الزواج، إنّه لحنين قديم، وقد فاض من جديد كنبع يتفجّر. أودّ من أعماقي يا زهرة لولا... أجل لولا، سحقًا للبديهيّات السخيفة القاتلة!

***

انضمّ إلينا شابّان جديدان، حسني علّام ومنصور باهي. تطلّعت إلى التعرّف بهما بغريزة لا تني عن الإكثار من المعارف والصحاب، ودائمًا تنظر إلى الوجه الجديد بعين صيّاد. وحسني علّام من أسرة قديمة بطنطا، وجيه من الوجهاء، ومالك لمائة فدّان، جميل الوجه قويّ البنيان، كما يتمنّى أيّ واحد منّا أن يكون. وأنا قد أكره فكرة طبقته ولكنّي أفتن بأيّ شخص منها إذا ساقتني الظروف الممتازة إلى صحبته. ومن السهل تخيُّل الحياة التي يمارسها شابّ مثله رغم تغيّر الأحوال، فإن يكن بعد ذلك كريمًا كما ينبغي له فحدِّثْ عن الليالي الملاح بغير حساب.

أمّا منصور باهي فنوع آخر من الشبّان. إذاعيّ بمحطّة الإسكندريّة وشقيق ضابط كبير من رجال الأمن. ذاك جميل ومفيد أيضًا. ولكنّه يبدو ملتصقًا بذاته فوق ما يتصوّر العقل. إنّه تمثال دقيق جيّد الصنع ذو ملامح بريئة لا يحظى بها عادة إلّا طفل. أين يمكن العثور على مفتاحه أو الاهتداء إلى الدرب الضيّق الوعر المُوصِل إلى قلبه. ما أكثر الذين يفدون من القرية سعيًا وراء عمل، وما أكثر المشكلات التي يتطلّب حلّها الاستعانة بضابط كبير من رجال الأمن!

***

جذبتها من ساعدها بغتة. انتظرتُ حتّى وضعت قدح الشاي على الترابيزة ثمّ جذبتها من ساعدها بغتة. اختلّ توازنها فتهاوت عليّ بمجلسي على المقعد الكبير فاحتويتها بذراعيّ وقبّلت خدّها ـ المتاح لي من

وجهها ـ قبلة خاطفة متوتّرة نهمة متعجّلة. اعترضت ساعديّ بيدين قويّتين ثمّ تملّصت منّي. انتصبت متراجعة مقطّبة. نظرت نحوها في حذر وتوقّع ثمّ ابتسمت مستعطفًا. تجمّلتْ بالصبر فيما بدا. ثمّ راق وجهها وصفا كالبحر في صباح خريف دميث. توسّلت إليها بإشارة أن تقترب فلم تلبّ ولم تذهب. وثبتُ إليها محمومًا برغبة مجنونة فضممتها إلى صدري بلا مقاومة تُذكر، ثمّ التقت شفتانا في قبلة طويلة نهمة. وهمست في أذنها ورائحة شعرها الآدميّة تملأ أنفي:

ـ تعالي إليّ ليلًا...

تفرّست في وجهي قليلًا ثمّ سألتني:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريدك أنت يا زهرة...

لاحظت نظرة جادّة في عينيها وهي تفكّر، فسألتها:

ـ ستأتين؟

سألتني بمرارة:

ـ ماذا تريد منّي؟

أفقت قليلًا من سكرتي وقلت بحذر:

ـ نتحادث ونتبادل الحبّ!

ـ لكنّنا نفعل ذلك الآن...

ـ في عجلة وخوف يفسدان السرور!

ـ لا أرتاح لأفكارك!

ـ إنّك تسيئين فهمي!

هزّت رأسها كأنّما تؤكّد فهمها. وذهبت وهي تبتسم رغم ذلك.

داخلني حزن وتعاسة. جعلت أقول متحسّرًا: لو كانت من أسرة... لو كانت على عِلْم أو مال! وانهمر من لساني سَيْل من اللعنات...

***

وكانت ليلة أمّ كلثوم.

نازعني المزاج إلى قضائها في بيت عليّ بكير لنتلقّى السماع في جوّ هادئ جدير به، كما دعاني رأفت أمين إلى السماع في مسكنه، ولكنّي فضّلت ـ بعد تفكير ـ السهرة في أسرة البنسيون لأوثّق علاقاتي بأفرادها. رأيت صينيّة كبيرة مليئة بالشواء فتعجّلت الشراب لأتزوّد بالشجاعة الضروريّة للهجوم. وهيمن علينا جوّ أسطوريّ فأنشدت أسطورة عن «آل البحيري» ومركز وكيل الحسابات، لا على سبيل الفخر الكاذب وحده، ولكن تمهيدًا للطريق أمام الثروة المنتظرة من مغامرة عليّ بكير. وانقضّ علينا حديث السياسة كالقضاء المحتوم. أما سمعتم؟... ما قولكم؟... أتريدون رأيي صراحة؟ أدركت بالغريزة أنّني ممثّل الثورة، مع احتمال مشاركة منصور في ذلك. وانهال الثناء وتبادلنا الأنخاب. ولمحت زهرة فقلت لنفسي إنّها ممثّلة الثورة الأولى، وتذكّرت كيف دعت لها أمامي مرّة وكيف لفحني صدق الدعاء وحماسه البريء. ترى أيرتاب منصور باهي في صدقي؟ يا صاحبي إنّي بطبعي عدوّ أعداء الثورة ألا تفهم؟ وإنّي من الموعودين ببركاتها ألا تفهم؟

***

ـ لقد أغلقت من الأبواب بقدر ما فتحت...

ـ تذكّر الملايين ثمّ احكم من جديد.

ـ حسن، وما رأيك في المنعمين الجشعين؟

ـ رأيي أنّهم أعداء للثورة فلا يحكم بهم عليها...

***

وقد عشقت مدام ماريانا، لا لأنّها تحبّ غناءنا فحسب ولكن لخفّة روحها، ولأنّها شريط مسجّل يعيد ذكرياتها الخاصّة بحنين يونانيّ عتيد. ومن خلال ذكرياتها رأيت لمحات من حياتي الخاصّة، كالحبّ القديم، كحبّ الحياة الطيّبة الناعمة. وهي ترجع في الأصل إلى قوم مهاجرين، والمهاجرون قوم وطنهم هو البلد الذي يوفّر لهم السعادة.

وعامر وجدي أثر قديم اكتشفه منصور باهي. فترة جذّابة من تاريخنا الذي لا نكاد نعرف منه شيئًا.

وعندما نوّه طلبة مرزوق بمآثر الثورة لم أملك إلّا أن أحيّي ـ في نفسي ـ نفاقه الممتع. واقتنعت بأنّ الإنسان رغم ابتكاراته وانتصاراته ما زال غارقًا حتّى أذنيه في الحماقة والسخف، ولعلّه من المفيد أن نجمع الأعداء على فترات ليقضوا معًا ليلًا طويلًا وهم يسكرون ويطربون ويملأون أنفسهم بأعذب الألحان.

***

ـ إذن فأنت لا تؤمن بوجود الجنّة والنار؟

ـ الجنّة هي المكان الذي يتمتّع فيه الإنسان بالأمن والكرامة، أمّا النار فهي ما ليس كذٰلك. . .

***

وعندما يضحك منصور لقفشاتي يتبدّى كطفل رائع، فراودني أمل بأنّني سأهتدي إلى الدرب الموصل إلى قلبه، وبأنّ صداقة حارّة ترصدنا في نهاية السهرة. أمّا حسني علّام! ليحيا حسني علّام، قدّم وحده للسهرة زجاجتين من الديوارس. تسلطن على مقعده كعمدة، يملأ الكؤوس ويوزّعها، ويجلجل بضحكاته، وعندما اختفى فجأة عقب منتصف الليل مُنيت الجلسة بخسارة فادحة.

ولم أستمتع بأمّ كلثوم كالعادة، ولا ردّدت معها بعض المقاطع، ولٰكنّ نشواتي تفاعلت كسيّال كهربائيّ مع زهرة. عندما تجيء وعندما تذهب، وهي جالسة عند البارفان تتفرّج على عربدتنا بعين داهشة باسمة. وبالنظرات المختلسة تعانقنا، وتبادلنا القبلات والأشجان.

***

لا شكّ أنّني رأيت هٰذا الرجل من قبل. كلّا كان مقبلًا على التريانون من ناحية شارع سعد وكنت مقبلًا عليه من ناحية الميدان. سرعان ما عرفت فيه طلبة مرزوق! رأيته لأوّل مرّة بملابسه الكاملة متدثّرًا بمعطفه والكوفيّة مغطّيًا رأسه بطربوش غامق الحمرة. صافحته بإجلال ثمّ دعوته إلى فنجال قهوة. أذعن لإلحاحي فجلسنا معًا إلى مائدة خلف الزجاج المغلق المطلّ على البحر. كان الهواء يلعب بسعف النخيل المحدق بتمثال سعد وفي السماء غيم رقيق تضيء الشمس أطرافه بلون ماسيّ. تبادلنا حديثًا عاديًّا لا معنى له ولا طعم، ولٰكنّي حرصت طيلة الوقت على احترامه ومجاملته والتودّد إليه. شيء في أعماقي قال لي إنّه لا يمكن أن يكون خالي الوفاض تمامًا. أجل هناك طريقة أو أخرى، ولعلّه يودّ أن يستثمر ما لديه ولٰكنّ الخوف يكبّله. وقلت تفريعًا عن حديث عن المعيشة:

ـ من العبث أن يعتمد شابّ مثلي على مرتّب وظيفته.

ـ وما حيلته في ذٰلك؟

خفضت صوتي كأنّما أودعه سرّي وأنا أقول:

ـ مشروع تجاريّ. . . هٰذا ما أفكّر فيه. . .

ـ ومن أين لك بالمال؟

فقلت وأنا أداري أفكاري بابتسامة بريئة:

ـ أبيع بضعة أفدنة ثمّ أبحث عن شريك. . .

ـ ولٰكن هل يمكن أن تجمع بين الوظيفة والتجارة؟

قلت ضاحكًا:

ـ على المشروع أن يبقى سرًّا من الأسرار.

تمنّى لي التوفيق ثمّ بسط الجريدة ليلقي عليها نظرة. كأنّما قد نسي الموضوع تمامًا. جائز أن يكون صادقًا، ومحتمل أن تكون مناورة، ولٰكن أدركني إحساس باليأس منه.

وأشار إلى عنوان أحمر عن ألمانيا الشرقيّة وقال:

ـ لا شكّ أنّك سمعت بعض ما يقال عن بؤس تلك المنطقة، وبخاصّة إذا قورنت بالمنطقة الغربيّة. . .

ها هو يتحدّث في السياسة الداخليّة بلغة السياسة الخارجيّة. أجبته موافقًا فعاد يقول:

ـ ليس لدى روسيا ما تقدّمه إلى بلد يدور في فلكها، أمّا أمريكا. . .

ـ ولٰكنّ روسيا قدّمت لنا بالفعل مساعدات قيّمة!

فقال بعجلة:

ـ الوضع مختلف، نحن لا ندور في فلكها. . .

وبدا حذرًا حتّى ندمت على اعتراضي. وراح يقول:

ـ الحقّ أنّهما ـ روسيا وأمريكا ـ سيّان في رغبة التسلّط على العالم، لذٰلك فموقف عدم الإنحياز الذي اعتنقناه حكمة وأيّ حكمة. . .

أسفت على أنّه أفلت من يدي، وأنّه لا سبيل إلى استرداد الأرض المفقودة قريبًا. وقلت:

ـ الحقّ أنّه لولا ثورة يوليو لاجتاحت البلد ثورة دمويّة لا تُبقي ولا تذر!

فوافقني بطربوشه وهو يقول:

ـ الله كبير، وقد أنقذنا بحكمته!

***

أين كنتَ؟ لم تشرّفنا منذ ثلاثة أيّام. كيف تذكّرتني أخيرًا؟ لماذا تعود إلى الأشياء القديمة الموضوعة على

الرف؟ ألم أقل لك إنّك خسيس وابن حرام؟ لا توجع رأسي بالأعذار السخيفة. لا تحدّثني عن عملك الخطير بالشركة. لو كان لوزير رفيقة لما أهملها كما تهملني. جعلت أبتسم وأصبّ النبيذ في كوبين وباطني يضيق بها لحدّ التقزّز. ها هي تلعب معي دور الطاغية فلا بدّ من التخلّص منها. يجب أن أتحرّر منها إلى الأبد. ولٰكن انجابت هموم الأرض عن صدري، انجابت جميعًا بمقدم زهرة حاملة الشاي إليّ. تعانقنا طويلًا. قبّلت شفتيها وخدّيها وجبينها وعنقها، استمتعت بشفتيها بوعي مركّز وهي تطبع شفتيها على شفتيّ. ثمّ ابتعدت قيراطين عنّي وهي تتنهّد وتقول هامسة متشكّية:

ـ يخيّل إليّ أحيانًا أنّهم يعرفون...

فقلت باستهانة ممسوس بنشوة الحبّ:

ـ لا يهمّك...

ـ أنت لا يهمّك شيء ولٰكن...

ـ يهمّني شيء واحد يا زهرة...

ورنوت إليها مليًّا لأترجم لها ما أعنيه بعينيّ ثمّ قلت برغبة صادقة:

ـ لنعش معًا بعيدًا عن هنا!

فتساءلت بارتياب:

ـ أين؟

ـ في مسكن خاصّ بنا...

لاذت بصمت متلهّف على مزيد من القول، ولمّا لم تَلْقَ منّي ما يشبع لهفتها غامت عينيها بخيبة أمل، وتساءلت:

ـ عمّ تتحدّث؟

ـ إنّك تحبّينني كما أحبّك...

قالت بصوت خافت:

ـ أنا أحبّك ولٰكنّك لا تحبّني...

ـ زهرة!

ـ إنّك تنظر إليّ من فوق كالآخرين...

قلت بصدق كامل:

ـ إنّي أحبّك يا زهرة، من كلّ قلبي أحبّك والله شهيد.

فكّرت قليلًا بكدر ثمّ ساءلتني:

ـ أتعتبرني إنسانة مثلك؟

ـ وهل في ذٰلك من شكّ؟

هزّت رأسها نفيًا. أدركت بطبيعة الحال ما يدور بخلدها فقلت:

ـ توجد مشاكل لا حلّ لها...

واصلت هزّ رأسها مقطّبة هٰذه المرّة عن غضب وقالت:

ـ واجهتني مشاكل كذٰلك وأنا في القرية ولٰكنّني لم أخضع لها...

لم أتصوّر أنّها معتزّة بنفسها لذاك الحدّ. شعرت بأنّ الحبّ يجرفني معه إلى الهاوية فغرزت قدميّ في الحافة راميًا بثقلي إلى الوراء. تناولت يدها بين يديّ، قبّلت ظهرها وبطنها، وهمست في أذنها:

ـ أحبّك يا زهرة...

***

كلّما نظرت إلى وجه حسني علّام القويّ الجميل حلمت بالليالي الملاح. ولٰكنّني علمت ذات يوم بالمشروع الذي جاء الإسكندريّة من أجل دراسته وتنفيذه فتغيّرت نظرتي إليه. طلبة مرزوق وَهْم مناقض للواقع ومن المستحسن أن أُسقطه من الحساب أمّا حسني علّام فرجل قد عقد العزم على العمل، وعليّ أن أجد لنفسي دورًا في ذٰلك المشروع. ليس الأمر مجرّد عمل ونجاح ولٰكنّه قد ينقذني في اللحظة الأخيرة من أفكار عليّ بكير الجهنّميّة. المؤسف حقًّا أنّ حسني علّام مثل الزئبق لا يسهل القبض عليه. إنّه يتحدّث أحيانًا عن المشروع ولٰكنّه يهيم على وجهه طيلة الوقت دافعًا بسيّارته في سرعة جنونيّة ولا يخلو المقعد جنبه من امرأة. قلت له مرّة:

ـ الرجل العمليّ لا يضيّع وقته في اللهو.

فضحك وسألني:

ـ كيف يضيّعه إذن؟

فقلت بلهجة مَن يغير على مصلحته:

ـ يدرس ويفكّر ثمّ ينفّذ.

ـ جميل ما تقول، ولٰكنّني لا يحلو لي الدرس والتفكير إلّا وأنا ألهو!

ثمّ وهو يقهقه:

- نحن نعيش الأيّام التي تسبق مباشرة يوم القيامة!

تركته وأنا أحدّث نفسي قائلًا: «يا ربّي... أريد أن أفيد وأن أستفيد فما عسى أن أصنع؟».

***

تطايرت الشتائم بيننا كالأحجار أو كالشظايا. وصحت غاضبًا:

- كلّ مرّة!... هو حساب الملكين؟!

وتطايرت الشتائم بيننا. وقد ذهل محمود أبو العبّاس الذي صحبني إلى بيتها ليأخذ درسه الثالث في الحساب ومسك الدفاتر. وقمت مصمّمًا على الذهاب فمضى الرجل معي. وعند باب العمارة رجوته أن يرجع فيعلمها بأنّني قرّرت الذهاب بغير رجعة.

ومضيت إلى ميرامار ولكنّني لم أدرك أنّني مطارَد إلّا وزهرة تفتح لي الباب. عند ذاك شعرت بيد تقبض على قفاي وصوت صفيّة يزعق:

- تريد أن تهجرني؟... تظنّني طفلة أو لعبة؟!

تخلّصت منها بجهد ولكنّها كانت قد اقتحمت الشقّة. قلت لها هامسًا ولاهثًا:

- اذهبي... الناس نيام!

فصرخت بصوت غليظ:

- تنهبني وتهرب!... أكّلتك وشرّبتك وكسوتك وتريد أن تهرب يا بن الحرام!

لطمتها فلطمتني. اشتبكنا في صراع مرير. حاولت زهرة التخليص بيننا فلم تفلح فقالت لها:

- من فضلك... هٰذا بيت محترم...

ولمّا لم يُجْدِ القول صاحت بها:

- اذهبي وإلّا استدعيت البوليس!

تراجعت خطوة وهي تلتفت نحو زهرة. دهشت لمنظرها.

ردّدت عينيها بيني وبينها، ثمّ هتفت بها بعجرفة:

- أنت يا خدّامة كيف...

قبل أن تكمل عبارتها كانت يد زهرة قد صكّت فاها. انقضّت على زهرة فانهالت عليها لكمات الفتاة القويّة حتّى انهارت أو كادت. واستيقظ البنسيون ففُتحت الأبواب ودبّت الأقدام، وإذا بحسني علّام يسبقهم إلينا فيأخذ صفيّة من يدها ويذهب بها خارجًا.

ذهبت إلى حجرتي أعمى من الغضب. لحقت بي المدام وهي تتساءل عمّا جرى في انزعاج. أعلنت لها أسفي ولكنّها سألتني:

- مَن هي؟

قلت مختلقًا كذبة إنقاذًا للموقف:

- كانت خطيبتي ثمّ فسخت خطبتها!

قالت وهي تهزّ رأسها:

- إنّ سلوكها يثبت أنّك كنت على حقّ في معاملتها ولٰكن...

وسكتت لحظات ثمّ استأنفت قائلة:

- ولٰكن أرجو أن تسوّي حسابك معها بعيدًا عن هنا!

ثمّ قالت وهي تغادر البنسيون:

- إنّي أعيش بفضل سمعتي الطيّبة!

ولمّا جاءت زهرة في موعدها كان وجهها ما يزال منطبعًا بآثار الحادث، وقد شكرتها، واعتذرت لها عمّا أصابها. تبادلنا نظرات عميقة أليمة حتّى اضطررت أن أقول لها:

- لقد هجرتها من أجلك...

سألتني بخشونة:

- مَن هي؟

- امرأة ساقطة، من الماضي، اضطررت إلى أن أكذب على المدام فأقول لها إنّها كانت خطيبتي!

لثمت خدّها في امتنان وأسف...

***

صوت الريح ينطلق في الخارج كرعد متّصل، جوّ الحجرة يقطر عصارة المساء رغم أنّ النهار لم يشارف الأصيل بعد، فتخيّلت الغيوم المتراكمة في السماء وتخيّلت جبال الأمواج. ولمّا جاءت زهرة - ولم أكن رأيتها منذ لقاء أمس - أضاءت المصباح. كنت أعاني انتظارها طيلة الوقت فبادرتها بحرارة ورجاء:

- لنذهب يا زهرة!

وضعت القدح على الترابيزة وهي ترمقني بعتاب مرّ فقلت:

- سنعيش معًا إلى الأبد، إلى الأبد...

سألتني متهكّمة:

ـ ولا توجد مشاكل في تلك الحال؟

أجبت بصراحة مؤسفة:

ـ المشاكل التي أعنيها إنّما يخلقها الزواج!

تمتمت بغضب مكتوم:

ـ يجب أن أندم على حبّي لك...

فقلت بحرارة وصدق وإخلاص:

ـ لا تقولي ذلك يا زهرة، عليك أن تفهميني، أنا أحبّك، ومن غير حبّك فلا معنى للحياة ولا طعم، ولكنّ الزواج سيخلق لي مشاكل من ناحية الأسرة ومن ناحية العمل، إنّه يهدّد مستقبلي فضلاً عن أنّه سيهدّد حياتنا المشتركة، فما العمل؟

قالت بغضب أشدّ من الأوّل:

ـ لم أكن أعرف أنّني يمكن أن أخلق جميع تلك المصائب!

ـ ليس أنت، لكنّه الغباء، الحواجز الصلبة، الحقائق العفنة، ما العمل؟

ضيّقت عينيها بحنق وقالت:

ـ ما العمل حقًّا؟... أن تجعل منّي امرأة مثل امرأة أمس!

هتفت بيأس:

ـ زهرة... لو كنت تحبّينني كما أحبّك لفهمتني بوضوح لا لبس فيه!

فقالت بحدّة:

ـ إنّي أحبّك، خطأ لا حيلة لي فيه.

ـ الحبّ أقوى من كلّ شيء، من كلّ شيء...

فاعترضت ساخرة:

ـ لكنّه ليس أقوى من المشاكل!

تبادلنا نظرات صامتة. أنا محموم يائس وهي عنيدة غاضبة. ولولا قوّة إرادتي، أو لولا خوفي لانهرت تمامًا. وفكّرت بسرعة أشدّ من البرق ثمّ قلت:

ـ زهرة، توجد طرق وسطى، مثل الزواج الإسلاميّ الأصليّ!

حلّ التساؤل في عينيها محلّ الغضب فقلت وأنا لا أعرف عن الموضوع أكثر من ذكريات غامضة:

ـ نتزوّج كما كان يتزوّج المسلمون الأوائل...

ـ كيف كانوا يتزوّجون؟

ـ أعلن بيني وبينك أنّني أقبلك زوجة على سنّة الله ورسوله!

ـ بلا شهود؟

ـ أمام الله وحده!

فقالت محتجّة في استياء:

ـ جميع مَن حولنا يتصرّفون وكأنّهم لا يؤمنون بأنّ الله موجود!

ثمّ هزّت رأسها وقالت بإصرار:

ـ لا...

***

هي عنيدة كالصلب. ليست رحلة سهلة كما حلمت. ويئست من إقناعها تمامًا. إنّي على استعداد ـ إذا وافقت ـ أن أعاشرها إلى الأبد مضحّيًا بالزواج وآمالي المعقودة عليه. وفكّرت أن أهجر البنسيون كخطوة أولى للنسيان ولكنّ حبّها بقي عنيدًا ـ مثلها ـ ومتشبّثًا بقلبي. ولم تقع بيننا جفوة. كانت تجيئني بالشاي في وقته ولا تصدّني إذا قبّلتها أو ضممتها إلى صدري. وقد أذهلني أن أراها ـ في المدخل ـ مكبّة على كتاب المطالعة لتلاميذ السنة الأولى الابتدائيّة. ثبتت عيناي عليها غير مصدّقتين. وكانت المدام جالسة تحت العذراء كما كان عامر وجدي مستسلمًا للفوتيل، فقالت لي المدام باسمة:

ـ انظر إلى التلميذة يا مسيو سرحان!

وألقت عليها نظرة تشجيع وهي تقول:

ـ اتّفقت مع جارتنا المدرّسة... ما رأيك؟

إنّه لحدث. أوشكت لحظة على الضحك ولكن سرعان ما أخذت به فقلت بحماس:

ـ برافو!... برافو زهرة!

وكان العجوز يرمقني بعينيه الغائمتين فداخلني منه خوف لا أدريه فغادرت البنسيون. بلغ بي التأثّر مبلغًا هزّ أعماقي. وصوت باطنيّ قال لي إنّني إذا استهنت بحبّ الفتاة فإنّ الله لن يبارك لي قطّ. ولكنّني لم أهادن فكرة الزواج المرعبة. الحبّ عاطفة يمكن معالجتها على نحو أو آخر. أمّا الزواج فهو مؤسّسة، شركة كالشركة التي أعمل وكيلًا لحساباتها، له لوائح ومؤهّلات

وإجراءات. إذا لم يرفعني من ناحية الأسرة درجة فما جدواه؟ إذا لم تكن العروس موظّفة على الأقلّ فكيف أفتح بيتًا جديدًا يستحقّ هٰذا الاسم في زماننا المتوحّش العسير؟! أمّا مرجع تعاستي فهو أنّني أحبّ فتاة غير مستوفية لشروط الزواج. ولو قبلت حبّي بلا قيد لضحّيت في سبيلها بالزوج الذي أحنّ إليه منذ البلوغ!

ـ همّتك عالية يا زهرة!

قلت لها ذٰلك وأنا أرمقها بإعجاب، ثمّ قلت بأسف:

ـ ولٰكنّك ترهقين نفسك وتبدّدين أجرك!

قالت بكبرياء وهي واقفة أمامي تفصل بيننا الترابيزة:

ـ لنَ أبقى جاهلة!

ـ وما فائدة العلم؟

ـ سأتعلّم بعد ذٰلك مهنة فلن أبقى خادمة...

عضّ الألم قلبي وعقل لساني، أمّا هي فقالت بنبرة جديدة:

ـ جاء أهلي اليوم ليقنعوني بالرجوع إلى القرية!

رفعت إليها عينيّ مستطلعًا وأنا أداري قلقي بابتسامة فتجاهلتني خافضة جفنيها.

ـ وماذا كان جوابك؟

ـ اتّفقنا على الرجوع في أوائل الشهر القادم!

قلت بجزع:

ـ حقًّا!... ترجعين إلى العجوز؟!

ـ كلّا، لقد تزوّج!

ثمّ بصوت خافت:

ـ تقدّم لي رجل غيره.

قبضت على يدها بشدّة وتوسّلت قائلًا:

ـ لنذهب معًا، غدًا، اليوم إن شئت...

ـ اتّفقنا على الرجوع أوّل الشهر...

ـ زهرة هل قُدَّ قلبك من حديد؟

ـ إنّه حلّ بلا مشاكل!

ـ ولٰكنّك تحبّينني يا زهرة!

فقالت بامتعاض:

ـ الحبّ شيء والزواج شيء آخر، أنت علّمتني ذٰلك؟

عند ذاك خانتها شفتاها فوشتا بابتسامة خفيفة فهتفت:

ـ يا لك من شيطانة يا زهرة!

وغمرني فيض من الارتياح والفرح. ودخلتِ الحجرة عند ذاك المدام وهي تحتسي الشاي من قدح في يدها. جلست على حافة الفراش وهي تقصّ عليّ قصّة أهل زهرة وكيف رفضت الفتاة العودة. وتساءلتُ بمكر كاذب:

ـ ألم يكن من الأفضل أن ترجع إلى أهلها؟

فابتسمت المدام ابتسامة قوّادة عالمة ببواطن الأمور ثمّ قالت:

ـ أهلها الحقيقيّون هنا يا مسيو سرحان!

تجنّبت النظر إلى عينيها. تجاهلت مغزى قولها تمامًا. ولٰكنّي خمّنت أنّ الفراشة تطير بالأنباء من حجرة إلى حجرة. ولعلّ سوء ظنّها قد جاوز الحدود. ووجدتُني في النهاية سعيدًا بنصر وهميّ أمّا في الواقع فإنّ العناد الذي سدّ في وجهي باب الأمل لم يلن لحظة واحدة. وساءلتُ نفسي متى أجد الشجاعة لأهجر البنسيون نهائيًّا؟!

***

بدا المنظر مألوفًا وفاترًا إلى حدّ ما. المدام تجلس لصق الراديو تكاد تطرح رأسها وهي تتابع أغنية إفرنجيّة. أمّا عامر وجدي فقد راح يسمّع لزهرة بعض الكلمات. ودقّ الجرس فإذا بالقادمة مدرّسة زهرة. معذرة... الشقّة مزدحمة بالضيوف. فإذا سمحتم أعطيت الدرس هنا. كَرَم منها بلا ريب. واستقبلناها بترحاب وأدب. وهي وسيمة وأنيقة وموظّفة. راقبتها وهي تدرّس لزهرة، وجدتُني منساقًا للمقارنة بينهما بتأمّل وأسّى. هنا الفطرة والجمال والفقر والجهل وهناك الثقافة والأناقة والوظيفة. آه لو تحلّ شخصيّة زهرة في بيئة الأخرى وإمكانيّاتها. وتطفّلت المدام على الدرس لتشبع حبّ استطلاعها الأبديّ فعرفنا الاسم والأسرة وحتّى الأخ المنتدب للعمل في السعوديّة. وإذا بي أسألها:

ـ أمن الممكن أن يرسل لنا بعض البضائع النادرة

من هناك؟

فأجابت في تحفّظ بأنّها ستسأل عن إمكان ذلك.

وغادرت البنسيون إلى كافيه دي لابيه لمقابلة المهندس عليّ بكير. نظر إليّ بثقة وقال:

ـ كلّ خطوة تُرسم بدقّة، والنتائج مضمونة!

حسن، فلنثب وثبة موفّقة تجعل من زيارتنا للدنيا رحلة لها معناها وقيمتها. ثمّ سألني عليّ بكير:

ـ قابلت صفيّة بركات في ديليس فهل حقًّا...؟

قلت بامتعاض:

ـ عليها اللعنة!

ضحك وهو ينظر في عينيّ باهتمام ثمّ عاد يسألني:

ـ ولكن هل هجرتها حقيقة من أجل...؟

ـ لا تصدّقها من فضلك، متى كانت ممّن يعتمد الإنسان على صدقهنّ؟!

فازداد اهتمامًا وتفكيرًا وهو يقول:

ـ إنّ سرّنا من الأسرار التي يضنّ بها حتّى على الزوجة والابن!

فهتفت به مؤنّبًا:

ـ الله يسامحك!

***

قلت لنفسي يا للعجب. إنّها نظرة يطيب بها غرور الرجل. لم تَلُحْ فيها ابتسامة ولا رعش هدب، ولكنّها ـ المدرّسة ـ حوّلت رأسها بغتة عن زهرة وكتابها ورشقتني بها. لم تدم أكثر من ثوانٍ. هرّبتها إليّ في غفلة من زهرة وعامر وجدي. لم تدم أكثر من ثوانٍ. وقد أتلقّى عشرات مثلها فلا تهزّني شعرة وأعتدّها نظرة عابرة، غير أنّها عكست ومضة معبّرة لا توصف وكأنّما أبلغتني رسالة كاملة. غيّرت خطّ سيري فقبعت وراء الزجاج بمقهى الميرامار أراقب السحب وأنتظر. تدبير بلا هدف، وليس وراءه عاطفة، ولكنّه تطلّع ـ من فراغ ويأس ـ إلى مغامرة، أيّة مغامرة. ولم تكن بالمثال الذي يمكن أن يفتنني ولا حتّى يثيرني ولكنّها ـ فيما بدا ـ دعتني إلى نزهة في يوم عطلة شديد الملالة.

وإذا بها تمرّ أمام المقهى واضعة يديها في جيبَي معطفها الرماديّ. تبعتها عن بعد حتّى لحقت بها في أثينيوس. ابتاعت بعض الحلوى ووقفت كالمتردّدة فاقتربت منها وحيّيتها. ردّت التحيّة فدعوتها إلى قدح شاي فقالت لي إنّها كانت تفكّر في الجلوس بعض الوقت. احتسينا الشاي وتناولنا قطعتين من الجاتوه، ثمّ دار حديث تعارُف سطحيّ ولكن لا يخلو من معلومات مفيدة عن الأسرة والعمل. وسياق الحديث وحده هو الذي جعلني أطالب بموعد قريب. وتقابلنا في بوفيه سينما أمير، ثمّ شهدنا الفيلم معًا، وكان عليّ أن أحدّد نوع المغامرة ولونها، ولم أجدها بالقياس إلى قلبي جديرة بالمثابرة والتعب، ورغم ذلك فعندما دعتني إلى زيارة أسرتها قبلت! أدركت أنّها تبحث عن زوج. وزنتها بعقل بارد، قدّرت المرتّب والدروس الخصوصيّة وتذكّرت في ذات الوقت يأسي المتزايد من زهرة، وفي أسرتها عثرت على إغراء جديد وهي ملكيّة والديها لعمارة متوسّطة بكرموز. وجدتُني أفكّر في الأمر بجدّيّة لا طمعًا في مالها ولا حبًّا فيها ولكن انسياقًا لحنيني القديم إلى الزواج. وزهرة؟! قد أجد شيئًا من عزاء عن غدري بها في الزواج نفسه الذي سيربطني إلى الأبد بامرأة لا أحبّها، ولكن هل أستطيع حقًّا أن أقهر الحبّ المشبوب في قلبي؟!

***

أشار إليّ راجيًا أن أنتظر. كنت هممت بالانصراف بعد شراء الجريدة وكان يحاسب زبونًا. فلمّا فرغ منه أقبل عليّ وهو يقول:

ـ أستاذ... سأخطب زهرة!

داريت انزعاجي بابتسامة وسألته:

ـ مبارك، هل تمّ الاتّفاق بينكما؟

أجاب منتفخًا بالثقة:

ـ تقريبًا!

نبض قلبي بألم أليم وأنا أسأله:

ـ ماذا تعني بقولك «تقريبًا»؟

ـ هي زبونة يوميّة، لم نطرق الموضوع صراحة. ولكنّي خير مَن يفهم النسوان!

كرهته في تلك اللحظة لحدّ الموت، أمّا هو فسألني:

ـ ما رأيك يا أستاذ في أخلاقها؟

ـ طيّبة جدًّا والحقّ يقال.

ـ سأخطبها من مدام ماريانا حتّى أهتدي إلى

أهلها.

تمنّيت لـه التوفيق ثمّ ذهبت ولكنّـه لحق بي بعـد خطوتين وهو يسأل:

ـ ماذا تعرف عن الخلاف بينها وبين أهلها؟

ـ كيف علمت به؟

ـ أنبأني به عامر بك، العجوز. . .

ـ جملة ما أعرفه أنّها عنيدة وأبيّة النفس.

فضحك وهو يقول في مباهاة:

ـ إنّي أعرف الدواء لكلّ داء. . .

***

كانت خطبة. . . وكان رفض.

وبقـدر ما أرضـاني ذٰلـك بقـدر مـا ضـاعف من إحساسي بالمسئوليّة. مزّقني القلق، اجتاحني الحبّ، تراجعت عليّة من مقدّم الصورة حتّى لاحت خلفيّـة باهتة.

وقبضت على معصمَي زهرة بحنان وضراعة وقلت بحرارة وتوسّل:

ـ أنقذيني. . . ولنذهب في الحال!

تخلّصت منّي بجفاء وهي تقول:

ـ لا تعد إلى ذٰلك، إنّي أكره سماعه!

لن نتلاقى أبدًا. هي تحبّني ولٰكنّها ترفض التسليم بلا قيد، وأنا أحبّها ولٰكنّي أرفض القيد. ولا هٰذا ولا ذاك بالحبّ الحقيقيّ الذي تمحى عنده الإرادة والعقل.

وقد دعاني السيّد محمّد والـد عليّة للغـداء فلبّيت الدعوة. ودعوت الأسرة في نهاية الأسبوع للعشاء في باستوريدس. انقلب الجوّ بعد أن استقرّ بنا المجلس فصفّرت الريـح وانهمر المـطر. ومضيت أقنع نفسي طـوال الوقت بـأنّ عليّة فتـاة ممتازة وأنّها تَعِدُ بزواج مـوفّق. وسيمـة. . . أنيقـة جـدًّا. . . مـوظّفـة. . . مثقّفة. . . ماذا تريد أفضل من ذٰلك؟ ولو لم أرق في عينيها. . .، ما لي أتحفّظ لهٰـذا الحدّ؟ إنّها تحبّني بـلا ريب، الراغبة في الزواج راغبة في الحبّ أيضًا. ثمّ ما هٰذا الذي يعدنا بالفراديس دون أن يفي ولو بشيء من وعده؟ واشتدّت العاصفة في الخارج حتّى خيّل إليّ أنّها ستقلع المدينة الجميلة من جذورهـا فتضـاعف شعـورنا بنعمـة الدفء والأمـان في الداخـل. وقلت لنفسي إنّني اقتحمت أبـواب هٰـذه الأسرة المحـترمـة مدفوعًا بانفعالات عفويّة ولٰكن بلا خطّة موضوعة أو نيّة صادقة، وبلا إمكانيّة ماليّة مناسبة، وإنّ عليّ أن أصارحهم بحقيقة مركزي وبمسئوليّتي العائليّة تاركًا لهم بعـد ذٰلك الخيـار. وقـد جرّ الحـديث المتشعّب إلى «الزواج» كموضوع عامّ فقال والد عليّة:

ـ على أيّامنا كنّا نتزوّج مبكّرين فنهنأ برؤية أولادنا وهم رجال مسئولون!

فحرّكت رأسي حركة تنمّ عن الحسرة وأنا أقول:

ـ تلك أيّام خلت، أمّا هٰذه الأيّام فهي منحوتة من العسر والصخر. . .

فمال نحوي قليلًا ثمّ قال بصوت كالهمس:

ـ ابن الحلال ثروة في ذاته، وعلى الأمناء من الناس أن يذلّلوا له العقبات. . .

***

يا له من وجه مكفهرّ. كان قد انتبه إلى اقترابي من معرضه وأنا على بعد خطوتين منه فسرعان ما اكفهرّ وجهه. رماني بنظرات غاضبة حتّى عجبت لشأنه. ثمّ تساءل متهكّمًا دون أن يقدّم لي الجريـدة كعادتـه كلّ يوم:

ـ لِمَ أخفيت عنّي أنّك عشقتها؟

بوغِتُّ بقوله، ولهجته الوقحة، وهتفت به:

ـ أنت مجنون!

فصاح بي:

ـ أنت جبان!

فقدت صوابي فلطمت وجهه بظهر كفّي. وإذا به يهوي براحته الكبيرة على خدّي. وتبادلنا الضرب بلا وعي ولا رحمة حتّى فرّق الواقفون بيننا. انفصلنا ونحن نتبادل أقذع الشتائم. وسرت وقتًا على غير هدى وأنا أسائل نفسي عمّن وضع تلك الفكرة الخبيثة في رأسه الخاوي.

وقد مضى زمن طويـل قبل أن أراه مـرّة أخرى. دخلت آنذاك لأتناول عشاء خفيفًا في مطعم بانيـوتي فوجدته جالسًا في مقعد صاحب المحلّ وراء صندوق الماركات. هممت بالتراجع فوثب من مجلسـه إليّ ثمّ احتـواني بين ذراعيـه وهو يقبّـل رأسي، وأبى إلّا أن

يدعوني للعشاء على حسابه! واعتذر إليّ عمّا سلف ثمّ اعترف لي بأنّ حسني علّام هو الذي افترى عليّ تلك الكذبة!

***

ـ عزيزتي... أرجو ألّا تعلم زهرة بما بيننا!

كنّا نجلس على شاطئ المحموديّة بكازينو البالما تحت الشعاع الدافئ. وكان اتّصالها المنتظم بزهرة يقلق خيالي. إنّها لا تدري شيئًا عن الأسباب الحقيقيّة التي ساقت زهرة إلى التتلمذ عليها، كما أنّ زهرة لا تتصوّر أنّ مدرّستها قرّرت الاستيلاء على رجلها. وقد رمقتني عليّة بارتياب وهي تسأل:

ـ لِمَ؟

ـ إنّها ثرثارة!... والثرثرة غير مستحبّة في اللحظة الراهنة من علاقتنا...

لم تزايل الريبة نظراتها وقالت:

ـ ولٰكنّ علاقتنا ستُعرف عاجلًا أو آجلًا...

فقلت بصراحة فجّة:

ـ يخيّل إليّ أحيانًا أنّها تنظر إليّ نظرة خاصّة...

قالت وهي تبتسم ابتسامة شاحبة فاترة:

ـ لعلّ لديها من الأسباب...

فقلت بجدّيّة:

ـ جميع النزلاء يمازحونها أحيانًا، وقد فعلت مثلهم، هٰذا كلّ ما هنالك...

كانت العلاقة قد تطوّرت من ناحيتها إلى حبّ. ولم يكن يهمّني أن تصدّقني بالكامل بقدر ما يهمّني أن تأخذ حذرها من زهرة! وإذن فقد انتصر العقل على القلب ولم يبق إلّا أن أعلن الخطبة. على ذاك تردّدت، وجعلت أؤجّل اليوم الموعود بحجّة الرجوع إلى القرية ليلعب الأهل دورهم التقليديّ. وكلّما مرّ يوم توتّرت مشاعري حيال زهرة وحزّ في نفسي غدري المخزي بها. وكنت أتنهّد بحسرة وأقول: آه لو تلين... لو تذعن... فأهبها قلبي إلى الأبد...

***

رعد!... زلزال؟... مظاهرة؟... سقوط جسم بالحجرة؟!

أخرجت رأسي من تحت الغطاء إلى ظلام دامس. أنا هو أنا... هٰذا فراشي ببنسيون ميرامار... ولٰكن ما هٰذا؟... ربّاه... إنّه صوت زهرة... إنّه يطرق بابي.

هرعت إلى الخارج. رأيتها على ضوء المصباح السهاريّ مشتبكة مع حسني علّام في صراع مميت. من نظرة واحدة أدركت حقيقة الموقف كلّه. أردت أن أنقذها بلا فضيحة ومع الإبقاء على علاقتي بحسني. وضعت يدي على كتفه برفق هامسًا:

ـ حسني!

لٰكنّه لم يسمعني فشددت على كتفه وأنا أقول بنبرة أقوى:

ـ حسني... أجننت؟!

دفعني بظهره بوحشيّة ولٰكنّي قبضت على منكبه وقلت له بحزم:

ـ ادخل الحمّام وضع إصبعك في فمك!

وإذا به يستدير نحوي ويلطمني على جبهتي. جننت من الغضب فانهلت عليه ضربًا. ولم يقف الضرب بيننا حتّى أدركتنا المدام. وقد عاملت المدام المعتدي برفق لا يستحقّه. إنّي أفهم العجوز جيّدًا. من خلال نفسي أفهمها حقًّا. كلانا حامَ حول حسني ممنّيًا النفس بالاستفادة من مشروعه الخياليّ. وهي متردّدة تقدّم رِجْلًا وتؤخّر أخرى، وأنا متحفّز طيلة الوقت للوثوب. ها هو الباب يُغلق في وجهي نهائيًّا، أمّا هي فتكاد تعنّف المضروب من أجل خاطر الضارب.

وعقب ذٰلك بأيّام رأيته ـ حسني علّام ـ خارجًا من الجنفواز حوالى الواحدة صباحًا مصطحبًا معه صفيّة بركات. لم أدهش إلّا قليلًا ثمّ تذكّرت يوم مضى بها من البنسيون. إنّها تماثله في التهوّر والحلم بالمشاريع، وسيجمع بينهما الحبّ والأحلام. وكنت ـ تلك الليلة ـ قد سهرت في حانة جورج مع عليّ بكير ورأفت أمين. وسرنا في الكورنيش متشجّعين بصفاء الجوّ وحرارة الخمر. ولا حديث لرأفت أمين ـ وبخاصّة إذا سكر ـ إلّا الوفد. وقد وضح لي أنّ عليّ بكير لا يكاد يعرف الفارق بين الوفد والنادي الأهليّ. من ناحية أخرى لم أكن أهتمّ في أعماقي بالسياسة رغم نشاطي الموفور فيها. أمّا رأفت أمين فراح يتحدّث بلسان مخمور عن

الوفد وأيّامه. وسألته ساخرًا:

ـ ألا تعترف بالموت؟

فقال بصوت دوّى في الطريق الخالية:

ـ قل في الثورة ما تشاء، لا أنكر قوّتها الشاملة، ولٰكنّ الشعب مات بموت الوفد!

عند ذاك وقع بصري على حسني علّام وصفيّة بركات وهما ينحدران إلى الكورنيش كدبّين قويّين، قلت ضاحكًا وأنا أشير إليهما من بعيد:

ـ ها هو شعب الوفد يواصل جهاده بعد منتصف الليل!

وعندما آن لنا أن نفترق همس عليّ بكير في أذني:

ـ عمّا قريب سنعطي إشارة البدء في العمل.

***

دخلت البنسيون والنوم يخيّم على أرجائه. وتراءى لي باب منصور باهي الزجاجيّ وهو ينضح بالضوء فاندفعت بسحر الخمر إلى الاستئذان فالدخول، بلا باعث حقيقيّ. نظر إليّ بشيء من الدهشة وهو جالس على المقعد الكبير. تتجلّى في عينيه الصغيرتين الجميلتين كآبة وتفكير. قلت وأنا أتّخذ مجلسًا على كرسيّ قريب:

ـ لا تؤاخذني... أنا سكران!

فقال دون مبالاة:

ـ هٰذا واضح...

ضحكت، ثمّ قلت معاتبًا:

ـ الحقّ أنّي عجزت عن جذبك إليّ، يبدو أنّك شديد الانطواء!

أجاب بأدب ولٰكن دون تشجيع ما:

ـ لكلٍّ طبعه...

ـ لا شكّ أنّ رأسك يرهقك!

أجاب بغموض:

ـ الرأس أصل البلاء!

فقلت ضاحكًا:

ـ طوبى لنا نحن أصحاب الرءوس الفارغة!

ـ لا تبالغ فإنّك مركز نشاط لا يخمد...

ـ حقًّا؟

ـ نشاطك السياسيّ... أفكارك الثوريّة... غراميّاتك!

صدمتني العبارة الأخيرة من قوله ولٰكن ضاعت الصدمة في مدّ الموجة الخمريّة. ووضح لي أنّه لا يرحّب بي ـ إنّه لا يرحّب بأحد ـ فصافحته ثمّ ذهبت.

***

عندما تجيء زهرة إلى حجرتي بالشاي أتخلّى عن أفكاري ومشروعاتي ويتفرّغ قلبي للحبّ الحقيقيّ وحده. ولٰكنّ وجهها تبدّى صلبًا متحجّرًا مصفرًّا من الغضب. ونظرتها الثابتة الكالحة المتحفّزة المخيفة ملأت قلبي بالقلق والتشاؤم. قلت بإشفاق:

ـ زهرة... لست كعادتك!

قالت بحنق مفترس:

ـ لولا أنّ الله حكمته التي هي فوق العقول لكفرت!

ماج صدري بالقلق فسألتها:

ـ هل من همّ جديد يضاف إلى همومنا المستعصية؟!

قالت باقتضاب وازدراء:

ـ بعينيّ رأيتكما...

عرفت مَن تعني فغاص قلبي في هاوية عميقة من صدري وسألت بيأس:

ـ مَن تعنين؟

ـ الأستاذة!

ثمّ بضراوة وحقد:

ـ الخطّافة الداعرة...

ضحكت. يجب أن أضحك. وأن أضحك ضحكة الاستهانة التي نواجه بها عادة غضبة خاطئة في غير محلّها. ضحكت وأنا أقول:

ـ يا لك من ... صادفت أستاذتك في طريقي فأدّيت لها ما...

قاطعتني بقسوة:

ـ كذّاب... لم تكن مصادفة... وقد عرفت ذٰلك منها اليوم!

هتفت بانزعاج:

ـ لا!

ـ اعترفت الخنزيرة بمقابلتك، ولم يدهش أحد من والديها، ولٰكنّهم دهشوا جميعًا لتطفّلي أنا!

خرستُ، خرست تمامًا، وقالت هي بتقزّز

وغضب:

ـ لِمَ يخلق الله أمثالك من الجبناء؟

انهزمتُ... تهدّمت... ومن أعماق هاوية اليأس توسّلت إليها قائلًا:

ـ زهرة!... كلّ ذلك يقوم على غير أساس... إنْ هو إلّا تخبّط يائس... راجعي نفسك يا زهرة... يجب أن نذهب معًا.

لم تسمع كلمة ممّا قلت إذ واصلت كلامها قائلة:

ـ ماذا أفعل؟... لا حقّ لي عليك... وغد حقير... غُرّ في ألف داهية!

وبصقت في وجهي!

غضبت. رغم موقفي المخزي غضبت. ثمّ صحت بها:

ـ زهرة!

فبصقت في وجهي مرّة أخرى. أعماني الغضب فصرخت:

ـ اذهبي وإلّا كسرت رأسك.

انقضّت عليّ ولطمتني على وجهي بقوّة مذهلة. انتثرت واقفًا وقد جنّ جنوني. قبضت على يدها بقسوة ولٰكنّها انتزعتها بعنف ولطمتني للمرّة الثانية. فقدت وعيي فانهلت عليها ضربًا وصفعًا وهي تبادلني الضرب والصفع بقوّة فاقت تصوّري. وإذا بالمدام تهرول نحونا وهي ترطن بألف لسان. أبعدَتْها عنّي فصحت في جنون الغضب:

ـ أنا حرّ... أتزوّج بمن أشاء... وسأتزوّج عليّة!

وجاء منصور باهي فمضى بي إلى حجرته. لا أذكر أيّ حديث تبادلنا ولٰكنّي أذكر تهجّمه عليّ بوقاحة غريبة، وكيف اشتبكنا في صراع جديد. جاء موقفه مفاجأة لي وأيّ مفاجأة. لم يجرِ لي في خاطر أنّه أيضًا من عشّاق زهرة! هٰكذا عرفت سرّ نفوره الغريب منّي. ولحقت بنا المدام. قرّرت أن تجعل منّي كبش الفداء، العجوز القوّادة. قالت إنّ البنسيون لم يعرف الهدوء منذ جئته، وإنّني قلبته إلى سوق همجيّة للمعارك وقلّة الأدب. وبصراحة وقحة قالت لي متحدّية:

ـ ابحثْ لك عن مسكن آخر!

لم يعد ثمّة ما يدعوني للبقاء. ولٰكنّي أصررت على الإقامة حتّى عصر الغد، آخر الأسبوع الذي دفعت إيجاره مقدّمًا، وهو إصرار يرجع أوّلًا وأخيرًا إلى العناد والكبرياء.

وغادرت البنسيون فهمْتُ على وجهي طويلًا تحت سماء ملبّدة بالغيوم متعرّضًا لدفقات متواصلة من الهواء البارد. وجعلت أتسلّى بمشاهدة معارض الحوانيت المتلألئة بهدايا السنة الجديدة وأنظر بفتور إلى بابا نويل العتيد!

وذهبت إلى بدرو لموعد سابق مع المهندس عليّ بكير. وقد سألني:

ـ هل دبّرت مسألة الاستمارات؟

فأجبته بالإيجاب فقال لي:

ـ فجر الغد، سوف نبدأ مع فجر الغد.

***

قلت لنفسي وأنا ذاهب إلى الشركة في الصباح الباكر «مضى الفجر... وتمّت اللعبة».

كنت مضطربًا، ونهمًا إلى الأخبار. اتّصلت بالمصنع تليفونيًّا طالبًا عليّ بكير فقيل لي إنّه في المرور. إذن فقد نفّذ التدبير بإحكام ونجاح وها هو يزاول عمله اليوميّ. واجتاحني الاضطراب فغادرت الشركة قبل الميعاد متعلّلًا بعذر ما ولدى مروري أمام دار الإذاعة لمحت منصور باهي وفتاة حسناء يغادرانها معًا. ترى من تكون؟... خطيبة؟... عشيقة؟ هل تجد زهرة نفسها على الرفّ مرّة أخرى؟ تذكّرت زهرة بحزن. لم أبرأ تمامًا من حبّها، وهو العاطفة الصادقة الوحيدة التي خفق بها قلبي الممزّق بالأهواء.

ومضيت لزيارة عليّة محمّد وأسرتها فاستُقبلت استقبالًا فاترًا، بل متجهّمًا. هممت بطرح بعض الأكاذيب كالعادة ولٰكنّ والدها قال لي بغضب:

ـ تصوّر موقفنا وتلك الخادمة تناقشنا الحساب!

ولمّا جاء ميعاد الغداء لم أُدْعَ له. غادرت الشقّة بلا أمل في وصل ما انقطع من الأسباب. والحقّ أنّي لم أكترث لذلك كثيرًا. لم يعد يفصل بيني وبين الثراء إلّا ساعات، وسوف أجد الزوجة الفاخرة المناسبة.

تناولت الغداء عند بنايوتي (محمود أبو العبّاس) ثمّ ذهبت إلى مسكن عليّ بكير ولٰكنّي لم أجده. مضيت إلى

البنسيون والنهم إلى الأخبار يحرقني حرقًا. أعددت حقيبتي وحملتها إلى المدخل. وتلفنت إلى عليّ بكير وكم غمرني الارتياح الساحر وصوته يردّ عليّ قائلًا: «آلو».

ـ سرحان يقدّم تحيّاته... كيف الحال؟

ـ كلّ شيء طيّب... لم أقابل السوّاق بعد!

ـ متى نعرف النتيجة النهائيّة؟

ـ قابلني مساء اليوم الساعة الثامنة بكازينو البجعة!

فقلت باستجابة متلهّفة:

ـ طيّب... الساعة الثامنة مساء... سأنتظرك في كازينو البجعة...

ـ إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

غادرت بنسيون ميرامار إلى بنسيون إيفا. تسكّعت بين المقاهي أشرب كأسًا هنا وكأسًا هناك، مبذّرًا نقودي بلا حساب. بالشراب أسكتُّ وساوس القلق وأنّات الحبّ المحتضر. ووعدت أهلي بخير لم يحلموا به منذ وفاة أبي. وذهبت إلى كازينو البجعة قبل الموعد بقليل. التقيت عند المدخل بطلبة مرزوق فضايقني ذلك جدًّا ولكنّي صافحته متظاهرًا بالارتياح. وقد سألني:

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

ـ موعد هامّ....

ـ دعني أردّ إليك تحيّة من تحيّاتك فلنجلس معًا حتّى يجيء صاحبك.

جلسنا في البهو الشتويّ وهو يسألني بصوته الأجوف من انتفاخ شدقيه:

ـ كونياك؟

كنت ثملًا ولكن كانت بي رغبة في المزيد. شربنا وتحادثنا وضحكنا. وإذا به يسألني:

ـ ترى هل يُسمح لي بالسفر إلى الكويت لزيارة كريمتي؟

ـ أعتقد ذلك، أتريد أن تبدأ من جديد؟

ـ كلّا ولكنّ زوج كريمتي ـ هو ابن أخي أيضًا ـ قد أثرى ثراء كبيرًا.

ـ لعلّك تفكّر في الهجرة؟

لاحت في عينيه نظرة حذرة ثمّ قال:

ـ كلّا... أريد فقط أن أرى ابنتي.

قرّبت رأسي منه وأنا أقول:

ـ هل أدلّك على عزاء حقيقيّ؟

ـ ما هو؟

ـ البعض يضيقون بالثورة، ولكن أيّ نظام يمكن أن يحلّ محلّها؟ فكّر قليلًا أو كثيرًا فلن تجده خارجًا عن واحد من اثنين، فإمّا الشيوعيّة وإمّا الإخوان، فأيّهما تفضّل على الثورة؟!

قال بعجلة:

ـ لا هٰذا ولا ذاك!

فقلت وأنا أبتسم في ثقة وانتصار:

ـ هٰذا هو يقيني، فليكن لك في ذٰلك عزاء.

وأزف الميعاد ولم يجئ عليّ بكير. انتظرت نصف ساعة أخرى مرّت في عذاب أليم. قمت إلى التليفون وطلبت مسكنه فلم يردّ أحد. لعلّه في طريقه إلى هنا ولكن ماذا أخّره؟ ألا يقدّر ما يفعله التأخير بي؟ ونظر طلبة مرزوق في ساعته ثمّ قال «آنَ لي أن أذهب» ثمّ صافحني وذهب. ولم أكفّ عن الشراب. وأخيرًا جاء الجرسون ليخبرني بأنّ شخصًا يطلبني في التليفون. وثبتُ واقفًا ثمّ هرعت إلى التليفون. تناولت السمّاعة وقلبي يضرب بشدّة:

ـ آلو... عليّ؟... لِمَ لَمْ تجئ؟

ـ سرحان... أصغِ إليّ... انكشف الأمر!

تفاعلت كلماته مع وشّ الكحول في أذني وانداحت جميعًا في دوران شمل السماء والأرض:

ـ ماذا قلت؟

ـ قضي علينا!

ـ ولكن كيف؟... قل ما عندك دفعة واحدة!

ـ ما الفائدة؟... أراد السوّاق أن يفوز بالغنيمة وحده فوقع في شرّ عمله... سيعترف بكلّ شيء... إن لم يكن قد اعترف بالفعل...

سألت بريقٍ جافّ:

ـ والعمل؟... ماذا أنت صانع؟

ـ قضي علينا... سأفعل ما يمليه عليّ الشيطان.

وأغلق السكّة.

إنّي أرتجف ولا تكاد تحملني قدماي. فكّرت لحظة

في الهرب ولكنّي عدت ـ تحت عيني الجرسون ـ إلى المائدة. لم أجلس. شربت الكأس. أدّيت الحساب. اليأس يزحف بسرعة مذهلة. وخوف مثل الشيطان. فارقت موقفي إلى البار رأسًا. بطريقة غير شعوريّة. طلبت من البارمان زجاجة واندفعت في الشرب بلا وعي وهو يرمقني بقلق. أصبُّ وأشرب ثمّ أصبّ. دون كلمة أو لفتة أو تريّث. ثمّ رفعت رأسي إليه قائلًا:

ـ موسى حلاقة من فضلك؟

تردّد قليلًا، ولمّا قرأ الإصرار في وجهي نادى الجرسون وسأله عن موسى. رجع الجرسون بموسى مستعملة عارية فتقبّلتها شاكرًا ثمّ أودعتها جيبي. انفصلت عن البار بشيء من المشقّة ثمّ مضيت نحو الباب الخارجيّ. مترنّحًا... يائسًا... متعجّلًا. عبرت الطريق وبودّي لو أركض ركضًا.

كنت يائسًا... يائسًا... يائسًا...

٥

عامر وجدي

تنغّص عليّ صفوي بالأحداث التي ألّمت بالبنسيون. لقد ركنت إليه لأنعم بشيء من الهدوء الضروريّ لشيخوختي. وبشيء من عزاء الذكريات عن الخيبة المريرة التي مُنيتُ بها في ختام حياتي العمليّة. لم يجرِ لي في الظنّ أنّه سينقلب ميدانًا لمعارك وحشيّة قُدّر لها أن تنتهي بجريمة قتل دامية.

ودبّ فيّ بعض نشاط فغادرت حجرتي منضمًّا إلى ماريانا وطلبة مرزوق بمجلسنا المعهود بالمدخل. وددت أن أرى زهرة ولكنّ اضطراب ماريانا وتجهُّم طلبة منعاني من استدعائها إلى جوّ سيضيق حتمًا بأحزانها ولن يوليها الاحترام اللائق. وعلمت أنّ حسني علّام قد غادر البنسيون في ميعاده المألوف تقريبًا. إنّه انفعل ساعة بالخبر الدامي ثمّ مضى إلى حال سبيله، أمّا منصور باهي فقد تأخّر به النوم على خلاف عادته. وقالت ماريانا بتأفّف:

ـ ها هو اليوم الأخير من السنة، ختمها أسوأ ختام، فماذا يخبّئ لنا العام الجديد؟!

فتساءل طلبة مرزوق في ضجر عصبيّ:

ـ أيّ متاعب ستلاحقنا هنا!

فتمتمت بصوت واهن:

ـ ما دمنا أبرياء...

فقاطعني بحدّة:

ـ أنت متحصّن بشيخوختك فلن يضيرك شيء...

وترامى إلينا صوت باب منصور وهو يُفتح. ذهب إلى الحمّام. رجع إلى حجرته بعد نصف ساعة.

وما لبث أن ظهر من وراء البارفان، مرتديًا بدلته ومعطفه، ولكنّه طالعنا بوجه شديد الشحوب ونظرة معتمة وقسمات متصلّبة. أخبرته المدام بأنّ إفطاره مُعَدّ ولكنّه رفضه بهزّة من رأسه دون أن ينبس. أقلقنا منظره بلا شكّ، وكانت المدام أسرعنا في الإفصاح عن ذاك القلق فقالت له:

ـ اجلس يا مسيو منصور... أأنت على ما يرام؟

قال دون أن يجلس:

ـ على خير ما يرام، لقد نمت أكثر من المعتاد، هٰذا كلّ ما هنالك!

فقالت وهي تشير إلى الجريدة المطروحة على الكنبة:

ـ أما سمعت الخبر؟

لم يبدِ أيّ اهتمام بشيء فقالت:

ـ سرحان البحيري... وُجد قتيلًا في طريق البالما...

نظر إليها طويلًا. لم يدهش، لم ينزعج، ولكنّه ظلّ ينظر في عينيها. كأنّما لم يسمع قولها، أو لم يفهمه، أو أنّه يعاني مرضًا أخطر ممّا نتصوّر. ودعته ماريانا إلى قراءة الخبر في الجريدة فألقى عليه نظرة متمهّلة هادئة، وأبصارنا مركّزة عليه، ثمّ رفع رأسه وهو يقول:

ـ أجل... وُجد قتيلًا...

قلت له بإشفاق:

ـ إنّك متعب فلتجلس...

فقال ببرود أو لعلّه ذهول:

ـ إنّي بخير...

فقالت ماريانا:

- نحن كما ترى في غاية من الاضطراب...

نقّل بصره بين وجوهنا ثمّ سأل:

- لِمَ؟!

- نتوقّع أن يجيء البوليس فيُقلق راحتنا...

- لن يجيء...

فقال طلبة مرزوق:

- ولٰكنّ البوليس كما تعلم...

فقاطعه قائلًا بهدوء:

- أنا قاتل سرحان البحيري...!

ومضى نحو الباب قبل أن نفقه قوله ففتحه ثمّ نظر إلينا قائلًا:

- سأذهب إلى البوليس بنفسي...

وأغلق الباب وراءه... تبادلنا نظرات ذاهلة، مضى وقت ونحن نترامق في ذهول وصمت. ثمّ هتفت ماريانا بخوف:

- إنّه مجنون!

فقلت:

- بل إنّه مريض...

تفكّر طلبة مليًا ثمّ قال:

- ولعلّه هو القاتل!

فصاحت ماريانا:

- ذٰلك الشابّ المهذّب الخجول!

وقلت بإشفاق:

- إنّه مريض بلا شكّ.

وتساءلت ماريانا:

- ولِمَ يقتله؟

فتساءل طلبة بدوره:

- ولِمَ يعترف بأنّه القاتل؟

قالت ماريانا:

- لن أنسى صورة وجهه، لقد مسّ عقله شيء...

فقال طلبة مؤيّدًا رأيه:

- لقد كان آخر المتشاجرين معه...

فقلت معترضًا:

- ما من أحد إلّا وتشاجر معه...

فأشار ناحية حجرة زهرة وقال:

- هناك يستقرّ السبب...

فقلت محتدًا:

- ولٰكنّه الوحيد الذي لم يُبْدِ نحوها أيّ اهتمام خاصّ.

- لا يعني ذاك أنّه لم يحبّها، أو أنّه لم يرغب في الانتقام من غريمه فيها...

- يا سيّدي لقد تركها سرحان وذهب...

- ولٰكنّه أخذ قلبها، كما أخذ شرفها!

- صه... لا تفتري على الناس بغير يقين...

وتساءلت ماريانا:

- ترى هل يذهب حقًا إلى البوليس؟

وتواصل الحديث محمومًا حتّى أرهقنا، وعند ذاك هتفت:

- فلنكفّ... كفاية... ولنسلّم إلى المقادر...

***

﴿.... أو كظلمات في بحر لجّيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومَن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور. ألم ترَ أنّ الله يُسبّح له مَن في السماوات والأرض والطير صافّات كلّ قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون. ولله مُلْك السماوات والأرض وإلى الله المصير﴾.

سرعان ما تعبت عيناي من القراءة. غادرت الحجرة إلى المدخل والساعة تدقّ الرابعة مساء. وجدت ماريانا غارقة في الكتابة فراحت تقول لي:

- أوّل ليلة رأس السنة تمرّ بي وكأنّها ليلة مأتم.

فقال طلبة مرزوق بحزم:

- إيّاكم والعودة إلى حديث الهمّ والكدر.

فقالت المدام بغضب:

- لقد سقط النحس على البنسيون، إنّي واثقة من ذٰلك، وعلى زهرة أن تذهب، فلتبحث عن رزقها في مكان آخر.

أصابت غضبتها قلبي فقلت بإشفاق:

- إنّها بريئة يا ماريانا، سيّئة الحظّ، وقد لجأت إليك في محنتها.

- أصبحت أتشاءم منها.

فَرْقَعَ طلبة بأصابعه كأنّما قد تلقّى فكرة جديدة سعيدة وقال:

ـ ماذا يمنعنا من الاحتفال بليلة رأس السنة؟

فقلت بدهشة:

ـ ماذا يمنعنا! . . . يا له من قول مضحك.

تجاهلني. . . وقال لماريانا:

ـ استعدّي يا عزيزتي. . . سنسهر معًا كما اتّفقنا!

تشكّت المرأة قائلة:

ـ أعصابي. . . أعصابي يا مسيو طلبة.

ـ لذلك أدعوك للسهر.

تغيّر الجوّ. بالقياس إليهما على الأقلّ. وراحا يناقشان الاقتراح بجدّيّة. وجاء آنذاك حسني علّام من الخارج فأعلن عن عزمه على الانتقال من البنسيون إلى مقام جديد. وقصّت عليه المدام قصّة منصور باهي الغريبة فتلقّاها بدهشة كبيرة وناقشها وقتًا، ثمّ هزّ كتفيه العريضين كأنّما ينفضهما عنه، وراح يعدّ حقيبته، ثمّ ودّعنا وانصرف.

وتمتمت عقب انصرافه بحزن:

ـ عدنا وحدنا كما كنّا. . .

فقال طلبة بمرح:

ـ لنحمد الله على ذلك. . .

انبعثت فيهما روح نشاط دفّاق جرفت من قلبيهما شوائب القلق والكآبة. ازّينت ماريانا كالأيّام الخالية.

ارتدت فستان سهرة كحليّ اللون فأضفى على بياض بشرتها نصاعة وبهاء، ومعطفًا أسود ذا طوق من الفرو الأصيل. وانتعلت حذاء مذهّبًا. وتحلّت بقرط من الماس وعقد من اللؤلؤ. ارتدّت غانية جذّابة نبيلة وتوارت أمارات الكبر تحت قناع المساحيق. ترامقنا هنيهة وهي واقفة وسط المدخل وقفة استعراضيّة. ثمّ ضحكت بفرح بنت مراهقة ومضت هي تقول لطلبة:

ـ سأنتظرك عند الحلّاق.

***

وجدت نفسي وحيدًا، لا أنيس لي إلّا عواء ريح عاتية. ناديت زهرة. ثلاث مرّات ناديتها قبل أن تظهر من وراء البارفان. وقفت تعلوها مظاهر الحزن والهزيمة والانكسار حتّى خيّل إليّ أنّها ضؤلت واحدودبت.

أشرت إلى الكنبة فدلفت إليها في صمت ثمّ استقرّت تحت تمثال العذراء. شبكت ذراعيها على صدرها ورنت إلى الأرض. عصر قلبي عطف وحنان حتّى امتلأت قنوات عينيّ بدمع غدة مضمحلّة لم يعد من الميسور لها أن تروّح عن صاحبها بالبكاء. قلت:

ـ لماذا تبقين وحدك كأنّك بلا صديق؟ أصغي إليّ، أنا رجل عجوز بل عجوز جدًّا كما ترين، وقد تعثّر تيّار حياتي ثلاث مرّات أو أربع، تمنّيت عند كلّ مرّة أن أقتل نفسي، وكنت أهتف من قلب مكلوم «لقد انتهى كلّ شيء»، وها أنت ترينني على رأس عمر مديد لا يظفر به إلّا الأقلّون، ولم يبق من عثرات اليأس إلّا ذكريات غامضة بلا طعم ولا رائحة ولا معنى كأنّما كانت من تجارب شخص آخر!

استقبلتْ كلماتي بلا حماس وبلا فتور. قلت:

ـ لنترك أحزاننا لزمن يبري الحديد ويفتّت الحجر، ولكن عليك أن تفكّري في مستقبلك، الحقّ يا زهرة أنّ المرأة لم تعد تريدك. . .

فبادرتني بشدّة:

ـ لا يهمّني ذلك. . .

ـ ماذا أعددت للمستقبل؟

قالت وهي ترنو إلى الأرض ما تزال:

ـ كالماضي تمامًا حتّى أحقّق ما أريد. . .

تنسّمت في قولها عزيمة ردّت إليّ الروح فقلت:

ـ حسن أن تواصلي تعليمك وأن تتدرّبي على مهنة، ولكن كيف توفّرين لنفسك الأمن والرزق؟

قالت بثقة وتحدٍّ:

ـ في كلّ خطوة أجد مَن يعرض عليّ عملًا. . .

قلت برقّة أستعين بها على إقناعها:

ـ والقرية. . . ألا تفكّرين في العودة إليها؟

ـ كلّا. . . إنّهم يسيئون بي الظنّ.

فقلت فيما يشبه التوسّل:

ـ ومحمود أبو العبّاس؟. . . له عيوبه بلا شكّ ولكنّك قويّة وستستطيعين أن تقوّميه وأن تدفعيه إلى ما هو خير.

ـ ليس دونهم سوء ظنّ بي. . .

تنهّدتُ في تسليم أسيف وقلت:

ـ أودّ أن أطمئنّ عليك يا زهرة، إنّي أحبّك. هو حبّ متبادل فيما أعتقد. وباسمه سأرجوك أن تقصديني عند الشدّة...

ورمقتني بامتنان وحبّ فقلت:

ـ مهما يكن من مرارة التجربة الماضية فلن تغيّر مرارتها من طبيعة الأشياء، ستظلّ غايتك المنشودة هي العثور على ابن الحلال!

أحنت رأسها وهي تتنهّد...

ـ وستجدين حتمًا ابن الحلال الجدير بك... إنّه موجود الآن في مكان ما ولعلّه يتحيّن اللحظة المناسبة!

غمغمت بكلام لم أتبيّنه ولكن حدّثني قلبي بأنّه كلام طيّب، فقلت:

ـ ما تزال الدنيا بخير، وستكون كذلك إلى الأبد!

لبثنا جالسين نراوح بين الصمت والمناجاة. وبعد وقت غير قصير استأذنت في الانصراف ثمّ ذهبت إلى حجرتها.

مكثت وحدي طويلًا حتّى استيقظت ـ تسلّل النوم إليّ وأنا لا أدري ـ على صوت الباب وهو يفتح.

دخلت ماريانا وطلبة مرزوق ثملين وهما يغنّيان، وصاح بي الرجل:

ـ ماذا أبقاك هنا أيّها العجوز؟

تثاءبت في ذهول وأنا أتساءل:

ـ كم الساعة؟

فأجابت ماريانا بلسان مخمور:

ـ مضت ساعتان من العام الجديد.

وإذا بالرجل يشدّها إلى حجرته وهو يقبّلها فتطاوعه بعد تمنّع لا خطورة له، ثمّ أغلق الباب وراءهما.

جعلت أنظر إلى الباب المغلق وكأنّني في حلم!

***

جمعتنا مائدة الإفطار صباحًا وكنّا وحدنا. لم تظهر ماريانا على حين ذهبت زهرة بعد إعداد المائدة.

نظرت إليه فوجدته مريضًا أو كالمريض. قلت له مداعبًا:

ـ صباحيّة مباركة!

تجاهلني مليًّا، ثمّ تمتم:

ـ يا لك من نحس!

رفعت إليه عينيّ مستطلعًا فضحك رغمًا منه وقال:

ـ كان فشلًا مزريًا ومضحكًا معًا.

تساءلت متغابيًا:

ـ عمّ تتحدّث؟

ـ إنّك تعرف تمامًا عمّا أتحدّث يا ثعلب!

ـ ماريانا؟

غلبه الضحك مرّة أخرى ثمّ قال:

ـ حاولنا المستحيل، فعلنا كلّ ما يمكن تخيّله، ولكن بلا فائدة، ولمّا تجرّدت من ملابسها تبدّت كمومياء من شمع مذاب فقلت لنفسي يا للتعاسة!

ـ لقد جننت!

ـ وإذا بآلام الكلى تنتابها! تصوّر، وبكت، واتّهمتني بأنّني أمثّل بها!

***

تبعني إلى حجرتي بعد الإفطار. جلس على كرسيّ أمامي مباشرة وهو يقول:

ـ يخيّل إليّ أنّني سأسافر إلى الكويت قريبًا، أفتاني المرحوم بذلك.

ـ المرحوم؟

ـ سرحان البحيري.

وضحك ضحكة قصيرة ثمّ قال بلا مناسبة ظاهرة على الأقلّ:

ـ أراد أن يقنعني بالثورة بمنطق غريب.

نظرت إليه متسائلًا فقال:

ـ أكّد لي أنّه لا بديل للثورة إلّا واحد من اثنين... الشيوعيّين أو الإخوان! فظنّ أنّه دفعني إلى ركن مسدود...

فقلت بإيمان:

ـ ولكنّ ذلك هو الحقّ!

ضحك ساخرًا ثمّ قال:

ـ بل يوجد بديل ثالث!

ـ ما هو؟

ـ أمريكا!

هتفت بغيظ:

ـ أمريكا تحكمنا؟

فقال بهدوء حالم:

ـ عن طريق يمينيّين معقولين، لِمَ لا؟
ضقت بأحلامه فقلت:
ـ اذهب إلى الكويت قبل أن تجنّ!

***

ها هي الصحف تحمل إلينا أنباء الجريمة. إنّها تترادف غريبة ومتناقضة. لقد اعترف منصور باهي بالقتل ولٰكنّه لم يقنع أحدًا بالباعث عليه. قال إنّه قتل سرحان البحيري لأنّه ـ في نظره ـ يستحقّ القتل. ولماذا يستحقّ سرحان البحيري القتل؟ لصفات وتصرّفات هي مرذولة في ذاتها ولٰكنّها ليست بقاصرة عليه، فلِمَ اختاره بالذات؟ بمحض الصدفة وكان من المحتمل أن يختار غيره. هٰكذا أجاب. منذا الذي يقتنع بذٰلك الكلام؟ أيكون الفتى مجنونًا؟. هل يدّعي الجنون؟

وإذا بتقرير الطبيب الشرعيّ يؤكّد أنّ الوفاة نتجت عن قطع شرايين رسغ اليد اليسرى بموسى حلاقة، وليس بضرب الحذاء كما اعترف القاتل، وبذٰلك رجّح أن تكون الوفاة نتيجة انتحار لا قتل...

وأخيرًا اكتُشفت العلاقة بين القتيل وبين جريمة تهريب الغزل وبذٰلك توكّد الانتحار.

وتساءلنا عن العقوبة التي يستحقّها منصور باهي. أجل... ستكون حتمًا عقوبة طفيفة، وسوف يستأنف حياته ولٰكن بأيّ قلب وبأيّ عقل؟ وقد قلت بحزن:
ـ إنّه فتًى رائع ولٰكنّه يعاني داءً خفيًّا، وعليه أن يبرأ منه.

***

ها هي زهرة كما رأيتها أوّل مرّة لولا مسحة من الحزن. أنضجتها الأيّام الأخيرة أكثر ممّا أنضجتها أعوام العمر السابقة جميعًا. تناولتُ الفنجال من يدها وأنا أداري انقباضي بابتسامة.

قالت بصوت طبيعيّ:
ـ سأذهب صباح الغد...

كنت حاولت إثناء ماريانا عن رأيها ولٰكنّها أصرّت عليه بعناد. ومن الناحية الأخرى صارحتني زهرة بأنّها لن تقبل البقاء حتّى لو عدلت المدام عن رأيها.

وعادت تقول بثقة:
ـ سأكون أحسن ممّا كنت هنا.

فقلت بحرارة:
ـ حمدًا لله.

فافترّ ثغرها عن ابتسامة حنون وهي تقول:
ـ ولن أنساك ما حييت أبدًا...

أشرت إليها أن تقرّب وجهها منّي، ثمّ قبّلت خدّيها بامتنان وأنا أقول:
ـ أشكرك يا زهرة...

ثمّ همست في أذنها:
ـ ثقي من أنّ وقتك لم يضع سدًى، فإنّ مَن يعرف مَن لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحريّة الصالح المنشود...

وكعادتي لدى جيشان الصدر هرعت إلى سورة الرحمٰن فرحت أتلو: ﴿الرحمٰن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان. الشمسُ والقمرُ بِحُسْبان. والنجم والشجر يسجدان. والسماء رفعها ووضع الميزان. ألّا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقِسط ولا تُخسروا الميزان. والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحَبّ ذو العصف والريحان. فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبان﴾.

خمارة القط الأسود

كلمة غير مفهومة

تثاءب المعلّم حندس طويلًا وهو يزيح الغطاء عن جسده. وجلس في الفراش معتمدًا بذراعيه على ساقيه، متقوّسًا تحت وطأة غمّ لاحت آياته في وجهه الممتلئ العريض. ورأى زوجته واقفة وسط الحجرة وهي تجمع شعرها المشعّث تحت منديلها البنّيّ، فقال بنبرة ناعسة:

ـ حلم غريب.

التفتت نحوه باهتمام قائلة:

ـ خيرًا إن شاء الله.

ـ طول الليل مع حسّونة الطرابيشي.

تجلّت في عينَي المرأة نظرة فارغة من كلّ معنى فراقبها بعينَي صقر تطلّان من سحنة أطبقت على أديمها آثار طعنات وجراح قديمة ثمّ قال:

ـ حسّونة الطرابيشي!.. أنسيت الرجل الذي طمع يومًا في الفتونة؟

ندّت عنها آهة وتمتمت:

ـ نعم... يا له من عمر!

ـ حوالى خمسة عشر عامًا...

ـ وماذا رأيت؟

ـ رأيته كما رأيته آخر ليلة في الخيامية، صريعًا تحت قدميّ والدم يغطّي فاه وذقنه وأعلى جلبابه!

ـ أعوذ بالله.

ـ وردّد آخر كلماته «سأقتلك يا حندس وأنا في القبر».

ـ أعوذ بالله.

ـ رأيتني بعد ذلك أجالسه في مكان غير محدّد المعالم، وكنّا نضحك عاليًا كما كنّا نفعل قبل أن تفرّق بيننا البغضاء. وقال لي معاتبًا أنت قتلتني فقلت له وأنت توعّدتني بالانتقام فضحك طويلًا ثمّ قال انسَ كلّ شيء، أنا نسيت، وأمس زرت ابني وقلت له لا تفكّر إلّا في الحياة ودع الموت والأموات للخالق، وجعلنا نضحك حتّى استيقظت.

تجمّدت ملامح المرأة، وغشيتها سحابة مظلمة من الذكريات، فقال حندس بصدر منقبض:

ـ أنت خائفة!

ـ أبدًا، ولكنّي أتساءل عن تفسير للحلم.

ـ المهمّ أنّه ذكّرني بأشياء نسيتها.

سألته عن «الأشياء» بهزّة من رأسها وهي غارقة في التفسير فقال:

ـ ذكّرني بما قيل يوم دُفن حسّونة من أنّ زوجته رفعت طفله فوق القبر ونذرت إن عاش الطفل أن يكون مقتلي على يديه.

ـ ولكنّ زوجة حسّونة اختفت منذ دفنه.

ـ نعم، ولعلّ طفلها اليوم في عزّ الشباب!

قالت ملتمسة الطمأنينة له ولنفسها:

ـ أنت سيّد الحيّ، رجاله رجالك، وربّنا الحافظ.

فقال مقطّبًا:

ـ أنا لا أبالي بعدوّ ما دمت أعرفه، أمّا الذي لم أعرفه ولم أره..!

جلست المرأة على كنبة واجمة فقال:

ـ الحلم يفسَّر بعكس ظاهره وهذا يعني أنّه يحرّض ابنه على الانتقام.

ـ كيف وهو ميت من خمسة عشر عامًا؟

ـ كما خاطبني الليلة الماضية!

غالبت المرأة نكدها بابتسامة وقالت:

ـ حيّنا معروف لا يختفي فيه غريب، وأنت سيّده، والله هو الحافظ.

وغادر المعلّم حندس منزله يسير وسط هالة من الأتباع ويتقدّمه سائق الكرتة. ومال من درب الأعور إلى قهوة حلمبوحة فجلس على الأريكة التي لا يمسّها

أحد غيره. وراح المعلّم يروي حلمه لأتباعه فضحك طمبورة باستهانة وقال:

- أيّ أمّ تحرّض ابنها عليك يا معلّم؟

ولْكنّ سمكة كان أمْيَل إلى الحذر وهو يقول:

- حارتنا يقتل بعضها البعض مذ خلق الله الأرض وما عليها.

- لْكنّ أحدًا لم يسمع عن ابن حسّونة ولا أمّه.

فقال القهوجي عنارة وكان لحندس بمنزلة الأب:

- هٰذا يعني أنّه يستطيع أن يوجد في أيّ وقت وفي أيّ مكان!

وضحك المعلّم حندس معلنًا عن استهتاره فقال طمبورة:

- نحن حولك كالجدار.

ولْكنّ عنارة قال وهو يرمش بعينيه الدامعتين المرمودتين:

- الحلم له معنى، إنّه يذكّرك بما نسيت!

وذاع الحلم في الحيّ كلّه. وكثرت التأويلات. وتوثّب الرجال للبطش. وجعل حندس يذهب ويجيء وكأنّه لا يبالي شيئًا. وذات مساء جاء القهوة الشيخ درديري وهو مقرئ ضرير، يتعيّش من التلاوة في المقاهي والغرز وتروج سوقه في المواسم. صافح المعلّم ثمّ تلا الصمديّة وقال وهو يتّخذ مجلسه بين يديه:

- يا معلّم، إن كنت تريد ابن حسّونة فأنا أعرفه!

سرعان ما تركّزت فيه الأعين وأحدق به الرجال. حاز في ثوانٍ أهمّيّة لم يحظ بعشْر عشْرها طيلة عمره البالغ الستّين. وانتبه إليه حندس لأوّل مرّة في حياته وكأنّما يكتشف عينيه المسطورتين وجبينه البارز كمشربّية. وسأله:

- متى عرفته؟

- منذ عام أو أكثر.

- كيف؟

- صدفة وأنا أتجوّل بين المقابر.

- أين يقيم؟

- لا أدري، ولْكنّي دُعيت للقراءة في المدفن بالمجاورين في موسم وهناك عرفته كما عرفت أمّه.

- ما اسمه؟

- لم يُنادَ به على مسمع منّي.

- ولم تر وجهه طبعًا!

- ولْكنّي أعرف صوته!

سأله بازدراء:

- متى زرت المدفن آخر مرّة؟

- في عيد الفطر الماضي.

- ماذا يقولان وهما في المدفن؟

- يستمعان للتلاوة أو يتبادلان حديثًا لا يستحقّ الذكر.

- ألم يجرِ الحديث مرّة عن الميت؟

- لم أسمع.

نفخ قائلًا:

- لم تقل شيئًا يا أعمى!

ولْكنّ عنارة قال بنبرة ذات مغزى:

- قال إنّه يعرف المدفن.

ولّما ذهب الشيخ درديري قال طمبورة:

- نذهب في العيد الكبير لنرى بأعيننا...

- وبعد ذلك؟

- دعوا الباقي لي!

- أنقتله من غير أن يثبت لنا سوء نيّته؟

- إنّه لن يزيد الميّتين عدًا ولن ينقص الأحياء!

وفي موسم العيد تفرّق حندس وأعوانه في البقعة حول المدفن الذي دلّهم عليه الشيخ درديري. وقد ذابوا في الزحام الذي ناءت به الأرض بمنجى من الريب. وظلّت أعينهم تدور حول المدفن الذي تراءى وراء سوره المتهرّئ قبر مكشوف ونخلة وحيدة على حين قام بابه الخشبيّ في هزال منحوت القشرة مزعزع المفاصل خليقًا بأن يُقتلع لدى أوّل لطمة قويّة من الهواء. ومرّ النهار كلّه دون أن يطرق الباب طارق. وكان الشيخ درديري يسترزق هنا وهناك، وكلّما جاء المدفن وجده مغلقًا فيمضي في تجواله. واقترب سمكة من الشيخ درديري وهمس في أذنه:

- كذبت علينا يا أعمى.

فهتف الشيخ:

- والله ما كذبت على أحد.

فلكزه بكوعه قائلًا:

ـ اسأل الترابيّ ثمّ عُدْ إلينا.

غاب الشيخ قليلًا ثمّ عاد إليهم ليخبرهم بأنّ الترابي لا يعرف شيئًا عمّا عاق الأسرة عن المجيء.

ـ ألم تسأله عن مسكنه؟

ـ في باب الربع ولكنّه لا يعرف أكثر من ذلك.

وبعد وقفة قصيرة استطرد الشيخ قائلًا:

ـ ومن عجب أنّ الرجل لا يعرف اسمه ولا عمله وختم حديثه عنه بقوله «حدّ الله بيني وبينه» فلمّا سألته عمّا جعله يقول ذلك دفعني قائلًا: «توكّل على الله!».

رجع الرجال إلى درب الأعور بوجوه متجهّمة. وضح لهم أنّ الشابّ غامض حقًّا أو أنّه يحيط نفسه بالأسرار، وأنّه خطير يجب أن يُحسب له حساب. وتساءل طمبورة:

ـ إن يكن حقًّا كما يقال عنه فما الذي أقعده حتّى الآن عن الانتقام؟

فقال عنارة بكآبة:

ـ لا يهمّنا ذلك بقدر ما يهمّنا المستقبل.

ثمّ وهو يعصر عينيه الملتهبتين:

ـ والأحلام لا تُرى عبثًا!

عند ذاك قال الشيخ درديري:

ـ سأسأل عن مسكنه بحجّة الاطمئنان عليه.

وغاب الشيخ يومًا كاملًا ثمّ رجع ليعلن في ظفر اهتداءه إلى بيت الشابّ. قال إنّه جالسه وعلم بسبب تخلّفه عن زيارة قبر أبيه وهو مرض أمّه. وأخبرهم بأقصر طريق إلى المسكن من ناحية الخلاء إذ لا يدري بهم أحد. ولكن هل يقتلونه أو يكتفون برؤيته وإرهابه؟

وأدرك الأعوان من صمت المعلّم أنّه يترك لهم الكلمة لغرض لم يعد يُخفى عليهم بحكم معاشرته الطويلة، فقال طمبورة ساخرًا:

ـ وُجد المسكين مقتولًا بيد مجهول!

فاعترض عنارة متسائلًا:

ـ ماذا تدرون عن قوّته وأعوانه؟

وتبادلوا نظرات قاسية، ثمّ استقرّ رأيهم على خطّة عركوها منذ القِدَم.

وفي ليلة شديدة الظلام خرج حندس وأعوانه، وقد استقلّ هو وخلصاؤه الكرتة موسّعين للشيخ درديري مكانًا عند الأقدام. وأوغلوا في الصحراء حتّى صعدوا ما يشبه التلّ عند مفترق تتّجه طريقه الرئيسيّة نحو باب الربع، وعند ذاك قال السائق:

ـ لا يمكن أن تتقدّم العربة قيراطًا واحدًا في هذا الخراب.

غادروا الكرتة. وحثّهم الشيخ درديري على البحث عن سبيل ماء قائم على رأس منحدر طويل. وكان قائمًا على مبعدة أمتار منهم كما لاح شبحه تحت ضوء النجوم. وقال الشيخ:

ـ في نهاية المنحدر يقع البيت، وهو في عزلة إذ تحيط به الخرائب من جهتين ويحدق بالثالثة فناء واسع لوكالة، توكّلوا على الله أمّا أنا فإنّي ذاهب.

قال له حندس:

ـ انتظر حتّى لا تضلّ الطريق في الظلام.

فقال وهو يهمّ بالذهاب:

ـ الأعمى لا يضلّ طريقه في الظلام.

مضوا في الطريق متمهّلين حذرين لوعورته ولكثرة ما يعترضه من أحجار ونفايات. وأحدقت بهم خرائب تفوح منها روائح عطنة وأحيانًا نتنة كريهة كأنّما تصدر عن جثث في جوف الليل. وغلظت الظلمة حين بلغوا ممرًّا مسقوفًا بغطاء لم يتبيّنوه تقوم على جانبيه المتقاربين جدران مبانٍ غير مرئيّة فكأنّهم فقدوا الأبصار. مات كلّ شيء في ظلمة الممرّ حتّى أشباحهم، وندّ عن أقدامهم ارتطامات كخشخشة زواحف وعن أفواههم زفرات كالفحيح. وعلى بعد سحيق تراءى نور خافت فقال عنارة:

ـ سنطرق الباب ثمّ نندفع كالمصيبة، ولا مَن سَمع ولا مَن رأى.

فردّدت أصوات بهيميّة:

ـ ولا مَن سمع ولا رأى.

ثمّ ارتفع صوت حندس قائلًا بوحشيّة:

ـ وينتهي الحلم!

وإذا بصرخة تنطلق من حلقه كالعواء، إذا بجسمه الضخم يتهاوى على الأرض. صرخوا في صوت واحد «معلّم حندس». وتطايرت زعقات الغضب والويل.

وحملقـوا في الـظلمــة المستحيلة ولكنّهم لم يـروا إلّا العمى. ونادى سمكة بأعلى صوته السـائق أن يحمل إليهم فانوس العربة. وتأوّه حندس فساد الصمت، ثمّ قال بصوت متقطّع محشرج:

ـ عنارة، قُتلت... بينكم...

وعلى ضوء الفانوس تبدّى المعلّم حندس منكفئًا على وجهـه، عاري الـرأس، مكشوف السـاقـين، ودمـه ينساب بطيئًا بين الحصا. فتلهم الغيظ وأذلّهم الحنق. لم يشعروا من قبل بعجز مهين كهـذا العجز، فهم لم يرفعوا نبّوتًا ولا سلّوا خنجرًا ولا قذفوا طوبة وخُطف الرجل وهم يبادلونه الحديث. وأين القاتل، بل أين منزله؟ وجدوا مكان المنزل ضريح وليّ في خلاء تشتعل في كوّة بجداره شمعتان. ولم يشعر أحد منهم بالقاتل عند تسلّله ولا عند انفلاته، لم يُسمع له حسّ، ولا عُثر له على أثر.

الصَّدَى

اعتمد على عصاه وانتظر. تلاشى رنين الجرس ولا صوت يجيء من وراء الباب كأنّ الشقّة خالية، بعد لحظة سينفتح الباب عن الوجه القديم. الوجه الذي لم تره منذ عشرين سنة. والزمن لم يطمس صورته القديمة البـاكية المتصـبّرة المتـأفّفـة، وهي وإن تكن اليـوم في الثـمانـين فـهي أكـثر المعمّـرات في أسرتنـا. أمّـا الـرجال..؟!. الـرصاص والمـآسي والأعـين التي لا تذرف الدمع.

وسمـع صوت شبشب يـزحف فوق البـلاط فتهيّأ للمفاجأة وعواقبها ولكنّ الشرّاعة فُتحت عن وجه ذابل عليل، أمّ محمّد الخادمة. ارتاح لذلك ونظر إليها من عل وهي تتطلّع إليه بحذر ونظر كليل:

ـ مَن؟

ـ افتحي يا أمّ محمّد.

ـ مَن حضرتك؟

قالتها بلهجة مَن لا ينتظر زائرًا على الإطلاق. بيت مهجور كأنّ القطيع كلّه لم ينطلق منه إلى السـاحات الدامية.

ـ حقًّا نسيتني يا أمّ محمّد؟

رمشت عيناها طويلًا ثمّ أضاءت بانتباهة مذهلة:

ـ سيدي عبد الرحيم!.. يا خبر!

دخـل وهو يحبـك عباءتـه السـوداء حـول قـامتـه الفارعة، ثمّ ترك لها يده تلثمها بحرارة قائلة:

ـ مَن يصدّق؟ مَن يصدّق؟

ثمّ وهي تضبط أنفاسها:

ـ سأذهب لأخبر ستّي...

فاعترضها بعصاه قائلًا:

ـ لا... أين حجرتها؟

أشارت إلى باب في نهاية الصالة الممتدّة إلى يمـين الداخل وقالت:

ـ يجب يا..

نقاطعها بحزم وهو يسير:

ـ أعرف ما يجب، أعرف كلّ شيء، ولا أريد أن يزعجني أحد...

دخـل الحجرة متمهّـلًا وبلا صـوت وبقلب يزدرد انفعاله بصلابة معهودة، ثمّ أغلق الباب وراءه. وقف في وسط الحجرة وهو ينظر إليها بتمعّن واستـطلاع. ورغم غلظتـه تأثّـر بعض الشيء. تسرّبت إلى أنفـه الأفطس رائحة غريبة وأليفـة معًا، كـما تنبلج ذكرى ضائعة، فدفعته إلى أحضان الماضي. ها هو يعود إلى صميم نفسه. وتربّعت المرأة على كنبة قابضة بأصابعها على مسبحة طويلة لامست شرّابتها البساط، ولكنّها لم ترفع رأسها إليه وكأنّها لم تشعر له بوجود. وقد تلفّعت بخمار غامق لم يتّضـح لونـه في جوّ الحجـرة الغامض المحجوب عن النور بنافذتـين محكمتَي الإغلاق. إنّها تتجاهلك بلا شكّ. لعلّها سمعت ما دار من حديث في الصالة فتأهّبت لتجاهلك. لا تعجب لبرودها فكم قـاست وكم عانت! وهي عـلى أيّ حـال أمّ المـآسي فكيف تخلو من روح العنـف!.. وماذا توقّعت عندما اضطرّتك الحال إلى العودة؟ وابتسم ليُليِّن من قسـوة وجهه الداكن كجلد مدبوغ ولكنّها لم تأبه له ألبتّـة. وراحت تسبّح بصوت مهمـوس ثمّ تثاءبت! اختفت الابتسامة من وجهه. إنّها أشدّ ممّا تصوّر. إنّها أقسى من تاريخ الأسرة الدامي. لكنّني عنيد أيضًا. لم أقطع

الوادي لأسلّم بهزيمة عاجلة. توقّعت سخطًا ولعنًا وبكاء ومرارة ولكن ليس الصمت والتجاهل. تلك صدمة أجّلت فكرة تقبيل اليد إلى حين. والانسحاب أبعد ما يكون عن الخاطر. لم يبق إذن إلّا طريق وسط. قال بهدوء:

ـ نهارك سعيد يا أمّي.

واقترب خطوتين مادًّا يده. ولكنّها لم تشعر له بوجود. صدمة أشدّ من الأولى. الماضي بكلّ مآسيه لن يخفّف من قسوة اللطمة. حقّ أنّك آخر مَن يعجب لقسوة ما. وعليك أن تؤدّي حساب عشرين عامًا من المقت. وهي كما ترى لا تبرأ من صفة الصخر. وابتسم ابتسامة مفجعة وهو يتقهقر نحو الفراش ثمّ جلس على حافته. وضع طربوشه على الوسادة واعتمد براحته على العصا. ما دمت قد رجعت إلى مهدك فلا بأس من الجلوس على الفراش.

ـ الحقّ أنّي لم أتوقّع مقابلة لطيفة ولكنّي لم أتصوّر هٰذه القدرة على الإعدام!

وضحك ضحكة قصيرة ميتة وقال:

ـ نحن أسرة الأنياب والأظافر ولكنّي مشوق إلى معرفة النهاية.

رفعت رأسها قليلًا ربّما لتريحه ثمّ عادت إلى الانطواء على المسبحة في عالم لا يشاركها فيه أحد.

ـ من يدري فلعلّ حضوري خطأ من أساسه ولكنّي مصمّم على ألّا أندم عليه.

لا كلمة... لا حركة... لا اهتمام.

ـ أتتوقّعين أن أعتذر؟... أن أعترف بخطإ... أن أعلن الندم؟... إنّك تعرفيننا خيرًا ممّا نعرف أنفسنا، والكلام لم يعد يجدي. وكلانا قد تغيّر كثيرًا ولكنّ صحّتك ما زالت بحمد الله جيّدة، لعلّها أفضل من صحّتي.

العبارة الأخيرة غير قابلة للتجاهل إلى ما لا نهاية. سوف تدبّ حركة. أجل ستنفجر أوّلًا في غضب وتصبّ اللعنات ثمّ تلين رويدًا وأخيرًا ستسمع هٰذه الجدران دعاء!

ـ أعلم ماذا يقول صمتك، جاء اللصّ، جاء المجرم، جاء أخيرًا، بالله خبّريني هل تطلّبت حياتك هنا مالًا أكثر ممّا لديك؟

وركبته رغبة يائسة في المزاح فتساءل:

ـ هل أردت مالًا لتجرّبي حظّك في الزواج من جديد؟

وضحك عاليًا. لكنّه ضحك وحده. وحده. لله هٰذه القدرة الجهنّميّة على الإعدام.

ـ ما مضى قد مضى، الدم والأرواح مضت، لسنا أوّل مجموعة دمويّة ولن نكون آخرها، وكم هلك لي من أعزّة، وقطنت في صدري رصاصة إلى الأبد، ولا تعدّي بقايا الطعنات في الفخذ والبطن والرأس، وكنت تبكين وتمزّقين شعرك وكنّا وما زلنا نعاني حياتنا، ما الفائدة؟ ما مضى قد مضى..

ألم تعاهد نفسك على تجنّب الذكريات؟ ولكن كيف؟ إنّها مستمرّة في قتلك. وأنت لم تقطع الوادي من أقصاه لتجلس أمام تمثال من حجر.

ـ إذن تودّين أن أذهب! لا أعجب كثيرًا ولكنّي أتيت، وهٰذا جزء لا يتجزّأ من الحكاية، ألم تغضبي بما فيه الكفاية؟ لعنت الأبناء حتّى جفّ صوتك، هالَكِ أن يخرج من بطنك هٰذا العدد العديد من الأعداء، ولكنّها بطنك على أيّ حال، وخبّريني بالله كيف مات أبي؟ وأعمامي؟ وقيل لي لماذا تذهب بعدما كان ولكن لا أحد يعلم بسرّي سواي، وأنا أومن بالغيب إيماني بالدم، والوقت قد فات فيما بدا لهم ولكنّي رأيت رأيًا آخر، غير أنّي أودّ أن أعلم حتّام تتعلّقين بالصمت؟!

آه... فلتعجب بها بقدر ما تحنق عليها. ما أصدقها لنا من أمّ. لكنّك تمثّل عناد من تربّص يومًا في حقل الذرة ثماني ساعات دون حركة. وكم غنّيت فوق أشلاء الجثث! وأيدي الإخوة التي قطعتها. وقولك الساخر عن ابنيّ عميلك في البلد «يتحابّان رغم أنّهما أخوان!».

ـ لا تطرديني دون كلمة، اسأليني على الأقلّ عمّا جاء بي، الغبار لم يعد يطاق والشوك أدمى الأقدام، وأعترف بأنّ نفسي نازعتني إلى مأوى منسيّ لأستردّ فيه أنفاسي، شعور طبيعيّ بالحاجة إلى الظلّ بعد احتراق لعين، وسمعت إنْ صدقًا وإن كذبًا أشياء وأشياء عن غرابة أطوار الأمّ، أيّ أمّ كما قالوا، ومع أنّ آخر

صورة احتفظت بها منك كانت عابسة باكية لاعنة إلّا أنّي غامرت بالتجربة. . .

يا ربّ السماوات! ها هي تتثاءب مرّة أخرى. من الضجر لا من التعب. ولٰكنّ طلاء القسوة سيتقشّر عاجلًا أو آجلًا ثمّ يتساقط. والأحزان قد أنضبت في نفسك موارد سخيّة ولٰكنّي أجلس أمامك بشخصي وشهادة ستّين عامًا من البنوّة. وإن تكن بنوّة مفلسة جدباء.

ـ أصغي إليّ، أنا لا أسافر عبثًا، هٰكذا خُلقت، قيل لي لماذا تذهب بعد ما كان ولٰكن لا أحد يعلم بسرّ ذٰلك سواي، ومذ قدمت وأنا أتكلّم وأنت تقتلين، سأذهب أقسى ممّا جئت، والساقية تدور ولا تحمل من باطن الأرض إلّا العلقم، لم يجئ الأبناء خيرًا منّا، هيهات أن أعترض، اليوم يقطّبون ويتبادلون نظرات ممتعضة، وغدًا ينطلق الرصاص، ها أنا أرى المستقبل بعين الماضي الدامية، واليوم تجمعهم صورة عائليّة، كما جمعتنا صورة يومًا ما، ولٰكن ماذا عن الغد؟ وكان أن ضجرتُ. ضجرت حتّى الموت، ولٰكنّنا نكره الكلمات الطيّبة ولا نصدّقها، وإذن فلتمضِ القافلة مثيرة للغبار ولرشاش الدم، ولٰكن تمادى بي الضجر حتّى وقعت، وبعد عشرين عامًا من العقوق والنسيان ذكّرني الضجر بك! ولٰكن ماذا أريد؟ أن أرجع إليك؟ ولٰكن ماذا وراء ذٰلك؟ ونحن نخجل من العواطف ونتباهى بالكلمات، غير أنّي أصبحت ذات يوم مقوّس الظهر أزحف على أربع، وكتمت الألم خشية الشماتة، لا شيء سوى الشماتة، وما جاء الظهر حتّى أعلمني الطبيب بأنّي مريض بكلّ معنى الكلمة، ولست أصدّق الأطبّاء ولٰكنّي لم أجد مفرًّا من تصديق الألم، وخصوصًا وأنّه لا يؤلمني إلّا الألم الأليم، وانزويت في حجرتي أيّامًا، وأحدقت بي نذر الشقاق بين الأبناء حتّى رأيت صفحة المستقبل دامية كالصفحة المنطوية، وتجهّمتني الدنيا، وأبيت في الوقت نفسه تذكُّر كلماتك القديمة، ولٰكنّي رأيت حلمًا. . .

آه هل تستسلم لليأس؟ وما هٰذا الألم الذي يدبّ في أعماقك أهو نذير نوبة جديدة؟ إذن ماذا تفعل العقاقير ولِمَ هي ليست حاسمة كالرصاص والفأس؟

وأنت أيّتها العجوز ماذا بالله يمكن أن يحرّكك؟ أأقول إنّك أقسى منّا جميعًا؟ لا تضطرّيني إلى هزّك حتّى تفيقي. إنّي إذا صرخت تقوّضت الجدران!

ـ حلمت حلمًا فلماذا لا تسأليني عمّا رأيت؟ هل فقدت وَلَعَك بالأحلام وتأويلها؟ اعذريني إذا اعتقدت بأنّنا إنّما ورثنا القسوة عنك، عنك أنت أكثر ممّا ورثناها عن أبي أو أيّ جدّ غابر، لا أحد يمكنه المحافظة على بروده كما تفعلين، وجهك لا يفصح عن شيء، أنت لا تتجاهلين وجودي ولٰكنّك تجهلينه، تجهلينه بكلّ معنى الكلمة، أنت لا تسمعينني ولا ترينني، من أين لك هٰذه القوّة كلّها؟ . . .

وانتفض واقفًا في انفعال. ذهب مرّة وجاء ثمّ وقف قبالتها معتمدًا على عصاه بيمناه متجهّم الوجه:

ـ أهٰذه طريقتك في العقاب، لا شكّ أنّك تخيّلت هٰذا اللقاء وتمنّيت وقوعه وانتظرته طويلًا، قلت سيجيء يومًا، سيجيء إذا ألمّت به كارثة أو صرعه مرض، سيذكر عند ذاك أمّه المنسيّة ويهرع إليها سائلًا العفو والبركة، وعند ذاك أجد فرصتي للانتقام، سيكفّر عن السرقة والنهب والاعتداء والقتل، عن دموعي التي لم يجفّفها أحد، عن استغاثاتي التي قوبلت بالنهر، عن حبسي الطويل في هٰذه الغربة، هٰذه هي الحقيقة، وإنّك لأمّنا حقًّا، فأسلوبك هو أسلوبنا وقسوتك هي قسوتنا، وفي بعض أويقات الإرهاق والملل كنت أتساءل عمّا شكّلنا بهٰذه الصورة الوحشيّة التي لا تعرفها الكلاب ولا الحمير ولا البقر ولا الجاموس، وها هي الحقيقة تتكشّف لي، إنّ السيل الذميم المنصهر ينحدر منك يا امرأة!

وضرب أرض الحجرة بعصاه مرّتين حتّى طقطق زجاج النافذة. وإذا بأمّ محمّد تنقر على الباب المغلق مستطلعة مستأذنة فصاح بها غاضبًا «اذهبي» ثمّ التفت إلى المرأة التي واظبت على التسبيح في هدوء وقال:

ـ كفى، كفّي عن التسبيح، نحن لا نعرف الله، ولا نذكره إلّا عند شراء النقل أو صنع الكعك، الحقّ أنّنا لا نعرف الله ولا نريد أن نعرفه، والحلم الذي رأيت كان حلمًا كاذبًا، وما كان ينبغي أن أحلم، أو أن أكترث للحلم إذا حلمت، وما كان ينبغي أن أمرض،

على الذين يعيشون للرصاص والدم ألّا يمرضوا أو يحلموا، وعليهم ألّا يبحثوا عن راحة إلّا في الموت، عليهم أن ينتحروا قبل أن يُقتَلوا، فأيّ شيطان دفعني إلى زيارتك يا امرأة؟

ولّما لم تخرج عن تجاهلها الرهيب قطّب في عزم، وتقدّم منها خطوتين. ثمّ مدّ يده فأمسك بيدها. ارتفع رأسها متراجعًا في دهشة. تركت المسبحة في حجرها وأراحت يدها الأخرى على يده. تحسّست ظهرها الجافّ المعروق ومنابت الشعر الأبيض عند أصول الأصابع. ارتسم الفزع في وجهها ثمّ ندّت عنها صرخة وصاحت:

- مَن؟... مَن؟.. أمّ محمّد!

وسرعان ما ألّمت بها نوبة سعال، ثمّ عادت تصيح بصوت مخنوق شرق:

- أمّ محمّد... أمّ... محمّد...

انفتح الباب في دفعة متمرّدة وهرولت المرأة إليها في اللحظة التي أخذ هو فيها يتراجع في وجوم شديد. احتوت الخادم يد سيّدتها المرتعشة بين راحتيها في حنوّ ثمّ راحت تربّت ظهرها النحيل في إشفاق. قال الرجل كالمعتذر:

- لا أدري ماذا أفزعها!

فقالت الخادم بصوت خائف:

- أردت أن أقول لك فلم تسمع لي يا سيّدي ثمّ منعتني من الدخول!

لبس طربوشه وتناول عصاه وهو يقول:

- ماذا أفزعها؟... كنت طوال الوقت أتودّد إليها، وكان أملي كبير في أن تلين إذا رأتني بين يديها...

أرخت الخادم جفونها وهي تقول بحسرة:

- يا سيّدي إنّها لا ترى!

اتّسعت عيناه الغامضتان في ذهول وراح يتفحّص أمّه وهو يقول:

- تعنين... .

- نعم يا سيّدي إنّها لا ترى...

وحلّ بالحجرة خرس مقدار دقيقتين ثمّ تمتم:

- لم أتصوّر ذلك، النور خافت كما ترين...

ثمّ بنبرة مُرّة وكأنّه يحادث نفسه:

- ولكنّي حدّثتها طويلًا فتجاهلتني على نحو أليم...

قالت الخادم بصوت منكسر:

- يا سيّدي إنّها لا تسمع!

بذهول أشدّ:

- تعنين...؟

- نعم يا سيّدي، إنّها لا تسمع...

لطمه الفهم لطمة مفزعة أدارت رأسه:

- كلّيّة؟

- نعم...

- أإذا صرختُ...

- لا فائدة يا سيّدي.

- لا بصر ولا سمع؟

- لا بصر ولا سمع.

- يا ألطاف الله متى حدث ذلك؟

- من أعوام يا سيّدي، بدأ أمر الله بالعينين، ثمّ تلاه السمع، ولم ينفع طبّ الأطبّاء.

تردّد مليًّا ثمّ تساءل في حرج واضح:

- ألم تكن هناك طريقة للاتّصال بي؟

- أردت ذلك عقب إصابة العينين ولكنّها منعتني، منعتني بشدّة ورجاء معًا، فاحترمت رغبتها إلى النهاية...

لم يكن الموقف كما تصوّرت ولكنّه في الحقيقة أفظع. وأنت شريك في الجناية لا مفرّ. جئت تتخفّف من أثقالك فضاعفتها أضعافًا مضاعفة. وها هي أنفاسها تتردّد على يدك ولكنّها أبعد من نجم. كالموت غير أنّه ينضح بالعذاب. وها هو الصمت وها هو السدّ. وعليك أن تؤوّل حلمك بنفسك أو سوف يبقى الحلم بلا تأويل...

الخلاء

لتكن معركة حامية وحشيّة ولتَشْفِ غليل عشرين عامًا من التصبّر والتربّص والانتظار. قدح وجه الرجل شررًا وهو يحيط به الأعوان، وامتدّت جموعهم خلفه

قابضين على العصيّ ذوات العقد، كلّ عقدة تنذر بحفر ثغرة في العظام، وقد انخرط في أحضان الموكب حَمَلة المقاطف المملوءة أحجارًا وزلطًا. تقدّم الرجال في طريق الجبل المقفر بعزائم متوثّبة للقتال، جاءك الويل يا شرداحة. وبين آونة وأخرى يتطلّع زبّال أو ترابيّ إلى الموكب الغريب مركّزًا بصره على الرجل الذي يحتلّ القلب في استطلاع ودهشة وإنكار. يتساءلون عن الفتوّة الذي لم يره من قبل أحد، سوف تعرفونه وتحفظونه عن ظهر قلب يا ذباب الخليقة. وألقت الشمس المائلة على اللاثات المزركشة أشعّة حارّة ودار هواء خماسينيّ مجنون فلفح الوجوه ونفخ في الجوّ اكفهرارًا ومقتًا. ومال أحد الأعوان إلى أذن الرجل وسأله:

ـ معلّم شرشارة، هل تقع شرداحة على طريق الجبل؟

ـ كلّا، علينا أن نخترق إليها حيّ الجوّالة.

ـ سيطير خبرنا إليها فيستعدّ عدوّك.

عبس وجه شرشارة وهو يقول:

ـ عزّ المطلوب، فالغدر يحقّق النصر ولٰكنّه لا يشفي الغليل.

غليل عشرين عامًا في المنفى. بعيدًا عن القاهرة الساهرة وفي مجاهل الميناء بالإسكندريّة. ولا أمل لك في الحياة إلّا الانتقام. الأكل والشرب والنقود والنساء والسماء والأرض غرقت في عماء، وانحصر الإحساس في التحفّز الأليم، ولا فكرة تخطر إلّا عن الانتقام. لا حبّ ولا استقرار ولا إبقاء على ثروة، ضاع كلّ شيء في الاستعداد لليوم الرهيب. هٰكذا ذابت زهرة العمر في أتون الحنق والحقد والألم. لم تهنأ بتفوّقك المتمهّل الأكيد بين عمّال الميناء. لم تجنِ ثمرة حقيقيّة من انتصارك على الجعافرة في معارك كوم الدكّة. ما كان أسهل أن تعيش فتوّة مهابًا وأن تتّخذ من الإسكندريّة موطنًا يدوّي تحت سمائه اسم شرشارة ولٰكنّ عينك الدامية لم ترَ من الوجود إلّا شرداحة بطريقها الضيّقة وحاراتها المتفرّعة- الصاعدة وفتوّتها الجبّار البغيض هلوبة. الويل... الويل.

انتهى طريق الجبل المقفر عند البوّابة فمرق منها الموكب إلى حيّ الجوّالة المزدحم. وصاح شرشارة بلهجة آمرة حادّة كضرب الفأس في الحجر:

ـ لا كلام مع أحد ولا جواب.

أوسع المارّة للموكب، واشرأبّت إليه الأعناق من الحوانيت والمشربيّات، وتطلّعوا إلى القائد الجديد، ثمّ شاع الاضطراب والخوف. وقال صاحبه محذّرًا:

ـ سيظنّون أنّنا نقصدهم بسوء!

قلّب شرشارة عينيه في الوجوه الشاحبة وقال بصوت مسموع:

ـ يا رجال، لكم منّا السلام...

انفرجت الأسارير وارتفعت الأصوات بالتحيّات، وإذا به يقول مخاطبًا القوم وهو يلحظ صاحبه بنظرة ذات معنى:

ـ نحن قاصدون شرداحة!

ولوّح بعصاه المخيفة وهو يتقدّم في طريقه. ما زالوا يتطلّعون إليك باستغراب. كأنّك لم تولد في هٰذا الحيّ. في صميم شرداحة. ولٰكن لا ذِكْر يبقى إلّا للقتلة والمجرمين. شابّ في العشرين، عامل في السرجة، هوايته لعب البلى تحت شجرة التوت. يتيم، حتّى مرقده لا يجده إلّا في السرجة صدقة من عمّ زهرة صاحبها. وأوّل مرّة حمل الزيت الحارّ إلى بيت هلوبة صفعه هٰذا على قفاه، تلك كانت تحيّته. وزينب ما كان أجملها! لولا جبّار شرداحة لبقيت زوجتك منذ عشرين عامًا. كان بوسعه أن يطلب يدها من قبل أن تطلبها أنت ولٰكنّها لم تحلُ في عينيه إلّا ليلة الزفّة. وتحطّمت الكلوبات وفرّ المطرب وتكسّرت آلات الطرب. وخُطفت أنت كأنّك وعاء أو قطعة من أثاث. لم تكن ضعيفًا ولا جبانًا ولٰكنّ المقاومة كانت فوق طاقتك. ورُمي بك تحت قدميه وأحدقت بك عشرات الأقدام.

وضحك ضحكة كريهة وقال متهكّمًا:

ـ أهلًا بعريس الزيت الحارّ!

تمزّق الجلباب الجديد وفُقدت اللاثة وسُرقت بقيّة تحويش العمر، وقلت:

ـ أنا من شرداحة يا معلّم، كلّنا رجالك وفي حماك...

فصفعه على قفاه معلنًا عطفه وخاطب رجاله قائلًا في سخرية:

ـ أيّ معاملة يا أنذال؟!

ـ أنا خدّامك يا معلّم ولٰكن دعني أذهب. . .

ـ العروس في انتظارك؟

ـ نعم يا سيّد الحيّ، وأريد نقودي أمّا الجلباب فالعوض على الله. . .

قبض على قُصَّتك وجذبك منها وقال بلهجة جديدة جادّة ومرعبة:

ـ شرشارة. . . !

ـ أمرك يا معلّم؟

ـ طلِّق!

ـ ماذا؟

ـ أقول لك طلِّق، طلِّق عروسك، الآن. .

ـ لٰكن. .

ـ هي جميلة ولٰكنّ الحياة أجمل!

ـ كتبتُ كتابها العصر.

ـ وتكتب طلاقها في الليلْ وخير البرِّ عاجله!

ندّت تأوّهات يائسة. وركله ركلة قاسية. وفي ثوانٍ جُرِّد من ثيابه الممزّقة. انطرح أرضًا على أثر ضربة في الرقبة. وانهال عليه بخيزرانة حتّى أُغمي عليه. وغرز وجهه في نقرة مليئة ببول فرس. وعاد يقول:

ـ طلِّق!

بكى من الألم والقهر والذلّ ولٰكنّه لم يعترض بكلمة. وقال الآخر بلهجة عطف ساخرة:

ـ لن يطالبك أحد بمؤخّر الصداق.

فهزّه رجل من الأعوان بعنف قائلًا:

ـ احمد ربّنا واشكر سيّدك!

الألم والهوان والعروس الضائعة. وها هي روائح العطارة بالجوّالة تُرجعك إلى الماضي أكثر ممّا أرجعتك العودة الحقيقيّة. الملاعب القديمة ووجه زينب الذي أحببته مذ كانت في العاشرة. وطوال العشرين عامًا لم يتحرّك بغير الحقد قلبك. قبل ذٰلك لم يعرف إلّا الحبّ واللهو. وبعد قليل فلن أتحسّر على ضياع ما ضاع من عمر. عندما أطرحك يا لهلوبة تحت قدميّ وأقول لك «طلِّق». . بذٰلك أستردّ عشرين مفقودة في الجحيم. وأتعزّى عن مالي الذي بعثرته على هٰذه العصابة. المال الذي دبّرته بالشقاء والجهد والسرقة والنهب والتعرّض للمهالك.

ولّما لاح عن بُعد قريب القبو المفضي إلى شرداحة التفت إلى رجاله قائلًا:

ـ احملوا على الأعوان ودعوا لي الرجل ولا تمسّوا بسوء أحدًا من غير هٰؤلاء. . .

لم يداخله شكّ في أنّ نبأ غزوته قد سبقه إلى شرداحة، وأنّه عمّا قليل سيقف أمام لهلوبة وجهًا لوجه. ولم يعد يفصله عن هدفه إلاّ قبو قصير، تقدّمهم في حذر ولٰكنّه لم يصادف داخل القبو أحدًا. واندفعوا مرّة واحدة وهم يشدّون على عصيّهم ويطلقون صرخات مرعبة ولٰكنّهم وجدوا الطريق خاليًا. لاذ الناس بالبيوت والحوانيت. وامتدّ طريق شرداحة مقفرًا حتّى الخلاء الذي يحدّه من ناحية الصحراء. وهمس صاحبه في أذنه:

ـ مكيدة!. . . مكيدة وسيدي أبو العبّاس!

فقال شرشارة باستغراب:

ـ لهلوبة لا يستعمل المكائد!

وبأعلى صوته صاح:

ـ لهلوبة. . . اظهر يا جبان!

ولٰكن لم يجبه أحد ولم يخرج إلى الطريق أحد. نظر فيما أمامه بترقّب وذهول وهو يتلقّى تيّارًا من الغبار الخانق الحارّ. متى يفرغ شحنة عشرين عامًا من الغضب والحقد؟! ورأى باب السرجة القصير المقوّس المغلق فمضى إليه في حذر، وطرقه بعصًا حتّى جاءه صوت مرتعش النبرة وهو يهتف في ضراعة:

ـ الأمان!

فصاح بظفر:

ـ عمّ زهرة! تعالَ ولك الأمان. . .

ظهر وجه العجوز من كوّة في الجدار أعلى من الباب ورمى ببصر زائغ كليل.

ـ لا تخف، لا أحد يريد لك السوء، ألم تتذكّرني يا رجل؟!

نظر العجوز إليه طويلًا ثمّ تساءل في حيرة:

ـ مَن أنت يحفظك الله؟

ـ أنسيت صبيّك شرشارة؟

اتّسعت العينان الغائمتان ثمّ صاح:

ـ شرشارة؟!... وكتاب الله هو شرشارة ولا أحد غيره!

وسرعان ما فتح الباب وهرع إليه فاتحًا ذراعيه في ترحيب ظاهر وخوف باطن فتعانقا، وصبر شرشارة حتى انتهى ثمّ سأله:

ـ أين هلوبة؟... ما له لم يجئ للدفاع عن حيّه؟

ـ هلوبة!

ـ أين فتوّتكم الجبان؟

شهق العجوز رافعًا رأسه عن رَقبة نحيلة معروقة ثمّ قال:

ـ ألم تدرِ يا بنيّ؟... هلوبة مات من زمان!

صرخ شرشارة من أعماق صدره وهو يترنّح تحت ضربة مجهولة:

ـ لا!

ـ هي الحقيقة يا بنيّ...

بصوت أقوى وأفظع من الأوّل:

ـ لا... لا يا مخرّف!

قال العجوز وهو يتراجع خطوة في خوف:

ـ لكنّه مات وشبع موتًا...

تراخت ذراعاه وتهدّمت قامته فعاد العجوز يقول:

ـ منذ خمسة أعوام أو أكثر...

آه... ما بال جميع الكائنات تختفي ولا يبقى إلّا الغبار.

ـ صدّقني لقد مات، دُعي إلى وليمة في بيت أخته فأكل الكسكسي، ثمّ تسمّم هو وكثيرون من أعوانه، ولم ينجُ منهم أحد.

آه... إنّه يتنفّس بصعوبة كأنّ الهواء استحال طوبًا. وهو يغوص في أعماق الأرض ولا يدري ماذا بقي منه فوق سطحها. وحدج زهرة بنظرة ثقيلة خابية وتمتم:

ـ إذن مات هلوبة؟

ـ وتفرّقت البقيّة من أعوانه إذ سهل على الناس طردهم...

ـ لم يبق منهم أحد؟

ـ ولا واحد والحمد لله.

وصاح فجأة بصوت كالرعد:

ـ هلوبة... يا جبان... لماذا مُتّ يا جبان!

انذعر العجوز من عنف صوته فتوسّل إليه قائلًا:

ـ هَوِّن عليك ووحِّد الله.

هَمَّ بالتحوّل إلى أصحابه في حركة مُتهاوية ولكنّه توقّف في فتور وعاد يسأل:

ـ وماذا تعرف عن زينب؟

تساءل العجوز في حيرة:

ـ زينب؟!

ـ يا عجوز أنسيت العروس التي أجبرني على تطليقها ليلة دخلتها؟

ـ آه... نعم... هي اليوم بيّاعة بيض في عطفة الجحش!

نظر إلى رجاله في انكسار وهزيمة. العصابة التي استنفدت عمره وماله وصبره. ها هو العمى يهبها للعدم. وقال بضجر:

ـ انتظروني عند الجبل.

تجمّد نظره تجاههم وهم يختفون داخل القبو رجلًا في إثر رجل. هل سيلحق بهم؟ متى يلحق بهم ولماذا؟! وهل يرجع من طريق الجوّالة أو من طريق الخلاء؟ ولكن زينب. أجل زينب. من أجلها احترقت عشرون عامًا من العمر. أمن أجلها حقًّا؟! لن تصل إليها فوق جبّار منهزم كما رسمت. مات ولا جدوى من نبش القبور، ما أفظع الفراغ! وها هي في دكّانها. هي هي دون غيرها، مَن كان يتصوّر لقاء كهذا اللقاء الفاتر الغامض الخجلان! وجلس على مقعد في قهوة صغيرة في حجم زنزانة وراح يرقب الدكّان الغاصّ بالزبائن. ها هي امرأة غريبة ممتلئة لحمًا وخبرة وقد أنضجت الأعوام قسماتها الساذجة. ملتفّة بالسواد من الرأس حتّى القدمين ولكنّ وجهها متشبّث بقسط وافر من الوسامة. وهي تساوم وتناضل، وتلاطف وتخاصم، كامرأة سوق لا يمكن أن يستهان بها. ها هي إن أردت، وبلا معركة. بلا كرامة أيضًا. فاتك إلى الأبد أن تقف فوق صدر هلوبة وأن تأمره بالطلاق. ما أفظع الفراغ! ولم يحوّل عينيه عنها لحظة

واحدة. وانهمرت عليه الذكريات في غرابة وحزن وحيرة قاتلة. ولا فكرة عنده عمّا سيفعل. كم آمن بأنّها كلّ شيء في الحياة، ولكن أين هي؟!

وهبط المغيب كآخر العمر. وذهب الزبائن تباعًا. وجلست في النهاية على مقعد قصير من القشّ المجدول وراحت تدخّن سيجارة. قرّر أن يلقي بنفسه بين يديها هربًا من حيرته. وقف حيالها وهو يقول:

ـ مساء الخير يا معلّمة.

فرفعت إليه عينين مكحولتين مستطلعة. ولم تعرفه فتابعت دخّان سيجارتها متمتمة:

ـ طلباتك؟

ـ لا طلب لي.

أعادت النظر بشيء من الاهتمام المفاجئ فتلاقيا في نظرة ثابتة. ارتفع حاجباها وانحرف جانب فيها في شبه ابتسامة.

ـ هو أنا!

ـ شرشارة!

ـ هو نفسه ولكن بعد عشرين سنة!

ـ عمر طويل.

ـ كالمرض.

ـ حمدًا لله على سلامتك، أين كنت؟

ـ في بلاد الله.

ـ عمل وأهل وأبناء؟

ـ لا شيء.

ـ وأخيرًا رجعت إلى شرداحة.

ـ عودة الخيبة.

التمعت في عينيها نظرة ارتياب وتساؤل فقال بغضب:

ـ سبقني الموت!

تمتمت في غير ما ارتياح:

ـ كلّ شيء مضى وانقضى.

ـ دفن معه الأمل.

ـ كلّ شيء مضى وانقضى.

وتبادلا نظرة طويلة، ثمّ سألها:

ـ وكيف حالك؟

أشارت إلى مقاطف البيض وقالت:

ـ كما ترى، معدن!

بعد تردّد:

ـ ألم... ألم تتزوّجي؟

ـ كبر الأولاد والبنات.

جواب لا يعني شيئًا. واعتذار واهٍ كأنّه مصيدة. ما جدوى العودة قبل أن تستردّ الكرامة الضائعة؟ ألا ما أفظع الفراغ! وأشارت إلى مقعد خالٍ في زاوية الدكّان وقالت:

ـ تفضّل.

نغمة ناعمة كأيّام زمان. ولكن لم يبق إلّا الغبار. قال:

ـ في فرصة أخرى.

وتردّد في حيرة معذّبة ثمّ صافحها وذهب. لن تتكرّر الفرصة. هكذا وجدت نفسك قبل عشرين سنة. ولكنّ الأمل لم يكن قد قُبر. وكره فكرة الذهاب إلى الجبل من طريق الجوّالة. كره أن يرى الناس أو أن يروه. وكان ثمّة طريق الخلاء فمضى نحو الخلاء.

البارمان[٧]

مهما يكن من أمر فقد اقترن بأطيب الأوقات وجهك. وأنت معتمد على الطاولة الرخاميّة البيضاء بكوع يسراك وراحة يمناك، تنظر وتنتظر، ودائمًا تبتسم، وبين حين وحين تتناول منشفة صفراء كبيرة فتمسح السطح برشاقة ثمّ تعود إلى موقفك. ووراء ظهرك على رفوف أربعة صُفّت زجاجات الخمور من كلّ صنف، مستكنّة في خمول، ناضحة بسوائل ذهبيّة وبنّيّة وحمراء، ولا مشابهة أو مقاربة بين ظاهرها الأنيس الوديع وخميرها العامر بالقوى الغامضة الملهمة المفجّرة. ورأسك المستدير الكبير، وشعرك الأسود المفروق من الوسط، وحاجباك الغزيران المتباعدان، وشاربك الكثّ المتعرّج كقوس، وذقنك العريض القويّ، وعيناك الواسعتان الزرقاوان اللامعتان، وأنفك الأقنى، كلّ أولئك آيات منظر لا يمكن أن يُنسى. أنت حقًّا مَلِك قهوة وبار أفريقيا.

وفي بعض الأوقات كنّا نغادر مكاتبنا بالوزارة فنتسلّل إلى «أفريقيا» لنشرب فنجالًا من القهوة. ولم يكن من النادر أن يدور حديثنا عنك وأنت لا تدري. ومرّة تساءلت بين إخوة من الموظّفين:

ـ كيف يختارون البارمان؟

فأجاب صديق من أهل الخبرة وهو يرمقك بإعجاب:

ـ لعلّه في الأصل جرسون ولكنّه يُنتقى بمنتهى الدقّة.

وقال ثانٍ:

ـ إنّهم يتقاضون مرتّبات خياليّة...

ـ وله دراية مذهلة بالنفس البشريّة...

ـ وفي المعلومات العامّة أستاذ بكلّ معنى الكلمة.

ـ ألا ترى كيف يحادث وكيف يضاحك وكيف يناقش؟

ـ ولذلك فالشرِّيب العتيق هو زبون البارمان قبل كلّ شيء...

ـ هو كلّ شيء، وكلّ ما يجيء من ناحيته طريف، حتّى اسمه، فاسيليادس... فاسيليادس... أصْغِ إلى موقعه من الأذن!

فنظرت إليه بإكبار، واندفعت إلى الإعجاب به اندفاعًا لا يصدر عادة إلّا عن يافع الشباب. وكانت مودّته قيمة أعتزّ بها حقًّا، ويستخفّني الفرح كلّما استقبلني بابتسامة متفتّحة مشرقة تنجاب معها هموم القلب. وفي مساء العطلة الأسبوعيّة كان يدعوني إليه الشباب قبل السهرة، أيّ سهرة. وما أكاد أجلس على المقعد الطويل حتّى تمتدّ يده إلى زجاجة الديوارس فيصبّ لي منها في الكأس المضلّعة، ويتابعني وأنا أشرب، ثمّ يسأل باهتمام:

ـ أين تذهب هٰذا المساء؟

فأجيبه بما أنوي الذهاب إليه من سينما أو مسرح أو صالة غناء، فيقول:

ـ كلّ هٰذا جميل في عهد الشباب.

فأقول ضاحكًا:

ـ شباب... شباب... لِمَ التغنّي الدائم بالشباب؟... أليس لكلّ فترة من العمر قيمتها؟

ـ إنّك تتطاول على الشباب لأنّك شابّ، بالله انتبه إلى قيمة الكنز الذي في قلبك...

ـ لا تبالغ يا فاسيليادس، الحياة ليست دماء وساعات ودقائق...

ـ إذن ما هي الحياة؟

ـ هي المال قبل كلّ شيء يا فاسيليادس.

ـ المال مهمّ جدًّا، ولٰكنّ الشباب أهمّ، ثمّ إنّ مظهرك...

فقاطعته:

ـ دعك من مظهري، ماذا تعرف عن موظّف صغير بتلك الوزارة المشئومة التي ترى مدخلها من موقفك وراء البار؟... الرغائب كثيرة واليد قصيرة فلا تحدّثني عن الشباب...

ـ أتدري كيف كان صاحب هٰذه القهوة عندما هاجر إلى مصر؟

ـ جاء فقيرًا معدمًا ثمّ شقّ سبيله في عالم غير عالم الوزارة والوظائف، جميع الترقيات والعلاوات موقوفة لأجَل غير مسمّى فماذا بقي للشباب؟

ـ الموقوف اليوم يسير غدًا، ولا يبقى شيء على حاله... خُذْ...

ويملأ الكأس من جديد فسرعان ما أصدّقه وأستحلي منطقه، ثمّ أودّعه بقلب ممتنّ ودود.

وفي صباح يوم عيد وأنا راجع من القرافة وجدت في البيت بطاقة معايدة من فاسيليادس فطرت بها فرحًا. وجلست حين المساء أمامه وأنا أقول:

ـ هٰذا يوم الشراب والورد والأفكار الطيّبة...

فملأ الكأس وأهداني قرنفلة وابتسامة. وحلا كلّ شيء وطاب حتّى نسيت فاسيليادس نفسه وجعلت أردّد بصوت منخفض:

ـ كتمت الهوى حتّى أضرّ بك الكتم
ولامك أقوام ولومهم ظلم

وإذا به يتساءل:

ـ شِعْر؟

فقلت وأنا أضحك من غفلتي:

ـ نعم.

ـ خبّرني عن معناه؟

فرحت أشرحه له كلمة كلمة وهو يتابعني باسمًا، ثمّ قال:

ـ جميل حقًّا، ولٰكن أأنت عاشق أم شاعر؟

فقلت بنبرة اعتراف:

ـ عاشق!

ـ جميل حقًّا ولٰكن لماذا الكتم ولماذا الظلم؟

ـ هٰكذا الحبّ في بلادنا.

ـ الحبّ أن تتكلّم وأن تحبّ وأن تمـرح مـع مَن تحبّ. . .

ـ هٰذا عند اليونان.

ـ والرومان. . . وكلّ الناس. . .

فهتفت منتشيًا:

ـ بالله احْكُمِ العالم يا فاسيليادس.

ـ أنت شـابّ مهذّب وقـويّ، أيّ بنت يمكن أن تحبّك ولٰكن لا تكتم وإلّا فكيف يعرف المحبوب أنّك تحبّه ولا تهتمّ بلوم الظالم. . . خذ.

وملأ لي الكأس من جديد فآمنت بقوله واستعدت الثقة المفقودة ثمّ ذهبت بقلب شكور.

وتمرّ الأيّام ولا تشيب لك شعرة يا فاسيليادس أو يخبـو لعينيك ضيـاء. وذات مساء سألته وأنـا أرمقه بإعجاب:

ـ كيف تحافظ على شبابك؟

فأجاب مبتسمًا في لباقة:

ـ بمعاشرة الأحباب من أمثالك!

فتناولت الكأس قائلًا:

ـ كلامك دائمًا حلو. . .

فسألني بإشفاق:

ـ كيف حال الوليد؟

ـ يتقدّم إلى الشفاء، وفي الطريق آخر فيما يبدو!

ـ مبارك، هٰذا عهد الإنجاب، أنت رجل محترم ولا عيب فيك إلّا أنّك سريع الشكوى!

ـ الحقّ أنّ الحياة لا تسرّ. . .

ـ كيف لا وأنت موظّف محترم وزوج وأب؟

ـ أقصد البلد، وحياتنا السياسيّة، لعلّك لا تهتمّ بذٰلك؟

ـ من بعيد، كثيرًا ما أرى من موقفي وراء البـار المظاهرات وأسمع الهتافـات، وأرى عساكـر البوليس وهم يطاردون الطلبـة، ثمّ تجيء اللوريات وعـربات الإسعاف، كثيرًا. . . كثيرًا، لماذا أنتم عصبيّون هٰكذا؟

ـ بلد تعيس الحظّ يا فاسيليادس.

ـ هٰكذا السياسة في كلّ مكان، عندنا في اليونـان سالت دماء كثيرة، لا تحزن، أين كنت أمس وأين أنت اليوم؟ وستشرب هنا نخب انتصارات قادمـة وسوف أذكّرك، خذ. . .

وملأ الكأس من جـديد، وزايـل وجهي العبوس وطربت لغير ما سبب وغادرته وأنا أدعو لمودّتنا المتبادلة بالخلود.

وازددت مع الأيّام إعجابًا بحيويّته. وكنت أسترق إليه النظر مستطلعًا ولٰكنّي لم أعثر على آيـة من آيات الكبر. وها هما عيناه تشعّان بقوّة كبلّورتين لا يعتورهما تلَف، فمن أين تجيئه القوّة المتجدّدة؟

ـ هل تشرب كثيرًا يا فاسيليادس؟

ـ كلّا يا حبيبي، كأس واحدة قبل الغداء.

ـ والعشاء؟

ـ عشائي لبن زباديّ وخسّ وتفّاحة.

ـ أليس في حياتك أحزان؟

ـ مثل جميع الناس ولٰكنّي لا أستسلم للحزن كأكثر الناس!

ولاحظ أنّني هجـرت مجلسي التقليـديّ إلى مقعـد وراء البرافان الذي يفصل القهـوة عن ركن الشراب فقال:

ـ ألاحظ أنّك تفضّل الاختفاء.

فضحكت عاليًا وقلت:

ـ ابني اليوم في سنّ الشباب وقد رأيته مرّة وهو يمرّ أمام القهوة في رفقة بعض الصحاب. . .

ـ عجيب أن يخاف الأب ابنه!

ـ شدّ ما أعاني من الأبناء.

ـ لماذا يا سيّدي وأنت الرجل الطيّب؟

ـ لا نكاد نتّفق في رأي أو ذوق وأشعر حقًّـا بأنّي غريب.

ـ ولماذا تريدهم على أن يكونوا مثلك؟

ـ على أيّامنا. . .

ولٰكنّه قاطعني:

- أيّام الترقيات والعلاوات الموقوفة!

فلم أتمالك من الضحك وقلت:

- إذن فأنت لا يزعجك تمرّد الأبناء!

- تعلّم منهم!... تعلّم منهم إن استطعت... خذ...

فرفعت الكأس وأنا أهتف «في صحّة التمرّد والعصيان!».

ورغم أنّ الشخص هو آخر مَن يعلم بفعل الزمن في ذاته فقد أقنعتني علامات لا سبيل لإخفائها بمدى التغيّر الذي طرأ عليّ. ومع ذٰلك لم أكد ألاحظ في فاسيلیادس شيئًا. وذهبت إليه ذات مساء فحدجني بإنكار لم أجهل بواعثه. وبادرني وهو يملأ الكأس:

- لست كعادتك.

فقلت وأنا أخفض جفني:

- أُحِلْت أمس إلى المعاش!

فلوّح بيده قائلًا:

- برافو...

- ما معنى التحيّة يا فاسيلیادس؟

- أنّك أتممت رحلة موفّقة لتبدأ رحلة أخرى...

- أيّ رحلة يا رجل؟

- الحياة تبدأ بعد الستّين...

- في قهوة أفريقيا؟

فقال وهو يهزّ رأسه:

- كنت تتعامل مع تفاصيل الحياة وآنَ لك أن تتعامل مع خلاصتها...

- الحقّ أنّي وجدت نفسي لا شيء!

- هٰكذا تكلّمت يومًا عن الشباب...

- لم يعد أحد معي إلّا المدام، ولولا الشعور بالواجب ما زارني أحد من الأبناء!

- اهتمّ بأمر واحد هو كيف تستمتع بالحياة بعد الستّين.

- وهل بقي من الحياة شيء...

- الحياة القديمة انتهت أمّا الجديدة فلم تبدأ بعد.

فقلت واجمًا:

- أصاب أحيانًا بالدوار فيخيّل إليّ أنّ كلّ شيء لا شيء.

- صحّتك حسنة، ولك أصدقاء، والحياة في البلد لم تعد تسير على وتيرة واحدة.

- في أعماقنا حزن دفين ينتهز الفرص غير المواتية ليطفو فوق السطح.

- ولٰكنّه لا يستطيع أن يمحو أفراح الحياة الماضية والراهنة.

- المسألة أنّ لسانك لا ينطق إلّا بالشهد.

- ما زال أمامنا أيّام كثيرة للّقاء والحديث وتبادل المودّة.

- لتكن مشيئة الله...

- وزر من جديد حديقة الحيوان والأسماك والآثار... خذ...

وملأ الكأس فعجبت أيّ كنز هو فاسيلیادس.

ويومًا وأنا أتأهّب لاستقبال شهر رمضان هاجمني مرض الكلى. وعادني الأبناء. وعادني الأصدقاء فتسلّينا بأحاديث الأمراض والسياسة. وذات صباح جاءت زوجتي لتخبرني بأنّ «خواجا» يرغب في مقابلتي. وما هي إلّا دقيقة حتّى كان فاسيلیادس يعانقني بحرارة وشاربه الكثّ ينهش فمي وخدّي. رأيته بالبدلة الكاملة والقبّعة لأوّل مرّة. وقال ضاحكًا:

- ما أوحش البار من غير ضحكتك...

فقلت وأنا أتحسّس أسفل الظهر:

- المغص!... أجارك الله يا فاسيلیادس...

- دعابة سخيفة ولا بدّ أن تنتهي، وأعترف لك أنّ فاسيلیادس لا يساوي شيئًا بدونك.

- وماذا أساوي أنا بدونك يا عزيزي؟

- ومتى ترجع لنا؟

- ربّما في نهاية الأسبوع، أين الشباب أين؟

- قلت إنّها دعابة سخيفة ثمّ نواصل حياتنا الطيّبة...

الحقّ أنّ زيارته أنعشت روحي أكثر من الأبناء أنفسهم وليلة عدت إلى «أفريقيا» تعانقنا أمام الجميع، ورفعت الكأس وأنا أقول:

- في صحّة فاسيلیادس رمز الحبّ والوفاء.

وقصصت عليه حلمًا زارني فيه الموت فقال:

- لا تصدّق، الموت لا يجيء إلّا مرّة واحدة، وإذا

جاء أعقبته سعادة كبرى.

ـ ها أنت تتحدّث عمّا وراء الموت. . .

فقال بثقة:

ـ من أين أتيت؟ ألا يشبه الظلام الذي أتيت منه الظلام الذي ستذهب إليه بعد عمر طويل؟ وقد أمكن أن خرج من الظلام الأوّل حياة فما يمنع من أن تستمرّ الحياة في الظلام الثاني؟!

فصحت وأنا ثمل:

ـ برافو فاسيليادس. . . يا صوت القدّيسين. . .

وقمت بجولة طويلة بين الحدائق والآثار. وجلست في الخلوات تحت أشعّة الشمس المشرقة. ولكنّ شيئًا لم يمنع الواقعة. وغبت عن الوجود زمنًا لم أدره. ولّما عدت إلى الوعي وجدتني ممدّدًا فوق الفراش كميت. وخطر لي أنّها النهاية ولكنّ تعلّقي بالحياة لم يهن. وقال صديق من العوّاد:

ـ فاسيليادس يبلغك تحيّاته.

فاختلج جفناي باهتمام حقيقيّ لأوّل مرّة منذ الرقاد وسألته:

ـ ترى هل علم بحقيقة حالي؟

ـ أجل، أخبره بعض الأصدقاء فحزن جدًّا. . .

وقلت لزوجي بعد ذهاب الصديق:

ـ إذا جاء الخواجا فادخليه فورًا. . .

وقلت لنفسي إنّه لمعجزة حقًّا وسوف يجدّد حياتي بسحره العجيب. وكلّما دقّ جرس الباب اختلج جفناي وتأهّبت للّقاء. وجاء كثيرون ولكن لم يجئ فاسيليادس. وتساءلت عمّا أقعده وعبثت بي الظنون وأرهقني القلق. وقلت للصديق ذات يوم:

ـ فاسيليادس لم يزرني. . .

فقال كالمعتذر:

ـ الرجل مرهق بالعمل. . .

ـ ولكنّه لم يتأخّر عن زيارتي في مرضي السابق.

وصمت الرجل فقلت متأثّرًا:

ـ أبلغه أنّني زعلان. . .

وقلت إنّه سيجيء حتمًا مهما تكن شواغله. ولكن طال الانتظار بلا أمل. ومضى الحزن يتحوّل إلى غضب. وقلت إنّه كان يجاملني ليس إلّا، ولّما عرف النهاية أسقطني من الحساب. وها هو الوغد يتكشّف عهده الطويل عن أكذوبة سمجة، ومودّته الحارّة عن مهارة محترف.

وجاء الصديق لزيارتي مرّة ثالثة وأنا بين الحياة والموت. وسمعني أغمغم باسمه الرنّان في أسًى فأدنى رأسه منّي وقال:

ـ البقيّة في حياتك في فاسيليادس. . .

هتفت رغم ضعفي:

ـ لا. . .

فقال:

ـ هٰكذا قلنا جميعًا، لم نصدّق أعيننا ونحن نراه وهو يتهاوى وراء البار، وقبيل ذٰلك بثوان كان يضحك ويتحدّث وهو واقف كتمثال، ولٰكن بالله خبّرني كيف كان يمكن أن يموت رجل في مثل قوّته إلّا بضربة قاضية؟!

المتهم

لأنّه وحيد في سيّارته الصغيرة لم يجد تسلية إلّا في السرعة. طار فوق شريط الأسفلت المنساب وسط الرمال في طريق السويس. ولا تنوّع في المنظر ممّا ضاعف من شعوره بالحدّة ولا جديد يُذكر في سبيل يقطعه ذهابًا وإيابًا مرّة كلّ أسبوع. وتراءت له عن بُعد سيّارة نقل ضخمة فقرّر اللحاق بها ثمّ ضاعف من سرعة سيّارته «رمسيس» ومضى يقترب منها. سيّارة بترول ضخمة كقاطرة. وثمّة راكب درّاجة يمسك بركن مؤخّرها، وينطلق بحذاء عجلتها اليسرى الخلفيّة دون عناء وهو يغنّي. ترى من أين جاء راكب الدرّاجة وأين يقصد وهل كان يطوي الطريق بدرّاجته لو لم يجد سيّارة تجرّه؟! وابتسم إعجابًا وهو ينظر إليه في إشفاق. ومرّ بمجموعة من التلال عن يمينه تترامى وراءها بقعة خضراء زُرعت ذرة واكتنفتها أرض معشوشبة ترعاها الماعز فهدّأ من سرعته مؤجّلًا السباق حتّى يتملّى الخضرة اليانعة. وإذا بصرخة تمزّق الصمت. انجذب وجهه إلى الأمام بعنف. رأى عجلة السيّارة تدوس

الدرّاجة وراكبها وتمضي في طريقها. صرخ فزعًا. وصرخ ينادي السائق. وأوقف سيّارته على مبعدة مترين من الدرّاجة ثمّ غادرها دون تفكير، ودون أن يكفّ عن مناداة السائق. واقترب في تهيّب من مكان الحادث فرأى جسمًا ملقى على جانبه الأيسر، وذراعه اليمنى منطرحة إلى جانبه سمراء صغيرة اليد بارزة من قميص أغبر نصف كمّ مغطّاة الأديم بالسجحات والكدمات، لا يظهر من وجهه إلّا عارضه الأيمن، ورجلاه ما زالتا مطوّقتين للدرّاجة داخل بنطلون رماديّ متهتّك ينزّ منه الدم، وقد هصرت العجلتان وتهشّمت أسلاكها وانكسر جانب المقود، وثمّة حركة تنفّس ثقيل عميق سريع تجتاح صدر الضحيّة الذي بدا شابًّا في العشرين أو فوق ذٰلك بقليل. تقلّص وجهه وثبتت في عينيه نظرة حزن ورثاء ولٰكنّه لم يدر ماذا يفعل. شعر بعجزه في الخلاء. ونبذ فكرة حمله إلى سيّارته التي قد يكون فيها القضاء عليه. وأخيرًا وجد المهرب من حيرته في أن يركب سيّارته وينطلق بها في إثر السيّارة الجانية حتّى يلحق بها، ولعلّه يجد في الطريق نقطة مراقبة أو تفتيش فيبلّغ عن الحادثة.

ورجع إلى سيّارته وهمّ بالدخول فيها عندما ارتفع صوت، بل أصوات، وهي تصيح:

- قف... لا تتحرّك...

التفت وراءه فرأى جمعًا من الفلّاحين يركضون نحوه، آتين من ناحية الأرض الخضراء. منهم مَن يحمل عصًا أو يقبض على حجر. واضطرّ إلى العدول عن الركوب خشية أن تنهال عليه الأحجار والتفت نحوهم وهو يرجف من دقّة موقفه. وأيأسته الوجوه الغاضبة المتوثّبة من أيّ أمل في التفاهم فمدّ يده بسرعة إلى الخزانة فاستخرج مسدّسه ثمّ سدّده نحوهم وصاح بنبرة مختلجة:

- مكانكم...

أدرك بسرعة خاطفة مضطربة أنّه بحركته هٰذه قد قضى على أيّ أمل أيضًا في التفاهم مستقبلًا ولٰكن لم يكن ثمّة وقت لحسن التدبير. وهدأوا من اندفاعهم حتّى توقّفوا تمامًا على مبعدة عشرة أمتار. استقرّت في أعينهم نظرة مكفهرّة حاقدة. وأضرم من نيرانها العجز غير المتوقّع حيال المسدّس. وتبدّت الوجوه غامقة جافّة مرهقة تحت أشعّة الشمس. وتهاوت الأيدي بالعصيّ والأحجار وتشبّثت الأقدام الغليظة الحافية بالأسفلت.

وقال رجل منهم:

- أتريد أن تقتلنا كما قتلته؟

- لم أقتله، لم أمسّه، ولٰكن داسته سيّارة البترول.

- سيّارتك أنت...

- أنتم لم تروا شيئًا...

- رأينا كلّ شيء...

- إنّكم تمنعونني من اللحاق بالسيّارة الجانية...

- أنت تريد أن تهرب...

ازدادوا حقدًا وازداد خوفًا. وأرعبته لحدّ الموت فكرة أن يضطرّ إلى إطلاق النار. أن يقتل وأن يجرّه القتل إلى مأزق لا نجاة منه. كيف حلّ الكابوس بلا نوم!

- صدّقوني ما مسسته، وقد رأيت السيّارة وهي تدهسه...

- لم يدهسه أحد غيرك...

- كان يجب أن تبلّغ أقرب مستشفى.

- حصل.

- ونقطة البوليس؟

- حصل...

- إذن أرجو أن ننتظر في سلام وسوف يظهر الحقّ.

- لا تهرب وسوف يظهر الحقّ.

- بالله لماذا الإصرار على الباطل؟

- لماذا تقتله!

أيّ جحيم من العناء والكذب! ومتى تنقضي فترة الانتظار الجهنّميّة. العذاب البطيء والخوف والفكر المحموم. لماذا وقف؟ وكيف تظهر الحقيقة؟ حتّى سائق السيّارة الكبيرة لا يدري. ولا أمل في أن يكون الموقف كلّه حلمًا مزعجًا.

وندّت عن الشابّ الطريح تأوّهة، أعقبتها آهة محشرجة وأنين طويل هبط حتّى الصمت مرّة أخرى.

وهتف رجل:

- الله ينتقم منك...

- الله ينتقم من الفاعل...

ـ أنت الفاعل!

ـ الحقّ عليّ لأنّي وقفت.

ـ ظننت نفسك وحيدًا. . .

ـ بل ظننت أن أسعفه.

ـ تسعفه!

ـ لا فائدة من الكلام معكم.

ـ لا فائدة. . .

لو أدار لهم ظهره ثانية واحدة لالتهمته الأحجار. لا مهرب من موقف العذاب. ولا سبيل إلى السيّارة الكبيرة. هو وحده الفداء. ودون حلم النجاة أهوال وأهوال. ترى كيف تُحدَّد المسئوليّة. وكيف تُقدَّر العقوبة؟ وهل يمكن أن ينجو الشابّ المسكين؟ وتجلّى الحنق في نظرته تجاه حقد ثابت في نظراتهم.

* * *

وتراءت في أقصى الأفق سيّارتان. وأخذتا تقتربان حتّى تنهّد في ارتياح. وصلت إلى مكان الحادث سيّارة الإسعاف وسيّارة البوليس. انتقل رجال الإسعاف إلى الدرّاجة فورًا وأحاط بهم الجميع. خلّصوا الدرّاجة من بين ساقيه بأناة ثمّ حملوه بعناية إلى السيّارة. ورجعوا من حيث أتوا. وأبعد العساكر الجمع عن الدرّاجة وراح الضابط يعاين المكان صامتًا. ثمّ التفت إليه قائلًا:

ـ أنت؟

فصاح الفلّاحون بإيجاب حتّى أسكتهم الضابط بإشارة من يده وهو ينظر إليه مستطلعًا فقال:

ـ كلّا، كنت أسير وراء سيّارة بترول، وكان قابضًا على مؤخّرها، انتبهت إلى صرخة فرأيته تحت عجلتها الخلفيّة.

وصاح كثيرون:

ـ هو الذي داسه. . .

ـ لم أمسّه، كنت شاهدًا فحسب.

وعادت الضجّة فصاح الضابط:

ـ الكلام بنظام. . .

وسأله:

ـ هل رأيت الحادث وهو يقع؟

ـ كلّا، عندما التفتُّ إلى مصدر الصرخة رأيت الدرّاجة تحت العجلة.

ـ ولكن كيف وقع تحتها؟

ـ لا أدري. . .

ـ وماذا فعلت؟

ـ أوقفت السيّارة لأرى ما حلّ به وما يمكن عمله، وأردت اللحاق بالسيّارة ولكنّي رأيتهم يجرون نحوي بالعصيّ والأحجار فاضطررت إلى تهديدهم بمسدّسي.

ـ هل تحمل رخصة؟

ـ نعم، إنّي صرّاف بالسويس وكثير السفر. .

والتفت نحو الفلّاحين متسائلًا:

ـ لماذا تتّهمونه؟

فاستبقوا هاتفين:

ـ رأيناه بأعيننا ومنعناه من الهرب. . .

فقال الشابّ حانقًا:

ـ كاذبون، لم يروا شيئًا. . .

أمر الضابط جنديًّا بحراسة المكان، وآخر بإبلاغ النيابة، ثمّ مضى بالجميع إلى النقطة لكتابة المحضر. وأصرّ علي موسى على أقواله كما أصرّ الفلّاحون على أقوالهم. وجعل علي يردّد بأنّ التحقيق سيكشف عن الحقيقة. وعُرِف أنّ الضحيّة اسمه عياد الجعفري وهو تاجر متنقّل، وله معاملات متبادلة مع أكثر الفلّاحين.

وتساءل علي موسى:

ـ ما الذي يدعوني إلى الوقوف لو كنت حقًّا الجاني؟

فقال الضابط ببرود:

ـ ليس المفروض أن تدهس وتهرب.

ولبث الجميع ينتظرون. جلس الفلّاحون القرفصاء وجلس علي موسى على كرسيّ بإذن من الضابط. ومرّ الوقت ثقيلًا كثيبًا غليظًا. وبانتهاء المحضر تناساهم الضابط ولم يعد يعنيه من الأمر شيء. وراح يتسلّى بقراءة الصحف. ولماذا يصرّ الفلّاحون على اتّهامه؟ والأدهى أنّهم مطمئنّون بشهادتهم كأنّهم حقًّا صادقون. هل خدع البصر؟ هل فسّر أحدهم الموقف بما يحدث عادة لا بما حدث بالفعل ثمّ تبعه الآخرون بغريزة عمياء؟ آه. . . لا أمل إلّا في نجاة عياد الجعفري. هو قبل أيّ إنسان آخر الذي يستطيع أن يوقظه من الكابوس بكلمة واحدة.

وقال علي موسى برقّة ورجاء:

ـ أيمكن الاطمئنان على حال المصاب؟

فرمقه الضابط بنظرة لم يرتح لها غير أنه اتّصل بالمستشفى بالتليفون ثمّ أعاد السمّاعة قائلًا:

ـ في حجرة العمليّات، نزف كثيرًا، ولا يمكن التنبّؤ بالنتيجة.

فتردّد لحظات ثمّ سأل:

ـ ومتى تجيء النيابة؟

ـ ستعرف ذلك بنفسك عند مجيئها.

فقال وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ لماذا يجد أناس أنفسهم في مثل موقفي هٰذا؟

فأجاب الضابط وهو يعود إلى الجريدة:

ـ لعلّ عندك الجواب!

وارتمى في وحدته الموحشة وهو يلقي على المكان نظرة مقت. هٰؤلاء الفلّاحون يودّون القضاء عليه ولو تمكّن هو من القضاء عليهم لفعل. وهٰذا الضابط يمارس مهنته كآلة. وثمّة قوّة عمياء مجهولة تطحنه وكأنّها لا تدري. وهو له أخطاء كثيرة ولٰكن من السخف ربط أطراف الفوضى بأسباب منطقيّة.

وتنهّد متمتمًا:

ـ يا ربّ.

فردّد أكثر من صوت لأسباب مناقضة:

ـ يا ربّ!

وفقد أعصابه فصاح بهم:

ـ أنتم لا ضمائر لكم.

فصاحوا:

ـ ربّنا بيننا وبينك يا ظالم.

ورفع الضابط وجهه من فوق الجريدة وقال بغضب:

ـ لا... لا أسمح بذلك.

فقال علي ممتعضًا:

ـ لولا الكذب والزور لكنت الآن في بيتي آمنًا.

فقال رجل:

ـ لولا استهتارك لكان عياد المسكين في بيته آمنًا.

رماهم الضابط بنظرة وعيد عقلت الألسنة. وساد السكون فاستشرى ألم الانتظار. ومرّ الوقت كأنّما يسير إلى الوراء. ومضى علي في إرهاق غير محتمل حتّى اضطرّ إلى الاستغاثة بالضابط من جديد فسأله بلهجة غاية في الأدب:

ـ سيّدي، لا أخالك تجهل ما أعانيه من عذاب، هل يمكن أن أعرف متى تأتي النيابة؟

فأجاب من وراء الجريدة في ضجر:

ـ أتظنّ أنّ حادثتك شيء يُذكر بالقياس إلى الحوادث؟

كلّ هٰذا العذاب شيء لا يذكر. الآمال المهدّدة بالتلف شيء لا يذكر. العداوة الغامضة الأسباب بينه وبين الفلّاحين شيء لا يذكر. والسماء المترامية التي وقع تحتها الحادث أهي شيء أيضًا لا يذكر؟ وبمرور الوقت ركبه الإرهاق وخنقه. ولم يعد يكترث كثيرًا للمجازفة فقال:

ـ سيّدي الضابط...

فقاطعه وكأنّه كان يتربّص به:

ـ أنت لا تريد أن تسكت!

ـ ولٰكنّي في الواقع معذّب...

ـ لو شاركت في عذابات كلّ مَن يشرّف النقطة لمتّ كمدًا من أوّل يوم.

ـ ألا يمكن السؤال على الأقلّ عن حال المصاب؟

ـ سأبلّغ بأيّ جديد عنه دون سؤال من جانبي.

حياتي رهن بحياتك يا عياد. وقد تهزأ الملابسات بذكاء النيابة. وهل إدخالي إلى السجن بلا ذنب شيء لا يذكر؟! ومن الخير إن أمكن أن ترمي بالأعباء من فوق كاهلك، وأن تبتسم في استهتار وبلاهة. وكانت الدموع تراودك وها هو الضحك يوشك أن يجتاحك. بالله تذكّر ذنوبك الماضية لتتعزّى عن مأزقك ولٰكن لا علاقة ولا رابطة. من قال إنّ الفوضى تعالج بالفوضى. وأعين هٰؤلاء الفلّاحين ترى من خلال منظار أسود ركّبته الأجيال فوقها ولٰكنّني لم أسهم في صنعه. أو لعلّني أسهمت وأنا لا أدري. وها أنا أفكّر لأوّل مرّة في حياتي. وسوف أفكّر طويلًا وراء الجدران. وقد تمّ التعارف اليوم بيني وبين أشياء لم أعرفها قبلًا بالسماع. المصادفة، القدر، الحظّ، النيّة والعمل، الفلّاح والضابط والأفندي، الرياح

الموسميّة، البترول، سيّارات النقل، قراءة الصحف في النقطة، ما يذكر وما لا يذكر. كلّ شيء يجب أن يعاد التفكير فيه. كلّ شيء كشيء وككلّ. يجب أن نبدأ من الألف لنفهم كلّ شيء ولنسيطر على كلّ شيء، وحتّى لا يوجد شيء لا يذكر. وليس الزلزال بمسئول ولْكنّ المسئول هو الجهل. وعليك ألّا تذعن بعد اليوم لدكتاتوريّة المجموعة الشمسيّة ولا للغة النجوم الغامضة. فكيف ترهب الضابط الذي يقرأ صفحة الوفيات دون أن يعزّي أحدًا؟

وقال بصوت قويّ:

ـ شيء لا يطاق!

ظهر وجه الضابط فوق الجريدة حاملًا نظرة إنكار فقال بحدّة:

ـ حضرتك تقرأ الجريدة ولا تفعل شيئًا!

ـ أنت تقول ذٰلك!

ـ كما سمعت. . .

ـ ألا تخاف. . .

ـ لا أخاف شيئًا. . .

ـ إن كنت فقدت أعصابك فعندي لكلّ داء دواء!

ـ وأنا عندي لكلّ داء دواء.

وقف الضابط وهو يقول بغضب:

ـ أنت!؟

ـ أنت تؤخّر حضور النيابة، أنت تمنع القانون. . .

ـ سأضعك في السجن.

ـ أهو أفظع من هٰذه الفوضى؟

ـ أتريد أن تدّعي الجنون؟

ووقف علي محتدًّا وفي عينيه نظرة زائغة. ونادى الضابط العسكريّ. ولٰكنّ جرس التليفون رنّ. تناول الضابط السمّاعة واستمع بعض الوقت. وأعاد السمّاعة وهو ينظر إلى علي بشماتة وحقد ويداري في ذات الوقت ابتسامة ثمّ قال:

ـ مات المصاب متأثّرًا بجراحه!

وجم علي موسى قليلًا. تلقّى النظرة الشامتة بغضب جنونيّ، وصاح بصوت مرتجف:

ـ القانون لم يقل كلمته بعد، وإنّي لمنتظره. . .

السكران يغنّي

خلت الحانة من الزبائن تمامًا. ومسح الجرسون العجوز على صلعته وهو يتثاءب بصوت مرتفع كالتوجّع ومضى يكوّم المقاعد الخشبيّة والمناضد العارية. ومشى صاحب الحانة بين أرجائها المتقاربة متفقّدًا الأركان والمرحاض، وعدّ القروش على مهل، وأغلق الأدراج المدسوسة تحت الطاولة، ودرج منضدة الماركات، ثمّ أطفأ المصباح المدلّى فوق الطاولة فانخفض الضوء بالمكان وزاده كآبة على كآبة. وقال مخاطبًا الجرسون:

ـ أسرع فالساعة تدور في الثانية صباحًا.

فانتهى الرجل من تكويم المقاعد والمناضد ثمّ خلع المريلة المتّسخة في أكثر من موضع وعلّقها بمسمار منغرز في الجدار وسار نحو الباب يجرّ قدمين ثقيلتين مدفونتين في حذاء من المطّاط، وجسمه النحيل يتأرجح في جلباب فضفاض. وأطفأ صاحب الحانة المصباح الآخر فساد الظلام وغادر المكان إلى الخارج ثمّ أغلق الباب وذهب، باعثًا من حذائه الثقيل أطيطًا متواصلًا كدّر صمت الطريق.

ثمّة رجل لابد تحت البرميل الأوسط يترقّب ذهاب الرجلين بفارغ الصبر. تسمّع أطيط الحذاء حتّى تلاشى. وتنهّد في ارتياح ثمّ زحف خارجًا من تحت البرميل. وقف في ظلام دامس، يحملق في الظلام ولا يرى شيئًا، ولا شبح شيء، أعمى بكلّ معنى الكلمة، وضائع كأنّما أُلقي به في عالم الغيب. ولٰكن إذا كان البرميل الوسطانيّ وراءك فالبار إلى اليسار، وعند طرف البار يرقد صندوق النقود. وسار بحذر إلى اليسار مادًّا ذراعيه حتّى مسّت أصابعه الطاولة، ثمّ مشى بحذائها معتمدًا عليها حتّى المنضدة العالية، ورائحة قويّة من مزيج من المخلّل والسردين والجبن تملأ أنفه. ضائع تمامًا ولٰكن ها هو الدرج المنشود. ها هنا توجد نقود مانولي التي يكسبها من بيع أقداح النبيذ المقطّر من نيران الجحيم. وأخرج من جيبه آلة كالمبرد ومضى يعالج بها القفل حتّى فتحه. واقتحمته عطسة آتية من الخارج فشلّت يده، وفي سرّه سبّ ولعن، وتخيّل حانقًا

المتسكّع في الشارع الضيّق، شبه المظلم، الذي يضيئه فانوس واحد في طرف منحدره عند اتّصاله بشارع البواكي. ودسّ يده في الدرج بلهفة، وتحسّس أرضه من طرف إلى طرف، ولكنّه لم يعثر على شيء. لا شيء ألبتّة. يا مانولي الكلب، أتأخذ الإيراد معك؟ ألا تترك مليّمًا؟ أليست الحانة آمن على النقود من الطريق والبيت؟ وقطّب في غيظ وحنق. واشتدّ ضيقه بالظلام. هل تضيع المغامرة هباء! ويهزأ الفراغ من الحيلة والعدّة ودهاء التدبير! ودفعه الغيظ إلى فتح أدراج الطاولة جميعًا ولكنّه لم يعثر إلّا على بقايا الجبن الروميّ والزيتون والفول النابت. ولبث واقفًا وراء الطاولة بمكان العجوز الداهية يفكّر في لا شيء ويتناول حبّات من الفول بلا تذوّق. وسلّم أخيرًا بهزيمته. ولكنّه عزم على الترفيه عن نفسه قبل أن يعالج النافذة ليفرّ. مدّ يده وراء ظهره إلى الرفّ فتناول زجاجة نبيذ. فضّ سدّادتها وأطبق عليها فاه وراح يشرب بشراهة ونهم حتّى أفرغها. وركّز انتباهه ليتابع تقلّب الدوّامة في جوفه. رهيب... جليل... لا مثيل له... ولا يقدّر بثمن. ولا وجه لإنفاق النقود خير من الخمر فلا موجب للزعل. المؤسف حقًّا أن يفوت عربتك الكارو موسم القرافة غدًا فلعنة الله عليك يا مانولي. ومدّ يده فتناول زجاجة ثانية، ما أفظع الظلام والعماء! ليشرب حتّى يروى وليؤجّل الشروع في الهرب حتّى يقوم العسكريّ بدورة المرور. ولكنّ الظلام يقوم كالسدّ وله أنفاس مخمورة وقبضة من الصخر. وها هي زجاجة ثالثة من المياه الناريّة. ويجب أن تجلس وليكن فوق البار. مضى مانولي والنقود معه فإلى الجحيم يا مانولي. وليس ألعن من الجحيم إلّا الظلام. وتنحنح بلا حذر فسرت النحنحة في ظلام الحانة ولكنّه لم يبال كثيرًا. لا يبالي أن يبالي. والحقّ أنّك عدوّ الظلام. إنّي أعمل في الشمس وأنام تحت النجوم وفي ليالي الشتاء يضيء فانوس الحارة حجرتي في البدروم. وضربت من الرجال عددًا يفوق الحصر وأرمي بجسدي على العصيّ بلا خوف ولكنّي أخاف أن يمزّق جلبابي الوحيد. وحماري يجرّني وهو عارٍ فلا يتعرّض له أحد أمّا أنا فلا غنى لي عن الجلباب والخمر. ورفع الزجاجة الرابعة فقرقر صوت الشراب وهو ينصبّ في حلقه ويجلجل بين الجدران الغارقة في الصمت والظلام. وقال لي الشيخ زاوي لا تسكر فقلت له أنا سلطان الترك والعجم فقال لي عليك لعنة الله فحلفت يمينًا لأسمّينّ حماري بالزاوي. وراح يدندن بصوت سرّيّ «أوان الوصل» ولّما تناول الزجاجة الخامسة اضطجع على راحتيه ومدّ ساقيه فوق الطاولة. وتذكّر شاعر الربابة فتساءل لماذا تختفي الأشياء الجميلة. واندفع يغنّي كأنّه في بيته:

أوان الوصل قرّب بالتهاني

وتلوّت النغمة المخمورة ولكنّه هزّ رأسه في إعجاب. وعند الهتك ارتفع صوته إلى طبقة عالية. واعتدل في جلسته وراح يصفّق بيديه.

وإذا بقبضة تهوي على الباب وصوت العسكريّ يصيح:

ـ مَن بالداخل؟

ولم يكفّ أوّل الأمر عن الهتك. ولكنّ تتابُع الخَبْط أزعجه فأمسك وهو يتمتم بغيظ «لا منكم ولا كفاية شرّكم». وتساءل في عظمة:

ـ مَن أنت؟

ـ أنا العسكريّ.

ـ وماذا تريد؟

ـ عجيبة!... قل مَن أنت؟

فأجاب وهو يضحك:

ـ زبون!

ـ الدنيا نامت فكيف بقيت أنت في الداخل؟

ـ وما شأنك أنت؟

ـ يا سكّير يا عربيد ستدفع ثمن وقاحتك.

ـ ليس معي مليّم واحد!

ـ إنّي أعرف صوتك، رغم السكر فإنّي أعرف صوتك.

ـ مَن الذي لا يعرف أحمد عنبة!

ـ عربجي الكارو!

ـ بعينه... هل من خدمة يا شاويش؟

وصفر العسكريّ فأرهب سكون الليل. وتحسّس الرجل الجدار فوق الطاولة حتّى عثر على مفتاح

الكهرباء فأضاء المصباح. وقطّب وهو يضيّق عينيه. ومضى يتفحّص المكان بعناية حتّى استقرّت عيناه الحمراوان الجاحظتان على موقد الجاز وصفيحة الجاز. ودار رأسه ودارت به أفكار في سرعة فلم يكد يمسك بإحداها ثانية واحدة. وكاد ينسى العسكريّ وصوته ولٰكن ترامت إليه من الخارج ضجّة وضوضاء. آه... ضابط النقطة، وعساكر، وسكّان الأرصفة من جامعي الأعقاب وآخرون، وميّز صوت مانولي فصاح بغضب:

ـ مانولي!

فقال الرجل باضطراب:

ـ أنا مانولي يا عمّ أحمد...

ـ لا تفتح الباب... عند أوّل حركة في الباب ستصبح حانتك شعلة من النيران...

ـ لا... لا تحرق نفسك!

ـ لا شأن لك بي يا مانولي، الجاز في كلّ مكان، فوق الأرض والبراميل والمقاعد والمناضد، وها هو عود الكبريت في يدي... احذر يا مانولي...

قال الرجل باضطراب واضح:

ـ هدّئ أخلاقك، لن أفتح حتّى تأمر...

ـ من أين لك هٰذا الأدب يا مانولي؟

ـ طول عمري مؤدّب...، هدّئ أخلاقك وقل لي ماذا تريد...

ـ عندي كلّ ما أريد.

ـ ألا تريد أن تخرج؟

ـ ولا أن يدخل أحد.

ـ لا يمكن أن تبقى في الداخل إلى الأبد!

ـ ممكن جدًّا، عندي كلّ ما أريد.

ـ أنا آسف، لقد أغلقت الباب عليك خطأ!

ـ أنت تكذب وأنت تعرف أنّك كاذب.

ـ ولٰكنّ ذٰلك حصل بالفعل.

ـ تعرف أنّي هنا لأسرق.

ـ لا شيء عندك يستحقّ السرقة.

ـ وبراميل النبيذ السامّ؟

ـ كلّ ما شربت هديّة منّي إليك...

ـ ولا مليم في الدرج...

ـ ليس الدرج للنقود...

ـ لماذا تغلقه إذن يا مانولي؟

ـ عادة سيّئة، هدّئ أخلاقك ولا تحرق نفسك...

ـ أنت خائف عليّ؟

ـ طبعًا... البراميل طظ ولٰكنّك روح..

ـ كذّاب يا مانولي وسَلِ العساكر حولك...

في أثناء ذٰلك قام رجال الشرطة بنشاط واسع. أخلوا البيت الذي في أسفله الحانة. واتّصلوا بأصحاب الحوانيت الملاصقة للحانة من تجّار الخشب والبوية والخردوات العاملين في الطريق المهدّد بالدمار. وسرعان ما أقبلت سيّارات الحريق وأخذت أهبتها. وقهقه أحمد عنبة طويلًا وصاح:

ـ العود في يدي يا مانولي...

فقال الرجل بانكسار:

ـ لا ذنب لي، هدّئ أخلاقك...

ـ شربت خمس زجاجات في صحّة خراب بيتك...

ـ اشرب السادسة ولٰكن لا تحرق نفسك...

وراقته الفكرة فمدّ يده إلى الرفّ ثمّ استأنف الشرب. وشعر بأنّه يستمتع بآخر وقت طيّب متاح. وجاءه صوت هادئ يقول وقد سكنت الضوضاء:

ـ يا أحمد!

آه... لا يمكن أن يخطئ هٰذا الصوت العميق الغليظ.

ـ حضرة الضابط؟

ـ نعم...

ـ أهلًا وسهلًا..

ـ يجب أن تعقل وتتركنا نفتح الباب...

ـ لِمَ؟

ـ ليتسلّمه صاحبه...

ـ الخمّارة لمن يشرب!

ـ اعقل يا أحمد...

ـ وأنا؟

ـ ستخرج آمنًا سالمًا...

ـ وبعد ذٰلك؟

ـ لا شيء ألبتّة...

ـ حتّى أنت تكذب كمانولي!

ـ ستُسأل عن وجودك في الحانة ولٰكن واضح أنّك نمت من السكر، وفقدت وعيك، ولا ذنب عليك. . .

ـ والأدراج المكسورة؟

ـ فعلت ذٰلك دون وعي وتحت تأثير السكر. . .

ـ آه منك. . . والصفح والضرب والسبّ والسجن؟؟!

ـ لا. . . لا. . . أعدك بأحسن معاملة.

وأفرغ الزجاجة أو كاد، ثمّ صاح:

ـ أحمد عنبة سلطان الترك والعجم وكلّكم ركش. . .

ـ الله يسامحك. . .

ـ يا حضرة الضابط أنا فاهمك. . .

ـ الله يسامحك.

ـ أتذكر يوم بال الحمار أمام النقطة وأنت خارج؟

ـ لم أفعل شيئًا. . .

ـ تركت الحمار وصفعتني أنا. . .

ـ مجرّد مداعبة. . .

ـ جاء دوري في المداعبة!

ـ ولٰكن لا تقتل نفسك.

ـ نفسك!. . . هل تهمّك نفسي حقًّا؟

ـ طبعًا! وتهمّني سلامة الناس والدكاكين. . .

ـ الناس في الخارج والدكاكين أشياء لا أتعامل معها. . . .

ـ ولٰكنّك تخاف الله. . .

ـ أنت لا تخاف الله!

ـ وتكره الأذى.

ـ أنت تحبّ الأذى. . .

ـ الله يسامحك.

ـ عود الكبريت في يدي فابتعدوا عن الباب.

وأتى على بقيّة الزجاجة وراح يغنّي «في العشق ياما كنت أنوح». ولمّا انتهى من المقطع الأوّل جاءه صوت الضابط:

ـ أحسنت يا عمّ ولعلّك عدت إلى عقلك.

فأجاب ساخرًا:

ـ قضيت على الزجاجة السادسة. . .

ـ ستقتل نفسك. . .

ـ اسمع، كلمة أخيرة. . .

ـ نعم؟

ـ قل «أنا مرة». . .

ـ لا يرضيك ذٰلك.

ـ يرضيني كلّ الرضا، وهٰذا شرْطي لكي أترككم تفتحون. . .

فصاح مانولي:

ـ أنا مرة. . .

ـ أنت مرة بلا شرط ولٰكن على الضابط أن يقولها. . .

ـ عيب يا أحمد. . .

وقهقه طويلًا ثمّ صاح بلهجة آمرة:

ـ اهتفوا بحياتي. . .

وانقضت دقيقة من الصمت ثمّ دوّت عاصفة من أصوات الغلمان والأهالي «ليحيا أحمد عنبة!». وتواصل الهتاف فوثب إلى أرض الحانة وراح يرقص في زهو وابتهاج، ودار في الفراغ المحدود فدارت معه المقاعد والمناضد والسقف والدنيا جميعًا. وانفتح الباب فجأة في غفلة منه وانقضّ الجنود. ووقف يترنّح بين أيديهم القابضة على جلبابه وساعديه وعنقه. ورغم ذٰلك كلّه ألقى على الجميع نظرة سلطنة متعاظمة كأنّما هي هابطة من السماء. وقال بنبرة ثقيلة نائمة كأنّها مسجّلة بالتصوير البطيء:

ـ ليس معي عود كبريت واحد. . .

جَنّةُ الأطفال

ـ بابا. . .

ـ نعم.

ـ أنا وصاحبتي نادية دائمًا مع بعض. . .

ـ طبعًا يا حبيبتي فهي صاحبتك.

ـ في الفصل، في الفسحة، وساعة الأكل. . .

ـ شيء لطيف وهي جميلة ومؤدّبة.

ـ لكن في درس الدين أدخل أنا في حجرة وتدخل

هي في حجرة أخرى!

لحظ الأمّ فرآها تبتسم رغم انشغالها بتطريز مفرش فقال وهو يبتسم:

- هٰذا في درس الدين فقط...

- لِمَ يا بابا؟

- لأنّك لك دين وهي لها دين آخر.

- كيف يا بابا؟

- أنت مسلمة وهي مسيحيّة.

- لِمَ يا بابا؟

- أنت صغيرة وسوف تفهمين فيما بعد.

- أنا كبيرة يا بابا.

- بل صغيرة يا حبيبتي...

- لِمَ أنا مسلمة؟

عليه أن يكون واسع الصدر وأن يكون حذرًا ولا يكفر بالتربية الحديثة عند أوّل تجربة. قال:

- بابا مسلم وماما مسلمة ولذٰلك فأنت مسلمة.

- ونادية؟

- باباها مسيحيّ وأمّها مسيحيّة ولذٰلك فهي مسيحيّة.

- هل لأنّ باباها يلبس نظّارة؟

- كلّا لا دخل للنظّارة في ذٰلك، ولٰكن لأنّ جدّها كان مسيحيًّا كذٰلك...

وقرّر أن يتابع سلسلة الأجداد إلى ما لا نهاية حتّى تضجر وتتحوّل إلى موضوع آخر ولٰكنّها سألت:

- مَن أحسن؟

وتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- المسلمة حسنة والمسيحيّة حسنة...

- ضروريّ واحدة أحسن؟

- هٰذه حسنة وتلك حسنة.

- هل أعمل مسيحيّة لنبقى معًا دائمًا؟

- كلّا يا حبيبتي، هٰذا غير ممكن، كلّ واحدة تظلّ كباباها وماماها...

- ولٰكن لِمَ؟

حقّ أنّ التربية الحديثة طاغية!... وسألها:

- ألا تنتظرين حتّى تكبري؟

- لا يا بابا...

- حسن، أنت تعرفين الموضة، واحدة تحبّ موضة وواحدة تفضّل موضة، وكونك مسلمة هو آخر موضة، لذٰلك يجب أن تبقي مسلمة...

- يعني نادية موضة قديمة؟

الله يقطعك أنت ونادية في يوم واحد. الظاهر أنّه يخطئ رغم الحذر. وأنّه يدفع بلا رحمة إلى عنق زجاجة. وقال:

- المسألة مسألة أذواق ولٰكن يجب أن تبقى كلّ واحدة كباباها وماماها...

- هل أقول لها إنّها موضة قديمة وإنّني موضة جديدة؟

فبادرها:

- كلّ دين حسن، المسلمة تعبد الله والمسيحيّة تعبد الله...

- ولِمَ تعبده هي في حجرة وأعبده أنا في حجرة؟

- هنا يُعبد بطريقة وهناك يُعبد بطريقة...

- وما الفرق يا بابا؟

- ستعرفينه في العام القادم أو الذي يليه، وكفاية أن تعرفي الآن أنّ المسلمة تعبد الله والمسيحيّة تعبد الله.

- ومَن هو الله يا بابا؟

وأُخذ. وفكّر مليًّا. ثمّ سأل مستزيدًا من الهدنة:

- ماذا قالت أبلة في المدرسة؟

- تقرأ السورة وتعلّمنا الصلاة ولٰكنّي لا أعرف. فمَن هو الله يا بابا؟

فتفكّر وهو يبتسم ابتسامة غامضة وقال:

- هو خالق الدنيا كلّها.

- كلّها؟

- كلّها.

- معنى خالق يا بابا؟

- يعني أنّه صنع كلّ شيء.

- كيف يا بابا؟

- بقدرة عظيمة...

- وأين يعيش؟

- في الدنيا كلّها...

- وقبل الدنيا؟

- فوق...

ـ في السماء؟
ـ نعم.
ـ أريد أن أراه.
ـ غير ممكن.
ـ ولو في التلفزيون؟
ـ غير ممكن أيضًا.
ـ ألم يره أحد؟
ـ كلّا...
ـ وكيف عرفت أنّه فوق؟
ـ هو كذلك.
ـ مَن عرف أنّه فوق؟
ـ الأنبياء.
ـ الأنبياء؟
ـ نعم... مثل سيّدنا محمّد...
ـ وكيف يا بابا؟
ـ بقدرة خاصّة به.
ـ عيناه قويّتان؟
ـ نعم.
ـ لِمَ يا بابا؟
ـ الله خلقه كذلك.
ـ لِمَ يا بابا؟
وأجاب وهو يروّض نفاد صبره:
ـ هو حرّ يفعل ما يشاء...
ـ وكيف رآه؟
ـ عظيم جدًّا، قويّ جدًّا، قادر على كلّ شيء...
ـ مثلك يا بابا؟
فأجاب وهو يداري ضحكة:
ـ لا مثيل له.
ـ ولِمَ يعيش فوق؟
ـ الأرض لا تسعه ولكنّه يرى كلّ شيء.
وسرحت قليلًا ثمّ قالت:
ـ ولكنّ نادية قالت لي إنّه عاش على الأرض.
ـ لأنّه يرى كلّ مكان فكأنّه يعيش في كلّ مكان!
ـ وقالت إنّ الناس قتلوه!؟
ـ ولكنّه حيّ لا يموت.
ـ نادية قالت إنّهم قتلوه...

ـ كلّا يا حبيبتي، ظنّوا أنّهم قتلوه ولكنّه حيّ لا يموت.
ـ وجدّي حيّ أيضًا؟
ـ جدّك مات.
ـ هل قتله الناس؟
ـ كلّا، مات وحده...
ـ كيف؟
ـ مرض ثمّ مات...
ـ وأختي ستموت لأنّها مريضة؟
وقطّب قائلًا وهو يلحظ حركة احتجاج آتية من ناحية الأمّ:
ـ كلّا... ستشفى إن شاء الله.
ـ ولِمَ مات جدّي؟
ـ مرضَ وهو كبير...
ـ وأنت مرضت وأنت كبير فلِمَ لم تمت؟
ونهرتها أمّها فنقّلت عينيها بينهما في حيرة، وقال هو:
ـ نموت إذا أراد الله لنا الموت.
ـ ولِمَ يريد الله أن نموت؟
ـ هو حرّ يفعل ما يشاء.
ـ والموت حلو؟
ـ كلّا يا عزيزتي...
ـ ولِمَ يريد الله شيئًا غير حلو؟
ـ هو حلو ما دام الله يريده لنا.
ـ ولكنّك قلت إنّه غير حلو.
ـ أخطأت يا حبيبتي...
ـ ولِمَ زعلتْ ماما لّما قلت إنّك تموت!
ـ لأنّ الله لم يرد ذلك بعد.
ـ ولِمَ يريده يا بابا؟
ـ هو يأتي بنا إلى هنا ثمّ يذهب بنا.
ـ لِمَ يا بابا؟
ـ لنعمل أشياء جميلة هنا قبل أن نذهب.
ـ ولِمَ لا نبقى؟
ـ لا تتّسع الدنيا للناس إذا بقوا.
ـ ونترك الأشياء الجميلة؟
ـ سنذهب إلى أشياء أجمل منها.
ـ أين؟

- فوق.
- عند الله؟
- نعم.
- ونراه؟.
- نعم.
- وهل هٰذا حلو؟
- طبعًا.
- إذن يجب أن نذهب؟
- ولٰكنّنا لم نفعل أشياء جميلة بعد.
- وجدّي فعل؟
- نعم...
- ماذا فعل؟
- بنى بيتًا وزرع حديقة...
- وتوتو ابن خالي ماذا فعل؟

وتجهّم وجهه لحظة، واسترق إلى الأمّ نظرة مشفقة، ثمّ قال:

- هو أيضًا بنى بيتًا صغيرًا قبل أن يذهب...
- لٰكنّ لولو جارنا يضربني ولا يفعل شيئًا جميلًا.
- ولد شقيّ.
- ولٰكنّه لن يموت!
- إلّا إذا أراد الله....
- رغم أنّه لا يفعل أشياء جميلة؟
- الكلّ يموت، فمن يفعل أشياء جميلة يذهب إلى الله ومن يفعل أشياء قبيحة يذهب إلى النار...

وتنهّدت ثمّ صمتت فشعر بمدى ما حلّ به من إرهاق. ولم يدرِ كم أصاب ولا كم أخطأ. وحرّك تيّار الأسئلة علامات استفهام راسبة في أعماقه، ولٰكنّ الصغيرة ما لبثت أن هتفت:

- أريد أن أبقى دائمًا مع نادية.

فنظر إليها مستطلعًا فقالت:

- حتّى في درس الدين!

وضحك ضحكة عالية. وضحكت أمّها أيضًا. وقال وهو يتثاءب:

- لم أتصوّر أنّه من الممكن مناقشة هٰذه الأسئلة على ذاك المستوى!

فقالت المرأة:

- ستكبر البنت يومًا فتستطيع أن تدلي لها بما عندك من حقائق!!

والتفت نحوها بحدّة ليرى مدى ما ينطوي عليه قولها من صدق أو سخرية فوجد أنّها قد انهمكت مرّة أخرى في التطريز.

فِـــرْدَوس

كلّ شيء يتحرّك بلا ضابط والجدران على الجانبين تتموّج. لا غرابة في ذٰلك ولٰكنّ الغريب حقًّا هو تهافت الأضواء التي كاد يبتلعها الظلام. وأغرب من كلّ شيء ذٰلك الصمت - أو ما يشبه الصمت - كأنّ النوم يلفّ الطريق. إمّا أنّ الذاكرة خدّاعة كاذبة تختلق ما لا أصل له، وإمّا أنّ الدنيا تتغيّر بقوّة لا ترحم الذكريات. على ذاك لم يخطر له التراجع على بال. ولم يفتر حنينه، حنينه إلى فترة من العمر ذهبت إلى غير عودة، ولعن من الأعماق إحساسًا ملحًّا لم يُعْنَ بتسميته. ولٰكن أليس التغيّر أفدح ممّا تَصَوَّر؟ ما معنى وقوف سيّارات النقل هنا وهناك؟ أين المقاهي الكثيرة والحانات؟ وعلى أيّ ضوء تخطر النساء بحليهنّ الزائفة وملابسهنّ المتهتّكة؟ تكلّم يا طريق السرور والحزن، لا تقف متجهّمًا كأنّك لا تعرفني. ها هي البواكي على الجانبين ولٰكنّها لا تنطوي على ضوء يذكر، ولا منظر، ولا صوت، ماذا جرى؟ وها هو السلّم الصاعد إلى الدرب ولٰكن أين العسكريّ؟ ولا حنجرة تغنّي ولا وتر يعزف ولا شتمة واحدة. والصيدليّ العجوز السيّئ السمعة ودكّان كلّ شيء لزوم الشيء أين؟ لا نكتة، لا صرخة، لا معركة ولا تهديد بمعركة، لا قدم تزلّ ولا استغاثة، لا سحنة غريبة ولا أحد يقيء، لا أحد يرقص ولا أحد يحاول الانتحار، لا خلاف على الحساب ولا نشّال ولا نصّاب ولا قوّاد، لا عصا ارتفعت ولا كرسيّ طار في الهواء، لا يوجد إلّا سيّارات النقل والحوانيت المغلقة، والظلام الشامل وبضع فوانيس متباعدة.

عند مطلع الدرب رأى قهوة صغيرة فتحوّل نحوها

كالمندفع. لعلّها النقطة الوحيدة التي يلتقي عندها الماضي والحاضر. جلس في نفس المكان، ربّما على نفس المقعد، ولٰكن واضح أنّ صبيّ القهوة وجه جديد وكذٰلك المعلّم صاحبها. لم يَرَ من مجلسه شيئًا يستحقّ الذكر وثمّة شيء غامض في الجوّ كالنذير. وقال للصبيّ الذي مثل بين يديه:

ـ أين أهل الحيّ؟

فأجاب الغلام الذي توقّع سؤالًا آخر:

ـ في بيوتهم.

ـ لا يوجد أحد في الطريق ولا توجد أنوار؟

دارى الغلام ابتسامة فقال الرجل لنفسه إنّه قد أفرط وإنّ منظره ولا شكّ مثير للغاية. وسأله الغلام:

ـ ماذا تحبّ أن تشرب؟

ـ واحد كونياك!

لم يعد في وسع الغلام إخفاء ابتسامته ولبث متحيّرًا:

ـ واحد كونياك من غير مزّة...

ـ قهوة... شاي... قرفة... جوزة...

ـ قلت واحد كونياك...

ـ لا يوجد...

ـ لٰكنّي شربته هنا مرّات ومرّات...

ـ غير مصرَّح بها في الأحياء البلديّة.

هٰذا الغلام أبله أو أنّ رأسه ـ هو ـ يتطوّر تطوّرًا شاذًا.

ـ ومَن مطرب القهوة؟

ـ أيّ مطرب؟... لا مطرب للقهوة.

أشار له أن يذهب. ثمّة سرّ سينجلي عن قريب. وأراد أن يناقش صاحب القهوة ولٰكن ظهرت أوّل امرأة في الطريق. جاءت من ناحية السلّم ملفوفة في ملاءتها سافرة الوجه فانتزعته من هواجسه. هي نقطة الالتقاء الحقيقيّة لا القهوة الخربة. وثمّة امرأة واحدة تمشي بملاءتها في الحيّ كلّه. فردوس. فردوس دون غيرها من نساء الحيّ. ولّما اقتربت ابتسم إليها. هَمَّ بدعوتها لمجالسته ولٰكنّها مضت داخل الدرب دون أن تعيره التفاتة تصاحبها دقّات كعبها العالي فوق البلاط. لعلّها لم تره. لا يمكن أن تنسى العشرة الطويلة والسرور والحزن والأحاديث التي لا تنتهي حتّى مطلع الفجر. وغادر القهوة ليتبعها على الأثر. ومالت نحو ثالث باب فدفعته بيدها ودخلت. أوسع خطاه ثمّ دخل وراءها.

جعل يقترب منها في الطرقة في جوّ تغشاه الظلمة لولا بصيص من النور يترامى إليه من الدرب خلال الباب الموارب، التفتت متسائلة:

ـ مَن؟

أجاب بثقة:

ـ أنا...

فسألت بحدّة وحذر:

ـ مَن أنت؟

ـ صاحب هٰذا الصوت، ألا تتذكّرين؟

ـ كلّا...

ـ فردوس.

ـ اذهب...

ـ فردوس.

ـ فردوس في عينك يا قليل الحيا!

فضحك قائلًا:

ـ هٰذه هي فردوس، إنّي أعرف ألاعيبك.

ومدّ يده ليمسك بساعدها فأفلتت منه وهي تصرخ غاضبة ثمّ هوت على وجهه بقبضتها. توقّف منزعجًا، وهرولت أقدام فوق السلّم. وتلاطمت الجدران بزمجرة ولغط. ثمّ تجلّت أوجه غاضبة على ضوء مصباح تحمله امرأة. وقال في جفول:

ـ ماذا جرى؟... أنا زبون!

أُحيط به وانهالت عليه الصفعات:

ـ لصّ...

ـ دعوني أتكلّم...

ـ تكلّم يا جبان.

ـ أنا زبون.

ـ زبون!... من قال إنّ بيتنا قهوة...

وانهالت عليه الأكفّ حتّى صرخ. وأمسكوا عن ضربه مليًّا، وهم يقرّبون المصباح من وجهه مستطلعين.

ـ أفندي!

ـ عجوز!

ـ سكران!

توسّل قائلًا:

ـ لنتفاهم بلا ضرب...

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

ـ زبون والله... ومستعدّ أدفع إلى آخر ملّيم!

وانهالت عليه اللطمات بشدّة حتّى سقط تحت الأقدام. وحال أحدهم دون الاستمرار في ضربه خشية أن يموت ثمّ جرى لاستدعاء البوليس. تُرك ملقًى فوق أرض تربة وهو يغمغم:

ـ الله يسامحك يا فردوس!

ووقف الجميع أمام ضابط القسم. أدلت المرأة والرجال بأقوالهم. وسأله الضابط:

ـ ما أقوالك؟

أطلّ وجهه النحيل المتجعّد المتورّم في هيئة زريّة وقد انبسطت صلعته مكان الطربوش المفقود، وتدلّى البابيون من بنيقة القميص الممزّق، وتلطّخت جاكتته السوداء بالجير والتراب، وتراقص شدقاه حول فم أثرم، وقال بصوت متعب:

ـ أقوالهم دليل عليهم، شهدوا بالاعتداء عليّ بلا سبب. إنّي أطالب بكشف طبّيّ عاجل...

ـ إنّك سكران لحدّ الموت...

ـ هٰذا شأني ما دمت لم أعتدِ على أحد...

ـ ولٰكنّك اعتديت على السيّدة؟

ـ بل ذهبت وراءها إلى البيت كما تقضي الأصول!

ـ الأصول؟

ـ نعم، كأيّ رجل...

ـ بأيّ حقّ؟

ـ الحقّ المشروع وأنت سيّد العارفين...

ـ تكلّم ولا تضيّع وقتي!

ـ طلبتها وفي نيّتي أن أدفع لها أجرها فانهالوا عليّ ضربًا...

ـ أتعترف بذلك؟

ـ طبعًا، لست لصًّا ولا نصّابًا، ولٰكنّي زبون قديم...

ـ زبون؟

ـ نعم، ولا أطلب ذٰلك للّهو أو الفجور، ولٰكنّني أقدّم للمجتمع خدمة مشكورة!

ـ ما شاء الله!

ـ إنّي أدرس أحوال النساء بالحيّ وخدماتي مقدّرة ومشكورة...

ـ مَن كلّفك بذلك؟

ـ واجب إنسانيّ تطوّعت له بلا تكاليف.

ـ لا تتوهّم أنّك تخدع أحدًا بسكرك الفاضح...

ابتسم الرجل ابتسامة بلهاء. ضرب كفًّا بكفّ. أجال بصرًا زائغًا متعبًا في الوجوه ثمّ تهاوى مغمًى عليه.

* * *

فتح عينيه فوجد نفسه مستلقيًا فوق سرير في حجرة صغيرة ناصعة البياض ذات رائحة طبّيّة. ومضت دقائق قبل أن يعرف أنّه هو هو وأنّه في مكان. ودخل رجل لم يره من قبل ولٰكنّه ذو وقار وطابع رسميّ. قال إنّه المأمور فنظر إليه باستغراب. وقال إنّه يعرفه من قديم ويذكر نشاطه مذ كان يكتب في الجرائد والمجلّات.

ـ الحقّ أنّني كنت من قرّائك المغرمين.

تمتم الرجل وهو يتحسّس جبينه وفكّيه:

ـ فرصة طيّبة.

ـ عرفتك في القسم وأنت مغمى عليك فأمرت لك بالإسعافات الضروريّة، أرجو أن تكون أحسن.

ـ أظنّ ذٰلك ولٰكن لا فكرة عندي عمّا جرى...

ـ لذٰلك قصّة مؤسفة ستتذكّرها في حينها.

تجلّت في عينيه نظرة ممتعضة فقال المأمور:

ـ دعني أوّلًا أتلو عليك المحضر.

ـ المحضر؟

تلا عليه المحضر بأناة ووضوح. تابعه مقطّبًا ذاهلًا. أجَلْ، شيء كذاك الجحيم قد لفحه على نحو ما. وسأله المأمور:

ـ كيف حدث ذٰلك؟

تمتم بارتباك وحزن:

ـ لا أدري.

ـ ثابت أنّك كنت في حال سكر بيِّن ولٰكنّ هٰذا لا

يكفي.

لم ينبس.

ـ وقد شكّ الضابط فيما هو أخطر من السكر واقترح عليّ عمل تحليل للمعدة...

ـ لا...

ـ لم يحصل.

ـ لا أدري كيف أشكرك.

ابتسم المأمور وقال:

ـ كنت من المتابعين لدراساتك القيّمة، ولكن كيف حدث ذلك؟

تأوّه الرجل قائلًا:

ـ واضح أنّني فقدت عقلي تمامًا.

ـ ولكنّك اعتديت على امرأة في بيتها وتلك جريمة مزدوجة

ـ لا أصدّق...

ـ وستجد مصاعب حقيقيّة في محاولة التفاهم مع المرأة وأهلها...

ـ يا له من مصير أسود...

ـ حادث خرافيّ أرجو ألّا يتسرّب إلى الصحافة.

تنهّد الرجل الذي ذكر الصحافة. قال إنّه كان من أعلامها قبل الاعتزال. قبل أن يعتزلها منذ خمسة عشر عامًا. رجع إلى قريته كهلًا جفّت به بواعث النشاط. عاش في خمول دهرًا ثمّ تاقت نفسه إلى زيارة القاهرة. ذهب إلى تافرنا كالأيّام الخالية ثمّ ساقته قدماه ـ كالعادة ـ إلى الدرب إيّاه.

ـ ولكنّك أوّل من يعلم بأنّه لم يعد حيًّا للبغاء، وأوّل من يعلم متى أُلغي البغاء.

ـ غاب عنّي ذلك تمامًا وأنا فاقد الوعي.

ـ وكان ما كان...

ـ وكان ما كان!

ضحك المأمور بروح مطمئنّة لن تتوانى عن مساعدته. وجعل ينوّه بكتابه الضخم عن البغاء والبغايا فقال الرجل:

ـ كان جولة رائعة، وزرت من أجل تأليفه بلدانًا كثيرة في الشرق والغرب، كان دائرة معارف...

ـ وكنت تطالب بإلغاء البغاء والعناية الإنسانيّة بالبغايا!

ـ وعندما وقع الإلغاء توّجت حياتي بالنصر وأقام لي الزملاء حفل تكريم في شبارد.

ـ أجل، كأنّي أذكر ذلك، ولكن لماذا هجرت الصحافة؟

ـ كان البغاء المشكلة الجوهريّة التي كرّست لها قلمي، تاريخه وأشكاله وضحاياه وجميع ما يتّصل به، وجعلت من إلغائه هدفي، فلمّا تحقّق، ولمّا شبعت من النصر، وضح لي أنّه لم يعد لي شيء يثير اهتمامي!

ـ ولكنّ قلمك... أعني أنّ البغاء ليس إلّا مشكلة من مشكلات لا حصر لها...

ـ لم يعد لي قلم، مات ميتة غريبة، وتمزّقت الأسباب بيني وبين الأشياء...

ـ الحقّ أنّي...

ولكنّه قاطعه في ضجر:

ـ لقد وقع الإلغاء على البغاء وعليّ في آن، ذهبنا معًا، أصبحت غير ذي موضوع، وبلا عمل ولا حماس ولا هدف...

تبادلا نظرة، ثمّ استطرد:

ـ رجعت إلى قريتي، وسرعان ما ابتلعني النسيان.

وتبادلا نظرة أطول ثمّ ابتسم المأمور قائلًا:

ـ كان الحيّ ضمن منطقتي وأنا ملازم وكنت أراك كثيرًا في قهوة العربي!

ـ ذاك كان بعض عملي.

ـ ولكنّك... أعني... كنت تمرح وتلعب...

ـ أجل، كنت القلب الذي يصغي إلى أنّاتهنّ في الهزيع الأخير من الليل.

وخيّل إليه أنّ المأمور يجد حرجًا في الإفضاء بما لديه من ذكريات فقال:

ـ كأنّنا جزء من الشرّ الذي نحاربه...

ومدّ يده للمأمور فأعطاه يده فشدّ عليها ممتنًّا وهو يقول:

ـ أرجو ـ بفضلك ـ أن أعود إلى قريتي مصونًا، ولن أغادرها ما حييت...

الرّجلُ السّعيد

استيقظ من نومه فوجد نفسه سعيدًا. تساءل: ما هذا؟! لم يحظ بكلمة هي أدقّ وأصدق في التعبير عن

حاله من «سعيد». وهي حال تُعَدّ غريبة بالقياس إلى الأحوال التي تنتابه عند الاستيقاظ من النوم. عادة ما يستيقظ مثقل الرأس من طول السهر في الجريدة، أو مرهق الأعصاب والمعدة لإفراط في الأكل والشرب في حفلة ما، ودائمًا تنثال عليه هموم اليوم السابق وشواغل يومه الراهن فيستقبل الحياة في معاناة وتفكير ثمّ ينهض من فراشه وهو يشحذ همّته لملاقاة المتاعب وتحدّي المصاعب. أمّا اليوم فهو سعيد، مترع بالسعادة، وبحال لا تقبل المناقشة، ولا تمتحن ذكاءه للبحث لها عن صفة مناسبة، فهي من القوّة والوضوح بحيث تفرض ذاتها فرضًا على الحواسّ والعقل جميعًا. أجل إنّه سعيد، وإذا لم تكن هٰذه هي السعادة فماذا تكون؟ إنّه يشعر بأنّ أعضاءه كاملة البناء كاملة الوظيفة، وأنّها تعمل بانسجام رائع مع بعضها البعض ومع الدنيا حوله، وهو يجد في باطنه قوّة لا تُحَدّ وطاقة لا تفنى وقدرة على تحقيق أيّ شيء بثقة وإتقان وفوز مبين، وقلبه يفيض بالحبّ للناس والحيوان والأشياء وبإحساس غامر بالتفاؤل والبِشْر، وكأنّه لم يعد يحمل همًّا ـ أيّ همّ ـ حيال الخوف والقلق والمرض والموت والمنافسة والرزق، وهناك ما هو أخطر من ذٰلك كلّه وما يتعذّر تحليله في نفس الوقت، إنّه إحساس متغلغل في كلّ خليّة من خلايا جسده وروحه، يعزف لحن البهجة والرضى والطمأنينة والسلام، ويناغم في طربه البديع همسات الكون المضنون بها على غير السعداء.

ثمل بنشوته، تذوّقها في تمهّل وعجب، تساءل من أين وكيف جاءت، لا الماضي يفسّرها ولا المستقبل يبرّرها، فمن أين وكيف جاءت؟! وحتّى متى تبقى؟ هل تصاحبه حتّى الإفطار؟ هل تمهله حتّى يذهب إلى الجريدة؟ ولكن مهلًا. إنّها حال لا تدوم، لأنّها لا يمكن أن تدوم، ولو دامت لإنسان لانقلب ملاكًا أو شيئًا فوق ذٰلك. فليمعن في تذوّقها، في معايشتها، في تخزين رحيقها قبل أن تصبح ذكرى لا سبيل إلى إثباتها أو حتّى التأكّد منها.

تناول إفطاره بشهيّة، لم يصرفه عنه شاغل ما، ونظر نحو عمّ بشير وهو يقوم على خدمته بوجه مشرق باسم حتّى ساور الرجل شيء من القلق والتساؤل.

فهو لا ينظر نحوه عادة إلّا لإلقاء أمر أو استجواب وإن عامله في أغلب الأحوال معاملة لا بأس بها. وسأله:

ـ خبّرني يا عمّ بشير، أأنا رجل سعيد؟

ارتبك الرجل. أدرك سرّ ارتباكه فهو يخاطبه ـ لأوّل مرّة ـ كزميل أو صاحب. وشجّعه على الخروج من ارتباكه فطالبه بالإجابة بإلحاح غير معهود حتّى قال الرجل:

ـ سيّدي سعيد بحمد الله وفضله...

ـ تعني أنّني يجب أن أكون سعيدًا، فمن يشغل مركزي ويقيم في مسكني ويتمتّع بصحّتي يجب أن يكون سعيدًا، هٰذا ما تودّ قوله، ولٰكن هل تراني سعيدًا حقًّا؟

وبإلحاح جديد منه أجاب الرجل:

ـ سيّدي يجهد نفسه أكثر ممّا يحتمل البشر...

وتوقّف كالمتردّد فأشار إليه أن يأتي بما عنده فقال:

ـ ويغضب كثيرًا، المناقشات الحامية التي تدور مع زوّارك...

فقاطعه بضحكة عالية ثمّ سأله:

ـ وأنت.. أليس لديك هموم؟

ـ طبعًا؟ لا يخلو الإنسان من هموم.

ـ تعني أنّ السعادة الكاملة مطلب مستحيل؟

ـ هٰذا هو الغالب على حال الدنيا...

من أين له أن يتخيّل سعادته العجيبة؟ هو أو سواه من البشر؟ إنّها سعادة غريبة فريدة كأنّها سرّ قد خُصّ به وحده. وفي بهو الاجتماعات بالجريدة رأى منافسه الأوّل في هٰذه الدنيا جالسًا يتصفّح مجلّة. الرجل سمع وقع قدميه ولٰكنّه لم يرفع عينيه عن المجلّة. لا شكّ أنّه لمحه بطريقة ما ولذٰلك فهو يتجاهله محافظة على راحة باله. إنّ الخلاف يحتدم بينهما في الاجتماعات الدوريّة حتّى يتطاير الشرر ويتبادلا أقسى الكلمات فلا تبقى إلّا خطوة واحدة على التشابك. ومنذ أسبوع نجح منافسه في انتخابات النقابة وسقط هو، باء بطعنة حادّة سامّة واسودّت الدنيا في عينيه. ها هو يقترب من مجلسه فلا يستفزّه منظره ولا تعكّر ذكريات النضال صفوه، إنّه يقترب بقلب خليّ صافٍ. ثملًا بسعادته العجيبة، طافح النظرة بالتسامح والغفران، كأنّما يُقبل على

إنسان آخر لم تقم بينهما عداوة قطّ، أو لعلّه يَعِدُ بصداقة جديدة. ولم يجد حرجًا ألبتّة وهو يحيّيه قائلًا:

ـ صباح سعيد...

رفع الرجل عينيه في دهشة، صمت لحظات قبل أن يفيق من دهشته، ثمّ ردّ تحيّته بإيجاز وكأنّما لا يصدّق أذنيه وعينيه. جلس على مقربة منه وهو يقول:

ـ الجوّ بديع اليوم...

فقال الآخر بتحفّظ:

ـ فعلًا...

ـ جوّ يقذف بالسعادة في القلوب.

تفحّصه بإمعان وحذر ثمّ تمتم:

ـ يسرّني أنّك سعيد...

فقال ضاحكًا:

ـ فوق ما يتصوّر العقل...

فقال الرجل بلهجة متردّدة بعض الشيء:

ـ أرجو ألّا أعكّر صفوك عند اجتماع مجلس الإدارة...

ـ كلّا ألبتّة، رأيي معروف ولٰكن لا بأس من أن يأخذ الأعضاء برأيك، لن يفسد ذٰلك عليّ سعادتي!

قال الرجل باسمًا:

ـ لقد تغيّرت كثيرًا ما بين يوم وليلة...

ـ الحقّ أنّي سعيد، فوق ما يتصوّر العقل.

سأله وهو يتفرّس في وجهه بعناية:

ـ أراهن أنّ نجلك العزيز قد عدل عن فكرة الإقامة في كندا!

ضحك عاليًا وقال:

ـ أبدًا، أبدًا يا عزيزي، ما زال عند رأيه...

ـ ولٰكن كان ذٰلك مصدر حزنك الأوّل...

ـ أجل، طالما رجوته أن يعود رحمة بوحدتي وخدمة لوطنه! ولٰكنّه أخبرني بأنّه سيفتح مكتبًا هندسيًّا مع شريك كنديّ، بل ودعاني إلى اللحاق به، فليعش حيث يطيب له المقام، وها أنا ـ كما ترى ـ سعيد. سعيد فوق ما يتصوّر العقل...

لم تخلُ نظرة الآخر من ارتياب ولٰكنّه قال:

ـ شجاعة نادرة المثال!

ـ لا أدري ما هي ولٰكنّي سعيد بكلّ معنى الكلمة.

أجل ها هي السعادة، دسمة متينة ذات وزن وكينونة، راسخة كقوّة مطلقة، ذائعة كالهواء، عنيفة كالشعلة، ساحرة كالشذا، خارقة للطبيعة فلا يمكن أن تدوم.

وآنس الآخر إلى تودّده فاستنام إليه وقال:

ـ الحقّ أنّي أتصوّرك دائمًا إنسانًا ذا طبيعة حادّة عنيفة من شأنها أن تشقي صاحبها وأن يشقى بها.

ـ حقًّا؟

ـ لا تعرف المهادنة ولا الحلول الوسطى، تعمل بأعصابك، بنخاع عظامك، تقاتل قتالًا عنيفًا كأنّ أيّ مسألة إنّما هي مسألة حياة أو موت!

ـ أجل، هٰذا حقّ.

تقبّل النقد ببساطة، بصدر واسع، انداحت موجته في محيط من السعادة لا محدود. وغالَبَ ضحكة صافية بريئة حتّى غلبها أن يفسّرها الآخر تفسيرًا بعيدًا عن بواعثها النقيّة. وتساءل:

ـ إذن فأنت ترى أنّه لا بدّ من قدر من التوازن أمام الأحداث؟

ـ طبعًا، أذكر على سبيل المثال مناقشتك أوّل أمس عن العنصريّة، إنّ رأينا فيها واحد، وهي جديرة بالحماس لحدّ الغضب، ولٰكن أيّ نوع من الغضب؟ غضب فكريّ، غضب تجريديّ لدرجة ما، وليس الغضب الذي يزلزل الأعصاب ويفسد الهضم ويهبط بنبض القلب، أليس كذٰلك؟

ـ واضح ومفهوم...

وغالَب ضحكة ثانية حتّى غلبها. قلبه يأبى أن يفرّط في قطرة واحدة من أفراحه. العنصريّة... فيتنام... أنجولا... فلسطين... أيّ مشكلة... عجزت جميعًا عن اقتحام حصن السعادة الذي يطوّق قلبه. لدى تذكّر أيّ مشكلة يقهقه قلبه. إنّه سعيد. سعادة جبّارة. مستهينة بكلّ تعاسة، باسمة لأيّ شقاء، تريد أن تضحك، أن ترقص، أن تغنّي، وأن توزّع ضحكاتها ورقصاتها وأغنياتها على مشكلات العالم.

وضاق بحجرته في الجريدة ولم يجد أيّ رغبة في العمل، عافَ مجرّد التفكير في يوميّاته وعجز عجزًا تامًّا عن استنزال عقله من معتصمه في ملكوت السعادة.

وكيف يتأتّى له أن يكتب عن غرق الترولـلي باس في النيـل وهو ثمـل بهـٰذه السعـادة المخيفـة؟ أجـل إنّها لمخيفـة. كيف لا وهي بـلا سبب، عنيفـة لـدرجـة الإنهاك، مشلّة لـلإرادة، فضـلًا عن أنّها مـا زالت تصـاحبـه نصف نهار دون أن تخفّ حـدّتهـا درجـة واحدة؟! ترك الأوراق بيضاء وراح يقطع الحجرة ذهابًا وإيابًا وهو يضحك ويفرقع بأصابعه. . . .

وساوره شيء من القلق. لم يغص القلق في أعماقه فيفسد سعادته ولٰكنّه تردّد فوق سطح العقل كفكـرة مجرّدة. وخطر له أن يستحضر مآسي حياته ليمتحن أثرها في سعادته لعلّها تعيده إلى توازنه أو تطمئنه في الأقلّ إلى أنّ سعادته قابلة للفتور. تذكّر على سبيـل المثال وفاة زوجه بكافّة ظروفها وملابساتها فماذا حدث؟ تراءى له الحدث سلسلة من الحركـات بلا معنى ولا تأثير كأنّه حدث امرأة أخرى، زوج رجل آخر، وقع في عصر من عصور التاريخ البعيدة، بل لم يخلُ من أثر سارّ، داعٍ للابتسام، بل مثير للضحك، وما تمالك أن ضحك، وإذا به يقهقه ها. . . ها. . . ها. . .

تكرّر ذٰلك وهو يتذكّر أوّل خطاب جاءه من ابنه معلنًا عن رغبته في الهجرة إلى كندا، أمّا عن قهقهاته وهو يستعرض مآسي العالم الدامية فلولا سمْك جدران حجرته لجذبت إليه العاملين في الجريدة والسائرين في الـطريق. لم ينل شيء من مناعة سعـادته. لاطمتـه ذكريات الأحزان كما تلاطم أمواج البحر المستلقي فوق رمال الشاطئ تحت الشعاع الذهبيّ. وغادر الجريـدة دون أن يكتب كلمة معتذرًا في ذات الوقت من عدم حضور مجلس الإدارة. وهجع إلى فراشه ـ كـالعادة ـ عقب الغـداء ولٰكنّـه لم ينم. بـل شعـر أنّ النـوم مستحيل، ليس ثمّة ما يبشّر باقترابه ولو على مهل. إنّه يثوي في مقام مشتعل متوهّج يضجّ باليقظة والأفراح، لا بدّ له من هدوء وسكينة وشيء من فتـور الحواسّ والأعضاء وأين منه ذٰلك؟ وضاق بالرقاد فغادر فراشه وراح يدندن وهو يتمشّى في مسكنه. وقال لنفسه إنّه إذا استمرّت هٰذه الحال فسيتعذّر عليه النوم كما تعذّر عليه العمل أو الحزن. وأزف موعد ذهابه إلى النادي ولٰكنّه رغب عن لقاء أيّ صاحب. ماذا يعني تبـادل الرأي في الأمور العامّة والهموم الشخصيّة؟! وكيف يكون الرأي فيه إذا وجدوه يضحـك من كلّ كبـيرة وصغيرة؟ ماذا يقولون؟ كيف يتصوّرون الأمر؟ كيف يفسّرونه! كلّا لا حاجة به إلى أحد، ولا رغبة عنده للسمـر، عليه أن يخلو إلى نفسـه، أن يمشي طـويـلًا ليتخلّص من بعض فـائض حيـويّتـه، وأن يفكّـر في أمره، ماذا حلّ به، كيف دهمته هٰذه السعادة العجيبة، وحتّى متى يحملها فوق كتفيه، وهل تصرّ طويلًا على حرمانه من عمله وأصحابه ونومه وراحة باله؟! هـل يستسلم لها، هل يترك نفسه للتيّار يعبث به كيف شاء هواه؟ أو أنّ عليه أن يلتمس لنفسه مخرجًا، بالفكر أو بالعمل أو بالمشورة؟

* * *

وقد شعر بالحرج وهو يُدعى إلى حجـرة الكشف بعيادة صديقه الباطنيّ الكبير. وشمله الطبيب بنـظرة باسمة ثمّ قال:

ـ لا يبدو عليك أنّك تشكو المرض؟!

فقال له بصوت متردّد:

ـ لقد جئتك لا لأنّي مريض ولٰكن لأنّني سعيد!

فنظر في أعماق عينيه متسائلًا فقال مؤكّدًا:

ـ أجل، لأنّني سعيد!

مضت فـترة صمت مشحونـة بـالقلق من نـاحيـة والتساؤل والدهشة من الناحية الأخرى.

ـ إحساس عجيب لا يمكن تعريفـه بصفة أخـرى ولٰكنّه جدّ خطير. . .

ضحك الطبيب. مسّه مداعبًا وهو يقول:

ـ أتمنّى أن يكون مرضك معديًا. . .

ـ لا تأخذ الأمر ببساطة، إنّه جدّ خطير كما قلت لك. وإليك قصّته. . .

وقصّ عليه قصّته مع السعادة منذ استيقاظه صباحًا حتّى اضطرّ إلى زيارته.

ـ ألم تتناول مخدّرًا أو شرابًا أو عقّارًا من العقـاقير المهدّئة؟

ـ لا شيء من ذٰلك مطلقًا.

ـ هل صادفك توفيق في مجال هامّ مثل العمل. . . الحبّ. . . المال؟

ـ لا شيء من ذلك مطلقًا، ولديّ من أسباب الكدر أضعاف ما لديّ من أسباب السرور. . .

ـ لعلّك لو صبرت قليلًا. . .

ـ صبرت النهار كلّه، وأشفقت من قضاء الليل هائمًا. . .

كشف عليه بدقّة وعناية وشمول. وقال له وهو يهزّ منكبيه في حيرة:

ـ إنّك مثال جيّد للصحّة والعافية. . .

ـ وإذن؟

ـ يمكن أن أنصحك بتناول منوّم ولكن من الأفضل أن تستشير أخصّائيّ أعصاب. . .

وتكرّر الكشف في عيادة أخصّائيّ الأعصاب بنفس الدقّة والعناية والشمول. وقال له الطبيب:

ـ أعصابك سليمة ويحال تُحسد عليها!

فسأله برجاء:

ـ أليس لديك تفسير مقنع لحالي؟

فهزّ رأسه نفيًا وقال:

ـ استشر طبيب غدد!

وتكرّر الكشف لثالث مرّة في عيادة أخصّائيّ الغدد بنفس الدقّة والعناية والشمول. وقال له الطبيب:

ـ أهنّئك على سلامة غددك!

ضحك. اعتذر عن ضحكه وهو يضحك. وكان الضحك وسيلة للإعراب عن قلقه ويأسه.

غادر العيادة وهو يشعر بأنّه وحيد، وحيد بين يدي سعادته الطاغية. بلا معين ولا مرشد ولا صديق. وإذا به يتذكّر لافتة الطبيب التي يراها أحيانًا من نافذة حجرته بالجريدة. أجل إنّه لا يثق في الأخصّائيّين النفسيّين رغم اطّلاعه على مضمون التحليل النفسيّ. فضلًا عن ذلك فهو يعلم بأنّ حبالهم طويلة وأنّهم يُلزمون مرضاهم بنوع من المعاشرة الطويلة. وضحك وهو يتذكّر طريقة العلاج بالتداعي الحرّ وما تكشف عنه في النهاية من عقد. كان يضحك وقدماه تحملانه إلى العيادة النفسيّة. وتخيّل الدكتور وهو يستمع إلى شكاته العجيبة من السعادة، هو الرجل الذي اعتاد الإصغاء إلى الشاكين من الهستيريا والفصام والقلق ألخ.

ـ الحقّ يا دكتور أنّني جئتك لأنّني سعيد!

ونظر في وجه الرجل ليمتحن أثر قوله فيه ولكنّه رآه محافظًا على هدوئه فباح ببعض الشيء وقال بلهجة اعتراف:

ـ إنّي سعيد، فوق ما يتصوّر العقل. . .

وشرع في قصّ قصّته ولكنّ الدكتور أوقفه بإشارة من يده وقال بهدوئه:

ـ سعادة غامرة، عجيبة، منهكة. . .

رمقه بذهول. همّ بالكلام ولكنّ الطبيب سبقه إليه قائلًا:

ـ سعادة جعلتك تُضرب عن العمل، تزهد في الأصدقاء، تعاف النوم. . .

هتف:

ـ أنت معجزة!

فتابع الرجل في هدوئه:

ـ وكلّما ارتطمت بشقاء ما أغرقت في الضحك. . .

ـ سيّدي. . . أأنت مطّلع على الغيب؟

ابتسم قائلًا:

ـ كلّا، لست من ذلك في شيء، ولكنّ عيادتي تستقبل حالة مماثلة مرّة على الأقلّ كلّ أسبوع!

فهتف:

ـ أهو وباء؟

ـ لم أقل ذلك، ولا أزعم أنّه أمكن تحليل حالة واحدة حتّى الآن إلى عناصرها الأوّليّة.

ـ ولكنّه مرض؟

ـ جميع الحالات ما زالت تحت العلاج.

ـ ولكنّك مقتنع بلا شكّ أنّها حالات غير طبيعيّة. . .؟

ـ هو فرض ضروريّ للعمل ليس إلّا. . .

فسأله بقلق:

ـ هل لاحظت على أحد منهم أنّ به خللًا أو اضطرابًا في. . .

وأشار إلى رأسه بخوف. ولكنّ الدكتور قال بيقين:

ـ كلّا ألبتّة، أؤكّد لك أنّهم جميعًا عُقلاء بكلّ معنى الكلمة. . .

وتفكّر الدكتور مليًّا ثمّ قال:

ـ يلزمنا جلستان في الأسبوع!

فقال بتسليم:

ـ ليكن...

ـ لا يصحّ أن تجزع أو أن تحزن...

الجزع، الحزن؟! ابتسم، اتّسعت ابتسامته لغير نهاية، أفلتت ضحكة منه، وما لبث أن أغرق في الضحك. صمّم على ضبط نفسه ولٰكنّ مقاومته انهارت تمامًا فراح يقهقه عاليًا...

معجزة

سرى الدفء في أطرافه. هفّت النشوة إلى رأسه. لم يعد في «فينيسيا» مقعد واحد خاليًا. اختنق المكان بالأنفاس ودخان السجاير. تراءى له وجهه في أكثر من مرآة. تتابعت على بصره وجوه النساء والرجال والشواء ودوارق النبيذ الأحمر والأبيض وأصص الأزهار وصحاف السلطة الخضراء. كان يجلس وحيدًا، لعلّه الزبون الوحيد الذي انفرد بمائدته، وقد ولّى الضجر، وانتعشت روحه، فتوثّب فائض النشاط ينشد متنفّسًا.

أومأ إلى الجرسون فجاءه من فوره، فسأله:

ـ تعرف السيّد محمّد شيخون الماوردي؟

امتحن الرجل ذاكرته قليلًا ثمّ أجاب:

ـ كلّا يا سيّدي.

ـ إنّه من زبائن فينيسيا...

ـ لٰكنّي لم أسمع باسمه من قبل...

ـ عجيبة!

ـ حضرتك على ميعاد معه؟

ـ كلّا ولٰكنّي أريده لأمر هامّ...

ـ سأتحرّى لك عنه.

ذهب الجرسون فغاب برهة ثمّ رجع ليؤكّد له أنّ أحدًا من موظّفي المحلّ وعمّاله لا يعرفه، أو يسمع باسمه من قبل. شكره ثمّ تفرّغ لدورق النبيذ الأحمر. راح يبتسم متسلّيًا باستعراض الوجوه والتجسّس على المداعبات اللطيفة الخفيّة.

وإذا بصوت يرتفع مناديًا: السيّد محمّد شيخون الماوردي! التفت نحو مصدر الصوت التفاتة مذهول بالمفاجأة. رأى مدير المحلّ قابضًا على سمّاعة التلفون وهو يكرّر النداء، وعيناه تتنقلان من ناحية إلى أخرى. ولّما لم يلبِّ نداءه أحد أبلغ المتحدّث في التليفون أنّ محمّد شيخون الماوردي غير موجود ثمّ أرجع السمّاعة إلى موضعها.

ابتسم الجرسون إليه وقال:

ـ ثاني شخص يسأل عن نفس الرجل في ساعة واحدة!

دار رأس الرجل، لا من النبيذ هٰذه المرّة، ولٰكن من النداء الذي لم يتوقّعه، من سماعه اسم «محمّد شيخون الماوردي»، هو في الحقيقة لا يعرف أحدًا اسمه محمّد شيخون الماوردي، ولا يتصوّر أن يتسمّى شخص به، وعلى وجه اليقين لم يرد لقاءه كما زعم. أجل قد سأل عنه الجرسون، ولٰكنّه أراد بذٰلك أن يسلّي وحدته، أن يعبث عبثًا بريئًا، أن يفعل شيئًا لا معنى له ولا ضرر منه، فقرّر أن يسأل الجرسون عن شخص ما، بأيّ اسم يرد على ذهنه، فكان ذٰلك الاسم الغريب، الذي لوحظت الغرابة في اختياره لتتمّ اللعبة. وكان محتملًا أن يخترع اسمًا آخر، زيد زيدان زيدون مثلًا، لذٰلك لم يدهش ألبتّة لجهل الجرسون به، ولٰكنّه ذهل حقًّا عندما ارتفع النداء به، ذهل أن يسأل عنه سائل في هٰذه الحانة التي لم تسمع به من قبل. كيف حدث هٰذا وكيف يمكن تفسيره؟!

شرب قدحًا جديدًا وهو يفكّر. إنّ معابثة جرسون ليست بمستحيلة، ولا ضرر منها، وهي تسلية لا بأس بها لمن ألحّت عليه الوحدة أو ثقل عليه الضجر، ولٰكن كيف تمّ تركيب اسم «محمّد شيخون الماوردي»؟ محمّد اسم شائع يرد على الذهن بسهولة، أمّا شيخون فما أغربه من اسم، أين ومتى سمعه؟ أتراه قرأه في كتاب مدرسيّ قديم؟ ولٰكن كيف وثب إلى خاطره؟ ولماذا؟ وما يُقال عنه يقال كذٰلك عن الماوردي، وباجتماعهما ـ شيخون والماوردي ـ يبلغ عسر التركيب الملفّق ذروته، بل إعجازه، فكيف يتبيّن بعد ذٰلك أنّه اسم رجل حقيقيّ، رجل يُحتمل أنّه زار الحانة لأوّل مرّة هٰذا اليوم، ثمّ يطلبه آخر بالتليفون في نفس الساعة، ألا

يدعو ذلك للدهشة والتأمّل؟!

وشرب قدحه الخامس فتطايرت نشوته مشعشعة بالدهشة والتأمّل.

يجدر به منذ الساعة أن يولي نفسه ما تستحقّ من الاحترام، أن يتعجّب ويتساءل، أن يحكي الحكاية لكلّ مَن هبّ ودبّ، أن يبحث لها عن تفسير. لقد وقعت معجزة، وقعت ببساطة بين جدران حانة، وسط السكارى والمعربدين من الجنسين. ولا سبيل - للأسف - لتنبيههم إلى مغزاها، أو التماس تصديقهم لها، فهم لم يفدوا إلى الحانة ليشهدوا معجزة أو ليتأمّلوا معناها، سيرمقونه - إذا حدّثهم بها - باستغراب، ثمّ باستنكار، وسرعان ما يعرضون عنه راجعين إلى لهوهم، أو يتناولونه بألسنة الهزء والسخرية، ماذا يريد هٰذا الرجل؟ لعلّه لا يملك ثمن طعامه وشرابه، أو لعلّه نصّاب أو مجنون. محمّد شيخون الماوردي!؟ أسمعتم عن المعجزة الجديدة؟ إنّه لم يحيي الميت ولم يسر إلى المسجد الأقصى ولكنّه عرف بإلهام خارق أنّ محمّد شيخون الماوردي اسم، وأنّه اسم سكّير من زبائن فينيسيا، أرأيتم؟! أعرفتم الآن في أيّ عصر نعيش؟!

ليكن من رأيهم ما يكون فلن ينال ذٰلك من قيمة المعجزة. ولو عَنّ لأحد أن يعتبرها مصادفة لجاز أن نرجع المعجزات جميعًا إلى مصادفات، لجاز أن تفسّر الخلق بمصادفات لا معنى لها. ولٰكن ما عسى أن تكون هٰذه المعجزة؟ نوع من قراءة الغيب؟ موهبة غريبة بدأت تعلن عن نفسها؟ لقد بلغ الأربعين دون أن يفطن إلى موهبته الحقيقيّة. قنع عمرًا طويلًا بأن يكون كاتب حسابات، بأن يقتصر عمله على التعليمات الماليّة، لائحة المخازن والمشتريات، الأوامر المنفّذة لها، الشطب والمراجعة والميزانيّة والحساب الختاميّ، على حين تستقرّ في أعماقه موهبة فذّة. أن يحمل عبء أسرة، أن يرضى بالكفاف، أن يعتنق التقشّف، على حين تستكنّ في قلبه جوهرة غالية. لندع السكارى جانبًا فثمّة آخرون سيدهشون لها حقًّا، ويقدّرونها حقّ قدرها، هناك زوجة، وبعض الزملاء الطيّبين، وهناك شيخ الزاوية التي يصلّي بها من حين لآخر.

وأفرغ ثمالة الدورق في القدح الأخير فاقترب الجرسون من مائدته ليكون رهن إشارته. وما إن رآه حتّى قال له بلا تدبير سابق:

- تعرف زيد زيدان زيدون؟

فأجاب الرجل وهو يرمقه بدهشة:

- كلّا يا سيّدي، أهو أيضًا من زبائن المحلّ؟

- أجل.

- حضرتك على ميعاد معه؟

- كلّا ولٰكنّي أريده لأمر هامّ أيضًا...

وغاب الرجل برهة ثمّ رجع ليؤكّد له أنّ أحدًا من موظّفي المحلّ أو عمّاله لا يعرفه، أو يسمع باسمه من قبل. شعر - بعد فوات الأوان - أنّه تسرّع بلا حكمة. ما كان ينبغي أن يتحدّى موهبته الوليدة على هٰذا النحو. من يتصوّر أن تقع معجزتان في ساعة واحدة وفي حانة واحدة؟!. وإذا فشلت التجربة الثانية كما هو متوقّع فهل ينال فشلها من مغزى التجربة الأولى؟! كلّا. مهما يكن من أمر فلن يسمح...

ورأى الجرسون مقبلًا نحوه، فلمّا بلغ مجلسه قال له:

- تليفون يطلبك...

تساءل بدهشة:

- لا أحد يعرفني هنا، ولا أنت نفسك، فكيف عرفت أنّني الشخص المطلوب؟

- اتّصل صاحب حضرتك بالمدير و...

قاطعه متسائلًا:

- أيّ صاحب تعني؟

- السيد زيد زيدان زيدون!

زلزلته هزّة عنيفة فغضّ بصره ليخفي عينيه عن الجرسون. وتابع الرجل قائلًا:

- اتّصل بالمدير، عرّفه بنفسه، وسأله هل يوجد في الحانة أحد يسأل عنه؟

لم يجد بدًّا من الانتقال إلى التليفون وهو يتخبّط في ذهوله وارتباكه.

- آلو...

- أنا زيد زيدان زيدون... مَن حضرتك؟

- إنّي قادم إليك في الحال وشكرًا...

هٰكذا أنهى المكالمة بلباقة دون أن يفطن أحد إلى ما دار فيها. وقرّر أن يغادر المكان فورًا تفاديًا من وقوع مضاعفات جديدة. غادره وهو يترنّح من الذهول والوجل والفرح.

لم يكن له من حديث فيما تلا ذٰلك من أيّام إلّا محمّد شيخون الماوردي وزيد زيدان زيدون. قال البعض إنّها مصادفة. مصادفة خارقة ولا شيء وراء ذٰلك، وما أكثر المصادفات الخارقة في دنيانا، ألا تذكر كيف تزوّج رئيس القلم؟ ألا تذكر كيف قُتل جارك في ليلة العيد؟ ألا تذكر كيف تولّى وزير وزارة العدل لانطباق اسمه على اسم آخر-كان هو المقصود بالوزارة؟! وقال آخرون إنّها ظاهرة عجيبة حقًّا ولٰكن يمكن إخضاعها للتفسير الطبيعيّ، فالأسماء الغريبة مأخوذة من مخزون الذكريات البعيدة، وغير مستحيل أنّ الرجلين كانا يجلسان على مقربة منك، وأنّ اسميهما لاطما وعيك ـ رغم انشغالك طوال الوقت بدورق النبيذ ـ فلمّا أغراك العبث بتلفيق اسمين وجدتهما طافيين على سطح شعورك أو عالقين بمسمعك، ولا غرابة بعد ذٰلك في دعوات التليفون فهي ممّا تقع كلّ يوم في المقاهي والحانات!

إذن فهي إمّا أن تكون مصادفة خارقة جدًّا وإمّا أن تكون ظاهرة طبيعيّة جدًّا.

لا هٰذا ولا ذاك أرضاه. إنّه يطمح إلى تفسير جديد يواكب انفعاله المحلّق فوق الطبيعة، تفسير خليق بأن يرفعه درجات، بأن يغيّر وجه حياته، بأن ينتشله من هموم الحياة ومآزقها. ومن حسن الحظّ أن كان لشيخ الزاوية رأي آخر. هو وحده الذي استعاده الحكاية مرّات. وقرّب منه وجهه وهو ينظر في أعماق عينيه وقال:

ـ أتريد رأيي بالحقّ والصدق؟... أنت فيك شيء لله!

وامتحن أثر قوله في وجهه ثمّ تابع:

ـ لا أعجب لذٰلك فأنت رجل طيّب. ولا تفوتك صلاة الجمعة...

وتفكّر الشيخ قليلًا ثمّ قال:

ـ ولٰكن أين اكتشفت الموهبة؟ في حانة! ألا تدري ماذا يعني هٰذا؟

ـ كنت أتناول عشائي ليس إلّا...

ـ ولو، إنّه امتحان وتحذير...

فسلّم برأيه حتّى لا يشتّت تيّار أفكاره فتابع الرجل:

ـ وهناك معنى لا يجوز أن يخفى عليك؟

ـ ما هو يا ترى؟

ـ إنّ من يوهب كنزًا فعليه أن يستثمره لخير الناس ولخيره.

وتركه الشيخ لنفسه. روى له بعض سِيَر الأولياء، ونوّه ببعض الكتب ثمّ تركه لنفسه. وقرّر هو أن يبدأ بالمعرفة فراح يطالع الكتب المأثورة. كلّفه ذٰلك مالًا ولم يكن يملك فائضًا منه، ومشقّة في الاستيعاب ولم يكن من المدرّبين على القراءة العسيرة. ومن بادئ الأمر لم يلق من زوجه تشجيعًا. الحادثة عجيبة حقًّا ـ قالت ـ ولٰكنّها لا تعني أكثر من ذٰلك. مثلها كمثل العجائب الكثيرة التي تقع بين كلّ مطلع شمس وغروبها. ما كان يجوز أن يجعل منها نادرة في كلّ مجلس، ألا يخشى أن يصير هو في النهاية نادرة المجالس؟ وما كان يجوز أن يجعلها شغله الشاغل، أن يقبع بسببها في حجرته ليقرأ ويقرأ، مهملًا واجباته الحقيقيّة في هٰذه الحياة. وضرب كفًّا بكفّ وهو يقول: هٰذا هو منطق المرأة! وهل كان ينتظر رأيًا أفضل من امرأة؟! وفضلًا عن ذٰلك كلّه فإنّ قسوة المعيشة قد أفسدت تفكيرها وألصقتها بتوافه الأرض.

ولٰكنّه عرف سبيله ولن توقفه قوّة. هناك أمل، عند الأفق، وراء حياته الذابلة التافهة الجدباء، أمل يَعِدُه بالقوّة والنور والامتياز، سيتحوّل الرجل المسكين إلى شخص نورانيّ باهر يأتي بالمعجزات وسوف يوارى بعد عمر طويل في ضريح مبارك.

وازدادت معلوماته يومًا بعد يوم ولٰكنّه كان يدرك أنّ جوهر المسألة لا ينهض على العِلْم، وإنّما على قَطْع طريق طويلة، خطوة خطوة، مقامًا فمقامًا، وحالًا بعد حال. أين يجد الصبر؟ كيف يسعفه الوقت؟ ومن أين له بالقوّة والعزم؟ ولٰكن هل ينسى أنّ المعجزة قد وقعت في «فينيسيا» بلا مقدّمات ولا تمهيد، بلا معرفة

ولا ثقافة، وبلا أدنى فكرة عن الطريق ومشاقّه؟! حدث ذٰلك فعلًا، بعد عمر طويل من الخمول واليأس، حدث أن تجلّت موهبته فجأة في حانة وهو يشرب النبيذ الأحمر! وإذن فما عليه إلّا أن يتابع قراءاته وتأمّله، وأن ينتظر بعد ذٰلك المعجزات، وهي آتية لا ريب فيها. وكان عجيبًا أن يرتفع صوت زوجه مرّة أخرى لينعى عليه كفّه عن العمل على الآلة الكاتبة في غير الأوقات الرسميّة لزيادة دخله، ها هي تفكّر في الآلة الكاتبة وما تدرّه من قروش في اليوم غافلة عن همومه الحقيقيّة، جاهلة بالحقائق الجدّيّة في هٰذه الحياة. ها هي تنعى عليه انزواءه وتأمّله، وإهماله أسرته ومظهره، ووقوفه موقف التسليم وعدم الاكتراث من مضاعفات الفقر التي اجتاحتهم. إنّه يلقى نعيها بالصمت والصبر الجديرين به. تاركًا الفصل في القضيّة للزمن وحده. ستصبح ذات يوم فإذا بها زوجة لوليّ من أولياء الله الصالحين، ستطرق أبوابهم رحمة الرحمٰن، وسيرتفعون فوق الناس درجات ودرجات.

وطال به عهد القراءة والتأمّل حتّى اقتنع بأنّه آنَ له أن يجرّب موهبته.

مضى إلى أقرب مقهى من داره متوكّلًا على الله. سأل الجرسون عن اسم شخص وهميّ كما اتّفق له النطق به. نفى الرجل معرفته به كما توقّع. جلس ينتظر من التليفون أن يخفّ لنجدته. انتظر حتّى ميعاد التشطيب ولٰكن دون ثمرة.

وتنقّل من مقهى إلى مقهى. وخطر له أنّ المعجزة ربّما لا تريد أن تتحقّق إلّا في حانة فراح يطوف بالحانات ولٰكن بلا جدوى. لم يستسلم لليأس وإن شقي بتجاربه وهصرت التعاسة قلبه. وأخيرًا قادته قدماه إلى حانة «فينيسيا» وكان طيلة الوقت يدور حولها ولا يقترب منها خوفًا من إجراء تجاربه فيها إذ خيّل إليه أنّ الفشل في فينيسيا إنّما يعني فشلًا نهائيًّا يسدّ أبواب الأمل. طلب دورق نبيذ أحمر، لا ليسكر، ولٰكن مجاراة لتقاليد المحلّ. ومضى يتساءل عمّا يجدر به فعله. وفيما هو في حيرته إذ خطر له أنّ أحد الزبائن سيسقط عن مجلسه ميتًا! أتكون هٰذه هي المعجزة المنتظرة؟! لقد وردت على ذهنه من تلقاء نفسها، وهي ليست باسمة ولا خيّرة، ولٰكنّها ستكون معجزة بلا ريب، ولعلّها تخفي في طيّاتها خيرًا غير منظور ولا ملموس. ومضى يجول ببصره بين الوجوه الضاحكة متسائلًا عن صاحب الوجه الذي ستتحقّق ولايته على يديه. وفيما هو يجول ببصره إذ لمح شخصًا وهو ينفصل عن مجموعة معربدة ليستقرّ إلى مائدة خالية إلى جانبه. جذب سلوكه انتباهه فغلب على ظنّه أنّه الشخص الموعود. نظر نحوه فرآه يرنو إليه بعينين باسمتين، بسمة لا تخلو من قحة، فتوقّع أن يمازحه على طريقة السكارى. كلّما نظر نحوه طالعته ابتسامته الجريئة فسرعان ما يتحوّل عنه. ولاحظ إلى ذٰلك أنّ أصحابه المعربدين يسترقون النظر إليه ـ إليهما على الأصحّ ـ كأنّهم يتابعون مشهدًا مثيرًا أو يتوقّعون حدثًا يتّخذون منه زادًا لعربدتهم. تولّاه شيء من القلق فصمّم على تجاهله ومضى يجول ببصره بين الوجوه. وإذا بالآخر يهمس له متسائلًا:

ـ لِمَ لا تشرب؟

ها هو يبدأ لعبته. ليكن على حذر منه. وتجاهله تمامًا، فعاد الآخر يقول:

ـ كان ينبغي أن نكون أصدقاء منذ زمن بعيد!

إنّه يستدرجه ليثب من فوقه إلى عربدته فليصرّ على تجاهله.

ـ إنّني أتذكّرك جيّدًا. كنت تجلس في نفس المكان.

عمّ يتحدّث السكران؟ لو في المكان مقعد خالٍ لانتقل إليه.

ـ كنت ليلتها تشرب وتبتسم، وكنت وحيدًا، أنت دائمًا وحيد...

ترى هل شهد ليلة المعجزة؟! وأخذ يهتمّ به على نحو جديد.

ـ كنت أجلس إلى جوارك بين عدد من الأصدقاء.

متى يسكت؟ متى يذهب؟ متى يموت؟

ـ وسمعتك تسأل الجرسون عن شخص اسمه.. اسمه؟!

نظر إليه بحركة مفاجئة لا إراديّة وقد طفح بصره بالاهتمام.

ـ كان اسمًا غريبًا ومضحكًا كأنّه اسم رجل من الجاهليّة!

غلب على أمره فخرج من صمته متسائلًا:

ـ محمّد شيخون الماوردي؟

ـ عليك نور، محمّد شيخون الماوردي. . .

حدجه باهتمام، متلهّفًا على مزيد، ولٰكنّ الآخر مدّ ساقيه ولاذ بالصمت.

خانه الصبر فسأله:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا شيء. . .

تحوّل عنه متظاهرًا بعدم الاكتراث. لزم الآخر الصمت دقائق ثمّ قال:

ـ لا تتظاهر باللامبالاة.

ـ ليس الأمر بذي بال.

ـ بل إنّك تودّ أن تعرف، بخصوص التليفون مثلًا؟!

دقّ قلبه بعنف ولم يتمالك أن يسأله:

ـ ماذا عن التليفون؟

ضحك ضحكة قصيرة وقال:

ـ سمعتك تسأل الجرسون عن محمّد شيخون الماوردي وهو يعتذر عن عدم معرفته، وقع الاسم من آذاننا ـ أنا وأصدقائي ـ موقع الدهشة، كنّا سكارى كما تعلم، حسن. . . من يكون شيخون هٰذا؟ وهل ثمّة مطابقة بين اسمه وشخصه؟ عندك فكرة طبعًا عن عبث السكارى، قرّرنا البحث عنه، بأيّ ثمن أردنا أن نرى صاحب الاسم العجيب. . .

هزّ رأسه يستحثّه على الاستمرار فقال الآخر:

ـ ما العمل؟ تطوّعت لتنفيذ فكرة لا بأس بها، وهي أن أتسلّل إلى المقهى المجاور للحانة، هناك طلبت رقم فينيسيا، ورجوت المدير أن يدعو إلى التليفون محمّد شيخون الماوردي!

ـ لا!

ندّت عنه كزمجرة منطلقة بشظايا الحنجرة. ذهل الآخر فتساءل:

ـ مالك؟!

ـ أنت!

انقطع صوته مختنقًا بشدّة انفعاله:

ـ أستاذ، هل أخطأت؟ ماذا حلّ بك؟!

رماه بنظرة غاضبة كاسرة متحفّزة قاتمة من اليأس. انتفخ وجهه، احتقن بدم أسود، برزت عروق الجبين نافرة وانعقدت كدمات زرقاء. أراد أن يتكلّم، أن ينفجر صارخًا، ولٰكنّ شفتيه انطبقتا كأنّهما ألصقتا بالغراء. إنّه يصارع قوّة خفيّة، يدافع هجمة ضارية غير مرئيّة، يقاوم زحفًا خانقًا. وبسرعة مذهلة قبض على دورق النبيذ وقذفه به بأقصى قوّة فأصاب رأسه فوق الجبهة. تحطّم الدورق. سال النبيذ على وجهه وعنقه ممزوجًا بالدم. صرخ الرجل ألمًا وغضبًا. انقضّ عليه وهو يترنّح يريد أن يقبض على عنقه، فتناول الآخر الشوكة وطعن بها عنقه بكلّ قوّة يأسه. انكفأ فوق المائدة وهو يصرخ، ثمّ تهاوى على الأرض. . .

المجنونة

ما أكثر المعارك في حارتنا! للسبب الخطير والتافه على السواء تنشب المعارك في حيّنا. ما من ساعة من نهار أو ساعة من ليل إلّا وتتطاير شتمة أو سخرية أو طوبة، يتشاجر اثنان أو أكثر. يستوي في ذٰلك الصغار والكبار. والويل لنا إذا طالت معركة فاتّسعت دائرتها وانضمّ إلى كلّ شخص فريق فانتشرت كالنار والتهمت الأرجاء. وإذا كانت المعارك لا تدوم أو لا يمكن أن تدوم فإنّ رواسبها لا تزول أبدًا، ومضاعفاتها تستفحل يومًا بعد يوم، حتّى أمسى جوّنا مشحونًا بالتربّص والحذر والكراهية والخوف. جوّ سريع الاشتعال قابل في أيّ لحظة للانفجار، ربّما لمجرّد نكتة أو غمزة عين أو نحنحة. . .

من بين المعارك التي ابتُلينا بها برزت معركة بروزًا داميًا لا يُنسى. معركة غريبة فظيعة غامضة غطّت على جميع ما سبقها أو لحق بها من معارك، فلذٰلك سُمّيت بالمجنونة، وجرت في تاريخنا أسطورة من الأساطير.

في ذات يوم اجتاحت الحارة معركة شاملة. اشترك فيها جميع من اتّفق وجودهم على أرضها من عاملين وعاطلين. تضاربوا بادئ الأمر بالأيدي والأرجل

والرءوس. وكلّما جذبت إليها أحدًا بدافع من حبّ الاستطلاع أو الاطمئنان على عزيز أو المصالحة بين متخاصمين، وجد نفسه بعد حين مشتركًا فيها بطريقة أو بأخرى. واشتدّ القتال وتضخّم، واستُعمل وسائل جديدة كالطوب والكراسيّ والعصيّ والآلات الحادّة. وقد استمرّت حوالى الساعتين قبل أن يترامى نبؤها إلى القسم، ولّما جاء رجال الأمن وجدوا أرض الحارة مغطّاة بالقتلى والمحتضرين والمصابين إصابات قاتلة، وقد علا الصوات واحتدم اللطم. لم يسلم رجل واحد، وما من أسرة إلّا وفقدت رَجُلًا أو أكثر. وكان للخبر وقع شديد لدى الجهات المسئولة، وبمجرّد نشره في صحف تلك الأيّام مصحوبًا ببعض الصور الدامية اهتزّ الرأي العامّ هزّة عنيفة حزينة غاضبة. ووقف رجال الأمن حيارى. هل تقتصر مهمّتهم على دفن الموتى؟! ما السبب، من البادئ، من المسئول، ومن عسى أن يجيب بعد أن سوّى الموت بين المعتدي والمعتدى عليه، وحتّى متى تُرتكب هٰذه الفظائع بلا خوف أو اكتراث أو تقدير للعواقب؟!

ـ علينا أن نصل إلى الحقيقة مهما كلّفنا الأمر.

ولٰكن أيّ جدوى تنتظر من وراء ذٰلك، وأيّ جديد هناك؟! ثمّة عداوات قديمة وجديدة، ومنافسات على الفتونة، ولٰكن قد هلك الجميع بلا استثناء، لم يبق شخص واحد من الذين اشتركوا في المعركة، لم ينج إلّا مَن كان يسعى وراء رزقه خارج الحارة، ولدى أوبتهم اكتشف كلّ أنّه فقد ابنًا أو أبًا أو عمًّا أو خالًا.

ـ يمكننا أن نتصوّر كيف تبدأ المعارك وكيف تتّسع، ولٰكن مَن المحرّك الأوّل؟ مَن المسئول؟

قالت امرأة:

ـ خرجت من بيتي لأرمي ماء الغسيل في الحارة فرأيت العجل يجري وهو يحلف بأيمانه ودينه لينتقمنّ. . .

ينتقم ممّن ولمن؟ لم تسمع أكثر من ذٰلك، عادت إلى حجرتها، وبعد وقت قصير ارتفعت ضجّة كبيرة.

ـ نظرت من الشبّاك فرأيت عددًا من الرجال لا يُعَدّ ولا يحصى، يَضربون ويُضربون ويسقطون!

ـ أرأيت العجل بينهم؟

ـ كان يقاتل والدماء تغطّي وجهه وصدره. . .

ـ ومَن الآخر الذي قاتله؟

ـ كان من المستحيل أن أعرف مَن مع مَن أو مَن ضدّ مَن. . .

حسن. محتمل أن تكون المعركة قد بدأت بالعجل، ومحتمل أن تكون بدأت قبل ذٰلك وأنّه جرى لينتقم للجانب المعتدى عليه. ولٰكن مَن هو العجل؟ هو دقّاق طعميّة، ومن رجال عجرمة، فهل ترجع المعركة إلى العداوة التقليديّة بين رجال عجرمة ورجال المناديلي؟! ولٰكن شهد كثيرون بأنّ العلاقات بين عجرمة والمناديلي كانت تنعم بما يشبه الهدنة، وإن يكن من المستحيل التأكّد من هٰذه النقطة بعد أن قتل العجل وعجرمة والمناديلي جميعًا.

ـ إذن مَن هم الأشخاص الذين يخاطر العجل بروحه للانتقام لهم. . .؟

أجاب كثيرون:

ـ شقيقه حتحوت.

وتبيّن أنّه كان بيّاع بطاطة وقد قُتل أيضًا في المعركة.

ـ فمَن هم أعداؤه؟

ـ جميع رجال المناديلي وقد قُتلوا عن آخرهم. . .

وسُئل من ضحايا المعركة مَن استطاع أن يتكلّم قبل أن يُسكته الموت. قال أحدهم:

ـ رأيت صديقًا في المعركة فانضممت إليه ولٰكنّي لم أعرف أسبابها.

وقال ثانٍ:

ـ ظننت أنّ المعركة تدور بين عجرمة والمناديلي فانضممت إلى رجال المناديلي بطبيعة الحال. . .

وقال ثالث إنّه اشترك في المعركة لأنّه لا يستطيع أن يشهد معركة ويقاوم إغراء الاشتراك فيها.

وقال رابع إنّه لمح بين المتعاركين غريمًا له في حبّ امرأة فهاجمه بلا تردّد. وخامس قال إنّه كان يغادر بيته فأصابته طوبة عمياء فراح يرمي بالطوب على غير هدى حتّى أصابته سكّين. وهٰكذا وهٰكذا حتّى تبيّن أنّ شخصًا هاجم آخر لا لشيء إلّا أنّه يتشاءم برؤية وجهه. وعلى كثرة ما قيل فإنّ التحقيق لم يفد منها شيئًا

ذا بال، ظلّ دَوْر العجل محوطًا بالغموض وظلّت الأسباب الأولى للمعركة مجهولة.

ـ ألم يرَ أحدكم العجل وهو يقتل أحد ضحاياه أو عندما قُتل؟

قالت امرأة:

ـ رأيت العجل وهو يقتل القللى.

وقالت أخرى:

ـ رأيت العجل وهو يقع قتيلًا بيد دقلة...

إذن فالعجل قد قتل القللى، ودقلة قد قتل العجل. وليس عجيبًا أن يقتل دقلة ـ وهو من رجال المناديلي ـ رجلًا كالعجل من رجال عجرمة، ولكن لماذا قتل العجل القللى وكلاهما من رجال عجرمة؟!

وتحاور المحققون:

ـ إنّه للغز!

ـ إنّه للغز!

ـ أجل ولكن قد نجد في حلّه الحلّ الأخير للمسألة...

تركّز اهتمام الباحثين على القللى، فدلّت التحرّيات على وجود شقيق له على قيد الحياة يدعى الزين. وسُئل الزين عن علاقة شقيقه القللى بالعجل فأجاب ببساطة:

ـ ثلاثتنا من رجال عجرمة وكنّا أصدقاء...

ـ ألم تتغيّر علاقتهما في الأيّام الأخيرة؟

ـ كانا صديقين حتّى اللحظة التي تركت فيها الحارة في صباح اليوم المشئوم!

ثمّ أدلى بما لديه من معلومات فقال:

ـ خرجت في الصباح الباكر بعربتي لأبيع الفول، وعادة ما يذهب معي حتحوت شقيق العجل وهو بيّاع بطاطة، فنسرح معًا أو نستريح من تجوالنا معًا...

ـ متى علمت بالمعركة؟

ـ رجعت إلى الحارة ظهرًا، كان كلّ شيء قد انتهى، ووجدت أخي والعجل وحتحوت بين القتلى...

ـ قلت إنّ حتحوت كان معك فكيف قُتل في المعركة؟

ـ وقع له حادث اضطرّه إلى العودة مبكّرًا عن ميعاده.

ـ كيف كان ذلك؟

ـ من عاداتنا ـ أنا وهو ـ أن نتسلّى في أوقات الفراغ بالمصارعة، تصارعنا كالعادة وإذا به يسقط مغمًى عليه، رششت الماء على وجهه حتّى أفاق، وعند ذاك اعترف لي بأنّه مسطول وأنّه يشعر بخَوَر، فلذلك رجع إلى الحارة وهو لا يدري أنّه ذاهب إلى حتفه!

ما زال اللغز لغزًا. لِمَ قتل العجل القللى وهو صديقه وكلاهما ينتميان إلى فتونة واحدة؟

هل كان هو الرجل الذي أقسم العجل لينتقمنّ منه أو أنّ القللى تصدّى للدفاع عن الآخر الذي اندفع العجل للانتقام منه؟!

وتطوّع للشهادة رجل ليس في الأصل من أهل الحارة ولكنّه من زبائن العجل، قال:

ـ ذهبت إلى دكّان العجل لأدقّ طعميّة فرأيته يغادرها مسرعًا غاضبًا وهو يهتف: «يقتلك المجرم!... الويل له»!

ها هي شهادة أخرى تؤكّد شهادة المرأة الأولى وتضيف إليها تفاصيل جديدة. العجل تبعًا لهذه الشهادة يريد أن ينتقم لشخص قد قُتل. شخص قُتل قبل أن تبدأ المعركة. ربّما في اليوم السابق لها، أو في أثناء الليل. وتابع الشاهد المتطوّع قائلًا:

ـ جلست أنتظر في الدكّان دقائق ثمّ حدّثني قلبي بأنّ أحداثًا ستقع، وكنت أعرف كيف تشتعل النار في الحارة لأوهى الأسباب فذهبت مؤثرًا السلامة.

ـ ألم ترَ أحدًا في الدكّان؟

ـ رأيت غلامًا في العاشرة يقف في مدخلها فسألته عن المكان الذي ذهب إليه العجل ولكنّه تراجع كالخائف ثمّ جرى بسرعة حتّى اختفى....

وعُرض عليه جمع من غلمان الحارة ولكنّه لم يتعرّف على الغلام المعنيّ. واتّجه البحث إلى معرفة القتيل الذي هبّ العجل للانتقام له، من كان ذلك الرجل؟ هل قُتل أحد من أهل الحارة أو من أصدقاء العجل قبيل المعركة؟ كلّا، لم يُقتل أحد من هؤلاء قبيل المعركة سواء بساعات أو بأيّام!

ـ أنظلّ ندور وندور حول أنفسنا دون أن نتقدّم

خطوة واحدة؟!

وإذا بالتحرّيات الدقيقة تقطع بأنّ المحور الذي دارت حوله المعركة كان في الخرابة الواقعة لقاء مقلى القللي. وإذن فمن المحتمل أنّ العجل جرى إلى القللي في المقلى ليعتدي عليه فنشبت معركة. واتّسعت مندفعة نحو مجالها الطبيعيّ في الخرابة. وإذن فلعلّ القللي هو الذي قتل الشخص الذي جاء العجل للانتقام له، ولٰكن كيف يؤخذ بهٰذا الاستدلال ولم يثبت بعد مقتل أحد قبل المعركة؟!

ـ لعلّنا نقترب من الحقيقة وما علينا إلّا أن نعثر على الخيط الذي يجمع أشتاتها...

لقد علم العجل بأنّ القللي قتل، أو حرّض على قتل شخص ما عزيز عليه، فغادر دكّانه إلى المقلى لينتقم من قاتله. لم يجد المكان خاليًا ولا القللي لقمة سائغة فتدخّل كثيرون بينهما. بدأت معركة، اشترك فيها كثيرون لأسباب شتّى، انجرّ إليها عن سوء نيّة أو سوء فهم رجال عجرمة والمناديلي. ثمّ سرعان ما اجتاحت الحارة كلّها حتّى أهلكت جميع من اشتركوا فيها. حدث ذٰلك كلّه انتقامًا لمصرع شخص مجهول لم يثبت مصرعه حتّى الآن!!

وتحاور رجال الأمن:

ـ ولٰكن مَن الغلام الذي كان في دكّان العجل؟

ـ لقد جيء بغلمان كثيرين فلم يتعرّف الشاهد على أحد منهم.

ـ لعلّه غلام غريب عن الحارة!

ـ ولعلّه الخيط الذي نبحث عنه!

ـ ماذا كان يفعل في الدكّان؟

ـ ولماذا جرى كالخائف؟!

وأكّد تلك الظنون رجل من غير أهل الحارة ولٰكنّه يبيع الكنافة في المنعطف الموصل إليها.

قال في شهادته:

ـ رأيت غلامًا في العاشرة يجري نحو الحارة وهو يصيح يا عمّ يا عجل... حتحوت أخوك قُتل!

انفجرت تلك الشهادة كالقنبلة. جمعوا غلمان الحارة وعرضوهم عليه ولٰكنّه لم يتعرّف على الغلام المقصود. ماذا يعني قول الغلام؟ إنّ حتحوت شقيق العجل قد قُتل حقًّا ولٰكن في المعركة. لقد جاء والمعركة مستعرة بشهادة شهود كثيرين. ثمّ رأى جثّة أخيه العجل، ولمّا علم بأنّ قاتله هو دقلة حمل عليه حتّى قتله ثمّ قُتل بعد ذٰلك!

وسُئل بيّاع الكنافة:

ـ أرأيت الغلام قبل المعركة أم في أثنائها؟

ـ قبل المعركة...

ـ أتستطيع أن تعطينا فكرة عن الوقت الذي مضى بين رؤية الغلام وبدء المعركة؟

ـ حوالى ربع ساعة...

وتحاور رجال الأمن:

ـ لا شكّ أنّ ذٰلك الغلام هو الذي أشعل الفتيل!

ـ بلى، جرى إلى العجل فأخبره بمقتل شقيقه!

ـ ولٰكنّ شقيقه كان في ذٰلك الوقت حيًّا يرزق!

ـ كيف ولِمَ كذب الغلام؟!

ـ لعلّ شخصًا حرّضه على ذٰلك لغرض في نفسه؟

ـ ولٰكن أين اختفى؟

ـ لعلّه ليس من غلمان هٰذه الحارة...

ـ ولا شكّ أنّه نفس الغلام الذي رُئي في دكّان العجل...

طال التحقيق وتشعّب ولٰكنّه لم ينته إلى نتيجة مريحة أو مقنعة. وأخيرًا قال المأمور لرجاله وقد أنهكهم البحث والتفكير:

ـ لقد راجعت التحقيق والتحرّيات فاقتنعت بأنّ الحقيقة أفلتت منّا إلى الأبد ولٰكنّي أتخيّل أنّها ربّما جرت على الوجه الآتي:

الزين (شقيق القللي) وحتحوت (شقيق العجل) سرحا معًا كعادتهما كلّ يوم، وكعادتهما أيضًا تصارعا في وقت الفراغ طلبًا للترويح عن النفس، اجتمع حولهما نفر من الغلمان ليتفرّجوا على المصارعة. سقط حتحوت مغمى عليه من أثر المخدّر الذي تعاطاه، رآه الغلام المجهول فاعتقد أنّه قُتل في المصارعة، جرى إلى الحارة ليبلغ العجل، أخبره أنّ الزين قتل أخاه، صدّق العجل الخبر دون أن يتثبّت منه فوقع فريسة للغضب والجنون، غادر دكّانه لينتقم لأخيه، ولّما لم يكن له من سبيل إلى القاتل الذي حدس هربه فقد قصد إلى

شقيقه القللي ليصبّ عليه انتقامه، تعارك الرجلان، انضمّ إلى كلٍّ رجال من صحبه، ظنّ رجال عجرمة والمناديلي أنّهم المدعوّون للمعركة فرموا بأنفسهم فيها، ثمّ اشترك كثيرون لأسباب شخصيّة أو عرضيّة حتّى شملت المعركة الحارة كلّها، ثمّ كان ما كان من هلاك جميع مَن اشتركوا فيها!

دهش رجال المأمور وهم يصغون إليه، ومع أنّ تخيّله لم يكن إلّا فرضًا إلّا أنّه جاء مقنعًا ورابطًا بين الحقائق المتناثرة، ويمكن على أساسه حلّ لغز المعركة.

ـ يا له من خيال صادق!

ـ وإذن هلكت الحارة لغباء غلام!

ـ أو غباء رجل وهو الأرجح!

ـ بل هو غباء الحارة وهو الأصدق!

وجرى خبر المعركة مجرى الأمثال والأساطير. وركّز الرواة على دور الغلام المجهول فيها لا لاطمئنانهم إلى حقيقته ولكن لطرافته قبل كلّ شيء. أمّا سرّها فقد ضاع إلى الأبد، مخلّفًا وراءه ذكرى مغلّفة بالسواد والأحزان.

خَمّارةُ القِطّ الأسْوَد

كانوا يردّدون أغنية جماعيّة عندما ظهر في الباب رجل غريب.

لم يكن بقي في الخمّارة كرسيّ واحد خاليًا. وهي ـ الخمّارة ـ عبارة عن حجرة مربّعة تقوم في أسفل عمارة عتيقة بالية. تضاء نهارًا وليلًا لقتامة جوّها المدفون. وتطلّ على حارة خلفيّة بنافذة وحيدة من خلال قضبان حديديّة. طُليت جدرانها بلون أزرق فاتح يرشح رطوبة في مواضع شتّى على هيئة بقع غامقة. ويفتح بابها على ممشى ضيّق طويل يمتدّ حتّى الشارع، وعلى جانب منه تصطفّ براميل النبيذ الجهنّميّ. زبائنها أسرة واحدة تتوزّع فروعها على الموائد الخشبيّة العارية، منهم من يرتبطون بأسباب الصداقة أو الزمالة، وجميعهم يتآخون بوحدة المكان والمعاشرة الروحيّة ليلة بعد أخرى، ويجمعهم جامع السمر والنبيذ الجهنّميّ.

كانوا يردّدون أغنية جماعيّة عندما ظهر في الباب رجل غريب.

ليس بالنادر أن يتلقّى أحدهم هٰذا السؤال:

ـ لماذا تفضّل خمّارة القطّ الأسود؟

النجمة اسمها الحقيقيّ، ولٰكنّها تسمّى اصطلاحًا بخمّارة القطّ الأسود، نسبة لقطّها الأسود الضخم، معشوق صاحبها الروميّ الأعجف المدبّب وصديق الزبائن وتعويذتهم.

ـ أفضّل خمّارة القطّ الأسود لجوّها العائليّ الحميم، ولأنّك بقرش أو بقرشين تستطيع أن تحلّق بلا أجنحة. . . .

يتنقّل القطّ الأسود من مائدة إلى مائدة، ووراء لباب الخبز وفتات الطعميّة والسمك، يتلكّأ عند الأقدام ويتمسّح بالسيقان بدلال مَن بطرته النعمة، وصاحبه الروميّ يعتمد الطاولة بمرفقيه رانيًا للاشيء بنظرة ميتة، أمّا الجرسون العجوز فيدور بالنبيذ أو يملأ الأكواب الصغيرة المضلّعة من صنابير البراميل.

ـ وهي أرحم خمّارة بذوي الدخول الثابتة. . .

وتُتبادل المِلَح والنوادر، وتتوادد النفوس ببثّ الشكايات، ويترنّم صاحب الصوت السالك بأغنية، فيطفح المكان المدفون الرطب بالسعادة.

ـ لا بأس من أن ننسى ساعة من الزمان كثرة العيال وقلّة المال.

ـ وأن ننسى الحرّ والذباب. . .

ـ وننسى أنّه يوجد عالَم خارج القضبان. . .

ـ وأن ننعم بملاطفة القطّ الأسود.

في ساعات اللقاء تصفو نفوسهم، وتفيض بالحبّ لكلّ شيء، يتحرّرون من التعصّب والخوف، يتطهّرون من أشباح المرض والكبر والموت، يتصوّرون في صورة منشودة، يسبقون الزمن بقرون كاملة.

وكانوا يردّدون أغنية جماعيّة عندما ظهر في الباب رجل غريب.

نظر الرجل الغريب في أرجاء المكان فلم يجد مائدة خالية، اختفى عن الأنظار في الممشى حتّى ظنّوا أنّه ذهب إلى الأبد، ولٰكنّه رجع حاملًا كرسيًّا من القشّ

المجدول - كرسيّ الخواجا الروميّ نفسه - ثمّ وضعه لصق الباب الضيّق وجلس.

جاء متجهّمًا وعاد متجهّمًا ثمّ جلس متجهّمًا، لم ينظر نحو أحد، تجلّت في عينيه نظرة حادّة صارمة ولٰكنّها غائبة، لائذة بعالَم بعيد مجهول، لا ترى أحدًا ممّن يملئون المكان الصغير. منظره في جملته قاتم وقويّ ومخيف كأنّه مصارع أو ملاكم أو رافع أثقال. وملابسه متوافقة تمامًا مع قتامته، ومؤكّدة لها بالبلوفر الأسود والبنطلون الرماديّ الغامق والحذاء المطّاط البنّيّ. لم يشرق في ذاك البناء المظلم إلّا صلعة مربّعة توّجت رأسًا كبيرًا صلبًا.

أطلق حضوره غير المنتظَر شحنة كهربائيّة نفذت إلى أعماق الجالسين. سكت الغناء، انقبضت الأسارير، خمد الضحك، تردّدت الأبصار بين التحديق فيه وبين استراق النظر إليه، ولٰكنّ ذٰلك لم يدم طويلًا. أفاقوا من صدمة المفاجأة وهول المنظر. أبوا أن يسمحوا للغريب بإفساد سهرتهم. وتداعوا بإشارات فيما بينهم للإعراض عنه واستئناف لهوهم. عادوا من جديد إلى السمر والمزاح والشراب، ولٰكنّه في الحقيقة لم يغب عن وعيهم، لم ينجحوا في تجاهله تمامًا، وظلّ يثقل على أرواحهم كالضرس الملتهب. وصفّق الرجل بقوّة مزعجة فجاءه الجرسون العجوز وحمل إليه النبيذ الجهنّميّ، وسرعان ما أفرغه في جوفه، وألحق به آخر، ثمّ أمر بأربعة أكواب دفعة واحدة وراح يشرب كوبًا في إثر كوب حتّى أتى عليها، ثمّ جدّد الطلب. عاودهم الإحساس بالرهبة والخوف، ماتت الضحكات على شفاههم، تراجعوا إلى الصمت والوجوم. أيّ رجل هٰذا! إنّ ما شربه من النبيذ الجهنّميّ يكفي لقتل فيل، وها هو يجلس كالحجر الصلد، لا يتأثّر ولا ينفعل، ولا تنبسط له أسارير، أيّ رجل هٰذا!

واقترب القطّ الأسود منه مستطلعًا، انتظر أن يرمي له بشيء، ولّما لم يشعر له بوجود مضى يتمسّح بساقه، ولٰكنّه ضرب الأرض بقدمه فتقهقر القطّ، متعجّبًا ولا شكّ لهٰذه المعاملة التي لم يعامَل بها من قبل. وحوّل الروميّ رأسه نحو الحجرة بوجهه الميت، رمق الغريب مليًّا، ثمّ عاد ينظر إلى لا شيء. وخرج الغريب عن جموده. حرّك رأسه بعنف يمنة ويسرة. عضّ على أسنانه. جعل يتحدّث بصوت غير مسموع، مع نفسه أو مع شخص في مخيّلته. تهدّد وتوعّد وهو يحرّك قبضته. استقرّت في صفحة وجهه أقبح صورة للغضب. استفحل الصمت والخوف.

وسُمع صوته لأوّل مرّة، صوت غليظ كالخوار، تردّد بقوّة وهو يقول:

- اللعنة... الويل...

وكوّر قبضته وتابع:

- ليأتِ الجبل... وما وراء الجبل...

وصمت مليًّا ثمّ عاد يقول بصوت انخفض درجة:

- هٰذه هي المسألة بكلّ بساطة وصراحة...

اقتنعوا بأنّه لم يعد للبقاء من معنى. قُضي على السهرة بالفشل ولّما تكد تبدأ. فليذهبوا في سلام. تمّ التفاهم فيما بينهم بالنظرات ثمّ تفشّت فيهم حركة تأهّب وقيام. عند ذاك تنبّه إليهم لأوّل مرّة. خرج من غيبوبته. نقّل عينيه بينهم في تساؤل. أوقفهم بإشارة وهو يسأل:

- مَن أنتم؟

يا له من سؤال جدير بالتجاهل والاحتقار ولٰكنّ أحدًا لم يفكّر في تجاهله أو احتقاره. وأجاب أحدهم متشجّعًا بكهولته:

- نحن زبائن المحلّ من قديم...

- متى جئتم؟

- جئنا مع المساء...

- إذن كنتم هنا قبل حضوري؟

- نعم...

أشار إليهم أن يعودوا إلى مجالسهم، ثمّ قال بحزم صارم:

- لن يغادر المكان أحد...

لم يصدّقوا آذانهم. عقدت الدهشة ألسنتهم. ولٰكنّ أحدًا لم يجرؤ على الردّ عليه بما يستحقّ. وقال الكهل بهدوء مناقض تمامًا لمشاعره:

- ولٰكنّنا نريد أن نذهب.

فرماهم بنظرة وعيد كالحجر وقال:

- ليتقدّم المفرّط في عمره!

لم يوجد بينهم من يفرّط في عمره. تبادلوا نظرات ذاهلة حائرة. وتساءل الكهل:

ـ ولكن ما وجه اعتراضك على ذهابنا؟

هزّ رأسه بقسوة ساخرة وقال:

ـ لا تحاولوا خداعي، لقد سمعتم كلّ شيء...

قال الكهل بعجب:

ـ أؤكّد لك أنّنا لم نسمع شيئًا...

فصاح بغضب:

ـ لا تحاولوا خداعي، لقد عرفتم الحكاية!

ـ لم نسمع شيئًا ولم نعرف شيئًا!

ـ كذّابون مخادعون!

ـ يجب أن تصدّقنا...

ـ أصدّق سكّيرين معربدين؟!

ـ إنّك تسبّ أناسًا أبرياء وتهدر كرامتهم!

ـ ليتقدّم منكم المفرّط في عمره.

وضح لهم أنّ الموقف لا يعالَج إلّا بالقوّة، وأنّه لا قوّة لديهم. واضطرّوا تحت تأثير نظراته المخيفة إلى الجلوس. رجعوا إلى مقاعدهم بغضب مكتوم ومهانة لم يجرّبوها من قبل. وسأله الكهل:

ـ وحتّى متى نبقى هنا؟

ـ حتّى يجيء الوقت المناسب.

ـ ومتى يجيء الوقت المناسب؟

ـ اقطع لسانك وانتظر.

مضى الوقت في توتّر وألم. اجتاحهم الكدر والنكد فطارت الخمر من رءوسهم. وحتّى القطّ الأسود استشعر في الجوّ رائحة معادية فوثب إلى حافة النافذة الوحيدة، ثمّ رقد عاقدًا ذراعيه تحت رأسه وأغمض عينيه طارحًا ذيله بين القضبان. وألحّت عليهم أسئلة واحدة، مَن الرجل، أهو سكران؟ أهو مجنون؟ وما الحكاية التي يتّهمهم بسماعها؟! وطيلة الوقت ظلّ الخمّار الروميّ ملازمًا لصمته الميت على حين قام الجرسون بخدمته وكأنّما هو لا يرى ولا يسمع.

وجعل الرجل الغريب ينظر إليهم بسخرية وشماتة، ثمّ قال متوعّدًا:

ـ إن يُقْدِمْ أحدكم على غدر فسأعاقبكم جميعًا بلا رحمة...

تشجّعوا ـ بمعاودته الخطاب ـ على الكلام فقال الكهل بصدق:

ـ أقسم لك، نقسم لك جميعًا...

ولكنّه قاطعه متسائلًا:

ـ بم تقسم إن طالبتك بقَسَم؟

دبّ أمل طفيف في النفوس وقال الكهل بحرارة:

ـ بما تشاء، بأولادنا، بالله العظيم!

ـ لا قيمة لشيء عند زبائن خمّارة حقيرة كهذه الخمّارة!

ـ لسنا كما تظنّ، نحن آباء صادقون ومؤمنون مخلصون، ولا يمنع ذلك، أو لعلّه بسبب ذلك تشتدّ حاجتنا إلى الترويح عن النفس المثقلة...

فصاح بصوت مدوٍّ:

ـ أوغاد أنذال، تحلمون ببناء القصور بلا جهد ولكن بالاستغلال الدنيء للحكاية!

ـ نقسم بالله العظيم بأنّنا ما علمنا بالحكاية ولا فكرة لنا عنها...

ـ مَن منكم بلا حكاية يا جبناء؟!

ـ إنّك لم تتكلّم، كانت شفتاك تتحرّكان، ولكن لم يصدر عنهما صوت!

ـ لا تحاول خداعي يا مخرّف...

ـ يجب أن تصدّقنا وتتركنا لحالنا...

ـ الويل لكم إذا تحرّكتم، الويل لكم إذا غدرتم، وإذا وقعت الواقعة فسوف أهشّم رءوسكم وأقيم منها متاريس أسدّ بها الممشى...

الرجل مخيف حقًّا، ولعلّه خائف أيضًا، وسيضاعف ذلك من سوء المصير. وزحف اليأس إلى القلوب كموجة من البرد المميت. ولم يكفّ عن الشراب، رغم أنّه لا يسكر ولا يفتر ولا يهمد. وها هو يعترض المنفذ الوحيد للمكان، قويًّا عنيفًا فولاذيّ المبنى مثل قضبان النافذة.

راحوا يتبادلون النظرات بلا أمل، وكلّها لمحوا شبحًا ما وراء القضبان هفّت أنفسهم إليه ولكن دون أن تندّ عنهم حركة ما، وحتّى القطّ الأسود بدا أنّه هجرهم تمامًا ومضى ينعم بالسبات. واشتدّ الحصر بأحدهم فتساءل في إشفاق:

- أذهب إلى المبولة؟

فهتف الغريب غاضبًا:

- مَن قال لك إنّي مُرْضِعة!

فتأوّه الكهل قائلًا:

- هل كُتب علينا أن نبقى هٰكذا حتّى الصباح!

- أنتم سعداء إذا طلع الصباح عليكم...

المناقشة عبث. الرجل مجنون أو مطارَد أو كلاهما معًا. وقد تكون وراءه حكاية وقد يكون وراءه لا شيء. وهم سجناء رغم كثرتهم. وإنّه لقويّ شديد وهم لا قوّة لهم ولا عزم. ولٰكن ألا يوجد سبيل للمقاومة؟ المقاومة من أيّ نوع كان؟

عادوا يتبادلون النظرات وقد تجسّد النكد في أعينهم وجرى الهمس تحت مستوى سمع الغريب:

- أيّ داهية؟

- أيّ ذلّ؟

- أيّ خزي؟

وإذا بنظرة عين تشي بما يشبه الابتسامة، بل هي ابتسامة، ابتسامة حقًّا؟

- لِمَ لا، إنّه لموقف مضحك.

- مضحك؟!

- تأمّله بحياد مؤقّت تجده مهلكًا من الضحك!

- حقًّا؟

- أخشى أن أنفجر ضاحكًا...

وقال الكهل بصوت مسموع بعض الشيء:

- تذكّروا أنّنا ما زلنا بعيدين عن ميعاد انصرافنا المعتاد.

- ولٰكن لم تعد هناك سهرة؟

- لأنّنا أوقفناها بلا سبب.

- بلا سبب؟!

- أعني بلا سبب يمنع من مواصلتها «الآن».

- وبأيّ روح نواصلها بعد ما كان؟

- لننس إلى حين الباب ولنر ما يكون.

لم يرحّب بالاقتراح أحد ولم يرفضه أحد. وجاءت الأكواب الجهنّميّة على مرأى من الرجل الغريب ولٰكنّه لم يعبأ بهم. وأفرطوا في الشراب. دارت الرءوس. استخفّتهم النشوة. انزاحت الهموم بسحر ساحر.

أخذ الضحك يتعالى. رقصوا فوق مقاعدهم. تبادلوا القافية. وغنّوا معًا:

عيد الأنس هلّت بشايره

وطيلة الوقت تجاهلوا الباب. نسوا وجوده نسيانًا تامًّا. استيقظ القطّ الأسود وراح يتنقّل من مائدة إلى مائدة ومن ساق إلى ساق. شربوا بنَهَم، طربوا بنهم، عربدوا بنهم، كأنّما يستمتعون بآخر لياليهم في الخمّارة.

وحدثت معجزة إذ تقهقر الحاضر حتّى ذاب في مدّ من النسيان، وتحلّلت الذاكرة فنفضت من خلاياها كلّ مكنوزها. لم يكن الواحد يعرف صاحبه. إنّه لنبيذ جهنّميّ حقًّا، ولٰكن، أجل ولٰكن...

- ولٰكن أين نحن؟

- خبّرني مَن نكون أخبرك أين نحن؟

- كان ثمّة غناء؟

- أو كان بكاء على ما أذكر...

- وكان ثمّة حكاية... ترى أيّ حكاية؟

- وهٰذا القطّ الأسود، هو شيء محسوس لا شكّ فيه.

- أجل إنّه الخيط الذي سيوصلنا إلى الحقيقة...

- ها نحن نقترب من الحقيقة...

- كان هٰذا القطّ إلٰهًا على عهد أجدادنا.

- وذات يوم جلس على باب زنزانة ثمّ أذاع سرّ الحكاية...

- وهدّد بالويل.

- ولٰكن ما الحكاية؟

- كان في الأصل إلٰهًا ثمّ انسخط قطًّا...

- ولٰكن ما الحكاية؟

- كيف لقطّ أن يتكلّم؟

- ألم يفضِ إلينا بالحكاية؟

- بلى، ولٰكنّا ضيّعنا الوقت في البكاء والغناء.

- ها قد اكتملت الخيوط وتمهّد الطريق لاقتناص الحقيقة...

وارتفع صوت الجرسون العجوز وهو ينهر شخصًا ما مهدّدًا ومتوعّدًا ويصيح به:

- اصحَ يا كسلان وإلّا هشّمت رأسك.

وأقبل رجل ضخم محنيّ الهامة من الانكسار. راح

يرفع الأقداح والصحاف، وينظّف الموائد، ويجمع النفايات من فوق الأرض. كان يعمل دون أن ينبس بكلمة أو ينظر إلى أحد، وقد غشيه حزن عميق واغرورقت عيناه بالدموع.

تابعوه برثاء وإشفاق، وسأله أحدهم:

ـ ما الحكاية؟

ولكنّه لم يلتفت إليه وتابع عمله صامتًا حزينًا مغرورق العينين.

وتساءل الكهل:

ـ متى وأين رأيت هٰذا الرجل؟!

ومضى الرجل نحو الممشى بملابسه القاتمة المكوّنة من بلوفر أسود وبنطلون رماديّ غامق وحذاء بنّيّ من المطّاط، فعاد الكهل يتساءل:

ـ متى وأين رأيت هٰذا الرجل؟!

زيارة

ملقاة على الفراش بلا حول. عاجزة تمامًا عن أيّ حركة جدّيّة عدا حركة الجفنين والعينين أو رفع اليد إلى مستوى الصدر من حين لآخر. وقد امتصّ المرض حيويّتها ولحمها فلم يبق إلّا جلد أصفر مشوب بزرقة وعظام بارزة تكاد تمزّق الجلد عند المفاصل. وهي تنظر إلى لا شيء أو تغمض عينيها، وفي أحسن الأحوال لا ترى أبعد من جدران حجرتها.

نادت بصوت ضعيف رفيع كصوت طفل:

ـ عدليّة...

ولكنّ عدليّة لم تسمع. ستدّعي أنّها لم تسمع. وستجد عذرًا في ضعف الصوت أو بُعْد المطبخ أو وشّ موقد الغاز. وهي لا تستطيع أن ترفع صوتها. ولا تستطيع أن تهدر مطالبها الصغيرة. ونادت مرّة ثانية:

ـ عدليّة...

ستجبن كالعادة عن لومها. إنّها واقعة تحت رحمتها. تحت رحمتها تمامًا. هي لا تألو أن تسترضيها بالأجرة المحترمة والكساء والغذاء إلى أنّها تستأثر بتدبير شئون البيت فهي سيّدته الحقيقيّة. وما الحيلة في ذٰلك؟ إذا قرّرت عدليّة يومًا التخلّي عن خدمتها تركتها للضياع والموت. وهي تتجنّب أن تثقل عليها أكثر ممّا تقتضيه الضرورة الملحّة ولٰكن ما العمل ونداء الحياة لا يكفّ عن التردّد حتّى النفس الأخير.

واستجمعت قواها الخائرة ونادت للمرّة الثالثة:

ـ عدليّة!

وتجمّع الغضب بين عظام صدرها ولٰكنّها لم تستسلم لطغيانه. عدليّة على أيّ حال مرهقة بالعمل. إنّها تكنس وتغسل وتطبخ. تتسوّق وتستبضع. وتقوم من شخصها مقام اليدين والقدمين والحواسّ جميعًا. هي كلّ شيء لها فهي تطعمها وتسقيها وتنظّفها، تُجلسها وتُنيمها وتُريحها من جنب لجنب.

وارتفع صوتها قليلًا متشكّيًا متباكيًا وهي تنادي:

ـ عدليّة!

ترامى وقع أقدام ثقيلة، ثمّ ظهرت عدليّة عند باب الحجرة بوجه جامد يحمل طابع تذمّر ثابت، وتساءلت بنبرة لا تخلو من جفاء:

ـ تنادينني يا ستّي؟

ـ بُحّ صوتي وأنا أناديك يا عدليّة...

اقتربت من الفراش فقالت المرأة:

ـ سيجارة يا عدليّة...

تناولت عدليّة علبة السجائر من فوق الترابيزة، أشعلت سيجارة، ثمّ وضعتها بين شفتيّ سيّدتها وهي تقول:

ـ أنت تعلمين أنّ التدخين مضرّ بصحّتك...

وغادرت الحجرة...

إذا ضاقت بها يومًا قضي عليها بالهلاك. لا أحد لها في الواقع سواها. أمّا عن أبناء وبنات إخوتها فمنذا الذي يهتمّ بالخالة عيون؟! إنّها ملقاة منسيّة، تتعلّق بأذيال الحياة بخوف ويأس، وتتمنّى الموت بلسانها. والقلب قبل أن يهتصره الداء قتله الحزن لفقد الابن الوحيد في مظاهرة دامية. من عجب أنّها لا تفقه للسياسة معنى ولا يتحرّك في نفسها لها ساكن ورغم ذٰلك فقد التهمت وحيدها. وتوفّي الأب بعد استشهاد ابنه بعام واحد. وها هي ذكريات الأحزان تختلط بأنّات المرض ومخاوف الضياع.

في العيد زارتها بثينة ابنة المرحومة أختها. ناظرة مدرسة ابتدائيّة، والوحيدة التي تتذكّرها في المواسم. وقد أهدتها باقة ورد وعلبة حلوى وجلست على كرسيّ على كثب من الفراش. دمعت عينا عيون وهي تقول:

ـ أشكرك يا بثينة، كيف حالكم؟ كيف حال الجميع؟ كم إنّي مشوقة لرؤيتكم ولكن لا يسأل عنّي أحد...

اعتذرت بثينة بابتسامة وقالت:

ـ الدنيا شواغل يا خالتي...

ـ لا أحد لي غيركم، وحتّى الأموات يجدون من يتذكّرهم...

ـ كم تَردين على خاطري يا خالتي ولكنّ الدنيا شواغل...

ـ نسوني تمامًا يا بثينة...

لاذت بثينة بالصمت فقالت عيون:

ـ إنّي خالتهم، الوحيدة الباقية على قيد الحياة، ولو تركتني عدليّة لمتُّ جوعًا فوق فراشي...

وزفرت لوعة ثمّ قالت:

ـ كنّا ـ أنا وأمّك وخالتك ـ أخوات سعيدات، وكانت أيّامًا سعيدة...

ـ رحمها الله!

ـ كنت الصغرى ولم يكن يعجبني العجب!

ـ ربّنا يشفيك يا خالتي.

ـ يا له من دعاء لن يتحقّق يا بثينة، إنّي وحيدة مهجورة، قد وكّلت عنّي أحد الجيران لتسلُّم معاشي.

وجفّفت دمعة بيدها النحيلة المعروقة الزرقاء وقالت:

ـ إنّي خائفة يا بثينة، وأعمل ألف حساب لليوم الذي تذهب فيه عدليّة...

ـ هيهات أن تجد بيتًا كبيتك يا خالتي...

ـ إنّ خدمتي الشخصيّة شاقّة وغير سارّة، لذلك لا يفارقني القلق...

ـ إنّها في الواقع تهيمن على بيتك ومعاشك فكيف يهون عليها أن تهجرك...؟

ـ ولكنّني قلقة، دائمًا قلقة، لا يتخلّى عنّي الوسواس، وخوفي منها لا يقلّ عن خوفي عليها...

وسكتت بثينة إمّا لأنّها لا تجد ما تقوله، وإمّا لأنّها ملّت تكرار الإكليشيهات، فقالت عيون:

ـ آسفة يا بثينة، نفد رصيدي من الكلام الطيّب، ولكن لا يصحّ أن أضايق أكثر من ذلك الإنسانة الوحيدة التي حافظت على الوفاء لي...

وغيّرت لهجتها من التشكّي إلى الحياد أو الإشفاق ثمّ سألت:

ـ خبّريني الآن عن العلاقة بينك وبين زوجك؟

فتنهّدت بثينة وقالت بإيجاز:

ـ بين بين يا خالتي.

ـ كيف وأنت شابّة ولا كلّ الشابّات؟!

ثمّ مستدركة وابتسامة باهتة ترفّ على شفتيها الجافّتين المتمعضتين:

ـ أنت جميلة يا بثينة، وكما قالوا فأنت أشبه نساء الأسرة بخالتك عندما كنتُ في سنّك!

أحنت بثينة رأسها بالإيجاب وهي تبتسم أيضًا.

ـ عندما كنت أسير في الطريق أو أطلّ من نافذة كانت الأعين تلتهمني التهامًا!

فضحكت بثينة وهي ترنو إليها بعطف.

ـ وتقولين إنّ حالك مع زوجك بين بين!.. متى يشعر بنعمة الله التي نعمه بها؟!

ـ هكذا هي الدنيا يا خالتي...

ـ دنيا لعينة يا بثينة.

ـ ولا أمان لها يا خالتي...

ها هي عدليّة قادمة بصينيّة الغداء. أجلستها مسنِدة ظهرها إلى وسادة ثمّ شرعت في إطعامها.

وأرادت هي أن تتودّد إليها فقالت:

ـ طعامك لذيذ يا عدليّة...

لم تبتسم ولم تشكر وكأنّها لم تسمع، وكالعادة تبدّد ثناء الضعيف في الهواء.

ـ مالك يا عدليّة؟

أجابت بنبرة لم تخلُ من خشونة:

ـ أفكّر في بنتي...

ـ ربّنا يسعدها يا عدليّة...

ـ ولكنّها شقيّة مع الرجل...

ـ مهما يكن من أمره فهو لن يفرّط في أمّ أبنائه

السبعة...

ـ إنّك لا تعرفينه يا ستّي.

ـ عليك دائمًا أن تعقّليها وتصبّريها!

ـ ولٰكن ما العمل إذا طلّقها؟

أجل ما العمل؟ ما العمل لو جاءتها بابنتها وعيالها؟ لو أرادت ذٰلك ما وسعها هي الاعتراض. إنّها تحت رحمتها تمامًا. سيضيق المسكن الصغير بهم وسينقلب سوقًا. كيف تتحمّل الضوضاء والشقاوة ومن أين لها أن تطعمهم وتكسوهم! تهديد جديد يا عيون. ترى كيف قال لك الشيخ طه وهو يباركك ليلة دخلتك: «العزّ قدّامك والسعد خدّامك». ولِمَ كانت أمّها مزهوّة بها لحدّ الهوس؟ وقد بادءها الحظّ بزيجة سعيدة حقًّا. من قاضٍ أصيل تزوّجت. رآها ذات يوم مع والديها في بنوار بسينما كوزمو جراف. كانت زوجة مدلّلة وأمًّا سعيدة. وكان يتأبّط ذراعها إلى الأوبرا متباهيًا بجمالها. وغازلها مرّة أحد الباشوات فكادت تنشب معركة من أجلها. وقد انتهى ذٰلك التاريخ كلّه فوق هٰذا الفراش الكئيب وتحت رحمة هٰذه المرأة الصلبة التعيسة التي تأبى أن تجود عليها بابتسامة. ودقّ جرس الباب الخارجيّ فاختلج جفناها بلهفة. هل من زائر جديد؟

ـ مَن يا عدليّة؟

ـ السبّاك يا ستّي...

السبّاك أيضًا! دائمًا السبّاك. لصنبور المطبخ جاء أو الحمّام. أو لعلّها الماسورة أو البالوعة. فلتتجنّب السؤال فضلًا عن الاستجواب اتّقاء للعواقب الوخيمة. سيجيء السبّاك مرّة ثانية وثالثة ورابعة. كلّما طاب له المجيء أو دعته الخنزيرة!

وأغلقت عدليّة باب حجرتها كيلا تقع عيناه عليها! ومن قديم والشكوك تساورها ولٰكن ما الحيلة؟ هٰكذا تقع الحوادث في مسكنها الصغير. خارج الباب المغلق، الذي يغلق بلا إذنها أو إرادتها باسم حمايتها، وهي لا حيلة لها ولا قوّة ولا معين. ولو طمع الرجل في أكثر ممّا بين يديه، لو ظنّ يومًا أنّها عقبة في سبيله، لو خطر له أيّ خاطر شيطانيّ فمنذا يدفع عنها الأذى؟! أرهفت السمع وهي في غاية من الكدر، وغلى الدم في عروقها، لا شكّ أنّ وحيدها الفقيد قد عانى انفعالًا كانفعالها هٰذا هو الذي دفعه إلى الموقف الذي أودى بعمره اليافع، ولٰكنّها نصف ميتة وطريحة الفراش.

وفتحت عدليّة الباب وهي تقول:

ـ ذهب...

ألم يستغرق من الوقت أكثر ممّا يتصوّر العقل! وسألتها دون أن تشير إلى ذٰلك:

ـ ماذا فعل؟

ـ ماسورة الحوض...

غالبت الغيظ حتّى غلبته ثمّ قالت:

ـ ولٰكنّ ماسورة الحوض...

فقاطعتها بحدّة:

ـ إنّها قديمة وبحاجة إلى إصلاح متواصل!

لن تنتهي حاجتها إلى الإصلاح، ولو استبدلت بها أخرى جديدة، سيوجد دائمًا ما يستدعي حضوره من أسبوع لأسبوع. فليأت كلّما شاء هواه أو شاء هواها وليقنع بذٰلك. على أيّ حال فعدليّة بمثابة يديها وقدميها وحواسّها جميعًا. ومهمّتها في هٰذا البيت ليست بالمريحة ولا السهلة ولا السعيدة. وإلى ذٰلك كلّه فالشقاء لا يعفيها من ضريبته ولن يخلو رأسها من أسباب الأرق.

وذات يوم طرق الباب طارق غريب. وقالت عدليّة لسيّدتها:

ـ شيخ ضرير يا ستّي يدّعي أنّك تعرفينه من قديم...

وقبل أن تضيف كلمة جاء من الخارج صوت الغريب وهو يهتف:

ـ الشيخ طه الشريف يا ستّ عيون هانم!

ذٰلك الصوت، ذٰلك الاسم. فلتسعفها الذاكرة المحتضرة. وتلقّى قلبها رعشة ثمّ انساب من شغافه المهزوز فيض من الذكريات كدفقة نسيم عطرة فاجتاحها إحساس بالسعادة غامر:

ـ تعال يا شيخ طه، خذي بيده يا عدليّة.

أقبل مقودًا، يتحسّس الأرض بطرف عصاه، قد انحسرت عمامته البالية عن جبين بارز، وغار جفناه في محجريهما، منحني الظهر من الكبر، تطوّق جبّته الباهتة المنجردة الأطراف جسدًا مهزولًا. وقالت له عيون بعد أن اتّخذ مجلسه:

ـ هاك يدي ممدودة يا شيخ طه ولكن لا تشدّ عليها فهي ضعيفة...

صافحها برقّة وحنان وهو يقول:

ـ سلامتك يا ستّ عيون!

ـ حمدًا لله على سلامتك يا شيخ طه، متى رأيتك آخر مرّة؟

هزّ رأسه يمنة ويسرة وقال:

ـ يا له من عمر!

ـ تلك الأيّام الحلوة يا شيخ طه.

ـ ربّنا يجعل أيّامك كلّها حلوة...

ـ ولكن كيف، إنّي طريحة الفراش، وحيدة تمامًا يا شيخ طه...

فأشار إلى فوق وتمتم:

ـ عنده الرحمة.

ـ وكيف اهتديت إلى مسكني؟

ـ صادفني عمّ آدم بوّاب البيت القديم.

رنت بعينيها الكليلتين إلى أخاديد وجهه وهو يقتعد الكرسيّ كتمثال للفاقة. كم كان قويًّا ممتلئًا أيّام كان مقرئ البيت القديم. يزورهم كلّ صباح فيشرب القهوة ويقرأ ما تيسّر من القرآن ويفتي أمّها فيما تستفتيه فيه. وهو الذي قال لها ليلة دخلتها «العزّ قدّامك والسعد خدّامك». ومن حنايا الماضي تدفّق شعور ودود أليف ممزوجًا بالحنين والدمع. وإذا به يسلت من قدميه الحذاء المتهرّئ فيتربّع فوق الكرسيّ ثمّ يتلو:

﴿والضحى والليل إذا سجا. ما ودّعك ربّك وما قلى﴾.

ولّما شرب القهوة وخلت لهما الحجرة راحت تقول له:

ـ إنّي وحيدة يا شيخ طه.

فقال كالمحتجّ:

ـ لكنّ الله موجود يا عيون هانم.

ـ دائمًا قلقة وخائفة...

ـ الله موجود يا ستّ عيون...

ـ ليتك تزورني بقدر ما تستطيع!

ـ هي أمنية الأماني عندي.

ـ وكيف تسير الأمور يا شيخ طه؟

ـ جرت مشيئة الله بأن يقطع الراديو أرزاقنا ولكنّ الله لا ينسى عبده، المهمّ ألّا تستسلمي للحزن ولا لليأس...

ـ إنّه القلق، لا أحد لي إلّا عدليّة، وإذا تخلّت عنّي...

ـ لن يتخلّى الله عنك.

ـ ولكنّي وحيدة بكلّ معنى الكلمة.

فلوّح بيده آسفًا وقال:

ـ يا للخسارة!

ـ أأنا مخطئة يا شيخ طه؟

ـ كلّا ولكنّك غير مؤمنة!

ـ ولكنّي مؤمنة، لقد فقدت ابني وزوجي في عامين متعاقبين، ولكنّي ما زلت مؤمنة...

ـ لست مؤمنة يا عيون هانم.

غلبها الكدر فلاذت بالصمت فعاد يقول:

ـ لا تغضبي، المؤمن حقًّا لا يعرف الخوف ولا القلق ولا اليأس قلبه...

ـ إنّي مؤمنة ولكنّي طريحة الفراش، وتحت رحمة عدليّة...

ـ المؤمن لا يكون تحت رحمة أحد إلّا ربّه.

ـ ما أسهل الكلام ولكن ما أصعب العمل!

فاهتزّ رأسه يمنة ويسرة وقال بصوت ينمّ عن النصر:

ـ أجل... ما أسهل الكلام ولكن ما أصعب العمل!

ـ لم أعد أفهم شيئًا...

ـ اسمحي لي بزيارتك كلّ يوم!

ـ أستحلفك بالله أن تفعل.

ـ ولكن بغير الإيمان لن تجدي خيرًا في عجوز ضرير مثلي...

تردّدت قليلًا ثمّ قالت بجزع:

ـ أخشى أن تضيق بك، أعني عدليّة؟

ـ ولكنّني سأجيء.

ـ وإذا... وإذا... هبها...

ـ صدّقيني سأزورك كلّ يوم وإذا لم يعجبها ذلك فلتنطح الجدار!

فتمتمت بإشفاق:

ـ اخفض صـوتـك يـا شيخ طـه فعلينـا ألّا نغضبها. . .

ـ انسي يا ستّ عيون أنّك تحت رحمتها، أنت تحت رحمة الله وحده. . .

ـ أجل. . . أجل. . . كلّنا تحت رحمة الله وحده، ولٰكن تصوّر ما سيحيق بي لو غضبت منّي!

ـ لن يصيبك إلّا ما كتب الله لك.

ـ هٰذا حقّ يا شيخ طه ولٰكن تصوّر بالله وحدتي إذا هجرتني!

ـ لن تهجـرك يا ستّ عيـون فهي تعتمد عليـك أضعاف ما تعتمدين عليها!

ـ إنّي عاجزة أمّا هي فقويّة ويمكن أن تعمل في أيّ بيت!

ـ يمكن أن تعمل في أيّ بيت ولٰكن كخادمة أمّا هنا فهي ربّة البيت!

ـ كلامك جميل ومعقول ولٰكنّ الحقيقة مُرّة جدًّا فأنا عاجزة تمامًا. . .

فضرب الأرض بعصاه الغليظة وقال:

ـ إنّ نصف عجزك راجع إلى اعتمادك الكلّيّ عليها!

ـ ولٰكنّ مـرضي حقيقـة، حقيقـة واقعـة بشهـادة الأطبّاء.

ـ أنـا لا أومن بـالأمـراض ولا بـالأطبّـاء ولٰكنّي سأجاريك في أفكارك إلى حين، إذا هجرتك يا ستّ عيـون كما تتـوهّمـين فسـوف أجيئـك بابنتي الكـبرى المطلّقة.

شـعّ من عينيها الغـائمتين نـور طارئ وتسـاءلت بلهفة:

ـ حقًّا؟!

ـ سأستغني عنها من أجل خاطرك.

فشعرت بخجل من نفسها وقالت:

ـ ولٰكنّك لا تستطيع العيش بمفردك!

فضحك لأوّل مرّة وقال:

ـ عجوز ضرير فكيف يعيش بمفرده؟ طالما عشت بمفردي قبل طلاقها!

ـ لا أريد أن أثقّل عليك.

ـ إنّما تثقّلين على نفسك كان الله في عونك.

وسـاد الصمت مليًّا. صمْت مشبـع بالـطمـأنينـة والسلام.

وتنحنح ثمّ راح يتلو:

﴿تبارك الذي بيده الملك﴾.

وآن لـه أن يذهب فصـافحهـا بحنـان ثمّ ودّعهـا وانصرف.

شعرت عيون بأنس لم تشعر به منذ دهر طويـل.

ونادت عدليّة ثم قالت لها:

ـ عـدليّة، إذا جـاء الشيخ طـه فاستقبليـه بلطف وإنسانيّة.

قطّبت عدليّة ساخطة وقالت بتأفّف:

ـ لٰكنّه رجل قذر يا ستّي!

ـ إنّه مقرئ بيتنا القديم وقد ورثت صداقتـه عن أمّي وأبي. . .

ـ لقد رأيت قملة على جبّته يا ستّي. . .

فقالت بحنق:

ـ لا يهمّني ذٰلك، إنّه رجل مبارك. . .

فقالت المرأة بنبرة وشت بوعيد:

ـ ولٰكنّني لا تنقصني المتاعب. . .

فقالت عيون بإلحاح:

ـ صبرك بالله، إنّها رغبتي وأنتظر أن تحترميها!

ـ قلت إنّني رأيت. . .

فقاطعتها بتصميم:

ـ إنّه رجل مبارك، وعليك أن تنفّذي مشيئتي. . .

تجهّم وجه عدليّة وهمّت بالكلام ولٰكن بادرتها عيون بإصرار:

ـ عليك أن تنفّذي مشيئتي دون مناقشة!

تراجع وجه عدليّة إلى صورته العاديّة في دهشة أو ذهول ورمقتها بنظرة قلقة مستطلعة. ترامقتا طويلًا فلم تجفل عيون تحت نظرتها النافذة. وجدت نفسها تصرّ على التحديق أو التحدّي. واستهانت بعجزها ومخاوفها وتمادت في التحدّي. وارتعدت في باطنها ولٰكن بحمّى النصر فتهيّأ لها أنّها تتعملق.

واختلج جفنـا عـدليّـة مليًّا ثمّ غضّت البصر. وغادرت الحجرة وهي ترطن بكلام غير مفهوم. ولٰكنّ

عيون طمحت إلى مزيد من الطمأنينة والثقة فنادتها مرّة أخرى. وجاءت عدليّة وهي تقول بتذمّر وضيق:

ـ الأكل فوق النار. . .

فسألتها بإصرار وتحدٍّ:

ـ خبّريني عمّا ستفعلين إذا جاء الشيخ طه؟

حدجتها المرأة بنظرة متسائلة ثمّ سألت:

ـ من هو الشيخ طه؟

اجتاحها الغيظ فقالت:

ـ تعبثين بي يا عدليّة!

ـ ماذا أغضبك؟ إنّي أسألك من هو الشيخ طه؟

ـ ألا تعرفين من هو الشيخ طه؟

ـ ما سمعت باسمه من قبل!

فقالت وهي تجمع عزيمتها على نضال مرير:

ـ ألم تري الشيخ الذي كان يجالسني منذ دقائق؟ ألم تقدّمي له القهوة بنفسك؟

تفرّست المرأة في وجهها بريبة وقلق وقالت:

ـ لم يدخل بيتنا اليوم أحد، لا شيخ ولا أفندي، عمَّ تتحدّثين؟

هتفت بغضب:

ـ عمَّ أتحدّث! ما شاء الله، أتبلغ بك القحة. . .

ـ إنّك ترعبينني، من هو الشيخ طه؟

ـ جننت أم تريدين أن تجنّنيني؟

قالت عدليّة وهي تزداد قلقًا:

ـ أقسم بالله، برأس بنتي، ما رأيت الشيخ طه ولا سمعت عنه. . .

ارتفع صوت عيون كما لم يرتفع منذ سنوات وهتفت:

ـ تقسمين أيضًا، إذن فأنت تتآمرين على عقلي، توهمينني بأنّني أرى أشياء لا وجود لها، بأنّني مجنونة، أهٰذا هو غرضك؟ أهٰذا هو تدبيرك الأخير لسدّ الطريق في وجه الصديق الوحيد؟!

اتّسعت عينا عدليّة من فزع، تهاوى صلفها فتبدّد، وهتفت بصوت متهدّج:

ـ اسم الله على عقلك يا ستّي!

ـ اخرسي، أنا لا أخشاك، لست تحت رحمتك، سيزورني كلّ يوم، هٰذه هي مشيئتي وعليك أن تنفّذيها بلا مناقشة. إيّاك وأن تعترضي سبيله، سأقطع عيشك!

اصفرّ وجه عدليّة وجحظت عيناها، وقالت بضراعة:

ـ لا ترهقي نفسك، ليهدأ خاطرك، سأنفّذ مشيئتك على العين والراس!

صاحت بها:

ـ كذّابة، مجرمة، لصّة، زانية، تحمّلتك سنين بلا ضرورة، لست في حاجة إلى وجهك المطيّن، وأنت بدوني لا تساوين مليّمًا خردة، لا أريدك، اذهبي في داهية، في ستّين داهية، بطرتك النعمة، لم تقنعي بامتلاك كلّ شيء في بيتي فعملت ليل نهار على إذلالي وتخويفي وتعذيبي، إنّي أطردك، لا تريني وجهك بعد اليوم، اذهبي، في ألف داهية، في ألف مليون داهية. . .

تراجعت عدليّة خطوات، ركبها الذعر حتّى زعزع جذور عقلها، استدارت وهي تتلفّت، ثمّ اندفعت كريح هوجاء وهي تصرخ بأعلى صوتها. . .

حُلُم

شجرة طويلة عريضة من الألقاب والأوصاف ولٰكن بلا ثمرة. فهو عامل ميكانيكيّ بشركة الشرق للمعادن، وله من الأولاد سبعة، ولٰكنّ يوميّته ثلاثون قرشًا. وهو لا يطلق لحيته توفيرًا لتكاليف حلقها فحسب ولٰكن لأنّه أيضًا من رجال الطريق، ومريدي الشيخ. عند انطواء نهار العناء يهرع إلى زاوية الكومي ويجلس بين يدي الشيخ، ما أنبله وما أطيبه ذٰلك البحر الذي يزخر بعلم الله! إنّه يلقّنه آداب الدنيا والدين. ولٰكن برجوعه آخر الليل إلى البدروم يجد في انتظاره المتاعب. هناك المرأة التي أحدّها الدهر. أحدّ لسانها وأطرافها ومزاجها.

ـ طبعًا لا تعرف ما فعل الأولاد وما حصل؟

يا سيّدي يا كومي أكان الأولاد يكدّرون صفاء روحك؟ لماذا لا يحدّث الشيخ عن الأولياء في بيوتهم!؟

ـ إنّي أعطيك جميع ما أملك فلا تبقى معي إلّا

اللعنات.

ويجمح به الغضب فيزلّ اللسان وينحرف عن أدب الدنيا والدين ويتبدّد جهاد الليل سدى.

وذات صباح وجد نفسه أمام المدير وجهًا لوجه في الجراج الكبير. حيّاه بخير ما يجود به الولاء، وهتف بالدعاء له. وقال:

ـ يا سعادة المدير، رأيت لك حلمًا يجب أن تسمعه.

لكنّه لم يولِهِ أيّ اهتمام ومضى في سبيله.

* * *

أيّ حلم رآه ذلك الأحمق!

لم يعد للأحلام معنى. لم يعد للطمأنينة مستقـرّ. الشركة وحديقة الموز بالشرقيّة وعمارة الخازندار انقلبت تهمًا موروثة. وتبخّر الطموح السياسيّ. أيّ حلم أيّها السنيّ القذر! والشائعات تنتشر في الجوّ مخلّفة وراءها ذيلًا طويلًا من القلق. أليس عجيبًا بعد ذلك أن يقول له صديق إنّ الغد هو الأمل؟ أيّ أمل يـا صاحبي! وقال له:

ـ لنكن واقعيّين.

فقال صاحبه:

ـ الأمل واقعيّ أيضًا.

ـ إنّ كلّ شيء مهدّد بالزوال.

ـ إنّك متشائم.

ـ كلّا ولكنّي لا أدري ماذا أفعل؟

ـ افعل ما يفعله المطارَد.

ـ وما ذاك؟

ـ لا تعتمد كلّ الاعتماد على الحديقة أو العمارة أو الشركة. لا بدّ من خزانة في البيت واحرص على الحليّ والجواهر...

ـ وماذا عن جوّ القحة الذي يحاصرنا؟

ـ ضع أعصابك في ثلّاجة!

تذكّر السنيّ بحنق. الخبيث الذي يحترف الطيبة على حين تقدح عيناه شرًّا متأصّلًا. ثمّ يزعم أنّه رأى له حلمًا! وإذا بصاحبه يقول:

ـ دعني أحدّثك عن حلم رأيته ليلة أمس!

فضحك ضحكة عالية لم يفطن الآخر بطبيعة الحال إلى مغزاها أو سببها!

أصبح يؤمن بأنّ المدير يتجنّب النظر نحوه بازدراء صامت كلّما مرّ به في طريقه إلى السيّارة. ولا شكّ أنّه يضيق به ويلعن وجوده. وأفضى بهواجسه إلى زميله في الجراج فقال الرجل:

ـ إنّك تخلق أوهامًا لا أساس لها، وأقسم لك أنّه لم يدْرِ بك قطّ.

وحمل نفسه على تصديق ذلك. أجل فـإنّ العدم الكـامل خـير من أن يكون مثـار سخطه. وأراد أن يعترف بمخاوفه للشيخ ولكنّه وجد نفسه يقول:

ـ حلّت بركتك بابني فهد فهو يتقدّم نحو الشفاء.

فقال الشيخ:

ـ لو أصاب مرضه أحـد أبناء الأغنيـاء لحشد لـه الأطبّاء، فالله جلّ جلاله مع الفقراء.

فسأله:

ـ لماذا كان المؤمن مصابًا؟

فأجاب بثقة وإيمان:

ـ ذلك أنّه لا يرتضي عن الجنّة بديلًا.

إنّ جلسات الليل في الـزاوية أو في منـظرة البيت شفاء للقلوب الجريحة. وكلمات الشيخ أثمن من أشياء كثيرة يعدّها أهل الدنيا سعـادة وزينة. والجـوزة التي يستعملها الضالّون لإشباع الأهواء تُعتبر هنا بحقّ وعاء للنـور والحكمة الإلٰهيّـة. وما أجمـل أن تكون محبـوبًا كـالشيخ! أن يهبـك الناس حتّى أغنيـاءهـم القلوب! لذلك تتهادى إليه العطايا الطيّبات، وهو يقبلها بسماحة نفس، إكرامًا لهم، لا حرصًا عليها أو ولعًا بها. وقد سأله ذات يوم أخ في الطريقة:

ـ لِمَ لا يعطينا ممّا أعطاه الله؟

فغضب وقال له:

ـ يا أخي، إنّه يعطينا ما لا يقدّر بمال....

* * *

قوانين يوليه... قوانين يوليه. الكلّ يردّد: قوانين يوليه. وجعل يذهب ويجيء وهو كالمجنون. وقالت له زوجه:

ـ الصحّة أغلى من أيّ شيء!

ـ أتدركين حقًّا ما الخسارة التي حلّت بنا؟

ـ نعم، لست غرّة ولا جاهلة، ولكن ما زال عندك

الشركة والعمارة والحديقة...

ـ والضرائب الجديدة؟

ـ الصحّة وحدها هي التي لا تعوَّض!

وتأمّل شحوب وجهها الذي يشهد بعكس ما ينطق به لسانها وتمتم:

ـ لا أحد يدري أين يقف الطوفان...

ـ ربّنا موجود.

لم ينتبه إلى قولها إلّا بعد مرور وقت. والحقّ قد أذهله. وكاد رغم الكرب يبتسم. وتخيّل مرحها الطويل فشعر بأسى. وتمتم:

ـ ربّنا موجود ولٰكن أهو معنا أم علينا؟

فقالت بقوّة:

ـ ليس في أموالنا مليّم حرام...

حتّى ذٰلك لم يعد يصدّقه بلا تحفّظ. الأصوات التي ترتفع كلّ يوم وتؤكّد أنّنا شرّ لصوص سعوا فوق ظهر الأرض، ذكاءنا خبث، اجتهادنا انتهازيّة، سعينا أنانيّة، ربحنا سرقة، وجودنا شرّ واستغلال. كيف يصدّق!؟ الوجوه تبتسم لا للتودّد ولٰكن لتداري الشماتة. وأحيانًا يتسلّل إليه صوت وهو يدخل السيّارة «على الباغي تدور الدوائر». وإنّه لشرّ أن يغضب أو أن يجادل، وشرّ منه أن يفكّر في ردّ الاعتداء بمثله. البوليس الذي كان درعه أمسى مطارده. ومعبد القانون تتهاوى أركانه فوق رأسه، ولٰكن هل يسعه إلّا أن يردّد مع زوجه:

ـ ربّنا موجود.

* * *

قال للشيخ بصوت متهدّج من الفرح:

ـ يا له من يوم!

فقال الشيخ بودّ:

ـ لنبدأ الدرس...

ـ ولٰكنّ النفس... أعني أنّه يجب أن نتكلّم.

ـ لندع الخلق للخالق ولنمضِ في طريقنا.

ـ الدنيا تتغيّر يا مولانا... من كان يظنّ...

ـ ألا تودّ أن تسمع شيئًا عن سيّدنا الخضر؟

ولٰكنّه وجد عند زوجه أذنًا تسمعه فقال لها:

ـ أخذوا أموال الأغنياء!

لم تفهمني الغبيّة وتساءلت:

ـ أليست هي رزق الله لهم؟

لوّح بيده مغيظًا فعادت تسأل:

ـ ماذا أعطوا للفقراء؟

لا تريد المرأة أن تشاركه فرحه. رأته مسرورًا فصمّمت ـ كالعادة ـ على تكدير صفوه. وقد ترامى إليه نبأ عن حال المدير التي رُئِيَ بها وهو يستقلّ سيّارته ولٰكن فاته أن يراه بنفسه. ولم يغب الرجل عن ذهنه طويلًا. ووجد زميله يصخب بالحماس. ولّما رآه أقبل عليه قائلًا:

ـ إذا زلزلت الأرض...

ـ ماذا تقول يا ابن والدي؟

ـ أقول إذا زلزلت الأرض زلزالها!

وأوشك أن يسأله عمّا أعطوه للفقراء مردّدًا كلام زوجه ولٰكنّه لم يجد من نفسه مشجّعًا. وسرعان ما انهلّت من السماء قرارات التحسين. أجل يا ابن والدي إنّنا نُخلق من جديد.

وقال له الشيخ:

ـ أصْغِ إليّ...

وأراد أن يصغي ولٰكنّه كان مكتظًّا بالمشاعر، فقال له الشيخ:

ـ احذر الشماتة...

فقال إنّه لا يشمت بأحد ولا عدوّ له في الحقيقة ولٰكنّه بدا رغم قوله كالثمل، فقال الشيخ:

ـ إنّك تتقهقر في الطريق...

فأغمض عينيه ليحجب عن بصره الدنيا التي تثيره فقال الشيخ:

ـ استغفرِ الله...

فقال متشكّيًا:

ـ لم أذنب يا مولاي، والمال والبنون؟

واعتدل استعدادًا للاستماع ولٰكنّ الشيخ قال:

ـ ما أبعدك عن مجلسي.

* * *

ذٰلك السنيّ لا أمرّ به حتّى يصرّ على الترحيب بي بصوت كأصوات المنشدين! لا يختلف بباطنه عن الآخرين ولٰكنّ له طريقته الشرّيرة الخاصّة به. ولا

بعد أن يفاجئني ذات يوم بحلم جديد. لِمَ أشغل نفسي به كأنّه المكروه الأوحد في هٰذه الدنيا؟ إنّ أمراض الأحزان تزحف على أصحابنا وعليّ أن أقاوم، ألّا أبالي، وغير ذٰلك من الكلمات التي لم يعد لها أيّ معنى ألبتّة. وزوجه تبالغ في إعلان المرح وبخاصّة في النادي. جدران النادي تضجّ بالضحك كلّ ليلة، ضحك المجانين. ويقولون ـ رغم ذٰلك ـ إنّنا وقعنا في شرك كبير ما زال به متّسع للحركة ولٰكنّه قُدَّ من صلب لا ينكسر ولا يلين. وإذا به يقع في شرك آخر من صنع يده. أجل قرّر أن يعشق الراقصة الألمانيّة بملهى الكونتننتال الليليّ. أَسَرَتْه كبرياؤها قبل شقرتها، عندما قالت له خلال حوار طويل:

ـ كنّا وما زلنا الأسياد!

فقال لها بتأثّر:

ـ إنّي أعشق حزنك كما أعشقك.

وهي حادّة كالنصل ولٰكنّها مستكنّة في غطاء حريريّ. أمّا زوجه فقد تدهور بها الحال رغم المرح التمثيليّ. وقد رثى لها ولٰكنّ حبّها مضى سريعًا نحو موت غير متوقّع. وعندما أمّمت الشركة جرى كلّ شيء نحو الموت. وقالت زوجه إنّه يجب الإسراع ببيع الحديقة والعمارة. هٰذا رأي ولٰكن أين الشاري؟ وأين يضعون الأموال؟ وقال:

ـ خير ما نفعل ألّا نفعل شيئًا.

واستسلم بكلّيّته إلى غرامه. وقال إنّ عناصر بيولوجيّة وفسيولوجيّة تتعاون على تحطيمه من الداخل فلا يجوز أن يقوّيها بتعاسة إراديّة في سلوكه الخارجيّ.

وخطر السنيّ على باله وهو يحلق ذقنه ذات صباح فغمغم:

ـ أيّ حلم يا فاجر!

* * *

سأله الشيخ:

ـ أتصغي إليّ حقًّا؟

فأجاب بارتباك وحياء:

ـ نعم يا مولاي...

رمقه بأسف وقال:

ـ إنّك لا تواظب على الحضور.

ـ الحقّ...

ـ شغلتك الدنيا...

ـ أبدًا، ولٰكنّني أبحث عن شقّة فوق سطح الأرض.

بدا الشيخ فاترًا على غير عادة فتمنّى الرجل ألّا يكون انقطاع العطايا ـ نتيجة لتغيّر الظروف ـ وراء ذاك الفتور. وعاد الشيخ يقول:

ـ علاوات ومشاركة في الأرباح، ماذا تفعل بما منّ الله به عليك من نِعَم؟

ـ ما يفعل العطشان إذا وجد فنجال ماء.

ـ ولٰكنّ الدنيا لم تُشبع طالبًا لها...

ـ ما طلبت إلّا الستر...

ـ لقد غرّتك الحياة الدنيا.

ـ أبدًا، والله شهيد...

ـ أقول لقد غرّتك الحياة الدنيا...

وفصل بينهما الصمت مليًّا، ثمّ قال الرجل بحذر:

ـ هل من بأس في أن أرشّح نفسي لمجلس الإدارة؟

ـ الإدارة!

ـ عمل نافع، وأنا رجل محبوب بين الزملاء...

ـ لا تَسَلْ أهل الطريق عن ذٰلك...

ـ قال رجل صادق إنّ الحياة في عبادة كما في الخلوة... فغضّ الشيخ بصره وهو يقول:

ـ لم يبق إلّا أن تحلق لحيتك...

وفرّق الصمت بينهما...

* * *

ـ بَلْوانا أخفّ إذا قيست ببلوى الآخرين.

فسأل صاحبه عمّا يعني فقال باقتضاب:

ـ الحراسة، على سبيل المثال.

ـ لا يدري أحد شيئًا عمّا يقع غدًا...

وتبادلا نظرة طويلة ثمّ سأل صاحبه:

ـ ماذا جنينا؟

ـ التاريخ حافل بالأحداث الدامية...

ـ إنّي أكاد أصدّق أحيانًا ما يقال عن إجرامنا!

فرنا إليه صاحبه بنظرة متسائلة فقال:

ـ إذا لم يكن ذٰلك كذٰلك فلِمَ قد تخلّى الله عنّا؟

وغرق في الغرام حتّى أذنيه. وتدهورت حال زوجه

من سيّئ إلى أسوأ. وقرأ ذات صباح اسم السنيّ بين أسماء الناجحين في انتخابات مجلس الإدارة فهتف بحنق شديد:

ـ صاحب الحلم الفاجر!

وأضرب عن قراءة الصحف.

وأثار دهشته صديق بمرحه المتزايد رغم ما حاق به من خسائر مذهلة. وقال له:

ـ إنّك تمثّل دورًا غير لائق.

فضحك الرجل عاليًا وقال:

ـ حقّ أنّ أموالنا قد اغتُصبت ولكن هل أدُلّك على رجل قد تنازل عن أموال لا تُعَدّ ولا تُحصى بلا اغتصاب؟

وراح يستعرض في ذاكرته الصحاب من الباشوات والبكوات ولكنّ صاحبه عاجله قائلًا:

ـ اسمه الجوتاما بوذا!

وحثّه على السماع بإشارة من غليونه وقال:

ـ سأقصّ عليك قصّته العجيبة...

رحلة

لفت الأنظار. كان لا بدّ أن يلفت الأنظار. فرجل طاعن في السنّ وغاية في الوقار ـ إذا جلس في قهوة بلديّة صغيرة مزدحمة بالصعاليك ـ لا بدّ أن يلفت الأنظار. ولّما زالت الدهشة عنهم رجعوا إلى ما كانوا فيه وراح هو ينظر إلى الحارة من مجلسه ويلامس قدح الشاي بأنملته دون أن يفكّر في تناول رشفة منه. لا شكّ أنّهم يظنّونه ضيفًا غريبًا طارئًا لا تفسير له، أو عابر سبيل أقعده التعب، كلّا... إنّهم هم الضيوف، هم الطارئون، أمّا هو...؟

أمّا هو فقد كان في ذلك الموضع مولده.

لقد زال البيت القديم تمامًا. وقامت القهوة في مقدّم الخرابة التي حلّت محلّه. قامت مكان مدخل البيت القديم ودهليزه، وتحت موضع حجرة الجلوس التي كانت حجرة جلوس منذ سبعين سنة. وقد جاء لأنّ شيئًا ما نزع به إلى رؤية الحيّ القديم. وها هي الحارة لم تكد تتغيّر. كلّا. لقد تغيّرت كثيرًا. فعند مدخلها ترتفع عمارة جديدة. كذلك مُهّدت أرضها بالبلاط. ودكاكين كثيرة فُتحت مكان الأدوار التحتانيّة من البيوت القديمة. لذلك اجتاحتها ضوضاء غريبة بعد أن لم يكن يُسمع بها إلّا أصوات الغلمان وهم يلعبون ويغنّون ويتشاجرون. لقد تغيّرت كثيرًا ولم يكد يبقى من ذكراها المستكنّة في النفس إلّا القليل.

شيء ما نزع به إلى زيارة الحيّ القديم، ورغم اختفاء بيته فها هي البيوت الأخرى، قديمة كما كانت وازدادت قدمًا، أمّا سكّانها..؟!

لا أهمّيّة للسؤال عنهم. تمزّقت العلاقات القديمة وفنيت صلاتها الحميمة، كابدت جميعها تجربة صارمة حادّة كالموت تمامًا. إنّ الشيء الذي نزع به إلى هنا لا يبحث عن الآخرين. ومع ذلك، أو رغم ذلك، فإنّه استوقف صاحب القهوة وهو يمرّ أمامه، وسأله:

ـ مَن يقيم في ذلك البيت؟

ـ إنّه وكالة خشب.

ـ وذلك البيت؟

ـ عائلات كثيرة، وكلّ عائلة في حجرة.

ـ وذلك البيت؟

ـ آيل للسقوط...

كان لأرباب البيوت هيبة فإذا ظهر أحدهم في الحارة سكت ضجيج الغلمان وتوقّفوا عن اللعب أو تواروا عن الأنظار.

ـ وأين الكتّاب والسبيل؟

ـ لا يوجد، ولم يوجد...

ـ كان هناك كتّاب وسبيل.

ـ ولكنّني أعمل هنا منذ عشرين سنة!

يحسب أنّه مَلِك التاريخ! وابتسم ابتسامة لم يرتسم منها شيء على تجاعيد وجهه. وسأله الرجل باهتمام:

ـ أتريد شراء أرض؟

فشكره وهو يعجب لغرابة الفكرة. ولحظه ـ وهو يبتعد ـ بجانب عينه كما ينظر الأصيل إلى المُحْدَث.

لماذا جاء؟ لقد مات كلّ شيء أو أصبح في حُكْم الميت. وبَعُدت الذكريات لدرجة لم يعد يخفق القلب لها إلّا قليلًا. ومن الخير له ألّا يخفق فوق ما يحتمل.

أمّا ذلك الغلام الذي مات في صباه فلأمرٍ ما لم يمحه النسيان. حتّى اسمه ـ رفاعة ـ لم ينعدم. كان يقيم في البيت الآيل للسقوط، ينتعل التّراب توفيرًا لصندله، وينظر إليك بعينين واسعتين ناعمتين لا أثر فيهما للعنف أو الشقاوة. ويلعب الحجلة في ذاك المكان تحت تلك النافذة، نافذة زينب. لتهنأ الذاكرة بما حفظت من أسماء قليلة نادرة ولكن مفعمة بحيويّة خارقة تتحدّى الزمن. لا يذكر من زينب إلّا اسمها، ولا يذكر من جمالها إلّا سحره الباقي كعبير مستحيل الوصف، وإنّها كانت «كبيرة» بالقياس إلى أعمارهم وقتذاك، وكانت تطلّ من فرجة في شيش الشبّاك وهم يلعبون تحتها. وأحيانًا تناديه بنبرة دسمة مؤثّرة قد تغيّر مع الزمن حتّى جهاز السمع الذي كان يطرب لها. عشقها في العاشرة كما يعشق ابن العاشرة. عندما يرفع عينيه ليرى وجهها! أجل عندما يرى وجهها. وقالت له ذات يوم «يا ولد إنّك تثير الغبار فاحتشم». يا له من يوم ذلك اليوم! ولعلّها اليوم في الثمانين من العمر إن تكن معدودة من الأحياء، أو لعلّ النباتات والهواء امتصّت مخلّفاتها من النتروجين وثاني أكسيد الكربون والماء وبرادة الحديد والنحاس والكلسيوم، أجل لا يبعد أن يكون ـ هو ـ قد استنشق بعضها أو أكل البعض الآخر وهو لا يدري. كان يغسل وجهه ويمشط شعره ويتأنّق في جلبابه وينتعل حذاءه المطّاط ويبدي أقصى ما عنده من مهارة في اللعب والقفز والشقلبة تحت عينيها ليسرّها ويحظى بإعجابها. ويتيه زهوًا إذا سمع همسها الضاحك «أنت بهلوان يا ولد!» فيضاعف من الشطارة والعفرتة، وقد لازمته تلك العادة في أطوار متأخّرة من حياته وهو يعرض لألاعيبه في ركاب الوزراء والحفلات العامّة ليستجلب التصفيق الحادّ من الجنسين. حدث ذلك تحت النافذة التي لم يعد يطلّ منها أحد والتي تنتظر بين حين وآخر من يقتلعها ويرمي بها فوق ركام من الأخشاب والحجارة والتراب. ولم تكن هذه القهوة قائمة ولم يكن أحد يحلم بها، وهي الآن خليّة للشبّان الذين لا يرحمون عجوزًا من زعقاتهم وضحكاتهم وضرب الموائد الخشبيّة بقبضاتهم.

وذات صباح فتح عينيه فرأى جدّته تنظر إليه باستغراب وتسأله:

ـ من هي زينب؟

فدعك عينيه ولم يجب أو بالأحرى لم يفهم، فقالت:

ـ تنادي زينب وأنت نائم فمن هي زينب؟

ولّما لم يجب حرّكت يدها برثاء:

ـ تسقط في الحساب والديانة وتحلم بزينب!... يا خيبتك القويّة...

ولّما قرأ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه﴾ في وصف القيامة أرعبته الصورة، وبخاصّة ما يتعلّق بإمكان الفرار من زينب وتركها لشأنها، واستقرّت الصورة في قلبه طويلًا كمأساة لا شفاء منها. ومن عجب أنّه جاء الحارة وهو لا يذكر زينب ألبتّة، حتّى رأى النافذة! أمّا رفاعة فكان يلعب تحت النافذة. وكان نحيلًا لدرجة تستثير الضحك فكان يبتسم لضحكاتنا ولا يحنق أو يغضب. لا يذكره حانقًا أو غاضبًا قطّ. ولكنّه كان يذعر إذا تحرّش به الشربيني. ولم يكن الشربيني يتحرّش به لسبب محدّد ولكن لأنّه كان من طبعه أن يتحرّش بالجميع وبخاصّة الضعفاء منهم، كان باختصار فتوّة العصابة. وقلت له مرّة «حرام عليك... يجب أن تخاف ربّنا» فأعاد كلماتي بصوت كالنهيق وكان ذا قدرة غريبة على الاستهزاء بكافّة القيم رغم أنّه لم يجاوز العاشرة. ولم يكن التحدّي ليجدي معه ولو اجتمعنا عليه كلّنا. فقوّته وجرأته كانتا كالإعصار الذي يطيح بأيّ شيء يعترض سبيله. كان رئيسنا بالانتخاب الطبيعيّ ولكن بلا خلق ولا مبادئ ولا يهاب أبًا ولا أمًّا. ولا أذكره إلّا ضاحكًا أو غاضبًا أمّا العواطف الرقيقة فلم تعرف مكانًا في قسمات وجهه، ولكنّه كان رجلنا عند الشدائد، عند أيّ اقتحام لحارتنا، أو اعتداء على أحد منّا، وكان أيضًا كريمًا لا يستأثر بمليم وحده. وكان أمامنا في التجارب الجديدة، يشدّنا إليها واحدة بعد أخرى، والآخرون يلهثون وراءه مشدوهين.

ـ هل سمعتم عن السيرك؟

ـ وما السيرك يا شربيني؟

فيمضي بنا إليه ونكتشف بفضله دنياه الساحرة. أو يقول باستعلاء:

ـ طبعًا أنتم لا تعرفون الجبل!

ويقودنا إلى المقطّم فنرقى في معارجه فوق العالم كلّه حتّى يئنّ رفاعة متشكّيًا:

ـ كفاية. . . تعبت. . .

فيقول له بازدراء:

ـ تقدّم يا بنت!

ويوم جاءنا قابضًا على ذيل قطّ ميت وسألنا:

ـ ما فائدة هٰذا؟

فأجاب رفاعة:

ـ ندفنه فنكسب ثوابًا!

ـ يا تربيّ يا حقير!

وأمرنا أن نتبعه فسرنا وراءه والمغيب يهبط فوق المآذن والقباب، حتّى وقفنا في عطفة تنحدر إلى شارع الخليج. وقف مخفيًا القطّ وراء ظهره حتّى رأى الترام قادمًا من بعيد. انتظر حتّى مرّ الترام أمام العطفة ثمّ رمى القطّ في مقصورة الدرجة الأولى فارتطم بالرءوس وأسقط الطرابيش ثمّ انطلقت العصابة بأقصى سرعة في الظلام. وما زال يقودنا من فتح إلى فتح حتّى قال لنا ذات يوم:

ـ إنّكم لا ترون المرأة إلّا وراء الشيش أو في ملاءة مثل زكيبة الفحم!

تطلّعنا إليه باهتمام ـ عدا رفاعة الـذي لم يبق منه وقتذاك إلّا ذكرى ـ أجل تطلّعنا إليه باهتمام فقال:

ـ سترونهنّ بلا حجاب ولا حاجز ولا تمنّع!

تجلّى الشكّ في الأعين فقال بمباهاة:

ـ موعدنا يوم السينما، وليرتدِ كلّ منكم جاكتة فوق جلبابه. . .

وقد غاب الشربيني عنّي دهرًا حتّى كنت في جولة تفتيشيّة بجرجا فصادفته على غير انتظار. عرفته من أوّل نظرة كما عرفني. كان معتمًّا بعمامة خضراء مطلق اللحية، يدعى «عبد الله المدني» ويزعم أنّه مهاجر من جيرة رسول الله، ويبيع للبسطاء ترابًا في لفافات من الورق قال إنّه من تراب القبر النبويّ وإنّه يشفي من جميع الأمراض. رآه وسط حلقة من مريديه فترامقنا مليًّا، ثمّ لحق به في نادي الموظّفين، وما كاد يخلو إليه حتّى صاح:

ـ بالأحضان!

فتعانقا. وتساءل الرجل عن صناعته الغريبة فقال الشربيني:

ـ الرزق له أحكام!

ـ ولٰكن. . .

ـ طول عمرك تقول «لٰكن». . . الحقّ أنّ كلّ شيء سخيف. . .

وجعل الرجل يضحك حتّى قال الشربيني:

ـ لي زوجة وأولاد في القاهرة ولٰكن ضاق بي الحال مذ ولّت أيّام الفتونة فهاجرت إلى البلاد أعمل طبيب أسنان أو وليًّا من أولياء الله. . . وهو خير على أيّ حال من القتل!

ـ ومستقبل أولادك؟

فضحك كأيّام زمان وقال:

ـ لا خوف عليهم ما دام أولاد الكلب يرتفعون إلى أعلى المناصب. . .

وعندما تصافحنا للوداع بسط لي يده دون أن ينبس فدسست يدي في جيبي وأنا أقول:

ـ لك في ذٰلك حقّ، فطالما جدت علينا بسخاء. . .

ترى ماذا لقي من الحياة بعد ذٰلك اللقاء الذي مضى عليه ربع قرن من الزمان؟ ماذا لقي يا زينب؟ كلّا. . . لقد تغيّرت الحارة تمامًا، أين الحوض الذي كانت تُسقى منه بغال عربات الرشّ؟ أين كشك الحنفيّة العموميّة؟ وهٰؤلاء الزبائن المزعجون ألا يريدون أن يسكتوا؟ وكيف تشعر أنت بهٰذه الغربة وأنت جالس في مسقط رأسك وبين ذكرياتك الحميمة؟

ورفاعة يحجل مؤثرًا السلامة على أيّ شيء. إنّه يخاف الشربيني ويضاعف من تودّده إليه. وزرنا القرافة في أحد المواسم قبيل وفاة رفاعة بأيّام. كنّا نفرح كثيرًا بزيارة القرافة في المواسم. ونلعب في الحوش أمّا إذا ترامى إلينا نبأ ميت جديد فنهرع إلى القبر لنشهد الدفن ولو من بعيد. ووقفنا عند قبر أمّ رفاعة نتبادل الأحاديث. وسأل سائل لم أعد أذكره:

ـ ماذا يفعل الأموات في القبور؟

فأجاب رفاعة بإيمان:

ـ إنّهم يروننا ويسمعوننا، أمّي تراني الآن وتسمعني، كانت تقول لي ذلك وهي صادقة.

ـ والظلام؟

ـ يذهب بتلاوة القرآن وتوزيع الرحمة على المساكين. وتلا الصمديّة.

ـ والحساب؟

ـ يكون في أوّل ليلة فقط.

ـ والمرزبة؟

ـ فظيعة! ولأنّها تركتني صغيرًا يتيمًا فذلك خفّف من الحساب، هكذا قال أبي...

ـ وكلّنا سنموت!

فتساءل الشربيني بارتياب:

ـ كلّنا؟

ـ نعم كلّنا، حتّى سيّدنا النبيّ مات.

وهزّ الشربيني رأسه هزّة غامضة...

ـ وهي الآن في الجنّة؟

ـ الجنّة لا توجد قبل يوم القيامة.

ـ ويعاد الحساب مرّة أخرى؟

ـ قال سيّدنا ذلك في الكتّاب وأكّده.

وتمتم الشربيني باسمًا:

ـ عليه العوض...

كم كان مؤثّرًا محزنًا مذهلًا أن تقف في نفس المكان بعد ذلك بأيّام لنشهد دفن صديقنا الرقيق المهذّب العزيز رفاعة. رأيناه في كفنه وهو يُحمل من النعش، وهم يحتفون به في القبر ليضعوه إلى جانب أمّه. لم أصدّق وبكيت طويلًا. وعدت أنا والشربيني وآخرون ونحن لا نمسك عن الكلام. وقلت إنّه لن يحاسَب لصغر سنّه فقال لي أحدهم إنّ الحساب يبدأ من العاشرة. واختلفنا في ذلك وطال الشدّ والجذب.

ـ على أيّ حال فحسابه يسير.

ـ وسيكون من السقاة في الجنّة.

عكفنا على ذلك حتّى رجعنا إلى الحارة. والظاهر أنّي بكيت أكثر ممّا احتمل الشربيني فقال وهو يرمقني بحدّة:

ـ أنت خائف!

فقلت:

ـ إنّني حزين.

فعاد يقول:

ـ أنت خائف...

فغضبت فقال:

ـ يجب على أيّ حال أن نلعب!

ووقفنا في المكان الذي ألف أن يلعب فيه ومربّعات الحجلة ما تزال مرسومة على سطح الأرض. وشيء جعلني أرفع رأسي فرأيت زينب في النافذة تطلّ بوجه غير باسم. وتلاقت عينانا ولكنّها لم تبتسم وحوّلت عنّي وجهها. تمنّيت أن أجري إليها لأبكي بين يديها وأقول لها إنّي حزين يا حبيبتي!

ولكنّ الصحاب كانوا كثيرين. كانوا عصابة تملأ الحارة، لكنّهم ضاعوا من الذاكرة فلم يعد لهم وجود. ولم يعد من المهمّ أن أسأل عن مصائرهم. ولا أدري إن كنت ما أزال حيًّا في بعضهم أم أنّني ميت أكثر ممّا أتصوّر. على أيّ حال عشنا في الحارة حياة الحضور الكامل وهي أقصى ما نستطيع أن نمارس من الخلود. حياة حاضرة تبدو عادة راسخة ممتدّة ممتنعة عن التغيير أو الاضمحلال فضلًا عن الزوال. ولم تخلُ من مقوّمات الحياة الجوهريّة بين طرفي العبث والغيبيّات. وامتلأت بالحبّ ولكنّي آمنت بأنّه بلا ثمرة... وعرفت الموت كفراق مروّع فظيع لا يخفّف من بلواه شيء، ولا الإيمان نفسه. ولم أشعر غالبًا بما بين أبعاد دنياي من تناقضات ولكنّني عشت السرور بلا حدود كما عشت الحزن بلا عزاء.

* * *

وتثاءب.

ولفت الأنظار مرّة أخرى بتثاؤبه.

وخلع النظّارة الذهبيّة فجلاها بفرتين ثمّ لبسها. وغامت السماء فحجبت شمس الظهيرة عن أرض الحارة. وتمتم صاحب القهوة «لا إله إلّا الله». والرحلة وإن تكن عبثًا إلّا أنّها أيقظت القلب دقائق. وقرّر ـ فيما يشبه نشوة الانتصار ـ أن يزور الحيّ القديم من حين لآخر. ولكنّه عندما غادر الحارة، ومضت به

السيّارة إلى المدينـة، استيقظ من غفوتـه، من سطوة الماضي، وتذكّر مواعيده، واستردّ اهتماماته اليوميّة.

تحرّر تمامًا، وتمتم:

ـ بعيد أن تتكرّر. . .

وتثاءب للمرّة الثانية ثمّ تمتم مرّة أخرى:

ـ النافذة لم تكد تتغيّر. . .

المسطول والقنبلة

ليس الطريق هو الطريق. ولا الدنيا هي الدنيا. الناس في عجلة ولهوجـة. الطوار مزدحم. والشارع يموج بحركة لا تنقطع. والجنود يرمون بنظرات جهنّميّة من تحت الخوذات. ما الخبر؟ وكلّما رغب أن يركّـز ذاكرته تطايرت كغبار الأعاصير. كلّ مـا يذكـره أنّه ذاهب إلى دكّان صديقه محسن الكوّاء. يا عمّ محسن أين أنت؟. . . الطريق لا نهاية لـه. كأنّـه يسير إلى القمر. وهو ثقيل جدًّا تكاد تخذله قدمـاه. والشمس ترسل أشعّة سوداء. ورغم حيرته ابتسم. وندّت عنه ضحكـة. ونـظر إلى النـاس بـاستغـراب. أيّ شيء يستحقّ هٰـذه العجلة!. وتسـاءل تـرى هـل لبس طربوشه؟ إنّه يشعر بقشعريـرة في دماغـه ولٰكنّه ليس متأكّدًا من الطربوش. ولم يجد لا القدرة ولا العـزيمة ليرفع يده ليتأكّد من وجود الـطربوش ولٰكنّـه صادف دكّان أثاث قديم فمال إليه ونظر في مرآة مسنودة إلى ضلفة بابه فرأى طربوشه منطرحًا إلى الوراء كاشفًا عن مقدّم شعره الأسـود. وسوّى ربـاط رقبته وهـو ينظر وخيّل إليه أنّ عينيـه منتفختان وأنّهما شبـه مغلقتين. واشتـدّت الحركـة بالـطريق وانتشرت الضوضـاء. ما الخبر؟ وفتح فاه ليدندن أغنية ولٰكنّه سرعان ما نسيها. وساءه ذٰلك جدًّا ونغّص صفوه. ولٰكنّ حركة زئبقيّة رقصت في باطنه فانبسط وابتسم. وقال إنّه بما يملك من قـوّة يمكنه أن يـطير وأن يغـوص في الأرض وأن يخاطب ساكني القُطْب. وها هـو أخيرًا دكّـان محسن الكوّاء. ونسي تمامًا أسئلة الطريق وحيرته. ولّمـا صار أمام عمّ محسن انحنى تحيّة كأنّه حيـال ملك. ولبث منحنيًا إعرابًا عن امتنانه وكسلًا. وابتسم الكوّاء فقال ويده لا تكفّ عن العمل:

ـ أستغفر الله يا أيّوب أفندي. . .

ـ أنت تستحقّ أكثر من ذٰلك.

ووضع له الصبيّ كرسيًّا عند باب الدكّان فاعتدل في موقفه، وكرّر التحيّة برفع اليد ثمّ مضى إلى الكرسيّ فانحطّ عليه. وأشار إلى رأسه وهو ينظر إلى الكـوّاء وقال:

ـ ليس بالإمكان خير ممّا كان. . .

فقال الكوّاء بفخار:

ـ ألم أقل لك؟

ـ صنف لا مثيل له.

ـ وقلت لـك خذ أوقيـة قبل أن ينفـد.ولٰكنّك لم تصدّقني.

وبالجلوس في الشارع عـاد مرّة أخـرى إلى الحيرة والأسئلة، وتساءل عن معنى ذٰلك فقال الكوّاء:

ـ عمّا قليل ستشهد الموكب.

ـ الموكب؟!

ـ هوووه. . . عاد الرجل من لندن وها هم الجنود ينتشرون للصيد الحرام!

ودارت عينا أيّوب بلا إرادة. واشتدّ شعاع الشمس إظلامًا. واكتظّ الطريق تمامًا. وتساءل:

ـ لماذا؟

لم يفهم الكوّاء المقصود بالسؤال ولٰكنّه قال:

ـ عودة مظفّرة سيعقبها سقوط الوزارة. . .

ونـظر أيّوب إلى السـماء فانـطرح رأسه عـلى ظهر الكرسيّ بلا حراك فابتسم الكوّاء وتساءل:

ـ ألا يسرّك أن تغور الوزارة؟

لم يُبْدِ أيّوب حركة أو اهتمامًا فكتم الكوّاء ضحكة وسأله:

ـ خبّرني مَن الذي يحكمنا الآن؟

أرجع رأسه إلى وضعه الطبيعيّ وكأنّه لم يسمع فعاد الآخر يتساءل:

ـ ألا يسرّك أن يعود الدستور؟

فراح يدندن بنغمة غامضة فضحك الكوّاء قائلًا:

ـ يا بختك!

وترامى هتاف من بعيد فانطلقت شرارة الحماس في الطريق وصاح المأمور بصوت ملؤه الوعيد «النظام». وخرج الكوّاء من الدكّان واندفع يهتف مع الهاتفين. وضحك أيّوب دون أن يبرح مجلسه. ومرّ الموكب كزلزال. وجرى في أثره ألوف وألوف. ولم يبقَ قاعدًا في الطريق كلّه إلّا أيّوب. وتراجع لصق الجدار ليتفادى من الراكضين. وراح يغنّي بصوت لم يسمعه أحد:

البخت لو مال حتعمل إيه بشطارتك

ووقف المأمور ببدلته البيضاء وشريطه الأحمر في وسط الطريق، والتيّار المندفع يتجنّبه فينحرف إلى يمينه أو إلى يساره. ولم يحدث من الجنود اعتداء إلّا حوادث شبه فرديّة. وإذا بشابّ ينقضّ على المأمور فجأة ويوجّه إلى بطنه لكمة ضاربة. ترنّح المأمور ثمّ سقط وفرّ الشابّ كالريح. ووقفت النغمة في حلق أيّوب. وحملق وهو يداري إغراء بالضحك. ورأى الجنود وهم ينفجرون فيهوون بهراواتهم على الناس جزافًا. وطارد المخبرون الشابّ ولكن فصلت بينهم وبينه موجات متلاطمة من البشر. وتتابعت الأحداث بسرعة جنونيّة. دوّت طلقات ناريّة. وفي ثوانٍ تفرّق الناس في كلّ عطفة حتّى خلا الطريق. وأغلقت الدكاكين. ونهض المأمور معتمدًا على ذراع ملازم وصاح برئيس المخبرين:

ـ الويل لك إذا لم تأتِ به...

وأرهقت الأحداث عيني أيّوب. ولم يبق في الطريق أحد سواه. حتّى الجنود ركضوا في أعقاب الهاربين. وأغمض عينيه ليستريح. وأخذته نوبة من الضحك في الطريق الخالي. والتفت إلى دكّان الكوّاء فوجده مغلقًا. ورغب في تذكّر الأغنية ولكنّه لم يفلح. وأغلق عينيه مرّة أخرى غير أنّ وَقْع حذاء ثقيل دعاه إلى فتحهما. رأى المخبر يقبل نحوه بنظرة صلدة. كيف انشقّت عنه الأرض؟ ومضى يقترب منه حتّى أخفى عنه الطريق والسماء. وحملق أيّوب فيه دون أن ينبس وهو يعاني قساوة الوحدة. وصاح المخبر بصوت كالسوط:

ـ ماذا يضحكك يا مجرم؟

فانكمش أيّوب فوق الكرسيّ مغمغمًا:

ـ لم أضحك...

فصاح وهو يقرّب منه وجهه:

ـ تضرب المأمور ثمّ تضحك؟

فمدّ أيّوب ذراعيه كأنّما ليتّقي الشرّ وقال:

ـ معاذ الله... أنا لم أبرح مكاني...

ـ فاهمني أعمى يا ابن الحيّة؟

ولطمه لطمة شديدة طرحته أرضًا وأطاحت بطربوشه عشرين مترًا. تأوّه أيّوب دون أن يحاول النهوض ولكنّ المخبر شدّه من رباط رقبته حتّى احتقن وجهه، ثمّ قام وهو يترنّح وقال بصوت منكسر:

ـ حرام... والله ما تركت مكاني طول الوقت...

ـ اخرس.... عيني لم تتحوّل عنك لحظة...

وصفعه مرّة أخرى. وأخرج صفّارته ونفخ فيها. وجاءت قوّة من الجنود فأشار إلى أيّوب قائلًا:

ـ اقبضوا على المجرم الذي ضرب مأموركم...

ودوّى انفجار شديد فتجمّدوا في أماكنهم، وقال جنديّ:

ـ صوت قنبلة...

وأرهفوا السمع صامتين، ثمّ أفاقوا من دهشتهم فقبضوا على أيّوب وهو يصيح بأعلى صوته:

ـ أنا بريء... لم أضرب أحدًا ولم أتحرّك من مكاني...

وساقوه إلى القسم، ثمّ أدخلوه حجرة المأمور، وأدّى المخبر التحيّة وقال:

ـ الجاني يا فندم...

وهتف أيّوب:

ـ حرام عليك، أنا بريء...

وسأل المأمور المخبر وهو يحدج أيّوب بنظرة قاسية:

ـ أين قبضت عليه؟

ـ لحقت به في ميدان عابدين، جريت وراءه دون أن أرفع عيني عنه، قاوم مقاومة شديدة ولكنّني ارتميت عليه حتّى أسعفني الجنود...

واستمرّ المأمور في طعنه بنظرته ثمّ قال بحنق:

ـ تضربني يا كلب!

وهتف أيّوب يائسًا:

ـ أقسم بالله...

ولكنّه لطمه لطمة أسكتته ثمّ أشار إلى المخبر إشارة خاصّة وهو يقول:

ـ لا تترك به أثرًا يمكن أن تراه النيابة.

أحنى المخبر رأسه إحناءة الفاهم ودفع أيّوب إلى الخارج. ودعا بمعاونيه فأوثقوا يديه وراء ظهره وانهالوا على وجهه بأكفّهم وهو يصرخ من العذاب حتّى سقط مغشيًّا عليه.

وأفاق فوجد نفسه مطروحًا على أريكة خشبيّة في نطاق من الجنود. وجذبه المخبر من ذراعه فاستجاب في إعياء وذهول، وسيق إلى حجرة المأمور. وأُجلس هٰذه المرّة أمام مجموعة من الرسميّين في ملابس مدنيّة، وهو يشعر بأنّ وجهه منتفخ حتّى ليوشك أن يملأ الحجرة، وكلّ موضع في جسده وروحه انهار انهيارًا. وسأله مَن ظنّه رئيسهم:

ـ أنت مستعدّ للتحقيق؟

فقال باستسلام:

ـ أنا بريء...

وطلب أن يشرب فجيء له بكوب. وسأله المحقّق عن اسمه فأجاب:

ـ أيّوب حسن طهارة.

ـ عملك...؟

ـ كاتب بالدفترخانة...

ـ عمرك؟

ـ ثلاثون عامًا...

ـ رآك الجنود والمخبرون...

فصاح مقاطعًا:

ـ أنا بريء... وحقّ كتاب الله بريء...

قال الرجل بحزم:

ـ أجب على أسئلتي دون ضوضاء...

ـ لم أفعل شيئًا... ولا أدري لماذا جيء بي إلى هنا...

ـ أجمع الشهود على أنّك أنت الذي ألقيت القنبلة أمام المحكمة المختلطة!

لم يفقه شيئًا. إنّهم مجانين أو مساطيل. وقال مكذّبًا أذنيه:

ـ لم أغادر الكرسيّ أمام دكّان محسن الكوّاء، ولم ألمس المأمور...

ـ إنّك تهذي، وهٰذا سيعقّد الأمور في وجهك.

ـ ولم أفعل شيئًا...

ـ أنت الذي ألقيت القنبلة!

ـ قنبلة!... حضرتك تقول قنبلة؟!

ـ عشرات من الجنود والمخبرين رأوك بأعينهم.

ضرب جبهته بكفّه وصاح:

ـ لا أفهم شيئًا ممّا تقول!

ـ كلامي واضح جدًّا. مثل فعلتك الشنعاء...

ـ يا حضرة البك أنا لم يُقبض عليّ بتهمة إلقاء قنبلة، لقد قبض المخبر عليّ بلا سبب، ثمّ ألصق بي ظلمًا وعدوانًا تهمة الاعتداء على حضرة المأمور.

ـ اعترف فالاعتراف في صالحك، وإذا اعترفت بمن دفعك إلى الجريمة فلن تندم...

فهتف أيّوب بصوت محشرج:

ـ يا ناس حرام عليكم، أنا رجل مسكين لم أعتدِ في حياتي على أحد، اسألوا عمّ محسن الكوّاء...

ـ اعترف ولن تندم.

وقال رجل يجلس إلى يمين المحقّق:

ـ نحن نعرف الذين وراءك، سنذكر لك أسماءهم ونطلعك على صورهم لتتأكّد من صدق كلامنا، وأنت مسكين حقًّا، ولا شكّ أنّهم غرّروا بك، لم تكن في أيديهم سوى لعبة لعبوا بها بسفالة، وسوف يخفّف ذٰلك من ذنبك، سيجعله لا شيء، ولٰكن يجب أن تعترف...

ـ أعترف!... ولٰكنّني لم أضرب المأمور...

ـ من أين أتيت بالقنبلة؟

ـ يا ربّ السمٰوات والأرض...

ـ إذن فأنت لا تريد أن تعترف!

ـ أعترف بماذا؟... ألا تخافون الله؟

ـ احذر العناد العقيم.

نظر إلى الوجوه المحدقة فيه فرآها سورًا صلدًا يسدّ أبواب الرحمة والأمل. وخطر له خاطر يأس في أعماق محنته فقال:

ـ أتريدون حقًّا أن أعترف؟

فعكست أعينهم اهتمامًا كاد أن يكون ودًّا وقال

المحقّق:

ـ تكلّم يا أيّوب.

فقال بصوت منخفض:

ـ أعترف بأنّني مسطول...

فحلّ محلّ الاهتمام غيظ وحنق:

ـ أتهزأ بنا؟

ـ ربع قرش في معدتي، وبيني وبينكم الطبيب الشرعيّ.

ـ إنّك تحرق مستقبلك...

ـ أنا مسطول، ككلّ يوم، هل سمعتم عن مسطول ألقى قنبلة؟

ـ حيلة صبيانيّة للهرب.

ـ أنا أيضًا مدمن، ولِمَ أضرب المأمور أو ألقي قنبلة؟!

ـ حذار يا أيّوب...

ـ لماذا... لماذا... عمري ما شغلت نفسي بسياسة، ولا بدستور ٩٣٠ أو دستور ٩٢٣، ولا هتفت مرّة واحدة، هاتوا الطبيب الشرعيّ...

ـ طاوعني واعترف، والأسماء تحت يدك والصور...

ـ صدّقوني لا عمل لي في الدنيا إلّا حفظ الوثائق القديمة واستحلاب ربع قرش كلّ يوم، هاتوا الطبيب الشرعيّ واسألوا الناس جميعًا...

* * *

وانقضى عام قبل أن يرجع أيّوب مرّة أخرى إلى دكّان عمّ محسن الكوّاء. وُجّهت إليه تهمة إلقاء قنبلة أمام المحكمة المختلطة. نُشرت صورته في الجرائد. عدّه الشعب بطلًا فدائيًّا. تقدّم للدفاع عنه نخبة من كبار المحامين. حكمت المحكمة ببراءته ودوّت القاعة بالهتاف. ولمّا عاد إلى دكّان الكوّاء تعانقا عناقًا حارًّا طويلًا، ثمّ اتّخذ مجلسه المعتاد أمام الدكّان. وقال محسن تحيّة ومودّة:

ـ عندي صنف يا هوه!

فضحك أيّوب وقال:

ـ مضى عام بلا كيف حتّى نسيته...

ـ آنَ لك أن تتذكّر...

فلم ينبس بكلمة فقال محسن بدهشة:

ـ الله يحكّمهم!... لقد تغيّرت حتّى ما أكاد أعرفك يا أيّوب أفندي...

فابتسم دون أن يتكلّم فقال الآخر مشجّعًا:

ـ ولكنّ كثيرين يحبّونك اليوم ويعظّمونك!

فضحك ضحكة بريئة سعيدة فاستطرد عمّ محسن:

ـ ولا يصدّق أحد بأنّك مدمن ولكنّهم يؤمنون بأنّك ضربت المأمور وألقيت القنبلة...

فقال بفخار:

ـ كانت المحاكمة قنبلة!

فتساءل محسن بارتياب:

ـ وماذا تنوي بعد ذٰلك؟

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ أشار عليّ بعضهم بأن أرشّح نفسي في الانتخابات القادمة!

نظر محسن نحوه بذهول وقال:

ـ لكنّهم يعرفون صاحب القنبلة!

ـ ولو!... قالوا إنّني رفضت أن أشترك في تلفيق تهمة ضدّ أحد منهم...

ـ ولكنّك لا تهتمّ بشيء في هٰذه الدنيا؟!

فقال وهو يبتسم:

ـ لقد تزوّجت الاهتمام في الحبس الاحتياطيّ والمحكمة.

صُورَة

يسري عبد المطّلب يتناول فطوره المكوّن من قطعة من الجبن القريش والخبز المحمّص وفنجال قهوة، وفي قبالته جلست زوجته منهمكة في مطالعة الجريدة. وتنفّس جوّ الشقّة هدوءًا كهدوء الشيخوخة، هو طابعها دائمًا أبدًا. عدا أيّام الزيارات التي يجيئها الأبناء. وقرّبت المرأة الجريدة من عينيها في اهتمام طارئ ولكنّ الرجل رمقها في غير اكتراث، ونادرًا ما يثير اهتمامه شيء مذ أحيل إلى المعاش. وتمتمت المرأة في رثاء:

ـ مسكينة!

وقال لنفسه: دائمًا صفحة الحوادث أو صفحة الوفيات! ومدّت له يدها بالجريدة وهي تقول في حسرة:

ـ شابّة، وجميلة... انظر...

يا فتّاح يا عليم. جثّة ملقاة على الرمال، الوجه واضح المعالم، وسيم يافع، مغمض العينين إلى الأبد.

ونظر في الجريدة دون أن يتناولها وتساءل:

ـ قتيلة؟

ـ في الصحراء، وراء الهرم، مؤخّر الرأس مهشّم، لم يُسرق منها شيء، مجهولة...

فقضم لقمة وهو يقول:

ـ قصّة قديمة معادة.

ـ لكنّها لم تُسرق!

ـ حبّ، زفت. أيّ شيء، لم تُقتل طبعًا بلا سبب.

ـ جميلة وشباب المسكينة.

وأمعنت النظر في الصورة وقالت:

ـ يا قلب أمّها!

ووضعت الجريدة على السفرة واستطردت:

ـ إنّي أعجب كيف يُقدم إنسان على قتل إنسان!

فقال باسمًا:

ـ لا تنكري أنّك عاصرت حربين عالميّتين وعشرات الحروب المحلّيّة.

ـ الحرب شيء آخر، ليس كأن تقتل إنسانًا وجهًا لوجه، بقصْد وغدْر وقسوة، والمسكينة ولا شكّ ذهبت مع القاتل وهي مطمئنّة...

ـ اللعنة، ولماذا ذهبت معه؟

تنهّدت المرأة قائلة:

ـ الله أعلم، والله غفور.

* * *

وفي شقّة بالعمارة رقم ٥٠ بشبرا كانت فتاة تنظر إلى صورة القتيلة بذهول، لا تكاد تصدّق عينيها، ثمّ هرعت إلى أمّها بالجريدة هاتفة:

ـ ماما... انظري!

نظرت الأمّ إلى الصورة، وقرأت الخبر، ثمّ رفعت عينيها إلى ابنتها متسائلة فقالت هذه بانفعال:

ـ شلبيّة يا ماما، ألا تذكرين شلبيّة؟!

أعادت المرأة النظر إلى الصورة بإمعان حتّى اتّسعت عيناها دهشة وانزعاجًا وصاحت:

ـ يا ربّي! هي هي شلبيّة، شلبيّة دون غيرها...

قالت الفتاة برثاء وتأثّر:

ـ كانت عندنا منذ خمس سنوات...

ـ أجل، ترى كيف ولما قُتلت؟!

غمغمت الأمّ بكلام غير مفهوم، ولم يسكن انفعال الفتاة فقالت:

ـ كانت طيّبة جدًّا يا ماما، تتلقّى أيّ أمر بصبر وابتسام، وكانت تغنّي في الحمّام أغاني ريفيّة بصوت ساذج لطيف...

ثمّ بنبرة كالعتاب:

ـ وقد طردناها بلا سبب!

ـ هي مسكينة، ربّنا يرحمها، ولكنّا لم نظلمها...

ـ كانت لطيفة وساذجة ومؤدّبة ولكنّي لم أدرِ لأيّ سبب طُردت...

فقالت الأمّ بوجوم:

ـ لم تُطرد بلا سبب، وكلّ شيء قسمة ونصيب.

فتنهّدت الفتاة قائلة:

ـ لعلّها لو بقيت عندنا لما...

فقاطعتها بحدّة:

ـ أنت مجنونة!... أليس كلّ شيء بإرادة الله؟

فانخفض صوتها وهي تقول:

ـ مسكينة، كنت أحبّها، وبابا لم يرغب أبدًا في طردها...

وقطّبت الأمّ عند ذكر «بابا»، وغامت عيناها بذكريات مقلقة فيما بدا وقالت بصوت جافّ:

ـ كفى، الله يرحمها وكفى...

وأعادت النظر إلى الصورة وتمتمت:

ـ ليست الملابس بملابس خادمة...

ـ لعلّها...

فقاطعتها قائلة:

ـ ليكن السبب ما يكون، ولكنّني لم أظلمها، والله يرحمها...

وساد صمت، ثمّ قالت الفتاة:

ـ البوليس يناشد من يتعرّف على الصورة أن يتقدّم للإدلاء بمعلوماته.

فقالت الأمّ بحزم:

ـ لقد انقطعت صلتها بنا منذ خمسة أعوام، ولن نفيد التحقيق شيئًا، وأنت لا تتصوّرين المتاعب التي يتعرّض لها مَن يذهب إلى البوليس.

ورمت بالجريدة بعيدًا وهي تقول:

ـ أيّ صباح هٰذا يا ربّي!

* * *

ووقع بصر السيّد أنور حامد على الصورة وهو يتصفّح الجريدة في فترة استراحة قصيرة في أثناء عمله بإدارة التفتيش. حملق فيها بانزعاج لم يخفَ عن زميله في الحجرة فسأله:

ـ خيرًا إن شاء الله؟

فطوى الجريدة وهو يتمالك نفسه قائلًا:

ـ صديق توفّي.

ولٰكن اجتاحه اضطراب لم يفارقه طوال الوقت. شلبيّة العاملة بالمشغل. الجميلة العذراء. التي اضطرّ آخر الأمر إلى أن يتزوّج منها زواجًا عُرفيًّا. وبسوء نيّة اشترط عليها ألّا تنقطع عن العمل. ولّما حملت اغتصب منها موافقة على الإجهاض. وقالت وهي تبكي:

ـ أنت لا تحبّني ولا تعدّني زوجة.

فقال ملاطفًا:

ـ بل أنت زوجتي ولٰكنّني لا أريد خلفًا!

ولّما تنغّص العيش في الأيّام التالية حزم أمره وسرّحها وصديقه عبيد رئيس الحسابات كان الشاهد وحافظ السرّ. ومن شدّة اضطرابه انتقل إلى حجرته فأطلعه على الصورة. وهزّ الرجل رأسه وتمتم:

ـ مسكينة، ترى كيف قُتلت؟

ـ سنعرف غدًا أو بعد غد، وليس من العسير تخيُّل ذٰلك.

وتبادلا نظرة لم يرتح لها أنور حامد كثيرًا فقال:

ـ كانت عنيدة فماذا كان يمكن أن أفعل؟!

فقال المدير بنبرة مخفّفة:

ـ كانت تحبّك جدًّا ورغبت في الأمومة...

ـ ولٰكن الناس والأهل!... لا يخفى عليك ذٰلك.

ـ طبعًا، فليغفر الله لنا جميعًا!

امتعض مليًّا، ثمّ تساءل:

ـ هل أذهب إلى البوليس؟

ـ أظنّ هٰذا...

ـ ولٰكن ألا يجرّ ذٰلك إلى متاعب وأنا شارع في الزواج؟

فتفكّر الرجل قليلًا ثمّ قال:

ـ إذن لا تذهب، وإذا جاء ذكرك في التحقيق مستقبلًا فادّعِ أنّك لم ترَ الصورة.

* * *

ولم يطّلع حسّونة المغربي على الصورة إلّا حوالى العصر وهو موعد استيقاظه من النوم عادة كلّ يوم. وفرك عينيه كأنّما لا يصدّق، وقال:

ـ درّيّة!... يا للشيطان...

وأدام النظر إلى الصورة ثمّ غمغم:

ـ لماذا قُتلت؟!

ومضى إلى الحمّام وهو يتجشّأ حموضة الخمر، وسرعان ما استردّ هدوءه فقال:

ـ ولٰكنّك شيطانة مجرمة!

ثمّ مواصلًا وهو يغسل وجهه:

ـ الجزاء من جنس العمل.

وراح يحلق ذقنه ويقول وكأنّه يخاطب صورته في المرآة:

ـ عرفتك مطلّقة ذليلة، بعد أن جرّبت شهامة الأفنديّة، أعطيتك الحبّ وجعلتك نجمة في هٰذا البيت، وعشقك أحسن ناس في البلد، وماذا كان الجزاء؟... هربت، أجل هربت لكي تُقتلي في الصحراء، فإلى الجحيم...

وحوالى التاسعة مساء جاء الرجال وجلسوا حول مائدة القمار، ودارت عنايات وبهيجة بالويسكي والمزّات. وعلموا بالخبر فقال فهمي رمضان:

ـ قد تُجرّ إلى التحقيق يا حسّونة...

فقال باستهانة:

ـ لٰكنّني لم أرها منذ عام...

ـ ولو...

وقال سعيد الإمام بحذر:

ـ من الحكمة أن نمتنع عن الحضور حتّى يقبضوا على القاتل. . .

فصاح حسّونة بقلق:

ـ لا شأن لي بالجريمة. . .

فقال حسني الديناري:

ـ اذهب إلى البوليس وأدلِ بمعلوماتك. . .

فتساءل الرجل بذهول:

ـ أتريدني على ان أعترف بأنّها كانت تعمل هنا؟. . .

فقاطعه:

ـ كلّا. . . قل فقط إنّها كانت صديقتك واختفت منذ عام. . .

ـ وإذا سُئلت عن عملي. . . أو بطاقة الشخصيّة. . . أو تحرّوا عن مسكني؟!

ـ في السكوت خطر أفدح. . .

فلوّح بيده بغضب وسخط وهتف:

ـ كان ضروري تقتل لتربك حياتي!

فقال الرجل في غيظ:

ـ يا ما نصحتك!. . . ولكنّك كنت وحشًا في معاملتها! كنت وحشًا رغم تفانيها في حبّك. . .

* * *

واستيقظت فتحيّة السلطاني حوالى المغرب في الحجرة التي تقيم فيها مع دولت ونعمات وأنيسة وعليّة. وكانت درّية (شلبيّة) أوّل ما خطر ببالها. وانفجر في رأسها بركان من الغضب لم يفارقها طيلة الوقت الذي قضته في الحمّام، وهي تغيّر ريقها، ثمّ وهي واقفة أمام المرآة تتبرّج:

ـ الخنزيرة. . . الكلبة. . . ماذا تظنّ بنفسها!

وتثاءبت دولت وقد أدركت من تعني وقالت وكأنّما تعتذر عن الأخرى:

ـ كانت سكرانة!

ـ ولو!. . . إنّها تشرب البرميل فلا يدور لها رأس.

ونسيت الموضوع دقائق وهي تروّض شعرها المتمرّد ثمّ عادت تقول:

ـ نظرت إليّ من فوق!. . . العفو. . . العفو يا مولاتي!. . . أنسيت عرشك تحت الجاموسة؟

وقالت نعمات:

ـ كانت سكرانة وهي غير معتادة، ورغبت في مداعبتك، ترى أين باتت ليلتها؟

ـ في أيّ داهية مع أيّ جربوع، وستعرف الليلة من أنا!

وذهبت أوّل الليل فتجوّلت طويلًا على كورنيش النيل دون ثمرة، ثمّ قصدت حلوانيّ كوكب الشرق فاتّخذت مجلسها المعهود بالدور الثاني. وأخذت ترامق الموجودين وتنتظر. ومن آنٍ لآخر تنظر نحو المدخل وهي تتوثّب للقاء غريمتها. ولّما مرّ النادل سألته:

ـ ألم ترَ درّية؟

فأجاب دون أن يتوقّف:

ـ زمانها جايّة.

* * *

وأمضى عادل اليوم مُتسكّعًا بين الحدائق على شاطئ النيل. لم يذهب إلى الكلّيّة ولم ينم ليلة أمس ساعة واحدة. وتأبّط الجريدة وكلّما وجد نفسه في خلاء فتح صفحة الحوادث وأدام إلى الصورة النظر. وقال إنّه سيسقط آخر الأمر من شدّة الإعياء، وقال إنّ ريقه جافّ ومُرّ، وتنفُّسه بطيء. وها هي الزوبعة الهوجاء قد سكتت، والألسنة المندلعة قد خمدت، والنيّة المبيّتة قد نُفّذت، ومع ذٰلك فلا يشعر مطلقًا بأنّه حقّق مطلبًا أو بلغ أملًا. لا شيء، خواء، انهيار، وقد قُضي عليك. ولا مهرب، فإن يكن البقاء خطرًا فالهرب أشدّ، وأين تهرب؟ وكم من راءٍ يُحتمل أن يكون رآكَ وأنت ماضٍ بها، وخيّل إليك أنّ صوتًا ناداك في المرقى إلى الهرم، وفضلًا عن هٰذا وذاك فالبوليس كالهواء يملأ الأماكن المغلقة.

ـ إلى أين تسير بي؟

ـ ما أجمل أن نبتعد في الصحراء!

هم يسألون عنك في الكلّيّة. وينتظرونك حول البيت. ما أعجزنا عن أن نرجع دقيقة واحدة إلى الوراء.

ـ درّية. . . أنت دائمًا تكذبين!

ـ أنا لا أكذب ولٰكنّك لا تصدّق.

ـ كم أحببتك من كلّ قلبي ولكنـك لا قلب لك.
ـ ما أشدّ الظلام حولنا!
ـ قاسية كالحجر...
ـ عادل... صوتك متغيّر... وأنا لا أحبّ الظلام.
ـ لن تَرَيْ بعد الساعة إلّا الظلام...
انتهى كلّ شيء. وها أنت تنكّلين بي في موتك كما نكّلت بي في حياتك. لم تكوني امرأة، ولا آدميّة، ولم ينبض قلبك بالحبّ أبدًا. قوّة شرّيرة خُلقت من الشرّ لتمارس الشرّ.

صَوْتٌ مُـــزْعج

كان بمجلسه الصباحيّ بكازينو الشجرة. يحتسي القهوة ويدخّن سيجارة. ينظر إلى مياه النيل الساكنة أو ينظر إلى سماء يوليو الصافية والباهتة من حدّة إشعاع الشمس، ويفكّر بقلق، ويغمض عينيه إمعانًا في التفكير، ثمّ يفتحهما فيرى كرّاسته المفتوحة على صفحة بيضاء وقلمه الرصاص مطروحًا عليها بالعرض رهن الإشارة. ويجيل بصره في الحديقة فيرى اثنين هنا واثنين هناك، ولا أحد ثمّة غيرهم، والنادل نفسه قعد فوق السور المطلّ على النيل في شبه عطلة. هو وحده يجيء للعمل، ليستوحي نهار يوليو المشاكس المعاند موضوعًا جديدًا يملأ به صفحة «أمس واليوم» بمجلّته الأسبوعيّة. وهو موضوع يجب أن يتجدّد أسبوعًا بعد أسبوع، وإلى ما لا نهاية، وعلى توفيقه فيه تعتمد سعادة شقّته الأنيقة وزوجته وطفله البالغ عامين وسيّارته الأوبل فضلًا عن جرسنيرة بعمارة الشرق معدّة للطوارئ.

ـ يا سماء جودي بالأفكار...

وامتدّ بصره من خلال النظّارة إلى قصر قائم قبالته على الشاطئ الآخر. مغلق النوافذ والأبواب، متوهّج الجدران بالأشعّة المتدفّقة، ولا حركة واحدة تدبّ في ركن من أركانه، حتّى أشجاره استكنّت وجمدت كأنّها تماثيل.

ـ أن تعيش في قصر! غير مطارَد بمطالب الرزق، ولا همّ لك إلّا التأمّل!

وتنهّد وقال وهو ينظر إلى نفاية القهوة الراسبة في قعر الفنجان:

ـ عندي أفكار، عندي مشروعات، ولكنّني أبدّد العمر في تسجيل ملاحظات فارغة واقتراح حلول معروفة لمشكلات معروفة... أف...

وباغته صوت رقيق من فوق رأسه قائلًا:

ـ أستاذ أدهم، صباح الخير...

التفت إلى الوراء مداريًا انزعاجه بابتسامة ثمّ قام مستخلصًا نفسه من أفكاره:

ـ نادرة!... فرصة سعيدة حقًّا.

تصافحا ثمّ جلست تجاهه وهي تضع حقيبتها البيضاء فوق الصفحة البيضاء.

ـ رأيت ظهرك من الطريق فعرفتك.

ـ متى تعرفينني من وجهي كما تعرفينني من ظهري؟

فقالت مازحة:

ـ ولكنّ وجهك مطبوع في صدري!

ورنا طيلة الوقت إلى بنائها الدقيق التكوين، ووجهها المتألّق بالصبا، ورغم تلاحم الطفولة بالشباب في عمرها فإنّ الزخرف شمل بشرتها والعينين والجفنين والرموش والأظافر والحاجبين. وسألها دون اكتراث لمزاحها:

ـ كنت ذاهبة إلى ميعاد أم راجعة؟

ـ لا أحبّ مواعيد الصباح ولكنّي كنت أتسكّع بالسيّارة بلا هدف.

بلا هدف! اصطلاح وبائيّ. غير أنّك في الخامسة والثلاثين وهي في السابعة عشرة. وهي متحرّرة لدرجة تثير إعجاب أيّ شخص يملك جرسنيرة. وقارئة مولعة بفرانسوا ساجان. وكم أثارت دهشته ليلة تعرّف بها في مجلس من الزملاء بسان سوسي. محدّثة بارعة في الفنّ والحياة ولا تجد بأسًا عند الضرورة من التندّر بنكتة مكشوفة. وهي تدرس السيناريو مذ أهملت دراستها الجامعيّة ولعلّها تتطلّع إلى سماء النجوم. ولها محاولات فنّيّة فشلت رغم جمالها في نشرها بالمجلّة أو الإذاعة. وفي آخر لقاء معًا وبحضور بعض الزملاء أعلنت

إعجابها بالوجوديّة الإلحاديّة!

ـ ماذا أطلب لكِ؟

ثمّ مستدركًا بلهجة شبه جدّيّة:

ـ أم نؤجّل ذلك لحين ذهابنا إلى شقّتي الخصوصيّة؟

ـ اطلب قهوة، ولا تحلم...

قدّم لها سيجارة وأشعلها، وراحت تشرب القهوة غير مكترثة لإلحاح عينيه حتّى سألها مداعبًا:

ـ كيف حال القلق الوجوديّ؟!

ـ عال، ولكنّني لم أنم أكثر من ساعتين.

ـ فكر وفلسفة؟

ـ شجار مع ماما وبابا كما تعلم.

تذكّر بقلق الموضوع الذي جدّ في البحث عنه أمّا هي فاستطردت مقلّدة لهجة الوالدين:

ـ كمّلي تعليمك... تزوّجي... لا تسهري كالشبّان...

أسطوانة معادة. لكنّ البنت جميلة والجلسة موحية. ومَن يدري؟!! غير أنّه يجب الانتهاء من الموضوع اليوم ولو ألغيت مواعيد المساء. وتساءل:

ـ من أين لهما أن يفهما فيلسوفة صغيرة؟

حذّرته بتقطيبة من التمادي في العبث، وقالت:

ـ لا يريد أحد أن يعترف بأنّني أجاهد لتكوين نفسي، ولكنّني أعاشر أهل الكهف!

وتذكّر أكثر من حديث لوالدها في التلفزيون فقال:

ـ ولكنّ والدك رجل عصريّ.

ـ عصريّ!

ـ على الأقلّ بالقياس إلى والدي.

وهي تداري ضحكة:

ـ بالقياس إلى العصر الحجريّ؟

رمى بنظرة إلى بعيد كالحالم وقال بافتتان:

ـ العصر الحجريّ!... لو نرجع إليه ساعة واحدة لحملتك على كتفي دون زاجر ولمضيت بك إلى كهفي بعمارة الشرق!

ـ قلت لك لا تحلم، ودعني أحدّثك فيما جئت من أجله...

ـ آه... إذن لم نتقابل مصادفة؟

ـ أنت تعرف أنّني أعرف أنّك تكتب هنا كلّ صباح.

فقال بجدّيّة مازحة:

ـ إذن هيّا بنا إلى عمارة الشرق لنجد مكانًا مناسبًا لحديث هامّ!

أشعلت سيجارة من سيجارة وقالت:

ـ ألا ترى أنّني لا أهزل؟

ثمّ وهي تحدجه بنظرة ثاقبة من عينيها الصافيتين كالشهد:

ـ وعدتني مرّة بأن تعرّفني بالأستاذ عليّ الكبير.

فقال باهتمام:

ـ أكنتِ جادّة؟

ـ كلّ الجدّ.

ـ لا شكّ أنّك معجبة به كممثّل!

ـ طبعًا...

وتبادلا نظرة ثمّ قال:

ـ إنّه في الخامسة والأربعين!

ـ مفهوم، ألم تسمع عن سحر الزمن؟

ـ كلّا، ولكنّني سمعت كثيرًا عن مأساة الزمن.

ـ قد تُحمَل كواعظ في صفحة «أمس واليوم»، أمّا هنا...؟!

ـ وما دوري أنا في القصّة؟

ـ أنت صديقه الأوّل.

ـ له بنت في سنّك.

ـ أجل. أظنّها بكلّيّة الحقوق...

وتفكّر مليًّا ثمّ سأل:

ـ كاشفيني بأفكارك، هل تفكّرين مثلًا في تخريب بيته والزواج منه؟

ندّت عنها ضحكة وقالت:

ـ لا أفكّر بتاتًا في الخراب.

ـ مجرّد حبّ؟

فهزّت منكبيها دون أن تنبس.

ـ طريق إلى الشاشة؟

فقالت بازدراء:

ـ لست انتهازيّة.

ـ وإذن؟!

ـ عليك أن تفي بوعدك.

وثمل رأسه بفكرة طارئة فهتف:
ـ ألهمتني موضوعًا!
ـ ما هو؟
فكّر بأناة ثمّ قال:
ـ حرّيّة الحبّ بين الأمس واليوم.
ـ زدني.
فقال مدفوعًا بعنف لم يحاول هدهدته:
ـ إليكِ مثالًا من نقاط الموضوع، قديمًا عندما كانت تزلّ فتاة كان يوصف سلوكها بالسقوط، اليوم يوصف بأنّه قلق العصر، أو قلق فلسفيّ.
فقالت بحدّة:
ـ أنت متحجّر رغم ادّعاءاتك المتقدّمة.
ـ ماذا تتوقّعين من خلف لِسَلَف من العصر الحجريّ؟
ـ ألا تستطيع أن تنظر إليّ كإنسان مثلك تمامًا؟
ـ إذا كنت نرجسيًّا.
ـ ها أنت تهزل كما أنّ أبي يزعق.
ـ وأنت؟
ـ ما زلت أطالبك بالوفاء بوعدك.
ـ دعيني أعطك فكرة عنه أوّلًا، هو فنّان كبير، ممثّل الشاشة الأوّل في تقدير الكثيرين، وله سياسة معروفة لا يحيد عنها، فإذا تعرّف إلى فتاة مثلك أخذها من فوره إلى مسكنه الخاصّ بالهرم ثمّ يبدأ من حيث ينتهي غيره.
ـ أشكرك على جميل وصايتك.
ـ أما زلت عند طلبك؟
ـ بلى. . .
فقال متحدّيًا:
ـ حسن، ولكنّي أطالب بالثمن مقدّمًا!
فتساءلت بحركة من رأسها اضطربت لها خصلة سوداء من شعرها معقوصة في دائرة فوق حاجبها.
ـ أن تشفيني بزيارة في عمارة الشرق.
ابتسمت دون تعليق، ودون تصديق.
ـ موافقة؟
ـ أنا واثقة من أنّك أنظف تفكيرًا من ذلك.
ـ لكنّي مصاب بشيء من القلق العصريّ!

ـ لا. . . . لا تخلط بين الهزل والجدّ.
ثمّ بأسف:
ـ بدّدتُ وقتكَ الثمين.
وأشعلت سيجارة ثالثة. وتبادلا نظرة طويلة. وابتسما معًا. وعاود التفكير قليلًا في موضوعه. وصفا الجوّ تمامًا من سوء الظنّ. ورجع الإحساس المضطهَد بالحرارة والرطوبة. وداعبته قائلة:
ـ أنت رجعيّ بقشرة عصريّة.
ـ كلّا، أنت لا تصدّقين نفسك، ولكنّك ممتعة وتلذّ مداعبتك، سيتمّ التعارف في مكتبي بالمجلّة فتعالي يوم الأربعاء ـ مصادفة ـ الساعة التاسعة مساء.
ـ شكرًا.
ـ أنا مدين لك بمقالة الأسبوع القادم.
ـ سأرى كيف تعالجه.
ـ ولكنّي عند الكتابة أتقمّص شخصيّة جديدة!
فضحكت قائلة:
ـ وتراعي حتمًا ما يجب أن يقال ولو بالكذب على ضميرك.
ـ ربّما، الحقّ أنّ خير ما فيّ لم يعبّر عن ذاته بعد.
ولّما رأته ينظر في الكرّاسة أقلعت عن مناقشته، وأخذت حقيبتها إلى كرسيّ خالٍ. ومدّ بصره مرّة أخرى إلى القصر النائم الغارق في فخامته المغلقة. أعجب بشرفته المتّصلة بالحديقة، وأعجب أكثر بشرفة الدور الأعلى القائمة على عمودين كمسلّتين. ما أحلى الجلوس في الشرفة في ضوء القمر! والتفكير الحرّ غير المقيّد بمواعيد ولا بتقاليد. أو يخت يطوف بك البحار لتعرف أناسًا وبلدانًا بلا حدود وتحت شرط أن تبقى زوجتك في القاهرة. واللعب بالورد في جزر هاواي. ونبذ موضوعات الأمس واليوم وسائر مشكلات الفقر والجهل والمرض. والتطلّع للمجهول وطيّ التاريخ البشريّ في لحظة واحدة. وأنت لا تخلو من شكّ في موهبتك ولكنّ الانفجارات تغطّي على الشكّ. انفجارات غريبة مثيرة للدهشة متخطّية لأيّ مسئوليّة، لا تُفهم ولا تُسأل ويتعذّر الحكم عليها ويتطوّع المفسّرون لتفسيرها من الحانات والغرز.
ـ ما رأيك يا نادرة في اللامعقول؟

فقالت بحماس:

ـ معقول جدًّا!

ـ إنّه يلاعبني كحلم.

ـ وأنا أفكّر في كتابة مسرحيّة لا معقولة لمسرح العرائس.

وتنهّدت في حسرة وقالت:

ـ لولا أبي لكتبت قصّة جنونيّة عن تجاربي...

وغلبه المزاح فقال:

ـ ويا حبّذا لو تضمّيني إلى التجارب!

ـ لا تهزل وتخيّل النجاح الجدير بها...

وانطوت فترة تخيُّل ممتعة. وغابا في صمت طويل.

وبغتة انفجر صوت حادّ انخلع له قلباهما في لحظة واحدة. صوت آدميّ صاح «هُو». ورأيا رجلًا يشدّ مركبًا مطويّ الشراع، كأنّه واقف لا يتحرّك، أو يتحرّك في بطء شديد ثقيل كالوقوف، يكاد يلتصق بالسور من الخارج، متأخّرًا عن مجلسهما مترين، ويجذب المركب بحبل طويل ملفوف حول منكبيه، وهو يلقي بنفسه إلى الأمام، شادًّا على عضلاته بكلّ قوّة وإصرار، والمركب يزحف أبطأ من سلحفاة فوق ماء راكد وفي هواء ميت، وقد نهض في مقدّمتها عجوز مجلبب معمّم تابَعَ صراع الآخر ببصر كليل وإشفاق. ذهب الرعب وحلّ محلّه في صدريهما حنق وغيظ ولكنّهما لم ينبسا بكلمة. وظلّ الرجل يهب عمله الشاقّ جميع حيويّته في عناء مضنٍ حتّى حاذى مجلسهما. شابّ في العشرين، غامق اللون، غليظ القسمات، عاري الرأس حليقه، حافي القدمين، يرتدي جلبابًا لا لون له، يكشف عن أعلى الصدر، وينحسر عن ساقين بارزتي العروق من الحَزْق. وقد جحظت عيناه، وتصلّب شدقاه، وأحنى رأسه ليجنّب وجهه شمسًا حامية. وكلّما أعياه الجهد توقّف لحظة ليأخذ نفسًا عميقًا فيصيح به العجوز:

ـ شدّ حبلك.

فيصيح بدوره:

ـ هُو.

ويواصل نضاله القاسي الفظّ. وفي الدقائق التي حاذاهما فيها لفحتهما رائحته الآدميّة الملبّدة بالعرق والتراب فتقلّص وجهاهما، وأخفت نادرة أنفها الدقيق في منديل معبق بشذا جميل، ولكنّهما تجاهلا تقزّزهما وانزعاجهما وهما يراقبان النضال الأليم. وراقباه خطوة خطوة حتّى أرهقتهما المشاركة فحوّلا عنه عينيهما. وتبادلا نظرة، ثمّ ابتسما في رثاء، وأشعلا سيجارتين.

شَهْرزَاد

ـ ١ ـ

ـ ألو.

ـ الأستاذ محمود شكري؟

ـ نعم يا فندم، مَن حضرتك؟

ـ لا تؤاخذني على إزعاجك دون سابق معرفة.

ـ العفو. ممكن أتشرّف؟

ـ الاسم غير مهمّ ولكنّي واحدة من الآلاف اللاتي يعرضن عليك مشاكلهنّ...

ـ تحت أمرك يا آنسة.

ـ سيّدة من فضلك.

ـ تحت أمرك يا سيّدتي...

ـ ولكنّ حكايتي طويلة.

ـ لعلّ من الأفضل أن تكتبي لي؟

ـ ولكنّي لا أحسن الكتابة.

ـ هل تتفضّلين بزيارتي في المجلّة؟

ـ لا أجد الشجاعة الكافية، على الأقلّ الآن!

وقف انتباهه عند «الآن» لحظات. ابتسم وهو يستطعم صوتها الرخيم، ثم تساءل:

ـ وإذن؟

ـ أطمع في أن تأذن لي بدقائق كلّ يوم أو كلّما سمح وقتك الثمين...

ـ طريقة طريفة، تذكّرني بطريقة شهرزاد!

ـ شهرزاد! اسم جذّاب، اسمح لي باستعارته اسمًا لي مؤقّتًا.

فضحك وقال:

ـ ها هو شهريار يصغي إليك.

ضحكت أيضًا فوجد ضحكتها ممتعة كصوتها، أمّا هي فتابعت:

- لا تتوقّع أن أعرض عليك مشكلة معيّنة محدّدة، إنّها حكاية طويلة كما قلت لك، وهي تعيسة أيضًا...

- أرجو أن تجديني عند حسن ظنّك.

- وأرجو أن توقفني بأيّ طريقة إذا جاوزت الوقت الذي تهبه لي...

- تحت أمرك.

- ولكنّي أخذت اليوم من وقتك قدرًا لا يستهان به فلنؤجّل الحديث إلى غد، حسبي الآن أن أعترف لك بأنّ قلمك الإنسانيّ هو الذي جذبني إليك.

- شكرًا.

- ليس قلمك فقط ولكن صورتك أيضًا!

تساءل باهتمام زائد:

- صورتي؟

- أجل، قرأت في عينيك الواسعتين نظرة ذكيّة رحيمة وإنسانيّة جديرة بأن تدعو الملهوفين على العزاء...

- أكرّر الشكر... (ثمّ وهو يضحك)... كلامك لطيف كأنّه غَزَل.

- إنّه إعراب عن أمل إن يكن في الدنيا - بعد - أمل.

أعاد السمّاعة. ابتسم. قطّب مفكّرًا، عاد يبتسم.

* * *

- ٢ -

- ألو...

- شهرزاد!

- أهلًا، أنا في انتظارك.

- سأدخل في الموضوع رأسًا كيلا أضيّع وقتك.

- ها أنا مصغٍ إليك...

- نشأت يتيمة الأمّ، وقد تزوّج والدنا - أعني أنا وشقيقة تصغرني بعامين - فأمضينا طفولتنا وصبانا محرومتين من الحنان والعطف، ولم ننل من التعليم إلّا القليل، ولّما مات والدنا انتقلنا إلى بيت خالنا وكان لكلّ منّا معاش حوالى الخمسة الجنيهات.

- لعلّه تاريخ قديم؟

- بعض الشيء ولكنّه ضروريّ لا غنى عنه، لم نكن سعداء في بيت خالنا، كان يعدّنا عبئًا حقيقيًّا، شعرنا بغربة وألم، نزلنا عن آخر مليّم من معاشنا، وقمنا بخدمة البيت دون اعتراض، المسألة كانت سوء حظّ لا أكثر ولا أقلّ...

- مفهوم ويا للأسف...

- ثمّ كان أن تقدّم لطلب يدي ضابط، وكنّا ورثنا عن أبينا بيتًا قديمًا فباعه خالي، وجهّزني بنصيبي جهازًا عاديًّا، وقد فهم زوجي من أوّل الأمر حقيقة وضعنا فلم يتراجع، والواقع أنّنا عشنا قصّة حبّ كما تقولون واستمرّت حتّى فيما بعد الزواج...

- ترى هل ينمّ حديثك عنها - قصّة الحبّ - على شيء من التحفّظ؟

- ما علينا، المصيبة أنّه كان مسرفًا، ينفق ما في الجيب بسفه ودون تقدير للعواقب، ولم أعرف كيف أعالجه، حاولت وحاولت ولكن بلا نتيجة...

- عن هذه النقطة... أعني... ألا تتحمّلين شيئًا من المسئوليّة؟

- كلّا، صدّقني كنت راغبة في الحياة الزوجيّة حريصة عليها بكلّ قوّة حبّي وما قاسيت قبل ذلك من بؤس وذلّ ويأس...

- معقول!

- كأنّك لا تصدّقني، ما زلت أذكر آراءك عن مسئوليّة الزوجة عن انحراف زوجها، ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ توسّلت إليه بالملاطفة والتحذير والاحتجاج، طالبته بإعطائي المصروف الضروريّ للبيت في أوّل الشهر، وكان جوابه المعتاد أن يجيئني بزمرة من أصدقائه، وهات يا أكْل وهات يا شُرْب حتّى مطلع الفجر، نمسي في وليمة ونصبح على الحديدة!

- وكيف كانت تمضي الأمور بقيّة الأيّام؟

- يطالبني بأن ألجأ إلى خالي وكان ذلك مستحيلًا، أو أن أقترض من أختي وكان ذلك مستحيلًا أيضًا إذ كانت موشكة على الزواج، ومن ناحية أخرى كان هو

يقترض من أهله، فانقلبت حياتنا مسخًا مزريًا يستحقّ الرثاء!

ـ هٰذا حقّ...

ـ فشل الزواج وانتهى إلى مصيره المحتوم وهو الطلاق، فانتقلت إلى بيت أختي وقد خسرت معاشي لأعاني حياة مريرة ذليلة...

ـ لعلّ هٰذه هي المشكلة؟

ـ صبرك، نحن ما زلنا في الماضي، ولن أطيل عليك فقد دعاني زوجي ـ مطلّقي ـ بعد مرور عام على طلاقنا لمقابلته، كاشفني برغبته في استئناف حياتنا الزوجيّة مؤكّدًا لي أنّ الحياة أدّبته وهذّبته، ومضى بي إلى بنسيون يقيم به في شارع قصر النيل لنرسم خطّة المستقبل، وبمجرّد أن ردّ باب حجرته ضمّني إلى صدره مردّدًا أنّه لم يذق للحياة طعمًا بعد فراقي...

ـ واستسلمت؟

ـ لم أشعر بأنّني أعامل رجلًا غريبًا، وجعلنا نناقش أكثر الوقت إجراءات زواجنا من جديد، وافترقنا وهو يعدني بزيارة خالي في اليوم التالي مباشرة.

ـ صوتك يهبط ويتغيّر؟

ـ أجل، ثبت لي بعد ذٰلك أنّه دعاني إلى مقابلته وهو كاتب كتابه الثاني، وتمّت دخلته بعد لقائنا بأسبوع، وأنّ المسألة كانت مجرّد نزوة أراد أن يتحرّر منها قبل أن يبدأ حياته الجديدة....

ـ يا له من وغد...

ـ أجل، ولٰكنّي لن أثقل عليك أكثر من ذٰلك، فإلى اللقاء...

* * *

ـ ٣ ـ

ـ ألو...

ـ شهرزاد.

ـ أهلًا.

ـ ترى هل أضايقك؟

ـ بالعكس، استمرّي من فضلك.

ـ أقمت عند أختي زمنًا ولٰكنّني شعرت مع الأيّام بأنّها إقامة غير مرغوب فيها!

ـ لِمَ؟

ـ ذاك كان شعوري وهو لم يخطئ...

ـ كيف وهي أختك التي قاسمتك في الماضي العذاب؟

ـ قدَر فكان!

ـ زوجها؟!

ـ تقريبًا!

ـ ضاق بوجودك في مسكنه؟

ـ تقريبًا، المهمّ أنّني اضطُررت إلى مغادرة البيت إبقاءً على رابطة الأخوّة...

ـ ولٰكنّك لم تذكري السبب صراحة، دعيني أخمّن لعلّها الغيرة؟!

ـ وهْم الغيرة وهو الأصحّ!

ـ ذهبت إلى خالك؟

ـ كان قد توفّي، فاستأجرت شقّة صغيرة...

ـ ولٰكن من أين لك بالنقود؟

ـ بعت ما يمكن بيعه من جهازي، ورحت أبحث عن عمل، أيّ عمل، كانت فترة بحث عقيم وجوع، صدّقني لقد عرفت وحشيّة الجوع، كان اليوم يمضي بلا طعام أو بلا طعام يُذكر، ووجدتني سألبّي مرّة ما إحدى الدعوات ـ إيّاها ـ التي توجّه إليّ في الطريق ولٰكنّي كنت أؤجّل الاستسلام آملة أن تدركني رحمة الله قبل أن أهوي، وكنت أطلّ من النافذة في سكون الليل فأنظر إلى السماء وأهتف من أعماقي «يا إلٰهي الرحيم، إنّي جائعة... إنّي أموت جوعًا» وكنت أزور أختي كلّما خارت قواي لأتناول وجبة متكاملة، ولٰكنّ أحدًا لم يسألني عن حالي خشية أن يحمّله الجواب مسئوليّة يريد أن يتجاهلها!

ـ فظاعة لا تصدّق...

ـ ويومًا قرأت إعلانًا يطلب مدبّرة منزل لرجل عجوز نظير أجر غير الإقامة والغذاء والكساء...

ـ نجدة من السماء.

ـ سارعت إليه بلا تردّد، وأجّرت شقّتي...

ـ نهاية رحيمة وبخاصّة إذا كان العجوز في حاجة للرعاية وحدها، أعني دون غيرها!

ـ كان طاعنًا في السنّ، فخدمته بإخلاص، وأنا

ماهرة بكلّ معنى الكلمة في شئون البيت، كنت الطاهية والخادمة والممرّضة وحتّى الجريدة كنت أقرأها له...

ـ جميل... جميل...

ـ شبعت بعد جوع، واطمأننت بعد خوف، ودعوت الله أن يمدّ في عمره إلى الأبد...

ـ ترى ماذا جدّ بعد ذلك؟

ـ كنت أقرأ له الجريدة عندما وقع بصري على إعلان يطلب مدبّرة منزل لرجل عجوز، ويحيل قارئه إلى عنوان منزلنا!!

ـ كلّا!؟

ندّت عنه بدهشة واستنكار:

ـ بلى، وقد ذُهلت، تَلَوْتُ عليه الإعلان فحوّل عنّي عينيه ولكنّه لم ينكره، سألته لِمَ يريد الاستغناء عنّي، ماذا ضايقه منّي، ولكنّه لم يفتح فمه...

ـ شيء غريب حقًّا، ولكن لا بدّ من سبب؟

ـ لا سبب من ناحيتي إطلاقًا!

ـ ألم يكن بينك وبينه سوى التدبير المنزليّ؟!

ـ تقريبًا!

ـ ما معنى تقريبًا؟!... صارحيني من فضلك؟

ـ كان يطلب منّي أحيانًا أن أقف أمامه عارية!

ـ ورفضت؟

ـ كلّا... أذعنت لإرادته...

ـ إذن لماذا يطلب أخرى؟

ـ من أين لي أن أعلم؟ قال إنّه رغب في التجديد، وأيًّا ما كان أمره فقد توسّلت إليه أن يعدل عن رأيه، قلت له إنّني وحيدة وفقيرة وليس لي في الدنيا سواه، ولكنّه أصرّ على الرفض والصمت، بدا لي كريهًا كالموت، فلم أجد بدًّا من الذهاب...

* * *

ـ ٤ ـ

ـ ألو.

ـ شهرزاد تحيّيك يا أستاذ!

ـ أهلًا أهلًا، حكايتك أصبحت شغلي الشاغل يا شهرزاد.

ـ شكرًا يا أستاذ، الحقّ أنّ قلبي لم يخدعني عندما دلّني عليك، والآن فلنواصل حكايتنا، عدت إلى مسكني وقلت لمستأجره ـ موظّف بسيط في الأربعين ـ إنّني في حاجة إليه، رفض فكرة إخلاء الشقّة، ولّما وقف على حقيقة حالي قال لي ببساطة «أقيمي معي!» فلم أتردّد في القبول، الواقع أنّ إرادتي تحطّمت وهان أيّ شيء...

ـ أفهمت من دعوته..؟

ـ نزل لي عن إحدى الحجرتين اللتين تتكوّن منهما الشقّة، وكان كلّ شيء مفهومًا بعد ذلك!

ـ المرّة الأولى؟

ـ نعم، والحقّ أنّه كان رجلًا لطيفًا ودودًا وإنسانًا...

ـ عظيم...

ـ صبرك، فهي السجايا التي بسببها فقدته!

ـ حكايتك حكاية!

ـ قال لي ذات يوم: «أنت متعلّقة بي وأنا كذلك، وعليه فيجب أن نفترق!».

ـ نفترق!؟

ـ أجل «نفترق»... توقّعت أن يقول «نتزوّج» ولكنّه قال: نفترق!

ـ فوق ما يتصوّر العقل!

ـ استوضحته عمّا يعنيه فقال بلهجة قاطعة: «عندي من الأسباب ما يمنعني من الزواج وعليه فيجب أن نفترق»، فقلت له بضراعة: «لَمْ أطالبك بالزواج ولن أطالبك به فلنبقَ كما نحن»، فقال: «كلّا، إنّها حياة شاذّة، وستجدين نفسك يومًا وحيدة طاعنة في السنّ بلا مورد ولا حقوق فلا مفرّ من الافتراق»...

ـ رجل غريب، ظاهره طيّب، ولكنّه أنانيّ أو ماكر...

ـ المهمّ أنّه ذهب فوجدت نفسي مرّة أخرى وحيدة مهدّدة بالجوع...

ـ يا للأسف...

ـ ومررت بتجارب مُرّة، أنت فاهم طبعًا، ولكنّني

سمعت عن قانون جديد للمعاشات يسمح بإعادة المعاش للمطلّقة أوّل مرّة، وتبيّن أنّه ينطبق عليّ...

ـ حمدًا لله!

ـ هو دون الكفاية بلا شكّ ولكنّني اعتدت التقشّف، وقد تعلّمت التفصيل، فأصبح لي مورد رزق بسيط، ولكنّه ـ بالإضافة إلى المعاش ـ حماني من الموت جوعًا أو التدهور في الطرقات...

ـ وصلنا أخيرًا إلى برّ السلامة...

ـ الحمد لله، غير أنّي وصلت أيضًا إلى المشكلة الحقيقيّة!

ـ المشكلة الحقيقيّة؟!

ـ إنّها تتلخّص في كلمة واحدة: الوحدة...

ـ الوحدة؟

ـ لا زوج ولا ابن ولا صديق ولا حبيب لي، نهاري وليلي حبيسة شقّة صغيرة محرومة من كافّة أنواع التسلية، وقد يمرّ شهر طويل لا أتبادل فيه كلمة مع مخلوق، دائمًا كئيبة متململة مقطّبة، أخاف أحيانًا أن أجنّ وأخاف أحيانًا أن أنتحر...

ـ لا لا، لقد تحمّلت ما هو أمرّ من ذٰلك بشجاعة، وسوف يرزقك الله يومًا بابن الحلال...

ـ لا تكلّمني عن ابن الحلال، لقد طلب يدي رجل، أرمل وأبو طفلين، ولٰكنّي رفضته بلا تردّد. لم تعد لي ثقة في أحد. والطلاق الثاني يعني قطع المعاش وهو رأسمالي الحقيقيّ...

ـ ولكنّ رجلًا هو أب لطفلين لا شكّ يحرص على الزوجة بقدر حاجته إليها...

ـ إنّي أمقت فكرة الزواج، إنّها تقترن في ذهني بالغدر والجوع...

ـ عاودي التفكير...

ـ مستحيل، أيّ شيء إلّا الزواج، لا شجاعة عندي لدخول التجربة من جديد...

ـ وكيف إذن تتخلّصين من الوحدة!

ـ هٰذه هي المشكلة!

ـ ولٰكنّك ترفضين حلًّا موفّقًا؟

ـ أيّ شيء إلّا الزواج!

وتفكّر قليلًا ثمّ سألها:

ـ ما رأيك في أن نتقابل؟

ـ يحصل لي عظيم الشرف!

ابتسم. سرح به الخيال وهو يبتسم. إنّها بكلّ بساطة تدعوه إلى مصادقتها وتطمئنه في ذات الوقت بأنّها لن تطالبه يومًا بالزواج. إنّه ليس غبيًّا، وهو في حاجة إلى مغامرة جديدة أيضًا. لِمَ لا؟ المهمّ أن تكون جميلة كصوتها. ولٰكن ما حقيقة قصّتها؟ قد تكون حقيقيّة، لا شيء بمستحيل. وقد تكون مختلَقة من أساسها أو في بعض مضاعفاتها. السينما فجّرت القوى الخلّاقة في النساء. قد وقد وقد، المهمّ أن تكون جميلة كصوتها وعند ذاك سأقدّم لها تجربة جديدة تضيفها إلى تجاربها السابقة، لن تخلو من حلاوة وستنتهي بالمرارة التي لا بدّ منها لكلّ شيء في هٰذه الدنيا. وجعل يبتسم وهو ينقر على سومان مكتبه بإصبعه.

* * *

وجاءت شهرزاد.

تفحّصها بنظر ثاقب وهو يستقبلها ثمّ وهو يدعوها للجلوس. في الثلاثين من عمرها. لا بأس بها بصفة عامّة، يلفّها جوّ ينضح بالمرارة بطريقة ما. حتّى نظرتها الباسمة لا تخلو من حزن ونضج أليم ولٰكنّها في جملتها لا بأس بها، بل هي مقبولة لدرجة محترمة. ليس ببعيد أن تكون قصّتها حقيقيّة، ولعلّها لم تكذب إلّا في صياغة رأيها عن الزواج، فهي لا يمكن أن تمقته ولٰكنّها مضطرّة لإعلان ذٰلك التماسًا للصداقة التي تودّها بحنين صادق غالبًا.

لٰكن ما له هو وذٰلك كلّه؟ هي ليست بالمرأة التي تليق به. لا شكلًا ولا موضوعًا، لا فكرة لها ـ المسكينة ـ عن الفرص المتألّقة المتاحة له. وإذن فعليه أن يداري خيبة أمله وأن يعاملها بجدّيّة.

ـ أهلًا أهلًا، الحقّ أنّ قصّتك أثّرت في أعماقي...

تنهّدت قائلة:

ـ إنّي ممتنّة يا أستاذ.

ـ ولٰكن عليك أن تواجهي حياتك بشجاعتك المعهودة...

ـ ولٰكنّي...

فقاطعها قائلًا وقد ألحّت عليه رغبة مفاجئة في إنهاء

المقابلة بأسرع ما يمكن:

ـ أصغي إليّ، إنّك سيّدة عظيمة، من فَضْل الشقاء علينا أحيانًا أن يجعل منّا عظماء، إنّك سيّدة عظيمة، وكنت عظيمة حتّى في عثراتك العابرة، وأنت عظيمة في وحدتك، وستتحقّق عظمتك أكثر عندما تقضين على وحدتك بضربة شجاعة فائقة، سيّدتي لا قيمة لحياتنا، لا معنى لها، لا جدوى من استمرارها إلّا بالإيمان بالناس مهما يصيبنا من الناس، والإيمان بالله سبحانه وتعالى إيمانًا لا يتزعزع مهما وكيفما جرت مقاديره!

ونظر في عينيها فتلقّى نظرة مغرورقة بالخيبة والإخفاق، إنّها ذكيّة أيضًا. أذكى ممّا قدّر. وها هي تبتسم ابتسامة خفيفة ولكنّها أخجلته لدرجة ما. وتمتمت:

ـ إنّي مؤمنة بالله يا أستاذ...

فلوّح بيده في حماس وقال:

ـ كلّ ما عداه باطل، سبحانه وتعالى....

نجيب محفوظ
المؤلّفات الكاملة
(ستّة مجلّدات)

صدر

المجلّد الأوّل: همس الجنون ـ عبث الأقدار ـ رادوبيس ـ كفاح طيبة ـ القاهرة الجديدة ـ خان الخليلي ـ زقاق المدقّ.

المجلّد الثاني: السّراب ـ بداية ونهاية ـ بين القصرين ـ قصر الشوق ـ السُّكّريّة.

المجلّد الثالث: اللصّ والكلاب ـ السّمّان والخريف ـ دنيا الله ـ الطّريق ـ بيت سيّئ السمعة ـ الشّحّاذ ـ ثرثرة فوق النيل ـ ميرامار ـ خمّارة القطّ الأسود.

يصدر تباعًا

المجلّد الرابع: تحت المظلّة ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية ـ شهر العسل ـ المرايا ـ الحُبّ تحت المطر ـ الجريمة ـ الكرنك ـ حكايات حارتنا.

المجلّد الخامس: قلب اللّيل ـ حضرة المحترَم ـ ملحمة الحرافيش ـ الحُبّ فوق هضبة الهرم ـ الشّيطان يعظ ـ عصر الحُبّ ـ أفراح القبّة.

المجلّد السادس: ليالي ألف ليلة ـ رأيت فيما يرى النائم ـ الباقي من الزّمن ساعة ـ أمام العرش ـ رحلة ابن فطّومة ـ التّنظيم السّرّيّ ـ العائش في الحقيقة ـ يوم قتل الزّعيم ـ حديث الصّباح والمساء.